تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف
أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي
« ت ٧١٠ هـ »

حققه وخرج أحاديثه
يوسف علي بديوي

راجعه وقدم له
محيي الدين ديب مستو

الجزء الأول

دار الكلم الطيب
بيروت

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

الطّبعَة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢

بيروت. ص.ب: ١١٣/٦٢١٨

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمد الشاكرين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من اتبع هدي كتاب الله المبين، وعمل بسنة رسول الله ﷺ الأمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، وهو الدستور الخالد للأمة الإسلامية، منه تستمد عقيدتها وتنبع تشريعاتها، وبنور مبادئه وآدابه تهتدي إلى الحق، وتستقيم على الصراط، وتعتصم من كل ضلال أو زيغ.

وقد أنزله الله قرآناً عربياً، بلغة العرب ووفق أساليب بلاغتهم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وكان الصحابة يفهمونه ويعلمون معاني مفرداته وتراكيبه، ولكنهم يتفاوتون في معرفة تأويله وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، وكان أكثرهم كلاماً في التفسير عبد الله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

كما اشتهر من التابعين مفسرون، ثم جاء دور المؤلفين في التفسير على اختلاف مدارسهم، وأساليبهم، وتنوع مناهجهم واتجاههم في شرحهم لكتاب الله تعالى بما يتناسب مع كل عصر.

ومن المفسرين الذين حفظت لنا الأجيال تصنيفه أبو البركات عبد الله بن محمود النسفي المتوفىٰ سنة (٧١٠هـ). وتفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» حظي باهتمام العلماء قديماً وحاضراً قراءة وتدريساً في حلقات العلم، وهو من مقررات المعاهد والكليات الشرعية، وقد قرأت منه جزءاً كبيراً على شيخنا العلامة عبد الرحمن الزعبي (الطيبي) - رحمه الله تعالى - في

معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء بدمشق ما بين سنة ١٩٥٦ و١٩٥٨م.

وقد حاولتُ التعرُّف على المميزات الجوهرية لهذا التفسير فوجدتُها لا تتعدّى خمسة أمور:

١ - جمعه بين محاسن تفسيري الكشاف والبيضاوي، وابتعاده عما في «الكشاف» من الاعتزال، وعما في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة بشكل عامّ.

٢ - التوسط بين القصر والطول، والبعد عن الاختصار المُخلّ، والشرح المُملّ.

٣ - اعتناؤه بالقراءات ووجوه الإعراب من غير استطراد.

٤ - اهتمامه بالأحكام الفقهية من خلال المذاهب الاجتهادية، وهو حنفي ينتصرُ لمذهبه، ويردُّ على من خالفه من غير غلوّ ولا تعصب مذموم.

٥ - لم يحفل بكثير من الإسرائيليات، وردَّ كثيراً منها، ولكنه لم ينج من إيراد بعضها.

وقد وفقنا الله تعالى لإخراج هذا التفسير في طبعة جديدة محققة، تبرز هذه الجوانب العلمية المتقدمة، وقد تمت مقابلة المطبوع منه على نسخة خطية موثقة، وانصبَّ جهد الأستاذ يوسف علي بديوي على تصحيح نصوصه وتخريج أحاديثه، كما تفضل الأستاذ أحمد محمد السيد بقراءة التجربة الثالثة من تجارب تصحيحه، وكان من نصيبي مراجعة التجربة الثانية من تجارب تنضيده على أحدث وأجمل برامج الحاسوب (الكمبيوتر).

فأسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل في خدمة كتابه العزيز، وأن يكتب له القبول التام عند الأساتذة الأجلاَّء والطلاب الأعزاء، وأن يجعل أجر ذلك في صحائف أعمالنا، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

محيي الدين ديب مستو

(أبو أديب)

دمشق في ٣ رجب ١٤١٦هـ

٢٥/١١/١٩٩٥م

□ □ □

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل الكتاب للعالمين نذيراً؛ فيذكِّر المؤمنَ ليكون صبّاراً شكوراً، ويُنْذِر الكافرَ ناراً وسعيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أرسله ربُّه شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً رسول الله لا نبيَّ بعده.

أمَّا بعد: فإنَّ اللهَ تعالى أنزل كتابه الكريم يهدي به إلى الصِّراط المستقيم مَن اتَّبع رضوانه سُبُل السلام، ويُخْرِج الناسَ من ظلمات الجهل والعماية إلى نور العلم والإيمان والحجّة الساطعة.

ووقف الصَّحابةُ أمام القرآن يفهمون نصوصَه، ويسألون رسولَهم ﷺ عمَّا خفي من معانيه، وعمَّا دقَّتْ مراميه، فيكشف لهم الرسولُ ذلك، ويُجلِّي لهم ببيانه وبلاغته النبوية. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وخَلَف خلفٌ أوّلوا القرآن على غير تأويله، وسلكوا في شرح نصوصه طرقاً ملتوية، فيها التعسُّف والتكلُّف، فكان في ذلك فتنة كبرى وفساد عريض. وتصدَّى لهؤلاء جهرةُ العلماء البارعين، فوضَّحوا المعاني، وكشفوها، وأفهموا الناسَ المرادَ بأدقّ لفظ، وأعذب بيان.

ونشأت مدارس في التفسير كثيرة، كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي الجائز والمذموم، إضافةً إلى تفسير الفلاسفة، والفقهاء، والتفسير العلمي، والمذهبي، والأدبي الاجتماعي. . .

ولكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها.

ويأتي الإمام النسفي عَلَماً بارزاً في دنيا المفسِّرين، فيدوِّن مُصنَّفه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ليكون موجز العبارة، سهل المأخذ، وسطاً، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، مُحلًّى بأقوال أهل السُّنَّة والجماعة، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة... إلى ما هنالك من محاسن كثيرة.

وممَّا يُلْحَظُ على هذا التفسير أنَّه مُقِلٌّ جداً في ذكره للإسرائيليات، وهذه محمدةٌ له، فإن ذَكَر شيئاً من ذلك تعقَّبه في الغالب، وأحياناً يترك ذلك لفطنة القارىء.

وهو تفسيرٌ متداول بين أهل العلم، وقد رغبت دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، أن تُقدِّما لقرائهما الأعزاء، طبعةً محققة، ونشرة علمية، فأحضرتا له نسخة مخطوطة، فخرج في أصدق مخبر، وحلَّتاه بأرقى أنواع التنضيد الضوئي، والورق الفاخر، والحلة القشيبة، فبدا بأبهى منظر، فهو يجمع بين الحسنيين.

ومن الله تعالى نسأل حُسْنَ الثواب، وكمال الرضا، وتمام المغفرة، وأن يكتب ثوابَ ذلك في صحائفنا، وصحائف والدينا، إنه على ما يشاء قدير.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

يوسف بديوي

دمشق في ١ / ٧ / ١٤١٦هـ
١ / ١٢ / ١٩٩٦م

□ □ □

ترجمة المؤلف

● **اسمه ونشأته:**

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي، أبو البركات. لُقِّب: حافظ الدين، ونُسِب إلى مدينة نَسَف[١]، فغلبت نسبتُه إليها.

وُلِد في مدينة إِيْذَج[٢]، إلا أننا لا نعرف سنة ولادته بالتحديد.

كان مشهوراً بالزهد، والصلاح، والتقوى. وقد تفرَّغ للعلم، والدراسة، والبحث، وعرف اللغة العربية والفارسية، ورحل إلى بغداد في نهاية حياته، وذاع صيتُه في الآفاق.

قال اللكنوي: «كان إماماً كاملاً، عديم النظر في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه»[٣].

ونعَته ابنُ حجر العسقلاني بـ «علامة الدنيا»[٤].

وعلى هذا نرى أنَّ النسفي ذو مكانةٍ مرموقةٍ بين فقهاء عصره ومتكلِّميه، وقد عدَّه ابن كمال باشا من طبقات المقلِّدين القادرين على التمييز بين القويِّ والضَّعيف؛ الذين شأنهم ألَّا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة، وهي أدنى طبقات المتفقهين[٥]. وقال: «وبه اختتم الاجتهاد، ولم يوجد بعده مجتهد في المذاهب»[٦].

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٢٨٥) والروض المعطار (٥٧٩).
(٢) معجم البلدان (٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٣) الفوائد البهية (١٠١).
(٤) الدرر الكامنة (٢/ ٢٤٧).
(٥) النسفي ومنهجه في التفسير، لأميمة بدر الدين، رسالة ماجستير عام ١٩٩٠م، غير منشورة.
(٦) الفوائد البهية (١٠١ ـ ١٠٢).

وقد نشأ النسفي في بيئةٍ علمية دينيّة، كان لها أهميّة كبيرة في حياته، وفي نشأته العلمية، فمال إلى اعتزال الحياة السياسية، والتفرُّغ للعلم.

● **شيوخه:**

لم تذكر المصادر أكثر من ثلاثة شيوخ للإمام النسفي؛ مما يحملنا على الظن أنَّ ثمَّة شيوخاً آخرين أغفلت الكتبُ ذِكْرهم، فلم يصلْ إلينا شيءٌ عنهم.

أمَّا الثلاثةُ فهم:

(١) شمس الأئمة الكردري، محمد بن عبد الستار بن محمد العمادي[١]، توفي سنة (٦٤٢هـ).

(٢) بدر الدين خواهر زادة، محمد بن محمود بن عبد الكريم[٢]، توفي سنة (٦٥١هـ).

(٣) حميد الدين الضرير، علي بن محمد بن علي الرامشي[٣]، توفي سنة (٦٦٦هـ).

● **تلامذته:**

ذكر المؤرِّخون تلميذَيْن له، هما:

١ ـ السفناقي، الحسين بن علي بن حجاج، حسام الدين[٤]، توفي سنة (٧١٤هـ).

٢ ـ الجيلي، محمد بن محمد[٥].

● **مذهبه الفقهي والكلامي:**

تابع النسفي أستاذَه الكردري في موافقة أبي حنيفة في الفقه، كما أكَّدتْ ذلك

---

(١) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٢٥).
(٣) انظر ترجمته في الفوائد البهية (٢٠٠).
(٤) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٠٢).
(٥) ذكره طاشكبري زادة في مفتاح السعادة (٢/ ٥٧).

كُتُبه الفقهية، وبشكل خاص «كنز الدقائق» الذي جعله خالصاً في الفقه الحنفي، كما أنَّ آراءه الفقهيّة المبثوثة في تفسيره تدلُّ على ذلك.

أمَّا نزعته الكلامية فتبدو واضحة في تفسيره، حيث يُؤيِّد مذهب أبي منصور الماتُريدي ـ رحمه الله ـ.

● مُؤلَّفـاته:

أمَّا المطبوعة فهي:

(١) بحر الكلام: كتاب في أصول الكلام.

(٢) عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة: مطبوع بعناية الأستاذ كيورتن.

(٣) كشف الأسرار شرح المصنف على المنار: لخَّص فيه أصول الفقه لشمس الأئمة السرخسي، وهو مطبوع في جزأين.

(٤) كنز الدقائق: متن مشهور في الفقه.

(٥) منار الأنوار: في أصول الفقه.

(٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: وهو كتابنا هذا[١].

وأمَّا كتبه المخطوطة فهي:

(١) الاعتماد في الاعتقاد.

(٢) عمدة العقائد.

(٣) الكافي في شرح الوافي.

(٤) المستصفى في شرح الفقه النافع.

(٥) المصفّى في شرح المنظومة.

وهذه المؤلفات الكثيرة تشهد بمكانة النسفي العلميّة، وأستاذيته.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى في وزارة المعارف بالقاهرة سنة (١٩٤٢م) في (٣) مجلدات، ثم صدر في دمشق عن المكتبة الأموية (مجلدان)، ثم صدر مع تفسير الخازن، عن دار الفكر ببيروت (٤ أجزاء) وغير ذلك.

● **وفـــاته:**

اختلف المؤرِّخون في تحديد سنة وفاة النسفي، فذهب اللكنوي[١] والبغدادي[٢] وصاحب كشف الظنون[٣] إلى أنَّ وفاته كانت عام (٧١٠هـ). أمّا ابنُ حجر العسقلاني[٤] فرأى أنَّ وفاته كانت عام (٧٠١هـ)، وذهب القاسم بن قطلوبغا[٥] إلى أنه توفي بعد عام (٧١٠هـ).

□ □ □

(١) الفوائد البهية (١٠١).
(٢) هدية العارفين (١/ ٤٦٤).
(٣) كشف الظنون (٢/ ١٩٢٢ ـ ١٢٧٤ ـ ١٨٢٣ ـ ١٨٦٧).
(٤) الدرر الكامنة (٢/ ٢٤٧).
(٥) الفوائد البهية (١٠١).

تفسير النسفي

استعان النسفيُّ في تفسيره بعددٍ من تفاسير السابقين له، وهي:

☆ الكشاف، للزمخشري: وهو مصدر أساس في تفسيره، حيث لخَّص النّكات البلاغية، والإشارات اللغوية، والاستطرادات الأدبيّة.

☆ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: ويبدو تأثُّر النسفي به في تتبُّع الكثير من نظرات البيضاوي اللغوية، ونقّل عبارات حرفية.

☆ تفسير قتادة: حيث نَقَل عنه في كثير من المواضع.

☆ تفسير مجاهد: حيث استعان به، وأخذ عنه أقواله.

☆ التأويلات، لأبي منصور الماتُريدي: ولا غرابة في ذلك؛ حيث أنَّ النسفي ماتُريدي، وأحبَّ أن تكون آراء شيخه أبي منصور مُؤيِّدة لآرائه في كتبه ومُؤلَّفاته.

☆ شرح التأويلات.

☆ اللباب.

والكتابان الأخيران لم يذكر النسفي اسمَيْ مؤلِّفيهما.

كما استعان النسفي بمصادر كثيرة من كُتُب الحديث، ومنها:

صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحاح المصابيح للبغوي، وبعض المسانيد.

أمَّا مصادره في الفقه فقد أشار إلى:

ـ المبسوط، للبزدوي (ت ٤٨٢هـ).

ـ الكافي (له).

- شرح المنار (له).

ومن مصادره اللغوية:

- كتاب سيبويه.
- التبيان في إعراب القرآن.
- الصحاح، للجوهري.
- كشف المعضلات وإيضاح المشكلات، للباقولي الضرير.

ومن مصادره في القراءات:

- مصحف عبد الله بن مسعود.
- مصاحف أهل الكوفة، وأهل الحرمين، والبصرة، والشام.
- مصحف نافع.
- مصحف حفصة.
- الإشارة والبشارة.
- الوقوف.

وقد كان للعلماء آراء في تفسير النسفي، نذكر منها ما قاله عطية الجبوري[١]:

«القارىء في تفسير النسفي يلاحظ أنه ملخّص لتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي. ولمّا كان النسفي من أهل السنة والجماعة، وهو حنفي المذهب؛ لذا لم يذكر كلّ ما يُصادفه من قضايا الاعتزال في الكشاف، ويستخلص منه النكت البلاغية، والمعاني العقلية الدقيقة. أضفْ إلى ذلك المحسنات اللفظية، فجاء كتابه هذا وسطاً بين الطول والقصر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل زاد عليها كثيراً من أقوال النحاة والإعراب ووجوه القراءات، وإسناد القراءات إلى أصحابها. وكان مقتصراً في ذلك على القراءات السبع. وهو يسيرُ في تفسيره على طريقة الأسئلة والأجوبة؛ إلا أنه لم يجعلها ظاهرة».

---

(١) دراسات في التفسير ورجاله (١٠٧).

وقال الدكتور الذهبي في «التفسير والمفسرون» (١/ ٣٠٥): «لم يقع فيما وقع فيه صاحبُ الكشاف من ذِكْره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور»[(١)].

وقال الدكتور منيع محمود:

«تبنّى النسفي كلَّ ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية»[(٢)].

ويتابع فيقول:

«والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً، وخبرة دقيقة، واطّلاعاً واسعاً، وحسن استفادة من هذا الاطلاع... ويمتاز تفسيره بإقلاله من الإسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها. كما يمتاز بتحرِّيه في اختيار الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذِكْر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور. كما أنه لم يتوسَّع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعيّة تُشتِّتُ الذهن، وتبتعد بالقارىء عن الجوِّ القرآني، ولم يخلُ تفسيرُه من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي»[(٣)].

إلا أنَّ النسفي رغم احتياطه وتحفُّظه لم يسلمْ من الإسرائيليات، ولم يشرْ إلى خطئها، أو ضعف روايتها، كما في: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] قال: «روي: أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تُدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله...» دون أن يتعقّب ما ذكره من ذلك كله!

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان، وما كان من امتحانها له. وهو خبرٌ أشبه ما يكون بقصّة نسجها خيالُ شخصٍ مسرف في

(١) التفسير والمفسرون؛ للذهبي (١/ ٣٠٥).
(٢) مناهج المفسرين (٢٢٠).
(٣) المصدر السابق (٢١٧).

تخيّله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة!

وقال قاسم القيسي[١]:

«هو تفسيرٌ وسطٌ في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، مُتضمِّن لدقائق البديع والإشارات، مُوشَّح بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة والشناعة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وقال الدكتور صبحي الصالح[٢]:

«وأمّا النسفي فيعنيه بالدرجة الأولى: الدفاع عن وجهة نظر أهل السُّنَّة والجماعة، والردّ على أهل البدع والأهواء، وتفسيره جامع لوجوه الإعراب والقراءات، وفيه إشارات دائمة إلى روائع البلاغة القرآنية في عبارة موجزة».

□ □ □

---

(١) تاريخ القرآن (١٤١).
(٢) مباحث في علوم القرآن (٢٩٣).

وصف المخطوطة

تقعُ المخطوطة في مجلدين، وهي من وقف المدرسة الأحمدية بحلب.

● **المجلدة الأولى:**

تحمل رقم (١٣٢٣٠)، عدد الأوراق (٢٨٦)، قياس (١٤ × ٢١سم)، في الصفحة (٢٣) سطراً، في السطر (١٣ ـ ١٥) كلمة.

● **المجلدة الثانية:**

تحمل رقم (١٣٢٣١)، عدد الأوراق (٣٠٢)، قياس (١٥ × ٢٢سم)، في الصفحة (٢٥) سطراً، في السطر (١٢ ـ ١٨) كلمة.

والخط في المجلدتين واضح، مقروء، وبعضه مشكول، والآيات مكتوبة بحرف أكبر لتوضيحها وإبرازها.

وقد نسخ هذه المخطوطة: ميكائيل بن حاجي محمد بن حاجي، وفرغ منها في يوم الجمعة وقت الضحوة الكبرى من شهر ربيع الآخر سنة (٧٢٧هـ) أي: بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاماً.

□ □ □

منهج التحقيق

بعد حصولنا على نسخةٍ مخطوطةٍ من مكتبة الأسد العامرة، كانت هذه الخطوات:

(١) مقابلة المخطوط على المطبوع، وإثبات الفروق ذات الأهمية.

(٢) تخريج الآيات الشواهد من أماكنها من سور القرآن، مع ذكر أرقامها، وقد أُخِذت من المصحف؛ نأياً بها عن أخطاء الطباعة.

(٣) تخريج الأحاديث قدر المستطاع من مظانّها الحديثية.

(٤) توزيع فقرات النص، مع وَضْع علامات الترقيم.

(٥) جَعْل المصحف في أعلى الصفحة، ثم يأتي شرح الآيات مرقّمة.

(٦) ضبط الشعر؛ منعاً للّبس في قراءته.

(٧) التعليق على بعض المواضع بما يُفيد ويُغني.

(٨) صُنْع «ترويسة» في كلِّ صفحة؛ لتسهيل الدلالة، والظفر بالبغية بأيسر سبيل، وأسرع وقت.

(٩) كتابة مقدِّمة عن حياة الإمام النسفي، ولمحة عن مصادر كتابه.

(١٠) إعداد فهرس للسور والآيات في نهاية كل جزء، وفهرس عام للأحاديث في نهاية الكتاب.

نسألُ اللهَ تعالى التوفيق، والنفع بهذا العمل، إنه على ما يشاء قدير.

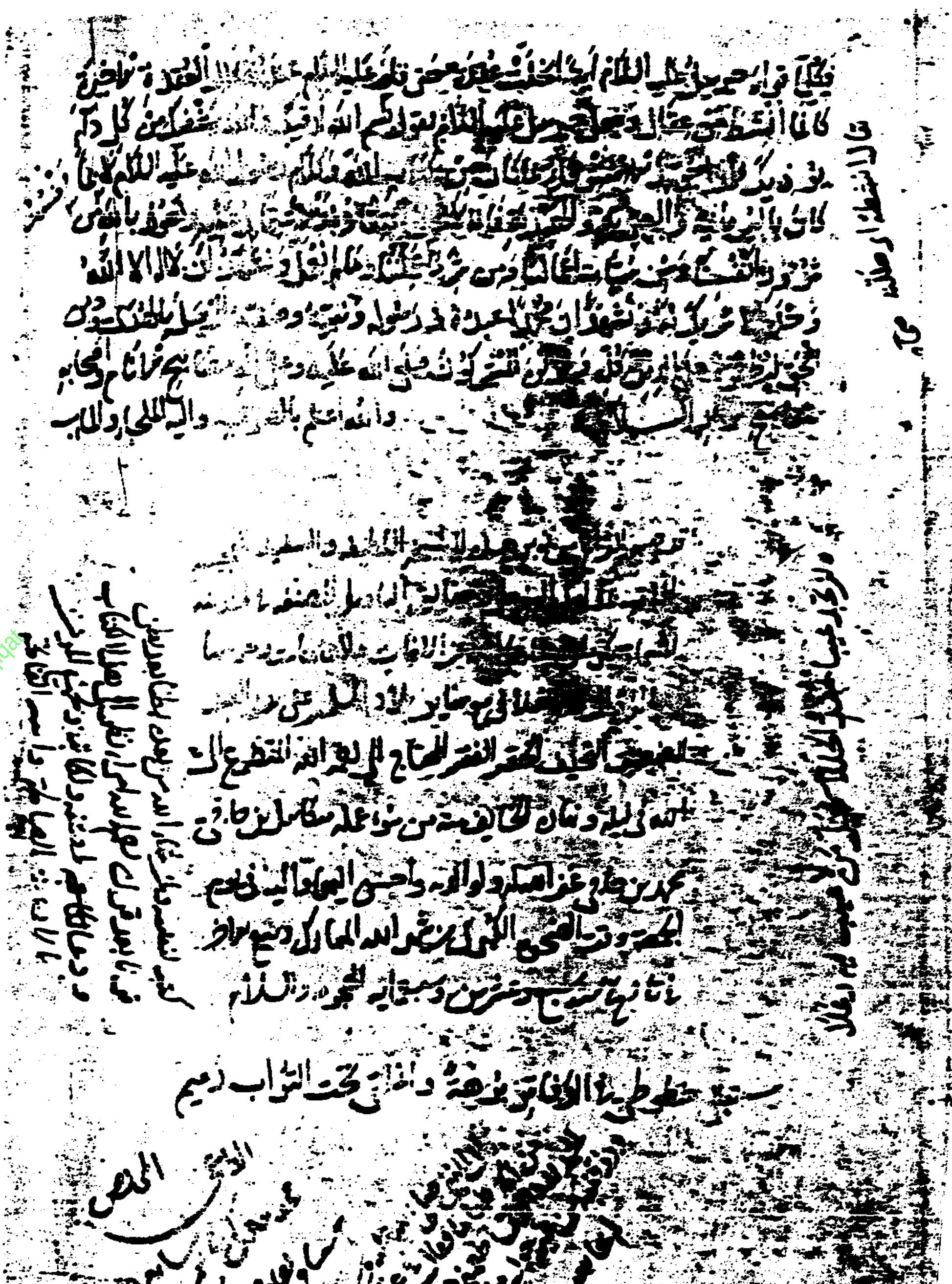
والحمد لله ربِّ العالمين.

□ □ □



بسم الله الرحمن الرحيم وبه حسبي لا إله إلا هو عليه توكلت وصلى الله على
سيدنا محمد وسلم الحمد لله المنزه بذاته عن إشارة الأوهام المقدس بصفاته عن إدراك
العقول والأفهام المتقدس بلا أولية قبل كل موجود الباقي بنعت السرمدية بعد كل
محدود الملك الذي طمست سبحات جلاله الأبصار المتكبر الذي أزاحت سطوات كبريائه
الأفكار القديم الذي تعالى عن مماثلة الحدثان العظيم الذي تنزه عن مماسة المكان
المتعالي عن مضاهاة الأجسام ومشابهة الأنام القادر الذي لا يشار إليه
بالتكيف القاهر الذي لا يوصف بالتحيز والتكيف العليم الذي خلق الإنسان وعلمه
البيان الحكيم الذي نزل القرآن شفاء للأرواح والأبدان والصلاة والسلام على المستل
من أرومة البلاغة والبراعة المحتل في بحبوحة الفصاحة والفصاحة محمد المبعوث إلى خليقته
الداعي إلى الحق وطريقته صلى الله عليه وعلى آله وشيعته وعلى الآخذين بعهوده وشريعته
[illegible] فإن الشيخ الإمام المعظم والحبر الهمام المقدم أستاذ أهل الأرض محيي السنة
والفرض كشاف حقائق أسرار التنزيل مفتاح دقائق أسرار التأويل ترجمان كلام
الرحمن صاحب علم المعاني والبيان الجامع بين الأصول والفروع المرجوع إليه
في المعقول والمسموع حافظ الملة والدين شيخ الإسلام والمسلمين وارث علوم
الأنبياء والمرسلين أكمل فحول المجتهدين قدوة قدوة المحققين ذو السعادات
والكرامات أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي متع الله الإسلام بطول
بقائه والمسلمين بجميل لقائه قد سألني من تعين إجابته كتابا وسطا في التأويلات
جامعا لوجوه الإعراب والقراءات متضمنا لدقائق علم البديع والإشارات
حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة ليس
بالطويل الممل ولا بالقصير المخل وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى استقصارا
لقوة البشر عن درك هذا الوطر وأخذا بسبيل الحذر عن ركوب الخطر حتى
شرعت فيه بتوفيق الله تعالى والعوائق كثيرة وأتممته في مدة يسيرة
وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل وهو الميسر لكل عسير وهو على ما يشاء قدير
وبالإجابة

صورة الصفحة الأولى من المجلدة الأولى



صورة الصفحة الأخيرة من المجلدة الثانية

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

« ت ٧١٠ هـ »

حققه وخرج أحاديثه

يوسف علي بديوي

راجعه وقدم له

محيي الدين ديب مستو

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

هو حسبي، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم.

الحمد لله المنزَّه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدَّس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتَّصف بالألوهية قبل كلِّ موجود، الباقي بنعت السَّرمدية[١] بعد كلِّ محدود، الملك الذي طمست سُبُحات[٢] جلاله الأبصار، المتكبِّر الذي أزاحتْ سطواتُ كبريائه الأفكار، القديم الذي تعالى عن مُماثلة الحُدْثان[٣]، العظيم الذي تنزَّه عن مماسَّة المكان؛ المتعالي عن مُضاهاة الأجسام، ومشابهة الأنام، القادر الذي لا يُشارُ إليه بالتكييف، القاهر الذي لايُسأل عن التَّحميل والتكليف[٤]، العليم الذي خَلَق الإنسانَ، وعلَّمه البيان، الحكيم الذي نزَّل القرآن شفاءً للأرواح والأبدان.

والصَّلاة والسَّلام على المستلِّ من أرومة[٥] البلاغة والبراعة، المحتل في بحبوحة النصاحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعي إلى الحقِّ وطريقته. صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته.

---

(١) «السرمدية»: الدائمة.
(٢) «سُبُحات »: أنوار.
(٣) «الحُدْثان»: جمع أحاديث، وهي جمع حديث، وهو: الجديد من الأشياء.
(٤) في الأصل المخطوط: التكيف، والمثبت من المطبوع.
(٥) «الأرومة»: الأصل.

قال مولانا الشيخ الإمام المعظَّم، والحَبْر الهمام المقدّم، أستاذ أهل الأرض، محيي السُّنَّة والفرض، كشّاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح دقائق أسرار التأويل، ترجمان كلام الرَّحمن، صاحب علم المعاني والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه في المعقول والمسموع، حافظ الملَّة والدِّين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قَدُوم[1] المحققين، ذو السَّعادات والكرامات، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ـ نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمن لقائِه[2] ـ:

قد سألني مَن تتعيَّن إجابتُه كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمِّناً لدقائق علمي البديعِ والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البِدَع والضَّلالة، ليس بالطويل المملّ، ولا بالقصير المخلّ.

وكنتُ أُقدّم فيه رِجْلاً وأؤخِّر أخرى استقصاراً لقوَّة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً بسبيل الحذر، عن ركوب الخطر، حتى شرعتُ فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدَّةٍ يسيرة، وسمَّيته بـ: «**مدارك التنزيل، وحقائق التأويل**» وهو الميسِّر لكلِّ عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

□ □ □

(١) «القَدُوم»: جمع قُدُم: الجريء الكثير الإقدام.
(٢) هذا الكلام إما من الناسخ أو من أحد تلاميذ المؤلف ـ رحمه الله ـ.

سورة الفاتحة

آياتها ٧ — ترتيبها ١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾

مكية، وقيل: مدنية. والأصح أنَّها مكية ومدنية. نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلتْ بالمدينة حين حُوِّلت القبلة إلى الكعبة. وتسمَّى أم القرآن للحديث[١]، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورة الوافية والكافية لذلك، وسورة الكنز، لقوله ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «فاتحةُ الكتاب كنزٌ من كنوز عرشي»[٢]. وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاءٌ من كلِّ داء إلا السَّام»[٣]. وسورة المثاني؛ لأنها تُثَنَّى في كلِّ صلاة. وسورة الصلاة لما يُروى، ولأنها تكون واجبة أو فريضة. وسورة الحمد والأساس، فإنها أساس القرآن. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا اعتللتَ أو اشتكيتَ فعليك بالأساس. وآيُها سبعٌ بالاتفاق، والله أعلم.

١ ـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قُرَّاء المدينة والبصرة والشام على أنَّ التسمية ليست بآيةٍ من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كُتبت للفصل والتبرُّك بالابتداء بها، وهو مذهبُ أبي حنيفة ومَن تابعه ـ رحمهم

---

(١) قال ﷺ: «لاصلاة لمن لم يقرأ بأمِّ القرآن» رواه مسلم (٣٩٤) (٣٦).

(٢) رواه ابن راهويه. (فيض القدير ٤/ ٤٢٠).

(٣) رواه سعيد بن منصور، وأبو الشيخ في «الثواب». (فيض القدير ٤/ ٤١٨) والديلمي في مسند الفردوس (٤٣٨٥) بلفظ: «فاتحة الكتاب شفاء من السم».

. . . .

الله ـ ولذا لا يُجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة على أنها آيةٌ من الفاتحة ومن كلِّ سورة، وعليه الشافعي وأصحابه ـ رحمهم الله ـ ولذا يجهرون بها، وقالوا: قد أثبتها السلفُ في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن [عما ليس منه][(١)]. وعن ابن عباس ـرضي الله عنهماـ: من تركها فقد ترك مئة وأربع عشرة آية من كتاب الله. ولنا حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ: يقول: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة» أي: الفاتحة «بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجّدني عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[(٢)].

فالابتداء بقوله: «الحمد لله رب العالمين» دليلٌ على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعاً. والحديث مذكورٌ في «صحاح المصابيح». وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسميةَ آية من القرآن أنزلت للفصل وللتبرك في الابتداء بها بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في «المبسوط»، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلْها آية من القرآن، وتمام تقريره في «الكافي». وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ، أو أتلو، لأنَّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حلَّ وارتحل فقال: باسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلُّ، وبسم الله أرتحل، وكذا الذابح. وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له. وإنما قدر المحذوف

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٤١) ومسلم (٣٩٥) (٣٨) وأبو داود(٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤).

. . . .

متأخراً لأنَّ الأهم من الفعل والمتعلِّق به [هو المتعلَّق به][١]. وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى، فوجب أن يقصدَ الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزوجل بالابتداء، وذا بتقديمه وتأخير الفعل. وإنما قدّم الفعل في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنها أول سورة نزلت في قول، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم[٢] الفعل أوقع. ويجوز أن يحمل ﴿اقرأ﴾ على معنى: افعل القراءة وحقّقها، كقولهم: فلان يعطي ويمنع، غير متعدّ إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعده. واسم الله يتعلق بالقراءة تعلق الدّهن بالإنبات في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبركاً باسم الله اقرأ، ففيه تعليم عباده كيف يتبرَّكون باسمه تعالى، وكيف يعظمونه. وبنيت الباءُ على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر، فكسرت لتشابه حركتها عملها. والاسم من الأسماء التي بنوا أوائلها على السُّكون كالابن والابنة وغيرهما، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفادياً عن الابتداء بالساكن تعذراً، وإذا وقعت في الدّرج لم يفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزدها، واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سِمٌ وسُمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز، كيد، ودم، وأصله: سمو بدليل تصريفه كأسماء، وسمى، وسميت. واشتقاقه من السمو، وهو: الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره. وحذفت الألف في الخط هنا، وأثبتت في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنه اجتمع فيها[٣] مع أنها تسقط في اللفظ لكثرة الاستعمال، وطولت الباء عوضاً من حذفها. وقال عمر بن عبد العزيز لكاتبه: طوِّل الباء وأظهر السينات، ودوِّر الميم.

والله: أصله الإله، ونظيره الناس، أصله: الأناس، حُذفت الهمزة، وعُوِّض عنها حرف التعريف. والإله من أسماء الأجناس، يقع على كل معبود

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٢) من المطبوع.
(٣) أي: في التسمية.

. . . .

بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه، ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل، وتقول: إله واحد صمد، ولأن صفاته تعالى لا بُدَّ لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وذا لا يجوز. ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضل. وقيل: معنى الاشتقاق: أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد. وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم أَلِهَ: إذا تحير، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحيَّر في معرفة المعبود، وتدهش الفطِن، ولذا كثر الضَّلال، وفشا الباطل، وقلَّ النظر الصحيح. وقيل: هو من قولهم أَلَه يألَه إلاهاً: إذا عبد، فهو مصدر بمعنى مألوه، أي: معبود، كقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. وتفخم لامه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة، وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرقِّقها بكل حال، ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول.

والرحمن: فعلان من رحم، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء، كغضبان من غضب، وهو الممتلىء غضباً. وكذا الرحيم: فعيل منه، كمريض من مرض. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ لأن في الرحيم زيادة واحدة، وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدلُّ على زيادة المعنى؛ ولذا جاء في الدعاء: «يا رحمن الدنيا» لأنه يعمّ المؤمن والكافر «ورحيم الآخرة» لأنه يخصُّ المؤمن. وقالوا: الرحمن خاصّ تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه لأنه يوصف به غيره، ويخصّ المؤمنين، ولذا قدّم الرحمن ـ وإن كان أبلغ ـ والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان عالم نحرير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله. ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها: العطف. وأما قول الشاعر في مسيلمة:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

. . . . وأنت غيثُ الورى لا زلت رحمانا(١)

فباب من تعنتهم في كفرهم.

ورحمن غير منصرف عند مَن زعم أنَّ الشرطَ انتفاء فعلانة، إذ ليس له فعلانة، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

٢ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الوصف بالجميل على جهة التفضيل. وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرىء بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً. والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. والخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف، أي: واجب أو ثابت. وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال:

أفادتكم النَّعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضَّمير المحجَّبا

والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شُعَب الشكر، ومنه الحديث: «الحمدُ رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لم يحمده»(٢). وجعله رأس الشكر؛ لأن ذكر النِّعمة باللسان أشيعُ لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح: ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً، قادراً، عالماً، أبدياً، أزلياً. والشكر: ثناء على ما هو منه من أصناف الإفضال، والحمد يشملهما. والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة؛ ولذا قرن باسم

(١) عجز بيت، وصدره: سموت بالمجد يا بن الأكرمين أباً.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٩٥) والديلمي في مسند الفردوس (٢٧٨٤).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

الله؛ لأنه اسم ذات، فيستجمع صفات الكمال. وهو بناءٌ على مسألة خلق الأفعال، وقد حقَّقته في مواضع.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب: المالك، ومنه: قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربّني رجلٌ من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجلٌ من هوازن. تقول: ربَّه يربُّه، فهو ربّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كما وصف بالعدل. ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في العبيد مع التقييد: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. وقال الواسطي: هو الخالقُ ابتداء، والمربّي غذاء، والغافر انتهاء، وهو اسم الله الأعظم. والعالم: هو ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى، سُمِّي به لأنه عَلَم على وجوده، وإنما جمع بالواو والنون مع أنه يختص بصفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، لما فيه معنى الوصفية، وهي: الدلالة على معنى العلم.

٣ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذِكْرُهما قد مرَّ، وهو دليل على أن التسميةَ ليست من الفاتحة، إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلو الإعادة عن الإفادة.

٤ ـ ﴿مَٰلِكِ﴾ عاصم وعلي، (مَلِكِ): غيرهما. وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن الإضافة، ولقوله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ولأنَّ كلَّ ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً. وقرأ أبو حنيفة والحسن ـ رحمهما الله ـ: مَلَكَ.

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، ويقال: كما تدين تُدان، أي: كما تفعل تُجازى. وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرفَ على طريق الاتساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، أي: مالك الأمر كله في يوم الدين. والتخصيص بيوم الدين لأن الأمرَ فيه لله وحده. وإنما ساغ وقوعُه صفةً للمعرفة مع أنَّ إضافةَ اسم الفاعل إضافةٌ غير حقيقية؛ لأنه أريد به الاستمرار، فكانت الإضافةُ حقيقيةً، فساغ أن يكونَ صفةً للمعرفة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

وهذه الأوصافُ التي أجريتْ على الله سبحانه وتعالى من كونه رباً، أي: مالكاً للعالمين، ومنعماً بالنعم كلها، ومالكاً للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أنَّ مَن هذه صفاته لم يكن أحدٌ أحقّ منه بالحمد والثناء عليه.

٥ ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمر. والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدُّمه على الفعل والفاعل. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم. وتقديمُ المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخصُّك بالعبادة، وهي: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخصُّك بطلب المعونة. وعَدَل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ﴾ [فاطر: ٩] وقول امرىء القيس:

تطَاولَ لَيْلُكَ بالأثْمُدِ ... ونام الخليُّ ولم تَرْقُدِ(١)
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ ... كليلةِ ذي العائِر الأرْمَدِ(٢)
وذلكَ مِنْ نبأٍ جاءني ... وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسودِ

فالتفت في الأبيات الثلاثة حيث لم يقل: ليلي، وبت، وجاءك، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلامَ إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطريةً لنشاطه، وأملأ(٣) باستدراب إصغائه. وقد تختصُّ مواقعه بفوائد ولطائف قلَّما تصح إلا للحذَّاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم. ومما اختصَّ به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء،

(١) «الأثمد»: اسم موضع. «الخلي»: هو الرجلُ الخِلْو من الهموم.
(٢) «العائر»: الذي يجد وَجَعاً في عينه.
(٣) في حاشية الأصل: في نسخة: وأميل.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾

وأجرى عليه تلك الصِّفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لاغيرك. وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانة؛ لأن تقديمَ الوسيلة قبل طلب الحاجة أقربُ إلى الإجابة، أو لنظم الآي كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كلَّ مستعان فيه. ويجوز أن يرادَ الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله« اهدنا» بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

٦ ـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: ثبتنا على المنهاج الواضح، كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: اثبت على ما أنت عليه. أو: اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال. وهدى يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كما في هذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وإلى، كقوله تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣] وقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:١٦١]. والسراط: الجادة، من سرط الشيء: إذا ابتلعه، كأنه يسرط السَّابلة[١] إذا سلكوه. والصراط من قلب السين صاداً؛ لتجانس الطاء في الإطباق؛ لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق. وقد تشمّ الصاد صوت الزاي؛ لأن الزاي إلى الطاء أقربُ؛ لأنهما مجهورتان. وهي قراءة حمزة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، وهو الأصل في الكلمة. الباقون بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش، وهي الثابتةُ في الإمام[٢]. ويذكّر ويؤنّث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملّة الإسلام.

(١) «السابلة»: الطريق المسلوكة، والمارُّون عليها.
(٢) أي: المصحف الإمام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

٧ ـ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من الصراط، وهو في حكم تكرير العامل. وفائدته: التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه، وآكده. وهم المؤمنون، أو الأنبياء عليهم السلام، أو قوم موسى قبل أن يُغَيِّروا.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعني: أنَّ المنعمَ عليهم هم الذين سلموا من غضب الله تعالى والضَّلال، أو صفة للذين، يعني: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال. وإنما ساغ وقوعُه صفةً للذين، وهو معرفة، وغير لا يتعرف بالإضافة؛ لأنه إذا وقع بين متضادين، وكانا معرفتين، تعرف بالإضافة، نحو: عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان، ولأن الذين قريبٌ من النكرة؛ لأنه لم يُرَدْ به قومٌ بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة؛ للتخصيص الحاصل له بإضافته، فكل واحد منهما فيه إبهامٌ من وجه، واختصاص من وجه، فاستويا. وعليهم ـ الأولى ـ محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملكُ إذا غضب على من تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]. و«لا» زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى غير.

آمين: صوتٌ سُمِّي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد اسم لأمهل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سألتُ رسول الله ﷺ عن معنى آمين، فقال: «افعل»(١). وهو مبنيٌّ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها، وهو الأصل، والمد بإشباع الهمزة، قال:

(١) رواه الكلبي. تفسير القرطبي (١/ ١٢٨).

. . . .

. . . .   ويـرحـمُ اللهُ عبـداً قـال آمينـا[1]

وقال:

. . . .   أميـنَ، فـزاد الله مـا بيننـا بُعْـدا[2]

قال ﷺ: «لقَّنني جبريلُ آمين عند قراءة فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالختم على الكتاب»[3]. وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبتْ في المصاحف.

* * *

(١) وصدره: يا رب لا تسلبني حبّها أبداً.
(٢) عجز بيت، وصدره: تباعد فيّ فُطْحُلٌ إذ سألتُه.
(٣) قال ابنُ حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ١/ ١٨).

سُورَةُ البَقَرَةِ

ترتيبها ٢ — آياتها ٢٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ ونظائرها: أسماء مسمّياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكَلِم، فالألف تدلُّ على أوسط حروف قال، واللام تدلّ على الحرف الأخير منه وكذلك ما أشبهها. والدليلُ على أنها أسماء أن كلّاً منها يدلُّ على معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير.

وهي معربة، وإنما سكنتْ سكون زيد وغيره من الأسماء، حيث لا يمسّها إعراب لفقد مقتضيه. وقيل: مبنية لأنها كالأصوات نحو: غاق، في حكاية صوت الغراب. ثم الجمهور على أنها أسماء السور. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أقسم اللهُ بهذه الحروف. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنها اسمُ الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللهُ، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها. وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تحدّي بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أنَّ هذا المتلو عليهم، وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤديهم النَّظرُ إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن

. . . .

يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولات، وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلامُ خالق القوى والقدر. وهذا القولُ من الخلاقة[1] بالقبول بمنزل.

وقيل: إنما وردت السورُ مصدرةً بذلك ليكون أول ما يقرعُ الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أنَّ النطقَ بالحروف أنفسها كانت العربُ فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف، فإنه كان مختصّاً بمن خطّ، وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأُمِّيِّ التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن؛ التي لم تكن قريش ومَن يضاهيهم في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته ﷺ.

واعلمْ أنَّ المذكورة في الفواتح نصفُ أسامي حروف المعجم، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. فمن المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن المطبِقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن

(١) «الخلاق»: الحظ والنصيب من الخير.

. . . .

المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف، والطاء. وغير المذكورة من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظمَ الشيء ينزلُ منزلة كله، فكأن الله تعالى عدَّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما مرَّ من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقةً على السور؛ لأن إعادة التنبيه على المتحدَّى به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كلُّ تكرير وَرَدَ في القرآن، فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

ولم تجيءْ على وتيرةٍ واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ص، وق، ون، وطه، وطس، ويٰس، وحم، والم، والر، وطسم، والمص، والمر، وكهيعص، وحم عسق، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة، كعادة افتنانهم في الكلام. وكما أنَّ أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، سلك في الفواتح هذا المسلك. والم آية حيث وقعت، وكذا الۤمص آية، والمر لم تعد آية، وكذلك الر لم تعد آية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتيها، وطه ويٓس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص ون وق ثلاثتها لم تعدّ آية. وهذا عند الكوفيين، ومَن عداهم لم يعدّ شيئاً منها آية.

وهذا علمٌ توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويُوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعلْ أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: ١] أي: هذه الم، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ولهذه الفواتح محلٌّ من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو الرفع على الابتداء، أو النصب والجر لصحة القسم بها، وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾

لم يتصوَّر أن يكونَ لها محلٌّ في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة وللمفردات المعدودة.

٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ذلك إشارة إلى الم. وإنما ذكَّر اسمَ الإشارة، والمشار إليه مؤنث، وهو السورة؛ لأنَّ الكتابَ إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير، وإن كان صفة فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسمَ الإشارة مشارٌ به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا. ووجهُ تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسماً للسورة أن يكون الٓم مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه: أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأنَّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وأن يكون الٓم خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الٓم جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الٓم بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك، وهو مصدر رابني: إذا حصل فيه الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ: «دعْ ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الشكَّ ريبةٌ، وإن الصدقَ طمأنينة»[(١)] أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلقُ له النفسُ ولا تستقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو: ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه. وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثير؛ لأن المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان، بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقعَ فيه، لا أن أحداً لا يرتاب. وإنما لم يقل: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٠) والترمذي (٢٥١٨).

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

لأن المرادَ في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق لا باطل كما يزعم الكفار. ولو أولى الظرف لبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على لا ريب، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، والتقدير: لا ريب فيه ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء، مكي. ووافقه حفص في ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾[الفرقان: ٦٩] وهو الأصل، كقولك: مررت به، ومن عنده، وفي داره، فكما لا يقال: في داره، ومن عنده، وجب ألا يقال: فيه. قال سيبويه: ما قاله مؤدّ إلى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الياء قبل الهاء والهاء، إذ الهاء المتحركة في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية فالخفي قريب من الساكن، والياء بعدها. والهدى مصدر على فعل كالبكى، وهو الدلالةُ الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]. وإنما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون؛ لأنه كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ولأنه سمّاهم عند مشارفتهم لا كتساء لباس التقوى متقين، كقوله ﷺ: «مَن قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبه»[(١)] وقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا أراد أحدكم الحجَّ فليعجل فإنه يمرضُ المريض. فسمَّى المشارف للقتل والمرض قتيلاً ومريضاً. ولم يقل: هدى للضالين؛ لأنهم فريقان: فريق علم بقاءهم على الضلالة، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، فقيل: هدى للمتقين مع أن فيه تصديراً للسورة؛ التي هي أولى

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

. . . .

الزهراوين، وسنام القرآن؛ بذكر أوليائه تعالى.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، فإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء، وأدغمتها في التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية: فرط الصيانة؛ وفي الشريعة: مَن يقي نفسه تعاطي ما يستحقُّ به العقوبةَ من فِعْل أو ترك. ومحل هدى الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع لا ريب فيه لـ: ذلك، أو النصب على الحال من الهاء في: فيه. والذي هو أرسخُ عرقاً في البلاغة أن يقال قوله: ﴿الم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة.

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضُها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نبَّه أولاً على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتابُ المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرفٌ من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمالَ أكملٍ مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لعالم: فيم لذَّتك؟ قال: في حجّة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً.

ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى للمتقين﴾ فقرَّر بذلك كونه يقيناً لا يحومُ الشك حوله وحقاً ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ثم لم تخلُ كلُّ واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب بألطف وجه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة الحذف، ووضع المصدر، الذي هو هدى، موضع الوصف، الذي هو هاد، كأن نفسه هداية، وإيراده منكَّراً، ففيه إشعارٌ بأنه هدى لايكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين كما مرَّ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع رفع أو نصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يؤمنون﴾ أو: أعني ﴿الذين يؤمنون﴾ أو هو مبتدأ، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾ أو جر على أنه صفة للمتقين. وهي صفة واردة بياناً وكشفاً للمتقين، كقولك: زيد الفقيه المحقق؛ لا شتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان؛ الذي هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة: فهما أُمَّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار[1] على غيرهما. ألا ترى أن النبي ﷺ سمَّى الصلاةَ عمادَ الدين، وجعل الفاصلَ بين الإسلام والكفر ترك الصلاة، وسمَّى الزكاة قنطرة الإسلام، فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات؛ ولذا اختصر الكلام بأن استغنى عن عدِّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. أو صفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطبيب، ويكون المراد بالمتقين: الذين يجتنبون السيئات ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون. وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمنه، أي: صدقه، وحقيقته: آمنه التكذيب والمخالفة. وتعديته بالباء لتضمُّنه معنى أقرَّ واعترف ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بما غاب عنهم؛ مما أنبأهم به النبي ﷺ من أمر البعث، والنشور، والحساب وغير ذلك. فهو بمعنى الغائب، تسمية بالمصدر، من قولك: غاب الشيء غيباً. هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمَن به، وحقيقته: متلبسين بالغيب. والإيمان الصحيح أن يقرَّ باللسان، ويصدِّق بالجنان، والعمل ليس بداخل في الإيمان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها، فعبَّر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيامَ بعض أركانها، كما عبَّر عنه بالقنوت، وهو: القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها. أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها، من أقام العود: إذا قومه؛ أو الدوام عليها والمحافظة، من قامت السوق: إذا نفقت؛ لأنه إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النَّافق الذي تتوجَّه إليه الرغباتُ،

(١) «العيار»: ما اتُّخذ أساساً للمقارنة والتقدير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

وإذا ضُيِّعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. والصلاة فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرك الصّلوين، أي: الأليتين؛ لأن المصلي يفعلُ ذلك في ركوعه وسجوده. وقيل للداعي: مصل، تشبيهاً له في تخشُّعه بالراكع والساجد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذي ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدَّقون. أدخل من التبعيضية صيانةً لهم عن التبذير المنهي عنه، وقدّم المفعول دلالةً على كونه أهمّ. والمراد به: الزكاة؛ لاقترانه بالصَّلاة التي هي أختها، أو هي وغيرها من النفقات في سُبُل الخير لمجيئه مطلقاً. وأنفق الشيء وأنفده أخوان، كنفق الشيء ونفد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فدالٌّ على معنى الخروج والذهاب. ودلّت الآيةُ على أن الأعمال ليست من الإيمان، حيث عَطف الصلاة والزكاة على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة.

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه؛ من الذين آمنوا بكل وحي أُنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودات. ثم إن عَطَفْتَهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا في جملة المتقين. وإن عَطَفْتَهم على المتقين لم يدخلوا، فكأنه قال: هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أُنزل إليك. أو المراد به وصف الأولين، ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد. وقوله:

إلى الملك القَرْم وابن الهُمام وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَم

والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن. والمراد جميع القرآن لا القدر الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ لأنَّ الإيمانَ بالجميع واجب. وإنما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضُه مترقباً، تغليباً للموجود على ما لم يوجد، ولأنه إذا كان بعضُه نازلاً، وبعضه منتظر النزول،

وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

جعل كأن كلّه قد نزل ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة على النَّبيين عليهم الصلاة والسلام ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ﴾ هي تأنيث الآخر الذي هو ضد الأول، وهي صفةٌ، والموصوف محذوف، وهو الدار؛ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على اللام ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

٥ ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ الجملة في موضع الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ويجوز أن يجري الموصولُ الأول على المتقين، وأن يرتفعَ الثاني على الابتداء، وأولئك خبره، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب؛ الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله ﷺ، وهم ظانُّون أنَّهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ مَثَلٌ لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسُّكهم به بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرَّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أوتوه من عنده. ونكّر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أيّ هدى. ونحوه: لقد وقعت على لحم، أي: على لحم عظيم ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاح: درك البغية، والمفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحتْ له وجوهُ الظفر. والتركيبُ دالٌّ على معنى الشق والفتح، وكذا أخواته في الفاء والعين نحو: فلق، وفلذ، وفلى. وجاء بالعطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا، واتحاد الغفلة، والتشبيه بالبهائم ثَمّ، فكانت الثانية مقرِّرة للأولى، وهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائدته الدلالةُ على أنَّ الواردَ بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ،

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك. فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيهَ على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، ففيه تنبيهٌ على أنهم كما ثبت لهم الأَثَرَة بالهدى، فهي ثابتةٌ لهم بالفلاح. وتعريف ﴿المفلحون﴾ ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو، فقيل: زيد التائب، أي: هو الذي أُخْبِرْتَ بتوبته. وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصِّرك مراتبهم، ويرغِّبك في طلب ما طلبوا، وينشِّطك لتقديم ما قدموا. اللهم زيِّنا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة مَن صدِّرت بذكرهم سورة البقرة.

٦ ـ لما قدَّم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة إليه، وبيَّن أنَّ الكتاب هدى لهم، قفَّى على أثره بذكر أضدادهم، وهم العتاةُ المردة الذين لا ينفعُ فيهم الهدى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. الكفر: ستر الحق بالجحود. والتركيبُ دالٌّ على الستر، ولذا سمِّي الزارع كافراً، وكذا الليل. ولم يأتِ بالعاطف هنا كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] لأنَّ الجملة[١] هنا مسوقة لذكر الكتاب بياناً، لا خبراً عن المؤمنين، وسيقت الثانيةُ للإخبار عن الكفار بكذا. فبين الجملتين تفاوتٌ في المراد، وهما على حدٍّ لا مجال للعطف فيه. وإن كان مبتدأ على تقديرٍ فهو كالجاري عليه. والمراد بالذين كفروا: أناس بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون، كأبي جهل، وأبي لهب، وأضرابهما﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزتين، كوفي. وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: مستوية. وارتفاعه على أنه خبر لإن و﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ مرتفعٌ به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه. أو يكون سواء خبراً مقدماً و﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ في

(١) أي: الجملة الأولى.

لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

موضع الابتداء، أي: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإن. وإنما جاز الإخبار عن الفعل، مع أنه خبر أبداً؛ لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى. والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني: إن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزَّجر عن المعاصي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبر لإن، والجملة قبلها اعتراض، أو خبر بعد خبر. والحكمة بالإنذار مع العلم بالإصرار إقامة للحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول ﷺ.

٧ ـ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزجاج: الختم: التغطية؛ لأنَّ في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه. وقال ابنُ عباس: طبع اللهُ على قلوبهم فلا يعقلون الخير. يعني: إنَّ اللهَ طبع عليها، فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان. وحاصل الختم والطبع: خَلْق الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه؛ وعند المعتزلة إعلامٌ محضٌ على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار، فيلعنونهم، ولا يدعون لهم بخير. وقال بعضهم: إنَّ إسنادَ الختم إلى الله تعالى مجاز، والخاتم في الحقيقة الكافر، إلا أنه تعالى لما كان هو الذي أقدره وأمكنه أسند إليه الختم، كما يسند الفعل إلى السبب، فيقال: بنى الأمير المدينة؛ لأن للفعل ملابسات شتى، يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء مجازاً؛ لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته، فيستعار له اسمه. وهذا فرع مسألة خَلْق الأفعال ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وحّد السمع كما وحَّد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا؛ لأمن اللبس، ولأن السمع مصدر في أصله، يقال: سمعت الشيء سمعاً وسماعاً، والمصدر

وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

لا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل والكثير، فلا يحتاجُ فيه إلى التثنية والجمع، فلمح الأصل. وقيل: المضاف محذوف، أي: وعلى مواضع سمعهم. وقرىء ﴿وعلى أسماعهم﴾ ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ بالرفع خبر ومبتدأ. والبصر: نور العين، وهو: ما يبصر به الرائي، كما أن البصيرة: نور القلب، وهي: ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله تعالى، فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. والغشاوة: الغطاء، فعالة، من غشاه: إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتملُ على الشيء، كالعصابة، والعمامة، والقلادة. والأسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغشية؛ لقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم. ونصب المفضل وحده غشاوة بإضمار جعل. وتكرير الجار في قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ دليلٌ على شدَّة الختم في الموضعين. قال: الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: الكافر لما لم يسمع قولَ الحق، ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقين ليرى آثار الحدث، فيعلم أن لا بدَّ له من صانع، جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة، وإن لم يكن ذلك حقيقة. وهذا دليلٌ على أنَّ الأسماعَ عنده داخلةٌ في حكم التغشية. والآية حُجَّةٌ لنا على المعتزلة في الأصلح، فإنه تعالى أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أنَّ تَرْكَ الختم أصلحُ لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء: إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه. والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم يقابل الحقير، والكبير يقابل الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أنَّ الحقير دون الصَّغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد: جثته، أو خطره. ومعنى التنكير أنَّ على أبصارهم نوعاً من التغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاءُ التَّعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيم من العذاب، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ افتتح سبحانه وتعالى بذكر

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وعناداً، ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقال مجاهد: أربع آيات من أول السورة في نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين، نعى عليهم فيها مكرهم، وخبثهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكَّم بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمههم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة. وأصل ناس: أناس حذفت همزته تخفيفاً. وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس. ويشهد لأصله: إنسان، وأناسي، وإنس. وسُمُّوا بذلك لظهورهم، وأنهم يؤنسون، أي: يبصرون، كما سُمِّي الجن لاجتنانهم. ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، فإنك تقول وزن قِ افعل، وليس معك إلا العين. وهو من أسماء الجمع، ولام التعريف فيه للجنس. ومن موصوفة، ويقول: صفة لها، كأنه قيل: ومن الناس ناسٌ يقولون كذا، وإنما خصّوا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الوقت الذي لا حدَّ له، وهو الأبدُ الدائم الذي لا ينقطع. وإنما سمّي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنهم أوهموا في هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبي الإيمان أوله وآخره. وهذا لأنَّ حاصل المسائل الاعتقادية يرجعُ إلى مسائل المبدأ، وهي: العلم بالصانع وصفاته وأسمائه، ومسائل المعاد، وهي: العلم بالنشور، والبعث من القبور، والصراط، والميزان، وسائر أحوال الآخرة. وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كلّ واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام. وإنما طابق قوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ـ وهو في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ـ قولهم ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ وهو في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، لأنَّ المرادَ إنكارُ ما ادَّعوه

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾

ونفيه على أبلغ وجه وآكده، وهو: إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول؛ لأنه يحتملُ أن يرادَ التقييد، ويترك لدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يُراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولاً. والآية تنفي قول الكرامية: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللسان لا غير؛ لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم. وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. ودخلت الباء في خبر ما مؤكدة للنفي؛ لأنه يستدلُّ به السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام. ومَن موحد اللفظ، فلذا قيل: يقول. وجمع ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نظراً إلى معناه.

٩ ـ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: رسول الله، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] كذا قاله أبو علي ـ رحمه الله ـ وغيره، أي: يظهرون غيرما في أنفسهم، فالخداعُ: إظهارُ غير ما في النفس. وقد رفع الله منزلة النبيِّ ﷺ حيث جعل خداعه هو خداعه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠] وقيل: معناه يخادعون الله في زعمهم؛ لأنهم يظنُّون أنَّ الله ممن يصحُّ خداعه. وهذا المثال يقع كثيراً لغير اثنين، نحو قولك: عاقبت اللص. وقد قرىء: يخدعون الله. وهو بيانٌ ليقول، أو مستأنف، كأنه قيل: ولِمَ يدعون الإيمان كاذبين؟ وما منفعتهم في ذلك؟ فقيل: ﴿يخادعون الله﴾ ومنفعتهم في ذلك: متاركتهم عن المحاربة التي كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراء أحكام المؤمنين عليهم، ونيلهم من الغنائم، وغير ذلك. قال صاحب «الوقوف»: الوقف لازم على ﴿بمؤمنين﴾ لأنه لو وصل لصار التقدير: وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفي الوصف، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمراد: نفي الإيمان عنهم، وإثبات الخداع لهم. ومَن جعل يخادعون حالاً من الضمير في: يقول، والعامل فيها: يقول، والتقدير: يقول آمنا بالله مخادعين، أو حالاً من الضمير في بمؤمنين، والعامل فيها اسم الفاعل،

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

والتقدير: وما هم بمؤمنين في حال خداعهم، لا يقف. والأول الوجه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يخادعون رسول الله والمؤمنين بإظهار الإيمان، وإضمار الكفر ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأنَّ ضررها يلحقهم، وحاصل خداعهم ـ وهو العذاب في الآخرة ـ يرجعُ إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم ﴿وما يُخَادعون﴾ أبو عمرو ونافع ومكي للمطابقة. وعذر الأولين أن خدع وخادع ـ هنا ـ بمعنى واحد. والنفس: ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح: النفس؛ لأن النفسَ بهما، وللدم نفس؛ لأنَّ قوامها بالدم، وللماء نفسٌ لفرط حاجتها إليه. والمراد بالأنفس ـ هاهنا ـ: ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم، لا يعدوهم إلى غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصلَ خداعهم يرجعُ إليهم. والشعور: علم الشيء علم حس، من الشعار، وهو: ثوب يلي الجسد. ومشاعر الإنسان: حواسه؛ لأنها آلات الشعور. والمعنى: إن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لاحسَّ له.

١٠ ـ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق؛ لأن الشَّكَّ تردُّدٌ بين الأمرين، والمنافق متردد. في الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»[1]. والمريض متردد بين الحياة والموت. ولأن المرضَ ضدُّ الصحة، والفساد يقابل الصحة، فصار المرضُ اسماً لكل فساد، والشك والنفاق فساد في القلب ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: ضعفاً عن الانتصار، وعجزاً عن الاقتدار. وقيل: المراد به خلق النفاق في حالة البقاء بخلق أمثاله، كما عرف في زيادة الإيمان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعيل بمعنى مفعل، أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كوفي. أي: بكذبهم في قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ فما مع الفعل بمعنى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢ و ٤٧) ومسلم (٢٧٨٤) والنسائي (٨/ ١٢٤).
و «العائرة»: هي التي تفارق جماعة الغنم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

المصدر. والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ﴿يكَذِّبون﴾ غيرهم، أي: بتكذيبهم النبي ﷺ فيما جاء به. وقيل: هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدّق. ونظيرهما: بان الشيء وبيّن.

١١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على: يقول آمنا[1]، لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحاً. والفساد: خروجُ الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، وضده: الصلاح، وهو: الحصول على الحال المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن؛ لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع، والمنافع الدينية والدنيوية. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمداراة، يعني: إن صفة المصلحين خلصت لنا، وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد؛ لأن إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب. وما: كافة ؛ لأنها تكفُّها عن العمل.

١٢ ـ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، فحذف المفعول للعلم به. ألا: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؛ لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]. ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وقد ردَّ الله ما ادَّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردٍّ، وأدلّه على سخط عظيم. والمبالغة فيه

(١) في المطبوع: معطوف على: يكذبون، ويجوز أن يعطف على: يقول آمنا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

من جهةالاستئناف، وما في ألاوإن من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، وقوله: ﴿لا يشعرون﴾.

١٣ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ نصحوهم من وجهين: أحدهما: تقبيح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجرّه إلى الفساد، وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسدّ من اتباع ذوي الأحلام. فكان من جوابهم أن سفّهوهم لتمادي جهلهم. وفيه تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة. وإنما صح إسنادُ قيل إلى لا تفسدوا وآمنوا، مع أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يصح؛ لأنه إسناد إلى لفظ الفعل، والممتنع إسناد الفعل إلى معنى الفعل، فكأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول. ومنه: زعموا مطية الكذب. وما في كما: كافة كما في ربما، أو مصدرية كما في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. واللام في الناس للعهد، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه، وهم ناس معهودون، أو عبد الله بن سلام وأشياعه، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم. أو للجنس، أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم. والكاف في ﴿كما آمن﴾ في موضع النصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف، أي: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله ﴿كما آمن السفهاء﴾. والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ للإنكار. واللام في السفهاء مشار بها إلى الناس. وإنما سفّهوهم ـ وهم العقلاء المراجيح[1] ـ لأنهم لجهلهم اعتقدوا أنَّ ما هم فيه هو الحق، وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً. والسفه: سخافة العقل، وخفَّة الحلم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السُّفهاء. وإنما ذكر ـ هنا ـ لا يعلمون، وفيما تقدم: لا يشعرون؛ لأنه قد ذكر السفه، وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الإيمان يحتاجُ فيه إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. أما الفساد في الأرض فأمرٌ مبنيٌّ

(١) «المراجيح»: جمع مِرْجَاح، وهو الحليم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤﴾

على العادات، فهو كالمحسوس. والسفهاء: خبر إن. وهم: فصل، أو مبتدأ، والسفهاء: خبر ﴿هم﴾ والجملة: خبر إن.

١٤ ـ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ قرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿وإذا لاقَوْا﴾ يقال: لقيته ولاقيته: إذا استقبلته قريباً منه. الآية الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم، ولقائهم بوجوه المصادقين، وإيهامهم أنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ خلوت بفلان وإليه: إذا انفردت معه. وبإلى أبلغ؛ لأنَّ فيه دلالة الابتداء والانتهاء، أي: إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمرُّدهم، وهم اليهود. وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية، بدليل قولهم: تشيطن. وعنه: أنها زائدة. واشتقاقه من: شطن: إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، أو من شاط: إذا بطل، ومن أسمائه: الباطل ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محقَّقة بإن، لأنهم في خطابهم مع المؤمنين في ادِّعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادِّعاء أنهم أوحديُّون في الإيمان، إما لأنَّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرِّك، وإما لأنه لا يروجُ عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة. وكيف يطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار. وأما خطابهم مع إخوانهم فقد كان[1] عن رغبة، وقد كان مُتقبَّلاً منهم، رائجاً عنهم، فكان مظنة للتحقيق، ومَئِنّة[2] للتأكيد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لقوله ﴿إنا معكم﴾ لأنَّ معناه الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ردٌّ للإسلام، ودَفع له منهم؛ لأنَّ المستهزئَ بالشيء،

(١) في الأصل المخطوط: كانوا، والمثبت من المطبوع؛ لأنه أنسب للسياق.
(٢) «مئنة»: مَئِنَّةُ الشيء: موضعه ومَظِنَّتُه.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾

المستخف به: منكر له، ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته. أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم بقولهم، حين قالوا لهم: إنا معكم: إن كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب: الخفة، من الهزء، وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان.

١٥ ـ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، فسمّي جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فسمّي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء سيئة واعتداء. وهذا لأنَّ الاستهزاءَ لا يجوزُ على الله تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه من باب العبث، وتعالى عنه. قال الزجاج: وهو الوجه المختار. واستئناف قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من غير عطف، في غاية الجزالة والفخامة، وفيه: إن الله تعالى هو الذي يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، لما ينزل بهم من النكال والذُّلّ والهوان. ولما كانت نكاياتُ الله وبلاياه تنزلُ عليهم ساعة فساعة قيل: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يقلْ: الله مستهزىء بهم؛ ليكون طبقاً لقوله: إنما نحن مستهزئون ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يمهلهم. عن الزجاج ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ في غلوهم في كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي: يتحيرون ويترددون. وهذه الآية حُجَّةٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

١٦ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتـدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: استبدلوها به، واختاروها عليه. وإنما قال: ﴿اشتروا الضَّلالة بالهدى﴾ ولم يكونوا على هدى؛ لأنها في قوم آمنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، فلما جاءهم كفروا به، أو جعلوا لتمكنهم منه كأن الهدى قائم فيهم، فتركوه بالضَّلالة. وفيه دليلٌ على جواز البيع تعاطياً؛ لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء، ولكن تركوا الهدى بالضَّلالة عن اختيار، وسمّى ذلك

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

شراء، فصار دليلاً لنا على أنَّ مَن أخذ شيئاً من غيره، وترك عليه عوضه برضاه، فقد اشتراه وإن لم يتكلم به. والضَّلالة: الجور عن القصد، وفَقْد الاهتداء. يقال: ضلَّ منزله، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ الرِّبح: الفضلُ على رأس المال، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح. وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازي، ومعناه: فما ربحوا في تجارتهم، إذ التجارة لا تربح. ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازاً أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحاً له، كقوله:

ولما رأيتُ النَّسْرَ عَزَّ ابن دَأْيَةٍ وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جاشَ له صَدْرِي

ولما شبَّه الشيبَ بالنسر والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التَّعشيش والوكر ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لطريق التجارة، كما يكون التجار المتصرِّفون العالمون بما يربح فيه ويخسر. والمعنى: إن مطلوبَ التجار سلامةُ رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوهما، فرأس مالهم الهدى، ولم يبق لهم مع الضلالة، وإذا لم يبقَ لهم إلا الضَّلالة لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بالأغراض الدنيوية، لأنَّ الضَّال خاسر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح. وقيل: الذين: صفة أولئك، و﴿فما ربحت تجارتهم...﴾ إلى آخر الآية: في محل الرفع خبر أولئك.

١٧ ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف، وتتميماً للبيان. ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق تأثيرٌ ظاهر. ولقد كثر ذلك في الكتب السَّماوية. ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في أصل كلامهم: هو المثل، وهو النظير. يقال: مِثْل ومَثَل ومثيل كشِبْه وشَبَه وشبيه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلاً إلا قولاً فيه غرابة، ولذا حُوفِظ عليه فلا يغير. وقد استعير المثل للحال، أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن، وفيها غرابة. كأن قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: وفيما قصصنا

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾

عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان عجائبها ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. ووضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩] فلا يكون تمثيلُ الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الفوج الذي استوقد ناراً، على أن ذوات المنافقين لم يشبّهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبّهت قصَّتهم بقصَّة المستوقد. ومعنى استوقد: أوقد. ووقود النار: سُطوعها. والنار: جوهر لطيف مضيء حارّ مُحرق. واشتقاقها من: نار ينور؛ إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركةً واضطراباً ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة، ومصداقه قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] وهي في الآية متعدية. [ويحتمل أن تكونَ غير متعدية][١] مسندة إلى ﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾ والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. وجواب فلما ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ وهو ظرف زمان، والعامل فيه جوابه مثل إذا. وما موصولة، وحوله نصب على الظرف، أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حوله. وجَمْعُ الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. والنُّور: ضوء النار، وضوء كل نيِّر. ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً. ومعنى ذهب به: استصحبه، ومضى به. والمعنى: أخذ اللهُ نورهم، وأمسكه ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ الله ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢] فكان أبلغ من الإذهاب. ولم يقل: ذهب الله بضوئهم لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ لأنَّ ذِكْر النور أبلغُ؛ لأن الضوءَ فيه دلالةٌ على الزيادة، والمراد: إزالة النور عنهم رأساً، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمَّى نوراً. أَلا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ والظلمة: عرض ينافي النور، وكيف جمعها، وكيف نكّرها، وكيف أتبعها ما يدلُّ على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان، وهو قوله: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾. وترك بمعنى: طرح

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾

وخلّى إذا علق بواحد، فإذا علق بشيئين كان مضمّناً معنى صيّر، فيجري مجرى أفعال القلوب، ومنه: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والمفعول الساقط من ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطروح، لا من قبيل المقدر المنوي، كأنَّ الفعلَ غير متعدّ أصلاً، وإنما شُبِّهت حالهم بحال المستوقد؛ لأنهم غبّ[1] الإضاءة وقعوا في ظلمةٍ وحيرة. نعم المنافقُ خابطٌ في ظلمات الكفر أبداً، ولكن المراد ما استضاؤوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمةُ النفاق، المفضية بهم إلى ظلمة العقاب السرمد. وللآية تفسيرٌ آخر وهو: أنهم لما وُصِفُوا بأنهم اشتروا الضَّلالة بالهدى عقَّب ذلك بهذا التمثيل ليمثِّل هُداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم، وتركه إياهم في الظُّلمات. وتنكير النار للتعظيم.

١٨ - ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ أي: هم صُمٌّ. كانت حواسُّهم سليمةً، ولكن لما سَدُّوا عن الإصاخةِ إلى الحق مسامِعَهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم[2]. وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم: هم ليوثٌ للشجعان، وبحورٌ للأسخياء، إلا أنَّ هذا في الصفات، وذلك في الأسماء. وما في الآية تشبيهٌ بليغٌ في الأصحِّ لا استعارة؛ لأنَّ المستعارَ له مذكورٌ وهم المنافقون، والاستعارة إنما تُطلق حيث يُطوى ذِكْرُ المستعار له، ويجعل الكلامُ خلواً عنه، صالحاً لأن يُرادَ به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها؛ لتنوع الرُّجوع إلى الشيء وعنه. أو أراد أنهم مُتحيِّرون، بقوا جامدين في مكاناتهم لا يرجعون ولا يدرون أيتقدَّمون أم يتأخَّرون.

---

(١) «الغِبّ»: العاقبة والآخِر.

(٢) «إيفت مشاعرهم»: دخلتْ عليها آفةٌ وعاهة.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾

١٩ - ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ثنّى اللهُ سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبَّه المنافقين في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، وإظهارَه الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وهنا شبَّه دينَ الإسلام بالصَّيِّب؛ لأنَّ القلوبَ تحيا به حياة الأرض بالمطر؛ وما يتعلَّق به من شبه الكفار بالظلمات؛ وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق؛ وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، فحذف مثل لدلالة العطف عليه، وذوي لدلالة يجعلون عليه. والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيهُ أشياء بأشياء، إلا أنه لم يُصرِّحْ بذكر المشبهات، كما صرح في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨]. وقول امرىء القيس:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويابِساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[١]

بل جاء به مطوياً ذكره على سنن الاستعارة. والصَّحيحُ أنَّ التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفرَّقة لأنه يتكلّف لواحد واحد شيء بقدر شبهه به. بيانُه أنَّ العربَ تأخذُ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزة[٢] ذاك وتشبيهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس، وتشبه كيفيّة حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقتْ حتى عادتْ شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...﴾ الآية [الجمعة: ٥] فالمرادُ تشبيهُ حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة،

---

(١) «العناب»: ثمر أحمر رطب. «الحشف»: الجاف الرديء من التمر.
(٢) «الحُجْزة»: موضع شدِّ الإزار من الوسط. يُقال: هذا كلامٌ آخذٌ بعضُه بِحُجَز بعض: أي: متناسق متماسك.

. . . .

وحمل ما سواها من الأوقار[١]، ولا يشعر من ذلك إلا بما يمرُّ بدَقَّيه من التعب والكد. وكقوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٥] فالمراد قلةُ بقاءِ زهرة الحياة الدنيا كقلَّة بقاء الخَضِر، فهو تشبيهُ كيفيةٍ بكيفية. فأما أن يُراد تشبيهُ الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيَّرة شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدَّهشة، شبّهت حيرتهم وشدة الأمر بما يكابد من أطفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل. وكذلك مَن أخذته السَّماءُ في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. والتمثيلُ الثَّاني أبلغُ؛ لأنه أدلُّ على فرط الحيرة وشدة الأمر، ولذا أُخِّر. وهم يتدرَّجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. وعطف أحد التمثيلين على الآخر بأو؛ لأنها في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً [في الشك عند البعض، ثم استعيرتْ لمجرد التساوي][٢] كقولك: جالسِ الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيّان في استصواب أن يُجَالَسا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: الآثم والكفور سيان في وجوب العصيان. فكذا هنا معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبّهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأنَّ القصتين، سواء في استقلال كلِّ واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثّلتها فأنت مصيب، وإن مثّلتها بهما جميعاً فكذلك. والصَّيِّب: المطر الذي يصوب، أي: ينزل ويقع. ويقال للسحاب: صيب أيضاً. وتنكير صيِّب لأنه نوعٌ من المطر شديد هائل، كما نكرت النار في التمثيل الأول. والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف. والفائدة في ذكر السماء ـ والصيب لا يكونُ إلا من السَّماء ـ أنه جاء بالسماء معرَّفة فأفاد أنه غمام أخذ بآفاق السماء، ونفى أن يكونَ من سماء، أي: من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأنَّ كلَّ أفق من آفاقها سماء. ففي التعريف مبالغةٌ كما في تنكير صيِّب

---

(١) «الأوقار»: جمع الوِقْر، وهو الحِمْل الثقيل.

(٢) مابين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾

وتركيبه وبنائه. وفيه دليلٌ على أنَّ السحابَ من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه. وقيل: إنه يأخذُ من البحر ويرتفع. ظلمات: مرفوع[١] بالجار والمجرور؛ لأنه قد قوي لكونه صفة لصيِّب، بخلاف ما لو قلت ابتداء: فيه ظلمات، ففيه خلاف بين الأخفش وسيبويه. والرعد: الصَّوت الذي يُسمع من السحاب لاصطكاك أجرام السحاب، أو مَلَك يسوقُ السحاب. والبرق: الذي يلمعُ من السحاب، من برق الشيء بريقاً: إذا لمع. والضمير في فيه يعودُ إلى الصيِّب، فقد جعل الصَّيِّب مكاناً للظلمات، فإن أريدَ به السحاب فظلماته إذا كان أ سحم[٢] مطبقاً، ظلمتا سُحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمةُ تكاثفه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. وجَعْل الصيِّب مكاناً للرعد والبرق على إرادة السحاب به ظاهر. وكذا إن أريدَ به المطر؛ لأنهما مُلتبسان به في الجملة. ولم يجمع الرَّعد والبرق لأنهما مصدران في الأصل، يقال: رعدت السماءُ رعداً، وبرقت برقاً، فروعي حُكْمُ الأصل بأن ترك جمعهما. ونُكِّرت هذه الأشياء لأن المرادَ أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيب وإن كان محذوفاً، كما في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه. ولا محلّ ليجعلون لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدَّة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وإنما ذكر الأصابع، ولم يذكر الأنامل، ورؤوس الأصابع هي التي تُجعل في الآذان، اتساعاً، كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] والمراد إلى الرسغ. ولأنَّ في ذِكْر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذي تُسَدُّ به الأذن؛ لأن السبابةَ فعَّالة من السب، فكان

(١) من المطبوع.
(٢) «أسحم»: أَسْوَد.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾

اجتنابها أولى بآداب القرآن، ولم يذكر المُسبِّحة لأنها مُستحدثة غير مشهورة ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. والصاعقة: قصفةُ رعد تنقضُّ معها شقّةٌ من نار. قالوا: تنقدحُ من السحاب إذا اصطكت أجرامه. وهي نار لطيفةٌ حديدة، لا تمرُّ بشي إلا أتتْ عليه، إلا أنها مع حدَّتها سريعة الخمود. يُحكى أنها سقطت على نخلةٍ فأحرقت نحو النصف ثم طُفِئت. ويقال: صعقته الصاعقة: إذا أهلكته فصعق، أي: مات إما بشدة الصوت، أو بالإحراق ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له. والموت: فساد بنية الحيوان أو عرض لا يصحُّ معه إحساس معاقب للحياة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاطُ به المحيط به، فهو مجاز، وهذه الجملةُ اعتراضٌ لا محلَّ لها.

٢٠ ـ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة، وكاد يُستعمل لتقريب الفعل جداً، وموضع يخطف نصب؛ لأنه خبر كاد ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ كل ظرف، وما نكرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد محذوف، أي: كل وقت أضاء لهم فيه، والعامل فيه جوابها وهو ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: في ضوئه. وهو استئناف ثالث كأنَّه جوابٌ لمن يقولُ: كيف يصنعون في تارَتَيْ خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيلٌ لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيِّب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون. إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطفَ أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتَر لمعانه بقوا واقفين. وأضاء: متعدّ، أي: كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف؛ أو غير متعدّ، أي: كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره. والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتدَّ فهو سَعْي، فإذا ازداد فهو عدْوٌ ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أظلم غير متعد. وذكر مع أضاء كلما، ومع أظلم إذا؛ لأنهم حراصٌ على وجود ما همّهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف ﴿قَامُوا۟﴾ وقفوا، وثبتوا

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

في مكانهم، ومنه: قام الماء: إذا جمد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقصيف الرعد، ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بوميض البرق. ومفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه، أي: ولو شاء الله أن يذهبَ بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء، وأراد: لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب، كنحو قوله:

فلو شِئْتُ أن أبكي دَماً لَبَكَيْتُهُ عليه ولكن ساحة الصَّبرِ أوسعُ

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] و﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله قادرٌ على كل شيء.

٢١ ـ لما عدَّد اللهُ فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم، وما اختصَّت به كلُّ فرقة مما يسعدها، ويشقيها، ويحظيها[١]، ويرديها أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ . قال علقمة: ما في القرآن ﴿يا أيها الناس﴾ فهو خطابٌ لأهل مكة، وما فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة. وهذا خطابٌ لمشركي مكة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد ـ وأي والهمزة للقريب ـ ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بَعُد ونأى، فإذا نُودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه مُعتنى به جداً. وقول الداعي: يا رب ـ وهو أقربُ إليه من حبل الوريد ـ استقصارٌ منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظانّ الزلفى، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته. وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل. وهو اسمٌ مبهمٌ يفتقرُ إلى ما يزيلُ إبهامه، فلا بُدَّ أن

(١) أي: عند الله تعالى.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾

يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه يتصف به، حتى يتَّضح المقصودُ بالنداء. فالذي يعمل فيه يا: أي. والتابعُ له صفته، نحو: يا زيد الظريف. إلا أن أيّاً لا يستقلُّ بنفسه استقلال زيد، فلم ينفكَّ عن الصفة. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يستحقُّه، أي: من الإضافة. وكثر النداءُ في القرآن على هذه الطريقة؛ لأن ما نادى اللهُ به عبادَه من أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، أمور عظام، وخطوب جسام، يجبُ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت[1] أن ينادوا بالآكد الأبلغ ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وحِّدوه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلُّ عبادةٍ في القرآن فهي توحيد ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ صفة موضحة مميزة؛ لأنهم كانوا يسمُّون الآلهة أرباباً. والخَلْقُ: إيجادُ المعدوم على تقدير واستواء. وعند المعتزلة: إيجادُ الشيء على تقدير واستواء. وهذا بناء على أنَّ المعدومَ شيءٌ عندهم؛ لأنَّ الشيء ما صحَّ أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسمٌ للموجود (خَلَقكُمْ): بالإدغام، أبو عمرو ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق مَن قبلهم؛ لأنهم كانوا مُقرِّين بذلك، فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا على رجاء أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب. ولعل للترجي والإطماع، ولكنه إطماعٌ من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وبه قال سيبويه. قال قطرب: هو بمعنى كي، أي: لكي تتقوا.

٢٢ ـ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: صيَّر. ومحل الذي نصب على المدح، أو رفع بإضمار هو ﴿فِرَٰشٗا﴾ بساطاً تقعدون عليها، وتنامون، وتتقلبون، وهو مفعول ثان لجعل. وليس فيه دليلٌ على أن الأرضَ مسطَّحة أو كروية إذ الافتراشُ ممكنٌ على التَّقديرين ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ سقفاً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا

(١) أي: فاقتضت الحالُ.

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وهو مصدر سُمِّي به المبنيّ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ بالماء. نعم خروجُ الثمرات بقدرته ومشيئته وإيجاده، ولكن جعل الماء سبباً في خروجها، كماء الفحل في خَلْق الولد، وهو قادرٌ على إنشاء الكلِّ بلا سبب، كما أنشأ نفوسَ الأسباب والمواد، ولكنّ له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة، حكماً وعبراً للنظار بعيون الاستبصار. ومِن في ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للتبعيض، أو للبيان. ﴿رِزۡقًا﴾ مفعول له إن كانت مِنْ للتبعيض، ومفعول به لأخرج إن كانت للبيان. وإنما قيل: الثمرات دون الثمر والثمار ـ وإن كان الثمرُ المخرجُ بماء السماء كثيراً ـ لأن المرادَ جماعةُ الثمرة، ولأن الجموعَ يتعاورُ بعضُها موقع بعض؛ لالتقائها في الجمعية ﴿لَّكُمۡ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو متعلق بالأمر، أي: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أنداداً؛ لأنَّ أصلَ العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل له ندّ ولا شريك. ويجوز أن يكون ﴿الذي﴾ رفعاً على الابتداء، وخبره ﴿فلا تجعلوا﴾ ودخول الفاء لأن الكلام يتضمَّن الجزاء، أي: الذي حفَّكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء. والندّ: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المنافي. ومعنى قولهم ليس لله ندٌّ ولا ضدّ: نفي ما يسدُّ مسدَّه، ونفي ماينافيه ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنها لا تخلقُ شيئاً، ولا ترزق، والله الخالقُ الرازق. أو مفعول تعلمون متروك، أي: وأنتم من أهل العلم، وجعل الأصنام لله أنداداً غاية الجهل. والجملة حال من الضمير في ﴿فلا تجعلوا﴾.

٢٣ ـ ولما احتجَّ عليهم بما يثبتُ الوحدانية، ويبطل الإشراك ـ لخلقهم أحياء قادرين، وخلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم، وخلق السماء التي هي

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾

كالقبة المضروبة، والخيمة المطنَّبة[1] على هذا القرار، وما سوّاه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلّة والمظلّة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقاً لبني آدم. فهذا كلُّه دليلٌ موصلٌ إلى التوحيد، مبطلٌ للإشراك؛ لأنَّ شيئاً من المخلوقات لا يقدرُ على إيجاد شيء منها ـ عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يقرر إعجاز القرآن، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ الآية. ما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، والعبد: اسم لمملوك من جنس العقلاء. والمملوك: موجودٌ قُهِر بالاستيلاء.

وقيل: نزلنا دون أنزلنا؛ لأن المرادَ النزولُ على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من مجازّه لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزلْ هكذا نجوماً سورة بعد سورة، وآيات غبّ آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً شيئاً فشيئاً، لا يلقي الناظم ديوانَ شعره دفعة، ولا يرمي النّاثر[2] بخطبه ضربة، فلو أنزله اللهُ لأنزله جملة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على تدريج: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي: فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلُّها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلاً؛ فإما أن تُسمَّى بسور المدينة، وهو حائطُها؛ لأنها طائفةٌ من القرآن محدودةٌ محوَّزة على حيالها، كالبلد المسوَّر، أو لأنها محتويةٌ على فنون من العلم، وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها. وإمّا أن تسمَّى بالسُّورة التي هي الرتبة؛ لأن السُّوَرَ بمنزلة المنازل والمراتب، يترقى فيها القارىءُ، وهي أيضاً في نفسها مُرتَّبة:

(١) «طنَّب الخيمة»: جعل لها حبالاً طويلة وشدَّها بها.

(٢) في الأصل المخطوط: الناظر، والمثبت من المطبوع؛ لأنّ الناثر يقابل الناظم.

مِّن مِّثۡلِهِۦ

طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة بنائها[١]، وجلالة محلِّها في الدِّين. وإن كانت مُنقلبةً عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسؤرة التي هي: البقية من الشيء. وأما الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فهي كثيرة ـ ولذا أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه عليهم السلام مسورة مترجمة السور، وبوَّب المصنِّفون في كلِّ فنٍّ كتبهم أبواباً مُوشَّحة الصدور بالتراجم ـ منها: أن الجنس إذا انطوتْ تحته أنواعٌ، واشتمل على أصناف، كان أحسن من أن يكونَ بياناً واحداً. ومنها: أن القارىءَ إذا ختم سورةً، أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس، والتحصيل منه، لو استمر على الكتاب بطوله. ومن ثم جزأ القرّاءُ القرآنَ أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً. ومنها: أن الحافظَ إذا حذقَ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفةً مستقلة بنفسها، ولها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجلُّ في نفسه. ومنه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان الرجلُ إذا قرأ البقرةَ وآل عمران جلَّ فينا[٢]. ومن ثم كانت القراءةُ في الصلاة بسورةٍ تامة أفضل ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ متعلق بسورة صفة لها. والضمير لما نزلنا، أي: بسورة كائنة من مثله. يعني: فأتوا بسورةٍ مما هو على صفته في البيان الغريب، وعلوِّ الطبقة في حُسْن النظم؛ أو لعبدنا، أي: فأتوا ممَّن هو على حاله من كونه أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذْ من العلماء، ولا قصد إلى مثلٍ ونظير هنالك. وردُّ الضمير إلى المُنَزَّل أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هود: ١٣] ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] ولأن الكلامَ مع ردِّ الضمير إلى المُنَزَّل أحسن ترتيباً، وذلك: أن الحديثَ في المُنَزَّل لا في المُنَزَّل عليه، وهو مسوقٌ إليه، فإنَّ المعنى: وإن ارتبتم في أنَّ القرآنَ منزلٌ من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله. وقضية الترتيب لو كان الضميرُ مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقالَ: وإن ارتبتم في أنَّ محمداً مُنزل عليه،

(١) في المطبوع: شأنها.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) وفيه: جدَّ فينا، أي: عظم.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾

فهاتوا قرآناً من مثله، ولأنَّ هذا التفسيرَ يلائمُ قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ جمع شهيد؛ بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله، وهو متعلق بـ﴿شهداءكم﴾ أي: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهةً من دون الله، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحقِّ، أو من يشهد لكم بأنَّه مثل القرآن ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أن ذلك مختلقٌ، وأنه من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا أنتم بمثله، واستعينوا بآلهتكم على ذلك.

٢٤ ـ ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ. . . . . .﴾ لمَّا أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرَّفون صدقَ النبي ﷺ قال لهم: فإذا لم تعارضوه، وبان عجزُكم، ووَجَبَ تصديقُه فآمنوا، وخافوا العذابَ المعدّ لمن كذَّب وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدَّى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ولما كان العجزُ عن المعارضة قبل التأمُّل كالمشكوك فيه لديهم؛ لا تكالهم على فصاحتهم، واعتمادهم على بلاغتهم، سيق الكلامُ معهم على حسب حسبانهم، فجيء بإن الذي للشك، دون إذا الذي للوجوب، وعبَّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعلٌ من الأفعال، والفائدة فيه: أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً، إذ لو لم يُعْدَل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله. ولا محلَّ لقوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ لأنها جملةٌ اعتراضية. وحَسَّن هذا الاعتراضَ أنَّ لفظَ الشرط للتردُّد، فقطع التردُّد بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾. ولا ولن أختان في نفي المستقبل، إلا أنَّ في لن تأكيداً، وعن الخليل: أصلها لا أن، وعند الفراء لا، أبدلت ألفها نوناً. وعند سيبويه: حرفٌ موضوعٌ لتأكيد نفي المستقبل. وإنما علم أنه إخبارٌ عن الغيب على ما هو به، حتى صار معجزةً؛ لأنهم لو عارضوه بشيءٍ لاشتهر، فكيف والطاعنون فيه أكثر من الذَّابين عنه؟! وشرط في اتقاء النار انتفاءُ إتيانهم بسورةٍ من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبيَّن عجزُهم عن المعارضة صحَّ عندهم صِدْقُ الرسول، فإذا صحَّ

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ

عندهم صدقُه، ثم لزموا العنادَ، وأبوا الانقياد استوجبوا النار، فقيل لهم: إن استبنتم العجزَ فاتركوا العناد، فوضع ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتقاءَ النار سببُ ترك العناد، وهو من باب الكناية، وهي من شُعَب البلاغة، وفائدته: الإيجاز الذي هو من حلية القرآن. والوقود: ما ترفعُ به النار، يعني: الحطب. وأما المصدر فمضمومٌ، وقد جاء فيه الفتح. وصلة الذي والتي يجبُ أن تكونَ معلوماً للمخاطب، فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب، أو من رسول الله، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. وإنما جاءت النارَ مُنكَّرةً ثَمَّ، ومعرَّفة هنا؛ لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً. ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أنها نارٌ ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تتَّقدُ بالناس والحجارة. وهي حجارةُ الكبريت، فهي أشدُّ توقُّداً، وأبطأ خموداً، وأنتن رائحة، وألصق بالبدن؛ أو الأصنام المعبودة، فهي أشدُّ تحسراً. وإنما قرنَ الناسَ بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث عبدوها، وجعلوها لله أنداداً، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبها، فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في إيلامهم ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هُيِّئت لهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ، خلافاً لما يقوله جهم[١].

٢٥ ـ سُنَّةُ الله في كتابة أن يذكر الترغيبَ مع الترهيب تنشيطاً لاكتساب ما يُزْلف[٢]، وتثبيطاً[٣] عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم، وأوعدهم بالعقاب قفَّاه[٤] بذكر المؤمنين وأعمالهم، وتبشيرهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ

(١) هو جَهْم بن صفوان: ضالّ مبتدع، قتله نصر بن سيّار سنة (١٢٨هـ).
(٢) «يزلف»: يُقَرِّب ويُقَدِّم.
(٣) «تثبيطاً»: تعويقاً وإشغالاً.
(٤) «قفَّاه»: أتبعه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والمأمور بقوله ﴿وبشر﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو كل أحد، وهذا أحسنُ؛ لأنه يُؤْذِنُ بأنَّ الأمرَ لعظمه، وفخامة شأنه محقُوقٌ بأن يبشّر به كلّ من قدر على البشارة به. وهو معطوف على ﴿فاتقوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كقولك: زيد يُعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق. والبشارة: الإخبارُ بما يظهرُ سرور المخبر به، ومن ثم [قال العلماء][1] إذا قال لعبيده: أيكم بشَّرني بقدوم فلان فهو حرٌّ، فبشروه فرادى عتق أولهم؛ لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين، ولو قال: أخبرني مكان بشرني عتقوا؛ لأنهم أخبروه. ومنه البشرة: لظاهر الجلد، وتباشير الصُّبح: ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فمن العكس في الكلام الذي يقصدُ به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به، كما يقول الرجلُ لعدوّه: أبشر بقتل ذريتك ونَهْب مالك. والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. والصالحاتُ: كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقل، والكتاب، والسُّنَّة. واللام للجنس. والآيةُ حُجَّةٌ على مَن جَعَل الأعمال إيماناً؛ لأنه عطف الأعمالَ الصَّالحةَ على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون: يجوزُ أن يدخلَ المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشَّر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً؛ لأن البشارةَ المطلقةَ بالجنة شَرْطُها اقترانُ الأعمال الصَّالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة، بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه، ثم يدخلُه الجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بأنَّ لهم، وموضع أن وما عملت فيه: النصب ببشر عند سيبويه، خلافاً للخليل، وهو كثيرٌ في التنزيل. والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف. والتركيب دائر على

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى

معنى الستر، ومنه: الجن، والجنون، والجنين، والجنة، والجان، والجنان. وسُمِّيت دارُ الثواب جنةً لما فيها من الجنان. والجنة مخلوقة كقوله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] خلافاً لبعض المعتزلة. ومعنى جمع الجنة وتنكيرها: أنَّ الجنةَ اسمٌ لدار الثواب كلّها، وهي مشتملةٌ على جنان كثيرة، ومرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّاتٌ من تلك الجنان ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الجملة في موضع النصب صفة لجنات. والمراد: من تحت أشجارها، كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية، وأنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزهُ البساتين ما كانت أشجارها مظللة، والأنهار في خلالها مطَّردة. والجري: الاطراد. والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال للنيل: نهر مصر، واللغة الغالبة: النَّهَر، ومدارُ التركيب على السّعة. وإسناد الجري إلى الأنهار مجازي. وإنما عرف الأنهار لأنه يحتملُ أن يُرادَ بها أنهارها، فعُوض التعريفَ باللام من تعريف الإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أو يُشارُ باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] الآية. والماء الجاري من النّعمة العظمى، واللذة الكبرى؛ ولذا قرن اللهُ تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية، وقدَّمه على سائر نُعوتها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ صفة ثانية لجنات، أو جملة مستأنفة، لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخلُ خلدُ السامع أن يقعَ فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس؟ فقيل: إنّ ثمارها أشباهُ ثمارِ جنات الدنيا، أي: أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غايةٍ لا يعلمُها إلا الله ﴿ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: كلما رُزِقوا من الجنات ـ من أيّ ثمرة كانت، مِن: تفاحها، أو رمانها، أو غير ذلك ـ رزقاً، قالوا ذلك. فـ(مِنْ) الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية؛ لأن الرزقَ قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدأ من ثمرة. ونظيره أن تقولَ: رزَقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من الرمان. وليس المرادُ بالثمرة التفاحة الواحدة،

﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾

أو الرمانة الفذة، وإنما المرادُ نوعٌ من أنواع الثمار ﴿رُزِقْنَا﴾ أي: رزقناه، فحذف العائد ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا، فلما قُطِع عن الإضافة بُني. والمعنى: هذا مثلُ الذي رزقنا من قبل، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾. وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد: أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. الضمير في «به» يرجعُ إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً، لأن قوله: ﴿هذا الذي رُزِقنا من قبل﴾ انطوى تحته ذِكْرُ ما رزقوه في الدارين. وإنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا، ولم تكن أجناساً أخر؛ لأنَّ الإنسانَ بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفْه نَفَر عنه طبعُه، وعافته نفسُه، لأنه إذا شاهد ما سلف له به عهدٌ، ورأى فيه مزيّة ظاهرة، وتفاوتاً بيّناً، كان استعجابُه به أكثر، واستغرابه أوفر. وتكريرهم هذا القول عند كلِّ ثمرة يرزقونها دليلٌ على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزيّة، وعلى أنَّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجُّبهم في كل أوان. أو إلى الرزق[١]، كما أنَّ هذا إشارة إليه. والمعنى: أن ما يُرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه، كما يُحكى عن الحسن: يُؤتى أحدُهم بالصّحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى، فيقول: هذا الذي أُتينا به من قبل. فيقول المَلَك: كُلْ فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده! إنَّ الرجلَ من أهل الجنة ليتناولُ الثمرةَ ليأكلها فما هي بواصلةٍ إلى فيه حتى يبدلها الله مكانها مثلها[٢]» فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ جملة معترضة للتقرير، كقولك: فلان أحسن بفلان ـ ونعم ما فعل ـ ورأى من الرأي كذا، وكان صواباً. ومنه: ﴿وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ أزواج: مبتدأ، ولهم الخبر، وفيها ظرف للاستقرار

---

(١) أي: الضمير في «به» عائد إلى الرزق.

(٢) رواه الطبراني في الكبير(١٤٤٩) والبزار كما في كشف الأستار(٣٥٣٠) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٥) بلفظ: «لا ينزعُ رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا نبت مكانها مِثْلاها».

﴿مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ من مساوىء الأخلاق، لا طمحات[١] ولا مرحات[٢]؛ أو مما يختصُّ بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من البول والغائط، وسائر الأقذار والأدناس. ولم تُجمع الصفة كالموصوف لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقلْ: طاهرة لأن مطهرة أبلغ؛ لأنها تكونُ للتكثير، وفيها إشعارٌ بأن مُطَهِّراً طهَّرهُنَّ، وما ذلك إلا الله عز وجل ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الخلد: البقاء الدائم الذي لا ينقطع. وفيه بطلانُ قول الجهمية، فإنهم يقولون بفناء الجنة وأهلها؛ لأنه تعالى وصف بأنه الأول والآخر، وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع، فيجب تحقيقُ وصف الآخرية بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقَّق بعد فناء الكل، فوجب القولُ به ضرورة، ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافه باقية، فلو كانت الجنةُ باقيةً مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق، وذا محال. قلنا: الأول في حقِّه هو الذي لا ابتداءَ لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاءَ له، وفي حقنا الأول هو الفرد السابق، والآخر هو الفرد اللاحق. واتِّصافه بهما لبيان صفة الكمال، ونفي النقيصة والزوال، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه. وأنَّى يقعُ التشابهُ في البقاء، وهو تعالى باقٍ لذاته، وبقاؤه واجبُ الوجود، وبقاء الخلقِ به، وهو جائزُ الوجود؟!

٢٦ ـ لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب به مثلاً، ضحكت اليهودُ، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي: لا يترك ضَرْب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثَّل بها لحقارتها. وأصل الحياء: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسانَ من تخوُّف ما يُعاب به ويُذَمُّ. ولا يجوزُ على القديم التغير، والخوف، والذم. ولكن الترك لما كان مِن لوازمه عبَّر عنه به. ويجوز أن تقعَ هذه العبارةُ في كلام الكفرة

---

(١) «لا طمحات»: لا يبغضن أزواجهن، ولا ينظرن إلى غيرهم.

(٢) «لا مرحات»: المَرَح: التبختر والاختيال.

﴿فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾

فقالوا: أما يستحيي ربُّ محمد أن يضربَ مثلاً بالذباب والعنكبوت. فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال. وهو فنٌّ من كلامهم بديع. وفيه لغتان: التعدي بنفسه وبالجار، يقال: استحييته، واستحييت منه، وهما محتملتان هنا. وضَرْب المثل: صنعه، من: ضرب اللبِن وضرب الخاتم و﴿ما﴾ هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنتْ باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد: أي كتاب كان. أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] كأنه قال: لا يستحيي أن يضربَ مثلاً البتة. وبعوضة: عطف بيان لمثلاً، أو مفعول ليضرب، ومثلاً: حال من النكرة مقدّمة عليه، أو انتصبا مفعولين على أنَّ ضرب بمعنى جعل. واشتقاقها من البعض ـ وهو القطع ـ كالبضع والعضب يقال: بَعَضَه البعوض، ومنه: بعض الشيء لأنه قطعة منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوزها، وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو: القلَّة والحقارة. أو فما زاد عليها في الحجم، كأنه أراد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة. ولا يقال: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة، وهي النهاية في الصِّغر؛ لأنَّ جناحَ البعوضة أقلُّ منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسولُ الله ﷺ مثلاً للدنيا(١) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير للمثل، أو لأن يضرب. والحقُّ: الثَّابت الذي لا يسوغُ إنكاره، يقال: حق الأمر؛ إذا ثبت ووجب ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل معنى الحق، وذو الحال الضمير المستتر فيه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ ويُوقف عليه؛ إذ لو وصِل لصار ما بعده صفة له، وليس كذلك. وفي قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ استحقار، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في عبد الله

(١) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى منها شربَةَ ماء» رواه الترمذي (٢٣٢٠).

يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ

ابن عمرو: ياعجباً لابن عمرو هذا! مُحقِّرةً له. ومثلاً: نصب على التمييز، أو على الحال، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]. و﴿أما﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذا يُجاب بالفاء، وفائدته في الكلام: أن يعطيَه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدتَ توكيده، وأنه لا محالة ذاهب، قلت: أما زيد فذاهب؛ ولذا قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسيرُ يفيدُ كونه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط. وفي إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إحمادٌ عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بليغ بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظّهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، وما: استفهاماً، فيكون كلمتين. وأن تكون ذا: مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً للاستفهام، فيكون كلمة واحدة. فما على الأول: رفع بالابتداء، وخبره: ذا مع صلته، أي: أراد، والعائد محذوف. وعلى الثاني منصوب المحل بأراد، والتقدير: أي شيء أراد الله. والإرادة مصدر أردت الشيء؛ إذا طلبته نفسك، ومال إليه قلبك، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص المفعولات بوجهٍ دون وجه. والله تعالى موصوفٌ بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة. وقال معتزلةُ بغداد: إنه تعالى لا يُوصَف بالإرادة على الحقيقة. فإذا قيل: أراد الله كذا، فإن كان فِعله فمعناه أنه فعل، وهو غيرُ ساهٍ ولا مكره عليه، وإن كان فِعل غيره فمعناه أنه أمر به ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدَّرتين بأما، وأنَّ فريقَ العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به، كلاهما موصوفٌ بالكثرة، وأن العلمَ بكونه حقاً من باب الهدى، وأن الجهلَ بحسن مورده من باب الضلالة، وأهلُ الهدى كثيرٌ في أنفسهم، وإنما يوصفون بالقلة بالقياس إلى أهل الضلال، ولأنَّ القليلَ من المهتدين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلّوا في الصورة.

إنَّ الكـرامَ كثيرٌ في البـلادِ وإنْ قَلُّوا كما غَيْرُهم قَلَّ وإن كَثُرُوا

والإضلالُ: خَلْقُ فِعْل الضلال في العبد، والهدايةُ: خَلْقُ فِعْل الاهتداء.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾

هذا هو الحقيقة عند أهل السُّنة. وسياق الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجهلةُ من الكفار، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع الاستنكار والاستغراب؛ لأنَّ التمثيلَ إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى، وإدناء المتوهّم من المشاهد. فإن كان المتمثلُ له عظيماً كان المتمثّل به كذلك، وإن كان حقيراً كان المتمثّل به كذلك. أَلَا ترى أنَّ الحقَّ لما كان واضحاً جليّاً تمثّل له بالضياء والنور، وأن الباطلَ لما كان بضدِّ صفته تمثّل له بالظلمة. ولما كانت حالُ الآلهة التي جعلها الكفارُ أنداداً لله لا حال أحقر منها، وأقلّ ـ ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً ـ لم يستنكر، ولم يستبدع، ولم يقل للمتمثل: استحي من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيبٌ في تمثيله، محقٌّ في قوله، سائقٌ للمثل على قضية مضربه. ولبيان أنَّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق، وأنَّ الكفارَ الذين غلبهم الجهلُ على عقولهم إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأنَّ ذلك سبَبَ هدى المؤمنين، وضلال الفاسقين. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك، وما زال الناسُ يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش[1] الأرض، فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وأضعف من البعوضة، وأعز من مخّ البعوض. ولكن ديدنُ المحجوج والمبهوت أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح، وإنكار اللائح ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هو مفعول يضل، وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأن يضلّ لم يستوفِ مفعوله.

والفسق: الخروج عن القصد. وفي الشريعة: الخروج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازلُ بين المنزلتين، أي: بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة، وسيمرُّ عليك ما يبطله إن شاء الله.

---

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: وخشاش.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

٢٧ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ النقضُ: الفسخُ وفكُّ التركيب. والعهد: الموثق. والمرادُ بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبارُ اليهود المتعنِّتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. وعهد الله: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمرٌ وصَّاهم به، ووثقه عليهم. أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعِثَ إليهم رسولٌ يصدِّقه الله بمعجزاته صدقوه، واتبعوه، ولم يكتموا ذكره. أو أَخَذَ الله العهدَ عليهم ألا يسفكوا دماءهم، ولا يبغي بعضُهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامَهُم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود، العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرُّوا بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ . . . ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، وعهد خصَّ به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويقيموا الدين، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧] وعهد خصّ به العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ أصله من الوثاقة، وهي: إحكامُ الشيء. والضمير للعهد. وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله، وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكونَ بمعنى توثقته، كما أن الميعادَ بمعنى الوعد. أو لله تعالى، أي: من بعد توثقته عليهم. ومن: لابتداء الغاية ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ هو قطعهم الأرحامَ وموالاةَ المؤمنين، أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض، وكفرهم ببعض. والأمر: طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء. وما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي. وأن يوصل: في موضع جرّ بدل من الهاء، أي: بوصله، أو في موضع رفع، أي: هو أن يوصل ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بقطع السبيل، والتعويق عن الإيمان ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ مبتدأ ﴿ هُمُ ﴾ فصل. والخبر ﴿ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي: المغبونون، بحيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصَّلاح، والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

---

٢٨ ـ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ معنى الهمزة التي في كيف مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟! والواو في: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ نطفاً في أصلاب آبائكم للحال و«قد» مضمرة. والأموات: جمع ميت، كالأقوال جمع قَيْل. ويقال لعادم الحياة أصلاً: ميت أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون إلى الجزاء. أو: ثم يحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنشور. وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقي بثم؛ لأنَّ الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة، والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت إن أريد النشور، وإن أريدَ إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور. وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصَّة التي ذكرها؛ لأنها مشتملةٌ على آياتٍ بيّناتٍ تصرفُهم عن الكفر، ولأنها تشتملُ على نِعَم جسامٍ حقها أن تُشْكَر ولا تُكْفَر.

٢٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدَّالَّة على صانعٍ قادرٍ حكيمٍ عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة؛ لأنَّ ملاذَّها تذكر ثوابها، ومكارهها تذكِّر عقابها. وقد استدل الكرخي وأبو بكر الرازي والمعتزلة بقوله ﴿خلق لكم﴾ على أنَّ الأشياءَ التي يصحُّ أن يُنتفعَ بها خُلِقت مباحةً في الأصل ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ما ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود، أي: قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أقبل وعمد إلى خلق

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾

السَّموات بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريدَ فيما بين ذلك خَلْق شيء آخر، والمرادُ بالسماء: جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. الضمير في ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ مُبهم يفسرِّه ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كقولهم: رُبَّه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، ولفظها واحد، ومعناها الجمع؛ لأنَّها في معنى الجنس. ومعنى تسويتهن: تعديل خَلْقهن، وتقويمه، وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خَلْقهن. و﴿ثم﴾ هنا لبيان فَضْل خَلْق السموات على خَلْق الأرض. ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] لأنَّ جرم الأرض تقدَّم خَلْقهُ خلق السماء، وأما دحوها فمتأخر. وعن الحسن: خلق اللهُ الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر[(١)]، عليها دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفِهْر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو الالتزاق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن ثَم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم. (وَهُوَ) وأخواته مدني غير ورش. (وَهْوَ): هو وأبو عمرو وعلي، جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة، فصار بمنزلة عضد، وهم يقولون في عَضُد عضْد بالسكون.

٣٠ ـ ولما خلق الله تعالى الأرض أسكنَ فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفةً من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم. فأمر نبيَّه عليه السلام أن يذكر قصَّتهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. إذ نصب بإضمار اذكر. والملائكة: جمع ملأك، كالشمائل جمع شمأل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أي: مُصيِّر، من جعل الذي له مفعولان، وهما ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وهو من يخلف غيره. فعيلة بمعنى فاعلة، وزيدت الهاء للمبالغة. والمعنى: خليفة منكم؛

(١) «الفِهْر»: الحَجَر.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾

لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، ولم يقل خلائف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد: من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم، فوحّد لذلك. أو خليفة مني؛ لأن آدم كان خليفةَ الله في أرضه، وكذلك كلّ نبي، قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦] وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم. أو ليعلّم عباده المشاورةَ في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ تعجُّبٌ من أن يَستخلفَ مكانَ أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يجهل. وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهة اللوح، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: يصبّ. والواو في ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ﴾ للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحقُّ منه بالإحسان؟! ﴿بِحَمۡدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، كقوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي: دخلوا كافرين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونطهِّر أنفسنا لك. وقيل: التسبيح والتقديس: تبعيد الله من السوء، من سبح في الأرض، وقدس فيها: إذا ذهب فيها، وأبعد ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من الحكم في ذلك ما هو خفي عليكم. يعني: يكون فيهم الأنبياء، والأولياء، والعلماء. وما: بمعنى الذي، وهو مفعولُ أعلم، والعائد: محذوف، أي: ما لا تعلمونه. (إنِّيَ) حجازي وأبو عمرو.

٣١ ـ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ هو اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر. واشتقاقهم آدم من أديم الأرض، أو من الأَدَمَة، كاشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلاس ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، إذ الاسمُ يدلُّ على المسمّى، وعوض منه اللام، كقوله تعالى:

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ولا يصحُّ أن يقدر: وعلَّم آدم مسميات الأسماء؛ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لأن التعليمَ تعلّق بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله تعالى ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ و﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم. ومعنى تعليمه أسماء المسميات: أنه تعالى أراه الأجناسَ التي خَلَقها، وعلَّمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: علّمه اسم كلِّ شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات. وإنما ذكّر لأنَّ في المسميات العقلاء فغلّبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزَهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين، سفاكين للدماء. وفيه ردٌّ عليهم، وبيان أنَّ فيمن يستخلفُه من الفوائد العلمية التي هي أصولُ الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا.

٣٢ ـ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك. وأفادتنا الآيةُ أن علم الأسماء فوق التخلِّي للعبادة، فكيف بعلم الشريعة؟! وانتصابُه على المصدر تقديره: سبحت اللهَ تسبيحاً ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وليس فيه علم الأسماء. وما: بمعنى الذي. والعلم بمعنى المعلوم، أي: لا معلومَ لنا إلا الذي علّمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ غير المعلَّم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قضيتَ وقدَّرتَ. والكاف اسم إن، وأنت: مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر إن. أو ﴿أَنتَ﴾ فصل، والخبر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ والحكيم: خبر ثان.

٣٣ ـ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ سمَّى كلَّ شيء باسمه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعلمُ ما غاب فيهما عنكم،

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾

مما كان، ومما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرُّون.

٣٤ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي: اخضعوا له، وأقرُّوا بالفَضْل له. عن أُبيّ بن كعب، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان ذلك انحناءً، ولم يكن خروراً على الذّقن. والجمهورُ على أنَّ المأمورَ به وَضْعُ الوجه على الأرض. وكان السجودُ تحيةً لآدم ـ عليه السلام ـ في الصحيح، إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس. وكان سجودُ التحية جائزاً فيما مضى، ثم نُسِخ بقوله ﷺ لسلمان حين أراد أن يسجد له: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجدَ لأحدٍ إلا لله تعالى»(١) ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة، كذا قاله عليّ، وابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ ولأن الأصلَ أنَّ الاستثناءَ يكون من جنس المستثنى منه. ولهذا قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] معناه صار من الجن كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقيل: الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يكنْ من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصِّ، وهو قولُ الحسن وقتادة، ولأنه خُلِق من نار، والملائكة خُلِقوا من النور، ولأنه أبىٰ، وعصىٰ، واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] ولا نَسْلَ للملائكة. وعن الجاحظ: أنَّ الجنَّ والملائكةَ جنسٌ واحد، فمن طهر منهم فهو ملك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جِنٌّ ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع مما أُمِر به ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ تكبَّر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإبائه، واستكباره، وردِّه الأمر، لا بترك العمل بالأمر؛ لأنَّ ترك السجود لا يُخرِجُ من إيمان، ولا يكون كفراً عند أهل السنة، خلافاً للمعتزلة والخوارج. أو كان من الكافرين في علم الله، أي: وكان في عِلْم الله أنه يكفر بعد إيمانه، لا لأنه كان

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة. وأحمد(٣/١٥٨) من حديث أنس و(٦/٨٦) من حديث عائشة و(٥/٢٢٧) من حديث معاذ بن جبل.

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

كافراً أبداً في علم الله. وهي مسألة الموافاة.

٣٥ ـ ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ أمر من سكن الدار يسكنها سكنى: إذا أقام فيها. ويقال: سكن المتحرك سكوناً ﴿أَنتَ﴾ تأكيدٌ للمستكن في اسكن؛ ليصح عطف ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عليه ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ هي جنةُ الخلد التي وُعِدت للمتقين؛ للنقل المشهور، واللام للتعريف. وقالت المعتزلةُ: كانت بستاناً باليمن؛ لأن الجنة لا تكليفَ فيها، ولا خروجَ عنها. قلنا: إنما لا يخرجُ منها من دخلها جزاء. وقد دخل النبي ﷺ ليلة المعراج، ثم خرج منها. وأهلُ الجنة يُكلَّفون المعرفة والتوحيد ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، فحذف المضاف ﴿رَغَدًا﴾ وصف بالمصدر، أي: أكلاً رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ و(شِيتُما) وبابه بغير همز، أبو عمرو. وحيث للمكان المبهم، أي: أيّ مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: الحنطة. ولذا قيل: كيف لا يَعْصِي الإنسان، وقوته من شجرة العصيان؟ أو الكرمة؛ لأنها أصلُ كلِّ فتنة، أو: التينة ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على: تقربا، أو نصب جواب للنهي ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم، أو من الضّارِّين أنفسهم.

٣٦ ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾ أي: عن الشجرة. أي: فحملهما الشيطان على الزلَّة بسببها. وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلَّتهما عنها. أو: فأزلَّهما عن الجنة بمعنىٰ: أذهبهما عنها، وأبعدهما. (فأَزالَهُما): حمزة. وزلَّة آدم بالخطأ في التأويل إما بحمل النهي على التنزيه دون التحريم، أو بحمل اللام على التعريف العهد، وكأن الله تعالى أراد الجنس. وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ إطلاق اسم الزلَّة على الأنبياء عليهم السلام، كما قال مشايخُ بخارى. فإنها اسمُ الفعل يقعُ على خلاف الأمر من غير قصد إلى الخلاف، كزلة الماشي في الطين. وقال مشايخ سمرقند: لا يطلق اسمُ الزلَّة على أفعالهم كما لا تُطلق المعصية، وإنما يقال: فعلوا الفاضل، وتركوا الأفضل، فعوتبوا عليه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في ﴿عنها﴾. وقد توصَّل إلى إزلالهما بعد ما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] لأنه منع عن

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة، لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وروي أنَّه أراد الدُّخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: قام عند الباب فنادى ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ الهبوط: النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية. والصحيح لآدم وحواء. والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلاً كأنهما الإنس كلّهم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المراد به: ما عليه النَّاس من التَّباغي، والتعادي، وتضليل بعضهم لبعض. والجملة في موضع الحال من الواو في ﴿اهبطوا﴾ أي: اهبطوا متعادين ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استرار، أو استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وتمتُّع بالعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى الموت. قال إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً.

٣٧ ـ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي: استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وبنصب آدم ورفع(١) كلمات: مكي، على أنها استقبلته بأن بلغته، واتصلت به، وهن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وفيه موعظةٌ لذريتهما حيث عرفوا كيفيةَ السبيل إلى التنصُّل من الذنوب. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن أحبَّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يارب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب! ألم تنفخ في روحي من روحك؟ ألم تسبق رحمتك غضبك؟ ألم تسكنّي جنتك؟ وهو تعالى يقول: بلى، بلى. قال: فلم أخرجتني من الجنة؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: فلو تبت أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول، واكتفى بذكر توبة آدم؛

(١) أي: (فتلقَّى آدمَ من ربِّه كلماتٌ).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ۝٣٩ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

لأن حواء كانت تبعاً له. وقد طُوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الكثير القبول للتوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على عباده.

٣٨ ـ ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ حال، أي: مجتمعين. وكرّر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأنَّ الهبوطَ الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السَّماء إلى الأرض، أو لما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: رسول أبعثه إليكم، أو كتاب أنزله عليكم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: بالقبول والإيمان به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفوا. والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إلي. (فلا خَوْفَ) بالفتح في كلِّ القرآن: يعقوب.

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها ومستحقُّوها. والجملة في موضع الرفع خبر المبتدأ، أعني: الذين ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٤٠ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله، أو عبد الله. فإسرا هو العبد، أو الصفوة، وإيل: هو الله بالعبرية. وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذِكْرُهُم النِّعمةَ ألا يخلوا بشكرها، ويطيعوا مانحها. وأراد بها: ما أنعم به على آبائهم، مما عدَّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم؛ وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ أدُّوا وافياً تاماً. يقال: وفيت له بالعهد، فأنا واف به، وأوفيت له بالعهد، فأنا موفٍ به. والاختيار: أوفيت، وعليه نزل التنزيل ﴿بِعَهْدِىٓ﴾ بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، أو من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما

﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾

عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعاً. وعن قتادة هما: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ﴾ و﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ [المائدة: ١٢]. وقال أهلُ الإشارة: أوفوا في دار محنتي، على بساط خدمتي، بحفظ حرمتي، أوف في دار نعمتي، على بساط كرامتي، بسرور رؤيتي ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيداً رهبته. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وإياي: منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه ما بعده، وتقديره: فأرهبوا إياي فارهبون. وحذف الأول لأن الثاني يدلُّ عليه. وإنما لم ينتصب بقوله ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ لأنه أخذ مفعوله، وهو الياء المحذوفة، وكسرة النون دليل الياء، كما لا يجوز نصب زيد في: زيداً فاضربه باضرب الذي هو ظاهر.

٤١ ـ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٗا﴾ حال مؤكِّدة من الهاء المحذوفة، كأنه قيل: أنزلته مصدّقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ من التوراة. يعني: في العبادة، والتوحيد، والنبوة، وأمر محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي: أوّل مَن كفر به، أو أول حزب، أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كلٌّ واحد منكم أول كافر به. وهذا تعريضٌ بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمنُ به لمعرفتهم به وبصفته. والضمير في ﴿به﴾ يعودُ إلى القرآن ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ بتغييرها، وتحريفها ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرها. وقيل: هو الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو اتبعوا رسول الله ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ (فخافوني، فارهبُوني، فاتَّقوني) بالياء في الحالين، وكذلك كل ياء محذوفة في الخط: يعقوب.

٤٢ ـ ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لبس الحق بالباطل: خلطه. والباء، إن كانت صِلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء: خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقِّها وباطلكم. وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك:

﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾

كتبت بالقلم كان المعنى: ولا تجعلوا الحقَّ ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ هو مجزوم، داخل تحت حكم النهي بمعنى: ولا تكتموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وهما أمران متميزان؛ لأنَّ لبسَ الحق بالباطل ما ذكرنا من كَتْبِهِم في التوراة ما ليس منها. وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجدُ في التوراة صفة محمد، أو حكم كذا ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لابسون، كاتمون، وهو أقبحُ لهم؛ لأن الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه.

٤٣ ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ منهم؛ لأن اليهودَ لا ركوع في صلاتهم، أي: أَسْلموا وأعملوا عملَ أهل الإسلام. وجاز أن يُراد بالركوع الصلاة، كما يُعَبَّر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بالصَّلاة مع المصلين، يعني: في الجماعة. أي: صلّوها مع المصلِّين لا منفردين.

٤٤ ـ ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الهمزة للتقرير، مع التوبيخ، والتعجُّب من حالهم ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ أي: سعة الخير والمعروف. ومنه: البَرُّ لسعته. ويتناول كلَّ خير، ومنه قولهم: صدقت، وبررت. وكان الأحبارُ يأمرون مَن نصحوه في السِّرِّ من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه الصلاة والسلام ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بالصدقات ليفرّقوها خانوا فيها ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ وتتركونها من البر، كالمنسيات ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تبكيت، أي: تتلون التوراةَ وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة، وترك البر، ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدّكم استقباحه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

٤٥ ـ ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بالجمع

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾

بينهما، وأن تصلّوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب، والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبّار السّموات والأرض؛ أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسولُ الله ﷺ إذا حزبه أمر فَزِع إلى الصلاة[١]. وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنه نُعي إليه أخوه قُثَمُ، وهو في سفر، فاسترجع وصلّى ركعتين، ثم قال: ﴿واستعينوا بالصَّبر والصلاة﴾. وقيل: الصَّبرُ: الصوم، لأنه حَبْسٌ عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر. وقيل: الصلاة: الدعاء، أي: استعينوا على البلايا بالصبر، والالتجاء إلى الدعاء، والابتهال إلى الله في دفعه ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة، أو للاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقَّة ثقيلة، من قولك: كبر عليَّ هذا الأمر ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ لأنهم يتوقَّعون ما ادَّخر للصابرين على متاعبها، فتهون عليهم، أَلَا ترى إلى قوله:

٤٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: يتوقعون لقاءَ ثوابه، ونيل ما عنده، ويطمعون فيه. وفسّر يظنُّون بيتيقنون لقراءة عبد الله[٢]: يعلمون، أي: يعلمون أنه لا بُدَّ من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. وأما مَن لم يُوقن بالجزاء، ولم يرجُ الثواب كانت عليه مشقة خالصة. والخشوع والإخبات: التطامن، وأما الخضوع: فاللين والانقياد. وفسَّر اللقاء: بالرؤية، وملاقو ربهم: بمعاينوه بلا كيف ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لا يملكُ أمرَهم في الآخرة أحدٌ سواه.

٤٧ ـ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ نصب عطف على نعمتي، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على الجمِّ الغفير من الناس، يقال: رأيت عالماً من الناس، والمراد: الكثرة.

---

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ في تفسيره (١/ ٢٦٠) من حديث حذيفة.
(٢) أي: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

٤٨ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، وهو مفعول به، لا ظرف ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق التي لزمتها. وشيئاً مفعول به، أو مصدر، أي: قليلاً من الجزاء. والجملة منصوبة المحل صفة يوماً، والعائد منها إلى الموصوف محذوف تقديره: لا تجزى فيه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ (ولا تُقْبَلُ) بالتاء، مكي وبصري. والضمير في ﴿منها﴾ يرجعُ إلى النفس المؤمنة، أي: لا تقبل منها شفاعة للكافرة. وقيل: كانت اليهود تزعم أنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فهو كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وتشبث المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة مردود لأن المنفي شفاعة الكفار وقد قال عليه الصلاة والسلام: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، من كَذَّبَ بها لم ينلها»[١] ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية؛ لأنها معادلة للمفدى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُعَاوَنون. وجمع لدلالة النفس المنكَّرة على النفوس الكثيرة. وذكّر لمعنى العباد أو الأناسي.

٤٩ ـ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل آل: أهل؛ ولذلك يصغّر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخصّ استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم، فلا يقال: آل الإسكاف والحجّام. وفرعون: عَلَمَ لمن ملك العمالقة، كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من آل فرعون، أي: يولونكم، من: سامه خسفاً؛ إذا أولاه ظلماً. وأصله: من سام السلعة: إذا طلبها، كأنها بمعنى: يبغونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه. ومساومة البيع: مزايدة، أو مطالبة. وسوء: مفعول ثان ليسومونكم، وهو مصدر سيء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخُلُق وسوء الفعل، يُراد: قبحهما. ومعنى سوء العذاب ـ والعذاب

---

(١) رواه أحمد (٣/٢١٣) وأبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك، دون الجملة الثانية.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

كله سيىء ـ: أشدّه وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾ ولذا ترك العاطف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة. وإنما فعلوا بهم ذلك؛ لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يُولد مولودٌ يزولُ ملكهُ بسببه، كما أنذروا نمرود فلم يغنِ عنهما اجتهادهما في التحفُّظ، وكان ما شاء الله ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية.

٥٠ ـ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: (فَرَّقْنا)، أي: فصلنا، يقال: فرَّق بين الشيئين، وفرَّق بين الأشياء؛ لأن المسالكَ كانت اثني عشر على عدد الأسباط ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكونه، ويتفرق الماءُ عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم. أو فرقناه بسببكم. أو فرقناه ملتبساً بكم، فيكون في موضع الحال. رُوي: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابنا؟ فنحن لا نرضى حتى نراهم! فأوحى الله إليه أن قُلْ بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كوى، فتراءوا[١]، وتسامعوا كلامهم ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه، ولا تشكُّون فيه.

٥١ ـ وإنما قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ لأن الله تعالى وعده بالوحي، ووَعْدُه: هو المجيء للميقات إلى الطور ﴿وَعَدْنَا﴾ حيث كان: بصري. لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون، ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد اللهُ تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتاً: ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وقال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهورَ غُرَرُها[٢] بالليالي. وأربعين: مفعول ثان لواعدنا

---

(١) في الكشاف (١/١٣٩): تراموا.

(٢) «الغُرَر»: جمع الغُرَّة، وهي من الشهر: أوّله، وليلة استهلال القمر.

ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

لا ظرف؛ لأنه ليس معناه: واعدناه في أربعين ليلة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً، فحذف المفعول الثاني لاتخذتم. وبابه بالإظهار[١]، مكي وحفص ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطُّور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بوضعكم العبادة غير موضعها، والجملة حال، أي: عبدتموه ظالمين.

٥٢ ـ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ محونا ذنوبكم عنكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد اتخاذكم العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا النعمةَ في العفو عنكم.

٥٣ ـ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وهو التوراة، ونظيره: رأيت الغيث والليث، تريد: الرجل الجامع بين الجود والجراءة؛ أو: التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات؛ أو: الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان: انفلاق البحر، أو: النصر الذي فرق بينه وبين عدوّه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا.

٥٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ للذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبوداً ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت. وفيه تقريعٌ لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم؛ الذي برأهم أبرياء من التفاوت إلى عبادة البقر؛ الذي هو مثلٌ في الغباوة والبلادة ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهر، وهو البخع[٢] وقيل: معناه: قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، فقتل سبعون ألفاً

(١) وأدغم الذال (اتختُمْ) الباقون، وأبو بكر عن عاصم أيضاً. انظر كتاب السبعة (ص١٥٥).

(٢) «البخع»: بَخَع نَفْسَه: قَتَلها غيظاً أو غمّاً.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من الإصرار على المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ المفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحَوْبَة وإن كبرت. والفاء الأولى للتسبيب؛ لأنَّ الظلمَ سببُ التوبة. والثانية للتعقيب؛ لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، إذ الله تعالى جَعَل توبتهم قَتْل أنفسهم. والثالثة متعلقة بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

٥٥ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، وانتصابها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال من نَرَى، أي: ذوي جهرة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. قيل: هي نارٌ جاءتْ من السماء فأحرقتهم. رُوي أنَّ السَّبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء، فأرنا الله جهرة. فقال موسى: سألته ذلك فأباه عليّ. فقالوا: إنك رأيتَ الله تعالى، فلن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً، فبعث اللهُ عليهم صاعقةً فأحرقتهم. وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية؛ لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذّبوا بسؤال ما هو جائزُ الثبوت. قلنا: إنما عُوقبوا بكفرهم؛ لأن قولهم: إنك رأيتَ الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، كفر منهم. ولأنَّهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربَّهم جهرة، والإيمانُ بالأنبياء واجبٌ بعد ظهور معجزتهم[1]، ولا يجوزُ اقتراحُ الآيات عليهم. ولأنهم لم يسألوا سؤالَ استرشادٍ، بل سؤال تعنُّتٍ وعناد ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إليها حين نزلت.

٥٦ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم، وأصله: الإثارة ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت.

---

(١) في المطبوع: معجزاتهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾

---

٥٧ ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام يظلّكم. وذلك في التيه سخَّر اللهُ لهم السَّحابَ يسيرُ بسيرهم يظلهم بسيرهم يظلهم من الشمس، وينزل بالليل عمودٌ من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتَّسخ، ولا تبلى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الترنجبين، وكان ينزلُ عليهم مثل الثلج من طلوع الشمس، لكلِّ إنسان صاع ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعثُ اللهُ عليهم الجنوبَ فتحشر عليهم السّلوى، وهي السُّمَانَى، فيذبح الرجلُ منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذيذات أو حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم: مفعول يظلمون، وهو خبر كان.

٥٨ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ قلنا لهم بعد ما خرجوا من التِّيه ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس، أو أريحاء، والقرية: المجتمع من: قريت، لأنها تجمع الخلق. أمروا بدخولها بعد التيه ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية، أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها. وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام، وإنما دخلوا الباب في حياته، ودخلوا بيت المقدس بعده ﴿سُجَّدًا﴾ حال، وهو جمع ساجد. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى، وتواضُعاً له ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فِعله من الحط، كالجلسة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، أو أمرك حطة. والأصل النصب، وقد قرىء به بمعنىٰ حطّ عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات. وقيل: أمرنا حطة، أي: أن نحطّ في هذه القرية، ونستقر فيها. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: هو بسم الله الرحمن الرحيم. وعن عكرمة: هو لا إله إلا الله ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ جمع خطيئة، وهي الذنب (يُغْفَرْ)، مدني. (تُغْفَرْ)، شامي ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من كان محسناً منكم

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾

كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

٥٩ ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه حذف، وتقديره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، فالذي مع الباء متروك، والذي بغير باء موجود. يعني: وضعوا مكان حطة قولاً غيرها. أي: أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة. وقيل: قالوا بالنبطية: حطا سمقاثا، أي: حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾ عذاباً. وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لرجز ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. روي أنه مات منهم في ساعةٍ بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

٦٠ ـ ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ موضع إذ نصب، كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى، أي: استدعى أن يسقى قومه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: اضرب بعصاك الحجر. واللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم. فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعاً، له أربعة أوجه، كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وكانوا ستمئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. أو: الجنس، أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أي: فضرب فانفجرت، أي: سالت بكثرة، أو فإن ضربت فقد انفجرت، وهي على هذا فاء فصيحة، لا تقع إلا في كلام بليغ ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط. وقرىء بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. وعيناً: تمييز ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التي

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾

يشربون منها ﴿كُلُوا۟﴾ وقلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من ماء العيون ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: الكل مما رزقكم الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها، والعيث: أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، أي: لاتتمادوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا مُتمادين فيه.

٦١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ هو ما رُزِقوا في التيه من المنّ والسلوى. وإنما قالوا: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدّل. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة، يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، ويراد بالوحدة: نفي التبدل والاختلاف. أو أرادوا: أنهما ضربٌ واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذُّذ والترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله، وقل له: أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُظْهِر لنا، ويُوجِد ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ هو ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به: أطايب البقول، كالنّعناع، والكَرَفس، والكراث، ونحوهما مما يأكل الناس ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني: الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الحنطة، أو الثوم، لقراءة ابن مسعود: وثُومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منزلة، وأدون مقداراً، والدنو والقرب يُعبَّر بهما عن قلَّة المقدار ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أرفع، وأجلّ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ من الأمصار، أي: انحدروا إليه من التيه. وبلاد التيه: ما بين بيت المقدس إلى قِنّسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ؛ أو: مصر فرعون، وإنما صرفه مع وجود السببين، وهما: التأنيث والتعريف؛ لإرادة البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط، وفيهما العجمة والتعريف ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإن الذي سألتم يكون في الأمصار، لا في التّيه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الهوان والفقر، يعني: جُعلت الذلة محيطة بهم،

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾

مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه. فاليهودُ صاغرون، أذلاء، أهل مسكنة وفقر، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. (عليهُمُ الذِّلَّةُ) حمزة وعليّ، وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة. وبكسر الهاء[1] والميم، أبو عمرو. وبكسر الهاء وضم الميم، غيرهم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من قولك: باء فلان بفلان: إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، أي: صاروا أحقاء بغضبه. وعن الكسائي: رجعوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم من ضرب الذلة، والمسكنة، والخلاقة بالغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالهمزة، نافع، وكذا بابه. أي: ذلك بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء. وقد قتلت اليهودُ شعياء، وزكريا، ويحيى صلوات الله عليهم. والنبي من النبأ؛ لأنَّه يخبر عن الله تعالى، فعيل، بمعنى مفعل، أو بمعنى مفعل. أو: من نبا، أي: ارتفع. والنبوة: المكان المرتفع ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندهم أيضاً، فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئاً يستحقون به القتل عندهم، وهو في محل النصب على الحال من الضمير في يقتلون، أي: يقتلونهم مبطلين ﴿ذَٰلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي، واعتدائهم حدود الله في كلِّ شيء، مع كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يُشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء، على أنَّ ذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما، وغلَوْا حتى قستْ قلوبهُم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء؛ أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

٦٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تهوَّدوا، يقال: هاد يهود وتهود: إذا دخل في اليهودية، وهو

---

(١) أي: (عَلَيْهِمِ).

وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

هائد، والجمع: هود ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نصران، كندمان وندامى، يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة، والياء في نصرانيّ للمبالغة، كالتي في أحمريّ. سُمُّوا نصارى لأنهم نصروا المسيح ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من: صبأ: إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. وقيل: هم يقرؤون الزبور ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومحل «من آمن» الرفع إن جعلته مبتدأ خبره: «فلهم أجرهم» والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخبر إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم، والفاء لتضمن مَن معنى الشرط.

٦٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بقبول ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: الجبل، حتى قبلتم، وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها. فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقطع[1] الطورَ من أصله، ورفعه فظلّله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا أُلقي عليكم، حتى قبلوا. وقلنا لهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب، أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمة. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب، وادرسوه، ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين.

٦٤ ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق، والوفاء به ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد القبول ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذاب عنكم، أو

---

(١) في المطبوع: فقلع.

لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟
قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الهالكين في العذاب.

٦٥ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم، فيتعدّى إلى مفعولٍ واحد ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ هو مصدر، سبتت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. وقد اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التجرُّد للعبادة، وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوتٌ في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرّقتْ، فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدُّون مشارعَها من البحر، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾ بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ خبر كان، أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصَّغار والطرد.

٦٦ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعني: المسخة ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرة تُنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأن مسختهم ذُكِرَتْ في كُتُب الأوّلين، فاعتبروا بها، واعتبر بها مَن بلغتهم من الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكلِّ مُتَّقٍ سمعها.

٦٧ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى. وهو معطوف على نعمتي في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كأنه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذ قال موسى. وكذلك هذا في الظروف التي مضتْ، أي: اذكروا نعمتي، واذكروا وقت إنجائنا إياكم، واذكروا وقت فرقنا، واذكروا نعمتي، واذكروا وقت استسقاء موسى ربّه لقومه، والظروف التي تأتي إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن﴾ أي: بأن

تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ

﴿تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال المفسرون: أول القصَّة مُؤخر في التلاوة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]. وذلك أن رجلاً مُوسِراً اسمه عاميل، قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بديته، فأمرهم اللهُ أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليحيا، فيخبرهم بقاتله ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتجعلنا مكان هزء، أو أهل هزء، أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء. (هُزْءاً) بسكون الزاي والهمزة، حمزة. وبضمتين والواو، حفص[(١)]. غيرهما بالتثقيل والهمزة ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ العياذ واللياذ من وادٍ واحد. ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسَّفه. وفيه تعريضٌ بهم، أي: أنتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء.

٦٨ ـ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ سؤالٌ عن حالها وصفتها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهيتها، لأنَّ ما وإن كانت سؤالاً عن الجنس، وكيف عن الوصف، ولكن قد تقعُ ما موقع كيف. وذلك أنهم تعجَّبوا من بقرةٍ ميتة، يُضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشَّأن. وما هي: خبر ومبتدأ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ مُسِنَّة. وسُمِّيت فارضاً لأنها فرضت سنَّها، أي: قطعتها، وبلغت آخرها، وارتفع فارض لأنه صفة لبقرة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ فتيَّة، عطف عليه ﴿عَوَانٌۢ﴾ نَصَف ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الفارض والبكر. ولم يقل: بين ذينك، مع أن بين يقتضي شيئين فصاعداً؛ لأنه أراد بين هذا المذكور. وقد يجرى الضمير مجرىٰ اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة: قلت لرؤبة في قوله:

فيهـا خُطُـوطٌ مِـنْ سَـوَادٍ وَبَلَـقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ[(٢)]

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما.

---

(١) أي: (هُزُءاً). وانظر كتاب السبعة (١٥٩).

(٢) «بلق»: بياض. «توليع»: تخطيط. «البهق»: بياض مشوب بكدرة. وهو داء يتغيَّر منه لون الجلد.

فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾

فقال: أردتُ كأن ذاك ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أي: تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به، أو أمركم بمعنى مأموركم، تسمية للمفعول بالمصدر، كضرب الأمير.

٦٩ ـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ موضع ما: رفع؛ لأن معناه الاستفهام، تقديره: ادع لنا ربَّك يبين لنا أيّ شيء لونها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ الفقوع: أشدُّ ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع. وهو توكيد لصفراء، وليس خبراً عن اللون، إلا أنه ارتفع اللونُ به ارتفاع الفاعل. ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها. وفي ذكر اللون فائدة التوكيد؛ لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد الصفرة صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ لحسنها. والسُّرور: لذَّةٌ في القلب عند حصول نفع أو توقعه. عن علي ـ رضي الله عنه ـ: من لبس نعلاً صفراء قلَّ همه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

٧٠ ـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها، وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. عن النبيﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم»(١) والاستقصاء شؤم ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل. «وإن شاء الله» اعتراضٌ بين اسم إن وخبرها. وفي الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»(٢) أي: لو لم يقولوا إن شاء الله.

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٨٨) وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (١/ ١٨٩).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٤٥).

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ

٧١ ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ صفة لبقرة بمعنى: بقرة غير ذلول. يعني: لم تذلل للكِراب، وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ ولا هي من النواضح التي يُسنى[1] عليها لسقي الحروث. ولا الأولى نافية، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى لاذلول تثير الأرض، أي: تقلبها للزراعة، وتسقي الحرث، على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب، وآثار العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لُمعْة في نُقْبتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشياً وشية: إذا خلط بلونه لوناً آخر ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالٌ في أمرها. (جِيْتَ) وبابه بغير همز، أبو عمرو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلّها، فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة في ظهور القاتل. رُوي أنه كان في بني اسرائيل شيخٌ صالح له عجلة، فأتى بها الغَيضَة[2]، وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبّت البقرةُ، وكانت من أحسن البقر وأسمنه. فساوموها اليتيم وأمّه حتى اشتروها بملء مَسْكها[3] ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. وهذا البيانُ من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً. والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا، خلافاً للمعتزلة.

٧٢ ـ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير: واذكروا. خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ فاختلفتم، واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ

(١) «يسنى»: يُستقى.
(٢) «الغيضة»: الشجر الكثير المُلْتَفّ.
(٣) «المَسْك»: الجِلْد.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾

بعضُهم بعضاً، أي: يدفعه. أو تدافعتم بمعنى طَرَح قتلها بعضكم على بعض، فيدفع المطروح عليه الطارح. أو لأن الطرح في نفسه دفع. وأصله: تدارأتم، ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالاً لتصير من جنس الدال؛ التي هي فاء الكلمة، ليمكن الإدغام، ثم سكَّنوا الدال، إذ شرط الإدغام أن يكونَ الأولُ ساكناً، وزيدت همزة الوصل؛ لأنه لا يمكن الابتداء بالساكن (فادّاراتم) بغير همز، أبو عمرو ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مُظْهِرٌ لا محالة ما كتمتم من أمر القتل، لا يتركه مكتوماً. وأعمل ﴿مُخْرِجٌ﴾ على حَكاية ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ. وهذه الجملة اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وهما (ادارأتم) و:

٧٣ ـ ﴿فَقُلْنَا﴾ والضمير في ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يرجعُ إلى النفس. والتذكير بتأويل الشخص والإنسان. أو: إلى القتيل لما دلَّ عليه ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ببعض البقرة، وهو لسانها، أو فخذها اليمنى، أو عَجْبها[١]. والمعنى: فضربوه فحيي. فحذف ذلك لدلالة: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ عليه. رُوي أنهَم لما ضربوه قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان وفلان، لابني عمه، ثم سقط ميتاً، فأُخِذا، وقتِلا. ولم يورث قاتل بعد ذلك. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ إما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن النبي ﷺ، وإما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى: وقلنا لهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائله على أنه قادر على كلِّ شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعملون على قضية عقولكم، وهي أن: من قدر على إحياء نفس واحدة، قدر على إحياء جميعها؛ لعدم الاختصاص.

والحكمة في ذبح البقرة وضَرْبه ببعضها ـ وإن قدر على إحيائه بلا واسطة

(١) «عَجْبها»: العَجْب من كل شيء: مُؤخَّره.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

التقرب به ـ: الإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش، وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أُمِروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم. وكان ينبغي أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها. ولكنه تعالى إنما قصَّ قصصَ بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها. وهاتان القصتان ـ وإن كانتا متصلتين ـ فتستقل كلُّ واحدة منهما بنوع من التقريع. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما تبعه من الآية العظيمة. وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب المراد في تثنية التقريع. ولقد رُوعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصَّة برأسها، أن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة. وقيل: هذه القصة تشيرُ إلى أنَّ مَن أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمتْ نفسه بأنواع المجاهدات.

٧٤ ـ ومعنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: استبعاد القسوة ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ما ذكر مما يوجبُ لين القلوب ورقَّتها. وصفة القلوب بالقسوة مثلٌ لنبوِّها عن الاعتبار والاتِّعاظ. من بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع ما تقدَّم مِن الآيات المعدودة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها. وأشد: معطوف على الكاف، تقديره: أو مثل أشدّ قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو هي في أنفسها أشدّ قسوة. يعني: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها، وهو الحديد مثلاً. أو مَن عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وإنما لم يقل أقسى لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس، كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ «ما» بمعنى الذي، في موضع النَّصب، وهو اسمُ إن، واللام للتوكيد، والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أصله يتشقق، وبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيناً، وأدغمت ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ يعني: أنَّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير، ومنها: ما ينشقّ انشقاقاً بالطول، أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً، وقلوبهم لا تَندَى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يتردَّى مِن أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو مجاز عن انقيادها لأمرِ الله، وأنها لا تمتنعُ على ما يريدُ فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقادُ ولا تفعل ما أُمِرت به. وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى: أنه يخلق فيها الحياة والتمييز. وليس شرط خلق الحياة، والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السُّنَّة، وعلى هذا قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١]. يعني: وقلوبهم لا تخشى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء، مكي. وهو وعيد.

٧٥ ـ ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم، ويستجيبوا لكم، كقوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني: اليهود ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ، وآية الرجم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه، وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إنْ كَفَر هؤلاء وحرَّفوا، فلهم سابقةٌ في ذلك.

٧٦ ـ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ أي: المنافقون، أو اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي:

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ

المخلصين من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشَّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ عاتبين عليهم. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أتخبرون أصحاب محمد ﷺ ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بيَّن اللهُ لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله تعالى هكذا، وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وقيل: هذا على إضمار المضاف، أي: عند كتاب ربكم. وقيل: ليجادلوكم، ويخاصموكم به، بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة يقولون: كفرتم بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه حُجَّة عليكم حيث تعترفون به، ثم لا تتابعونه.

٧٧ ـ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

٧٨ ـ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكَتْب، فيطالعوا التوراة، ويتحقَّقوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ إلا ما هم عليه من أمانيهم، وأنَّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم، ولا تمسّهم النار إلا أياماً معدودة؛ أو: إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد، ومنه قول عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ما تمنيت منذ أسلمت. أو: إلا ما يقرؤون، من قوله:

تمَنَّى كتابَ اللهِ أوّلَ ليلةٍ ... وآخرها لاقى حِمامَ المقادر[١]

(١) «تمنى كتاب الله»: تلاه. «الحِمام»: الموت.

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

أي: لا يعلمون هؤلاء حقيقة المنزَّل، وإنما يقرؤون أشياء أخذوها من أحبارهم. والاستثناء منقطع ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوَّتك بالظَّنِّ. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم، ثم العوام الذين قلدوهم.

٧٩ ـ ﴿فَوَيْلٌ﴾ في الحديث: «ويلٌ وادٍ في جهنم»[1] ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرَّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلاً. وذكر الأيدي للتأكيد، وهو من مجاز التأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً يسيراً ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا.

٨٠ ـ ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد ـرضي الله عنهـ: كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذَّب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: عهد إليكم أنه لا يعذّبكم إلا هذا المقدار ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلفَ اللهُ عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم: إما أن تكون معادلة، أي: أتقولون على الله ما تعلمون، أم تقولون عليه مالا تعلمون، أو منقطعة، أي: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون؟!.

٨١ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد النفي، وهو: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي: بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركاً، عن

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد رقم «٣٤٤» من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾

ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـرضي الله عنهمـ ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وسدَّت عليه مسالك النَّجاة، بأن مات على شركه. فأما إذا مات مؤمناً فأعظم الطاعات، وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنبُ محيطاً به، فلا يتناوله النص. وبهذا التأويل يبطل تشبُّث المعتزلة والخوارج. وقيل: استولت عليه كما يحيطُ العدو، ولم يتفصَّ عنها بالتوبة[1]. (خطيَّاته) مدني ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٨٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الميثاق: العهد المؤكَّد غاية التأكيد.

﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر. وهو أبلغُ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنّه سُورع إلى الامتثال والانتهاء، وهو يخبر عنه. وتنصُره قراءة أبيّ ﴿لا تعبدوا﴾، وقوله: ﴿وقولوا﴾ والقول مضمر. (لا يَعْبُدون) مكي وحمزة وعليّ؛ لأن بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة كلُّها غيب. ومعناه: ألا يعبدوا، فلما حذفت «أن» رفع. ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أي: وأحسنوا، ليلتئم عطف الأمر، وهو قوله: ﴿وقولوا﴾ عليه. ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ القرابة. ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الذي: فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد البلوغ»[2]. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي: أسكنته الحاجة. ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه.

---

(١) «يتفص عنها»: يتخلص.
(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث عليّ.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

(حَسَناً) حمزة وعليّ. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض، والتّوليه عن المواثيق.

٨٤ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً، أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه؛ لأنه يقتصُّ منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق، واعترفتم على أنفسكم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها، كما تقول: فلان مقرّ على نفسه بكذا، شاهد عليها. أو: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم يامعشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

٨٥ ـ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم، وشهادتهم. أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: بمعنى الذين. ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ صلة هؤلاء، وهؤلاء مع صلته: خبر أنتم. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ غير مراقبين ميثاق الله. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بالتخفيف، كوفي. أي: تتعاونون. وبالتشديد، غيرهم. فمن خفّف فقد حذف إحدى التاءين. ثم قيل: هي الثانية؛ لأن الثقل بها، وقيل: الأولى. ومن شدّد قلب التاء الثانية ظاء، وأدغم. ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ بالمعصية والظلم. ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ أسارى تَفْدوهم: أبو عمرو. أسرى تُفادُهم: مكي وشامي. أسرى تَفْدوهم: حمزة، أسارى تفادوهم علي. فدى وفادى بمعنى. وأسارى: حال، وهو جمع أسير، وكذلك أسرى. ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الضمير للشأن، أو هو ضمير مبهم تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بفداء الأسرى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال والإجلاء. قال السدّي: أخذ اللهُ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرح، أو إلى أشدّ من عذاب الدنيا ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكي، ونافع، وأبو بكر.

٨٦ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ اختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينصرهم أحد بالدَّفع عنهم.

٨٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، أتاه جملة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقال: قفاه: إذا اتبعه من القفا، نحو: ذَنَبَهُ من الذنب. وقفاه به: إذا أتبعه إياه: يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل. وهم يوشع، وأشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعياء، وأرمياء، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي بمعنى: الخادم. ووزن مريم عند النحويين مفعل؛ لأن فَعْيلاً لم يثبت في الأبنية. البينات: المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: الطهارة. وبالسكون[1] حيث كان: مكي. أي: بالروح المقدسة، كما

(١) سكون الدال (القُدْس).

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقال: حاتم الجود. ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب. أو بجبريل ـ عليه السلام ـ لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب. وذلك لأنه رفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. أو بالإنجيل كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. أو باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظَّمتم عن قبوله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ولم يقل: قتلتم لوفاق الفواصل، أو لأنَّ المرادَ: وفريقاً تقتلونه بعد؛ لأنكم تحومون[1] حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه، وسَممتم له الشاة. والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم، فكلما جاءكم رسولٌ منهم بالحق استكبرتم عن الإيمان به. فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجب من شأنهم.

٨٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: هي خلقة مغشاة بأغطية لا يتوصَّل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه. مستعار من الأغلف الذي لم يُختن. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فردَّ الله أن تكونَ قلوبُهم مخلوقةً كذلك؛ لأنها خُلقت على الفطرة والتمكُّن من قبول الحق. وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «فقليلاً» صفة مصدر محذوف، أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون و«ما» مزيدة. وهو إيمانُهم ببعض الكتاب. وقيل: القلة بمعنى العد.م وقيل: غُلْفٌ تخفيف غُلُف، وقُرِىء به، جمع: غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. أو أوعية للعلوم، فلو كان ما جئتَ به حقاً لقبلنا.

(١) من المطبوع.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

٨٩ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهود. ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم، قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان؛ الذي نجد نعته في التوراة، ويقولون لأعدائهم المشركين: قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ يخرجُ بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ ما موصولة، أي: ما عرفوه، وهو: فاعل جاء ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرئاسة ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عليهم، وضعاً للظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على أنَّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد؛ أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أوّلياً. وجواب لما الأولىٰ مضمر، وهو نحو: كذبوا به، أو أنكروه. أو «كفروا» جواب الأولى والثانية؛ لأن مقتضاهما واحد.

٩٠ ـ و«ما» في ﴿بِئْسَمَا﴾ ما نكرة موصوفة مفسّرة لفاعل بئس، أي: بئس شيئاً. ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوه. والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له، أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة ﴿اشتروا﴾ ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل، أي: حسدوه على أن ينزل الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف؛ لأنهم كفروا بنبي الحق؛ وبغوا عليه. أو كفروا بمحمد بعد عيسى عليهما الصلاة والسلام. أو بعد قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وغير ذلك. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلّ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

(بِيْسَمَا) وبابه غير مهموز: أبو عمرو، و(يُنْزِل) بالتخفيف: مكي وبصري.

٩١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء اليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن، أو هو مطلق يتناولُ كلَّ كتاب. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ غير مخالف له. وفيه ردٌّ لمقالتهم؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ومصدقاً: حال مؤكدة ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي، ويدل عليه قوله ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: من قبل محمد ﷺ. اعتراض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة. والتوراة لاتسوغ قتل الأنبياء. قيل: قتلوا في يوم واحد ثلاثمئة نبي في بيت المقدس.

٩٢ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات التسع. وأدغم الدال في الجيم حيث كان، أبو عمرو وحمزة وعليّ. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطُور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو حال، أي: عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. أو: اعتراض، أي: وأنتم قوم عادتكم الظلم.

٩٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كرَّر ذِكْر رفع الطور؛ لما نِيْطَ به من زيادة ليست مع الأولى ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ ما أُمِرْتمُ به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. وطابق قوله جوابهم من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة،

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

فقالوا: سمعنا، ولكن لاسماعَ طاعة ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الثوبَ الصِّبغُ. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيان لمكان الإشراب. والمضاف ـ وهو الحب ـ محذوف ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، واعتقادهم التشبيه ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة؛ لأنه ليس في التوراة عبادةُ العجل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكُّم. وكذا إضافة الإيمان إليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم، وقَدْح في صحَّة دعواهم له.

٩٤ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ظرف. ولكم: خبر كان. ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار الآخرة، أي: سالمة لكم، ليس لأحدٍ سواكم فيها حقّ. يعني: إن صحَّ قولُكم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ هو للجنس ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون؛ لأنَّ من أيقن أنَّه من أهل الجنة اشتاقَ إليها؛ تخلُّصاً من الدار ذات الشوائب، كما نقل عن العشرة المبشَّرين بالجنة أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان يحبُّ الموت، ويحنُّ إليه.

٩٥ ـ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ هو نصب على الظرف، أي: لن يتمنوه ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما أسلفوا من الكفر بمحمد ﷺ، وتحريف كتاب الله، وغير ذلك. وهو من المعجزات؛ لأنه إخبارٌ بالغيب. وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]. ولو تمنّوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

٩٦ ـ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعولا وجد: ﴿هم﴾ و﴿أحرص﴾ ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ التنكير يدلُّ على أن المرادَ حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أُبيّ: (على الحياة) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس. نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس، ولكنهم أفردوا بالذّكر، لأنَّ حرصَهم شديدٌ، كما أن جبريل وميكائيل خصّا بالذِّكر وإن دَخَلا تحت الملائكة. أو أريد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة «أحرص الناس» عليه. وفيه توبيخٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنّتهم. فإذا زاد في الحرص مَن له كتاب، وهو مقرٌّ بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار، لعلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. وقيل: أراد بالذين أشركوا: المجوس؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ كلام مبتدأ، أي: ومنهم ناس يودُّ أحدُهم، على حذف الموصوف. والذين أشركوا على هذا مشارٌ به إلى اليهود؛ لأنهم قالوا: عزير ابن الله ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الضمير لأحدهم، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ مبهماً و﴿أن يعمر﴾ موضّحه. والزحزحة: التبعيد، والإنحاء. قال في «جامع العلوم» وغيره: ﴿لو يعمر﴾ بمعنى: أن يعمر. فلو هنا نائبة عن أن، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، وهو مفعول يودّ، أي: يودّ أحدهم تعمير ألف سنة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعمل هؤلاء الكفار، فيجازيهم عليه. وبالتاء، يعقوب.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

٩٧ ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز[١]، مكي، وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعاً، كوفي غير حفص، وبكسر الراء والجيم بلا همز، غيرهم. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. ومعناه: عبدالله؛ لأنَّ جبر هو العبد بالسريانية، وإيل اسم الله. رُوي أنَّ ابن صوريا ـ من أحبار اليهود ـ حاجَّ النبيَّ ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي. فقال: «جبريل». فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا مَن يقتله فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً، فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم، فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أيّ ذنب تقتلونه[٢]؟! ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فإن جبريل نزل القرآن. ونحو هذا الإضمار، أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره، فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته، كأنه يدلُّ على نفسه، ويكتفىٰ عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفظه إياك. وخصّ القلب لأنه محل الحفظ، كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤]. وكان حق الكلام أن يقال: على قلبي، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به، وإنما استقام أن يقع (فإنه نزله) جزاء للشرط؛ لأنَّ تقديره: إن عادى جبريلَ أحدٌ من أهل الكتاب فلا وَجْهَ لمعاداته، حيث نزّل كتاباً مُصَدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويُصحِّح المنزل عليهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: مَن كان عدوّاً لجبريل فليمتْ غيظاً، فإنه نزّل الوحي على قلبك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ردّ على اليهود حين قالوا: إنَّ جبريل ينزل بالحرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل

---

(١) أي (لجَبْرِيل) و(لجَبْرئيل).

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨ و ١٩).

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

بالهدى والبشرى أيضاً. (بإذن الله) حال من ضمير الفاعل في نزل، أي: مأذوناً له، ومصدقاً: حال من الهاء في نزله، وكذا هدى وبشرى؛ أي: هادياً ومبشراً. وقالت الباطنية: القرآن لم ينزل على رسول الله بالأحرف التي نقرؤها، ولكنه إلهام أنزل على قلبه؛ إلا أن محمداً ﷺ عبَّره بالعربية، وبهذه الحروف التي نقرؤها، فالقرآن ذلك الباطن لا هذه الألفاظ لقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ . . .﴾ ولكنا نقول: هذا فاسد؛ لأن الله تعالى جعله معجزاً بنظمه العجيب حيث قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وهذا يتعلق بالنظر.

٩٨ ـ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بصري وحفص، و(ميكائِل) باختلاس الهمزة كميكاعِل، مدني، و(ميكائيل) بالمد وكسر الهمزة مشبعة، غيرهم. وخصّ الملكان بالذكر لفضلهما، كأنهما من جنس آخر، إذ التغايرُ في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم. فجاء بالظاهر ليدلَّ على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوةَ الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله.

٩٩ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة. واللام للجنس. والأحسن أن تكونَ إشارة إلى أهل الكتاب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيءٍ نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك بها، فنزلت[(١)].

١٠٠ ـ الواو في ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات البينات وكلما ﴿عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ﴾ نقضه، ورفضه. وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لأنَّ منهم منَ لم ينقض. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٤٤١).

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ

شيء فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً، ولايبالون به.

١٠١ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراة. والذين أوتوا الكتاب: اليهود. ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني: التوراة؛ لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ المصدق لما معهم كافرون بها، نابذون لها. أو: كتاب الله: القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لتركهم، وإعراضهم عنه. مُثّل بما يُرمى به وراء الظهور استغناء عنه، وقلّة التفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله.

١٠٢ ـ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ أي: نَبَذ اليهود كتاب الله، واتبعوا كتب السحر والشعوذة؛ التي كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: على عهد ملكه، وفي زمانه. وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمُّون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفّقونها، ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوّنوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تمّ لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه سخّر الجنَّ، والإنسَ، والرِّيحَ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ تكذيب للشياطين، ودَفع لما بَهَتَتْ به سليمان من اعتقاد السحر، والعمل به. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا۟﴾ باستعمال السحر، وتدوينه. (ولكنِ)، بالتخفيف (الشياطين) بالرفع: شامي وحمزة وعليّ ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ في موضع الحال، أي: كفروا معلّمين الناس السحر، قاصدين به إغواءهم، وإضلالهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ الجمهور على أن «ما» بمعنى: الذي. وهو نصب عطف على السحر. أي: ويعلِّمونهم ما أنزل على الملكين. أو على ﴿ما تتلوا﴾ أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾

علمان لهما، وهما عطف بيان للملكين. والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلّمه منهم وعمل به كان كافراً، إن كان فيه ردّ ما لزم في شرط الإيمان. ومَن تجنّبه، أو تعلمه لا ليعمل به، ولكن ليتوقّاه، ولئلا يغتر به كان مؤمناً. قال الشيخ أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله[1] ـ: القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك ردّ ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا. ثم السحر الذي هوكفر يقتل عليه الذكور لا الإناث. وما ليس بكفر، وفيه إهلاك النفس، ففيه حكم قطاع الطريق، ويستوي فيه الذكور والإناث، وتقبل توبته إذا تاب. ومن قال: لا تقبل فقد غلط، فإن سحرة فرعون قُبلت توبتهم. وقيل: ﴿أُنْزِلَ﴾ أي: قذف في قلوبهما مع النَّهي عن العمل. قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركّب فيهما الشهوة حين عَيَّرَتْ بني آدم، فكانا يحكمان في الأرض، ويصعدان بالليل فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر، فزنيا، فرآهما إنسان فقتلاه فاختارا عذابَ الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذّبان منكوسين في جبّ ببابل. وسُمِّيت ببابل لتبلبل الألسن بها ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ حتى ينبهاه، وينصحاه، ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء، واختبار من الله. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلمه، والعمل به على وجهٍ يكون كفراً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الفاء عطف على قوله ﴿يعلمون الناس السحر﴾، أي: يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دلّ عليهما قوله ﴿كفروا﴾ و﴿يعلمون الناس السحر﴾؛ أو على مضمر، والتقدير: فيأتون فيتعلّمون. والضمير لما دلّ عليه (من أحدٍ) أي: فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: علم السحر الذي يكون سبباً في

(١) هو محمد بن محمد: من أئمة علماء الكلام. له «التوحيد» و«تأويلات أهل السنة» وغير ذلك، توفي سنة (٣٣٣ هـ).

وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا

التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه. وللسحر حقيقة عند أهل السنة ـ كثَّرهم الله ـ وعند المعتزلة هو تخييلٌ، وتمويه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه، ومشيئته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآخرة. وفيه دليلٌ على أنه واجب الاجتناب، كتعلمّ الفلسفة التي تجرُّ إلى الغواية ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: استبدل ما تتلو الشياطينُ من كتاب الله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ من نصيب. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ باعوها. وإنما نفى العلم عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ مع إثباته لهم بقوله: ﴿ولقد علموا﴾ على سبيل التوكيد القسمي؛ لأن معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنَّهم لا يعلمون.

١٠٣ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الله، فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله. واتِّباع كُتُب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ثوابَ اللهَ خيرٌ مما هم فيه ـ وقد علموا ـ لكنه جهَّلهم لما تركوا العمل بالعلم، والمعنى: لأثيبوا من عند الله ما هو خير. وأوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة، واستقرارها. ولم يقل لمثوبة الله خير؛ لأنَّ المعنى: لشيء من الثواب خيرٌ لهم. وقيل ﴿لو﴾ بمعنى التمني، كأنه قيل: وليتهم آمنوا. ثم ابتدأ ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

١٠٤ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابّون بها

وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا

عبرانية أو سريانية، وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا افترصوه(١)، وخاطبوا به الرسول، وهم يعنون به تلك المسبَّة. فنهي المؤمنون عنها، وأمروا بما هو في معناها، وهو ﴿انظرنا﴾ من نظره: إذا انتظره. ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ وأحسنوا سماع ما يكلِّمكم به رسولُ الله ﷺ، ويلقي عليكم من المسائل، بآذان واعية، وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وطلب المراعاة. أو: واسمعوا سماعَ قبول وطاعة، ولا يكن سماعُكم كسماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولليهود الذين سبّوا رسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

١٠٥ ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ وبالتخفيف(٢)، مكي وأبو عمرو ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِنْ الأولى للبيان؛ لأنَّ الذين كفروا جنس، تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون. والثانية: مزيدة لاستغراق الخير. والثالثة: لابتداء الغاية. والخير: الوحي، وكذلك: الرحمة ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يُوحى إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن ينزلَ عليكم شيء من الوحي، والله يختصُّ بالنبوة من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه إشعارٌ بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم.

١٠٦ ـ ولما طعنوا في النسخ فقالوا: ألاترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، نزل: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾. تفسيرالنسخ لغةً: التبديل. وشريعةً: بيان انتهاء الحكم الشرعي المطلق؛ الذي تقرَّر في أوهامنا استمراره، بطريق التراخي. فكان

---

(١) «افترصوه»: اغتنموه وانتهزوه.
(٢) أي: (أَنْ يُنْزَلَ).

نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

تبديلاً في حقّنا، بياناً محضاً في حقِّ صاحب الشرع. وفيه جواب عن البداء الذي يدّعيه منكروه، أعني: اليهود. ومحلُّه: حكم يحتملُ الوجود والعدم في نفسه لم يلحق به ما ينافي النسخ من توقيت أو تأبيد ثبت نصّاً أو دلالة. وشرطُه: التمكُّن من عقد القلب عندنا دون التمكن من الفعل، خلافاً للمعتزلة. وإنما يجوزُ النسخُ بالكتاب والسنة متفقاً ومختلفاً. ويجوزُ نسخ التلاوة والحكم، والحكم دون التلاوة، والتلاوة دون الحكم، ونسخ وصف بالحكم؛ مثل الزيادة على النص. فإنه نسخ عندنا خلافاً للشافعي ـ رحمه الله ـ والإنساء: أن يذهبَ بحفظها عن القلوب. أو (نَنْسَأها) مكي وأبو عمرو، أي: نؤخرها، من نسأت، أي: أخرت ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: نأتِ بآية خير منها للعباد، أي: بآية العمل بها أكثر للثواب ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في ذلك، إذ لا فضيلةَ لبعض الآيات على البعض ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر، فهو يقدرُ على الخير، وعلى مثله.

١٠٧ ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها، وهو أعلمُ بما يتعبَّدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمركم. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

١٠٨ ـ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ أم منقطعة، وتقديره: أتريدون ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ روي أنَّ قريشاً قالوا: يا محمد! اجعلْ لنا الصَّفا ذَهَباً، ووسّع لنا أرض مكة. فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قومُ موسى عليه حين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة، وشكَّ فيها، واقترح غيرها. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قصده، ووسطه.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ

١٠٩ ـ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ أن يردوكم ﴿ مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ حال من «كُمْ» أي: يردونكم عن دينكم كافرين. نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق لما هُزِمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم ﴿ حَسَدًا ﴾ مفعول له، أي: لأجل الحسد، وهو: الأسف على الخير عند الغير ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ يتعلّق بودَّ، أي: ودّوا من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودّوا ذلك ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: من بعد علمهم بأنكم على الحق، أو بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ ﴾ فاسلكوا معهم سبيلَ العفو والصفح عما يكونُ منهم من الجهل والعداوة ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ بالقتال. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو يقدرُ على الانتقام منهم.

١١٠ ـ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ من حسنة صلاة، أو صدقة، أو غيرهما ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ تجدوا ثوابَه عنده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل.

١١١ ـ والضمير في ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. أي: وقالت اليهود: لن يدخلَ الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلفَّ بين القولين ثقة بأن السامع يردّ إلى كلٍّ فريق قوله وأمناً من الإلباس لما عُلِم من التعادي بين الفريقين، وتضليل كلٍّ واحدٍ منهما صاحبه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣].

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

وهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ. وَوَحَّدَ اسم كان للفظ مَن، وجمع الخبر لمعناه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خيرٌ من ربِّهم، وأمنيتهم أن يردُّوهم كفاراً، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم. والأمنيّة: أفعولة من التمني، مثل: الأضحوكة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هلمُّوا حُجَّتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. وهات بمنزلة هاء، بمعنى: أحضر. وهو متصل بقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، و﴿تلك أمانيهم﴾ اعتراض ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١١٢ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ مَن أخلص نفسه له، لا يشركُ به غيره. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُصَدِّق بالقرآن ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ جواب ﴿من أسلم﴾. وهو كلامٌ مبتدأ مُتضمِّن لمعنى الشرط. و﴿بلى﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١١٣ ـ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: على شيء يصحُّ، ويُعتدُّ به. والواو في: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ للحال. والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحقّ مَن حمل التوراة والإنجيل، وآمن به، ألا يكفر بالباقي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الكتابين مُصدِّق للآخر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك القول الذي سمعت به ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام، والمعطّلة، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخٌ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَن لا يعلم

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: بين اليهود والنصارى بما يقسم لكلِّ فريق منهم من العقاب اللائق به.

١١٤ ـ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ موضع ﴿مَنْ﴾ رفع على الابتداء، وهو استفهام، و﴿أظلم﴾ خبره. والمعنى: أيّ أحدٍ أظلم. و﴿أن يذكر﴾ ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعته كذا، ومثله ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويجوز أن يحذفَ حرفُ الجر مع أن، أي: من أن يذكر، وأن تنصبه مفعولاً له، بمعنى منعها كراهة أن يذكر. وهو حُكم عامّ لجنس مساجد الله، وأن مانِعَها من ذكر الله مفرطٌ في الظلم. والسببُ فيه طرح النصارى في بيت المقدس الأذى، ومنعهم الناس أن يُصَلوا فيه، أو: منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخلَ المسجد الحرام عام الحديبية. وإنما قيل: ﴿مساجد الله﴾ وكان المنع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس، أو المسجد الحرام؛ لأن الحكم وَرَدَ عامّاً، وإن كان السبب خاصّاً، كقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾ [الهمزة: ١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ بانقطاع الذكر. والمراد بـ﴿مَنْ﴾: العموم، كما أريد العموم بمساجد الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلُوا مساجدَ الله ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حال من الضمير في يدخلوها، أي: على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها، ويلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وقيل: ﴿ما كان لهم﴾ في حكم الله يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. رُوي أنه لا يدخلُ بيت المقدس أحدٌ من النصارى إلا مُتنكِّراً خيفة أن يُقتل. وقال قتادة: لا يوجد نصرانيّ في بيت المقدس إلا بولغ ضرباً. ونادى رسولُ الله ﷺ: «ألا لا يحجَّنَّ بعد هذا العام

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾

مشرك»[١]. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي للحربيّ، وذلّة بضرب الجزية للذميّ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: النار.

١١٥ ـ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب كلها له، وهو مالكها، ومتولّيها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ شرط. ﴿تُوَلُّوا﴾ مجزوم به. أي: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني: تولية وجوهكم شطر القبله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] والجواب: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم إذا مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، أو في بيت المقدس، فقد جُعِلت لكم الأرضُ مسجداً، فصلُّوا في أية بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التوليةَ ممكنةٌ في كلِّ مكان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الرحمة، يريد التوسعة على عباده، وهو عليم بمصالحهم. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فَعُذِرُوا. وهو حُجَّةٌ على الشافعي ـ رحمه الله ـ فيما إذا استدبر. وقيل: فأينما تولوا للذكر والدعاء.

١١٦ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. (قالوا) شامي. فإثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ما قبلها، وحذفه باعتبار أنه استئناف قصّة أخرى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له عن ذلك، وتبعيد ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقه ومالكه، ومن جملته المسيح، وعزير. والولادة تنافي الملك ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون، لا يمتنع شيءٌ منهم على تكوينه وتقديره. والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: كل ما في

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩) ومسلم (١٣٤٧).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾

السموات والأرض، أو كل مَن جعلوه لله ولداً ﴿له قانتون﴾ مطيعون، عابدون، مقرُّون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم. وجاء بما الذي لغير أولي العلم، مع قوله: قانتون، كقوله: سبحان ما سخر[1] لنا.

١١٧ ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق. وكلُّ من فعل ما لم يسبق إليه يقال له: أبدعت. ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة: مبتدع؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي: حكم، أو: قدر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هو من كان التامة، أي: احْدُثْ فيحدُث. وهذا مجازٌ عن سرعة التكوين، وتمثيل، ولا قول ثَمَّ. وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور، وأراد كونه، فإنما يتكوَّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما [أنَّ] المأمورَ المطيعَ الذي يؤمر فيمتثل [لا يتوقف، ولا يمتنع][2] ولا يكون منه إباء. وأكّد بهذا استبعاد الولادة؛ لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام، فأنَّى يتصور التوالد ثَمَّ؟! والوجهُ الرفع في ﴿فيكونُ﴾ وهو قراءةُ العامة على الاستئناف، أي: فهو يكون. أو على العطف على يقول. ونصبه ابن عامر على لفظ ﴿كن﴾ لأنه أمر، وجواب الأمر بالفاء نصب. وقلنا: إنّ ﴿كن﴾ ليس بأمر حقيقة، إذ لا فرقَ بين أن يقال: وإذا قضىٰ أمراً فإنما يكوّنه فيكون، وبين أن يقال: فإنما يقول له كن فيكون. وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب. وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطبَ به الموجود، والموجود لا يخاطب بكن، أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب.

١١٨ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب. ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم

---

(١) في المطبوع: سخركنّ.
(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

الملائكة، وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوّاً ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ومَنْ قبلهم في العمى. ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها.

١١٩ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت، وبلَغت جهدك في دعوتهم؟ وهو حال كنذيراً، وبشيراً، وبالحق، أي: وغير مسؤول، أو: مستأنف. قراءة نافع: (ولا تَسْأَلْ)، على النهي. ومعناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية. فيقال لك: لا تَسْأَلْ عنه. وقيل: نهى اللهُ نبيّه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟»(١).

١٢٠ ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك ـ وإن أبلغت في طلب رضانا ـ حتى تتبع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فذكر الله عز وجل كلامهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي رضي لعباده ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الإسلام. وهو الهدى كله، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى أتباعه ما هو هدى، إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أقوالهم التي هي أهواء وبِدَع ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من العلم بأن دينَ الله هو الإسلام، أو: من الدّين المعلوم

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٣٤).

مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ

صحته بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر.

١٢١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صلته. وهم مؤمنو أهل الكتاب، وهو: التوراة والإنجيل؛ أو أصحاب النبي ﷺ، والكتاب: القرآن ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ حال مقدرة من هم؛ لأنهم لم يكونوا تالين له وقت إيتائه، ونصب على المصدر ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته في الترتيل، وأداء الحروف، والتدبُّر، والتفكُّر. أو: يعملون به ويؤمنون بما في مضمونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي ﷺ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ والجملة خبر: الذين. ويجوز أن يكون يتلونه: خبراً، والجملة خبر آخر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

١٢٢ ـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنعمتها عليكم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم.

١٢٣ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هم: رفع بالابتداء، والخبر: ينصرون، والجمل الأربع وصف ليوماً. أي: واتقوا يوماً لا تجزى فيه، ولا يقبل فيه، ولا تنفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه. وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وَخَتَمَ قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

١٢٤ ـ ﴿۞ وَإِذِ﴾ أي: واذكر إذ ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ اختبره بأوامر ونواهٍ. والاختبار منا: لظهور ما لم نعلم. ومن الله: لإظهار ما قد علم. وعاقبة الابتلاء: ظهور الأمر الخفي في الشَّاهد والغائب جميعاً؛ فلذا تجوزُ إضافته إلى الله

﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾

تعالى. وقيل: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين[١]، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: (إبراهيمُ ربَّه) برفع إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أي: دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر، هل يجيبه إليهن أم لا[٢] ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن حقَّ القيام، وأدّاهن أحسَن التأدية من غير تفريط وتوانٍ. ونحوه ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]. ومعناه في قراءة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فأعطاه ما طلبه، لم ينقص منه شيئاً. والكلمات على هذا: ما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]. والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس: الفرق، وقصّ الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في الجسد: الختان، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي ثلاثون سهماً من الشرائع، عشر في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١٢]. وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنين والمعارج إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ والمعارج: ٣٤]. وقيل: هي مناسك الحج[٣] ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو اسم

(١) أي: ما يريد الله تعالى، وما يشتهيه العبد.

(٢) «الابتلاء»: الاختبار والامتحان، وابتلاء الله تعالى يرجع إلى إعلامه عباده؛ لا إلى استعلامه؛ لأنه يعلم ما يكون، فلا يحتاج إلى الابتلاء ليعلم. والمعنى: أنه عامله معاملة المختبر، وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: أنها عشر خصال من السنة؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد. (من تفسير الوسيط).

(٣) قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ياخليلي أن تطهر، فتمضمض، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فاستاك، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأخذ شاربه، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ ففرق شعره، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر فاستنجى، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر فحلق عانته، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر؛ فنتف إبطه، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن =

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾

من يؤتم به، أي: يأتمون بك في دينهم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به. ذرية الرجل: أولاده ذكورهم وإناثهم فيه سواء. فعليَّة من الذرء، أي: الخلق، فأبدلت الهمزة ياء ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسكون الياء، حمزة وحفص. أي: لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك، أي: أهل الكفر. أخبر أنَّ إمامةَ المسلمين لا تثبتُ لأهل الكفر. وأنَّ من أولاده المسلمين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ١١٣]. والمحسن: المؤمن، والظالم: الكافر. قالت المعتزلة: هذا دليلٌ على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. قالوا: وكيف يجوز نصبُ الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكفّ الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المثل السائر: «من استرعى الذئب ظلم»[(١)]. ولكنا نقول: المراد بالظالم الكافر هنا، إذ هو الظالم المطلق. وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبياً كما كان هو، فأخبر أن الظَّالم لا يكون نبياً.

١٢٥ ـ ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ﴾ أي: الكعبة، وهو اسم غالب لها، كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمۡنٗا﴾ وموضع أمن، فإن الجاني يأوي إليه، فلا يُتعرَّض له حتى يخرج. وهو دليلٌ لنا في الملتجىء إلى الحرم ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه أخذ بيد عمر فقال: «هذا مقامُ إبراهيم» فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال ﷺ: «لم أومر بذلك» فلم تغبِ الشمسُ حتى نزلت[(٢)]. وقيل: مصلى: مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه

= تطهر؛ فقلم أظفاره، فأوحىٰ الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأقبل بوجهه على جسده ماذا يصنع؟ فاختتن بعد عشرين ومئة سنة. (من تفسير الوسيط).

(١) انظره في مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٦٠، ٢٢٦ و٢/ ٣٠٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: رواه أبو نعيم. (الكشاف ١/ ١٨٥). ورواه ابن أبي داود في المصاحف (كنز العمال ٣٨١٠٧).

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ
مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ

أثر قدميه. وقيل: الحرم كلّه مقام إبراهيم. (واتَّخَذُوا) شامي ونافع بلفظ الماضي، عطفاً على جعلنا، أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به؛ لاهتمامه به، وإسكان ذريته عنده، قبلة يصلّون إليها. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بفتح الياء، مدني وحفص. أي: بأن طَهِّرا، أو: أي: طَهِّرا. والمعنى: طهّراه من الأوثان، والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ للدائرين حوله ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي: أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين. وقيل: ﴿للطائفين﴾ للنُّزاع إليه من البلاد ﴿والعاكفين﴾: والمقيمين من أهل مكة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ والمصلين، جمعا راكع وساجد.

١٢٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ أي: اجعل هذا البلد، أو هذا المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن، كعيشة راضية، أو: آمناً مَن فيه، كقولك: ليل نائم. فهذا مفعول أول، وبلداً مفعول ثان، وآمناً صفة له ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنه لم يكنْ له ثمرة. ثم أبدل ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من أهله، بدل البعض من الكل، أي: وارزق المؤمنين من أهله خاصّة. قاسَ الرزقَ على الإمامة فخصَّ المؤمنين به ﴿قَالَ﴾ الله تعالى جواباً له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: وأرزقُ مَن كفر ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً إلى حين أجله. فأمْتعه، شامي ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ ألجئه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع الذي يصيرُ إليه، النار. فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف.

١٢٧ـ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ هي جمع قاعدة، وهي: الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها: الثابتة. ورفع الأساس: البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلتْ عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولتْ بعد التقاصر ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت الله، وهو: الكعبة

وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ هو عطف على إبراهيم، وكان إبراهيمُ يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولان ربنا. وهذا الفعل في محلِّ النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ تقرُّبنا إليك ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائرنا، ونيّاتنا. وفي إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام تفخيمٌ لشأن المبين.

١٢٨ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أو مستسلمين، يقال: أسلم له، واستسلم: إذا خضع، وأذعن. والمعنى: زِدْنا إخلاصاً، وإذعاناً لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. ومن للتبعيض، أو للتبيين. وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ. وإنما خصّا بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة، كقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ منقول من رأى؛ بمعنى: أبصر، أو عرف؛ ولذا لم يتجاوزْ إلى مفعولين، أي: وبصّرنا متعبداتنا في الحج، أو عرّفناها. وواحد المناسك: منسَك، بفتح السين وكسرها، وهو: المتعبَّد، ولهذا قيل للعابد: ناسك. (وأَرْنا) مكي، قاسه على فخذ في فخذ. وأبو عمرو: يشمُّ الكسرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ ما فرط منا من التقصير، أو استتابا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٢٩ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». أي: إن آمنة رأت أنه خرج منها نور ملأ مكّة[(١)] ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم، ويبلّغهم ما تُوحي إليه من دلائل وحدانيتك،

---

(١) رواه أحمد(٤/١٢٧) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٢/٦٠٠) والبزار كما في كشف الأستار(٢٣٦٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ

وصِدْق أنبيائك ورُسُلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة، وفهْم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لايُغْلَب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت.

١٣٠ ـ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ استفهام بمعنى: الجحد، وإنكار أن يكون في العقلاء من يرغبُ عن الحق الواضح؛ الذي هو ملَّة إبراهيم. والملة: السنة والطريقة، كذا عن الزجاج ﴿إِلَّا مَن﴾ في محل الرفع على البدل من الضمير في: يرغب. وصح البدل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد؟! والمعنى: وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: جهل نفسه، أي: لم يفكّر في نفسه، فوضع «سفه» موضع «جهل»، وعدّي كما عدّي. أو معناه: سفه في نفسه، فحذف في، كما حذف من في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه، و«على» في قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: على عقدة النكاح. والوجهان عن الزجاج. وقال الفراء: هو منصوب على التمييز، وهو ضعيف لكونه معرفة ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان لخطأ رأي مَن يرغب عن ملته، لأن مَن جمع كرامة الدارين لم يكن أحدٌ أولى بالرغبة في طريقته منه.

١٣١ ـ ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه، أو انتصب بإضمار اذكر؛ كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت؛ لتعلم أنه المصطفى الصالح؛ الذي لا يُرغب عن ملَّة مثله ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أذعنْ، أو: أطعْ، أو: أخلصْ دينك لله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلصتُ، أو انقدتُ.

١٣٢ ـ ﴿وَوَصَّىٰ﴾ (وأوْصَى)، مدني وشامي ﴿بِهَآ﴾ بالملة، أو بالكلمة، وهي ﴿أسلمتُ لرب العالمين﴾ ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو معطوف على إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً ﴿يَٰبَنِىَّ﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

على إضمار القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، ووفَّقكم لِلأخْذ به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشعٌ، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوعِ في صلاته.

١٣٣ ـ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء: جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب ـ عليه السلام ـ؛ إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب للمؤمنين، بمعنى: ما شهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلمُ به من طريق الوحي. أو متصلة، ويقدر قبلها محذوف. والخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية. كأنه قيل: أتدَّعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟! ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ الأولى، والعامل فيهما شهداء، أو ظرف لحضر ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾: ما: استفهام في محل النصب بتعبدون، أي: أيّ شيء تعبدون. وما: عام في كلِّ شيء. أو هو سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد تريد أفقيه أم طبيب؟ ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ من بعد موتي ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أُعيد ذكر الإله؛ لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل من جملة آبائه، وهو عمه؛ لأنَّ العم أب. قال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»[1] ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من إله آبائك، كقوله: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥ـ ١٦] أو نصب على الاختصاص، أي: نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١٠٩).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

حال من فاعل نعبد، أو: جملة معطوفة على نعبد، أو: جملة اعتراضية مؤكدة.

١٣٤ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة؛ التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحِّدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره، متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك لا فتخارهم بآبائهم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم.

١٣٥ ـ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جزم لأنه جوابُ الأمر ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل نتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه، نحو: رأيت وجه هند قائمة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، لأن كلاً منهم يدّعي اتباع ملّة إبراهيم، وهو على الشرك.

١٣٦ ـ ﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين، أو للكافرين، أي: قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ السبط: الحافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ. والأسباط: حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ويُعدَّى أنزل بإلى وعلى ، فلذا ورد هنا بإلى، وفي آل عمران بعلى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لانؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى. و«أحد» في معنى الجماعة؛ ولذا صح دخولُ بين عليه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لله مخلصون.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ﴾

١٣٧ - ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ ظاهرُ الآية مشكلٌ، لأنه يوجبُ أن يكون لله تعالى مثل، وتعالى عن ذلك. فقيل: الباء زائدة، ومثل صفة مصدر محذوف، تقديره: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، والهاء يعود إلى الله عز وجل. وزيادة الباء غير عزيز، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧] والتقدير: جزاء سيئة مثلها، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقيل: المثل: زيادة، أي: فإن آمنوا ما آمنتم به، يؤيده قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿بما آمنتم به﴾ وما: بمعنى الذي؛ بدليل قراءة أُبيّ ﴿بالذي آمنتم به﴾. وقيل: الباء للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عما تقولون لهم، ولم ينصفوا، أو إن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي: فما هم إلا في خلاف وعداوة، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم. وقد أنجز وعده بقتل بعضهم، وإجلاء بعض، ومعنى السين: أنَّ ذلك كائنٌ لا محالة، وإن تأخَّر إلى حين ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون من الحسد والغِلّ، وهو معاقبهم عليه، فهو وعيدٌ لهم، أو: وعدٌ لرسول الله ﷺ، أي: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك، وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيبٌ لك، ومُوصِلك إلى مرادك.

١٣٨ - ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله. وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وهي فعلة من: صبغ، كالجلسة من: جلس، وهي الحالة التي يقعُ عليها الصبغ. والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمانَ يُطهِّر النفوس. والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمّونه المعمودية، ويقولون: هو تطهيرٌ لهم، فإذا فعل الواحدُ منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقّاً. فأُمِر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله، وصبغنا الله

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾

بالإيمان صبغته، ولم نصبغ صبغتكم. وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان. تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييز، أي: لا صبغة أحسن من صبغته، يريد: الدين، أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على ﴿آمنا بالله﴾ وهذا العطف يدلُّ على أن قولَه ﴿صبغة الله﴾ داخل في مفعول ﴿قولوا آمنا﴾ أي: قولوا هذا وهذا، ونحن له عابدون، ويردّ قول مَن زعم أن صبغة الله بدل من: ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التئامه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

١٣٩ ـ ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في شأن الله، واصطفائه النبي من العرب دونكم؟ وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا؟ وترونكم أحقّ بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته مَن يشاء من عباده ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعني: أن العمل هو أساس الأمر، وكما أن لكم أعمالاً فلنا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن له موحِّدون، نُخْلِصُه[1] بالإيمان وأنتم به مشركون. والمخلص أحرى بالكرامة، وأولى بالنبوة من غيره.

١٤٠ ـ ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء: شامي وكوفيّ، غير أبي بكر. وأم على هذا معادلة للهمزة في: أتحاجوننا، يعني: أيّ الأمرين تأتون: المحاجة في حكم الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ أو منقطعة، أي: بل أتقولون؟ يقولون، غيرهم بالياء. وعلى هذا لا تكون الهمزةُ إلا منقطعة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن

---

(١) في المطبوع: نخصّه.

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول مستفهماً، رادّاً عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾. يعني: أنَّ اللهَ شهد لهم بملَّة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنّه شهد بها، وهي: شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهُم عالمون بها. أو: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحدٌ أظلم منّا فلا نكتمها. وفيه تعريضٌ بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. و«من» في قوله ﴿من الله﴾ مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان؛ إذا شهدت له، في أنها صفة لها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

١٤١ ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كررت للتأكيد، أو لأنَّ المرادَ بالأول الأنبياء عليهم السلام، وبالثاني: أسلاف اليهود والنَّصارى.

١٤٢ ـ ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الخفاف الأحلام، فأصل السفه: الخفّة. وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ؛ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء؛ أو: المشركون لقولهم: رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم. وفائدةُ الإخبار بقولهم قبل وقوعه توطين النفس، إذ المفاجأةُ بالمكروه أشدّ، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يُراش السهم ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس. والقبلة: الجهة التي يستقبلها الإنسانُ في الصلاة؛ لأنَّ المصلِّي يقابلها ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها له ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق مستو. أي: يرشد من يشاء إلى قبلة الحق، وهي الكعبة التي أمرنا بالتَّوجُّه

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

إليها. أو الأماكن كلّها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، فتارة إلى الكعبة، وطوراً إلى بيت المقدس، لا اعتراض عليه؛ لأنه المالكُ وحده.

١٤٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم. فالكاف: للتشبيه، وذا: جر بالكاف، واللام: للفرق بين الإشارة إلى القريب والإشارة إلى البعيد، والكاف: للخطاب لا محلَّ لها من الإعراب ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً. وقيل للخيار: وسط؛ لأنَّ الأطراف يتسارعُ إليها الخلل، والأوساط محمية. أي: كما جعلت قبلتكم خير القبل جعلتكم خير الأمم. وعلة الجعل أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل، وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدكم. أو: عدولاً، لأن الوسطَ عدلٌ بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض. أي: كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم أمة وسطاً بين الغلو والتقصير؛ فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزِّنى، وعيسى بأنه ولد الزِّنى ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ غير منصرف لمكان ألف التأنيث ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ صلة شهداء ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ عطف على ﴿لتكونوا﴾ روي أن الأممَ يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب اللهُ الأنبياءَ بالبينة على أنهم قد بلَّغوا ـ وهو أعلم ـ فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصَّادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم، ويشهدُ بعدالتهم. والشهادة قد تكون بلا مشاهدة، كالشهادة بالتسامع في الأشياء المعروفة. ولما كان الشهيدُ كالرقيب جيء بكلمة الاستعلاء، كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقيل: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ في الدنيا فما لا يصح إلا بشهادة العدول

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾

الأخيار ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ يزكِّيكم، ويعلم بعدالتكم. واستدل الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ بالآية على أن الإجماعَ حجةٌ؛ لأن اللهَ تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة. والعدل: هو المستحقُّ للشهادة وقبولها. فإذا اجتمعوا على شيء، وشهدوا به، لزم قبوله. وأخّرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؛ لأنَّ المرادَ في الأوّل إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ الجهة ﴿التي كنتَ عليها﴾ وهي الكعبة. فالتي كنتَ عليها ليست بصفة للقبلة، بل هي ثاني مفعولي جعل. رُوي أن رسول الله ﷺ كان يصلّي بمكة إلى الكعبة، ثم أُمِر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة، تأليفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة. [وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بخلاف ما يقوله الشافعي لأن التوجه إلى بيت المقدس ثبت بوحي غير متلوٍّ وقد نسخ بالكتاب](١) ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ التي تحبُّ أن تستقبلها، الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ أولاً بمكة، إلا امتحاناً للناس وابتلاء؛ لنعلم الثابت على الإسلام الصادق فيه ممن هو على حرف ينكص ﴿على عقبيه﴾ لقلقه يرجع فيرتدّ عن الإسلام عند تحويل القبلة. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى قوله ﴿لنعلم﴾ أي: لنعلم كائناً أو موجوداً ما قد علمناه أنه يكون ويوجد. فالله تعالى عالمٌ في الأزل بكل ما أراد وجوده، أنه يوجدُ في الوقت الذي شاء وجوده فيه. ولا يوصف بأنه عالمٌ في الأزل بأنه موجودٌ كائن؛ لأنه ليس بموجود في الأزل فكيف يعلمه موجوداً؟ فإذا صار موجوداً يدخلُ تحت علمه الأزلي فيصيرُ معلوماً له موجوداً كائناً. والتغير على المعلوم لا على العلم. أو: لنميز التابع من النّاكص، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز؛ لأنَّ العلمَ به يقعُ التمييز. أو: ليعلم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم

---

(١) كذا في الأصل المخطوط، وهو ساقط من المطبوع.

وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ

خواصّه. أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم، كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقهِ في النار لنعلم أيذوب؟ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: التحويلة، أو: الجعلة، أو القبلة. وإن هي المخففة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: ثقيلة شاقة، وهي خبر كان. واللام: فارقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداهم اللهُ، فحذف العائد. أي: إلا على الثابتين الصّادقين في اتّباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. سمَّى الصَّلاةَ إيماناً؛ لأن وجوبَها على أهل الأيمان، وقبولها من أهل الإيمان، وأداؤها في الجماعة دليل الإيمان. لما توجَّه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا؟ فنزلت، ثم علَّل ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ﴾[1] مهموز مشبع، حجازي، وشامي، وحفص. (رَؤُفٌ) غيرهم بوزن فعل، وهما للمبالغة ﴿رَّحِيمٞ﴾ لا يضيع أجورهم. والرأفة أشد من الرحمة. وجمع بينهما كما في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

١٤٤ ـ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تردُّد وجهك، وتصرُّف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله ﷺ يتوقَّع من ربِّه أن يُحوِّله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم، ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم، ومزارهم، ومطافهم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ فلنعطينك، ولنمكِّننك من استقبالها، من قولك: وليته كذا: إذا جعلته والياً له؛ أو: فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَا﴾ تحبّها، وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها، ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: نحوه. وشطر: نصب على الظرف. أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد، أي: في جهته وسمته؛ لأن استقبال عين القبلة متعسِّر على النائي. وذِكْرُ المسجد

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٨).

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

الحرام دون الكعبة دليلٌ على أن الواجبَ مراعاةُ الجهة دون العين. روي أنه ﷺ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجّه إلى الكعبة[1] ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض، وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يصلي إلى القبلتين ﴿مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكي، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم؛ وبالتاء غيرهم. فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

١٤٥ ـ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أراد ذوي العناد منهم ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ برهان قاطع أن التوجُّهَ إلى الكعبة هو الحقُّ ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنَّ تركهم اتِّباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد. مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق، وجواب القسم المحذوف سدَّ مسدَّ جواب الشرط ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حسم لأطماعهم، إذ كانوا اضطربوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. ووحّدت القبلة وإن كان لهم قبلتان، فلليهود قبلة، وللنصارى قبلة؛ لاتحادهم في البطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في شأن القبلة، لا يرجى اتِّفاقهم، كما لا تُرجى موافقتهم لك، فاليهود تستقبلُ بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من بعد وضوح البرهان، والإحاطة بأن القبلة هي الكعبة، وأنَّ دينَ الله هو

(١) رواه البخاري (٤٤٩٢).

﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٥ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١٤٧ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾

الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لمن المرتكبين الظُّلم الفاحش. وفي ذلك لطفٌ للسامعين، وتهييج للثبات على الحق، وتحذير لمن يترك الدَّليل بعد إنارته ويتبع الهوى. وقيل: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد أمته. ولزم الوقف على ﴿الظالمين﴾ إذ لو وصل لصار:

١٤٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صفة للظالمين، وهو مبتدأ والخبر: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: محمداً ﷺ، أو القرآن، أو تحويل القبلة، والأول أظهر؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني. فقال له عمر: ولِمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعلَّ والدته خانت. فقبَّل عمرُ رأسَه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي: الذين لم يسلموا. ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ حسداً وعناداً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله تعالى بيَّنه في كتابهم.

١٤٧ ـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ خبره: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. واللام: للجنس، أي: الحق مِنَ الله لا من غيره. يعني: أنَّ الحقَّ ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه. وما لم يثبتْ أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل. أو: للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق و﴿من ربك﴾ خبر بعد خبر، أو: حال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين في أنه من ربِّك.

١٤٨ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة. وقُرِىء[1] بها ﴿هُوَ﴾ الضمير لكل ﴿مُوَلِّيهَا﴾ الضمير للوجهة. أي: هو مولّيها وجهه، فحذف أَحَد المفعولين. أو ﴿هو﴾ لله تعالى، أي: الله مولّيها إياه. هو (مُوَلَّاها)، شامي، أي: هو مولى تلك الجهة قد وليها. والمعنى: ولكل أمة قبلة يتوجّه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟﴾ أنتم ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فاستبقوا إليها غيركم من

(١) قرأ بها أُبيّ: (ولكلٍّ قبلةٌ).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ

أمر القبلة وغيره ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيفصل بين المحقّ والمبطل. أو: ﴿ولكل منكم﴾ يا أمة محمد ﴿وجهة﴾ جهة يصلي إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي: الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت ﴿أينما تكونوا﴾ من الجهات المختلفة ﴿يأتِ بكم الله جميعاً﴾ ويجمعكم، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلّون حاضري المسجد الحرام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤٩ ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء، أبو عمرو.

١٥٠ ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأنَّ النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة، فكرر عليهم ليثبتوا. على أنه نيط بكلٍّ واحدٍ ما لم ينط بالآخر، فاختلفتْ فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: قد عرّفكم الله جلَّ ذكره أمرَ الاحتجاج في القبلة بما قد بيّن في قوله: ﴿ولكلّ وجهة هو موليها﴾، ﴿لئلا يكون للناس﴾ لليهود ﴿عليكم حجة﴾ في خلاف ما في التوراة من تحويل القبلة. وأطلق اسم الحجّة على قول المعاندين؛ لأنهم يسوقونه سياق الحجّة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا المعاندين منهم، القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحبّاً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام. أو: معناه: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة؛ التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجعَ إلى

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا
تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

دينهم. ثم استأنف مُنبهاً بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم؛ فإنهم لا يضرونكم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرّفتكم لئلا يكون عليكم حجة، ولأتمّ نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى الكعبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

١٥١ ـ والكاف في: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول؛ أو بما بعده، أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب. فعلى هذا يوقف على ﴿تهتدون﴾ وعلى الأوّل لا. ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ من العرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة والفقه. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

١٥٢ ـ ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالمقدرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة. أو: بالثناء والعطاء، أو: بالسؤال والنوال، أو: بالتوبة وعفو الحَوْبة، أو: بالإخلاص والخلاص، أو: بالمناجاة والنجاة ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمتُ به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا نعمائي.

١٥٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فبه تُنال كلُّ فضيلة ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فإنها تنهى عن كلِّ رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

١٥٤ ـ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي: هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: هم أحياء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون ذلك؛ لأنَّ حياةَ الشّهيد لا تعلم حسّاً. عن الحسن

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ﴾

ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الشهداءَ أحياء عند الله، تُعْرض أرزاقُهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْحُ والفَرَحُ، كما تُعرْض النار على أرواح آل فرعون غدوّاً وعشيّاً، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يُرْزَقون ثمر الجنة، ويجدون ريحَها، وليسوا فيها.

١٥٥ ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كلٍّ واحدة من هذه البلايا وطرف منه. وقلَّل ليؤذن أنَّ كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسانَ ـ وإن جلَّ ـ ففوقه ما يقلّ إليه[(١)]، ويريهم أنَّ رحمته معهم في كلِّ حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها؛ ليوطنوا نفوسهم عليها ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ خوف العدو أو الله ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: القحط، أو صوم شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بموت المواشي، أو الزكاة. وهو عطف على شيء، أو على الخوف، أي: وشيء من نقص الأموال ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ بالقتل، والموت، أو بالمرض، والشيب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثمرات الحرث، أو موت الأولاد؛ لأنَّ الولدَ ثمرةُ الفؤاد ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا؛ لأنَّ الاسترجاعَ تسليمٌ وإذعان. وفي الحديث: «مَن استرجعَ عند المصيبة جَبرَ الله مصيبتَه، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»[(٢)]. وطُفِيء سراجُ رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كلُّ شيءٍ يُؤْذِي المؤمنَ فهو مصيبة»[(٣)]. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه البشارة.

١٥٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصب صفة للصابرين. ولا وقف عليها، بل يُوقف على

---

(١) في المطبوع: إليهم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد (٢/ ٣٣١). والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل(٤١٢).

إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ
ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ

﴿راجعون﴾. ومن ابتدأ بالذين، وجعل الخبر ﴿أولئك﴾ يقف على الصابرين، لا على راجعون. والأول الوجه؛ لأنَّ الذين وما بعده بيانٌ للصبر ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ مكروه. اسم فاعل من أصابته شدَّة، أي: لحقته. ولا وقف على مصيبة؛ لأن ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا، وإذا وجوابها: صلة الذين ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار له بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرارٌ على نفوسنا بالهُلْك.

١٥٧ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة، وجمع بينها وبين الرحمة؛ كقوله: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: ٢٧] ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٧] والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ لطريق الصواب، حيث استرجعوا، وأذعنوا لأمر الله. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: نِعْم العدلان، ونِعْم العلاوة، أي: الصلاة، والرحمة، والاهتداء.

١٥٨ ـ ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما علمان للجبلين ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه ومتعبَّداته، جمع: شعيرة، وهي: العلامة ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ﴾ قصَد الكعبة. ﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ زار الكعبة. فالحج: القصد، والاعتمار: الزيارة. ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين. وهما في المعاني كالنَّجم والبيت في الأعيان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يتطوف، فأدغم التاء في الطاء. وأصل الطوف: المشي حول الشيء. والمراد ـ هنا ـ: السعي بينهما. قيل: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة، فَمُسِخا حجرين، فَوُضِعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عُبدا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلامُ، وكُسرت الأوثان، كَره المسلمون الطوافَ بينهما لأجل فِعْل الجاهلية، فرفع عنهم الجناح بقوله ﴿فلا جناح﴾. وهو دليلٌ على أنه

وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

ليس بركنٍ كما قال مالك والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: بالطَّواف بهما. وهو كذلك مُشْعِرٌ بأنَّه ليس بركن. (ومَنْ يَطَّوَّعْ)، حمزة وعليّ، أي: يتطوع، فأدغم التاء في الطاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مجاز على القليل كثيراً ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء صغيراً وكبيراً.

١٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ الهداية إلى الإسلام بوصفه ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في التوراة. لم ندع فيه موضعَ إشكال، فعمدوا إلى ذلك المبين فكتموه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ الذين يتأتَّى منهم اللعن، وهم الملائكة والمؤمنون من الثَّقَلَيْن.

١٦٠ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الكتمان، وترك الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ وأظهروا ما كتموا ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٦١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني: الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين، ولم يتوبوا ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر لعنتهم أحياء، ثم لعنتهم أمواتاً. والمراد بالناس: المؤمنون. أو المؤمنون والكافرون؛ إذ بعضُهم يلعن بعضاً يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٦٢ ـ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حال من «هم» في «عليهم» ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة، أو في النار؛ إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار، أي: لا يمهلون، أو: لا ينتظرون ليعتذروا؛ أو لا ينظر

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

إليهم نظر رحمة.

١٦٣ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في ألوهيته لا شريك له فيها، ولا يصحُّ أن يُسمَّى غيره إلهاً ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته. وموضع ﴿هو﴾ رفع؛ لأنه بدلٌ من موضع ﴿لا إله﴾ ولا يجوز النصب هنا؛ لأنَّ البدلَ يدلُّ على أن الاعتمادَ على الثاني، والمعنى في الآية على ذلك، والنصب يدلُّ على أنَّ الاعتمادَ على الأول. ورفع ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُولي لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فما سواه إما نعمة، وإما منعم عليه. على أنه خبر مبتدأ، أو على البدل من «هو»، لا على الوصف؛ لأنَّ المضمرَ لا يُوصف.

١٦٤ ـ ولما عجب المشركون من إلهٍ واحدٍ، وطلبوا آيةً على ذلك نزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في اللون، والطول، والقصر، وتعاقبهما في الذهاب والمجيء ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها؛ أو بنفع الناس. ومِن في: ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مطر. لبيان الجنس؛ لأن ما ينزل من السماء مطر وغيره. ثم عطف على أنزل ﴿فأحيا به﴾ ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها. ثم عطف على ﴿فأحيا﴾، ﴿وَبَثَّ﴾ وفرّق. ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ هي كلّ ما يدبّ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ﴾ الريح، حمزة وعليّ. أي: وتقليبها في مهابها قَبولاً، ودَبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقح. وقيل: تارة بالرحمة، وطوراً بالعذاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلَّل المنقاد لمشيئة الله تعالى، فيمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ في الهواء ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم،

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ

ويعتبرون، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها، وحكمة مبدعها، ووحدانيّة مُنْشِئها. وفي الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها»(١) أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبر بها.

١٦٥ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ومع هذا البرهان النير من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً من الأصنام ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُعظِّمونهم، ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيم الله، والخضوع له. أي: يحبُّون الأصنام كما يحبون الله، يعني: يسوّون بينهم وبينه في محبتهم؛ لأنَّهم كانوا يقرُّون بالله، ويتقرَّبون إليه. وقيل: يحبونهم كحبِّ المؤمنين الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد، فيفزعون إليه، ويخضعون له ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ﴿ترى﴾ نافع وشامي، على خطاب الرسول، أو كلِّ مخاطب. أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إشارة إلى مُتَّخذي الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ ﴿يُرَوْنَ﴾ شامي ﴿ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ شديد عذابه. أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنَّ القدرةَ كلَّها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شدَّةَ عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخلُ تحت الوصف من الندم والحسرة. فحذف الجواب؛ لأنَّ لو إذا جاء فيما يشوقُ إليه، أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهب القلب فيه كلّ مذهب. ولو يليها الماضي، وكذا إذ وضعها لتدلَّ على الماضي. وإنما دخلتا على المستقبل ـ هنا ـ لأنَّ إخبارَ الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي.

١٦٦ ـ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ مدغمة الذال في التاء حيث وقعت، عراقي غير عاصم.

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧١٥٨).

ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

وهو بدل من ﴿إذ يرون العذاب﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ أي: المتَبَّعون، وهم الرؤساء. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ من الأتباع ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ الواو فيه للحال، أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ ﴿بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ الوُصَل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب.

١٦٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي: الأتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾ نصب على جواب التمني، لأن لو في معنى التمني، والمعنى: ليت لنا كرة فنتبرأ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ الآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: عبادتهم الأوثان ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي مفعول ثالث ليريهم. ومعناه: أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بل هم فيها دائمون.

١٦٨ ـ ونزل فيمن حرموا على أنفسهم البحائر ونحوها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ﴾ نزل فيمن حرَّموا على أنفسهم البحائر ونحوها. أمر إباحة ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من للتبعيض؛ لأن كلَّ ما في الأرض ليس بمأكول ﴿حَلَٰلًا﴾ مفعول كلوا، أو: حال مما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً من كلِّ شُبهة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ طرقه التي يدعوكم إليها. وبسكون الطاء: أبو عمرو[1] غير عيَّاش ونافع وحمزة وأبو بكر. والخطوة في الأصل: ما بين قدمي الخاطي. يقال: اتبع خطواته: إذا اقتدى به، واستنَّ بِسُنَّته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به. وأبان: متعد ولازم. ولا يناقض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: الشيطان؛ لأنه عدوٌّ للناس

(١) أي: هو أبو عمرو بن العلاء، لا عيَّاش بن محمد العبدي المقرىء.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾

حقيقة، ووليُّهم ظاهراً؛ فإنه يريهم في الظاهر الموالاة، ويُزيِّن لهم أعمالهم، ويريدُ بذلك هلاكَهم في الباطن.

١٦٩ ـ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه، وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط، إنما يأمركم ﴿بِالسُّوٓءِ﴾ بالقبيح، ﴿وَالْفَحْشَآءِ﴾ وما يتجاوز الحدَّ في القبح من العظائم. وقيل: السوء: ما لا حدّ فيه. والفحشاء: ما فيه حَدٌّ ﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾ في موضع الجر بالعطف على ﴿بالسوء﴾ أي: وبأن تقولوا. ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قولكم: هذا حلال، وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه: كلُّ ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوزُ عليه.

١٧٠ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفات. قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود. لما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان، واتباع القرآن ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فإنهم كانوا خيراً منا، وأعلم. فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الواو للحال. والهمزة بمعنى الردّ والتعجّب. معناه: أيتبعونهم: ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدِّين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب.

١٧١ ـ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المضاف محذوف، أي: ﴿ومثل﴾ داعي ﴿الذين كفروا﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يصيح. والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ البهائم. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جَرْس النغمة، ودويّ الصوت، من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه؛ الذي هو تصويت بها، وزجرٌ لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء. والنعيق: التصويت. يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن.

صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ

والنداء: ما يُسْمَع. والدعاء قد يُسْمَع وقد لا يُسْمَع ﴿صُمٌّۢ﴾ خبر مبتدأ مضمر، أي: هم صم ﴿بُكۡمٌ﴾ خبر ثان ﴿عُمۡيٌ﴾ عن الحق. خبر ثالث. ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ الموعظة.

١٧٢ ـ ثم بيّن أن ما حرّمه المشركون حلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ من مُسْتَلَذّاته، أو من حلالاته ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الذي رزقكموها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ إن صحَّ أنكم تختصونه بالعبادة، وتقرُّون أنه مُعْطي النعم.

١٧٣ ـ ثم بيّن المحرم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ وهي: كلّ ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح. و﴿إنما﴾ لإثبات المذكور، ونفي ماعداه، أي: ماحرَّم عليكم إلا الميتة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ يعني: السائل، لقوله في موضع آخر ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقد حلَّت الميتتان والدمان بالحديث: «أحلتْ لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطّحال»(١) ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ يعني: الخنزير بجميع أجزائه. وخصَّ اللحم لأنه المقصود بالأكل ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذبح للأصنام، فذكر عليه غير اسم الله. وأصل الإهلال: رفع الصوت. أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزّى ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: ألجيء. بكسر النون، بصري وحمزة وعاصم، لالتقاء الساكنين، أعني: النون والضاد. وبضمها غيرهم، لضمة الطاء ﴿غَيۡرَ﴾ حال. أي: فأكل ﴿غير باغ﴾ ﴿بَاغٖ﴾ للذّة وشهوة ﴿وَلَا عَادٖ﴾ متعدّ مقدار الحاجة. وقول من قال غير باغ على الإمام ولا عاد في سفر حرام، ضعيف، لأن سفر الطاعة لا يبيح بلا ضرورة. والحبس بالحضر يبيح بلا سفر. ولأن بغيه لا يخرج عن الإيمان، فلا يستحق الحرمان.

(١) رواه أحمد (٢/٩٧) وابن ماجه (٣٢١٨).

فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام، وتبقى معه الحياة دون مافيه حصول الشبع، لأنّ الإباحة للاضطرار فتقدّر بقدر ماتندفع الضرورة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب الكبائر، فأنّى يُؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص.

١٧٤ ـ ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي ﷺ، وأخذهم على ذلك الرشا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في صفة محمد ﷺ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضاً، أو: ذا ثمن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. تقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأنه إذا أكل مايتلبّس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار. ومنه قولهم: «أكل فلان الدم» إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

... . يـأْكُلْـن كـلَّ ليلـةٍ إكـافـا[1]

أي: ثمن إكاف، فسمّاه إكافاً لتلبسه به بكونه ثمناً له ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلاماً يسرهم، ولكن بنحو قوله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، أو: لا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. والجمل الثلاث معطوفة على خبر «إنَّ»، فقد صار لـ«إنَّ» أربعة أخبار من الجمل.

١٧٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ بكتمان نعت محمد ﷺ ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فأيّ شيء أصبرهم على عمل يؤدّي إلى النار. وهذا استفهامٌ معناه التّوبيخ.

---

(١) عجز بيت، وصدره؛ إن لنا أحمرة عجافا.
«أحمرة»: حمير. «عجاف»: مهازيل. «إكاف»: برذعة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

١٧٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أنَّ الله نزل ما نزل من الكتب بالحقّ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: أهل الكتاب ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو للجنس، أي: في كتب الله، فقالوا في بعضها حق، وفي بعضها باطل ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق. أو: كفرهم ذلك بسبب أنَّ الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد عن الهدى.

١٧٧ ـ ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟﴾ أي: ليس البر توليتكم ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب، لأن قبلة النصارى مشرق بيت المقدس، وقبلة اليهود مغربه، وكلّ واحد من الفريقين يزعم أنّ البر التوجّه إلى قبلته، فردّ عليهم بأن البرّ ليس فيما أنتم عليه، فإنه منسوخ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أو: ذا البر من آمن، والقولان على حذف المضاف، والأول أجود. والبر: اسم للخير، ولكل فعل مرضي. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البرَّ الذي يجب الاهتمام به برّ من آمن وقام بهذه الأعمال. (ليس البرّ) بالنصب على أنه خبر ليس، واسمه (أن تولوا)، حمزة وحفص. ولكن: ﴿البِرُّ﴾: نافع، وشامي. وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكنَّ البَرَّ. وقرىء: (ولكنَّ البَارّ) ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يوم البعث ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جنس كتب الله، أو القرآن ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حب الله، أو: حب المال، أو: حب الإيتاء، يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة. وقدَّمهم لأنهم أحقّ. قال ﷺ: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقة

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ

وصلة»[١] و﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ المراد: الفقراء من ذوي القربى واليتامى، وإنما أطلق لعدم الإلباس ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ المسكين: الدائم السكون إلى الناس؛ لأنه لا شيءَ له، كالسكِّير للدائم السُّكر. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وهو جنس وإن كان مفرداً لفظاً، وجُعل ابناً للسبيل لملازمته له. أو الضيف ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المستطعمين ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكّوا رقابهم. أو في فك الأسارى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، قيل: هو تأكيدٌ للأول، وقيل: المراد بالأول: نوافل الصَّدقات والمبارّ ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ عطف على «من آمن» ﴿بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ الله أو الناس ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب على المدح والاختصاص إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال، على سائر الأعمال ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقر والشّدة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض والزّمانة ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقت القتال. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: أهل هذه الصفة هم الذين صدقوا في الدّين ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

١٧٨ ـ رُوي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْل[٢] على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، والاثنين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزل[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ أي: فُرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المساواة، وأصله: من قصّ أثره، واقتصه: إذا اتبعه، ومنه القاصّ لأنه يتبع

(١) رواه أحمد (٤/ ١٧) والترمذي (٦٥٨) والنسائي (٥/ ٩٢) وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر.

(٢) «الطَّوْل»: الفضل والقدرة.

(٣) قال ابنُ حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/ ٢٢١).

﴿فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾

الآثار والأخبار ﴿فِي ٱلْقَتْلَى﴾ جمع قتيل. والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى. ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر، أي: الحر مأخوذ أو مقتول بالحر ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص. وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] كما بين الذكر والأنثى. وبقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»(١). وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس؛ بدليل أنَّ جماعةً لو قَتَلوا واحداً قُتِلوا به. وبأن تخصيصَ الحكم بنوعٍ لا ينفيه عن نوع آخر، بل يبقي الحكم فيه موقوفاً على ورود دليل آخر، وقد ورد كما بيَّنَّا ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قالوا: العفو ضد العقوبة، يقال: عفوت عن فلان: إذا صفحت عنه، وأعرضت عن أن تعاقبه. وهو يعدى بعن إلى الجاني وإلى الجناية ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وإذا اجتمعا عدّي إلى الأول باللام، فتقول: عفوت له عن ذنبه، ومنه الحديث: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق»(٢). وقال الزجاج: ﴿من عفي له﴾ أي: من ترك له القتل بالدية. وقال الأزهري: العفو في اللغة: الفضل، ومنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويقال: عفوت لفلان بمال: إذا أفضلت له، وأعطيته. وعفوت له عما لي عليه: إذا تركته. ومعنى الآية عند الجمهور: فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو، على أنَّ الفعل مسندٌ إلى المصدر كما في: سير بزيد بعض السير. والأخ: وليّ المقتول. وذكر بلفظ الأخوة بعثاً له على العطف؛ لما بينهما من الجنسية والإسلام. و﴿من﴾ هو القاتل المعفو له عما جنى. وترك المفعول الآخر استغناء عنه، وقيل: أقيم له مقام عنه. والضمير في: له وأخيه: لمن، وفي: إليه: للأخ، أو للمتبع الدال عليه: ﴿فاتباع﴾ لأن المعنى: فليتبع الطالب القاتل

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٦٨٥).

(٢) رواه أحمد (١/١٨) وأبو داود (١٥٩٤) وابن ماجه (١٨١٢) و(١٨١٣).

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

بالمعروف بأن يطالبه مطالبة جميلة. وليؤدِّ إليه المطلوبُ، أي: القاتل بدلَ الدم، أداء بإحسان، بألا يمطله ولا يبخسه. وإنما قيل: شيء من العفو ليعلم أنه إذا عفا عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تمّ العفو، وسقط القصاص. ومن فسّر ﴿عفي﴾ بترك جعل «شيء» مفعولاً به. وكذا من فسّره بأعطى، يعني: أن الولي إذا أعطي له شيء من مال أخيه، يعني: القاتل، بطريق الصلح فليأخذه بمعروف من غير تعنيف، وليؤدّه القاتلُ إليه بلا تسويف. وارتفاع ﴿اتباع﴾ بأنه خبر مبتدأ مضمر، أي: فالواجبُ اتباع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو، وأخذ الدية ﴿تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ فإنه كان في التوراة القتل لا غير، وفي الإنجيل العفو بغير بدل لا غير، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيراً. والآية تدلُّ على أن صاحبَ الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل، ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان، ولاستحقاق التَّخفيف والرحمة ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧٩ ـ ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ كلام فصيح، لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بيّنة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان في القصاص حياة وأي حياة! أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا همّ بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرعُ القصاص سببَ حياة نفسين ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا ذوي العقل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ القتل حذراً من القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

١٨٠ ـ ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالاً كثيراً. لما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمئة فمنعه، قال: قال الله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ والخير: هو المال الكثير، وليس لك مال[1]. وفاعل ﴿كُتب﴾: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكانت الوصية للوارث في بدء الإسلام، فنسخت بآية المواريث كما بيناه في «شرح المنار». وقيل: هي غير منسوخة؛ لأنها نزلت في حقّ من ليس بوارث بسبب الكفر؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام؛ يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرابته، والإسلام قطع الإرث، فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندباً. وعلى هذا لا يراد بـ«كُتب»: فرض ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل، وهو: ألا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، أي: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ على الذين يتقون الشرك.

١٨١ ـ ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ فمن غيّر الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أي: الإيصاء ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريئان من الحيف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بجور المبدّل.

١٨٢ ـ ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم. وهذا شائع في كلامهم، يقولون: أخاف أن ترسلَ السماء، ويريدون: الظن الغالب الجاري مجرى العلم ﴿مِن مُّوصٍ﴾ (مُوَصٍّ)، كوفي غير حفص ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصَى لهم، وهم: الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذٍ؛ لأن تبديله تبديل باطل إلى حقّ. ذكر من يبدل بالباطل، ثم من يبدل بالحق؛ ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

---

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة (حاشية الكشاف ١/ ٢٢٣).

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ

وقيل: هذا في حال حياة الموصي. أي: فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه عن ذلك، وحمله على الصلاح، فلا إثم على هذا الموصي بما قال أولاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

١٨٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ أي: فرض ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هو مصدر صام، والمراد: صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة. والتشبيه باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ له صوم أيام، أي: أنتم متعبدون بالصيام في أيام، كما تعبّد من كان قبلكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي بالصيام؛ لأن الصيامَ أظلف لنفسه[1]، وأردع لها من مواقعه السوء. أو: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين؛ إذ الصوم شعارهم.

١٨٤ ـ وانتصاب ﴿أَيَّامٗا﴾ بالصيام، أي: ﴿كتب عليكم﴾ أن تصوموا ﴿أياماً﴾ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ مؤقّتات بعدد معلوم، أي: قلائل، وأصله: أن المال القليل يقدّر بالعدد لا الكثير ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يخاف من الصوم زيادة المرض ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةٞ﴾ فعليه عدة، أي: فأفطر، فعليه صيام عدد أيام فطره. والعدة بمعنى المعدود، أي: أمر أن يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيام مرضه وسفره. و«أخر» لا ينصرف للوصف والعدل عن الألف واللام؛ لأن الأصل في فعلى صفة أن تستعمل في الجمع بالألف واللام، كالكبرى والكبر، والصغرى والصغر ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. فطعام بدل من فدية ﴿فديةُ طعامِ مساكين﴾ مدني وابن ذكوان. وكان ذلك في بدء الإسلام، فرضَ عليهم الصوم

(١) «أظلف لنفسه»: أَمْنَع لها.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

ولم يتعوَّدوه، فاشتدَّ عليهم، فرخّص لهم في الإفطار والفدية، ثم نسخ التخيير بقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ولهذا كرّر قوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ؛ ليدل على بقاء هذا الحكم. وقيل: معناه: لا يطيقونه، فأضمر لا لقراءة حفصة كذلك. وعلى هذا لا يكون منسوخاً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فالتطوع أو الخير خير له ﴿يَطَّوَّعْ﴾ بمعنى يتطوع، حمزة وعليّ ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية وتطوّع الخير. وهذا في الابتداء. وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم؛ لأنه أشقّ عليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط محذوف الجواب.

١٨٥ ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، أو أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾. وهو بدل من الصيام، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو شهر. والرمضان مصدر رمِض: إذا احترق من الرمضاء. فأضيف إليه الشهر، وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون. وسمّوه بذلك لا رتماضهم فيه من حرّ الجوع، ومقاساة شدّته، ولأنهم سموا الشهور بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمَض الحر. فإن قلت: ما وجه ما جاء في الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»[(١)]، مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً؟ قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس. القرآن حيث كان غير مهموز، مكي. وانتصب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ على الحال، أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آياتٌ واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحقِّ

---

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٥٩). «احتساباً»: طلباً لوجه الله وثوابه.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾

والباطل. ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن كان شاهداً، أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر. والشهر منصوب على الظرف، وكذا الهاء في «ليصمه» ولا يكون مفعولاً به؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ «فعدة»: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه عدة، أي: صوم عدة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ومَن فَرض الفطر على المريض والمسافر حتى لو صاما تجب عليهما الإعادة، فقد عدل عن موجب هذا ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ عدة ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرض والسفر. فالفعل المعلل محذوف، مدلول عليه بما سبق تقديره: لتعلموا ولتكملوا العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك. يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر. فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك. وعدى التكبير بعلى؛ لتضمنه معنى الحمد؛ كأنه قيل: لتكبروا الله، أي: لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه. (ولتُكَمّلوا) بالتشديد: أبو بكر.

١٨٦ ـ ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾(١) علماً وإجابة لتعاليه عن القرب

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/١٥٨).

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ﴾

مكاناً ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (الدَّاعي، دَعاني) في الحالين، سهل ويعقوب. ووافقهما أبو عمرو ونافع غير قالون في الوصل. غيرهم بغير ياء في الحالين. ثم إجابةُ الدعاء وعدٌ صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة. فإجابة الدعوة أن يقول العبدُ: يا رب! فيقول الله: لبيك عبدي. وهذا أمرٌ موعود موجودٌ لكل مؤمن. وقضاءُ الحاجة: إعطاءُ المراد، وذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخيرة له في غيره ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ واللام فيهما للأمر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد، وهو: ضدّ الغي.

١٨٧ ـ كان الرجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد، ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر ـ رضي الله عنه ـ واقعَ أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي، ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وأخبره بما فعل فقال ﷺ: «ما كنتَ جديراً بذلك» فنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾[1] أي: الجماع ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ عدّي بإلى لتضمّنه معنى الإفضاء، وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، ولم يقل الإفضاء إلى نسائكم؛ استقباحاً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم. ولّما كان الرجلُ والمرأةُ يعتنقان، ويشتمل كلُّ واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبّه باللباس المشتمل عليه بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. وقيل: لباس، أي: ستر عن الحرام. و﴿هن لباس لكم﴾ استئناف كالبيان لسبب الإحلال. وهو: أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن؛ فلذا رخص لكم في مباشرتهن ﴿عَلِمَ

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ١٦٥).

ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ

﴿ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بالجماع، وتنقصونها حظَّها من الخير. والاختيان: من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبتم بما ارتكبتم من المحظور ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما فعلتم قبل الرخصة ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ جامعوهن في ليالي الصوم. وهو أمرُ إباحة. وسُمِّيت المجامعةُ مباشرةً لالتصاق بشرتيهما ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة. أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل. أو: ﴿وابتغوا﴾ المحلّ الذي كتبه الله لكم وحلّله دون ما لم يكتب لكم من المحلّ المحرم ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتدُّ من سواد الليل. شبّهها بخيطين أبيض وأسود لامتدادهما ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بيان أنّ الخيط الأبيض من الفجر لا من غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأنَّ بيانَ أحدهما بيان للآخر. أو من للتبعيض لأنه بعض الفجر وأوله. وقوله «من الفجر» أخرجه من باب الاستعارة، وصيَّره تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: «رأيت أسداً» مجاز، فإذا زدت: من فلان، رجع تشبيهاً. وعن عدي بن حاتم قال: عمدتُ إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي، فنظرت إليهما، فلم يتبين لي الأبيض من الأسود، فأخبرتُ النبي ﷺ بذلك فقال: «إنك لعريضُ القفا» ـ أي: سليم القلب؛ لأنه مما يستدلُّ به على بلاهة الرجل وقلّة فطنته ـ «إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل»[١]. وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: الكف عن هذه الأشياء. وفيه دليلٌ على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي الوصال، وعلى وجوب الكفارة في الأكل

(١) رواه البخاري (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠).

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

والشرب، وعلى أنَّ الجنابة لا تنافي الصوم ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ معتكفون فيها. بيَّن أنَّ الجماعَ يحلُّ في ليالي رمضان لكن لغير المعتكف. والجملة في موضع الحال، وفيه دليلٌ على أنَّ الاعتكافَ لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختصُّ به مسجد دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بالمخالفة، والتغير. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

١٨٨ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: لا يأكل بعضُكم مالَ بعض ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبحه اللهُ، ولم يشرعه ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ ولا تدلوا بها، فهو مجزوم داخلٌ في حُكْم النهي، يعني: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم بأن المقضَى له ظالم. وقال ﷺ للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضَكم ألحنُ بحجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيتُ له بشيء من حقِّ أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنَّ ما أقضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كلُّ واحد منهما: حقّي لصاحبي[١]. وقيل: ﴿وتدلوا بها﴾ وتلقوا بعضَها إلى حكام السّوء على وجه الرشّوة. يقال: أدلى دلوه، أي: ألقاه في البئر للاستسقاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل. وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه بالتَّوبيخ أحق.

١٨٩ ـ قال معاذُ بن جبل: يا رسول اللهِ! ما بالُ الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيدُ حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا

---

(١) أحمد (٦/٣٠٨) والبخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) (٤).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾

لا يكونُ على حالة واحدة كالشمس، فنزل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾[١] جمع هلال، سُمِّي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ أي: معالم يوقِّت بها الناس مزارعهم، ومتاجرهم، ومحالّ ديونهم، وصومهم، وفطرهم، وعِدَد نسائهم، وأيام حيضهن، ومدة حملهن، وغير ذلك، ومعالم للحجّ يعرف بها وقته. كان ناسٌ من الأنصار إذا أحرموا لم يدخلْ أحدٌ منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فنزل: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ أي: ليس البرّ بتحرّجكم من دخول الباب. ولا خلافَ في رفع البر هنا؛ لأن الآية ثمَّ تحتمل الوجهين كما بيّـنّا، فجاز الرفع والنصب ثمَّ، وهذه لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو الرفع؛ إذ الباء لا تدخل إلا على خبر ليس ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ ﴾ برّ ﴿ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ما حرّم الله. (البِيوت) وبابه، مدني وبصري وحفص، وهو الأصل، مثل: كعب وكعوب، ومَن كسر الباء فلمكان الياء بعدها، ولكن هي توجبُ الخروج من كسر إلى ضمّ. وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها، وتمامها[٢]: معلومٌ أنّ كلَّ ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة. فدعوا السؤال عنه، وانظروا في خصلة[٣] واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً. فهذا وَجْهُ اتصاله بما قبله. ويحتملُ أن يكونَ ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج؛ لأنه كان من أفعالهم في الحجّ. ويحتملُ أن يكونَ هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك، وتجنّبه، ولم يجسُر على مثله

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٣٢).

(٢) من المطبوع.

(٣) من المطبوع.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا﴾

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ وباشروا الأمورَ من وجوهها؛ التي يجبُ أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو: المراد: وجوب الاعتقاد بأن جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا بالنعيم السَّرمدي.

١٩٠ ـ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقاتلة في سبيل الله: الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقيل: هي أوَّلُ آية نزلت في القتال، فكان رسولُ الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكفّ عمن كفّ. أو: الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ، والصبيان، والرهبان، والنساء. أو: الكفرة كلّهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حُكْم المقاتلة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ في ابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمُثْلَة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩١ ـ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم. والثقف: الوجود على وَجْه الأخذ والغلبة ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وَعَدهم اللهُ تعالى فَتْح مكة بهذه الآية، وقد فعل رسولُ الله ﷺ بمن لم يسلمْ منهم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: شركهم بالله أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم. وقيل: الفتنة عذاب الآخرة. وقيل: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان، فيعذب به أشدّ عليه من القتل. وقيل لحكيم: ما أشدّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنّى فيه الموت. فقد جعل الإخراجَ من الوطن من الفتن التي يتمنّى عندها الموت ﴿وَلَا

تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾
ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا. فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كله ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾: في الحرم، فعندنا يقتلون بالأشهر الحرم إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحينئذٍ نقتلهم، وإن كان ظاهر قوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يبيحُ القتلَ في الأمكنة كلّها. لكن لقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ خصّ الحرم إلا عند البداءة منهم، كذا في «شرح التأويلات» ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر. ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن (قَتَلُوكُم): حمزة وعليّ.

١٩٢ ـ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك، والقتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من طغيانهم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبتهم، وإيمانهم.

١٩٣ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك. وكان تامة، وحتى بمعنى: كي، أو: إلى أن ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب، أي: لا يعبد دونه شيء ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم، فإنه لا عدوان إلا على الظالمين، ولم يبقوا ظالمين. أو: فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمى جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

١٩٤ ـ قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء، وكراهتهم القتال، وذلك في ذي القعدة: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ مبتدأ خبره: ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكه، يعني: تهتكون حرمته عليهم، كما هتكوا حرمته عليكم ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: وكلّ حرمة يجري فيها القصاص. مَن هتك حرمة، أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة. فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا، وأكّد ذلك بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ

﴿مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من: شرطية. والباء غير زائدة، والتقرير: بعقوبة مماثلة لعدوانهم؛ أو: زائدة، وتقديره: عدواناً مثل عدوانهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحلّ لكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

١٩٥ ـ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تصدّقوا في رضا الله، وهو عامّ في الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي: أنفسكم. والباء زائدة. أو: ولاتقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده؛ إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سَبَبُ الهلاك، أو: عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه، ويضيع عياله، أو: عن الإخطار بالنفس، أو: عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. والتهلكة والهلاك والهلك واحد ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ الظَّنَّ بالله في الإخلاف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين.

١٩٦ ـ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدُّوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى، بلا توان ولا نقصان. وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع. فهو دليلٌ على أنَّ من شرع فيهما لزمه إتمامهما. وبه نقول: إنَّ العمرةَ تلزمُ بالشروع. ولا تمسك للشافعي ـ رحمه الله ـ بالآية على لزوم العمرة؛ لأنه أمر بإتمامها. وقد يُؤمَر بإتمام الواجب والتطوع. أو: إتمامهما أن تحرمَ بهما من دويرة أهلك. أو: أن تفرد لكلّ واحد منهما سفراً. أو: أن تنفق فيهما حلالاً. أو: ألا تتّجر معهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال: أحصر فلان: إذا منعه أمر من خوف، أو مرض، أو عجز، وحصر: إذا حبسه عدو عن المضي. وعندنا: الإحصار يثبتُ بكلِّ منع من عدو، أو مرض، أو غيرهما لظاهر النص. وقد جاء في الحديث: «من كُسر أو عرج فقد حلّ» أي: جاز له أن يحل «وعليه الحجُّ من قابل»[١]. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: الإحصار بالعدو وحده. وظاهر النص يدلُّ على أن

---

(١) رواه أبو داود (١٨٦٢) والترمذي (٩٤٠) والنسائي (٥/ ١٩٩) وابن ماجه (٣٠٧٧).

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ﴾

الإحصارَ يتحقق في العمرة أيضاً؛ لأنه ذُكِر عقبهما ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب. والهدي: جمع هدية. يعني: فإن منعتم من المضي إلى البيت، وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة، فما: رفع بالابتداء، أي: فعليكم ما استيسر، أو نصب، أي: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ الخطاب للمحصرين.، أي: لاتحلّوا بحلق الرأس حتى تعلموا أنَّ الهدي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجبُ نحره فيه، وهو الحرم. وهو حجَّةٌ لنا ـ في أن دم الإحصار لا يذبح إلا في الحرم ـ على الشافعي ـ رحمه الله ـ إذ عنده يجوزُ في غير الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ وهو القمل، أو الجراحة ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه إذا حَلَق فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين، لكلِّ مسكين نصف صاع من برّ ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ شاة. وهو مصدر، أو جمع نسيكة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصار، أي: فإذا لم تحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ استمتع ﴿بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرّب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرّب بالحج. وقيل: إذا حلّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرّماً عليه إلى أن يحرمَ بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ هو هدي المتعة، وهو نسك يُؤكل منه، ويُذبح يوم النحر ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحجّ ـوهو أشهره ـ ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرام الحج ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحجِّ ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في وقوعها بدلاً عن الهدي، أو في الثواب، أو المراد: رفع الإبهام فلا يتوهّم في الواو أنها بمعنى الإباحة، كما في: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما، أو واحداً منهما، كان ممتثلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع. إذ لا تمتع

لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ

ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندنا. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى الحكم الذي هو وجوب الهدي، أو الصيام، ولم يوجبْ عليهم شيئاً ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت، فمن دونها إلى مكة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه في الحجّ وغيره ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يتّقه.

١٩٧ ـ ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: وقت الحج، كقولك: البرد شهران ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات عند الناس، لا يشكلن عليهم، وهي: شوّال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أنَّ شيئاً من أفعال الحج لا يصحّ إلا فيها، وكذا الإحرام عند الشافعي ـ رحمه الله ـ وعندنا وإن انعقد لكنه مكروه. وجمعت ـ أي الأشهر ـ لبعض الثالث، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ ألزمه نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع، أو ذِكْره عند النساء، أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب؛ لقوله ﷺ: «سبابُ المؤمن فُسوق»(١). أو التنابز بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ ولا مراء مع الرفقاء، والخدم، والمُكَارين(٢). وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجبُ الاجتناب في كلِّ حال؛ لأنه مع الحج أسمج، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوبُ انتفائها، وأنها حقيقة بألا تكون. وقرأ أبو عمرو ومكي الأوّلين بالرفع، فحملاهما على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفثٌ ولا فسوقٌ، والثالث: بالنصب، على معنى الإخبار بانتفاء الجدال، كأنه قيل: ولا شك ولا خلافَ في الحج. ثم حثَّ على الخير

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٥) والبخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) (١١٦).

(٢) «المكارين»: جمع المكاري، وهو مُكري الدواب.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٧ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾

عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكانَ القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة؛ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ واعلم بأنه عالم به يجازيكم عليه. وردّ قول من نفى علمه بالجزئيات. كان أهلُ اليمن لا يتزوّدون، ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون كلاً على الناس، فنزل فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أي: تزوّدوا، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس[١] والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الاتقاء عن الإبرام والتثقيل عليهم؛ أو تزوّدوا للمعاد باتقاء المحظورات؛ فإن خير الزاد اتقاؤها ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ وخافوا عقابي، وهو مثل: دعان ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يا ذوي العقول، يعني: أن قضية اللب تقوىٰ الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لبّ له.

١٩٨ ـ ونزل في قوم زعموا: أن لا حجَّ لجمّال وتاجر، وقالوا: هؤلاء الداجّ[٢] وليسوا بالحاج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ﴾ في أن تبتغوا في مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عطاء وتفضّلاً، وهو النفع والربح بالتجارة والكراء ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ دفعتم بكثرة، من إفاضة الماء، وهو: صبّه بكثرة. وأصله: أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول ﴿مِّنْ عَرَفَـٰتٍ﴾ هي عَلَم للموقف سُمّي بجمع كأذرعات. وإنما صرفت لأنَّ التاء فيها ليست للتأنيث، بل هي مع الألف قبلها علامة جمع المؤنث. وسُمّيت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام، فلما رآها عرفها. وقيل: الْتقى فيها آدم وحوّاء فتعارفا. وفيه دليلٌ على وجوب الوقوفِ بعرفة؛ لأن الإفاضةَ لا تكونُ إلا بعده ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية، والتهليل، والتكبير، والثناء، والدعوات، أو

(١) «إبرام الناس»: أبرمه: أضجره.
(٢) «الداج»: الأعوان والمكارون.

عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ

بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو قُزَح، وهو: الجبل الذي يقفُ عليه الإمام وعليه الميقدة. والمشعر: المعلم؛ لأنه مَعلم العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. وقيل: المشعر الحرام: المزدلفة. وسميت: المزدلفة، وجَمْعاً؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حوّاء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو: لأنه يجمع فيها بين الصَّلاتين، أو: لأنَّ الناس يزدلفون إلى الله تعالى، أي: يتقرَّبون بالوقوف فيها ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ ما: مصدرية، أو كافة، أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، أو: اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه. وإن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة.

١٩٩ ـ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة. قالوا: هذا أمرٌ لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جَمْع، وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات، ويقولون: نحن قُطّان حرمه فلا نخرج منه. وقيل: الإفاضة من عرفات مذكورة، فهي الإفاضة من جمع إلى مِنى. والمراد بالناس على هذا: الحُمْسُ[1]، ويكون الخطاب للمؤمنين ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف، ونحو ذلك من جاهليتكم، أو من تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم.

٢٠٠ ـ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من عباداتكم التي أُمرتم

(١) سميت قريش حمْساً لتشددهم في دينهم، والأحمس: الشديد الصلب بالدين. والتحمس: التشدد. (من حاشية المخطوط).

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١﴾

بها في الحج، ونفرتم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فاذكروا الله ذكراً مثل ذكركم آباءكم. والمعنى: فأكثروا من ذِكْر الله، وبالغوا فيه، كما تفعلون في ذكر آبائكم، ومفاخرهم، وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدِّدون فضائل آبائهم، ويذكرون محاسنَ أيامهم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثر. وهو في موضع جر عطف على [ما أضيف إليه][1] الذكر في قوله: ﴿كذكركم﴾ كما تقول: كذكر قريش آباءهم، أو قوم أشدّ منهم ذكراً. وذِكْراً: تمييز ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا، أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة، يعني: الجاه والغنى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب؛ لأنَّ همّه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة. والمعنى: أكثروا ذكر الله ودعاءه؛ لأن الناسَ من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، ومكثر يطلبُ خير الدارين، فكونوا من المكثرين، أي: مِنَ الذين قيل فيهم:

٢٠١ ـ ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن الذين يشهدون الحج ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية، أو علماً وعبادة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ عفواً ومغفرة. أو: المال والجنة، أو: ثناء الخلق ورضا الحق، أو: الإيمان والأمان، أو: الإخلاص والخلاص، أو: السنة والجنة، أو: القناعة والشفاعة، أو: المرأة الصالحة والحور العين، أو: العيش على سعادة والبعث من القبر على بشارة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ احفظنا من عذاب جهنم، أو: عذاب النار: امرأة السوء.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾

٢٠٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو: من أجل ما كسبوا. أو: سُمِّي الدُّعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب. ويجوز أن يكون ﴿أولئك﴾ للفريقين، وأن لكلٍّ فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيمَ القيامةِ ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر، وطلب الآخرة. أو: وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم، ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر من نفسه. وروي: أنه يحاسبُ الخلق في قدر حلب شاة، وروي: في مقدار لمحة.

٢٠٣ ـ ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام التَّشريق. وذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجَّل في الأمر واستعجل، ومتعديين، يقال: تعجّل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله: «ومن تأخر» ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث، واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأثمُ بهذا التعجُّل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الصيد، أو الرفث والفسوق. أي: هو مخيّر في التعجُّل والتأخُّر، وإن كان التأخُّرُ أفضل. فقد يقعُ التخييرُ بين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل. وقيل: كان أهلُ الجاهلية فريقين، منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حين يبعثكم من القبور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾

٢٠٤ ـ كان الأخنس بن شريق حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول، وادَّعى أنه يحبُّه، وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادقٌ، فنزل فيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ يروقك، ويعظم في قلبك. ومنه الشيء العجيب؛ الذي يعظم في النفس ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿في﴾ يتعلق بالقول، أي: يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا، ولا يريد به الآخرة. أو بيعجبك، أي: يعجبك حلو كلامه في الدنيا لا في الآخرة؛ لما يرهقه في الموقف من الحُبْسة واللُّكْنة ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ شديد الجدال والعداوة للمسلمين. والخصام: المخاصمة. والإضافة بمعنى في؛ لأن أفعل يضاف إلى ما هو بعضه، تقول: زيد أفضل القوم، ولا يكون الشخص بعض الحدث، فتقديره: ألدّ في الخصومة. أو: الخصام: جمع خصم، كصعب وصعاب، والتقدير: وهو أشدّ الخصوم خصومة.

٢٠٥ ـ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول، وإحلاء المنطق ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ﴾ كما فعل بثقيف، فإنه كان بينه وبينهم خصومة، فبيَّتهم ليلاً، وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ أي: الزرع، والحيوان. أو إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض؛ بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر، فيهلك الحرث، والنسل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

٢٠٦ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ للأخنس ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في الإفساد، والإهلاك ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم؛ الذي ينهى عنه، وألزمته ارتكابه. أو: الباء للسبب، أي: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في

فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

قلبه، وهو: الكفر ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفراش جهنم.

٢٠٧ ـ ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفراً كانوا معه، فاشترى نفسه بماله منهم، وأتى المدينة، أو: فيمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر حتى يُقتل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ لابتغاء ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

٢٠٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ وبفتح السين[(١)]، حجازي وعليّ. وهو: الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله، وأطيعوه. أو: الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم. أو: للمنافقين؛ لأنهم آمنوا بألسنتهم ﴿كَآفَّةً﴾ لا يُخرج أحدٌ منكم يده عن طاعته. حال من الضمير في ادخلوا، أي: جميعاً، أو: من السلم لأنها تؤنث، كأنهم أمروا أن يدخلوا في الطاعات كلها، أو: في شعب الإسلام وشرائعه كلّها. وكافة: من الكف؛ كأنهم كفّوا أن يخرجَ منهم أحدٌ باجتماعهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وساوسه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

٢٠٩ ـ ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ ملتم عن الدخول في السلم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الواضحة، والشواهد اللائحة على أن ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يمنعه شيء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يعذّب إلا بحقّ. وروي أن قارئاً قرأ «غفور رحيم» فسمعه

---

(١) أي: (السَّلْم).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

أعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره، وقال: ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

٢١٠ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر الله وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] أو المأتيّ به محذوف، بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه للدلالة عليه بقوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة، وهي: ما أظلك ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب. وهو للتهويل؛ إذ الغمام مَظِنَّةُ الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة الذين وكِّلوا بتعذيبهم، أو المراد: حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: وتمَّ أمرُ إهلاكهم، وفُرغ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: بأنه ملّك العباد بعضَ الأمور فترجع إليه الأمور يوم النشور. (تَرجعُ الأمورُ) حيث كان، شامي، وحمزة، وعليّ.

٢١١ ـ ﴿سَلْ﴾ أصله: اسأل، فنقلت فتحة الهمزة إلى السين بعد حذفها، واستغني عن همزة الوصل، فصار: سل. وهو أمرٌ للرسول، أو لكلّ أحد. وهو سؤال تقريع، كما يسأل الكفرة يوم القيامة ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ على أيدي أنبيائهم، وهي معجزاتهم، أو: من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام. وكم استفهامية، أو خبرية ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هي آياته، وهي أجلّ نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة. وتبديلهم إياها: أنَّ الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب ضلالتهم، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أو: حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها، وصحَّت عنده؛ لأنه إذا لم يعرفها فكأنها غائبة عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقه.

٢١٢ ـ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ المزين هو الشيطان، زين لهم الدنيا،

وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ

وحسَّنها في أعينهم بوساوسه، وحبَّبها إليهم، فلا يريدون غيرها. أو: الله تعالى بخلق الشهوات فيهم، ولأنَّ جميعَ الكائنات منه، ويدلُّ عليه قراءة من قرأ: ﴿زَين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾[1] ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود، وعمار، وصهيب، ونحوهم. أي: لا يريدون غير الدنيا، وهم يسخرون ممن لا حظّ له فيها، أو ممن يطلب غيرها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ عن الشرك، وهم: هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنهم في جنة عالية، وهم في نار هاوية ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقتير. يعني: أنه يوسِّعُ على مَنْ أراد التوسعة عليه، كما وسّع على قارون وغيره. وهذه التوسعةُ عليكم من الله لحكمة وهي: استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحقّ بها منكم.

٢١٣ ـ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام. أو: هم نوح ومن كان معه في السفينة. فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ويدلُّ على حذفه قولُه تعالى: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ وقراءة عبد الله[2] ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ [يونس: ١٩]. أو: كان الناس أمة واحدة كفاراً، فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم. والأول الأوجه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين، وهما حالان ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: مع كل واحد منهم كتابه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بتبيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ في دين الإسلام؛ الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف. أي: ازدادوا في الاختلاف لمّا أنزل

(١) هي قراءة مجاهد وابن محيصن وحميد بن قيس وأبي حيوة.
(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾

عليهم الكتاب ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ على صدقه ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مفعول له، أي: حسداً بينهم، وظلماً لحرصهم على الدنيا، وقلَّة إنصاف منهم ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق؛ الذي اختلفَ فيه من اختلف ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بعلمه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.

٢١٤ ـ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ أم منقطعة لا متصلة؛ لأنَّ شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام، كقولك: أعندك زيد أم عمرو؟ أي: أيّهما عندك؟ وجوابه: زيد إن كان عنده زيد، أو: عمرو إن كان عنده عمرو. وأما «أم» المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر، وتكون بمعنى بل والهمزة، والتقدير: بل أحسبتم. ومعنى الهمزة فيها للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده. لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات، والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات ـ التي هي أبلغ ـ: ﴿أم حسبتم﴾ ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم﴾ أي: ولم يأتكم. وفي لمّا معنى التوقع، يعني: أن إتيانَ ذلك مُتوَقَّعٌ منتظر ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ مضوا. أي: حالهم التي هي مثل في الشدة ﴿مِن قَبۡلِكُم﴾ من النَّبيين والمؤمنين ﴿مَّسَّتۡهُمُ﴾ بيان للمثل، وهو استئناف، كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: ﴿مستهم﴾ ﴿ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ أي: البؤس ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ المرض، والجوع ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ وحرّكوا بأنواع البلايا، وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر، حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب النصر، وتمنّيه، واستطالة زمن

أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

الشدة ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ قيل لهم إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر (يقولُ) بالرفع، نافع، على حكاية حال ماضية، نحو: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه. وغيره بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛ لأن أنْ عَلَم له.

٢١٥ ـ ولما قال عمرو بن الجموح، وهو شيخ كبير، وله مال عظيم: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ نزل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد تضمَّن قوله: ﴿ما أنفقتم من خير﴾ بيانُ ما ينفقونه، وهو: كل خير. وبني الكلام على ما هو أهم، وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقعَ موقعها. عن الحسن: هي في التطوع ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ فيجزي عليه.

٢١٦ ـ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ فُرِض عليكم جهادُ الكفار ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ من الكراهة، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها:

....　　فـإنمـا هـي إقبـالٌ وإدبـارُ[1]

كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له. أو هو: فعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز، أي: وهو مكروه لكم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فأنتم تكرهون الغزو، وفيه إحدى الحسنيين، إما: الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا﴾ وهو القعودُ عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ لما فيه من الذل، والفقر، وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما هو خيرٌ لكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك ، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ عليكم.

---

(١) عجز بيت للخنساء، وصدره: لا تسأم الدهرَ منه كلما ذكرت.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾

٢١٧ ـ ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ، فقاتلوا المشركين، وقد أهلّ هلالُ رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من الشهر. وقرىء ﴿عن قتالٍ فيه﴾ على تكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: إثم كبير. ﴿قتال﴾ مبتدأ و﴿كبير﴾ خبره. وجاز الابتداء بالنكرة لأنها قد وصفت بـ: فيه. وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منع المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت عام الحديبية. وهو مبتدأ ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله. عطف عليه ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله. أي: وصدّ[1] عن سبيل الله وعن المسجد الحرام. وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في به، أي: كفر به وبالمسجد الحرام. ولا يجوزُ عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد. ولو كان معطوفاً على الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وهو عطف على «صد» أيضاً ﴿مِنْهُ﴾ من المسجد الحرام. وخبر الأسماء الثلاثة ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على الظن ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ الإخراج، أو الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام. أو: تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين في الشهر الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر، وهو إخبار

(١) في المطبوع: على صد.

﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾

عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم لا ينفكّون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها التعليل، نحو: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي: يقاتلونكم كي يردوكم. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ استبعاد لاستطاعتهم، كقولك لعدوك: إن ظفرت بي فلا تبقِ عليّ، وأنت واثق بأنه لا يظفر بك ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يمت على الردة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب، وحسن المآب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وبها احتج الشافعي ـ رحمه الله ـ على أن الردةَ لا تحبط العملَ حتى يموت عليها. وقلنا: قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] والأصل عندنا: أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده يحمل عليه، فهو بناء على هذا.

٢١٨ ـ ولما قالت السرية: أيكون لنا أجر المجاهدين في سبيل الله؟ نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ تركوا مكة وعشائرهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المشركين. ولا وقف عليه؛ لأن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ خبر إن. قيل: من رجا طلب، ومن خاف هرب﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢١٩ ـ نزل في الخمر أربع آيات. نزل بمكة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمرو ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر فإنها مذهبةٌ للعقل، مسلبة للمال فنزل: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فشربها قومٌ، وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعةً فشربوا وسكروا، فأمَّ بعضهم فقرأ: قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فنزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فقلَّ من يشربها. ثم دعا عتبان بن مالك جماعةً فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ٩١] فقال عمر: انتهينا يا رب! وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه. والخمر: ما غلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب. وسمِّيت بمصدر خمره خمراً: إذا ستره؛ لتغطيتها العقل. والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد من فعله، يقال: يسرته: إذا قمرته. واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كد وتعب. أو من اليسار كأنه سلب يساره. وصفة الميسر: أنه كانت لهم عشرة أقداح، سبعة منها عليها خطوط وهي: الفذ وله سهم، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلَّى وله سبعة، وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهي: المنيح، والسفيح، والوغد، فيجعلون الأقداح في خريطة، ويضعونها على يد عدل، ثم يجلجلها، ويدخل يده فيخرج باسم رجل قدْحاً قدحاً منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومَن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذْ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كلّه. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمّون من لم يدخل فيه. وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما. والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما بدليل: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصم، والتشاتم، وقول الفحش والزور. كثير: حمزة وعليّ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر، والتلذذ بشربها، وفي الميسر بارتفاق الفقراء، أو نيل المال بلا كدّ ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لأنَّ أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا

يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: الفضل، أي: أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة. وكان التصدق بالفضل في أول الإسلام فرضاً[1]، فإذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدَّق بالفضل، وإذا كان صانعاً أمسك قوت يومه وتصدَّق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة. (العَفْوُ) أبو عمرو. فمن نصبه جعل «ماذا» اسماً واحداً في موضع النصب بينفقون، والتقدير: قل: ينفقون العفو، ومن رفعه جعل ﴿ما﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ذا﴾ مع صلته، فذا بمعنى الذي، وينفقون: صلته، أي: ما الذي ينفقون؟ فجاء جواب العفو، أي: هو العفو، فإعراب الجواب كإعراب السؤال؛ ليطابق الجواب السؤال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي: تبييناً مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٢٠ ـ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في أمر الدنيا ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وفي: يتعلق بتتفكرون، أي: تتفكرون فيما يتعلق بالدارين، فتأخذون بما هو أصلح لكم. أو: تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما، وأكثرهما منافع. ويجوز أن يتعلق بـ﴿يُبَيِّن﴾، أي: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما ﴿لعلكم تتفكرون﴾. ولما نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] اعتزلوا اليتامى، وتركوا مخالطتهم، والقيام بأموالهم، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم، ولم تجانبوهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين، ومن حقِّ الأخ أن يخالط أخاه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لها، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إعناتكم

(١) من المطبوع.

لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ

﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لحملكم على العنت، وهو: المشقة، وأحرجكم، فلم يطلقْ لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يقدر على أن يعنت عباده، ويحرجهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلِّف إلا وسعهم، وطاقتهم.

٢٢١ ـ لما سأل مَرْثَد النبيَّ ﷺ عن أن يتزوج عَناق ـ وكانت مشركة ـ نزل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[١] أي: لا تتزوجوهن. يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح: غيره: زوّجه ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تزوجوهم بمسلمة، كذا قاله الزجاج. وقال جامع العلوم: حذف أحد المفعولين، والتقدير: ولا تنكحوهن المشركين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم بيّن علّة ذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وهو إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الكفر الذي هو عملُ أهل النار فحقّهم ألا يوالَوا، ولا يُصاهروا. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأولياء الله ـ وهم المؤمنون ـ يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يُوصل إليهما، فهم الذين تجب موالاتهم، ومصاهرتهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بعلمه، أو بأمره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٢٢٢ ـ كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدحداح رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: يا رسول الله! كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[٢]

(١) رواه أبو داود (٢٠٥١) والترمذي(٢١٧٦) والنسائي(٦/ ٦٦).
(٢) رواه مسلم (٣٠٢) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٨١).

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾

هو مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: المحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوهن، أي: فاجتنبوا مجامعتهن. وقيل: إنَّ النصارى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف ـ رحمهما الله ـ يجتنب ما اشتمل عليه الإزرار. ومحمد ـ رحمه الله ـ: لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بالتشديد، كوفي غير حفص، أي: يغتسلن، وأصله: (يَتَطَهَّرْنَ)، فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم (يَطْهُرْنَ)، أي: ينقطع دمهن. والقراءتان كآيتين فعملنا بهما، وقلنا له: أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وإن لم تغتسل؛ عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت الصلاة عملاً بقراءة التشديد. والحمل على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجبُ ترك العمل بإحداهما لما عرف. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا يقربها حتى تطهر وتتطهر. دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأتى الذي أمركم الله به، وحلَّله لكم، وهو القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من ارتكاب ما نهوا عنه، أو العوادين إلى الله تعالى، وإن زلّوا فزلوا. والمحبة لمعرفته بعظم عفو الله حيث لا ييأس ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء، أو المتنزهين من أدبار النساء، أو من الجماع في الحيض، أو من الفواحش.

٢٢٣ ـ كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجُل أهلَه باركةً أتى الولد أحول، فنزل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النطف؛ التي منها النسل بالبذور، والولد

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾

بالنبات. ووقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ بياناً وتوضيحاً لقوله ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي: إن المأتى الذي أمركم اللهُ به هو مكان الحرث لا مكان الفرث، تنبيهاً على أنَّ المطلوبَ الأصلي في الإتيان هو طلبُ النسل لاقضاء الشهوة، فلا تأتونهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ جامعوهن متى شئتم، أو كيف شئتم، باركة أو مستلقية، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحداً، وهو موضع الحرث. وهو تمثيل، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم، لا يحظر عليكم جهة دون جهة. وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة. فعلى كل مسلم أن يتأدَّب بها، ويتكلَّف مثلها في المحاورات والمكاتبات ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتم عنه. أو هو طلب الولد، أو التسمية على الوطء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ صائرون إليه فاستعدُّوا للقائه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب يا محمد.

وإنما جاء يسألونك ثلاث مرات بلا واو، ثم مع الواو ثلاثاً؛ لأن سؤالَهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك.

٢٢٤ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ العُرضة فُعلة بمعنى مفعول، كالقبضة، وهي: اسم ما تعرضه دون الشيء: من: عرض العود على الإناء، فيتعرض دونه، ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه، فقيل لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾

﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾

أي: حاجزاً لما حلفتم عليه. وسُمِّي المحلوف عليه يميناً بتلبسه باليمين، كقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها [فليكفِّر عن يمينه]»[1]. وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: للأمور المحلوف عليها التي هي: البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس. واللام تتعلق بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لإيمانكم برزخاً. ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبرّوا بالفعل، أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٞ﴾ بنياتكم.

٢٢٥ـ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولغو اليمين: الساقط الذي لا يعتدّ به في الأيمان، وهو أن يحلفَ على شيءٍ يظنُّه على ما حلف عليه والأمر بخلافه. والمعنى: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف، نحو: لا والله. وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ بما اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو: أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس. وتعلَّق الشافعي بهذا النص على وجوب الكفارة في الغموس؛ لأن كسب القلب: العزم، والقصد. والمؤاخذة غير مبينة هنا، وبينت في المائدة، فكان البيان ثمة بياناً هنا. وقلنا: المؤاخذة هنا مطلقة، وهي في دار الجزاء، والمؤاخذة ثَم مقيدة بدار الابتلاء، فلا يصحُّ حَمْل البعض على البعض ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٥) والنسائي (٧/ ١٠) وابن ماجه (٢١١١). وما بين حاصرتين مستدرك من مصادر التخريج.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ

٢٢٦ ـ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يقسمون. وهي قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ يتعلق بالجار والمجرور، أي: للذين، كما تقول: لك مني نصرة، ولك مني معونة، أي: للمؤلين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر، لا بيؤلون؛ لأن آلى يعدّى بعلى، يقال: آلى فلان على امرأته. وقول القائل: آلى فلان من امرأته، وهم توهّمه من هذه الآية. ولك أن تقول: عدّي بمن لما في هذا القسم من معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿فَإِن فَآءُو﴾ في الأشهر، لقراءة عبد الله: (فإن فاؤوا فيهن) أي: رجعوا إلى الوطء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث شرع الكفارة.

٢٢٧ ـ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بترك الفيء، فتربصوا إلى مضيِّ المدة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّته. وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة.

وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ معناه: ﴿فإن فاؤوا﴾ ﴿وإن عزموا﴾ بعد مضي المدة؛ لأنَّ الفاء للتعقيب. وقلنا: قوله ﴿فإن فاؤوا﴾ ﴿وإن عزموا﴾ تفصيل لقوله ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحول.

٢٢٨ ـ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: ولتتربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه: قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها. وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدلُّ على الدوام والثبات بخلاف الفعلية. وفي ذكر الأنفس تهييج لهن

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾

على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربُّص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جمع قَرء أو قُرء. وهو الحيض لقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[١]. وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعِدَّتها حيضتان»[٢] ولم يقل: طهران، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق: ٤]. فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار، ولأن المطلوب من العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي يستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة، ولأنه لو كان طهراً كما قال الشافعي، لانقضت العدة بقرأين وبعض الثالث، فانتقص العدد عن الثلاثة؛ لأنه إذا طلقها في آخر الطهر، فذا محسوب من العدة عنده، وإذا طلقها في آخر الحيض، فذا غير محسوب من العدة عندنا، والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لا يقع على ما دونه. ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرىء. وانتصاب ثلاثة على أنه مفعول به، أي: يتربصن مضيّ ثلاثة قروء، أو على الظرف، أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء. وجاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء لاشتراكهما في الجمعية اتساعاً. ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو من دم الحيض، أو منهما. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها، فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها؛ أو كتمت حيضها وقالت ـ وهي حائض ـ: قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق ﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ عظّم فعلهنّ؛ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على مثله من العظائم ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البعول: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: أزواجهن أولى برجعتهن.

---

(١) رواه الدارقطني (١ / ٢١٢).
(٢) رواه أبو داود (٢١٨٩) والترمذي (١١٨٢) وابن ماجه (٢٠٨٠).

فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ

وفيه دليلٌ على أن الطلاقَ الرَّجعي لا يحرمُ الوطء حيث سمَّاه زوجاً بعد الطلاق ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في مدة ذلك التربُّص. والمعنى: أن الرجلَ إن أراد الرجعة، وأبتها المرأة، وجب إيثار قوله على قولها، وكان هو أحقّ منها، لا أنَّ لها حقّاً في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ بالرجعة ﴿إِصۡلَٰحٗا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدوا مُضارَّتهن. ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر، والنفقة، وحسن العشرة، وترك المضارّة، مثل الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنّهي ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، فلا يكلف أحدُ الزوجين صاحبَه ما ليس له. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجبِ الواجبَ في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ زيادة في الحق، وفضيلة بالقيام بأمرها، إن اشتركا في اللذة والاستمتاع، وبالإنفاق، وملك النكاح ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن.

٢٢٩ ـ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الطلاق بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم. أي: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة. ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤] أي: كرة بعد كرة، لا كرتين اثنتين. وهو دليلٌ لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة في طهر واحد؛ لأنَّ الله تعالى أمرنا بالتفريق؛ لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر، وإلا يؤدي إلى الخلف في خبر الله تعالى؛ لأن الطلاقَ على وَجْه الجمع قد يوجد. وقيل: قالت أنصارية: إن زوجي قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك، فنزلت: ﴿الطلاق مرتان﴾[1] أي: الطلاق الرجعي مرتان؛ لأنه لا رجعةَ بعد الثالث ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ برجعة.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٥٦).

أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا

والمعنى: فالواجب عليكم إمساكٌ بمعروف ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بألا يراجعها حتى تبين بالعدة. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. نزل في جميلة وزوجها ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه، وهو يحبها، وقد أعطاها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام[1] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ مما أعطيتموهن من المهور ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إلا أن يعلم الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية؛ لما يحدث من نشوز المرأة، وسوء خلقها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة. وجاز أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾فيما افتدت به نفسها، واختلعت به من بدل ما أوتيت من المهر. ﴿إلا أنْ يُخافا﴾ حمزة على البناء للمفعول، وإبدال ﴿ألا يقيما﴾ من ألف الضمير. وهو من بدل الاشتمال، نحو: خيف زيد تركه إقامة حدود الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما حدّ من النكاح، واليمين، والإيلاء، والطلاق، والخلع، وغير ذلك ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الضارّون أنفسهم.

٢٣٠ ـ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مرة ثالثة بعد المرّتين. فإن قلت: الخلع طلاق عندنا، وكذا عند الشافعي ـ رحمه الله ـ في قول. فكأن هذه تطليقة رابعة، قلت: الخلع طلاق ببدل فيكون طلقة ثالثة، وهذه بيان لتلك ، أي: فإن طلقها الثالثة ببدل فحكم التحليل كذا ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التطليقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٦١).

غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

﴿غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوَّج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كالتزوّج. وفيه دليلٌ على أن النكاحَ ينعقدُ بعبارتها. والإصابة شرطت بحديث العسيلة، كما عرف في أصول الفقه. والفقه فيه: أنه لما أقدم على فراق لم يُبق للندم مخلصاً، لم تحلّ له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني بعد الوطء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ على الزوج الأوّل وعليها ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كلّ واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل: إن عَلما أنهما يقيمان؛ لأن اليقينَ مغيبٌ عنهما لا يعلمه إلا الله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ وبالنون[1]، المفضل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ما بيّن لهم.

٢٣١ ـ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخر عدّتهن، وشارفن منتهاها. والأجل: يقع على المدّة كلها وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدّتها، وتبين من غير ضرار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ مفعول له، أو حال، أي: مضارّين. وكان الرجلُ يطلّق المرأةَ ويتركها حتى يقرب انقضاء عدّتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطوّل العدّة عليها، فهو الإمساك ضراراً ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ لتظلموهن، أو لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الإمساك للضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: جدّوا بالأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعوها حقّ رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً. يقال لمن لم يجدّ في الأمر: إنما أنت لاعب وهازىء ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) أي: (نُبيّنُها).

وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بالإسلام، وبنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ من القرآن والسنة. وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم، وهو حال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من الذكر، والاتقاء، والاتعاظ، وغير ذلك، وهو أبلغ وعد ووعيد.

٢٣٢ ـ ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدّتهن. فدلَّ سياقُ الكلامين على افتراق البلوغين، لأنَّ النكاحَ يعقبه هنا، وذا يكون بعد العدّة؛ وفي الأولى الرجعة، وذا يكون في العدَّة ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعوهن. العضل: المنع والتَّضييق ﴿أَن يَنكِحۡنَ﴾ من أن ينكحن ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ الذين يرغبن فيهم، ويصلحون لهن. وفيه إشارةٌ إلى انعقاد النكاح بعبارة النساء. والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدّة ظلماً، ولا يتركونهن يتزوّجن مَنْ شئن من الأزواج. سمّوا أزواجاً باسم ما يؤول إليه. أو: للأولياء في عضلهن أن يرجعنَ إلى أزواجهن؛ الذين كانوا أزواجاً لهن. سمّوا أزواجاً باعتبار ما كان. نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجعَ إلى الزوج الأول. أو: للناس، أي لا يوجدُ فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم، وهم راضون، كانوا في حكم العاضلين ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم﴾ إذا تراضى الخطّاب والنساء ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بما يحسن في الدِّين والمروءة من الشرائط. أو: بمهر المثل والكفء؛ لأن عند عدم أحدهما للأولياء أن يتعرَّضوا. والخطاب في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل واحد ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فالموعظة إنما تنجح فيهم ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ترك العضل والضرار ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ أي: لكم، من أدناس الآثام. أو: ﴿أزكى وأطهر﴾ أفضل وأطيب ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاء، والطهر ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ

٢٣٣ ـ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ خبر في معنى الأمر المؤكد، كـ«يتربصن» وهذا الأمر على وجه الندب، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمّه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأبُ عاجزاً عن الاستئجار، أو أراد الوالدات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ظرف ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تامّين، وهو تأكيدٌ، لأنه مما يتسامح فيه، فإنك تقول: إنك أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة. والحاصل: أنّ الأب يجبُ عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوّعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك، ولا تُجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ الهاء يعود إلى اللام الذي بمعنى الذي، والتقدير: وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و«له» في محل الرفع على الفاعلية كـ«عليهم» في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وإنما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر. ألَا ترى أنه ذكره باسم الوالد، حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير، و تفسيره ما يعقبه، وهو: ألّا يكلَّف واحد منهما ما ليس في وسعه، ولا يتضارّا ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وُجدها، أو قدر إمكانها. والتكليف: إلزام ما يؤثر في الكُلفة. وانتصاب «وسعها» على أنه مفعول ثان لتكلف لا على الاستثناء، ودخلت «إلا» بين المفعولين ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ مكي وبصري بالرفع على الإخبار(١). ومعناه النهي. وهو يحتملُ البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضارِر بكسر الراء، أو

(١) أي: (لا تُضارُّ والدة).

﴿وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾

تضارَر بفتحها. الباقون (لاتضارّ) على النهي. والأصل: تضارر، أسكنت الراء الأولى، وأدغمت في الثانية بعد أن سكنت، فالتقى الساكنان، ففتحت الثانية لالتقاء الساكنين ﴿وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا تضارّ والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنُفَ به، وتطلب منه ما ليس بعدلٍ من الرزق والكسوة، وأن تشغلَ قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقولَ بعد ما ألفها الصبي: اطلبْ له ظئراً، وما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذه منها وهي تريدُ إرضاعه.

وإذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحَق بها الضرار من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد.

أو: تضار بمعنى تضر، والباء من صلته، أي: لاتضّر والدة ولدها فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضرّ الوالد به بأن ينتزعَه من يدها، أو يقصّر في حقّها، فتقصر هي في حقّ الولد. وإنما قيل بولدها وبولده، لأنه لما نهيت المرأةُ عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن﴾ وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وعلى وارث الصبي عند عدم الأب ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: مثل الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة. واختلف فيه، فعند ابن أبي ليلى: كلّ من ورثه. وعندنا من كان ذا رحم محرم منه؛ لقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وعلى الوارث ذي الرحم المحرم مثل ذلك) وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ لا نفقة فيما عدا الولاد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطاماً صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين، أو نقصا. وهذه توسعةٌ بعد التحديد. والتشاور: استخراج الرأي. من شُرت العسل: إذا استخرجته. وذكره ليكون التراضي عن تفكّر، فلا يضرّ الرضيع. فسبحان الذي

وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

أدّب الكبير، ولم يهمل الصغير. واعتبر اتفاقهما لأنَّ للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: لأولادكم، عن الزجاج. وقيل: استرضع منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأةُ الصبي، واسترضعتُها الصبي معدى إلى مفعولين أي: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أَحَدَ المفعولين. يعني: غير الأم عند إبائها، أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما أردتم إيتاءه من الأجرة. (أَتيْتُم): مكي، من: أتى إليه إحساناً: إذا فعله، ومنه قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً. والتسليم ندب لا شرط للجواز ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسلّمتم، أي: سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، فهو يجازيكم عليها.

٢٣٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ تقول: توفيت الشيء، واستوفيته: إذا أخذته وافياً تاماً، أي: تُستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن، أي: يعتددن، أو: معناه: يتربصن بعدهم بأنفسهن. فحذف بعدهم للعلم به. وإنما احتيج إلى تقديره، لأنه لابدَّ من عائد يرجعُ إلى المبتدأ في الجملة التي وقعت خبراً. (يَتَوَفَّوْن)؛ المفضَّل، أي: يستوفون آجالهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال، والأيام داخلة معها. ولا يستعمل التذكير فيه ذهاباً إلى الأيام، تقول: صمت عشراً. ولو ذكّرت لخرجت من كلامهم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإن انقضت عدَّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرُّض للخطَّاب ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ

٢٣٥ ـ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخطبة: الاستنكاح. والتعريض: أن تقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريدُ نكاحها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبتْ فيه. ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريدُ أن أتزوجّك. والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية: أن تذكر الشيءَ بغير لفظه الموضوع له، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلِّم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

.... وحَسْبُك بالتَّسليم مني تَقَاضِيا

فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدلّ على الغرض ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بألسنتكم لا معرّضين ولا مصرّحين ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن، فاذكروهن ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جماعاً، لأنه مما يسرّ، أي: لا تقولوا في العدة: إني قادرٌ على هذا العمل ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرّضوا ولا تصرّحوا. وإلا متعلق بلا تواعدوهن، أي: لا تواعدوهن مواعدة قطّ، إلا مواعدة معروفة غير منكرة ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ من عزم الأمر، وعزم عليه. وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح؛ لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى. ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، أو: ولا تقطعوا عقدة النكاح، لأن حقيقةَ العزم القطع، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروي: «لمن لم يبيّت الصيام»[1]. أي: ولا تعزموا على عقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ حتى

(١) رواه النسائي (٤/١٩٦).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

تنقضي عدّتها. وسمّيت العدة كتاباً لأنها فرضت بالكتاب، يعني: حتى يبلغ التربُّص المكتوب عليها أجله، أي: غايته ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَٱحۡذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

٢٣٦ ـ ونزل فيمن طلّق امرأته ولم يكن سمّى لها مهراً، ولا جامعها ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: لا تبعةَ عليكم من إيجاب مهر ﴿إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ شرط. ويدلُّ على جوابه ﴿لاجناح عليكم﴾ والتقدير: إن طلقتم النساء فلا جناحَ عليكم ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تجامعوهن. وما شرطية، أي: إن لم تمسوهن. (تُماسُّوهُنَّ): حمزة، وعليّ، حيث وقع؛ لأنَّ الفعل واقع بين اثنين ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو: حتى تفرضوا. وفرض الفريضة: تسمية المهر. وذلك أن المطلّقة غير الموطوءة لها نصف المسمّى إن سمي لها مهر. وإن لم يسمّ لها مهر فليس لها نصف مهر المثل، بل تجبُ المتعة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معطوف على فعل محذوف، تقديره: فطلقوهن ومتعوهن. والمتعة: درع وملحفة وخمار ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ﴾ الذي له سعة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ مقداره الذي يطيقه. (قَدْرُهُ) فيهما: كوفي غير أبي بكر، وهما لغتان ﴿وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ﴾ الضيّق الحال. والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ فقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ إثبات للجناح المنفي ثمة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ ولا تجب المتعة عندنا إلا لهذه، وتستحبّ لسائر المطلّقات ﴿مَتَٰعَۢا﴾ تأكيد لمتعوهن، أي: تمتيعاً ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسنُ في الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو: حقّ ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على المسلمين، أو على الذين يحسنون إلى المطلّقات بالتمتيع. وسمّاهم قبل الفعل محسنين، كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]. وليس هذا

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

الإحسان هو التبرع بما ليس عليه، إذ هذه المتعة واجبة.

٢٣٧ ـ ثم بيّن حُكْم التي سمَّى لها مهراً في الطلاق قبل المس، فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر. أي: من قبل مسّكم إياهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ في موضع الحال ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يريد المطلقات. وأن مع الفعل في موضع النصب على الاستثناء؛ كأنه قيل: فعليكم نصف ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقت عفوهن عنكم من المهر. والفرق بين الرجال يعفون والنساء يعفون؛ أن الواو في الأول ضميرهم والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ﴾ عطف على محلّه ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو الزوج، كذا فسَّره عليّ ـ رضي الله عنه ـ: وهو قول سعيد بن جبير، وشريح، ومجاهد، وأبي حنيفة، والشافعي على الجديد ـ رضي الله عنهم ـ. وهذا لأن الطلاقَ بيده، فكان بقاء العقد بيده. والمعنى: أن الواجبَ شرعاً هو النصف إلا أن تسقطَ هي الكل، أو يعطي هو الكلّ تفضّلاً. وعند مالك والشافعي في القديم: هو الولي. قلنا: هو لا يملكُ التبرع بحق الصغيرة، فكيف يجوز حمله عليه؟! ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. والخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب، ذكره الزجاج. أي: عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير له، وعفو المرأة بإسقاط كلّه خير لها. أو: للأزواج ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ﴾ التفضل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضّل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على تفضّلكم.

٢٣٨ ـ ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، من قولهم

﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا﴾

للأفضل: الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لا نفرادها بالفضل. وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وعليه الجمهور، لقوله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً»[(١)]. وقال ﷺ: «إنها الصلاة التي شُغِل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب»[(٢)]. وفي مصحف حفصة (والصلاة الوسطى صلاة العصر) ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار. وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم، ومعايشهم. وقيل: صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار. أو صلاة الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. أو صلاة المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى، ولأنها بين صلاتي مخافتة وصلاتي جهر. أو صلاة العشاء، لأنها بين وترين. أو هي غير معينة، كليلة القدر؛ ليحفظوا الكل ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَـٰنِتِينَ﴾ حال، أي: مطيعين خاشعين، أو ذاكرين الله في قيامكم. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. أو مطيلين القيام.

٢٣٩ ـ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بكم خوف من عدو، أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ حال، أي: فصلّوا راجلين، وهو جمع راجل، كقائم وقيام ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ وُحداناً بإيماء. ويسقط عنه التوجُّه إلى القبلة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فصلُّوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: ذكراً مثلما علّمكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن.

٢٤٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ بالنصب، شامي، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص، أي: فليوصوا وصية، عن الزجاج. غيرهم بالرفع، أي: فعليهم وَصَيِّةٌ ﴿مَّتَـٰعًا﴾ نصب بالوصية، لأنها مصدر. أو

(١) رواه أحمد (١/ ١٥٠) والبخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٥).

إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ

تقديره: متعوهن متاعاً ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ صفة لمتاعاً ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول. أو: بدل من متاعاً. والمعنى: أنَّ حقَّ الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن. وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام، ثم نُسِخ بقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ إلى قوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ والناسخ متقدم عليه تلاوة، ومتأخّر نزولاً، كقوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزيُّن، والتعرُّض للخطَّاب ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم.

٢٤١ ـ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ﴾ أي: نفقة العدة. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا﴾ نصب على المصدر ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٢٤٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو في موضع الرفع؛ لأنه خبر لعل. وإن أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة، وهي: على سبيل الندب.

٢٤٣ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجب من شأنهم. ويجوز أن يخاطبَ به من لم ير ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ من قرية، قيل: واسط، وقع فيهم الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماتهم الله، ثم أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام. وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا حذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم

وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ في موضع النصب على الحال، وفيه دليلٌ على الألوف الكثيرة؛ لأنها جمع كثرة. وهي جمع: ألف، لا آلف ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ أي: فأماتهم الله. وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة. وفيه تشجيعٌ للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفرّ، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفرَّ من حُكْم الله وقضائه. وهو معطوف على فعل محذوف تقديره: فماتوا ثم أحياهم، أو لما كان معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ فأماتهم، كان عطفاً عليه معنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث يبصّرهم ما يعتبرون به، كما بصّر أولئك، وكما بصّركم باقتصاص خبرهم. أو: لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم النشور ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

٢٤٤ ـ والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغني. هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ، أو لمن أحياهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٢٤٥ ـ ﴿مَّن﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء ﴿ذَا﴾ خبره ﴿ٱلَّذِي﴾ نعت لذا، أو بدل منه ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ صلة الذي. سمَّى ما ينفق في سبيل الله قرضاً؛ لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعدُ. سمَّى به لأن المقرض يقطعه من ماله فيدفعه إليه. والقرض: القطع، ومنه: المقراض، وقرض الفأر، والانقراض. فنبَّهَهم بذلك على أنه لا يضيعُ عنده، وأنه يجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبة النفس من المال الطيب. والمراد: النفقة في الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال في

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾

سبيل الله، ويحتاج فيه إلى المال، حثّ على الصدقة ليتهيأ أسباب الجهاد ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ بالنصب، عاصم، على جواب الاستفهام، وبالرفع؛ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، وعليّ، عطفاً على (يقرضُ). أو هو مستأنف، أي: فهو يضاعفه. (فيضعّفَه)، شامي. فيضعّفُه: مكي ﴿أَضۡعَافٗا﴾ في موضع المصدر ﴿كَثِيرَةٗ﴾ لا يعلم كنهها إلا الله، وقيل: الواحد بسبعمئة ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقتر الرزق على عباده، ويوسعه عليهم، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لا يبدلكم الضيق بالسعة. ويبسط: حجازي، وعاصم، وعليّ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدّمتم.

٢٤٦ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ الأشراف، لأنهم يملؤون القلوبَ دلالة، والعيون مهابة ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ من للتبعيض ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ من بعد موته. ومن: لابتداء الغاية ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ هو شمعون، أو يوشع، أو أشمويل ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره ﴿نُّقَٰتِلۡ﴾ بالنون والجزم على الجواب ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صلة نقاتل ﴿قَالَ﴾ النبي: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ (عَسِيتُم) حيث كان، نافع ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ شرط فاصل بين اسم عسى وخبره، وهو ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾. والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعني: هل الأمر كما أتوقّعه أنكم لا تقاتلون وتجبنون، فأدخل «هل» مستفهماً عما هو متوقّع عنده. وأراد بالاستفهام: التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائبٌ في توقّعه ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأيّ داع لنا إلى ترك القتال، وأيّ غرض لنا فيه ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ الواو في ﴿وقد﴾ للحال. وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن﴾

وأربعين. يعنون إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: أُجيبوا إلى ملتمّسهم ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر، على عدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

٢٤٧ ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو اسم أعجمي كجالوت، وداود. ومُنِع من الصرف للتعريف، والعجمة ﴿مَلِكًا﴾ حال ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف؟ ومن أين؟ وهو إنكارٌ لتملُّكه عليهم، واستبعاد له ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواو للحال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: كيف يتملّك علينا والحال أنه لا يستحقُّ التملك؛ لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير، ولابُدَّ للملك من مال يعتضدُ به. وإنما قالوا ذلك لأن النبوةَ كانت في سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، والملك في سبط يهوذا، وهو كان من سبط بنيامين، وكان رجلاً سقاء، أو دباغاً فقيراً. وروي أن نبيّهم دعا الله حين طلبوا منه مَلِكاً فأتى بعصا يُقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاء في اصطفاه بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة، أي: اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراضَ على حكمه. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط، والجسامة، فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ مفعول ثان ﴿فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلم بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطول من كلِّ إنسان برأسه ومنكبه. والبسطة: السعة والامتداد. والملك لابُدَّ أن يكون من أهل العلم، فإنَّ الجاهلَ ذليلٌ مُزْدَرَى، غير منتفع به، وأن يكون جسيماً؛ لأنه أعظمُ في النفوس، وأهيبُ في القلوب ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن

﴿يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾

﴿يَشَآءُ﴾ أي: الملك له غير منازع فيه، وهو يؤتيه من يشاء إيتاءه، وليس ذلك بالوراثة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك. فثمَّة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت.

٢٤٨ ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدّمه، فكانت تسكن نفوسُ بني إسرائيل، ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكون، وطمأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رُضاض[1] الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وشيء من التوراة، ونعلا موسى، وعمامة هارون عليهما السلام ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: التابوت. وكان رفعه الله بعد موسى، فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه. والجملة في موضع الحال. وكذا ﴿فيه سكينة﴾. و﴿من ربكم﴾ نعت لسكينة و﴿مما ترك﴾ نعت لبقية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إنَّ في رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملَّك طالوت عليكم إن كنتم مُصدِّقين.

٢٤٩ ـ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾ عن بلده إلى جهاد العدو. و«بالجنود» في موضع الحال، أي: مختلطاً بالجنود، وهم ثمانون ألفاً. وكان الوقت قيظاً، وسألوا أن يجري الله لهم نهراً ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم، أي: يعاملكم معاملة المختبر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطين، ليتميز المحقّ في الجهاد من المعذر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أتباعي

---

(١) الرُّضاض: الفُتات والدُّقاق.

وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

وأشياعي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه، من: طعم الشيء: إذ ذاقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ وبفتح الياء، مدني وأبو عمرو. واستثنى ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ من قوله ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾. والجملة الثانية في حكم المتأخرة عن الاستثناء، إلا أنها قُدِّمت للعناية ﴿غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ غَرفة، حجازي وأبو عمرو: بمعنى المصدر. وبالضم بمعنى المغروف. ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكرع. والدليل عليه: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: فكرعوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: القليل ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا قوة لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو جبار من العمالقة. من أولاد عِمْليق بن عاد، وكان في بيضته ثلاثمئة رطل من الحديد! ﴿وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ يوقنون بالشهادة. قيل: الضمير في ﴿قالوا﴾ للكثير الذين انخذلوا. و﴿الذين يظنون﴾ هم القليل الذين ثبتوا معه. ورُوي: أنَّ الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته. والذين شربوا منه اسودّت شفاههم، وغلبهم العطش ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم خبرية، وموضعها رفع بالابتداء ﴿غَلَبَتْ﴾ خبرها ﴿فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بنصره ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر.

٢٥٠ ـ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ اصبب. ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا، وإلقاء الرعب في صدور عدوّنا ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أعنّا عليهم.

٢٥١ ـ ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: طالوتُ والمؤمنون جالوتَ وجنودَه ﴿بِإِذْنِ

ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بقضائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم، وهو صغير، يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم: أن داود هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار، دعاه كلّ واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته، ورمى بها جالوت فقتله، وزوّجه طالوت بنته، ثم حسده، وأراد قتله، ثم مات تائباً ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرئيل على ملك قط قبل داود ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والنبوّة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صنعة الدروع، وكلام الطيور، وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ هو مفعول به ﴿بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس. (دِفاعُ): مدني، مصدر: دفع، أو دافع ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: ولولا أنَّ الله تعالى يدفعُ بعضَ الناس ببعض، ويكفّ بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل. أو: ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بإزالة الفساد عنهم، وهو دليلٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

٢٥٢ ـ ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القصص التي اقتصّها من حديث الألوف، وإماتتهم، وإحيائهم، وتمليك طالوت، وإظهاره على الجبابرة على يد صبي ﴿نَتْلُوهَا﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ والعامل فيه معنى الإشارة، أو ﴿آيات الله﴾ بدل من ﴿تلك﴾ و﴿نتلوها﴾ الخبر ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب؛ لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أهله.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾

٢٥٣ - ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة من آدم إلى داود، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين، يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلّمه الله، حذف العائد من الصلة، يعني: منهم مَنْ فضّله الله بأن كلّمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ مفعول أوّل. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أي: بدرجات، أو: إلى درجات. يعني: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة. وهو محمد ﷺ؛ لأنه هو المفضَّل عليهم بإرساله إلى الكافة، وبأنه أوتي ما لم يؤته أحدٌ من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف أو أكثر، وأكبرها القرآن؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر. وفي هذا الإبهام تفخيمٌ وبيانٌ أنه العَلَم الذي لا يشتبه على أحد، والمتميِّز الذي لا يلتبس. وقيل: أريد به محمد وإبراهيم وغيرهما من أولي العزم من الرسل. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قوّيناه بجبريل، أو بالإنجيل. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ﴾ أي: ما اختلف لأنه سببه. ﴿الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل. ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات الظاهرات. ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ بمشيئتي. ثم بيّن الاختلاف فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بمشيئتي. يقول الله: أجريت أمور رسلي على هذا، أي: لم يجتمعْ لأحد منهم طاعة جميع أمته في حياته، ولا بعد وفاته، بل اختلفوا عليه ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كرّره للتأكيد. أي: لو شئت ألا يقتتلوا لم يقتتلوا، إذ لا يجري في ملكي إلا ما يوافقُ مشيئتي. وهذا يبطلُ قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ألا يقتتلوا لم يقتتلوا،

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وهم يقولون: شاء ألا يقتتلوا فاقتتلوا. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أثبتَ الإرادَة لنفسه، كما هو مذهبُ أهل السنة.

٢٥٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عام في كلّ صدقة واجبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: مِنْ قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاّؤكم به ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة. أو: إلا بإذنه ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بترك التقديم ليوم حاجتهم. أو: الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون.

﴿لا بيعَ فيه ولا خلَّةَ ولا شفاعةَ﴾: مكي، وبصري.

٢٥٥ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مع اسمه، وخبره، وما أبدل من موضعه: في موضع الرفع خبر المبتدأ، وهو الله ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق، وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ نعاس، وهو: ما يتقدّم النوم من الفتور ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ عن المُفَضَّل: السِّنَة: ثقَل في الرأس، والنعاس: في العين، والنوم: في القلب. وهو تأكيد للقيوم؛ لأنَّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيُّوماً. وقد أوحى إلى موسى عليه السلام: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا[1] ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ليس لأحد أن يشفعَ عنده إلا بإذنه. وهو بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلَّم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. وفيه ردٌّ لزعم الكفار أن الأصنامَ تشفعُ لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٦٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١/ ٨٣).

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلومه، يقال في الدعاء: اللهم اغفر علمك فينا، أي: معلومك ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ إلا بما علّم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: علمه. ومنه: الكراسة لتضمنها العلم. والكراسي: العلماء. وسمي العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. أو ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. أو عرشه، كذا عن الحسن. أو هو سرير دون العرش. في الحديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بفلاة. وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[1]، أو قدرته، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عزّه وجلاله. أو ﴿العليّ﴾: المتعالي عن الصفات التي لا تليق به، ﴿العظيم﴾: المتصف بالصفات التي تليقُ به، فهما جامعان لكمال التوحيد. وإنما ترتبت الجملُ في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان. فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره. والثالثة: لكبرياء شأنه. والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق. والخامسة: لسعة علمه، وتعلّقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره. وإنما فضّلت هذه الآية حتى وَرَدَ في فضلها ما ورد، منه ما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صِدِّيقٌ أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله»[2]. وقال ﷺ: «سيد البشر آدم وسيد

(١) رواه ابن مردويه، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨).
(٢) رواه البيهقي كما في حاشية الكشاف (١/ ٣٠٣).

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي»[١]. وقال: «ماقرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة»[٢]. وقال: «من قرأ آية الكرسي عند منامه بعث إليه ملك يحرسه حتى يصبح»[٣]. وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حتى يمسي حُفظ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح حُفظ بهما حتىٰ يُمسيَ: آية الكرسي وأول حٓم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾»[٤] لَاشتمالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبه يُعلم أن أشرفَ العلوم علم التوحيد.

٢٥٦ـ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا إجبار على الدين الحق، وهو دين الإسلام. وقيل: هو إخبار في معنى النهي. وروي أنه كان لأنصاري ابنان فتنصّرا، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري: يارسول الله! أيدخل بعضي في النار وأنا أنظر؟! فنزلت. فخلَّاهما[٥]. قال ابن مسعود وجماعة: كان هذا في الابتداء، ثم نسخ بالأمر بالقتال ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدَّلائل الواضحة ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧١).
(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (الكشاف ١/ ٣٠٢).
(٣) رواه ابن الضريس عن قتادة، كما في الدر المنثور (٢/ ١٥).
(٤) رواه الترمذي (٢٨٧٩).
(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٥٢).

﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾

﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ تمسّك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾ أي: المعتصم، والمتعلّق ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تأنيث الأوثق، أي: الأشد من الحبل الوثيق، المحكم، المأمون ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع للعروة. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال، بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوَّره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده. والمعنى: فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تحلّه شبهة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإقراره ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقاده.

٢٥٧ ـ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أرادوا أن يؤمنوا، أي: ناصرهم، ومتولّي أمورهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة. وجُمعت لاختلافها ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان والهداية. ووحّد لاتحاد الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مبتدأ. والجملة، وهي ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ خبره ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وجمع؛ لأن الطاغوت في معنى الجمع، يعني: والذين صمّموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو: الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم، ويوفقهم له من حلّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين. والذين كفروا أولياؤهم الشياطين، يخرجونهم من نور البيّنات؛ الذي يظهر لهم، إلى ظلمات الشَّكِّ والشُّبهة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٥٨ ـ ثم عَجَّبَ نبيه ﷺ، وسَلّاه بمجادلة إبراهيم عليه السلام نمروذ الذي كان يدَّعي الربوبية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ في معارضته ربوبية ربّه. والهاء في «ربّه» يرجع إلى إبراهيم، أو إلى الذي حاجّ، فهو ربهما ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ لأنْ آتاه الله: يعني: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر، فحاجّ لذلك. وهو دليلٌ على المعتزلة في الأصلح، أو: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك ﴿إِذْ قَالَ﴾ نصب بحاجّ، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى: الوقت ﴿إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ﴾ رَبِّي، حمزة ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنه قال له: من ربك؟ قال:

قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ

ربي الذي يحيي ويميت ﴿قَالَ﴾ نمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ يريد: أعفو عن القتل، وأقتل. فانقطع اللعين بهذا عند المخاصمة، فزاد إبراهيم عليه السلام ما لا يتأتى فيه التلبيس على الضَّعَفَة، حيث ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا ليس بانتقال من حجَّة إلى حجَّة كما زعم البعض لأن الحجَّة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجّة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر، كلّمه من وجه لا يعاند. وكانوا أهل تنجيم. وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم. والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحريك الماء النمل على الرحى إلى غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنتَ رباً فحرّكها بحركتها، فهو أهون ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ تحيَّر، ودهش ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفِّقهم . وقالوا: وإنما لم يقل نمروذ: فليأت ربك بالشمس من المغرب لأنَّ الله تعالى صرفه عنه. وقيل: إنه كان يدَّعي الربوبية لنفسه، وما كان يعترف بالربوبية لغيره. ومعنى قوله: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أن الذي ينسب إليه الإحياء والإماتة أنا لا غيري. والآية تدلُّ على إباحة التكلُّم في علم الكلام والمناظرة فيه؛ لأنه قال: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾ والمحاجة تكون بين اثنين، فدلَّ على أن إبراهيم حاجّه أيضاً. ولو لم يكن مباحاً لما باشرها إبراهيم عليه السلام؛ لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام. ولأنّا أُمِرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بُدَّ أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرة، كذا في «شرح التأويلات».

٢٥٩ـ ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ﴾ معناه: أو أرأيت مثل الذي، فحذف لدلالة «ألم تر» عليه؛ لأن كلتيهما كلمة تعجيب. أو: هو محمول على المعنى دون اللفظ، تقديره: أرأيت كالذي حاجّ إبراهيم، أو: كالذي مرّ. وقال صاحب

﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

«الكشّاف»[(١)]: فيه الكاف زائدة، والذي عطف على قوله: ﴿إلى الذي حاجّ﴾ عن الحسن: إن المارّ كان كافراً بالبعث لا نتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: ﴿أنى يحيي﴾. والأكثر أنه عزير، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. و﴿أنّى يُحيي﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي بيت المقدس حين خرّبه بختنصر. أو: هي التي خرج منها الألوف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة مع سقوفها، أو: سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان، وكل مرتفع عرش ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي﴾ أي: كيف ﴿هَٰذِهِ﴾ أي: أهل هذه ﴿اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي: أحياه ﴿قَالَ﴾ له مَلَك ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن. وفيه دليلُ جواز الاجتهاد. روي أنه مات ضحى، وبعث بعد مئة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: ﴿يوماً﴾ ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أو بعض يوم﴾ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روي: أن طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً ولبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على الوجهين؛ لأن لامها هاء؛ لأن الأصلَ سنهة، والفعل سانهت فلاناً، أي: عاملته سنة. أو: واو، لأن الأصل سنوة، والفعل سانيت. ومعناه: لم تغيره السنون. لم يتسن بحذف الهاء في الوصل، وبإثباتها في الوقف، حمزة وعليّ ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرّقت عظامه، ونخرت. وكان له حمار قد ربطه فمات، وبقيت عظامه. أو: ﴿وانظر﴾ إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يُعَيِّشَه مئة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه

---

(١) انظر الكشاف؛ للزمخشري (١/ ٣٨٩) طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ

وشرابه من التغير ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك. يريد إحياءه بعد الموت، وحفظ ما معه. وقيل: الواو عطف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك. قيل: أتى قومه راكباً حماراً، وقال: أنا عزير، فكذّبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤوها عن ظهر قلبه، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير، فذلك كونه آية. وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجَّب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نحرّكها، ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. نَنْشُرُهَا بالراء، حجازي وبصري، نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾ جعل اللحم كاللباس مجازاً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعله مضمر تقديره: ﴿فلما تبين له﴾ أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كقولهم: ضربني، وضربت زيداً. ويجوز ﴿فلما تبيّن له﴾ ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى. قال: (اعْلَمْ) على لفظ الأمر، حمزة وعليّ، أي: ﴿قال﴾ الله له: ﴿اعلم﴾ أو: هو خاطب نفسه.

٢٦٠ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ بصِّرني ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ موضع ﴿كيف﴾ نصب بتحيي ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإنما قال له: ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؛ ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي. معناه ﴿بلى﴾ آمنت، ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بمضامّة علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة. فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضروري. واللام تتعلق بمحذوف، تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامة

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصاد[1]، حمزة، أي: أملهن، واضممهن إليك ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جزّئهن، وفرّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وكانت أربعة أجبل، أو سبعة. (جُزُءاً) بضمتين وهمز، أبو بكر ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قال لهن: تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: ساعيات مسرعات في طيرانهن، أو: في مشيهن على أرجلهن. وإنما أمره بضمّها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها، ويعرف أشكالها وهيئاتها، وحلاَّها؛ لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك. ورُوي: أنه أمر بأن يذبحها، وينتف ريشها، ويقطعها، ويفرّق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالى. فجعل كلُّ جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن، كل جثّة إلى رأسها ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبّر لايفعل إلا مافيه الحكمة.

٢٦١ ـ ولما برهن على قدرته على الإحياء، حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأعلم أن من أنفق في سبيله فله في نفقته أجر عظيم، وهو قادر عليه، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لابد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ المنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعَّب منه سبع شعب، لكل واحد سنبلة. وهذا التمثيلُ تصويرٌ للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر. والممثل به موجود في الدُّخن والذرة، وربما

(١) أي: (فصِرْهُنَّ).

وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فرّخت ساق البرّة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ. على أنَّ التمثيلَ يصحّ وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير. ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقراء ﴿وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين. أو يزيد على سبعمئة لمن يشاء. يُضاعِفَ، شامي. و(يضعّفُ)، مكي ﴿وَاللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل والجود ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّات المنفقين.

٢٦٢ـ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا﴾ هو أن يعتدّ على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقّاً له. وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه. ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثواب إنفاقهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من بخس الأجر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوته. أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب. وإنما قال هنا ﴿لهم أجرهم﴾ وفيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط، وضمنه ثمة.

٢٦٣ـ ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردّ جميل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول. أو: ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وصحّ الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ لا حاجة له إلى منفق يمنّ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة. وهذا وعيد له. ثم أكّد ذلك بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾

٢٦٤ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى﴾ الكاف نصب صفة مصدر محذوف، والتقدير: إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ورئاء: مفعول له ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا. أو الكاف في محل النصب على الحال؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق. وإنما قال ﴿لايقدرون﴾ بعد قوله ﴿كالذي ينفق﴾ لأنه أراد بالذي ينفق الجنس، أو: الفريق الذي ينفق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر.

٢٦٥ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، عُلم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبه. ومن: لابتداء الغاية. وهو معطوف على المفعول له، أي: للابتغاء والتثبيت. والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع. وخصّها لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً. (بِرَبْوَةٍ)[1]: عاصم، وشامي ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾

---

(١) أي: بفتح الراء، وقرأ الباقون (بِرُبْوَةٍ) بضم الراء.

ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثمرتها. (أُكْلهَا): نافع، ومكي، وأبو عمرو ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثليْ ما كانت تثمر قبلُ بسبب الوابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو: مثّل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل. وكماأن كلّ واحد من المطرين يضعّف أُكُل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة في زلفاهم، وحسن حالهم عنده ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال، ويعلم نياتكم فيهما من رياء وإخلاص.

٢٦٦ـ الهمزة في: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ للإنكار ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ﴾ لصاحب البستان ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يريد بالثمرات: المنافع التي كانت تحصل له فيها. أو: أنّ النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصّهما بالذكر، وجعل الجنة منهما ـ وإن كانت محتوية على سائر الأشجار ـ تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ للحال، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. والواو في: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أولاد صغار للحال أيضاً، والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ ريح تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود ﴿فِيهِ﴾ في الإعصار. وارتفع ﴿نَارٌ﴾ بالظرف، إذ جرى الظرف وصفاً لإعصار ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ الجنة. وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياء، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسّر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم، فهلكت بالصاعقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا البيان الذي بيّن فيما تقدم ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنتبهوا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

٢٦٧ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ من جياد مكسوباتكم. وفيه دليلُ وجوب الزكاة في أموال التجارة ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ من الحب، والثمر، والمعادن، وغيرها. والتقدير: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا المال الرديء ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ تخصونه بالإنفاق. وهو في محل الحال، أي: ولا تيمموا الخبيث منفقين، أي: مقدرين النفقة ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم ﴿ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ إلا بأن تتسامحوا في أخذه، وتترخَّصوا فيه. من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه: إذا غضّ بصره. ويقال للبائع: أغمضْ، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره، فَنُهوا عنه ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿ حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد، أو: محمود.

٢٦٨ـ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ﴾ في الإنفاق ﴿ ٱلْفَقْرَ ﴾ ويقول لكم: إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. والوعد يُستعمل في الخير والشر ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ويغريكم على البخل، ومنع الصدقات، إغراء الآمر للمأمور. والفاحش عند العرب: البخيل ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم، وكفارة لها ﴿ وَفَضْلًا ﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم. أو: وثواباً عليه في الآخرة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يوسع على من يشاء ﴿ عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، ونيَّاتكم.

٢٦٩ـ ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ علم القرآن والسنة. أو: العلم النافع الموصل إلى رضا الله، والعمل به. والحكيم عند الله هو: العالم العامل ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿ومَنْ يُؤْتِ﴾ يعقوب. أي: ومن يؤته اللهُ الحكمة ﴿ فَقَدْ أُوتِىَ كَثِيرًا﴾ تنكير تعظيم، أيْ: أوتي خيراً، أي: خير كثير ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وما يتَّعظ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمة، أو العُلماءُ: العمّال. والمراد به: الحثّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

٢٧٠ـ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ في طاعة الله، أو: في معصيته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ لا يخفى عليه، وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو ينذرون في المعاصي، أو لا يفون بالنذور ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

٢٧١ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فنعم شيئاً إبداؤها. وما نكرة غير موصولة ولا موصوفة، والمخصوص بالمدح هي. ﴿فنِعْمَّا هي﴾ بكسر النون وإسكان العين، أبو عمرو، ومدني غير ورش. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ. وبكسر النون والعين، غيرهم ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم. قالوا: المراد: صدقات التطوع. والجهر في الفرائض أفضل لنفي التّهْمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يُعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل. والمتطوع إن أراد أن يُقتدَى به كان إظهاره أفضل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنون وجزم الراء[1]، مدني، وحمزة، وعليّ. وبالياء ورفع الراء، شامي، وحفص. وبالنون والرفع، غيرهم. فَمَن جَزَم فقد عَطف على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط. ومن رفع فعلى الاستئناف. والياء على معنى: يكفر الله ﴿عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والنون على معنى: نحن نكفر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم.

(١) أي: (ونُكفِّرْ).

﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

٢٧٢ـ ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن، والأذى، والإنفاق من الخبيث، وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أو: ليس عليك التوفيق على الهدى، أو خلق الهدى، وإنما ذلك إلى الله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنّوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ وليست نفقتكم إلا ابتغاء وجه الله، أي: رضا الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنّون بها، وتنفقون الخبيث الذي لا يوجّه مثله إلى الله؟ أو: هذا نفي معناه النهي، أي: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه، وأجملها ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ ولا تنقصون، كقوله: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

٢٧٣ـ الجار في: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ متعلق بمحذوف، أي: اعمدوا للفقراء. أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الصدقات للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد، فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للكسب. وقيل: هم أصحاب الصفّة، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجري قريش، لم تكن لهم مساكن في المدينة، ولا عشائر، فكانوا في صفّة المسجد، وهي سقيفته[(١)]، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضَخون النوى[(٢)] بالنهار، وكانوا يخرجون في كل

---

(١) «الصُّفَّة»: الظُّلَّة؛ أي: الموضع المظلّل، والسقيفة: العريش يُستَظلُّ به.

(٢) «يرضخون النوى»: يكسرونه ويدقّونه.

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

سريَّة بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضلٌ أتاهم به إذا أمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم. يحسَبهم وبابه: شامي، ويزيد، وحمزة، وعاصم، غيرالأعشى، وهُبيرة. والباقون بكسر السين ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ مستغنين من أجل تعفُّفهم عن المسألة ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من صفرة الوجوه، ورثاثة الحال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. قيل: هو نفي السؤال والإلحاح جميعاً، كقوله:

على لاحِــبٍ لا يُهْتَــدَى بمنــاره ... ...(١)

يريد: نفي المنار والاهتداء به. والإلحاح: هو اللزوم، وألا يفارق إلا بشيء يُعطاه. وفي الحديث: «إن الله يحبُّ الحيي الحليم المتعفّف، ويبغض البذيّ السَّآل الملحف»(٢). وقيل: معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده.

٢٧٤ـ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هما حالان، أي: مسرّين ومعلنين، يعني: يُعمِّمُون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجةُ محتاج عجلوا قضاءها، ولم يؤخّروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. أو: في عليّ ـ رضي الله عنه ـ لم يملك إلا أربعة دراهم، تصدَّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم

---

(١) صدر بيت لامرىء القيس، وعجزه: إذا سافَهُ العَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرا.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٣٣٥).

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ

سراً، وبدرهم علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢٧٥ ـ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾ هو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال. وكتب «الربوا» بالواو على لغة من يفخم، كما كتبت: الصلوة، والزكوة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بُعِثوا من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: المصروع، لأنه تخبط في المعاملة، فجوزي على المقابلة. والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء[1] ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ من الجنون. وهو يتعلّق بـ: «لا يقومون» أي: لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. أو بـ: «يقوم» أي: كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين. تلك سيماهم يُعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يُوفِضُون إلا أكلة الربا، فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا، فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرون على الإيفاض ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾ ولم يقل إنما الربا مثل البيع، مع أن الكلام في الربا لا في البيع، لأنه جيء به على طريقة المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل، حتى شبهوا به البيع ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحل مع الحرمة ضدان، فأنّى يتماثلان؟! ودلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ﴿فَانتَهَىٰ﴾ فتبع

(١) «العشواء»: الناقة التي لا تبصر ما أمامها، فهي تخبط بيديها كلَّ شيء.

فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

النهي، وامتنع ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا، عن الزجَّاج. أو: إلى الربا مستحلاً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأنَّ من أحلَّ ما حرم الله ـ عز وجل ـ فهو كافر؛ فلذا استحقَّ الخلود. وبهذا تبيَّن أنه لا تعلُّق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفسَّاق.

٢٧٦ ـ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخلُ فيه ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ينميها، ويزيدها، أي: يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويبارك فيه. وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط»[1] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متماد في الإثم بأكله.

٢٧٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قيل: المراد به: الذين آمنوا بتحريم الربا.

٢٧٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا، وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها، ولا يطالبوا بها. رُوي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال، فطالبوهم عند المَحلِّ[2] بالمال والربا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان، فإنَّ دليلَ كماله امتثالُ المأمور به.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٢) أي: حلّ الأجل، كما في أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٥).

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

٢٧٩ ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فاعلموا بها. من: أذن بالشيء: إذا علم. يؤيده قراءة الحسن: (فأيقنوا) فآذنوا، حمزة، وأبو بكر، غير ابن غالب، فأعلموا بها غيركم. ولم يقل: بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبلغ؛ لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. ورُوي: أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

٢٨٠ ـ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ﴿ذو عسرة﴾ ذو إعسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم، أو: فالأمر نظرة، أي: إنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار. ميسُرة، نافع، وهما لغتان ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ بالتخفيف، عاصم، أي: تتصدقوا برؤوس أموالكم، أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم. وبالتشديد غيره. فالتخفيف على حذف إحدى التاءين، والتشديد على الإدغام ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في القيامة. وقيل: أريد بالتصدّق: الإنظار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لايحل دينُ رجلٍ مسلم فيؤخّره إلا كان له بكل يوم صدقة»(١) ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به ـ وإن علمه ـ كأنه لا يعلمه.

٢٨١ـ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ تَرجعون أبو عمرو. فرجع لازم ومتعد. قيل: هي آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: ضعها في رأس المئتين والثمانين من البقرة، وعاش رسولُ الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، أو أحداً وثمانين، أو سبعة أيام، أو ثلاث ساعات ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

(١) رواه ابن ماجه(٢٤١٨).

﴿كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾

﴿كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصان الحسنات وزيادة السيئات.

٢٨٢ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي[١]: إذا داين بعضكم بعضاً. يقال: داينت الرجل: إذا عاملته بدين معطياً أو آخذاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مدة معلومة كالحصاد، أو: الديَّاس[٢]، أو: رجوع الحاجّ. وإنما احتيج إلى ذكر الدين، ولم يقل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى؛ ليرجع الضمير إليه في قوله ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجّل وحالّ. وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود. والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجّل فاكتبوه. والأمر للندب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن المرادَ به السّلَم. وقال: لما حرم الله الربا أباح السَّلَم. المضمون إلى أجلٍ معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية. وفيه دليلٌ على اشتراط الأجل في السّلَم ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ بين المتداينين ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ هو متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالاحتياط، لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع. وهو أمرٌ للمتداينين بتخير الكاتب، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديّناً حتى يكتب ما هو مُتّفقٌ عليه ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع واحدٌ من الكُتّاب ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ مثل ما علّمه الله كتابة الوثائق، لا يبدِّل، ولا يُغيِّر. و﴿كما﴾ متعلق بأن يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة لا يعدل عنها ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولا يكن المملي إلا من وجب عليه

(١) من المطبوع.
(٢) يقال: داس الحبَّ، دِياساً ودِياسَة، درسه.

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾

الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في ذمّته، وإقراره به، فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملال والإملاء لغتان ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وليتق الله الذي عليه الدين ربّه فلا يمتنع عن الإملاء، فيكون جحوداً لكلّ حقه ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء، فيكون جحوداً لبعض حقه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: مجنوناً؛ لأن السفهَ خفّةٌ في العقل. أو محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ صبياً ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لعيّ به، أو خَرَس، أوجهلٍ باللغة ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ الذي يلي أمره، ويقوم به ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالصدق، والحق ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدَّيْن ﴿مِن رِّجَالِكُمۡ﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام. وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾ فإن لم يكن الشهيدان ﴿رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان. وشهادة الرجال مع النساء تُقبل فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. وفيه دليلٌ على أنَّ غير المرضي شاهد ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ لأجل أن تنسى إحداهما الشهادة فتذكّرها الأخرى.

(إن تضل إحداهما) على الشرط (فَتُذَكِّرُ) بالرفع والتشديد، حمزة. كقوله: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُ﴾ [المائدة: ٩٥] (فتُذْكِرِ) بالنصب، مكي وبصري، من الذِّكر لا من الذِّكْرِ ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمّل؛ لئلا تَتْوَى[1] حقوقهم. وسمّاهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن. فالأول للفرض، والثاني للندب ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ ولا تملوا. قال الشاعر[2]:

---

(١) «تتوىٰ»: تذهب.

(٢) هو زهير بن أبي سُلمى.

﴿أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾

سئمتُ تكاليف الحياةِ ومن يعشْ ثمانينَ حولاً لا أبا لك يَسْأمِ

والضمير في: ﴿أَن تَكۡتُبُوهُ﴾ للدين، أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾ على أيّ حال كان الحق من صغر أو كبر. وفيه دلالة جواز السَّلَم في الثياب؛ لأن ما يكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير، وإنما يقال في الذرعيّ. ويجوزُ أن يكون الضمير للكُتَّاب، وأن يكتبوه مختصراً، أو مشبعاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى ﴿أن تكتبوه﴾ لأنه في معنى المصدر، أي: ذلك الكَتْب ﴿أَقۡسَطُ﴾ أعدل من القسط، وهو: العدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف لأقسط. ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة. وبني أفعل التفضيل ـ أي: أقسط وأقوم ـ من أقسط وأقام على مذهب سيبويه ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات، وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك. وألف أدنى منقلبة من واو؛ لأنه من الدنو ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ عاصم. أي: إلا أن تكون التجارة تجارة. أو: إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة. غيره: (تجارةٌ) حاضرةٌ على كان التامة. أي: إلا أن تقع تجارة حاضرة. أو: هي ناقصة، والاسم ﴿تجارة حاضرة﴾ والخبر ﴿تُدِيرُونَهَا﴾. ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ ظرف لتديرونها، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيها يداً بيد ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ يعني: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد، فلا بأس ألا تكتبوها؛ لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً، أو كالئاً؛ لأنه أحوط، وأبعد من وقوع الاختلاف. أو أريد به ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. والأمر للندب ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٞ﴾ يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر ـ رضي الله عنه ـ: ولا يُضَارِرْ، وللمفعول

﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾

لقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولا يضارَر. والمعنى: نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف، والزيادة، والنقصان. أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزّا[1]، أو: لا يعطى الكاتب حقه من الجُعْل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلده ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟﴾ وإن تضارّوا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ فإن الضِّرارَ ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ مأثم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ شرائع دينه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يلحقه سهو، ولا قصور.

٢٨٣ ـ ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ﴾ (فَرُهُنٌ): مكي، وأبو عمرو. أي: فالذي يستوثق به رُهُن. وكلاهما جمع رهن، كسقف وسقف، وبغل وبغال. ورهن في الأصل مصدر سمِّي به، ثم كسّر تكسير الأسماء. ولما كان السفر مظنَّة لإعواز الكَتْب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال مَن كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكَتْب والإشهاد، لا أن السفر شرط تجويز الارتهان. وقوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدلُّ على اشتراط القبض، لا كما زعم مالك: أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به، فلم يتوثَّق بالكتابة، والشهود، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ دينه. وائتمن: افتعل، من الأمن. وهو حثٌّ للمديون على أن يكون عند ظن الدائن، وأمنه منه، وائتمانه له، وأن يؤدّي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه. وسمِّي الدين أمانة، وهو مضمون، لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إنكار حقه

(١) «اللِّزاز»: يقال: هو لزازُ خصومة، أي: ملازم لها، قادر عليها.

وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ هذا خطاب للشهود ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ ارتفع قلبه بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، أو: بالابتداء. وآثم: خبره مقدّم، والجملة: خبر إن. وإنما أسند إلى القلب، والجملة هي الآثمة، لا القلب وحده؛ لأنَّ كتمانَ الشهادة أن يضمرها في القلب، ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً مكتسباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما تقول: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي. ولأنَّ القلب رئيسُ الأعضاء، والمضغة التي إن صلَحت صلَح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكّن الإثمُ في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه. ولأنَّ أفعالَ القلوب أعظمُ من أفعال سائر الجوارح. ألا ترى أن أصلَ الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب! وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإظهارها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه.

٢٨٤ ـ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يكافئكم، ويجازيكم. ولا تدخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلوّ منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، والحاصل: أن عزم الكفر كفر، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوّة، وعزم الذنوب إذا ندم عليه، ورجع عنه، واستغفر منه مغفور. فأما إذا همّ بسيئة، وهو ثابت على ذلك، إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره، فإنه لا يعاقب على ذلك عقوبة فعله. أي: بالعزم على الزنى لا يعاقب عقوبة الزنى. وهل يعاقب عقوبة عزم الزنى؟ قيل: لا، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله عفا عن أمتي ما حدّثت به أنفسها

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

ما لم تعمل، أو تتكلم به»[1]. والجمهور على أنَّ الحديثَ في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة في العزم ثابتة، وإليه مال الشيخ أبو منصور، وشمس الأئمة الحلواني ـ رحمهما الله ـ. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الآية [النور: ١٩]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما همّ العبد بالمعصية من غير عمل؛ يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن في الدنيا. وفي أكثر التفاسير: أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقالوا: أَنُؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا؟! فنزل قوله: ﴿آمن الرسول﴾ إلى قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبت﴾ فتعلّق ذلك بالكسب دون العزم. وفي بعضها: أنها نسخت بهذه الآية. والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ برفعهما: شامي، وعاصم، أي: فهو يغفر ويعذب. وبجزمهما: غيرهم عطفاً على جواب الشرط. وبالإدغام: أبو عمرو، وكذا في الإشارة والبشارة. وقال صاحب «الكشاف»: مُدْغِمُ الراء في اللام لاحنٌ مخطىء. لأنَّ الراء حرف مكرر، فيصير بمنزلة المضاعف، ولا يجوز إدغام المضاعف. وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية[2] ما يؤذن بجهل عظيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢٨٥ ـ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف المؤمنون على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في ﴿كُلٌّ﴾ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان عليه ﴿كل﴾ مبتدأ ثانياً، والتقدير: كل منهم، وآمن: خبر المبتدأ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٥) والبخاري (٢٥٢٨) وأبو داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) وابن ماجه (٢٠٤٤).

(٢) في الكشاف: بالعربية.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾

الثاني، والجملة: خبر الأوّل، وكان الضمير للمؤمنين. ووحّد ضمير كل في آمن على معنى: كلّ واحدٍ منهم آمن. (وكِتابهِ): حمزة، وعليّ، يعني: القرآن، أو الجنس ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ أي: يقولون ﴿لا نفرق﴾ بل نؤمن بالكلّ ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أحد في معنى الجمع؛ ولذا دخل عليه بين، وهو لا يدخل إلا على اسم يدلّ على أكثر من واحد، تقول: المال بين القوم، ولا تقول: المال بين زيد ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ أجبنا قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: اغفر لنا غفرانك، فهو منصوب بفعل مضمر ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، وفيه إقرار بالبعث والجزاء. والآية تدلُّ على بطلان الاستثناء في الإيمان، وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

٢٨٦ ـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ محكي عنهم، أو مستأنف ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يردّ إلا بفعل يقدر عليه المكلف، كذا في «شرح التأويلات». وقال صاحب «الكشاف»: الوسع: ما يسعُ الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، أي: لا يكلِّفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود... فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير، ويضرّها ما اكتسبت من شرّ. وخصّ الخير بالكسب والشر بالاكتساب؛ لأن الافتعال للانكماش، والنفس تنكمش في الشر، وتتكلَّف للخير ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ تركنا أمراً من أوامرك سهواً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودلَّ هذا على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ ـ خلافاً للمعتزلة ـ لإمكان التحرّز عنهما في الجملة. ولولا جوازُ المؤاخذة بهما لم يكن للسؤال معنى ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبئاً يأصِر حامله، أي: يحبسه مكانه لِثقله. استعير للتكليف الشاق، من نحو: قتل الأنفس، وقطع

كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

موضع النجاسة من الجلد[1] والثوب، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ امح سيئاتنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا. وليس بتكرار، فالأوّل للكبائر، والثاني للصغائر ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا. أو: الأول من المسخ، والثاني من الخسف، والثالث من الغرق ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو: ناصرنا، أو: متولّي أمورنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فمن حقّ المولى أن ينصر عبيده.

في الحديث: «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة كفتاه»[2]. وفيه: «من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل»[3]. ويجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة، لما روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. وقال بعضهم: يُكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تُذكر فيها البقرة، والله أعلم.

* * *

(١) في هامش المخطوط: المراد: جلد الخف والفرو، لا جلد البَدَن.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٢) والبخاري (٥٠٠٩) ومسلم (٨٠٧) (٢٥٥).

(٣) رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود. وفي إسناده: الوليد بن عباد، وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك. (الكشاف ١/ ٣٣٣).

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ترتيبها ٣ — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾

١و٢ ـ ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ﴾ حُرِّكتْ الميم لالتقاء الساكنين، أعني سكونها وسكون لام الله، وفتحت لخفّة الفتحة، ولم تكسر للياء وكسر الميم قبلها، تحامياً عن توالي الكسرات. وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها، إذ لو كان كذلك لوجب فتحها في «حم» ولا يصحّ أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت إلى الميم؛ لأنَّ تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج، وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها، وإثباتها غير جائز. وأسكن يزيد والأعشى الميم وقَطَعا الألف. والباقون بوصل الألف وفتح الميم. والله مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره. وخبر: (لا) مضمر، والتقدير: لا إله في الوجود إلا ﴿هو﴾. و﴿هو﴾ في موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحي، أو بدل من هو. والقيُّوم: فيعول، من قام، وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

٣ ـ ﴿نَزَّلَ﴾ أي: هو نزّل. ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال، أي: نزله حقاً ثابتاً ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ هما اسمان

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

أعجميان. وتكلُّف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وإنما قيل: ﴿نزّل الكتاب﴾ ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة.

٤ ـ ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى، أو لجميع الناس ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: جنس الكتب؛ لأن الكلّ يفرق بين الحق والباطل. أو: الزبور. أو: كرّر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيماً لشأنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة، وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو عقوبة شديدة، لا يقدر على مثلها منتقم.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في العالم. فعبّر عنه بالسماء والأرض. أي: هو مطلع على كفر من كفر، وإيمان مَن آمن، وهو مجازيهم عليه.

٦ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصور المختلفة ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره. رُوي أنه لمّا قدم وفد بني نجران ـ وهم ستون راكباً، أميرهم العاقب، وعمدتهم السيد، وأسقُفُهم وحبرهم أبو حارثة ـ خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حيٌّ لا يموت وعيسى يموت، وأن ربنا قيّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما علّم، وأنه صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعته، وأرضعته، وكان يأكل، ويحدث، وربنا منزّه عن ذلك كله؟» فانقطعوا، فنزل فيهم صدرُ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية[١].

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٢/ ١٤٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾

٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿مِنۡهُ﴾ من الكتاب ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها، بأن حُفظت من الاحتمال والاشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها، وتردّ إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ مشتبهات محتملات. مثال ذلك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فالاستواء يكون بمعنى الجلوس، وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم، وهو قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]. أو المحكم: ما أمر الله به في كلّ كتاب أنزله، نحو قوله: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ...﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات، ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآيات. والمتشابه ما وراءه. أو: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. وما احتمل أوجهاً. أو ما يعلم تأويله، وما لا يعلم تأويله. أو: الناسخ: الذي يعملُ به، والمنسوخ: الذي لا يعملُ به. وإنما لم يكن كل القرآن محكماً لما في المتشابه من الابتلاء، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه، وردّه إلى المحكم، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ ميل عن الحق، وهم أهلُ البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتملُ ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ وطلبَ أن يؤوِّلوه التأويل الذي يشتهونه. ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ والذين رسخوا، أي: ثبتوا فيه، وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. مستأنف عند الجمهور. والوقف عندهم على قوله ﴿إلا الله﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه. وهو مبتدأ عندهم، والخبر: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾. وهو ثناءٌ منه تعالى عليهم بالإيمان على

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا
مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾

التسليم، واعتقاد الحقية بلا تكييف. وفائدة إنزال المتشابه: الإيمان به، واعتقاد حقِّيَّة ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلاً. ويعضده قراءة أبيّ: (ويقول الراسخون)، وعبد الله (إنْ تأويله إلا عند الله). ومنهم من لا يقف عليه ويقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ﴿ويقولون﴾ كلام مستأنف موضّح لحال الراسخين. بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به، أي: بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم؛ الذي لا يتناقض كلامه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ، وأصله: يتذكر ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول، وهو مدحٌ للراسخين بإلقاء الذهن، وحسن التأمل وقيل: يقولون حال من الراسخين.

٨ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بخلق الميل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك، نعمة بالتوفيق والتثبيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ كثير الهبة. والآية من مقول الراسخين. ويحتمل الاستئناف، أي: قولوها. وكذلك التي بعدها وهي:

٩ ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم، أو لجزاء يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ في وقوعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الموعد. والمعنى: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيّب سائله. أي: لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ تنفع، أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾

١١ ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل: إذا كدح فيه. فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله. والكاف مرفوع المحل، تقديره: دأب هؤلاء الكفرة في تكذيب الحق كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. أو منصوب المحل بلن تغني، أي: لن تغني عنهم، مثل: ما لم تغن عن أولئك. (كداب) بلا همز حيث كان، أبو عمرو ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فُعِلَ بهم، على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم. ويجوز أن يكون حالاً، أي: قد كذبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، يقال: أخذته بكذا، أي: جازيته عليه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ شديد عقابه، فالإضافة غير محضة.

١٢ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم مشركو مكة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ من الجِهِنَّام(١)، وهي: بئر عميقة. وبالياء فيهما، حمزة وعليّ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المستقر، جهنم.

١٣ـ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وفئة أخرى ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلْي عدد المشركين ألفين، أو مثلْي عدد المسلمين ستمئة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلّتهم أضعافهم ليهابوهم، ويجبنوا عن قتالهم. تَرَوْنَهم، نافع، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلْي فئتكم الكافرة، أو مثلْي أنفسهم. ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأنهم قلّلوا أولاً في

(١) في اللِّسان: الجِهِنَّام: القعر البعيد.

رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة، وإظهار الآية. ومثليهم نصب على الحال؛ لأنه من رؤية العين بدليل قوله: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كما أيَّدَ أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في تكثير القليل ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر.

١٤ ـ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] دليله قراءة مجاهد ﴿زَيَّنَ للناس﴾ على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوة: توقان النفس إلى الشيء. جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة. أو: كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتّبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والإماء داخلة فيها. ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ جمع ابن. وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث. وهنا أُريد به الذكور، فهم المشتَهون في الطباع، والمعدّون للدفاع. ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو: المال الكثير. قيل: ملء مَسْك[1] ثور أو مئة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام وبمكة مئة رجل قد قنطروا. ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المنضدة، أو المدفونة. ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ سُمّي ذهباً لسرعة ذهابه بالإنفاق، وفضة لأنها تتفرّق بالإنفاق. والفضُّ: التفريق. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ سُمّيت به لاختيالها في مشيها. ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة، من: السّومة،

---

(١) «مَسْك»: جِلْد.

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وهي: العلامة، أو المرعية، من: أسام الدابة، وسوّمها. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي الأزواج الثمانية. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتمتع بها في الدنيا. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ المرجع.

١٥ ـ ثم زهّدهم في الدنيا فقال: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ من الذي تقدّم ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف، فيه دلالةٌ على بيان ما هو خير من ذلكم. فجنات مبتدأ و﴿للذين اتقوا﴾ خبره. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لجنات. ويجوز أن يتعلّق اللام بخير. واختص المتقين؛ لأنّهم هم المنتفعون به. ويرتفع جنات على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ جناتٍ بالجر، على البدل من خير. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رضا الله. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بأعمالهم فيجازيهم عليها، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم؛ فلذا أعدّ لهم الجنات.

١٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع، أو جر صفة للمتقين، أو للعباد. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ إجابةً لدعوتك. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إنجازاً لوعدك. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بفضلك.

١٧ ـ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعات والمصائب. وهو نصب على المدح. ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وفعلاً بإحكام العمل، ونية بإمضاء العزم. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الداعين، أو المطيعين. ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ المتصدّقين. ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ المصلّين، أو طالبين المغفرة. وخصّ الأسحار؛ لأنه

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾

وقتُ إجابة الدعاء، ولأنه وقتُ الخلوة. قال لقمان لابنه: يا بني! لا يكن الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كلٍّ واحدةٍ منها. وللإشعار بأن كلَّ صفةٍ مستقلة بالمدح.

١٨ ـ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: حكم أو قال. ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنه. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرته. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء. ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض، والعمل على السوية فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى، أو من (هو). وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت: جاء زيد وعمرو راكباً لم يجز؛ لعدم الإلباس، فإنك لو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة. أو: على المدح. وكرر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتأكيد. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ رفع على الاستئناف، أي: هو العزيز، وليس بوصف لـ«هو» لأنَّ الضميرَ لا يُوصف. يعني: أنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي لا يعدلُ عن الحقِّ.

١٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنفة. وقرىء[1] ﴿أن الدين﴾ على البدل من قوله ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام.

قال ﷺ: «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة. ومن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي [عند الله] وديعة، يقول الله تعالى يوم القيامة: إن لعبدي عندي عهداً، وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة»[2].

---

(١) من المطبوع.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦) وقال: رواه الطبراني، وفيه عمر =

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد، فثلّثت النصارى، وقالت اليهود: عزير ابن الله. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أنه الحق الذي لا محيدَ عنه. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كلّ فريق ناساً، لا شبهة في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعدما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بحججه، ودلائله. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ سريع المجازاة.

٢٠ـ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في أنَّ دينَ الله الإسلام. والمراد بهم: وفد بني نجران عند الجمهور. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾[1] أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبده، وأدعو إلهاً معه. يعني: أن ديني دين التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته، كما ثبتت عندي، وما جئتُ بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهو دفعٌ للمحاجّة بأن ما هو عليه، ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لا شك فيه، فما معنى المحاجة فيه؟! ﴿وَجْهِيَ﴾: مدني، وشامي، وحفص، والأعشى، والبرجمي. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت،

= ابن المختار، وهو ضعيف. وانظر الدر المنثور (٢/١٦٦). وما بين حاصرتين ساقط من المخطوط.

(١) في الأصل المخطوط: ثبتت قراءة: ﴿وَجْهِيْ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، والحضرمي، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/١٦).

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

أي: أسلمت أنا ومَن اتبعني. وحسن للفاصل. ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، فيكون مفعولاً معه. ومن اتبعني: في الحالين: سهل، ويعقوب. وافق أبو عمرو في الوصل. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من اليهود والنصارى. ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بهمزتين، كوفي. يعني: أنه قد أتاكم من البينات حصول الإسلام، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعدُ على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، أي: أسلموا، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضَّلال إلى الهدى. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ أي: لم يضروك، فإنك رسول منبّه، ما عليك إلا أن تبلّغ الرسالة، وتُنَبِّه على طريق الهدى. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

٢١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الأنبياءَ. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال مؤكد؛ لأن قتل النبي لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ ويقاتلون: حمزة. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: سوى الأنبياء، قال ﷺ: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار في ساعة واحدة. فقام مئة واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم»[١]. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء في خبر إن لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشّرهم؛ بمعنى: من يكفر

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢/٢١٦).

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ

فبشّرهم. وهذا لأنَّ (إنّ) لا تغير معنى الابتداء فهي للتحقيق، فكأن دخولها كـ: لا دخول. ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع دخول الفاء.

٢٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: ضاعت. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ جمع لوقف رؤوس الآي، وإلا فالواحد النكرة في النفي يعمّ.

٢٣ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصَّلوا نصيباً وافراً من التوراة. و«من» للتبعيض، أو للبيان. ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ حال من الذين. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: التوراة أو القرآن. ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ جعل حاكماً حيث كان سبباً للحكم. أو: ليحكم النبي. روي أنه ﷺ دخل مدراسهم فدعاهم. فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال النبي ﷺ: «على ملة إبراهيم». قالا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: «إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها». فأبيا[1]. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ استبعاد لا يزال الإعراضُ ديدنهم.

٢٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ أي: ذلك التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب، وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، وهي أربعون يوماً، أو سبعة أيام. وذلك: مبتدأ، وبأنهم خبره ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: غرَّهم افتراؤهم على الله، وهو قولهم: نحن أبناء الله وأحبَّاؤه فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة.

٢٥ ـ ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ﴾ فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت ﴿لَّا

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٧).

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾

﴿رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت ﴿وَهُمْ﴾ يرجع إلى كلّ نفس على المعنى؛ لأنه في معنى كلّ الناس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة في سيئاتهم، ونقصان في حسناتهم.

٢٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عوض من يا، ولذا لا يجتمعان. وهذا بعضُ خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في: يا ألله، وبالتفخيم ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ تملك جنس الملك، فتتصرف فيه تصرف الملاّك فيما يملكون. وهو نداء ثان، أي: يا مالك الملك ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمتَ له من الملك ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: تنزعه. فالملك الأوّل عام، والملكان الآخران خاصّان بعضان من الكل. رُوي أنه ﷺ حين فتح مكة وَعَد أمته ملك فارس والروم، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات! هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك. فنزلت[١] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالملك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بنزعه منه ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: الخير والشر، فاكتفى بذكر أحد الضدَّين عن الآخر. أو: لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: ﴿بيدك الخير﴾ تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

وقيل: المراد بـ﴿الملك﴾ ملك العافية، أو ملك القناعة. قال ﷺ: «ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يوماً فيوماً»[٢]. أو: ملك قيام الليل. وعن

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٦٣).
(٢) لم نجده في المصادر الحديثية المتوافرة لدينا.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾

الشبلي: الاستغناء بالمكوّن عن الكونين[1]. ﴿تعز﴾ بالمعرفة أو بالاستغناء بالمكوّن أو بالقناعة ﴿وتذل﴾ بأضدادها. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

٢٧ ـ ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فالإيلاج: إدخال الشيء في الشيء، وهو مجاز هنا، أي: تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار وتزيد في الليل ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو الفرخ من البيضة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج، أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ لا يعرف الخلق عدده ومقداره، وإن كان معلوماً عند الله ليدلّ على أنَّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيّرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادرٌ على أن ينزعَ الملك من العجم ويذلّهم، ويؤتيه العرب ويعزّهم. وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي. فإنِ العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم. وهو معنى قوله ﷺ: «كما تكونوا يولَّى عليكم»[2]. «الحيَّ من الميِّت» و«الميِّت من الحيِّ» بالتشديد حيث كان: مدني وكوفي، غير أبي بكر.

٢٨ ـ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم،

---

(١) «الكونان»: الدنيا والآخرة.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣٧٢).

مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا

أو لصداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك. وقد كرّر ذلك في القرآن. والمحبة في الله والبغض في الله بابٌ عظيمٌ في الإيمان ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثروهم عليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: ومن يوالِ الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعاداة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاته، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه. وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معدّ لديه، وهو وعيد آخر.

٢٩ ـ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفار، أو غيرها، مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف، وليس بمعطوف على جواب الشرط، أي: هو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يخفى عليه سرّكم وعلنكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على عقوبتكم.

٣٠ ـ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يوم: منصوب بتود. والضمير في «بينه» لليوم. أي: يوم القيامة حين تجد كلُّ نفس خيرَها وشرَّها حاضرين، تتمنى لو أنَّ بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً، أي: مسافة بعيدة. أو: باذكر. ويقع على ﴿ما عملت﴾ وحده. ويرتفع ﴿وما عملت﴾ على الابتداء و﴿تود﴾ خبره. أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصحُّ أن تكون «ما» شرطية لارتفاع تودّ. نعم: الرفع جائز إذا كان الشرط ماضياً، لكن الجزم هو

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾

الكثير، وعن المبرد: أن الرفع شاذ. وكرر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ليكون على بال منهم، لا يغفلون عنه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته بهم أن حذّرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه. ويجوز أن يريد أنه، مع كونه محذوراً لكمال قدرته، مرجوّ لسعة رحمته؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

٣١ ـ ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ محبة العبد لله: إيثارُ طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد: أن يرضى عنه، ويحمد فعله. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعلَ لقولهم تصديقاً من عمل. فمن ادَّعى محبته، وخالف سُنَّة رسوله، فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه. وقيل: محبة الله: معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب به وبذكره، ودوام الأنس به. وقيل: هي اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحداً ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٢ ـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامة المحبة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن قبول الطاعة، ويحتمل أن يكون مضارعاً، أي: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يُحِبُّهم.

٣٣ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ موسى وهارون هما ابنا عمران بن يصهر. وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان. وبين العمرانين ألف وثمانمئة سنة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ

٣٤ ـ ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾ بدل من آل ابراهيم وآل عمران ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ مبتدأ، وخبره في موضع النصب صفة لذرية. يعني: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة، بعضها متشعب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان، وهو يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل ابراهيم رسول الله ﷺ. وقيل: بعضها من بعض في الدِّين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

٣٥ ـ ﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ وإذ: منصوب به، أو بإضمار اذكر ﴿ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم، جدة عيسى، وهي: حنة بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ﴾ أوجبتُ ﴿مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ هو حال من ما، وهي بمعنى الذي، أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس، لا يد لي عليه، ولا أستخدمه. وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. أو مخلصاً للعبادة، يقال: طين حرّ، أي: خالص ﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ﴾ (مِنّيَ): مدني، وأبو عمرو. والتقبل: أَخْذُ الشيء على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ الضمير لـ«ما في بطني» وإنما أنَّث على تأويل الحبلة، أو النفس، أو النسمة ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ حال من الضمير في وضعتها، أي: وضعت الحبلة، أو النفس، أو النسمة أنثى. وإنما قالت هذا القول لأنَّ التحرير لم يكن إلا للغلمان، فاعتذرت عما نذرت، وتحزّنت إلى ربّها. ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر، قال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ تعظيماً لموضوعها. أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما علق به من عظائم الأمور. ﴿وَضَعۡتُ﴾ شامي، وأبو بكر، بمعنى: ولعل لله فيه سراً

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾

وحكمة. وعلى هذا يكون داخلاً في القول، وعلى الأول يوقف عند قوله ﴿أنثى﴾ وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿إني وضعتها أنثى﴾ وما بينهما جملتان معترضتان. وإنما ذكرتْ حنّةُ تسميتها مريم لربها؛ لأنّ مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بذلك التقرّب، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألَا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان بقوله: ﴿وَإِنِّيٓ﴾ ﴿وإنّيَ﴾ مدني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أُجيرها ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ الملعون. في الحديث: «ما من مولود يُولَدُ إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها»[1].

٣٧ ـ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل اللهُ مريم، ورضي بها في النذر مكان الذَّكَر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيل: القَبُول: اسم ما يقبل به الشيء، كالسعوط: لما يسعط به. وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذَّكَر في النذر، ولم تُقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ، وتصلح للسدانة. رُوي أنَّ حنة لما ولدت مريم لفَّتها في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم. وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم. فقال لهم زكريا: أنا أحقُّ بها، عندي أختها. فقالوا: لا، حتى نقترعَ عليها. فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين ـ إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فتكفَّلها. وقيل: هو مصدر، على تقدير حذف المضاف، أي: فتقبلها

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦).

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ﴾

بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة. قال ابن عطاء: ما كانت ثمرته مثل عيسى، فذاك أحسن النبات. ونباتاً: مصدر على خلاف الصَّدر، أو التقدير: فنبتت نباتاً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾[(١)] قبلها، أو ضمن القيام بأمرها. ﴿وكفَّلها﴾ كوفي، أي: كفّلها الله زكريا، يعني: جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر كوفي، غير أبي بكر، في كل القرآن. وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا. غيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة. ومعناه في العبري: دائم الذكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ قيل: بَنَى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة تصعد إليها بسلم. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمَّى المحاريب. وكان لا يدخلُ عليها إلا هو وحده ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ كان رزقُها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تستبعد. قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ من جملة كلام مريم، أو: من كلام رب العالمين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو تفضلاً بغير محاسبة، ومجازاة على عمل.

٣٨ ـ ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب. أو: في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا، وحيث، وثم: للزمان. لما رأى حال

(١) في الأصل المخطوط ثبتت قراءة: ﴿كَفَلَهَا﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ٢٤).

دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

مريم في كرامتها على الله ومنزلتها، رغب أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أمها حنة في الكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أمها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولداً. والذرّية يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة. والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيبه.

٣٩ ـ ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل عليه السلام. وإنما قيل: الملائكة لأنَّ المعنى: أتاه النداء من هذا الجنس، كقولهم: فلان يركب الخيل. ﴿فناديه﴾ بالياء والإمالة: حمزة وعليّ ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليلٌ على أن المرادات تطلبُ بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات. وقال ابن عطاء: ما فتح اللهُ تعالى على عبدٍ حالة سنية إلا باتّباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾[1] بكسر الألف: شامي، وحمزة، على إضمار القول، أو: لأنَّ النداء قول. الباقون بالفتح، أي: بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ يَبْشُرُكَ وما بعده: حمزة، وعليّ، من بَشَرَهُ. والتخفيف والتشديد لغتان ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ هو غير منصرف. إن كان عجمياً، وهو الظاهر فللتعريف والعجمة، كموسى وعيسى. وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل، كيعمر ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ حال منه ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى، مؤمناً به، فهو أول من آمن به. وسُمِّي عيسى كلمة الله لأنَّ تكوّنه بكن بلا أب. أو مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف. وكان يحيىٰ فائقاً على قومه؛ لأنه لم يركب سيئة قط، ويالها من سيادة! وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضاً عن المكوّن ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصراً لنفسه، أي: منعاً لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ناشئاًمن الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿إن الله﴾ بكسر الهمزة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ

الأنبياء، أو كائناً من جُملة الصالحين.

٤٠ ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ استبعاد من حيث العادة، واستعظام للقدرة، لا تشكك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السن العالية، أي: أَثَّر فيَّ الكبر، وأضعفني، وكان له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

٤١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ﴾ مدني، وأبو عمرو ﴿ءَايَةً﴾ علامة أعرف بها الحبل لأتلقّى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو عين، أو حاجب. وأصله: التحرّك يقال: ارتمز: إذا تحرك. واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام؛ لأنه لما أدّى مؤدى الكلام، وفهم منه ما يفهم منه سمّي كلاماً. أو هو استثناء منقطع. وإنما خصّ تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة، والأدلة الظاهرة. وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله، لا يشغل لسانه بغيره. كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان منتزعاً من السؤال. والعشي: من حين الزوال إلى الغروب. والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

٤٢ ـ ﴿وَإِذْ﴾ عطف على إذ قالت امرأة عمران، أو التقدير: واذكر إذ ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ رُوي أنَّهم كلموها شفاهاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أولاً حين تقبلك من أم، وربّاك، واختصّك بالكرامة السَّنية ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يُستقذر من

وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

الأفعال ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ آخراً ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن وَهَب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

٤٣ ـ ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أديمي الطاعة، أو: أطيلي قيام الصلاة ﴿وَٱسْجُدِى﴾. وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيئات الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة. أو: وانظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني في عدادهم، ولا تكوني في عدادِ غيرهم.

٤٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة، وزكريا، ويحيى، ومريم ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني: أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أزلامهم، وهي: قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. أو: هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها، اختاروها للقرعة تبرّكاً بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دلَّ عليه يلقون، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم، أو ليعلموا، أو يقولون ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها.

٤٥ ـ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: اذكر ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي: بعيسى ﴿مِّنْهُ﴾ في موضع جر صفة لكلمة ﴿ٱسْمُهُ﴾ مبتدأ. وذكر ضمير الكلمة لأنَّ المسمَّى بها مذكر ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ خبره، والجملة في موضع جر صفة لكلمة. والمسيح لقب من الألقاب المشرّفة، كالصديق، والفاروق. وأصله: مشيحاً بالعبرانية، ومعناه: المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] وقيل: سُمِّي مسيحاً لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، أو: لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة، لا يستوطن مكاناً ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ٱبْنُ

مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

﴿مَرْيَمَ﴾ خبراً مبتدأ محذوف، أي: هو ابن مريم. ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى؛ لأن اسمه عيسى فحسب وليس اسمه عيسى ابن مريم، وإنما قال ﴿ابن مريم﴾ إعلاماً لها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والطاعة ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بعلوّ الدرجة، والشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السَّماء. وقوله: ﴿وجيهاً﴾ حال من «كلمة» لكونها موصوفة، وكذا ﴿من المقربين﴾ أي: وثابتاً من المقربين وكذا:

٤٦ ـ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ومُكلِّماً الناس ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في يكلم، أي: ثابتاً في المهد، وهو: ما يُمهد للصبي من مضجعه، سُمِّي بالمصدر ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه، أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، أي: يكلّم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة؛ التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال أيضاً، والتقدير: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات.

٤٧ ـ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا قدر تكوّن شيء كوّنه من غير تأخير. لكنه عبّر بقوله: ﴿كن﴾ إخباراً عن سرعة تكوُّن الأشياء بتكوينه.

٤٨ ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدني، وعاصم، وموضعه حال معطوفة على: وجيهاً. الباقون بالنون على أنه كلام مبتدأ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابة، وكان أحسن الناس خطّاً في زمانه. وقيل: كُتُبَ الله ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بيان الحلال والحرام. أو: الكتاب: الخط باليد، والحكمة: البيان باللسان ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

٤٩ ـ ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعله رسولاً. أو: يكون في موضع الحال، أي: وجيهاً في الدنيا والآخرة ورسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي﴾ بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ

﴿رَبِّكُمْ﴾ بدلالة تدلُّ على صدقي فيما أدَّعيه من النبوة ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ نصب بدل من ﴿أني قد جئتكم﴾. أو: جر بدل من «آية». أو: رفع على هي ﴿أني أخلق لكم﴾ ﴿إنّي﴾ نافع على الاستئناف ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: أقدر لكم شيئاً مثل صُورة الطَّير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور. طائراً: مدني ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره. قيل: لم يخلق شيئاً غير الخُفّاش ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي وُلد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرَّر بإذن الله دفعاً لوهم مَن يتوهم فيه اللاهوتية. رُوي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام وهم ينظرون إليه. فقالوا: هذا سحر مبين، فأرنا آية. فقال: يافلان! أكلت كذا، ويافلان خُبِّيء لك كذا، وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ و«ما» فيهما بمعنى الذي، أو: مصدرية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما سبق. ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥٠ ـ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: قد جئتكم بآية، وجئتكم مُصدقاً ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ردّ على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى عليه السلام: الشحوم، ولحوم الإبل، والسمك، وكلّ ذي ظفر. فأحلَّ لهم عيسى بعض ذلك ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرّر للتأكيد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أمري.

٥١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية، ونفي للربوبية عن نفسه،

﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٥١ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤﴾

بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دوني ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يؤدِّي صاحبه إلى النعيم المقيم.

٥٢ ـ ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفراً، علماً لا شبهة فيه، كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي﴾ مدني. وهو جمع ناصر كأصحاب، أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يتعلّق بمحذوف حال من الياء، أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله، ملتجئاً إليه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل: صفوته، وخاصَّته ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أعوان دِينه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ﴾ ياعيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرُّسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم. وفيه دليلٌ على أن الإيمانَ والإسلام واحد

٥٣ ـ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: رسولك عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو: مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو: مع أمة محمدﷺ؛ لأنهم شهداءُ على الناس.

٥٤ ـ ﴿وَمَكَرُوا﴾ أي: كفار بني إسرائيل الذين أحسَّ[1] منهم الكفر حين أرادوا قتله، وصَلْبه ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على مَن أراد اغتياله حتى قُتِل. ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذمومٌ عند الخلق. وعلى هذا: الخداع والاستهزاء، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أقوى المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

(١) أي: أحسّ عيسى عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

---

٥٥ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوف أجلك. ومعناه: أني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومميتك حتف أنفك، لا قتلاً بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: من سوء جوارهم، وخبث صحبتهم. وقيل: متوفيك: قابضك من الأرض ، من: توفيت مالي على فلان: إذا استوفيته. أو: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا توجب الترتيب. قال النبيﷺ: «ينزل عيسى خليفة على أمتي، يدق الصليب، ويقتل الخنازير، ويلبث أربعين سنة، ويتزوج، ويولد له، ثم يتوفىٰ. وكيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها؟»[1] أو متوفي نفسك بالنوم، ورافعك وأنت نائم؛ حتى لايلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن، مقرّب. ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: المسلمين ـ لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ـ دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعلونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وتفسير الحكم هاتان الآيتان. (فيُوَفّيهم): حفص.

---

(١) رواه ابن جرير (٣/ ٢٩١)، وانظر: الدر المنثور (٢/ ٢٢٥).

ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ

٥٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره. وهو مبتدأ ﴿نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ﴾ خبره ﴿مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ القرآن. يعني: المحكم، أو: كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

٥٩ ـ نزل لما قال وفد بني نجران: هل رأيت ولداً بلا أب؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ قدّره جسداً من طين. وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها. أي: خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم. فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب، وأخرق للعادة من الوجود من غير أب. فشبه الغريب بالأغراب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه . وعن بعض العلماء: أنه أُسِر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له. قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى. قال: فحزقيل أولىٰ لأن عيسىٰ أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنه طُبِخ وأُحْرِق ثم قام سالماً ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنشأه بشراً ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فكان. وهو حكاية حال ماضية. و«ثم» لترتيب الخبر على الخبر، لا لترتيب المخبر عنه.

٦٠ ـ ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها السامع ﴿مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكين، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبيﷺ. ويكون من باب التهييج لزيادة الثبات؛ لأنهﷺ معصومٌ من الامتراء.

٦١ ـ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ من البينات الموجبة للعلم. و«ما» بمعنى الذي ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ هلمّوا. والمراد: المجيء بالعزم والرأي، كما تقول: تعال نُفكّر في هذه المسألة

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: يدع كُلٌ منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: بَهْلَةُ الله على الكاذب منّا ومنكم. والبهلة ـ بالفتح والضم ـ: اللعنة، وبهله الله: لعنه الله وأبعده من رحمته. وأصل الابتهال هذا، ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. روي أنه ﷺ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فقال العاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى! أن محمداً نبي مرسل، وما باهل قومٌ نبيّاً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتَهْلَكُنَّ. فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسولَ الله ﷺ وقد غداً محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيلَ جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني. فقالوا: يا أبا القاسم! رأينا ألا نباهلك. فصالحهم النبيُّ على ألفي حلّة كل سنة. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير»[١]. وإنما ضمَّ الأبناء والنساء، وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه؛ لأنَّ ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزّته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزّته إن تمّتِ المباهلة. وخصّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليلٌ واضحٌ على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وابن مروان: متروك، متهم بالكذب (حاشية الكشاف ١/٣٦٩).

فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ

يرْوِ أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسى. ونبتهل، ونجعل: معطوفان على ندع.

٦٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ فصل بين اسم إن وخبرها، أو مبتدأ. و﴿القصص الحق﴾ خبره. والجملة: خبر إن. وجاز دخول اللام على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولها على الخبر، كان دخولُها على الفصل أجوز؛ لأنه أقربُ إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و«مِنْ» في: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق. والمراد: الردّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير الأحكام.

٦٣ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا، ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيدٌ لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٦٤ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم أهل الكتابين، أو وفد نجران، أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي: مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كلَّ واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله. وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله! قال: «أليس كانوا

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

يحلّون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم. قال: «هو ذاك»[1] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا، وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع: أعترف بأني أنا الغالب، وسلِّم إليَّ الغلبة.

٦٥ ـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ زعم كلُّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه. فقيل: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

٦٦ ـ ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ ها: للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبره ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وقيل: هؤلاء: بمعنى الذين، وحاججتم: صلته. ﴿ها أنْتُم﴾ بالمد وغير الهمز حيث كان، مدني، وأبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينهم فقال:

٦٧ ـ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ

كأنه أراد بالمشركين: اليهود والنصارى؛ لإشراكهم به عزيراً والمسيح. أو: وما كان من المشركين كما لم يكن منهم.

٦٨ ـ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إن أخصّهم به، وأقربهم منه، من: الوَلْي، وهو: القرب ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصاً. خصّ بالذكر لخصوصيته بالفضل، والمراد: محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أمته ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

٦٩ ـ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

٧٠ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله. أو: تكفرون بالقرآن، ودلائل نبوة الرسول، وأنتم تشهدون نعته في الكتابين. أو: تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق.

٧١ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

٧٢ ـ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: القرآن ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف، أي: أوله. يعني: أظهروا الإيمان

﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾

بما أنزل على المسلمين في أول النهار. ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ واكفروا به في آخره ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم، فيرجعون برجوعكم.

٧٣ ـ ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ «ولا تؤمنوا» متعلق بقوله: ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد اوتوا من الكتب مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم، دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ عطف على أن «يؤتىٰ». والضمير في «يحاجوكم» لأحد؛ لأنه في معنى الجمع. بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق، ويغالبونكم عند الله بالحجَّة. ومعنى الاعتراض أنَّ الهدى هدى الله، من شاء هداه حتى أسلم أو ثبت على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم، وحيلكم، وذبّكم[1] تصديقكم عن المسلمين والمشركين. وكذلك قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو: يتم الكلام عند قوله ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: ﴿ولا تؤمنوا﴾ هذا الإيمان الظاهر، وهو إيمانهم وجه النهار ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم. ومعنى قوله: ﴿أن يؤتى﴾ لأن يؤتى ﴿أحد مثل ما أوتيتم﴾ قلتم ذلك، ودبَّرتموه لا لشيء آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد والبغي ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ من العلم والكتاب، دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. ويدلُّ عليه قراءة ابن كثير (آن)

---

(١) «ذبّكم»: أي: منعكم.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ
لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾

بالمد والاستفهام يعني: ألأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم؟ وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذا معناه: دبرتم ما دبرتم لأن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، أو لما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة.

٧٤ ـ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ بالنبوة، أو بالإسلام ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٧٥ ـ ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو عبد الله بن سلام. استودعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فأدّاه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو فنحاص بن عازوراء استودعه رجلٌ من قريش ديناراً، فجحده، وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مدة دوامك عليه ياصاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له. (يؤده) و(لا يؤده) بكسر الهاء مشبعة: مكي، وشامي، ونافع، وعلي، وحفص. واختلس أبو عمرو في رواية. غيرهم بسكون الهاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دلَّ عليه: لا يؤده ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي: لا يتطرق علينا إثم وذم في شأن الأميين، يعنون: الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم، والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا. وكانوا يستحلّون ظلم من خالفهم، وكانوا يقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في

وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ
لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ

كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم أنَّ ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٦ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ جملة مستأنفة، مقررة للجملة التي سدّت بلى مسدّها. والضمير في ﴿بعهده﴾ يرجع إلى الله تعالى، أي: كل من أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحبهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى مَنْ. ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر، وأعمال السوء. قيل: نزلت في عبد الله ابن سلام ونحوه من مسلمي أهل الكتاب. ويجوز أن يرجع الضمير إلى من أوفى، أي: كلّ من وفى بما عاهد عليه، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

٧٧ ـ ونزل فيمن حرّف التوراة، وبدّل نعته ﷺ من اليهود، وأخذ الرشوة على ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به، ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترؤس، والارتشاء، ونحو ذلك. وقوله: ﴿بعهد الله﴾ يُقوّي رجوع الضمير في «بعهده» إلى الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرّهم ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ نظر رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٧٨ ـ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَيّ بن أخطب، وغيرهم ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرّف. واللَّيُّ: الفتل، وهو: الصرف.

لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

والمراد: تحريفهم؛ كآية الرجم، ونعت محمدﷺ، ونحو ذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ يرجع الضمير إلى ما دلَّ عليه ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ وهو المحرَّف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب، لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٩ ـ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام. وقيل: قال رجل: يا رسول الله! نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجدَ لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله»[1] ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة، وهي: السنة، أو فصل القضاء ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ عطف على «يؤتيه» ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن يَقُولَ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، وهو: شديد التمسُّك بدين الله وطاعته. وحين مات ابنُ عباس قال ابنُ الحنفية: مات ربانيُّ هذه الأمة. وعن الحسن ﴿ربانيين﴾ علماء فقهاء. وقيل: علماء معلِّمين. وقالوا: الرباني: العالم العامل ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ كوفي وشامي، أي: غيرَكم. غيرهم بالتخفيف ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون. والمعنى: بسبب كونكم عالمين، وبسبب كونكم دارسين للعلم، كانت الربانية ـ التي هي قوة التمسُّك بطاعة الله ـ مسببة عن العلم والدراسة. وكفى به دليلاً على خيبة سعي مَن

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٧٤) من حديث الحسن البصري. قال ابن حجر: لم أجد له إسناداً. (حاشية الكشاف ١/٣٧٨).

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

جهد نفسه، وكدّ روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسناء تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها. وقيل: معنى ﴿تدرسون﴾ تدرسونه على الناس، كقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون، من التدريس، كقراءة ابن جبير.

٨٠ ـ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾. ووجهه أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله، وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له، ويأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني، ولا يستخف بي. وبالرفع: حجازي، وأبو عمرو، وعليّ، على ابتداء الكلام. والهمزة في: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ للإنكار، والضمير في ﴿لا يأمركم﴾ و﴿أيأمركم﴾ للبشر، أو لله. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

٨١ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. أو المراد: ميثاق أولاد النبيين، وهم بنو إسرائيل، على حذف المضاف. واللام في: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي ﴿لتؤمنن﴾ لام جواب القسم، و﴿ما﴾ يجوز أن تكون متضمنة لمعنى الشرط، و﴿لتؤمنن﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به. ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى (ما) محذوف، والتقدير: ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذي معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ بالرسول ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي: الرسول، وهو محمدﷺ ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ حمزة و«ما» بمعنى الذي، أو مصدرية. أي: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم. واللام للتعليل. أي: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه لأجل أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. (آتيناكم) مدني ﴿قَالَ﴾ أي: الله ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم عهدي. وسُمِّي إصراً لأنه مما يؤصر، أي: يشدّ، ويعقد ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلكم من إقراركم وتشاهدكم. وهذا توكيد عليهم، وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

٨٢ ـ ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق، والتوكيد، ونقض العهد بعد قبوله، وأعرض عن الإيمان بالنبي الجائي ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار.

٨٣ ـ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون. فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون، فغير دين الله يبغون. وقدم المفعول وهو ﴿غير دين الله﴾ على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار ـ الذي هو معنى الهمزة ـ متوجّه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدلة، والإنصاف من نفسه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف، أو بمعاينة العذاب، كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، أي: طائعين ومكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازون على الأعمال. (يبغون) و(يرجعون) بالياء فيهما، حفص. وبالتاء في الثاني وفتح الجيم، أبو عمرو؛ لأن

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾

الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وبالتاء فيهما وفتح الجيم، غيرهما.

٨٤ ـ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان. فلذا وحّد الضمير في ﴿قل﴾ وجمع في ﴿آمنا﴾. أو: أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. وعدّى ﴿أنزل﴾ هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. وقال صاحب «اللباب»: الخطاب في البقرة للأمة لقوله ﴿قولوا﴾ فلم يصح إلا «إلى»؛ لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً وهنا قال ﴿قل﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه. وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب، وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ كرّر في البقرة ﴿وما أوتي﴾ ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الإيتاء، حيث قال: ﴿لما آتيتكم﴾ ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ من عند ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ موحّدون مخلصون أنفسنا له، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ ـ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني: التوحيد، وإسلام الوجه لله. أو: غير دين محمد ﷺ ﴿دِينًا﴾ تمييز ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا في الخسران.

٨٦ ـ ونزل في رهط أسلموا، ثم رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ والواو في: ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾

وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

للحال، وقد مضمرة، أي: كفروا وقد شهدوا أن الرسول، أي: محمداً حق. أو للعطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل؛ لأن معناه: بعد أن آمنوا ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ما داموا مختارين الكفر، أو: لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفاراً.

٨٧ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهما خبر أولئك. أو: جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٨٨ ـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿عليهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٨٩ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الكفر العظيم، والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا، أو: دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

٩٠ ـ ونزل في اليهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. أو ﴿كفروا﴾ برسول الله ﷺ بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثة ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فيه في كلّ وقت. أو: نزل في الذين ارتدوا، ولحقوا بمكة وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: إيمانهم عند البأس؛ لأنهم لا يتوبوا إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

٩١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء في ﴿فلن يقبل﴾ يؤذن بأن الكلام بُني على الشرط والجزاء، وأنَّ سَبَبَ امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وترك الفاء فيما تقدَّم يُشعر بأن الكلام مبتدأ وخبر، ولا دليل فيه على التسبيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: ﴿فلن يقبل من أحدهم﴾ فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. قال ﷺ: «يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم فيقال له: لقد سُئلت أيسر من ذلك»[١]. قيل: الواو لتأكيد النفي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ معينين، دافعين للعذاب.

٩٢ ـ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر، أو: أن تكونوا أبراراً، أو: لن تنالوا برّ الله، وهو ثوابه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها. وعن الحسن: كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمرة فهو داخل في هذه الآية، قال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحابِّ، وإلى الربِّ بالتخلي عن الكونين. وقال أبو بكر الوراق: لن تنالوا برّي بكم إلا ببرّكم بإخوانكم. والحاصل: أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب. وعن عمربن عبد العزيز: أنه كان يشتري أعدالَ[٢] السُّكر ويتصدَّق بها، فقيل له: لِمَ لا تتصدَّق بثمنها؟ قال: لأن السكر أحبُّ إليَّ، فأردت أن أنفقَ مما أحب ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عليم بكل شيء تنفقونه، فيجازيكم بحسبه. و«من» الأولى للتبعيض لقراءة عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) والثانية للتبيين. أي: من أي: شيء كان الإنفاق طيب تحبونه، أو خبيث تكرهونه.

---

(١) رواه أحمد (٣/٢١٨) والبخاري (٦٥٣٨) ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢).

(٢) «أعدال»: جمع عِدل وهو الكيس يُعبَّأ فيه المتاع والحاجات.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

٩٣ ـ ولما قالت اليهود للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها! فقال ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحلّه»[١] فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، نزل تكذيباً لهم: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ ﴾ أي: المطعومات التي فيها النزاع؛ فإن منها ما هو حرام قبل ذلك، كالميتة، والدم ﴿ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: حلالاً، وهو مصدر، يقال: حلَّ الشيء حلّاً، ولذا استوى في صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠] ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ ﴾ أي: يعقوب. ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ وبالتخفيف، مكي وبصري. وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحب الطعام إليه. والمعنى: أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه. فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها، لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حُرِمَ عليهم تَحْرِيمٌ حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه. فلم يجرؤوا على إخراج التوراة وبُهِتوا. وفيه دليلٌ بين على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

٩٤ ـ ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرّماً في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم، ولا يلتفون إلى البينات.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٥ ـ ٧٦).

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾

٩٥ ـ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يحرم. وفيه تعريضٌ بكذبهم، أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل، وأنتم الكاذبون ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ﷺ ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرّتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلّها الله لإبراهيم ولمن تبعه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٩٦ ـ لما قالت اليهود للمسلمين: قبلتنا قبل قبلتكم نزل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الواضع هو الله عزوجل. ومعنى وضع الله بيتاً للناس: أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وفي الحديث: «إن المسجد الحرام وُضِع قبل بيت المقدس بأربعين سنة»(١). قيل: أول من بناه إبراهيم، وقيل: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وقيل: هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الأرض. وقوله: ﴿وضع للناس﴾ في موضع جر صفة لبيت، والخبر: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: للبيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكَّه: إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها، أو لأنها تبكّ أعناق الجبابرة، أي: تدقّها، لم يقصدها جبّار إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب، وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم و﴿مباركاً﴾ و﴿هدى﴾ حالان من الضمير في ﴿وضع﴾.

٩٧ ـ ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ علامات واضحات، لا تلتبس على أحد ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيات بينات﴾ وصحّ بيان الجماعة بالواحد لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه، وقوة دلالته على قدرة الله تعالى، ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد، أو لا شتماله على آيات؛ لأن

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠ و١٦٦) والبخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾

أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة. على أن: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ عطف بيان لآيات ـ وإن كان جملة ابتدائية، أو شرطية ـ من حيث المعنى؛ لأنه يدلّ على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله، والاثنان في معنىٰ الجمع، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوىٰ ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، وكثير سواهما، نحو: انمحاق الأحجار مع كثرة الرماة، وامتناع الطير من العلو عليه، وغير ذلك. ونحوه في طيّ الذكر قوله ﷺ: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عيني في الصلاة»[١]. فقرة عيني ليس من الثلاث، بل هو ابتداء كلام؛ لأنها ليست من الدنيا، والثالث مطوي. وكأنه ﷺ ترك ذكر الثالث تنبيهاً على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدنيا، فذكر شيئاً هو من الدين. وقيل في سبب هذا الأثر: أنه لما ارتفع بنيان الكعبة، وضعف إبراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر، فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام: انزل حتى تغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعته على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شقّ رأسه، ثم حوّلته إلى شقّه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وأمان من دخله بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جنى كلّ جناية، ثم التجأ إلى الحرم لم يُطلب. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ومن لزمه القتل في الحلّ بقود، أو ردة، أو زنىٰ، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار؛ لقوله ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بُعث يوم

(١) رواه أحمد (٣/١٠٨) والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٨٨) والحاكم (٢/ ١٦٠).

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

القيامة آمناً من النار»[١]. وعنه ﷺ: «الحجون والبقيع يُؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة، وهما مقبرتا مكة والمدينة»[٢]. وعنه ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعةً من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مئتي عام»[٣] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: استقر له عليهم فرض الحج. (حج البيت): كوفي غير أبي بكر، وهو اسم، وبالفتح مصدر، وقيل: هما لغتان في مصدر حج ﴿مَنِ﴾ في موضع جر، على أنه بدل البعض من الكل ﴿ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فسّرها النبي ﷺ بالزاد والراحلة[٤]. والضمير في «إليه» للبيت، أو للحجِّ، وكل مأتى إلى الشيء فهو سبيلٌ إليه. لما نزل قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلّهم فخطبهم، فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجّوا»[٥] فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فنزل: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جحد فرضية الحج، وهو قول ابن عباس، والحسن، وعطاء. ويجوز أن يكون من الكفران، أي: من لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم، وسعة الرزق، ولم يحج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مستغن عنهم، وعن طاعتهم. وفي هذه الآية أنواع من التأكيد، والتشديد، منها: اللام، وعلى، أي: أنه حقّ واجب لله في رقاب الناس. ومنها: الإبدال، ففيه تثنية للمراد، وتكرير له، ولأن الإيضاحَ بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنها: قوله: ﴿ومن كفر﴾ مكان «ومن لم يحج» تغليظاً على تاركي الحج. ومنها: ذكر

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤١٨٠).
(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/ ٣٨٩).
(٣) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٢٦) وقال: حديث باطل، لا أصل له.
(٤) رواه الترمذي (٢٩٩٨).
(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٠).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

الاستغناء، وذلك دليلٌ على المقت، والسخط، ومنها: قوله: ﴿عن العالمين﴾ وأن لم يقل: «عنه» وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنىٰ عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدلّ على الاستغناء الكامل، فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه.

٩٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو للحال. والمعنى: ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها.

٩٩ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصد: المنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ عن دين حق عُلم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها، وهو الإسلام، وكانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. ومحل ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبون لها: نصب على الحال ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة؛ بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يَصُدُّ عنها إلا ضالّ مضلّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصَّدِّ عن سبيله، وهو وعيدٌ شديد.

١٠٠ ـ ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصَّادِّين عن سبيله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ قيل: مَرَّ شاس بن قيس اليهودي على نفرٍ من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدثهم وتألفهم، فأمر شاباً من اليهود أن يذكرهم يوم بُعاث لعلهم يغضبون. وكان يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح! السلاح! فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وألّف بينكم؟!» فعرف القومُ أنها نزعة من الشيطان، فألقوا السلاح، وعانق بعضُهم بعضاً باكين، فنزلت الآية[١].

١٠١ ـ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار والتعجب، أي: من أين يتطرق إليكم الكفر؟! ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والحال أن آيات الله ـ وهي القرآن المعجز ـ تتلى عليكم على لسان الرسول غضّة طرية ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ وبين أظهركم رسول الله ﷺ يُنبّهكم ويعظكم، ويزيح عنكم شبهكم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه، أو بكتابه، أو: هو حثّ لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أرشد إلى الدين الحق، أو: من يجعل ربّه ملجأ ومفزعاً عند الشبه يحفظه عن الشّبه.

١٠٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ واجب تقواه وما يحقّ منها، وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى. أو: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه، أو بنيه، أو أبيه. وقيل: لايتقي اللهَ عبدٌ حق تقاته حتى يخزنَ لسانه. والتقاة من اتقى، كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

١٠٣ ـ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ تمسّكوا بالقرآن؛ لقوله ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق عن كثرة الرد. من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم»[٢] ﴿جَمِيعًا﴾ حال

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) مطوّلاً، وقال: هذا حديث إسناده مجهول، وفي الحارث الأعور مقال.

وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ

من ضمير المخاطبين. وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: ولا تتفرقوا، يعني: ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع. أو: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم، كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوة والحروب، فألف بين قلوبهم بالإسلام، وقذف في قلوبهم المحبة، وصاروا إخواناً ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم؛ لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. وهو ردّ على المعتزلة، فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى. والضمير للحفرة، أو: للنار أو للشفا، وأنّث لإضافته إلى الحفرة. وشفا الحفرة: حرفها. ولامها واو؛ فلهذا يثنى: شفوان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن الذي فيه أمر ونهي، ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب، وما ينال به الثواب.

١٠٤ ـ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل. أو: المعروف: ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر: ما خالفهما. أو: المعروف: الطاعة. والمنكر: المعاصي. والدعاء إلى الخير عامّ في التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص. ومِنْ: للتبعيض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته؛ فإنه يبدأ بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]. أو للتبيين، أي: وكونوا أمة تأمرون؛ كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا﴾

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بالفلاح الكامل. قال ﷺ: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»[1]. وعن عليّ رضي الله عنه ـ أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الديانة. وهم اليهود والنصارى؛ فإنهم اختلفوا، وكفّر بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي: كلمة الحق ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٠٦ ـ ونصب ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بالظرف وهو ﴿لهم﴾ أو بعظيم، أو باذكروا. أي: وجوه المؤمنين ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكافرين. والبياض من النور، والسواد من الظُّلمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فحذف الفاء والقول جميعاً للعلم به. والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاق، فيكون المراد به: جميع الكفار، وهو قول أُبيّ، وهو الظاهر. أو: هم المرتدون، أو المنافقون، أي: أكفرتم باطناً بعد إيمانكم ظاهراً. أو: أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان: تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٠٧ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ففي نعمته، وهي: الثواب المخلد، ثم استأنف فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يموتون.

١٠٨ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في الوعد، والوعيد، وغير ذلك ﴿نَتْلُوهَا

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٠٠) في ترجمة كادح بن رحمة. قال الأزدي وغيره: كذّاب.

عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى

﴿عَلَيْكَ﴾ ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل، من جزاء المحسن والمسيء ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

١٠٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿تَرْجِعُ﴾، شامي، وحمزة، وعليّ.

١١٠ ـ كان: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، ولا دليل فيه على عدم سابق، ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، أو: كنتم في علم الله، أو: في اللوح خير أمة، أو: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت. ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام تتعلق بأخرجت ﴿تَأْمُرُونَ﴾ كلام مستأنف، بيّن به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم. بيّنت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، وطاعة الرسول ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الكفر، وكلّ محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به. أو: لأن الواو لا تقتضي الترتيب ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمانُ خيراً لهم مما هم فيه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة، واستتباع العوام. ولو آمنوا لكان لهم من الرئاسة، والأتباع، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إيتاء الأجر مرتين ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر.

١١١ ـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من

وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

طعن في الدين، أو: تهديد، أو: نحو ذلك ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ولا يضروكم بقتل، أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد، ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم، وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء، وليس بمعطوف على «يولوكم» إذ لو كان معطوفاً عليه لقيل: ثم لا ينصروا. وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا. وتقدير الكلام: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم: أنهم لا ينصرون. و«ثم» للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

١١٢ ـ ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: على اليهود ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في محل النصب على الحال، والباء متعلق بمحذوف تقديره: إلا معتصمين، أو متمسّكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ والحبل: العهد، والذمة. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في كل حال، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني: ذمة الله وذمة المسلمين، أي: لا عزَّ لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو خوف الفقر مع قيام اليسار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك: إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة، والمسكنة، والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: ذلك الكفر، وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم لحدوده.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾

---

١١٣ ـ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب مستوين ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ بياناً لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، أي: استقام، وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن. ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته، واحدها: إنى، كمعى، أو: إنو، كقنو، أو: إني، كنحي ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلون. قيل: يريد صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وقيل: عبَّر عن تهجُّدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود.

١١٤ ـ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، وسائر أبواب البر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الكفر، ومنهيَّات الشَّرع ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت. وقوله: يتلون، ويؤمنون: في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة، تالون، مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة في الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر سارع بالقيام به ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم.

١١٥ ـ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء فيهما، كوفي غير أبي بكر. وأبو عمرو مخير. غيرهم بالتاء. وعُدِّي يكفروه إلى مفعولين ـ وإن كان «شكر»

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝١١٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾

و«كفر» لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها ـ لتضمُّنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، أي: فلن تحرموا جزاءه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذاب الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١١٧ ـ ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المفاخر، والمكارم، وكسب الثناء، وحسن الذِّكْر بين الناس. أو: ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثل مُهلَك ريح، وهو الحرث، أو: مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو مبتدأ وخبر في موضع. جرٍّ صفة لريح، مثل: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. أو: يكون الضمير للمنفقين، أي: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول.

١١٨ ـ ونزل نهياً للمؤمنين عن مصافاة المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته: خصيصه، وصفيه. شبّه ببطانة الثوب، كما يقال: فلان شعاري. وفي الحديث: «الأنصار شعار، والناس دثار»[١] ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم، وهم المسلمون، وهو صفة لبطانة. أي:

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ في موضع النصب صفة لبطانة. يعني: لا يقصرون في فساد دينكم. يقال: ألا في الأمر يألو: إذا قصر فيه. والخبال: الفساد. وانتصب خبالاً على التمييز، أو على حذف في، أي: في خبالكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم. فما: مصدرية. والعنت: شدة الضرر والمشقة، أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضَّرر وأبلغه. وهو مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة، كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون ـ مع ضبطهم أنفسهم ـ أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بُيِّن لكم.

١١٩ ـ ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ﴾ ها للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وأولاء: خبره، أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. أو: أولاء: موصول صلته ﴿تحبونهم﴾. والواو في: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ للحال، وانتصابها من «لا يحبونكم» أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد؛ لأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم. وقيل: الكتاب للجنس ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فارقوكم، أو خلا بعضُهم ببعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يوصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل، والبنان، والإبهام ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به. والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام، وعزّ أهله، وما لهم في ذلك من الذل والخزي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض. وهو داخلٌ في جملة المقول، أي: أخبرهم بما يسُرّونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. أو: خارج عن المقول، أي: قل لهم ذلك يا محمد، ولا تتعجب من إطلاعي إياكَ على ما يسرون، فإني أعلمُ بما هو أخفى من ذلك، وهو: ما أضمروه في صدورهم.

١٢٠ ـ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رخاء، وخصب، وغنيمة، ونصرة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا. والمس مستعار من الإصابة، فكأنَّ المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]. ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مانهيتم عنه من موالاتهم. أو: ﴿وإن تصبروا﴾ على تكاليف الدين ومشاقه ﴿وتتقوا﴾ الله في اجتنابكم محارمه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم، وكنتم في كنف الله. وهذا تعليم من الله، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿لا يَضِرْكُم﴾ مكي، وبصري، ونافع، من ضاره يضيره بمعنى ضره، وهو واضح. والمشكل قراءة غيرهم لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط مجزوم، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم، إلا أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، نحو: مدّ: يا هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالتاء سهل، أي: من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُحِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وبالياء غيره، أي: أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

١٢١ ـ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واذكر يا محمد إذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة. والمراد: غدوّه من حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى أحد ﴿تُبَوِّئُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم، وهو حال ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف من الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين، والساقة. وللقتال: يتعلق بـ«تبوىء» ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم وضمائركم. روي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء، فاستشار رسولُ الله ﷺ أصحابه، ودعا عبد الله بن أُبيّ فاستشاره، فقال: أقم بالمدينة، فما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا، وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم. فقال ﷺ: «إني رأيت في منامي بقراً مذبَّحةً حولي، فأوَّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلمة فأوَّلتها هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوَّلتها المدينة». فلم يزل به قومٌ ينشطون في الشهادة حتى لبس لأمته، ثم ندموا، فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشِّعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال[(١)].

١٢٢ ـ ﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل من إذ غدوت. أو: عمل فيه معنى ﴿عليم﴾ ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ حيَّان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنوحارثة من الأوس. وكان ﷺ خرج إلى أُحد في ألف، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخذل عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس، وقال: عَلاَم نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهمّ الحيان باتباعه، فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: بأن تفشلا، أي: بأن تَجْبُنا وتضعفا. والفشل: الجُبْن، والخَوَر ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ محبّهما، أو ناصرهما، أو متولي أمرهما، فما لهما تفشلان، ولا تتوكلان على الله؟! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه. قال جابر: والله ما يسّرنا أنا لم نهمّ بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله بأنه ولينا.

١٢٣ ـ ثمَّ ذكّرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يَسَّر لهم من الفتح يوم بدر،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧١) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٠٥).

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

وهم في حال قلّة وذلّة فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ وهو اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يُسمَّىٰ بدراً، فَسُمِّي به. أو ذكر بدراً بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ لقلّة العَدَد ـ فإنهم كانوا ثلاثمئة وبضعة عشر، وكان عدوّهم زهاء ألف مقاتل ـ والعُدَد فإنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد، ومع عدوِّهم مئة فرس، والشِّكّة والشوكة. وجاء بجمع القلة، وهو «أذلة»؛ ليدلَّ على أنهم على ذلَّتهم كانوا قليلاً ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ ـ ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ظرف لنصركم على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أي: نصركم الله وقت مقالتكم هذه، أو: بدل ثان من «إذ غدوت»، على أن يقول لهم ذلك يوم أحد ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ ﴿منَزَّلين﴾: شامي. ﴿منزِلين﴾: أبو حيوة، أي: النُّصرة. ومعنى ألن يكفيكم: إنكار ألا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وجيء بلن الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلَّتهم، وضعفهم، وكثرة عدوهم وشوكته كالآيسين من النصر.

١٢٥ ـ ﴿ بَلَىٰ ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي: يكفيكم الإمداد بهم. فأوجب الكفاية، ثمّ قال: ﴿ إِن تَصْبِرُوا ﴾ على القتال ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ خلاف الرسول ﷺ ﴿ وَيَأْتُوكُم ﴾ يعني: المشركين ﴿ مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ هو من فارت القدر: إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت بها الحالة التي لا ريث بها، ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول: من ساعته لم يلبث. ومنه قول الكرخي: الأمر المطلق على الفور لا على التراخي. والمعنى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يعني: أن الله تعالى يعجل نصرتكم، وييسر فتْحكم إن

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

صبرتم واتَّقيتم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو، مكي، وأبو عمرو، وعاصم، وسهل، أي: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرفون بها في الحرب. والسومة: العلامة. عن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها. غيرهم بفتح الواو، أي: معلمين. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وكانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. قال قتادة: نزلت ألفاً فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف.

١٢٦ ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذي دلَّ عليه ﴿أن يمدكم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر، وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة، ولا من عند الملائكة، ولكن ذلك مما يُقوِّي به الله رجاء النصرة، والطمع في الرحمة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب في أحكامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه.

١٢٧ ـ واللام في: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤوساء قريش: متعلقة بقوله: ﴿ولقد نصركم الله﴾ أو بقوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أو: بـ﴿يمددكم ربكم﴾ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو: يخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة. وحقيقة الكبت: شدّة وهن تقع في القلب، فيصرع في الوجه لأجله ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم.

١٢٨ ـ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اسم ليس ﴿شيء﴾ والخبر ﴿لك﴾ ﴿ومن الأمر﴾ حال من شيء؛ لأنها صفة مقدّمة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم﴾. و﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: أنَّ الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرُّوا على الكفر. وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومجاهدتهم. وعن الفراء ﴿أو﴾ بمعنى: حتى. وعن ابن عيسى بمعنى: إلا أن، كقولك: لألزمنك؛ أو تعطيني حقّي. أي: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى؛ لعلمه أنَّ فيهم مَن يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مستحقُّون للتعذيب.

١٢٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأمر ضله لا لك؛ لأنَّ ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ الكافرين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ﴿مُضَعَّفَةً﴾: مكي، وشامي. هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه. كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّيْن محله يقول: إما أن تقضي حقي، أو تربي، وتزيد في الأجل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٣١ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: هي أخوفُ آيةٍ في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفُّرهم على طاعته وطاعة رسول الله، بقوله:

١٣٢ ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفيه ردٌّ على المرجئة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلاً، وعندنا: غير الكافرين

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

من العصاة قد يدخلها، ولكن عاقبة أمره الجنة. وفي ذكره تعالى: «لعل» «وعسى» في نحو هذه المواضع ـ وإن قال أهلُ التفسير: إن لعل وعسى من الله للتحقيق ـ ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله تعالى، وعزة التوصُّل إلى رحمته وثوابه.

١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ سارعوا: مدني، وشامي. فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومن حذفها استأنفها. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يُوصِل إليهما. ثم قيل: هي الصلوات الخمس، أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة، والجماعات ﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض؛ كقوله ﴿ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسط، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض. وما روي: أنَّ الجنة في السماء السابعة، أو في السماء الرابعة، فمعناه أنها في جهتها، لا أنها فيها، أو في بعضها، كما يقال: في الدار بستان، وإن كان يزيد عليها؛ لأنَّ المرادَ: أنَّ بابه إليها ﴿ أُعِدَّتۡ ﴾ في موضع جر صفة لجنة أيضاً، أي: جنة واسعة معدّة ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ ودلّت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان ثمَّ المتقي: من يتقي الشرك، كما قال ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢١] أو: من يتقي المعاصي. فإن كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة، وإن كان الأوّل فهي لهم أيضاً في العاقبة. ويوقف عليه إن جعل ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في حال اليسر والعسر، مبتدأ، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾. وجعل الخبر ﴿أولئك﴾. وإن جعل وصفاً للمتقين، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي: أعدّت للمتقين والتائبين فلا وقف، فإن قلت: الآية تدلُّ على أنَّ الجنة معدّة للمتقين والتائبين

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾

دون المصرِّين، قلت: جاز أن تكون معدَّة لهما، ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما، كما يقال: أعدّت هذه المائدة للأمير، ثم قد يأكلها أتباعه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق؟! وافتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شيء على النفس، وأدلّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدوّ، ومواساة فقراء المسلمين. وقيل: المراد: الإنفاق في جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرَّة ومضرَّة ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ عن الإمضاء. يقال: كظم القربة إذا ملأها، وشدّ فاها، ومنه: كظم الغيظ: وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر، ولا يظهر له أثراً. والغيظ: توقّد حرارة القلب من الغضب. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدرُ على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[(١)] ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عَفَا»[(٢)]. وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد ـ وقد غضب على رجل ـ فخلاّه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس، فيتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. أو: للعهد، فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن الثوري: الإحسان: أن تحسن إلى المسيء فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

١٣٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح. ويجوز أن يكون «والذين» مبتدأ خبره: «أولئك» ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة. أو: الفاحشة: الزنى، وظلم النفس: القبلة، واللمسة، ونحوهما ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بلسانهم، أو قلوبهم ليبعثهم على التوبة ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين. قيل: بكى إبليس حين نزلت

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٦) والترمذي (٢٠٢٢) وابن ماجه (٤١٨٦).
(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧٤٥١).

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ١٣٦ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾

هذه الآية ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿من﴾ مبتدأ، و﴿يغفر﴾ خبره، وفيه ضمير يعود إلى من. و﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير في ﴿يغفر﴾ والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. وفيه تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب ـ وإن جلّت ـ فإنَّ عفوه أجلّ، وكرمه أعظم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم. والإصرار: الإقامة. قال ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[١]. وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[٢] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الضمير في «ولم يصروا» أي: ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم أساؤوا، أو: ﴿وهم يعلمون﴾ أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

١٣٦ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون. ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ برحمته ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات. نزلت في تمّار قال لا مرأة تريد التمر: في بيتي تمر أجود، فأدخلها بيته وضمها إلى نفسه، وقبّلها، فندم. أو: في أنصاري استخلفه ثقفي ـ وقد آخى بينهما النبي ﷺ ـ في غيبة غزوة، فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبّلها، فندم، فساح في الأرض صارخاً، فاستعتبه الله تعالى.

١٣٧ ـ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنّه الله تعالى في

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٤).
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧٩٤٤).

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ

الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فتعتبروا بها.

١٣٨ ـ ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو: ما تقدّم ذكره ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي: إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

١٣٩ ـ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنيمة. أو: على من قتل منكم، أو جرح. وهو تسليةٌ من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد، وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو: ﴿وأنتم الأعلون﴾ بالنصر والظفر في العاقبة. وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. أو: ﴿وأنتم الأعلون﴾ شأناً؛ لأن قتالكم لله، ولإعلاء كلمته، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر. أو: لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي، أي: ﴿ولا تهنوا﴾ إن صحَّ إيمانكم، يعني: أن صحة الإيمان توجب قوّة القلب، والثقة بوعد الله، وقلة المبالاة بأعدائه. أو: بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به، ويُبشِّركم به من الغلبة.

١٤٠ ـ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾(١) بضم القاف حيث كان كوفي، غير حفص. وبفتح القاف غيرهم. وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل: بالفتح: الجراحة، وبالضم: ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: إن نالوا منك يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، لم يمنعهم عن

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿قُرْحٌ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٢/٦٦).

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

معاودتكم إلى القتال، فأنتم أولى ألا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ صفته، والخبر ﴿نداولها﴾ ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نُصرِّفها. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نصرف ما فيها من النعم والنقم، نعطي لهؤلاء تارة، وطوراً لهؤلاء، كبيت الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا ويوماً نُسَاءُ ويوماً نُسَرّ (١)

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: نداولها لضروب من التدبير، وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم، كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وليكرم ناساً منك بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو: ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض. ومعناه: والله لا يحبّ من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيله، وهم: المنافقون، والكافرون.

١٤١ ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ التمحيص: التطهير، والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتَّمييز، والاستشهاد، والتَّمحيص. وإن كانت على الكافرين فلمحقهم، ومحو آثارهم.

١٤٢ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: لاتحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: ولما تجاهدوا؛ لأن العلم متعلق بالمعلوم. فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه؛ لأنه منتفٍ بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيراً، أي: ما فيه خير حتى يعلمه. ولما بمعنى لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقع، فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى، وعلى توقّعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن. والواو بمعنى الجمع، نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. أو: جزم للعطف على يعلم الله. وإنّما

(١) البيت للنمر بن تولب.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

حركت الميم لالتقاء الساكنين. واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها.

١٤٣ ـ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنّون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه، وتعرفوا شدّته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه معاينين، مشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخٌ لهم على تمنّيهم الموت، وعلى ما تسبَّبوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه. وإنما تمنّوا الشّهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفار، كمن شرب الدواء من طبيب نصراني، فإن قصده حصول الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرَّ منفعة إلى عدو الله، وتنفيقاً لصناعته.

١٤٤ ـ لما رمى ابنُ قميئة رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسر رَبَاعيَته، أقبل يريد قتله، فذبَّ عنه مصعب بن عُمَيْر، وهو صاحب الراية، حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه رسول الله ﷺ. فقال: قتلتُ محمداً. وصرخ صارخ ـ قيل: هو الشيطان ـ: ألا إنَّ محمداً قد قُتِل، ففشا في الناس خبر قتله، فانكفؤوا. وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليّ عبادَ الله» حتى انحازتْ إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله! فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبرُ قتلك فولّينا مدبرين، فنزل[1]: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا. وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسّكوا بدينه بعد خلوّه؛ لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى

(١) قال ابن حجر: هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد (حاشية الكشاف ١/ ٤٢١).

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟﴾

التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت، أو قتل، مع علمهم أنَّ خلو الرسل قبله، وبقاء دينهم متمسّكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسُّك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه. والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد، أو عن الانهزام ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما ضرّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا. وسمّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

١٤٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعلمه، أو بأن يأذن لملَكَ الموت في قبض روحه. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله. وفيه تحريضٌ على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك، واقتحم المعارك ﴿كِتَـٰبًا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم، ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة. وهو تعريضٌ بالذين شغلتهم الغنائم يوم أُحُد. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: إعلاء كلمة الله، والدرجة في الآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ وسنجزي الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

١٤٦ ـ ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أيّ، دخل عليه كاف التشبيه، وصارا في معنى كم التي للتكثير. وكائن بوزن كاع حيث كان، مكي ﴿مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ﴾ ﴿قُتِلَ﴾: مكي، وبصري، ونافع ﴿مَعَهُۥ﴾ حال من الضمير في قتل، أي: قتل كائناً معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربّيون: الربانيون. وعن الحسن بضم الراء، وعن البعض بفتحها، فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب، والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ فما فتروا عند قتل نبيهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا

وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

ضَعُفُوا۟﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما خضعوا لعدوّهم. وهذا تعريضٌ بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، واستكانتهم لهم حيث أرادوا أن يعتضدوا بابن أُبيٍّ في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

١٤٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: وما كان قولهم إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم، مع كونهم ربّانيين، هضماً لها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حدّ العبودية ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في القتال. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالغلبة. وقدّم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة؛ لما فيه من الخضوع والاستكانة.

١٤٨ ـ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرة، والظفر، والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة. وخُصّ بالحسن دلالة على فضله، وتقدمه، وأنه هو المعتدّ به عنده ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هم محسنون، والله يحبهم.

١٤٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ قيل: هو عامّ في جميع الكفار. وعلى المؤمنين أن يجانبوهم، ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه، وتستأمنوهم، يردوكم إلى دينهم. وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم.

١٥٠ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم، فاستغنوا عن نصرة غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾

١٥١ ـ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الرعُب: شامي، وعليّ. وهما لغتان. قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد، فانهزموا إلى مكة من غير سبب، ولهم القوة والغلبة ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ آلهة لم ينزّل الله بإشراكها حجّة. ولم يردْ أن هناك حجّة إلا أنها لم تنزل عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيم أن تقومَ عليه حجّة. وإنما المرادُ: نفي الحجّة ونزولها جميعاً، كقوله:

.... ولا تَـرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِر (١)

أي: ليس بها ضب فينجحر، ولم يعن: أن بها ضباً ولا ينجحر ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ ومرجعهم ﴿النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذمّ محذوف.

١٥٢ ـ ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فنزل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلاً ذريعاً. وعن ابن عيسى: حسّه: أبطل حسّه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره، وعلمه ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم. ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم المركز، واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، وقهر الكفار. ومتعلق إذا محذوف تقديره: ﴿حتى إذا فشلتم﴾ منعكم نصره. وجاز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.

مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة.

رُوي أن رسولَ الله ﷺ جعل أُحُداً خلف ظهره، واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم، ولا يبرحوا؛ كانت الدَّولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف، حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، حتى إذا فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا؟ فادخلوا عسكر المسلمين، وخذوا الغنيمة مع إخوانكم. وقال بعضهم: لا تخالِفُوا أَمْرَ رسول الله ﷺ. فممن ثبت مكانه: عبد الله بن جبير ـ أمير الرماة ـ في نفر دون العشرة، وهم المعنيّون بقوله ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كف معونته عنكم، فغلبوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم عندها. وحقيقته: ليعاملكم معاملة المختبر؛ لأنه يجازي على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم، وقبول توبتهم. أو: هو متفضل عليهم في جميع الأحوال، سواء أديل لهم، أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة، كما أن النصرة رحمة.

١٥٣ ـ وانتصب ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض. والإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد فيه. بصرفكم، أو بقوله: ﴿ليبتليكم﴾ أو بإضمار: اذكروا ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفتون. وهو عبارة عن غاية انهزامهم، وخوف عدوّهم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول: «إليَّ عباد الله! أنا رسول الله! من يكرّ فله الجنة».

﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾

والجملة في موضع الحال ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ في ساقتكم، وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أوّلهم، وأولاهم؛ بتأويل مقدمتهم، وجماعتهم الأولى ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غَمَّۢا﴾ حين صرفكم عنهم، وابتلاكم. ﴿بِغَمّٖ﴾ بسبب غمّ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم أمره، أو: غمّاً مضاعفاً، غماً بعد غم، وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أُرجف به من قتل رسول الله ﷺ، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ لتتمرّنوا على تجرع الغموم، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عالم بعملكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب في الطاعة، وترهيب عن المعصية.

١٥٤ ـ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ ثم أنزل الله الأمن على المؤمنين، وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم، حتى نعَسوا، وغلبهم النوم. عن أبي طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافّنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه[1]. والأمنة: الأمن. و﴿نعاساً﴾ بدل من أمنة. أو هو مفعول، و﴿أمنة﴾ حال منه مقدمة عليه، نحو: رأيت راكباً رجلاً. والأصل: أنزل عليكم نعاساً ذا أمنة، إذ النعاس ليس هو الأمن. ويجوز أن يكون «أمنة» مفعولاً له، أو حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبارّ وبررة ﴿يَغۡشَىٰ﴾ يعني: النعاس. «تغشى» بالتاء والإمالة: حمزة، وعليّ، أي: الأمنة ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ هم أهل الصدق، واليقين ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ هم المنافقون ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ ما يهمّهم إلا همّ أنفسهم وخلاصها، لا همّ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٢).

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾

الدين، ولا همّ رسول الله ﷺ والمسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجبُ أن يظنّ به. وهو ألا ينصر محمداً ﷺ ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل منه. والمراد: الظن المختص بالملة الجاهلية. أو: ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون: النصر، والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: النصر، والغلبة ﴿كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كلَّه﴾ تأكيد للأمر و﴿لله﴾ خبر إن ﴿كلُّه﴾ بصري. وهو مبتدأ، و﴿لله﴾ خبره، والجملة خبر إن. ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفاً من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو بعضهم لبعض، منكرين لقولك لهم: ﴿إن الأمر كله لله﴾ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد ﴿إن الأمر كله لله﴾ ولأوليائه، وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قُتِل من المسلمين من قُتِل في هذه المعركة. ﴿قد أهمتهم﴾ صفة لطائفة. و﴿يظنون﴾ خبر لطائفة، أو صفة أخرى، أو حال، أي: قد أهمتهم أنفسهم ظانين. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يظنون﴾. و﴿يخفون﴾ حال من ﴿يقولون﴾. و﴿قل إن الأمر كله لله﴾ اعتراض بين الحال وذي الحال. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يخفون﴾ أو استئناف ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي: مَن علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة، وكتب ذلك في اللوح، لم يكن بُدٌّ من وجوده. فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم بأحد، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾

ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيصٌ لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح جمة، وللابتلاء، والتمحيص ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

١٥٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾ انهزموا ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد ﷺ وجمع أبي سفيان للقتال بأُحُد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ دعاهم إلى الزلّة، وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب، والتعليل بكسبهم وَعْظ وتأديب. وكان أصحاب محمد ﷺ تولوا عنه يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلاً، منهم: أبو بكر، وعليّ، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

١٥٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كابن أُبيّ وأصحابه ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم في النسب، أو: في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة، أو غيرها ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ جمع غاز، كعاف وعفًّى، وأصابهم موت، أو قتل ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام تتعلق بـ«لا تكونوا»، أي: لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول، واعتقاده؛ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة، ويصون منها قلوبكم. أو: بـ«قالوا»، أي: قالوا ذلك، واعتقدوه؛ ليكون ذلك حسرة في قلوبهم. والحسرة: الندامة على فوت المحبوب ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردّ لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والمقاتل، ويميت

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

المقيم والقاعد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم. يعملون: مكي، وحمزة، وعليّ، أي: الذين كفروا.

١٥٧ ـ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ «متم» وبابه بالكسر، نافع، وكوفي، غير عاصم. تابعهم حفص إلا في هذه السورة، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم بضم الميم في جميع القرآن. فالضم من: مات يموت. والكسر: من مات يمات كخاف يخاف، فكما تقول: خفت، تقول: مت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف. وبالياء: حفص[(١)].

١٥٨ ـ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة، المثيب، العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غني عن البرهان. «لمغفرة» جواب القسم، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط. وكذلك ﴿لإلىٰ الله تحشرون﴾. كذّب الكافرين أولاً في زعمهم: أن من سافر من إخوانهم، أو غزا، لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سببُ التقاعد عن الجهاد. ثم قال لهم: ولئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت، أو القتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا؛ لأن الدنيا زاد المعاد، فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتج إلى الزاد.

١٥٩ ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ «ما» مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه، وتوفيقه

(١) أشار المصنف ـ رحمه الله ـ إلى قراءة حفص المثبتة في النص، وأما قراءة «تجمعون» بالتاء، فهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾

للرفق، والتلطف بهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحدٌ منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يوم أحد مما يختصُّ بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختصُّ بحقِّ الله، إتماماً للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي تطييباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، ورفعاً لأقدارهم، ولتقتدي بك أمتك فيها. في الحديث: «ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»[(١)]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ[(٢)]. ومعنى: شاورت فلاناً: أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي، وشرت الدابة: استخرجت جريها. وشرت العسل: أخذته من مآخذه. وفيه دلالةُ جواز الاجتهاد، وبيان أن القياسَ حُجَّة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد، لا على المشورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، والتوكل: الاعتماد على الله، وتفويض الأمر إليه. وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

١٦٠ ـ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. وإنما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوته، واستعصم بربه وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، وهو: ترك المعونة؛ أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من

---

(١) قال ابن حجر: المحفوظ عن الحسن. ورواه الطبري موقوفاً عليه في التفسير (٤/ ١٥٢).

(٢) قال ابن حجر: هذا فيه تحريف، والصواب: من رسول الله ﷺ لأصحابه. رواه الترمذي بإثر حديث (١٧١٤) في الجهاد.

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ
كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

بعد فلان، تريد: إذا جاوزته. وهذا تنبيهٌ على أنَّ الأمر كله لله، وعلى وجوب التوكل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخص المؤمنون ربَّهم بالتوكل والتفويض إليه، لعلمهم: أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

١٦١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ مكي، وأبو عمرو، وعاصم، أي: يخون. وبضم الياء وفتح الغين غيرهم. يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلولاً، وأغل إغلالاً: إذا أخذه في خفية، ويقال: أغله إذا وجده غالاً. والمعنى: ما صح له ذلك، يعني: أن النبوة تنافي الغلول. وكذا من قرأ على البناء للمفعول، فهو راجع إلى هذا لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا ان غالاً. رُوي أن قطيفةً حمراء فُقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعضُ المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فنزلت الآية[1] ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يأت بالشيء الذي غلّه بعينه، حاملاً له على ظهره، كما جاء في الحديث[2]؛ أو: يأت بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تُعطى جزاءها وافياً. ولم يقل: ثم يوفى ما كسب ـ ليتصل بقوله: ومن يغلل ـ بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى. وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال: أنَّ كلَّ كاسب خيراً أو شراً مجزي فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلّص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: جزاء كلّ على قدر كسبه.

١٦٢ ـ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رضا الله. قيل: هم المهاجرون والأنصار ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكُفَّار ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٩).
(٢) رواه أحمد (٢/٤٢٦) والبخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١).

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

١٦٣ ـ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات. أو: ذوو درجات. والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها، فيجازيهم على حسابها.

١٦٤ ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه. وخصّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربياً مثلهم. أو: من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده. والمنة في ذلك من حيث إنه إذا [كان منهم](١) كان اللسان واحداً، فيسهل أخذ ما يجبُ عليهم أخذه عنه. وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم. وفي قراءة رسول الله من أنفسهم، أي: من أشرفهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم بالإيمان من دنس الكفر والطغيان، أو: يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﷺ. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ عمى، وجهالة ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شُبهة فيه. إن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والتقدير: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مبين.

١٦٥ ـ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد مِن قَتْل سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين. وهو في موضع رفع صفة لمصيبة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ

لاختياركم الخروج من المدينة، أو لترككم المركز ﴿لما﴾ نصب بقلتم، و﴿أصابتكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أنى هذا﴾ نصب؛ لأنه مقول. والهمزة: للتقرير والتقريع. وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أو على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا، وقلتم حينئذ كذا؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على النصر وعلى منعه.

١٦٦ ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ «ما» بمعنى الذي، وهو مبتدأ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأُحد. والخبر: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله، أي: بعلمه، وقضائه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦٧ ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ وهو كائن؛ ليتميز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين، وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي: قاتلوا دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، إن لم تُقاتلوا للآخرة. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما تُروِّع العدو ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي: لو نعلم ما يصحّ أن يُسمَّى قتالاً لاتبعناكم. يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم ليس بشيء، ولا يقال لمثله: قتال، إنما هو: إلقاء النفس في التهلكة ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ يعني: أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يضمرون من

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

الإيمان وغيره. والتقييد بالأفواه للتأكيد، ونفي المجاز ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

١٦٨ ـ ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: ابن أبيّ وأصحابه. وهو في موضع رفع على «هم الذين قالوا». أو: على الإبدال من واو «يكتمون». أو نصب بإضمار: أعني. أو على البدل «من الذين نافقوا». أو جرّ على البدل من الضمير في «أفواههم» أو قلوبهم ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أُحُد ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود، ووافقونا فيه، لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر، فخذوا حذركم من الموت. أو: معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً، وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً. ورُوي أنه مات يوم قالوا هذه المقال سبعون منافقاً.

١٦٩ ـ ونزل في قتلى أُحُد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ شامي، وحمزة، وعلي، وعاصم، وبكسر السين غيرهم. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ قُتّلوا، شامي ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مقرّبون عنده، ذوو زلفى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيدٌ لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعّم برزق الله.

١٧٠ ـ ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وهو التوفيق في الشهادة، وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقرّبين، معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وقال النبي ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تدور في أنهار

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾

الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»[١]. وقيل: هذا الرزق في الجنة يوم القيامة. وهو ضعيف؛ لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم، وهم قد تقدّموهم. أو: ﴿لم يلحقوا بهم﴾: لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو: أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشّرهم الله بذلك، فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٧١ ـ ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يسرون بما أنعم الله عليهم، وما تفضَّل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. و﴿إن الله﴾ عليّ، بالكسر على الاستئناف، وعلى أن الجملة اعتراض ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُوفّر عليهم.

١٧٢ ـ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿للذين أحسنوا﴾ أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجرح. رُوي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أُحد، فبلغوا الروحاء ندموا، وهمّوا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب النبيُّ أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠).

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ

فذهبوا. فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ «من» للتبيين، مثلها في قوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٧٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدل من الذين استجابوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ رُوي أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد! موعدنا موسم بدر القابل. فقال ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى اللهُ الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي ـ وقد قدم معتمراً ـ فقال: يا نعيم! إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر. وقد بدا لي أن أسلم فالحق بالمدينة، فثبطهم، ولك عندي عشرة من الإبل. فخرج نعيم، فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم؟! فو الله لا يفلت منكم أحد. فقال ﷺ: «والله لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً، وهم يقولون: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ حتى وافوا بدراً، وأقاموا بها ثماني ليال. وكانت معهم تجارة فباعوها، وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ولم يكن قتال، ورجع أبو سفيان إلى مكة. فسمّى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السويق[١]. فالناس الأول: نعيم، وهو جمع أريد به الواحد. أو كان له أتباع يثبطون مثل تثبيطه. والثاني: أبو سفيان وأصحابه ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: المقول الذي هو: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ أو: القول، أو: نعيم ﴿إِيمَٰنًا﴾ بصيرة، وإيقاناً ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله، أي: الذي يكفينا الله. يقال: أحسبه الشيء: إذا كفاه، وهو بمعنى المحسب، بدليل أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛

(١) رواه ابن سعد من طريق ابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وغيرهما. (حاشية الكشاف ١/ ٤٤١).

وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

لأن إضافته غير حقيقية لكونه في معنى اسم الفاعل ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو.

١٧٤ ـ ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي السلامة، وحذرُ العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة، فأصابوا بالدرهم درهمين ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوؤهم من كيد عدوّ. وهو حال من الضمير في ﴿انقلبوا﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ والتقدير: فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بجراءتهم، وخروجهم إلى وجه العدوّ على أثر تثبيطه. وهو معطوف على انقلبوا ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا.

١٧٥ ـ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ هو خبر ﴿ذلكم﴾ أي: ﴿إنما ذلكم﴾ المثبط هو ﴿الشيطان﴾ وهو نعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: المنافقين. وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو: ﴿الشيطان﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿يخوف﴾ الخبر ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءه ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي أن يؤثر العبدُ خوفَ الله على خوف غيره. وخافوني في الوصل والوقف، سهل ويعقوب. وافقهما أبو عمرو في الوصل.

١٧٦ ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ يُحزنك في كل القرآن: نافع، إلا في سورة الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: لا يحزنوك لخوف أن يضروك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: أولياء الله، يعني: أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بيّن كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: نصيباً من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضرَّ به الإنسان نفسه. والآية تدلُّ على إرادة الكفر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾

والمعاصي؛ لأن إرادته ألا يكون لهم ثواب في الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم، ومعاصيهم.

١٧٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: استبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ هو نصب على المصدر، أي: شيئاً من الضرر. الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين، أو ارتد عن الإسلام، والثانية في جميع الكفار. أو على العكس ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

١٧٨ ـ ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء في ﴿يحسبنهم﴾ بالياء مكي، وأبو عمرو. وكلها بالتاء حمزة. وكلها بالياء مدني، وشامي إلا: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإنها بالتاء. الباقون: الأوليان بالياء، والأخريان بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فيمن قرأ بالياء رفع، أي: ولا يحسبن الكافرون. وأنَّ مع اسمه وخبره في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡ﴾ في موضع المفعولين ليحسبن، والتقدير: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ إملاءنا خيراً لأنفسهم. و«ما» مصدرية، وكان حقّها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة، فلا يخالف. وفيمن قرأ بالتاء نصب، أي: ولا تحسبن الكافرين. و﴿أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل من الكافرين، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم. وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين. والإملاء لهم: إمهالهم، وإطالة عمرهم ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا﴾ «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة؛ لأنها كافة دون الأولى. وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم؟ فقيل: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾. والآية حجة لنا على المعتزلة في مسألتي الأصلح، وإرادة المعاصي ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

١٧٩ ـ اللام في: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من اختلاط

حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

المؤمنين الخلّص والمنافقين؛ لتأكيد النفي ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص ﴿يُمَيِّزَ﴾: حمزة، وعليّ. والخطاب في ﴿أنتم﴾ للمصدقين من أهل الإخلاص والنفاق. كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه، وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتي أحداً منك علم الغيوب، فلا تتوهّموا عند إخبار الرسول بنفاق الرجل، وإخلاص الآخر، أنه يطّلع على ما في القلوب اطّلاع الله، فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه، ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق، وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حُجّة على الباطنية، فإنهم يدّعون ذلك العلم لإمامهم، فإن لم يثبتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص، حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسل. وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر، وهو قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفة الإخلاص. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٨٠ ـ ونزل في مانعي الزكاة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من قرأ بالتاء قدّر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الباخلين. و﴿هو﴾ فصل. و﴿خيراً لهم﴾ مفعول ثان. وكذا من قرأ بالياء، وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان التقدير: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ وهو: فصل، وخيراً لهم: مفعول ثان ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم وبالُ البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفسير لقوله ﴿بل هو شر لهم﴾ أي: سيجعل مالهم الذي منعوه عن الحق طوقاً في أعناقهم، كما جاء في الحديث: «من منع زكاة ماله يصير حية ذكراً أقرع له نابان فيطوّق في عنقه فينهشه ويدفعه إلى النار»(١) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه في سبيل الله؟! والأصل في ميراث: موراث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء مكي، وأبو عمرو، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد. والياء على الظاهر.

١٨١ ـ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذاً أغنياء وهو فقير. ومعنى سماع الله له، أنه لم يَخْفَ عليه، وأنه أعدَّ له كفاء من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف. أو: سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه، فَسُمِّي به مجازاً. و«ما» مصدرية، أو: بمعنى الذي ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على ما. جَعَل قتلهم الأنبياء قرينة له، إيذاناً بأنهما في العِظَم أخوان، وأن من قَتَلَ الأنبياء لم يستبعدْ منه الاجتراء على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار كما أذقتم المسلمين الغصص. قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنة جهنم. وإنما أضيف إلى الله تعالى؛ لأنه بأمره كما في قوله: ﴿سنكتب﴾. ﴿سيُكتَب﴾، ﴿وقتلُهم﴾، ويقول: حمزة.

١٨٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذاب بما قدّمتم من الكفر والمعاصي. والإضافة إلى اليد؛ لأن أكثر

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٢٠) والبخاري (١٤٠٢) والنسائي (٦/ ٢٣ـ٢٤) وابن ماجه (١٧٨٦).

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

الأعمال يكون بالأيدي، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. ولأنه يقال للأمر بالشيء: فاعله، فذكر الأيدي للتحقيق، يعني: أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده، فلا يعاقبهم بغير جرم.

١٨٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ في موضع جر على البدل من ﴿الذين قالوا﴾. أو: نصب بإضمار: أعني. أو: رفع بإضمار: هم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ بألا نؤمن. ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: يقرّب قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله، فإن جئتنا به صدقناك. وهذه دعوى باطلة، وافتراء على الله؛ لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتي به؛ لكونه معجزة، فهو إذاً وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: بالقربان. يعني: قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم، وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا، فلم لم تؤمنوا بالذين أتوا به؟! ولم قتلتموهم؟! ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إنما نؤخر الإيمان لهذا.

١٨٤ ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود، فلا يهولنك، فقد فعلت الأمم بأنبيائها كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظَّاهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب، جمع زبور، من الزبر، وهو: الكتابة. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ شامي ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ جنسه. ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ المضيء. قيل: هما واحد في الأصل. وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين. فالزبور: كتاب فيه حكم زاجرة. والكتاب المنير هو: الكتاب الهادي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾

١٨٥ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم. والمعنى: لا يحزنك تكذيبهم إياك، فمرجع الخلق إليّ، فأجازيهم على التكذيب، وأجازيك على الصَّبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة؛ فإنَّ الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بعد، والزحزحة: الإبعاد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير. وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق. وقيل: الفوز: نيل المحبوب، والبعد عن المكروه ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبّه الدنيا بالمتاع الذي يدلَّس به على المستام ويغرّ، حتى يشتريه، ثم يتبيَّن له فساده ورداءته. والشيطان: هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة. فأما مَن طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ. وعن الحسن: كخضرة النبات، ولعب البنات، لا حاصل لها.

١٨٦ ـ ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ﴾ والله لتبلونّ، أي: لتختبرن ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالإنفاق في سبيل الله، وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وهذه الآية دليلٌ على أنَّ النفسَ هي الجسم المعاين دون ما فيه من المعنى الباطن، كما قال بعضُ أهل الكلام والفلاسفة، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ كالطعن في الدين، وصدّ من أراد الإيمان، وتخطئة مَن آمن، ونحو ذلك. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ فإنَّ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور. خوطب المؤمنون بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها ـ لقوها وهم مستعدون ـ لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة، فينكرها، وتشمئزّ منها نفسه.

١٨٧ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ واذكروا وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عن الناس. بالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: ٤]. وبالياء: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر؛ لأنه غيب. والضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاق، وتأكيده عليهم، أي: لم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه. والنبذ وراء الظهر مثلٌ في الطرح، وترك الاعتداد. وهودليلٌ على أنه يجب على العلماء أن يُبيِّنوا الحقَّ للناس، وما علموه، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، أو لجرّ منفعة، أو دفع أذية، أو لبخل بالعلم. وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله ألجمه الله بلجام من نار»(١) ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

١٨٨ ـ والخطاب في: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني ﴿بمفازة﴾ وقوله: ﴿فلا تحسبنهم﴾ تأكيد. تقديره: لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما فعلوا، وهي قراءة أبي. وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. وقرأ النخعي: بما آتوا، أي: أعطوا ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣) وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة، فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم فأطلع اللهُ رسوله على ذلك؛ وسلاّه بما أنزل مِن وعيدهم. أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه، ناجين من العذاب. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين، وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة. وفيه وعيدٌ لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه.

١٨٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ على عقابهم.

١٩٠ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ لأدلة واضحة على صانع قديم، عليم، حكيم، قادر ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللبّ عن القشر. فيرى أن العرضَ المحدث في الجواهر يدلُّ على حدوث الجواهر؛ لأن جوهراً ما لا ينفك عن عرض حادث، وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث. ثم حدوثها يدلُّ على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى مالا يتناهى. وحسن صنعه يدلُّ على علمه، وإتقانه يدلُّ على حكمته، وبقاؤه يدلُّ على قدرته. قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[(١)]. وحُكي أنه كان في بني إسرائيل من إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلَّته سحابة، فعبده فتى فلم تظلّه، فقالت له أمه: لعلَّ فرطةً فرطت منك في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٤٠٩).

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

مدتك؟! قال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر؟! قال: لعل. قالت: فما أُوتيت إلا من ذاك.

١٩١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع جر نعت لـ: «أولي»، أو نصب بإضمار أعني، أو رفع بإضمار هم ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يصلّون ﴿قِيَٰمٗا﴾ قائمين عند القدرة ﴿وَقُعُودٗا﴾ قاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي: مضطجعين عند العجز. وقياماً وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في ﴿يذكرون﴾. و﴿على جنوبهم﴾ حال أيضاً. أو: المراد الذكر على كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال. وفي الحديث: «من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[1] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وما يدلُّ عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعتها، وما دبرّ فيها مما تكلُّ الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، من عظم شأن الصانع، وكبرياء سلطانه. وعن النبي ﷺ: «بينا رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه، فنظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له»[2]. وقال ﷺ: «لا عبادة كالتفكر»[3]. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ أي: يقولون ذلك. وهو في محل الحال، أي: يتفكرون قائلين. والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقته لحكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة لهم على معرفتك. وهذا إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق، كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الوصف بخلق الباطل. وهو اعتراض ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك فقنا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٣٠٢).
(٢) رواه الثعلبي. حاشية الكشاف (١/٤٥٤).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٤٨).

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ

١٩٢ ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أهنته، أو أهلكته، أو فضحته. واحتج أهلُ الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] في أنَّ من يدخل النار لا يكون مؤمناً ويخلد. قلنا: قال جابر: إخزاء المؤمن تأديبه، وإن فوق ذلك لخزياً ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، والمراد: الكفار ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾ من أعوان وشفعاء يشفعون لهم كالمؤمنين.

١٩٣ ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف لم يكن منه بُدٌّ، وأن يقال: سمعت كلام فلان، والمنادي هو الرسول ﷺ، أو القرآن ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي، إذ لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ بأن آمنوا، أو: أي: آمنوا ﴿بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: فيه دليلُ بطلان الاستثناء في الإيمان ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم. والأبرار: المتمسكون بالسنة، جمع بر، أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب.

١٩٤ ـ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على تصديق رسلك، أو: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو: على ألسنة رسلك. و﴿على﴾ متعلق بوعدتنا. والموعود هو الثواب، أو النصرة على الأعداء. وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله ـ والله لا يخلف الميعاد ـ لأن معناه: طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. أو: المراد: اجعلنا ممن لهم الوعد إذ الوعد غير مبيَّن لمن هو. أو: المراد ثبتنا على ما يوصلنا إلى عدتك، يؤيده قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾

أو: هو إظهار للخضوع والضراعة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ هو مصدر بمعنى الوعد.

١٩٥ ـ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجاب، يقال: استجاب له، واستجابه ﴿أَنِّي﴾ بأني. ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ صفة لعامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعامل ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، كلكم بنو آدم. أو: بعضكم من بعض في النصرة والدين. وهذه جملة معترضة بُيِّنَتْ بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين. عن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا... أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد. وقرأ الآيات ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ مبتدأ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم، على سبيل التعظيم له، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم، فارّين إلى الله بدينهم إلى حيث يأمنون عليه. فالهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ التي وُلدوا فيها ونشؤوا ﴿وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم، والضرب، ونهب المال. يريد: سبيل الدين ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا ﴿وقُتِّلوا﴾: مكي، وشامي. (وقتلوا وقاتلوا) على التقديم والتأخير، حمزة، وعلي. وفيه دليل على أنَّ الواو لا توجب الترتيب. والخبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو جواب قسم محذوف ﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد، يعني: إثابة، أو تثويباً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لأن قوله: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم﴾ في معنى: لأثيبنهم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: يختص به، ولا يقدر عليه غيره.

١٩٦ ـ ورُوي أنَّ طائفةً من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع، فنزل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ

والخطاب لكلِّ أحد. أو للنبي ﷺ، والمراد به غيره. أو: لأن مِدرَة[1] القوم ومقدّمهم يخاطب بشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم. أو: لأنَّ رسولَ الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكّد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦].

١٩٧ ـ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: تقلُّبهم في البلاد متاع قليل. وأراد: قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو: في جنب ما أعدَّ الله للمؤمنين من الثواب، أو: أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه، وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

١٩٨ ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ عن الشرك ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ النُّزُل والنُّزْل: ما يقام للنازل. وهو حال من جنات لتخصُّصها بالصفة، والعامل اللام في «لهم»؛ أو: هو مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً، أو: عطاء ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلّب فيه الفجار من القليل الزائل. «لكن» بالتشديد: يزيد. وهو للاستدراك، أي: لا بقاء لتمتعهم، لكن ذلك للذين اتقوا.

١٩٩ ـ ونزلت في ابن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، أو: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، وكانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن

---

(١) جاء في حاشية الأصل المخطوط: مِدَرَة القوم: سيّدهم.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن؛ لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم، وهو حال بعد حال، أي: غير مشترين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر. وهو ما وُعدوه في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه في كلِّ شيء.

٢٠٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على الدِّين وتكاليفه. قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الصبر: حبس النفس على المكروه بنفي الجزع ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أعداء الله في الجهاد، أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقلّ صبراً منهم وثباتاً ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين، مستعدين للغزو ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه. ولعل: لتغييب المآل لئلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال. وقيل: اصبروا في محبتي، وصابروا في نعمتي، ورابطوا أنفسكم في خدمتي، ﴿لعلكم تفلحون﴾: تظفرون بقربتي.

قال النبي ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو: غيايتان، أو: فرقان من طير صوافّ، تحاجّان عن أصحابهما»[١]. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) رواه مسلم (٨٠٤). «كأنهما غمامتان أو غيايتان»: الغمامة والغياية: كل شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه: سحابة وغبرة وغيرهما. «أو فرقان من طير صوافّ»: الفِرقان: القطعتان أو الجماعتان. و«طير صواف»: هي التي تبسط أجنحتها في الهواء. «تحاجان»: تدافعان، وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة.

سُورَةُ النِّسَاءِ

آياتها ١٧٦ — ترتيبها ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فرّعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة، أنشأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعَّبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [ونشر من آدم وحواء﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كثيرة، أي: وبثّ منهما نوعي جنس الإنس، وهما: الذكور والإناث][(١)]. فوصفها بصفةٍ هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها. أو: على خلقكم، والخطاب في ﴿يا أيها الناس﴾ للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: خلقكم مِن نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء غيركم من الأمم الفائتة للحصر. فإنْ قلت: الذي تقتضيه جزالة النظم أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدعو إليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التنصيل الذي ذكره داعياً إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدلُّ على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾

الكفار والفجار، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه، ويخشى عقابه؛ ولأنه يدلُّ على النعمة السابغة عليهم، فحقّهم أن يتقوه في كفرانها. قال ﷺ عند نزول الآية: «خُلقت المرأة من الرجل فهمّها في الرجل، وخلق الرجل من التراب فهمّه في التراب»[(١)] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾[(٢)] والأصل: تتساءلون، فأدغمت التاء في السين بعد إبدالها سيناً لقرب التاء من السين للهمس. «تساءلون به» ـ بالتخفيف ـ كوفي، على حذف التاء الثانية استثقالاً لاجتماع التاءين. أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم، فيقول: بالله وبالرحم افعل كذا، على سبيل الاستعطاف ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم الله تعالى، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أو على موضع الجار والمجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً. أو: بالجر، حمزة، على عطف الظاهر على الضمير، وهو ضعيف؛ لأن الضمير المتصل كاسمه متصل، والجار والمجرور كشيء واحد، فأشبه العطف على بعض الكلمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ حافظاً أو عالماً.

٢ ـ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ يعني: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتم: الانفراد، ومنه: الدرة اليتيمة. وقيل: اليتم في الأناسي من قبَل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. وحقّ هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار؛ لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسمُّوا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد الحلم»[(٣)] تعليم شريعة لا لغة. يعني: أنه إذا احتلم لم تجرِ عليه أحكامُ الصغار. والمعنى: وآتوا اليتامى أموالهم بعد

(١) ذكره السيوطي في (الدر المنثور ٢/٤٢٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تسَّاءلون﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٠٣/٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٣).

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

البلوغ. وسمّاهم يتامى لقرب عهدهم ـ إذا بلغوا ـ بالصغر. وفيه إشارة إلى ألا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حدِّ البلوغ إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصِّغار ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام ـ وهو مال اليتامى ـ بالحلال ـ وهو مالكم ـ أو: لا تستبدلوا الأمر الخبيث ـ وهو اختزال أموال اليتامى ـ بالأمر الطيب ـ وهو حفظها، والتورُّع عنها ـ. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز، ومنه التعجل بمعنى الاستعجال ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف، وهو في موضع الحال، أي: مضافة إلى أموالكم. والمعنى: ولا تضمُّوها إليها في الإنفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحلُّ لكم، وتسوية بينه وبين الحلال ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ أكلها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً.

٣ ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ أي: لا تعدلوا. أقسط، أي: عدل ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [يقال للإناث اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة ويتيم، وأما أيتام فجمع يتيم لا غير][1] ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ ما حلَّ لكم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ لأنَّ منهن ما حرم الله كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ﴿مَا﴾ ذهاباً إلى الصفة؛ لأنَّ «ما» يجيءُ في صفات من يعقل، فكأنه قيل: الطَّيبات من النساء. ولأنَّ الإناثَ من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾. قيل: كانوا لا يتحرَّجون من الزنى، ويتحرَّجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتم الجور في حقِّ اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حلَّ لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات. أو: كانوا يتحرَّجون من الولاية في أموال اليتامى، ولا يتحرَّجون من الاستكثار من النساء، مع أنَّ الجورَ يقعُ بينهن إذا كثرن، فكأنه قيل: إذا تحرَّجتم من هذا فتحرَّجوا من ذلك. وقيل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في﴾ نكاح ﴿اليتامى فانكحوا﴾ من البالغات. يقال: طابت الثمرة،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

أي: أدركت ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ نكرات. وإنما مُنعت الصرف للعدل والوصف، وعليه دلَّ كلام سيبويه. ومحلُّهن النصب على الحال من النساء، أو مما طاب، تقديره: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. فإن قلت: الذي أطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع، فوجب التكرير ليصيب كلُّ ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له. كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال ـ وهو ألف درهم ـ درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. وجيء بالواو لتدلَّ على تجويز الجمع بين الفرَق، ولو جيء بأو مكانها لذهب معنى التجويز ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فالزموا، أو: فاختاروا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ سوى في اليسر بين الحرَّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتَّسرِّي ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من ألا تميلوا ولَا تجوروا. يقال: عال الميزان عولاً: إذا مال، وعال الحاكم في حكمه: إذا جار. ويُحكى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه فسَّر ﴿ألا تعولوا﴾: ألا تكثر عيالكم. واعترضوا عليه بأنه يقال فيه أعال يعيل: إذا كثر عياله. وأجيب بأن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولك: مانهم يمونهم: إذا أنفق عليهم؛ لأنَّ مَن كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعّب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال. وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، كأنه سلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

٤ ـ ﴿وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ مِن: نحله كذا: إذا أعطاه إياه، ووهبه له عن طيبة من نفسه، نحلةً ونحلاً. وانتصابها على المصدر؛ لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكأنه قال: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم. أو: على الحال من المخاطبين، أي:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾

آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالإعطاء. أو: من الصدقات، أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل: نحلة من الله تعالى: عطية من عنده وتفضُّلاً منه عليهن. وقيل: النحلة: الملة، وفلان ينتحل كذا، أي: يدين به، يعني: وآتوهن مهورهن ديانة، على أنها مفعول لها. والخطاب للأزواج، وقيل،: للأولياء؛ لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواج ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الصداق، إذ هو في معنى الصدقات ﴿نَفْسًا﴾ تمييز. وتوحيدها لأنَّ الغرضَ بيانُ الجنس، والواحد يدل عليه. والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق، وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم، وسوء معاشرتكم. وفي الآية دليلٌ على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس، فقيل: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم[1] إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة ﴿فَكُلُوهُ﴾ الهاء تعود على شيء ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا إثم فيه ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ لا داء فيه. فسّرهما النبي ﷺ. أو: هنيئاً في الدنيا بلا مطالبة، مريئاً في العقبى بلا تبعة. وهما صفتان من: هنؤ الطعام ومرؤ؛ إذا كان سائغاً لا تنغيصَ فيه. وهما وصف مصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير، أي: كلوه، وهو هنيء مريء. وهذه عبارةٌ عن المبالغة في الإباحة، وإزالة التبعة. هنياً مرياً بغير همز: يزيد. وكذا حمزة في الوقف. وهمزهما الباقون. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إذا اشتكى أحدُكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، ثم ليشتر بها عسلاً فليشربه بماء السماء، فيجمع الله له هنيئاً ومريئاً وشفاء ومباركاً.

٥ ـ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا قدرة لهم على إصلاحها، وتثميرها، والتصرف فيها. والخطاب للأولياء. وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء؛ بقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لأنهم يلونها،

(١) من المطبوع.

﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۝٦﴾

ويمسكونها. ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي: قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم. ﴿قِيماً﴾ بمعنى قياماً، نافع وشامي، كما جاء عوذاً بمعنى عياذاً. وأصل قيام: قوام: فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وكان السلفُ يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان ـ وكان له بضاعة يقلبها ـ: لولاها لتمندل بي بنو العباس[(١)] ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتتربَّحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فيأكلها الإنفاق ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابنُ جريج: عدة جميلة: إن صَلَحتم ورَشَدتم سلمنا إليكم أموالكم. وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل، فهو معروف. وما أنكرته لقبحه، فهو منكر.

٦ ـ ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ واختبروا عقولهم، وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرُّف قبل البلوغ. فالابتلاء عندنا: أن يدفع إليه ما يتصرَّف فيه حتى تتبيَّن حاله فيما يجيء منه. وفيه دليلٌ على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: الحُلم؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، ولطلب ما هو مقصود به، وهو: التوالد ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ﴾ تبينتم ﴿رُشْدًا﴾ هداية في التصرفات، وصلاحاً في المعاملات ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حدِّ البلوغ. ونظم هذا الكلام أنَّ ما بعد حتى إلى ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جعل غاية للابتلاء. وهي «حتى» التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

.... حتـــى مـــاءُ دجلَـــةَ أشكـــلُ[(٢)]

والواقعة بعدها جملة شرطية؛ لأن إذا متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط:

---

(١) أي: لاتخذوني كالمنديل يتمسّحون بي.

(٢) البيت لجرير، وهو بتمامه:

فمـــا زالـــتِ القتلـــى تمـــجُّ دمـــاءهـــا بـدجلـةَ حتـى مـاءُ دجلـةَ أَشْكَـلُ

وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأوّل؛ الذي هو «إذا بلغوا النكاح»، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وتنكير الرشد يفيد أن المرادَ رشدٌ مخصوص، وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو يفيد: التقليل، أي: طرفاً من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد. وهو دليلٌ لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم. فإسرافاً وبداراً مصدران في موضع الحال و﴿أن يكبروا﴾ في موضع المصدر منصوب الموضع ببداراً. ويجوز أن يكونا مفعولاً لهما. أي: لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تُفْرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعفّ من أكلها، أي: يحترز من أكل مال اليتيم. واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. والفقير يأكل قوتاً مقدّراً محتاطاً في أكله. عن إبراهيم: ما سدّ الجوعة، ووارى العورة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلّموها وقبضوها دفعاً للتجاحد، وتفادياً عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم، والتناكر ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب. أو: هو راجع إلى قوله: ﴿فليأكل بالمعروف﴾ أي: ولا يسرف، فإن الله يحاسبه عليه، ويجازيه به. وفاعل كفى: لفظة الله، والباء زائدة. وكفى يتعدّى إلى مفعولين، دليله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٧ ـ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٨ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ۝٩﴾

﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ هم المتوارثون من ذوي القرابات دون غيرهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾ بدل ﴿مما ترك﴾ بتكرير العامل. والضمير في ﴿منه﴾ يعود إلى ما ترك ﴿نَصِيبٗا﴾ نصب على الاختصاص، بمعنى: أعني نصيباً ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾ مقطوعاً لا بدّ لهم من أن يحوزوه. رُوي أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كُحّة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن. وكان أهلُ الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لايرث إلا من طاعنَ بالرماح، وحاز الغنيمة. فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فشكت. فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت الآية. فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله تعالى قد جعل لهن نصيباً، ولم يبين حتى يبين» فنزلت: ﴿يوصيكم الله﴾ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين، والباقي ابني العم[١].

٨ ـ ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ أي: قسمة التركة ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ فأعطوهم ﴿مِّنۡهُ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون. وهو أمر ندبٍ، وهو باق لم ينسخ. وقيل: كان واجباً في الابتداء، ثم نُسِخ بآية الميراث ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ عذراً جميلاً، وعدة حسنة. وقيل: القول المعروف: أن يقولوا لهم: خذوا بارك الله عليكم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يمنّوا عليهم.

٩ ـ ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ المراد بهم الأوصياء. أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على مَن في حجورهم من اليتامى، فيشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً، وأن يقدّروا ذلك في أنفسهم، ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف

(١) قال الحافظ: هكذا أورده الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد (حاشية الكشاف ١ / ٤٧٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾

الشفقة والرحمة. و«لو» مع ما في حيزه: صلة للذين، أي: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً ـ وذلك عند احتضارهم ـ خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم. وجواب ﴿لو﴾ خافوا. والقول السديد من الأوصياء: أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن، والترحيب، ويدعوهم بـ: يا بني، ويا ولدي.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، فهو مصدر في موضع الحال ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم ﴿نَارًا﴾ أي: يأكلون ما يجرُّ إلى النار. فكأنه نار. رُوي أنه يُبعث آكلُ مال اليتامى يوم القيامة والدخان يخرجُ من قبره، ومِن فيه، وأنفه، وأذنيه، فيعرف الناس أنه كان يأكلُ مال اليتيم في الدنيا[1] ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ ﴿وسيُصْلَون﴾ شامي، وأبو بكر. أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً من النيران، مبهمة الوصف.

١١ ـ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعهد إليكم، ويأمركم ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهذا إجمال تفصيله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر منهم، أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه؛ لأنه مفهوم، كقولهم: السمن منوان بدرهم. وبدأ بحظ الذكر، ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث، وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى الذكور أن ضُوعِف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. والمراد: حال الاجتماع، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان تأخذان الثلثين. والدليل عليه أنه أتبعه حكم الانفراد بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٦٦) بلفظ: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجّج أفواههم ناراً...».

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾

﴿نِسَآءً﴾ أي: فإن كانت الأولاد نساء خلصاً، يعني: بنات ليس معهن ابن ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان لكان، أو: صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت؛ لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي: وإن كانت المولودة منفردة ﴿وَاحِدَةٌ﴾: مدني على كان التامة. والنصب أوفق لقوله: ﴿فإن كن نساء﴾.

فإن قلت: قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد فما حكمهما؟ قلت: حكمهما مختلف فيه. فابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلهما منزلة الواحدة، لا منزلة الجماعة. وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أعطوهما حكم الجماعة بمقتضى قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وذلك لأن من مات، وخلَّف بنتاً وابناً، فالثلث للبنت، والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة كان الثلثان للبنتين. ولأنه قال في آخر السورة: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ والبنتان أمسّ رحماً بالميت من الأختين، فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين، ولم ينقصوا حظهما عن حظِّ مَن هو أبعد منهما. ولأنَّ البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أحرى أن يجبَ لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه، فوجب لهما الثلثان. وفي الآية دلالةٌ على أنَّ المال كله للذكر إذا لم يكن معه أنثى؛ لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد جعل للأنثى النصف إذا كانت منفردة، فعلم أن للذكر في حال الانفراد ضعف النصف، وهو الكلّ.

والضمير في: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ للميت، والمراد: الأب والأم، إلا أنه غلب الذكر ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ بدل من «لأبويه» بتكرير العامل. وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافها. ولو قيل:

مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ

ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد، وهو التفصيل بعد الإجمال. والسدس: مبتدأ خبره: لأبويه، والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن: السدْس والربْع والثمْن والثلْث بالتخفيف ﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ هو يقع على الذكر والأنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: مما ترك. والمعنى ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب؛ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما يبقى بعد إخراج نصيب الزوج، لا ثلث ما ترك؛ لأنَّ الأب أقوى من الأم في الإرث، بدليل أن له ضعف حظها إذا خلصا. فلو ضرب لها الثلث كَمَلاً لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها. فإن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين، فصار للزوج النصف وللأم الثلث، والباقي للأب، حازت الأم سهمين والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين. فلأمه - بكسر الهمزة - حمزة، وعليّ لمجاورة كسر اللام ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ أي: للميت ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ إذا كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعداً فلأمه السدس. والأخ الواحد لا يحجب. والأعيان والعَلات والأخياف في حجب الأم سواء ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلّها، لا بما يليه وحده. كأنه قيل: قسمة هذه الأنصباء ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ﴾[1] هو وما بعده بفتح الصادين: مكي، وشامي، وحماد. ويحيى وافق الأعشى في الأولى. وحفص في الثانية لمجاورة يورث. وكسرَ الأولى لمجاورة يوصيكم الله. الباقون بكسر الصادين. أي: يوصي الميت ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ والإشكال أن الدين مُقدَّم على الوصية في الشرع، وقدمت الوصية على الدين في التلاوة. والجواب: أن أو لا تدلُّ على الترتيب، أَلا ترى أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو كان المعنى: جاءني أحد الرجلين، فكان التقدير في قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ من بعد أحد هذين الشيئين الوصية، أو الدين. ولو قيل بهذا اللفظ لم

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يُوصَى﴾.

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

يدر فيه الترتيب، بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا. وإنما قدّمنا الدين على الوصية بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الدَّيْن قبل الوصية»[1]. ولأنها تشبه الميراث من حيث إنها صلة بلا عوض، فكان إخراجها مما يشقّ على الورثة، وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين، فقدّمت على الدين ليسارعوا إلى إخراجها مع الدين ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه. والخبر ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾ والجملة في موضع نصب بتدرون ﴿نَفْعًا﴾ تمييز. والمعنى: فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيُّهم أنفع لكم، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع، وأنتم لا تدرون تفاوتها، فتولى الله ذلك فضلاً منه، ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير. وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة، لا موضع لها من الإعراب ﴿فَرِيضَةً﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض، وقسم من المواريث، وغيرها.

١٢ ـ ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: زوجاتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ابن، أو بنت. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم، أو من غيركم ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

(١) رواه أحمد (١/ ٧٩ و١٣١ و١٤٤) والبخاري (٥/ ٣٧٧) تعليقاً، والترمذي (٢٠٩٤) وابن ماجه (٢٧١٥) بلفظ: قضى رسولُ الله ﷺ بالدَّيْن قبل الوصية.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ والواحدة والجماعة سواء في الربع والثمن. جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة؛ لدلالة قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ﴾ يعني: الميت، وهو اسم كان ﴿يُورَثُ﴾ من ورث، أي: يورث منه، وهو صفة لرجل ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان. أي: وإن كان رجل موروث منه كلالة. أو: «يورث» خبر كان، و«كلالة» حال من الضمير في يورث. والكلالة: تطلق على من لم يُخلّف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلَّفين. وهو في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو: ذهاب القوّة من الإعياء ﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ عطف على رجل ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ أي: لأم. فإن قلت: قد تقدم ذكر الرجل والمرأة، فلم أفرد الضمير وذكَّره؟ قلت: أما إفراده: فلأن «أو» لأحد الشيئين. وأما تذكيره: فلأنه يرجع إلى رجل؛ لأنه مذكر مبدوء به، أو يرجع إلى أحدهما وهو مُذكَّر ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون بقرابة الأم، وهي لا ترث أكثر من الثلث. ولهذا لا يفضّل الذكر منهم على الأنثى ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ إنما كررت الوصية لاختلاف الموصين، فالأول: الوالدان والأولاد، والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج، والرابع: الكلالة ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضار لورثته. وذلك بأن يوصي بزيادة على الثلث، أو لوارث ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أي: يوصيكم بذلك وصية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار، أو عدل في وصيته ﴿حَلِيمٞ﴾ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة، وهذا وعيد. فإن قلت: أين ذو الحال فيمن قرأ يوصى بها؟ قلت: يضمر يوصي فينتصب عن فاعله؛ لأنه لما قيل يُوصَى بها علم أن ثَمّ موصياً. كما كان ﴿رجال﴾ فاعل ما يدل عليه يسبح؛ لأنه لما قيل ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ [النور: ٣٦] علم أن ثم مسبِّحاً فأضمر يسبِّح.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾

واعلم أن الورثة أصناف: أصحاب الفرائض، وهم الذين لهم سهام مقدرة: كالبنت: ولها النصف، وللأكثر الثلثان. وبنت الابن وإن سفلت: وهي عند عدم الولد كالبنت، ولها مع البنت الصلبية السدس، وتسقط بالابن وبنتي الصلب إلا أن يكون معها غلام فيعصبها. والأخوات لأب وأم: وهن عند عدم الولد وولد الابن كالبنات، والأخوات لأب، وهن كالأخوات لأب وأم عند عدمهن. ويصيرُ الفريقان عصبة مع البنت أو بنت الابن. ويسقطن بالابن وابنه وإن سفل والأب وبالجد عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. وولد الأم، فللواحد السدس وللأكثر الثلث، وذكرهم كأنثاهم. ويسقطون بالولد وولد الابن وإن سفل والأب والجد. والأب: وله السدس مع الابن أو ابن الابن وإن سفل، ومع البنت أو بنت الابن وإن سفلت السدس والباقي. والجد: وهو أبو الأب، وهو كالأب عند عدمه، إلا في رد الأم إلى ثلث ما يبقى. والأم: ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وإن سفل، أو الاثنين من الإخوة والأخوات فصاعداً من أي جهة كانا. وثلث الكل عند عدمهم. وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين في زوج وأبوين، أو زوجة وأبوين. والجدة: ولها السدس وإن كثرت لأم كانت أو لأب. والبعدى تحجب بالقربى. والكل بالأم، والأبويات بالأب. والزوج: وله الربع مع الولد، أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه النصف. والزوجة: ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه الربع. والعصبات: وهم الذين يرثون ما بقي من الفرض. وأولاهم: الابن، ثم ابنه وإن سفل، ثم الأب، ثم أبوه وإن علا، ثم الأخ لأب وأم، ثم الأخ لأب، ثم ابن الأخ لأب وأم، ثم ابن الأخ لأب، ثم الأعمام، ثم أعمام الأب، ثم أعمام الجد، ثم المعتق، ثم عصبته على الترتيب. واللاتي فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبة بإخوتهن لا غيرهن. وذوو الأرحام: وهم الأقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض، وترتيبهم كترتيب العصبات.

١٣ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى، والوصايا، والمواريث ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ سمَّاها حدوداً؛ لأن الشرائع كالحدود

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

المضروبة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٤ ـ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ انتصب خالدين وخالداً على الحال. وجمع مرة، وأفرد أخرى نظراً إلى معنى مَنْ ولفظها ﴿ندخله﴾ فيهما، مدني، وشامي ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لهوانه عند الله. ولا تعلق للمعتزلة والخوارج بالآية فإنها في حق الكفار، إذ الكافر هو الذي تعدَّى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حدّ التوحيد. ولهذا فسَّر الضحاك المعصية هنا بالشرك. وقال الكلبي: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بكفره بقسمة المواريث ﴿ويتعد حدوده﴾ استحلالاً.

١٥ ـ ثم خاطب الحكام فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ هي جمع التي، وموضعها رفع بالابتداء، ﴿يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي: الزنى لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. يقال: أتى الفاحشة، وجاءها، ورهقها، وغشيها بمعنى. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ للتبعيض. والخبر: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ فاطلبوا الشهادة. ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ من المؤمنين ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بالزنى ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: ملائكة الموت، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨] أو: حتى يأخذهن الموت، ويستوفي أرواحهن. ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ﴾ قيل: أو بمعنى: إلا أن ﴿سَبِيلٗا﴾ غير هذه. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: السبيل للبكر جلد مئة وتغريب عام، وللثيب الرجم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾

جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة ورجم بالحجارة»[1].

١٦ ـ ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يريد: الزاني والزانية. وبتشديد النون، مكي ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ أي: الفاحشة ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعيير، وقولوا لهما: أمَا استحييتما؟ أما خفتما الله؟ ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ وغيّرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ فاقطعوا التوبيخ والمذمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يقبل توبة التائب ويرحمه. قال الحسن: أول ما نزل من حد الزنى الأذى، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم، فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة. والحاصل: أنهما إذا كانا محصنين فحدّهما: الرجم لا غير. وإذا كانا غير محصنين فحدهما: الجلد لا غير. وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن، فعلى المحصن منهما الرجم، وعلى الآخر الجلد. وقال ابن بحر: الآية الأولى في السَّحَّاقات، والثانية في اللوّاطين، والتي في سورة النور في الزاني والزانية. وهو دليلٌ ظاهرٌ لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في أنه يعزّر في اللِّواطة ولا يحدّ. وقال مجاهد: آية الأذى في اللّواطة.

١٧ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ هي من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، أي: إنما قبولها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس المراد به الوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني: أنه يكون لا محالة، كالواجب الذي لا يترك ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ الذنب لسوء عقابه ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه. وعن مجاهد: من عَصَى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. وقيل: جهالته: اختياره اللذة الفانية على الباقية. وقيل: لم يجهل أنه ذنب، ولكنه جهل كنه

(١) رواه أحمد (٥/٣١٣) ومسلم (١٦٩٠) (١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذي (١٤٣٤).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾

عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضرة الموت. أَلا ترى إلى قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قبل أن ينظر إلى ملك الموت. وعنه ﷺ «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١). ومن: للتبعيض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عدة بأنه يفي بذلك، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمهم على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بكون الندم توبة.

١٨ ـ ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ أي: ولا توبة للذين يذنبون، ويسوّفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت، ومعاينة ملك الموت، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار، وقبول التوبة ثواب، ولا وعد به إلا لمختار ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ في موضع جر بالعطف على ﴿للذين يعملون السيئات﴾ أي: ليست التوبة للذين يعملون السيئات ولا للذين يموتون ﴿وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين. وفي بعض المصاحف بلامين، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا من العتيد، وهو الحاضر، أو الأصل أعددنا، فقلبت الدال تاء.

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٣٢) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

١٩ ـ كان الرجل يرث امرأة مورّثه بأن يلقي عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر، فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز المواريث، وهنّ كارهات لذلك، أو مكرهات ﴿كرهاً﴾ بالفتح من الكراهة. وبالضم: حمزة، وعليّ، من الإكراه. مصدر في موضع الحال من المفعول. والتقييد بالكره لا يدلُّ على الجواز عند عدمه؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ كان الرجل إذا تزوج امرأة، ولم تكن من حاجته حبَسَها مع سوء العشرة لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾. وهو منصوب عطفاً على «أن ترثوا». و«لا» لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن. أو مجزوم بالنهي على الاستئناف، فيجوز الوقف حينئذ على ﴿كرهاً﴾. والعضل: الحبس، والتضييق ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر. واللام متعلقة بـ«تعضلوا» ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ هي النشوز، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء. أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم في طلب الخلع. وعن الحسن: الفاحشة: الزنى، فإن فعلت حلَّ لزوجها أن يسألها الخلع ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ وبفتح الياء: مكي، وأبو بكر. والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾ في جميع الأوقات إلا وقت ﴿أن يأتين بفاحشة﴾ أو ﴿ولا تعضلوهن﴾ لعلة من العلل ﴿إلا أن يأتين بفاحشة﴾. وكانوا يسيئون معاشرة النساء، فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو: النَّصَفَة في المبيت، والنفقة، والإجمال في القول ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لقبحهن، أو سوء خلقهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ في ذلك الشيء، أو في الكره. ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثواباً جزيلاً، أو ولداً صالحاً. والمعنى: فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها. فربما كرهت النفس ما هو أصلح في

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

الدين، وأدنى إلى الخير، وأحبت ما هو بضدٍّ ذلك. ولكن للنظر في أسباب الصلاح. وإنما صحَّ قوله ﴿فعسى أن تكرهوا﴾ جزاء للشرط؛ لأن المعنى: ﴿فإن كرهتموهن﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

٢٠ ـ كان الرجل إذا رأى امرأةً فأعجبته بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة[1]، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها. فقيل: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق امرأة وتزوّج أخرى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ وأعطيتم إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج: الجمع؛ لأن الخطابَ لجماعة الرجال ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً عظيماً كما مرَّ في آل عمران. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ على المنبر: لا تغالوا بصدُقات النساء، فقالت امرأة: أنتبع قولك أم قول الله ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾؟ فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، تزوَّجوا على ما شئتم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: بيّناً. والبهتان: أن تستقبلَ الرجلَ بأمرٍ قبيح تقذفه به وهو بريء منه؛ لأنه يُبهَت عند ذلك، أي: يتحير. وانتصب بهتاناً على الحال، أي: باهتين وآثمين.

٢١ ـ ثم أنكر أخذ المهر بعد الإفضاء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: خلا بلا حائل، ومنه: الفضاء. والآية حجة لنا في الخلوة الصحيحة أنها تؤكِّد المهر، حيث أنكر الأخذ. وعلّل بذلك ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو قول الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن، فهو كأخذهن. أو قول النبي عليه الصلاة والسلام:

(١) أي: رماها بالباطل.

وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

«استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»(١).

٢٢ ـ ولما نزل: ﴿لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نرثهن كرهاً ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن، فقيل لهم: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وقيل المراد بالنكاح: الوطء، أي: لا تطؤوا ما وطىء آباؤكم. وفيه تحريم وطء موطوءة الأب بنكاح، أو بملك يمين، أو بزنى، كما هو مذهبنا، وعليه كثيرٌ من المفسرين. ولما قالوا: كنا نفعل ذلك، فكيف حال ما كان منا؟ قال: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾. أي: لكن ما قد سلف، فإنكم لا تؤاخذون به. والاستثناء منقطع، عن سيبويه. ثم بيَّن صفة هذا العقد في الحال فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ بالغة في القبح ﴿ وَمَقْتًا ﴾ وبغضاً عند الله، وعند المؤمنين، وناس منهم يمقتونه من ذوي مروءاتهم، ويسمُّونه: نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له: المقتي ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس الطريق طريقاً ذلك.

٢٣ ـ ولما ذكر في أول السورة نكاح: ﴿ما طاب﴾ أي: حَلَّ ﴿من النساء﴾ وذكر بعض ما حرم قبل هذا، وهو نساء الآباء، ذكر المحرَّمات الباقيات، وهن: سبع من النسب، وسبع من السبب، وبدأ بالنسب فقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾. والمراد: تحريم نكاحهن عند البعض. وقد ذكرنا المختار في «شرح المنار». والجدة من قبل الأم أو الأب ملحقة بهن ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبنات الابن وبنات البنت ملحقات بهن. والأصل: أنَّ الجمعَ إذا قُوبل بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد، فتحرم على كل واحد أمه وبنته.

---

(١) هذا مركب من حديثين: الأول بلفظ: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هُنَّ عَوَانٌ عندكم» رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١). والثاني بلفظ: «فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه مسلم (١٢١٨) (١٤٧) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٠٧٤). «العوان»: جمع عانية وهي الأسيرة.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ لأب أو أم، أو لأب أو لأم. ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ من الأوجه الثلاثة. ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ كذلك. ثم شرع في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾. الله تعالى نزّل الرضاعة منزلة النسب، فسمَّى المرضعة أمّاً للرضيع، والمراضعة أختاً. وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل وَلَد وُلِدَ له من غير الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضِعة جدته، وأختها خالته، وكلّ من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه. ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»[1] ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وهنّ محرمات بمجرد العقد ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ سمّى ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيبة؛ لأنه يَرُبُّهما كما يَرُبُّ ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسمِّيا بذلك وإن لم يَرُبّهما ﴿ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ قال داود: إذا لم تكن في حجرة لا تحرم. قلنا: ذكر الحجر على غلبة الحال دون الشرط، وفائدته: التعليل للتحريم، وأنهن لاحتضانكم لهن، أو لكونهن بصدد احتضانكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ متعلق بربائبكم. أي: الربيبة من المرأة المدخول بها حرام على الرجل، حلال له إذا لم يدخل بها. والدخول بهن كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، أي: أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول. وقد جعل بعضُ العلماء اللاتي دخلتم بهن وصفاً للنساء المتقدمة والمتأخرة. وليس كذلك؛ لأن الوصفَ الواحد لا يقع على موصوفين مختلفي العامل، وهذا لأن النساءَ

(١) رواه البخاري (٥٢٣٩) ومسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾

الأولى مجرورة بالإضافة والثانية بمن. ولا يجوز أن تقول: مررت بنسائك، وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن تكون الظريفات نعتاً لهؤلاء النساء وهؤلاء النساء. كذا قال الزجاج وغيره، وهذا أولى مما قاله صاحب «الكشاف» فيه ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حرج عليكم في أن تتزوَّجوا بناتهن إذا فارقتموهن، أو متن ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ جمع حليلة، وهي: الزوجة؛ لأن كلَّ واحد منهما يحلُّ للآخر، أو يُحلُّ فراش الآخر، من الحل، أو من الحلول ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ دون مَن تبنيتم، فقد تزوج رسول الله ﷺ زينب حين فارقها زيد، وقال الله تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وليس هذا لنفي الحرمة عن حليلة الابن من الرضاع ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ أي: في النكاح، وهو في موضع الرفع عطف على المحرمات، أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفور، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وعن محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ: إنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يعرفون هذه المحرمات إلا نكاح امرأة الأب، ونكاح الأختين؛ فلذا قال فيهما: ﴿إلا ما قد سلف﴾.

٢٤ ـ ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ذوات الأزواج لأنهن أحصنّ فروجهن بالتزوج. قرأ الكسائي بفتح الصاد هنا، وفي سائر القرآن بكسرها. وغيره بفتحها في جميع القرآن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالسبي، وزوجها في دار الحرب. والمعنى: وحرم عليكم نكاح المنكوحات، أي: اللاتي لهن أزواج إلا ما ملكتموهن بسبيهن، وإخراجهن بدون أزواجهن، لوقوع الفرقة بتباين الدارين لا بالسبي، فتحل للغانم بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وفرضه فريضة، وهو تحريم ما حرّم. وعطف ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾[1] على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله، أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك ﴿وأَحل لكم﴾ ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما سوى المحرمات المذكورة ﴿وأُحِل﴾ كوفي غير أبي بكر عطف على ﴿حُرِّمَت﴾ ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ مفعول له. أي: بيّن لكم ما يحلُّ مما يحرم لأن تبتغوا. أو بدل من ﴿ما وراء ذلكم﴾. ومفعول ﴿تبتغوا﴾ مقدر، وهو: النساء. والأجود ألا يقدر ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يعني: المهور. وفيه دليلٌ على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسَمَّ، وأن غير المال لا يصلح مهراً، وأنَّ القليلَ لا يصلحُ مهراً، إذا الحبة لا تعدُّ مالاً عادة ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ في حال كونكم محصنين ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم، وتفقروا أنفسكم فيما لا يحلُّ لكم فتخسروا دينكم ودنياكم، ولا فساد أعظم من الجمع بين الخسرانين. والإحصان: العفة، وتحصين النفس من الوقوع في الحرام. والمسافح: الزاني، من: السفح، وهو: صبُّ المني ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فـ«ما» نكحتموه منهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ لأن المهر ثواب على البُضع. فـ«ما» في معنى النساء. و﴿من﴾ للتبعيض، أو للبيان. ويرجع الضمير إليه على اللفظ في ﴿به﴾ وعلى المعنى في ﴿فآتوهن﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور، أي: مفروضة، أو: وضعت موضع إيتاء؛ لأنَّ الإيتاءَ مفروض. أو مصدر مؤكَّد، أي: فرض ذلك فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحطّ عنه من المهر، أو تهب له من كله، أو يزيد لها على مقداره. أو فيما تراضيا به من مقام، أو فراق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خَلْقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما فرض لهم من عقد النكاح؛ الذي به حُفِظت الأنساب.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿وأَحَلَّ﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾

وقيل: إن قوله: ﴿فما استمتعتم﴾ نزلت في المتعة؛ التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله، ثم نُسِخت.

٢٥ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ فضلاً. يقال: لفلان عليّ طوْل، أي: فضل وزيادة. وهو مفعول يستطع ﴿أَن يَنكِحَ﴾ مفعول الطول، فإنه مصدر فيعمل عمل فعله، أو بدلاً من ﴿طولاً﴾ ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر المسلمات ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فلينكح مملوكة من الإماء المسلمات. وقوله ﴿من فتياتكم﴾ أي: من فتيات المسلمين. والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة، فلينكح أمة. ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا. والتقييد في النص للاستحباب؛ بدليل أنَّ الإيمانَ ليس بشرطٍ في الحرائر اتفاقاً مع التقييد به. وقال ابن عباس: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمَة، واليهودية، والنصرانية، وإن كان موسراً. وفيه دليلٌ لنا في مسألة الطوْل ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم﴾ فيه تنبيهٌ على قبول ظاهر إيمانهن، ودليلٌ على أنَّ الإيمانَ هو التصديق دون عمل اللسان؛ لأنَّ العلمَ بالإيمان المسموع لا يختلف ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: لا تستنكفوا من نكاح الإماء، فكلكم بنو آدم، وهو تحذيرٌ عن التعيير بالأنساب، والتفاخر بالأحساب ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سادتهن. وهو حجةٌ لنا في أنَّ لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنه اعتبر إذن الموالي لا عقدهم، وأنه ليس للعبد أو للآمة أن يتزوج إلا بإذن المولى ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأدُّوا إليهن مهورهن بغير مطل وإضرار. ومُلَّاك مهورهن مواليهن، فكان أداؤها إليهن أداء إلى الموالي؛ لأنهن وما في أيديهن مال الموالي. أو: التقدير: وآتوا مواليهن، فحذف المضاف ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف. حال من المفعول في ﴿وآتوهن﴾ ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زوانٍ علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ زوانٍ سراً.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾

والأخدان: الأخلاَّء في السر ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ بالتزويج. أَحْصَنَّ: كوفي غير حفص ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ زنى ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ من الحد، يعني: خمسين جلدة. وقوله: ﴿نصف ما على المحصنات﴾ يدلُّ على أنه الجلدَ لا الرجم، لأنَّ الرجم لا يتنصف، وأن المحصنات هنا: الحرائر اللاتي لم يزوجن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ لمن خاف الإثم الذي تؤدِّي إليه غلبةُ الشهوة. وأصل العنت: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الزنى؛ لأنه سبَبُ الهلاك ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لأن فيه إرقاق الولد، ولأنها خراجة، ولاجة، ممتهنة، مبتذلة، وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة. والعزة من صفات المؤمنين. وفي الحديث: «الحرائر صلاحُ البيت، والإماء هلاك البيت»(١) ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يستر المحظور ﴿رَّحِيمٞ﴾ يكشف المحذور.

٢٦ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في: لا أبالك؛ لتأكيد إضافة الأب. والمعنى: يريد الله أن يُبيِّن لكم ما هو خفيٌّ عليكم من مصالحكم، وأفاضل أعمالكم ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وأن يهديكم مناهج مَن كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ويوفِّقكم للتوبة عمَّا كنتم عليه من الخلاف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢٨٢٠). وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وفي إسناده: أحمد بن محمد، وهو متروك، وكذّبه أبو حاتم، ويونس لا أعرفه. (حاشية الكشاف ١/ ٥٠١).

﴿حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾

بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لهم.

٢٧ ـ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد، والتقرير، والتقابل ﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه، بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات. وقيل: هم اليهود؛ لاستحلالهم الأخوات لأب، وبنات الأخ، وبنات الأخت. فلما حرمهن الله قالوا: فإنكم تحلّون بنت الخالة والعمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخت والأخ، فنزلت. يقول: يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

٢٨ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات، وعلى مشاقّ الطاعات.

٢٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لم تُبحْه الشريعةُ من نحو السرقة، والخيانة، والغصب، والقِمار، وعقود الربا ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾[1] إلا أن تقع تجارةٌ، ﴿تِجارَةٌ﴾ كوفي، أي: ﴿إلا أن تكون﴾ التجارة ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض بالعقد، أو بالتعاطي. والاستثناء منقطع، معناه: ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض. أو: ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وخصّ التجارة بالذكر؛ لأنَّ أسبابَ الرزق أكثرها مُتعلّق بها. والآية تدلُّ على جواز البيع بالتعاطي، وعلى جواز البيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضا، وعلى نفي خيار المجلس؛ لأن فيها إباحة الأكل بالتجارة عن تراض من غير

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تجارةٌ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر. معجم القراءات القرآنية (٢/١٢٦).

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

تقييد بالتفرق عن مكان العقد. والتقييد به زيادة على النَّصِّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ مَن كان مِن جنسكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، أو: ولا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعضُ الجهلة، أو: معنى القتل: أكل الأموال بالباطل، فظالم غيره كمهلك نفسه، أو: لا تتبعوا أهواءها فتقتلوها، أو: تركبوا ما يوجب القتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولرحمته بكم نبَّهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وبقاء أبدانكم. وقيل: معناه: أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم، وتمحيصاً لخطاياهم، و﴿كان بكم﴾ ياأمة محمد ﴿رحيماً﴾ حيث لم يكلِّفكم تلك التكاليف الصَّعبة.

٣٠ ـ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: القتل، أي: ومن يقدم على قتل الأنفس ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأ ولا قصاصاً، وهما مصدران في موضع الحال، أو مفعول لهما ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله ناراً مخصوصة، شديدة العذاب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إصلاؤه النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً. وهذا الوعيد في حقِّ المستحلِّ للتخليد، وفي حقِّ غيره لبيان استحقاقه دخول النار، مع وعد الله بمغفرته.

٣١ ـ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الكبائر: كلُّ ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وعنه أيضاً: الكبائر ثلاث: الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله. وقيل: المراد به أنواع الكفر بدليل قراءة عبد الله (كبير ما تنهون عنه) وهو الكفر ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ مَدخلاً: مدني. وكلاهما بمعنى المكان والمصدر. ﴿كَرِيمًا﴾ حسناً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة ممَّا طَلَعَتْ عليه الشمس وغَرَبت ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

﴿يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ١١٠] ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وتشبَّث المعتزلةُ بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر، وعلى أن الكبائر غيرُ مغفورة، باطل، لأنَّ الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء، إن شاء عذب عليهما، وإن شاء عفا عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقد وعد المغفرة لما دون الشرك، وقرنها بمشيئته تعالى. وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فهذه الآية تدلُّ على أن الصغائر والكبائر يجوزُ أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظَ السيئات ينطلقُ عليهما.

٣٢ ـ ولَمَّا كان أَخْذُ مال الغير بالباطل، وقَتْل النفس بغير حق، بتمني مال الغير وجاهه، نهاهم عن تمني ما فضَّل الله به بعضَ الناس على بعض من الجاه والمال بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن ذلك التفضيلَ قسمةٌ من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكلّ مَن بسط في الرزق، أو قبض. فعلى كلِّ واحد أن يرضى بما قسم له، ولا يحسد أخاه على حظِّه. فالحسدُ: أن يتمنى أن يكون ذلك الشيءُ له، ويزول عن صاحبه. والغبطة: أن يتمنَّى مثل ما لغيره. وهو مرخَّص فيه، والأوَّلُ منهيٌّ عنه. ولما قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث، وقالت النساء: يكون وِزْرُنا على نصف وِزْر الرجال كالميراث، نزل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: ليس ذلك على حسب الميراث ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فإنَّ خزائنه لا تنفد، ولا تتمنوا ما للناس من الفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فالتفضيل منه عن علم بمواضع الاستحقاق. قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

وفي الحديث: «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه»[1]. وفيه: «إن الله تعالى يمسك الخير الكثير عن عبده، ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألني». «وسلوا»: مكي، وعليّ.

٣٣ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ المضاف إليه محذوف، تقديره: ولكل أحد، أو: ولكل مال ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ ورّاثاً يلونه ويحرزونه ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هو صفة مال محذوف، أي: لكل مال ممّا تركه الوالدان. أو: هو متعلق بفعل محذوف دلَّ عليه الموالي، تقديره: يرثون مما ترك ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ عاقدتهم أيديكم. وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط، فوقع خبره، وهو ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، مع الفاء. عقَدت: كوفي. أي: عقدت عهودَهم أيمانكم. والمراد به عقد الموالاة، وهي مشروعة، والوراثة بها ثابتة عند عامة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهو قولنا. وتفسيره: إذا أسلم رجل أو امرأة لا وارث له، وليس بعربي؛ ولا معتق؛ فيقول لآخر: واليتك على أن تعقلني إذا جنيت، وترث مني إذا مت، ويقول الآخر: قبلت، انعقد ذلك، ويرث الأعلى من الأسفل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: هو عالم الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعيد.

٣٤ ـ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا، وسُمُّوا قوّاماً لذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الضمير في ﴿بعضهم﴾ للرجال والنساء، يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن لسبب تفضيل الله بعضهم ـ وهم الرجال ـ على بعض ـ وهم النساء ـ بالعقل، والعزم، والحزم، والرّمي، والقوّة، والغزو، وكمال الصوم والصلاة، والنبوّة، والخلافة، والإمامة، والأذان، والخطبة، والجماعة، والجمعة، وتكبير

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٢٧).

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

التشريق عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ والشهادة في الحدود والقصاص، وتضعيف الميراث، والتعصيب فيه، وملك النكاح، والطلاق، وإليهم الانتساب، وهم أصحابُ اللِّحى والعمائم ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وبأن نفقتهن عليهم، وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم. ثم قسمهن على نوعين، النوع الأول: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات، قائمات بما عليهنّ للأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب، وهو خلافُ الشهادة. أي: إذا كان الأزواجُ غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج، والبيوت، والأموال. وقيل: ﴿للغيب﴾ لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أو: بما حفظهنَّ الله، وعصمهن، ووفَّقهن لحفظ الغيب. أو: بحفظ الله إياهن حيث صيَّرهن كذلك. والثاني: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن، وترفُّعهن عن طاعة الأزواج. والنَّشْز: المكان المرتفع. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: هو أن تستخفَّ بحقوق زوجها، ولا تطيع أمره. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خوِّفوهنَّ عقوبة الله تعالى، والضَّرب. والعظة: كلام يلين القلوب القاسية، ويرغب الطبائع النَّافرة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد، أي: لا تداخلوهن تحت اللُّحُف. وهو كناية عن الجماع. أو: هو أن يوليها ظهره في المضجع؛ لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً غير مبرح. أمر بوعظهن أوّلاً، ثم بهجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهِجْران ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فأزيلوا عنهن التعرّض بالأذى. و﴿سبيلاً﴾ مفعول تبغوا. وهو من: بغيت الأمر، أي: طلبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: إن علت أيديكم عليهن، فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، فاجتنبوا ظلمهن. أو: ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ وإنكم تعصونه على علو شأنه، وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

٣٥ ـ ثم خاطب الولاة بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾. أصله: شقاقاً بينهما، فأضيف الشقاق إلى الظرف على سبيل الاتساع، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وأصله: بل مكر في الليل والنهار. والشقاق: العداوة والخلاف؛ لأن كلّاً منهما يفعل ما يشُقُّ على صاحبه، أو: يميل إلى شقّ، أي: ناحية غير شق صاحبه. والضمير للزوجين، ولم يجرِ ذكرهما لجري ذكر ما يدلُّ عليهما، وهو الرجال والنساء ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ رجلاً يصلح للحكومة والإصلاح بينهما ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما؛ لأنَّ الأقاربَ أعرفُ ببواطن الأحوال، وأطلبُ للصلاح، ونفوس الزوجين أسكنُ إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب، والبغض، وإرادة الصحبة والفرقة. والضمير في: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ للحكمين. وفي: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين، وكانت نيتهما صحيحة، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألْفة والوفاق، وألقى في نفوسهما المودّة والاتفاق. أو: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاحَ ذات البين والنصيحة للزوجين، يوفق الله بينهما، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يتمَّ المراد. أو: الضميران للزوجين، أي: إن يريدا إصلاحَ ما بينهما، وطلبا الخير، وأن يزول عنهما الشقاق، يُلْقِ الله بينهما الأُلْفة، وأبدلهما بالشقاق الوفاق، وبالبغضاء المودّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإرادة الحكمين ﴿خَبِيرًا﴾ بالظالم من الزوجين. وليس لهما ولاية التفريق خلافاً لمالك ـ رحمه الله ـ.

٣٦ ـ ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ قيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ صنماً وغيره. ويحتمل المصدر، أي: إشراكاً ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأحسنوا

وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ

بهما إحساناً بالقول، والفعل، والإنفاق عليهما عند الاحتياج ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وبكلّ من بينكم وبينه قربى من أخ، أو عم، أو غيرهما ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذي قرب جواره ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الذي جواره بعيد. أو: الجار: القريب النسيب، والجار الجنب: الأجنبي ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الزوجة، عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أو الذي صحبك بأن حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، أو شريكاً في تعلُّم علم، أو غيره، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الغريب، أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ العبيد، والإماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن قرابته وجيرانه، فلا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يعدِّد مناقبه كبراً. فإن عدَّها اعترافاً كان شكوراً.

٣٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ نصب على البدل من ﴿من كان مختالاً فخوراً﴾. وجمع على معنى مَن، أو على الذم، أو رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم ﴿الذين يبخلون﴾ ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بالبَخَل: حمزة، وعليّ، وهما لغتان كالرُّشْد والرَّشَد. أي: يبخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسَّخاء. قيل: البخل أن يأكل بنفسه، ولا يُؤكل غيره. والشح: ألا يأكل ولا يؤكل. والسخاء: أن يأكل ويؤكل. والجود: أن يؤكل ولا يأكل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويخفون ماأنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال. وفي الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده»[1]. وبنى عاملٌ للرشيد قصراً حذاء قصره، فنُمّ به. فقال الرجل: ياأمير المؤمنين!

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) بلفظ: «إن الله يحب أن يرى أَثَر نعمته على عبده».

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

إن الكريمَ يسرُّه أن يرى أثر نعمته، فأحببت أن أسُرَّك بالنظر إلى آثار نعمتك. فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يهانون به في الآخرة.

٣٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ معطوف على الذين يبخلون، أو: على الكافرين ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعول له، أي: للفخار، وليقال: ما أجودهم! لا لابتغاء وجه الله. وهم المنافقون، أو مشركو مكة ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكلِّ شر. ويجوزُ أن يكون وعيداً لهم بأن الشَّيطانَ يُقرَنُ بهم في النار.

٣٩ ـ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأيّ تبعة ووبال عليهم في الإيمان، والإنفاق في سبيل الله. والمراد: الذم والتوبيخ، وإلا فكلُّ منفعة ومصلحة في ذلك. وهذا كما يقال للعاق: ما ضرَّك لو كنتَ باراً؟! وقد علم أنه لا مَضَرَّة في البرِّ، ولكنه ذمّ وتوبيخ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هي: النملة الصغيرة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه أدخل يده في التراب، فرفعه، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكون ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن تك مثقال الذرة حسنة. وإنما أنث ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. ﴿حَسَنَةٌ﴾: حجازي على كان التامة. وحذفت النون من تكن تخفيفاً لكثرة الاستعمال ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يضاعف ثوابها. ﴿يضعِّفها﴾: مكي، وشامي ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويُعْطِ صاحبها من عنده ثواباً عظيماً. وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع أنه سمَّى متاع الدنيا

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾

قليلاً؟! وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة، مع أن له حسنات كثيرة.

٤١ ـ ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا، وهو نبيُّهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ حال، أي: شاهداً على مَن آمن بالإيمان، وعلى مَن كفر بالكفر، وعلى مَن نافق بالنفاق. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسولُ الله ﷺ، وقال: «حسبنا»[1].

٤٢ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فتسوَّى بهم الأرض كما تسوَّى بالموتى. أو: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء. أو: تصير البهائم تراباً فيودُّون حالها ﴿تَسْوى﴾ بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين من: تتسوى، حمزة وعليّ. ﴿تَسَوَّى﴾ بإدغام التاء في السين: مدني، وشامي ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ مستأنف، أي: ولا يقدرون على كتمانه؛ لأنَّ جوارحهم تشهدُ عليهم.

٤٣ ـ لما صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً وشراباً، ودعا نفراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حين كانت الخمرُ مباحةً، فأكلوا وشربوا، فقدَّموا أحدهم ليصلي بهم المغرب، فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد، نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾. أي: لا تقربوها في هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: تقرؤون. وفيه دليلٌ على أنَّ رِدّة السكران ليست بِردة؛ لأن قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر،

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾

ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان. وما أمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالتفريق بينه وبين امرأته، ولا بتجديد الإيمان، ولأنَّ الأمة اجتمعت على أنَّ من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً لا يُحكم بكفره ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على ﴿وأنتم سكارى﴾ لأنَّ محلَّ الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، أي: ولا تصلُّوا جنباً. والجنب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث؛ لأنه اسمٌ جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ صفة لقوله: «جنباً»، أي: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير مسافرين، والمراد بالجنب: الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾. أي: إلا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيممين. عبَّر عن المتيمم بالمسافر؛ لأنَّ غالبَ حاله عدمُ الماء. وهذا مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو مروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ أي: مواضع الصلاة، وهي: المساجد ﴿ولا جنباً﴾ أي: ولا تقربوا المسجد جنباً ﴿إلا عابري سبيل﴾ إلا مجتازين فيه. فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة، فكنى به عن الحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن. كذا عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وابن عباس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تقدروا على استعماله لعدمه، أو بعدِه، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية، أو سبع، أو عدو ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل في حكم الشرط أربعة، وهم: المرضى، والمسافرون، والمحدثون، وأهل الجنابة. والجزاء الذي هو الأمر بالتيمم يتعلَّق بهم جميعاً. فالمرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه [لبعض الأسباب][1].

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ
أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ
عَن

فلهم أن يتيمموا. ﴿لمستم﴾ حمزة وعلي. ﴿صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: هو وجه الأرض، تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده ومسح، لكان ذلك طهوره. و﴿من﴾ في سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتبعيض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ قيل الباء زائدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بالترخيص، والتيسير﴿غَفُورًا﴾ عن الخطأ والتقصير.

٤٤ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ من رؤية القلب. وعدّي بإلى على معنى: ألم ينته علمك إليهم. أو: بمعنى: ألم تنظر إليهم ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ حظاً من علم التوراة، وهم: أحبارُ اليهود ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يستبدلونها بالهدى، وهو: البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبيُّ العربيُّ المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: سبيل الحق كما ضلّوه.

٤٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم، ولا تستنصحوهم في أموركم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ في النفع ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ في الدفع. فثقوا بولايته، ونُصْرته دونهم. أو: لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم، ويكفيكم مكرهم. «ولياً» و«نصيراً» منصوبان على التمييز، أو على الحال.

٤٦ ـ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أو: بيان لأعدائكم. وما بينهما اعتراض. أو: يتعلق بقوله «نصيراً»، أي: ينصركم ﴿من الذين هادوا﴾ كقوله: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]. أو: يتعلق بمحذوف تقديره: ﴿من الذين هادوا﴾ قوم ﴿يحرفون الكلم﴾. فقوم: مبتدأ، ويحرفون: صفة له، والخبر من الذين هادوا مقدَّم عليه، وحذف الموصوف وهو «قوم»، وأقيم صفته، وهو: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن

﴿مَوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ﴾

﴿مَوَاضِعِهِۦ﴾ يميلونه عنها، ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كَلِماً غيره، فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة؛ التي وضعه الله تعالى فيها، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم: «أسمر ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم: «آدم طويل» مكانه. ثم ذكر هنا ﴿عن مواضعه﴾ وفي المائدة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]. فمعنى عن مواضعه على ما بينا من إزالته عن مواضعه؛ التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. ومعنى ﴿من بعد مواضعه﴾ أنه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه. والمعنيان متقاربان ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. قيل: أسرّوا به ﴿وَٱسْمَعْ﴾ قولنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع. وهو قولٌ ذو وجهين يحتمل الذم. أي: اسمع منّا مدعوّاً عليك بلا سمعت؛ لأنه لو أُجيبت دعوتُهم عليه لم يسمعْ شيئاً، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذكل اتكالاً على أنَّ قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة. أو: اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمعْ شيئاً. أو: اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، فسمعك عنه ناب. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً: إذا سبّه ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يحتمل راعنا: نكلمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية، أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي «راعينا» فكانوا سخرية بالدين، وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة، والإهانة، ويظهرون به التوقير، والإكرام ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلاً بها. وتحريفاً، أي: يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون ﴿راعنا﴾ موضع «انظرنا» و﴿غير مسمع﴾ موضع: «لا أسمعت مكروهاً» أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ هو قولهم: لو كان نبياً حقاً لأخبر بما نعتقد فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ﴿وَٱسْمَعْ﴾ ولم يلحقوا به ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾

﴿وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾

﴿وَانظُرْنَا﴾ مكان ﴿راعنا﴾ ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذاك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله ﴿وَأَقْوَمَ﴾ وأعدل، وأسدّ ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم، وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه. أو: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره.

٤٧ ـ ولما لم يؤمنوا نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني: التوراة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين، وحاجب، وأنف، وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها. والفاء للتسبيب. وإن جعلتها للتعقيب على أنهم تُوُعِّدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر، رَدُّها على أدبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكس الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. وقيل: المراد بالطمس: القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة، وبالوجوه: رؤوسهم ووجهاؤهم. أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم، ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم، وإدبارهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي: نُخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت. والضمير يرجع إلى الوجوه إن أريد الوجهاء، أو: إلي الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات. والوعيد كان معلقاً بألا يؤمن كلهم، وقد آمن بعضهم، فإنَّ ابن سلام قد سمع الآية قافلاً من الشام، فأتى النبيَّ ﷺ مُسْلماً قبل أن يأتي أهله، وقال: ما كنت أرى أن أصلَ إلى أهلي قبل أن يطمسَ الله وجهي. أو: أن الله تعالى أوعدهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه، أو بلعنهم. فإن كان الطمس تبدل أحوال رؤسائهم فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان. وقيل: هو منتظر في اليهود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: المأمور به، وهو العذاب، الذي وعدوا به

مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة، فلا بُدَّ أن يقعَ أحدُ الأمرين إن لم يؤمنوا.

٤٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة. والحاصل: أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأنَّ وَعْد غفران ما دونه لمن لم يتب، أي: لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب وهو مذنب. قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ولم تضره خطيئته»[(١)]. وتقييده بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لا يخرجه عن عمومه، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما في القرآن آية أحبّ إليّ من هذه الآية. وحَمْلُ المعتزلة على التائب، باطل؛ لأنَّ الكفرَ مغفورٌ عنه بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فما دونه أولى أن يغفر التوبة. والآية سيقت لبيان التفرقة بينهما. وذا فيما ذكرنا ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كذب كذباً عظيماً استحقَّ به عذاباً أليماً.

٤٩ ـ ونزل فيمن زكّى نفسه من اليهود والنصارى، حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويدخلُ فيها كلُّ مَن زكّى نفسه، ووصفها بزكاء العمل، وزيادة الطاعة، والتقوى ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتدُّ بها، لا تزكية غيره؛ لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية. ونحوه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم، ولا ينقص من ثوابهم ﴿فَتِيلًا﴾ قدر فتيل، وهو: ما يحدث بفتل الأصابع من الوسخ.

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٠ـ ٣٦٢).

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

٥٠ ـ ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أزكياء ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ بزعمهم هذا ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ من بين سائر آثامهم.

٥١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي: الأصنام، وكلّ ما عبدوه من دون الله ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ وذلك أن حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأنتم إلى محمد أقرب منا، وهو أقربُ منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم. ففعلوا. فهذا إيمانُهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس عليه اللعنة فيما فعلوا. فقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: أنتم أهدى سبيلاً.

٥٢ ـ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يعتدّ بنصره.

٥٣ ـ ثم وصف اليهود بالبخل والحسد، وهما من شرِّ الخصال، يمنعون مالهم، ويتمنون ما لغيرهم، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ فـ«أم» منقطعة، ومعنى الهمزة: الإنكار أن يكون لهم نصيبٌ من الملك ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ـ أي: ملك أهل الدنيا، أو ملك الله ـ فإذاً لا يؤتون أحداً مقدارَ نقير لفرط بخلهم. والنقير: النقرة في ظهر النواة. وهو مثل في القلّة كالفتيل.

٥٤ ـ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بل أيحسدون رسول الله

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

ﷺ والمؤمنين، على إنكار الحسد واستقباحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم اللهُ من النصرة، والغلبة، وازدياد العز، والتقدم كلَّ يوم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الموعظة، والفقه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني: ملك يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام. وهذا إلزامٌ لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أُوتي أسلافه.

٥٥ ـ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته. أو: من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، وأعرض عنه ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ للصَّادِّين.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أحرقت ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصليين عند أهل الحق، خلافاً للكرامية. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك الله، أي: أدامك على عزك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ غالباً بالانتقام، لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بالكافرين.

٥٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الأنجاس، والحيض، والنِّفاس. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ

وهو ما كان طويلاً فَيْناناً: لا جُوَب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسَجْسَجاً لا حرَّ فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة.

٥٨ ـ ثمَّ خاطب الولاة بأداء الأمانات، والحكم بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾. وقيل: قد دخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى؛ التي حملها الإنسان، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى. ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ قضيتم. ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالسوية، والإنصاف. وقيل: إنَّ عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة، وقد أخذ رسولُ الله ﷺ منه مفتاحَ الكعبة. فلما نزلت الآية أمر علياً ـ رضي الله عنه ـ بأن يردَّه إليه، وقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» و قرأ عليه الآية. فأسلم عثمان. فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله ﷺ أن السِّدانة في أولاد عثمان أبداً[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ «ما» نكرة منصوبة موصوفة بـ: يعظكم به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به. أو: موصولة مرفوعة المحل صلتها ما بعدها، أي: نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعما يعظكم به ذاك. وهو المأمورُ به من أداء الأمانات، والعدل في الحكم. وبكسر النون وسكون العين، مدني، وأبو عمرو. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرٗا﴾ بأعمالكم.

٥٩ ـ ولما أمر الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: الولاة، أو: العلماء؛ لأن أمرهم ينفذ على الأمراء ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي:

(١) قال ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب. انظر: حاشية الكشاف (١/ ٥٢٣).

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن الإيمان يوجب الطاعة دون العصيان. ودلَّت الآيةُ على أن طاعةَ الأمراء واجبةٌ إذا وافقوا الحق، فإذا خالفوه فلا طاعة لهم؛ لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[١]. وحُكي أنَّ مسلمةَ بن عبدالملك بن مروان قال لأبي حازم: ألستم أُمرتم بطاعتنا بقوله ﴿وأولي الأمر منكم﴾؟ فقال أبو حازم: أليس قد نزعت الطاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾؟ أي: القرآن والرسول في حياته، وإلى أحاديثه بعد وفاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الردِّ. أي: الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خَيْرٌ﴾ عاجلاً ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة.

٦٠ ـ كان بين بشر المنافق ويهودي خصومة، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ لعلمه أنه لا يرتشي، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ليرشُوَه. فاحتكما إلى النبي ﷺ، فقضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر. فقال اليهودي لعمر ـ رضي الله عنه ـ: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فأخذ سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق. فقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرّق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»[٢] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿يزعمون﴾ ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: كعب بن الأشرف. سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله ﷺ. أو: على التشبيه بالشيطان. أو جعل اختيار

(١) رواه أحمد (١/٤٠٩) و (٥/٦٦).
(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧ ـ ١٠٨).

وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

التحاكم إلى غير الله على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ مستمراً إلى الموت.

٦١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين. ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ للتحاكم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة، فيقضي لهم.

٦٢ ـ ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم، وكيف يصنعون؟ ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ من قتل عمر بشراً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك، واتهامهم لك في الحكم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: أصحاب القتيل من المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطاً لحكمك. وهذا وعيدٌ لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه، وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به.

٦٣ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ فأعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار. أو: أعرض عن عقابهم، وعظهم في عتابهم، وبلغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بارتكابهم. والبلاغة: أن يبلغ بلسانه كنه ما في جنانه. و﴿في أنفسهم﴾ يتعلق بـ: قل لهم، أي: ﴿قل لهم في﴾ معنى ﴿أنفسهم﴾ الخبيثة وقلوبهم المطوية على

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾

النفاق ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

٦٤ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: رسولاً قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقه في طاعته وتيسيره. أو: بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه؛ لأنه مؤدٍّ عن الله، فطاعته طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من النفاق، معتذرين عما ارتكبوا من الشقاق ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من النفاق والشقاق ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم. والعامل في ﴿إذ ظلموا﴾ خبر أنَّ وهو ﴿جاؤوك﴾. والمعنى: ولو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول. ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا﴾ لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم. ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان. ﴿رَّحِيمٗا﴾ بهم. قيل: جاء أعرابي بعد دفنه ﷺ فرمى بنفسه على قبره، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله! قلت فسمعنا، وكان فيما أنزل عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...﴾ الآية وقد ظلمتُ نفسي، وجئتك أستغفر الله من ذنبي، فاستغفر لي من ربي. فنُودِي من قبره: قد غفر لك!

٦٥ ـ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾ [الحجر: ٩٢] و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم. وجواب القسم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أو: التقدير ﴿فلا﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون، ثم قال: ﴿وربك لا يؤمنون﴾ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه: الشجر؛ لتداخل أغصانه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ ضيقاً ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ أي: لا تضيق صدورهم من حكمك، أو شكّاً؛ لأن الشاك في ضيق من أمره

وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لقضائك انقياداً، وحقيقته: سلم نفسه له وأسلمها، أي: جعلها سالمة له، أي: خالصة. و﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك.

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين، أي: ولو وقع كتبنا عليهم ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ﴾ أن هي المفسرة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تعرَّضوا للقتل بالجهاد، أو: ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرة ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقهم، والهاء: ضمير أحد مصدري الفعلين، وهو: القتل، أو الخروج، أو: ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (قليلاً): شامي، على الاستثناء، والرفع على البدل من واو «فعلوه» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من اتباع رسول الله ﷺ، والانقياد لحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لإيمانهم، وأبعد عن الاضطراب فيه.

٦٧ ـ ﴿وَإِذًا﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وما ذا يكون لهم بعد التثبيت؟ فقيل: ﴿وإذاً﴾ لو ثبتوا ﴿لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً لا ينقطع.

٦٨ ـ ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا﴾ مفعول ثان ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: لثبتناهم على الدِّين الحق.

٦٩ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء. والصديق: المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة. أو: الذي يصدق قوله بفعله ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والذين استشهدوا

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ۝٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾

في سبيل الله ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومن صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ أي: وما أحسن أولئك رفيقاً! وهو كالصديق، والخليط في استواء الواحد، والجمع فيه.

٧٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أو: الفضل صفته و(من الله) خبره. والمعنى: أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم، ومرافقة المنعم عليهم، من الله؛ لأنه تفضّل به عليهم. أو: أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيّتهم من الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ بعباده، وبمن هو أهل الفَضْل. ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه، بخلاف ما يقوله المعتزلة.

٧١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ الحِذْر والحَذَر بمعنى، وهو: التَّحَرُّز، وهما كالإثر والأثر. يقال: أخذ حذره؛ إذا تيقظ، واحترز من المخوف، كأنه جَعَل الحذر آلته التي يقي بها نفسه، ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو جماعات متفرقة سريّة بعد سَريّة. فالثبات: الجماعات، واحدها: ثُبَة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أي: مجتمعين، أو مع النبي ﷺ؛ لأن الجمع بدون السمع لا يتم، والعقد بدون الواسطة لا ينتظم. أو: ﴿انفروا ثبات﴾ إذا لم يعم النفير ﴿أو انفروا جميعاً﴾ إذا عَمَّ النفير. و«ثبات» حال، وكذا «جميعاً».

٧٢ ـ واللام في: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن﴾ للابتداء بمنزلتها في إن الله لغفور، ومن موصولة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ اللام جواب قسم محذوف، تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن. والقسم وجوابه صلة مَن. والضمير الراجع منها إليه ما استكن في ﴿ليبطئن﴾ أي: ليتثاقلن، وليتخلفن عن الجهاد. وبطؤ بمعنى: أبطأ، أي: تأخر. ويقال: ما بطؤ بك، فيتعدّى بالباء. والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ. وقوله ﴿منكم﴾ أي: الظاهر دون الباطن، يعني: المنافقين، يقولون: لم تقتلون أنفسكم، تأنوْا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ قتل، أو هزيمة

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ المبطِّىء ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً، فيصيبني مثل ما أصابهم.

٧٣ ـ ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتح، أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطىء متلهفاً على ما فاته من الغنيمة، لا طلباً للمثوبة ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنه ﴿لَّمْ تَكُنۢ﴾[١] وبالياء، مكي، وحفص ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ وهي اعتراضٌ بين الفعل، وهو ﴿ليقولن﴾ وبين مفعوله، وهو ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ والمعنى: كأن لم يتقدَّم له معكم موادة؛ لأنَّ المنافقين كانوا يوادُّون المؤمنين في الظاهر، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل[٢] في الباطن ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالنصيب؛ لأنه جواب التَّمنِّي ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فآخذ من الغنيمة حظاً وافراً.

٧٤ ـ ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمراد: المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة، ويستبدلونها بها. أي: إن صدّ الذين مرضت قلوبهم، وضعفت نياتهم عن القتال، فليقاتل الثابتون المخلصون. أو: يشترون. والمراد: المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة. وعظوا بأن يغيِّروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿يَكُنۢ﴾. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحمزة، وعاصم، وأبي جعفر المدني، وحفص، ورويس البرجمي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٤٥).

(٢) «الغوائل»: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

---

٧٥ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر. وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاء، وفي الإثبات للإنكار ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال، والعامل فيها الاستقرار، كما تقول: مالك قائماً؟! والمعنى: وأي شيء لكم تاركين القتال، وقد ظهرت دواعيه؟! ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿سبيل الله﴾ أي: في سبيل الله، وفي خلاص المستضعفين. أو: منصوب على الاختصاص منه، أي: واختص من سبيل الله خلاص المستضْعَفين [من المستضعِفين][1]؛ لأن سبيل الله عام في كلِّ خير، وخلاص المستضعفين المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير، وأخصّه. والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة، وصدّهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين، يَلْقَوْن منهم الأذى الشديد ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ذكر الولدان تسجيلاً بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم؛ الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس عليه السلام. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والوِلْدان ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الظالم: وصف للقرية، إلا أنه مسند إلى أهلها، فأعطي إعراب القرية؛ لأنه صفتها، وذكّر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم. كانوا يدعون الله بالخلاص، ويستنصرونه، فيسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خير وليّ وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسنَ التولي، ونصرهم أقوى

---

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

النصر. ولما خرج محمد ﷺ استعمل عتاب بن أسيد، فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان ينصر الضعيف من القوي، حتى كانوا أعزَّ بها من الظلمة.

٧٦ ـ ثمَّ رغَّب الله المؤمنين بأنهم يقاتلون في سبيل الله، فهو وليّهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولي لهم إلا الشيطان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ أي: الشيطان بقوله: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: وساوسه، وقيل الكيد: السعي في فساد الحال، على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه غرور، لا يؤول إلى محصول، أو: كيده في مقابلة نصر الله تعالى ضعيف.

٧٧ ـ كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه، فنزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرِض بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخافون أن يقاتلهم الكفار، كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين، ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الأخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: هذه خشية طبع، لا أنَّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء مجبولٌ على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالباً. و«خشية الله» من إضافة المصدر إلى المفعول، ومحلُّه النصب على الحال من الضمير في ﴿يخشون﴾ أي: يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ هو معطوف على الحال، أي: أو أشد خشية من أهل خشية الله. وأو: للتخيير، أي: أن قلت خشيتهم الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن قلت: إنها أشد فأنت مصيب؛ لأنه حصل لهم مثلها وزيادة ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ

﴿عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى الموت، فنموت على الفرش. وهو سؤالٌ عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه؛ بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة كثير دائم، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل، فكيف القليل الزائل؟! ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتل، فلا ترغبوا عنه. وبالياء، مكيّ، وحمزة، وعليّ.

٧٨ ـ ثم أخبر أنَّ الحذرَ لا ينجي من القدر بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «ما» زائدة لتوكيد معنى الشرط في أين ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ حصون، أو قصور ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرفعة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة من خصب، ورخاء. ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية من قحط، وشدَّة ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك. وذلك: أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى، وإذا أصابهم مكروه نسبوه إلى محمد ﷺ، فكذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والمضاف إليه محذوف، أي: كل ذلك، فهو يبسط الأرزاق ويقبضها ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادرٌ عن حكمة.

٧٩ ـ ثمَّ قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ياإنسان! خطاباً عاماً، وقال الزجاج: المخاطب به النبي ﷺ، والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة، وإحسان ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضُّلاً منه، وامتناناً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من بلية، ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فمن عندك، أي: فبما كسبت يداك ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أيديكم﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ لا مقدراً حتى نسبوا إليك الشدة. أو: أرسلناك للناس رسولاً، فإليك تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأنك رسوله. وقيل: هذا متصل بالأول، أي: ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ يقولون: ﴿ما أصابك﴾. وحَمْل المعتزلة الحسنة والسيئة في هذه الآية على الطاعة والمعصية، تعسُّف بيِّن. وقد نادى عليه ﴿ما أصابك﴾ إذ يقال في الأفعال: ما أصبت، ولأنهم لا يقولون الحسنات من الله خلقاً وإيجاداً، فأنّى يكون لهم حجة في ذلك؟! و﴿شهيداً﴾ تمييز.

٨٠ ـ ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتعاقبهم.

٨١ ـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا وشأننا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زور، وسوّى. فهو من البيتوتة؛ لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، أو من أبيات الشعر لأن الشاعر يدبِّرها ويُسوِّيها. وبالإدغام[1] حمزة، وأبو عمرو ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت، وما أمرت به. أو: خلاف ما قالت، وما ضمنت من الطاعة؛ لأنهم أبطنوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة، وإنما ينافقون بما يقولون، ويظهرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك مضرَّتهم، وينتقم لك منهم

(١) أي: بإدغام التاء مع الطاء ﴿بيَّت طَّائفة﴾.

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ

إذا قوي أمر الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ كافياً لمن توكل عليه.

٨٢ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أفلا يتأملون معانيه ومبانيه. والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كلِّ تأمل. والتفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل. وهذا يردُّ قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول الله ﷺ، والإمام المعصوم. ويدلُّ على صحة القياس، وعلى بطلان التقليد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضاً من حيث التوحيد، والتشريك، والتحليل، والتحريم. أو: تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضُه بالغاً حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته. أو: من حيث المعاني، فكان بعضُه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم. وأما تعلق الملاحدة بآيات يدَّعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فقد تفصّى عنها أهلُ الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانّها إن شاء الله تعالى.

٨٣ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم يكن فيهم خبرة بالأحوال. أو: المنافقون؛ كانوا إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله ﷺ من أمن، وسلامة، أو خوف، وخلل ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أفشوه، وكانت إذاعتهم مفسدة. يقال: أذاع السر، وأذاع به. والضمير يعود إلى الأمر، أو: إلى الأمن، أو: الخوف؛ لأن أو تقتضي أحدهما ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الخبر ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: رسول الله ﷺ ﴿وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعني: كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمَّرون منهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾

ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

لعَلِم تدبيرَ ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدبيره بفطنهم، وتجاربهم، ومعرفتهم بأمور الحرب ومكائدها. وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء، أو على خوف واستشعار، فيذيعونه، فينتشر، فيبلغ الأعداء، فتعود إذاعتهم مفسدة، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وفوّضوه إليهم، وكانوا كأن لم يسمعوا، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه، وما يأتون، ويذرون فيه. والنبَط: الماء الذي يخرج من البئر أول ما تُحفر. واستنباطه: استخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني، والتدابير فيما يعضل ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإنزال الكتاب ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لبقيتم على الكفر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لم يتبعوه، ولكن آمنوا بالعقل كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس ابن ساعدة، وغيرهما.

٨٤ ـ لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة، وإضمارهم خلافها، قال: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن أفردوك، وتركوك وحدك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ غير نفسك وحدها أن تُقدّمها إلى الجهاد، فإنَّ الله تعالى ناصرك لا الجنود. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها، فكره بعضُ الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرج وما معه إلا سبعون، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض على القتال فحسب، لا التعنيف بهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بطشهم وشدتهم، وهم قريش. وقد كفَّ بأسهم بالرعب فلم يخرجوا. و﴿عسى﴾ كلمة مطمعة، غير أن إطماع الكريم أعود من إنجاز اللئيم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً، وهو تمييز كـ: بأساً.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ﴾

٨٥ ـ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعاً ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مالها مفسِّر غيري: معناه: من أمر بالتوحيد، وقاتل أهل الكفر، وضده: السيئة. وقال الحسن: هو المشي بالصلح، وضده: النميمة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً. من: أقات على الشيء: اقتدر عليه، أو حفيظاً. من القوت لأنه يمسك النفس، ويحفظها.

٨٦ ـ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سُلِّم عليكم، فإنَّ التحيةَ في ديننا بالسلام في الدارين ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وكانت العرب تقول عند اللقاء: حياك الله، أي: أطال حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ هي تفعلة، من حيّا يحيّي تحية ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي: أجيبوها بمثلها. وردُّ السلام: جوابُه بمثله؛ لأن المجيب يردُّ قولَ المسلم. وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها. والتسليم سُنَّة، والرد فريضة، والأحسنُ فضل. وما من رجل يمرُّ على قوم مسلمين فيُسلِّمُ عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس، وردت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم، والأذان، والإقامة. وعند أبي يوسف ـ رحمه الله ـ: لا يسلّم على لاعب الشطرنج والنرد، والمُغنّي، والقاعد لحاجته، ومُطَيِّر الحَمَام، والعاري من غير عذر في حمام أو غيره. ويسلّم الرجل إذا دخل على امرأته، والماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾

وإذا التقيا ابتدرا. وقيل: ﴿بأحسن منها﴾ لأهل الملة ﴿أو ردوها﴾ لأهل الذمة. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم»[١] أي: وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وقوله ﷺ: «لا غرار في تسليم»[٢] أي: لا يقال عليك، بل عليكم؛ لأن كاتبيه معه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: يُحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

٨٧ ـ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر، أو اعتراض، والخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ومعناه: اللهُ، واللهِ ليجمعنكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة: القيام، كالطلابة والطلاب، وهي: قيامهم من القبور، أو: قيامهم للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو حال من يوم القيامة، والهاء يعود إلى اليوم. أو: صفة المصدر محذوف، أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء يعود إلى الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ تمييز. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه في إخباره، ووعده، ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه لقبحه؛ لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

٨٨ ـ ﴿۞ فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقاً ظاهراً، وتفرقتم فيهم فرقتين، وما لكم لم تقطعوا القول بكفرهم. وذلك أنَّ قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة. فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون. و﴿فئتين﴾ حال، كقولك: مالك قائماً؟ قال سيبويه: إذا قلت مالك قائماً؟ فمعناه: لم قمت؟ ونصبه على

(١) رواه البخاري (٦٢٥٨) ومسلم (٢١٦٣).
(٢) رواه أحمد (٢ / ٤٦١) وأبو داود (٩٢٨ و ٩٢٩). ومعنى «لا غِرار»: لا نُقصان.

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾

تأويل: أي شيء يستقرُّ لك في هذه الحال؟! ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردَّهم إلى حُكْم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين. فردوهم أيضاً، ولا تختلفوا في كفرهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ مَن جعله الله ضالاً. أو: أتريدون أن تسموهم مهتدين، وقد أظهر الله ضلالهم، فيكون تعييراً لمن سماهم مهتدين. والآية تدلُّ على مذهبنا في إثبات الكسب للعبد، والخلق للرب جلَّت قدرته ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهداية.

٨٩ ـ ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ الكاف: نعت لمصدر محذوف، وما: مصدرية، أي: ودوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على تكفرون ﴿سَوَآءً﴾ أي: مستوين أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا؛ لأنَّ الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كما كان حُكْم سائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

٩٠ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ﴾ أي: ينتهون إليهم، ويتصلون بهم. والاستثناء من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾ دون الموالاة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ القوم هم الأسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، وذلك أنه وَادَعَ قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال، والتجأ إليه، فله من الجوار مثل الذي لهلال. أي: فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطف على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم. أو: على صلة الذين، أي: إلا الذين يتصلون

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى
ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا
كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ

بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد. والحصر: الضيق، والانقباض ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم، أي: عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقوية قلوبهم، وإزالة الحصر عنها ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ عطف على «لسلطهم» ودخول اللام للتأكيد ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الانقياد، والاستسلام ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى القتال.

٩١ - ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق. هم قومٌ من أسد وغَطَفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا، وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا، ونكثوا عهودهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم على القتال المسلمين ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شرّاً فيها من كلِّ عدو ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ عطف على لم يعتزلوكم، أي: ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف عليه أيضاً، أي: ولم يمسكوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم، وظفرتم بهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنّا لكم في قتلهم.

٩٢ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له، ولا استقام، ولا لاق بحاله ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ابتداء من غير قصاص، أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدَّم إباحة دمه ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ إلا على وجه الخطأ، وهو استثناء منقطع بمعنى:

وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ

لكن، أي: لكن إن وقع خطأ. ويحتمل أن يكون صفة للمصدر، أي: إلا قتلاً خطأ. والمعنى: من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد بأن يرمي كافراً، فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر، فإذا هو مسلم ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: قتلاً خطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم؛ لأن الكرم في الأحرار، كما أن اللؤم في العبيد، ومنه عتاق الطير، وعتاق الخيل لكرامها. والرقبة: النسمة، ويعبّر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ قيل: لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولهذا منع من تصرف الأحرار. وهذا مشكل، إذ لو كان كذلك لوجب في العمد أيضاً. لكن يحتمل أن يقال: إنما وجب عليه ذلك لأن الله تعالى أبقى للقاتل نفساً مؤمنة، حيث لم يوجب القصاص، فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها، كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، فيُقْضَى منها الدين، وتنفذ الوصية، وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال. وقد ورث رسول الله ﷺ امرأةَ أشيم الضبابي من عَقْل زوجها أشيم. لكن الدية على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، أي: يعفوا عنه، والتقدير: فعليه دية في كل حال، إلا في حال التصدُّق عليه بها ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأً من قوم أعداء لكم، أي: كفرة، فالعدو يطلق على الجمع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: المقتول مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعني: إذا أسلم الحربي في دار الحرب، ولم يهاجر إلينا، فقتله مسلم خطأً، تجب

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

الكفارة بقتله للعصمة المؤثمة، وهي الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقومة بالدار، ولم توجد ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: المقتول ﴿مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين. ﴿وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وإن كان المقتول ذمياً فحكمه حكم المسلم. وفيه دليلٌ على أنَّ دية الذمي كدية المسلم، وهو قولنا ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة، أي: لم يملكها، ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قبولاً من الله، ورحمة منه، من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو فليتب توبة، فهي نصب على المصدر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قدر.

٩٣ ـ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير القاتل، أي: قاصداً قتله لإيمانه، وهو كفر، أو قتله مستحلاً لقتله، وهو كفر أيضاً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: إن جازاه. قال ﷺ: «هي جزاؤه إن جازاه»(١). والخلود قد يراد به طول المقام. وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: انتقم منه، وطرده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لارتكابه أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً. في الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم»(٢).

٩٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سرتم في طريق الغزو.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٦٢٧).
(٢) رواه الترمذي (١٣٩٥).

﴿فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فتثبتوا، حمزة، وعليّ. وهما من التفعل بمعنى الاستفعال. أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته، ولا تهوكوا فيه[1] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ السَلَم: مدني، وشامي، وحمزة. وهما الاستسلام، وقيل: الإسلام، وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ في موضع النصب بالقول. روي أنَّ مرداس بن نهيك أسلم، ولم يُسْلم من قومه غيره، فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ فهربوا، وبقي مرداس لثقته بإسلامه، فلما رأى الخيلَ ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصَعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر، ونزل، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه؟!» ثم قرأ الآية على أسامة[2] ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبت، وقلّة البحث عن حال مَن تقتلونه. والعَرَض: المال، سُمِّي به لسرعة فنائه. و﴿تبتغون﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿تقولوا﴾ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكموها، تغنيكم عن قتل رجل يُظهر الإسلام، ويتعوّذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم. والكاف في ﴿كذلك﴾ خبر كان، وقد تقدم عليها وعلى اسمها ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة، والاشتهار بالإيمان، فافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ كرَّر الأمر بالتبين ليؤكّد عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تتهافتوا في القتل، وكونوا محترزين، محتاطين في ذلك.

---

(١) «لا تهوكوا فيه»: أي: لا تتحيروا أو تخبطوا بلا مبالاة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/ ٥٥٢).

لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ

٩٥ ـ ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالنصب: مدني، وشامي، وعليّ؛ لأنه استثناء من القاعدين، أو حال منهم. وبالجر: عن حمزة، صفة للمؤمنين. وبالرفع: غيرهم، صفة للقاعدين. والضرر: المرض، أو العاهة من: عمى، أو عرج، أو زمانة، أو نحوها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿القاعدون﴾. ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، وتوبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ ذكر هذه الجملة بياناً للجملة الأولى، موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل: ما لهم لا يستوون؟! فأجيب بذلك ﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: كأنه فضلهم تفضلة، كقولك: ضربه سوطاً. ونصب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل فريق من القاعدين والمجاهدين، ونصب لأنه مفعول أول؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ والثاني ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩٦ ـ ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: انتصب ﴿أجراً﴾ بـ«فضَّل» لأنه في معنى أجرهم أجراً. ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من «أجراً». أو انتصب «درجات» نصب «درجة»، كأنه قيل: فضلهم تفضيلات، كقولك: ضربه أسواطاً، أي: ضربات، و﴿أجراً عظيماً﴾ على أنه حال من النكرة؛ التي هي درجات مقدمة عليها. ومغفرة ورحمة بإضمار فعلهما، أي: وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة. وحاصله: أنَّ الله تعالى فضّل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة؛ وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبي ﷺ اكتفاء بغيرهم،

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

درجات؛ لأنَّ الجهادَ فرضُ كفاية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ بتكفير العذر ﴿رَّحِيمًا﴾ بتوفير الأجر.

٩٧ ـ ونزل فيمن أسلم ولم يهاجر، حين كانت الهجرة فريضة، وخرج مع المشركين إلى بدر مرتداً فقتل كافراً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يجوز أن يكون ماضياً لقراءة من قرأ (توفتهم) ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين. والتوفي: قبض الروح. والملائكة: ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال من ضمير المفعول في توفاهم، أي: في حال ظلمهم أنفسهم بالكفر، وترك الهجرة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة للمتوفَّين ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟ ومعناه: التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين عن الهجرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الملائكة موبخين لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد؛ التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ. ونصب ﴿فتهاجروا﴾ على جواب الاستفهام ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ خبر «إن»: ﴿فأولئك﴾. ودخول الفاء لما في الذين من الإبهام المشابه بالشرط. أو: ﴿قالوا فيم كنتم﴾ والعائد محذوف، أي: قالوا لهم. والآية تدلُّ على أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره حقّت عليه المهاجرة. وفي الحديث: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استُوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»[(١)].

٩٨ ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثنى من أهل الوعيد

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي مرسلاً. (حاشية الكشاف ١/ ٥٥٥).

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ في الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ولا معرفة لهم بالمسالك. و﴿لا يستطيعون﴾: صفة للمستضعفين، أو: للرجال، والنساء، والولدان. وإنما جاز ذلك والجمل نكرات؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف، فليس بشيء بعينه، كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني[1] ... ...

٩٩ ـ ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله واجب؛ لأنَّ الكريم إذا أطمع أنجز ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده قبل أن يخلقهم.

١٠٠ ـ ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مهاجَراً وطريقاً، يراغم بسلوكه قومَه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل، والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرَّغام، وهو التراب. يقال: راغمت الرجل؛ إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلّة تلحقه بذلك ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق، أو في إظهار الدين، أو في الصدر؛ لتبدُّل الخوف بالأمن ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في ﴿يخرج﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مهاجَره. وهو عطف على ﴿يخرج﴾ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حصل له الأجر بوعد الله. وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجبُ على الله لأحدٍ من خلقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قالوا: كل هجرة لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهداً، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله.

(١) صدر بيت، وعجزه: فمضيت ثمة قلت لا يعنيني.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

١٠١ ـ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها، فالضرب في الأرض هو السفر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾ في أن تقصروا ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة، فتصلوا الرباعية ركعتين. وظاهر الآية يقتضي أنَّ القصر رخصة في السفر، والإكمال عزيمة، كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ لأن «لا جناح» يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة. وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولا يجوز الإكمال لقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر، فنفى عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر، ويطمئنوا إليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل، أو جرح، أو أخذ. والخوف: شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص. وعند الجمهور ليس بشرط؛ لما روي عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أمنّا؟ فقال: عجبت مما تعجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»(١). وفيه دليلٌ على أنه لا يجوز الإكمال في السفر؛ لأنَّ التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتملُ الرد، وإن كان المتصدّق ممن لا تلزم طاعته كوليّ القصاص إذا عفا، فمن تلزم طاعته أولى. ولأنَّ حالهم حين نزول الآية كذلك، فنزلت على وفق الحال. وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] دليله قراءة عبد الله (من الصلاة أن يفتنكم) أي: لئلا يفتنكم. على أنَّ المراد بالآية قصر الأحوال، وهو أن يومىء على الدابة عند الخوف، أو يخفّف القراءة والركوع والسجود والتسبيح، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فتحرّزوا عنهم.

(١) رواه أحمد (١/ ٢٥) ومسلم (٦٨٦) وأبو داود (١١٩٩) والترمذي (٣٠٣٤) وابن ماجه (١٠٦٥).

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ

١٠٢ ـ ﴿ وَإِذَا كُنتَ ﴾ يا محمد ﴿ فِيهِمْ ﴾ في أصحابك ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فأردت أن تقيم الصّلاة بهم. وبظاهره تعلّق أبو يوسف ـ رحمه الله ـ فلا يرى صلاة الخوف بعده عليه الصلاة والسلام. وقالا: الأئمة نواب عن رسول الله ﷺ في كل عصر، فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام، كقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. دليله فعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعده عليه الصلاة والسلام. ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك فصلّ بهم، وتقوم طائفة تُجاه العدو ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ أي: الذين تجاه العدو. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وإن كان المراد به المصلين، فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة، كالسيف، والخنجر، ونحوهما ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ ﴾ أي: قيدوا ركعتهم بسجدتين. فالسجود على ظاهره عندنا، وعند مالك بمعنى الصلاة ﴿ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ أي: إذا صلّت هذه الطائفة التي معك ركعة، فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو ﴿ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ ﴾ في موضع رفع صفة لطائفة ﴿ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ أي: ولتحضر الطائفة الواقفة بإزاء العدوّ، فليصلّوا معك الركعة الثانية ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ ﴾ ما يتحرّزون به من العدو، كالدرع، ونحوه ﴿ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ جمع سلاح، وهو: ما يقاتل به. وأخذ السلاح شرط عند الشافعي ـ رحمه الله ـ، وعندنا مستحب. وكيفية صلاة الخوف معروفة ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴾ أي: تمنّوا أن ينالوا منكم غرّة في صلاتكم ﴿ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ فيشدّون عليكم شدة واحدة ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ ﴾ في أن تضعوا ﴿ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ رخّص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل

إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

عليهم حملها، بسبب ما يبلّهم من مطر، أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا، فيهجم عليهم العدو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم، وإنما هو تعبُّد من الله تعالى.

١٠٣ ـ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فرغتم منها ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي: دوموا على ذِكْر الله في جميع الأحوال. أو: فإذا أردتم أداء الصلاة فصلّوا قياماً إن قدرتم عليه، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ ﴾ سكنتم بزوال الخوف ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فأتمّوها بطائفة واحدة. أو: إذا أقمتم فأتموا ولا تقصُروا. أو: إذا اطمأننتم بالصحة فأتموا القيام، والركوع، والسجود ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة.

١٠٤ ـ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ ولا تضعفوا، ولا تتوانوا ﴿ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ في طلب الكفار بالقتال، والتعرض به لهم. ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أي: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؟! مع أنكم أجدر منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون؛ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿ حَكِيمًا ﴾ في تدبير أمورهم.

١٠٥ ـ رُوي أن طُعمة بن أبيرق ـ أحد بني ظَفَر ـ سرق درعاً من جارٍ له اسمه قتادة بي النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثرُ من خرقٍ فيه،

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾

وخبأها عند زيد بن السمين ـ رجل من اليهود ـ فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها، وماله بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طعمة، وشهد له ناسٌ من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعلْ هلك صاحبنا، وافتضح، وبرىء اليهودي، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحقّاً ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما عرَّفك، وأوحى به إليك. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزَّلة. وفيه دلالة جواز الاجتهاد في حقه ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا﴾ مخاصماً، أي: ولا تخاصم اليهود لأجل بني ظفر.

١٠٦ ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

١٠٧ ـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية. جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن الضرر راجع إليهم. والمراد به: طعمة، ومَن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق. أو: ذكر بلفظ الجمع ليتناول طعمة، وكلّ من خان خيانته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإنما قيل بلفظ المبالغة؛ لأنه تعالى عالم من طعمة أنه مُفْرط في الخيانة، وركوب المآثم. وروي أنَّ طعمة هرب إلى مكة، وارتد، ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أنَّ لها أخوات. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي، وتقول: هذه أوّل سرقة سرقها فاعفُ عنه، فقال: كذبتِ إن الله لا يؤاخذُ عبده في أول مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ

١٠٨ ـ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حياء منهم، وخوفاً من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم، مطَّلع عليهم، لا يخفى عليه خافٍ من سرّهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم أنّهم في حضرته لا سُترة، ولا غيبة ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبّرون. وأصله: أن يكون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد لِيُسَرَّق دونه، ويحلف أنه لم يسرقها. وهو دليلٌ على أنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، حيث سمّى التدبير قولاً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ عالماً علم إحاطة.

١٠٩ ـ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها للتنبيه في «أنتم»، و«أولاء»، وهما مبتدأ وخبر. و﴿جادلتم﴾ خاصمتم وهي جملة مبينة لوقوع «أولاء» خبراً، كقولك لبعض الأسخياء: أنتِ حاتم تجود بمالك. أو: «أولاء» اسم موصول بمعنى الذين، وجادلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة، وقومه ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرىء: عنه، أي: عن طعمة ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله، وعذابه.

١١٠ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ ذنباً دون الشرك ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بالشرك. أو ﴿سوءاً﴾ قبيحاً يتعدى ضرره إلى الغير، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختصُّ به كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ يسأل مغفرته. ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ له. وهذا بعثٌ لطعمة على الاستغفار والتوبة.

١١١ ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ وباله عليها ﴿وَكَانَ

ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا
وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ
فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ

﴿ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقب بالذنب غير فاعله.

١١٢ ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. أو: الأول ذنب بينه وبين ربه، والثاني ذنب في مظالم العباد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا﴾ كذباً عظيماً ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنباً ظاهراً، وهذا لأنه بكسب الإثم آثم، وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين. والبهتان: كذب يَبهَت من قيل عليه مالا علم له به.

١١٣ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: عصمته، ولطفه من الاطلاع على سرهم ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من بني ظفر. أو: المراد بالطائفة بنو ظفر، والضمير في ﴿منهم﴾ يعود إلى الناس. ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق، وتوخّي طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني صاحبهم. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأنَّ وباله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك. ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين، والشرائع، أو من خفيّات الأمور، وضمائر القلوب ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فيما علّمك، وأنعم عليك.

١١٤ ـ ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من تناجي الناس. ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر. وهو مجرور بدل من «كثير» أو من «نجواهم»، أو منصوب على الانقطاع بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففي نجواه الخير. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: قرض، أو إغاثة ملهوف، أو كلّ جميل. أو: المراد بالصدقة: الزكاة، وبالمعروف: التطوع. ﴿أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي:

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ
ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ
جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا

إصلاح ذات البين. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلب رضا الله. وخرج عنه من فعل ذلك رياء، أو ترؤساً. وهو مفعول له. والإشكال أنه قال: ﴿إلا من أمر﴾ ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ والجواب أنه ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله؛ لأنه إذا دخل الآمر به في زمرة الخيّرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل، وقرن به الوعد بالأجر العظيم. أو: المراد من يأمر بذلك، فعبّر عن الأمر بالفعل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يؤتيه: أبو عمرو، وحمزة.

١١٥ ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل، وظهور الرشد ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي. وهو دليلٌ على أنَّ الإجماعَ حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة؛ لأن الله تعالى جمع بين اتِّباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاقّة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتِّباعهم واجباً كموالاة الرسول ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، وندعه وما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ في العقبى ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ قيل: هي في طعمة، وارتداده.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مرَّ تفسيره في هذه السورة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الصواب.

١١٧ ـ ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى، وهي: اللات، والعزّى، ومناة، ولم يكن حيّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه: أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾

أصنامهم: هنّ بنات الله ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ ما يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام، فأطاعوه، فجعلت طاعتهم له عبادة ﴿مَّرِيدًا﴾ خارجاً عن الطاعة، عارياً عن الخير، ومنه: الأمرد.

١١٨ ـ ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ صفتان، يعني: شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعاً واجباً لـي، من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، وواحد لله.

١١٩ ـ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بالدعاء إلى الضلالة، والتزيين، والوسوسة، ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضلَّ الكل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ولألقين في قلوبهم الأماني الباطلة من: طول الأعمار، وبلوغ الآمال ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البتك: القطع، والتبتيك: للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام. كانوا يشقّون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ بفقوء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب، أو: بالخصاء. وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم. أو بالوشم، أو: بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو: بالتحريم والتحليل، أو: بالتخنث، أو: بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ لقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ في الدارين.

١٢٠ ـ ﴿يَعِدُهُمْ﴾ يوسوسهم إليهم أن لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو أن يرى شيئاً يظهر خلافه.

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

---

١٢١ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً، ومفراً.

١٢٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتبعوا الشيطان في الأمر بالكفر ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقرأ النخعي: سيدخلهم ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ قولاً. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه. وهو تأكيد ثالث. وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

١٢٣ ـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم ـ أيها المشركون ـ أن تنفعكم الأصنام ﴿وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: من المشركين وأهل الكتاب، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده:

١٢٤ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقوله: ﴿وهو مؤمن﴾ حال. ومَنْ الأولى: للتبعيض، والثانية: لبيان الإبهام فيمن يعمل. وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يُدخَلون: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر النقير، وهو: النقرة في ظهر النواة. والراجع في ﴿ولا يظلمون﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

عند الآخر. وقوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ بعد ذكر تمني أهل الكتاب، كقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] وقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ عقيب قوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾.

١٢٥ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، وجعلها سالمة له، لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، وهو حال من المتَّبِع، أو: من إبراهيم ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ هو في الأصل: المخالّ، وهو: الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو: يداخلك خلال منزلك، أو: يسد خللك كما يسدّ خلله. فالخلة: صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار. والمحبة أصفى؛ لأنها من حبة القلب. وهي جملة اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب كقوله:

. . . . . . والحــوادث جمــة[١] . . . .

وفائدتها: تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن مَن بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملّته وطريقته. ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى. وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام»[٢]. وقيل: أوحي إليه: إنما اتخذتك خليلاً لأنك تحبُّ أن تُعْطِي ولا تُعْطى. وفي رواية: لأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

---

(١) البيت بتمامه:

يـاليـت شعـري والحـوادث جمـة هـل أغـدونْ يـومـاً وأمـري مجمـع

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٦١٦).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

---

١٢٦ ـ وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذه خليلاً لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى إليه؛ لأنه مُنَزَّه عن ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ عالماً.

١٢٧ ـ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ ويسألونك الإفتاء في النساء. والإفتاء: تبيين المبهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الله يفتيكم، والمتلو في الكتاب، أي: القرآن في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣] وهو من قولك: أعجبني زيد وكرمه. «وما يتلى» في محل الرفع بالعطف على الضمير في «يفتيكم» أو: على لفظ «الله». و﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناهن. ويجوز أن يكون «في يتامى النساء» بدلاً من ﴿فيهن﴾. والإضافة بمعنى من ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضمُّ اليتيمة إلى نفسه ومالَها، فإن كانت جميلة تزوّجها، وأكل المال، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوّج حتى تموت، فيرثها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهن لجمالهن، أو: عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي: اليتامى، وهو مجرور معطوف على يتامى النساء. وكانوا في الجاهلية إنما يورّثون الرجال القوّام بالأمور، دون الأطفال والنساء ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا، أو: منصوب بمعنى: ويأمركم أن تقوموا. وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي: فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

١٢٨ ـ ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقعت منه ذلك؛ لما لاح لها من مخايله، وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته، وأن يؤذيها بسبٍّ، أو ضرب ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها؛ بأن يقلَّ محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن، أو دمامة، أو شيء[1] في خُلُق أو خَلْق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ كوفي، (يَصَّالحا) غيرهم. أي: يتصالحا، وهو أصله، فأبدلت التاء صاداً، وأدغمت ﴿صُلْحًا﴾ في معنى مصدر كلّ واحد من الفعلين. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها، أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، أو من النشوز، أو: من الخصومة في كلِّ شيء. أو: ﴿والصلح خير﴾ من الخيور، كما أن الخصومة شرّ من الشرور. وهذه الجملة اعتراض، كقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي: جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والمراد: أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمها، والرجل لا يكاد يسمح بأن يقسم لها إذا رغب عنها، فكلّ واحد منهما يطلب ما فيه راحته. وأحضرت يتعدَّى إلى مفعولين، والأول: الأنفس. ثم حثّ على مخالفة الطبع، ومتابعة الشرع بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهن، وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحقِّ الصحبة ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى، والخصومة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان، والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيثيبكم عليه.

وكان عمران الخارجي من أدمّ بني آدم، وامرأته من أجملهم فنظرت إليه، وقالت: الحمد لله على أني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ فقالت: لأنك

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: سوء.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

رزِقْتَ مثلي فشكرت، ورزقتُ مثلك فصبرتُ، والجنة موعودة للشاكرين والصابرين.

١٢٩ ـ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة. فتمام العدل أن يسوّي بينهن بالقسمة، والنفقة، والتعهد، والنظر، والإقبال، والممالحة، والمفاكهة، وغيرها. وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»(١). يعني: المحبة؛ لأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت أحبّ إليه ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغتم في تحرّي ذلك ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها. يعني: أن اجتناب كل الميل في حدّ اليسر، فلا تفْرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كلّه. وفيه ضرب من التوبيخ. وكلّ نصب على المصدر؛ لأن له حكم ما يضاف إليه ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي: التي ليست بذات بعل، ولا مطلّقة ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ بينهن. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجور ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ميل قلوبكم، ويرحمكم فلا يعاقبكم.

١٣٠ ـ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: إن لم يصطلح الزوجان على شيء، وتفرقا بالخلع، أو بتطليقه إياها، وإيفائه مهرها، ونفقة عِدَّتها ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ كل واحد منهما ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من غناه، أي: يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ بتحليل النكاح ﴿حَكِيمًا﴾ بالإذن في السراح. فالسعة: الغِنَى والقُدرة. والواسع: الغَنِيُّ المُقْتَدِر.

(١) رواه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

---

١٣١ ـ ثم بَيَّنَ غِناه وقدرته بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً، والمتملكون عبيده رقاً ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية ﴿مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم السالفة، وهو متعلق بـ«وصينا» أو بـ«أوتوا» ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بأن اتقوا، أو: تكون «أن» المفسرة لأنَّ التوصية في معنى القول. والمعنى: أنَّ هذه وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده ـ ولستم بها مخصوصين ـ لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ ﴾ عطف على «اتقوا» لأن المعنى: أمرناهم، وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا ﴾ عن خلقه، وعن عبادتهم ﴿ حَمِيدًا ﴾ مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد. وتكرير قوله: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأن الخلق لما كان كله له، وهو خالقهم ومالكهم، فحقه أن يكون مطاعاً في خَلْقه غير معصى. وفيه دليلٌ على أن التقوى أصلُ الخير كله. وقوله: ﴿وإن تكفروا﴾ عقيب التقوى دليلٌ على أنَّ المراد: الاتقاء عن الشرك.

١٣٢ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ فاتخذوه وكيلاً، ولا تتكلوا على غيره.

١٣٣ ـ ثم خوَّفهم وبين قدرته بقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعدمكم ﴿ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو: خلقاً آخرين غير الإنس ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ بليغ القدرة.

١٣٤ ـ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فماله يطلب أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ

أخسّهما ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ للأقوال ﴿بَصِيرًا﴾ بالأفعال. وهو وعد ووعيد.

١٣٥ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبر بعد خبر ﴿لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهاداتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم. والشهادة على نفسه هي: الإقرار على نفسه؛ لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق، وهذا لأنَّ الدعوى والشهادة والإقرار يشترك جميعها في الإخبار عن حق لأحد على أحد. غير أنَّ الدعوى: إخبار عن حقّ لنفسه على الغير، والإقرار: للغير على نفسه، والشهادة للغير على الغير ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على آبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا يمنع الشهادة: عليه لغناه طلباً لرضاه. ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا يمنعها ترحُّماً عليه ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير، أي: بالنظر لهما والرحمة. وإنما ثنى الضمير في بهما، وكان حقه أن يوحّد؛ لأن المعنى: إن يكن أحد هذين، لأنه يرجع إلى ما دل عليه قوله: «غنياً أو فقيراً» وهو جنس الغني والفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ إرادة ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ عن الحق من: العدول، أو: كراهة أن تعدلوا بين الناس من العدل ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾[1] بواو واحدة وضم اللام: شامي، وحمزة، من: الولاية ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ أي: وإن وليتم إقامة الشهادة، أو أعرضتم عن إقامتها. غيرهما: تلووا بواوين وسكون اللام، من: اللّيّ، أي: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم، وتمنعوها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

١٣٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامِنُواْ﴾ اثبتوا على

(١) في الأصل المخطوط أثبت قراءة: ﴿تلووا﴾.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ
وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

الإيمان، ودوموا عليه. أو: لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل، وكفروا ببعض. أو: للمنافقين، أي: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمِنوا إخلاصاً ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، ويدل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾. ﴿نُزِّل﴾ و﴿أُنْزِل﴾: مكي، وشامي، وأبو عمرو. وعلى البناء للفاعل فيهما: غيرهم. وإنما قيل: نزّل على رسوله، وأنزل من قبل؛ لأن القرآن نزل مفرقاً منجماً في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأن الكفر ببعضه كُفْر بكلّه.

١٣٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى عليه السلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى بعد عوده ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة. أو: هم المنافقون آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر مرة بعد أخرى، وازدياد الكفر منهم: ثباتهم عليه إلى الموت. يؤيده قوله:

١٣٨ ـ ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي: أخبرهم. ووضع ﴿بشّر﴾ مكانه تهكماً بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً.

١٣٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصب على الذم، أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو: هم الذين ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ كان المنافقون يوالون الكفرة، يطلبون منهم المَنَعَة والنُّصْرة، ويقولون: لا يتمّ أمر محمد ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولمن أعزّه كالنبي ﷺ، والمؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ

١٤٠ ـ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح النون: عاصم. وبضمها: غيره ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن. والخوض: الشروع. و«أن» مخففة من الثقيلة، أي: إنه إذا سمعتم. أي: نزل عليكم أن الشأن كذا. والشأن: ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها. وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع بـ«نُزِّل»، أو: في موضع النصب بـ«نَزَّل». والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فنُهي المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الوزر إذا مكثتم معهم. ولم يُرِدْ به التمثيل من كلِّ وجهٍ، فإن خوض المنافقين فيه كفر، ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء.

١٤١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من «الذين يتخذون»، أو صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم ما يتجدَّد لكم من ظفر، أو إخفاق[1] ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصرة، وغنيمة ﴿قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين، فأشركونا في الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سمَّى ظفر المسلمين فتحاً؛ تعظيماً لشأنهم؛ لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء، وظفر

(١) «إخفاق»: أخفق الرجل: إذا غزا ولم يغنم.

قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم؛ لأنه لُمْظة[1] من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكفار ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ ألم نغلبكم، ونتمكّن من قتلكم، فأبقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، والغلبة. ﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأن ثبّطناهم عنكم، وخيّلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به، ومرضوا عن قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم. فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فيدخل المنافقين النار، والمؤمنين الجنة ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في القيامة؛ بدليل أوّل الآية، كذا عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ. أو: حجة، كذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

١٤٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر. والمنافق: مَن أظهر الإيمان، وأبطن الكفر. أو: أولياءَ الله وهم المؤمنون. فأضاف خداعهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدَّ لهم الدَّرْك الأسفل من النار في العقبى. والخادع: اسم فاعل من: خادعته فخدعته: إذا غلبته، وكنت أخدع منه. وقيل: يجزيهم جزاء خداعهم ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كراهة. أما الغفلة فقد يُبتلى بها المؤمن. وهو جمع كسلان، كسكارى في سكران ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ حال، أي: يقصدون بصلاتهم الرياء، والسمعة. والمراءاة: مفاعلة من الرؤية؛ لأن المرائي يريهم عمله، وهم يُرُونه استحساناً ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يصلون إلا قليلاً؛ لأنهم لا يصلّون قط غائبين

---

(١) «المظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

عن عيون الناس. أو: لا يذكرون الله بالتسبيح، والتهليل إلا ذكراً قليلاً نادراً. قال الحسن: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً.

١٤٣ ـ ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ نصب على الذم، أي: مردَّدين، يعني: ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم متردّدون بينهما، متحيرون. وحقيقة المذبذب: الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين، أي: يُدْفَع فلا يقرّ في جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء، فيكونوا مؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء، فيسمون مشركين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهدى.

١٤٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة في تعذيبكم.

١٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ[1] ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: في الطبق الذي في قعر جهنم، والنار سبع دَرَكات. سُمِّيت بذلك لأنها متداركة، متتابعة، بعضها فوق بعض. وإنما كان المنافقُ أشدَّ عذاباً من الكافر؛ لأنه أمن السيف في الدنيا فاستحق الدرك الأسفل في العقبى تعديلاً، ولأنه مثله في الكفر، وضمَّ إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله. والدرْك ـ بسكون الراء ـ كوفي، غير الأعشى. وبفتح الراء: غيرهم، وهما لغتان، وذكر الزجّاج أن الاختيار فتح الراء. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يمنعهم من العذاب.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿الدَّرَك﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبي بكر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٧٥).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾

١٤٦ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من النفاق، وهو استثناء من الضمير المجرور في ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم، وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخلّص ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين، ورفاقهم في الدارين ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ فيشاركونهم فيه. وحذفت الياء في الخط هنا إتباعاً للفظ.

١٤٧ ـ ثمَّ استفهم مقرّراً أنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ﴾ لله ﴿وَءَامَنتُمۡ﴾ به. فـ«ما» منصوبة بـ«يفعل». أي: أيّ شيء يفعل بعذابكم. فالإيمان: معرفة المنعم. والشكر: الاعتراف بالنعمة. والكفر بالمنعم والنعمة عناد؛ فلذا استحق الكافر العذاب. وقدّم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر مُتقدِّماً على الإيمان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم، أو: يقبل اليسير من العمل، ويعطي الجزيل من الثواب ﴿عَلِيمٗا﴾ عالماً بما تصنعون.

١٤٨ ـ ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ولا غير الجهر، ولكن الجهر أفحش ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جهر من ظلم. استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء. وقيل: ﴿الجهر بالسوء من القول﴾ هو الشتم ﴿إلا من ظلم﴾ فإنه إن ردّ عليه مثله فلا حرج عليه ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بظلم الظالم.

إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

١٤٩ ـ ثمَّ حثَّ على العفو، وألا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به، حثاً على الأفضل. وذكر إبداء الخير وإخفاءه تسبيباً للعفو، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ مكان جهر السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سراً. ثم عطف العفو عليهما فقال: ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: تمحوه عن قلوبكم. والدليل على أن العفو هو المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: أنه لم يزل عفواً عن الآثام، مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بِسُنَّته.

١٥٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، والإنجيل، والقرآن. وكالنصارى كفروا بمحمد ﷺ، والقرآن. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة بينهما.

١٥١ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر؛ لأن الكفر بواحد كفر بالكلّ ﴿حَقًّا﴾ تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هذا عبد الله حقّاً، أي: حقّ ذلك حقّاً، وهو كونهم كاملين في الكفر. أو: هو صفة لمصدر الكافرين، أي: هم الذين كفروا كفراً حقاً، ثابتاً، يقيناً، لا شك فيه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ في الآخرة.

١٥٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وإنما جاز دخول «بين» على أحد؛ لأنه عام في الواحد، المذكر، والمؤنث، وتثنيتهما،

أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ

وجمعهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾[(١)] وبالياء، حفص ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي: الثواب الموعود لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يستر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يقبل الحسنات. والآية تدلُّ على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة؛ لأنه أخبر أنَّ مَن آمن بالله ورسوله، ولم يفرّق بين أحد منهم يؤتيه أجره. ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله، ولم يفرّق بين أحد منهم، فيدخل تحت الوعد. وعلى بطلان قول مَن لا يقول بقدم صفات الفعل من المغفرة والرحمة؛ لأنه قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وهم يقولون: ما كان الله غفوراً رحيماً في الأزل، ثم صار غفوراً رحيماً.

١٥٣ ـ ولما قال فنحاص وأصحابه للنبي ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام، نزل: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ﴾ وبالتخفيف: مكي، وأبو عمر ﴿كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جملة كما نزلت التوراة جملة. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. وقال الحسن: ولو سألوه مسترشدين لأعطاهم؛ لأنَّ إنزالَ القرآن جملة ممكن ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ هذا جواب شرط مقدّر، معناه: إن استكبرت ما سألوه منك، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك. وإنما أسند السؤال إليهم؛ وقد وجد من آبائهم في أيام موسى عليه السلام، وهم النقباء السبعون؛ لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، أي: أرنا نره جهرة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه، أو بالتحكم على نبيهم في الآيات، وتعنّتهم في سؤال الرؤية، لا بسؤال الرؤية؛ لأنها ممكنة كإنزال القرآن جملة،

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿نؤتيهم﴾. وهي قراءة: حمزة، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٢/ ١٧٦).

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق، فإنه قال: ﴿ربّ أرني أنظر إليك﴾ وما أخذته الصاعقة، بل أطمعه وقيّده بالممكن، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت، ثم أحياهم ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ التوراة، والمعجزات التسع ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ﴾ تفضلاً، ولم نستأصلهم ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة ظاهرة على مَن خالفه.

١٥٤ ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا، فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ والطور مطلّ عليهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب إيلياء مطأطئين عند الدخول رؤوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا الحد ﴿تعَدّوا﴾: ورش. ﴿تعْدّوا﴾ بإسكان العين وتشديد الدال: مدني غير ورش. وهما مدغماً (تعتدوا). وهي قراءة أبيّ، إلا أنه أدغم التاء في الدال، وأبقى العين ساكنة في رواية، وفي رواية نقل فتح التاء إلى العين ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بأخذ السمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً مؤكداً.

١٥٥ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ أي: فبنقضهم. وما: مزيدة للتوكيد. والباء يتعلق بقوله: ﴿حرّمنا عليهم طيّبات﴾ تقديره: حرّمنا عليهم طيبات بنقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ بدل من قوله: ﴿فبما نقضهم﴾. ومعنى التوكيد: تحقيق أنَّ تحريمَ الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد، وما عطف عليه من الكفر، وقتل الأنبياء، وغير ذلك ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: معجزات موسى عليه السلام ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: محجوبة لا يتوصل إليها شيء من الذكر، والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾

﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ هو ردّ وإنكار لقولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

١٥٦ ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوف على ﴿فبما نقضهم﴾ أو: على ما يليله من قوله: ﴿بكفرهم﴾. ولما تكرر منهم الكفر؛ لأنهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد ﷺ عطف بعض كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هو النسبة إلى الزنىٰ.

١٥٧ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سُمِّي مسيحاً لأن جبريل عليه السلام مسحه بالبركة، فهو ممسوح، أو: لأنه كان يمسحُ المريض[(١)]، والأكمه، والأبرص فيبرأ، فسمِّي مسيحاً بمعنى الماسح ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسول الله، لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا: ﴿ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾. ويحتمل: أن الله وصفه به وإن لم يقولوا ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رُوي أنَّ رهطاً من اليهود سبّوه، وسبّوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي، وبكلمتك خلقتني، اللهم العن مَن سبني وسبَّ والدتي. فمسخ الله من سبّهما قردة وخنازير. فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء، ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلْقَى عليه شبهي فيُقْتَل، ويُصْلَب، ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا! فألْقَى الله عليه شبهه، فقُتل، وصلب. وقيل: كان رجل ينافق عيسى، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى، ورُفع عيسى، وألقى الله شبهه على المنافق، فدخلوا عليه، فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى، وجاز هذا على قوم متعنتين حكَم الله بأنهم لا يؤمنون. و﴿شُبِّه﴾ مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿لهم﴾ كقولك: خيّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع

(١) الأرجح أن لفظة «المسيح» سريانية، وأصلها «مشيحا» فعربتها العرب، ومن الأسلم عدم الخوض في البحث عن معناها في اللغة العربية. انظر تاج العروس (٧/ ١٢٤).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾

لهم التشبيه. أو مسند إلى ضمير المقتول لدلالة: ﴿إنا قتلنا﴾ عليه، كأنه قيل: ﴿ولكن شبه لهم﴾ من قتلوه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ في عيسى، يعني: اليهود قالوا: إن الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، أو: اختلف النصارى قالوا: إله، وابن إله، وثالث ثلاثة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن. وإنما وصفوا بالشك، وهو: ألا يترجَّح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن، وهو أن يترجح أحدهما؛ لأن المراد: أنهم شاكون ما لهم به من علم، ولكن إن لاحت لهم أمارة، فظنوا فذاك. وقيل: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في قتله ﴿لفي شك منه﴾ أي: من قتله، لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: قتلاً يقيناً، أو: ما قتلوه متيقنين، أو: ما قتلوه حقاً، فيجعل يقيناً تأكيداً لقوله: ﴿وما قتلوه﴾ أي: حق انتفاء قتله حقاً.

١٥٨ ـ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله، أو: إلى السماء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر من رفعه إليه.

١٥٩ ـ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ «ليؤمننَّ به»: جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف، تقديره: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أحد ﴿إلا ليؤمنن به﴾. ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]. والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. أو: الضميران لعيسى، يعني: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. رُوي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ
مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

الإسلام. أو الضمير في ﴿به﴾ يرجع إلى الله، أو إلى محمد ﷺ، والثاني: إلى الكتابي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذّبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

١٦٠ ـ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي ما ذكر في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية. والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه وهو ما عُدِّدَ قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، أو: صداً كثيراً.

١٦١ ـ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وكان الربا محرماً عليهم، كما حرم علينا، وكانوا يتعاطونه ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة، وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٦٢ ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون فيه، المتقون، كابن سلام وأضرابه. وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون منهم، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: سائر الكتب ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة.

وفي مصحف عبد الله (والمقيمون) وهي قراءة مالك بن دينار، وغيره ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مبتدأ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ عطف عليه، والخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبالياء: حمزة.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾

١٦٣ ـ ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجه عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ كـ: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ﴿زُبوراً﴾ حمزة. مصدر بمعنى مفعول، سُمِّي به الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

١٦٤ ـ ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿أوحينا إليك﴾ وهو: أرسلنا، ونبأنا ﴿قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر، أول الرسل آدم، وآخرهم نبيكم محمد ﷺ وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ»(١). والآية تدلُّ على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطاً لقصَّ علينا كلّ ذلك ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي: بلا واسطة.

١٦٥ ـ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، أي: أعني رسلاً. ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، وأن يكون مفعولاً، أي: وأرسلنا رسلاً. واللام في: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ يتعلق

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ـ ١٦٨).

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

بمبشرين ومنذرين. والمعنى: أن إرسالهم إزاحة للعلَّة، وتتميم لإلزامهم الحجة؛ لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا بما وجب الانتباه له، ويعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات، والشرائع، أعني: في حق مقاديرها، وأوقاتها، وكيفياتها، دون أصولها؛ فإنها مما يعرف بالعقل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا﴾ في بعث الرسل للإنذار.

١٦٦ ـ ولما نزل: «إنا أوحينا إليك» قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات؛ إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب بالمعجزة ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك، وأنك مبلغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد. وفيه: نفي قول المعتزلة في إنكار الصفات؛ فإنه أثبت لنفسه العلم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لك بالنبوة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ شاهداً، وإن لم يشهد غيره.

١٦٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتكذيب محمد ﷺ، وهم: اليهود ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب: إنا لا نجد في كتابنا ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الرشد.

١٦٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ محمداً ﷺ بتغيير نعته، وإنكار نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر.

١٦٩ ـ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وكان تخليدهم في جهنم سهلاً عليه. والتقدير: يعاقبهم ﴿خالدين﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

فهو حال مقدرة. والآيتان في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، ويموتون على الكفر.

١٧٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بالإسلام. أو: هو حال، أي: محقاً ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وكذلك ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] انتصابه بمضمر؛ وذلك: أنه لما بعثهم على الإيمان، وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر، فقال: ﴿خيراً لكم﴾ أي: اقصدوا، وائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو: الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يضرُّه كفركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمن، وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا﴾ لا يسوي بينهما في الجزاء.

١٧١ ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد، فغلت اليهود في حطِّ المسيح عن منزلته، حتى قالوا: إنه ابن الزنى، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك، والولد ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابن الله ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، وهو المسيح، و«عيسى» عطف بيان، أو: بدل ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ عطف على «رسول الله» وقيل له: كلمة؛ لأنه يُهتدىٰ به كما يُهتدىٰ بالكلام ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ حال، و«قد» معه مرادة، أي: أوصلها إليها، وحصَّلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على الخبر أيضاً، وقيل له: روح؛ لأنه كان يحيي الموتى، كما سُمِّي القرآن روحاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] لما أنه يحيي القلوب ﴿مِّنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وبه أجاب عليّ بن الحسين بن واقد غلاماً نصرانياً كان للرشيد في مجلسه، حيث زعم أن

فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ

في كتابكم حجة على أنَّ عيسى من الله ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة ﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن التثليث ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ والذي يدلُّ عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿إِلَٰهٞ﴾ خبره ﴿وَٰحِدٞ﴾ توكيد ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أسبّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيان لتنزهه مما نُسب إليه بمعنى أنَّ كلَّ ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟! إذ النُّبوَّة والملك لا يجتمعان على أنَّ الجزء إنما يصحُّ في الأجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسماً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ حافظاً، ومدبراً لهما، ولما فيهما، ومن عجز عن كفاية أمر يحتاجُ إلى ولدٍ يعينه.

١٧٢ ـ ولما قال وفدُ نجران لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا عيسى؟ قال: «وأيّ شيء أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: «إنه ليس بعارٍ أن يكون عبداً لله». قالوا: بلىٰ، فنزل قوله تعالى[1]: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف ﴿أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ هو ردٌّ على النصارى ﴿وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ردٌّ على من يعبدهم من العرب، وهو عطف على المسيح ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: الكروبيون الذين حول العرش؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَن في طبقتهم. والمعنى: ﴿ولا الملائكة المُقَرَّبُون﴾ أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عبداً لله﴾ عليه إيجازاً. وتشبث المعتزلة والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا: الارتقاءُ إنما يكون

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٢٥).

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ١٧٢﴾

إلى الأعلى، يقال: فلان لا يستنكفُ عن خدمتي، ولا أبوه، ولو قال: ولا عبده لم يحسن. وكان معنى قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً، وأعظم منه خطراً، ويدلُّ عليه: تخصيص المقربين. والجواب: إنّا نسلم تفضيل الثاني على الأول، ولكن هذا لا يمسُّ ما تنازعنا فيه؛ لأنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسى، ونحن نسلِّم بأنَّ جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر. إلى هذا ذهب بعضُ أهل السنة؛ ولأنَّ المرادَ أنَّ الملائكة مع مالهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية، وتجرّدهم عن التولد الازدواجي رأساً لا يستنكفون عن عبادته، فكيف بمن يتولَّد من آخر، ولا يقدر على ما يقدرون، ولا يعلم ما يعلمون؟! وهذا لأنَّ شدةَ البطش، وسعة العلوم، وغرابة التكون هي التي تورث الحمقى ـ أمثال النصارى ـ وَهْمَ الترفع عن العبودية، حيث رأوا المسيح ولد من غير أب، وهو يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، وينبىء بما يأكلون، ويدَّخرون في بيوتهم فبرؤوه من العبودية. فقيل لهم: هذه الأوصافُ في الملائكة أتمُّ منها في المسيح، ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية، فكيف المسيح؟! والحاصل: أن خواصَّ البشر ـ وهم الأنبياء عليهم السلام ـ أفضل من خواصِّ الملائكة ـ وهم الرسل ـ منهم ـ كجبريل، وميكائيل، وعزرائيل، ونحوهم. وخواصّ الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة. ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء: أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى، مع أنهم جُبلوا عليها، فضاهت الأنبياء عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة، وتفضَّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدواعي الجسدانية، فكانت طاعتهم أشقّ، لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة؛ لأنهم جُبلُوا عليها، فكانت أزيد ثواباً بالحديث ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفَّع، ويطلب الكبرياء ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم على استنكافهم، واستكبارهم. ثم فصَّل، فقال:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ

---

١٧٣ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأن التفصيل اشتمل على الفريقين، والمفصل على فريق واحد، قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكّل به. وصحة ذلك لوجهين: أحجهما: أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، لأنَّ ذكر أحدهما يدلُّ على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ والثاني: أنَّ الإحسان إلى غيرهم مما يغمّهم، فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنه قيل: ومن يستنكف عن عبادته، ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

١٧٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رسول يبهر المنكر بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ قرآناً يُستضاء به ظلمات الحيرة.

١٧٥ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ بالله، أو بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: جنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله، أو: إلى الفضل، أو: إلى صراطه ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فـ«صراطاً»: حال من المضاف المحذوف.

١٧٦ ـ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ كان جابر بن عبد الله مريضاً، فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلالة ، فكيف أصنع في مالي؟

إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا
وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ
مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

فنزلت[١] ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر. ومحلُّ ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة، أي: إن هلك امرؤ غير ذي ولد. والمراد بالولد: الابن؛ وهو مشتركٌ يقعُ على الذكر والأنثى. لأنَّ الابنَ يسقطُ الأخت، ولا تسقطها البنت ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: لأب وأم، أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي: الأخ يرثُ الأخت جميع مالها إن قدّر الأمر على العكس من موتها، وبقائه بعدها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لايسقط الأخ وحده، فالأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: بيّن حكم انتفاء الولد، ووكَل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ عَصبَة ذَكَر»[٢]. والأب أولى من الأخ ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين. دلَّ على ذلك: ﴿وله أخت﴾ ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً﴾ أي: وإن كان من يرث بالأُخُوَّة. والمراد بالأخوة: الإخوة والأخوات، تغليباً لحكم الذكورة ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الحق، فهو مفعول ﴿يبين﴾ ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ كراهة أن تضلوا. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده.

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/ ٥٩٨).
(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٢) والبخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).

سورة المائدة

ترتيبها ٥ — آياتها ١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

---

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يقال: وفىٰ بالعهد، وأوفى به. والعقد: العهد الموثّق. شبّه بعقد الحبل ونحوه. وهي: عقود الله التي عقدها على عباده، وألزمها إياهم من مواجب التكليف، أو: ما عقد الله عليكم، أو: ما تعاقدتم بينكم. والظاهر: أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وأنه كلام قدّم مجملاً، ثم عقب بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع قوائم في البر والبحر، وإضافتها إلىٰ الأنعام للبيان، وهي بمعنى «مِنْ»، كخاتم فضة، ومعناه: البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية. وقيل: بهيمة الأنعام: الظباء، وبقر الوحش، ونحوهما ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ آية تحريمه، وهو قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة...﴾ الآية ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لكم﴾ أي: أحلت لكم هذه الأشياء، لا محلين الصيد ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ حال من محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون؛ لئلا يضيق عليكم. والحُرُم: جمع حرام، وهو: المُحرِم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، أو: من التحليل والتحريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾

٢ - ونزل نهياً عن تحليل ما حرم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ جمع شعيرة، وهي: اسم ما أشعر، أي: جعل شعاراً وعلماً للنسك به من مواقف الحج، ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: أشهر الحج ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو ما أهدي إلى البيت، وتُقُرِّب به إلى الله تعالى من النسائك، وهو: جمع هَدْيَة ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدي من نعل، أو عروة مزادة، أو لحاء شجر، أو غيره ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تحلّوا قوماً قاصدين المسجد الحرام، وهم: الحجاج، والعمّار. وإحلال هذه الأشياء: أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدّون به الناس عن الحج، وأن يتعرّضوا للهدي بالغصب، أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد فجاز أن يراد بها ذوات القلائد، وهي: البُدْن، وتعطف على الهَدْي للاختصاص؛ لأنها أشرف الهدي، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً. وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، أي: ولا تحلوا قلائدها فضلاً أن تحلوها، كما قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿آمين﴾ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثواباً ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ وأن يرضى عنهم. لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ «جرم» مثل «كسب» في تعديته إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنباً، نحو:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ

كسبه، وجرمته ذنباً، نحو: كسبته إياه. وأول المفعولين ضمير المخاطبين، والثاني: أن تعتدوا. و﴿أن صدوكم﴾ متعلق بالشنآن بمعنى العلة، وهو: شدة البغض. وبسكون النون: شامي، وأبو بكر. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه. ﴿إن صدوكم﴾ على الشرط: مكي، وأبو عمرو. ومعنى: صدّهم إياهم عن المسجد منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشفّي. أو: البر: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور: والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحظور. ويجوز أن يُراد العموم لكل برّ وتقوى، ولكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه: العفو، والانتصار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وما اتقاه.

٣ ـ ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي: البهيمة التي تموتُ حتف أنفها ﴿وَالدَّمُ﴾ أي: المسفوح، وهو: السائل ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وكله نجس. وإنما خصّ اللحم لأنه معظم المقصود ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة، أو غيرها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أثخنوها ضرباً بعصاً، أو: حجر، حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من جبل، أو: في بئر فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المنطوحة، وهي: التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بعضه، ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته، وهو يضطرب اضطراب المذبوح. والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، فإنه إذا أدركها وبها حياة، فذبحها، وسمّى عليها حلّت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

يذبحون عليها يعظمونها بذلك، ويتقربون به إليها تسمّى: الأنصاب. واحدها: نُصُب، أو: هو جمع، والواحد: نصاب ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ في موضع الرفع بالعطف على الميتة، أي: حرمت عليكم الميتة، كذا وكذا، والاستقسام بالأزلام: وهي القداح المعلمة واحدها زَلَم وزُلَم. كان أحدهم إذا أراد سفراً، أو غزواً، أو تجارة، أو نكاحاً، أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة، على واحد منها مكتوب: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني، والثالث غُفْل، فإن خرج الآمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاده. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. قال الزجاج: لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج لطلوع نجم كذا. و«في شرح التأويلات» ردّ هذا، وقال: لا يقول المنجم: إن نجم كذا يأمر بكذا، ونجم كذا ينهى عن كذا، كما كان فعل أولئك. ولكن المنجم جعل دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى، ويجوز أن يجعل الله في النجوم معاني وأعلاماً يدرك بها الأحكام، ويستخرج بها الأشياء، ولا لائمة في ذلك، إنما اللائمة عليه فيما يحكم على الله، ويشهد عليه. وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الاستقسام بالأزلام خروج عن الطاعة. ويحتمل أن يعودَ إلى كلٍّ محرم في الآية ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لـ«يئس». ولم يردْ به يوم بعينه، وإنما معناه: الآن، وهذا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، تريدُ: الآن. وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه، أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله تعالى وفّى بوعده من إظهاره على الدين كلّه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين، وزوال الخوف من الكفار، وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبين ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، أي: أخلصوا لي الخشية ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفيتكم خوف عدوكم، وأظهرتكم

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾

عليهم، كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك، أي: كُفينا من كنّا نخافه.

أو: أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفيكم من تعليم الحلال والحرام، والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة، ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم الجاهلية، ومناسكهم. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ حال. اخترته لكم من بين الأديان، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات. وقوله: ﴿ذلكم فسق﴾ اعتراض أكّد به معنى التحريم. وكذا ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة، أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ﴾ حال ﴿مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ مائل إلى إثم، أي: غير متجاوز سدّ الرمق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

٤ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ في السؤال معنى القول، فلذا وقع بعده: ماذا ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ كأنه قيل: يقولون لك: ﴿ماذا أحل لهم﴾. وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا؟ حكاية لما قالوا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، كقولك: أقسم زيد ليفعلن، ولوقيل: لأفعلن، وأحل لنا لكان صواباً. و﴿ماذا﴾ مبتدأ و﴿أحل لهم﴾ خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم؟ ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم. كأنه حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل، سألوا عما أحل لهم منها، فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث منها، أو هو كل مالم يأت تحريمه في كتاب الله، أو سنة، أو إجماع، أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات، وصيد ما علمتم، فحذف المضاف. أو: تجعل ما شرطية وجوابها ﴿فكلوا﴾ ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي: الكواسب للصيد من سباع البهائم والطير، كالكلب، والفهد، والعقاب، والصقر، والبازيّ،

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

والشاهين. وقيل: هي من الجراحة، فيشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من علمتم. وفائدة هذه الحال ـ مع أنه استغنى عنها بـ«علمتم» ـ أن يكون من يعلم الجوارح موصوفاً بالتكليب. والمكلب مؤدِّب الجوارح ومعلّمها، مشتق من الكلْب، لأنَّ التأديب في الكلاب أكثر، فاشتق من لفظه لكثرته في جنسه، أو: لأنَّ السَّبع يُسمَّى كلباً، ومنه الحديث: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك»[١]. فأكله الأسد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال، أو: استئناف، ولا موضع له. وفيه دليلٌ على أن على كلِّ آخذ علماً ألا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم دراية، فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيّع أيامه، وعضَّ عند لقاء النحارير أنامله!! ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من التكليب ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساك على صاحبه: ألا يأكل منه. فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صيد كلب ونحوه، فأما صيد البازي ونحوه فأكله لا يحرمه، وقد عرف في موضعه. والضمير في: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يرجع إلى ﴿ما أمسكن﴾ على معنى: وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته. أو: إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾ أي: سموا عليه عند إرساله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مهالفة أمره في هذا كله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم، ولا يلحقه فيه لَبْث.

٥ ـ ﴿الْيَوْمَ﴾ الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ كرَّره تأكيداً للمنَّة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي: ذبائحهم؛ لأنَّ سائر الأطعمة لا يختصُّ حلّها بالملة ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم؛ لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هي الحرائر، أو العفائف. وليس هذا بشرط لصحة النكاح، بل هو للاستحباب؛ لأنه يصحُّ نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفائف. وتخصيصهن بَعْثٌ على

(١) رواه الحاكم (٢ / ٥٣٩).

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ

تخيُّر المؤمنين لنطفهم. وهو معطوف على الطيبات، أو: مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: والمحصنات من المؤمنات حلّ لكم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هن الحرائر الكتابيات، أو: العفائف الكتابيات ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ متزوجين غير زانين ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ صدائق. والخِدْن: يقع على الذَّكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بشرائع الإسلام، وما أحلَّ الله، وحرَّم ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾ بطل ﴿عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن، فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل؛ لأن الفعل مسببٌ عن الإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب؛ لملابسة بينهما طلباً للإيجاز. ونحوه: كما تدين تدان، عبّر عن الفعل الابتدائي، الذي هو سبب الجزاء؛ بلفظ الجزاء؛ الذي هو مسبّب عنه. وتقديره: وأنتم محدثون. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. أو: من النوم؛ لأنه دليل الحدث. وكان رسول الله ﷺ والصحابة يتوضؤون لكل صلاة[١]. وقيل: كان الوضوء لكلِّ صلاةٍ واجباً أول ما فرض، ثم نُسِخ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ إلى: تفيد معنى الغاية مطلقاً. فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدورُ مع الدليل. فما فيه دليل على الخروج: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً في الحالتين معسراً وموسراً. وكذلك: ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لو دخل الليل

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١١٢).

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾

لوجب الوصال. ومما فيه دليلٌ على الدخول، قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] لوقوع العلم بأنه ﷺ لا يُسْرَى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله: ﴿إلى المرافق﴾ لا دليلَ فيه على أحد الأمرين. فأخذ الجمهور بالاحتياط، فحكموا بدخولها في الغسل. وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها. وعن النبي ﷺ أنه كان يديُر الماء على مرفقيه[١] ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد: إلصاق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه. فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، والشافعي باليقين فأوجب أقلّ ما يقع عليه اسم المسح. وأخذنا ببيان النبي ﷺ، وهو ما روي: أنه مسح على ناصيته[٢]. وقدرت الناصية بربع الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بالنصب: شامي، ونافع، وعليّ، وحفص. والمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم، على التقديم والتأخير. غيرهم: بالجر بالعطف على الرؤوس؛ لأن الأرجل، من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصبّ الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنهي عنه، فعطفت على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها. وقيل: «إلى الكعبين» فجيء بالغاية إماطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة؛ لأن المسحَ لم تضرب له غاية في الشريعة. وقال في «جامع العلوم»: إنها مجرورة للجوار. وقد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى قوماً يمسحون على أرجلهم فقال: «ويل للاعقاب من النار»[٣]. وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مَسَحَ على القدمين، وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليطهرها من الأوساخ؛ التي تتصل بها؛ لأنها تبدو كثيراً. والصلاة:

(١) رواه الدارقطني (١/ ٨٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٤) (١٨ و٨٣).
(٣) رواه أحمد (٢/ ١٩٣) والبخاري (٦٠) ومسلم (٢٤١).

وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

خدمة الله تعالى، والقيام بين يديه متطهراً من الأوساخ أقرب إلى التعظيم، فكان أكمل في الخدمة، كما في الشاهد إذا أراد أن يقوم بين يدي الملك. ولهذا قيل: إن الأولى أن يصلّي الرجل في أحسن ثيابه، وإن الصلاة متعمّماً أفضل من الصلاة مكشوف الرأس؛ لما أن ذلك أبلغ في التعظيم ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾ فاغسلوا أبدانكم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ قال الرازي: معناه: وجاء؛ حتى لا يلزم المريض والمسافر التيمم بلا حدث. ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ المكان المطمئن، وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ جامعتم. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة، حتى لا يرخص لكم في التيمم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ وليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيثيبكم.

٧ ـ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو: الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، فقبلوا، وقالوا: سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة، وفي بيعة الرضوان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في نقض الميثاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بسرائر الصدور من الخير والشر، وهو وعد ووعيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ
شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ
وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾

٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ عدَّى «يجرمنكم» بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم بغض قوم على ترْك العدل فيهم ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى. نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل. ثم استأنف، فصرَّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ وإذا كان وجوب العدل مع الكفار بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه؟! ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر ونهى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وعد ووعيد؛ ولذا ذكر بعدها آية الوعد، وهو قوله تعالى:

٩ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يتعدَّى إلى مفعولين، فالأول ﴿الذين آمنوا﴾ والثاني محذوف، استغنى عنه بالجملة التي هي قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ والوعيد وهو قوله:

١٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: لا يفارقونها.

١١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾ رُوي أنَّ رسول الله ﷺ أتى بني قريظة، ومعه الشيخان أبو بكر وعمر، والخَتَنان، يستقرضهم دية مسلمين[1] قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما

(١) قال الحافظ: قوله: «مسلمين»: لم أجد ذلك في شيء من طريق الحديث، بل صرَّح=

أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْۖ

مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! اجلس حتى نطعمك، ونقرضك، فأجلسوه في صُفَّة، وهمّوا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحىٰ عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريلُ فأخبره بذلك، فخرج النبيُّ ﷺ، ونزلت الآية. إذ: ظرف للنعمة ﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ﴾ بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل، يقال: بسط لسانه إليه؛ إذا شتمه، وبسط إليه يده: إذا بطش به ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢] ومعنى بسط اليد: مدّها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ فمنعها أن تمدّ إليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي، والدافع، والمانع.

١٢ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هو الذي ينقب عن أحوال القوم، ويفتش عنها. ولما استقر بنو إسرائيل بمصر، بعد هلاك فرعون؛ أمرهم الله بالميسر إلى أريحاء أرض الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، قال لهم: إني كتبتها لكم داراً، وقراراً، فاخرجوا إليها، وجاهدوا مَن فيها، وإنّي ناصركم. وأمر الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذَ من كلٍّ سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقةً عليهم، فاختار النقباء، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفَّل لهم به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون، فرأوا أجراماً عظيمة، وقوة، وشوكة، فهابوا، ورجعوا، فحدّثوا قومهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا، ويوشع بن نون، وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: ناصركم، ومعينكم. وتقف هنا

= موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد. وفي «الدلائل» لأبي نعيم من حديث ابن عباس: فلقي عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب معهما أمان، ولم يعلم به، فقتلهما. (حاشية الكشاف ١/ ٦١٤). و«الختنان»: عثمان وعليّ رضي الله عنهما زوجا ابنتي رسول الله ﷺ.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾

لا بتدائك بالشرط الداخل عليه اللام الموطئة للقسم، وهو: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكانتا فريضتين عليهم ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظّمتموهم، أو نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم. والعزر في اللغة: الرد. ويقال: عزرت فلاناً، أي: أدَّبته، يعني: فعلت به ما يردعه عن القبيح، كذا قاله الزجاج ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا مَنٍّ، وقيل: هو كلّ خير ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم، وهذا الجواب سادٌّ مسد جواب القسم والشرط جميعاً ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الحق، نعم مَن كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضاً، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم.

١٣ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ «ما» مزيدة لإفادة تفخيم الأمر ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ يابسة لا رحمة فيها، ولا لين. ﴿قسيّة﴾: حمزة، وعليّ، أي: رديئة من قولهم: درهم قسي، أي: رديء ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يُفسّرونه على غير ما أنزل. وهو بيانٌ لقسوة قلوبهم؛ لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً، وقسطاً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من التوراة. يعني: أنَّ تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم. أو: قست قلوبهم، وفسدت، فحرّفوا التوراة، وزلّت أشياء منها عن حفظهم. عن ابن مسعود ـ رضي الله

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

عنه ـ: قد ينسى المرءُ بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية. أو: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: هذه عادتهم، وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك، ويهمون بالفتك بك. وقوله: ﴿على خائنة﴾ أي: على خيانة، أو: على فعلة ذات خيانة، أو: على نفس، أو: فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر، للمبالغة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم، أو فاعف عن مؤمنيهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم ﴿وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤ ـ و«مِن» في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ وهو الإيمان بالله، والرسل، وأفعال الخير. يتعلق بأخذنا، أي: وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم. فقدّم الفعل على الجار والمجرور، وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور. وإنما لم يقلْ من النصارى؛ لأنهم إنما سمّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله، وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نحن أنصار الله﴾ ثم اختلفوا بعد نسطورية، ويعقوبية، وملكانية أنصاراً للشيطان ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا، وألزمنا، من غرى بالشيء: إذا لزمه، ولصق به: ومنه: الغراء؛ الذي يلصق به ﴿بَيْنَهُمُ﴾ بين فرق النصارى المختلفين ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: في القيامة بالجزاء والعقاب.

١٥ ـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود والنصارى، والكتاب للجنس.

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ السَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ من نحو صفة رسول الله ﷺ، ومن نحوه الرجم ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه. أو: يعفو عن كثيرٍ منكم لا يؤاخذه ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافياً على الناس من الحق، أو: لأنه ظاهر الإعجاز. أو: النور: محمد ﷺ؛ لأنه يُهتدىٰ به، كما سُمِّي: سراجاً.

١٦ ـ ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ﴾ مَن آمن منهم ﴿سُبُلَ السَّلَٰمِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو: سبل الله. فالسلام: السلامة، أو الله ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [بإرادته، وتوفيقه][(١)] ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٧ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: بَتّ القول على أنَّ الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، أو: لأن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا: أنه يخلق، ويحيي، ويميت ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إن أراد أن

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يهلك من دعوه إلهاً من المسيح وأمه، يعني: إنَّ المسيحَ عبدٌ مخلوق من كسائر العباد. وعطف «مَن في الأرض جميعاً» على المسيح وأمه إبانة أنهما من جنسهم، لا تفاوت بينهما وبينهم. والمعنى: أنَّ مَن اشتمل عليه رحم الأمومية متى يفارقه نقص البشرية؟ ومن لاحتْ عليه شواهد الحديثة أنى يليقُ به نعت الربوبية؟ ولو قطع البقاء عن جميع ما أوجد لم يعد نقص إلى الصمدية ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يخلق من ذكر وأنثى، ويخلق من أنثى بلا ذكر كما خلق عيسى، [ويخلق من ذكر من غير أنثى كما خلق حواء من آدم][١] ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو: يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، فلا اعتراض عليه؛ لأنه الفعال لما يريد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٨ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أي: أعزة عليه كالابن على الأب، أو: أشياع ابني الله: عزير، والمسيح، كما قيل لأشياع أبي خبيب ـ وهو عبد الله بن الزبير ـ: الخبيبيون، وكما يقول رهط مسيلمة: نحن أبناء الله، ويقول أقرباء الملك وحشمه: نحن أبناء الملوك، أو: نحن أبناء رسل الله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: فإن صحَّ أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم تعذبون بذنوبكم بالمسخ والنار أياماً معدودة على زعمكم؟ وهل يمسخ الأبُ ولده؟ وهل يعذّب الوالدُ ولده بالنار؟ ثم قال رداً عليهم: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: أنتم خلق من خلقه، لا بنوه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن تاب عن الكفر، فضلاً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من مات عليه عدلاً ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه تنبيهٌ على عبودية المسيح؛ لأنَّ الملك والبنوة متنافيان.

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ

---

١٩ ـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ أي: الشرائع. وحذف لظهوره. أو: ما كنتم تخفون. وحذف لتقدم ذكره، أو: لا يقدر المبين، ويكون المعنى: يبذل لكم البيان. وهو حال، أي: مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلق بـ«جاءكم»، أي: جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع من الوحي. وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمئة سنة، أو خمسمئة سنة وستون سنة ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ كراهة ﴿أن تقولوا﴾ ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ والفاء في: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٞ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٞ﴾ للكافرين. والمعنى: الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي، أحوج ما يكونون إليه، ليهشوا إليه، ويعدوه أعظم نعمة من الله، وتلزمهم الحجة، فلا يَعْتَلّوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من يُنبِّهم من غفلتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فكان قادراً على إرسال محمد ﷺ ضرورة.

٢٠ ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجبابرة ملكهم، ولأنَّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: الملك: مَن له مسكن واسع فيه ماء جار، وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية. وقيل: من له بيت وخدم. ولأنهم كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، فسمّى إنقاذهم ملكاً ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وإنزال المنّ والسّلوى، وتظليل الغمام، ونحو ذلك من الأمور العظام. أو: أراد عالمي زمانهم.

٢١ ـ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، أو المباركة، وهي:

ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا
قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا
دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ
ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾
قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ

أرض بيت المقدس، أو الشام ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم، أو: سمّاها، أو: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين، منهزمين، منخوف الجبابرة جبناً. أو؛ لا ترتدوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

٢٢ ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبّار فعال: من: جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. وهو: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بلا قتال ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ بلادهم حينئذ.

٢٣ ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب، ويوشع. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلان من المتقين. وهو في محل الرفع صفة لرجلان، وكذا: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾ أي: انهزموا، وكانت الغلبة لكم، وإنما علما ذلك بإخبار موسى عليه السلام ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكل عليه، وهو: قطع العلائق، وترك التملق للخلائق.

٢٤ ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾ هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول ﴿مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ من العلماء مَن حمله على الظاهر، وقال: إنه كفر منهم. وليس كذلك، إذ لو قالوا ذلك اعتقاداً، وكفروا به لحاربهم موسى، ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء. ولكن الوجه فيه أن يقال: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ يعينك على قتالك. أو: ﴿وربك﴾ أي: وسيدك، وهو

﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

أخوك الأكبر هارون أو: لم يرد به حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلَّمته فذهب يُجيبني، تريد: معنى الإرادة، كأنهم قالوا: أريدا قتالهم ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ماكثون، لا نقاتلهم لنصرة دينكم. فلما عصوه وخالفوه:

٢٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾ وهو منصوب بالعطف على «نفسي» أو: على اسم إن. أي: إني لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه. أو: مرفوع بالعطف على محل إن واسمها، أو: على الضمير في ﴿لا أملك﴾ وجاز للفصل، أي: ولا يملك أخي إلا نفسه. أو: هو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: وأخي كذلك. وهذا من البث والشكوى إلى الله، ورقة القلب التي بمثلها تُستجلب الرحمة، وتُستنزل النصرة. وكأنه لم يثقْ بالرجلين المذكورين كلّ الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم. أو: أراد: ومَن يؤاخيني على ديني ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فافصل بيننا وبينهم، بأن تحكم لنا بماهم أهله. وهو في معنى الدعاء عليهم. أو: فباعدنا بيننا وبينهم، وخلّصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

٢٦ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا يدخلونها، وهو تحريم منع، لا تحريم تعبد، كقوله: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. والمراد بقوله ﴿كتب الله لكم﴾ أي: بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: ﴿فإنها محرمةعليهم﴾. أو: المراد فإنها محرمة عليهم ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كتب، فقد سار موسى عليه السلام بمن بقي من بني إسرائيل، وكان يوشع على مقدمته ففتحها، وأقام فيها ما شاء الله، ثم قُبض. و﴿أربعين﴾ ظرف التحريم. والوقف على ﴿سنة﴾ أو: ظرف ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً أربعين سنة. والوقف على ﴿عليهم﴾. وإنما عُوقبُوا بالحبس لاختيارهم

فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

المكث، فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا في سِتَّة فراسخ. ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون. قيل: لم يكن موسى وهارون معهم في التيه؛ لأنه كان عقاباً، وقد سأل موسى ربه أنه يفرُق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما، وسلاماً لا عقوبة. ومات هارون في التيه، وموسى فيه بعده بسنة. ومات النقباء في التيه إلا كالب ويوشع.

٢٧ ـ ثمَّ أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يقصَّ على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا، بقوله: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ من صلبه هابيل وقابيل، أو: هما رجلان من بني إسرائيل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ نبأ ملتبساً بالصدق، موافقاً لما في كتب الأولين. أو: تلاوة ملتبسة بالصدق، والصحة. أو: ﴿واتل عليهم﴾ وأنت محقّ صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبأ، أي: قصّتهما وحديثهما في ذلك الوقت، أو: بدل من النبأ، أي: اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت، على تقدير: حذف المضاف ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إلى الله من نسيكة، أو صدقة. يقال: قرَّب صدقة، وتقرب بها؛ لأن تقرب مطاوع قرب. والمعنى: إذ قرَّب كل واحد منهما قربانه، دليله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل. رُوي: أنه أَوْحىٰ الله تعالى إلى آدم أن يزوِّج كلَّ واحدٍ منهما توأمة الآخر. وكانت توأمةُ قابيل أجمل، واسمها: إقليما، فحسده عليها أخوه، وسخط. فقال لهما آدم: قَرِّبا قرباناً، فمن أيكما قبل يتزوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً، وسخطاً، وتوعَّده بالقتل ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: قال لهابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره: قال: لم تقتلني؟ قال: لأن الله قبل قربانك، ولم يقبل قرباني! فقال: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ وأنت غير

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ

متق، فإنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي.

وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: مايبكيك وقد كنتَ وكنتَ؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٢٨ ـ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾ بماد ﴿يَدِيَ﴾ مدني، وأبو عمرو، وحفص ﴿لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كان أقوى من القاتل، وأبطش منه، ولكن تحرَّج عن قتل أخيه، واستسلم له خوفاً من الله تعالى؛ لأن الدفعَ لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. وقيل: بل كان ذلك واجباً، فإن فيه إهلاك نفسه، ومشاركة للقاتل في إثمه. وإنما معناه: ما أنا بباسط يدي إليك مبتدئاً، كقصدك ذلك مني. وكان هابيل عازماً على مدافعته إذا قصد قتله، وإنما قتله فتكاً على غفلة منه. ﴿إنِّيَ أخاف﴾ حجازي، وأبو عمرو.

٢٩ ـ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ ﴿إنّيَ﴾ مدني ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ أن تحتمل، أو: ترجع ﴿بِإِثۡمِي﴾ بإثم قتلي إذا قتلتني ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الذي لأجله لم يتقبل قربانك. وهو: عقوق الأب، والحسد، والحقد. وإنما أراد ذلك لكفرة بردّه قضية الله تعالى، أو: كان ظالماً، وجزاء الظالم جائز أن يراد ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣٠ ـ ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فوسّعته ويسّرته، من: طاع له المرتع: إذا اتسع ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عند عقبة حراء، أو بالبصرة، والمقتول ابن عشرين سنة ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

٣١ ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ أي: الله، أو: الغراب. ﴿كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده.

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾

روي: أنه أول قتيل قُتِل على وجه الأرض من بني آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أَرْوَحَ، وعكفت عليه السباع. فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة، فحينئذ ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ﴾ عطف على: أكون ﴿سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله، لما تعب فيه من حمله، وتحيره في أمره، ولم يندم ندم التائبين. أو: كان الندم توبة لنا خاصة. أو: على حمله لا على قتله. ورُوي: أنه لما قتله اسْوَدَّ جسده، وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته، ولذا اسْوَدَّ جسدك. فالسودان من ولده. وما رُوي أن آدم رثاه بشعر فلا يصحُّ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

٣٢ ـ ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ بسبب ذلك، وبعلته. و«ذلك» إشارة إلى القتل المذكور. قيل هو متصل بالآية الأولى، فيوقف على ذلك، أي: ﴿فأصبح من النادمين﴾ لأجل حمله، ولأجل قتله. وقيل: هو مستأنف، والوقف على ﴿النادمين﴾ و﴿من﴾ يتعلّق بكتبنا، لا بالنادمين ﴿كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خصَّهم بالذكر وإن اشترك الكلُّ في ذلك؛ لأن التوراة أول كتاب فيه الأحكام ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ الضمير للشأن، و«مَنْ» شرطية ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾ بغير قتل نفس ﴿أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطف على نفس، أي: بغير فساد في الأرض. وهو: الشرك، أو قطع الطريق، أو كل فساد يُوجِبُ القتل ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أي: في الذنب، عن الحسن؛ لأنَّ قاتلَ النفس جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه، والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزدْ على ذلك ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة من: قتل، أو غرق، أو حرق، أو هدم، أو غير ذلك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ جعل قتل

وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ

الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء ترغيباً وترهيباً؛ لأن المتعرضَ لقتل النفس إذا تصوَّر أنَّ قتلها كقتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها إذا تصور أن حكمه كحكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ ﴿رسْلنا﴾: أبو عمرو ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم، أو: بعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل، لا يبالون بعظمته.

٣٣ ـ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: أولياء الله. في الحديث: «يقول الله تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»(١) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. وخبر «جزاءً» ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ وما عطف عليه. وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد. ومعناه: ﴿أن يقتلوا﴾ من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل وأخذ المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أخذوا المال ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ حال من الأيدي والأرجل، أي: مختلفة ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالحبس إذا لم يزيدوا على الإخافة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذلّ، وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٤ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ فتسقط عنهم هذه الحدود،

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) بلفظ: «مَن عادى لله ولياً، فقد بارز اللهَ بالمحاربة».

فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ
إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ
مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم
بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا

لا ما هو حقّ العباد ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم بالتوبة، ويرحمهم فلا يعذبهم.

٣٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تؤذوا عباد الله ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هي: كلُّ ما يتوسل به، أي: يتقرّب من قرابة، أو صنيعة، أو غير ذلك. فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فِعْل الطاعات، وترك السيئات ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من صنوف الأموال ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وأنفقوه ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. و«لو» مع ما في حيزه خبر: «إنَّ». ووحد الراجع في ﴿ليفتدوا به﴾ وقد ذكر شيئان؛ لأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة؛ كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فلا سبيل لهم إلى النَّجاة بوجه.

٣٧ ـ ﴿يُرِيدُونَ﴾ يطلبون، أو يتمنون ﴿أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ دائم.

٣٨ ـ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ ارتفعا بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: ﴿و﴾ فيما يتلىٰ عليكم ﴿السارق والسارقة﴾. أو: الخبر ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أي: يديهما. والمراد: اليمينان، بدليل قراءة عبد الله بن مسعود. ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق، والتي سرقت ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وبدأ بالرجل لأن السرقةَ مِن الجراءة، وهي في الرجال أكثر. وأخَّر الزاني لأن الزنىٰ ينبعث من الشهوة، وهي في النساء أوفر. وقطعت اليد لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنىٰ تفادياً

جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ

عن قطع النسل ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ مفعول له ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: عقوبة منه. وهو بدل من جزاء ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يعارض في حكمه ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

٣٩ ـ ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السُّرَّاق ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ سرقته ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بردِّ المسروق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾ يقبل توبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنبه، ويرحمه.

٤٠ ـ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ يا محمد، أو: يا مخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ مَن مات على الكفر ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من التعذيب، والمغفرة، وغيرهما ﴿قَدِيرٞ﴾ قادر. وقدَّم التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة.

٤١ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: لا تهتم، ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر، أي: في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام، ومن موالاة المشركين، فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرّهم. يقال: أسرع فيه الشيب، أي: وقع فيه سريعاً، فكذلك مسارعتهم في الكفر وقوعهم فيه أسرع شيء، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ تبين لقوله: ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ ﴿ءَامَنَّا﴾ مفعول ﴿قالوا﴾ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ متعلق بقالوا، أي: قالوا بأفواههم آمنا ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ في محل النصب على الحال ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ معطوف على ﴿من الذين قالوا﴾ أي: من المنافقين واليهود. ويرتفع ﴿سَمَّٰعُونَ

﴿لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾

﴿لِلْكَذِبِ﴾ على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هم سماعون. والضمير للفريقين. أو: ﴿سماعون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿من الذين هادوا﴾. وعلى هذا يوقف على «قلوبهم» وعلى الأول على «هادوا» ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة، والنقصان، والتبديل، والتغيير ﴿سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: سماعون منك لأجل قوم آخرين من اليهود وجّهوهم عيوناً؛ ليبلغوهم ما سمعوا منك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يزيلونه، ويميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، فيهملونه بغير مواضع بعدأن كان ذا موضع. ﴿يحرفون﴾ صفة لقوم، كقوله: ﴿لم يأتوك﴾. أو: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم يحرفون. والضميرُ مردودٌ على لفظ الكلم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا﴾ المحرّف المزال عن مواضعه. و﴿يقولون﴾ مثل ﴿يحرفون﴾. وجاز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يحرفون﴾ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاعلموا أنه الحق، واعملوا به ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾ فإياكم وإياه، فهو الباطل. رُوي: أنَّ شريفاً زنى بشريفة بخيبر، وهما محصنان، وحَدُّهما الرجم في التوراة، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إنْ أمركم بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلاله. وهو حُجَّةٌ على من يقول: يريدُ الله الإيمان، ولا يريدُ الكفر ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قطع رجاء محمد ﷺ عن إيمان هؤلاء ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر. وهو حُجَّةٌ لنا عليهم أيضاً ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾

(١) «التحميم»: تسويد الوجه.

خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ
فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ
حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿خِزْيٌ﴾ للمنافقين فضيحة، ولليهود خزْيَة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: التَّخليد في النار.

٤٢ ـ ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرَّر للتأكيد، أي: هم سماعون، ومثله: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو كل ما لا يحِلُّ كسبه. وهو من: سحته: إذا استأصله؛ لأنه مسحوتُ البركة. وفي الحديث هو «الرشوة في الحكم»[١]. وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وبالتثقيل[٢]: مكي، وبصري، وعليّ ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحالكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين ألا يحكم بينهم. وقيل: نسخ التخيير بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ فلن يقدروا على الإضرار بك؛ لأنَّ الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

٤٣ ـ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنَّ الحكمَ منصوصٌ في كتابهم الذي يدعون الإيمان به. ﴿فيها حكم الله﴾ حال من ﴿التوراة﴾. وهي مبتدأ، وخبره ﴿عندهم﴾ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عطف على ﴿يحكمونك﴾. أي: ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أو بكتابهم كما يدّعون.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٨١).
(٢) أي قراءة: ﴿للسُّحُتِ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾

---

٤٤ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى﴾ يهدي للحق ﴿وَنُورٞ﴾ يبيّن ما استبهم من الأحكام ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ انقادوا لحكم الله في التوراة. وهو صفةٌ أجريتْ للنبيِّين على سبيل المدح. وأريد بإجرائها التعريض باليهود؛ لأنهم بعداء من ملة الإسلام؛ التي هي دينُ الأنبياء كلّهم ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تابعوا من الكفر. واللام يتعلّق بيحكم ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ معطوفان على «النبيون»، أي: الزهاد والعلماء ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ استودعوا. قيل: ويجوز أن يكون بدلاً من بها في ﴿يحكم بها﴾ ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من التبيين والضمير في ﴿استحفظوا﴾ للأنبياء، والربانيين، والأحبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من الله، أي: كلّفهم الله حفظه. أو: لـ«الربانيون والأحبار» ويكون الاستحفاظ من الأنبياء ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ رقباء لئلا يبدل ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ نهي للحكّام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ في مخالفة أمري، وبالياء فيهما[1] سهل. وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ وهو الرشوة، وابتغاء الجاه، ورضا الناس ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: من لم يحكم جاحداً فهو كافر، وإن لم يكن جاحداً فهو فاسق ظالم. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هو عامّ في اليهود وغيرهم.

٤٥ ـ ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾

---

(١) قوله: «فيهما» أي: في حالي الوقف والوصل.

بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

مأخوذة ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مجدوع ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. أي: ذات قصاص، وهو: المقاصَّة. ومعناه: ما يمكن فيه القصاص. وإلا فحكومة عدل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فنزلت. وقوله: ﴿أن النفس بالنفس﴾ يدلُّ على أن المسلمَ يُقتل بالذميّ، والرجل بالمرأة، والحر بالعبد. نصب نافع وعاصم وحمزة المعطوفات كلّها، للعطف على ما عملت فيه ﴿أن﴾ ورفعها عليّ للعطف على محلّ «أن النفس»؛ لأنَّ المعنى: ﴿وكتبنا عليهم﴾ النفس بالنفس إجراء لكتبنا مجرى قلنا. ونصب الباقون الكل، ورفعوا ﴿الجروح﴾. و﴿الأذْن﴾ بسكون الذال حيث كان نافع والباقون بضمها. وهما لغتان كالسُّحْت، والسُّحُت ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فالتَصدُّق به كفارة للمتصدِّق بإحسانه. قال ﷺ: «من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولدته أمه»[1] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالامتناع عن ذلك.

٤٦ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قفيت الشيء بالشيء: جعلته في أثره كأنه جعل في قفاه يقال: قفاه يقفوه: إذا اتبعه ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ هو حال من عيسى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ ثابتاً ﴿فيه هدى ونور ومصدقاً﴾. فنصب مصدقاً بالعطف على ثابت الذي تعلق به ﴿فيه﴾ وقام مقامه فيه. وارتفع ﴿هدى ونور﴾ بـ: ثابتاً؛ الذي قام مقامه ﴿فيه﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٩٢).

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: هادياً وواعظاً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينتفعون به.

٤٧ ـ ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه، فاللام: لام الأمر، وأصله الكسر، وإنما سكن استثقالاً لفتحة وكسرة وفتحة. ﴿وَلِيحْكُمَ﴾: بكسر اللام وفتح الميم: حمزة، على أنها لام كي، أي: وقفينا ليؤمنوا، وليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة.

قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يجوز أن يحملَ على الجحود في الثلاث، فيكون: كافراً، ظالماً، فاسقاً؛ لأن الفاسق المطلق، والظالم المطلق هو الكافر. وقيل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ فهو كافر بنعمة الله، ظالم في حكمه، فاسق في فعله.

٤٨ ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: القرآن. فَحَرْفُ التعريف فيه للعهد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بسبب الحق، وإثباته، وتبيين الصواب من الخطأ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدّمه نزولاً. وإنما قيل لما قبل الشيء: هو بين يديه؛ لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه، فما تقدم عليه يكون قدّامه، وبين يديه ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المراد به جنس الكتب المنزلة؛ لأنَّ القرآنَ مصدقٌ لجميع كتب الله، فكان حَرْفُ التعريف فيه للجنس. ومعنى تصديقه الكتب: موافقتها في التوحيد والعبادة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وشاهداً؛ لأنه يشهد له بالصحة، والثبات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ نهي أن يحكم بما حرّفوه، وبدّلوه اعتماداً على قولهم. ضُمِّن ﴿ولا تتبع﴾ معنى: ولا تنحرف؛ فلذا عدّي بعن، فكأنه قيل:

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ

ولا تنحرف ﴿عما جاءك من الحق﴾ متبعاً أهواءهم. أو: التقدير: عادلاً ﴿عما جاءك﴾ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً. واستدلّ به من قال: إن شريعةَ مَن قبلنا لا تلزمنا. ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام، ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ، وبيّن أنّه ليس للسماع فحسب، بل للحكم به. فقال في الأول: ﴿يحكم بها النبيون﴾، وفي الثاني: ﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾، وفي الثالث: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، فتعَبّد كلَّ أمة بما اقتضته الحكمة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها، وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة. والمراد بالخيرات: كل ما أمر الله تعالى به ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المجرور. والعامل: المصدر المضاف؛ لأنه في تقدير: إليه ترجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما لا تشكّون معه من الجزاء الفاصل بين محقّكم، ومبطلكم، وعاملكم، ومفرّطكم في العمل.

٤٩ ـ ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ أي: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك، وهو مفعول له، أي: مخافة أن يفتنوك. وإنما حذّره ـ وهو رسول مأمون ـ لقطع أطماع القوم ﴿عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذنب التولّي عن حكم الله، وإرادة خلافه، فوضع ﴿ببعض ذنوبهم﴾ موضع ذلك. وهذا الإبهام لتعظيم التولّي، وفيه تعظيم الذنوب، فإن بعضها مهلك،

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ

فكيف بكلّها؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ لخارجون عن أمر الله.

٥٠ ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون. وبالتاء: شامي. يخاطب بني النضير في تفاضلهم على بني قريظة، وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «القتلى سواء»[1] فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك، فنزلت. وسُئل طاووس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وناصب ﴿أفحكم الجاهلية﴾: ﴿يبغون﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبره. وهو استفهام في معنى النفي، أي: لا أحد أحسن ﴿مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ هو تمييز. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اللام للبيان، كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: هذا الخطاب. وهذا الاستفهام ﴿لقوم يوقنون﴾ فإنهم هم الذين يتبينون: أن لا أعدل من الله، ولا أحسن حكماً منه. وقال أبو علي: معنى ﴿لقوم﴾: عند قوم؛ لأن اللام و«عند» يتقاربان في المعنى.

٥١ ـ ونزل نهياً عن موالاة أعداء الدين: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علّل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وكلّهم أعداء المؤمنين. وفيه دليلٌ على أنَّ الكفر كلّه ملّة واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم، وحكمه حكمهم. وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في وجوب مجانبة المخالف في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة.

٥٢ ـ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ حال، أو: مفعول ثانٍ؛ لاحتمال أن يكون ﴿فترى﴾ من رؤية العين، أو القلب ﴿فِيهِمْ﴾ في

(١) قال ابن حجر: رواه ابن أبي شيبة من طريق الشعبي (حاشية الكشاف ١/٦٤١).

يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ

معاونتهم على المسلمين، وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم، لقوله: ﴿على ما أسرّوا﴾ ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: حادثة تدور بالحال؛ التي يكونون عليها ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين، وقَتْلهم ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر ﴿فيصبحوا﴾.

٥٣ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقول بعضُهم لبعض عند ذلك. ﴿ويقولَ﴾ بصري عطفاً على ﴿أن يأتي﴾. ﴿يقول﴾ بغير واو شامي، وحجازي، على أنه جواب قائل يقول، فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: أقسموا لكم بأغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم، ومعاضدوكم على الكفار. و﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر في تقدير الحال، أي: مجتهدين في تؤكيد أيمانهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة. وهذا من قول الله ـ عز وجل ـ شهادةً لهم بحبوط الأعمال، وتعجيباً من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة، ودوام العقوبة.

٥٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر. (يرتدد): مدني، وشامي ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يرضى عنهم أعمالهم، ويثني عليهم بها، ويطيعونه، ويؤثرون رضاه. وفيه دليلُ نبوته عليه الصلاة والسلام، حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثبات خلافة الصديق؛ لأنه جاهد المرتدين، وفي صحة خلافته وخلافة عمر ـ رضي الله عنهما ـ. وسُئِل النبي ﷺ عنهم، فضرب على عاتق

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾

سلمان وقال: «هذا وذووه. لو كان الإيمانُ معلقاً بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس»[1]. والراجعُ من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف، معناه: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ مكانهم ﴿أَذِلَّةٍ﴾ جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه: ذُلُل. ومَن زعم أنه من الذِل؛ الذي هو ضد الصعوبة، فَقَدْ سَها؛ لأنَّ ذَلولاً لا يجمع على أذِلّة. قال الجوهري: الذُّل ضد العز، ورجل ذليل: بيّن الذُّل. وقوم أذلاء، وأذلة. والذِّل ـ بالكسر ـ: اللين، وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول، ودواب ذُلُل ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: للمؤمنين؛ لتضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم، على وجه التذلل، التواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشداء عليهم. والعَزَاز: الأرض الصلبة. فهم مع المؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار. وهو صفة لقوم كـ: يحبهم، وأعزة، وأذلة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ الواو يحتمل أن تكون للحال، أي: يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لايخافون لومة لائم. وأن تكون للعطف، أي: من صفتهم المجاهدة في سبيل الله، وهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمرٍ من أمور الدين، لا تَزَعُهُم[2] لومة لائم. واللومة: المرة من اللوم. وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم واحدٍ من اللوام ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة، والذلة، والعزة، والمجاهدة، وانتفاء خوف اللومة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

---

(١) قال ابنُ حجر: هو وهم، فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة، وهو متفق عليه. وفي آية القتال، رواه الترمذي. (حاشية الكشاف ١/٦٤٦).

(٢) «لا تزعهم»: وَزَعَ: مَنَع وزَجَر.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾

٥٥ ـ عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم، ذكر من تجب موالاتهم بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿إنما﴾ يفيدُ اختصاصهم بالموالاة. ولم يجمع الوليّ ـ وإن كان المذكور جماعة ـ تنبيهاً على أن الولاية لله أصل، ولغيره تبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصلٌ وتبعٌ. ومحل ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الرفع على البدل من «الذين آمنوا»، أو: على «هم الذين» أو: النصب على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والواو في: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ للحال، أي: يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة. قيل: إنها نزلت في عليّ ـ رضي الله عنه ـ حين سأله سائل وهو راكعٌ في صلاته، فطرح له خاتمه، كأنه كان مرِجاً[1] في خنصره، فلم يتكلَّف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته. وورد بلفظ الجمع، وإن كان السبب فيه واحداً ترغيباً للنَّاس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه. والآية تدلُّ على جواز الصدقة في الصلاة، وعلى أنَّ الفعلَ القليلَ لا يفسد الصلاة.

٥٦ ـ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتّخذه وليّاً، أو يكن وليّاً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير، أي: فإنهم هم الغالبون. أو: المراد بحزب الله: الرسول والمؤمنون، أي: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب. وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبهم، أي: أصابهم.

٥٧ ـ رُوي أن رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجالٌ من المسلمين يوادّونهما، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾. يعني: اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء، والمنابذة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) «مرجاً»: قال في اللسان: مَرِج الخاتم في إصبعي مَرَجاً، أي: قَلِق.

مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا
وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ
مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ «من»: للبيان ﴿مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المشركين. وهو عطف على ﴿الذين﴾ المنصوبة. و﴿الكفارِ﴾: بصري، وعليّ، عطف على الذين المجرورة، أي: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

٥٨ ـ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاة أو: المناداة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنهم لا عقل لهم. وفيه دليلٌ على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب، لا بالمنام وحده.

٥٩ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: هل تعيبون منا، وتنكرون إلا الإيمان بالله، وبالكتب المنزلة كلّها؟! ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهو معطوف على المجرور، أي: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون. والمعنى: أعاديتمونا لأنَّا اعتقدنا توحيد الله، وصدق أنبيائه، وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؟! ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، مع أنكم فاسقون.

٦٠ ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً، وهو نصب على التمييز. والمثوبة وإن كانت مختصة بالإحسان، ولكنها وضعت موضع العقوبة، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكان اليهود يزعمون أنَّ المسلمين مستوجبون للعقوبة، فقيل لهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ شر عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى المتقدِّم، أي:

وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

الإيمان، أي: بشَرٍّ مما نقمتم من إيماننا ثواباً، أي: جزاء. ولا بُدَّ مِن حَذْف مضاف قبله، أو قبل ﴿مَن﴾ تقديره: بشر من أهل ذلك، أو دينُ مَن لعنه الله. ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ يعني: أصحاب السبت ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام، أو كلا المسخين من أصحاب السبت، فشبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: العجل، أو الشيطان؛ لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان. وهو عطف على صلة مَن، كأنه قيل: ومَن عبد الطاغوت ﴿وعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ حمزة، جعله اسماً موضوعاً للمبالغة، كقولهم: رجل حذر، وفطن، للبليغ في الحذر، والفطنة. وهو معطوف على القردة والخنازير، أي: جَعَل الله منهم عبِد الطاغوت ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الممسوخون؛، الملعونون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعلت الشَّرارة للمكان، وهي لأهله للمبالغة. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قَصْد الطريق الموصل إلى الجنة.

٦١ ـ ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ويظهرون له الإيمان نفاقاً: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الباء للحال، أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، وتقديره: ملتبسين بالكفر. وكذلك ﴿قد دخلوا﴾، ﴿وهم قد خرجوا﴾ ولذا دخلت «قد» تقريباً للماضي من الحال. وهو متعلق بقالوا آمنا، أي: قالوا ذلك وهذه حالهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

٦٢ ـ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم. أو: الإثم: ما يختصُّ بهم، والعدوان: ما يتعدّاهم إلى غيرهم. والمسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعة ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا

٦٣ ـ ﴿لَوْلَا﴾ هلاّ، وهو تحضيض ﴿يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ هذا ذم للعلماء، والأول للعامة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي أشد آية في القرآن، حيث أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد.

٦٤ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رُوي أنَّ اليهود ـ لعنهم الله ـ لما كذبوا محمداً عليه الصلاة والسلام كفَّ الله ما بسط عليهم من السعة، وكانوا من أكثر الناس مالاً، فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون، فأشركوا فيه. وغل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولا يقصد المتكلم به إثبات يد، ولا غل، ولا بسط، حتى إنه يستعمله في ملك يعطي ويمنع بالإشارة من غير استعمال اليد، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال! وقد استعمل حيث لاتصح اليد، يقال: بسط البأس كفيه في صدري، فجعل للبأس ـ الذي هو من المعاني ـ كفَّان. ومَن لم ينظر في علم البيان يتحيَّر في تأويل أمثال هذه الآية. وقوله: ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله. أو: تغل في جهنم، فهي كأنها غلت. وإنما ثنيت اليد في: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وهي مفردة في يد الله مغلولة؛ ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ، وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد للوصف بالسَّخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ اليهود ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم، تمادياً في الجحود، وكفراً بآيات الله. وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ

قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فكلمهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع بينهم اتفاق، ولا تعاضد ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا، لم يقم لهم نصر من الله على أحد قط. وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. عن قتادة: لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذلّ الناس ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ويجتهدون في دفع الإسلام، ومحو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام من كتبهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٦٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به مع ما عددنا من سيّئاتهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مع المسلمين.

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: أقاموا أحكامهما، وحدودهما، وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله؛ لأنّهم مكلّفون الإيمان بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم. وقيل: هو القرآن ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعني: الثمار من فوق رؤوسهم ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: الزروع. وهذه عبارةٌ عن التوسعة، كقولهم: فلان في النعمة من قرنه إلى قدمه. ودلّت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ﴾

[نوح: ١٠ وما بعدها] ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أَمَمٌ[١] في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: هي الطائفة المؤمنة، وهم عبد الله بن سلام، وأصحابه، وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وقيل: كعب بن الأشرف، وأصحابه، وغيرهم.

٦٧ ـ ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (رسالاته): مدني، وشامي، وأبو بكر. أي: فلم تبلغ إذاً ما كُلِّفْت من أداء الرسالة، ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً. كما أنَّ مَن لم يؤمنْ ببعضها كان كمن لم يؤمنْ بكلّها، لكونها في حكم شيء واحد لدخولها تحت خطاب واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلَّغاً غير مبلَّغ، مؤمناً به غير مؤمَن. قالت الملحدة ـ لعنهم الله تعالى ـ: هذا كلام لا يفيد، وهو كقولك لغلامك: كلْ هذا الطعام، فإن لم تأكله فإنك ما أكلته. قلنا: هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل، فإن لم تفعل، أي: إن لم تبلغ الرسالة في المستقبل، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. أو: بلغ ما أنزل إليك من ربك الآن، ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعُدَّة، فإن لم تبلغ كنتَ كمن لم يبلّغ أصلاً. أو: بلّغ ذلك غير خائف أحداً، فإن لم تبلغ على هذا الوصف، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. ثم قال مشجعاً له في التبليغ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يحفظك منهم قتلاً، فلم يقدر عليه، وإن شجّ في وجهه يوم أحد، وكسرت رَباعيته. أو: نزلت بعد ما أصابه ما أصابه.

(١) «أَمَم»: القَصْد الذي هو الوسط.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

والناس: الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

٦٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على دين يعتدّ به، حتى يسمّى شيئاً لبطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ إضافة زيادة الكفر والطغيان إلى القرآن بطريق التسبيب ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تتأسف عليهم؛ فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعودُ إليهم، لا إليك.

٦٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم، وهم المنافقون، ودلَّ عليه قوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قال سيبويه، وجميع البصريين: ارتفع الصابئون بالابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز «إن» من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصابئون كذلك، أي: مَن آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم فقدمه وحذف الخبر، كقوله:

فمنْ يكُ أمسى بالمدينةِ رَحْلُه ... فـإنِّـي وقَيّـارٌ بهـا لَغَـريـبُ[1]

أي: فإني لغريب، وقيار كذلك. ودلّ اللام على أنه خبر إن. ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها؛ لأن ذا لا يصحُّ قبل الفراغ من الخبر،

---

(١) البيت لضابىء البُرْجُمِيّ. و«قيار»: اسم جمل ضابىء.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ

لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان، وإنما يجوز: إن زيداً منطلق وعمرو. والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) إلى آخره. ولا محل لها، كما لا محل للتي عطفت عليها. وفائدة التقديم: التنبيه على أن الصابئين ـ وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً، وأشدّهم غيّاً ـ يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، فما الظن بغيرهم؟! ومحل ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ الرفع على الابتداء، وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. ثم الجملة كما هي خبر «إن» والراجع إلى اسم إن محذوف، تقديره: من آمن منهم.

٧٠ ـ ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليقفوهم على ما يأتون، وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً، والراجع محذوف، أي: رسول منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم، ويضادّ شهواتهم من مشاق التكليف، والعمل بالشرائع. وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: فريقاً كذبوا: جواب مستأنف لقائل، كأنه يقول: كيف فعلوا برسلهم؟ وقال: «يقتلون» بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، استفظاعاً للقتل، وتنبيهاً على أنَّ القتلَ مِن شأنهم. وانتصب «فريقاً، وفريقاً» على أنه مفعول كذبوا، ويقتلون. وقيل: التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى، والقتل مختصٌّ باليهود، فهم قتلوا زكريا، ويحيى.

٧١ ـ ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ﴾ ﴿ألا تكونُ﴾: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو، على أنّ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا تكون، فخففت أن، وحذف ضمير الشأن. ونزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم؛ فلذا دخل فعل الحسبان على أن التي هي للتَّحقيق ﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء وعذاب، أي: وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل. وسدّ

فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ

ما يشتمل عليه صلة «أن، وأن[1]» من المسند والمسند إليه مسدّ مفعولي حسب ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ فلم يعملوا بما رأوا، ولا بما سمعوا. أو: فعموا عن الرشد، وصموا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ رزقهم التوبة ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو بدل من الضمير، أي: الواو ، وهو بدل البعض من الكل، أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

٧٢ ـ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ لم يفرق عيسى ـ عليه السلام ـ بينه وبينهم في أنه عبد مربوب؛ ليكون حُجَّةً على النصارى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمه دخولها، ومنعه منه ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مرجعه. ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ وهو من كلام الله، أو: من كلام عيسى عليه السلام.

٧٣ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ أي: ثالث ثلاثة آلهة. والإشكال أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقال في الثانية: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ والجواب: أن بعض النصارى كانوا يقولون: كان المسيح بعينه هو الله؛ لأن الله ربما يتجلى في بعض الأزمان في شخص، فتجلى في ذلك الوقت في شخص عيسى، ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال

---

(١) أي: على القراءتين القراءة التي تعتبر «أن» حرفَ مصدرٍ ونصب، أو القراءة التي تعتبرها مخففة من الثقيلة.

وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ

لا يقدر عليها إلا الله. وبعضهم ذهبوا إلى آلهة ثلاثة: الله، ومريم، والمسيح، وأنه ولد الله من مريم. و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للاستغراق، أي: وما إله قط في الوجود إلا إلٰه موصوف بالوحدانية، لا ثاني له، وهو الله وحده، لاشريك له. وفي قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتي في ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] ولم يقل: ليمسنهم؛ لأنَّ في إقامة الظاهر مقام المضمر تكريراً للشهادة عليهم بالكفر. أو: للتبعيض، أي: ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم؛ لأنّ كثيراً منهم تابوا عن النصرانية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

٧٤ ـ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ ألا يتوبون ـ بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد ـ مما هم عليه. وفيه تعجيبٌ من إصرارهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم.

٧٥ ـ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفيُ الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. وإبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى لم يكن منه؛ لأنه ليس إلهاً، بل الله أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى على يده، كما أحيا العصا، وجعلها حيةً تسعى على يد موسى. وخَلْقه من غير ذَكَر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمُّه أيضاً إلا كبعض النساء المصدِّقات للأنبياء المؤمنات بهم. ووقع اسم الصديقة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]. ثم أبعدهما عما نسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ لأنَّ مَن احتاج إلى الاغتذاء بالطعام،

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾

وما يتبعه من الهضم والنفض[1] لم يكن إلا جسماً مركباً من لحم، وعظم، وعروق، وأعصاب، وغير ذلك مما يدلُّ على أنه مصنوع مؤلّف كغيره من الأجسام ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمّله بعد هذا البيان. وهذا تعجيبٌ من الله تعالى في ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب.

٧٦ ـ ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ هو عيسى عليه السلام. أي: شيئاً لا يستطيع أن يضرَّكم بمثل ما يضركم به الله من البلاء، والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان، والسعة، والخصب؛ ولأنَّ كلَّ ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليلٌ قاطع على أنَّ أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ متعلق بـ: أتعبدون، أي: أتشركون بالله، ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

٧٧ ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، فغلوّ النصارى: رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية. وغلوّ اليهود: وضعه عن استحقاق النبوّة ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: غلواً غير الحق، يعني: غلواً باطلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: أسلافكم

(١) «النفض»: الإلقاء.

وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ
لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم. ﴿وَضَلُّواْ﴾ لما بُعث رسول الله ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ حين كذَّبوه، وحسدوه، وبغوا عليه.

٧٨ ـ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل: إنَّ أهل أيلة لمّا اعتدوا في السبت، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمُسخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة، قال عيسى: اللهم عذِّبْ مَن كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير. وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم.

٧٩ ـ ثم فسَّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ عن قبيح فعلوه ومعنى وصف المنكر بفعلوه ـ ولا يكون النهي بعد الفعل ـ أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو: عن مثل منكر فعلوه، أو: عن منكر أرادوا فعله. أو: المراد: لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرُّون عليه. يقال: تناهى عن الأمر، وانتهى عنه: إذا امتنع منه، وتركه. ثم عجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. وفيه دليلٌ على أنَّ ترك النهي على المنكر من العظائم. فيا حسرةً على المسلمين في إعراضهم عنه!.

٨٠ ـ ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين، ويصافونهم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن

وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لبئس شيئاً قدّموه لأنفسهم سخط الله عليهم، أي: موجب سخط الله ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: في جهنم.

٨١ ـ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ما اتخذوا المشركين أولياء، يعني: أنَّ موالاةَ المشركين تدلُّ على نفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مستمرون في كفرهم ونفاقهم. أو: معناه: ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه، يعني: التوراة، ما اتخذوا المشركين أولياء، كما لم يوالهم المسلمون، ولكن كثيراً منهم فاسقون، خارجون عن دينهم، فلا دين لهم أصلاً.

٨٢ ـ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ هو مفعول ثان لتجدن. و«عداوة» تمييز ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ عطف عليهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ اللام تتعلق بعداوة ومودة. وصف اليهود بشدة الشكيمة، والنصارى بلين العريكة. وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين. ونبّه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء وعباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ علل سهولة مأخذ النصارى، وقرب مودّتهم للمؤمنين؛ بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأن فيهم تواضعاً واستكانة، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليلٌ على أنَّ العلمَ أنفعُ شيء، وأهداه إلى الخير، وإن كان علم القسيسين. وكذا علم الآخرة وإن كان في راهب. والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾

٨٣ ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفهم برقة القلوب، وأنهم يبكون عند استماع القرآن، كما روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب ـ حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يقرؤونه عليهم ـ: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تُنسب إلى مريم، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩] فبكى النجاشي. وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلاً، حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا ﴿تفيض من الدمع﴾ تمتلىء من الدمع حتى تفيض؛ لأنَّ الفيضَ أن يمتلىء الإناء، أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من أجل البكاء. ومن في ﴿مما عرفوا﴾ لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتدأ، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله. و«مِنْ» في: ﴿من الحق﴾ لتبيين الموصول الذي هو «ما عرفوا». أو: للتبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله، وقرؤوا القرآن، وأحاطوا بالسنة؟! ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿عرفوا﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد ﷺ، والمراد: إنشاء الإيمان، والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ؛ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

٨٤ ـ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان، مع قيام موجبه، وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم، فأجابوهم بذلك. و﴿مالنا﴾ مبتدأ وخبر. و﴿لانؤمن﴾ حال، أي: غير مؤمنين، كقولك: مالك قائماً ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾

وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ

يعني: محمداً ﷺ والقرآن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حال من ضمير الفعل في ﴿نؤمن﴾ والتقدير: ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأنبياء والمؤمنين.

٨٥ ـ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي: بقولهم ﴿ربنا آمنا﴾ وتصديقهم لذلك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الإقرارَ داخلٌ في الإيمان، كما هو مذهب الفقهاء. وتعلَّقت الكراميَّة في أنَّ الإيمان مجرد القول بقوله: ﴿بما قالوا﴾ لكن الثناء بفيض الدمع في السياق، وبالإحسان في السياق، يدفع ذلك. وأنى يكون مجرد القول إيماناً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]؟ نفى الإيمان عنهم مع قولهم ﴿آمنا بالله﴾ لعدم التصديق بالقلب. قال أهل المعرفة: الموجود منهم ثلاثة أشياء: البكاء على الجفاء، والدعاء على العطاء، والرضا بالقضاء. فمن ادَّعى المعرفة، ولم يكن فيه هذه الثلاثة، فليس بصادقٍ في دعواه.

٨٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا أثر الردّ في حقّ الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء ونزل في جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حلفوا أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح، ويقوموا الليل، ويصوموا النهار، ويسيحوا في الأرض، ويجبّوا مذاكيرهم، ولا يأكلوا اللحم والوَدَك[1]، ولا يقربوا النساء والطيب.

٨٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب، ولذّ من الحلال. ومعنى لا تحرموا: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو: لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

---

(١) «الودك»: الدَّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ

منكم، وتقشفاً. وروي: أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ[١]، وكان يعجبه الحلواء والعسل، وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة»[٢] وعن الحسن: أنه دُعي إلى طعام ومعه فرقد السَّبَخي وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المُسَمَّن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد! أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه: أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره، فقال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ ولا تجاوزوا الحد الذي حدّ عليكم في تحليل أو تحريم. أو: ولا تعتدوا حدود ما أحلَّ لكم إلى ما حرم عليكم. أو: ولا تسرفوا في تناول الطيبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ حدوده.

٨٨ ـ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حال مما رزقكم الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ توكيد للتوصية بما أمر به، وزاده توكيداً بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أمر به، ونهى.

٨٩ ـ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو: أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظنّ أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف بأيماننا؟ فنزلت. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: ما يجري على اللسان بلا قصد ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي: بتعقيدكم الأيمان،

(١) «الفالُوذ، والفالوذج»: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وهي كلمة معربة.
(٢) قال الحافظ: ذكره الديلمي في الفردوس عن علي. (حاشية الكشاف ١/ ٦٧١).

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ﴾

وهو توثيقها. وبالتخفيف: كوفي غير حفص[١]. والعقد: العزم على الوطء. وذا لا يتصور في الماضي، فلا كفارة في الغموس. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: القصد بالقلب، ويمين الغموس مقصودة، فكانت معقودة، فكانت الكفارة فيها مشروعة. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة؛ لأنه كان معلوماً عندهم. أو: بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: فكفارة نكثه، أو فكفارة معقود الأيمان والكفارة الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، أي: تسترها ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ هو أن يغديهم ويعشيهم. ويجوز أن يعطيهم بطريق التمليك، وهو لكلِّ أحدٍ نصف صاع من بُرّ، أو صاع من شعير، أو صاع من تمر. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: مدّ لكلِّ مسكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: غداء وعشاء من برّ. إذ الأوسع: ثلاث مرات مع الإدام، والأدنى: مرة من تمر، أو شعير ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على ﴿إطعام﴾ أو: على محل ﴿من أوسط﴾ ووجهه أن ﴿من أوسط﴾ بدل من ﴿إطعام﴾ والبدل هو مقصود في الكلام. وهو: ثوب يغطي العورة. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إزار، أو قميص، أو رداء ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، أو كافرة لإطلاق النص. وشرط الشافعي ـ رحمه الله ـ الإيمان حملاً للمطلق على المقيد في كفارة القتل. ومعنى ﴿أو﴾ التخيير، وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة؛ لقراءة أُبيّ وابن مسعود كذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة لا تجبُ بنفس الحلف؛ ولذا لم يجز التكفيرُ قبل الحنث ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ فبَرّوا فيها، ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً. أو: ولا تحلفوا أصلاً

(١) أي: قرأ الكوفيون وهم حمزة والكسائي وعاصم برواية شعبة عنه بالتخفيف، أما حفص عن عاصم فقرأ بالتشديد.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٨٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلام شريعته، وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم، ويسهل عليكم المخرج منه.

٩٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ أي: القمار ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ الأصنام؛ لأنها تنصب فتعبد ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهي القداح التي مرّت ﴿رِجْسٌ﴾ نجس، أو خبيث مستقذر ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه يحمل عليه، فكأنه عمله. والضمير في: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ يرجع إلى الرجس، أو: إلى عمل الشيطان، أو: إلى المذكور، أو: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما تعاطى الخمر والميسر، ولذا قال: ﴿رجس﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أكّد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر الجملة بإنما، وقرنهما بعبادة الأصنام، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابد الوثن»[(١)]، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت، وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خساراً.

٩١ ـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ذكر ما يتولد منهما من الوبال، وهو: وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقِمْر، وما يؤديان إليه من الصَّدِّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وخصّ الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها، كأنه قال: وعن الصلاة خصوصاً. وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً، ثم أفردهما آخراً لأنَّ الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر، واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنَّ ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك. فكأنه

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٢٥).

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٩٢ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝٩٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ﴾

لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر. ثم أفردهما بالذكر ليعلم أنَّهما المقصودُ بالذكر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ مِن أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والزواجر، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا، ولم تزجروا؟!.

٩٢ ـ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ وكونوا حذرين خاشعين؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كلّ سيئة، وعمل كلّ حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول؛ لأنه ما كلّف إلا البلاغ المبين بالآيات. وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عمّا كلّفتموه.

٩٣ ـ ونزل فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ الشرك ﴿وَّآمَنُوا﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ الخمر والميسر بعد التحريم ﴿وَّآمَنُوا﴾ بتحريمهما. ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ سائر المحرمات. أو: الأول عن الشرك، والثاني: عن المحرمات، والثالث: عن الشبهات ﴿وَّأَحْسَنُوا﴾ إلى الناس ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٩٤ ـ ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية، وهم محرمون، وكثر عندهم، حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم، نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو: يختبر، وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم، لا لعلم ما لم يعلم. و﴿من﴾ للتبعيض، إذ لا يحرم كل صيد، أو: لبيان الجنس ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾

الاصطياد موجوداً، كما كان يعلم قبل وجوده أنّه يوجد ليثيبه على عمله، لا على علمه فيه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قلّل في قوله ﴿بشيء من الصيد﴾ ليعلم أنه ليس من الفتن العظام. و﴿تناله﴾ صفة لشيء.

٩٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ أي: المصيد، إذ القتل إنما يكون فيه ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: محرمون، جمع حرام، كردح في جمع رداح. في محل النصب على الحال من ضمير الفاعل في ﴿تقتلوا﴾ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: ذاكراً لإحرامه، أو عالماً: أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه. فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطىء. وإنما شرط التعمد في الآية ـ مع أنَّ محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ ـ لأن مورد الآية فيمن تعمّد. فقد رُوي: أنه عَنَّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت. ولأنَّ الأصلَ فعل المتعمد، والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السُّنَّةُ بالخطأ ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ كوفي[1]. أي: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد. وهو قيمة الصيد. يُقوَّم حيثُ صِيدَ، فإن بلغت قيمته ثمن هدي خُيِّر بين أن يهدي من النَّعَم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاعاً من غيره. وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً. وعند محمد والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ مثله: نظيره من النعم. فإن لم يوجدْ له نظير من النَّعَم فكما مر. (فجزاءُ مثلِ) على الإضافة، غيرهم[2]. وأصله: فجزاءٌ مثلَ ما قتل، أي: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضربٍ زيداً، ثم من ضربِ زيدٍ ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ حال من

(١) أي: قراءة حمزة والكسائي وعاصم.

(٢) أي: قراءة غير الكوفيين وهم: أبو عمرو وابن عامر وابن كثير ونافع.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ﴾

الضمير في قتل، إذ المقتول يكون من النعم، أو صفة لجزاء ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ حكمان عادلان من المسلمين. وفيه دليلٌ على أنَّ المثلَ القيمة؛ لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة، ولأنَّ المثلَ المطلق في الكتاب، والسنة، والإجماع مقيّد بالصورة والمعنى. أو: بالمعنى لا بالصورة، أو بالصورة بلا معنى. والقيمة أريدت فيما لا مثل له صورة إجماعاً، فلم يبق غيرها مراداً، إذ لا عموم للمشترك.

فإن قلت قوله: ﴿من النَّعم﴾ ينافي تفسير المثل بالقيمة. قلت: من أوجب القيمة خُيِّر بين أن يشتري بها هدياً، أو طعاماً، أو يصوم كما خيّر الله تعالى في الآية، فكان من «النعم» بياناً للهدي المشترى بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأن مَنْ قوّم الصيد واشترى القيمة هدياً فأهداه، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدي، أو يكفر بالطعام، أو الصوم إنما يستقيم إذا قوّم ونظر بعد التقويم، أيّ: الثلاثة يختار. فأما إذا عمد إلى النظير، وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قوّم حينئذ، ثم يُخيَّر بين الطعام والصيام، ففيه نبُوٌّ عمّا في الآية. ألَا ترى إلى قوله ﴿أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلكَ صياماً﴾ كيف خيّر بين الأشياء الثلاثة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم ﴿هَدۡيَۢا﴾ حال من الهاء في به، أي: يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ صفة لهدياً؛ لأن إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة: أن يذبح بالحرم، فأما التصدق به فحيث شئت. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: في الحرم ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾ ﴿طَعَامُ﴾ بدل من كفارة، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي طعام. ﴿أو كفارة طعام﴾ على الإضافة: مدني وشامي. وهذه الإضافة لتبيين المضاف، كأنه قيل: أو كفارة من طعام ﴿مَسَٰكِينَ﴾. كما تقول: خاتم فضة، أي: خاتم من فضة ﴿أَوۡ عَدۡلُ﴾ وقرىء بكسر العين، قال الفراء: العَدْل: ما عادلَ الشيء من غير جنسه كالصوم والإطعام. والعِدْل مثله من جنسه، ومنه: عِدْلا الحمل. يقال: عندي غلام عِدْلُ غلامك ـ بالكسر ـ إذا كان من جنسه. فإن أريد أن قيمته كقيمته، ولم يكن من جنسه، قيل: هو عَدْل غلامك

ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

ـ بالفتح ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً. والخيار في ذلك إلى القاتل. وعند محمد ـ رحمه الله ـ إلى الحكمين ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بقوله ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه أن يجازى، أو يُكفِّرَ، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه، والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد التحريم، أو: في ذلك الإحرام ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاء. وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو ينتقم الله منه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بإلزام الأحكام. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لمن جاوز حدود الإسلام.

٩٦ ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل، ومما لا يؤكل. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وما يُطعَم من صيده. والمعنى: أحلّ لكم الانتفاع بجميع ما يُصاد في البحر، وأحلّ لكم أكل المأكول منه، وهو السمك وحده ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ مفعول له، أي: أحلّ لكم تمتيعاً لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وللمسافرين. والمعنى: أحل لكم طعامه تمتيعاً لتُنَائكم[1] يأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً، كما تزوّد موسى عليه السلام الحوتَ في مسيره إلى الخضر ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ ما صيد فيه. وهو: ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات، كالبط؛ فإنه بري؛ لأنه يتولد في البر. والبحر له مرعى، كما للناس متجر ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ محرمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحرم، أو: في الإحرام ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون فيجزيكم على أعمالكم.

(١) «لتنائكم»: أي: للمتوطنين منكم.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾

---

٩٧ ـ ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ أي: صيّر ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿ قِيَٰمًا ﴾ مفعول ثان. أو: جعل بمعنى خلق، وقياماً: حال. ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: انتعاشاً لهم في أمر دينهم، ونهوضاً إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم؛ لما يتم لهم من أمر حجّهم، وعمرتهم، وأنواع منافعهم. قيل: لو تركوه عاماً لم ينظروا، ولم يؤخروا ﴿ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ والشهر الذي يُؤدَّى فيه الحج، وهو ذو الحجة؛ لأن في اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد علمه الله. أو: أريد به جنس الأشهر الحرم، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم ﴿ وَٱلْهَدْىَ ﴾ ما يُهدى إلى مكة ﴿ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ والمقلد منه خصوصاً، وهو البُدْن، فالثواب فيه أكثر، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى جَعْل الكعبة قياماً، أو: إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد، وغيره ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: لتعلموا أنَّ الله يعلمُ مصالحَ ما في السموات وما في الأرض، وكيف لا يعلم وهو بكل شيء عليم؟!

٩٨ ـ ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن استخفَّ بالحرم والإحرام ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لآثام مَن عظَّم المشاعر العظام ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالجاني الملتجىء إلى البلد الحرام.

٩٩ ـ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ تشديدٌ في إيجاب القيام بما أمر به، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم، ووفاقكم.

١٠٠ ـ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يبدون

وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ

وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم، بل يميز بينهما فيعاقب الخبيث، أي: الكافر، ويثيب الطيب، أي: المسلم ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وآثروا الطيب ـ وإن قلّ ـ على الخبيث ـ وإن كثر ـ. وقيل: هو عامّ في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وجيد الناس ورديئهم ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

١٠١ ـ كانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن أشياء امتحاناً، فنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾ قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين: أصله: «شيئاء» بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ «شيء» وهمزتها الثانية للتأنيث؛ ولذا لم تنصرف كحمراء. وهي مفردة لفظاً، جمع معنى. ولما استثقلت الهمزتان المجتمعتان قدّمت الأولى التي هي لام الكلمة، فجعلت قبل الشين، فصار وزنها «لفعاء». والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أي: قوله: ﴿إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ صفة لأشياء، أي: وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو ما دام الرسول بين أظهركم تبد لكم تلك التكاليف التي تسوؤكم، أي: تغمّكم، وتشقّ عليكم، وتؤمرون بتحمّلها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا﴾ عفا الله عمّا سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لا يعاقبكم إلا بعد الإنذار.

١٠٢ ـ والضمير في: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا﴾ لا يرجع إلى أشياء حتى يعدّى بعن، بل يرجع إلى المسألة التي دلّت عليها «لا تسألوا» أي: قد سأل هذه المسألة ﴿قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأوّلين ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ كما عرف في بني إسرائيل.

١٠٣ ـ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ كان أهلُ الجاهلية إذا

وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ
ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم
مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ

نُتِجَتْ الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها ـ أي: شقّوها ـ وامتنعوا من ركوبها، وذبحها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، واسمها: البحيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري، أو برأت من مرضي، فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما، ولا ميراث. وكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أكله الرجال، وإن كان أنثى أرسلت في الغنم وكذا إن كان ذكراً وأنثى، وقالوا: وصلت أخاها. فالوصيلة بمعنى الواصلة. وإذا نُتِجَتْ من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى: ﴿ما جعل﴾: ما شرع ذلك، ولا أمر به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتحريمهم ما حرّموا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في نسبتهم هذا التحريم إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ الله لم يحرّم ذلك. وهم عوامّهم.

١٠٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: هلمّوا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرّمة ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: كافينا ذلك ﴿حسبنا﴾ مبتدأ. والخبر ﴿ما وجدنا﴾. و«ما» بمعنى: الذي. والواو في: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ للحال، قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره ﴿أ﴾ حسبهم ذلك ﴿ولو كان آباؤهم﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: الاقتداء إنما يصحّ بالعالم المهتدي. إنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

١٠٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ انتصب ﴿أنفسكم﴾ بـ«عليكم». وهو من أسماء الأفعال، أي: الزموا إصلاح أنفسكم. والكاف والميم في ﴿عليكم﴾ في موضع جر؛ لأنَّ اسمَ الفعل هو الجار والمجرور لا «على» وحدها ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ رفع على الاستئناف، أو: جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد ﴿مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ كان المؤمنون تذهبُ أنفسهم

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا

حسرةً على أهل العناد من الكفرة، يتمنَّون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها ﴿لايضركم﴾ الضُلَّال عن دينكم إذا كنتم مهتدين. وليس المراد: ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يجزيكم على أعمالكم.

١٠٦ ـ رُوي أنه خرج بديل مولى عمرو بن العاص ـ وكان من المهاجرين ـ مع عدي وتميم ـ وكانا نصرانيين ـ إلى الشام. فمرض بديل، وكتب كتاباً فيه ما معه، وطرحه في متاعه، ولم يخبر به صاحبيه. وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات. ففتشا متاعه، فأخذا إناء من فضة. فأصاب أهلُ بديل الصحيفة، فطالبوهما بالإناء، فجحدا. فرفعوا إلى رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾. ارتفع ﴿اثنان﴾ لأنه خبر المبتدأ، وهو ﴿شهادة﴾ بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين. أو: لأنه فاعل شهادة بينكم. أي: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. واتُّسع في «بين» فأضيف إليه المصدر ﴿وإذا حضر﴾ ظرف للشهادة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. وفي إبداله منه دليلٌ على وجوب الوصية؛ لأنَّ حضورَ الموت من الأمور الكائنة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. فيدلُّ على وجود الوصية. فلو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء. فنقل إلى الوجوب. وحضور الموت: مشارفته، وظهور أمارات بلوغ الأجل. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنين ﴿مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم؛ لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ عطف على ﴿اثنان﴾ ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها. و﴿أنتم﴾ فاعل فعل يفسّره الظاهر ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أو: ﴿منكم﴾ من المسلمين، و﴿من غيركم﴾ من أهل الذمة. وقيل: منسوخ؛ إذ لا يجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أوّل الإسلام لقلّة المسلمين ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ تقفونهما

مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ

للحلف. هو استئناف كلام، أو: صفة لقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: ﴿أو آخران من غيركم﴾ محبوسان. و﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: بعد العصر أو الظهر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر، ودعا بـ: عديٍّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة. فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعديّ[1] ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ إن شككتم في أمانتهما. وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه، وهو ﴿لَا نَشۡتَرِي﴾. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام. والتقدير: ﴿إن ارتبتم﴾ في شأنهما فخلفوهما ﴿بِهِۦ﴾ بالله، أو بالقسم ﴿ثَمَنٗا﴾ عَرَضاً من الدنيا ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ أي: المقسم له ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال، ولو كان من نقسم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها، وتعظيمها ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ إن كتمنا ﴿لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾. وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن: أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما.

١٠٧ ـ ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ فعلاً ما أوجب إثماً، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ أي: ﴿من الذين استحق عليهم﴾ الإثم. ومعناه: من الذين جُني عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل: أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما، وأن شهادتهما أحقّ من شهادتهما ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ الأحقّان بالشهادة لقرابتهما، أو

---

(١) رواه الترمذي(٣٠٥٩) وقال: حديث غريب.

فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ

معرفتهما. وارتفاعهما على: هما ﴿الأوليان﴾ كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: ﴿الأوليان﴾. أو: هو بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو من ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ حفص. أي: ﴿مِنَ﴾ الورثة ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ من بينهم بالشهادة أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين. ﴿الأوّلين﴾ حمزة، وأبو بكر، على أنه وصف للذين استحقّ عليهم مجرور، أو منصوب على المدح. وسموا: أوّلين؛ لأنهم كانوا أوّلين في الذكر في قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: ليميننا أحق بالقبول من يمين هذين الوصيّين الخائنين ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وما تجاوزنا الحقّ في يميننا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن حلفنا كاذبين.

١٠٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مرَّ ذكره من بيان الحكم ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ أي: الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ كما حملوها بلا خيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الخيانة، واليمين الكاذبة ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ سمع قبول، وإجابة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة. فإن قلت: ما معنى ﴿أو﴾ هنا؟ قلت: معناه: ذلك أقرب من أن يؤدوا الشهادة بالحق والصدق، إما لله، أو لخوف العار والافتضاح بردّ الأيمان. وقد احتج به مَن يرى ردّ اليمين على المدّعي. والجواب: أن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا، فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادّعيا الشراء فيما كتما، فأنكرت الورثة، فكانت اليمينُ على الورثة لإنكارهما الشراء.

١٠٩ ـ ﴿۞ يَوْمَ﴾ منصوب باذكروا، أو: احذروا ﴿يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان. وهذا السؤال توبيخٌ لمن أنكرهم. و﴿ماذا﴾ منصوب بأجبتم، نصب المصدر على

قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

معنى: أيّ إجابة أجبتم؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بإخلاص قومنا. دليله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. أو: بما أحدثوا بعدنا. دليله ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة: ١١٧]. أو: قالوا ذلك تأدّباً، أي: علمنا ساقط مع علمك، ومغمور به، فكأنه لا علم لنا.

١١٠ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدل من: يوم يجمع ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث طهرتها، واصطفيتها على نساء العالمين. والعامل في: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: قويتك ﴿نعمتي﴾ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام. أيّد به لتثبت الحجة عليهم، أو: بالكلام الذي يحيا به الدين. وأضافه إلى القدس لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام. دليلهُ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ حال، أي: تكلمهم طفلاً، إعجازاً ﴿وَكَهْلًا﴾ تبليغاً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على ﴿إذ أيّدتك﴾. ونحوه: ﴿وإذ تخلق﴾ ﴿وإذ تخرج﴾ ﴿وإذ كففت﴾ ﴿وإذ أوحيت﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تقدّر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بِإِذْنِى﴾ بتسهيلي. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف؛ لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى، وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه. وكذا الضمير في ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾. وعطف ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ على ﴿تخلق﴾. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِى﴾ قيل: أخرج سام بن نوح، ورجلين، وامرأة، وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ أي: اليهود حين همّوا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ ظرف لكففت ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ساحر: حمزة، وعليّ.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ

١١١ ـ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ ألهمت ﴿إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الخواصّ، أو: الأصفياء ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ أي: آمنوا ﴿بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: اشهد بأننا مخلصون. مِن: أسلم وجهه.

١١٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: اذكروا إذ قال الحواريون ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ «عيسى»: نصب على اتباع حركته حركة الابن، نحو: يا زيدَ بن عمرو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعل؟ أو هل يطيعك ربك إن سألته؟ فاستطاع وأطاع بمعنى، كاستجاب وأجاب. (هل تستطيع ربّك): عليّ. أي: هل تستطيع سؤال ربك، فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ ﴿يُنْزِل﴾: مكي، وبصري ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي: الخوان[1] إذا كان عليه الطعام، من: ماده: إذا أعطاه، كأنها تميدُ مَن تقدم إليها ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمانُ يوجبُ التقوى.

١١٣ ـ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركاً ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ونزداد يقيناً، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدقك عياناً، كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا.

١١٤ ـ ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ﴾

(١) «الخُوان»: ـ بضم الخاء وكسرها ـ: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة.

﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ﴾

أصله: ياألله، فحذف يا، وعوض منه الميم ﴿رَبَّنَآ﴾ نداء ثان ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، أو العيد: السرور العائد. ولذا يقال: يومُ عيدٍ، فكان معناه: تكون لنا سروراً وفرحاً ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لنا﴾ بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا. أو: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أوّلهم. أو: للمتقدمين منّا والأتباع ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ على صحة نبوّتي. ثم أكّد ذلك بقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأعطنا ما سألناك، وأنت خير المعطين.

١١٥ ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم. وعَد الإنزال، وشرط عليهم شرطاً بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ بعد إنزالها ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم. والضمير في: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بدّ من الباء ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن الحسن: أن المائدة لم تنزل، ولو نزلت لكانت عيداً إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وآخرنا﴾. والصحيح أنها نزلت. فعن وهب: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة، عليها كل طعام إلا اللحم. وقيل: كانوا يجدون عليها ما شاؤوا. وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشياً.

١١٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤال يكون في يوم القيامة. دليله: سياق الآية وسابقها[1] وقيل: خاطبه به حين رفعه إلى السماء. دليله: لفظ ﴿إذ﴾ ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ...﴾ [المائدة: ١٠٩].

لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ

﴿لِي بِحَقٍّ﴾ أن أقول قولاً لا يحقُّ لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إن صح أني قلته فيما مضى فقد علمته. والمعنى: أني لا أحتاجُ إلى الاعتذار؛ لأنك تعلمُ أني لم أقله، ولو قلته علمته؛ لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ذاتي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ذاتك. فنفس الشيء: ذاته، وهويته. والمعنى: تعلم معلومي، ولا أعلم معلومك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين معاً؛ لأنَّ ما انطوتْ عليه النفوسُ من جملة الغيوب، ولأنَّ ما يعلم علام الغيوب لا ينتهي إليه علمُ أحد.

١١٧ ـ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به. ثم فسّر ما أمر به فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. فـ«أن» مفسرة بمعنى: أي ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ مدّة كوني فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي، وفعلي، وقولهم، وفعلهم.

١١٨ ـ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الزجاج: علم عيسى عليه السلام أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: ﴿إن تعذّبهم﴾ أي: إن تعذب من كفر منهم ﴿فإنهم عبادك﴾ الذين علمتهم جاحدين لآياتك، مكذبين لأنبيائك، وأنت العادل في ذلك؛ فإنهم قد كفروا بعد وجوب الحجة عليهم ﴿وإن تغفر لهم﴾ أي: لمن أقلع منهم وآمن، فذلك فَضْل منك. وأنت عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك. أو: ﴿عزيز﴾ قويّ، قادر على الثواب، ﴿حكيم﴾ لا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

١١٩ ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ برفع اليوم والإضافة على أنه

﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

خبر هذا، أي: يقول الله تعالى: هذا يومُ ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر في دنياهم وآخرتهم. والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب على المفعولية، كما تقول: قال زيد: عمرو منطلق. وبالنصب نافع على الظرف، أي: قال الله هذا لعيسى عليه السلام يومَ ينفع الصادقين صدقهم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه باقٍ بخلاف الفوز في الدنيا، فهو غير باق.

١٢٠ ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ عظّم نفسه عما قالت النصارى: إن معه إلهاً آخرَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ من المنع، والإعطاء، والإيجاد، والإفناء.

نسأله أن يوفِّقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجنَّاته. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

سُورَةُ الأَنْعَامِ

ترتيبها ٦ — آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء، أي: الحمد له وإن لم تحمدوه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جمع السموات؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور، فليس بعضها فوق بعض، بل بعضها موالٍ لبعض. جعل يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إن كان بمعنى صيّر، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. وفيه ردّ قول الثنوية بقِدَم النور والظلمة. وأفرد النور لإرادة الجنس، ولأنّ ظلمة كلّ شيء تختلف باختلاف ذلك الشيء، نظيره: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الموضع المظلم، يخالف كل واحد منها صاحبه. والنور: ضرب واحد، لا يختلف كما تختلف الظلمات. وقدّم الظلمات لقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق الله خلقه في ظلمة، ثم رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»[(١)] ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يساوون به الأوثان. تقول: عدلت هذا بذا، أي: ساويته به. والباء في ﴿بربّهم﴾ صلة للعدل، لا للكفر. أو: ﴿ثمّ الذين كفروا بربّهم

(١) رواه أحمد (٢/١٧٦، ١٩٧) والترمذي (٢٦٤٢) وقال: حديث حسن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾

يعدلون﴾ عنه، أي: يعرضون عنه، فتكون الباء صلة الكفر، وصلة ﴿يعدلون﴾ أي: عنه: محذوفة. وعطف ﴿ثم الذين كفروا﴾ على ﴿الحمد لله﴾ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنّه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته. أو: على ﴿خلق السموات﴾ على معنى: أنه خلق ما خلق ممّا لا يقدر عليه أحد سواه، ثمّ هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ﴿ثمّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ مِن: لابتداء الغاية، أي: ابتدأ خلق أصلكم، يعني: آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: حكَمَ أجل الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة. أو: الأوّل ما بين أن يُخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ. أو: الأوّل: النوم، والثاني: الموت. أو: الثاني هو الأوّل، وتقديره ﴿و﴾ هو ﴿أجل مسَمًّى﴾ أي: معلوم. و﴿أجل مسمى﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عنده﴾. وقدّم المبتدأ ـ وإن كان نكرة والخبر ظرفاً ـ وحقّه التأخير؛ لأنّه تخصّص بالصفة، فقارب المعرفة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكّون، من: المرية، أو: تجادلون، من المراء. ومعنى «ثمّ» استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثَبَت أنه محييهم، ومميتهم، وباعثهم.

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أو هو المعروف بالإلٰهية فيهما؛ أو: هو الذي يقال له: الله فيهما. والأول تفريع على أنّه مشتق، وغيره على أنه غير مشتق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبر بعد خبر. أو: كلام مبتدأ، أي: هو ﴿يعلم سرّكم وجهركم﴾ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشرّ، ويثيب عليه، ويعاقب.

٤ ـ و«مِنْ» في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ للاستغراق. وفي: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعيض. أي: وما يظهر لهم دليل قطّ من الأدلّة التي يجب فيها النظر،

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

والاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر، لا يلتفتون إليه؛ لقلّة خوفهم، وتدبرهم في العواقب.

٥ ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات ﴿فقد كذبوا﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو القرآن؛ الذي تُحدّوا به، فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أي: أخباره وأحواله، يعني: سيعلمون بأيّ شيء استهزؤوا، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام، وعلوّ كلمته.

٦ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني: المكذّبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ هو مدّة انقضاء أهل كلّ عصر، وهو ثمانون سنة، أو سبعون ﴿مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾ في موضع جرّ صفة لـ«قرْن». وجمع على المعنى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ التمكين في البلاد: إعطاء المُكْنة. والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البَسْطة في الأجسام، والسَّعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر. ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ كثيراً، وهو حال من السماء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ من تحت أشجارهم. والمعنى: عاشوا في الخِصْب بين الأنهار والثمار، وسُقيا الغيث المدرار ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بدلاً منهم.

٧ ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا﴾ مكتوباً ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هو للتأكيد لئلا يقولوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥]. ومن المحتجّ عليهم: العمي ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنّتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

٨ ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ هلا. ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على النبيّ ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلّمنا أنّه نبيّ. فقال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لقضي أمر هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لايمهلون بعد نزوله طرفة عين؛ لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى ﴿ثم﴾ بُعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

٩ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون تارة: لولا أنزل على محمد مَلَك، وتارة يقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في أعمّ الأحوال في صورة دحية؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا، وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان: هذا إنسان، وليس بمَلَك. يقال: لَبَست الأمر على القوم، وألبسته: إذا أشبهته، وأشكلته عليهم.

١٠ ـ ثمّ سلّى نبيّه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل استهزائهم به. و﴿منهم﴾ متعلق بسخروا، كقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. والضمير للرسل. والدال مكسورة عند أبي عمرو، وعاصم لالتقاء الساكنين. وضمّها غيرهما إتباعاً لضمّ التاء.

١١ ـ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ والفرق

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

بين فانظروا وبين ﴿ثم انظروا﴾ أن النظر جعل مسبَّباً عن السير في «فانظروا» فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى «سيروا في الأرض ثم انظروا»: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبّه على ذلك بـ«ثمَّ» لتباعد ما بين الواجب والمباح.

١٢ـ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿من﴾ استفهام و﴿ما﴾ بمعنى الذي في موضع الرفع على الابتداء، و﴿لمن﴾ خبره. ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيئاً إلى غيره. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أصل كتب: أوجب، ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره، إذ لا يجب على الله شيء للعبد، فالمراد به: أنه وعد ذلك وعداً مؤكّداً، وهو منجزه لا محالة. وذكر النفس للاختصاص، ورفع الوسائط. ثمَّ أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليجازيكم على إشراككم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم، أو: في الجمع. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ نصب على الذم، أي: أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال الأخفش: ﴿الذين﴾ بدل من ﴿كم﴾ في ﴿ليجمعنكم﴾ أي: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم. والوجه هو الأول؛ لأن سيبويه قال: لا يجوز: مررت بي المسكين، ولا بك المسكين، فتجعل المسكين بدلاً من الياء، أو الكاف؛ لأنهما في غاية الوضوح، فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير.

١٣ ـ ﴿۞ وَلَهُۥ﴾ عطف على ﴿لله﴾ ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من السُّكنى، حتى يتناول الساكن والمتحرك، أو: من السكون، ومعناه: ما سكن وتحرّك فيهما، فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر كقوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحرّ والبرد. وذكر السكون لأنه أكثر من الحركة. وهو احتجاجٌ على المشركين؛ لأنّهم لم ينكروا أنّه خالق الكلّ، ومدبّره ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

كلّ مسموع، ويعلم كلّ معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان[1].

١٤ ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ناصراً ومعبوداً. وهو مفعول ثانٍ لـ: ﴿أتّخذ﴾. والأوّل ﴿غير﴾. وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول ﴿أتّخذ﴾ لا عليه؛ لأن الإنكار في اتّخاذ غير الله وليّاً، لا في اتّخاذ الوليّ، فكان أحقّ بالتقديم ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالجر، صفة لله، أي: مخترعهما. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو يرزق ولا يُرزق. أي: المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبيَّ سابق أمّته في الإسلام؛ كقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ﴿لا تكونن من المشركين﴾. ولو عطف على ما قبله لفظاً لقيل: وألا أكون، والمعنى: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهِيْتُ عن الشرك.

١٥ـ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني أخاف عذاب يوم عظيم، وهو القيامة، إن عصيتُ ربي. فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب.

١٦ ـ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله الرحمة العظمى، وهي: النجاة الظاهرة. ﴿من يَصْرِفْ﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: من يَصْرِف الله عنه العذاب ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٧ ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض، أو فقر، أو غير ذلك من بلاياه

(١) «المَلَوان»: الليل والنهار.

فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ
إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ
أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى، أو صحّة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إدامته، وإزالته.

١٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ مبتدأ وخبر. أي: الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ خبر بعد خبر، أي: غالب عليهم بالقدرة. والقهر: بلوغ المراد بمنع غيره من بلوغه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تنفيذ مراده ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأهل القهر من عباده.

١٩ ـ ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ ﴿أيّ شيء﴾ مبتدأ و﴿أكبر﴾ خبره و﴿شهادة﴾ تمييز. و«أيّ» كلمة يراد بها بعض ما تضاف إليه، فإذا كانت استفهاماً كان جوابُها مسمّى باسم ما أضيفت إليه. وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابٌ، أي: الله أكبر شهادة. فالله: مبتدأ، والخبر: محذوف، فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق اسم الشيء على الله تعالى، وهذا لأنَّ الشيءَ اسمٌ للموجود؛ ولا يُطلق على المعدوم، والله تعالى موجود فيكون شيئاً؛ ولذا نقول: الله تعالى شيء لا كالأشياء. ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾ ويجوز أن يكون الجواب ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾، لأنه إذا كان الله شهيداً بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ومَنْ بلغه القرآن إلى قيام الساعة. وفي الحديث: «من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ»[1]. و﴿مَنْ﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿كُمْ﴾. والمراد به: أهل مكة، والعائد إليه محذوف، أي: ومن بلغه. وفاعل بلغ ضمير القرآن.! ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام إنكار، وتبكيت ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. وكرَّر ﴿قُلْ﴾ توكيداً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ما: كافة لـ: «أنَّ» عن العمل. و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. و﴿واحد﴾ صفة. أو: بمعنى «الذي» في محل النصب بـ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/١١) موقوفاً على سعيد بن جبير.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

«إنَّ»، و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. والجملة: صلة الذي. و﴿واحد﴾: خبر إن. وهذا الوجه أوقع ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى. والكتاب: التوراة، والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: رسول الله ﷺ بحليته، ونعته الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحلاهم، ونعوتهم. وهذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوته. ثمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢١ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام يتضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم لنفسه. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأشنعهُ: اتّخاذ المخلوق معبوداً. ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختلق. ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفه بما لا يليقُ به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن، والمعجزات ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الأمر، والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله ما لا حجة عليه، وكذّبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسمّوا القرآن والمعجزات: سحراً.

٢٢ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هو مفعول به، والتقدير: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ مع الله غيره، توبيخاً. وبالياء فيهما: يعقوب ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونهم شركاء، فحُذِف المفعولان.

٢٣ ـ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ. ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ كفرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: ثمّ لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه إلا جحوده، والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التديّن به. أو: ثمّ لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسمّي فتنة لأنّه كذب. وبرفع الفتنة: مكيّ،

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾

وشاميّ، وحفص. فمن قرأ: ﴿تكن﴾ بالتاء، ورفع الفتنة، فقد جعل الفتنة اسم تكن، و﴿أن قالوا﴾ الخبر، أي: لم يكن فتنتهم إلا قولهم. ومن قرأ بالتاء، ونصب الفتنة حمل على المقالة ﴿رَبَّنَا﴾ حمزة، وعليّ، على النداء، أي: يا ربنا. وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله.

٢٤ ـ ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد. ﴿كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بقولهم: ما كنّا مشركين. قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله، وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلّنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]. قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فيختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إلهيّته، وشفاعته.

٢٥ ـ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ حين تتلو القرآن. رُوي أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وأضرابُهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنّه يحرّك لسانه، ويقول أساطيرَ الأوّلين مثل ما حدّثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنّي لأراه حقّاً، فقال أبو جهل: كلاّ. فنزلت ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كِنان، وهو: الغطاء، مثل عنانٍ وأعنّة ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ كراهة ﴿أن يفقهوه﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ ثِقلاً يمنع من السمع. ووحّد الوَقْر لأنّه مصدر، وهو عطف على أكنّة، وهو حجة لنا في الأصلح(١) على المعتزلة ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿حتى﴾ هي التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله: ﴿إذا جاؤك. . .يقول الذين كفروا﴾. و﴿يجادلونك﴾ في موضع الحال. ويجوز

(١) وهو قول المعتزلة: إن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، وسموا ذلك عدلاً.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ﴾

أن تكون جارّة، ويكون ﴿إذا جاؤوك﴾ في موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم. و﴿يجادلونك﴾ حال، و﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له. والمعنى: أنه بلغ تكذيبُهم: الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسّر مجادلتهم بأنهم يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيجعلون كلام الله أكاذيب. وواحد الأساطير: أُسْطورة.

٢٦ ـ ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول، واتّباعه، والإيمان به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ويبعدون عنه بأنفسهم، فيُضلّون ويَضلّون ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتعدّاهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنّون أنّهم يضرّون رسول الله. وقيل: عُني به أبو طالب؛ لأنّه كان ينهى قريشاً عن التعرّض لرسول الله ﷺ، وينأى عنه فلا يؤمن به. والأوّل أشبه.

٢٧ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حذف جوابه، أي: ولو ترى لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أُروها حتى يعاينوها، أو حُبسوا على الصراط فوق النار ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا. تمنّوا الردّ إلى الدنيا ليؤمنوا، وتمّ تمنّيهم. ثم ابتدؤوا بقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب، ونؤمن. ﴿ولا نكذبَ، ونكونَ﴾ حمزة، وحفص، على جواب التمني بالواو، وبإضمار أنْ، ومعناه: إن رُدِدْنا لم نكذب، ونَكُنْ من المؤمنين. وافقهما في ﴿ونكونَ﴾ شامي.

٢٨ ـ ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنّوا ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ من الناس ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من قبائحهم، وفضائحهم في صحفهم.

وقيل: هو في المنافقين، وأنّه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرّونه، أو في أهل الكتاب، وأنّه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحّة نبوّة رسول الله ﷺ ﴿وَلَوْ

رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا

﴿رُدُّوا۟﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوا من أنفسهم، لا يوفون به.

٢٩ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ عطف على ﴿لعادوا﴾ أي: ولو رُدُّوا لكفروا، ولقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة [أو على قوله ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا][1]. و﴿هي﴾ كناية عن الحياة، أو: هو ضمير القصة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

٣٠ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه، أو: وقفوا على جزاء ربهم ﴿قَالَ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا﴾ أي: البعث ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالكائن الموجود. وهذا تعييرٌ لهم على التكذيب للبعث، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث: ما هو بحق ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقرّوا، وأكّدوا الإقرار باليمين ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم.

٣١ ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتَّصل بها، أو: هو مجرى على ظاهره؛ لأنَّ منكر البعث منكر للرؤية ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لـ (كذّبوا) لـ(خسر)؛ لأن خسرانهم لا غاية له ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة؛ لأن مدّة تأخّرها مع تأبّد ما بعدها كساعة واحدة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. وانتصابها على الحال يعني: باغتة، أو: على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة. وهي: ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا﴾ نداء تفجُّع، معناه: يا

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

حسرة احضري، فهذا أوانك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصَّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أو: في الساعة، أي: قصَّرنا في شأنها، وفي الإيمان بها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ آثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ خصّ الظَّهر؛ لأن المعهودَ حملُ الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدي. وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم. وقيل: إنّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبحُ شيء صورة، وأخبثُه ريحاً، فيقول: أنا عملك السيّىء، فطالما ركبتني في الدنيا، وأنا أركبك اليوم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يحملونه. وأفاد ﴿أَلَا﴾ تعظيم ما يذكر بعده.

٣٢ ـ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]. واللعب: ترك ما ينفع بما لا ينفع. واللهو: الميل عن الجد إلى الهزل. قيل: ما أهلُ الحياة الدنيا إلا أهلُ لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو؛ لأنها لا تُعقِب منفعة، كما تعقب أعمالُ الآخرة المنافعَ العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ﴾ مبتدأ ﴿الْآخِرَةُ﴾ صفتها ﴿ولدارُ الآخرة﴾ بالإضافة: شامي، أي: ولدار الساعة الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته. وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وفيه دليلٌ على أنَّ ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء: مدني، وحفص.

٣٣ ـ ولما قال أبو جهل: وما نكذبك يا محمد! وإنّك عندنا لمصدّق، وإنما نكذب ما جئتنا به نزل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ والهاء: ضمير الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا ينسبونك إلى الكذب. وبالتخفيف: نافع، وعليّ، من: أَكْذَبَهُ: إذا وجده كاذباً ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر. وفيه دلالةٌ على أنهم ظلموا في جحودهم. والباء يتعلق بـ «يجحدون»، أو بـ «الظالمين»، كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والمعنى: أن تكذيبك أمرٌ راجعٌ إلى الله؛ لأنك رسوله المصدّق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله؛ لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. وهو دليلٌ على أن قوله: ﴿فإنّهم لا يكذّبونك﴾ ليس بنفي لتكذيبه. وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس: إنهم لم يهينوك، وإنما أهانوني ﴿فَصَبَرُوا۟﴾ الصبر: حبس النفس على المكروه ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ على تكذيبهم، وإيذائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بعض أنبائهم، وقصصهم، وما كابدوا من مصابرة المشركين. وأجاز الأخفش أن تكون «من» زائدة، و«الفاعل»: نبأ المرسلين. وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب.

٣٥ ـ كان يكبر على النبيّ ﷺ كفر قومه، وإعراضهم، ويحبُّ مجيء الآيات ليسلموا، فنزل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم، وشقّ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لنفقاً ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ منها ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ فافعل، وهو جواب ﴿فإن استطعت﴾. وإن استطعت وجوابها جواب ﴿وإن كان كبر﴾. والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك. والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ لجعلهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لمّا علم أنّهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك، كذا قاله الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون ذلك.

٣٦ ـ ثم أخبر أن حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون

وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ

دعاءك بقلوبهم ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ مبتدأ. أي: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا.

٣٧ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ هلاّ أنزل عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما نقترح من جعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكّة، وتفجير الأنهار خلالها ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، أو: لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزلت.

٣٨ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هي اسم لما يدبّ، وتقع على المذكّر والمؤنّث ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في موضع جرّ صفة لدابّة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيّد الطيران بالجناحين لنفي المجاز؛ لأنّ غير الطائر قد يقال فيه: طار: إذا أسرع ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبّر يدبّر أمر مراشدها ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ ما تركنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبه، ولم نثبت ما وجب أن يثبت. أو: ﴿الكتاب﴾ القرآن. وقوله: ﴿من شيء﴾ أي: من شيء يحتاجون إليه، فهو مشتمل على ما تعبّدنا به عبارةً، وإشارةً، ودلالةً، واقتضاءً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم كلها من الدوابّ والطيور، فينصف بعضها من بعض، كما رُوي: أنه يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً. وإنّما قال «إلا أمم» مع إفراد الدابّة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما.

٣٩ ـ ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته، وينادي على عظمته قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون كلام المنبّه ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. خابطون ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمة الجهل، والحيرة، والكفر، غافلون عن تأمل ذلك، والتفكر فيه ﴿صمّ وبكم﴾ خبر الذين، ودخول الواو لا يمنع من ذلك. و﴿في الظلمات﴾ خبر آخر. ثم قال إيذاناً بأنّه

مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟

فعّال لما يريد: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: من يشأ الله ضلاله يُضْلِلْه ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال، وإرادة المعاصي، ونفي الأصلح.

٤٠ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وبتليين الهمزة: مدنيّ. وبتركه: عليّ. ومعناه: هل علمتم أن الأمر كما يقال لكم، فأخبروني بما عندكم. والضمير الثاني لا محلَّ له من الإعراب. والتاء ضمير الفاعل. ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره: أرأيتكم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ من تدعون؟ ثم بكّتهم بقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أتخصّون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر، أم تدعون الله دونها؟! ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الأصنام آلهة، فادعوها لتخلّصكم.

٤١ ـ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصّونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ إن أراد أن يتفضّل عليكم ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم، أو: لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربّكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كأنه قيل: أرأيتكم أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله؟

٤٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً، فالمفعول محذوف. فكذّبوهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر. أو: الأوّل: القحط، والجوع، والثاني: المرض، ونقصان الأنفس، والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذلّلون، ويتخشّعون لربّهم، ويتوبون عن ذنوبهم، فالنفوس تتخشّع عند نزول الشدائد.

٤٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي: هلاّ تضرّعوا بالتوبة. ومعناه:

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً
فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ
كَيْفَ نُصَرِّفُ الْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

نفي التضرّع، كأنّه قيل: فلم يتضرّعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد: أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم ينزجروا بما ابتلُوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وصاروا مُعجَبين بأعمالهم التي زيّنها الشيطانُ لهم.

٤٤ ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء، أي: تركوا الاتعاظ به، ولم يزجرهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الصحة، والسعة، وصنوف النعمة. ﴿فتّحنا﴾ شامي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الخير والنعمة ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون، متحسّرون. وأصله: الإطراق حزناً لما أصابه، أو ندماً على ما فاته. وإذا: للمفاجأة.

٤٥ ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أُهلِكوا عن آخرهم، ولم يُترك منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنّه من أجلّ النِّعَم، وأجزل القسم، أو: احمدوا الله على إهلاك من لم يحمد الله.

٤٦ ـ ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأن أصمّكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فسلب العقول، والتمييز ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بما أخذ، وختم عليه ﴿من﴾ رفع بالابتداء، و﴿إله﴾ خبره، و﴿غير﴾ صفة لإله، وكذا ﴿يأتيكم﴾ والجملة في موضع مفعولي ﴿أرأيتم﴾. وجواب الشرط: محذوف: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الْءَايَٰتِ﴾ نكرّرها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها. والصدوف: الإعراض عن الشيء.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾

٤٧ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأن ظهرت أماراته. وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ما يهلك هلاك تعذيبٍ وسَخَط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربّهم.

٤٨ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار، ولم[1] نرسلهم ليُقترحَ عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: داوم على إيمانه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿فلا خوفَ﴾ يعقوب.

٤٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماسّاً، كأنّه حيّ يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر.

٥٠ ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: قِسَمه[2] بين الخلق، وأرزاقه. ومحلُّ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ النصب، عطفاً على محل «عندي خزائن الله»؛ لأنه من جملة المقول، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول، ولا هذا القول ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لا أدّعي ما يستبعدُ في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وعلم الغيب، ودعوى الملكية، وإنما أدّعي ما كان لكثير من البشر، وهو النبوة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أخبركم إلا بما أنزل الله عليّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للضالّ والمهتدي، أو: لمن اتبع ما يوحى إليه،

(١) في الأصل (ولن) والتصحيح من الكشاف.
(٢) قِسَم: جمع قِسْمَة: وهي النصيب.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾

ومن لم يتّبع، أو لمن يدّعي المستقيم، وهو النبوّة، والمحال وهو الإلهيّة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالّين أشباه العميان، أو: فتعلموا أنّي ما ادّعيت ما لا يليق بالبشر، أو: فتعلموا أن اتّباع ما يوحى إليّ مما لا بدّ لي منه.

٥١ ـ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بما يوحى ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المقرّون بالبعث، إلا أنهم مفرّطون في العمل، فينذرهم بما أوحي إليه، أو: أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من ﴿يحشروا﴾ أي: ﴿يخافون أن يحشروا﴾ غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يدخلون في زمرة أهل التقوى.

٥٢ ـ لمّا أُمر النبي ﷺ بإنذار غير المتقين ليتقوا، أمر بعد ذلك بتقريب المتّقين، ونهى عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم، أي: عبادته، ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام؛ أو: معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، أو الصلوات الخمس. (بالغُدْوَة) شامي. ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. فالوجه يعبّر به عن ذات الشيء، وحقيقته. نزلت في الفقراء: بلال، وصهيب، وعمار، وأضرابهم، حين قال رؤساء المشركين: لو طردت هؤلاء السقّاط لجالسناك. فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين». فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا بذلك كتاباً، فدعا علياً ـ رضي الله عنه ـ ليكتب، فقام الفقراء، وجلسوا ناحية، فنزلت. فرمى ﷺ بالصحيفة، وأتى الفقراءَ، فعانقهم[1] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ [الشعراء: ١١٣] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وذلك أنّهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم، لا يتعدّاهم إليك، كما أن

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص١٤٦).

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

حسابك عليك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي، وهو: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي: وهو ﴿ولا تطرد﴾. ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿فتطردهم﴾ على وجه التسبيب؛ لأنَّ كونه ظالماً مسبَّبٌ عن طردهم.

٥٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتْنِ العظيم ابتلينا الأغنياء بالفقراء ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ أي: الأغنياء ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان. ونحن المقدَّمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير. ونحوه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يشكر نعمته.

٥٤ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم، وتطييباً لقلوبهم. وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليبشّرهم بسعة رحمة الله، وقبوله التوبة منهم. ومعناه: وعدكم بالرحمة وعداً مؤكداً ﴿أَنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ ذنباً ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عَمِلَهُ وهو جاهل بما يتعلّق به من المضرّة، أو: جُعِل جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد السوء، أو العمل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وأخلص توبته ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «أنّه» «فإنّه» شاميّ، وعاصم. الأوّل: بدل الرحمة، والثاني: خبر مبتدأ محذوف، أي: فشأنه أنّه غفور رحيم. «أنّه»، «فإنّه» مدنيّ، الأوّل: بدل الرحمة، والثاني: مبتدأ.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ

«إنّه» «فأنّه» غيرهم على الاستئناف. كأنّ الرحمة استفسرت فقيل: ﴿إنّه من عمل منكم﴾.

٥٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر. ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالنصب مدنيّ. غيره بالرفع. فرفع السبيل مع التاء والياء لأنها تذكّر وتؤنّث. ونصب السبيل مع التاء على خطاب الرسول ﷺ. يقال: استبان الأمر، وتبيّن، واستبنته، وتبيّنته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البيّن نفصّل آيات القرآن، ونلخّصها في صفة أحوال المجرمين مَنْ هو مطبوعٌ على قلبه، ومَنْ يُرجى إسلامه. ولتستوضح سبيلَهم فتعامل كلاًّ منهم بما يجب أن يُعامل به، فصّلنا ذلك التفصيل.

٥٦ ـ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: صُرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتّباع الهوى دون اتّباع الدليل، وهو بيانٌ للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضالّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ في شيء. يعني: أنّكم كذلك.

٥٧ ـ ولمّا نفى أن يكون الهوى متّبَعاً نبّه على ما يجب اتّباعه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: إنّي من معرفة ربّي، أنّه لا معبود سواه على حجة واضحة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ حيث أشركتم به غيره. وقيل: ﴿على بيّنه من ربي﴾ على حجّة من جهة ربي، وهو القرآن ﴿ وكذّبتم به﴾ بالبيّنة. وذكّر الضمير على تأويل البرهان، أو البيان، أو القرآن. ثم عقّبه بما دلَّ على أنهم أحقّاء بأن يعاقبوا بالعذاب، فقال: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ حجازي،

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن

وعاصم، أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به، ويقدّره، من: قصّ أثره. الباقون ﴿يَقْضِ الحقَّ﴾ في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل. فـ ﴿الحقَّ﴾ أي القضاء: فالحق صفة لمصدر ﴿يقضي﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: القاضين بالقضاء الحق، إذ الفصل هو: القضاء. وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين.

٥٨ ـ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربِّي[1] ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو ينزِّل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع.

٥٩ ـ ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ المفاتح: جمع مِفْتَح، وهو: المفتاح، أو: هي خزائن العذاب والرزق، أو: ما غاب عن العباد من الثواب، والعقاب، والآجال، والأحوال. جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصّل بها إلى ما في المخازن المستوثق منها بالأغلاق، والأقفال. ومَنْ عَلِمَ مفاتحها، وكيفيّة فتحها توصّل إليها. فأراد أنّه هو المتوصّل إلى المغيَّبات وحده، لا يتوصّل إليها غيره، كمن عنده مفتاح أقفال المخازن، ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. قيل: عنده مفاتح الغيب، وعندك مفاتح العيب، فمن آمن بغيبه، أسبل الله السّتر على عيبه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ من النبات، والدوابّ، والجواهر، وغيرهما ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ من الحيوان، والجواهر، وغيرهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن

---

(١) قال أبو السعود: وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب، مالا يخفى. فما قيل في تفسيره: «لأهلكتكم عاجلاً، غضباً لربي..» بمعزلٍ من توفيةِ المقام حقَّه. (تفسير أبي السعود: ٣/ ١٤٢).

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً

﴿وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ «ما» للنفي، ومَنْ للاستغراق، أي: يعلم عددها، وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على ورقة، وداخل في حكمها. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كالتكرير؛ لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾ لأن معنى ﴿إلا يعلمها﴾ ومعنى ﴿إلا في كتاب مبين﴾ واحد، وهو عِلْمُ الله، أو اللوح.

٦٠ ـ ثم خاطب الكفرة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أنفسَكم عن التصرّف بالتمام في المنام ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم في النهار. أو: التقدير: ثم يبعثكم في النهار، ويعلم ما جرحتم فيه، فقدّم الكسب لأنه أهمّ. وليس فيه أنّه لا يعلم ما جَرَحْنا بالليل، ولا أنّه لا يتوفّانا بالنهار. فدلّ أنَّ تخصيصَ الشيء بالذكر لا يدلُّ على نفي ما عداه ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوقّ الآجالُ على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم. قال بعضُ أهل الكلام: إنّ لكلّ حاسّة من هذه الحواسّ روحاً تُقْبَض عند النوم، ثمَّ تُرَدُّ إليها إذا ذهب النوم فأمّا الروح التي تحيا بها النفس، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل. والمراد بالأرواح: المعاني والقوى التي تقوم بالحواس، ويكون بها السمع، والبصر، والأخذ، والمشي، والشمّ. ومعنى ﴿ثمّ يبعثكم فيه﴾: أي: يوقظكم، ويردّ إليكم أرواح الحواسّ. فيستدلّ به على مُنكري البعث؛ لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس، ثمّ يردّها إليها، فكذا يحيي الأنفس بعد موتها.

٦١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم، وهم الكرام الكاتبون؛ ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ

إذا تفكّروا: أنّ صحائفَهم تعرض على رؤوس الأشهاد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «حتّى» لغاية حفظ الأعمال. أي: وذلك دأبُ الملائكة مع المكلَّف مدّة الحياة إلى أن يأتيَه الممات ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: استوفت روحه، وهم: ملك الموت وأعوانه. توفيه واستوفيه بالإمالة: حمزة ﴿رُسْلُنا﴾ أبو عمرو ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتوانَوْن، ولا يؤخِّرون.

٦٢ ـ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه، أي: رُدّ المتوفَّوْن بردّ الملائكة ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ مالكهم الذي يلي عليهم أمورَهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحقّ. وهما صفتان لله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ، لا حكم فيه لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لا يشغله حسابٌ عن حساب، يحاسب جميع الخلق في مقدار حَلْبِ شاة. وقيل: الردّ إلى مَن ربّاك خيرٌ من البقاء مع مَنْ آذاك.

٦٣ ـ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿يُنْجِيكم﴾ ابن عباس ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، أو: ظلمات البرّ: الصواعق، والبحر: الأمواج، وكلاهما في الغيم والليل ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿ينجيكم﴾ ﴿تَضَرُّعًا﴾ معلنين الضراعة، وهو مصدر في موضع الحال. وكذا ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: مسرّين في أنفسكم. ﴿خِفية﴾ حيث كان: أبو بكر، وهما لغتان ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ عاصم. وبالإمالة: حمزة، وعلي. الباقون: ﴿أنجيتنا﴾. والمعنى: يقولون لئن خلصتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله تعالى.

٦٤ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد: كوفيّ ﴿مِّنْهَا﴾ من الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغمّ، وحزن ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولاتشكرون.

٦٥ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ هو الذي عرفتموه قادراً، أو: هو الكامل القدرة. فاللام يحتمل العهد والجنس ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما أمطر على قوم

أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ
مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي
حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ

لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارةَ ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ كما غرّق فرعون، وخسف بقارونَ. أو: من قِبَل سلاطينكم وسفلتكم. أو: هو حبس المطر، والنبات ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ أو: يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتّى، كلّ فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم، فيختلطوا، ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ يقتل بعضكم بعضاً. والبأس: السيف. وعنه ﷺ: «سألتُ الله تعالى أن لا يبعثَ على أمتي عذاباً من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمتي بالسيف»[1] ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾.

٦٦ ـ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بالقرآن، أو بالعذاب ﴿قَوۡمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الصدق، أو: لا بدّ أن ينزل بهم ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ بحفيظ وُكِلَ إليّ أمركم، إنّما أنا منذر.

٦٧ ـ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ﴾ لكلّ شيء يُنبأ به. يعني: إنباءهم بأنّهم يعذّبون، وإيعادَهم به ﴿مُّسۡتَقَرّٞ﴾ وقت استقرار وحصول لابدّ منه ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديد.

٦٨ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن. يعني: يخوضون في الاستهزاء بها، والطعن فيها. وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تجالسهم، وقُمْ عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ غير القرآن ممّا يحلّ، فحينئذ يجوزُ أن تجالسهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ما نُهيت عنه. ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾

---

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. (حاشية الكشاف ٢/ ٣٤).

فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ

شامي. نسّىٰ وأنسىٰ واحد ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكر ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦٩ ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكذيباً، واستهزاء ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وما يلزم المتّقين الذين يجالسونهم شيءٌ مما يحاسَبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يذكِّروهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إذا سمعوهم يخوضون؛ بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم. ومحل ذكرى نصب، أي: ولكن يذكّرونهم ﴿ذكرى﴾، أي: تذكيراً. أو: رفع، والتقدير: ولكن عليهم ذكرى. فذكرى: مبتدأ، والخبر: محذوف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلّهم يجتنبون الخوض حياء، أو كراهة لمساءتهم.

٧٠ ـ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلِّفوه، ودُعُوا إليه، وهو: دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ سخروا به، واستهزؤوا. ومعنى ذَرْهم: أعرض عنهم، ولا تبالِ بتكذيبهم، واستهزائهم. واللهو: ما يشغل الإنسانَ من هوى، أو طرب ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ وعِظْ بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب، وتَرْتَهِنَ بسوء كسبها. وأصل الإبسال: المنع ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ ينصرها بالقوّة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمسألة. ولا وقْفَ على ﴿كسبت﴾ في الصحيح؛ لأن قوله ﴿ليس لها﴾ صفة لنفس. والمعنى: وذكّر بالقرآن كراهة أن تبسل نفسٌ، عادمة وليّاً، وشفيعاً بكسبها ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ نصب على المصدر. وإن تَفْدِ كلَّ فداء. والعدل: الفديـة؛ لأنّ الفاديَ يعدلُ المفْدَى بمثلـه. وفاعل ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ لا ضمير العدل؛ لأن العدل هنا مصدر، فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقره: ٤٨] فبمعنى المفدّى به، فصحّ إسناده إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّخِذين من دينهم لعباً ولهواً. وهو مبتدأ. والخبر:

ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا

﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء سخين حارّ. خبر ثان لأولئك، والتقدير: أولئك المُبْسِلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حميم. أو مستأنف ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ ـ ﴿قُلْ﴾ لأبي بكر، يقل لابنه عبد الرحمن، وكان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿أَنَدْعُوا۟﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضارّ النافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا إن دعوناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ﴿وَنُرَدُّ﴾ وأنُرَدُّ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كالذي ذهبت به الغيلان[1]، ومردة الجنّ. والكاف في محل النصب على الحال من الضمير في ﴿نردّ على أعقابنا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين. وهو استفعال من: هوى في الأرض: إذا ذهب فيها، كأنّ معناه: طلبت هُوِيَّهُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في المَهْمَهِ[2] ﴿حَيْرَانَ﴾ حال من مفعول استهوته، أي: تائهاً ضالاً عن الجادّة، لا يدري كيف يصنع ﴿لَهُۥٓ﴾ لهذا المستهوي ﴿أَصْحَٰبٌ﴾ رُفْقَةٌ ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق. سمّىٰ الطريق المستقيم: بالهدى. يقولون له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ وقد اعْتَسَفَ المَهْمَهَ[3] تابعاً للجنّ لا يجيبهم، ولا يأتيهم. وهذا مبنيٌّ على ما يقال: إنّ الجنّ تستهوي الإنسانَ، والغِيلانُ تستولي عليه. فشبّه به الضالَّ عن طريق الإسلام، التابعَ لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونه إليه، فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده، وما وراءه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ محلّه

(١) «الغِيلان»: جمع غُول، نوعٌ من الشياطين كانت العرب تزعم أنها تظهر للناس في الفَلاة، فتَتَلَوَّن لهم في صورٍ شتى وتُضَلِّلُهم وتُهْلِكُهم.
(٢) «المَهْمَهُ»: المَفَازَةُ البعيدةُ، جمع: مَهامِهُ.
(٣) «اعْتَسَفَ الطريقَ»: سار فيه على غيرِ هُدًى.

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ
أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

النصب بالعطف على محلّ ﴿إنّ هدى الله هو الهدى﴾ على أنهما مقولان: كأنه قيل: قل هذا القول، وقل: أمرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧٢ ـ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والتقدير: وأمرنا لأن نسلم، ولأن أقيموا، ـلام ولإقامة الصلاة ﴿وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة، أو محقاً كُن فَيَكُونُ﴾ على الخبر دون الجواب ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ، و﴿يوم مقدّماً عليه، كما تقول: يوم الجمعة قولك الصدق، أي: قولك وم الجمعة. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنّه خلق السموات ، والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء: كن فيكون ذلك ـقّ والحكمة، أي: لا يكوّن شيئاً من السموات والأرض وسائر ن حكمة وصواب ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ ظرف لملك﴾ ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ هو القَرْنُ بلغة اليمن، أو: جمع صورة[(١)] ﴾ هو ﴿عالم الغيب﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السرّ والعلانية ﴿وَهُوَ الإفناء والإحياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء.

ـ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو اسم أبيه، أو لقبه؛ لأنّه خلاف بين أبيه تارَح. وهو عطف بيان لأبيه، وزنه فاعَل ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ استفهام توبيخ، أي: أتتخذها آلهة، وهي لا تستحقّ الإلهية ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) الصُّور: قَرْنٌ من نور يُنفخ فيه، النفخة الأولى للفَناء، والثانية للإنشاء. وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم؛ أي يُنفخ في صُوَرِ الموتى على ما نُبَيِّنُهُ. (القرطبي: ٧/ ٢٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

٧٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أريناه قُبْحَ الشرك ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: نري بصيرته لطائف خلق السموات والأرض. و﴿نري﴾ حكاية حال ماضية. والملكوت أبلغ من المُلْكِ؛ لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة. قال مجاهد: فُرِجتْ له السموات السبع، فنظر إلى ما فيهنّ، حتى انتهى نظره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى ما فيهنّ ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فعلنا ذلك. أو: ليستدلّ ﴿وليكون من الموقنين﴾ عياناً، كما أيقن بياناً.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي: أظلم، وهو عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾. وقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ أي: الزُّهرة، أو المشتري. وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبّههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرِّفهم: أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أنّ شيئاً منها ليس بإلٰه لقيام دليل الحدوث فيها، ولأنّ لها مُحْدِثاً أحدثها، ومدبراً دبّر طلوعَها، وأُفُولها، وانتقالها، ومسيرها، وسائر أحوالها. فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: قال لهم: ﴿هذا ربِّي﴾ في زعمكم، أو: المراد أهذا؟ استهزاء بهم، وإنكاراً عليهم. والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت. والصحيح أنّ هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنّه مُبْطِل، فيحكي قوله كما هو غير متعصّب لمذهبه؛ لأنَّه أَدْعَى إلى الحقِّ، وأَنْجَى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجّة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام.

٧٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾

﴿يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ نبّه قومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً فهو ضالّ. وإنّما احتجّ عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأنّ الاحتجاج به أظهر، لأنّه انتقال مع خفاء، واحتجاب.

٧٨ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وإنما ذكّره لأنّه أراد: الطالع، أو: لأنّه جعل المبتدأ مثل الخبر؛ لأنّهما شيء واحد معنى، وفيه صيانة الربّ عن شبهة التأنيث. ولهذا قالوا في صفات الله تعالى: علاّم، ولم يقولوا: علاّمة، وإن كان الثاني أبلغ، تفادياً من علامة التأنيث ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال النَّصَفَة أيضاً مع خصومه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله تعالى، والأول أظهر لقوله: ﴿يا قوم إنّي بريء مما تشركون﴾.

٧٩ ـ ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلّت هذه المُحدَثات على أنه مُنشئُها ﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: مائلاً عن الأديان كلّها إلى الإسلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من خلقه.

٨٠ ـ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ في توحيد الله تعالى، ونَفْي الشركاء عنه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده ﴿أَتحاجُّوني﴾[1] مدنيّ، وابن ذكوان ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلى التوحيد. وبالياء في الوصل: أبو عمرو. لمّا خوّفوه أنّ معبوداتهم تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قطّ؛ لأنّها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني منها بضر، فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً، وفيما شاء ضراً، لا الأصنام

---

(١) بتخفيف النون.

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ
دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعمله ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين القادر والعاجز.

٨١ ـ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ معبوداتكم، وهي مأمونة الخوف ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ بإشراكه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة، إذ الإشراك لا يصحُّ أن يكون عليه حجّة. والمعنى: وما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أيّ: فريقي الموحّدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: فأيّنا، احترازاً من تزكية نفسه. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله:

٨٢ ـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرْك، عن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ تمّ كلام إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

٨٣ ـ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه من قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ إلى ﴿وهم مهتدون﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هو خبر بعد خبر ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة. وبالتنوين: كوفيّ[1]. وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ بالرفع. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأهل.

٨٤ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم. ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي:

---

(١) أي: ﴿درجاتٍ﴾، وبغير التنوين ﴿درجاتِ﴾.

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ

كلّهم، وانتصب كلاً بهدينا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ أي: وهدينا نوحاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لنوح، أو: لإبراهيم، والأوّل أظهر، لأنّ يونس ولوطاً لم يكونا من ذريّة إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ والتقدير: وهدينا من ذريّته هؤلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ونجزي المحسنين جزاءً مثل ذلك. فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف.

٨٥ ـ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ أي: كلّهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وذكر عيسى معهم دليلٌ على أن النسبَ يثبت من قبل الأمّ أيضاً؛ لأنّه جعله من ذريّة نوح ـ عليه السلام ـ وهو لا يتّصل به إلا بالأم. وبذا أجيب الحجّاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبيّ ـ عليه السلام ـ.

٨٦ ـ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ «واللَّيْسع» حيث كان بلامين: حمزة، وعليّ ﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوّة، والرسالة.

٨٧ ـ ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿كُلًّا﴾ أي: وفضّلنا بعض آبائهم ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٨٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دان به هؤلاء المذكورون. ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه نقض قول المعتزلة؛ لأنّهم يقولون: إن الله شاء هداية الخلق كلّهم، لكنّهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ مع فضلهم، وتقدّمهم، وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لبطلت أعمالهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٨٩ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد الجنس ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة، أو:

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾

فهْم الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب، والحكم، والنبوة، أو: بآيات القرآن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكّة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون، ومَن تابعهم، بدليل قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾، أو: أصحاب النبيّ ﷺ، أو: كلّ مَن آمن به، أو العجم. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفّقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يوكّل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهّده، ويحافظ عليه. والباء في: ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا﴾ صلة كافرين. وفي: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

٩٠ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: الأنبياء الذين مرَّ ذِكْرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول. والمراد بهداهم: طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع، فهي مختلفة. والهاء في ﴿اقتده﴾ للوقف، تسقط في الوصل. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف. ويحذفها حمزة، وعليّ في الوصل. ويختلسها شاميّ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على الوحي، أو: على تبليغ الرسالة، والدعاء إلى التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ جُعْلاً. وفيه دليلٌ على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن، ورواية الحديث لا يجوز ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للجنّ والإنس.

٩١ ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم. وذلك من أعظم رحمته ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. روي أنّ جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف، كانوا يجادلون النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ له: «أليس في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين؟» قال: نعم. قال:

قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ

«فأنت الحبر السمين». فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء[1]. و﴿حقّ قدره﴾ منصوب نصب المصدر ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من ﴿الكتاب﴾ ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيه نعت رسول الله ﷺ. أي: بعّضوه، وجعلوه قراطيس مقطّعة، وورقات مفرّقة؛ ليستمكنوا ممّا راموا من الإبداء والإخفاء. وبالياء في الثلاثة: مكي، وأبو عمرو ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم، ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب، أي: أنزله الله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ﴿ذرهم﴾ أو: من ﴿خوضهم﴾.

٩٢ ـ ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ على نبينا ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع، والفوائد ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ وبالياء: أبو بكر، أي: الكتاب. وهو معطوف على ما دلّ عليه صفة الكتاب. كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدّمه من الكتب، ولإنذار ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكّة. وسميت أمّ القرى لأنّها سُرَّة الأرض، وقبلة أهل القرى، وأعظمها شأناً، ولأنّ الناس يؤمّونها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يصدّقون بالعاقبة، ويخافونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بهذا الكتاب. فأصلُ الدين: خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصّت الصلاة بالذكر؛ لأنّها علم الإيمان، وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

٩٣ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هو مالك بن الصيف ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٧).

﴿إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾

﴿إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هو مسيلمة الكذّاب ﴿وَمَن قَالَ﴾ في موضع جرّ عطف على ﴿من افترى﴾ أي: وممّن قال ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: سأقول وأملي. هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب الوحي. وقد أملى النبيّ ﷺ عليه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى ﴿خلقاً آخر﴾، فجرى على لسانه: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فقال: «اكتبها فكذلك نزلت»، فشكّ وقال: إن كان محمد صادقاً فقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، وإن كان كاذباً فقد قلتُ كما قال، فارتدّ ولحق بمكّة[١]. أو: النضر بن الحارث، كان يقول: والطاحنات طحناً، فالعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، كأنّه يعارض ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة، فتكون اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شدائده، وسكراته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم. وهذه عبارة عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيس، وإمهال ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أرادوا وقت الإماتة، وما يعذّبون به من شدّة النزع. والهون: الهوان الشديد. وإضافة العذاب إليه، كقولك: رجل سوء. يريد العراقة في الهوان، والتمكّن فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من أنّ له شريكاً، وصاحبة، وولداً. و﴿غير الحق﴾ مفعول ﴿تقولون﴾ أو: وصف لمصدر محذوف، أي: قولاً غير الحقّ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

٩٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب، والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين بلا مال، ولا معين. وهو جمع: فريد، كأسير وأسارى ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ في محل النصب

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٨).

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾

صفة لمصدر جئتمونا، أي: مجيئاً مثلما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التي وُلدتم عليها في الانفراد ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ملّكناكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولم تحتملوا منه نقيراً ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ في استعبادكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿بينُكم﴾ وصلكم عن الزجاج. والبين: الوصل والهجر، قال:

فو الله لولا البينُ لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبين آلف

﴿بينَكم﴾ مدنيّ، وعليّ، وحفص، أي: وقع التقطع بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ وضاع، وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم عند الله.

٩٥ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. أي: فلق الحبّ عن السنبلة، والنواة عن النخلة. والفلق: الشقّ. وعن مجاهد: أراد الشقّين اللذين في النواة، والحنطة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحبّ اليابس ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي. أو: الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. أو: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتجّ اللهُ عليهم بما يشاهدونه من خلقه؛ لأنّهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. وإنما قال ﴿ومخرج الميت﴾ بلفظ اسم الفاعل؛ لأنه معطوفٌ على فالق الحب، لا على الفعل. و﴿يخرج الحيّ من الميّت﴾ موقعه موقع الجملة المبيّنة لقوله: ﴿فالق الحبّ والنوى﴾ لأنَّ فَلْقَ الحبِّ والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحيّ من الميّت؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان. دليله قوله: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ ذلكم المحيي والمميت هو الله؛ الذي تحق له الربوبيّة، لا الأصنام ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عنه، وعن تولّيه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا.

٩٦ ـ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو مصدر سُمّي به الصبح، أي: شاقّ عمود الصبح

وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ

عن سواد الليل، أو: خالق نور النهار ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ﴾[1] كوفيّ؛ لأنّ اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضيّ، فلمّا كان فالق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى ﴿سَكَنًا﴾ مسكوناً فيه، من قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. أي: ليسكن فيه الخلق عن كدّ المعيشة إلى نوم الغفلة، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدلُّ عليه «جاعل الليل» أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسۡبَانًاۚ﴾ أي: جعلهما علمي حسبان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحُسْبان ـ بالضم ـ مصدر حسب، كما أن الحِسْبان ـ بالكسر ـ مصدر حسِب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما، وسخّرهما ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما، وتدويرهما.

٩٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ أي: في ظلمات الليل بالبرّ والبحر، وأضافها إليهما لملابستها لهما. أو: شبّه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ قد بينّا الآيات الدالّة على التوحيد لقوم يعلمون.

٩٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ ﴿فمستقِرّ﴾ ـ بالكسر ـ مكيّ، وبصريّ. فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله. ومَن كسرها كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول. يعني: فلكم مستقرّ في الرحم، ومستودع في الصّلب، أو: مستقرّ فوق الأرض، ومستودع تحتها. أو: فمنكم مستقرّ، ومنكم مستودَع ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ

(١) في المخطوط ﴿وجاعل الليل﴾: وهي قراءة سبعية، وهي المناسبة لقوله: ﴿فالق الإصباح﴾.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وإنما قيل: يعلمون ثَمّ، ويفقهون هنا؛ لأنّ الدلالة ثَمّ أظهر، وهنا أدقّ؛ لأنّ إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدقّ، فكان ذكر الفقه الدالّ على تدقيق النظر أوفق.

٩٩ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نبت كلّ صنف من أصناف النامي، أي: السبب، وهو الماء واحد، والمسببات صنوف مختلفة ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات. ﴿خَضِرًا﴾ أي: شيئاً غضّاً أخضر يقال: أخضر وخَضِر، وهو ما تشعّب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل الذي تراكب حبُّه ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ هو رفع بالابتداء و﴿من النخل﴾ خبره. و﴿من طلعها﴾ بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. وهو جمع قِنو، وهو: العِذْق، نظيره: صنو، وصنوان ﴿دَانِيَةٌ﴾ من المجتني لانحنائها بثقل حملها، أو: لقصر ساقها. وفيه اكتفاء، أي: وغير دانية لطولها كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بالنصب عطفاً على «نبات كلّ شيء» أي: وأخرجنا به جنّات ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: مع النخل وكذا: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ ﴿وجنّات﴾ بالرفع: الأعشى، أي: وثَمّ جنّات من أعناب، أي: مع النخل ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يقال: اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه، والرمان كذلك، يعني: بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في القدر، واللون، والطعم ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفاً، لا ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ ونضجه. أي: انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدّره، ومدبّره، وناقله من حال إلى حال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ثُمُره﴾ وكذا ما بعده: حمزة،

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ

وعليّ، جمع ثمار، فهو جمع الجمع. يقال: ثَمرة، وثَمَر، وثِمَار، وثُمُرٌ.

١٠٠ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ إن جعلت ﴿لله شركاء﴾ مفعولي جعلوا، كان ﴿الجنّ﴾ بدلاً من شركاء. وإلا كان ﴿شركاء الجنّ﴾ مفعولين قدّم ثانيهما على الأوّل. وفائدة التقديم: استعظام أن يتّخذ لله شريك من كان مَلَكاً، أو جنياً، أو غير ذلك. والمعنى: أنهم أطاعوا الجنّ فيما سوّلت لهم من شركهم، فجعلوهم شركاء لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلق الجنّ، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟! والجملة حال. أو: وخلق الجاعلين لله شركاء، فكيف يعبدون غيره؟! ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: اختلقوا، يقال: خلق الإفك، وخرقه، واختلقه، واخترقه بمعنى؛ أو: هو من خرق الثوب: إذا شقّه، أي: اشتقّوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير ﴿وَبَنَٰتٍۭ﴾ كقول بعض العرب في الملائكة. ﴿وخرّقوا﴾ بالتشديد للتكثير: مدنيّ، لقوله: ﴿بنين وبنات﴾ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن جهالة. وهو حال من فاعل «خرقوا» أي: جاهلين بما قالوا ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

١٠١ ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقال: بَدُع الشيء فهو بديع. وهو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، يعني: بديع سمواته وأرضه. أو: هو بمعنى المبدع، أي: مبدعها. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. أو: هو فاعل ﴿تعالى﴾ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة ولا صاحبة له؟! أي: إنّ الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ما من شيء إلا وهو خالقه وعالمه، ومن كان كذلك كان غنياً عن كلّ شيء، والولد إنّما يطلبه المحتاج.

١٠٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات. وهو

﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾

مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ مسبّب عن مضمون الجملة، أي: من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه، ولا تعبدوا مَن دونه مِن بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق، والآجال، رقيب على الأعمال

١٠٣ ـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به. أو أبصار مَن سبق ذكرهم. وتشبُّثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتبّ، لأنَّ المنفي هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك: هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده. وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيلُ إدراكه لا رؤيته، فنزَّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم، ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به، فهكذا هذا. على أن مورد الآية، وهو التمدح، يوجبُ ثبوت الرؤية، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدُّح فيه؛ لأنَّ كلَّ ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدُّح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليلُ ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات، فكانت الآية حجة لنا عليهم، ولو أنعموا النظر فيها لاغتنموا التفصّي[١] عن عهدتها. ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي أنّه معلوم موجود، وإلا فكما يعلم موجوداً بلا كيفيّة وجهة بخلاف كلّ موجود، لِمَ لم يجز أن يرى بلا كيفيّة وجهة بخلاف كلّ مرئي؟. وهذا لأنّ الرؤية تحقّق الشيء بالبصر كما هو، فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها، وإن كان لا في الجهة يرى لا فيها ﴿وَهُوَ﴾ للطف إدراكه ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بدقائق الأمور، ومشكلاتها ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بظواهر الأشياء، وخفيّاتها. وهو من قبيل اللَّف والنَّشر.

(١) «التفصّي»: التخلص منها، والبينونة عنها.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

١٠٤ ـ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصيرة: نور القلب الذي به يستبصر القلب، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر. أي: جاءكم من الوحي، والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحقّ، وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر، وإيّاها نفع ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عنه وضلّ ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه عمي، وإيّاها ضرّ بالعمىٰ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها. إنّما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم.

١٠٥ ـ الكاف في: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في موضع نصب صفة المصدر المحذوف، أي: نصرف الآيات تصريفاً مثل ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ جوابه محذوف، أي: وليقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ نصرّفها معنى ﴿درست﴾ قرأت كتب أهل الكتاب. ﴿دارست﴾ مكيّ، وأبو عمرو، أي: دارست أهل الكتاب. ﴿دَرَسَتْ﴾ شاميّ، أي: قدمت هذه الآية، ومضت كما قالوا أساطير الأولين ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي: القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً؛ أو: الآيات لأنها في معنى القرآن. قيل: اللام الثانية حقيقة، والأولى لام العاقبة والصيرورة، أي: لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست، وهو كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرّة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة، فكذلك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات، كما حصل التبيين فشبّه به، وقيل: ﴿ليقولوا﴾ كما قيل ﴿لِنُبَيِّنَهُۥ﴾. وعندنا ليس كذلك لما عرف ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقّ من الباطل.

١٠٦ ـ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا تتبع أهواءهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكّد به إيجاب اتّباع الوحي، لا محل له من الإعراب، أو: حال من ربّك مؤكدة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا
تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا
جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

---

١٠٧ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إيمانهم، فالمفعول محذوف. ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ بيّن أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله، ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك، فشاء شركهم، فأشركوا بمشيئته ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مراعياً لأعمالهم، مأخوذاً بإجرامهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمسلّط.

١٠٨ ـ وكان المسلمون يسبّون آلهتهم، فنهوا عنه، لئلا يكون سبّهم سبباً لسب الله بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ منصوب على جواب النهي ﴿عَدْوًۢا﴾ ظلماً، وعدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله، وبما يجب أن يذكر به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الكفار ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]. وهو حجة لنا في الأصلح. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم بما عملوا، ويجزيهم عليه.

١٠٩ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ جهد: مصدر وقع موقع الحال، أي: جاهدين في الإتيان بأوكد الأيمان ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قادر عليها لا عندي، فكيف آتيكم بها؟! ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَآ﴾ أنّ الآية المقترحة ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها. يعني: أنا أعلم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تعلمون ذلك. وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنّون مجيئها، فقال الله تعالى: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنّكم لا تدرون ما سبق علمي من أنّهم لا يؤمنون. ﴿إنّها﴾ ـ بالكسر ـ مكيّ، وبصريّ، وأبو بكر، على أنّ

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾

الكلام تمّ قبله، أي: وما يشعركم ما يكون منهم. ثمّ أخبرهم بعلمه فيهم، فقال: إنّها إذا جاءت لا يؤمنون ألبتة. ومنهم مَن جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح، كقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. ﴿لا تؤمنون﴾ شاميّ، وحمزة.

١١٠ ـ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحقّ ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن رؤية الحقّ عند نزول الآية التي اقترحوها، فلا يؤمنون بها. قيل: هو عطف على ﴿لا يؤمنون﴾ داخل في حكم: ﴿وما يشعركم﴾ أي: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنّا نقلّب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون، ولا يبصرون الحقّ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول آياتنا أوّلاً لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل: وما يشعركم أنّا نذرهم في طغيانهم يعمهون يتحيّرون؟!

١١١ ـ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما قالوا: فأتوا بآبائنا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاء بصحّة ما بشّرنا به، وأنذرنا. جمع: قبيل، وهو: الكفيل. ﴿قِبلاً﴾ مدنيّ، وشاميّ، أي: عياناً. وكلاهما نصب على الحال ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم، فيؤمنوا. وهذا جواب لقول المؤمنين: لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنّ هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة.

١١٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداء من المشركين، جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء أعداء، لما فيه من الابتلاء الذي هو سببُ ظهور الثبات، والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ على البدل من: ﴿عدوّاً﴾؛ أو: على أنّه المفعول الأوّل، و﴿عدوّاً﴾ مفعول ثان

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ؛ لأنّي إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عنّي، وشيطان الإنس يجيئني، فيجرّني إلى المعاصي عياناً. وقال ﷺ: «قرناء السوء شرّ من شياطين الجنّ»[1] ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما زيّنوه من القول، والوسوسة، والإغراء على المعاصي ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذاً على غرّة، وهو المفعول له ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: الإيحاء، يعني: ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنّه امتحن بما يعلم أنه أجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله، فإنّ الله يخزيهم، وينصرك، ويجزيهم.

١١٣ ـ ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفّار. وهي معطوفة على ﴿غروراً﴾ أي: ليغتروا ﴿ولتصغى إليه﴾ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

١١٤ ـ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: قل يا محمد: أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحقّ منّا من المبطل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من الكتاب، أي: مبيّناً فيه الفصل بين الحقّ والباطل والشهادة لي بالصدق، وعليكم بالافتراء. ثم عَضَد الدلالة على أنّ القرآن حقّ بعلم أهل الكتاب أنه حقّ؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقته له ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾ شاميّ، وحفص ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه أيها السامع!

---

(١) انظر الحديث بنحوه في تفسير ابن كثير (٢/ ٢١١) عن أبي ذرّ رضي الله عنه.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

أو: فلا تكوننّ من الممترين في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّه منزل بالحقّ، ولا يَرِيْبك جحود أكثرهم، وكفرهم به.

١١٥ ـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ما تكلّم به. (كلمات ربّك) حجازيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. أي: تمّ كل ما أخبر به، وأمر، ونهى، ووعد، وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ في وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه. وانتصبا على التمييز، أو: على الحال ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدِّل شيئاً من ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لإقرار من أقرّ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بإصرار من أصرّ. أو: السميع لما يقولون، العليم بما يضمرون.

١١٦ ـ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكفّار لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنّهم أنّ آبائهم كانوا على الحقّ، فهم يقلّدونهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في أنّ الله حرّم عليهم كذا، وأحل لهم كذا.

١١٧ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم الكفّار والمؤمنين. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام. والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ وموضع الجملة نصب بيعلم المقدّر، لا بأعلم؛ لأن أفعل لا يعمل في الاسم الظاهر النصب، ويعمل الجرّ. وقيل: تقديره: أعلم بمن يضلّ؛ بدليل ظهور الباء بعده في ﴿بالمهتدين﴾.

١١٨ ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ هو مسبّب عن إنكار اتباع المضلّين الذين يحلّون الحرام ويحرّمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنّكم تزعمون أنّكم تعبدون الله، فما قتل الله أحقّ أن تأكلوا ممّا قتلتم أنتم. فقيل للمسلمين: إن كنتم متحقّقين بالإيمان، فكلوا ممّا ذكر اسم

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ
بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ
الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

الله عليه خاصّة، أي: على ذبحه، دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم، أو: مات حتف أنفه.

١١٩ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ ﴿ما﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء، و﴿لكم﴾ الخبر. أي: وأيّ غرض لكم في ألا تأكلوا؟ ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بيّن لكم. ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرّم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] فصّل وحُرِّم، كوفيّ غير حفص. وبفتحهما: مدنيّ، وحفص. وبضمهما غيرهم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرّم عليكم، فإنه حلال لكم في حال الضرورة، أي: شدة المجاعة إلى أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ ليضلون: كوفيّ ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يَضلّون فيحرّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم، من غير تعلّق بشريعة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين من الحقّ إلى الباطل.

١٢٠ ـ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسرّه، أو: الزنى في الحوانيت، والصديقة في السرّ، أو: الشرك الجليّ والخفيّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون في الدنيا.

١٢١ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح. ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنّ أكله ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قتله الله، وتأكلون مما تذبحون بأيديكم! والآية تحرّم متروك التسمية. وخصّت حالة النسيان بالحديث، أو بجعل الناسي ذاكراً تقديراً ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن من اتّبع غير الله في دينه فقد أشرك به، ومن حقّ المتدين ألا يأكل مما لم يذكر اسم

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾

الله عليه؛ لما في الآية من التشديد العظيم. ومن أوّل الآية بالميتة، وبما ذكر غيراسم الله عليه، لقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال: إن الواو في ﴿وإنه لفسق﴾ للحال، لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن، فيكون التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه فسقاً، والفسق مجمل، فبين بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه مُهَلّاً لغير الله به، فيكون ما سواه حلالاً بالعمومات المحلّة، منها قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فقد عدل عن ظاهر اللفظ.

١٢٢ ـ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: كافراً فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. ﴿ميتاً﴾ مدني ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ مستضيئاً به. والمراد به: اليقين ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: صفته ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: خابط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لا يفارقها، ولا يتخلّص منها. وهو حال. قيل: المراد بهما: حمزة وأبو جهل. والأصحُّ: أنّ الآية عامّة لكل من هداه الله، ولكلّ مَن أضلّه الله. فبيّن أنَّ مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي، وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل مَن هو في الظلمات التي لا يتخلّص منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زيّن للمؤمن إيمانه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى كقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالهم.

١٢٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا في مكّة صناديدها ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ صيّرنا ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ ليتجبّروا على الناس فيها، ويعملوا بالمعاصي. واللام على ظاهرها عند أهل السنّة، وليست بلام العاقبة. وخصَّ الأكابر ـ وهم الرؤساء ـ لأنّ ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم. دليلهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. ثم سلّى رسوله ﷺ، ووعد له النصرة ﴿وَمَا

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا

﴿يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأنّ مكرهم يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه يحيق بهم ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول أول، والثاني: ﴿في كل قرية﴾، و﴿مجرميها﴾ بدل من ﴿أكابر﴾. أو: الأول: ﴿مجرميها﴾ والثاني: ﴿أكابر﴾، والتقدير: مجرميها أكابر.

١٢٤ ـ ولمّا قال أبو جهل: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف، حتّى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يُوحى إليه. والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه نزل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أي: الأكابر ﴿ءَايَةٌ﴾ معجزة، أو: آية من القرآن تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: نعطى من الآيات مثل ما أُعْطِي الأنبياء. فأعلم الله تعالى: أنّه أعلم بمن يصلح للنبوّة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ مكّيّ، وحفص. ﴿رسالاته﴾ غيرهما ﴿حيث﴾ مفعول به، والعامل محذوف، والتقدير: يعلم موضع رسالته ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ من أكابرها ﴿صَغَارٌ﴾ ذلّ، وهوان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدارين من القتل، والأسر، وعذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ في الدنيا.

١٢٥ ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يوسعه، وينوّر قلبه. قال ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح». قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[1] ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: الله ﴿أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيْقاً﴾ مكّيّ ﴿حَرَجًا﴾ ﴿حَرِجاً﴾ صفة لضيقاً: مدنيّ، وأبو بكر. بالغاً في الضيق

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/٢٧). وانظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٣٧).
تحقيق: يوسف بديوي.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا

﴿حَرَجاً﴾ غيرهما، وصفاً بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنه كلّف أن يصعد إلى السماء إذا دُعي إلى الإسلام، من: ضيق صدره عنه؛ أو ضاقت عليه الأرض، فطلب مصعداً في السماء. أو: كعازب[1] الرأي، طائر القلب في الهواء. ﴿يصْعَد﴾ مكّيّ ﴿يصّاعد﴾ أبو بكر، وأصله: يتصاعد. الباقون ﴿يصّعد﴾، وأصله: يتصعّد ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾ العذاب في الآخرة، واللعنة في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة المعاصي.

١٢٦ ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه الذي اقتضته الحكمة، وسُنّته في شرح صدر من أراد هدايته، وجعله ضيّقاً لمن أراد ضلاله ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ عادلاً، مطرداً. وهو حال مؤكدة ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

١٢٧ ـ ﴿۞ لَهُمۡ﴾ أي: لقوم يذّكّرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار الله، يعني: الجنة. أضافها إلى نفسه تعظيماً لها. أو: دار السلامة من كلّ آفة وكدر. أو: السلام: التحيّة. سمّيت دار السلام لقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في ضمانه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ محبّهم، أو: ناصرهم على أعدائهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بأعمالهم. أو: متوليّهم بجزاء ما كانوا يعملون. أو: هو وليّنا في الدنيا بتوفيق الأعمال، وفي العقبى بتحقيق الآمال.

١٢٨ ـ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ وبالياء حفص[2]. أي: واذكر ﴿يوم

(١) «كعازب الرأي»: الذي لا رأي له.
(٢) في الأصل المخطوط: ويوم نحشرهم، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٢/٣١٨).

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

نحشرهم﴾. أو: ﴿ويوم نحشرهم﴾ قلنا: ﴿يامعشر الجنّ﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أضللتم منهم كثيراً، وجعلتموهم أتباعكم، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم، واستمعوا إلى وسوستهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين؛ حيث دلّوهم على الشهوات، وعلى أسباب التوصّل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم، وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعنون: يوم البعث. وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتّباع الهوى، والتكذيب بالبعث، وتحسّر على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال. والعامل معنى الإضافة، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. فمصبحين حال من هؤلاء، والعامل في الحال معنى الإضافة، إذ معناه: الممازجة والمضامّة. والمثوى ليس بعامل؛ لأنّ المكان لا يعمل في شيء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلّدون في عذاب النار الأبد كلّه ﴿إلا ما شاء الله﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم فيجزي كلاًّ على وفق عمله.

١٢٩ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ نتبع بعضهم بعضاً في النار، أو: نسلّط بعضهم على بعض، أو: نجعل بعضهم أولياء بعض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

١٣٠ـ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ عن الضحاك: بعث إلى الجنّ رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ لأنهم بهم آنس. وعليه ظاهر النصّ. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصّة. وإنّما قيل: ﴿رسل

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

منكم﴾ لأنّه لما جمع الثقلين في الخطاب صحّ ذلك، وإن كان من أحدهما. كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]. أو: رسلهم رسل نبينا. كقوله: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يقرؤون كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بوجوب الحجة علينا، وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ بالرسل.

١٣١ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم. وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ تعليل. أي: الأمر ما قصصنا عليك، لانتفاء كونٌ ربّك مهلك القرى بظلم. على أنّ «أن» مصدرية. ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة. والمعنى: لأنّ الشأن والحديث ﴿لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم﴾ بسبب ظلم أقدموا عليه، أو: ظالماً، على أنّه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبّهوا برسول وكتاب، لكان ظالماً، وهو متعالٍ عنه.

١٣٢ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ منازل ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ من جزاء أعمالهم. وبه استدل أبو يوسف ومحمد ـ رحمهما الله ـ على أنّ للجنّ الثواب بالطاعات؛ لأنّه ذكر عقيب ذكر الثقلين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بساه عنه. وبالتاء: شاميّ[1].

١٣٣ ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عباده، وعن عبادتهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليف؛ ليعرّضهم للمنافع الدائمة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيّها الظلمة

(١) أي: تعملون. انظر الإعراب، للنحاس (١/ ٥٨١).

وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم. وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

١٣٤ ـ ﴿إِنَّ مَا﴾ ما: بمعنى: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب ﴿لَءَاتٍ﴾ خبر إنّ، أي: لكائن. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين. ردّ لقولهم: من ماتَ فقد فات.

١٣٥ ـ المكانة تكون مصدراً. يقال: مكُن مكانة: إذا تمكّن أبلغ التمكّن، وبمعنى: المكان يقال: مكان، ومكانة، ومقام، ومقامة وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكّنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، واعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أُمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على مكانتي التي أنا عليها. أي: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإنّي ثابتٌ على الإسلام، وعلى مصابرتكم. وهو أمر تهديد ووعيد، ودليلُه قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: فسوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبة المحمودة. وهذا طريقٌ لطيفٌ في الإنذار [﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكافرون][(١)]. ﴿مكاناتكم﴾ حيث كان: أبو بكر. ﴿يكون﴾ حمزة، وعليّ. وموضع ﴿من﴾ رفع إذا كان بمعنى أيّ، وعلق عنه فعل العلم، أو: نصب إذا كان بمعنى الذي.

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

١٣٦ ـ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي: وللأصنام نصيباً، فاكتفى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ ﴿بزُعمهم﴾ عليّ. وكذا ما بعده. أي: زعموا أنّه لله، والله لم يأمرهم بذلك، ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قِرَى الضيفان، والتصدّق على المساكين ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها، والإجراء على سدنتها. رُوي أنّهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منهما لآلهتهم. فإذا رأوا ما جعلوا لله زاكياً نامياً، رجعوا فجعلوه للأصنام، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها، وقالوا: إنّ الله غنيّ. وإنّما ذاك لحبّهم آلهتهم وإيثارهم لها. وفي قوله: ﴿مما ذرأ﴾ إشارة إلى أنّ الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنّه هو الذي ذرأه. ثمّ ذمّ صنيعهم بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إيثار آلهتهم على الله، وعملهم على ما لم يشرع لهم. وموضع ﴿ما﴾ رفع، أي: ساء الحكم حكمهم. أو: نصب، أي: ساء حكماً حكمهم.

١٣٧ ـ ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زيّن لهم تجزئة المال؛ زيّن وأد البنات ﴿قَتْلَ﴾ مفعول زيّن ﴿أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ هو فاعل زيّن. ﴿زُيِّنَ﴾ بالضم، ﴿قتلُ﴾ بالرفع، ﴿أولادَهم﴾ بالنصب، ﴿شركائِهم﴾ بالجر، شاميّ: على إضافة القتل إلى الشركاء، أي: الشياطين، والفصل بينهما بغير الظرف، وهو المفعول. وتقديره: زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ شركائهم أولادَهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم، ويشوبوه. ودينهم: ما كانوا عليه من دين

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً

إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فيه دليلٌ على أنّ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يفترونه من الإفك، أو: وافتراءهم؛ لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم، لا عليك، ولا علينا.

١٣٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام. «فعل» بمعنى «المفعول» كالذبح، والطِّحن. ويستوي في الوصف به المذكّر، والمؤنّث، والواحد، والجمع، لأنَّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات. وكانوا إذا عيّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم، قالوا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء. الزعم: قول بالظنّ يشوبه الكذب ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي البحائر، والسوائب، والحوامي[1] ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالة الذبح، وإنّما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعول له، أو: حال. أي: قسموا أنعامهم: قسم حِجْر، وقسم لا يُركب، وقسم لا يذكر اسم الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وعيد.

١٣٩ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ كانوا يقولون في أجنّة البحائر والسوائب: ما ولد منها حيّاً فهو خالص للذكور، لا يأكل منه الإناث، وما ولد ميّتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وأنّث ﴿خالصة﴾ وهو خبر ﴿ما﴾؛ للحمل على المعنى؛ لأنّ ﴿ما﴾ في معنى الأجنّة. وذكّر ﴿ومحرّم﴾ حملاً على اللفظ. أو: التاء للمبالغة كنسّابة ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: ﴿وإن يكن﴾ ما في بطونها ﴿ميتة﴾. ﴿وإن تكن ميتةٌ﴾. أبو بكر،

---

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٠٣) من سورة المائدة.

﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾

أي: إن تكن الأجنّة ميتة ﴿وإن تكن ميتةٌ﴾ شاميّ، على كان التامة. ﴿يكن ميتةٌ﴾ مكّيّ؛ لتقدّم الفعل. وتذكير الضمير في: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ لأنّ الميتة اسم لكلّ ميت ذكر أو أنثى. فكأنّه قيل: وإن يكن ميت فهم شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقادهم.

١٤٠ ـ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر. ﴿قتّلوا﴾ مكّيّ، وشاميّ. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفّة أحلامهم، وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم، لا هم ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر، والسوائب، وغيرها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ مفعول له. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصواب.

١٤١ ـ ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ خلق. ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات، مرفوعات ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش. يقال: عَرَشْت الكرم: إذا جعلت له دعائم وسَمْكاً، تعطف عليه القضبان ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ في اللون، والطعم، والحجم، والرّائحة. وهو حال مقدّرة؛ لأن النّخل وقت خروجه لا أُكل فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿أُكُلُهُ﴾ ﴿أُكْلُه﴾ حجازيّ. وهو: ثمره الذي يُؤكل. والضمير للنخل. والزرع داخل في حكمه؛ لأنّه معطوف عليه، أو: لكلّ واحد ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كلّ واحد. وفائدة: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أنّ أوّل وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، ولا يتوهّم أنّه لا يباح إلا إذا أدرك ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ عشره. وهو حجة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في تعميم

يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ

العشر ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ ﴿حَصاده﴾ بصري، وشاميّ، وعاصم. وبكسر الحاء: غيرهم، وهما لغتان ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ بإعطاء الكلّ، وتضييع العيال، وقوله ﴿كلوا﴾ إلى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ اعتراض.

١٤٢ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش للذبح. أو: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، والفرش: الصغار كالفُصلان، والعجاجيل، والغنم؛ لأنها دانية من الأرض، مثل الفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما أحلّ الله لكم منها، ولا تحرّموها كما في الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ طرقه في التحريم والتحليل، كفعل أهل الجاهليّة ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فاتهموه على دينكم.

١٤٣ ـ ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشاً﴾ ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين، يريد: الذكر والأنثى. والواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه سُمّي كلّ واحدٍ منهما زوجاً، وهما زوجان؛ بدليل قوله: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] ويدلّ عليه قوله: ﴿ثمانية أزواج﴾. ثمّ فسّرها بقوله: ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾. والضأن، والمعز جمع: ضائن وماعز، كتاجر وتَجْر. وفتح عين المعَز: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وهما لغتان. والهمزة في: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار. والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن، والذكر من المعز، وبالأنثيين: الأنثى من الضأن، والأنثى من المعز. والمعنى: إنكار أن يحرّم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا ممّا تحمل الإناث. وذلك: أنّهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها طوراً، وأولادها كيفما كانت ذكوراً، أو إناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله. فأنكر

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ
آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ
مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً

ذلك عليهم. وانتصب ﴿آلذكرين﴾ بحرّم، وكذا ﴿أم الأنثيين﴾ أي: أم حرّمَ الأنثيين، وكذا ما في ﴿أمّا اشتملتْ﴾ ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدلُّ على تحريم ما حرّمتم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنّ الله حرّمه.

١٤٤ ـ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم ما تحمل إناثها. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أم منقطعة، أي: بل أكنتم شهداء ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ يعني: أم شاهدتم ربّكم حين أمركم بهذا التحريم. ولمّا كانوا لا يؤمنون برسول الله، وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرّمه، تهكّم بهم في قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالرسل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم ﴿لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين في علمه أنّهم يختمون على الكفر. ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضاً غير أجنبي من المعدود. وذلك أن الله تعالى منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم، وبإباحتها لهم. فالاعتراض بالاحتجاج على من حرّمها يكون تأكيداً للتحليل. والاعتراضات في الكلام لا تُساق إلا للتوكيد.

١٤٥ ـ ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في ذلك الوقت، أو: في وحي القرآن؛ لأن وحي السّنة قد حرّم غيره، أو: من الأنعام لأنّ الآية في ردِّ البحيرة وأخواتها. وأمّا الموقوذة، والمتردّية، والنطيحة فمن الميتة. وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنّما يثبت بوحي الله وشرعه، لا بهوى النفس ﴿مُحَرَّمًا﴾ حيواناً حرّم أكله ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ على آكلٍ يأكله ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلاّ أن يكون الشيء المحرّم ميتة. ﴿أن تكون﴾ مكّي، وشاميّ، وحمزة ﴿ميتةٌ﴾ شاميّ ﴿أَوْ دَمًا

أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ

﴿مَّسْفُوحًا﴾ مصبوباً سائلاً. فلا يحرم الدم الذي في اللحم، والكبد، والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ نجس ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على المنصوب قبله. وقوله: ﴿فإنه رجس﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ منصوب المحلّ صفة لـ«فسقاً»، أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله. وسُمِّي بالفسق لتوغله في باب الفسق ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المحرّمات ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطرّ مثله، تارك لمواساته ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه.

١٤٦ ـ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي: ماله أصبع من دابّة، أو طائر. ويدخل فيه الإبل، والنعام ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: حرّمنا عليهم لحم كلّ ذي ظفر وشحمه، وكلّ شيء منه، ولم يحرّم من البقر والغنم إلا الشحوم، وهي الثُّرُوب، وشحوم الكلى ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السَّحْفة[1] ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو: ما اشتمل على الأمعاء، واحدها: حاوياء، أو: حَوِيّة ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو الألْيَة، أو: المخ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ والتقدير: جزيناهم ذلك ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به. وكيف نشكر من سبّب معصيتَهم لتحريم الحلال، ومعصيةَ سالفنا لتحليل الحرام حيث قال: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٤٧ ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما أوحيت إليك من هذا ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ بها يمهل المكذّبين، ولا يُعاجلهم بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عذابه مع

---

(١) «السحفة»: سَحَفَ الجِلْدَ: كَشَطَ عنه الشَّعر.

عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ

سعة رحمته ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، فلا تغترّ بسعة رحمته عن خوف نقمته.

١٤٨ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إخبار بما سوف يقولونه ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألا نشرك ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ ولكن شاء، فهذا عذرنا، يعنون: أنّ شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحلّ الله لهم بمشيئته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كتكذيبهم إيّاك كان تكذيب المتقدّمين وتشبّثوا بمثل هذا، فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاء، ولأنّهم جعلوا مشيئته حجّة لهم على أنّهم معذورون به. وهذا مردودٌ، لا الإقرار بالمشيئة. أو: معنى المشيئة هنا: الرضا، كما قال الحسن، أي: رضي الله منّا ومن آبائنا الشرك، والشرك مراد، لكنّه غير مرضي. ألَا ترى أنّه قال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أخبر أنّه لو شاء منهم الهدى لآمن كلّهم، ولكن لم يشأ من الكلّ الإيمان، بل شاء من البعض الإيمان ومن البعض الكفر، فيجب حَمْلُ المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعاً للتناقض ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ حتّى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فتظهروه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون.

١٤٩ ـ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه، ولا حجة لكم على الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: فلو شاء هدايتكم. وبه تبطل صولة المعتزلة.

١٥٠ ـ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ هاتوا شهداءكم وقرّبوهم. ويستوي في هذه الكلمة الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنّث

ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ
ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وتجمع ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: ما زعموه محرّماً ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به، ولا تصدّقهم؛ لأنّه إذا سلّم لهم، فكأنّه شهد معهم مثل شهادتهم، فكان واحداً منهم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن من كذّب بآيات الله فهو متّبع للهوى، إذ لو تبع الدليل لم يكن إلا مصدّقاً بالآيات موحّداً لله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هم المشركون ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ يسوّون الأصنام.

١٥١ ـ ﴿۞قُلۡ﴾ للذين حرّموا الحرث، والأنعام ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ هو من الخاصّ الذي صار عامّاً. وأصله: أن يقوله مَن كان في مكانٍ عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر حتّى عمّ ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾ الذي حرّمه ربكم ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ من صلة ﴿حرّم﴾ ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أن مفسّرة لفعل التلاوة، ولا: للنهي ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً. ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ذكر في المحرّمات، وكذا حكم ما بعده من الأوامر ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ من أجل فقر، ومن خشيته، كقوله: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ لأنَّ رزق العبيد على مولاهم ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ ما بينك وبين الخلق. بدل من الفواحش ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما بينك وبين الله ﴿ما ظهر﴾ بدل من ﴿الفواحش﴾ ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ كالقصاص، والقتل على الردّة والرجم ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: المذكور مفصّلاً أمركم ربُّكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لتعقلوا عظمها عند الله.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ

١٥٢ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن، وهي حِفْظُه، وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أشُدَّه: مبلغ حلمه، فادفعوه إليه. وواحده: شَدّ كفلس وأفلس ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالسويّة، والعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها، ولا تعجز عنه، وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان مما فيه حرج. فأمرَ ببلوغ الوسع، وأن ما وراءه معفوّ عنه ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فاصدقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له، أو عليه في شهادة، أو غيرها من أهل قرابة القائل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يوم الميثاق، أو: في الأمر والنهي [والوعد والوعيد][1] والنذر واليمين ﴿أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرّ ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حيث كان: حمزة، وعليّ، وحفص، على حذف إحدى التاءين. غيرهم بالتشديد، أصله؛ تتذكّرون، فأدغم التاء الثانية في الذال. أي: أمركم به لتتعظوا.

١٥٣ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ ولأنّ هذا صراطي، فهو علة للاتّباع بتقدير اللام. ﴿وأَنْ﴾ بالتخفيف: شاميّ، وأصله: وأنّه، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث ﴿وإنّ﴾ على الابتداء: حمزة، وعليّ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال ﴿فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهوديّة، والنصرانية، والمجوسيّة، وسائر البدع والضَّلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ فتفرّقكم أيادي سبأ عن صراط الله المستقيم، وهو: دين الإسلام. رُوي أنّ رسول الله ﷺ خطَّ خطّاً مستوياً، ثمّ قال: «هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتّبعوه» ثمّ خطّ على كلّ

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

جانب ستّة خطوط ممالة، ثمّ قال: «هذه سبل، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه فاجتنبوها» وتلا هذه الآية[١] «ثم يصير كل واحد من الاثني عشر طريقاً ستّة طرق، فتكون اثنين وسبعين». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب. وعن كعب: إنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى. ذكر أوّلاً تعقلون، ثمّ تذكّرون، ثمّ تتّقون؛ لأنهم إذا عقلوا تفكّروا، ثمّ تذكّروا، أي: اتّعظوا فاتّقوا المحارم.

١٥٤ ـ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ أي: ثمّ أُخبركم أنّا آتينا. أو: هو عطف على قل، أي: ثمّ قل آتينا. أو: ثمّ مع الجملة تأتي بمعنى الواو، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦] ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ على من كان محسناً صالحاً يريد جنس المحسنين، دليله قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) أو: أراد به موسى عليه السلام، أي: تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كلّ ما أمر به ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصّلاً لكلّ ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون[٢].

١٥٥ ـ ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٣٥و٤٦٥) والدارمي (١/ ٦٧ ـ ٦٨) والحاكم (٢/ ٣١٨) وابن حبان (٧). بألفاظ متقاربة، ولكن ليس بينها التحديد برقم ستة. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢).

(٢) أي: بالبعث والحساب، وبالرؤية.

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ
لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا
سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ

١٥٦ ـ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ كراهة أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: أهلِ التوراة وأهل الإنجيل. وهذا دليلٌ على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَـٰفِلِينَ﴾ لا علم لنا بشيء من ذلك. ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنّه كنا عن دراستهم غافلين على أنّ الهاء ضمير الشأن. والخطاب لأهل مكّة. والمراد: إثبات الحجّة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ كيلا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا، وكنّا غافلين عمّا فيهما.

١٥٧ ـ ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ كراهة أن تقولوا ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدّة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيّام العرب ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع، والبرهان القاطع. فحذف الشرط، وهو من أحاسِن الحذوف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحّتها، وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو: النهاية في النكاية ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم.

١٥٨ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة، وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدها ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿يأتيهم﴾ حمزة، وعليّ[1] ﴿أَوْ

(١) وخلف، أيضاً.

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربك، وهو: العذاب، أو القيامة. وهذا لأنّ الإتيان متشابه، وإتيان أمره منصوص عليه، محكم، فيردّ إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنه ليس بإيمان اختياري، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة «نفساً» ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: إخلاصاً. كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إخلاص المنافق أيضاً، أو توبته. وتقديره: لا ينفع إيمان من لم يؤمن، ولا توبة من لم يتب قبل ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم إحداها.

١٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه، وصاروا فرقاً، كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة. وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في الهاوية إلا واحدة، وهي السواد الأعظم» وفي رواية: «وهي ما أنا عليه وأصحابي»[١]. وقيل: فرّقوا دينهم، فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ﴿فارقوا دينهم﴾ حمزة، وعليّ أي: تركوا ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقاً، كلّ تشيّع إماماً لها ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم، وعن تفرّقهم، أو: من عقابهم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم على ذلك.

١٦٠ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديره: عشر حسنات أمثالها، إلا

(١) رواه أحمد (٢/٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) وابن حبان (٦٢٤٧).

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي
وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ

أنه أقيم صفة الجنس المميزة مقام الموصوف ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص الثواب، وزيادة العقاب.

١٦١ ـ ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ «ربِّي»: أبو عمرو، ومدنيّ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا﴾ نصب على البدل من محلّ ﴿إلى صراط مستقيم﴾ لأنّ معناه: هداني صراطاً، بدليل قوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٠] ﴿قِيَمٗا﴾ ﴿قَيِّماً﴾ فيعل، من: قام، كسيّد من ساد، وهو أبلغ من القائم. ﴿قِيَماً﴾ كوفيّ، وشاميّ، وهو مصدر بمعنى القيام وصف به ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان ﴿حَنِيفٗا﴾ حال من إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بالله، يا معشر قريش.

١٦٢ ـ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي. والناسك: العابد. أو: ذبحي، أو: حجّي. ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أتيته في حياتي، وأموت عليه من الإيمان، والعمل لصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خالصة لوجهه ﴿محياي ومماتي﴾ بسكون الياء الأول وفتح الثاني: مدنيّ. وبعكسه غيره.

١٦٣ ـ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لأنّ إسلام كلّ نبيّ متقدم على إسلام أمّته.

١٦٤ ـ ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي: منكر أن أطلب رباً غيره. وتقديم المفعول للإشعار بأنه أهمّ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وكلّ من دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبية غيره ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا﴾ جواب عن قولهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: لا تؤخذ نفس آثمة

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥﴾

بذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الأديان التي فرّقتموها.

١٦٥ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين فأمّته قد خلفت سائر الأمم، أو: لأن بعضهم يخلف بعضاً، أو: هم خلفاء الله في أرضه يملكونها، ويتصرّفون فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشرف، والرزق، وغير ذلك ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ مفعول ثان، أو: التقدير: إلى درجات، أو: هي واقعة موقع المصدر، كأنه قيل: رفعة بعد رفعة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والغني بالفقير، والمالك بالمملوك؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر نعمته ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة؛ لأنّ ما هو آتٍ قريب ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] عن النبيّ ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أوّل الأنعام حين يصبح، وكّل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة»(١).

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٠٠) وانظر الدر المنثور (٣/٢٤٦) وفتح القدير (٢/١١٩).

سورة الأعراف

ترتيبها ٧ — آياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

١ ـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال الزجاج: المختار في تفسيره ما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنا الله أعلمُ، وأُفصِّل.

٢ ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفته. والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ شكٌّ فيه. وسُمِّي الشك: حرجاً؛ لأنّ الشاكّ ضيّق الصدر حرجه، كما أنّ المتيقّن منشرح الصدر، منفسحه. أي: لا تشك في أنّه منزل من الله. أو: ﴿حرج منه﴾ بتبليغه؛ لأنّه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى، ولا ينشط له، فأمّنه الله، ونهاه عن المبالاة بهم. والنهيُ متوجه إلى الحرج. وفيه من البلاغة ما فيه. والفاء للعطف، أي: هذا الكتاب أنزلته إليك، فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك. واللام في: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأنزل. أي: أنزل إليك لإنذارك به. أو: بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم. وكذا إذا أيقن أنّه من عند الله شجّعه اليقين على الإنذار به؛ لأنّ صاحب اليقين جسور، متوكّل على ربّه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في محل النصب بإضمار فعلها، أي: لتنذر به،. وتذكر تذكيراً. فالذكرى: اسم بمعنى التذكير، أو: الرفع بالعطف على كتاب، أي: هو كتاب، وذكرى للمؤمنين. أو: بأنه خبر مبتدأ

ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم
بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

محذوف، أو: الجر بالعطف على محلّ لتنذر، أي: للإنذار وللذكرى.

٣ ـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: القرآن، والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجنّ والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره. و﴿قليلاً﴾ نصب بتذكّرون، أي: تذكّرون تذكّراً قليلاً. و﴿ما﴾ مزيدة لتوكيد القلّة ﴿تتذكّرون﴾ شاميّ.

٤ ـ ﴿وَكَم﴾ مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تبيين. والخبر ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، أي: أردنا إهلاكها، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَجَآءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين، يقال: بات بياتاً حسناً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ حال معطوفة على بياناً، كأنّه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين، أو: قائلين. وإنّما قيل (هم قائلون) بلا واو، ولا يقال: جاءني زيد هو فارس بغير واو؛ لأنّه لمّا عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. وخصّ هذان الوقتان؛ لأنّهما وقتا الغفلة، فيكون نزول العذاب فيهما أشدّ، وأفظع. وقوم لوط ـ عليه السلام ـ أهلكوا باللّيل وقت السحر، وقوم شعيب ـ عليه السلام ـ وقت القيلولة. وقيل: بياتاً: ليلاً، أي: ليلاً وهم نائمون، أو: نهاراً وهم قائلون.

٥ ـ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ دعاؤهم، وتضرّعهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ لما جاءهم أوائل العذاب: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك. و﴿دعواهم﴾ اسم كان و﴿أن قالوا﴾ الخبر، ويجوز العكس.

٦ ـ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ «أرسل» مسند إلى ﴿إِلَيْهِمْ﴾، أي:

وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ

فلنسألنّ المرسل إليهم، وهم الأمم، عمّا أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

٧ ـ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة، والباطنة، وأقوالهم، وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعمّا وجد منهم. ومعنى السؤال: التوبيخ، والتقريع، والتقرير، إذا فاهوا بألسنتهم، وشهد عليهم أنبياؤهم.

٨ ـ ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها وخفيفها. وهو مبتدأ، وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، فحذفت الجملة، وعوّض عنها التنوين ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: العدل. صفته. ثم قيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفّتان؛ إظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة. وقيل: هو عبارة عن القضاء السويّ، والحكم العادل، والله أعلم بكيفيّته. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع ميزان، أو: موزون. أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات. أو: ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٩ ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هم الكفّار، فإنّه لا إيمانَ لهم ليعتبر معه عمل، فلا يكون في ميزانهم خير، فتخفّ موازينهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون. فالآيات: الحجج. والظلم بها: وضعها في غير موضعها، أي: جحودها، وترك الانقياد لها.

١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو: مكنّاكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. والوجه: تصريح الياء؛ لأنها أصلية، بخلاف صحائف، فالياء فيها زائدة. وعن نافع: أنّه همز، تشبيهاً

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝١٢﴾

بصحائف ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

١١ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم ـ عليه السلام ـ طيناً غير مصوّر، ثم صوّرناه بعد ذلك. دليله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم ـ عليه السلام ـ.

١٢ ـ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ﴿ما﴾ رفع، أي: أيّ شيء منعك من السجود؟! و﴿لا﴾ زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ومثلها ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الأمر للوجوب. والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ وهي: جوهر نورانيّ ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو ظلمانيّ. وقد أخطأ الخبيث. بل الطين أفضلُ لرزانته، ووقاره، ومنه: الحلم، والحياء، والصبر، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار. وفي النار: الطيش، والحدّة، والترفُّع، وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدّةُ الممالك، والنار عدّة المهالك. والنار مظنّة الخيانة والإفناء، والتراب مئنّة الأمانة والإنماء. والطين يُطفىءُ النّارَ ويتلفها، والنار لا تتلفه. وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى زلّ بفاسدِ من المقاييس. وقول نافي القياس: أوّل من قاس إبليس، قياس، على أنَّ القياس عند مثبته مردودٌ عند وجود النص. وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لـ«ما منعك» أن يقول: منعني كذا. وإنما قال: أنا خير منه؛ لأنه قد استأنف قصّة، وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ـ عليه السلام ـ وبعلّة فضله عليه، فعلم منها الجواب ـ كأنه قال: منعني من السجود فضلي عليه ـ وزيادة عليه، وهي إنكار الأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله؛ إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾

١٣ ـ ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السماء؛ لأنه كان فيها، وهي مكانُ المطيعين والمتواضعين. والفاء في ﴿فاهبط﴾ جواب لقوله: ﴿أنا خير منه﴾، أي: إن كنت تتكبّر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصحّ لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ﴾ من أهل الصّغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه، يذمّك كلّ إنسان، ويلعنك كلّ لسان لتكبّرك. وبه علم أن الصَّغار لازم للاستكبار.

١٤ ـ ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم البعث، وهو: وقت النفخة الأخيرة.

١٥ ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى. وإنما أُجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء. وفيه تقريبٌ لقلوب الأحباب، أي: هذا برِّي بمن يسبُّني، فكيف بمن يحبّني؟! وإنّما جسّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال، علمه بحلم ذي الجلال.

١٦ ـ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أضللتني، أي: فبسبب إغوائك إيّاي. والباء تتعلّق بفعل القسم المحذوف، تقديره: فبسبب إغوائك أقسم. أو: تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعترضنّ لهم على طريق الإسلام مترصّداً للردّ، متعرّضاً للصدّ، كما يتعرّض العدوّ على الطريق ليقطعه على السابلة. وانتصابه على الظرف؛ كقولك: ضرب زيد الظهر، أي: على الظهر. وعن طاووس: أنّه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل قدَريّ، فقال طاووس: تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال: ربّ بما أغويتني، وهو يقول: أنا أغوي نفسي.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشكّكهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغّبهم في الدنيا. ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات، وهو

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

جمع: شمال. يعني ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الأغلب. وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد، من بين يديّ، فيقول: لا تخف فإنّ الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢] ومن خلفي، فيخوّفني الضيعة على مخلّفي، فأقرأ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وعن يميني، فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨] وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة. وقال في الأولين: ﴿من﴾ لابتداء الغاية. وفي الأخيرين: ﴿عن﴾ لأنّ عن تدلّ على الانحراف ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مؤمنين. قاله ظنّاً فأصاب، لقوله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]؛ أو سمِعَه من الملائكة بإخبار الله تعالى إيّاهم.

١٨ ـ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ معيباً، من: ذأمه إذا ذمّه. والذأم والذمّ: العيب ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً، مبعداً من رحمة الله. واللام في: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطّئة للقسم. وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم، فغلّب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ وقلنا: ﴿يا آدم﴾ بعد إخراج إبليس من الجنّة ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ اتخذاها مسكناً ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٠ ـ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وسوس: إذا تكلّم كلاماً خفياً، يكرّره وهو غير متئدٍ. ورجل موسوِس بكسر الواو. ولا يقال: موسوَس بالفتح، ولكن موسوَس له وموسوِس إليه. وهو: الذي يلقي إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله. ووسوس إليه: ألقاها إليه ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

﴿سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾

﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. وفيه دليلٌ على أنَّ كشفَ العورة من عظائم الأمور، وأنّه لم يزل مُستقبَحاً في الطباع والعقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة، كما في: «أويصل» تصغير واصل، وأصله: وويصل، فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟ قلت: لأن الثانية مدة، كألف وارى، فكما لم يجب همزها في: واعد، لم يجب في: ووري، وهذا لأنَّ الواوين إذا تحرّكتا ظهر فيهما من الثقل ما لايكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة، وهذا مدركٌ بالضرورة فالتزمُوا إبدالَها في موضع الثقل لا في غيره. وقرأ عبد الله (أوري) بالقلب[1] ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر، وتستغنيان عن الغذاء. وقرىء ﴿مِلِكين﴾ لقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون، ويبقون في الجنة ساكنين.

٢١ ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ وأقسم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه لما كان منه القسم، ومنهما التصديق، فكأنها من اثنين.

٢٢ ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به من القسم بالله، وإنّما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: من خدعنا بالله انخدعنا له[2] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها. وهي: السنبلة، أو: الكرم. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عورتهما لتهافت اللباس عنهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار، أي: كالظفر بياضاً في غاية اللطف

(١) لم تثبت هذه القراءة عند النحاس.
(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٩٥).

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

واللين، فبقي عند الأظفار تذكيراً للنعم، وتجديداً للندم ﴿وَطَفِقَا﴾ وجعلا. يقال: طفق يفعل كذا، أي: جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز، ورقة فوق ورقة ليستترا بها، كما تخصف النعل ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله، وتنبيه على الخطأ. وروي أنه قال لآدم ـ عليه السلام ـ: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى، ولكن ما ظننتُ أن أحداً يحلفُ بك كاذباً، قال: فبعزّتي! لأهبطنّك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا بكدّ يمين، وعرق جبين، فأُهبط، وعُلِّمَ صنعة الحديد، وأُمر بالحرث فحرَث، وسقى، وحصد، وداس، وذرّى، وطحن[١]، وعجن، وخبز ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٣ ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه دليلٌ لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائر عندهم مغفورة.

٢٤ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ الخطاب لآدم وحوّاء بلفظ الجمع؛ لأنّ إبليس هبط من قبل، ويحتمل: أنّه هبط إلى السماء، ثمّ هبطوا جميعاً إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال، أي: متعادين، يعاديهما إبليس، ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، أو: موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم ـ عليه السلام ـ وحضرته الوفاة، وأحاطت به الملائكة، فجعلت حوّاء تدور حولهم، فقال لها: خلّي ملائكة ربّي، فإنّما أصابني ما أصابني[٢] فيك، فلما توفّي غسّلته الملائكة

(١) مستدرك من المطبوع.
(٢) ما أصابه من وسوسة الشيطان أصابها، ولا وجه لوضع اللوم عليها، وهذه فكرة ظالمة ذهب إليها أهل الكتاب، ولا دليل عليها من الكتاب العزيز أو السنة النبوية.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾

بماء وسدر وِتراً، وحنّطته، وكفّنته في وِتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سُنّتكم بعده.

٢٥ ـ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للثواب والعقاب ﴿تَخْرُجُون﴾ حمزة، وعليّ.

٢٦ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأن أصله من الماء، وهو منها ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم. ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزيّنكم ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ولباس الورع الذي يقي العقاب، وهو مبتدأ، وخبره: الجملة وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. أو: ﴿ذلك﴾ صفة للمبتدأ و﴿خير﴾ خبر المبتدأ، كأنه قيل: ﴿ولباس التقوى﴾ المشار إليه خير. أو: ﴿لباس التقوى﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس التقوى، أي: ستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ذلك خير. وقيل: ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن. ﴿ولباسَ التقوى﴾ مدنيّ، وشاميّ، وعليّ، عطفاً على لباساً وريشاً أي: وأنزلنا عليكم لباسَ التقوى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالّة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآيةُ واردةٌ على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوءات، وخصف الورق عليها إظهاراً للمنّة فيما خلق من اللباس، ولما في العري من الفضيحة، وإشعاراً بأن التستّر من التقوى.

٢٧ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا يخدعنّكم، ولا يضلّنكم بألا تدخلوا الجنّة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما. والنهي في الظاهر للشيطان. وفي المعنى لبني آدم، أي: لا تتبعوا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الشيطان فيفتنكم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن والحديث ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾ تعليل للنهي، وتحذير من فتنته بأنّه بمنزلة العدوّ المداجي[1]، يكيدكم من حيث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ وذريّته، أو وجنوده من الشياطين. وهو عطف على الضمير في: «يراكم» المؤكد بهو، ولم يعطف عليه؛ لأنّ معمول الفعل هو المستكنّ دون هذا البارز، وإنّما يعطف على ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله الكريم، الستار، الرحيم، الغفّار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

٢٨ ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ ما يبالغ في قبحه من الذنوب، وهو: طوافهم بالبيت عراة وشركهم ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها: فاقتدوا بهم، وبأنّ الله أمرهم بأن يفعلوها؛ حيث أقرّنا عليها؛ إذ لو كرهها لنقلنا عنها. وهما باطلان؛ لأنّ أحدهما تقليد للجهّال، والثاني افتراء على ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ إذ المأمور به لا بدّ أن يكون حسناً، وإن كان فيه على مراتب، على ما عرف في أصول الفقه ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنكار، وتوبيخ.

٢٩ ـ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وبما هو حسن عند كلّ عاقل، فكيف يأمر بالفحشاء؟! ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿و﴾ قل ﴿أقيموا وجوهكم﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود، أو: في كل مكان سجود ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾

---

(١) «المداجي»: المداجاة: المداراة. يقال: داجيته؛ إذا داريته، كأنك ساترته العداوة.

ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم. احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق. والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم عن أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠ ـ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي: أضلّ ﴿فريقاً﴾ ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ﴾ إنّ الفريق الذين حقّ عليهم الضلالة ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾. والآية حجةٌ لنا على الاعتزال في الهداية والإضلال.

٣١ ـ ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ لباس زينتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ كلّما صلّيتم. وقيل: الزينة: المشط، والطيب. والسنة: أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة؛ لأنّ الصلاة مناجاة الربّ، فيستحبّ التزيّن، والتعطّر، كما يجب التسترّ، والتطهّر ﴿وَكُلُواْ﴾ من اللحم، والدسم ﴿وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ بالشروع في الحرام، أو: في مجاوزة الشبع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كُلْ ماشئت، واشربْ ماشئت، والبسْ ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ، ومَخْيَلَة. وكان للرشيد طبيب نصرانيّ حاذق، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له عليّ: قد جمع اللهُ الطبّ كلّه في نصف آية من كتابه، وهو قوله: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾، فقال النصرانيّ: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطبّ. فقال: قد جمع رسولنا الطبّ في ألفاظ يسيرة، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعطِ كلَّ بدنٍ ما عوّدته»[١]. فقال النصرانيّ: ماترك كتابكم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢/ ١٠٠). قال في المقاصد (ص٣٨٩): لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أوغيره. =

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾

ولا نبيّكم لجالينوس طباً.

٣٢ ـ ثم استفهم إنكاراً على محرّم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب، وكلّ ما يتجمّل به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: أصلها، يعني: القطن من الأرض، والقزّ من الدود ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذّات من المآكل والمشارب. وقيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة، وما يخرج من لحمها، وشحمها، ولبنها ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأنّ المشركين شركاؤهم فيها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد، ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم، لينبّه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، والكفّار تبع لهم. ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع: نافع، فهي مبتدأ، خبره ﴿للذين آمنوا﴾. و﴿في الحياة الدنيا﴾ ظرف للخبر. أو: ﴿خالصة﴾ خبر ثان، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي خالصة. وغيره نصبها على الحال من الضمير، الذي في الظرف، الذي هو الخبر، أي: هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نميز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا شريك له.

٣٣ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ربّي: حمزة. ﴿الفواحش﴾: ماتفاحش قبحه، أي: تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرّها وعلانيتها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: شرب الخمر، أو: كلّ ذنب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والظلم، والكبر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلّق بالبغي. ومحل ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ـ حجة ـ النصب، كأنّه قال: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك ﴿يُنْزِلْ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصريّ. وفيه تهكّم، إذ

= وانظره في كشف الخفاء (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، والطب النبوي للبغدادي (ص٦٩ و٢٦٢) تحقيق: يوسف بديوي.

وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا

لا يجوز أن ينزّل. برهاناً على أن يشرك به غيره ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تتقوّلوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم، وغيره.

٣٤ ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا. وهو وعيد لأهل مكّة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله، كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيّد بساعة، لأنها أقلّ ما يستعمل في الإمهال.

٣٥ ـ ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي: إن الشرطية، ضمّت إليها «ما» مؤكّدة لمعنى الشرط، لأنّ «ما» للشرط، ولذا ألزمت فعلها النون الثقيلة، أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يقرؤون عليكم كتبي. وهو في موضع رفع صفة لرسل. وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلاً[1] ﴿فلا خوفَ﴾ يعقوب.

٣٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم ﴿بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تعظّموا عن الإيمان بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٧ ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ممّن أشنع ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممّن تقوّل على الله مالم يقله، أو: كذّب ماقاله ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت، وأعوانه. و«حتّى» غاية لنيلهم نصيبهم، واستيفائهم له، وهي «حتّى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي: ﴿إذا جاءتهم رسلنا﴾

---

(١) في المطبوع: (فلا خوفَ) يعقوب. وانظر إتحاف الفضلاء (ص ١٣٤).

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، وهو حال من الرسل، أي: متوفّيهم. و«ما» في: ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ في خطّ المصحف موصولة بأين، وحقّها أن تكتب مفصولة، لأنها موصولة. والمعنى: أين الآلهة الذين تعبدون؟! ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليذبّوا عنكم ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنّا، فلا نراهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة، التي هي لتحقيق الخبر.

٣٨ ـ ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار: ﴿ادخلوا﴾ ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من كفّار الجنّ والإنس ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ متعلّق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ شكلها في الدين، أي: التي ضلّت بالاقتداء بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أصله: تداركوا، أي: تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالاً، وسكّنت للإدغام، ثم أدخلت همزة الوصل ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ منزلة، وهي الأتباع، والسفلة ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ منزلة، وهي: القادة، والرؤوس. ومعنى: ﴿لأولاهم﴾ لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربّنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغواية، والإغواء، وللأتباع بالكفر، والاقتداء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكلّ فريق منكم من العذاب. ﴿لا يعلمون﴾: أبو بكر، أي: لا يعلم كلّ فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

٣٩ ـ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنّا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ

﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بكسبكم، وكفركم. وهو من قول القادة للسفلة، ولا وقف على ﴿فضل﴾. أو: من قول الله لهم جميعاً، والوقف على ﴿فضل﴾.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنّة، إذ هي في السماء. أو: لا يصعد لهم عمل صالح، ولا تنزل عليهم البركة. أو: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا، كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء. وبالتاء مع التخفيف: أبو عمرو. وبالياء معه: حمزة، وعليّ ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، أي: لا يدخلون الجنّة أبداً؛ لأنّه علّقه بما لا يكون. والخِياط والمِخْيط: ما يخاط به، وهو الإبرة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذي وصفنا ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين؛ بدلالة التكذيب بآيات اللّه، والاستكبار عنها.

٤١ ـ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية. جمع: غاشية. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

٤٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ طاقتها. والتكليف: إلزام ما فيه كلفة، أي: مشقّة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر الذين و﴿لا نكلّف نفساً إلا وسعها﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

٤٣ ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حقد كان بينهم في الدنيا، فلم يبق بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وعن عليّ ـ رضي اللّه عنه ـ: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ حال من ﴿هم﴾ في

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ

﴿صدورهم﴾ والعامل فيها معنى الإضافة ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم، وهو: الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ﴿ما كنّا﴾ بغير واو شاميّ، على أنها جملة موضّحة للأولى ﴿لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ اللام لتوكيد النفي، أي: وما كان يصحّ أن نكون مهتدين لولا هداية الله. وجواب «لولا» محذوف، دلّ عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان لطفاً لنا، وتنبيهاً على الاهتداء، فاهتدينا. يقولون ذلك سروراً بما نالوا، وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ «أن» مخفّفة من الثقيلة، واسمها محذوف، والجملة بعدها خبرها، تقديره: ونودوا بأنّ تلكم الجنّة. والهاء ضمير الشأن. أو بمعنى أي، كأنه قيل لهم: ﴿تلكم الجنّة﴾ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها، وهو حال من الجنّة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سمّاها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله ووعده على الطاعات، كالميراث من الميّت ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً ـ عليه السلام ـ وأهل الجنة والنار وإبليس؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقال نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال أهل الجنّة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦].

٤٤ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ «أن» مخفّفة من الثقيلة، أو مفسّرة. وكذلك: ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾. وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف (كم) لدلالة ﴿وعدنا ربّنا﴾ عليه. وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار، واعترافاً بنعم الله تعالى ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ وبكسر العين حيث كان:

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْا۟
أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

عليّ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ نادى منادٍ، وهو ملك يسمع أهل الجنّة والنار ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿أنّ لعنةَ﴾ مكيّ، وشاميّ، وحمزة، وعليّ.

٤٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثان ليبغون، أي: ويطلبون لها الاعوجاج، والتناقض ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

٤٦ ـ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وبين الجنّة والنار، أو: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ وهو السور المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ على أعراف الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنّة والنار، وهي أعاليه، جمع: عُرْف، استعير من عرف الفرس، وعرف الديك ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين، أو: من آخرهم دخولاً في الجنّة لاستواء حسناتهم وسيّئاتهم، أو: من لم يرض عنه أحد أبويه، أو: أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين: بياض الوجوه ونضارتها، وسيما الكافرين: سواد الوجوه، وزرقة العيون ﴿وَنَادَوْا۟﴾ أي: أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنّه سلام، أو: أي سلام. وهو تهنئة منهم لأهل الجنّة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أصحاب الأعراف، ولا محلّ له؛ لأنه استئناف، كأنّ سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف فقيل: ﴿لم يدخلوها﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها. أو: له محلّ، وهو صفة لرجال.

٤٧ ـ ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه: أنّ صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا. ﴿تِلْقَآءَ﴾ ظرف. أي: ناحية ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما فيه من العذاب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله، وفزعوا إلى رحمته ألا يجعلهم معهم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

---

٤٨ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ المال، أو: كثرتكم واجتماعكم و﴿ما﴾ نافية ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحقّ، وعلى الناس. ثم يقولون لهم:

٤٩ ـ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر، تقديره: ﴿أهؤلاء﴾ هم الذين ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ حلفتم في الدنيا. والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب، وسلمان، ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ جواب ﴿أقسمتم﴾ وهو داخل في صلة الذين، تقديره: أقسمتم عليهم بألا ينالهم الله برحمة، أي: لا يدخلهم الجنّة. يحتقرونهم لفقرهم، فقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين، وعرفوهم بسيماهم، وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

٥٠ ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ «أنْ»: مفسرة. وفيه دليل على أنّ الجنّة فوق النار ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة. أو: أريد ﴿أو﴾ ألقوا علينا ﴿مّما رزقكم الله﴾ من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتهـــا تبنــاً ومـــاء بـــارداً ... ...(١)

أي: وسقيتها. وإنّما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحيّر ينطق بما يفيد؛ وبما لا يفيد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هو تحريم منع، كما في﴿ ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذمّاً. وإن جررته وصفاً للكافرين فلا.

---

(١) صدر بيت، وعجزه: حتى شتت همالة عيناها.

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم
بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ
يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن
شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ

---

٥١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرّموا وأحلوا ما شاؤوا. أو: دينهم: عيدهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ اغترّوا بطول البقاء ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: كنسيانهم، وجحودهم.

٥٢ ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ ميّزنا حلاله، وحرامه، ومواعظه، وقصصه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بكيفيّة تفصيل أحكامه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من منصوب ﴿فصّلناه﴾ كما أنّ ﴿على علم﴾ حال من مرفوعه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٥٣ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه من تبيّن صدقه، وظهور صحّة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تركوه، وأعرضوا عنه ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تبيّن، وصحّ أنهم جاؤوا بالحقّ، فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ جواب الاستفهام ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام، كأنّه قيل: فهل لنا من شفعاء، أو هل نردّ؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كقولك ابتداء: هل يضرب زيد؟ أو عطف على تقدير : هل يشفع لنا شافع، أو هل نرد؟ ﴿فَنَعْمَلَ﴾ جواب الاستفهام أيضاً ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السموات

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾

والأرض وما بينهما. وقد فصّلها في «حم السجدة» أي: من الأحد إلى الجمعة؛ لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً، وللإعلام بالتأنّي في الأمور، ولأنّ لكلّ عمل يوماً، ولأنّ إنشاء شيء بعد شيء أدلّ على عالم مدبّر مريد يصرّفه على اختياره، ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى العرش، وإن كان سبحانه وتعالى مستولياً على جميع المخلوقات؛ لأنّ العرش أعظمها، وأعلاها. وتفسير العرش بالسرير، والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبّهة باطل[١]؛ لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان؛ لأنّ التغير من صفات الأكوان. والمنقول عن الصادق، والحسن، وأبي حنيفة، ومالك ـ رحمهم الله ـ: أنّ الاستواء[١] معلوم، والتكييف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والجحود له كفر، والسؤال عنه بدعة ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ﴿يغشّي﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر. أي: يلحق الليل بالنهار، والنهار بالليل ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ حال من الليل، أي: سريعاً. والطالب: هو الليل، كأنّه لسرعة مضيّه يطلب النهار ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ أي: وخلق الشمس، والقمر، والنجوم ﴿مُسَخَّرَٰتِۢ﴾ حال، أي: مذللات ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخّراتٌ﴾: شاميّ. والشمس مبتدأ، والبقية معطوفة عليها، والخبر: ﴿مسخّرات﴾ ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ هو أمر تكوين. ولمّا ذكر أنّه خلقهنّ مسخرات بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾. أي: هو الذي خلق الأشياء، وله الأمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ كثر خيره، أو: دام برّه. من البركة: النماء، أو من البروك: الثبات، ومنه: البركة ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥٥ ـ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرّع وخفية. والتضرّع: تفعّل، من: الضراعة، وهي: الذلّ، أي: تذلّلاً وتملّقاً. قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إنّه معكم

(١) وهذا هو مذهب السلف في عدم التأويل، وهو أسلم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا﴾

أينما كنتم»[١]. عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفاً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في كلّ شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللّهم إني أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ: ﴿إنّه لا يحبّ المعتدين﴾ »[٢].

٥٦ ـ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ أي: بالمعصية بعد الطاعة، أو بالشرك بعد التوحيد، أو: بالظلم بعد العدل ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حالان، أي: خائفين من الردّ، طامعين في الإجابة. أو: من النيران وفي الجنان. أو: من الفراق وفي التلاق. أو: من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية. أو: من العدل وفي الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ذكّر قريب على تأويل الرحمة بالرحم، أو: الترحّم، أو: لأنّه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو: على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، [أو: لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقيّ][٣]، أو: للإضافة إلى المذكّر.

٥٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ ﴿الرِّيْحَ﴾ مكّيّ، وحمزة، وعليّ ﴿بُشْرًۢا﴾ (نَشْراً) حمزة، وعلي، مصدر نشر. وانتصابه إمّا لأنّ أرسل ونشر متقاربان، فكأنّه قيل: نشرها نشراً. وإما على الحال، أي: منشورات. ﴿بُشُراً﴾ عاصم؛ تخفيف بُشُراً، جمع بشير، لأن الرياح تبشّر بالمطر. (نُشْراً) شاميّ، تخفيف نُشُر،

(١) رواه البخاري (٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤).
(٢) رواه أبو داود (١٤٨٠).
(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

كرُسل ورسْل، وهو قراءة الباقين، جمع نشور، أي: ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أمام نعمته، وهو: الغيث الذي هو من أجلّ النعم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت. واشتقاق الإقلال من القلّة؛ لأنّ الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء؛ جمع سحابة ﴿سُقْنَٰهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ. ولو حمل على المعنى كالثقال لأنّث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجل بلد ليس فيه مطر، ولسقيه. ﴿مَيْتٍ﴾ مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالسحاب، أو: بالسوق. وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج، وهو: إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤدّيكم التذكير إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين؛ لأنّ كلّ واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه.

٥٨ ـ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الطّيبة التراب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنّه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنّه واقع في مقابلة ﴿نكداً﴾ ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ صفة للبلد. أي: والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ أي: نباته، فحذف للاكتفاء ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثّر فيه شيء من ذلك، وهو الكافر. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به، على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نردّدها، ونكرّرها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله ـ وهم المؤمنون ـ ليتفكّروا فيها، ويعتبروا بها.

٥٩ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ﴿لقد أرسلنا﴾ ﴿نُوحًا﴾

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجّاراً، وهو نوح بن لَمَك[(١)] بن مَتُوشَلَخ بن أَخْنوخ، وهو اسم إدريس ـ عليه السلام ـ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ «غيرِه»: عليّ. فالرفع على المحلّ، كأنّه قيل: مالكم إله غيره، فلا تعبدوا معه غيره. والجرّ على اللفظ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، أو: يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

٦٠ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف، والسادة ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن في ذهاب عن طريق الصواب. والرؤية: رؤية القلب.

٦١ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل ضلال، كما قالوا؛ لأنّ الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنّه قال: ليس بي شيء من الضلال. ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ كونه رسولاً من الله مبلّغاً لرسالته في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى.

٦٢ ـ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة، أو: في المعاني المختلفة من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنظائر. ﴿أُبْلِغكُم﴾ أبو عمرو. وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول ربّ العالمين ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص، يقال: نصحته، ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إمحاض النصيحة. وحقيقة النصح: إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو: النهاية في صدق العناية ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفاته، يعني: قدرته الباهرة، وشدّة بطشه على أعدائه، وأنّ بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين.

---

(١) في تاريخ الطبري (١/ ١٦٥): لامك.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾

٦٣ ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذّبتم وعجبتم؟! ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ من ﴿أن جاءكم﴾ ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ على لسان رجل منكم، أي: من جنسكم. وذلك أنهم كانوا يتعجّبون من نبوّة نوح ـ عليه السلام ـ ويقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ليحذّركم عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ولتوجد منكم التقوى، وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

٦٤ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وكانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة، وقيل: تسعة: بنوه سام، وحام، ويافث، وستّة ممن آمن به ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ يتعلّق بـ: معه، كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق. يقال: أعمى في البصر، وعمٍ في البصيرة.

٦٥ ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا ﴿إلى عاد﴾. وهو عطف على ﴿نوحاً﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب: للواحد منهم. وإنّما جعل واحداً منهم؛ لأنهم عن رجل منهم أفهم، فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لـ ﴿أخاهم﴾. وهو: هود بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإنّما لم يقل: فقال، كما في قصّة نوح ـ عليه السلام ـ لأنّه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾. وكذلك:

٦٦ ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾. وإنّما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأنّ في أشراف قوم هود من آمن به، منهم: مرثد بن

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾

سعد، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح ـ عليه السلام ـ مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في خفّة حلم، وسخافة عقل. حيث تهجرُ دينَ قومك إلى دين آخر. وجُعلت السفاهة ظرفاً مجازاً، يعني: أنّه متمكّن فيها، غير منفكّ عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادّعائك الرسالة.

٦٧، ٦٨ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم. وإنما قال هنا: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ لقولهم: ﴿وإنّا لنظنّك من الكاذبين﴾ أي: ليقابل الاسم الاسم.

وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به، من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس، وأسفههم، أدب حسن، وخُلُق عظيم. وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضّون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

٦٩ ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض، أو: في مساكنهم. و﴿إذ﴾ مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ طولاً وامتداداً، فكان أقصرهم ستّين ذراعاً، وأطولهم مئة ذراع. ﴿بصطةً﴾ حجازيّ، وعاصم، وعليّ ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواهما من عطاياه. وواحد الآلاء: إلى، نحو: إنى وآناء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

٧٠ ـ ومعنى المجيء في: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ أن يكون لهود ـ عليه السلام ـ مكان معتزل عن قومه يتحنّث فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلمّا أوحي إليه جاء قومه يدعوهم ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشؤوا عليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنّ العذاب نازل بنا.

٧١ ـ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: قد نزل ﴿عَلَيْكُم﴾ جعل المتوقع ـ الذي لابد من نزوله ـ بمنزلة الواقع، كقولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسمّيات؛ لأنكم تسمّون الأصنام آلهة، وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك

٧٢ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: من آمن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابر: الأصل، أو: الكائن خلف الشيء. وقطع دابرهم: استئصالهم، وتدميرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة: نفي الإيمان عنهم، مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعارُ بأن الهلاك خصّ المكذّبين.

وقصّتهم: أنّ عاداً قد تبسّطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء. فبعث الله إليهم هوداً، فكذّبوه، فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين. وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام، فأوفدوا إليه قَيْل بن عنز، ولُقَيْم بن هزَّال،

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾

ومَرْثَد بن سعد ـ وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام ـ وأهل مكة إذ ذاك العماليق، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيّدهم: معاوية بن بكر، فنزلوا عليه بظاهر مكة. فقال لهم مرثد: لن تُسْقَوْا حتى تؤمنوا بهود. فخلّفوا مرثداً، وخرجوا. فقال قَيْل: اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قَيْلُ! اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم، فاستبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها، حتى ماتوا(١).

٧٣ ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وقرىء ﴿وإلى ثمودٍ﴾ بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر. ومنع الصرف بتأويل القبيلة. وقيل: سمّيت: ثمود لقلّة مائها، من: الثمَد، وهو: الماء القليل. وكانت مساكنهم: الحجر، بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة، شاهدة على صحة نبوّتي. فكأنّه قيل: ما هذه البيّنة؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم؛ لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب، ولارحم ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ حال من الناقة. والعامل معنى الإشارة في هذه، كأنه قيل: أشير إليها ﴿آية﴾. ﴿ولكم﴾ بيان لمن هي له آية، وهي ثمود؛ لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربّها من نبات ربّها، فليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق، وانظر الكشاف (٢/ ٨٨).

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن

ولاتضربوها، ولاتعقروها، ولاتطردوها إكراماً لآية الله ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧٤ ـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزّلكم. والمباءة: المنزل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض الحِجْر، بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غرفاً للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء. وبيوتاً حال مقدّرة، نحو: خط هذا الثوب قميصاً؛ إذ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ رُوي أنّ عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلّفوها في الأرض، وعمروا أعماراً طوالاً، فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات. وكانوا في سعة من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فأنذرهم، فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عُشَرَاء، فصلّى، ودعا ربّه، فتمخّضت تمخّض النتوج بولدها، فخرجت منها ناقة كما شاؤوا، فآمن به جندع ورهط من قومه.

٧٥ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ ﴿وقال﴾: شاميّ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بإعادة الجار. وفيه دليل على أنّ البدلَ حيث جاء كان في تقدير إعادة العامل. والضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ﴿قومه﴾. وهو يدلُّ على أنّ استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، أو: إلى الذين استضعفوا، وهو يدلُّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن

رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿رَّبِّهِۦ﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وإنّما صار هذا جواباً لهم؛ لأنّهم سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مُسلَّماً، كأنّهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنّما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم: أنّا به مؤمنون.

٧٦ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فوضعوا ﴿آمنتم به﴾ موضع ﴿أرسل به﴾ ردّاً لما جعله المؤمنون معلوماً مُسلّماً.

٧٧ ـ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم، وإن كان العاقر: قدار بن سالف؛ لأنّه كان برضاهم. وكان قدار: أحمر، أزرق، قصيراً، كما كان فرعون كذلك. وقال ﷺ: «يا عليّ! أشقى الأوّلين: عاقر ناقة صالح، وأشقى الآخرين: قاتلك»[1] ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ وتولّوا عنه، واستكبروا. وأمر ربّهم: ما أمر به على لسان صالح ـ عليه السلام ـ من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. أو: شأن ربّهم، وهو دينه ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ في بلادهم، أو: مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين قعوداً. يقال: الناس جثّم، أي: قعود لا حراك بهم، ولا يتكلّمون.

٧٩ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ لمّا عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ عند فراقه إيّاهم. ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الآمرين

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٧) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ١٤ و٢٩٩).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾

بالهدى لاستحلاء الهوى. والنصيحة: منيحة تدرأ الفضيحة، ولكنّها وخيمة، تورث السخيمة. رُوي: أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام، تصفرّ وجوهكم أوّل يوم، وتحمرّ في الثاني، وتسودّ في الثالث، ويصيبكم العذاب في الرابع. وكان كذلك. ورُوي أنّه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فلمّا علم أنّهم هلكوا رجع بمن معه، فسكنوا ديارهم.

٨٠ ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا ﴿لوطاً﴾. و﴿إذ﴾ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أتفعلون السيّئة المتمادية في القبح؟! ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عملها قبلكم. والباء للتعدية. ومنه قوله ﷺ: «سبقك بها عكّاشة»[1] ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «من» للتبعيض. وهذه جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ ثم وبّخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها.

٨١ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أئنكم ﴿لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾. والهمزة مثلها في ﴿أتأتون﴾ للإنكار ﴿إنّكم﴾ على الإخبار مدنيّ وحفص. يقال: أتى المرأة: إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلاّ مجرد الشهوة، ولا ذمّ أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا من النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي تُوجب ارتكاب القبائح، وهو أنّهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كلّ شيء، فمن ثمّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتّى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

٨٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي:

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٣و٤٥٤).

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

لوطاً ومن آمن معه، يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عمّا كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة، ووصفهم بصفة الإسراف؛ الذي هو أصل الشر؛ ولكنّهم جاؤوا بشيء لا يتعلّق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومَن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يدعون الطهارة، ويدّعون فعلنا الخبيث. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عابوهم بما يُتمدَّح به.

٨٣ ـ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن يختص به من ذويه، أو: من المؤمنين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الباقين في العذاب. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. ورُوي أنها التفتت، فأصابها حجر، فماتت.

٨٤ ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً. قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت حجارة على مسافريهم. وقال أبو عبيدة: «أمطر» في العذاب، و«مطر» في الرحمة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

٨٥ ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ وهو اسم قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزة وإن لم تُذكر في القرآن ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما. والمراد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. أو: يكون «الميزان» كالميعاد، بمعنى المصدر ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن. وكانوا يبخسون الناس كلّ شيء في مبايعتهم. و«بخس» يتعدّى إلى مفعولين، وهما: الناس، وأشياءهم. تقول:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا

بخست زيداً حقه، أي: نقصته إياه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعد ماأصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء. وإضافته كإضافة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: بل مكركم في الليل والنهار ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الإنسانية، وحسن الأحدوثة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين لي في قولي.

٨٦ ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ بكلّ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بالله. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عشّارين(١) ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: تصفونها للناس بأنّها سبيل معوجّة، غير مستقيمة، لتمنعوهم عن سلوكها. ومحلّ ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال، أي: لاتقعدوا موعدين، وصادّين عن سبيل الله وباغين عوجاً ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿إذ﴾ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله، ووفر عددكم. وقيل: إنّ مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء، فكثروا ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ـ عليهم السلام ـ.

٨٧ ـ ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فانتظروا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقّين

---

(١) «عشارين»: جمع عشار، وهو آخذ العُشْر وملتزمه.

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ

على المبطلين، ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو: هو حثّ للمؤمنين على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين، إلى أن يحكم الله بينهم، وينتقم لهم منهم، أو: هو خطاب للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على مايسوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتّى يحكم الله ، فيميز الخبيث من الطيب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّ حكمه حقّ وعدل، لا يخاف فيه الجور.

٨٨ ـ ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم، وإمّا عودكم في الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام. والواو للحال. تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين. قالوا نعم:

٨٩ ـ ثم قال شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وهو قسم، على تقدير: حذف اللام، أي: والله لقد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ خلّصنا الله. فإن قلت: كيف قال شعيب ﴿إن عدنا في ملتكم﴾ والكفر على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ محال؟ قلت: أراد عود قومه، إلا أنّه نظمَ نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك، إجراء لكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما ينبغي لنا، وما يصحّ ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلاّ أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها، إذ الكائنات كلّها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرّها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: هو عالم بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل، وقلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يُثبّتنا على الإيمان، ويوفّقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: احكم. والفتاحة: الحكومة. والقضاء بالحق يفتح الأمر المغلق؛ فلذا سُمّي

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ

فتحاً، ويسمّي أهل عُمان القاضي: فتّاحاً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

٩٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتّباعه، لأنّه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية. وجواب القسم الذي وطّأته اللام في ﴿لئن اتّبعتم﴾ وجواب الشرط، ﴿إنّكم إذاً لخاسرون﴾ فهو سادّ مسدّ الجوابين.

٩١ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

٩٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها. غني بالمكان: أقام ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم: ﴿إنّكم إذاً لخاسرون﴾. وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنّه قيل: الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا، كأن لم يقيموا في دارهم، لأنّ الذين اتّبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه، فهم الرابحون. وفي هذا التكرار مبالغة، واستعظام لتكذيبهم، ولما جرى عليهم.

٩٣ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. اشتد حزنه على قومه، ثمّ أنكر على نفسه، فقال: كيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم؟! أو: أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير ممّا حلّ بكم، فلم تصدّقوني، فكيف آسى عليكم؟!

٩٤ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يقال: لكلّ مدينة قرية. وفيه حذف،

إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

أي: فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالبؤس، والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضرّ، والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيّهم. أو: هما نقصان النفس، والمال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرّعوا، ويتذلّلوا، ويحطّوا أردية الكبر.

٩٥ ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة: الرخاء والسعة والصحّة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا، ونموا في أنفسهم وأموالهم. من قولهم: عفا النبات: إذا كثر. ومنه قوله ﷺ: «وأعفوا اللحى»[1] ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضرّاء والسرّاء. وقد مسّ آباءنا نحو ذلك، وما هو بعقوبة الذنب، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

٩٦ ـ واللام في: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارة إلى أهل القرى التي دلّ عليها ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيّ﴾ كأنه قال: ولو أنَّ أهلَ تلك القرى الذين كذّبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدل كفرهم ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ ﴿لفتّحنا﴾ شاميّ ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أراد: المطر والنبات، أو: لآتيناهم بالخير من كلّ وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بكفرهم، وسوء كسبهم. ويجوز أن تكون اللام للجنس.

٩٧ ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريد الكفّار منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً، أي: وقت بيات، يقال: بات بياتاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٣) والنسائي (١/ ١٦ و٨/ ١٢٩ و١٨٢).

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ
ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ

٩٨ ـ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهاراً. والضحى في الأصل: ضوء الشمس إذا أشرقت. والفاء والواو في ﴿أفأمن﴾ و﴿أو أمن﴾ حرفا عطف، دخل عليهما همزة الإنكار. والمعطوف عليه ﴿فأخذناهم﴾ بغتة. وقوله ﴿ولو أنّ أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنّما عطفت الأولى بالفاء؛ لأنَّ المعنى فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ ﴿أوْ أَمِنَ﴾: شاميّ، وحجازيّ على العطف بأو. والمعنى: إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلاً، أو ضحى. فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف، وهو ينافي الاستفهام؟ قلت: التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة؛ لأنّه على استئناف جملة بعد جملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يشتغلون بما لا يجدي عليهم.

٩٩ ـ ﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾ تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أخذه العبد من حيث لا يشعر. وعن الشبليّ ـ قدَّس الله روحه ـ العزيز: مكره بهم: تركه إيّاهم على ما هم عليه. وقالت ابنةُ الربيع بن خثيم لأبيها: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه! إنّ أباك يخافُ البيات. أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إلا الكافرون؛ الذين خسروا أنفسهم، حتّى صاروا إلى النار.

١٠٠ ـ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبيّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ «أن لو نشاء» مرفوع بأنّه فاعل ﴿يهد﴾. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو: أنّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين. وإنما عدّى فعل الهداية باللام؛

وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ

لأنه بمعنى التبيين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف، أي: ونحن نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

١٠١ ـ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في أنّه مبتدأ وخبر وحال. أو: تكون ﴿القرى﴾ صفة ﴿تلك﴾ و﴿نقص﴾ خبراً. والمعنى: تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصّها عليك ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عند مجيء الرسل بالبيّنات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ بما كذّبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل. أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذّبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين مع تتابع الآيات. واللام لتأكيد النفي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

١٠٢ ـ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق. يعني: أنّ أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان. والآية اعتراض. أو: للأمم المذكورين، فإنّهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمننّ، ثم أنجاهم، نكثوا ﴿وَإِن﴾ وإنَّ الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة. والوجود بمعنى العلم، بدليل دخول «أن» المخففة واللام الفارقة، ولا يجوز ذلك إلا في المبتدأ، والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل في قوله ﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾ أو: للأمم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من وادٍ واحد ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝١٠٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٠٦﴾

﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. أو: فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن. أو: لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، حيث وضعوا الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين.

١٠٤ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ﴾ يقال لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنّه قال: يا ملك مصر. واسمه: قابوس، أو: الوليد بن مصعب بن الريّان ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك. قال فرعون: كذبت. فقال موسى:

١٠٥ ـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: أنا حقيق على قول الحقّ، أي: واجب على قول الحقّ أن أكون قائله، والقائم به. ﴿حقيقٌ عليّ﴾ نافع، أي: واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق، أي: الصدق. وعلى هذه القراءة تقف على ﴿العالمين﴾ وعلى الأول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول. و«على» بمعنى: الباء كقراءة أبّي، أي: إنّي رسول خليق بألا أقول. أو: يعلّق على بمعنى الفعل في الرسول، أي: إنّي رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على ألا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما يبيّن رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم. وذلك أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ لما توفّي غلب فرعون على نسل الأسباط، واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى ـ عليه السلام ـ وكان بين اليوم الذي دخل ـ عليه السلام ـ مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام. ﴿مَعِي﴾: حفص.

١٠٦ ـ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فائتني بها لتصحّ دعواك، ويثبت صدقك فيها.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

١٠٧ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ «إذا» هذه للمفاجأة، وهي من ظروف المكان بمنزلة ثمّة، وهناك ﴿ثُعْبَانٌ﴾ حيّة عظيمة ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره. رُوي أنّه كان ذكراً فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر[1]. ثم توجّه نحو فرعون فهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك. وحمل على الناس، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتلَ بعضُهم بعضاً. فصاح فرعون: يا موسى! خذه، وأنا أومن بك، فأخذه موسى، فعاد عصا.

١٠٨ ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: فإذا هي بيضاءُ للنظّارة، ولا تكون بيضاءَ للنظّارة إلا إذا كان بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة، يجمع الناس للنظر إليه. رُوي: أنّه أرى فرعون يده، وقال: ما هذه؟ فقال: يدك. ثم أدخلها في جيبه ونزعها، فإذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس. وكان موسى ـ عليه السلام ـ آدم، شديد الأدمة.

١٠٩ ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ عالم بالسحر، ماهر فيه، قد خيّل إلى الناس العصا حيّة والآدم أبيض. وهذا الكلام قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ. وهنا عزي إليهم، فيحتمل أنّه قد قاله هو، وقالوه هم، فحكي قوله ثمّة، وقولهم هنا. أو: قاله ابتداء، فتلقّنه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم.

١١٠ ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون، من: آمرته، فأمرني بكذا: إذا شاورته، فأشار عليك برأي. وهو من كلام فرعون قاله للملأ لمّا قالوا له: ﴿إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم﴾.

(١) رحم الله النسفي! كيف قبل مثلَ هذه الرواية الإسرائيلية، وما فيها من المبالغات والخيالات المستحيلة!.

قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ

---

١١١ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء: عاصم، وحمزة، أي: أخّر، واحبس، أي: أخّرْ أمره، ولا تعجل. أو: كأنّه همّ بقتله، فقالوا: أخّر قتله، واحبسه، ولا تقتله ليتبيَّن سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين.

١١٢ ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿سحّار﴾: حمزة، وعليّ. أي: يأتوك بكلّ ساحر عليم مثله في المهارة، أو بخير منه.

١١٣ ـ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ يريد: فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الخبر، وإثبات الأجر العظيم. حجازيّ، وحفص. ولم يقل: فقالوا، لأنّه على تقدير سؤال سائل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قالوا إنّ لنا لأجراً﴾ لجعلاً على الغلبة. والتنكير للتعظيم، كأنهم قالوا: لا بدّ لنا من أجر عظيم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

١١٤ ـ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إنّ لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، فتكونون أوّل من يدخل، وآخر من يخرج. وكانوا ثمانين ألفاً، وسبعين ألفاً، أو بضعة وثلاثين ألفاً.

١١٥ ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما معنا. وفيه دلالة على أنّ رغبتهم في أن يلقوا قبله، حيث أكّد ضميرهم المتّصل بالمنفصل، وعرّف الخبر.

١١٦ ـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ـ عليه السلام ـ ﴿أَلْقُواْ﴾ تخييرهم إيّاه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتخاوضوا في الجدال. وقد سوّغ لهم موسى ما رغبوا فيه، ازدراء لشأنهم، وقلّة مبالاة بهم، واعتماداً على أنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أروها بالحيل

وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ

والشعوذة، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. رُوي: أنّهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيّات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنّهم استدعوا رهبتهم بالحيلة ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ في باب السحر، أو: في عين من رآه.

١١٧ ـ ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ «تلقّف»: تبتلع. ﴿تَلۡقَف﴾ حفص ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، يعني: ما يأفكونه، أي: يقلبونه عن الحقّ إلى الباطل، ويزوّرونه. أو: إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك. رُوي أنها لمّا تلقّفت ملء الوادي من الخشب والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرّقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحر لبقيت حبالنا، وعصيّنا.

١١٨ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ فحصل، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من السحر.

١١٩ ـ ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾ أي: فرعون، وجنوده، والسحرة ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ وصاروا أذلاء، مبهوتين.

١٢٠ ـ ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ وخرّوا سجّداً لله. كأنّما ألقاهم ملقٍ لشدّة خرورهم، أو: لم يتمالكوا ممّا رأوا، فكأنّهم ألقوا، فكانوا أوّل النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

١٢١ و ١٢٢ ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو بدل مما قبله.

١٢٣ ـ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ على الخبر، حفص. وهذا توبيخٌ منه لهم. وبهمزتين، كوفيّ غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والاستبعاد ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ

لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ إنّ صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الصحراء، لغرضٍ لكم، وهو أن تخرجوا من مصر القبط، وتسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله، ثمّ فصّله بقوله:

١٢٤ ـ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ من كلّ شقّ طرفاً ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أوّل من قطع من خلاف، وصلب.

١٢٥ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فلا نبالي بالموت لا نقلابنا إلى لقاء ربّنا، ورحمته. أو: إنّا جميعاً ـ يعنون: أنفسهم وفرعون ـ ننقلب إلى الله، فيحكم بيننا.

١٢٦ ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وما تعيب منّا إلا الإيمان بآيات الله. أرادوا: وما تعيب منّا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر، وهو الإيمان. ومنه قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم ... بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ(١)

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصبب صبّاً ذريعاً. والمعنى: هب لنا صبراً واسعاً، وأكثره علينا حتّى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إفراغاً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

١٢٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها، وتغيير دين أهلها؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمئة ألف نفر ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ عطف على ﴿ليفسدوا﴾. قيل: صنع فرعون لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرّباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام، ويقولون:

---

(١) البيت للنابغة الذبياني. «فلول»: انثلامات في حدّ السيف. «القراع»: المضاربة. «الكتائب»: الجماعات.

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ليقرّبونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيباً للملأ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ﴿سنَقْتُل﴾ حجازيّ. أي: سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أنّا على ما كنّا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولئلا يتوهّم العامّة أنّه هو المولود الذي تحدّث المنجّمون بذهاب ملكنا على يده، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتّباعه.

١٢٨ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون ﴿سنقتّل أبناءهم﴾ تسلية لهم، ووعداً بالنصر عليهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ اللام للعهد، أي: أرض مصر. أو: للجنس، فيتناول أرض مصر تناولاً أوّلياً، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيه تمنيته إيّاهم أرض مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأنّ الخاتمة المحمودة للمتّقين منهم ومن القبط. وأخليت هذه الجملة عن الواو، لأنها جملة مستأنفة، بخلاف قوله: ﴿وقال الملأ﴾ لأنّها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾.

١٢٩ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء، وإعادته عليهم بعد ذلك. وذلك اشتكاء من فرعون، واستبطاء لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه. وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه، وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب مايوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، وطلب المنصور زيادة لعمرو، فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية. ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك،

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

١٣٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ سني القحط، وهنّ سبع سنين. والسنة من الأسماء الغالبة كالدابّة، والنجم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: السنون لأهل البوادي، ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ليتّعظوا، فينبّهوا على أنّ ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأنّ الناسَ في حال الشدّة أضرع خدوداً، وأرقّ أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة لم ير مكروهاً في ثلاثمئة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدّة وجع، أو جوع، أو حمّى لما ادّعى الربوبيّة.

١٣١ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الصحة، والخصب ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه التي نستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب، ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ أصله: يتطيّروا، فأدغمت التاء في الطاء، لأنّها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ تشاءموا بهم، وقالوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا. وإنما دخل ﴿إذا﴾ في الحسنة، وعرّفت الحسنة، و﴿إن﴾ في السيئة، ونكرت السيّئة؛ لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأمّا السيّئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ سبب خيرهم، وشرّهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه ومشيئته، والله هو الذي يقدّر مايصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

١٣٢ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أصل ﴿مهما﴾ ماما، فـ«ما» الأولى للجزاء، ضمّت إليها «ما» المزيدة المؤكّدة للجزاء، في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]. إلا أن الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري. وهو في موضع النصب بـ«تأتنا»،

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾

أي: أيّما شيء [تحضرنا تأتنا به][1]. و﴿من آية﴾ تبيين لمهما، والضمير في ﴿به﴾ و﴿بها﴾ راجع إلى ﴿مهما﴾، إلا أنّ الأوّل ذكّر على اللفظ، والثاني أنّث على المعنى لأنها في معنى الآية. وإنما سموها آية اعتباراً لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

١٣٣ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ما طاف بهم، وغلبهم من مطر، أو سيل. قيل: طفا الماء فوق حروثهم، وذلك أنّهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، أو: هو الجدريّ، أو الطاعون ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم، وثمارهم، وسقوف بيوتهم، وثيابهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهي الدّبى، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، أو البراغيث، أو كبار القِرْدان ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتّى إذا تكلم الرجل تقع في فيه ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: الرعاف. وقيل: مياههم انقلبت دماً، حتّى إنّ القبطي والإسرائيلي إذا اجتمعا على إناء فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً. وقيل: سال عليهم النيل دماً ﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله. أو: مفرّقات، بين كلّ آيتين شهر ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

١٣٤ ـ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير، وهو الدم. أو: العذاب المذكور واحداً بعد واحد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما مصدرية، أي: بعهده عندك، وهو النبوّة. والباء تتعلق بادع، أي: ادع الله لنا متوسلاً

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ

إليه بعهده عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٣٥ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذّبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمّا. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضدّ الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجّة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمّم؛ لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلّة فكرهم فيها.

١٣٧ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثّاً على الصبر، ودالاّ على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنّات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيّدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

وهذا آخر قصّة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من فرعون، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلّي رسول الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ ـ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عَبَر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمرّوا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعليّ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافّة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اختلفتم بعد نبيّكم قبل أن يجفّ ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تجفّ أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكده.

١٣٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبرّ الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لإنّ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنّهم هم المعترضون للتبار، وأنّه لا يعدوهم البتّة ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحلّ.

١٤٠ ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أغير المستحقّ للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ ـ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أنجاكم﴾: شاميّ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من: سام السلعة، إذا طلبها. وهو استئناف لا محلّ له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ﴿يَقْتُلون﴾ نافع ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: في الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ ـ ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ رُوي أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوّك. فأوحى الله إليه: أما علمت أنّ خلوفَ فم الصائم أطيبُ عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيدَ عليها عشرة أيّام من ذي الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقّت له من الوقت، وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد. ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة، وفصّلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص، أي: اختصّ مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة، ولا كيفيّة. وروي أنّه كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وذكر الشيخ في «التأويلات»: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾

وكان اختصاصه باعتبار أنّه أسمعه صوتاً تولّىٰ تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلمّا سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّىٰ لي حتى أراك. ﴿أرْني﴾ مكيّ. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليلٌ لأهل السنّة على جواز الرؤية، فإنّ موسى ـ عليه السلام ـ اعتقد أنّ الله تعالى يُرى حتّى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليلٌ لنا أيضاً، لأنه لم يقل: لن أُرى ليكون نفياً للجواز. ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنّه ليس بمرئيّ، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه علّق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليقُ الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه. والدليلُ على أنّه ممكن قوله: ﴿جعله دكاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجده؛ لأنه مختار في فعله، ولأنّه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعريّ: إنّه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرئياً.

وبهذه الوجوه يتبيّنُ جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأنّ موسى ـ عليه السلام ـ كان عالماً بأنه لا يُرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ليبيّن الله تعالى أنه ليس بمرئي، باطل. إذ لو كان كما زعموا لقال: أرهم ينظروا إليك، ثمّ يقول له: لن يروني، لأنها لو لم تكن جائزة لما أخّر موسى ـ عليه السلام ـ الردّ عليهم ـ بل كان يردّ عليهم وقت قرع كلامهم سمعه ـ لما فيه من التقرير على الكفر. وهو ـ عليه السلام ـ بعث لتغييره لا لتقريره. أَلَا ترى أنهم لمّا قالوا له ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ لم يمهلهم، بل ردّ عليهم من ساعته بقوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾؟! ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً. مصدر بمعنى المفعول، كضرب الأمير، والدقّ والدكّ: أخوان. ﴿دكّاء﴾: حمزة، وعليّ. أي: مستوية بالأرض لا أكمة فيها. وناقة دكّاء: لا سنام لها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ حال: أي سقط مغشياً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها.

وقال الكعبيّ والأصمّ: معنى قوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأنّي أنظر إليك. ﴿لن تراني﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة. ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فإنّي أظهر له آية، فإن ثبت الجبل لتجلّيها، واستقرّ مكانه، فسوف تثبت لها، وتطيقها، وهذا فاسد؛ لأنّه قال: ﴿أرني أنظر إليك﴾ ولم يقل: إليها، وقال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل: لن ترى آيتي. وكيف يكون معناه: لن ترى آيتي، وقد أراه أعظم الآيات، حيث جعل الجبل دكّاً؟!

١٤٤ ـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك على أهل زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ هي أسفار التوراة. ﴿برسالتي﴾: حجازيّ ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ وبتكليمي إيّاك ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أعطيتك من شرف النبوّة، والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك، فهي من أجلّ النعم.

قيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأُعطي التوراة يوم النحر. ولمّا كان هارون وزيراً، وتابعاً لموسى تخصّص الاصطفاء بموسى ـ عليه السلام ـ.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ

١٤٥ ـ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ الألواح: التوراة. جمع لوح. وكانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وكانت من زمرّد. وقيل: من خشب. نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محلّ النصب على أنه مفعول ﴿كتبنا﴾ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل منه. والمعنى: كتبنا له كلّ شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة، وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلّها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزيز، وعيسى ﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا له: ﴿خذها﴾ عطفاً على ﴿كتبنا﴾. والضمير للألواح، أو: لكلّ شيء؛ لأنّه في معنى الأشياء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ وعزيمة، فِعْل أولي العزم من الرسل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، كقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه، وهي مصر، ومنازل عاد وثمود، والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم؛ لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم، فينكّل بكم مثل نكالهم. أو: جهنّم.

١٤٦ ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ عن فهمها. قال ذو النون ـ قدس الله روحه ـ: أبى الله أن يكرم قلوب البطّالين بمكنون حكمة القرآن ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق، ويأنفون عن قبول الحق. وحقيقته: التكلّف للكبرياء التي اختصّت بالباري ـ عزّت قدرته ـ ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هو حال، أي: يتكبرون غير محقّين؛ لأنّ التكبر بالحقّ لله وحده ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر، وطريق الهدى ﴿الرَّشَد﴾ حمزة، عليّ، هما كالسُّقْم والسَّقَم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومحل ﴿ذَٰلِكَ﴾: الرفع، أي: ذلك

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ۝١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

١٤٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة، ومشاهدتهم أحوالها. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ خبر ﴿والذين﴾ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال بتكذيب الإرسال.

١٤٨ ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطّور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وإنّما نسبت إليهم مع أنها كانت عواري في أيديهم، لأنّ الإضافة تكون لأدنى ملابسة. وفيه دليلٌ على أنَّ مَن حلف ألا يدخل دار فلان، فدخل داراً استعارها يحنث. على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه دليلٌ على أنّ الاستيلاء على أموال الكفّار يوجب زوال ملكهم عنها. نعم المتّخذ هو السامريّ، ولكنّهم رضوا به، فأسند الفعل[١] إليهم. والحليّ: جمع حَلْي، وهو اسم ما يتحسّن به من الذهب والفضة. ﴿حِلِيِّهِمْ﴾: حمزة، وعليّ للإتباع ﴿عِجْلًا﴾ مفعول اتخذ. ﴿جَسَدًا﴾ بدل منه، أي: بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوت البقر. والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهاً. ثم عجب من عقولهم السخيفة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ حين اتخذوه إلهاً ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يقدر على كلام، ولا على هداية سبيل، حتّى لا يختاروه على مَن لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحقّ بما ركز في العقول من الأدلّة، وبما أنزل في الكتب.

(١) مستدرك من المطبوع.

اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ
مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

ثم ابتدأ فقال: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً، فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

١٤٩ ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ولمّا اشتدّ ندمهم على عبادة العجل. وأصله: أنّ مِن شأن مَن اشتد ندمه أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأنّ فاه وقع فيها. و﴿سقط﴾ مسند إلى ﴿في أيديهم﴾ وهو من باب الكناية. وقال الزّجاج: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن استحال أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويُرى بالعين ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وتبيّنوا ضلالهم تبيّناً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿لئن لم ترحمنا ربّنا وتغفرْ لنا﴾: حمزة، وعليّ. وانتصاب ربّنا على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

١٥٠ ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضْبَانَ﴾ حال من موسى. ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضاً، أي: حزيناً. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ قمتم مقامي، وكنتم خلفائي ﴿مِن بَعْدِي﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامريّ وأشياعه، أو: لهارون ومن معه من المؤمنين. ويدلّ عليه قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]. والمعنى: ﴿بئسما خلفتموني﴾ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو: حيث لم تكفّوا من عبد غير الله. وفاعل ﴿بئس﴾ مضمر يفسره: ﴿ما خلفتموني﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله ﴿خلفتموني﴾: من بعد ما رأيتم منّي من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، أو: من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفّهم عن عبادة البقرة، حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ومن حقّ الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو:

وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ

إتياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة. وأصل العجلة: طلب الشيء قبل حينه. وقيل: عجلتم بمعنى تركتم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ ضجراً عند استماعه حديث العجل غضباً لله. وكان في نفسه شديد الغضب. وكان هارون ألين منه جانباً؛ ولذلك كان أحبّ إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسّرت، فرفعت ستّة أسباعها، وبقي سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كلّ شيء، وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه غضباً عليه، حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ عتاباً عليه لا هواناً به. وهو حال من موسى ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ بني الابن مع الأمّ على الفتح كخمسة عشر. وبكسر الميم[1]: حمزة، وعليّ، وشاميّ؛ لأنّ أصله أمّي، فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة. وكان ابن أمّه وأبيه. وإنّما ذكر الأمّ؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأنّ ذكرها أدعى إلى العطف. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي: إنّي لم آل جهداً في كفّهم بالوعظ والإنذار، ولكنّهم استضعفوني، وهمّوا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الذين عبدوا العجل، أي: لا تفعل بي ما هو أمنيتّهم من الاستهانة بي، والإساءة إليّ. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قريناً لهم بغضبك عليّ. فلما اتضح له عذر أخيه قال:

١٥١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ ليرضي أخاه، وينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء. والمعنى: اغفر لي ما فرط منّي في حقّ أخي، ولأخي إن كان فرّط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

١٥٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما

(١) أي: (ابنَ أُمِّ).

وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ

أمروا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم، فالغربة تذلّ الأعناق، أو: ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامريّ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨].

١٥٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: السيّئات، أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم، محّاء لما كان منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة. وإنّ مع اسمها وخبرها خبر ﴿الذين﴾ وهذا حكم عام يدخل تحته متّخذو العجل وغيرهم، عظّم جناياتهم أوّلاً، ثم أردفها بعظم رحمته؛ ليعلم: أنّ الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم.

١٥٤ ـ ولمّا كان الغضب لشدّته كأنّه هو الآمر لموسى بما فعل قيل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه: سكن، وقرىء به ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ وفيما نسخ منها، أي: كتب. فعلة بمعنى مفعول؛ كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول، وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

١٥٥ ـ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه، فحذف الجارّ، وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كلّ سبط ستّة، فبلغوا اثنين وسبعين رجلاً، فقال: ليتخلّف منكم رجلان، فقعد كالب، ويوشع. ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ لاعتضارهم[١] عن عبادة العجل. ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة

---

(١) أي: لامتناعهم. وفي المطبوع: لاعتذارهم.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ
عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ
ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

الشديدة. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل. ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ لقتلي القبطيّ. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهّال منّا، وهم أصحاب العجل. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك. وهو راجعٌ إلى قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: هي تلك الفتنة التي أخبرتني بها. أو: هي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الضلالة. ﴿وَتَهْدِى﴾ بها. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

١٥٦ ـ ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ وأثبت لنا، واقسم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عافية، وحياة طيّبة، وتوفيقاً في الطاعة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنّة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك. وهاد إليه، يهود: إذا رجع، وتاب. والهود: جمع هائد، وهو: التائب. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ﴾ من صفته أنّي ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ اي: لا أعفو عنه. ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أيّ: من صفة رحمتي أنّها واسعة تبلغ كلّ شيء، ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه الرحمة. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمّد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

١٥٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به، وهو القرآن ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ صاحب المعجزات ﴿ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد، وإنصاف العباد ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيّبة؛ كالشّحوم وغيرها، أو: ما طاب في الشريعة ممّا ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلا كسبه من السّحت ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما يستخبث؛ كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به، أو: ما خبث في الحكم؛ كالربا، والرشوة، ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هو الثِّقْل الذي يأصره صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك لثقله. والمراد: التكاليف الصعبة؛ كقتل النفس في توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة. ﴿آصارهم﴾ شاميّ على الجمع ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هي الأحكام الشاقة، نحو: بتّ القضاء بالقصاص عمداً كان، أو خطأ من غير شرع الدية، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت. وشبهت بالغُلّ للزومها لزوم الغل ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظّموه، أو: منعوه من العدوّ حتى لا يقوى عليه عدوّ. وأصل العزر: المنع، ومنه التعزير؛ لأنّه منع عن معاودة القبيح كالحدّ، فهو المنع ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن. و«مع» متعلّق بـ«اتّبعوا»، أي: واتّبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبيّ، والعمل بسنّته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل خير، والناجون من كلّ شر.

١٥٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بُعِثَ كلّ رسول إلى قومه خاصة، وبعث محمّد ﷺ إلى كافّة الإنس وكافّة الجن ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿إليكم﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محلّ النصب بإضمار أعني، وهو نصب على المدح ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من الصلة وهي ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾. وكذلك ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾. وفي ﴿لا إله إلا هو﴾ بيان للجملة قبلها؛ لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي ﴿يحيي ويميت﴾ بيان لاختصاصه بالإلهيّة، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: الكتب المنزلة ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولم يقل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إنّي رسول الله إليكم﴾ لتجري عليه الصفات التي أُجريت عليه، ولما في الالتفات من مزيّة البلاغة، وليعلم: أنّ الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنّه النبيّ الأميّ؛ الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة، وتفادياً من العصبيّة لنفسه.

١٥٩ ـ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس محقّين، أو بسبب الحقّ الذي هم عليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحقّ يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. قيل: هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمّد ﷺ ليلة المعراج، أو: هم عبد الله بن سلام وأضرابه.

١٦٠ ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيّرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميّزنا بعضهم من بعض ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سِبْط. وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. نعم مميّز ما عدا العشرة مفرد، فكان ينبغي أن يقال اثني عشر سبطاً. لكن المراد: وقطّعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكلّ قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباط موضع قبيلة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من اثنتي عشرة، أي: وقطّعناهم أمماً؛ لأنّ كلّ أسباط كانت أمّة عظيمة، وكلّ واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضرب

فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ هو اسم جمع غير تكسير ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرّون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

١٦١ ـ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر ﴿إذ قيل لهم﴾ ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ ﴿تُغفَر لكم﴾: مدنيّ، وشاميّ، ﴿خطيئاتكم﴾ مدنيّ ﴿خطاياكم﴾ أبو عمرو ﴿خطيئتكم﴾ شاميّ ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦٢ ـ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لا تناقض بين قوله: ﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا منها﴾ في هذه السورة، وبين قوله في سورة البقرة ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨] لوجود الدخول والسّكنى. وسواء قدّموا الحطّة على دخول الباب، أو أخّروها، فهم جامعون بينهما. وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته. وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ موعد بشيئين: بالغفران وبالزيادة. وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنّه استئناف مرتّب على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سنزيد المحسنين﴾. وكذلك

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان. و﴿أرسلنا﴾ و﴿أنزلنا﴾ و﴿يظلمون﴾ و﴿يفسقون﴾ من وادٍ واحدٍ.

١٦٣ ـ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أيلة، أو: مدين. وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ إذ يتجاوزون حدّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. ﴿إذ يعدون﴾ في محلّ الجرّ بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها. كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بيعدون، أو: بدل بعد بدل. ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت، أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، جمع شارع. حال من الحيتان. والسبت: مصدر سبتت اليهود: إذا عظّمت سبتها بترك الصيد، والاشتغال بالتعبّد. والمعنى: ﴿إذ يعدون﴾ في تعظيم هذا اليوم، وكذا قوله: ﴿يوم سبتهم﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدلّ عليه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ و﴿يوم﴾ ظرف ﴿لا تأتيهم﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

١٦٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إذ يعدون﴾ وحكمه كحكمه في الإعراب ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، لآخرين لا يقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنّما قالوا ذلك لعلمهم: أنّ الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله[1]؛ لئلا ننسب في

(١) في القاموس: أبلاه عذراً: أدّاه إليه فقبله.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

النهي عن المنكر إلى التفريط. ﴿معذرةً﴾ حفص على أنّه مفعول له، أي: وعظناهم للمعذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولطمعنا في أن يتّقوا.

١٦٥ ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ أي: أهل القرية لمّا تركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكّرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الراكبين للمنكر. والذين قالوا: لم تعظون من الناجين. فعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً: إذا اشتدّ، فهو بئيس. ﴿بِئْس﴾ شاميّ. ﴿بِيس﴾ مدنيّ. ﴿بَيْئَس﴾ على وزن فيعل: أبو بكر غير حماد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

١٦٦ ـ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: جعلناهم قردة، أذلاء، مبعدين. وقيل: ﴿فلمّا عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلمّا نسوا﴾ والعذاب البئيس هو: المسخ. قيل: صار الشبّان قردة، والشيوخ خنازير. وكانوا يعرفون أقاربهم، ويبكون، ولا يتكلّمون. والجمهور على أنّها ماتت بعد ثلاث. وقيل: بقيت، وتناسلت.

١٦٧ ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم. وأجري مجرى فعل القسم، ولذا أُجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتب على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾ من يوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث محمّد ﷺ، فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر!! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للكفّار ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين.

١٦٨ ـ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفرّقناهم فيها، فلا تخلو بلد عن فرقة.

﴿أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو: الذين وراء الصين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطّون عنه، وهم: الفسقة. ومحلّ ﴿دون ذلك﴾ الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، أي: ومنهم ناس منحطّون عن الصلاح ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنعم والنقم، والخصب والجدب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتبهون فيثابون.

١٦٩ ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. والخلْف: بدل السوء، بخلاف الخلَف فهو الصالح ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ حال من الضمير في ﴿ورثوا﴾. والعرض: المتاع. أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد: الدنيا، وما يتمتّع به منها. وهو من الدنوّ، بمعنى القريب؛ لأنّه عاجل قريب. والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام وعلى تحريف الكَلِم. وفي قوله: ﴿هذا الأدنى﴾ تخسيس، وتحقير ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. والفعل مسند إلى الأخذ، أو: إلى الجار والمجرور، أي: ﴿لنا﴾ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون، عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق المذكور في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق. وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وقرؤوا ما في الكتاب. وهو عطف على ﴿ألم يؤخذ عليهم﴾ لأنّه تقرير. فكأنّه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا، والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أفلا

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ

يعقلون﴾ أنّه كذلك. وبالتاء: مدنيّ، وحفص.

١٧٠ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ﴾ ﴿يُمْسِكون﴾ أبو بكر. والإمساك والتمسيك والتمسّك: الاعتصام، والتعلق بشيء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ خصّ الصلاة مع أنّ التمسّك بالكتاب يشتمل على كلّ عبادة؛ لأنّها عماد الدين، و﴿الذين﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي: إنّا لا نضيع أجرهم. وجاز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون. و﴿إنّا لا نضيع﴾ اعتراض.

١٧١ ـ ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكر إذ قلعناه ورفعناه، كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]. ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ هي كلّ ما أظلّك من سقيفة، أو سحاب ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنّه ساقط عليهم. وذلك أنّهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم ـ وكان فرسخاً في فرسخ ـ وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها، وإلا ليقعنّ عليكم. فلمّا نظروا إلى الجبل خرّ كلّ رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنّا بها العقوبة. وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزم على احتمال مشاقه، وتكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي، ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه.

١٧٢ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ أخذ﴾ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بني آدم﴾. والتقدير: وإذ أخذ ربّك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. ومعنى أخذ ذريّاتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ هذا من باب التمثيل. ومعنى ذلك: أنّه نصب لهم الأدلة على ربوبيّته ووحدانيّته، وشهدت بها عقولهم التي

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾

ركّبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الهدى والضلالة، فكأنّه أشهدهم على أنفسهم، وقرّرهم، وقال لهم: ﴿ألست بربّكم﴾ وكأنّهم قالوا: بلى أنت ربّنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيّتك ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلّة الشاهدة على صحّتها العقول كراهة ﴿أن يقولوا﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبّه عليه.

١٧٣ ـ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ ﴿أو﴾ كراهة ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم؛ لأنّ نصب الأدلّة على التوحيد، وما نبّهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلّة التوحيد منصوبة لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك، وتركهم سنّة لنا.

١٧٤ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفصّلها.

إلى هذا ذهب المحقّقون من أهل التفسير، منهم الشيخ أبو منصور، والزجّاج، والزمخشريّ. وذهب جمهورُ المفسرين إلى أنّ الله تعالى أخرج ذريّة آدم من ظهر آدم مثل الذرّ، وأخذ عليهم الميثاق أنّه ربّهم بقوله: ﴿ألست بربّكم﴾ فأجابوه بـ: بلى. قالوا: وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أخرج الله من ظهر آدم ذرّيته، وأراه إيّاهم كهيئة الذرّ وأعطاهم من العقل، وقال: هؤلاء ولدك، آخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني. قيل: كان ذلك قبل دخول الجنّة بين مكّة والطائف. وقيل: بعد النزول من الجنّة. وقيل: في الجنّة. والحجّة للأوّلين أنّه قال: ﴿من بني آدم من ظهورهم﴾ ولم يقل: من ظهر آدم، ولأنّا لا نتذكّر ذلك، فأنّى يصير حجّة!

﴿ذريّاتهم﴾ مدني وبصريّ وشاميّ. ﴿أن تقولوا﴾ ﴿أو يقولوا﴾ أبو عمرٍو.

١٧٥ ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو عالم من

﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

علماء بني إسرائيل. وقيل: هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله. ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالّين الكافرين. رُوي أنّ قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى، ومن معه، فأبى. فلم يزالوا به حتّى فعل، وكان عنده اسم الله الأعظم.

١٧٦ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إيثار الدنيا ولذّاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أي: تزجره، وتطرده ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود ﴿يَلْهَث﴾ والمعنى: فصفته التي هي مثل في الخسّة والضعة كصفة الكلب في أخسّ أحواله وأذلّها، وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه، أي: شدّ عليه، وهيج، فطرد، أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه. وذلك: أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرّك، أما الكلب فيلهث في الحالين. فكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنّه أخلد إلى الأرض فحططناه، ووضعنا منزلته. فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حطّ. ومحلّ الجملة الشرطيّة: النصب على الحال، كأنّه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلّة لاهثاً في الحالين. وقيل: لمّا دعا بلعم على موسى خرج لسانه، فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب. وقيل: معناه: هو ضالّ: وُعِظ أو تُرِك. وعن عطاء: من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح إن طرد، أو ترك ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشّروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا

١٧٧ ـ ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: مثل القوم، فحذف المضاف. وفاعل ساء مضمر، أي: ساء المثل مثلاً. وانتصاب مثلاً على التمييز ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على كذّبوا، فيدخل في حيّز الصلة، أي: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم. أو: منقطع عن الصلة، أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب. وتقديم المفعول به للاختصاص، أي: وخصّوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّ إلى غيرها.

١٧٨ ـ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يضلله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [حمل على المعنى][1] ولو كان الهدى من الله البيانَ ـ كما قالت المعتزلة ـ لاستوى الكافر والمؤمن، إذ البيان ثابت في حق الفريقين. فدلّ أنه من الله تعالى التوفيق، والعصمة، والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

١٧٩ ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هم الكفّار من الفريقين، المعرضون عن تدبّر آيات الله. والله تعالى علم منهم اختيار الكفر، فشاء منهم الكفر، وخلق فيهم ذلك، وجعل مصيرهم جهنّم لذلك. ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لأنه إنّما خلق منهم للعبادة من علم أنه يعبده، وأمّا من علم أنّه يكفر به فإنّما خلقه لما علم أنه يكون منه. فالحاصل: أن من علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة. ومَن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك. وكم من عامّ يُراد به الخصوص! وقول المعتزلة بأنّ هذه لام العاقبة، أي: لمّا كان عاقبتهم جهنّم جعل كأنّهم خلقوا لها، فراراً عن إرادة المعاصي، عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقّ، ولا يتفكّرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ

---

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الوعظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار، والاستماع للتفكّر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنّهم كابروا العقول، وعاندوا الرسول، وارتكبوا الفضول. فالأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارّها، وهم لا يعلمون مضارّهم حيث اختاروا النار. وكيف يستوي المكلّف المأمور والمُخْلَى المعذور؟! فالآدمي روحانيّ، شهوانيّ، سماويّ، أرضيّ، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

١٨٠ ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء، لأنّها تدلّ على معان حسنة. فمنها: ما يستحقّه بحقائقه؛ كالقديم قبل كلّ شيء، والباقي بعد كلّ شيء، والقادر على كلّ شيء، والعالم بكلّ شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء. ومنها: ما تستحسنه الأنفس لآثارها؛ كالغفور، والرحيم، والشكور، والحليم. ومنها: ما يوجب التخلّق به؛ كالفضل، والعفو. ومنها: ما يوجب مراقبة الأحوال؛ كالسميع، والبصير، والمقتدر. ومنها: ما يوجب الإجلال؛ كالعظيم، والجبّار، والمتكبّر ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فسمّوه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحقّ والصواب فيها، فيسمّونه بغير الأسماء الحسنى. وذلك أن يسمّوه بما لا يجوز عليه، نحو أن يقولوا: يا سخيّ، يا رفيق، لأنّه لم يسمّ نفسه بذلك. ومن الإلحاد تسميته بالجسم، والجوهر، والعقل، والعلّة. ﴿يَلْحَدون﴾ حمزة. لحد وألحد: مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٨١ ـ ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للجنّة، لأنه في مقابلة ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم﴾ ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم. قيل: هم العلماء والدعاة إلى الدّين. وفيه دلالةٌ على[1] أن إجماعَ كلّ عصر حجّة.

(١) مستدرك من المطبوع.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ

١٨٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغيّ، فكلّما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً، وجدّدوا معصية، فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانّين: أن مواترة النعم أُثْرة من الله تعالى وتقريب، وإنّما هو خذلان منه وتبعيد. وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة [﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما يراد بهم](١).

١٨٣ ـ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾ عطف على ﴿سنستدرجهم﴾ وهو غير داخل في حكم السين. أي: أمهلهم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ أخذي شديد. سمّاه: كيداً، لأنّه شبيه بالكيد من حيث إنّه في الظاهر إحسان، وفي الحقيقة خذلان.

١٨٤ ـ ولمّا نسبوا النبيّ ﷺ إلى الجنون نزل: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمّد ﷺ. و﴿ما﴾ نافية بعد وقف. أي: أو لم يتفكّروا في قولهم؟! ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ منذر من الله، موضح إنذاره.

١٨٥ ـ ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الملكوت: الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾ ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة. وأصله: وأنّه عسى. والضمير ضمير الشأن. وهو في موضع الجرّ بالعطف على ملكوت. والمعنى: أولم ينظروا في أنّ الشأن والحديث عسى ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾ ولعلّهم يموتون عمّا قريب فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحقّ،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾

وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل، وحلول العقاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وهو متعلّق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم. كأنّه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب؛ فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟! وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا؟!

١٨٦ ـ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾أي: يضلله الله ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وبالياء: عراقيّ. وبالجزم: حمزة وعليّ عطفاً على محلّ ﴿فلا هادي له﴾، كأنّه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد، ﴿ويذرهم﴾ والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذرهم. الباقون: بالنون ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون.

١٨٧ ـ ولما سألت اليهود، أو قريش عن الساعة: متى تكون؟ نزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا. وسمّيت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو: لسرعة حسابها، أو: لأنّها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أَيَّانَ﴾ متى، واشتقاقه من أيّ، فعلان منه، لأن معناه: أي وقت؟ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ إرساؤها، مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال. أو: وقت إرسائها، أي: إثباتها، والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاصّ ـ وهو وقت الموت ـ لذلك ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظْهِر أمرها، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلّ من أهلها من الملائكة والثقلين أهمّه شأن الساعة، ويتمنّى أن يتجلّى له علمها، وشقّ عليه خفاؤها، وثقل عليه. أو: ثقلت فيها، لأنّ أهلها يخافون شدائدها، وأهوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة منكم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنّك بليغٌ في السؤال عنها؛ لأنّ مَن بالغ في المسألة عن الشيء، والتنقير عنه استحكم علمه فيها. وأصل

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾

هذا التركيب المبالغة، ومنه: إحفاء الشارب. أو: ﴿عنها﴾ متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنك حفيّ، أي: عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكرّر يسألونك، وإنما علمها عند الله للتأكيد، ولزيادة كأنّك حفيّ عنها. وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم: محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه المختصّ بالعلم بها.

١٨٨ ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو إظهار للعبوديّة، وبراءة عمّا يختصّ بالربوبيّة من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي، والدفع عني ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير، واجتناب السوء والمضارّ، حتّى لا يمسّني شيء منها، ولم أكن غالباً مرّة، ومغلوباً أخرى في الحروب. وقيل: الغيب: الأجل، والخير: العمل، والسوء: الوجل. وقيل: ﴿لاستكثرت﴾ لأعددت من الخصب للجدب. والسوء: الفقر. وقد ردّ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أن أعلم الغيب. واللام في: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلّق بالنذير والبشير؛ لأنّ النذارة والبشارة إنّما ينفعان فيهم. أو: بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف، أي: ﴿إلا نذير﴾ للكافرين ﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾.

١٨٩ ـ ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حوّاء خلقها من جسد آدم، من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن ويميل، لأنّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبّة نفسه لكونه بضعة منه. وذكّر ﴿ليسكن﴾ بعد ما أنّث في قوله: ﴿واحدة وخلق منها زوجها﴾ ذهاباً إلى معنى

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾

النفس؛ ليبيّن أنّ المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خفّ عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعضُ الحبالى من حملهنّ من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده، من غير إخداج[1] ولا إزلاق. أو: ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ يعني: النطفة ﴿فمرت به﴾ فقامت به، وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ حان وقتُ ثِقَل حملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحوّاء ربهما، ومالك أمرهما، الذي هو الحقيق بأن يُدعى، ويُلتجأ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه، أو: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك. والضمير في ﴿آتيتنا﴾ و﴿لنكوننّ﴾ لهما، ولكلّ من يتناسل من ذريتهما.

١٩٠ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذلك: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما. دليله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزّى، وعبد مناف، وعبد شمس، ونحو ذلك مكان: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم. أو: يكون الخطاب لقريش؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصيّ، أي: هو الذي خلقكم من نفس واحدة: قصيّ. وجعل من جنسها زوجها عربيّة قرشيّة ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سمّيا أولادهما الأربعة بـ: عبد مناف، وعبد العزّى، وعبد قصيّ، وعبد الدار. والضمير في ﴿أيشركون﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ﴿شِرْكاً﴾: مدنيّ، وأبو بكر، أي: ذوي شرك، وهم الشركاء.

---

(١) من غير إخداج: من غير نقص.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾

١٩١ ـ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أجريت الأصنام مجرى أولي العلم بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إيّاها إلهاً. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء، وهم يخلقون؛ لأنّ الله خالقهم. أو: الضمير في ﴿وهم يخلقون﴾ للعابدين، أي: أيشركون ما لا يخلق شيئاً، وهم مخلوقو الله، فليعبدوا خالقهم. أو: للعابدين والمعبودين، وجمعهم كأولي العلم، تغليباً للعابدين.

١٩٢ـ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، كالكسر، وغيره. بل عبدتهم الذين يدفعون عنهم.

١٩٣ ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى ما هو هدى ورشاد، أو: إلى أن يهدوكم، أي: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير، والهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿لا يتْبَعوكم﴾: نافع ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ عن دعائهم: في أنّه لا فلاح معهم، ولا يجيبونكم. والعدول عن الجملة الفعليّة إلى الاسميّة لرؤوس الآي.

١٩٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم، وتسمّونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع، أو: دفع ضرّ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهم آلهة. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم، فقال:

١٩٥ ـ ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ يتناولون

أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فلم تعبدون ما هو دونكم؟! ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالياء يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فإنّي لا أبالي بكم. وكانوا قد خوّفوه آلهتم، فأمر أن يخاطبهم بذلك. وبالياء: يعقوب.

١٩٦ ـ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ﴾ ناصري عليكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أوحي إليّ، وأعزّني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ومن سنّته أن ينصر الصالحين من عباده، ولا يخذلهم.

١٩٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

١٩٨ ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنّهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرئي.

١٩٩ ـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ هو ضدّ الجهد، أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشقّ؛ حتّى لا ينفروا؛ كقوله ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»(١) ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالمعروف، والجميل من الأفعال، أو: كلّ خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عليهم. وفسّرها جبريل عليه السلام

(١) رواه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤).

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

بقوله: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمّن ظلمك»[1]. وعن الصادق: أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

٢٠٠ ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وإما ينخسنّك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ولا تطعه. والنزغ: النخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه. أو: أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: إنّ لي شيطاناً يعتريني ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

٢٠١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿طَيْفٌ﴾: مكيّ، وبصريّ وعليّ، أي: لَمّة منه. مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً. وعن أبي عمرو: هما واحد، وهي: الوسوسة. وهذا تأكيدٌ لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ عادة المتّقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمر الله به، ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فأبصروا السداد، ودفعوا وسوسته. وحقيقته: أن يفرّوا منه إلى الله، فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

٢٠٢ ـ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس، فإنّ الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾، أي: يكونون مدداً لهم فيه، ويعضدونهم ﴿يُمِدُّونَهم﴾ من الإمداد: مدنيّ ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثمّ لا يمسكون عن إغوائهم حتّى يصرّوا، ولا يرجعوا. وجاز أن يُراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلّق به إلى الجاهلين. والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتّقوا. وإنّما جمع الضمير في ﴿إخوانهم﴾ والشيطان مفرد؛ لأنّ المراد به الجنس.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٥).

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا
بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ
مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

---

٢٠٣ ـ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها. أي: اختلقتها كما اختلقت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصّركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢٠٤ ـ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وجمهور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على أنه في استماع المؤتمّ. وقيل: في استماع الخطبة. وقيل: فيهما، وهو الأصحّ.

٢٠٥ ـ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عامّ في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرّعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلّماً كلاماً دون الجهر؛ لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكّر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين. وقيل: المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر. ومعنى: ﴿بالغدوّ﴾ بأوقات الغدوّ، وهي: الغدوات. والآصال: جمع أُصُل. والأصل جمع أصيل، وهو: العشيّ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه.

٢٠٦ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة، لا مكاناً ومنزلاً، يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظّمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزّهونه عمّا لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ ويختصّونه بالعبادة لا يشركون به غيره. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الأَنفَالِ

ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

---

١ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ النفل: الغنيمة؛ لأنّها من فضل الله، وعطائه. والأنفال: الغنائم. ولقد وقع اختلافٌ بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله: كيف نقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصّة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول: أنّ حكمها مختصٌّ بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الآمر في قسمتها مفوّضاً إلى رأي أحد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أحوال بينكم. يعني: ما بينكم من الأحوال حتّى تكون أحوالُ ألفة، ومحبّة، واتّفاق. وقال الزّجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم. والبين: الوصل. أي: فاتّقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به. قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله ﷺ، فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم، وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إنّما الكاملو الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيّباً من جلاله، وعزّه، وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة؛ لأنّ تظاهر الأدلّة أقوى للمدلول عليه، وأثبت لقدمه. أو: زادتهم إيماناً بتلك الآيات؛ لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون، ولا يفوّضون أمورهم إلى غير ربّهم، لا يخشون، ولا يرجون إلا إيّاه.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل، والإخلاص، والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة، والصدقة.

٤ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقّاً. أو: هو مصدر مؤكّد للجملة التي هي: ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ كقولك: هو عبد الله حقّاً، أي: حقّ ذلك حقّاً. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: أنَّ رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنّة، والنار، والبعث، والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إنّما المؤمنون...﴾ الآية؛ فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟! وعن الثوريّ: من زعم أنّه مؤمن بالله حقّاً، ثمّ لم يشهد أنّه من أهل الجنّة فقد آمن بنصف الآية. أي: كما لا يقطع بأنّه من أهل ثواب المؤمنين حقّاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقّاً. وبهذا يتشبّث من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لا يقول ذلك. وقال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. فقال له: هلاّ اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وعن إبراهيم التيمي: قل أنا مؤمن حقّاً، فإن صدقت أثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشدّ من كذبك. وعن ابن عباس

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

ـ رضي الله عنهما ـ: من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقّاً. وقد احتجّ عبد الله على أحمد فقال: ايش اسمك؟ فقال: أحمد. فقال: أتقول أنا أحمد حقّاً، أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقّاً. فقال: حيث سمّاك والدك لا تستثني، وقد سمّاك الله في القرآن مؤمناً تستثني؟! ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيّئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ضافٍ عن كدّ الاكتساب، وخوف الحساب.

٥ ـ الكاف في: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في محلّ النصب، على أنّه صفة لمصدر الفعل المقدّر. والتقدير: قل الأنفال استقرّت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل إخراج ربك إيّاك من بيتك، وهم كارهون ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنّها مهاجره ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إخراجاً ملتبساً بالحكمة، والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موضع الحال. أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك: أنّ عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان، فأخبر جبريل النبيّ ﷺ، فأخبر أصحابه، فأعجبهم تلقّي العير لكثرة الخير، وقلّة القوم. فلمّا خرجوا علمت قريش بذلك، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّة، وهو النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقيل له: إنّ العير أخذت طريقَ الساحل، ونجت. فأبى، وسار بمن معه إلى بدر. وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة. ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريشاً. فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال: «العير أحبّ إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ. فتغيّر وجهُ رسول الله ﷺ، ثمّ ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير، ودع العدوّ. فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾

فقال: انظر أمرك فامض، فوالله! لو سرتَ إلى عدن أَبْيَنَ[١] ما تخلّف عنك رجلٌ من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: امضِ لما أمرك الله، فإنّا معك حيث أحببتَ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، ما دامت عين منّا تَطرِف. فضحك رسولُ الله ﷺ. وقال سعد بن معاذ: امضِ يا رسول الله! لما أردت، فو الذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحد. فسِرْ بنا على بركة الله. ففرح رسولُ الله ﷺ، ونشّطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإنّ الله وعدني أحدى الطائفتين. والله! لكأنّي الآن أنظرُ إلى مصارع القوم»[٢]. وكانت الكراهةُ من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يحتملُ أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، ويحتملُ أن يكونوا مخلصين، وأن يكون ذلك كراهة طبع، لأنّهم غير متأهّبين له.

٦ ـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ الحقّ الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ: تلقّي النفير لإيثارهم عليه تلقّي العير ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنّهم ينصرون. وجدالهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاّ قلت لنا لنستعدّ. وذلك لكراهتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ شبّه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يُعْتَل[٣] إلى القتل، ويُساق على الصّغار إلى الموت، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشكّ فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنّهم كانوا رجّالة، وما كان فيهم إلا فارسان.

٧ ـ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ «إذ»: منصوب باذكر، و﴿إِحۡدَى﴾

(١) «أبين»: اسم رجل نُسِب إليه عدن، فقيل: عدن أبين.
(٢) القصة في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١ ـ ٣٣).
(٣) «يُعتل»: يجُذب جذباً عنيفاً.

أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم

مفعول ثان ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إحدى الطائفتين﴾ وهما: العير، والنفير. والتقدير: وإذ يعدكم الله أنّ إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: العير. وذات الشوكة: ذات السلاح. والشوكة كانت في النفير لعددهم وعُدّتهم، أي: تتمنّون أن تكون لكم العير، لأنّها الطائفة التي لا سلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يثبّته، ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قليب بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آخرهم. والدابر: الآخر، فاعل، من: دبر؛ إذا أدبر. وقطع الدابر: عبارة عن الاستئصال. يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة، وسَفْساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، ونصرة الحق، وعلوّ الكلمة، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوّتهم بضعفكم، وأعزّكم، وأذلّهم.

٨ ـ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ متعلّق بيقطع. أو: بمحذوف تقديره: ليحقّ الحقّ ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل ذلك. والمقدّر متأخّر ليفيد الاختصاص، أي: ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. وليس هذا بتكرار؛ لأنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين، وهذا بيانٌ لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

٩ ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: متعلق بقوله: ﴿ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل﴾ واستغاثتهم أنهم لمّا علموا أنّه لا بدّ من القتال طفقوا يدعون الله، يقولون: أي ربّنا! انصرنا على عدوّك! يا غياث المستغيثين أغثنا! وهي طلب الغوث، وهو: التخليص من المكروه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب. وأصل ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾: بأنّي ممدّكم، فحذف الجار، وسلّط عليه «استجاب»

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن﴾

فنصب محلّه ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿مُرْدَفينَ﴾ مدنيّ. غيره بكسر الدال. فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنّه أردف كلّ ملك ملكاً آخر. يقال: ردفه: إذا تبعه، وأردفته إيّاه: إذا أتبعته.

١٠ ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: الإمداد الذي دلّ عليه ﴿ممدّكم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: أنّكم استغثتم، وتضرّعتم لقلّتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإنّ الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو: ﴿وما النصر﴾ من الملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إلا من عند الله﴾ والمنصور مَن نصره الله.

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر. فقيل: نزل جبريل ـ عليه السلام ـ في خمسمئة ملك على الميمنة، وفيها: أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وميكائيل في خمسمئة على الميسرة وفيها: عليّ ـ رضي الله عنه ـ في صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض، قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم، فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود: مِن أين كان يأتينا الضربُ ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة، قال: فهم غلبونا لا أنتم. وقيل: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثّرون السواد، ويثبّتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

١١ ـ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثان من: ﴿إذ يعدكم﴾. أو: منصوب بالنصر، أو: بإضمار اذكر. ﴿يُغْشِيْكُم﴾ مدنيّ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ النوم، والفاعل هو الله على القراءتين ﴿يغْشاكم النُّعاسُ﴾ مكيّ، وأبو عمرو ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له. أي: إذ تنعّسون أمنة، بمعنى: أمناً، أي: لأمنكم. أو: مصدر، أي: فأمنتم أمنة. فالنوم يزيحُ الرعب، ويريح النفس ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لها، أي: أمنة حاصلة لكم من الله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّيّ، وبصريّ. وبالتشديد غيرهم ﴿عَلَيْكُم مِّن

ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ
وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ
سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ
كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ بالماء من الحدث، والجنابة. ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش، أو: الجنابة من الاحتلام؛ لأنّه من الشيطان. وقد وسوس إليهم: أن لا نصرةَ مع الجنابة ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ أي: بالماء. إذ الأقدام كانت تسوخُ في الرمل. أو: بالربط؛ لأنّ القلب إذا تمكّن فيه الصبر يثبّت القدم في مواطن القتال.

١٢ ـ ﴿إِذۡ يُوحِي﴾ بدل ثالث من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: منصوب بـ«يثبّت» ﴿رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ بالنصر ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالبشرى. كان المَلَكُ يسيرُ أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإنّ الله ناصركم ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف. و﴿الرعُب﴾ شاميّ، وعليّ ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ أمر للمؤمنين، أو للملائكة. وفيه دليلٌ على أنهم قاتلوا ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: أعالي الأعناق؛ التي هي المذابح تطيراً للرؤوس، أو: أراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، يعني: ضرب الهام ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ هي الأصابع، يريدُ: الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشَّوَى[١]؛ لأنّ الضربَ إمّا أن يقع على مقتل، أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

١٣ و ١٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب، والقتل، والعقاب العاجل. وهو مبتدأ، خبره: ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. أي: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقّتهم، أي: مخالفتهم. وهي مشتقَّة من الشقّ؛ لأنّ كلا المتعاديين في شقّ خلاف شقّ صاحبه. وكذا المعاداة والمخاصمة؛ لأنّ هذا في

(١) «الشوى»: أطراف الجسم.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ

عدْوَة وخُصْم، أي: جانب، وذاك في عدوة وخصم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والكاف في ﴿ذلك﴾ لخطاب الرسول، أو لكلّ أحد. وفي ﴿ذلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات. ومحلّه: الرفع على ﴿ذلكم﴾ العقاب، أو: العقاب. ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ والواو في: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بمعنى مع. أي: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة. فوضع الظاهر موضع الضمير.

١٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ حال من ﴿الذين كفروا﴾. والزحف: الجيش الذي يُرى لكثرته كأنّه يزحف، أي: يدبّ دبيباً، من زحف الصبي: إذا دبّ على استه قليلاً قليلاً. سُمِّي بالمصدر ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين. أي: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير، وأنتم قليل، فلا تفرّوا، فضلاً أن تدانوهم في العدد، أو تساووهم، أو: حال من المؤمنين، أو: من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

١٦ ـ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلاً ﴿لِّقِتَالٍ﴾ هو الكرّ بعد الفرّ، يخيّل عدوّه أنّه منهزم، ثمّ يعطف عليه، وهو من خدع الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضمّاً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وهما حالان من ضمير الفاعل في ﴿يولّهم﴾ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ووزن متحيّز متفيعل لا متفعّل؛ لأنّه من حاز يحوز، فبناء متفعّل منه متحوّز.

١٧ ـ ولمّا كسروا أهل مكّة، وقتلوا، وأسروا، وكان القاتل منهم يقول تفاخراً: قتلت وأسرت، قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكنّ

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾

الله قتلهم﴾. ولمّا قال جبريل للنبيّ ﷺ: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فرمى بها في وجوههم، قال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلّا شغل بعينه، فانهزموا، قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾[1] يا محمّد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعني: أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنّك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنّها كانت رمية الله حيث أثّرت ذلك الأثر العظيم. وفي الآية بيانُ أنَّ فعلَ العبد مضافٌ إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً، لا كما تقول الجبريّة والمعتزلة؛ لأنّه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إذ رميت﴾ ثمّ نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله: ﴿ولكنّ الله رمى﴾، ﴿ولكنِ اللهُ قتلَهم﴾ ﴿ولكنِ اللهُ رَمى﴾ بتخفيف ﴿لكن﴾ شاميّ، وحمزة، وعليّ ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيهم ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ عطاء جميلاً. والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعل إلا لذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

١٨ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن. ومحلّه الرفع، أي: المراد ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ذلكم﴾. أي: المراد إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ﴾ شاميّ، وكوفيّ غير حفص ﴿مُوهِنُ كيدِ﴾ حفص. ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ﴾ غيرهم.

١٩ ـ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم. وهو خطابٌ لأهل مكّة لأنّهم حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللّهم إن كان محمّد على حقّ فانصره، وإن كنّا على الحقّ فانصرنا. وقيل: ﴿إن تستفتحوا﴾ خطاب للمؤمنين، و﴿إن تنتهوا﴾ للكافرين ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

(١) رواه الطبري في تفسيره (٩ / ٢٠٥).

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وأسلم ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جمعكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عدداً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. أي: ولأنّ الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك. وبالكسر غيرهم. ويؤيده قراءة عبد الله «والله مع المؤمنين».

٢٠ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن رسول الله ﷺ؛ لأنّ المعنى: أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ولأنَّ طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. أو: يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولّوا عن هذا الأمر وأمثاله. وأصله: ولا تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعونه. أو ﴿ولا تتولّوا﴾ عن رسول الله ﷺ، ولا تخالفوه ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي: تصدّقون؛ لأنكم مؤمنون، لستم كالصمّ المكذّبين من الكفرة.

٢١ ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أي: ادّعوا السماع، وهم المنافقون، وأهل الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدّقين، فكأنّهم غير سامعين. والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن، والنبوّة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور، من قسمة الغنائم وغيرها، أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال:

٢٢ ـ ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: إنّ شرّ من يدبّ على وجه الأرض البهائم وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحقّ لا يعقلونه. جعلهم من جنس البهائم، ثمّ جعلهم شرّها؛ لأنّهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

٢٣ ـ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصمّ البكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقاً، ورغبة ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتّى يسمعوا سماع المصدّقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟﴾ عنه. أي: ولو أسمعهم، وصدّقوا، لا رتدوا بعد ذلك، ولم يستقيموا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

٢٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحّد الضمير أيضاً، كما وحّده فيما قبله؛ لأنّ استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته. والمراد بالاستجابة: الطاعة، والامتثال، وبالدعوة: البعث، والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة، كما أنّ الجهل موت، قال الشاعر:

لا تُعْجِبَنَّ الجهولَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وثوبُه كَفَنُ

أو لمجاهدة الكفّار؛ لأنّهم لو رفضوها لغلبوهم، وقتلوهم. أو: للشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: يميته، فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي: التمكّن من إخلاص القلب. فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله. أو: بينه وبين ما تمنّاه بقلبه من طول الحياة، فيفسخ عزائمه ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون، فيثيبكم على حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة.

٢٥ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ عذاباً ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ هو جواب للأمر، أي: إنْ أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصّة، ولكنّها تعمّكم. وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؛ لأنّ فيه معنى النهي، كما إذا قلت: انزل عن الدابّة لا تطرحك، وجاز: لا تطرحنّك. ﴿ومن﴾ في ﴿منكم﴾ للتبعيض ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا

٢٦ ـ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ مفعول به لا ظرف، أي: واذكروا وقت كونكم أقلّة أذلّة ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ لأنّ الناس كانوا لهم أعداء مضادّين ﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ بمظاهرة الأنصار، وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم، ولم تحلّ لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

٢٧ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ بأن تعطّلوا فرائضه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بألا تستنّوا به ﴿وَتَخُونُوا﴾ جزم عطف على ﴿لا تخونوا﴾ أي: ولا تخونوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيما بينكم بألا تحفظوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك، ووباله. أو: ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنّكم تخونون. يعني: أنّ الخيانة توجد منكم عن تعمّد، لا عن سهو. أو: وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن، وقبح القبيح. ومعنى الخون: النقص، كما أنّ معنى الوفاء: التمام. ومنه: تخونه: إذا انتقصه. ثمّ استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنّك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

٢٨ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة، وهي: الإثم، والعذاب، أو: محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك، وتزهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الولد.

٢٩ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصراً، لأنّه يفرق بين الحق وبين الكفر، بإذلال حزبه؛ والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم، ويبثّ صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: سطع الفرقان،

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

أي: طلع الفجر، أو مخرجاً من الشبهات، وشرحاً للصدور، أو: تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: الصغائر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، أي: الكبائر ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على عباده.

٣٠ ـ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمّا فتحَ عليه ذكّره مكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم، واستيلائه عليهم. والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك. وذلك: أنّ قريشاً لما أسلمت الأنصار فَرِقوا[1] أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد دخلت مكّة، فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا منّي رأياً ونصحاً. فقال أبو البَخْتَرِيّ: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدّوا وثاقه، وتسدّوا بابه غير كوّة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتتربّصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي! يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلّصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي! يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: أنا أرى أن تأخذوا من كلّ بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم. فإذا طلبوا العقل عقلناه، واسترحنا. فقال اللعين: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً! فتفرّقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ﷺ، وأمره ألا يبيت في مضجعه، وأذن له الله في الهجرة، فأمر عليّاً، فنام في مضجعه، وقال له: «اتّشح ببردتي، فإنّه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وباتوا مترصّدين. فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه،

(١) «الفرق»: الخوف.

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

فأبصروا عليّاً، فبهتوا، وخيّب الله سعيهم، واقتفوا أثره، فأبطل الله مكرهم[١] ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك، ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعدّ لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره، وأبلغ تأثيراً.

٣١ ـ كان ﷺ يقرأ القرآن، ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته، فقال النضر بن الحارث: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم، وأحاديث العجم، فنزل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا صلف منهم، ووقاحة؛ لأنهم دُعُوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، فلم يأتوا به.

٣٢ ـ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ ﴿هذا﴾ اسم كان. و﴿هو﴾ فصل. و﴿الحق﴾ خبر كان. روي: أنّ النضر لمّا قال: (إن هذا إلا أساطير الأوّلين) قال له النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ويلك هذا كلام الله». فرفع النضر رأسه إلى السماء، وقال: ﴿إن كان هذا هو الحقّ من عندك﴾ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إن كان القرآن هو الحقّ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم. فقتل يوم بدر صبراً. وعن معاوية: أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك! حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحقّ: ﴿إن كان هذا هو

(١) قال ابن حجر: القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي. (حاشية الكشاف ٢ / ٢١٥).

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ

الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقّ فاهدنا له!

٣٣ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفي. والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم؛ لأنّك بعثت رحمة للعالمين وسنّته ألا يعذّب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيّهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنّهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو في موضع الحال. ومعناه: نفي الاستغفار عنهم. أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذّبهم. أو: معناه: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم؛ ممّن تخلّف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

٣٤ ـ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم، وهو معذّبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذّبهم الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذّبون وحالهم: أنّهم يصدّون عن المسجد الحرام، كما صدّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية. وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصدّ. وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصدّ من نشاء، وندخل من نشاء. فقيل: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ وما استحقّوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين. وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. كأنّه استثنى من كان يعلم وهو يعاند. أو: أراد بالأكثر الجميع؛ كما يُراد بالقلّة العدم.

٣٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيراً كصوت المُكّاء، وهو طائر مليح الصوت. وهو فعال، من: مكا يمكو: إذا صفَر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقاً، تفعلة من الصدى. وذلك أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾

مشبّكون بين أصابعهم، يصفرون فيها، ويصفّقون. وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم.

٣٦ ـ ونزل في المطعمين يوم بدر. وكانوا اثني عشر رجلاً، وكلّهم من قريش. وكان يطعم كلّ واحد منهم كلّ يوم عشر جزر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتّباع محمّد ﷺ، وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثمّ تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكأنّ ذاتها تصير ندماً، وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر. وهو من دلائل النبوّة؛ لأنه أخبر عنه قبل وقوعه، فكان كما أخبر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأنّ منهم من أسلم، وحسن إسلامه.

٣٧ ـ واللام في: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفّار ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق الطيّب من المؤمنين. متعلّقة بيحشرون، ﴿لِيُمَيِّزَ﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم، وأموالهم.

٣٨ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: أبي سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ عمّا هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله، بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ لقتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى.

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

أو: معناه: أنّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر، وأسلموا، غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي. وبه احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ في أنّ المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

٣٩ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلى ألا يوجد فيهم شرك قطّ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كلّ دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر، وأسلموا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يثيبهم على إسلامهم.

٤٠ ـ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم، ومعينكم، فثقوا بولايته، ونصرته ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولّاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره، والمخصوص بالمدح محذوف.

٤١ ـ ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ «ما» بمعنى الذي. ولا يجوز أن يكتب إلا مفصولاً إذ لو كتب موصولاً، لوجب أن تكون ما كافّة. وغنمتم صلته. والعائد محذوف، والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانه. قيل: حتّى الخيط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والفاء إنّما دخلت لما في «الذي» من معنى المجازاة. وأنّ وما عملت فيه في موضع رفع على أنّه خبر مبتدأ، تقديره: فالحكم: أنّ لله خمسه ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني عبد المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل ـ استحقوه حينئذ بالنصرة لقصّة عثمان وجبير بن مطعم ـ وثلاثة أسهم لليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأمّا بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى. وإنّما يعطون لفقرهم، ولا يعطى أغنياؤهم. فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه كان

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾

على ستّة: لله والرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتّى قبض. فأجرى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخمس على ثلاثة، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء ـ رضي الله عنهم ـ ومعنى لله وللرسول: لرسول الله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فاعملوا به، وارضوا بهذه القسمة. فالإيمان يُوجِب الرضا بالحكم، والعمل بالعلم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بالله﴾ أي: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ وبالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد: ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ. وهو بدل من يوم الفرقان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير. كما فعل بكم يوم بدر.

٤٢ ـ ﴿إِذْ أَنتُم﴾ بدل من يوم الفرقان. أو: التقدير: اذكروا ﴿إذ أنتم﴾ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾ شطّ الوادي. وبالكسر[(١)] فيهما: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ القربى إلى جهة المدينة، تأنيث الأدنى ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البعدى عن المدينة، تأنيث الأقصى. وكلتاهما فعلى من بنات الواو. والقياس قلب الواو ياء، كالعليا تأنيث الأعلى. وأمّا القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي: العير، وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ نصب على الظرف، أي: مكاناً أسفل من مكانكم. يعني: في أسفل الوادي بثلاثة أميال، وهو مرفوع المحلّ لأنّه خبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكّة، وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ لخالف بعضكم بعضاً. فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبّطهم ما في قلوبهم من تهيّب رسول الله ﷺ والمسلمين. فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفّقه

(١) أي: (بالعِدْوَةِ).

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾

الله، وسبّب له ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته. أو: اللام تتعلق بمحذوف، أي: ليقضي الله أمراً كان ينبغي أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: القضاء يحتمل الحكم، أي: ليحكم ما علم أنه يكون كائناً، أو ليتمّ أمراً كان قد أراده ـ وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة ـ وهو عزّ الإسلام وأهله، وذلّ الكفر وحزبه. ويتعلق بـ«يقضي» ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿حَيِيَ﴾ نافع، وأبو عمرو. فالإدغام لالتقاء المثلين، والإظهار؛ لأنّ حركة الثاني غير لازمة؛ لأنّك تقول في المستقبل: يحيا، والإدغام أكثر. استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبهة؛ حتّى لا يبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنّه دين الحقّ؛ الذي يجب الدخول فيه، والتمسّك به. وذلك أنّ وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها، ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين، وأنّ العير كانت أسفل منهم، مع أنّهم قد علموا ذلك كلّه مشاهدة؛ ليعلم الخلق: أنّ النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب، بل بالله تعالى، وذلك: أنّ العدوة القصوى؛ التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار[1] تسوخ فيها الأرجل، ولا يُمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكان العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم وعدّتهم، وقلّة المسلمين، وضعفهم. ثمّ كان ما كان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

٤٣ ـ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ نصب بإضمار اذكر. أو: هو متعلق بقوله:

---

(١) «الخبار»: ما لان من الأرض واسترخى.

﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾

﴿لسميع عليم﴾ أي: يعلم المصالح، إذ يقلّلهم في عينك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾. أي: في رؤياك. وذلك أنّ الله تعالى أراه إيّاهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوّهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم، وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أمر القتال، وتردّدتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم، وأنعم بالسلامة من الفشل، والتنازع، والاختلاف ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة، والجبن، والصبر، والجزع.

٤٤ ـ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان، أي: يبصّركم إيّاهم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو نصب على الحال. وإنّما قلّلهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به، فيزداد يقينهم، ويجدّوا، ويثبتوا. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لقد قلّلوا في أعيننا، حتّى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وكانوا ألفاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتّى قال قائل منهم: إنّما هم أكلة جزور. قيل: قد قلّلهم في أعينهم قبل اللقاء، ثمّ كثّرهم فيما بعده؛ ليجترئوا عليهم قلّة مبالاة بهم، ثمّ تفجأهم الكثرة فيبهتوا، ويهابوا. ويجوز أن يبصروا الكثير قليلاً، بأن يستر الله بعضهم بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّون به الكثير، كما أحدث في أعين الحُول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إنّ الأحول يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد، فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟! ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

٤٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفّار.

فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ

وترك وصفها؛ لأنّ المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفّار. واللقاء: اسم غالب للقتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم، ولا تفرّوا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم! ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم، من النصرة والمثوبة، وفيه إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربّه أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون همّاً؛ وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزّعة عن غيره.

٤٦ ـ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالجهاد، والثبات مع العدوّ، وغيرهما ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فتجبنوا. وهو منصوب بإضمار أن، ويدلّ عليه: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم. يقال: هبّت رياح فلان: إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره. شبّهت في نفوذ أمرها، وتمشيته بالريح وهبوبها. وقيل: لم يكن نصر قطّ إلا بريح يبعثها الله. وفي الحديث: «نُصِرتُ بالصبا، وأُهلكتْ عاد بالدبور»[1] ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: معينهم، وحافظهم.

٤٧ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ هم أهل مكّة حين نفروا لحماية العير، فأتاهم رسولُ أبي سفيان: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتّى نقدم بدراً، ونشرب بها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها العرب! فذلك بطرهم. ورياؤهم الناس: بإطعامهم. فوافوها فَسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين، طربين، مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكآبة، والحزن من خشية الله،

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

مخلصين أعمالهم لله. والبطر: أن تشغله كثرةُ النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم. وهو وعيد.

٤٨ ـ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ واذكر ﴿إذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ، ووسوس إليهم: أنّهم لا يغلبون. و﴿غالب﴾ مبنيّ، نحو: لا رجل. و﴿لكم﴾ في موضع رفع خبر ﴿لا﴾ تقديره: لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: مجير لكم. أوهمهم أنَّ طاعةَ الشيطان ممّا يجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فلمّا تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هارباً ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: رجعت عما ضمنت لكم من الأمان. رُوي: أن إبليس تمثّل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، في جند من الشيطان، معه راية، فلمّا رأى الملائكة تنزل نكص، فقال له الحارث بن هشام: أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكة. وانهزموا. فلمّا بلغوا مكّة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتّى بلغتني هزيمتكم. فلمّا أسلموا علموا أنّه الشيطان ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: عقوبته ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٤٩ ـ اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين، أو: أريد: والذين هم على حرف، ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون: أنّ المسلمين اغترّوا بدينهم، فخرجوا وهم ثلاثمئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يسلّط القليل الضعيف على الكثير القويّ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٥٠ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو عاينت وشاهدت، لأنّ «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلوا ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ظهورهم واستاههم إذا أدبروا. أو: وجوههم عند الإقدام، وأدبارهم عند الانهزام. وقيل: في ﴿يتوفى﴾ ضمير الله تعالى ﴿والملائكة﴾ مرفوعة بالابتداء ﴿ويضربون﴾ خبر. والأول الوجه. لأنَّ الكفّار لا يستحقُّون أن يكون الله متوفّيهم بلا واسطة. دليلهُ قراءة ابن عامر ﴿تتوفّى﴾ بالتاء ﴿وَذُوقُوا۟﴾ يقولون لهم: ﴿ذوقوا﴾ معطوف على ﴿يضربون﴾ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: مقدّمة عذاب النار. أو: ﴿ذوقوا عذاب﴾ الآخرة بشارة لهم به. أو: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لرأيت أمراً فظيعاً.

٥١ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: كسبت، وهو ردّ على الجبريّة. وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة و﴿ذلك﴾ رفع بالابتداء و﴿بما قدّمت﴾ خبره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأنّ الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ لأن تعذيب الكفّار من العدل. وقيل: «ظلّام» للتكثير لأجل العبيد، أو: لنفي أنواع الظلم.

٥٢ ـ الكاف في: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه، أي: داوموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش، أو: من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا۟﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمعنى: جروا على عادتهم في التكذيب، فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ

٥٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب، أو: الانتقام ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بسبب: أنّ الله لم يصحّ في حكمته أن يغيّر نعمته عند قوم حتّى يغيروا ما بهم من الحال. نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكّة حال مرضيّة فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن كما تغيّر الحال المرضيّة إلى المسخوطة، تغيّر الحال المسخوطة إلى أسخط منها. وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه، وسعوا في إراقة دمه، غيّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغيّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذّبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

٥٤ ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد، أو: لأنّ في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بيّن أنّ ذلك هو الإهلاك، والاستئصال ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم، وجحود الحقّ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلّهم من غرقى القبط، وقتلى قريش ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، والمعاصي.

٥٥ ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصرّوا على الكفر فلا يتوقّع منهم الإيمان.

٥٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين كفروا﴾، أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا. وجعلهم شرّ الدوابّ؛ لأنّ شر الناس الكفّار، وشرّ الكفّار المصرّون، وشرّ المصرّين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ في

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم

كلّ معاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار، والنار.

٥٧ ـ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ فإمّا تصادفنّهم، وتظفرنّ بهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ففرّق عن محاربتك، ومناصبتك بقتلهم شرّ قتلة، والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتّى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتباراً بهم، واتّعاظاً بحالهم. وقال الزجّاج: افعل بهم ما تفرّق به جمعهم، وتطرد به من عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلّ المشرّدين من ورائهم يتّعظون.

٥٨ ـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نكثاً بأمارات تلوحُ لك ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد. وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم، أي: حاصلين على استواء في العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الناقضين للعهود.

٥٩ ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين: شاميّ، وحمزة، ويزيد، وحفص. وبالتاء وفتح السين: أبو بكر. وبالتاء وكسر السين: غيرهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فاتوا، وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنّهم لا يفوتون، ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. ﴿أنّهم﴾: شاميّ. أي: لأنّهم. وكلّ واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، غير أنّ المكسورة على طريقة الاستئناف، والمفتوحة تعليل صريح. فمن قرأ بالتاء فـ ﴿الذين كفروا﴾ مفعول أوّل، والثاني ﴿سبقوا﴾. ومن قرأ بالياء فـ﴿الذين كفروا﴾ فاعل و﴿سبقوا﴾ مفعول، تقديره: أن سبقوا، فحذف أن. وأن مخففة من الثقيلة ، أي: أنّهم سبقوا، فسدّ مسدّ المفعولين. أو: يكون الفاعل مضمراً، أي: ولا يحسبن محمّد الكافرين سابقين. ومن ادّعى تفرّد حمزة بالقراءة ففيه نظر، لما بيّناه من عدم تفرّده بها. وعن الزهريّ: أنّها نزلت فيمن أفلت من فلّ المشركين.

٦٠ ـ ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد، أو لجميع الكفار

مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ من كلّ ما يتقوّى به في الحرب من عُدَدِها. وفي الحديث: «ألا إنّ القوة الرمي»[(١)] قالها ثلاثاً على المنبر. وقيل: هي الحصون ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ هو: اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله أو: هو جمع: ربيط، كفصيل وفصال. وخصّ الخيل من بين ما يتقوّى به، كقوله: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أي: أهل مكّة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ غيرهم. وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل فارس، أو كفرة الجنّ. وفي الحديث: «إنّ الشيطانَ لا يقرب صاحب فرس، ولا داراً فيها فرس عتيق»[(٢)]. ورُوي: أنّ صهيل الخيل يرهب الجنّ. ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ يوفّر عليكم جزاؤه. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ في الجزاء، بل تُعطون على التمام.

٦١ ـ ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا. جنح له، وإليه: مال ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ للصلح. وبكسر السين: أبو بكر. وهو مؤنّث تأنيث ضدّها، وهو الحرب ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإنّ الله كافيك، وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

٦٢ ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ يمكروا، ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ﴾ قوّاك ﴿بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جميعاً، أو بالأنصار.

(١) رواه أحمد (٤ / ١٥٦ ـ ١٥٧) ومسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣).
(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٢٣٢).

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن

---

٦٣ ـ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب الأوس والخزرج بعد تعاديهم مئة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال، لم يقدر عليه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضله ورحمته، وجمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ، وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يخدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر من يتبعونك.

٦٤ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو بمعنى مع، وما بعد منصوب. والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً. ويجوز أن يكون في محلّ الرفع، أي: كفاك الله، وكفاك المؤمنون. قيل: أسلم مع النبيّ ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وستّ نسوة، ثمّ أسلم عمر، فنزلت.

٦٥ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: المبالغة في الحثّ على الأمر، من الحرض، وهو: أن ينهكه المرض حتّى يشفى على الموت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه عِدَةٌ من الله وبشارة بأنّ الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار، بعون الله، وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنّ الكفّار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب، وطلب ثواب، كالبهائم، فيقل ثباتهم، ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، بخلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو النصر من الله. قيل: كان عليهم ألا يفروا، ويثبت الواحد للعشرة. ثمّ ثقل عليهم ذلك، فنسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله:

٦٦ ـ ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ضَعفاً حمزة وعاصم ﴿فَإِن

يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا

﴿يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ بالياء فيها، كوفي، وافقه البصري في الأولى، والمراد الضعف في البدن ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرّتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أنّ الحال مع القلّة والكثرة لاتتفاوت؛ إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المئتين والمئة الألف. وكذلك بين مقاومة المئة والمئتين والألف الألفين.

٦٧ ـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صحّ له، ولا استقام ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ ﴿أن تكون﴾ بصريّ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه من: الثخانة، هي: الغلظ والكثافة. يعني: حتّى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزّ الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثمّ الأسر بعد ذلك. رُوي: أنّ رسول الله ﷺ أُتي بسبعين أسيراً، فيهم العبّاس عمّه وعقيل، فاستشار النبيّ ﷺ أبا بكر فيهم، فقال: قومك وأهلك استبقهم لعلّ الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوّي بها أصحابك. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كذّبوك، وأخرجوك، فقدّمهم، واضرب أعناقهم، فإنّ هؤلاء أئمّة الكفر، وإنّ الله أغناك عن الفداء. مكّن علياً من عقيل، وحمزة من العبّاس، ومكنّي من فلان ـ لنسيب له ـ فلنضرب أعناقهم. فقال ﷺ: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]». ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدّتهم». فقالوا: بل نأخذ الفداء. فاستشهدوا بأحد. فلمّا أخذوا الفداء نزلت الآية[1]: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها. يعني: الفداء، سمّاه عرضاً لقلّة بقائه، وسرعة فنائه

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠ / ٤٢).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا﴾

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: ما هو سبب الجنّة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ في عتاب الأولياء.

٦٨ ـ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ ألا يعذّب أحداً على العمل بالاجتهاد. وكان هذا اجتهاداً منهم؛ لأنّهم نظروا في أنّ استبقاءهم ربّما كان سبباً في إسلامهم، وأنّ فداءهم يُتَقَوّى به على الجهاد، وخفي عليهم: أنّ قتلهم أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، أو: ما كتب الله في اللوح ألا يعذب أهل بدر، أو: ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار. وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد، فيكون حجّة على منكري القياس. ﴿كتاب﴾ مبتدأ و﴿من الله﴾ صفته، أي: لولا كتاب ثابت من الله. و﴿سبق﴾ صفة أخرى له. وخبر المبتدأ محذوف، أي: لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود. و﴿سبق﴾ لا يجوز أن يكون خبراً، لأنّ «لولا» لا يظهر خبرها أبداً ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم، وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجدْ بكاءً تباكيت. فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» ـ لشجرة قريبة منه[1] ـ ورُوي: أنّه ﷺ قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» لقوله: كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ[2].

٦٩ ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوي: أنّهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدّوا أيديهم إليها فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنّه من جملة الغنائم. والفاء للتسبيب، والسبب محذوف، ومعناه: قد أحللت لكم الغنائم ﴿فكلوا﴾ ﴿حَلَٰلًا﴾ مطلقاً

(١) رواه أحمد (١/ ٣١) ومسلم (١٧٦٣) (٥٨).
(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٤٤).

طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

عن العتاب والعقاب. من: حلّ العقال. وهو نصب على الحال من المغنوم، أو: صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً ﴿طَيِّبًا﴾ لذيذاً هنيئاً، أو: حلالاً بالشرع، طيّباً بالطبع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تقدموا على الشيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

٧٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ في مَلَكتكم، كأنّ أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿من الأُسارى﴾ أبو عمرو، جمع: أسرى ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان، وصحّة نيّة ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، إمّا أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو: يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ رُوي: أنّه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضّأ لصلاة الظهر، وما صلّى حتّى فرّقه، وأمر العبّاس أن يأخذ منه، فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ منّي، وأرجو المغفرة. وكان له عشرون عبداً، وإنّ أدناهم ليتّجر في عشرين ألفاً، وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقةٍ من الآخر[١].

٧١ ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالرّدة، أو: منع ما ضمَّنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كفرهم به، ونقض ما أخذ على كلّ عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك منهم، أي: أظفرك بهم، كما رأيتم يوم بدر، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمآل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر في الحال.

٧٢ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من مكّة حبّاً لله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/٤٩).

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: آووهم إلى ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. وهم الأنصار ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولّى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة، دون ذوي القرابات، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقيل: أراد به النصرة والمعاونة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ من مكّة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم﴾ من تولّيهم في الميراث ﴿وِلَايَتِهِم﴾: حمزة. وقيل: هما واحد ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممّن آمن وهاجر. ولمّا أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة فريضة، فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة، دلّ على أنّ صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: من أسلم ولم يهاجر ﴿فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: إن وقع بينهم وبين الكفّار قتال، وطلبوا معونة، فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ فإنه لا يجوز لكم نصركم عليهم؛ لأنهم لا يبتدئون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدّي حدّ الشرع.

٧٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم. ومعناه: نهي المسلمين عن موالاة الكفّار، وموارثتهم، وإيجاب مباعدتهم، ومصارمتهم، وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولّي بعضهم بعضاً، حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفّار كلا قرابة، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تحصل فتنة في الأرض،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

ومفسدة عظيمة، لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً.

٧٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنّهم صدقوا إيمانهم، وحقّقوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن، ومفارقة الأهل، والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا؛ لأجل الدين والعقبى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لامنّة فيه، ولا تنغيص. ولا تكرار: لأنّ هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥ ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضيلاً وترغيباً ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وأولو القرابات أولى بالتوارث. وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنّصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وقسمته، أو: في اللوح، أو: في القرآن. وهو آية المواريث. وهو دليلٌ لنا على توريث ذوي الأرحام ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه . قسم الناس أربعة أقسام: قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

* * *

سُورَةُ التَّوبَةِ

ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

. . . .

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدمدمة؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق، أي: تبرىء منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكّلهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال: فعن عليّ وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: أنّ بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان. وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية، قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفّي رسول الله ﷺ، ولم يُبيِّن لنا أين نضعها. وكانت قصّتها تشبه قصّة الأنفال؛ لأنّ فيها ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود؛ فلذلك قرنت بينهما. وكانتا تدعيان: القرينتين. وتعدّان السابعة من الطوال، وهي سبع. وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، نزلت في القتال. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

١ ـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿براءة﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «من» لابتداء الغاية، متعلِّقٌ بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. أي: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم، كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان. أو: مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ كقولك: رجل من بني تميم في الدار. والمعنى: أنّ الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنّه منبوذٌ إليهم.

٢ ـ ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا في الأرض كيف شئتم. والسيح: السير على مهل. رُوي: أنّهم عاهدوا المشركين من أهل مكّة وغيرهم من العرب، فمكثوا إلا ناساً منهم، وهم بنو ضمرة، وبنو كنانة. فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا، لا يتعرّض لهم. وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكّة سنة ثمان. وكان الأميرُ فيها عتّاب بن أَسِيد. وأمّر رسول الله ﷺ أبا بكر على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليّاً راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم. فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدّي عنّي إلا رجل منّي» فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلمّا كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس! إني رسولُ رسولِ الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين، أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنّة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمّ إلى كلّ ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ! أبلغ ابن عمّك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنّه

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ﴾

ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف[1]. والأشهر الأربعة: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، أو عشرون من ذي الحجة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من ربيع الآخر. وكانت حرماً؛ لأنهم أومنوا فيها، وحرم قتلهم وقتالهم، أو: على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها. والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم، وأنّ ذلك قد نسخ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مذلّهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

٣ ـ ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع ﴿براءة﴾ على الوجهين. ثمّ الجملة معطوفة على مثلها. والأذان بمعنى الإيذان، وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والفرق بين الجملة الأولى والثانية: أنّ الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنّما عُلِّقت البراءة بالذين عُوهِدوا من المشركين، وعلّق الأذان بالناس؛ لأنّ البراءة مختصّة بالمعاهدين والناكثين منهم. وأمّا الأذان فعام لجميع الناس؛ من عاهد، ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين، ومن لم ينكث ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة، لأنّ الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج، أو: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحجّ من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحجّ بالأكبر، لأنّ العمرة تُسمَّى: الحجّ الأصغر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بأن الله، حذفت صلة الأذان تخفيفاً ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطف على المنويّ في ﴿بريء﴾، أو: على الابتداء، وحذف الخبر، أي: ورسوله بريء. وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إنّ، والجرّ على الجوار، أو: على القسم، كقولك: لعمرك. وحكي: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء. فلبّبه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابيّ قراءته، فعندها أمر عمر بتعلّم العربية ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوبة

(١) قال ابن حجر: هذا ملفّق من مواضع. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٤٣).

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو: تبتم على التولّي والإعراض عن الإسلام ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ غير سابقين الله، ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم.

٤ ـ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والمعنى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ فقولوا لهم: سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد، أو: وفوا بالعهد ولم ينقضوه. وقرىء ﴿لم ينقضوكم﴾ أي: عهدكم، وهو أليق. لكن المشهورة أبلغ؛ لأنه في مقابلة التمام ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدواً ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأدّوه إليهم تاماً كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدّتهم. والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الموفي كالغادر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أنّ قضيّة التقوى ألا يسوّى بين الفريقين، فاتّقوا الله في ذلك.

٥ ـ ﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ مضى، أو خرج ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم، وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حلّ أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ: الأسر ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ وقيّدوهم. وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كلّ ممرّ ومجتاز ترصدونهم به. وانتصابه على الظرف ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فأطلقوا عنهم بعد الأسر

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ
عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝

والحصر، أو: فكفّوا عنهم، ولا تتعرّضوا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الكفر والغدر بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ برفع القتل قبل الأداء بالالتزام.

٦ ـ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ «أحدٌ» مرتفع بفعل شرط مضمر يفسّره الظاهر، أي: وإن استجارك أحد استجارك. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبّره، ويطّلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثمّ قاتله إن شئت. وفيه دليلٌ على أنّ المستأمنَ لا يُؤذَى، وليس له الإقامة في دارنا، ويُمكَّن من العود ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر بالإجارة في قوله: ﴿فأجره﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام، وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتّى يسمعوا، أو يفهموا الحق.

٧ ـ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ «كيف» استفهام في معنى الاستنكار، أي: مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا في ذلك، ولا تحدّثوا به نفوسكم، ولا تفكّروا في قتلهم. ثمّ استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة، وبني ضمرة، فتربّصوا أمرهم، ولا تقاتلوهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ ولم يظهر منهم نكث، أي: فما أقاموا على وفاء العهد ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ على الوفاء. و«ما» شرطية، أي: فإن ﴿استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أنّ التربّص بهم من أعمال المتّقين.

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

---

٨ ـ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد. وحذف الفعل لكونه معلوماً، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنّهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ أي: يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾ لا يراعوا حلفاً، ولا قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان، والوفاء بالعهد. وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان، والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون العهد، أو متمرّدون في الكفر، لا مروءة تمنعهم عن الكذب، ولا شمائل تردعهم عن النكث، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما.

٩ ـ ﴿اشْتَرَوْا﴾ استبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو: اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه، وصرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس الصنيع صنيعهم.

١٠ ـ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ «ولا» تكرار، لأنّ الأوّل على الخصوص حيث قال: ﴿فيكم﴾، والثاني على العموم، لأنه قال: ﴿في مؤمن﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم، والشرارة.

١١ ـ ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم؛ على حذف المبتدأ ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون فيتفكّرون فيها. وهذا اعتراضٌ، كأنّه قيل: وإنّ من تأمّل تفصيلها، فهو العالم تحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾

١٢ ـ ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ أي: نقضوا العهود المؤكّدة بالأيمان ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ وعابوه ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ فقاتلوهم. فوضع ﴿أئمة الكفر﴾ موضع ضمير «هم» وهم[1] رؤساء الشرك، أو زعماء قريش الذين همّوا بإخراج الرسول. وقالوا: إذا طعن الذمّي في دين الإسلام طعناً ظاهراً جاز قتله، لأن العهد معقود معه على ألا يطعن. فإذا طعن فقد نكث عهده، وخرج من الذمّة. ﴿أئمّة﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ. الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة. أصلها: أأممة، لأنها جمع إمام؛ كعماد وأعمدة، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة، وأدغمت في الميم الأخرى. فمن حقّق الهمزتين أخرجهما على الأصل، ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ وإنّما أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ لأنّه أراد أيمانهم التي أظهروها، ثمّ قال: ﴿لا أيمان لهم﴾ على الحقيقة . وهو دليلٌ لنا على أنّ يمين الكافر لا تكون يميناً. ومعناه عند الشافعي ـ رحمه الله ـ أنهم لا يوفون بها، لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث. ﴿لا إيمان﴾: شاميّ، أي: لا إسلام ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ متعلّق بـ ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ وما بينهما اعتراض، أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عمّا هم عليه بعد ما وجد منهم من العظائم. وهذا من غاية كرمه على المسيء.

١٣ ـ ثمّ حرّض على القتال فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكّة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالقتال، والبادىء أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم؟! ونجّهم بترك مقاتلتهم، وحثهم عليها. ثمّ وصفهم بما يوجب الحث عليها من نكث العهد، وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب

(١) من المطبوع.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ توبيخ على الخشية منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ بأن تخشوه، فقاتلوا أعداءه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاخشوه، أي: إنّ قضيّة الإيمان الكامل ألاّ يخشى المؤمن إلا ربّه، ولا يبالي بمن سواه.

١٤ ـ ولمّا وبّخهم الله على ترك القتال جرّد لهم الأمر به بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾، ووعدهم النصر ليثبّت قلوبهم، ويصحّح نيّاتهم بقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسراً ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يغلّبكم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم. وهم خزاعة عيبة[1] رسول الله ﷺ.

١٥ ـ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه. وقد حصّل الله هذه المواعيد كلّها، فكان دليلاً على صحّة نبوّته ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ابتداء كلام، وإخبار بأنّ بعض أهل مكّة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلم ناس منهم؛ كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو. وهي تردّ على المعتزلة قولهم إنّ الله تعالى شاء أن يتوب على جميع الكفرة، لكنهم لا يتوبون باختيارهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون، كما يعلم ما قد كان ﴿حَكِيمٌ﴾ في قبول التوبة.

١٦ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ ﴿أم﴾. منقطعة، والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان، أي: لا تتركون على ما أنتم عليه حتّى يتبيّن الخلّص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة من الذين يضادّون رسول الله ﷺ والمؤمنين. ولمّا: معناها التوقّع. وقد دلّت على أنّ تبيّن ذلك

---

(١) «عيبة الرجل»: موضع سرّه.

وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

متوقّع كائن، وأنّ الذين لم يخلصوا دينهم لله يميّز بينهم وبين المخلصين. ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على ﴿جاهدوا﴾ داخل في حيّز الصلة. كأنّه قيل: ولمّا يعلم المجاهدين منكم والمخلصين، غير المتّخذين وليجة من دون الله. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كقولك: ما علم الله منّي ما قيل فيّ، تريد: ما وجد ذلك منّي. والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة، ولا براءة من المشركين ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خير أو شرّ، فيجازيكم عليه.

١٧ ـ ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ما صحّ لهم، وما استقام ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: (مَسْجِدَ الله) مكيّ، وبصريّ. يعني: المسجد الحرام. وإنّما جمع في القراءة بالجمع، لأنّه قبلة المساجد، وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأنّ كلّ بقعة منه مسجد. أو: أريد جنس المساجد. وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام، الذي هو صدر الجنس، وهو آكد؛ إذ طريقه طريق الكناية، كما تقول: فلان لا يقرأ كتب الله، فإنّه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام. وهو حال من الواو في ﴿يعمروا﴾. والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادّين عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

١٨ ـ ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عمارتها: رمّ ما استرمّ منها، وقمّها، وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وصيانتها ممّا لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، لأنها بنيت للعبادة والذكر. ومن الذكر: درس العلم ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول، لاقترانهما في الأذان، والإقامة، وكلمة الشهادة، وغيرها. أو: دلّ عليه بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾. وفي

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تنبيه على الإخلاص. والمراد: الخشية في أبواب الدين، بألا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقّع مخوف؛ إذ المؤمن قد يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألا يخشاها. وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم، لأنّ عسى كلمة إطماع. والمعنى: إنّما تستقيم عمارة هؤلاء، وتكون معتدّاً بها عند الله دون سواهم.

١٩ ـ ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ السقاية والعمارة مصدران من: سقى، وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بدّ من مضاف محذوف، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقيل: المصدر بمعنى الفاعل، يصدقه قراءة ابن الزبير: (سُقَاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام). والمعنى: إنكار أن يشبّه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يُسوّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، لأنّهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما. نزلت جواباً لقول العبّاس حين أُسر، فطفق عليّ ـ رضي الله عنه ـ يوبّخه بقتال رسول الله ﷺ، وقطيعة الرحم: تذكر مساوينا وتدع محاسننا؟ فقيل: أولكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد، ونسقي الحاجّ، ونفكّ العاني. وقيل: افتخر العبّاس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعليّ ـ رضي الله عنه ـ بالإسلام والجهاد. فصدّق الله تعالى علياً.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ من أهل السقاية، والعمارة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ لا أنتم المختصون بالفوز دونهم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

٢١ ـ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ ﴿يَبْشُرهم﴾: حمزة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ تنكير المبشّر به لوقوعه وراء صفة الواصف، وتعريف المعرّف ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

٢٢ ـ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا ينقطع.

٢٣ ـ لمّا أمر الله النبيّ ﷺ بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه، ولأخيه، ولقرابته: إنّا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ويعجبه، ومنهم من تتعلّق به زوجته أو ولده، فيقول: تدعنا بلا شيء فنضيع! فيجلس معهم، ويدع الهجرة. فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: آثروه، واختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي: ومن يتولّ الكافرين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

٢٤ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقاربكم. (وعشيراتكم): أبو بكر ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو عذاب عاجل، أو عقاب آجل، أو فتح مكّة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والآية تنعي على الناس مما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحبّ له دينه على الآباء، والأبناء، والأموال، والحظوظ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

٢٥ ـ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوقعة بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكّة. وقيل: إنّ المواطن التي نصر الله فيها النبيّ ﷺ والمؤمنين ثمانون موطناً. ومواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكروا ﴿يوم حنين﴾ ﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف. فلمّا التقوا قال رجلٌ من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلّة! فساءت رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يوم﴾ ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلّهم[1] مكّة، وبقي رسول الله ﷺ وحده، وهو ثابت في مركزه، ليس معه إلا عمّه العبّاس آخذاً بلجام دابّته، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه آخذاً بركابه. فقال للعبّاس: «صح بالناس» ـ وكان صيّتاً ـ فنادى: يا أصحاب الشجرة! فاجتمعوا وهم يقولون: لبّيك لبّيك. ونزلت الملائكة عليهم الثياب البياض على خيول بلق[2]. فأخذ رسول الله ﷺ كفّاً من تراب فرماهم به. ثمّ قال: «انهزموا وربّ الكعبة». فانهزموا[3]. وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان». وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «ما» مصدرية. والباء بمعنى مع، أي: مع رُحْبها. وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بثياب السفر، أي: متلبساً بها. والمعنى: لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم، فكأنّها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ثمّ انهزمتم.

(١) «فلّهم»: الفلّ: الكتيبة المنهزمة.
(٢) «بلق»: البَلَق: سواد وبياض في اللون.
(٣) رواه مسلم (١٧٧٥) (٧٧).

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ رحمته التي سكنوا بها، وأمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، أو خمسة آلاف، أو ستة عشر ألفاً ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل، والأسر، وسبي النساء، والذراري ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ بستر كفر العدوّ بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ بنصر الوليّ بعد الانهزام.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجس. وهو مصدر، يقال: نَجِس نَجَساً، وقَذِر قَذَراً، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنّهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو: جعلوا كأنّهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فلا يحجّوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليّة ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة، حين أُمِّر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على الموسم. [ويكون المراد من نهي القربان: النهي عن الحجّ والعمرة][1]. وهو مذهبنا. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ يمنعون عن المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره. وقيل: نهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين عن الحجّ، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق، والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من الغنائم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حجيج

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

الإسلام ﴿إِن شَآءَ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق آمالكم. أو ﴿عليم﴾ بمصالح العباد، ﴿حكيم﴾ فيما حكم، وأراد.

٢٩ ـ نزل في أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لأنّ اليهود مثنّية والنصارى مثلّثة ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، حيث يزعمون: أن لا أَكْل في الجنّة ولا شُرب ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنهم لا يحرّمون ما حرّم في الكتاب والسنّة، أو: لا يعلمون بما في التوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحقّ. يقال: فلان يدين بكذا: إذا اتّخذه دينه، ومعتقده ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بيان لـ«لذين» قبله. وأمّا المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية. وكذا: الترك، والهنود، وغيرهما، بخلاف مشركي العرب، لما روى الزهريّ: أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام صالَحَ عبدةَ الأوثان على الجزية إلا مَن كان مِن العرب[١]. ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها. وسمّيت جزية لأنها مما يجب على أهلها أن يجزوه، أي: يقضوه، أو: هي جزاء على الكفر على التمهيل في تذليل ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن يد مواتية غير ممتنعة لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد. ولذا قالوا: أعطى بيده: إذا انقاد. وقالوا: نزع يده عن الطاعة. أو: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصَّغار، والذّل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويُسلّمها وهو قائم والمتسلّم جالس، وأن يتلتل[٢] تلتلة، ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية ياذميّ، وإن

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٦٣).
(٢) «يتلتل»: يزعزع ويزلزل.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

كان يؤدِّيها، ويزخ(١) في قفاه. وتسقط بالإسلام.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ كلّهم، أو بعضهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾. وعزير: اسم أعجميّ. ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه. ومن نوّن ـ وهم: عاصم، وعليّ ـ فقد جعله عربيّاً ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: قول لا يعضده برهان، ولا يستند إلى بيان. فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ عن معنى تحته، كالألفاظ المهملة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ لا بدّ فيه من حذف مضاف، تقديره: يضاهي قولهم قولهم. ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، يعني: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنّه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزيز ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم. ﴿يضاهئون﴾ عاصم. وأصل المضاهاة: المشابهة. والأكثر ترك الهمز(٢). واشتقاقه من قولهم: امرأة ضهياء، وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض. كذا قاله الزجّاج ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هم أحقّاء بأن يقال لهم هذا. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحقّ بعد قيام البرهان.

٣١ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي: أهل الكتابين ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ نسّاكهم ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في

---

(١) «يُزَخ»: يُدْفع ويُرمى به.

(٢) أي: «يضاهون» وهي قراءة: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، ونافع، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب.

وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ
أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ
لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ
يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ

تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم، ونواهيهم ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ عطف على ﴿أحبارهم﴾، أي: اتخذوه ربّاً، حيث جعلوه ابن الله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ يجوز الوقف عليه، لأن ما بعده يصلح ابتداء، ويصلح وصفاً لـ: ﴿واحداً﴾ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزيه له عن الإشراك.

٣٢ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مثّل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمّد ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثّ في الآفاق، يريد الله أن يزيده، ويبلّغه الغاية القصوى من الإشراق، ليطفئه بنفخه. أجرى ﴿ويأبى الله﴾ مجرى: لا يريد الله. ولذا وقع في مقابلة ﴿يريدون﴾. وإلا فلا يقال: كرهت، أو أبغضت إلا زيداً.

٣٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الإسلام. ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على أهل الأديان كلّهم. أو: ليظهر دين الحقّ على كلّ دين ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

٣٤ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ استعار الأكل للأخذ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: بالرشا في الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سفلتهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾. يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على

وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم: أخذ الرشا، وكنز الأموال، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد: المسلمون الكانزون غير المنفقين. ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً. وعن النبي ﷺ: «ما أدّي زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكّى فلم يزكّ فهو كنز وإن كان ظاهراً»(١). ولقد كان كثيرٌ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة يقتنون الأموال، ويتصرّفون فيها، وما عابهم أحدٌ ممن أعرض عن القنية، لأن الإعراضَ اختيارٌ للأفضل، والاقتناء مباحٌ لا يذمّ صاحبه ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى المعنى، لأنّ كلَّ واحدٍ منهما دنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]. أو: أريد به الكنوز والأموال. أو: معناه: ولا ينفقونها والذهب. كما أنّ معنى قوله:

... . فإنّي وقيّارٌ بها لغريب(٢)

أي: وقيّار كذلك. وخصّا بالذكر من بين سائر الأموال، لأنهما قانون التموّل، وأثمان الأشياء. وذكر كنزهما دليل على ما سواهما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣٥ ـ ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أنّ النار تحمى عليها، أي: توقد. وإنّما ذكّر الفعل، لأنّه مسند إلى الجارّ والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: ﴿يحمى﴾ لانتقال الإسناد عن النار إلى ﴿عليها﴾ كما تقول: رفعت القصّة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصّة قلت: رفع إلى الأمير ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وخصّت هذه الأعضاء، لأنّهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمّهم وإياه مجلس ازورّوا عنه،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد (٣/ ٦٤).
(٢) عجز بيت لضابىء بن الحارث البرجمي، وصدره: فمن يك أمسى بالمدينة رحله.

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ

وتولّوا بأركانهم، وولّوه ظهورهم. أو: معناه: يكوون على الجهات الأربع: مقاديمهم، ومآخيرهم، وجنوبهم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضرّ به أنفسكم، وهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو: بال كونكم كانزين.

٣٦ ـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة. والمراد: بيان: أنّ أحكام الشرع تُبتنى على الشهور القمريّة المحسوبة بالأهلة دون الشمسيّة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما أثبته، وأوجبه من حكمته، أو: في اللوح. ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة للقعود عن القتال، وذو الحجة للحجّ، والمحرّم لتحريم القتال فيه. وواحد فرد، وهو رجب لترجيب العرب إياه، أي: لتعظيمه ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الدين المستقيم، لا ما يفعله أهل الجاهلية. يعني: أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم، ودين إبراهيم وإسماعيل. وكانت العرب تمسّكت به، فكانوا يعظّمونها، ويحرّمون القتال فيها، حتّي أحدثت النسيء، فغيّروا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ في الحرُم، أو في الاثني عشر ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصي ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ حال من الفاعل، أو المفعول ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصر لهم. حثّهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

٣٧ ـ ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ بالهمزة مصدر نسأه: إذا أخّره، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك: أنّهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون، شقّ عليهم ترك المحاربة، فيحلّونه، ويحرّمون

﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ﴾

مكانه شهراً آخر، حتّى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرّمون من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم ﴿يُضَلُّ﴾ كوفيّ، غير أبي بكر ﴿بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالنسيء. والضمير في: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ للنسيء، أي: إذا أحلّوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرّموه في العام القابل ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها. وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين. واللام تتعلّق بـ﴿يحلّونه﴾ ﴿ويحرّمونه﴾ أو بـ﴿يحرمونه﴾ فحسب، وهو الظاهر ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ﴿فيحلّوا﴾ بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ﴿ما حرّم الله﴾ من القتال، أو: من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ زيّن لهم الشيطان ذلك، فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ حال اختيارهم الثبات على الباطل.

٣٨ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ تثاقلتم، وهو أصله، إلا أنّ التاء أدغمت في التاء فصارت ثاء ساكنة، فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن، أي: تباطأتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ضمّن معنى الميل والإخلاد فعدّي بإلى، أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقّ السفر ومتاعبه. أو: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في غزوة تبوك، استنفروا في وقت عسرة، وقحط، وقيظ مع بعد الشقّة، وكثرة العدوّ، فشقّ عليهم ذلك. وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها، إلا في غزوة تبوك ليستعدّ الناس تمام العدّة ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ

ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ

﴿ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٣٩ ـ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ سخط عظيم على المتثاقلين، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنّه يهلكهم، ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم، وأطوع، وأنّه غنيّ عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً. وقيل: الضمير في: ﴿ولا تضروه﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام، لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس، وأن ينصره. ووعده كائن لا محالة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من التبديل، والتعذيب، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

٤٠ ـ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد. فدلّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أنّه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أسند الإخراج إلى الكفّار، لأنّهم حين همّوا بإخراجه أذن الله له في الخروج، فكأنّهم أخرجوه ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أحد اثنين، كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وهما: رسول الله، وأبو بكر. وانتصابه على الحال ﴿إِذْ هُمَا﴾ بدل من ﴿إذ أخرجه﴾ ﴿فِى ٱلْغَارِ﴾ هو نقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمنى مكّة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصرة، والحفظ. قيل: طلع المشركون فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال: إن تُصَب اليوم ذَهَبَ دينُ الله! فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما»[(١)].

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ =

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ﴾

وقيل: لمّا دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه[1]. وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم أعم أبصارهم!»[2] فجعلوا يتردّدون حول الغار، ولا يفطنون، قد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصّحابة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها، وعلم: أنّهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبيّ ﷺ، أو على أبي بكر، لأنه كان يخاف، وكان عليه الصلاة والسلام ساكن القلب ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، أو: أيّده بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: دعوتهم إلى الكفر ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾ فصل ﴿ٱلۡعُلۡيَا﴾ ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب: يعقوب، بالعطف. والرفع على الاستئناف أوجه، إذ هي كانت، ولم تزل عالية ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعزّ بنصره أهل كلمته ﴿حَكِيمٌ﴾ يذلّ أهل الشرك بحكمته.

٤١ ـ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ في النفور لنشاطكم له ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو: خفافاً لقلّة عيالكم، وثقالاً لكثرتها، أو: خفافاً من السلاح، وثقالاً منه، أو: ركباناً ومشاة، أو: شباباً وشيوخاً، أو: مهازيل وسماناً، أو: صحاحاً ومراضاً ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال، والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ الجهاد ﴿خَيۡرٞ﴾

= قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر! ما ظنّك باثنين الله ثالثهما». (حاشية الكشاف ٢ / ٢٧٢).

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٧٤١) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٥٣).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٧٢).

لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿لَّكُمْ﴾ من تركه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كون ذلك خيراً فبادروا إليه.

٤٢ ـ ونزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ هو ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البرّ والفاجر. أي: لو كان ما دعوا إليه مغنماً ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً. والقاصد والقصد: المعتدل ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ المسافة الشاطّة الشّاقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ من دلائل النبوّة، لأنّه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر. و﴿بالله﴾ متعلّق بـ﴿سيحلفون﴾، أو: هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين، أي: ﴿سيحلفون﴾ يعني: المتخلّفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون: ﴿بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾. أو: ﴿سيحلفون بالله﴾ يقولون: ﴿لو استطعنا﴾. وقوله: ﴿لخرجنا﴾ سدّ مسدّ جوابي القسم، و«لو» جميعاً. ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان، كأنّهم تمارضوا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل من ﴿سيحلفون﴾ أو: حال منه، أي: مهلكين. والمعنى: أنّهم يهلكونها بالحلف الكاذب، أو حال من ﴿لخرجنا﴾ أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقّة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

٤٣ ـ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الزلّة، لأنّ العفو رادف لها. وهو من لطف العتاب، بتصدير العفو في الخطاب. وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام، حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلّوا لك بعللهم، وهلاّ استأنيت بالإذن؟! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يتبيّن لك الصادق في العذر من الكاذب فيه.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

وقيل: شيئان فعلهما رسول الله ﷺ، ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من الأسارى، فعاتبه الله. وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام، لأنّه عليه الصلاة والسلام إنّما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنّما عوتب مع أنّ له ذلك لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

٤٤ ـ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟﴾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ عِدَةٌ لهم بأجزل الثواب.

٤٥ ـ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يعني: المنافقين. وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّوا في دينهم، واضطربوا في عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيّرون، لأنّ التردّد ديدن المتحير، كما أنّ الثبات ديدن المتبصِّر.

٤٦ ـ ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾ أهبة، لأنّهم كانوا مياسير. ولمّا كان ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم للخروج. نهوضهم للخروج، كأنّه قيل: ما خرجوا، ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكسّلهم، وضعّف رغبتهم في الانبعاث. والتثبيط: التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قاله الرسول ﷺ غضباً عليهم. أو: قاله الشيطان بالوسوسة ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ هو ذمّ لهم، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمنى، الذين شأنهم القعود في البيوت.

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ

٤٧ ـ ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فساداً وشرّاً. والاستثناء متّصل؛ لأنّ المعنى ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً. والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور. وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء، فكان استثناء متّصلاً؛ لأن الخبال بعضه ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب، والنمائم، وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعاً: إذا أسرع. وأوضعته أنا. والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم. والمراد: الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من الماشي. وخطّ في المصحف ﴿ولاأوضعوا﴾ بزيادة الألف، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخطّ العربي. والخطّ العربيّ اخترع قريباً من نزول القرآن. وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى. ونحوه: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ حال من الضمير في: ﴿أوضعوا﴾ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نيّاتكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمّامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالمنافقين.

٤٨ ـ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بصدّ الناس، أو: بأن يفتكوا به عليه الصلاة والسلام ليلة العقبة، أو بالرجوع يوم أحد ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبّروا لك الحيل والمكائد، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو تأييدك، ونصرك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وغلب دينه، وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: على رغم منهم.

٤٩ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة ـ وهي الإثم ـ بألا تأذن لي، فإنّي إن تخلفت بغير إذنك أثمت. أو: لا تلقني في

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الهلكة، فإنّي إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجدّ بن قيس المنافق: قد علمت الأنصار أنّي مُستهتر بالنساء، فلا تفتنّي ببنات [بني][1] الأصفر، يعني: نساء الروم، ولكنّي أعينك بمالي، فاتركني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعني: أنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلّف ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن؛ لأنّ أسبابَ الإحاطة معهم. أو: هي تحيط بهم يوم القيامة.

٥٠ ـ ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر، وغنيمة.

﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة، وشدّة في بعضها، نحو ما جرى يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ الذي نحن متّسمون به من الحذر، والتيقظ، والعمل بالحزم ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ عن مقام التحدّث بذلك إلى أهاليهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

٥١ ـ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قضى من خير، أو شرّ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: الذي يتولاّنا، ونتولاّه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين ألاّ يتوكّلوا على غير الله.

٥٢ ـ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما النصرة، والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين، إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد، وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا ما ذكرنا

---

(١) سقطت من الأصل والمطبوع.

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ماهو عاقبتكم.

٥٣ ـ ﴿قُلْ أَنفِقُوا﴾ في وجوه البرّ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعين، أو مكرهين نصب على الحال. ﴿كُرْهاً﴾: حمزة، وعليّ. وهو أمر في معنى الخبر. ومعناه ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وقوله:

أسِيئي بنا أو أَحْسِني لا ملومةً لـدينـا ولا مقليّـة إن تقلّـت[1]

أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أو أحسنت. وقد جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً. ومعنى عدم القبول: أنّه ﷺ يردّها عليهم، ولا يقبلها، أو: لا يثيبها الله. وقوله: ﴿طوعاً﴾ أي: من غير إلزام من الله ورسوله. و﴿كرهاً﴾ أي: ملزمين. وسمي الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعليل لردّ إنفاقهم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ متمرّدين، عاتين.

٥٤ ـ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ «أنهم»: فاعل منع. و﴿هم﴾ و﴿أن تقبل﴾ مفعولاه. أي: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلان ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنّهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى. وصفهم بالطوع في قوله: ﴿طوعاً﴾ وسلبه عنهم هاهنا، لأنّ المراد بطوعهم: أنّهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ، أو من رؤسائهم. وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

٥٥ ـ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الإعجاب بالشيء: أن تسرّ به سرور راضٍ به، متعجّب من حسنه. والمعنى:

(١) البيت لكثيّر عزّة.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ
وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟
مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإنّ الله إنّما أعطاهم ما أعطاهم ليعذّبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له، أو بنهب أموالهم، وسبي أولادهم، أو بجمعها، وحفظها، وحبّها، والبخل بها، والخوف عليها. وكلّ هذا عذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة. ودلّت الآيةُ على بطلان القول بالأصلح، لأنّه أخبر: أنّ إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر، وعلى إرادة الله تعالى المعاصي؛ لأنّ إرادة العذاب بإرادة ما يعذّب عليه وكذا إرادة الإماتة على الكفر.

٥٦ ـ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تَقِيَّة.

٥٧ ـ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصّنين، من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أو غيراناً ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أو نفقاً يندسّون فيه. وهو مفتعل من الدخول ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء. من: الفرس الجموح.

٥٨ ـ ﴿وَمِنْهُم﴾ من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات، ويطعن عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ «إذا»: للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط. وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، وما فيه صلاح أهله، لأنّه عليه الصلاة والسلام استعطف قلوب أهل مكّة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ

٥٩ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: ﴿ولو أنهم رضوا﴾ لكان خيراً لهم. والمعنى: ﴿ولو أنّهم رضوا﴾ ما أصابهم به الرسول من الغنيمة، وطابت به نفوسهم، وإن قلّ نصيبهم ﴿وقالوا﴾ كفانا فضل الله وصنعه، و﴿حسبنا﴾ ما قسم لنا، سيرزقنا غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنّا إلى الله﴾ في أن يغنمنا فضله ﴿لراغبون﴾. ثم بيّن مواضعها التي توضع فيها، فقال:

٦٠ ـ ﴿ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة، أي: هي مختصة بهم، لا تتجاوز إلى غيرهم، كأنّه قيل: إنّما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنّما الخلافة لقريش، تريد: لا تتعدّاهم، ولا تكون لغيرهم. فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلّها، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا. وعن حذيفة و ابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنّهم قالوا: في أيّ صنف منها وضعتها أجزأك. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ لا بدّ من صرفها إلى الأصناف. وهو المرويّ عن عكرمة. ثمّ: الفقير: الذي لا يسأل، لأنّ عنده ما يكفيه للحال. والمسكين: الذي يسأل، لأنّه لا يجد شيئاً، فهو أضعف حالاً منه. وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ على العكس ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم السعاة الذين يقبضونها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ على الإسلام، أشراف من العرب، كان رسول الله ﷺ يتألّفهم على أن يسلموا، وقوم منهم أسلموا، فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ هم المكاتبون يعانون منها ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين ركبتهم الديون ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقراء الغزاة، أو: الحجيج المنقطع بهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. وعدل عن اللام إلى ﴿في﴾ في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ﴾

ممن سبق ذكره، لأنّ في للوعاء، فنبّه على أنهم أحقّاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنّة لها. وتكرير ﴿في﴾ في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، ليدلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصّة دون غيرهم، على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً بأنّهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها، وما سلطهم على التكلّم فيها ولمز قاسمها. وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأنّ الله أعزّ الإسلام، وأغنى عنهم. والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاصّ يرتفع، وينتهي بذهاب ذلك المعنى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في معنى المصدر المؤكد، لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة. ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة.

٦١ ـ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الأذن: الرجل الذي يصدّق كلّ ما يسمع، ويقبل قول كلّ أحد. سُمِّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن. قصدوا به المذمّة، وأنّه من أهل سلامة القلوب والغرّة. ففسَّره الله تعالى بما هو مدح له، وثناء عليه، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ كقولك: رجل صدق، تريد: الجودة والصلاح، كأنّه قيل: نَعَمْ هو أذن، ولكن نِعْمَ الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحقّ، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك. ثمَّ فسّر كونه أذن خير بأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدّق بالله لما قام عنده من الأدلّة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقبل من المؤمنين الخلّص من المهاجرين والأنصار. وعدّى فعل الإيمان بالباء إلى الله، لأنّه قصد به التصديق بالله الذي هو ضدّ الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنّه قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلّم لهم ما يقولونه، ويصدّقه لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] كيف ينبو عن الباء؟! ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالعطف على

لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أذن﴾. ﴿ورحمةٍ﴾: حمزة، عطف على ﴿خير﴾ أي: هو أذن خير، وأذن رحمة لا يسمع غيرهما، ولا يقبله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: ﴿و﴾ هو ﴿رحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي: أظهروا الإيمان أيّها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفعل بكم مايفعل بالمشركين. أو: هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ويشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين.

٦٢ ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلّمون بالمطاعن، أو يتخلّفون عن الجهاد، ثمّ يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكّدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم. فقيل لهم: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحّد الضمير، لأنّه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله، فكانا في حكم شيء واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني. أو: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

٦٣ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ أنّ الأمر والشأن ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يجاوز الحدّ بالخلاف. وهي مفاعلة، من: الحدّ، كالمشاقّة من الشقّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ على حذف الخبر، أي: فحقّ أنّ له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٦٤ ـ ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليحذر المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ «تنزل» بالتخفيف: مكيّ، وبصريّ ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق. والضمائر للمنافقين، لأنّ السورة إذا نزلت في معناهم؛ فهي نازلة عليهم، دليله ﴿قل استهزؤوا﴾. أو: الأوّلان للمؤمنين، والثالث للمنافقين. وصحّ ذلك؛ لأنّ المعنى يقود إليه ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ

ﭐللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم. وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم، وفي استهزائهم بالإسلام وأهله، حتّى قال بعضهم: وددتُ أني قدّمت فجلدت مئة وأنّه لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

٦٥ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله نبيّه على ذلك. فقال: «احبسوا عليّ الركب» فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فقالوا: يانبيّ الله، لا والله ما كنّا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكن كنّا في شيء ممّا يخوض فيه الركب ليقصّر بعضنا على بعض السفر، أي: ﴿ولئن سألتهم﴾ وقلت لهم: لم قلتم ذلك؛ لقالوا: ﴿إنّما كنّا نخوض ونلعب﴾[1] ﴿قُلْ﴾ يامحمّد: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لم يعبأ باعتذارهم، لأنّهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنّهم معترفون باستهزائهم، وبأنّه موجود فيهم، حتّى وبّخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير. وذلك إنّما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء.

٦٦ ـ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنّها لا تنفعكم بعد ظهور سرّكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبتهم، وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مُصرّين على النفاق، غير تائبين منه ﴿إن يُعفَ﴾ ﴿تُعَذَّب طائفةٌ﴾ غير عاصم.

٦٧ ـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلاثمئة، والنساء

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥٥).

بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ

المنافقات مئة وسبعين ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: كأنهم نفس واحدة. وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾. وصفهم بما يدلّ على مضادّة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ بالكفر، والعصيان ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عن الطاعة، والإيمان ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ شحّاً بالمبارّ والصدقات، والإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾ فتركهم من رحمته، وفضله. ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق، الذي هو التمرّد في الكفر، والانسلاخ عن كلّ خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلمّ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش، الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمّهم.

٦٨ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلود فيها ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسۡبُهُمۡ﴾ فيه دلالة على عظم عذابهم، وأنّه بحيث لا يزاد عليه ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب، وجعلهم مذمومين، ملحقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ دائم معهم في العاجل، لا ينفكّون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

٦٩ ـ الكاف في: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ محلّها رفع، أي: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو: نصب على

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

فعلتم، مثل فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم، أي: تلذّذوا بملاذ الدنيا. والخلاق: النصيب، مشتقّ من الخلق، وهو: التقدير، أي: ما خلق للإنسان، بمعنى: قدّر من خير ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ كالفوج الذي خاضوا، أو: كالخوض الذي خاضوه. والخوض: الدخول في الباطل واللهو. وإنما قدّم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾، وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ مغن عنه، ليذمّ الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، ثمّ يشبّه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ ثمّ ذكر نبأ من قبلهم فقال:

٧٠ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو بدل من ﴿الذين﴾ ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم هم قوم شعيب ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ مدائن قوم لوط، وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشرّ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صحّ منه أن يظلمهم بإهلاكهم، لأنّه حكيم، فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، وتكذيب الرسل.

٧١ ـ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر، والتراحم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك، والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿ٱللَّهُۗ﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في: سأنتقم منك يوماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كلّ شيء، قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٞ﴾ واضع كلًّا موضعه.

٧٢ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ يطيب فيها العيش. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ هو عَلَمٌ بدليل قوله ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١]. وقد عرفت أنّ الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمل. وهي مدينة في الجنّة ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وشيء من رضوان الله ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ من ذلك كلّه، لأنّ رضاه سببُ كلّ فوز، وسعادة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ماوعد، أو: إلى الرضوان ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً.

٧٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجّة ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم. وكلّ من وُقِفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجّة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنّم.

٧٤ ـ أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلّفين، فيسمع من معه منهم، منهم: الجلاس بن سويد، فقال: والله! لئن كان ما يقول محمّد حقاً لإخواننا الذين خلّفناهم، وهم سادتنا، فنحن شرّ من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنّ محمّداً صادق، وأنت شرّ من الحمار! وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستحضر، فحلف بالله ماقال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيّك تصديق

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ

الصادق، وتكذيب الكاذب[١]، فنزل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾[٢] يعني: إنّ كان ما يقول محمّد حقاً فنحن شرّ من الحمير، أو: هي استهزاؤهم. فقال الجلاس: يارسول الله! والله لقد قلته، وصدق عامر، فتاب الجلاس، وحسنت توبته ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام. وفيه دلالةٌ على أنّ الإيمان والإسلام واحد، لأنه قال: ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتل محمّد ﷺ، أو: قتل عامر لردّه على الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوّجوا ابن أبيّ وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا، وما عابوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم. وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى[٣] ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عن النفاق ﴿يَكُ﴾ الثواب ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ يصرّوا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل، والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من العذاب.

٧٥ ـ ﴿۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ روي أنّ ثعلبة بن حاطب قال: يارسول الله! ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال عليه الصلاة والسلام: «ياثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه». فراجعه وقال: والذي بعثك بالحقّ! لئن رزقني مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه. فدعا له. فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود، حتّى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجمعة والجماعة. فسأل عنه

---

(١) في الأصل المخطوط: تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وهو خطأ.
(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي. (حاشية الكشاف ٢/ ٢٩١).
(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/ ٢٩٢).

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾

رسول الله ﷺ، فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد. فقال «ياويح ثعلبة!». فبعث رسول الله ﷺ مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة، فقال: ماهذه إلاّ جزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه: «ياويح ثعلبة!» مرّتين. فنزلت. فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل الترابَ على رأسه، فقُبِضَ رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فلم يقبلها. وجاء بها إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان ـ رضي الله عنه [1]ـ ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرجنّ الصدقة. والأصل: لنتصدقنّ. ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بإخراج الصدقة.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أعطاهم الله المال، ونالوا مناهم ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ منعوا حقّ الله، ولم يفوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مصرّون على الإعراض.

٧٧ ـ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخل نفاقاً متمكّناً في قلوبهم، لأنه كان سبباً فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: جزاء فعلهم، وهو يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق، والصلاح، وكونهم كاذبين. ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق.

٧٨ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ يعني: المنافقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسرّوه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٩٠) وفي إسناده ضعفاء لا يُحتج بحديثهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾

من المطاعن في الدين، وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

٧٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلّه النصب، أو الرفع على الذّم، أو الجرّ على البدل من الضمير في ﴿سرّهم ونجواهم﴾ ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعيبون المطّوّعين المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ متعلّق بيلمزون. روي: أنّ رسول الله ﷺ حثّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربّي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي. فقال عليه الصلاة والسلام: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»[١] فبارك الله له حتّى صُولحت تماضر امرأته عن ربع الثّمن على ثمانين ألفاً. وتصدّق عاصم بمئة وسق من تمر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على ﴿المطّوّعين﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم. وعن نافع: ﴿جَهْدهم﴾ وهما واحد. وقيل: الجُهد: الطاقة، والجَهد: المشقة. وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال: بتّ ليلتي أجرّ بالجرير[٢] على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأمّا صاع أبي عقيل، فالله غنيّ عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزؤون ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم. وهو خبر غير دعاء. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٨٠ ـ ولمّا سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه في مرضه، نزل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ . وقد مرَّ أنّ هذا الأمر في معنى الخبر، كأنّه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم

(١) رواه البزار كما في: كشف الأستار (٢٢١٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ٣٢).
(٢) «الجرير»: حبل البعير.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ﴾

للتكثير، وليس على التحديد والغاية. إذ لو استغفر لهم مدّة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنّهم كفّار، والله لا يغفر لمن كفر به. والمعنى: وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم. وقد وردت الأخبار بذكر السبعين، وكلّها تدلّ على الكثرة، لا على التحديد والغاية. ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد: أنّ العدد قليل وكثير؛ فالقليل مادون الثلاث، والكثير الثلاث فما فوقها، وأدنى الكثير الثلاث، وليس لأقصاه غاية. والعدد أيضاً نوعان: شفع ووتر. وأوّل الأشفاع اثنان، وأوّل الأوتار ثلاثة. والواحد ليس بعدد، والسبعة أوّل الجمع الكثير من النوعين، لأنّ فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب، لأنّ ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة، كقولك: اثنا عشر، وثلاثة عشر إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرّتين، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات، وكذلك إلى مئة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه، وكمال الحساب والكثرة منه، فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كلّ وجه، ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليأس من المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا غفران للكافرين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر، والطغيان.

٨١ ـ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسول الله ﷺ، فأذن لهم، وخلّفهم بالمدينة في غزوة تبوك. أو: الذين خلّفهم كسلهم، ونفاقهم، والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مخالفة له. وهو مفعول له، أو حال، أي: قعدوا لمخالفته، أو: مخالفين له ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يفعلوا مافعله المؤمنون من بذل أموالهم، وأرواحهم في سبيل الله. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان، وداعي الإيقان ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قالوا

لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟

إليه بعهده عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٣٥ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذّبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمّا. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضدّ الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجّة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمّم؛ لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلّة فكرهم فيها.

١٣٧ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثّاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنّات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيّدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

وهذا آخر قصّة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من فرعون، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلّيَ رسول الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ ـ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عَبَر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمرّوا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعليّ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافّة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اختلفتم بعد نبيّكم قبل أن يجفّ ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تجفّ أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكده.

١٣٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبرّ الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لإنّ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنّهم هم المعترضون للتبار، وأنّه لا يعدوهم البتّة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحلّ.

١٤٠ ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أغير المستحقّ للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ
مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ ـ ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أنجاكم﴾: شاميّ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من: سام السلعة، إذا طلبها. وهو استئناف لا محلّ له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ﴿يقْتُلون﴾ نافع ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ ـ ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ رُوي أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوّك. فأوحى الله إليه: أما علمت أنّ خلوفَ فم الصائم أطيبُ عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيدَ عليها عشرة أيّام من ذي الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ ما وقّت له من الوقت، وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد. ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة، وفصّلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص، أي: اختصّ مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة، ولا كيفيّة. وروي أنّه كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وذكر الشيخ في «التأويلات»: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾

وكان اختصاصه باعتبار أنّه أسمعه صوتاً تولّىٰ تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلمّا سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّىٰ لي حتى أراك. ﴿أرْني﴾ مكيّ. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليلٌ لأهل السنّة على جواز الرؤية، فإنّ موسى ـ عليه السلام ـ اعتقد أنّ الله تعالى يُرى حتّى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليلٌ لنا أيضاً، لأنّه لم يقل: لن أُرى ليكون نفياً للجواز. ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنّه ليس بمرئيّ، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه علّق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليقُ الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه. والدليلُ على أنّه ممكن قوله: ﴿جعله دكاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجده؛ لأنّه مختار في فعله، ولأنّه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعريّ: إنّه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرئياً.

وبهذه الوجوه يتبيّنُ جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأنّ موسى ـ عليه السلام ـ كان عالماً بأنه لا يُرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا
عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا
يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

كلّ سرّ وعلانية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك.

٩٥ ـ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتتركوهم، ولا توبّخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل لترك معاتبتهم، أي: أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم، ولا تصلحهم، لأنّهم أرجاس، لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم النار، يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلّفوا عتابهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: يجزون جزاء كسبهم.

٩٦ ـ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم؛ لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فإنّ رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وإنّما قيل ذلك لئلا يتوهّم: أنّ رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم.

٩٧ ـ ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر، لجفائهم، وقسوتهم، وبُعْدهم عن العلم والعلماء ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ وأحقّ بألا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني: حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»[1] يعني: الأكرة، لأنّهم يفدّون، أي: يصيحون في حروثهم. والفديد: الصياح. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إمهالهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٠٢) ومسلم (٥١). والفَدَّادُون: الذين تعلو أصواتُهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم فدّاد.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: يتصدّق ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً؛ لأنّه لا ينفق إلا تقيّة من المسلمين ورياء، لا لوجه الله، وابتغاء المثوبة عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: دوائر الزمان، وتبدّل الأحوال بدور الأيّام، لتذهب غلبتكم عليه، فيتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدور المصائب والحروب، التي يتوقعون وقوعها في المسلمين ﴿السُّوء﴾: مكيّ، وأبو عمرو. وهو العذاب. والسَّوء ـ بالفتح ـ ذمّ للدائرة، كقولك: رجل سَوء، في مقابلة قولك: رجل صدقٍ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجّهت عليهم الصدقة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٩٩ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في الجهاد، والصدقات ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أسباباً للقربة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾. وهي مفعول ثان ليتّخذ ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: دعاءه، لأنّه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»[1] ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي: النفقة، أو: صلوات الرسول ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ﴿قُرُبَةٌ﴾: نافع. وهذا شهادة من الله للمتصدّق بصحّة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه، على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه، والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر، وتمكّنه. وكذلك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: جنّته، وما في السين من تحقيق الوعد. وما أدلّ هذا الكلام على رضا الله عن المتصدّقين! وأنّ الصدقة منه بمكان إذا خلصت النيّةُ من صاحبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخلّ. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقلّ.

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٥٣) والبخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨).

﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾

١٠٠ ـ ﴿وَالسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ صفة لهم ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ تبيين لهم. وهم الذين صلّوا إلى القبلتين، أو: الذين شهدوا بدراً، أو بيعة الرضوان ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ عطف على المهاجرين، أي: ومن الأنصار. وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ من المهاجرين والأنصار، فكانوا سائر الصحابة. وقيل: هم الذين اتّبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. والخبر: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية، والدنيويّة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ عطف على ﴿رضي﴾ ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ﴿مِنْ تحتِها﴾: مكيّ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٠١ ـ ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم﴾ يعني: حول بلدتكم، وهي المدينة ﴿مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار. وكانوا نازلين حولها ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ، الذي هو: ﴿ممن حولكم﴾. والمبتدأ ﴿منافقون﴾. ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدّرت: ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: تمهّروا فيه، على أنّ ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف. وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره. ودلّ على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡ﴾، أي: يخفون عليك مع فطنتك، وصدق فراستك لفرط تنوّقهم[1] في تحامي ما يشكّك في أمرهم. ثم قال: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطّلع على سرّهم غيره، لأنّهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾

(١) «تنوقهم»: أي: تأنفهم.

ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ

هما: القتل، وعذاب القبر، أو: الفضيحة، وعذاب القبر، أو: أخذ الصدقات من أموالهم، ونهك أبدانهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب النار.

١٠٢ ـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: قوم آخرون سوى المذكورين ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلّفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنّهم بئس ما فعلوا نادمين. وكانوا عشرة: فسبعة منهم لمّا بلغهم ما نزل في المتخلّفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتين ـ وكانت عادته كلّما قدم من سفر ـ فرآهم موثّقين، فسأل عنهم، فذكروا له: أنّهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتّى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّهم، فقال: «وأنا أقسم ألا أحلّهم حتّى اؤمر فيهم». فنزلت، فأطلقهم، فقالوا: يارسول الله! هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك فتصدّق بها، وطهّرنا. فقال: «ماأُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً». فنزل: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾[1] ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ خروجاً إلى الجهاد ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ تخلفاً عنه. أو: التوبة: والإثم. وهو من قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً، أي: شاة بدرهم. فالواو بمعنى الباء، لأن الواو للجمع، والباء للإلصاق، فيتناسبان. أو: المعنى: خلط كلّ واحد منهما بالآخر، فكلّ واحد منهما مخلوط ومخلوط به، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كلّ واحد منهما بصاحبه، بخلاف قولك: خلطت الماء باللبن، لأنّك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنّك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ولم يذكر توبتهم، لأنّه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليلٌ على التوبة.

١٠٣ ـ ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ كفّارة لذنوبهم. وقيل: هي الزكاة

(١) قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه. (حاشية الكشاف ٢/٣٠٧).

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب، وهو صفة لصدقة. والتاء للخطاب، أو لغيبة المؤنّث. والتاء في: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ للخطاب لا محالة ﴿بِهَا﴾ بالصدقة. والتزكية مبالغة في التطهير، وزيادة فيه، أو: بمعنى الإنماء، والبركة في المال ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم، وترحّم. والسنّة أن يدعو المصدّق[(١)] لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ صَلَواتك كوفيّ غير أبي بكر. قيل: الصلاة أكثر من الصلوات، لأنها للجنس ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يسكنون إليه، وتطمئن قلوبهم بأنّ الله قد تاب عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، أو: سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرط منهم.

١٠٤ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ المراد: المتوب عليهم، أي: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم، وتقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحّت ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقبلها إذا صدرت عن خلوص النية. وهو للتخصيص، أي: أنّ ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنّما الله هو الذي يقبل التوبة، ويردّها، فاقصدوه بها، ووجّهوها إليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير قبول التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة.

١٠٥ ـ ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فإنّ عملكم لا يخفى، خيراً كان أو شراً، على الله وعباده، كما رأيتم، وتبيّن لكم. أو: غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة. فقد رُوي: أنّه لمّا تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذينَ تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلّمون، ولا يجالسون، [فما لهم][(٢)]؟ فنزلت. وقوله تعالى: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار، والذهول عن التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾

(١) «المصدّق»: اسم فاعل، وهو الذي يأخذ الصدقات.
(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا

مايغيب عن الناس ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبئة تذكير، ومجازاة عليه.

١٠٦ ـ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بغير همز: مدنيّ، وكوفيّ غير أبي بكر. ﴿مُرْجَؤون﴾ غيرهم، من أرجيته، وأرجأته: إذا أخّرته. ومنه المرجئة، أي: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصرّوا، ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا. وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. والضابط: مكة. تخلفوا عن غزوة تبوك. وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إرجائهم. و «إمّا» للشكّ. وهو راجعٌ إلى العباد، أي: خافوا عليهم العذاب، وارجوا لهم الرحمة. ورُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه إلا يسلّموا عليهم، ولا يكلّموهم، ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شدّ أنفسهم على السواري، وإظهار الجزع والغمّ، فلمّا علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله، وأخلصوا نيّاتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله[١].

١٠٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ تقديره ﴿و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا﴾ ﴿الـذيـن﴾ بغير واو: مـدنـيّ، وشـامـيّ. وهـو مبتـدأ، خبره محذوف، أي: جازيناهم. روي: أنّ بني عمرو بن عوف لمّا بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلّى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف[٢]، وقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله يصلّي فيه، ويصلّي فيه

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٠٩).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ =

﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾

أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ـ وهو الذي قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ـ فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، ونحن نحبّ أن تصليّ لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلّينا فيه». فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عديّ وغيرهما: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، وأحرقوه» فَفُعِل، وأمر أن يتّخذ مكانه كُناسة تلقى فيها الجيف والقُمامة. ومات أبو عامر بالشام ﴿ضِرَارًا﴾ مفعول له، وكذا ما بعده، أي: مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم كانوا يصلّون مجتمعين في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرّقوا عنه، وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ﴾ إعداداً لأجل من ﴿حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو الراهب، أعدّوه له ليُصلّيَ فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ. وقيل: كلّ مسجد بني مباهاة، أو رياء، أو سمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بـ«حارب»، أي: من قبل بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، وهي الصّلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلّين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

١٠٨ ـ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ اللام للابتداء، و﴿أُسِّسَ﴾ نعت له. وهو مسجد قباء، أسّسه رسول الله ﷺ، وصلى

= فإن مسجد قباء كان قد أُسِّس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبُني مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٠٩).

﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾

فيه أيام مقامه بقباء[(١)]، أو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده. قيل: القياس فيه «مذ» لأنّه لابتداء الغاية في الزمان، و«من» لابتداء الغاية في المكان. والجواب: أن «من» عامّ في الزمان والمكان ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصلياً ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قيل: لمّا نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتّى وقفوا على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكت القوم. ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله! إنهم لمؤمنون، وأنا معهم. فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء».؟ قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم. قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون أنتم وربّ الكعبة». فجلس، ثم قال: «يا معشر الأنصار! إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» قالوا: يا رسول الله! نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبيُّ ﷺ: ﴿رجال يحبّون أن يتطهروا﴾[(٢)]. قيل: هو عامّ في التطهّر عن النجاسات كلّها. وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه حرص المحبّ للشيء. ومعنى محبّة الله إيّاهم: أنّه يرضى عنهم، ويحسن إليهم كما يفعل المحبّ بمحبوبه.

١٠٩ ـ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وضع أساس ما يبنيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا سؤال تقرير، وجوابه مسكوت عنه لوضوحه. والمعنى: ﴿أفمن أسّس﴾ بنيان دينه على قاعدة محكمة، وهي: تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم مَن﴾ أسّسه على قاعدة هي أضعف

(١) في المطبوع: وهي يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس. وخرج يوم الجمعة.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، وكأنه ملفّق من حديثين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١١).

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

القواعد، وهو الباطل والنفاق؛ الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثبات، والاستمساك. وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنّه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. والشفا: الحرف، والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفّر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر، وهو المتصدّع؛ الذي أشفى على التهدّم، والسقوط، ووزنه فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف. وألفه ليس بألف فاعل. وإنّما هي عينه. وأصله: هور، فقلبت ألفاً لتحرّكها، وانفتاح ما قبلها. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل، وكنه أمره. ﴿أفمن أُسّس بُنيانُه﴾ ﴿أمَّن أُسِّس بُنيانُه﴾: شاميّ، ونافع. ﴿جُرْفٍ﴾: شاميّ، وحمزة، ويحيى. ﴿هارٍ﴾ بالإمالة: أبو عمرو، وحمزة في رواية، ويحيى ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاح به الباطل في نار جهنم. ولما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، رشّح المجاز، فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليتصوّر أن المبطل كأنّه أسّس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنّم، فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها، قال جابر: رأيت الدخان يخرجُ من مسجد الضرار حين انهار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يوفّقهم للخير، عقوبةً لهم على نفاقهم.

١١٠ ـ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شكّ ونفاق زائد على شكّهم ونفاقهم، لما غاظهم من ذلك، وعظم عليهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: شاميّ، وحمزة، وحفص، أي: تتقطع. غيرهم ﴿تُقطَّع﴾ أي: إلا أن تُقَطَّع قلوبهم قِطَعاً، وتفرّق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه. وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها، متمكّنة. ثمّ يجوز أن يكون ذكر التقطّع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها، وما هو كائن منه بقتلهم، أو: في القبور، أو: في النار. أو: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطّع بها قلوبهم ندماً، وأسفاً على تفريطهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

١١١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مثّل الله إثابتهم بالجنّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله، بالشراء. ورُوي: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها. ومرّ برسول الله ﷺ أعرابيٌّ وهو يقرؤها، فقال: بيع والله مربح، لا نقيله، ولا نستقيله. فخرج إلى الغزو، واستشهد[1] ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان محلّ التسليم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: تارة يقتلون العدو، وطوراً يقتلهم العدوّ ﴿فيُقتَلون ويَقْتُلون﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر، أي: وعدهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صفته، أخبر بأنّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، قد أثبته ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾. وهو دليلٌ على أنّ أهل كلّ ملّة أمروا بالقتال، ووعدوا عليه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ إخلافَ الميعاد قبيح، لا يقدم عليه الكريم منّا، فكيف بأكرم الأكرمين؟! ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه، وأبلغ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فافرحوا غاية الفرح، فإنّكم تبيعون فانياً بباق ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنّة، فلا تبيعوها إلا بها.

١١٢ ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين. أو: هو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾، أي: الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي هكذا بلا سند، عن البصري مرسلاً، لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١٣).

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾

الشرك، وتبرّؤوا من النفاق ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ على نعمة الإسلام ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ: «سياحةُ أمّتي الصيام»[1]، أو: طلبة العلم لأنّهم يسيحون في الأرض، يطلبونه في مظانّه، أو: السائرون في الأرض للاعتبار ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، والمعرفة، والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك، والمعاصي. ودخلت الواو للإشعار بأنّ السبعة عقد تامّ، أو: للتضادّ بين الأمر، والنهي، كما في قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، أو: معالم الشرع ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتّصفين بهذه الصفات.

١١٣ ـ همّ عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لأبي طالب، فنزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ أي: ما صحّ له الاستغفار في حكم الله، وحكمته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنّهم ماتوا على الشرك. ثمّ ذكر عذر إبراهيم، فقال:

١١٤ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: وعد أبوه إيّاه أن يسلم، أو: هو وعد أباه أن يستغفر، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] دليله قراءة الحسن ﴿وعدها أباه﴾. ومعنى استغفاره: سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو: سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهة الوحي ﴿لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ﴾ أنّ أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) رواه ابن جرير موقوفاً عن عائشة. (الدر المنثور ٤/ ٢٩٧). ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «السائحون هم الصائمون». المصدر السابق.

﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا
يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ هو المتأوّه شفقاً وفرقاً. ومعناه: أنّه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطّف على أبيه الكافر ﴿حَلِيمٌ﴾ هو الصبور على البلاء، الصفوح عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه، وهو يقول: لأرجمنّك.

١١٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما أمر الله باتقّائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين، وغيره مما نهى عنه، وبيّن أنه محظور، لا يؤاخذ به عباده؛ الذين هداهم للإسلام، ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره، وعلمهم بأنّه واجب الامتثال. وأما قبل العلم والبيان فلا. وهذا بيانٌ لعذر مَن خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين. والمراد بما يتقون ما يجب اتّقاؤه للنهي، فأمّا ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١٧ ـ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلّف عنه، كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فيه بعث للمؤمنين على التوبة، وأنّه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتّى النبيّ ﷺ والمهاجرين والأنصار ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في غزوة تبوك. ومعناه: في وقتها. والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق. وكانوا في عسرة من الظَّهْرِ يعتقب العشرة على بعيرٍ واحد، ومن الزاد تزوّدوا التمر المدوّد، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة[١]، وبلغت بهم الشدّة

---

(١) «الإهالة الزنخة»: الدهن المتنن.

مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ
وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ
لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

حتى اقتسم التمرة اثنان، وربمّا مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء، ومن الماء حتى نحروا الإبل، وعصروا كرشها وشربوه، وفي شدّة زمان من حمارّة القيظ[1]، ومن الجدب والقحط ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾[2] عن الثبات على الإيمان، أو: عن اتّباع الرسول في تلك الغزوة، والخروج معه. وفي ﴿كاد﴾ ضمير الشأن، والجملة بعده في موضع النصب، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثله أي: ليس الشأن خلق الله مثله. ﴿يزيغ﴾ حمزة، وحفص ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

١١٨ ـ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي: ﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة﴾[3] وهو عطف على النبيّ ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الغزو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ برُحْبها، أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنّهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً، وجزعاً ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنّها خرجت من فرط الوحشة والغمّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن أبي بكر الورّاق أنّه قال: التوبة النصوح: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

١١٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم دون

(١) «حمارة القيظ»: شدّة حرّه.
(٢) أثبت المصنف في الأصل ﴿تزيغ﴾ وهي قراءة: الكسائي، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٤٩).
(٣) وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ﴾

المنافقين، أو: مع الذين لم يتخلّفوا، أو: مع الذين صدقوا في دين الله نيّة، وقولاً، وعملاً. والآية تدل على أنّ الإجماع حجّة؛ لأنّه أمر بالكون مع الصادقين، فلزم قبول قولهم.

١٢٠ ـ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ المراد بهذا النفي: النهي. وخصّ هؤلاء بالذكر ـ وإن استوى كلّ الناس في ذلك ـ لقربهم منه، ولا يخفى عليهم خروجه ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟﴾ ولا أن يضنّوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ عما يصيب نفسه، أي: لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضرّاء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كلّ شديدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهي عن التخلّف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهاد ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ ولايدوسون مكاناً من أمكنة الكفّار بجوافر خيولهم، وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم، ويضيّق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ولا يصيبون منهم إصابة بقتل، أو أسر، أو جرح، أو كسر، أو هزيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: لكلّ روعة سبعون ألف حسنة. يقال: نال منه: إذا رزأه، ونقصه. وهو عامّ في كل ما يسؤوهم. وفيه دليلٌ على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، وقعود، ومشي، وكلام، وغير ذلك، وعلى أنّ المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأنّ وط ديارهم مما يغيظهم. وقد أسهم النبيّ ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد تقضّي الحرب[1]. والموطىء: إما مصدر كالمورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا. (حاشية الكشاف ٢/ ٣٢٢).

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

فمعنى ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: يغيظهم وطؤه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أنهم محسنون، والله لا يبطل ثوابهم.

١٢١ ـ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم. وهو: كلّ منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل وهو في الأصل فاعل، من: ودى: إذا سال. ومنه: الودي. وقد شاع الاستعمال بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ذلك من الإنفاق، وقطع الوادي ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بكتب، أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كلّ واحد جزاء أحسن عمل كان لهم، فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم.

١٢٢ ـ ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: أن نفير الكافّة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فحين لم يكن نفير الكافّة فهلاّ نفر ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: من كلّ جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم، يكفونهم النّفير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلّفوا الفقاهة فيه، ويتجشّموا المشاقّ في تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مرمى همّتهم في التفقّه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراض الخسيسة من: التصدّر، والترؤّس، والتشبّه بالظلمة في المراكب والملابس ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه. وقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك، بعد ما أنزل في المتخلّفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن التفقه في الدين. فأمروا أن ينفر من كلّ فرقة منهم طائفة إلى الجهاد، ويبقى سائرهم يتفقّهون، حتّى لا ينقطعوا عن التفقّه الذي هو الجهاد الأكبر؛ إذ الجهاد بالحِجاج أعظم أثراً من الجهاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

بالنّضال. والضمير في ﴿ليتفقهوا﴾ للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم. ﴿ولينذروا قومهم﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، بما حصّلوا في أيّام غيبتهم من العلوم. وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقّه.

١٢٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يقربون منكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾. القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. وقد حارب النبيّ ﷺ قومه، ثمّ غيرهم من عرب الحجاز، ثمّ الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره. وهكذا المفروض على أهل كلّ ناحية أن يقاتلوا من وليهم ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدّة وعنفاً في المقال، قبل القتال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة، والغلبة.

١٢٤ ـ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ﴿ما﴾ صلة مؤكّدة ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ إنكاراً، واستهزاء بالمؤمنين. وأيّكم: مرفوع بالابتداء. وقيل:

١٢٥ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، ونفاق. فهو فساد يحتاجُ إلى علاج، كالفساد في البدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً مضموماً إلى كفرهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت.

١٢٦ ـ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين. وبالتاء: حمزة، خطاب للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالقحط، والمرض، وغيرهما ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لايعتبرون. أو:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

بالجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿لايتوبون﴾ بما يرون من دولة الإسلام، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ بما يقع بهم من الاصطدام(١).

١٢٧ ـ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي، وسخرية به، قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرف، فإنا لانصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض: ﴿هل يراكم من أحد﴾ إن قمتم من حضرته ﷺ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرة النبيّ ﷺ مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن فهم القرآن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبّرون حتى يفقهوا.

١٢٨ ـ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ محمدﷺ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، ومن نسبكم، عربيّ، قرشيّ مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه شاقّ ـ لكونه بعضاً منكم ـ عنتكم، ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللهﷺ.

١٢٩ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وناصبوك ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فاستعن بالله، وفوّض إليه أمورك، فهو كافيك معرّتهم، وناصرك عليهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوّضت أمري إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ هو أعظم خلق الله، خلق مطافاً لأهل السماء، وقبلة للدعاء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالجر. وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعزّ. عن أبيّ: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾... الآية.

---

(١) في الأصل المخطوط: الاستلام، والمثبت من المطبوع.

فهرس الآيات

(٤) سورة النساء

(٧) سورة الأعراف

(٩) سورة التوبة

* * *

تفسير النسفي

مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

« ت ٧١٠ هـ »

حَقَّقَه وَخَرَّجَ أحادِيثه
يوسف علي بديوي

رَاجعَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
محيي الدين ديب مستو

الجزء الثاني

دار الكلم الطيب
بيروت

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تفسیر النسفی

(مدارک التنزیل وحقائق التاویل)

الطَّبعَة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلم الطيب
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢
بيروت . ص.ب : ١١٣/٦٣١٨

سورة يونس

آياتها ١٠٩ — ترتيبها ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ﴾

١ ـ ﴿الٓر﴾ ونحوه ممال: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو. وهو تعديد للحروف على طريق التحدّي ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات. و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ السورة ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو: المحكم عن الكذب، والاقتراف.

٢ ـ والهمزة في: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار التعجّب، والتعجيب منه ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ اسم كان، و﴿عجباً﴾ خبره. واللام في ﴿للناس﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿عجباً﴾ فلمّا تقدّم صار حالاً ﴿إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ بأن أنذر. أو: هي مفسّرة، إذ الإيحاء فيه معنى القول ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ﴾ بأنّ لهم. ومعنى اللام في ﴿للناس﴾ أنّهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجّبون منه. والذي تعجّبوا منه أن يُوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم ـ فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ـ وأن يذكر لهم البعث، وينذر بالنيران، ويبشر بالجنان! وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلاّ بشراً مثلهم. وإرسال اليتيم أو الفقير ليس

قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعجب أيضاً؛ لأنّ الله تعالى إنّما يختار للنبوّة من جمع أسبابها. والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من أسبابها، والبعث للجزاء على الخير والشرّ هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنّما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سابقة، وفضلاً، ومنزلة رفيعة. ولمّا كان السعي والسبق بالقدم سمّيت المسعاة الجميلة، والسابقة: قدماً، كما سمّيت النعمة: يداً، لأنها تُعطى باليد، وباعاً؛ لأنّ صاحبها يبوع بها. فقيل: لفلان قدم في الخير. وإضافتها إلى ﴿صدق﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنّه من السوابق العظيمة، أو مقام صدق، أو سبق السعادة ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ الكتاب ﴿لَسِحْرٌ﴾ مدنيّ، وبصريّ، وشاميّ. ومن قرأ ﴿لساحر﴾ فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليل عجزهم، واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

٣ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استولى. فقد يقدّس الديّان عن المكان، والمعبود عن الحدود ﴿يُدَبِّرُ﴾ يقضي، ويقدّر على مقتضى الحكمة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. ولمّا ذكر ما يدلّ على عظمته، وملكه من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة، وأنّه لايخرج أمر من الأمور عن قضائه، وتقديره. وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ دليل على عزّته وكبريائه ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيم الموصوف بما وصف به ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذي يستحقّ العبادة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحّدوه، ولاتشركوا به بعض خلقه من إنسان، أو ملك، فضلاً عن جماد لا يضر، ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتدبّرون، فتستدلّون بوجود المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

٤ ـ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حال، أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه، فاستعدّوا للقائه. والمرجع: الرجوع، أو مكان الرجوع ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿وعد الله﴾. ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استئناف، معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلّفين على أعمالهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. وهو متعلّق بيجزي، أي: ليجزيهم بقسطه، ويوفّيهم أجورهم. أو: بقسطهم، أي: بما أقسطوا، وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا، إذ الشرك ظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾، ولوجهٍ كلاميّ.

٥ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها. وقلبها قنبل همزة؛ لأنها للحركة أجمل ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أقوى من النور؛ فلذا جعله للشمس ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ وقدّر القمر، أي: وقدّر مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾. أو: ﴿وقدّره﴾ ذا ﴿منازل﴾، كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: ﴿عدد السنين﴾ والشهور، فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ وحساب الآجال والمواقيت المقدّرة بالسنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ مكّي، وبصريّ، وحفص. وبالنون غيرهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينتفعون بالتأمّل فيها.

٦ ـ ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في مجيء كلّ واحد منها خلف الآخر، أو:

وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

في اختلاف لونيهما ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بالذكر؛ لأنّهم يحذرون الآخرة، فيدعوهم الحذر إلى النظر.

٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقّعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم؛ لغفلتهم عن التفطّن للحقائق. أو: لا يؤمّلون حسن لقائنا كما يؤمّله السعداء، أو: لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً، وأمّلوا بعيداً ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها. لا وقف عليه؛ لأنّ خبر إنّ:

٨ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فـ﴿أولئك﴾: مبتدأ و﴿مأواهم﴾: مبتدأ ثان، و﴿النار﴾: خبره، والجملة: خبر ﴿أولئك﴾ والباء في: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يتعلق بمحذوف دلّ عليه الكلام، وهو: جوزوا.

٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد، المؤدي إلى الثواب؛ ولذا جعل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بياناً له وتفسيراً، إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها. أو: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنّة. ومنه الحديث: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حَسَنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة. والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيّئة، فيقول له: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار»[١]. وهذا دليلٌ على أنّ الإيمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم، ولم يضمّ إليه العمل الصالح ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلّق بتجري، أو: حال من ﴿الأنهار﴾.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/٨٨).

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا

١٠ ـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤهم؛ لأنّ ﴿اللّهم﴾ نداء لله. ومعناه: ﴿اللهم﴾ إنّا نسبّحك، أي: يدعون الله بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، تلذّذاً بذكره لا عبادة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام، أو: هي تحيّة الملائكة إيّاهم، وأضيف المصدر إلى المفعول أو: تحيّة الله لهم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة، وأصله: أنه ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾. والضمير للشأن. قيل: أوّل كلامهم التسبيح، وآخره التحميد. فيبتدئون بتعظيم الله، وتنزيهه، ويختمون بالشكر، والثناء عليه، ويتكلّمون بينهما بما أرادوا.

١١ ـ ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أصله: ولو يعجّل الله للناس الشّر تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم. والمراد: أهل مكّة، وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. أي: ولو عجلنا لهم الشّر الذي دعوا به كما نعجّل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا، وأهلكوا. ﴿لَقَضى إليهم أجلَهم﴾: شاميّ، على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجل ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ شركهم، وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون. ووجه اتّصاله بما قبله: أنّ قوله: ﴿ولو يعجّل الله﴾ متضمّن معنىٰ نفي التعجيل، كأنّه قيل: ولا نعجّل لهم الشّر، ولا نقضي إليهم أجلهم، فنذرهم في طغيانهم، أي: فنمهلهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجّة عليهم.

١٢ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصابه. والمراد: به الكافر ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي: دعا الله لإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، بدليل عطف الحالين، أي: ﴿أَوْ قَاعِدًا

﴿أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿أَوْ قَآئِمًا﴾. عليه، أي: دعانا مضطجعاً. وفائدة ذكر هذه الأحوال أنّ معناه: أنّ المضرور لا يزال داعياً، لا يفتر عن الدعاء حتّى يزول عنه الضرّ، فهو يدعونا في حالاته كلها، سواء كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض، أو قاعداً لا يقدر على القيام، أو قائماً لا يطيق المشي ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أزلنا ما به. ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضرّ، ونسي حال الجهد. أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرّع، لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به. والأصل: (كأنّه لم يدعنا) فخفّف، وحذف ضمير الشأن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ للمجاوزين الحدّ في الكفر. زيّن الشيطان بوسوسته ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر، واتّباع الكفر.

١٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا. وهو ظرف لـ﴿أهلكنا﴾ والواو في: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للحال، أي: ظلموا بالتكذيب، وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إن بقوا ولم يهلكوا؛ لأنّ الله علم منهم أنّهم يصرّون على كفرهم. وهو عطف على ﴿ظلموا﴾. أو: اعتراض. واللام لتأكيد النفي، يعني: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله: أنّه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وهو وعيدٌ لأهل مكّة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ.

١٤ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ، أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لننظر أتعملون خيراً أو شرّاً، فنعاملكم على حسب عملكم. ﴿وكيف﴾ في محلّ النصب بتعملون لا بننظر؛ لأنّ معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله. والمعنى: أنتم بمنظر منّا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ

بماضيكم، أم الاغترار بما فيكم؟ قال ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[١].

١٥ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ حال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لمّا غاظهم ما في القرآن من ذمّ عبادة الأوثان، والوعيد لأهل الطغيان: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ما يغيظنا من ذلك، نتبّعك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة، وذمّ عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنّه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضعَ مكان آية عذاب آية رحمة، وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما يحلّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تبديل؛ لأنّ الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدّله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. وأمّا الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه. إلا أنّهم كانوا لا يعترفون بالعجز، ويقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] ولا يحتمل أن يريدوا بقوله: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾ من جهة الوحي؛ لقوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾. وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد. أمّا اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنّه من عندك، وأنّك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر. وأمّا اقتراح التبديل فلاختبار الحال، وأنّه وجد منه تبديل، فإمّا أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، فيجعلوا التبديل حجّة عليه، وتصحيحاً لافترائه على الله.

١٦ ـ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أنّ تلاوته ليست إلا بمشيئة

(١) رواه أحمد (٣ / ١٩) ومسلم (٢٧٤٢) والترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠).

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

الله، وإظهاره أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلّم، ولم يشاهد العلماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً، يغلب كلّ كلام فصيح، ويعلو على كلّ منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم الأصول، والفروع، والإخبار عن الغيوب؛ التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل نزول القرآن، أي: فقد أقمت بينكم أربعين سنة، ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه، ولا قدرت عليه، ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان، فتتّهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا: أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلي. وهذا جواب عمّا دسّوه تحت قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] من إضافة الافتراء إليه.

١٧ ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أن يريدَ افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك، وذو ولد، وأن يكون تفادياً ممّا أضافوه إليه من الافتراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن. فيه بيان أنّ الكاذب على الله والمكذّب بآياته في الكفر سواء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها. ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الأصنام ﴿شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدنيا ومعيشتها؛ لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أو: يوم القيامة إن يكن بعث ونشور ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله. وإذا لم يكن معلوماً له، وهو العالم بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً. وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه؛ لأنّ مالم يوجد فيهما فهو معدوم ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزّه ذاته عن أن يكون له

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾

شريك، وبالتاء حمزة وعليّ، و﴿ما﴾ موصولة، أو مصدريّة، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

١٩ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حنفاء متّفقين على ملّة واحدة، من غير أن يختلفوا بينهم. وذلك في عهد آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن قتل قابيل هابيل. أو: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديّاراً ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾ فصاروا مللاً ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما اختلفوا فيه، ولميّز المحقّ من المبطل. وسبق كلمته لحكمة، وهي: أنّ هذه الدار دار تكليف، وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

٢٠ ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: آية من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب، فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

٢١ ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ أهل مكّة ﴿رَحْمَةً﴾ خصباً، وسعة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ يعني: القحط، والجوع ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: مكروا بآياتنا بدفعها، وإنكارها. رُوي أنّه تعالى سلّط القحط سبع سنين على أهل مكّة حتّى كادوا يهلكون، ثمّ رحمهم بالحيا[١]، فلمّا رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله، ويعادون رسول الله ﷺ، ويكيدونه. فـ﴿إذا﴾ الأولى للشرط، والثانية جوابها، وهي للمفاجأة. وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] أي: وإن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا.

(١) «الحيا»: المطر.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾

والمكر: إخفاء الكيد، وطيّه، من: الجارية المكورة المطويّة الخلق. ومعنى ﴿مسّتهم﴾ خالطتهم حتّى أحسّوا بسوء أثرها فيهم. وإنما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ ولم يصفهم بسرعة المكر؛ لأنّ كلمة المفاجأة دلّت على ذلك، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضرّاء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضرّاء ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني: الحفظة ﴿يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ إعلام بأنّ ما تظنّونه خافياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وبالياء: سهل.

٢٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل، والدوابّ، والفلك الجارية في البحار، أو يخلق فيكم السير. (يَنشُرُكم): شاميّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ أي: السفن ﴿بِهِم﴾ بمن فيها. رجوع من الخطاب إلى الغيبة، للمبالغة ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ ليّنة الهبوب، لا عاصفة، ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريح لِلينها، واستقامتها ﴿جَآءَتۡهَا﴾ أي: الفلك، أو الريح الطّيبة، أي: تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ ذات عصف، أي: شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ هو ما علا على الماء ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من البحر، أو: من جميع أمكنة الموج ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أهلكوا. جعل إحاطة العدوّ مثلاً في الإهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيره. يقولون: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال، أو: من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمتك، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك. ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حَيِّزها. كأنه قيل: يسيّركم حتّى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج والظنّ بالهلاك، والدعاء بالإنجاء. وجواب إذا ﴿جاءتها﴾ و﴿دعوا﴾ بدل من

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ﴾

﴿ظنوا﴾ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنّهم للهلاك، فهو ملتبس به.

٢٣ ـ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ باطلاً، أي: مبطلين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: ظلمكم يرجع إليكم، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: حفص. أي: يتمتعون ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. و﴿على أنفسكم﴾ خبر لـ﴿بغيكم﴾. غيره بالرفع على أنّه خبر ﴿بغيكم﴾ و﴿على أنفسكم﴾ صلته، كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]. ومعناه: إنّما بغيكم على أمثالكم. أو: هو خبر، و﴿متاع﴾ خبر بعد خبر. أو ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ مضمر، أي: هو ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وفي الحديث: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي، واليمين الفاجرة»(١). وروي: «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين»(٢). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو بغى جبلٌ على جبل لدكّ الباغي. وعن محمد بن كعب: ثلاث من كُنّ فيه كُنَّ عليه: البغي، والنكث، والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣] [﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]](٣) ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنخبركم به، ونجازيكم عليه.

٢٤ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: الحبوب، والثمار، والبقول ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ يعني: الحشيش ﴿حَتَّىٰٓ﴾

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٣٩).
(٢) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٤٠).
(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ زينتها بالنبات، واختلاف ألوانه ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تزينت به، وهو أصله، وأدغمت التاء في الزاي. وهو كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كلّ لون، فاكتستها، وتزينّت بغيرها من ألوان الزين ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أهل الأرض ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ متمكّنون من منفعتها، محصّلون لثمرتها، رافعون لغلّتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ عذابنا، وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم، واستيقانهم أنّه قد سلم ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدٗا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه، واستئصاله ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ كأن لم يغن[1] زرعها، أي: لم يلبث. حَذْف المضاف في هذه المواضع لابدّ منه ليستقيم المعنى ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هو مثل في الوقت القريب، كأنّه قيل: كأن لم تغن آنفاً ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينتفعون بضرب الأمثال. وهذا من التشبيه المركّب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضّيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعدما التفّ، وتكاثف، وزيّن الأرض بخضرته، ورفيفه[2]. وحكمة التشبيه: التنبيه على أنّ الحياة صفوها شبيبتها، وكدرها: شيبتها، كما أنّ صفو الماء في أعلى الإناء. قال:

ألم تر أنّ العمر كأس سلافة فــأوّلــه صفــو وآخــره كَــدْر

وحقيقته: تزيين جثّة الطين بمصالح الدنيا والدين، كاختلاط النبات على اختلاف التلوين. فالطينة الطّيبة تنبت بساتين الأنس، ورياحين الروح، وزهرة الزهد، وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة، وشقائق الطريقة.

---

(١) «غني بالمكان»: أقام، وعاش.
(٢) «رفيفه»: أي: تلألؤه. وشجر رفيف: إذا تندّت أوراقه.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

والخبيثة تخرج خلاف الخلف، وثمام[1] الإثم، وشوك الشرك، وشيح[2] الشح، وحطب العطب، ولعاع[3] اللعب. ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغترّاً، كما يهيج النبات مصفرّاً، فتغيب جثّته في الرمس، كأن لم تغن بالأمس، إلى أن يعود ربيعُ البعث، وموعد العرض والبحث. وكذلك مال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره، ولا بدّ من ترك ما زاد، كما لا بدّ من أخذ الزاد. وآخذ المال لا يصفو من زلّة، كما أنّ خائض الماء لا ينجو من بلّة، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه. فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز، والجواز إلى المفاز، لا يمكن إلا بقنطرة، وهي الزكاة، وعمارتها بذل الصلات، فمتى اختلّت القنطرة، غرّقته أمواج القناطير المقنطرة. وعن هذا قال ﷺ: «الزكاة قنطرة الإسلام»[4]، وكذا المال يساعد الأوغاد، دون الأمجاد. كما أنّ الماء يجتمع في الوهاد، دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكدّ البخيل، كما أنّ الماء لا يجتمع إلا بسدّ المسيل، ثمّ يفنى ويتلف، ولا يبقى كالماء في الكفّ.

٢٥ - ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ هي الجنّة، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها. أو: السلام: السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشو السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ويوفّق من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى الإسلام، أو طريق السنّة. فالدعوة عامّة على لسان رسول الله بالدلالة، والهداية، خاصّة من لطف المرسل بالتوفيق، والعناية. والمعنى: يدعو العباد كلّهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديّون.

---

(١) «ثمام»: هو عشب ضعيف، له خوص أو شبيه بالخوص.
(٢) «شيح»: نبات عشبي ترعاه الماشية.
(٣) «لُعاع»: الهِندبا.
(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط. (مجمع الزوائد ٣ / ٦٢).

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾

٢٦ ـ ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا بالله، ورسله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى، وهي: الجنّة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤية الربّ عزّ وجلّ. كذا عن أبي بكر، وحذيفة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهم ـ. وفي بعض التفاسير: أجمع المفسّرون على أنّ الزيادة: النظر إلى الله تعالى. وعن صهيب: أنّ النبي ﷺ قال: «إذ دخل أهلُ الجنةِ الجنَّةَ يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب، فينظرون إلى الله تعالى، فما أُعطُوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم»[١]. ثمّ تلا: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. والعجب من صاحب الكشّاف أنّه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة، وقال: إنه حديث مدفوع[٢]، مع أنّه مرفوع. قد أورده صاحب «المصابيح» في الصحاح. وقيل: الزيادة: : المحبّة في قلوب العباد. وقيل: الزيادة: مغفرة من الله ورضوان. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان. والمعنى: ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٧ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ عطف على ﴿للذين أحسنوا﴾ أي: وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فنون الشرك. ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ الباء زائدة، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو التقدير: جزاء سيئة مقدّر بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذلّ، وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحدٌ من سخطه، وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: جُعِل عليها غطاء من سواد الليل، أي: هم سود الوجوه. وقطعاً: جمع قطعة، وهو

(١) رواه أحمد (٤ / ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧).
(٢) في الكشاف (٢ / ٣٤٢): مرقوع. وكذا في حاشية الأصل. أي: مفترى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾

مفعول ثان لأغشيت. ﴿قِطْعاً﴾: مكيّ، وعليّ، من قوله: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١] وعلى هذه القراءة: مظلماً صفة لقطع. وعلى الأول حال من ﴿الليل﴾. والعامل فيه ﴿أغشيت﴾ لأن ﴿من الليل﴾ صفة لـ﴿قطعاً﴾، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة. أو: معنى الفعل في ﴿من الليل﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي: الكفار وغيرهم. ﴿جَمِيعٗا﴾ حال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ أي: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتّى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنتُمۡ﴾ أكد به الضمير في ﴿مكانكم﴾ لسدّه مسدّ قوله: الزموا ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ عطف عليه ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ ففرّقنا ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ وقطّعنا أقرانهم، والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ مَن عبدوه من دون الله من أولي العقل، أو: الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ إنّما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتّخذوا لله أنداداً، فأطعتموهم، وهو قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

٢٩ ـ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كفى الله ﴿شهيداً﴾، وهو تمييز ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية.

٣٠ ـ ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان، أو: في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ تختبر، وتذوق ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾ من العمل، فتعرف كيف هو: أقبيح أم حسن؟ أنافع أم ضار؟ أمقبول أم مردود؟ وقال الزجاج: تعلم كلّ نفس ما قدمت. ﴿تتلو﴾: حمزة، وعليّ، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنّة أو النار، أو: تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شرّ. كذا عن الأخفش ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ ربّهم الصادق

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ
فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

في ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولّون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولىّ حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدّعون أنهم شركاء لله، أو: بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب، وشفاعة الآلهة.

٣١ ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سوّيا عليه من الفطرة العجيبة؟ أو من يحميها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: الحيوان، والفرخ، والزرع، والمؤمن، والعالم، من النطفة، والبيضة، والحبّ، والكافر، والجاهل، وعكسها ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كلّه جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك: أنّ القادر على هذه هو: ﴿الله﴾ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك في العبودية، إذ اعترفتم بالربوبيّة.

٣٢ ـ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من هذه قدرته هو ﴿الله﴾ ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيّته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقّق النظر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: لا واسطة بين الحقّ والضلال، فمن تخطّى الحقّ وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقّ إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك.

٣٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الحقّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ﴿كَلِماتُ﴾: شاميّ ومدنيّ، أي: كما حقّ وثبت: أنّ الحقّ بعده الضلال، أو: كما حقّ: أنّهم مصروفون عن الحق، فكذلك ﴿حقّت كلمة ربّك﴾. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ تمرّدوا في كفرهم، وخرجوا إلى الحدّ الأقصى فيه. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي: حقّ عليهم انتفاء الإيمان، أو: حقّ عليهم كلمة الله: أنّ إيمانهم غير

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ

كائن، أو: أراد بالكلمة العدَة بالعذاب، و﴿أنهم لايؤمنون﴾ تعليل، أي: لأنّهم لا يؤمنون.

٣٤ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنّما ذكر ﴿ثمّ يعيده﴾ وهم غير مقرّين بالإعادة؛ لأنّه لظهور برهانها جعل أمراً مسلماً. على أنّ فيهم من يقرّ بالإعادة. أو: يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار، وإعادة الإنزال والنبات ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمر نبيّه بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحقّ، فكلّم عنهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن قصد السبيل؟

٣٥ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يرشد إليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يقال: هداه للحقّ وإلى الحقّ، فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى. كما يقال: «شرى» بمعنى «اشترى»، ومنه قراءة حمزة، وعليٍّ: ﴿أمن لايهدي﴾ بمعنى: يهتدي. ﴿لا يَهَدّي﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال: مكّيّ، وشاميّ، وورش. وبإشمام الهاء فتحة: أبو عمرو. وبكسر الهاء وفتح الياء: عاصم غير يحيىٰ. والأصل ﴿يهتدي﴾ وهي قراءة عبد الله، فأدغمت التاء في الدال، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت لالتقاء الساكنين. وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال: يحيى، لإتباع ما بعدها. وبسكون الهاء وتشديد الدال: مدنيّ، غير ورش. والمعنى: أنّ الله وحده هو الذي يهدي للحقّ بما ركب في المكلّفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلّة التي نصبها لهم، وبما وفّقهم، وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدي إلى الحقّ مثل هداية الله؟ ثمّ قال: أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتّباع، أم لا يهدي أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهتدي غيره إلا أن يهديه الله؟ وقيل: معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدي إلا

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أن ينقل. أو: لا يهتدي، ولا يصحّ منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً ناطقاً فيهديه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل، حيث تزعمون أنّهم أنداد الله.

٣٦ ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام: إنّها آلهة، وإنّها شفعاء عند الله. والمراد بالأكثر: الجميع ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغير دليل. وهو اقتداؤهم بأسلافهم ظناً منهم أنّهم مصيبون ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْئًا﴾ في موضع المصدر، اي: إغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتّباع الظنّ، وترك الحقّ.

٣٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: افتراء من دون الله. والمعنى: وما صحّ، وما استقام أن يكون مثله في علوّ أمره، وإعجازه مفترى ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تقدّمه من الكتب المنزلة ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما كتب، وما فرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ داخل في حيز الاستدراك، كأنّه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب، كائناً من ربّ العالمين. ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقاً من رب العالمين، وتفصيلاً منه، لا ريب في ذلك. فيكون ﴿من ربّ العالمين﴾ متعلّقاً بتصديق، وتفصيل. ويكون ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم.

٣٨ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل: أيقولون اختلقه؟ ﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: شبيهة به في البلاغة، وحسن النظم، فأنتم مثلي في العربيّة ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّه افتراه.

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي

٣٩ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبّروه، ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عمّا يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم. ومعنى التوقع في ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ أنهم كذّبوا به على البديهة قبل التدبّر، ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء، وكذّبوه بعد التدبّر تمرّداً وعناداً، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به. وجاء بكلمة التوقّع ليؤذن: أنهم علموا بعدُ علوَّ شأنه وإعجازَه، لمّا كرّر عليهم التحدّي، وجرّبوا قواهم في المعارضة، وعرفوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم الماضية كذّبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم، وقبل تدبّرها عناداً، وتقليداً للآباء. ويجوز أن يكون معنى ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ ولم يأتهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته حتّى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني: أنّه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه، وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يجرّبوا إخباره بالمغيّبات، وصدقه وكذبه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤٠ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالنبيّ، أو: بالقرآن، أي: يصدّق به في نفسه، ويعلم أنّه حقّ، ولكن يعاند بالتكذيب ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لا يصدّق به، ويشكّ فيه. أو: يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصرّ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين، أو: المصرّين.

٤١ ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن تمّوا على تكذيبك، ويئست من إجابتهم ﴿فَقُل لِّي

عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ
أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا
وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ

عَمَلِي﴾ جزاء عملي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ جزاء أعمالكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكلّ مؤاخذ بعمله.

٤٢ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وعلّمت الشرائع، ولكنهم لا يعون، ولا يقبلون، فهم كالصمّ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أتطمع أنّك تقدر على إسماع الصمّ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؟ لأنَّ الأصمَّ العاقل ربمّا تفرّس، واستدلَّ إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع، فقد تمّ الأمر.

٤٣ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلّة الصدق، وأعلام النبوة، ولكنهم لا يصدّقون ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أتحسب أنّك تقدر على هداية العمي، ولو انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس، وأمّا العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنّهم في اليأس من أن يقبلوا، ويصدّقوا؛ كالصمّ والعمي؛ الذين لا عقول لهم، ولا بصائر.

٤٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ولكنِ الناسُ﴾: حمزة، وعليّ، أي: لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال، ولكنّهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال، حيث عبدوا جماداً، وهم أحياء.

٤٥ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وبالياء: حفص[1] ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

(١) في الأصل: «نحشرهم» وهي قراءة ابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٧٧).

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، أو: في قبورهم لهول ما يرون. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنّهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثمّ ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم. ﴿كأن لم يلبثوا﴾: حال من ﴿هم﴾ أي: ﴿نحشرهم﴾ مشبّهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة. و﴿كأن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنّهم. و﴿يتعارفون بينهم﴾: حال بعد حال، أو مستأنف على تقديرهم: ﴿يتعارفون بينهم﴾: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ على إرادة القول، أي: ﴿يتعارفون بينهم﴾ قائلين ذلك، أو: هي شهادة من الله على خسرانهم. والمعنى: أنهم وَضَعُوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها. وهواستئناف فيه معنى التعجّب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

٤٦ ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿نتوفينّك﴾. وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف، أي: ﴿وإما نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينّك﴾ قبل أن نريكه، فنحن نريكه في الاخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكرت الشهادة، والمراد مقتضاها، وهو العقاب، كأنه قيل: ثمّ الله معاقب على ما يفعلون. وقيل: ﴿ثمّ﴾ هنا بمعنى الواو.

٤٧ ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يبعث إليهم لينبّههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات، فكذّبوه، ولم يتّبعوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين النبيّ ومكذبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأُنْجِيَ الرسول وعذِّبَ المكذبون. أو: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم يوم القيامة ﴿رسول﴾ تنسب إليه، وتدعى به ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذب أحد بغير ذنبه.

٤٨ ـ ولمّا قال: ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ أي: من العذاب،

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ

استعجلوا لما وعدوا من العذاب، فنزل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ العذاب نازل. وهو خطاب منهم للنبيّ والمؤمنين.

٤٩ ـ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ من مرض، أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحّة، أو غنى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أمّةٍ وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح، فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدّمون ساعة، ولا يتأخرون، فلا تستعجلوا.

٥٠ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلونه ﴿بَيَٰتًا﴾ نصب على الظرف، أي: وقت بيات، وهو الليل، وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشتغلون بطلب المعاش، والكسب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: من العذاب. والمعنى: أنّ العذاب كلّه مكروه، موجب للنفور، فأي شيء تستعجلون منه، وليس شيء منه يوجب الاستعجال؟ والاستفهام في ﴿ماذا﴾ يتعلق بأرأيتم؛ لأن المعنى: أخبروني ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؟ وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو: تعرفوا الخطأ فيه. ولم يقل: ماذا يستعجلون منه؛ لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهو الإجرام. أو: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جواب الشرط، نحو: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثمّ تتعلق الجملة بأرأيتم. أو:

٥١ ـ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ جواب الشرط. و﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ اعتراض. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. ودخول حرف الاستفهام على ﴿ثمّ﴾ كدخوله على

ءَآلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

الواو والفاء في ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧] ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨] ﴿ءَآلْآنَ﴾ على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب ﴿آلآن﴾ آمنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: بالعذاب تكذيباً واستهزاء. ﴿آلان﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام: نافع.

٥٢ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على قيل المضمر قبل ﴿آلآن﴾ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك، والتكذيب.

٥٣ ـ ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار، والاستهزاء. والضمير للعذاب الموعود ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ نعم والله ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إنّ العذاب كائن لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة.

٥٤ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كفرت، وأشركت. وهو صفة لنفس، أي: ولو أنّ لكلّ نفس ظالمة ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما في الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها. يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى: فداه ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وأظهروها. من قولهم: أسرّ الشيء: إذا أظهره. أو: أخفوها عجزاً عن النطق لشدّة الأمر. فأسرّ من الأضداد ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بين الظالمين والمظلومين. دلّ على ذلك ذكر الظلم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٥٥ ـ ثمّ أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كلّه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكيف يقبل الفداء، وأنّه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب أو

أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا
يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ

العقاب فهو حقّ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٥٦ ـ ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع، فيخاف، ويرجى.

٥٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة، وتنبيه على التوحيد. والموعظة: التي تدعو إلى كلّ مرغوب، وتزجر عن كلّ مرهوب، فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كلّ مرغوب، وزاجر عن كلّ مرهوب، إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به، فيكون مرغوباً، وهو يقتضي النهي عن ضدّه، وهو قبيح، وعلى هذا في النهي ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: صدوركم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لمن آمن به منكم.

٥٨ ـ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ أصل الكلام: ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ فليفرحوا بذلك ﴿فليفرحوا﴾. والتكرير للتأكيد، والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنّه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصّوهما بالفرح، أو: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا، فبذلك فليفرحوا، وهما كتاب الله والإسلام. في الحديث: «من هداه الله للإسلام، وعلّمه القرآن، ثمّ شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه»[1] وقرأ الآية ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ وبالتاء: شاميّ ﴿فلتفرحوا﴾ يعقوب.

٥٩ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾ أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ منصوب

---

(١) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه. (الدر المنثور ٤/ ٣٦٨).

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾

بأنزل، أو بـ ﴿أرأيتم﴾، أي: أخبرونيه ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ فبعّضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقوله: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]. نعم الأرزاق تخرج من الأرض. ولكن لمّا نيطت أسبابها بالسماء ـ نحو المطر الذي به تنبت الأرض النبات، والشمس التي بها النضج، وينع الثمار ـ أضيف إنزالها إلى السماء ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلّق بأرأيتم. و﴿قل﴾ تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبروني ﴿آلله أذن لكم﴾ في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. أو: الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء. والآية زاجرة عن التجوّز فيما يسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفترٍ على الديّان.

٦٠ ـ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ينسبون ذلك إليه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ منصوب بالظنّ، وهو ظنّ واقع فيه، أي: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم؟ وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة. وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، ولا يتّبعون ما هدوا إليه.

٦١ ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿ما﴾ نافية. والخطاب للنبيّ ﷺ. والشأن: الأمر ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ من التنزيل، كأنّه قيل ﴿وَمَا تَتْلُوا۟﴾ من التنزيل ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ لأنّ كلّ جزء منه قرآن. والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو: من الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أيّ عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون. من: أفاض في الأمر: إذا

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ وما يبعد، وما يغيب. وبكسر الزاي: عليّ؛ حيث كان ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ رفعهما حمزة على الابتداء. والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. يعني: اللوح المحفوظ. ونصبهما غيره على نفي الجنس. وقدّمت الأرض على السماء هنا، وفي سبأ قدّمت السموات، لأنّ العطف بالواو. وحكمه حكم التثنية.

٦٢ ـ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ هم الذين يتولّونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة. أو: هم الذين تولّى الله هداهم بالبرهان، الذي آتاهم، فتولّوا القيام بحقّه والرحمة لخلقه. أو: هم المتحابّون في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. أو: هم المؤمنون المتّقون؛ بدليل الآية الثانية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن الناس.

٦٣ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منصوب بإضمار، أعني: أو لأنّه صفة لأولياء. أو مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين آمنوا﴾ ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والمعاصي.

٦٤ ـ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما بشر الله به المؤمنين المتّقين في غير موضع من كتابه. وعن النبيّ ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»[(١)]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات»[(٢)]. و«الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة»[(٣)]. وهذا لأنّ مدّة الوحي ثلاث وعشرون سنة. وكان في ستّة أشهر منها يؤمر في النوم بالإنذار. وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً. أو: هي محبّة

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٧٥) وابن ماجه (٣٨٩٨).
(٢) رواه أحمد (٦ / ٣٨١) وابن ماجه (٣٨٩٦).
(٣) رواه أحمد (٤ / ١٢و١٣) والترمذي (٢٢٧٨).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الناس له، والذكر الحسن. أو: لهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه في الجنّة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هي الجنّة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشّرين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وكلتا الجملتين اعتراض. ولا يجب أن يقعَ بعد الاعتراض كلام، تقول: فلان ينطق بالحقّ، والحقّ أبلج. وتسكت.

٦٥ ـ ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبهم، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك، وإبطال أمرك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقيل: إنّ العزة ﴿لِلَّهِ﴾. إن الغلبة والقهر في ملَكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منهما، لا هم، ولا غيرهم، فهو يغلبهم، وينصرك عليهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] أو: به يتعزّز كلّ عزيز فهو يعزّك ودينك وأهلك. والوقف لازم على ﴿قولهم﴾، لئلا يصير ﴿إنّ العزة﴾ مقول الكفّار ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يدبّرون، ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

٦٦ ـ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء، وهم: الملائكة والثقلان. وخصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له، وفي مملكته، ولا يصح أحد منهم للربوبيّة، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحقّ ألا يكون له ندّاً وشريكاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ﴿ما﴾ نافية، أي: وما يتّبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمّونها شركاء، لأنّ شركة الله في الربوبيّة محال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا ظنّهم أنهم شركاء الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يحزرون، ويقدّرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً. أو: استفهامية، أي: وأيّ شيء يتّبعون؟ و﴿شركاء﴾ على هذا نصب بيدعون، وعلى الأوّل بيتّبع. وكان حقّه: وما يتّبع الذين يدعون من دون الله

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

شركاء شركاء، فاقتصر على أحدهما للدلالة. والمحذوف مفعول ﴿يدعون﴾. أو: موصولة معطوفة على ﴿من﴾ كأنه قيل: ولله مايتّبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم. ثمّ نبّه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله:

٦٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب التردّد في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئاً لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم، ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع مذكّر معتبر.

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ علّة لنفي الولد، لأنّه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوّى به، أو فقير ليستعين به، أو ذليل ليتشرّف به. والكلّ أمارة الحاجة. فمن كان غنياً غير محتاج كان الولد عنه منفيّاً، ولأنّ الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركّباً، وكلّ مركّب ممكن، وكلّ ممكن يحتاج إلى الغير، فكان حادثاً، فاستحال القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً. ولا تجتمع البنوّة معه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول. والباء حقّها أن تتعلق بقوله: ﴿إن عندكم﴾ على أن يجعل القول مكاناً لسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان. ولمّا نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦٩ ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنّة.

مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

٧٠ ـ ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، حيث يقيمون به رئاستهم في الكفر، ومناصبة النبيّ ﷺ بالتظاهر به ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المخلّد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ ـ ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ واقرأ عليهم. ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه. والوقف عليه لازم، إذا لو وصل لصار ﴿إذ﴾ ظرفاً لقوله ﴿واتل﴾. بل التقدير: واذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ عظم وثقل، كقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿مَّقَامِى﴾ مكاني. يعني: نفسه، كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي: خاف ربه. أو: قيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاماً. أو: مقامي ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنّهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيّناً، وكلامهم مسموعاً ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوّضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع الأمر: إذا نواه، وعزم عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع، أي: فأجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: غماً عليكم وهمّاً. والغمّ والغمّة كالكرب والكربة. أو: ملتبساً في خفية. والغمّة: السترة، من غمّه: إذا ستره. ومنه الحديث: «لا غمة في فرائض الله»[1] أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها. والمعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدّوا إليّ ما هو حقّ عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، أو: اصنعوا ما أمكنكم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

---

(١) قال ابن حجر: هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٦٠).

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

---

٧٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري، ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فأوجب التولّي. أو: ﴿فما سألتكم من أجر﴾ ففاتني ذلك بتولّيكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لله، لا لغرض من أغراض الدنيا. وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن، والعلم الدينيّ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهيه. ﴿إن أجْرِيَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص.

٧٣ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداموا على تكذيبه. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ هو تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له.

٧٤ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد نوح ـ عليه السلام ـ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ فأصرّوا على الكفر بعد المجيء ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ من قبل مجيئهم، يريد: أنّهم كانوا قبل بعثة الرسول أهل جاهلية مكذّبين بالحقّ. فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ مثل ذلك الطبع نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاورين الحدّ في التكذيب.

٧٥ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبولها. وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربّهم بعد تبيّنها، ويتعظّموا عن قبولها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كفّاراً

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ
أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها، واجترؤوا على ردِّها.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلمّا عرفوا أنّه هو الحقّ، وأنّه من عند الله ﴿قَالُوٓاْ﴾ لحبّهم الشهوات: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر.

٧٧ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ هو إنكار، ومقولهم محذوف، أي: هذا سحر. ثمّ استأنف إنكاراً آخر، فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا يظفر.

٧٨ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملك، لأن الملوك موصوفون بالكبرياء، والعظمة، والعلوّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدّقين فيما جئتما به. ﴿ويكونَ﴾: حماد، ويحيى.

٧٩ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾﴿سحّار﴾: حمزة، وعليّ.

٨٠ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

٨١ ـ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿ما﴾ موصولة واقعة مبتدأ. و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ صلتها. و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّاه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. ﴿آلسحر﴾ بعد وقف: أبو عمرو، على الاستفهام. فعلى هذه القراءة ﴿ما﴾ استفهامية، أي: أيّ شيء جئتم به؟ أهو السحر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ يظهر بطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته، بل يدمّره.

وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

٨٢ ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره، وقضاياه. أو: يظهر الإسلام بعداته بالنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

٨٣ ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أوّل أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنّه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنّه دعا الآباء، فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. أو الضمير في ﴿قومه﴾ لفرعون. والذريّة: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته. والضمير في: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة، ومضر. أو: لأنّه ذو أصحاب يأتمرون له. أو: إلى الذريّة، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. دليله قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يريد أن يعذّبهم فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لغالب فيها، قاهر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبيّة.

٨٤ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ صدّقتم به، وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ شرط في التوكل الإسلام، وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة، لا حظّ للشيطان فيها، لأنّ التوكلّ لا يكون مع التخليط.

٨٥ ـ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنّما قالوا ذلك، لأنّ القوم كانوا مخلصين. لا جرم أن الله قَبِلَ توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجّاهم، وأهلك مَن كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه. فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربّه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع فتنة

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ

لهم، أي: عذاب يعذّبوننا، أو يفتنوننا عن ديننا، أي: يضلّوننا. والفاتن: المضل عن الحق.

٨٦ ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: من تعبيدهم وتسخيرهم.

٨٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تبوأ المكان: اتخذه مباءة، كقوله: توطّنه: إذا اتخذه وطناً. والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما، ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة، والصلاة فيه ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجّهة نحو القبلة، وهي الكعبة. وكان موسى ومن معه يصلّون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل الأمر مأمورين بأن يصلّوا في بيوتهم في خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم، فيؤذوهم، ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المسلمون على ذلك في أوّل الإسلام بمكّة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم حتّى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ياموسى. ثنى الخطاب أوّلاً، [ثمّ جمع، ثم وحّد آخراً][1] لأنّ اختيار مواضع العبادة مما يفوّض إلى الأنبياء، ثمّ جمع، لأنّ اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور، وخصّ موسى ـ عليه السلام ـ بالبشارة تعظيماً لها، وللمبشّر بها.

٨٨ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ هو: ما يتزيّن به من لباس، أو حليّ، أو فرش، أو أثاث أو غير ذلك ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: نقداً، ونعماً، وضيعة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ لِيَضلّوا أي: الناس عن طاعتك. كوفيّ. ولا وقف على الدنيا، لأن قوله ﴿ليضلّوا﴾ متعلّق بآتيت. و﴿ربّنا﴾ تكرار الأوّل للإلحاح في التضرّع. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: إذا علم منهم أنّهم يضلّون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلّوا عن سبيله.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا

وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فتكون الآية حجة على المعتزلة ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلكها، وأذهب آثارها، لأنّهم يستعينون بنعمتك على معصيتك. والطمس: المحو، والهلاك. قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئاتها منقوشة، وقيل: وسائر أموالهم كذلك ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدد﴾ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ إلى أن يروا العذاب الأليم. وكان كذلك، فإنّهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل. وإنّما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم، وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأمّا قبل أن يعلم بأنّهم لا يؤمنون، فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء، لأنّه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان. وهو يدلّ على أنّ الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفراً.

٨٩ ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى ـ عليه السلام ـ يدعو وهارون يؤمّن. فثبت أنّ التأمين دعاء، فكان إخفاؤه أولى. والمعنى: أنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة، والتبليغ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتّبعانّ طريق الجهلة، الذين لا يعلمون صدق الإجابة، وحكمة الإمهال. فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. ﴿ولا تتّبعَانِ﴾. بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، شاميّ. وخطّأه بعضهم، لأنّ النون الخفيفة واجبة السكون. وقيل: هو إخبار عمّا يكونان عليه، وليس بنهي. أو: حال، وتقديره: فاستقيما غير متّبعين.

٩٠ ـ ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو دليلٌ لنا على خلق الأفعال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فلحقهم. يقال: تبعته حتّى أتبعته ﴿بَغْيًا﴾ تطاولاً

وَعَدۡوًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ

﴿وَعَدۡوًا﴾ ظلماً. وانتصبا على الحال، أو: على المفعول له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ لا وقف عليه، لأنّ ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ جواب ﴿إذا﴾ ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿إنَّه﴾: حمزة، وعليّ، على الاستئناف بدل من ﴿آمنت﴾. وبالفتح غيرهما على حذف الباء، التي هي صلة الإيمان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ الإيمان والإسلام واحد، حيث قال ﴿آمنت﴾ ثمّ قال: ﴿وأنا من المسلمين﴾. كرّر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات، حرصاً على القبول، ثمّ لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرّة الواحدة تكفي في حالة الاختيار.

٩١ ـ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك؟ قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق. والعامل فيه: أتؤمن ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من الضالين المضلّين عن الإيمان. روي: أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبدٍ لرجل نشأ في ماله ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقّه، وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر. فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل ـ عليه السلام ـ خطّه، فعرفه.

٩٢ ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك بنجوة من الأرض. فرماه الماء إلى الساحل كأنّه ثور ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنّما أنت بدن. أو ﴿ببدنك﴾ كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء، ولم يتغير. أو: عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس. أو: بدرعك، وكانت له درع من ذهب يُعْرَف بها. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ (بأبدانك) وهو مثل قولهم: هو بأجرامه، أي: ببدنك كلّه وافياً بأجزائه. أو: بدروعك، لأنّه ظاهر بينها ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ لمن وراءك من الناس علامة. وهم بنو إسرائيل. وكان في أنفسهم: أنّ

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

فرعون أعظم شأناً من أن يغرق. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتّى عاينوه. وقيل: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديّته، وأنّ ما كان يدعيه من الربوبيّة محال، وأنّه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ماترون لعصيانه ربّه، فما الظنّ بغيره؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

٩٣ ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضيّاً، وهو مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي التوراة. وهم اختلفوا في تأويلها، كما اختلفت أمّة محمد ﷺ في تأويل الآيات من القرآن. أو: المراد: العلم بمحمّد. واختلاف بني إسرائيل ـ وهم أهل الكتاب ـ: اختلافهم في صفته أنه هو، أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم: أنه هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يميز المحقّ من المبطل، ويجزي كلاًّ جزاءه.

٩٤ ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ لمّا قدّم ذكر بني إسرائيل، وهم قرّاء الكتاب، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم، لأنّ أمر رسول الله ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أراد أن يؤكّد علمهم بصحّة القرآن، وبصحّة نبوّته ﷺ، ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شكّ فرضاً وتقديراً ـ وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلّها بالرجوع إلى قوانين الدين، وأدلّته، أو بمباحثة العلماء ـ فسل علماء أهل الكتاب، فإنّهم من الإحاطة بصحّة ما أنزل إليك، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك. فالمراد وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحّة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ، لا وصف رسول الله ﷺ بالشّك فيه. ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات الواضحة، والبراهين اللائحة:

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

أنّ ما أتاك هو الحقّ، الذي لا مجال فيه للشّك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين. ولا وقف عليه للعطف.

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: فاثبت، ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، والتكذيب بآيات الله، أو: هو على طريقة التهييج والإلهاب، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله: «لا أشكّ، ولا أسأل، بل أشهد أنّه الحقّ»[(١)] أو: خوطب رسول الله ﷺ، والمراد أمّته، أي: وإن كنتم في شكّ مما أنزلنا إليكم، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] أو: الخطاب لكلّ سامع يجوز عليه الشكّ، كقول العرب: إذا عزّ أخوك فهن. أو: ﴿إِنْ﴾ للنفي، أي: فما كنت في شكّ فاسأل. أي: لا نأمرك بالسؤال، لأنك شاكّ، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمعاينة إحياء الموتى. فإن قلت: إنّما يجيء «إن» للنفي إذا كان بعده إلا، كقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]. قلت: ذاك غير لازم، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١] فـ «إن» للنفي، وليس بعده إلا.

٩٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنّهم يموتون كفّاراً. أو: قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨]. ولا وقف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ: تتعلّق بما قبلها.

٩٧ ـ ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم. أو: عند القيامة ولا يقبل منهم.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١ / ١٦٨).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

---

٩٨ ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلاّ كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاينة، ولم تؤخّر كما أخّر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن تقبّل الله إيمانها منها بوقوعه في وقت الاختيار ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قوم يونس. أو: متّصل، والجملة في معنى النفي، كأنّه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة ﴿إلاّ قوم يونس﴾. وانتصابه على أصل الاستثناء ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي: أن يونس ـ عليه السلام ـ بعث إلى نينوى من أرض الموصل، فكذّبوه، فذهب عنهم مغاضباً. فلمّا فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح كلّهم، وعجّوا[1] أربعين ليلة، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابّهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان والدوابّ وأولادها، فحنّ بعضهم إلى بعض، وأظهروا الإيمان والتوبة، فرحمهم، وكشف عنهم. وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وبلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم، حتّى إنّ الرجل كان يقلع الحجر، وقد وضع عليه أساس بنيانه، فيردّه. وقيل: خرجوا لمّا نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم، فقال لهم: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ، لا إله إلا أنت. فقالوا، فكشف الله عنهم. وعن الفضيل ـ قدس الله روحه ـ قالوا: اللّهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

٩٩ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة، والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ حال. مجتمعين على الإيمان، مطبقين عليه، لا يختلفون فيه. أخبر عن كمال قدرته، ونفوذ مشيئته: أنّه لو شاء لآمن من في الأرض

---

(١) «عجّوا»: رفعوا أصواتهم.

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ
أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا

كلّهم، ولكنّه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنّه يختار الكفر ولا يؤمن به. وقول المعتزلة: المراد بالمشيئة مشيئة القسر والإلجاء ـ أي: لو خلق فيهم الإيمان جبراً لآمنوا. لكن قد شاء أن يؤمنوا اختياراً فلم يؤمنوا، دليله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ـ أي: ليس إليك مشيئة الإكراه والجبر في الإيمان، إنما ذلك إليّ ـ فاسد، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله ما يحصل بقدرته، ولا يتحقّق ذلك بدون الاختيار. وتأويله عندنا: أنّ الله تعالى لطفاً، لو أعطاهم لآمنوا كلّهم عن اختيار، ولكن علم منهم أنّهم لا يؤمنون، فلم يعطهم ذلك، وهو التوفيق. والاستفهام في ﴿أفأنت﴾ بمعنى النفي، أي: لا تملك أنت يامحمد أن تكرههم على الإيمان، لأنّه يكون بالتصديق والإقرار، ولا يمكن الإكراه على التصديق.

١٠٠ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته، أو: بقضائه، أو: بتوفيقه وتسهيله، أو: بعلمه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب، أو: السخط، أو: الشيطان، أي: ويسلّط الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم. ﴿وَنَجعَلُ﴾: حماد، ويحيى.

١٠١ ـ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ نظر استدلال، واعتبار ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار، وخروج الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ﴾ «ما» النافية. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ والرسل المنذرون، أو: الإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقّع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون.

١٠٢ ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: وقائع الله فيهم، كما يقال: أيّام العرب لوقائعها ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوف على كلام محذوف، يدلّ عليه ﴿إلا مثل

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ

أيّام الذين خلوا من قبلهم﴾ كأنّه قيل: نهلك الأمم ﴿ثمّ ننجي رسلنا﴾ على حكاية الأحوال الماضية ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ومن آمن معهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء ﴿ننجّي المؤمنين﴾ منكم، ونهلك المشركين. و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض، أي: حقّ ذلك علينا حقاً. ﴿نُنْجي﴾ بالتخفيف: عليّ، وحفص.

١٠٤ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾ ياأهل مكة. ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصحته، وسداده، فهذا ديني فاستمعوا وصفه. ثمّ وصف دينه فقال: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الأصنام ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يميتكم. وصفه بالتوفي ليريهم: أنّه الحقيق بأن يخاف، ويتّقىٰ، ويعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بأن أكون. يعني: أنّ الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل، وبما أوحى إليّ في كتابه.

١٠٥ ـ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: ﴿و﴾ أوحى إليّ ﴿أن أقم﴾ ليشاكل قوله: ﴿أمرت﴾، أي: استقم مقبلاً بوجهك على ما أمرك الله، أو: استقم إليه، ولا تلتفت يميناً، ولا شمالاً ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين، أو: الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠٦ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ «إذاً» جزاء للشرط، وجواب لسؤال مقدّر، كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين، لأنّه لا ظلم أعظم من الشرك.

١٠٧ ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ يصبك ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لذلك الضرّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلاّ الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا

يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

رادّ لمراده ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه، والاعتماد إلا عليه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المكفّر بالبلاء ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المعافي بالعطاء.

أتبع النهي عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنّها لا تنفع ولا تضرّ: أن الله هو الضّار النافع، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده، دون كلّ أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به؟! وكذا إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان، فكيف بالأوثان؟ وهو الحقيق إذاً بأن توجّه إليه العبادة دونها. وهو أبلغ من قوله ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]. وإنّما ذكر المسّ في أحدهما، والإرادة في الآخر، كأنّه أراد أن يذكر الأمرين: الإرادة والإصابة في كلّ واحد من الضرّ والخير، وأنّه لا رادّ لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ، وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدلّ بما ذكر على ما ترك. على أنّه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله: ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكّة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن، أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اختار الهدى، واتّبع الحقّ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فما نفع باختياره إلا نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه. ودلّ اللام وعلى على معنى النفع والضرّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم، وإنّما أنا بشير ونذير.

١٠٩ ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ لك بالنصرة عليهم، والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّه المطّلع على السرائر، فلا يحتاج إلى بيّنة، وشهود.

سُورَةُ هُودٍ

ترتيبها ١١ — آياتها ١٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ

---

١ ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا ﴿كتاب﴾. فهو خبر مبتدأ محذوف ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفة له، أي: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقص ولا خلل، كالبناء المحكم ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ كما تفصّل القلائد بالفرائد: من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو: جعلت فصولاً سورة سورة، وآية وآية. أو: فرّقت في التنزيل، ولم تنزل جملة. أو: فصّل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بُيّن ولخص. وليس معنى ﴿ثمّ﴾ التراخي في الوقت، ولكن في الحال ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو: خبر بعد خبر، أو: صلة لأحكمت وفصّلت، أي: من عنده أحكامها، وتفصيلها.

٢ ـ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول له، أي: لئلا تعبدوا. أو: (أن) مفسّرة، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول. كأنّه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو: أمركم ألا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: من الله.

٣ ـ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: أمركم بالتوحيد، والاستغفار ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: استغفروه من الشرك، ثمّ ارجعوا إليه بالطاعة ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضيّة من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى أن يتوفّاكم ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ويعط في الآخرة كلّ من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله، لا يبخس منه شيئاً ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن

فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ

تتولّوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة.

٤ ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إعادتكم.

٥ ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يزورّون عن الحقّ، وينحرفون عنه، لأنّ من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه، وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه[1] ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله، فلا يطّلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ يتغطّون بها، أي: يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله، كقول نوح ـ عليه السلام ـ ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧] ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ أي: لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصّلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطّلع على ثنيهم صدورهم، واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافع عنده. قيل: نزلت في المنافقين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها.

٦ ـ ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ تفضّلاً، لا وجوباً ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ مكانه من الأرض، ومسكنه ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب، أو رحم، أو بيضة ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ كلّ واحد من الدواب، ورزقها؛ ومستقرّها؛ مستودعها؛ في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبيّن.

٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ من الأحد

---

(١) «طوى عنه كشحه»: أعرض عنه.

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

إلى الجمعة، تعليماً للتأنّي ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: فوقه. يعني: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض إلا الماء. وفيه دليلٌ على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض. قيل: بدأه بخلق ياقوتة خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماء، ثمّ خلق ريحاً، فأقرّ الماء على متنه، ثمّ وضع عرشه على الماء. وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: خلق السموات والأرض وما بينهما للممتحن فيهما، ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أكثر شكراً. وعنه ﷺ: «أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه»[1]. ولمّا أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ﴿ليبلوكم﴾ أي: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. (سَاحِرٌ): حمزة، وعليّ، يريدون الرسول. والساحر: كاذب مبطل.

٨ ـ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب الآخرة، أو: عذاب يوم بدر ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ معلومة، أو قلائل. والمعنى: إلى حين معلوم ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ما يمنعه من النزول، استعجالاً له على وجه التكذيب، والاستهزاء ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ﴾ العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ و﴿يوم﴾ منصوب بمصروفاً، أي: ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم. ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ العذاب الذي

(١) رواه داود بن المجبر في كتاب «العقل» والحارث في مسنده. (حاشية الكشاف ٢/ ٣٨٠).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾

كانوا به يستعجلون. وإنّما وضع ﴿يستهزئون﴾ موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على وجه الاستهزاء.

٩ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو للجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة من صحّة، وأمن، وجدة. واللام في ﴿لئن﴾ لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ ثمّ سلبناه تلك النعمة. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلّب في نعمة الله، نسّاء له.

١٠ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ وسّعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ أشر، بطر ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

١١ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في المحنة، والبلاء ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وشكروا في النعمة، والرخاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: الجنّة.

١٢ ـ كانوا يقترحون عليه آيات تعنّتاً لا استرشاداً، لأنّهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة ممّا جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يَعْتَدُّون بالقرآن، ويتهاونون به، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم مالا يقبلونه، ويضحكون منه، فهيّجه لأداء الرسالة، وطرح المبالاة بردّهم، واستهزائهم، واقتراحهم بقولهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلّك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلّغه إيّاهم مخافة ردّهم له، وتهاونهم به ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ بأن تتلوه عليهم. ولم يقل: ضيّق، ليدلّ على أنّه ضيق عارض غير ثابت، لأنّه ﷺ كان أفسح

أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

الناس صدراً، ولأنّه أشكل بتارك ﴿أَن يَقُولُوا﴾ مخافة ﴿أن يقولوا﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هلاّ أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه، والملائكة لنصدّقه، ولِمَ أنزل عليه ما لا نريده، ولا نقترحه؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك، وتبلّغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك أن ردّوا، أو تهاونوا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. فتوكل عليه، وكلْ أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح، وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم، ولا مبال بسفههم، واستهزائهم.

١٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ «أم» منقطعة. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضمير لما يُوحى إليك ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ تحدّاهم أوّلاً بعشر سور، ثمّ بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخطّ لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب. فإذا تبيّن له العجز عن ذلك قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في الحسن والجزالة. ومعنى ﴿مثله﴾: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كلّ واحدة منها له ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة لعشر سور. لمّا قالوا: افتريت القرآن، واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله أرخى معهم العنان، وقال: هبوا أنّي اختلقته من عند نفسي، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي ﴿وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّه مفترى.

١٤ ـ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه. ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن لا إله إلا الله﴾ وحده، وأنّ توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم. وإنما جمع الخطاب بعد إفراده، وهو قوله لكم: ﴿فاعلموا﴾ بعد قوله: ﴿قل﴾ لأنّ الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ، أو: لأنّ

فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ

رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يحدّثونهم. أو: لأنّ الخطاب للمشركين، والضمير في ﴿لم يستجيبوا﴾ لمن استطعتم، أي: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة، لعلمهم بالعجز عنه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه، أو: بأمره ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ متّبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة؟ ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً على أنّه منزل من عند الله، وعلى التوحيد. ومعنى: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مخلصون؟.

١٥ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ نوصّل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصّحة، والرزق. وهم الكفّار، أو: المنافقون.

١٦ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو: صنيعهم، أي: لم يكن لهم ثواب، لأنّهم لم يريدوا به الآخرة، وإنّما أرادوا به الدنيا، وقد وفّى إليهم ما أرادوا ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنّه لم يعمل لغرض صحيح. والعمل الباطل لا ثواب له.

١٧ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بيّنة من ربه. أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا يقاربونهم، يعني: أنّ بين الفريقين تبايناً بيّناً. وأراد بهم مَن آمن مِن اليهود كعبد الله بن سلام، وغيره. ﴿كان على بينة من ربّه﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أنّ دين الإسلام حقّ، وهو دليل العقل ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شَاهِدٞ﴾ يشهد بصحّته، وهو القرآن ﴿مِّنۡهُ﴾ من الله، أو من القرآن، فقد ذكره آنفاً ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل

إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا
تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟
مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ

القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عليه السلام ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتمّاً به في الدين، قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم. وهما حالان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: مَن كان على بيّنة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكّة، ومَن ضامّهم من المتحزّبين على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مصيره، ومورده ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الموعد ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُحبسون في الموقف، وتُعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيّين بأنهم الكذّابون على الله؛ بأنه اتخذ ولداً وشريكاً ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكاذبين على ربّهم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كأصحاب وصاحب، أو: شهيد، كشريف وأشراف.

١٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو: يبغون أهلها أن يعوجّوا بالارتداد ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هم» الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به.

٢٠ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟﴾ أي: ما كانوا ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه، ويمنعهم من عقابه. ولكنّه أراد إنظارهم، وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم. وهو من كلام الأشهاد ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لأنّهم

مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

أضلّوا الناس عن دين الله. ﴿يُضَعَّفُ﴾: مكّيّ، وشاميّ ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استماع الحقّ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ الحقّ.

٢١ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم، وضاع ما اشتروه، وهو: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة، وشفاعتها.

٢٢ ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ بالصدّ، والصّدود. وفي ﴿لا جرم﴾ أقوال: أحدها: أنّ ﴿لا﴾ ردّ لكلام سابق، أي: ليس الأمر كما زعموا. ومعنى: ﴿جرم﴾ كسب، وفاعله مضمر، و﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في محل النصب. والتقدير: كسب قولهم خسرانهم في الآخرة. وثانيها: أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمتان ركبتا، فصار معناهما: حقّاً. وأنّ: في موضع رفع بأنّه فاعل لحقّ، أي: حقّ خسرانهم. وثالثها: أنّ معناه: لا محالة.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ واطمأنّوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع. من «الخبت»، وهي: الأرض المطمئنّة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٤ ـ ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين ﴿مَثَلًا﴾ تشبيهاً. وهو نصب على التمييز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتنتفعون بضرب المثل.

٢٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿أنّي﴾: أي: بأني. والمعنى: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إنّي لكم نذير مبين﴾

أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

بالكسر، فلمّا اتّصل به الجارّ فتح كما فتح في كأنّ. والمعنى على الكسر، وبكسر الألف: شاميّ، ونافع، وعاصم، وحمزة علي: إرادة القول.

٢٦ ـ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفسّرة متعلّقة بأرسلنا، أو بنذير ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي، لوقوع الألم فيه.

٢٧ ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يريد الأشراف؛ لأنهم يملؤون القلوب هيبة، والمجالس أبّهة، أو: لأنّهم مُلِئوا بالأحلام، والآراء الصائبة ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أرادوا: أنّه كان ينبغي أن يكون مَلِكاً، أو مَلَكاً ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسّاؤنا. جمع: الأرذل ﴿بَادِيَ﴾ وبالهمزة: أبو عمرو ﴿ٱلرَّأْيِ﴾ وبغير همز: أبو عمرو. أي: اتّبعوك ظاهر الرأي. أو: أوّل الرأي. مِن بدا يبدو: إذا ظهر، أو: بدأ يبدأ: إذا فعل الشيء أوّلاً. وانتصابه على الظرف. أصله: وقت حدوث ظاهر رأيهم، أو: أوّل رأيهم. فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أنّ اتّباعهم لك شيء عنّ لهم بديهة من غير رويّة ونظر، ولو تفكّروا ما اتّبعوك، وإنّما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيويّة، لأنّهم كانوا جهّالاً، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتشبّهين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم. ولقد زلّ عنهم: أنّ التقدّم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله، وأنتم يبعده، ولا يرفعه بل يضعه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في مال، ورأي. عنوا: نوحاً، وأتباعه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: نوحاً في الدعوة، ومتبعيه في الإجابة والتصديق، يعني: تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرئاسة.

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

٢٨ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ يعني: النبوّة ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾(١) أي: أخفيت: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: أخفيت. أي: فعميت عليكم البيّنة فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. وحقيقته: أنّ الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأنّ الأعمى لا يهتدي، ولا يهدي غيره ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي: الرحمة ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تريدونها. والواو دخلت هنا تتمّة للميم. وعن أبي عمرو: إسكان الميم. ووجهه: أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنّها الراوي سكوناً. وهو لحن، لأنّ الحركة الإعرابيّة لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

٢٩ ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على تبليغ الرسالة، لأنّه مدلول قوله: ﴿إنّي لكم نذير﴾ ﴿مَالًاۖ﴾ أجراً يثقل عليكم إن أدّيتم، أو: عليّ إن أبيتم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ تتسافهون على المؤمنين، وتدعونهم: أراذل، أو: تجهلون لقاء ربكم، أو: أنهم خير منكم.

٣٠ ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ مَن يمنعني مِن انتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (١٠٧/٣).

وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ

---

٣١ ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأدّعي فضلاً عليكم بالغنى حتّى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ [هود: ٢٧] ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ حتّى أطّلع على ما في نفوس أتباعي، وضمائر قلوبهم. وهو معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي: ﴿لا﴾ أقول: ﴿عندي خزائن الله﴾ ولا أقول: أنا ﴿أعلم الغيب﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتّى تقولوا لي: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، مساعدة لكم، ونزولاً على هواكم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من صدق الاعتقاد. وإنّما عليّ قبول ظاهر إقرارهم، إذ لا أطلع على خفيّ أسرارهم ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء: افتعال من زرى عليه: إذا عابه. وأصله تزتري فأبدلت التاء دالاً.

٣٢ ـ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك.

٣٣ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ، وإنّما هو إلى من كفرتم به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: لم تقدروا على الهرب منه.

٣٤ ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ هو إعلام موضع الغي ليتّقى، والرشد ليقتفى ﴿ولكنّيَ﴾ ﴿إنّيَ﴾ ﴿نصحيَ﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ أي: يضلّكم. وهذا شرط دخل على شرط، فيكون الثاني مقدّماً في الحكم لما عرف، تقديره: إن كان يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

إن أردت أن أنصح لكم، وهو دليل بيِّن لنا في إرادة المعاصي ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرّف فيكم على قضيّة إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٣٥ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل: أ ﴿يقولون افتراه﴾ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي: إن صحّ أنّي افتريته فعليّ عقوبة إجرامي، أي: افترائي. يقال: أجرم الرجل: إذا أذنب، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ﴾ أي: ولم يثبت ذلك، وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم، ومعاداتكم.

٣٦ ـ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إقناط من إيمانهم، وأنّه غير متوقّع. وفيه دليلٌ على أنّ للإيمان حكم التجدُّد، كأنّه قال: إنّ الذي آمن يؤمن في حادث الوقت، وعلى ذلك تخرج الزيادة التي ذكرت في الإيمان بالقرآن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين. والابتآس: افتعال من البؤس، وهو الحزن، والفقر. والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك.

٣٧ ـ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هو في موضع الحال، أي: اصنعها محفوظاً. وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأنّ الله معه أعيناً تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿وَوَحْيِنَا﴾ فإنّا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ[1] الطير ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، وقد قضي به، وجفّ القلم فلا سبيل إلى كفّه.

---

(١) «جؤجؤ»: صَدْر.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾

٣٨ ـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ من عمله السفينة. وكان يعملها في بريّة في أبعد موضع من الماء، فكانوا يتضاحكون منه، ويقولون له: يا نوح! صرتَ نجّاراً بعد ما كنت نبياً ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عند رؤية الهلاك ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منّا عند رؤية الفلك.

رُوي: أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين، وكان طولها ثلاثمئة ذراع، أو: ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً أو ستمئة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً. وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدوابّ، والأنعام، وركب نوح ومَن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ـ عليه السلام ـ وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء.

٣٩ ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ في محل نصب بـ«تعلمون»، أي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويعني به: إيّاهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة.

٤٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام، أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء. وهي غاية لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾ أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. وما بينهما من الكلام حال من ﴿يصنع﴾، أي: يصنعها، ﴿و﴾ الحال أنّه ﴿كلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾. وجواب ﴿كلما﴾: ﴿سخروا﴾. و﴿قال﴾ استئناف على تقدير سؤال سائل. أو: ﴿قال﴾ جواب ﴿سخروا﴾ بدل من ﴿مرّ﴾ أو صفة لـ﴿ملأ﴾ ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو كناية عن اشتداد الأمر، وصعوبته. وقيل معناه: جاش الماء من تنّور الخبز. وكان من حجر لحواء، فصار إلى نوح ـ عليه السلام ـ. وقيل:

قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ

التنور: وجه الأرض ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تفسيره في سورة المؤمنين ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على اثنين وكذا ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه من أهل النار. وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنّه يختار الكفر بتقديره، وإرادته. جلّ خالق العباد، عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ﷺ: «كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم»[(١)]. وقيل: كانوا عشرة: خمسة رجال، وخمس نسوة. وقيل: كانوا اثنين[(٢)] وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع: ثمانية وسبعون، نصفهم رجال، ونصفهم نساء.

٤١ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ﴿بسم الله﴾ متّصل بـ﴿اركبوا﴾، حالاً من الواو، أي: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ مسمّين الله، أو: قائلين: بسم الله وقت إجرائها، ووقت إرسائها، إمّا لأن المجرى والمرسى للوقت، وإمّا لأنّهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: خفوق النجم. ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ جملة برأسها غير متعلّقة بما قبلها، وهي مبتدأ وخبر، يعني: أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ أمرهم بالركوب، ثمّ أخبرهم: أنّ مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أي: باسم الله إجراؤها وإرساؤها. وكان إذا أراد أن تجري قال: باسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: باسم الله، فرست. ﴿مجريها﴾ بفتح الميم وكسر الراء، من جرى

(١) قال ابن حجر: لم أره مرفوعاً، وذكره الطبري بإسنادٍ عن قتادة. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٩٤).

(٢) ليست في الأصل، وإثباتها ضروري.

إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ

إمّا مصدر، أو وقت: حمزة، وعليّ، وحفص[1]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث خلّصهم.

٤٢ ـ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متّصل بمحذوف دلّ عليه ﴿اركبوا فيها باسم الله﴾ كأنّه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله ﴿وهي تجرى بهم﴾ أي: السفينة تجري وهم فيها. ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ يريد: موج الطوفان. وهو جمع موجة، كتمر وتمرة. وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله. شبّه كلّ موجة منه بالجبل في تراكمها، وارتفاعها. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان، وقيل: يام. والجمهور على أنّه ابنه الصلبيّ. وقيل: كان ابن امرأته. ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه وعن السفينة. مفعل، من عزله عنه: إذا نحّاه، وأبعده. أو: في معزل عن دين أبيه. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بفتح الياء: عاصم، اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك: يا بنيّاً. غيره بكسر الياء، اقتصاراً عليه من ياء الإضافة. ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، أي: أسلم، واركب. ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٤٣ ـ ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ ألجأ. ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني من الغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلا الراحم، وهو الله تعالى. أو: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ من الطوفان ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ الله. أي: ﴿إلا﴾ مكان ﴿من رحم﴾ الله من المؤمنين. وذلك أنّه لمّا جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم مُعْتَصَم قطّ من جبل ونحوه سوى مُعْتَصَم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجّاهم، يعني: السفينة. أو: هو استثناء منقطع، كأنّه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧] ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين ابنه والجبل، أو: بين نوح وابنه

(١) في المطبوع: وبضم الميم وكسر الراء: أبو عمرو. والباقون بضم الميم، وفتح الراء.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فصار، أو: فكان في علم الله.

٤٤ ـ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ انْشِفي وتشرَّبي. والبلع: النّشْف ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص، من: غاضه إذا نقصه، وهو لازم ومتعدّ ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرّت السفينة بعد أن طافت الأرض كلّها ستّة أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ هو جبل بالموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: سحقاً لقوم نوح الذين غرقوا. يقال: بعد بعداً وبَعَداً: إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت. ولذلك خصّ بدعاء السّوء.

والنظر في هذه الآية من أربع جهات، علم البيان: وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتّصل بها. فنقول: إنّ الله تعالى لمّا أراد أن يبيّن معنى: أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدّ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض، وأن نقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنّا وعدناه من إغراق قومه فقُضِي، وأن نسوّي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى؛ بني الكلام على تشبيه[1] المراد بالمأمور الذي لا يتأتّى منه ـ لكمال هيبته ـ العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود تصويراً لاقتداره العظيم، وأنّ السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبديلاً، كأنّها عقلاء مميّزون، قد عرفوه حقّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده. ثمّ بَنَى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال عز وجلّ: ﴿وقيل﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد، وهو: ﴿يا أرض﴾ ﴿ويا سماء﴾، ثم قال مخاطباً لهما ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾ على سبيل

(١) من المطبوع.

. . . .

الاستعارة للشبه المذكور، ثمّ استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ، ثمّ استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوّي الأرض بالماء في الإنبات كتقوّي الآكل بالطعام. ثمّ قال: ﴿ماءك﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض، كاتّصال الملك بالمالك. ثمّ اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأنّي. ثمّ قال: ﴿وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً﴾ ولم يُصرِّح بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسوّى السفينة، وقال: بعداً، كما لم يصرِّح بقائل: ﴿يا أرض﴾ ﴿ويا سماء﴾. سلوكاً في كلّ واحد من ذلك لسبيل الكناية، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكوّن قاهر، وأنّ فاعلها واحد لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: ﴿يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوّي غيره. ثمّ ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط، وأنّ ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم.

ومن جهة علم المعاني، وهو: النظر في فائدة كلّ كلمة فيها وجهة كلّ تقديم وتأخير فيما بين جملها؛ وذلك أنّه اختير ﴿يا﴾ دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المنادَى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، والملكوت، وإبداء العزّة والجبروت، وهو تبعيدُ المنادَى المؤذن بالتهاون به. ولم يقل: يا أرضي لزيادة التهاون، إذ الإضافة تستدعي القرب. ولم يقل يا أيتها الأرض للاختصار. واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخفّ وأدور، واختير ﴿ابلعي﴾ على ابتلعي لكونه أخصر، وللتجانس بينه وبين ﴿أقلعي﴾. وقيل: ﴿أقلعي﴾ ولم يقل عن المطر، وكذا لم يقل: ﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾ فبلعت ﴿ويا سماء اقلعي﴾ فأقلعت اختصاراً، واختير ﴿غيض﴾ على غيّض، وقيل: ﴿الماء﴾ دون أن يقول: ماء الطوفان، و﴿الأمر﴾ ولم يقل أمر نوح وقومه، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك. ولم يقل: وسوّيت على الجودي، أي: أقرّت على نحو ﴿قيل﴾ و﴿غيض﴾ اعتباراً لبناء الفعل للفاعل

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ﴾

مع السفينة في قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾ إرادة للمطابقة. ثم قيل: ﴿بعداً للقوم﴾ ولم يقل ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار. هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم، وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنّه قدّم النداء على الأمر، فقيل: ﴿يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي﴾ ولم يقل: ابلعي يا أرض، وأقلعي يا سماء، جرياً على مقتضى الكلام فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنَادَى قصداً بذلك لمعنى الترشيح، ثمّ قدّم أمر الأرض على أمر السماء، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها، ثمّ أتبع ﴿وغيض الماء﴾ لاتّصاله بقصّة الماء، وأخذه بحجزتها، ثمّ ذكر ما هو المقصود من القصة، وهو قوله: ﴿وقضي الأمر﴾ أي: أنجز الموعد من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومَن معه في الفلك. وعلى هذا فاعتبر.

ومن جهة الفصاحة المعنويّة، وهي: كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخّصة مبيّنة، لا تعقيد يُعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيّك الطريق إلى المرتاد.

ومن جهة الفصاحة اللفظية، فألفاظها على ما ترى عربيّة، مستعملة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سَلِسَة على الأسَلات، كلّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

ومن ثمّ أطبق المعاندون على أنّ طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية. ولله درّ شأن التنزيل، لا يتأمّل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا نظنن الآية مقصورة على المذكور، فلعلّ المتروك أكثر من المسطور.

٤٥ ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ نداؤه ربّه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنّه كان ابنه مطن صلبه، أو كان ربيباً له، فهو بعض أهله. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإنّ كلّ وعد تعده فهو الحقّ الثابت؛ الذي لا شكّ في إنجازه، والوفاء به. وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ

ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن

﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكّام، وأعدلهم، إذ لا فَضْل لحاكم على غيره إلا بالعلم، والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلّدي الحكومة في زمانك قد لقب: أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين، فاعتبر، واستعبر.

٤٦ ـ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم علّل لانتفاء كونه من أهله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك ـ وإن كان حبشيّاً وكنت قرشيّاً ـ لصيقك. ومَن لم يكن على دينك، وإن كان أمسّ أقاربك رحماً؛ فهو أبعد بعيد منك. وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمّه، كقولها[١]:

... ... فـإنّمـا هـي إقبـالٌ وإدبـارُ[٢]

أو: التقدير: إنه ذو عمل. وفيه إشعارٌ بأنّه إنّما أنجى مَن أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنّهم أهله. وهذا لمّا انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّته. ﴿عَمِلَ غيرَ صالح﴾: عليّ، قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: كان عند نوح ـ عليه السلام ـ أنّ ابنه كان على دينه لأنّه كان ينافق. وإلا لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فكان يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتّى أطلعه الله عليه. وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: من الذين وعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السرّ والظاهر ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ اجتزاءً بالكسرة عن الياء: كوفيّ ﴿تسألني﴾: بصريّ، ﴿تسألنيَ﴾: مدنيّ ﴿تَسَأَلَنِّ﴾: شاميّ. فحذف الياء، واجتزأ بالكسرة. والنون نون التأكيد ﴿تسألنَّ﴾: مكيّ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بجواز مسألته ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن

---

(١) هي الخنساء.

(٢) عجز بيت وصدره: لاتسأم الدهر منه كلما ذكرت.

تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

﴿تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هو كما نهى رسولنا بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

٤٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحّته، تأدّباً بأدبك، واتّعاظاً بموعظتك ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرط منّي ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٤٨ ـ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ بتحيّة منّا، أو: بسلامة من الغرق ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ هي: الخيرات النامية، وهي في حقّه: بكثرة ذرّيته، وأتباعه، فقد جعل أكثر الأنبياء من ذرّيته، وأئمّة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من للبيان. فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنّهم كانوا جماعات. أو: قيل لهم: أمم؛ لأنّ الأمم تتشعّب منهم، أو: لابتداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر. وهو الوجه ﴿وَأُمَمٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق، والخفض في العيش. صفة. والخبر محذوف، تقديره: وممن معك ﴿أمم سنمتّعهم﴾. وإنّما حذف لأنّ ﴿ممن معك﴾ يدلُّ عليه ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. والمعنى: أنّ السلام منّا، والبركات عليك، وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك. وممن معك أمم ممتّعون بالدنيا، منقلبون إلى النار. [كان نوح ـ عليه السلام ـ أبا الأنبياء][1] والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة. وعن محمد بن كعب: دخل في ذلك السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وفيما بعده من المتاع والعذاب كلّ كافر.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ

٤٩ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصّة نوح ـ عليه السلام ـ. ومحلّها الرفع على الابتداء. والجمل بعدها وهي: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، أخبار. أي: تلك القصّة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوقت، أو: من قبل إيحائي إليك، وإخبارك بها ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقّعْ في العاقبة لك، ولمن كذّبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوز، والنصر، والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

٥٠ ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم. وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا نوحاً﴾، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم﴾ ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع: نافع. صفة على محلّ الجارّ والمجرور. وبالجرّ: علي. على اللفظ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء.

٥١ ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهّم شيء منها لم تنجع، ولم تنفع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك.

٥٢ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المطر. ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ حال، أي: كثرة الدرور ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إنّما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر، وزيادة

وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ

القوّة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلّين بما أوتوا من شدّة البطش، والقوّة. وقيل: أراد القوّة في المال، أو: على النكاح. وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وعقمت أرحام نسائهم، فوعدهم هود ـ عليه السلام ـ المطر، والأولاد، على الإيمان، والاستغفار. وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنّه وفد على معاوية، فلمّا خرج قال له بعض حجّابه: إنيّ رجل ذو مال، ولا يولد لي، علّمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً. فقال الحسن: عليك بالاستغفار. فكان يكثر الاستغفار، حتّى ربّما استغفر في يوم واحد سبعمئة مرّة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية: فقال: هلاّ سألته ممّ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل، فقال: ألم تسمع قول هود: ﴿ويزيدكم قوّة إلى قوّتكم﴾ وقول نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢]؟ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عنّي، وعمّا أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على إجرامكم، وآثامكم.

٥٣ ـ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: ٧] مع فوت آياته الحصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ هو حال من الضمير في: ﴿تاركي آلهتنا﴾ كأنّه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

٥٤ ـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ «إنْ» حرف نفي، فنفى جميع القول إلا قولاً واحداً، وهو قولهم: ﴿اعْتَرَاكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون وخبل. وتقديره: ما نقول قولاً إلا هذه المقالة، أي: قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٥٥ ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من إشراككم آلهة من دونه. والمعنى: إني أشهد الله ﴿أنيّ بريء ممّا تشركون﴾. واشهدوا أنتم أيضاً أنيّ بريء من ذلك. وجيء به

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾

على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: اشهد على أنيّ لا أحبّك، تهكّماً به، واستهانة بحاله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم، وآلهتكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلون. فإنيّ لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم عليّ. وكيف تضرّني آلهتكم، وما هي إلا جماد لا يضرّ ولا ينفع؟! وكيف تنتقم منّي إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبّلني، وتذهب بعقلي؟!

٥٦ ـ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: مالكها. ولمّا ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكّل عليه من اشتمال ربوبيّته عليه وعليهم، ومن كون كلّ دابّة في قبضته، وملكته، وتحت قهره وسلطانه. والأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنّ ربّي على الحقّ لا يعدل عنه. أو: ﴿إنّ ربي﴾ يدلّ ﴿على صراط مستقيم﴾.

٥٧ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ هو في موضع: فقد ثبتت الحجة عليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أي: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم، وأموالكم. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولّيكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من ضرر قطّ؛ إذ لا يجوز عليه المضارّ، وإنّما تضرّون أنفسكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب عليه، مهيمن. فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو: من كان رقيباً على الأشياء كلّها حافظاً لها، وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضارّ، لم يضرّ مثله مثلكم.

٥٨ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بفضل منّا لا بعلمهم، أو: بالإيمان أنعمنا عليهم. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وتكرار ﴿نجّينا﴾ للتأكيد. أو: الثانية: من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

٥٩ ـ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنّه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها، واعتبروا. ثمّ استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنّهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل؛ لأنّهم الذين يجبرون الناس على الأمور، ويعاندون ربّهم. ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم.

٦ ـ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لمّا كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ﴾ تكرار ﴿أَلَا﴾ مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم. والدعاء بِبُعْداً بعد هلاكهم ـ وهو دعاء بالهلاك ـ للدلالة على أنّهم كانوا مستأهلين له ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد. وفيه فائدة لأنّ عاداً عادان: الأولى: القديمة؛ التي هي قوم هود، والقصّة فيهم، والأخرى: إرم.

٦١ ـ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلاّ هو. وإنشاؤهم منها: خلق آدم من التراب، ثمّ خلقهم من آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم عمّارها، وأراد منكم عمارتها. أو: استعمركم، من العمر، أي: أطال أعماركم فيها. وكانت أعمارهم من ثلاثمئة إلى ألف. وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم، فسأل نبيّ من أنبياء زمانهم ربّه عن سبب تعميرهم، فأوحى الله إليه: أنّهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ فاسألوه مغفرته بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ داني الرحمة ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن دعاه.

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ
هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ

٦٢ ـ ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ للسيادة، والمشاورة في الأمور. أو: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن: أرابه: إذا أوقعه في الريبة. وهي: قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة.

٦٣ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوّة. أتى بحرف الشكّ مع أنّه على يقين أنه على بينة؛ لأنّ خطابه للجاحدين، فكأنّه قال: قدِّروا أنّي على بيّنة من ربّي، وأنّني نبيّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم، وعصيت ربّي في أوامره ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته، ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بقولكم: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ بنسبتكم إيّاي إلى الخسار، أو: بنسبتي إياكم إلى الخسران.

٦٤ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال، قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. و﴿لَكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿آية﴾ حالاً منها متقدّمة؛ لو تأخّرت لكانت صفة لها، فلمّا تقدّمت انتصبت على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقها، مع أنّ لكم نفعها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عقر، أو نحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل.

٦٥ ـ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يوم الأربعاء. ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في بلدكم. وتسمى البلاد: الديار؛ لأنّه يدار فيها، أي: يتصرّف. أو: في دار الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثمّ تهلكون. فهلكوا يوم السبت

ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ أي: غير مكذوب فيه. فاتّسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به. أو: وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمعقول.

٦٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب، أو: عذابنا ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: هذا يدلّ على أنّ من نجّي إنّما نجّي برحمة الله تعالى لا بعمله، كما قال ﷺ: «لا يدخل أحد الجنّة إلا برحمة الله»[(١)] ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ بإضافة الخزي إلى اليوم، وانجرار اليوم بالإضافة. وبفتحها: مدنيّ، وعليّ، لأنّه مضاف إلى إذ، وهو مبني. وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة، والأفعال الماضية بنيت، واكتسبت البناء من المضاف إليه، كقوله[(٢)]:

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصبا[(٣)] ....

والواو للعطف، وتقديره: ﴿و﴾ نجّيناه ﴿من خزي يومئذ﴾ أي: من ذلّه وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي مَن كان هلاكه بغضب الله، وانتقامه. وجاز أن يريد بـ﴿يومئذٍ﴾ يوم القيامة، كما فسّر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

٦٧ ـ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ منازلهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٧) بلفظ: «لا يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنةَ، ولا يجيرُه من النار، ولا أنا، إلا برحمةٍ من الله».
(٢) هو النابغة الذبياني.
(٣) هذا صدر بيت، وعجزه: فقلت ألما أصح والشيب وازع.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ
أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ
لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٦٨ ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ لم يقيموا فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ ﴿ثمود﴾: حمزة وحفص ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ﴿لثمودٍ﴾: عليّ. فالصرف للذهاب إلى الحيّ، أو: الأب الأكبر. ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

٦٩ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، أو: جبريل مع أحد عشر ملكاً ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالولد، أو: بهلاك قوم لوط. والأوّل أظهر ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أمركم ﴿سلام﴾. (سِلْمٌ): حمزة، وعليّ، بمعنى السلام ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾ فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه. أو: فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة. وكان مال إبراهيم: البقر ﴿حَنِيذٍ﴾ مشويّ بالحجارة المحماة.

٧٠ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ نكر، وأنكر بمعنى. وكانت عادتهم أنّه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه. والظاهر: أنه أحسّ بأنّهم ملائكة. ونكرهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو: لتعذيب قومه. دليله قوله: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر منهم خوفاً ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب. وإنّما يُقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا. وإنّما قالوا: ﴿لا تخف﴾ لأنّهم رأوا أثر الخوف، والتغير في وجهه.

٧١ ـ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع تحاورهم، أو: على رؤوسهم تخدمهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو: بهلاك أهل الخبائث، أو: من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب، أو: فحاضت ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وخصّت بالبشارة؛ لأنّ النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنّه لم يكن لها ولد، وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ ومن بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب: شاميّ، وحمزة، وحفص بفعل مضمر دل عليه: ﴿فبشّرناها بإسحاق﴾

قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

أي: فبشرناها بإسحاق، ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق. وبالرفع غيرهم على الابتداء، والظرف قبله: خبر، كما تقول: في الدار زيد.

٧٢ ـ ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الألف مبدلة من ياء الإضافة. وقرأ الحسن: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء على الأصل ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين سنة ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ ابن مئة وعشرين سنة ﴿هذا﴾ مبتدأ، و﴿بعلي﴾ خبره، و﴿شيخاً﴾ حال. والعامل: معنى الإشارة التي دلّت عليه ذا، أو: معنى التنبيه الذي دلّ عليه ﴿هذا﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أن يولد من هرمين، وهو استبعادٌ من حيث العادة.

٧٣ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قدرته وحكمته. وإنما أنكرت الملائكة تعجّبها؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقّر، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوّة، وأن تسبّح الله، وتمجّده مكان التعجّب. وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. أرادوا: أن هذه وأمثالها ممّا يكرمكم به ربّ العزّة، ويخصّكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجيب. وهو كلام مستأنف علّل به إنكار التعجّب، كأنّه قيل: إيّاكِ والتعجّب، فإن أمثالَ هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل: الرحمة: النبوّة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم، وكلّهم من ولد إبراهيم. و﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء، أو: على الاختصاص ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ محمود بتعجيل النعم ﴿مَّجِيدٌ﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النقم.

٧٤ ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الفزع ـ وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه ـ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد ﴿يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: لمّا اطمأنّ قلبه

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾

بعد الخوف، وملىء سروراً بسبب البشرى فزع للمجادلة. وجواب لمّا محذوف، تقديره: أقبل يجادلنا. أو: ﴿يجادلنا﴾ جواب لمّا. وإنّما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إيّاهم: أنّهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون! قالوا لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتّى بلغ العشرة. قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا . فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

٧٥ ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على كلّ مَن أساء إليه، أو: كثير الاحتمال ممن آذاه، صفوح عمن عصاه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من خوف الله ﴿مُّنِيبٌ﴾ تائب راجع إلى الله. وهذه الصفات دالّة على رقّة القلب، والرأفة والرحمة، فبيّن: أنّ ذلك ممّا حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلّهم يحدثون التوبة، كما حمله على الاستغفار لأبيه. فقالت الملائكة:

٧٦ ـ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك[1] ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه، وحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا يردّ بجدال وغير ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ مرتفع باسم الفاعل، وهو ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ تقديره: وإنهم يأتيهم.

٧٧ ـ ثمّ خرجوا من عند إبراهيم متوجّهين نحو قوم لوط، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ لمّا أتوه، ورأى هيئاتهم وجمالهم ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أحزن؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، ومدافعتهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز، أي: وضاق بمكانهم صدره ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد.

(١) «الديدن»: العادة والدأب.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

رُوي: أنّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتّى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلمّا مشى منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنّها لشرّ قرية في الأرض عملاً ـ قال ذلك أربع مرّات ـ فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها.

٧٨ ـ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون، كأنّما يُدفعون دفعاً ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتّى مرنوا عليها، وقلّ عندهم استقباحها، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين، لا يكفّهم حياء ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزوجوهنّ. أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم. وكان تزويج المسلمات من الكفّار جائزاً في ذلك الوقت، كما جاز في الابتداء في هذه الأمّة، فقد زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص، وهما كافران. وقيل: كان لهم سيّدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوّجهما ابنتيه ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أحلّ. ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، ﴿وبناتي﴾ عطف بيان، و﴿هنّ﴾ فصل، و﴿أطهر﴾ خبر المبتدأ. أو: ﴿بناتي﴾ خبر، و﴿هنّ أطهر﴾ مبتدأ وخبر ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بإيثارهنّ عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تهينوني، لا تفضحوني، من الخزي. أو: ولا تخجلوني، من الخزاية، وهي الحياء. وبالياء: أبو عمرو في الوصل ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾ في حقّ ضيوفي. فإنّه إذا خزي ضيف الرجل، أو: جاره، فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحقّ، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء.

٧٩ ـ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ حاجة، لأنّ نكاح الإناث أمرٌ خارج عن مذهبنا، فمذهبنا: إتيان الذكران ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ عنوا: إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾

٨٠ ـ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لفعلت بكم، ولصنعت. والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو: أويت إلى قويّ أستند إليه، وأتمنّع به، فيحميني منكم. فشبّه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته، ومنعته.

٨١ ـ رُوي: أنّه أغلق بابه حين جاؤوا، وجعل يرادّهم كما حكى الله عنه، ويجادلهم، فتسوّروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إنّ ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب، ودعنا وإيّاهم. ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربّه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء! إن في بيت لوط قوماً سحرة ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ جملة موضّحة للتي قبلها؛ لأنّهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره ﴿فَأَسْرِ﴾[1] بالوصل: حجازيّ، من: سرى ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ طائفة منه، أو: نصفه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبه إلى ما خلّف، أو: لا ينظر إلى ما وراءه، أو: لا يتخلّف منكم أحد ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ مستثنى من ﴿فأسر بأهلك﴾. وبالرفع: مكيّ، وأبو عمرو على البدل من أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: رُوي: أنّه أخرجها معهم، وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي. فلمّا سمعت هدّة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه! فأدركها حجر، فقتلها. ورُوي: أنّه أمر بأن يخلّفها مع قومها، فإنّ هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الراويتين ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: إنّ الأمر. ورُوي: أنّه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فقال:

(١) في الأصل المخطوط ﴿فاسْرِ﴾ وهي قراءة الوصل.

أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟

٨٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعل جبريل ـ عليه السلام ـ جناحه في أسفلها، أي: أسفل قراها، ثمّ رفعها إلى السماء حتّى سمع أهلُ السماء نباحَ الكلاب، وصياح الديكة، ثمّ قلبها عليهم، وأُتبعوا الحجارة من فوقهم. وذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. هي كلمة معرّبة من «سنك كل» بدليل قوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] ﴿مَّنضُودٍ﴾ نعت لسجّيل، أي: متتابع، أو: مجموع معدّ للعذاب.

٨٣ ـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت لحجارة، أي: معلّمة للعذاب. قيل: مكتوب على كلّ واحد اسم من يُرمى به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه، أو: في حكمه ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ بشيء بعيد. وفيه وعيدٌ لأهل مكّة، فإنّ جبريل ـ عليه السلام ـ قال لرسول الله ﷺ: يعني: ظالمي أمتك. ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط من ساعة إلى ساعة. أو: الضمير للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكّة، يمرّون بها في مسايرهم.

٨٤ ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ اسم مدينتهم، أو اسم جدّهم مدين بن إبراهيم. أي: وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين، أو: إلى بني مدين ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ﴾ أي المكيل بالمكيال ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والموزون بالميزان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف. أو: أراكم بنعمة من الله حقّها أن تقابل بغير ما تفعلون ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مهلك. من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] وأصله: من إحاطة العدوّ. والمراد: عذاب الاستئصال في الدنيا، أو: عذاب الآخرة.

وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

٨٥ ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أتمّوها ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل. نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال، والميزان، ثمّ ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه. وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ البخس: النقص. كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ العثي والعيث: أشدّ الفساد، نحو: السرقة، والغارة، وقطع السبيل. ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثياً منهم في الأرض.

٨٦ ـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عمّا هو حرام عليكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا. نعم بقيّة الله خير للكفرة أيضاً، لأنّهم يسلمون معها من تبعة البخس، والتطفيف، إلا أنّ فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ولا تظهر مع عدمه؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك تعظيم للإيمان، وتنبيه على جلال شأنه. أو: المراد: إن كنتم مصدّقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إيّاكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ لنعمه عليكم. فاحفظوها بترك البخس.

٨٧ ـ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ وبالتوحيد كوفيّ، غير أبي بكر ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ كان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلوات، وكان قومه يقولون له: ما تستفيد بهذا؟ فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن، وتنهى عن القبائح. فقالوا على وجه الاستهزاء: ﴿أصلواتك تأمرك﴾ أن تأمرنا بترك عبادة ﴿مَا﴾ كان ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن﴾ نترك التبسّط ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ من إيفاء ونقص؟ وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازاً، كما سمّاها الله تعالى ناهية مجازاً ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي: السّفيه الضالّ. وهذه

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾

تسمية على القلب استهزاء. أو: إنّك حليم رشيد عندنا، ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك.

٨٨ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ﴾ من لدنه ﴿رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ يعني النبوة، والرسالة. أو: مالاً حلالاً من غير بخس، وتطفيف. وجواب ﴿أرأيتم﴾ محذوف، أي: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربّي، وكنت نبياً على الحقيقة، أيصحّ لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكفّ عن المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده، وأنت مولٍّ عنه. وخالفني عنه إذا ولّى عنه، وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنّه قد ذهب إليه وارداً، وأنا ذاهبٌ عنه صادراً، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها، لأستبدّ بها دونكم ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ ظرف، أي: مدّة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكّناً منه لا آلو فيه جهداً ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحقّ فيما آتي وأذر إلا بمعونته، وتأييده ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في السرّاء، والضرّاء.

٨٩ ـ «جرم» مثل «كسب» في تعدّيه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين، ومنه قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: لا يكسبنّكم خلافي إصابة العذاب ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ وهو الغرق، والريح، والرجفة ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ في الزمان، فهم أقرب الهالكين منكم، أو: في المكان، فمنازلهم قريبة منكم، أو: فيما يستحق به الهلاك، وهو: الكفر، والمساوىء. وسُوّي: في قريب، وبعيد، وقليل، وكثير بين المذكّر

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا
بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾

والمؤنث، لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل، والنهيق، ونحوهما.

٩٠ ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿وَدُودٌ﴾ يحب أهلَ الوفاء من الصالحين.

٩١ ـ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: لا نفهم صحّة ما تقول، وإلا فكيف لا يفهم كلامه، وهو خطيب الأنبياء؟! ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوّة لك، ولا عزّ فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منّا إن أردنا بك مكروهاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، وهو شرّ قتلة. وكان رهطه من أهل ملّتهم، فلذلك أظهروا الميل لهم، والإكرام لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعز علينا، ولا تكرم حتّى نكرمك من القتل، ونرفعك عن الرجم. وإنّما يعزّ علينا رهطك، لأنّهم من أهل ديننا. وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ بل رهطك هم الأعزّة علينا، ولذلك:

٩٢ ـ ﴿قَالَ﴾ في جوابهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾. ولو قيل: وما عززت علينا؛ لم يصح هذا الجواب. وإنما قال: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾. والكلام واقع فيه وفي رهطه، وأنّهم الأعزّة عليهم دونه، لأنّ تهاونهم به ـ وهو نبيّ الله ـ تهاون بالله. وحين عزّ عليهم رهطه دونه كان رهطه أعزّ عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؟ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر، لا يعبأ به. والظهريّ منسوب إلى الظهر. والكسر من تغييرات النسب، كقولهم في النسبة إلى الأمس: أمسيّ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها.

٩٣ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هي بمعنى المكان. يقال: مكان

﴿إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾

ومكانة، ومقام ومقامة. أو: مصدر من: مكُن، فهو مكين إذا تمكّن من الشيء، يعني: اعملوا قارّين على جهتكم؛ التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو: اعملوا متمكّنين من عداوتي، مطيقين لها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة، والتأييد، ويمكنني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ «مَنْ» استفهامية معلّقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا يأتيه عذاب ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي: يفضحه، وأيّنا هو كاذب. أو: موصولة قد عمل فيها، كأنّه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الذي يأتيه عذاب يخزيه، والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم. وإدخال الفاء في ﴿سوف﴾ وصل ظاهر بحرف وضع للوصل. ونزعها وصل تقديريّ بالاستئناف، الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنّهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. والإتيان بالوجهين للتفنّن في البلاغة. وأبلغهما الاستئناف ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر. والرقيب بمعنى الراقب، من: رقبه، كالضريب بمعنى الضارب. أو: بمعنى المراقب، كالعشير [بمعنى المعاشر][1]. أو: بمعنى المرتقب، كالرفيع بمعنى المرتفع.

٩٤ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبريل فهلكوا. وإنّما ذكر في آخر قصّة عاد ومدين ﴿ولمّا جاء﴾ وفي آخر قصة ثمود ولوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ [هود: ٦٦] لأنّهما وقعا بعد ذكر الموعد، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كقولك: وعدته، فلما جاء الميعاد كان كيت و كيت. وأمّا الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين، فكان

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ

حقّهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما، كما تعطف قصّة على قصّة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم[١]، يعني: أنّ جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كلّ واحد منهم بحيث هو بغتة.

٩٥ ـ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء، متصرّفين، متردّدين ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ ﴾ البعد بمعنى البَعَد، وهو: الهلاك، كالرُّشد بمعنى الرَشَد. أَلا ترى إلى قوله: ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾. وقرىء ﴿كما بعُدت﴾. والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنّهم فرّقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيّروا البناء، كما فرّقوا بين زماني الخير والشرّ، فقالوا: وعد وأوعد.

٩٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ المراد به: العصا، لأنّها أبهرها.

٩٧ ـ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ ﴾ أي: الملأ ﴿ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ وهو تجهيل لمتّبعيه حيث تابعوه على أمره، وهو ضلال مبين. وذلك أنّه ادّعى الألوهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر، الذي لا يأتي إلا من شيطان. ومثله بمعزل عن الألوهية. وفيه: أنّهم عاينوا الآيات والسلطان المبين، وعلموا: أنّ مع موسى الرشد و الحقّ، ثمّ عدلوا عن اتّباعه إلى اتّباع مَن ليس في أمره رشد قط. أو المراد: وما أمره بصالح، حميد العاقبة، ويكون قوله:

٩٨ ـ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي: يتقدمهم وهم على عقبه، تفسيراً له، وإيضاحاً. أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته؟ والرشد يُستعمل في كلّ ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغيّ في كلّ ما يذمّ. ويقال: قدَمه بمعنى: تقدّمه ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أدخلهم. وجيء بلفظ الماضي، لأنّ الماضي يدلّ على أمر موجود، مقطوع به، فكأنّه قيل: يقدمهم، فيوردهم النار لا محالة، يعني: كما

---

(١) أي: لا يبرح.

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ
ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ
ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدّمهم إلى النار، وهم يتبعونه ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾ المورد، و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي وردوه. شبّه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وشبّه أتباعه بالواردة. ثمّ قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي يردونه: النار، لأن الورد إنّما يراد لتسكين العطش، والنار ضدّه.

٩٩ ـ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾ أي: الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ رفدهم، أي: بئس العون المعان، أو: بئس العطاء المُعْطَى.

١٠٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ خبر ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿مِنْهَا﴾ من القرى ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضها باق، وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه، والذي حصد. والجملة مستأنفة لامحلّ لها من الإعراب.

١٠١ ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إيّاهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فما قدرت أن تردّ عنهم بأس الله ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ يعبدون. وهي حكاية حال ماضية ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه. و﴿لمّا﴾ منصوب بـ﴿ما أغنت﴾ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ تخسير. يقال: تبّ؛ إذا خسر، وتبّبه غيره: إذا أوقعه في الخسران. يعني: وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً، بل أهلكتهم.

١٠٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ محل الكاف: الرفع، ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلها ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من ﴿القرى﴾ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم، شديد، صعب على المأخوذ. وهذا تحذير لكلّ قرية ظالمة من كفّار مكّة وغيرها. فعلى كلّ ظالم أن يبادر التوبة، ولايغترّ بالإمهال.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: اعتقد صحته، ووجوده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ هو مرفوع بمجموع، كما يَرفع فعله إذا قلت: يُجمع له الناس. وإنّما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم. وإنّه أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس. وإنهم لاينفكّون منه. يجمعون للحساب، والثواب، والعقاب ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: مشهود فيه، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أي: يشهد فيه الخلائق الموقف، لايغيب عنه أحد.

١٠٤ ـ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم المذكور. الأجل يطلق على مدّة التأجيل كلّها، وعلى منتهاها، والعدّ إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، إلا لانتهاء مدّة معدودةٍ بحذف المضاف، أو: ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدّة التي ضربناها لبقاء الدنيا.

١٠٥ ـ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ وبالياء: مكّي. وافقه أبو عمرو، ونافع، وعليّ في الوصل. وإثبات الياء هو الأصل، إذ لا علّة توجب حذفها. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. ونظيره: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]. وفاعل ﴿يأت﴾ ضمير يرجع إلى قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] لا اليوم المضاف إلى ﴿يأت﴾. و﴿يوم﴾ منصوب باذكر، أو: بقوله ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لاتتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا يشفع أحدٌ أحداً إلا بإذن الله ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف، لدلالة ﴿لاتكلمّ نفس﴾ عليه. وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] ﴿شَقِيٌّ﴾ معذّب ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي: ومنهم ﴿سعيد﴾ أي: منعّم.

١٠٦ ـ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو أوّل نهيق الحمار ﴿وَشَهِيقٌ﴾ هو آخره. أو: هما إخراج النفس، وردّه. والجملة في موضع

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾

الحال، والعامل فيها الاستقرار الذي في النار.

١٠٧ ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدّرة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في موضع النصب، أي: مدّة دوام السموات والأرض. والمراد سموات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أنّ لها سموات وأرضاً قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقيل: ما دامت فوق وتحت، ولأنّه لابدّ لأهل الآخرة مّما يقلّهم ويظلّهم إمّا سماء أو عرش. وكلّ ما أظلّك فهو سماء. أو: هو عبارة عن التأبيد، ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في عذاب النار، وذلك لأنّ أهل النار لايخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار. أو: ﴿ما شاء﴾ بمعنى من شاء، وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنّة، فيقال لهم: الجهنّميون، وهم المستثنون من أهل الجنّة أيضاً لمفارقتهم إيّاها بكونهم في النار أياماً، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد، ولا سعدوا سعادة من لا تمسّه النار. وهو مرويّ عن ابن عباس، والضّحّاك، وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بالشقي، والسعيد.

١٠٨ ـ ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ «سُعِدوا» حمزة، وعليّ، وحفص. سَعِد: لازم. وسَعَده يسعَده: متعدّ ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنّة. وذلك أنّ لهم سوى الجنّة ما هو أكبر منها، وهو رؤية الله تعالى، ورضوانه. أو: معناه: إلا من شاء أن يعذّبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنّة. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنّه قال: «الاستثناء في الآيتين لأهل الجنّة»[1]. ومعناه: ما ذكرنا: أنه لايكون

(١) رواه ابن مردويه عن جابر بنحوه. (الدر المنثور ٤/ ٤٧٦).

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

للمسلم العاصي؛ الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها، ولايكون له أيضاً خلود في الجنّة، لأنّه لم يدخل الجنّة ابتداء. والمعتزلة لمّا لم يروا خروج العصاة من النار ردّوا الأحاديث المرويّة في هذا الباب، وكفى به إثماً مبيناً ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، ولكنّه ممتد إلى ما غير نهاية، كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. وهو نصب على المصدر، أي: أعطوا ﴿عطاء﴾. قيل: كفرت الجهميّة بأربع آيات ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

١٠٩ ـ لمّا قصّ الله قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه، وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص، في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم ـ تسلية لرسول الله ﷺ، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم. ثمَّ قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد: أنّ حالهم في الشرك مثل حال آبائهم، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزل بهم مثله. وهو استئناف، معناه: تعليل النهي عن المرية. و﴿ما﴾ في ﴿مما﴾ و﴿كما﴾ مصدريّة، أو: موصولة، أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو: مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظّهم من العذاب، كما وفّينا آباءهم أنصباءهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من ﴿نصيبهم﴾ أي: كاملاً.

١١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن. وهو تسليةٌ لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أنّه لايعاجلهم بالعذاب ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى، أو: قومك بالعذاب المستأصل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من العذاب

مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿مُرِيبٍ﴾ من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، على الإسناد المجازي.

١١١ ـ ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنّ كلهم، أي: وإنّ جميع المختلفين فيه ﴿وإنّ﴾ مشدّدة ﴿لَّمَّا﴾[1] مخفّف: بصريّ، وعليّ. ﴿ما﴾ مزيدة، جيء بها ليفصل بها بين لام إنّ ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾. وهو جوابُ قسم محذوف. واللام في ﴿لما﴾ موطّئة للقسم. والمعنى: وإنّ جميعهم والله ﴿ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي: جزاء أعمالهم من إيمانٍ، وجحودٍ، وحسنٍ، وقبيح. بعكس الأولى: أبو بكر. مخفّفتان: مكّي، ونافع، على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، ولأن «إنّ» تشبه الفعل. والفعل يعمل قبل الحذف وبعده، نحو: لم يكن، ولم يك، فكذا المشبّه به. مشدّدتان غيرهم. وهو مشكل. وأحسن ما قيل فيه: أنّه من لممت الشيء: جمعته لمّاً، ثمّ وقف فصار: لمّا، ثم أجري الوصل مجرى الوقف. وجاز أن يكون مثل الدعوى، والثروى، وما فيه ألف التأنيث من المصادر. وقرأ الزهري: (وإنّ كلاً لمّاً) بالتنوين كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] وهو يؤيد ما ذكرنا. والمعنى: وإنّ كلاً ملمومين، أي: مجموعين، كأنّه قيل: وإنّ كلّاً جميعاً، كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]. وقال صاحب «الإيجاز»: ﴿لما﴾ فيه معنى الظرف، وقد دخل في الكلام اختصار، كأنّه قيل: ﴿وإنّ كلاًّ لمّا﴾ بعثوا ﴿ليوفينّهم ربّك أعمالهم﴾. وقال الكسائيّ: ليس لي بتشديد «لما» عِلْمٌ ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١١٢ ـ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها، غير عادلٍ عنها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ معطوف على المستتر في (استقم). وجاز للفاصل، يعني: فاستقم أنت، وليستقم من تاب عن الكفر، ورجع إلى الله مخلصاً ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو

---

(١) المثبت في الأصل المخطوط (لَمَا) مخففاً.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾

مجازيكم فاتّقوه. قيل: نزلت على رسول الله ﷺ اية كانت أشقّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال: «شيبتني هود»(١).

١١٣ ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولاتميلوا. قال الشيخ(٢) ـ رحمه الله ـ: هذا خطابٌ لأتباع الكفرة، أي: لاتركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم، وفيما يدعونكم إليه ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وقيل: الركون إليهم: الرضا بكفرهم. وقال قتادة: ولاتلحقوا بالمشركين. وعن الموفّق: أنّه صلّى خلف الإمام، فلمّا قرأ هذه الآية غشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى مَن ظلم، فكيف بالظالم؟!. وعن الحسن: جعل الله الدِّين بين لاءين: ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾. وقال سفيان: في جهنم وادٍ لايسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه»(٣). ولقد سُئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برّيّة، هل يُسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت! فقال: دعه يموت! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ حال من قوله: ﴿فتمسّكم النار﴾ أي: فتمسّكم النار، وأنتم على هذه الحالة. ومعناه: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يقدرون على منعكم من عذابه، ولايقدر على منعكم منه غيره ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ثمّ لاينصركم هو، لأنّه حكم بتعذيبكم. ومعنى ﴿ثمّ﴾ الاستبعاد، أي: النصرة من الله مستبعدة.

١١٤ ـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوة وعشيّة، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعات من الليل. جمع زلفة، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار. مِن: أزلفه، إذا قرّبه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشيّة: الظهر والعصر، لأن مابعد الزوال عشيّ. وصلاة الزلف: المغرب، والعشاء. وانتصاب ﴿طرفي

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧).
(٢) أي: المصنف رحمه الله تعالى.
(٣) رواه البيهقي في الشعب (٩٤٣٢).

إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ

النهار﴾ على الظرف، لأنّهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوّله، وآخره. تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إنّ الصلوات الخمس يذهبن الذنوب. وفي الحديث: «إنّ الصلوات الخمس تكفّر ما بينها من الذنوب»(١). أو: الطاعات. قال عليه الصلاة والسلام: «أتبع السيّئة الحسنة تمحها»(٢). أو: سبحان الله، والحمدلله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ﴿فاستقم﴾ فما بعده، أو: القرآن ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين. نزلت في عمرو بن غزية الأنصاريّ بائع التمر، قال لامرأة: في البيت تمر أجود، فدخلت فقبّلها، فندم، فجاءه حاكياً باكياً، فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «هل شهدت معنا العصر؟» قال: نعم. قال: «هي كفّارة لك». فقيل: أله خاصّة؟ قال: «بل للناس عامّة»(٣).

١١٥ ـ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على امتثال ما أمرت به، والانتهاء عمّا نهيت عنه، فلا يتمّ شيء منه إلا به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله: ﴿فاستقم﴾ إلى قوله: ﴿واصبر﴾ وغير ذلك من الحسنات.

١١٦ ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهلّا كان. هو موضوع للتخصيص، ومخصوص بالفعل ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أولو فضل، وخير. وسمّى الفضل والجودة ﴿بقيّة﴾ لأن الرجل يستبقي ممّا يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقيّة القوم، أي: من خيارهم. ومنه قولهم: في

---

(١) رواه محمد بن نصر كما في كنز العمال (١٨٩٥٧) بلفظ: «إن الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب». ورواه الحاكم (١/١١٩) بلفظ: «الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

(٢) رواه أحمد (٥/١٥٣) والترمذي (١٩٨٧).

(٣) رواه الترمذي (٣١١٣).

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عجّب محمداً ﷺ وأمّته أن لم يكن في الأمم التي ذكر الله إهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولي العقل، والدين، ينهون غيرهم عن الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و﴿من﴾ في ﴿ممن أنجينا﴾ للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة للناهين وحدهم؛ بدليل قوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: التاركون للنهي عن المنكر، وهو عطف على مضمر، أي: ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ نهوا عن الفساد ﴿واتّبع الذين ظلموا﴾ شهواتهم، فهو عطف على نهوا ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اتّبعوا ما عرفوا فيه التنعّم والترفّه من: حبّ الرئاسة، والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ اعتراض، وحكم عليهم بأنّهم قوم مجرمون.

١١٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ اللام لتأكيد النفي ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل، أي: لا يصحّ أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم. وقيل: الظلم: الشرك، أي: لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم، لا يضمّون إلى شركهم فساداً آخر.

١١٨ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: متّفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار، ولكن لم يشأ ذلك. وقالت المعتزلة: هي مشيئة قسر، وذلك رافع للابتلاء، فلا يجوز ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الكفر والإيمان، أي: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لمّا علم منهم اختيار ذلك.

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

١١٩ ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً عصمهم الله عن الاختلاف، فاتّفقوا على دين الحق، غير مختلفين فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولما هم عليه من الاختلاف. فعندنا خلقهم للذي علم أنّهم سيصيرون إليه من اختلاف، أو اتّفاق، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنّهم سيصيرون إليه. كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

١٢٠ ـ ﴿وَكُلًّا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه، كأنّه قيل: وكلّ نبأ. وهو منصوب بقوله: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكلّ. وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو: في هذه الأنباء المقتصّة ما هو حقّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه؛ لأنّ تكاثر الأدلّة أثبت للقلب.

١٢١ ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكّة، وغيرهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على مكانتنا.

١٢٢ ـ ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتصّ الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم.

١٢٣ ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية ممّا يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[1] فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم

(١) في الأصل المخطوط ﴿يَرجع﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ويعقوب. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٤٠).

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وأمرك، فينتقم لك منهم. ﴿يُرجع﴾: نافع، وحفص ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ فإنّه كافيك وكافلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾(١) وبالتاء: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. أي: أنت وهم على تغليب المخاطب. قيل: خاتمة التوراة هذه الآية. وفي الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله تعالى»(٢).

* * *

(١) في الأصل المخطوط ﴿يعملون﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبي عمرو، والحسن، وعيسى بن عمر. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٤٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٢٧٠) والديلمي في الفردوس (٥٨٦٨) بلفظ: «من أحب أن يعزه الله فليتوكل على الله» وقال الذهبي: في إسناده: هشام بن زياد: متروك، ومحمد بن معاوية: كذبه الدارقطني، فبطل الحديث.

سورة يوسف

ترتيبها ١٢ — آياتها ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾

١ ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات هذه السورة. و﴿الكتاب المبين﴾ السورة. أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب، أو: التي تبين لمن تدبّرها أنّها من عند الله لا من عند البشر، أو: الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو: قد أُبينَ فيها ما سألت عنه اليهود من قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ فقد رُوي: أنّ علماء اليهود قالوا للمشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ

٢ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ في حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾ وسمّى بعض القرآن قرآناً؛ لأنّه اسم جنس يقعُ على كلّه وبعضه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

٣ ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ نُبيّن لك أحسن البيان. والقاصّ: الذي يأتي بالقصّة على حقيقتها، عن الزجّاج. وقيل: القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص. تقول: قصّ الحديث يقصّه قصصاً. ويكون فَعْلاً بمعنى

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾

مفعول كالنفض، والحسب[١]. فعلى الأول معناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة. على أن يكون ﴿أحسن﴾ منصوباً نصبَ المصدر لإضافته إليه. والمقصوص محذوف؛ لأنّ ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنّه اقتصّ على أبدع طريقة، وأعجب أسلوب، فإنّك لا ترى اقتصاصه في كتب الأوّلين مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص، فمعناه: نحن نقصّ عليك أحسن ما يقصّ من الأحاديث. وإنّما كان أحسن لما يتضمّن من العبر، والحكم، والعجائب التي ليست في غيره. والظاهر أنّه أحسن ما يقتصّ في بابه، كما يقال: فلان أعلم الناس، أي: في فنّه. واشتقاق القصص من: قصّ أثره: إذا تبعه؛ لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما أوحينا﴾ ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عنه. ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين النافية. يعني: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به.

٤ ـ ﴿إِذۡ قَالَ﴾ بدل اشتمال من ﴿أحسن القصص﴾ لأنّ الوقتَ مشتملٌ على القصص. أو: التقدير: اذكر ﴿إذ قال﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ اسم عبرانيّ لا عربي، إذ لو كان عربياً لانصرف؛ لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ (أبتَ) شاميّ. وهي تاء تأنيث عوّضت عن ياء الإضافة لتناسبهما؛ لأنّ كلّ واحدة منهما زائدة في آخر الاسم، ولهذا قلبت هاء في الوقف. وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكّر، كما في: رجل ربعة. وكسرت التاء لتدلّ على الياء المحذوفة. ومن فتح التاء فقد حذف الألف من: يا أبتا، واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في: يا غلام ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا، لا من الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ أسماؤها ببيانَ النبيّ ﷺ: «جريان، والذيال، والطارق، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ،

(١) أي: نَفْضاً، بمعنى منفوض. وحَسْباً، بمعنى محسوب.

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

ووثّاب، وذو الكتفين»[1] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هما أبواه، أو: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته. قيل: الواو بمعنى: مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. وأجريت مجرى العقلاء في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ لأنّه وصفها بما هو المختصّ بالعقلاء، وهو: السجود. وكرّرت الرؤيا؛ لأنّ الأولى تتعلّق بالذات، والثانية بالحال. أو: الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأنّ أباه قال له: كيف رأيتها؟ فقال: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ أي: متواضعين، وهو حال. وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ. وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، أو: ثمانون.

٥ـ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ بالفتح حيث كان: حفص ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هي بمعنى الرؤية، إلا أنّها مختصّة بما كان منها في المنام دون اليقظة. وفرّق بينهما بحرفي التأنيث، كما في القربة والقربى ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ﴾ جواب النهي، أي: إن قصصتها عليهم كادوك. عرف يعقوب ـ عليه السلام ـ أنّ الله يصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسد الإخوة. وإنّما لم يقل فيكيدوك كما قال ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥] لأنّه ضمّن معنى فعل يتعدّى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمّن، فيكون آكد، وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألاَ ترى إلى تأكيده بالمصدر، وهو ﴿كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فيحملهم على الحسد، والكيد.

٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتباء الذي دلّت عليه رؤياك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك. والاجتباء: الاصطفاء. افتعال، من جبيت الشيء: إذا حصّلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ، غير داخل في

(١) رواه سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي معاً في دلائل النبوة. انظر: الدر المنثور (٢ / ٤٩٨).

مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا

حكم التشبيه. كأنّه قيل: وهو يعلمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. وتأويلها: عبارتها، وتفسيرها. وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا. أو: تأويل أحاديث الأنبياء، وكتب الله. وهو اسم جمع للحديث، وليس بجمع أحدوثة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، أي: جعلهم أنبياء في الدنيا، وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنّة. وآل يعقوب: أهله، وهم نسله وغيرهم. وأصل آل: أهل، بدليل تصغيره على: أهيل، إلاّ أنّه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبيّ، وآل الملك. ولا يقال آل الحجّام، ولكن أهله. وإنّما علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبيّاً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب؛ فلذا قال: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أراد الجدّ، وأبا الجدّ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحقّ له الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

٧ ـ ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصّتهم، وحديثهم ﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات، ودلالات على قدرة الله، وحكمته في كلّ شيء. ﴿آيةٌ﴾: مكّيّ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصّتهم، وعرفها، أو: آيات على نبوّة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم من غير سماع من أحد، ولا قراءة كتاب. وأسماؤهم: يهوذا، وروبين، وشمعون، ولاوي، وزبولون، ويشجر، وأمّهم: ليا بنت ليان، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر، من سُرِّيّتين: زلفة، وبلهة. فلمّا توفّيت ليا تزوّج أختها راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف.

٨ ـ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ اللام: لام الابتداء. وفيها تأكيد، وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا: أنّ زيادة محبّته لهما أمر ثابت، لا شبهة فيه. وإنّما قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم إخوته أيضاً؛ لأنّ أمّهما كانت واحدة. وإنّما قيل: ﴿أَحَبُّ﴾ في الاثنين؛ لأن «أفعل مِن» لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه،

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

ولا بين المذكّر والمؤنّث، ولابدّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف ساغ الأمران. والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ للحال. أي: أنّه يفضّلهما في المحبّة علينا، وهما صغيران، لا كفاية فيهما، ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحقّ بزيادة المحبّة منهما لفضلنا بالكثرة، والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ غلط في تدبير أمر الدنيا. ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا. والعصبة: العشرة فصاعداً.

٩ ـ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إذ قالوا﴾ كأنّهم أطبقوا على ذلك، إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾. وقيل: الآمر بالقتل شمعون، والباقون كانوا راضين، فجعلوا آمرين ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة، مجهولة، بعيدة عن العمران. وهو معنى تنكيرها وإخلائها عن الوصف. ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة، لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبّته لهم ممن يشاركهم فيها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. وجاز أن يُرادَ بالوجه الذات، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ مجزوم عطفاً على ﴿يخل لكم﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف، أي: من بعد كفايته بالقتل، أو التغريب، أو: من بعد قتله، أو طرحه. فيرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا، أو اطرحوا ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو: يصلح حالكم عند أبيكم.

١٠ ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإنّ القتل عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعر البئر، وما غاب منه عن عين الناظر. (غيابات) وكذا ما بعده: مدنيّ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ به شيئاً.

قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

١١ ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ أي: لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه؟ وأرادوا بذلك ـ لمّا عزموا على كيد يوسف ـ استنزاله عن رأيه، وعادته في حفظه منهم. وفيه دليلٌ على أنّه أحسّ منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه.

١٢ ـ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾[1] نتّسع في أكل الفواكه وغيرها. والرَّتْعَة: السعة ﴿وَيَلْعَبْ﴾ نتفرّج بما يباح كالصيد، والرمي، والركض. بالياء فيهما: مدنيّ، وكوفيّ. وبالنون فيهما: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وبكسر العين: حجازيّ، من: ارتعى، يرتعي. افتعال من الرعي ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

١٣ ـ ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به. واللام لام الابتداء ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ اعتذر إليهم بأنّ ذهابهم به ممّا يحزنه؛ لأنّه كان لايصبر عنه ساعة، وأنّه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم، ولعبهم.

١٤ ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ اللام موطّئة للقسم. والقسم محذوف، تقديره: والله ﴿لئن أكله الذئب﴾. والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ـ أي: فرقة مجتمعة، مقتدرة على الدفع ـ للحال ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ جواب للقسم، مجزىء عن جزاء الشرط، أي: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً، وخسرناها. وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول؛ لأنّ ذلك كان يغيظهم.

(١) في الأصل المخطوط ﴿نرتع﴾ وكذا ﴿نلعب﴾. وهما قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وابن عامر، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ١٥٣).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ
هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

١٥ ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: عزموا على إلقائه في البئر. وهي بئر عل ثلاثة فراسخ[١] من منزل يعقوب ـ عليه السلام ـ. وجواب ﴿لمّا﴾ محذوف، تقديره: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد رُوي: أنّهم لمّا برزوا به إلى البرّيّة أظهروا له العداوة، وضربوه، وكادوا يقتلونه. فمنعهم يهوذا. فلمّا أرادوا إلقاءه في الجبّ تعلّق بثيابهم، فنزعوها من يده، فتعلّق بحائط البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطّخوه بالدم، فيحتالوا به على أبيهم، ودلّوه في البئر، وكان فيها ماء، فسقط فيه. ثمّ أوى إلى صخرة، فقام عليها، وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. ويُروى: أنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أُلقي في النار جرّد عنه ثيابه، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ بقميص من حرير الجنّة، فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمةٍ علّقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل، وألبسه إيّاه[٢] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قيل: أُوحي إليه في الصغر، كما أوحى إلى يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وقيل: كان إذ ذاك مدركاً ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لتحدّثنّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّك يوسف لعلوّ شأنك، وكبرياء سلطانك. وذلك أنّهم حين دخلوا عليه ممتارين ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ دعا بالصواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ، فقال: إنّه ليخبرني هذا الجام أنّه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وأنّكم ألقيتموه في غيابة الجبّ، وقلتم لأبيه: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس. أو: يتعلّق ﴿وهم لا يشعرون﴾ بأوحينا، أي: آنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة ﴿وهم لا يشعرون﴾ ذلك.

١٦ ـ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ للاستتار، والتجسّر على الاعتذار ﴿يَبْكُونَ﴾

---

(١) الفرسخ = ١٧٢٨ م.

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة إسنادها، والأولى التنبيه عليها في كتب التفسير وغيرها.

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ

حال. عن الأعمش: لا تصدّق باكية بعد إخوة يوسف.

١٧ ـ فلما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بنيّ، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما لكم، وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العدو، أو: في الرمي. والافتعال والتفاعل يشتركان، كالارتماء، والترامي، وغير ذلك ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ ولو كنّا عندك من أهل الصدق والثقة؛ لشدّة محبّتك ليوسف، فكيف وأنت سيِّىء الظنّ بنا، غير واثق بقولنا؟!

١٨ ـ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ ذي كذب. أو: وصف بالمصدر مبالغة، كأنّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذّاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته. رُوي: أنّهم ذبحوا سخلة، ولطخوا القميص بدمها، وزلّ عنهم أن يُمزِّقوه. ورُوي: أنّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لمّا سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ وأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص. وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا. أكل ابني، ولم يُمزِّق عليه قميصه!! وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبره. ومحلّ ﴿على قميصه﴾ النصب على الظرف، كأنّه قيل: وجاؤوا فوق قميصه بدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ زيّنت، أو: سهّلت. ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ خبر أو مبتدأ؛ لكونه موصوفاً، أي: فأمري صبر جميل، أو: فصبر جميل أمثل. وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة

فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ

أيّام من إلقاء يوسف في الجبّ، فأخطؤوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الجبّ في قفرة بعيدة من العمران، وكان ماؤه ملحاً، فعذب حين أُلقي فيه يوسف ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم، اسمه: مالك بن ذعر الخزاعيّ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أرسل الدلو ليملأها، فتشبّث يوسف بالدلو فنزعه ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ كوفيّ: نادى البشرى، كأنّه يقول تعالى: فهذا أوانك. غيرهم (بشراي) على إضافتها لنفسه، أو: هو اسم غلامه، فناداه مضافاً إلى نفسه ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ قيل: ذهب به، فلمّا دنا من أصحابه صاح بذلك يبشّرهم به ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضمير للوارد وأصحابه. أخفوه من الرفقة. أو: لإخوة يوسف، فإنّهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أَبِق فاشتروه منّا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿بِضَٰعَةً﴾ حال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي: قطع ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

٢٠ ـ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه. ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو: زَيْف. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من «ثمن» ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة تعدّ عدّاً، ولا توزن؛ لأنّهم كانوا يعدّون ما دون الأربعين، ويزنون الأربعين وما فوقها، وكانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ممن يرغب عما في يده، فيبيعه بالثمن الطفيف. أو: معنى ﴿وشروه﴾ واشتروه، يعني: الرفقة من إخوته ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي: غير راغبين؛ لأنّهم اعتقدوا أنّه آبق. ويُروى: أنّ إخوته اتّبعوهم، وقالوا: استوثقوا منه، لا يأبق. و﴿فيه﴾ ليس من صلة ﴿الزاهدين﴾ أي: غير راغبين؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا ﴿فيه﴾.

٢١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو قطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. والملك يومئذ الريان بن الوليد، وقد آمن بيوسف ومات في

لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ

حياته. واشتراه العزيز بزنته وَرِقاً، وحريراً، ومسكاً. وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مئة وعشرين سنة ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل، أو زليخا، واللام متعلقة بـ﴿قال﴾، لا بـ﴿اشتراه﴾ ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضيّاً، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعن الضحاك: بطيب معاشه، ولين رياشه، ووطيء فراشه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لعلّه إذا تدرّب، وراض الأمور، وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو: نتبناه، ونقيمه مقام الولد. وكان قطفير عقيماً، وقد تفرّس فيه الرشد، فقال ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من إنجائه، وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب، تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: كما أنجيناه، وعطّفنا عليه العزيز، كذلك مكنّا له ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرّف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يمنع عما شاء. أو: على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى استعداد قوّته. وهو ثمان عشرة سنة، أو: إحدى وعشرون ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حكمة، وهو: العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه. أو: حكماً بين الناس، وفقهاً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنّه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره.

٢٣ ـ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: طلبت يوسف أن يواقعها. والمراودة: مفاعلة، من: راد يرود: إذا جاء وذهب. كأنّ المعنى: خادعته عن

وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ

نفسه، أي: فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه. وهي عبارة عن التمحّل لمواقعته إيّاها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ اسم لـ: تعال، وأقبل. وهو مبني على الفتح. (هَيْتُ): مكّيّ ، بناه على الضمّ. (هِيتَ): مدنيّ، وشاميّ. واللام للبيان. كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلمّ لك ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ الشأن، والحديث ﴿رَبِّىٓ﴾: سيّدي، ومالكي ـ يريد: قطفير ـ ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ حين قال لك: ﴿أكرمي مثواه﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخائنون، أو: الزناة. أو: أراد بقوله: ﴿إنّه ربيّ﴾ الله تعالى؛ لأنّه مسبّب الأسباب.

٢٤ ـ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ همّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همّ الطباع مع الامتناع، قاله الحسن. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: ﴿وهمّ بها﴾ همّ خطرة، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذة عليه. ولو كان همّه كهمّها لما مدحه الله تعالى بأنّه من عباده المخلَصين. وقيل: ﴿وهم بها﴾ وشارف أن يهمّ بها. يقال: همّ بالأمر: إذا قصده، وعزم عليه. وجواب ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ محذوف، أي: لكان ما كان. وقيل: ﴿وهمّ بها﴾ جوابه. ولا يصح؛ لأنّ جواب لولا لا يتقدّم عليها؛ لأنّه في حكم الشرط، وله صدر الكلام. والبرهان: الحجة. ويجوز أن يكون ﴿وهمّ بها﴾ داخلاً في حكم القسم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾ ويجوز أن يكون خارجاً. ومن حق القارىء إذا قدر خروجه من حكم القسم، وجعله كلاماً برأسه، أن يقف على ﴿به﴾ ويبتدىء بقوله ﴿وهمّ بها﴾. وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمّين. وفسّر همّ يوسف بأنّه حلّ تكّة سراويله، وقعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها[١]. وفسّر

(١) هذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يتعارض مع عصمة الأنبياء، والأسلمُ تفسير ﴿وهمَّ بها﴾ بخطرات حديث النفس، والميل إلى المخالطة بحكم الطبيعة البشرية، ولا مؤاخذة على ذلك شرعاً، وقد عصمه الله من الفعل. أو أنَّ رؤيته برهان ربِّه منعته من الهم أصلاً. =

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾

البرهان بأنّه سمع صوتاً: إيّاك وإيّاها ـ مرّتين ـ فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتّى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته، وهو باطل. ويدل على بطلانه وقوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برّأ نفسه من ذلك. وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه وقوله: ﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب﴾ ولو كان كذلك لخانه بالغيب. وقوله: ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ ﴿الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين﴾. ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره، كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود ـ عليهم السلام ـ وقد سمّاه الله مخلصاً، فعلم بالقطع: أنّه ثبت في ذلك المقام، وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم، ناظراً في دلائل التحريم، حتّى استحقّ من الله الثناء. ومحل الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو: رفع، أي: الأمر مثل ذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام حيث كان: مدنيّ، وكوفيّ، أي: الذين أخلصهم الله لطاعته. وبكسرها: غيرهم، أي: أخلصوا دينهم لله. ومعنى ﴿من عبادنا﴾ بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين.

٢٥ ـ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وتسابقا إلى الباب، هي للطلب، وهو للهرب. على حذف الجارّ، وإيصال الفعل، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أو: على تضمين ﴿استبقا﴾ معنى: ابتدرا. ففرَّ منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ووحّد الباب وإن كان جمعه في قوله: ﴿وغلّقت الأبواب﴾ لأنّه أراد الباب البرّانيّ، الذي هو المخرج من الدار. ولمّا هرب يوسف جعل فَرَاش القُفْل[1] يتناثر، ويسقط حتّى خرج

= وحبذا لو اقتصر النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ على ما ذكره أولاً. وانظر تفسيره للآية رقم (٣٢).

(١) «فَرَاش القُفْل»: مَنَاشِبه، واحدتها فَرَاشة. قال ابنُ دريد: لا أحسبها عربية. وكلّ =

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من خلفه فانقدّ، أي: انشقّ حين هرب منها إلى الباب، وتبعته تمنعه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وصادفا بعلها قطفير مقبلاً يريد أن يدخل، فلمّا رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها، ومن مكرها، حيث ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ما﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، أو: ﴿عذاب أليم﴾ وهو الضرب بالسياط. ولم تصرّح بذكر يوسف، وأنّه أراد بها سوءاً، لأنّها قصدت العموم، أي: كلّ من أراد بأهلك سوءاً، فحقّه أن يسجن، أو يعذّب؛ لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف.

٢٦ ـ ولمّا عرضته للسجن والعذاب، ووجب عليه الدفع عن نفسه ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾. ولولا ذلك لكتم عليها، ولم يفضحها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ هو ابن عمّ لها. وإنّما ألقى الله الشهادة على لسان مَن هو مِن أهلها لتكون أوجب للحجّة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وقيل: كان ابن خال لها، وكان صبيّاً في المهد. وسمّى قوله شهادة؛ لأنّه أدّى مؤدّى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف، وبطل قولها: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٢٧ ـ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ والتقدير: ﴿وشهد شاهد﴾ فقال: ﴿إن كان قميصه﴾. وإنّما دلّ قدّ قميصه من قُبل على أنها صادقة؛ لأنّه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فيشقّه، ولأنّه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسها، فيتخرّق قميصه من قبل. وأمّا تنكير ﴿قبل﴾ و﴿دبر﴾ فمعناه من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وإنّما جمع

= حديدة رقيقة: فَراشة. وفَراشة القُفْل: ما يَنْشَبُ فيه، أي: يعلق.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾

بين إن التي للاستقبال وبين كان؛ لأنّ المعنى: إن يعلم أنه كان قميصه قدّ.

٢٨ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ وعلم براءة يوسف، وصدقه، وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولك ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾، أو: إن هذا الأمر ـ وهو الاحتيال لنيل الرجال ـ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الخطاب لها، ولأمّتها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنهنّ ألطف كيداً، وأعظم حيلة، وبذلك يغلبن الرجال. والقصريّات منهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق. وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال لهنّ: ﴿إن كيدكنّ عظيم﴾.

٢٩ ـ ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء؛ لأنّه منادى قريب، مُفَاطَن للحديث. وفيه تقريب له، وتلطيف لمحلّه ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر، واكتمه، ولا تتحدّث به. ثمّ قال لراعيل: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب. يقال: خطىء؛ إذا أذنب متعمداً. وإنّما قال بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث. وكان العزيز رجلاً حليماً، قليل الغيرة، حيث اقتصر على هذا القول.

٣٠ ـ ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ جماعة من النساء. وكنّ خمساً: امرأة الساقي، وامرأة الخبّاز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثها غير حقيقي؛ ولذا لم يقل: قالت. وفيه لغتان: كسر النون، وضمّها ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ يُرِدْن قطفير. والعزيز: الملك، بلسان العرب ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ غلامها، يقال: فتاي، وفتاتي، أي: غلامي، وجاريتي. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لتنال شهوتها منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تمييز، أي: قد شغفها حبّه، يعني: خرق حبّه شغاف قلبها حتّى وصل إلى الفؤاد. والشغاف: حجاب القلب، أو: جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب

إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ وبُعْد عن طريق الصواب.

٣١ ـ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنّ، وقولهنّ ﴿امرأة العزيز﴾ عشقت عبدها الكنعانيّ، ومقتها. وسمّي الاغتياب مكراً لأنّه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها، فأفشينه عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهنّ. قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيّأت. افتعلت، من: العَتاد ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتّكئن عليه من نمارق. قصدت بتلك الهيئة ـ وهي قعودهنّ متّكئات، والسكاكين في أيديهنّ ـ أن يدهشن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ، فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها؛ لأن المتّكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين، كفعل الأعاجم ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بكسر التاء: بصريّ، وعاصم، وحمزة. وبضمّها غيرهم ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه، وهبن ذلك الحسن الرائق، والجمال الفائق. وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وكان إذا سار في أزقّة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران. وكان يشبه آدم يوم خلقه ربّه. وقيل: ورث الجمال من جدّته سارّة. وقيل: «أكبرن» بمعنى حضن. والهاء للسكت، إذ لا يقال: النساء قد حضنه؛ لأنه لا يتعدّى إلى مفعول، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت. وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنّها بالحيض تخرج من حدّ الصغر. وكأنّ أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خَـفِ الله واسْتُـرْ ذا الجمـالَ بِبُـرْقُـعٍ فإنْ لُحْتَ حَاضَتْ في الخُدُورِ العَوَاتِقُ[(١)]

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وجرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها. أي: أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن، فدهشن لمّا رأينه، فخدشن أيديهنّ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ حاشا: كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول: أساء القوم حاشا زيد، وهي حرف من حروف الجرّ،

(١) «لحت»: من: لاح يلوح، أي: ظهر. «العواتق»: خيار النساء.

مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ

فوضعت موضع التنزيه والبراءة. فمعنى ﴿حاشا الله﴾ براءة الله، وتنزيه الله. وقراءة أبي عمرو ﴿حاشا لله﴾ نحو قولك: سقيا لك، كأنّه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ، وينزّه. وغيره: ﴿حاش لله﴾ بحذف الألف الأخيرة. والمعنى: تنزيه الله من صفات العجز، والتعجّبُ من قدرته على خَلْق جميل مثله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نَفَيْنَ عنه البشريّة لغرابة جماله، وأثبتن له الملكيّة، وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع: أن لا أحسنَ من الملك، كما ركز فيها: أن لا أقبحَ من الشيطان.

٣٢ ـ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول: هو ذلك العبد الكنعانيّ الذي صوّرتنّ في أنفسكنّ، ثمّ لمتنّني فيه. تعني: إنّكنّ لم تصوّرنه حقّ صورته، وإلا لعذرتنّني في الافتتان به ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ الاستعصام: بناء مبالغة، يدلّ على الامتناع البليغ، والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. وهذا بيان جليّ على أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ بريء ممّا فسّر به أولئك الفريق الهمّ والبرهان. ثمّ قلن له: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ـ الضمير راجع إلى ﴿ما﴾ وهي موصولة. والمعنى: ﴿ما آمر﴾ به، فحذف الجار، كما في قوله: أمرتك الخير. أو: ﴿ما﴾ مصدريّة. والضمير يرجع إلى يوسف، أي: ولئن لم يفعل أمري إيّاه، أي: موجب أمري، ومقتضاه ـ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ ليحبسنّ ﴿وَلَيَكُونًا﴾ الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ مع السُّرّاق، والسفّاك، والأبّاق، كما سرق قلبي، وأبق منّي، وسفك دمي بالفراق. فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك، كما منعني هنا كلّ ذلك. ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً، حصل في الحصير على الحصير حسيراً.

٣٣ ـ فلمّا سمع يوسف تهديدها ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾. أسند الدعوة إليهنّ؛ لأنهنّ قلن له: ما عليك لو أجبت مولاتك. أو: افتتنت

وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ

كلّ واحدة به، فدعته إلى نفسها سرّاً. فالتجأ إلى ربّه ﴿قال رب السجن أحبّ إليّ﴾ من ركوب المعصية ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ فَزَعٌ منه إلى الله في طلب العصمة ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أمل إليهن. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنه: الصَّبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها، ورَوحها ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ مَن لا جدوى لعلمه، فهو ومَن لم يعلم سواء. أو: من السفهاء.

٣٤ـ فلمّا كان في قوله: ﴿وإلا تصرف عنّي كيدهنّ﴾ معنى طلب الصرف، والدعاء، قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أجاب الله دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحاله وحالهنّ.

٣٥ـ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسّره عليه، وهو: ﴿ليسجننّه﴾. والمعنى: بدا لهم بَداء، أي: ظهر لهم رأي. والضمير في ﴿لهم﴾ للعزيز، وأهله ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وهي الشواهد على براءته كقدّ القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبيّ، وغير ذلك ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ لإبداء عذر الحال، وإرخاء الستر على القيل والقال. وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وكان مطواعاً لها وحُمَيْلاً ذلولاً، زمامه في يدها. وقد طمعت أن يذلّله السجن، ويسخّره لها. أو: خافت عليه العيون، وظنّت فيه الظنون، فألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس، إلى أن رضيت بالحجاب، مكان خوف الذهاب، لتشتفي بخبره، إذا مُنِعت من نظره ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ إلى زمان. كأنّها اقترحت أن يسجن زماناً حتّى تبصر ما يكون منه.

٣٦ـ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ عبدان للملك: خبّازه وشرابيّه، بتهمة السمّ. فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف، لأنّ «مع» يدلّ على معنى الصحبة، تقول: خرجت مع الأمير، تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ أي: شرابيّه ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: في المنام،

أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

وهي حكاية حال ماضية ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه. أو: الخمر بلغة عُمَانَ اسم للعنب ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ أي: خبّازه ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ بتأويل ما رأيناه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أو: من المحسنين إلى أهل السجن. فإنّك تداوي المريض، وتعزّي الحزين، وتوسع على الفقير، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا. وقيل: إنّهما تحالما له ليمتحناه، فقال الشرابيّ: إنّي رأيت كأنّي في بستان، فإذا بأصل حَبَلة[1] عليه ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها، وعصرتها في كأس الملك، وسقيته. وقال الخبّاز: إنّي رأيت كأنّ فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، فإذا سباع الطير تنهش منها.

٣٧ ـ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: ببيان ماهيّته وكيفيّته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ولمّا استعبراه، ووصفاه بالإحسان افترس ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته: كيت وكيت، فيكون كذلك. وجعل ذلك تخلّصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزيّنه لهما، ويقبّح إليهما الشرك. وفيه: أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضه أن يقتبس منه ـ لم يكن من باب التزكية ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيّبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أوحى به إليّ، ولم أقله عن تكهّن وتنجّم ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يجوز أن يكون

(١) «الحَبَلَة»: الكَرْم، وهو شجر متسلق يحمل ثمار العنب.

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم

كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علّمني ذلك، وأوحى به إليّ؛ لأنّي رفضتُ ملّة أولئك، وهم أهل مصر، ومَن كان الفتيان على دينهم.

٣٨ ـ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهي الملّة الحنيفيّة. وتكرير هم للتوكيد[1]. وذكر الآباء ليريهما أنّه من بيت النبوّة؛ أن عرّفهما أنه نبيّ يُوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ليقوّي رغبتهما في اتّباع قوله. والمراد به: ترك الابتداء لا أنّه كان فيه ثمّ تركه[2] ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيّ شيء كان صنماً، أو: غيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله، فيشركون به، ولا يتنبهون.

٣٩ ـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١] و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢] ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يريد التفرّق في العدد والتكاثر، أي: أأن تكون أرباب شتّى يستعبدكما هذا، ويستعبدكما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما ربّ واحد قهّار، لا يُغالَبُ، ولا يُشارَكُ في الربوبيّة؟ وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده، ولعبادة الأصنام.

٤٠ ـ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ خطاب لهما، ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: سمّيتم ما لا يستحق الألوهيّة: آلهة، ثمّ طفقتم تعبدونها، فكأنّكم لا تعبدون إلا أسماء لا مسمّيات لها. ومعنى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سمّيتم بها، يقال: سمّيته زيداً،

---

(١) «هم» مكررة في الآية (٣٧).
(٢) هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ الآية (٣٧).

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾

وسمّيتـه بزيد ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بتسميتها ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾. ثمّ بيّن ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلّت عليه البراهين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا يدلّ على أنّ العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم بطريقه.

٤١ ـ ثمّ عبّر الرؤيا فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يريد الشرابي ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ سيّده ﴿خَمۡرٗا﴾ أي: يعود إلى عمله ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ أي: الخبّاز ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ رُوي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك، وحسن حالك عنده. وأما القضبان الثلاثة فإنّها ثلاثة أيّام تمضي في السجن، ثمّ تخرج، وتعود إلى ما كنت عليه. وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيّام، ثمّ تخرج فتقتل. ولمّا سمع الخبّاز صلبه قال: ما رأيت شيئاً. فقال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي: قطع وتمّ ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما، أي: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما، ونجاة الآخر.

٤٢ ـ ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ الظانّ هو يوسف ـ عليه السلام ـ إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظانّ هو الشرابيّ، أو: يكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ صفني عند الملك بصفتي، وقصّ عليه قصّتي لعلّه يرحمني، ويخلّصني من هذه الورطة ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فأنسى الشرابيّ ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أن يذكره لربّه، أو: عند ربّه. أو: فأنسى يوسفَ ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره. وفي الحديث: «رحم الله

فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

أخي يوسف لو لم يقل: ﴿اذكرني عند ربك﴾ لما لبث في السجن سبعاً»[(١)] ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: سبعاً عند الجمهور. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

٤٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ لمّا دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريّان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت، وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتّى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها. وقيل: كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا، ثمّ كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا. ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة. والعجاف: المهازيل. والعَجَف: الهزال الذي ليس بعده سمانة. والسبب في وقوع ﴿عجاف﴾ جمعاً لعجفاء ـ وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال ـ: حمله على نقيضه وهو سمان. ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض. وفي الآية دلالةٌ على أنّ السّنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؛ لأنّ الكلام مبنيّ على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر؛ فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع، ويكون قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ بمعنى: وسبعاً أخر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ كأنّه أراد: الأعيان من العلماء، والحكماء ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام في ﴿للرؤيا﴾ للبيان، كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾. أو: لأنّ المفعول به إذا تقدّم على الفعل لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخّر عنه، فعضد بها. تقول: عبرت الرؤيا، وللرؤيا عبرت. أو: يكون للرؤيا: خبر كان، كقولك: كان فلان لهذا الأمر: إذا كان مستقلاً به، متمكّناً منه، و﴿تعبرون﴾ خبر آخر،

(١) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. (الدر المنثور ٤/ ٥٤١).

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ

أو: حال. وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها، وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتّى تبلغ آخر عرضه، وهو عَبره. ونحوه: أوّلت الرؤيا؛ إذا ذكرت مآلها، وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون عبّرت بالتشديد، والتعبير والمعبَّر.

٤٤ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي: هي ﴿أضغاث أحلام﴾ أي: تخاليطها، وأباطيلُها، وما يكون منها من حديث نفس، أو: وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات، وحزم من أنواع الحشيش. الواحد: ضغث، فاستعيرت لذلك. والإضافة بمعنى «مِنْ» أي: أضغاث من أحلام. وإنما جمع؛ وهو حُلْم واحد تزايداً في وصف الحلم بالبطلان. وجاز أن يكون قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أرادوا بالأحلام: المنامات الباطلة، فقالوا: ليس لها عندنا تأويل، إنّما التأويل للمنامات الصحيحة. أو: اعترفوا بقصور علمهم، وأنّهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين.

٤٥ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا﴾ من القتل ﴿مِنۡهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال هو الفصيح. وأصله: اذتكر، فأبدلت الذال دالاً، والتاء دالاً، وأدغمت الأولى في الثانية لتقارب الحرفين. وعن الحسن: (واذّكر). ووجهه: أنّه قلب التاء ذالاً، وأدغم، أي: تذكّر يوسفَ، وما شاهد منه ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ بعد مدّة طويلة. وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه، وأعضل على الملك تأويلها، تذكّر الناجي يوسف وتأويله رؤياه، ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أنا أخبركم به عمّن عنده علمه ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: فابعثوني إليه لأسأله، فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال:

٤٦ ـ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ في الصدق، وإنّما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعرّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلى الملك، وأتباعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك، ويخلّصوك من محنتك.

٤٧ ـ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هو خبر في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ[1] وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصف: ١١]. دليلهُ قوله: ﴿فذروه في سنبله﴾. وإنّما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به، فيجعل كأنّه موجود، فهو يخبر عنه ﴿دَأَبًا﴾[2] بسكون الهمز. وحفص يحرّكه بالفتح. وهما مصدرا دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي: دائبين ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ كيلا يأكله السوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

٤٨ ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هو من إسناد المجاز، جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: في السنين المخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون، وتخبئون.

٤٩ ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ أي: من بعد أربع عشرة سنة عام ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغوث، أي: يجاب مستغيثهم. أو: من الغيث، أي: يمطرون. يقال: غيثت البلاد: إذا مطرت ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب، والزيتون، والسمسم، فيتّخذون الأشربة، والأدهان ﴿تعصرون﴾: حمزة وعلي. فتأول البقرات السمان

(١) في الأصل المخطوط: واليوم الآخر بدل: «ورسوله» وهو خطأ.
(٢) في الأصل المخطوط ﴿دأباً﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ١٧٤).

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ

والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثمّ بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركاً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي.

٥٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال ﴿النسوة﴾ ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنّما تثبّت يوسف، وتأنّى في إجابة الملك، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عمّا قذف به وسُجن فيه؛ لئلا يتسلّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلّماً إلى حطّ منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلّد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير. وفيه دليلٌ على أنّ الاجتهادَ في نفي التهم واجب وجوب اتّقاء الوقوف في مواقفها. وقال عليه الصلاة والسلام: «لقد عجبتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتّى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿ارجع إلى ربّك﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة، وبادرت الباب، ولما ابتغيت العذر. إن كان لحليماً ذا أناة»[(١)]. ومن كرمه، وحسن أدبه، أنّه لم يذكر سيّدته مع ما صنعتْ به، وتسبّبت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطّعات أيديهنّ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنّ كيدهنّ عظيم، لا يعلمه إلا الله، وهو مجازيهنّ عليه.

٥١ ـ فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة المقطّعات أيديهنّ، ودعا امرأة العزيز، ثمّ ﴿قَالَ﴾ لهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؟ ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجدتنّ منه ميلاً إليكنّ؟ ﴿قُلْنَ

(١) انظره في الدر المنثور (٤/٥٤٨).

حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجّباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر، واستقرّ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾. ولا مزيد على شهادتين له بالبراءة، والنزاهة، واعترافهنّ على أنفسهن بأنّه لم يتعلّق بشيء مما قذف به.

٥٢ ـ ثمّ رجع الرسول إلى يوسف، وأخبره بكلام النسوة، وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: امتناعي من الخروج والتثبّت لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب في حرمته. ﴿بالغيب﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، أو: وهو غائب عني. أو: ﴿ليعلم﴾ الملك أنّي لم أخن العزيز. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أن الله ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لا يسدّده. وكأنّه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها.

٥٣ ـ ثمّ أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكّياً، وليبيّن أنّ ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته، فقال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلّية، ولا أزكّيها في عموم الأفعال. أو: في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهمّ الذي هو الخطرة البشريّة، لا عن طريق القصد، والعزم. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أراد الجنس، أي: أنّ هذا الجنس يأمر بالسوء، ويحمل عليه لما فيه من الشهوات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ إلا البعض الذي رحمه ربّي بالعصمة. ويجوز أن يكون ﴿ما رحم﴾ في معنى الزمان، أي: إلا وقت رحمة ربّي، يعني: أنها أمّارة بالسوء في كلّ وقت إلا وقت العصمة. أو: هو استثناء منقطع، أي: ولكن رحمة ربّي هي التي تصرف الإساءة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي: ﴿ذلك﴾ الذي قلت ﴿ليعلم﴾ يوسف ﴿أنّي لم أخنه﴾ ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ﴿وما أبرّىء

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾

نفسي﴾ مع ذلك من الخيانة، فإنّي قد خنته حين قرفته[1]، وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾ وأودعته السجن ـ تريد الاعتذار مما كان منها ـ إنّ كلّ نفس ﴿لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربّي﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، استغفرت ربها، واسترحمته مما ارتكبت. وإنّما جعل من كلام يوسف، ولا دليل عليه ظاهر؛ لأن المعنى يقود إليه. وقيل: هذا من تقديم القرآن وتأخيره، أي: قوله ﴿ذلك ليعلم﴾ متّصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ﴾.

٥٤ ـ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كلّ شيء. رُوي: أنّ الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً، وسبعون مركباً، وبعث إليه لباس الملوك، فقال: أجب الملك، فخرج من السجن. ودعا لأهله: اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار، فهم أعلمُ الناس بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن: هذه منازل البلواء، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثمّ اغتسل، وتنظّف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً، فلمّا دخل على الملك قال: اللهم إنّي أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه. ثمّ سلّم عليه، ودعا له بالعبرانيّة، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلّم بسبعين[2] لساناً، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجّب منه، وقال: أيّها الصدّيق! إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك. قال: رأيت بقرات، فوصف لونهنّ، وأحوالهنّ، ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك، وقال له: من حقّك أن تجمع الطعام

---

(١) «قرفته»: اتهمته.

(٢) لا وجه لهذه المبالغة ولا فائدة منها.

قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

في الأهراء[١]، فيأتيك الخلق من النواحي، ويمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلك. قال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه؟

٥٥ ـ ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ ولّني على خزائن أرضك، يعني: مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم بوجوه التصرّف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية، وهما طلبة الملوك ممن يولّونه. وإنّما قال ذلك ليتوصّل إلى إمضاء أحكام الله، وإقامة الحقّ، وبسط العدل، والتمكّن ممّا لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحبّ الملك والدنيا. وفي الحديث: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنّه أخّر ذلك سنة»[٢]. قالوا: وفيه دليلٌ على أنّه يجوز أن يتولىّ الإنسان عمالة من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولّون القضاء من جهة الظلمة. وإذا علم النبيّ، أو العالم أنّه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر، أو الفاسق، فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلّ ما رأى، وكان في حكم التابع له.

٥٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر. وكانت أربعين فرسخاً في أربعين. والتمكين: الإقدار، وإعطاء المُكْنة ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: كلّ مكان أراد أن يتّخذه منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها، ودخولها تحت سلطانه. ﴿نشاء﴾: مكيّ ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك، والغِنىٰ، وغيرهما من النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

---

(١) «الأهراء»: مواضع يشتدّ فيها البرد.
(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي بإسناد ساقط. (حاشية الكشاف ٢/ ٤٨٢).

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

٥٧ ـ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والفواحش. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يُثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجّل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق. وتلا الآية. رُوي: أنّ الملك توّج يوسف، وختمه بخاتمه، وردّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدرّ والياقوت، فقال: أمّا السرير فأشدّ به ملكك، وأمّا الخاتم فأدبّر به أمرك، وأمّا التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض الملك إليه أمره، وعزل قطفير، ثمّ مات بعد، فزوّجه الملك امرأته، فلمّا دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين أفراثيم، وميشا[1]. وأقام العدل بمصر وأحبّته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى، حتّى لم يبق معهم شيء منها، ثمّ بالحليّ والجواهر في الثانية، ثمّ بالدوابّ في الثالثة، ثمّ بالعبيد والإماء في الرابعة، ثمّ بالدور والعقار في الخامسة، ثمّ بأولادهم في السادسة، ثمّ برقابهم في السابعة حتّى استرقّهم جميعاً، ثمّ أعتق أهل مصر عن آخرهم، وردّ عليهم أملاكهم. وكان لا يبيع لأحدٍ من الممتارين أكثر من حمل بعير.

٥٨ ـ وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا. وذلك قوله: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لتبدّل الزيّ، ولأنه كان من وراء الحجاب، ولطول المدّة، وهو أربعون سنة.

٥٩ ـ ورُوي أنّه لمّا رآهم وكلّموه بالعبرانيّة، قال لهم: أخبروني مَن أنتم؟ وما شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام، رعاة، أصابنا الجهد، فجئنا

---

(١) هذه الحكاية الإسرائيلية أشبه بحكايات العجائز، وخيالات القصّاصين.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠
خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ
عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا
ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

نمتار. فقال: لعلّكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي! فقالوا: معاذ الله! نحن بنو نبيّ حزين لفقد ابن، كان أحبّنا إليه، وقد أمسك أخاً له من أمّه يستأنس به. فقال: ائتوني به إن صدقتم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ﴾ أعطى كلّ واحد منهم حمل بعير. وقرىء بكسر الجيم شاذّاً ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أتمّه ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ كان قد أحسن إنزالهم، وضيافتهم. رغّبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

٦٠ ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ فلا أبيعكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: فإن لم تأتوني به تحرموا، ولا تقربوا، فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محلّ قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾. أو: هو بمعنى النهي.

٦١ ـ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنخادعه عنه، ونحتال حتّى ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة، لا نفرّط فيه، ولا نتوانى. قال: فدعوا بعضكم رهناً. فتركوا عنده شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف.

٦٢ ـ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿لفتيته﴾ غيرهم. وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ. وفعلة للقلّة، وفعلان للكثرة، أي: لغلمانه الكيالين ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم، وكانت نعالاً، أو: أدماً، أو: ورقاً، وهو أليق بالدّسّ في الرحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يعرفون حقّ ردّها، وحقّ التكرّم بإعطاء البدلين ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرّغوا ظروفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو: ربّما لا يجدون بضاعة بها يرجعون، أو: ما فيهم من الديانة يعيدهم لردّ الأمانة، أو: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً.

٦٣ ـ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام، وأخبروه بما فعل ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ

﴿ٱلْكَيْلُ﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنّهم إذا أنذروا بمنع الكيل، فقد منع الكيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفع المانع من الكيل و﴿نكتل﴾ من الطعام ما نحتاج إليه. ﴿يكتلْ﴾[1]: حمزة، وعليّ، أي: يكتل أخونا، فينضمّ اكتياله إلى اكتيالنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عن أن يناله مكروه.

٦٤ ـ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني: أنكم قلتم في يوسف: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾ كما تقولونه في أخيه، ثمّ خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك؟ ثمّ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ فتوكلّ على الله فيه، ودفعه إليهم. وهو حال، أو تمييز. ومن قرأ ﴿حفظاً﴾ فهو تمييز لا غير ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين. قال كعب لمّا قال: ﴿فالله خير حافظاً﴾ قال الله تعالى: وعزّتي وجلالي! لأردّنّ عليك كليهما.

٦٥ ـ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ «ما» للنفي، أي: ﴿ما نبغي﴾ في القول، ولا نتجاوز الحقّ. أو: ﴿ما نبغي شيئاً﴾ وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو: ما نريد منك بضاعة أخرى. أو: للاستفهام، أي: أيّ شيء نطلب وراء هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿مانبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها، أي: أنّ بضاعتنا ﴿ردّت إلينا﴾ فنستظهر بها ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعنا إلى الملك، أي: نجلب لهم ميرة. وهي: طعام يحمل من غير بلدك ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ في ذهابنا ومجيئنا، فما يصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ نزداد وسق

(١) في الأصل المخطوط: (لِيَكْتَلْ).

ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ

بعير باستصحاب أخينا ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه متيسّر، لا يتعاظمه.

٦٦ ـ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ وبالياء: مكيّ ﴿مَوْثِقًا﴾ عهداً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾. والمعنى: حتّى تعطوني ما أتوثّق به من عند الله، أي: أراد أن يحلفوا له بالله. وإنّما جعل الحلف بالله موثقاً منه؛ لأنّ الحلف به ممّا يؤكّد به العهود، وقد أذن الله في ذلك، فهو إذن منه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جواب اليمين، لأنّ المعنى، حتّى تحلفوا: ﴿لتأتنّني به﴾ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا، فلم تطيقوا الإتيان به، فهو مفعول له، والكلام المثبت ـ وهو قوله: ﴿لتأتنني به﴾ ـ في تأويل النفي، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، يعني: لا تمتنعوا منه لعلّة من العلل إلا لعلّة واحدة، وهي: ﴿أن يحاط بكم﴾، فهو استثناء من أعمّ العامّ في المفعول له. والاستثناء من أعمّ العامّ لا يكون إلا في النفي، فلا بدّ من تأويله بالنفي ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قيل: حلفوا بالله ربّ محمد ﷺ ﴿قَالَ﴾ بعضهم يسكت عليه؛ لأن المعنى ﴿قال﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق، وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطّلع. غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول، وذا لا يجوز، فالأولى أن يفرّق بينهما بالصوت، فيقصد بقوّة النغمة اسم الله.

٦٧ ـ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ الجمهور على أنّه خاف عليهم العين لجمالهم، وجلالة أمرهم، ولم يأمرهم بالتفرّق في الكرة الأولى، لأنّهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى، فالعين حقّ عندنا. ووجوده بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه، وخللاً. وكان النبيُّ ﷺ يُعوِّذ الحسنَ والحسين ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التّامة من كلّ هامّة، ومن كلّ عين لامّة»(١). وأنكر الجُبَّائي(٢) العين، وهو

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذي (٢٠٦٠).
(٢) هو محمد أبو علي بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي المعتزلي، توفي سنة (٣٠٣هـ).

وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ

مردودٌ بما ذكرنا. وقيل: إنّه أحبّ ألا يفطن بهم أعداؤهم فلا يحتالون لإهلاكهم ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم، ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرّق، وهو مصيبكم لا محالة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ التوكّل: تفويض الأمر إلى الله تعالى، والاعتماد عليه.

٦٨ ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: متفرّقين ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً قطّ، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي شفقته عليهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعني قوله: ﴿وما أغني عنكم﴾ وعلمه بأنّ القدر لا يغني عنه الحذر ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٦٩ ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمّ إليه بنيامين. ورُوي: أنّهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم. فأنزلهم، وأكرمهم، ثمّ أضافهم، وأجلس كلّ اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً! فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله. وقال له: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف، وعانقه. ثمّ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى؛ فإنّ الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. ورُوي: أنّه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: لقد علمت اغتمام والدي بي، فإن حبستك ازداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يُحْمَد، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدسّ صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم، فقال: افعل.

٧٠ ـ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ هيّأ أسبابهم، وأوفى الكيل لهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية: هي مشربة يُسْقَى بها، وهي: الصواع. قيل: كان يُسْقَى بها الملك، ثمّ جُعِلت صاعاً يُكال به لعزّة الطعام. وكان يشبه الطاس من فضّة، أو ذهب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثمّ نادى مناد. آذنه: أي أعلمه، وأذّن: أكثر الإعلام، ومنه: المؤذّن لكثرة ذلك منه. رُوي: أنّهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف ـ عليه السلام ـ حتّى انطلقوا، ثمّ أمر بهم، فأدركوا، وحبسوا، ثمّ قيل لهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ هي الإبل التي عليها الأحمال، لأنّها تعير، أي: تذهب وتجيء. والمراد: أصحاب العير ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كناية عن سرقتهم إيّاه من أبيه.

٧١ ـ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾

٧٢ـ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ هو الصاع ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقوله المؤذّن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل أؤدّيه إلى من جاء به. وأراد: وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصّله.

٧٣ ـ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجّب ممّا أضيف إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم، وأمانتهم، حيث دخلوا، وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعاً، أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنّهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وَمَا

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ وما كنّا نُوصف قطّ بالسرقة.

٧٤ ـ ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير للصواع، أي: فما جزاء سرقته؟ ﴿إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ في جحودكم، وادّعائكم البراءة منه.

٧٥ ـ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله. وكان حُكْم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوا في جزائه. وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير. أو: ﴿جزاؤه﴾: مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي: خبره ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: السرّاق، بالاسترقاق.

٧٦ ـ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة، حتّى بلغ وعاءه، فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً! فقالوا: والله لا نتركه حتّى تنظر في رحله، فإنّه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: الصواع ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ذكّر ضمير الصواع مرّات، ثمّ أنّثه؛ لأنّ التأنيث يرجع إلى السقاية، أو: لأن الصواع يذكّر ويؤنّث. الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلّ النصب، أي: مثل ذلك الكيد العظيم ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: علّمناه إياه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ تفسير للكيد، وبيان له؛ لأنّ الحكم في دين الملك ـ أي: في سيرته ـ للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يستعبد ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله، وإرادته فيه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ﴾ بالتنوين: كوفيّ، ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: في العلم، كما رفعنا درجة يوسف فيه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه. أو: فوق العلماء كلّهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وجلّ.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ

٧٧ ـ ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ أرادوا يوسف. قيل: دخل كنيسةً فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب، كانوا يعبدونه، فدفنه. وقيل: كان في المنزل دجاجة فأعطاها السائل. وقيل: كانت منطقة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ يتوارثها أكابر ولده، فورثها إسحاق، ثمّ وقعت إلى ابنته، وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف، وهي عمّته بعد وفاة أمّه، وكانت لا تصبر عنه. فلمّا شبَّ أراد يعقوب أن ينزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا مَن أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنّه لي سَلَم، أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتّى ماتت.

ورُوي: أنّهم لمّا استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه، وقالوا له: فضحتنا، وسوّدت وجوهنا. يا بني راحيل! ما يزال لنا منكم بلاء. متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لايزال منكم عليهم بلاء؟! ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواعَ في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ أي: مقالتهم إنّه سرق، كأنّه لم يسمعها ﴿ يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا ﴾ تمييز، أي: أنتم شرّ منزلة في السّرق، لأنّكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تقولون، أو تكذبون.

٧٨ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾ في السنّ، وفي القدر ﴿ فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أبدله على وجه الاسترهان، أو: الاستعباد، فإنّ أباه يتسلى به عن أخيه المفقود ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ إلينا، فأتمم إحسانك. أو: من عادتك الإحسان، فاجرِ على عادتك، ولاتغيّرها.

٧٩ ـ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي: نعوذ بالله معاذاً

إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا

من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به، وحذف «من» ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ «إذاً» جواب لهم وجزاء، لأنّ المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا. وهذا لأنّه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله، واستعباده. فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنّه ظلم؟

٨٠ ـ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ يئسوا. وزيادة السين والتاء للمبالغة، كما مرّ في: ﴿استعصم﴾ ﴿مِنْهُ﴾ من يوسف، وإجابته إياهم ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ ذوي نجوى، أو: فوجاً ﴿نجياً﴾ أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، أو: تمحّضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنّهم في أنفسهم صورة عن التناجي، وحقيقته. فالنجيّ يكون بمعنى المناجي، كالسمير بمعنى المسامر، وبمعنى المصدر الذي هو التناجي. وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أيّ صفة يذهبون، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ، وهو: روبيل، أو: في العقل والرأي، وهو: يهوذا. أو: رئيسهم، وهو: شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» صلة، أي: ومن قبل هذا قصّرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم. أو: مصدريّة. ومحلّ المصدر الرفع على الابتداء. وخبره: الظرف، وهو ﴿من قبل﴾. ومعناه: وقع ﴿من قبلُ﴾ تفريطكم ﴿في يوسف﴾ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها، أو بالموت، أو بقتالهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه لايحكم إلا بالعدل.

٨١ ـ ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرىء ﴿سُرِّق﴾، أي: نُسِب إلى السرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته،

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ

وتيقّنا إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ وما علمنا أنّه سيسرق حين أعطيناك الموثق.

٨٢ ـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: مصر، أي: أرسل إلى أهلها، فاسألهم عن كنه القصّة ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير. وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

٨٣ ـ فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه. وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يسترقّ لولا فتواكم، وتعليمكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف، وأخيه، وكبيرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن، والأسف ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة.

٨٤ ـ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أضاف الأسف ـ وهو أشدّ الحزن، والحسرة ـ إلى نفسه. والألف بدل من ياء الإضافة. والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلّف. ونحوه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة: ٣٨] ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢]. وإنّما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليلٌ على أنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ إذ أكثر الاستعبار، ومحقت العبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لأنّ الحزنَ سببُ البكاء الذي حدث منه البياض، فكأنّه حدث من الحزن. قيل: ما جفّت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. ويجوز للنبيّ ﷺ

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ، لأنّ الإنسانَ مجبولٌ على ألا يملك نفسه عند الحزن، فلذلك حمد صبره. ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[1]. وإنّما المذمومُ: الصّياح، والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم. فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] من: كظم السقاء: إذا شدّه على ملئه.

٨٥ ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي: لا تفتأ، فحذف حرف النفي؛ لأنّه لا يلتبس، إذ لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون. ومعنى: لا تفتأ: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

٨٦ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البثّ: أصعب الهمّ؛ الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبثّه إلى الناس، أي: ينشره، أي: لا أشكو إلى أحدٍ منكم ومن غيركم، إنّما أشكو إلى ربّي، داعياً له، وملتجئاً إليه، فخلّوني وشكايتي. ورُوي أنّه أوحي إلى يعقوب إنما وجدت عليكم؛ لأنّكم ذبحتم شاة، فوقف ببابكم مسكين، فلم تطعموه، وإنّ أحبّ خَلْقي إليّ الأنبياء، ثمّ المساكين، فاصنع طعاماً، وادعُ عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها، فبكت حتّى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأعلم من رحمته أنّه يأتيني الفرج من حيث لا أحتسب. ورُوي: أنّه رأى مَلَك الموت في منامه، فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، والله، هو حيّ فاطلبه. وعلّمه هذا الدعاء: ياذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيرك، فرّج عني.

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ

٨٧ ـ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرّفوا منهما، وتطلّبوا خبرهما. وهو تفعّل من الإحساس، وهو: المعرفة ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله، وفَرَجه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الأمر، والشأن ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لأنّ من آمن يعلم أنّه متقلّب في رحمة الله ونعمته. وأمّا الكافر فلا يعرف رحمة الله، ولا تقلّبه في نعمته فييأس من رحمته.

٨٨ ـ فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال من الشدّة، والجوع. ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مدفوعة، يدفعها كلّ تاجر رغبة عنها، واحتقاراً لها. من: أزجيته: إذا دفعته، وطردته. قيل: كانت دراهم زيوفاً، لا تُؤخذ إلا بوضيعة، وقيل: كانت صوفاً وسمناً. ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ الذي هو حقّنا. ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ وتفضّل علينا بالمسامحة، والإغماض عن رداءة البضاعة، أو: زدنا على حقّنا، أو: هَبْ لنا أخانا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٨٩ ـ لّما قالوا: ﴿مسّنا وأهلنا الضرّ﴾ وتضرعوا إليه، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم، ارفضّت عيناه، ولم يتمالك أن عرّفهم نفسه، حيث ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾؟ أي: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴿وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه، أو: إذ أنتم في حدّ السّفه، والطيش؟ وفعلهم بأخيه: تعريضهم إيّاه للغمّ بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

٩٠ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء، و﴿أنت﴾ مبتدأ، و﴿يوسف﴾ خبره، والجملة: خبر إنّ ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ وإنّما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه، لأنّه كان في ذكر

قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ

أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالألفة بعد الفرقة. وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة، ولم يبدأ بالملامة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الفحشاء ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أجرهم. فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتّقين والصابرين. وقيل: مَن يتّق مولاه، ويصبر على بلواه، لا يضيّع أجره في دنياه، وعقباه.

٩١ ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بالعلم، والحلم، والتقوى، والصبر الحسن ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وإنّ شأننا وحالنا أنّا كنّا خاطئين متعمّدين للإثم لم نتّق، ولم نصبر. لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك، وأذلّنا بالتمسكن بين يديك.

٩٢ ـ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تعيير عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ متعلّق بالتثريب، أو: بيغفر. والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنّة التثريب، فما ظنّكم بغيره من الأيّام؟ ثمّ ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر لك، على لفظ الماضي والمضارع. أو: ﴿اليوم يغفر الله لكم﴾ بشارة بعاجل غفران الله. ورُوي: أنّ رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ما ترونني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظنّ خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: «أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ »[١]. ورُوي: أنّ أبا سفيان لمّا جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيتَ رسول الله فاتلُ عليه: ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ ففعل. فقال رسول الله ﷺ: « غفر الله لك ولمن علّمك»[٢]. ويُروى:

(١) قال الحافظ: أخرجه النسائي والبيهقي بمعناه وأتم منه، وأخرجه الثعلبي بهذا اللفظ وأتم منه. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾

أنّ إخوته لمّا عرفوه أرسلوا إليه: أنّك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيّاً، ونحن نستحيي منك لما فرط منّا فيك. فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنّهم ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلّغ عبداً بِيْع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنّي من حفدة إبراهيم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور، فما ظنّكم بالغنيّ الغفور؟

٩٣ ـ ثم سألهم عن حال أبيه، فقالوا: إنّه عمي من كثرة البكاء، قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾. قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف، وكان من الجنّة، أمره جبريل أن يرسله إليه، فإنّ فيه ريح الجنّة، لا يقع على مبتلى، ولا سقيم إلا عُوفي ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يصر بصيراً. تقول: جاء البناء محكماً، أي: صار. أو: ﴿يأت﴾ إليّ وهو بصير. قال يهوذا: أنا أحمل قميص الشفاء، كما ذهبت بقميص الجفاء. وقيل: حمله وهو حافٍ، حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً. ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لينعموا بآثار ملكي، كما اغتمّوا بأخبار هلكي.

٩٤ ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر. يقال: فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل منه، وجاوز حيطانه ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لولد ولده، ومن حوله من قومه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح القميص من حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ التفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف، وإنكار العقل، من هرم، يقال: شيخ مفنّد. والمعنى: لولا تفنيدكم إيّاي لصدّقتموني.

٩٥ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أسباطه ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ

عن الصواب قديماً في إفراط محبّتك ليوسف، أو: في خطئك القديم من حبّ يوسف، وكان عندهم أنّه قد مات.

٩٦ ـ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي: يهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو: ألقاه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ فرجع ﴿بَصِيرًا﴾ يقال: ردّه فارتدّ. وارتدّه: إذا ارتجعه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني: قوله ﴿إنّي لأجد ريح يوسف﴾ أو: قوله ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾. وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كلام مبتدأ، لم يقع عليه القول. أو: وقع عليه، والمراد قوله: ﴿إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾. ورُوي: أنّه سأل البشير: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟! على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمّت النعمة.

٩٧ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقّك، وحقّ ابنك، إنّا تبنا، واعترفنا بخطايانا.

٩٨ ـ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أخّر الاستغفار إلى وقت السحر، أو: إلى ليلة الجمعة، أو: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة، أو: إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم.

٩٩ ـ ثمّ إنّ يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلة ليتجهّز إليه بمن معه، فلمّا بلغ قريباً من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقّوا يعقوب وهو يمشي يتوكّأ على يهوذا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ضمّ إليه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ واعتنقهما. قيل: كانت أمّه باقية، وقيل: ماتت، وتزوج أبوه خالته. والخالة أمّ، كما أن العمّ أب. ومنه قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر: أنّه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة،

وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ

أو قصر كان له ثمّة، فدخلوا عليه، وضمّ إليه أبويه ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعد ذلك: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من ملوكها. وكانوا لا يدخلونها إلا بجوار، أو: من القحط. وروي: أنّه لمّا لقيه قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: السلام عليك يا مذهب الأحزان. وقال له يوسف: يا أبتِ بكيت عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيتُ أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك. وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمئة ألف وخمسمئة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذريّة والهرمى. وكانت الذريّة ألف ألف ومئتي ألف.

١٠٠ ـ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ قيل: لمّا دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره، واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعني الأخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجّداً﴾ وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحيّة والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد. وقال الزجّاج: سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظّم. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجّداً يأباه. وقيل: ﴿وخرّوا﴾ لأجل يوسف ﴿سجّداً﴾ لله شكراً. وفيه نبوّة أيضاً. واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا﴾ أي: الرؤيا ﴿رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: صادقة. وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة، أو ثمانون، أو ستّ وثلاثون، أو اثنتان وعشرون ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ يقال: أحسن إليه، وبه، وكذلك: أساء إليه، وبه ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يذكر الجبّ، لقوله: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ من البادية، لأنّهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه، والمناجع[1] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ أي: أفسد بيننا،

(١) «المناجع»: جمع المنجع، وهو الموضع الذي يُقصد لما فيه من كلأ وماء.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

وأغرى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيف التدبير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال. أو: حكم بالائتلاف بعد الاختلاف.

١٠١ ـ ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ملك مصر ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ تفسير كتب الله، أو: تعبير الرؤيا. و﴿من﴾ فيهما للتبعيض إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا، وبعض التأويل. ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ انتصابه على النداء ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ طلب الوفاة على حال الإسلام، كقول يعقوب لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وعن الضحّاك: مخلصاً. وعن التستري: ﴿مسلماً﴾ إليك أمري. وفي «عصمة الأنبياء»: إنّما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة؛ لأنّ ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي، أو: على العموم.

ورُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضّة، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، حتّى أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بنيّ ما أعقك! عندك هذه القراطيس، وما كتبت إليّ على ثماني مراحل. فقال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه منّي، فاسأله. فقال جبريل: الله أمرني بذلك؛ لقولك: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ قال: فهلاّ خفتني! ورُوي: أنّ يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه، ودفنه ثمّة، ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة. فلمّا تمّ أمره طلبت نفسه الملك الدائم، فتمنّى الموت. وقيل: ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده، فتوفّاه الله طيّباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر، وتشاحنوا في دفنه، كلّ يحبّ أن يُدفن في محلّتهم، حتّى همّوا بالقتال، فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء، ثمّ يصل إلى مصر ليكونوا كلّهم فيه شَرْعاً، حتّى نقل موسى ـ عليه السلام ـ بعد أربعمئة سنة تابوته إلى بيت المقدس. وولد له أفرائيم، وميشا، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى. ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، فلم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه.

١٠٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف. والخطاب لرسول الله ﷺ. وهو مبتدأ ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى بني يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ عزموا على ما همّوا به من إلقاء يوسف في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف، ويبغون له الغوائل. والمعنى: أنّ هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنّك لم تحضر بني يعقوب حين اتّفقوا على إلقاء أخيهم في البئر.

١٠٣ ـ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أراد العموم، أو: أهل مكّة، أي: وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كلّ الاجتهاد على إيمانهم.

١٠٤ ـ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، أو: على الرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ماالقرآن إلا عظة من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وحثّ على طلب النجاة على لسان رسولٍ من رسله.

١٠٥ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من علامة، ودلالة على الخالق، وعلى صفاته، وتوحيده ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات، أو: على الأرض، ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يعتبرون بها. والمراد: ما يرون من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من العبر.

١٠٦ ـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: وما يؤمن أكثرهم في

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

إقراره بالله، وبأنّه خلقه، وخلق السموات والأرض إلا وهومشرك بعبادة الوثن. الجمهور على أنها نزلت في المشركين؛ لأنّهم مقرّون بالله خالقهم، ورازقهم. وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله، ومع ذلك يشركون به غيره. ومن جملة الشرك: ما يقوله القدريّة من إثبات قدرة التخليق للعبد. والتوحيد المحض: ما يقوله أهل السنّة، وهو: أنّه لا خالق إلا الله.

١٠٧ ـ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ عقوبة تغشاهم، وتشملهم ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ حال، أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَبِيلِىٓ﴾. والسبيل والطريق يذكّران ويؤنثان. ثمّ فسّر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستتر في ﴿أدعو﴾ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه، أي: أدعو إلى سبيل الله أنا، ويدعو إليه من اتّبعني، أو: ﴿أنا﴾ مبتدأ، و﴿على بصيرة﴾ خبر مقدّم ﴿ومن اتّبعني﴾ عطف على ﴿أنا﴾. يخبر ابتداء بأنّه ومن اتّبعه على حجة وبرهان، لا على هوى ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وأنزّهه عن الشركاء ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مع الله غيره.

١٠٩ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة، لأنّهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة﴾ أو: ليست فيهم امرأة ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون: حفص ﴿إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنّهم أعلم، وأحلم. وأهل البوادي فيهم الجهل، والجفاء ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك، وآمنوا به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وبالياء: مكّيّ، وأبو عمرو، وحمزة، وعلي.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

١١٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يئسوا من إيمان القوم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[1] وأيقن الرسل أنّ قومهم كذّبوهم. وبالتخفيف: كوفيّ، أي: وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذّبوا، أي: أخلفوا. أو: وظنّ المرسل إليهم أنّهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنّهم ينصرون عليهم، ولم يصدّقوهم فيه ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب ﴿فَنُجِّيَ﴾ بنون واحدة، وتشديد الجيم، وفتح الياء: شاميّ، وعاصم، على لفظ الماضي المبنيّ للمفعول. والقائم مقام الفاعل ﴿من﴾. الباقون: ﴿فَنُنْجِيْ﴾ [بنونين، ثانيتهما ساكنة مخفاة للجيم بعدها، وإسكان الياء][2] ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ أي: النبيّ، ومَن آمن به ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين.

١١١ ـ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم. أو: في قصّة يوسف وإخوته ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ حيث نقل من غاية الحبّ إلى غيابة الجبّ، ومن الحصير إلى السرير. فصارت عاقبة الصبر: سلامة وكرامة، ونهاية المكر: وخامة وندامة ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفّار ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ولكن تصديق الكتب التي تقدّمته، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي تستند إليه السنّة، والإجماع، والقياس ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلال ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بالله، وأنبيائه وما نصب بعد ﴿لكن﴾ معطوف على خبر ﴿كان﴾.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿كذّبوا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو وآخرين.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

. . . .

عن رسول الله ﷺ: «علّموا أرقّاءكم سورة يوسف، فأيما عبد تلاها، وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه؛ هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة ألا يحسد مسلماً»[1]. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: في ذكر قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ وإخوته تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنّه يقول: إنّ إخوة يوسف مع موافقتهم إيّاه في الدين، ومع الأخوّة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد، والمكر، وصبر على ذلك، فأنت مع مخالفتهم إيّاك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم. وقال وهب: إنّ الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف ـ عليه السلام ـ تامّة، كما هي في القرآن العظيم. والله أعلم.

* * *

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٥١١).

سُورَةُ الرَّعْدِ

ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿الٓمٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أريد بالكتاب: السورة، أي ﴿تلك﴾ الآيات ﴿آيات﴾ السورة الكاملة العجيبة في بابها ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن كلّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر ﴿والذي﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيقولون: تقوّله محمد. ثمّ ذكر ما يوجب الإيمان فقال:

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خلقها مرفوعة، لا أن تكون موضوعة فرفعها. و﴿الله﴾ مبتدأ، والخبر ﴿الذي رفع السموات﴾ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ حال. وهو جمع: عماد، أو: عمود ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير يعود إلى السموات، أي: ترونها كذلك، فلا حاجة إلى البيان. أو: إلى عمد، فيكون في موضع جرّ على أنّه صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئية ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى بالاقتدار، ونفوذ السلطان ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافع عباده، ومصالح بلاده ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته، وربوبيّته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبيّن آياته في كتبه المنزلة ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلّكم توقنون بأنّ هذا المدبّر والمفصّل لا بدّ لكم من الرجوع إليه.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جارية ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: الأسود، والأبيض، والحلو، والحامض، والصغير، والكبير، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. (يُغشّي): حمزة، وعليّ، وأبو بكر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أنّ لها صانعاً، عليماً، حكيماً، قادراً.

٤ ـ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيّبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة. وذلك دليلٌ على قادر مدبّر مريد، موقع لأفعاله على وجهٍ دون وجه ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ معطوفة على ﴿قطع﴾ ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع: مكّي، وبصريّ، وحفص عطف على ﴿قطع﴾. غيرهم بالجرّ بالعطف على ﴿أعناب﴾. والصنوان جمع: صنو. وهي النخلة لها رأسان، وأصلها واحد. وعن حفص: بضمّ الصاد. وهما لغتان ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾[1] وبالياء: عاصم، وشاميّ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر. وبسكون الكاف: نافع، ومكي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الحسن: مثّل اختلاف القلوب في آثارها، وأنوارها، وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها، وأزهارها، وثمارها.

٥ ـ ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾

(١) في الأصل المخطوط ﴿تُسْقىٰ﴾ وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٠٥).

أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ

خبر ومبتدأ، أي: فقولهم حقيق بأن يتعجّب منه؛ لأنّ من قدر على إنشاء ما عدّد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه، وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿قولهم﴾. قرأ عاصم، وحمزة كلّ واحد بهمزتين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكافرون، المتمادون في كفرهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصف لهم بالإصرار، أو: من جملة الوعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دلّ تكرار ﴿أولئك﴾ على تعظيم الأمر.

٦ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالنقمة قبل العافية. وذلك أنّهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، استهزاء منهم بإنذاره ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذّبين، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا؟ والمثلة: العقوبة، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحلّه الحال، أي: ظالمين لأنفسهم. قال السدي: يعني: المؤمنين. وهي أرجى آية في كتاب الله، حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة، فإنّ التوبة تزيلها وترفعها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على الكافرين. أو: هما جميعاً في المؤمنين، لكنّه معلّق بالمشيئة فيهما. أي: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾.

٧ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ لم يعتدّوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى؛ من انقلاب العصا حيّة، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنما أنت رجل أُرْسِلت منذراً، مخوّفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل،

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

وما عليك إلا الإتيان بما يصحّ به أنك رسول منذر، وصحّة ذلك حاصلة بأيّ آية كانت. والآيات كلّها سواء في حصول صحّة الدعوى بها ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بآية خصّ بها، لا بما يريدون، ويتحكّمون.

٨ ـ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ «ما» في هذه المواضع الثلاثة موصولة، أي: يعلم ما تحمله من الولد، على أيّ حال هو من ذكورة، وأنوثة، وتمام، وخداج، وحسن، وقبح، وطول، وقصر، وغير ذلك، وما تغيضه الأرحام، أي: ويعلم ما تنقصه ـ يقال: غاض الماء وغضته أنا ـ وما تزداده. والمراد: عدد الولد، فإنّها تشتمل على واحد، واثنين، وثلاثة، وأربعة. أو: جسد الولد، فإنّه يكون تامّاً ومخدجاً. أو: مدّة الولادة؛ فإنّها تكون أقلّ من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عندنا، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك. أو: مصدرية، أي: يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام، وازديادها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر وحدٍّ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه؛ كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٩ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما شاهدوه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن؛ الذي كلّ شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو: الذي كبر عن صفات المخلوقين، وتعالى عنها. وبالياء في الحالين[1]: مكّيّ.

١٠ ـ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: في علمه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ متوار ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ ذاهب في سربه، أي: في طريقه

(١) أي: وصلاً ووقفاً.

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا

ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروباً. و﴿سارب﴾ عطف على ﴿من هو مستخف﴾ لا على ﴿مستخف﴾. أو: على ﴿مستخف﴾ غير أنّ ﴿من﴾ في معنى الاثنين.

١١ ـ والضمير في: ﴿لَهُۥ﴾ مردود على ﴿من﴾. كأنّه قيل: لمن أسّر، ومن جهر، ومن استخفى، ومن سرب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه. والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء في القاف. أو: هو مفعّلات، من: عقّبه؛ إذا جاء على عقبه؛ لأنّ بعضهم يعقب بعضاً، أو: لأنّهم يعقبون ما يتكلّم به، فيكتبونه ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾أي: قدّامه ووراءه ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ هما صفتان جميعاً. وليس ﴿من أمر الله﴾ بصلة للحفظ، كأنّه قيل: له معقّبات من أمر الله. أو: ﴿يحفظونه من﴾ أجل ﴿أمر الله﴾، أي: من أجل أنّ الله تعالى أمرهم بحفظه. أو: ﴿يحفظونه﴾ من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من العافية، والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ من دون الله ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم.

١٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ انتصبا على الحال من البرق، كأنّه في نفسه خوف وطمع. أو: على ذا خوف، وذا طمع. أو: من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين. والمعنى: يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فتىً كالسَّحابِ الجُونِ يُخشَى ويُرْتَجى يرجَى الحيا منه وتُخشَى الصَّواعِقُ[1]

(١) «الجون»: الأسود، ويُطلق على الأبيض. «الحيا»: المطر.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾

أو: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومَن له بيت يكف[1]، ومن البلاد: ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر؛ ويطمع فيه من له نفع فيه ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ هو اسم جنس، والواحدة: سحابة ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء. وهو جمع ثقيلة. تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال.

١٣ ـ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قيل: يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر، أي: يصيحون بسبحان الله، والحمد لله. وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الرعدُ مَلَكٌ موكّل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب»[2]. والصوت الذي يسمع: زجره السحاب حتّى ينتهي إلى حيث أمر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ ويسبّح ﴿الملائكة﴾ من هيبته، وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الصاعقة: نار تسقط من السماء. لمّا ذكر علمه النافذ في كلّ شيء واستواء الظاهر والخفيّ عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيّته قال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني: الذين كذبّوا رسول الله ﷺ ﴿يجادلون في الله﴾ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث، وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ويردّون الوحدانيّة باتخاذ الشركاء، ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم: الملائكة بنات الله. أو: الواو للحال، أي: ﴿فيصيب بها من يشاء﴾ في حال جدالهم. وذلك: أن أربد [أخا لبيد بن ربيعة العامري][3] قال لرسول الله ﷺ ـ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة، وأرسل على أربد صاعقة فقتله: ـ: أخبرني عن ربّنا أمن نحاس هو،

---

(١) «يكف»: يقطر.

(٢) رواه الترمذي (٣١١٧) والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢). «مخاريق»: جمع مخراق، وهو منديل يلفّ ليضرب به.

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾

أم من حديد؟[1] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: المماحلة، وهي: شدّة المماكرة والمكايدة. ومنه تمحّل لكذا: إذا تكلّف لاستعمال الحيلة، واجتهد فيه. ومحل بفلان: إذا كاده، وسعى به إلى السلطان. والمعنى: أنّه شديد المكر والكيد لأعدائه بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

١٤ ـ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أضيفت إلى الحقّ الذي هو ضدّ الباطل؛ للدلالة على أنّ الدعوة ملابسة للحقّ، وأنّها بمعزل من الباطل. والمعنى: أنّ الله سبحانه يُدعى، فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤله، فكانت دعوة ملابسة للحقّ لكونه حقيقاً بأنّه يوجّه إليه الدعاء، لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع، ولا يجدي دعاؤه. واتّصال ﴿شديد المحال﴾ و﴿له دعوة الحقّ﴾ بما قبله على قصّة أربد، ظاهر؛ لأنّ إصابته بالصاعقة محال من الله، ومكر به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول الله ﷺ عليه وعلى صاحبه بقوله: «اللهم اخسفهما بما شئت»[2] فأجيب فيهما، فكانت الدعوة دعوة حقّ. وعلى الأوّل وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيهم إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ الاستثناء من المصدر، أي: من الاستجابة التي دلّ عليها ﴿لا يستجيبون﴾ لأنّ الفعل بحروفه يدلّ على المصدر، وبصيغته على الزمان، وبالضرورة على المكان والحال، فجاز استثناء كلّ منها من الفعل، فصار التقدير: لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفيّه إلى الماء، أي: كاستجابة الماء لمن بسط كفيّه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. والماء جماد لا يشعر ببسط كفّيه، ولا بعطشه، وحاجته إليه، ولا يقدر أن

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٣٣٤١ و ٣٣٤٢) والطبري في تفسيره (١٣ / ١٢٥) والواحدي في أسباب النزول (ص١٨٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٤٢).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٨٤).

وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ

يجيب دعاءه، ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحسّ بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم. واللام في ﴿ليبلغ﴾ متعلّق بباسط كفّيه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع لا منفعة فيه، لأنّهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم.

١٥ ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سجود تعبّد، وانقياد ﴿طَوْعًا﴾ حال، يعني: الملائكة، والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: المنافقين، والكافرين في حال الشدّة، والضيق ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوف على ﴿من﴾، جمع: ظلّ ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمع غداة، كقُنِيّ وقناة ﴿وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ جمع أُصُل. جميع: أصيل. قيل: ظلّ كلّ شيء يسجد لله بالغدوّ والآصال، وظلُّ الكافر يسجد كرهاً وهو كاره، وظلّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع.

١٦ ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم، لأنه إذا قال لهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يكن لهم بدٌّ من أن يقولوا: ﴿الله﴾. دليلُه قراءة ابن مسعود وأُبَيّ: (قالوا الله). أو: هو تلقين، أي: فإن لم يجيبوا فلقّنهم، فإنّه لا جواب إلا هذا ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أبعد أن علمتموه ربّ السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة؟ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو: يدفعوا ضرراً عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق، المثيب، المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن، أو: من لا يبصر شيئاً، ومن لا يخفى عليه شيء ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ ملل الكفر والإيمان. ﴿يستوي﴾ كوفيّ ـ غير حفص ـ ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا. ومعنى الهمزة: الإنكار ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ خلقوا مثل خلقه. وهو صفة لشركاء، أي: أنّهم لم يتّخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا، مثل خلق الله ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فاشتبه

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا
فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾

عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتّى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتّخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد. ولكنّهم اتخذوا له شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: خالق الأجسام والأعراض. لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة. ومن قال: إنّ الله لم يخلق أفعال الخلق، وهم خلقوها، فتشابه الخلق على قولهم ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحّد بالربوبيّة ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ لا يغالب، وما عداه مربوب، ومقهور.

١٧ ـ ﴿أَنزَلَ﴾ أي: الواحد القهار، وهو: الله سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب ﴿مَآءٗ﴾ مطراً ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ جمع واد، وهو: الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، وإنّما نكّر لأنّ المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله أنّه نافع للممطور عليهم، غير ضارّ ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ أي: رفع ﴿زَبَدٗا﴾ هو ما على وجه الماء من الرغوة، والمعنى: علاه زبد ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ منتفخاً، مرتفعاً على وجه السيل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ﴾[1] وبالياء: كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو: للتبعيض، أي: وبعضه زبد ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ حال من الضمير في ﴿عليه﴾ أي: ﴿ومما توقدون عليه﴾ ثابتاً ﴿في النار﴾ ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ مبتغين حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في ﴿توقدون﴾. ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ من الحديد، والنحاس، والرصاص يتّخذ منها الأواني، وما يتمتّع به في الحضر، والسفر. وهو معطوف على ﴿حلية﴾ أي: زينة من الذهب، والفضة ﴿زَبَدٞ﴾ خبث. وهو مبتدأ ﴿مِّثۡلُهُۥ﴾ نعت له. و﴿مما توقدون﴾

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿توقدون﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ونافع، وعاصم، والحسن، ويعقوب، وأبي جعفر، والأعرج، والمطوعي، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢١٤).

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾

خبر له، أي: لهذه الفلزّات إذا أغليت زبد مثل زبد الماء ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحقّ والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ حال، أي: متلاشياً، وهو: ما تقذفه القدر عند الغليان، والبحر عند الطغيان. والجفء: الرمي. وجفأت الرجل: صرعته ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء، والحليّ، والأواني ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيثبت الماء في العيون، والآبار، والحبوب، والثمار. وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدّة طويلة ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ليظهر الحقّ من الباطل.

وقيل: هذا مثل ضربه الله للحقّ وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحقّ وأهله بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم بأنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه، واتخاذ الأواني، والآلات المختلفات. وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً: يثبت الماء في منافعه، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله، ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب، والحقّ والباطل. فالماء: القرآن نزل لحياة الجنان، كالماء للأبدان، والأودية للقلوب. ومعنى ﴿بقدرها﴾ بقدر سعة القلب وضيقه. والزبد: هواجس النفس، ووساوس الشيطان. والماء الصافي المنتفع به مثل الحقّ، فكما يذهب الزبد باطلاً، ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان، ويبقى الحقّ كما هو. وأما حلية الذهب والفضّة فمثل للأحوال السنيّة، والأخلاق الزكيّة. وأمّا متاع الحديد، والنحاس، والرصاص فمثل للأعمال الممدّة بالإخلاص المعدّة للخلاص، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب، كما أنّ تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب، وبعضها آلة الدفع في الحرب. وأما الزبد: فالرياء، والخلل، والملل، والكسل.

١٨ ـ واللام في: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي: أجابوا. متعلّقة بيضرب، أي:

لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ

﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي صفة لمصدر ﴿استجابوا﴾، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي: ﴿و﴾ للكافرين ﴿الذين لم يستجيبوا﴾ أي: هما مثلا الفريقين. وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين، أي: لو ملكوا أموال الدنيا، وملكوا معها مثلها، لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله. والوجه: أنّ الكلام قد تمّ على الأمثال، وما بعده كلام مستأنف. و﴿الحسنى﴾ مبتدأ، خبره ﴿للذين استجابوا﴾. والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنّة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿لو﴾ مع ما في حيّزه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ المناقشة فيه. في الحديث: «من نُوقش الحسابَ عُذِّب»(١) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المكان الممهّد. والمذموم محذوف، أي: جهنم.

١٩ ـ دخلت همزة الإنكار على الفاء في ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لإنكار أن تقع شبهةٌ مابعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، وهو المراد بقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين عملوا على قضايا عقولهم، فنظروا، واستبصروا.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ . . . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] وقيل: هو صفة ﴿لأولي الألباب﴾. والأول أوجه. وعهد الله: ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

(١) رواه البخاري (٦٥٣٦) والترمذي (٣٣٣٧).

وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم، وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد. تعميم بعد تخصيص.

٢١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات. ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذبّ عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السّلام عليهم، وعيادة مرضاهم. ومنه: مراعاة حقّ الأصحاب، والخدم، والجيران، والرفقاء في السّفر ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كلّه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

٢٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس، والأموال، ومشاقّ التكاليف ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليقال: ما أصبره، وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل! ولا لئلا يعاب في الجزع ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يتناول النوافل؛ لأنها في السرّ أفضل، والفرائض؛ لأنّ المجاهرة بها أفضل، نفياً للتهمة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيّىء غيرهم. أو: إذا حُرموا أعطوا، وإذا ظُلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره. فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا، وهي: الجنّة، لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا، ومرجع أهلها.

٢٣ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أي: آمن ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقرىء ﴿صلُح﴾. والفتح أفصح. و﴿من﴾ في محلّ

وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

الرفع بالعطف على الضمير في ﴿يدخلونها﴾. وساغ ذلك وإن لم يؤكد؛ لأنّ ضمير المفعول صار فاصلاً. وأجاز الزجاج أن يكون مفعولاً معه. ووصفهم بالصلاح ليعلم: أنّ الأنساب لا تنفع بنفسها، والمراد: أبوا كلّ واحد منهم، فكأنّه قيل: من آبائهم وأمهاتهم. ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ في قدر كلّ يوم وليلة ثلاث مرات، بالهدايا، وبشارة الرضا.

٢٤ ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في موضع الحال، إذ المعنى: قائلين: ﴿سلام عليكم﴾ أو: مسلّمين ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلّق بمحذوف تقديره: هذا ﴿بما صبرتم﴾، أي: هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات، أو على أمر الله، أو: بسلام، أي: نسلّم عليكم، ونكرمكم بصبركم. والأوّل أوجه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الجنّات.

٢٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف، والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر، والظلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يحتمل أن يُراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار، وأن يُراد بالدار: جهنم، وبسوئها: عذابها.

٢٦ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق لمن يشاء. والمعنى: ﴿الله﴾ وحده هو ﴿يبسط الرزق .... ويقدر﴾ دون غيره ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتّى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ وخفي عليهم أنّ نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزراً، يتمتّع به كعُجْلة الراكب، وهو ما يتعجّله من تميرات، أو شربة سَوِيق[1].

---

(١) «السّويق»: طعام يتّخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

٢٧ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: الآية المقترحة ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح آيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويرشد إلى دينه مَن رجع إليه بقلبه.

٢٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم الذين. أو: محله النصب بدل من ﴿مَنْ﴾ ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على الدوام. أو: بالقرآن، أو: بوعده ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين.

٢٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره. وهو مصدر من: طاب، كبشرى. ومعنى طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً. ومحلّها النصب، أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك. واللام في ﴿لهم﴾ للبيان مثلها في: سقياً لك. والواو في ﴿طوبى﴾ منقلبة عن ياء لضمّة ما قبلها، كموقن. والقراءة في ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ مرجع: بالرفع والنصب تدلّ على محليها.

٣٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ مثل ذلك الإرسال ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات. ثمّ فسّر كيف أرسله، فقال: ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمّة قد تقدّمتها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحال هؤلاء: أنهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة؛ الذي وسعت رحمته كلّ شيء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ وربّ كلّ شيء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو ربّي الواحد، المتعالي عن الشركاء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي

وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ

عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي فيثيبني على مصابرتكم. «متابي، وعقابي، ومآبي» في الحالين[1]: يعقوب.

٣١ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مقارّها، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتّى تتصدّع، وتتزايل قطعاً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار، والتخويف. فجواب ﴿لو﴾ محذوف. أو معناه: ﴿ولو أنّ قرآناً﴾ وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيئهم، لما آمنوا به، ولما تنبّهوا عليه، كقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ..﴾ [الأنعام: ١١١] الآية ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كلّ شيء، وهو قادرٌ على الآيات التي اقترحوها ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلم يعلم. وهي لغة قوم من النخع. وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لتضمّنه معناه، لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنّه لا يكون، كما استعمل النسيان في معنى الترك، لتضمّن ذلك. دليلهُ قراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ (أفلم يتبيّن). وقيل: إنمّا كتبه الكاتب وهو ناعس، مستوي السنّات. وهذه والله فرية ما فيها مرية ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم، وسوء أعمالهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بما يحلّ الله بهم في كلّ وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم، وأولادهم، وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تحلُّ القارعة قريباً منهم، فيفزعون، ويتطاير عليهم شررها، ويتعدّى إليهم شرورها ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتهم، أو القيامة. أو: ﴿ولا يزال﴾ كفّار مكّة ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ برسول الله من العداوة، والتكذيب ﴿قارعة﴾ لأنّ جيش رسول الله يغير حول مكّة، ويختطف منهم ﴿أو

---

(١) أي: في حالتي الوقف والوصل.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ
فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ
سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ
وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ

﴿تحلّ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ أي: فتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي: لا خلف في موعده.

٣٢ ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإملاء: الإمهال، وأن يترك مُلاوِمَةً[1] من الزمان في خفض، وأمن ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهذا وعيدٌ لهم، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به، وتسلية له.

٣٣ ـ ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني: أفالله الذي هو رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ﴾ صالحة، أو طالحة ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ يعلم خيره وشرّه، ويعدّ لكلّ جزاءه، كمن ليس كذلك. ثم استأنف، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: الأصنام. ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ أي: سمّوهم له مَنْ هم، ونبّئوه بأسمائهم. ثمّ قال: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على أم المنقطعة، بل أتنبؤنه بشركاء لا يعلمهم في الأرض، وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنّهم ليسوا بشيء، والمراد: نفي أن يكون له شركاء ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ بل أتسمّونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ عن سبيل الله. بضم الصاد: كوفيّ. وبفتحها: غيرهم. ومعناه: وصدّوا المسلمين عن سبيل الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ من أحد يقدرُ على هدايته.

٣٤ ـ ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالقتل، والأسر، وأنواع المحن ﴿وَلَعَذَابُ

(١) أي: مُدّة.

ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

﴿ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشدّ لدوامه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ من حافظ من عذابه.

٣٥ ـ ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل. وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف، أي: فيما يتلى عليكم ﴿مثل الجنة﴾. أو: الخبر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما تقول: صفة زيد أسمر ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ ثمرها دائم الوجود، لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم، لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: الجنّة الموصوفة عقبى تقواهم، يعني: منتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

٣٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه، ومن النصارى بأرض الحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: ومن أحزابهم. وهم كفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، ككعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيّد، والعاقب، وأشياعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني، مما هو ثابت في كتبهم. وكانوا ينكرون نبوّة محمد ﷺ، وغير ذلك مما حرّفوه، وبدلّوه من الشرائع ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ هو جواب للمنكرين، أي: ﴿قل إنما أمرت﴾ فيما أنزل إليّ بـ ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادّعائكم وجوب عبادة الله، وألا يشرك به؟!. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ خصوصاً، لا أدعو إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَـَٔابِ﴾ مرجعي. وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

٣٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله، وتوحيده، والدعوة إليه، وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكمة

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا

عربيّة مترجمة بلسان العرب. وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يشاركهم فيها. فقيل: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: لا ينصرك ناصر، ولا يقيك منه واق. وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين، وألا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الثبات بمكان.

٣٨ ـ وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد، ويقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ، فنزل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء، وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس في وسعه[١] إتيان الآيات على ما يقترحه قومه، وإنّما ذلك إلى الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكلّ وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته.

٣٩ ـ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يشاء نسخه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدله ما يشاء، أو: يتركه غير منسوخ، أو: يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء، ويثبت غيره، أو: يمحو كفر التائبين، ويثبت إيمانهم، أو: يميت من حان أجله، وعكسه. ﴿ويثبت﴾: مدنيّ، وشاميّ، وحمزة، وعليّ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: أصل كلّ كتاب، وهو اللوح المحفوظ، لأنّ كلّ كائن مكتوب فيه.

٤٠ ـ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال ـ أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو: توفيناك قبل ذلك ـ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، ﴿وَعَلَيْنَا

(١) من هنا وحتى الآية (٣٥) من سورة الحجر ساقط من المخطوط، واستدرك من المطبوع.

ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ

﴿ٱلْحِسَابُ﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك، فلا يهمّنّك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

٤١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب، ونزيد في دار الإسلام. وذلك من آيات النصرة والغلبة. والمعنى: عليك البلاغ الذي حمّلته، ولا تهتمّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتمّ ما وعدناك من النصرة، والظفر ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادّ لحكمه. والمعقّب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله. وحقيقته: الذي يعقّبه، أي: يقفّيه بالردّ، والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق: معقّب، لأنّه يقفّي غريمه بالاقتضاء والطلب. والمعنى: أنّه حكم للإسلام بالغلبة، والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار، والانتكاس. ومحلّ: ﴿لا معقّب لحكمه﴾ النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه، ولا قلنسوة له. تريد: حاسراً ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فعمّا قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

٤٢ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفّار الأمم الخالية بأنبيائهم. والمكر: إرادة المكروه في خفية، ثمّ جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾. ثمّ فسّر ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ يعني: العاقبة المحمودة، لأنّ من علم ما تكسب كلّ نفس، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كلّه، لأنّه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم في غفلة عما يُراد بهم. (الكافر) على إرادة الجنس: حجازيّ، وأبو عمرو.

٤٣ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ المراد بهم: كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود. قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ ولهذا قال عطاء: هي مكّيّة، إلا هذه الآية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الأدلّة على رسالتي،

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

والباء دخلت على الفاعل، و﴿شهيداً﴾ تمييز ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: هو الله عزّ وجل. والكتاب: اللوح المحفوظ. دليله قراءة من قرأ: ﴿وَمِنْ عِنْدِه علمُ الكتاب﴾ أي: ومن لدنه علم الكتاب، لأنّ علمَ مَنْ عَلِمَهُ مِنْ فضله، ولطفه. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب، الذين أسلموا، لأنّهم يشهدون بنعته في كتبهم. وقال ابن سَلام: فيّ نزلت هذه الآية. وقيل: هو جبريل ـ عليه السلام ـ و﴿مَن﴾ في موضع الجرّ بالعطف على لفظ الله. أو: في موضع الرفع بالعطف على محلّ الجارّ والمجرور، إذ التقدير: كفى الله. و(علم الكتاب﴾ يرتفع بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً، لأنّ الظرف صلة لمن. و﴿من﴾ ـ هنا ـ بمعنى الذي، والتقدير: من ثبت عنده علم الكتاب، وهذا لأنّ الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل، نحو: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه. في القراءة بكسر ميم ﴿من﴾ يرتفع العلم بالابتداء.

* * *

سُورَةُ إبراهِيمَ

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

---

١ ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿كتاب﴾ يعني: السورة. والجملة التي هي: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إيّاهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله. مستعار من الإذن، الذي هو تسهيل الحجاب. وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من النور بتكرير العامل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بالانتقام ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على الإنعام.

٢ ـ ﴿ٱللَّهِ﴾ بالرفع: مدنيّ، وشاميّ، على: هو ﴿الله﴾. بالجرّ غيرهما، على أنّه عطف بيان للعزيز الحميد ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً. ولمّا ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، توعّد الكافرين بالويل، وهو نقيضُ الوأل، وهو: النجاة. وهو اسم معنى كالهلاك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو مبتدأ وخبر وصفة.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون، و يؤثرون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً. والأصل: ويبغون لها، فحذف الجارّ، وأوصل الفعل ﴿الذين﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. ووصف الضلال بالبعد من

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾

الإسناد المجازيّ. والبعد في الحقيقة للضالّ، لأنّه هو الذي يتباعد عن طريق الحقّ، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه. أو: مجرور صفة للكافرين. أو: منصوب على الذمّ، أو: مرفوع على أعني ﴿الذين﴾ أو: هم ﴿الذين﴾.

٤ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إلا متكلماً بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما هو مبعوث به وله، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولون له: لم نفهم ما خوطبنا به. فإن قلت: إنّ رسولنا ﷺ بُعِث إلى الناس جميعاً بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة، أو: بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأنّ الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل. فتعيّن أن ينزل بلسان واحد. وكان لسان قومه أولى بالتعيين، لأنّهم أقرب إليه، ولأنّه أبعد من التحريف، والتبديل ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من آثر سبب الضلالة ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ من آثر سبب الاهتداء ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان.

٥ ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع. ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ بأن أخرج، أو: أي: أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنّه قيل: أرسلناه، وقلنا له: ﴿أخرج قومك﴾ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه: أيّام العرب لحروبها، وملاحمها. أو: بأيّام الإنعام، حيث ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وفلق لهم البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على البلايا ﴿شَكُورٖ﴾ على العطايا، كأنّه قال: لكلّ مؤمن، إذ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ «إذا» ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت، أو: بدل اشتمال من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ذكر في البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [الآية: ٤٩] وفي الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الآية: ١٤١] بلا واو، وهنا مع الواو. والحاصل: أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب، وبياناً له، وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنّه زاد على جنس العذاب، كأنّه جنس آخر ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى العذاب، والبلاء: المحنة، أو: إلى الإنجاء. والبلاء: النعمة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٧ ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذن. ونظير: تأذّن وآذن: توعّد وأوعد. ولا بد في تفعّل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنّه قيل: وإذ آذن ربّكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه، وهو من جملة ما قال موسى لقومه. وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم، كأنّه قيل: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ واذكروا حين ﴿تأذّن ربّكم﴾ والمعنى: ﴿وإذ تأذن ربّكم﴾ فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يابني إسرائيل ما خوّلتكم من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة. فالشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود. وقيل: إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لئن شكرتم﴾ بالجدّ في الطاعة ﴿لأزيدنّكم﴾ بالجدّ في المثوبة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي. أمّا في الدنيا فسلب النعم، وأمّا في العقبى فتوالي النقم.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

٨ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾ يابني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناس كلّهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمده الحامدون. وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير، الذي لابدّ لكم منه.

٩ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى لقومه، أو: ابتداء خطاب لأهل عصر محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو: عطف ﴿الذين من بعدهم﴾ على ﴿قوم نوح﴾ و﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ اعتراض. والمعنى أنّهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. ورُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام قال عند نزول هذه الآية: «كذب النسّابون»[١] ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الضميران يعودان إلى الكفرة، أي: أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجّباً، أو: عضّوا عليها تغيّظاً، أو: الثاني يعود إلى الأنبياء، أي: ردّ القوم أيديهم في أفواه الرسل كيلا يتكلّموا بما أرسلوا به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله، والتوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

١٠ ـ ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأنّ الكلام ليس في الشّك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنّه لا يحتمل الشكّ لظهور الأدلّة. وهو جواب قولهم: ﴿وإنّا لفي شكّ﴾ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٥٦) عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف جداً، ورواه ابن جرير في تفسيره (١٣/١٨٧) موقوفاً على ابن مسعود.

يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ

﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ إذا آمنتم. ولم تجيء مع ﴿من﴾ إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح: ٣ ـ ٤] ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصف: ١٢] وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء. وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوّي بين الفريقين في الميعاد ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى وقت قد سمّاه، وبيّن مقداره ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: القوم. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصّون بالنبوّة دوننا؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: الأصنام ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بحجّة بيّنة. وقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات، وإنّما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً، ولجاجاً.

١١ ـ ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تسليم لقولهم إنهم بشر مثلهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ بالإيمان والنبوّة كما منّ علينا ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ جواب لقولهم ﴿فأتوا بسلطان مبين﴾. والمعنى: أنّ الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا، ولا في استطاعتنا، وإنّما هو أمر يتعلّق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافّة بالتوكّل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّلياً، كأنّهم قالوا: ومن حقّنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم، ومعاداتكم، وإيذائكم. ألا ترى إلى قوله:

١٢ ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ معناه: وأيّ عذر لنا في ألاّ نتوكّل عليه،

وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

وقد فعل بنا ما يوجب توكّلنا عليه، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وهو التوفيق لهداية كلّ منّا سبيله، الذي يجب عليه سلوكه في الدين؟! قال أبو تراب: التوكّل: طرح البدن في العبوديّة، وتعلّق القلب بالربوبيّة، والشكر عند العطاء، والصبر عند البلاء ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جواب قسم مضمر، أي: حلفوا على الصبر على أذاهم، وألا يمسكوا عن دعائهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على توكّلهم، حتّى لا يكون تكراراً.

١٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ ﴿سبْلنا﴾[1] ﴿لرسْلهم﴾ أبو عمرو ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكوننّ أحد الأمرين: إخراجكم، أو: عودكم، وحلفوا على ذلك. والعود بمعنى الصيرورة، وهو كثيرٌ في كلام العرب. أو: خاطبوا به كلّ رسول، ومن آمن معه، فغلّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ القول مضمر، أو: أجري الإيحاء مجرى القول، لأنّه ضرب منه.

١٤ ـ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرض الظالمين وديارهم. في الحديث: «من آذى جاره ورّثه الله داره»[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والإسكان، أي: ذلك الأمر حقّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي، وهو موقف الحساب، أو: المقام مقحم. أو: خاف قيامي عليه بالعلم، كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. والمعنى: أنّ ذلك حقّ للمتّقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ عذابي. وبالياء: يعقوب.

(١) أي: قوله تعالى في الآية (١٢): ﴿وقد هدانا سُبُلَنا﴾

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٤٥). وقال العجلوني: كذا رأيته في كلام بعض من جَمَع في الحديث ممّن لا يُعْرَف، ثم رأيت النجم قال: أورده في الكشاف، ولعله مَثَل سائر، وليس بحديث. (كشف الخفاء ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ

١٥ ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ واستنصروا الله على أعدائهم. وهو معطوف على ﴿أَوْحى إليهم﴾ ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخسر كلّ متكبّر بطر ﴿عَنِيدٍ﴾ مجانب للحقّ. معناه: فنصروا، وظفروا، وأفلحوا ﴿وخاب كلّ جبّار عنيد﴾ وهم قومهم. وقيل: الضمير للكفّار. ومعناه: واستفتح الكفار على الرسل ظنّاً منهم بأنّهم على الحقّ، والرسل على الباطل ﴿وخاب كلّ جبّار عنيد﴾ منهم، ولم يفلح باستفتاحه.

١٦ ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ من بين يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾. وهذا وصف حاله، وهو في الدنيا، لأنّه مرصد لجهنّم، فكأنّها بين يديه، وهو على شفيرها، أو: وصف حاله في الآخرة، حيث يبعث، ويوقف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿من ورائه جهنّم﴾ يلقى فيها مايلقى ﴿ويسقى﴾ ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ مايسيل من جلود أهل النّار. و﴿صديد﴾ عطف بيان لماء، لأنّه مبهم، فبيّن بقوله: ﴿صديد﴾.

١٧ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جُرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة؟! كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يقرب من رؤيتها، فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسباب الموت من كلّ جهة، أو: من كلّ مكان من جسده. وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام، أي: لو كان ثمّة موت لكان كلّ واحد منها مهلكاً ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنّه لو مات لاستراح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشدّ مما قبله، وأغلظ. وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس، وحبسها في الأجساد.

١٨ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، أي: فيما يتلى عليكم ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. وقوله: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة

ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ

مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: ﴿أعمالهم كرماد﴾ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ (الرياح): مدنيّ ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصف لليوم وهو لما فيه، وهو الريح، كقولك: يوم ماطر. وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسرى، وعقر الإبل للأضياف، وغير ذلك. شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس ـ وهو الإيمان بالله تعالى ـ برماد طيّرته الريح العاصف ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقدَر من الرماد المطيّر في الريح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحقّ، أو: عن الثواب.

١٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم. الخطاب لكلّ أحد. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ «خالق» مضافاً: حمزة، وعليّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم، أو: على خلاف شكلهم إعلاماً بأنّه قادر على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم.

٢٠ ـ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر.

٢١ ـ ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويبرزون يوم القيامة. وإنّما جيء به بلفظ الماضي، لأنّ ماأخبر به عزّ وجلّ لصدقه كأنّه قد كان ووجد. ونحوه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وغير ذلك. ومعنى بروزهم لله ـ والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتّى يبرز له ـ أنّهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنّون: أنّ ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنّ الله لا تخفى عليه خافية، أو: خرجوا من قبورهم، فبرزوا لحساب الله، وحكمه ﴿فَقَالَ

ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في الرأي، وهم: السّفْلة، والأتباع. وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخّم الألف قبل الهمزة، فيميلها إلى الواو ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم، وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء، واتّباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ تابعين. جُمعَ تابع على تبع، كخادم وخدم، وغائب وغيب. أو: ذوي تبع. والتبع: الاتّباع، يقال: تبعه تبعاً ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء ممّا نحن فيه. و﴿من﴾ الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: ﴿فهل أنتم مغنون عنّا﴾ بعض الشيء الذي هو عذاب الله. أو: هما للتبعيض، أي: فهل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله. ولمّا كان قول الضعفاء توبيخاً لهم، وعتاباً على استغوائهم، لأنّهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿قَالُواْ﴾ لهم مجيبين متعذرين: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه، أو: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم، وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. رُوي: أنّهم يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الصبر. ثمّ يقولون: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾. واتّصاله بما قبله من حيث إنّ عتابهم لهم كان جزعاً ممّا هم فيه، فقالوا لهم: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ يريدون أنفسهم وإيّاهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع، كما لا فائدة في الصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً.

٢٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ لمّا حكم بالجنّة والنار لأهليهما، وفرغ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾

من الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار. ورُوي: أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً على منبر من نار، فيقول لأهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسلّط، واقتدار. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكنّي دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي، وتزييني. والاستثناء منقطع، لأنّ الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ لأنّ من تجرّد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح، مع أنّ الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث اتّبعتموني بلا حجّة، ولا برهان. وقول المعتزلة: هذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة، أو السعادة، ويُحصِّلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين؛ باطل لقوله: ﴿لو هدانا الله﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لهديناكم﴾ كما مرّ ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله، ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة. ﴿بمصرخيِّ﴾: حمزة، إتباعاً للخاء. غيره: بفتح الياء، لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين. وهو جمع مصرخ. فالياء الأولى ياء الجمع، والثانية ضمير المتكلم ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ وبالياء: بصريّ. وما: مصدريّة ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بأشركتموني، أي: كفرت اليوم بإشراككم إيّاي مع الله من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. ومعنى كفره بإشراكهم إيّاه: تبرّؤه منه واستنكاره له؛ كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]. أو: ﴿من قبل﴾. متعلّق بكفرت و﴿ما﴾ موصولة، أي: كفرت ﴿من قبل﴾ حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله عزّ وجلّ. تقول: أشركني فلان، أي: جعلني له شريكاً. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزيّنه لهم من عبادة الأوثان، وهذا

إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ
تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

آخر قول الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قول الله عزّ وجلّ. وقيل: هو من تمام كلام إبليس. وإنّما حكى الله عزّ وجلّ ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين.

٢٣ ـ ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ عطف على ﴿برزوا﴾ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنّة بإذن الله، وأَمْره ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض في الجنّة، أو: تسليم الملائكة عليهم.

٢٤ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ أي: وصفه، وبيّنه ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ نصب بمضمر. أي: جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾. وهو تفسير لقوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ نحو: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس. أو: انتصب ﴿مثلاً﴾ و﴿كلمة﴾ بضرب، أي: ضرب كلمة طيّبة مثلاً، يعني: جعلها مثلاً. ثمّ قال: ﴿كشجرة طيّبة﴾ على أنّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة طيّبة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ أي: في الأرض، ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ أعلاها ورأسها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. والكلمة الطيّبة: كلمة التوحيد، أصلها: تصديق بالجنان، وفرعها: إقرار باللسان، وأكلها: عمل الأركان. وكما أنّ الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً، فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً. ولكنّ الأشجار لا تُراد إلا للثمار، فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار. والشجرة: كلّ شجرة مثمرة طيّبة: الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، ونحو ذلك. والجمهور على أنها النخلة. فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ماهي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في قلبي: أنّها النخلة، فهبت

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

رسول الله ﷺ أن أقولها، وأنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة» فقال عمر: يابنيّ لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حُمْر النّعم[1].

٢٥ ـ ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ تعطي ثمرها كلّ وقت وقّته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسير خالقها، وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضرب الأمثال زيادة إفهام، وتذكير، وتصوير للمعاني.

٢٦ ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها. وفي الحديث: «إنها شجرة الحنظل»[2] ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ استؤصلت جثّتها. وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثّة كلّها، وهو في مقابلة: ﴿أصلها ثابت﴾ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استقرار. يقال: قرّ الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثبوتاً. شبّه بها القول الذي لا يعضد بحجّة، فهو داحض غير ثابت.

٢٧ ـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يديمهم عليه ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو قول لا إله إلا الله، محمّد رسول الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حتّى إذا فتنوا في دينهم لم يزلّوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، وغير ذلك ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الجمهور على أنّ المراد به في القبر بتلقين الجواب، وتمكين الصواب. فعن البراء: أنّ رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان في قبره، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: ربيّ الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمّد ﷺ. فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي. فذلك قوله ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾. ثمّ يقول

(١) رواه البخاري (٦١) ومسلم (٢٨١١).
(٢) رواه الترمذي (٣١١٩).

وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل
لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

الملكان: عشتَ سعيداً، ومتّ حميداً، نَمْ نومة العروس»[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن، وتزلّ أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضلّ، وأزلّ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين، وإضلال الظالمين.

٢٨ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾، لأنّ شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيّروا الشكر إلى الكفر، وبدّلوه تبديلاً، وهم أهل مكّة. أكرمهم بمحمّد عليه الصلاة والسلام، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك.

٢٩ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وبئس المقرّ جهنم.

٣٠ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً في العبادة، أو: في التسمية ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وبفتح الياء: مكي، وأبو عمرو ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في الدنيا. والمراد به: الخذلان، والتخلية. وقال ذو النون: التمتع: أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مرجعكم إليها.

٣١ ـ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصّهم بالإضافة إليه تشريفاً. وبسكون الياء: شاميّ، وحمزة، وعليّ، والأعشى ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ المقول محذوف؛ لأنّ ﴿قل﴾ تقتضي مقولاً، وهو: أقيموا. وتقديره: قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيموا الصلاة، وينفقوا. وقيل: إنّه أمر، وهو المقول،

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٨٧) وأبو داود (٣٢١٢). وانظر: شرح الصدور للسيوطي (ص ٩١ ـ ٩٣). تحقيق: يوسف بديوي، طبع دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت.

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ

والتقدير: ليقيموا، ولينفقوا، فحذف اللام لدلالة ﴿قل﴾ عليه. ولو قيل: ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، يعني: مسرّين ومعلنين، أو: على الظرف، أي: وقتي سرّ وعلانية، أو: على المصدر، أي: إنفاق سرّ وإنفاق علانية. والمعنى: إخفاء التطوّع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا انتفاع فيه بمبايعة، ولا مخالّة. والخلال: المخالّة. وإنّما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. بفتحهما: مكي، وبصريّ. والباقون: بالرفع والتنوين.

٣٢ ـ ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبره ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. أو: ﴿من الثمرات﴾ مفعول ﴿أخرج﴾ و ﴿رزقاً﴾ حال من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾

٣٣ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ دائمين. وهو حال من الشمس والقمر، أي: يدأبان في سيرهما، وإنارتهما، ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان، والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلْفة لمعاشكم، وسباتكم.

٣٤ ـ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ﴿من﴾ للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو: ﴿وآتاكم من كلّ﴾ شيء سألتموه، وما لم تسألوه. فـ﴿ما﴾ موصوفة والجملة صفة لها، وحذفت الجملة الثانية؛ لأن الباقي يدلّ على المحذوف كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ﴿من كلٍّ﴾ عن أبي عمرو. و﴿ما سألتموه﴾ نفي، ومحلّه النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه. أو: ﴿ما﴾ موصولة، أي: وآتاكم من كل ذلك

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ

ما احتجتم إليه، فكأنكم سألتموه، أو: طلبتموه بلسان الحال ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا عدّها، وبلوغ آخرها. هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يعلمه إلاّ الله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لها. أو: ﴿ظلوم﴾ في الشدّة يشكو ويجزع ﴿كفّار﴾ في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

٣٥ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر ﴿إذ قال إبراهيم﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي: البلد الحرام ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن. والفرق بين هذه وبين ما في البقرة: أنّهُ قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة الخوف إلى الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ وبعّدني، أي: ثبّتني، وأدمني على اجتناب عبادتها، كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: ثبّتنا على الإسلام ﴿وَبَنِىَّ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من ﴿أن نعبد الأصنام﴾.

٣٦ ـ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جعلن مضلاّت على طريق التسبيب؛ لأنّ الناس ضلّوا بسببهن، فكأنّهن أضللنهم ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على ملّتي، وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فيما دون الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أو: ﴿ومن عصاني﴾ عصيان شرك ﴿فإنّك غفور رحيم﴾ إن تاب، وآمن.

٣٧ ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكّة ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ هو بيت الله، سُمِّي به لأنّ الله تعالى حرّم التعرّض له، والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو: لأنّه لم يزل ممنّعاً، يهابه كلّ

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ

جبّار، أو: لأنّه محترم عظيم الحرمة، لا يحلّ انتهاكها، أو: لأنه حرّم على الطوفان، أي: منع منه، كما سُمِّي عتيقاً؛ لأنه أُعتق منه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أسكنت﴾ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلاّ ﴿ليقيموا الصلاة﴾ عند بيتك المحرّم، ويعمروه بذكرك وعبادتك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ ﴿أفئدة من﴾ أفئدة ﴿النَّاسِ﴾. و﴿من﴾ للتبعيض. لما رُوي عن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس، والروم، والترك، والهند. أو: للابتداء، كقولك: القلب منّي سقيم، تريد: قلبي، فكأنّه قيل: أفئدة ناس. ونكّرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة ـ لأنها في الآية نكرة ـ ليتناول بعض الأفئدة ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة، وتطير نحوهم شوقاً ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ﴾ مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد الشاسعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر، ولا ماء.

٣٨ ـ ﴿رَبَّنَآ﴾ النداء المكرّر دليل التضرّع، واللَّجأُ إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السرّ، كما تعلم العلن ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ﴾ من كلام الله عزّ وجلّ تصديقاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أو من كلام إبراهيم. و﴿من﴾ للاستغراق، كأنّه قيل: وما يخفى على الله شيء ما.

٣٩ ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ ﴿على﴾ بمعنى مع. وهو في موضع الحال، أي: وهب لي وأنا كبير ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ رُوي: أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة. ورُوي: أنّه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين. وإنّما ذكر حال الكبر؛ لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم؛ لأنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم،

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ

ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيب الدعاء، من قولك: سمع الملك كلام فلان: إذا تلقّاه بالإجابة والقبول. ومنه: سمع الله لمن حمده. وكان قد دعا ربّه وسأله الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فشكر لله ما أكرمه به من إجابته. وإضافة السمع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميعُ الدعاء. وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا رحيم أباه.

٤٠ ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وبعض ذرّيتي، عطفاً على المنصوب في ﴿اجعلني﴾. وإنّما بعض؛ لأنّه علم بإعلام الله أنّه يكون في ذريّته كفّار. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ بالياء: في الوصل والوقف: مكّيّ. وافقه أبو عمرو، وحمزة في الوصل. الباقون بلا ياء. أي: استجب دعائي، أو: عبادتي ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ﴾ [مريم: ٤٨].

٤١ ـ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أي: آدم وحواء، أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يثبت. أو: أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيّاً، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

٤٢ ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. والخطاب لغير الرسول عليه الصلاة والسلام. وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وكما جاء في الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] وقيل: المراد به الإيذان بأنّه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنّه معاقبهم على قليله وكثيره، على سبيل الوعيد والتهديد،

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرّ في أماكنها مِن هول ما ترى.

٤٣ ـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم، فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ صفر من الخير، لا تعي شيئاً، من الخوف. والهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام. فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً، لا قوّة في قلبه ولا جراءة. وقيل: جُوف لا عقول لهم.

٤٤ ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: يوم القيامة. و﴿يوم﴾ مفعول ثان لأنذر، لا ظرف، إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: الكفّار ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ردّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة دعوتك، واتّباع رسلك. فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة، ولا تنتقلون إلى دار أخرى، يعني: كفرتم بالبعث، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] و﴿ما لكم﴾ جواب القسم. وإنّما جاء بلفظ الخطاب لقوله ﴿أقسمتم﴾. ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا من زوال. أو: أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو: يوم موتهم معذّبين بشدّة السكرات، ولقاء الملائكة بلا بشرى، فإنّهم يسألون يومئذ أن يؤخّرهم ربهم إلى أجل قريب.

٤٥ ـ يقال: سكن الدار، وسكن فيها، ومنه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر؛ لأنّ السكنى من السكون، وهو اللبث. والأصل تعديته بفي، نحو: قرّ في الدار، وأقام فيها، ولكنّه لمّا نقل إلى سكون خاصّ

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ

تصرّف فيه، فقيل: سكن الدار، كما قيل: تبوّأها. ويجوز أن يكون سكنوا من السكون، أي: قرّوا فيها، واطمأنّوا طيّبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيّام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا، ويرتدعوا ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار، أو: المشاهدة، وفاعل ﴿تبيّن﴾ مضمر دلّ عليه الكلام، أي: تبيّن لكم حالهم. و﴿كَيْفَ﴾ ليس بفاعل؛ لأنّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وإنّما نصب ﴿كيف﴾ بقوله: ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: أهلكناهم، وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم.

٤٦ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، وهو: ما فعلوه من تأييد الكفر، وبطلان الإسلام ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو مضاف إلى الفاعل كالأوّل. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكرٍ هو أعظم منه، أو: إلى المفعول، أي: عند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية. والتقدير: وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبيّ ﷺ، فعبّر عن النبي عليه الصلاة والسلام بالجبال لعظم شأنه. و ﴿كان﴾ تامّة، و﴿إن﴾ نافية: واللام مؤكّدة لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنّها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكّناً. دليلهُ قراءة ابن مسعود: ﴿وما كان مكرهم﴾ وبفتح اللام الأولى ورفع الثانية: عليّ، أي: ﴿وإن كان مكرهم﴾ من الشدّة بحيث تزول منه الجبال، وتنقطع عن أماكنها، فإن مخفّفة من إنّ واللام مؤكّدة.

٤٧ ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿مخلف﴾: مفعول

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ

ثان لتحسبنّ، وأضاف ﴿مخلف﴾ إلى ﴿وعده﴾ وهو المفعول الثاني له. والأوّل ﴿رسله﴾. والتقدير: مخلف رسله وعده. وإنّما قدّم المفعول الثاني على الأوّل ليعلم أنّه لا يخلف الوعد أصلاً. كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال: ﴿رسله﴾ ليؤذن أنّه إذا لم يخلف وعده أحداً، فكيف يخلفه رسله؛ الذين هم خيرته، وصفوته؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

٤٨ ـ وانتصاب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الظرف للانتقام، أو: على إضمار اذكر. والمعنى ﴿يوم تبدّل﴾ هذه ﴿الأرض﴾ التي تعرفونها أرضاً أخرى ﴿غير﴾ هذه المعروفة ﴿و﴾ تبدّل ﴿السموات﴾ غير السموات. وإنّما حذف لدلالة ما قبله عليه، والتبديل: التغيير. وقد يكون في الذوات، كقولك: بدّلت الدراهم دنانير، وفي الأوصاف، كقولك: بدّلت الحلقة خاتماً؛ إذا أذبتها، وسوّيتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تُبدّل أوصافها، وتسير عن الأرض جبالها، وتفجّر بحارها، وتسوّىٰ، فلا ترى فيها عوجاً، ولا أمتاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي تلك الأرض، وإنما تغيّر. وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً. وقيل: تخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابنِ مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحدٌ خطيئة. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: تبدّل أرضاً من فضّة، وسموات من ذهب ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لأنّ الملك إذا كان لواحد غلّاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحدٍ إلى غيره، كان الأمر في غاية الشدّة.

٤٩ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض، أو: مع الشياطين، أو: قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلّلين

فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلّق بـ ﴿مقرّنين﴾، أي: يقرّنون في الأصفاد. أو: غير متعلّق به. والمعنى: مقرّنين مصفّدين. والأصفاد: القيود، أو: الأغلال.

٥٠ ـ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما يتحلّب من شجر يسمّى الأبهل، فيطبخ، فيهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدّته، وحرّه. ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار. وهو أسود اللون، منتن الريح، فيطلى به جلود أهل النار، حتّى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل؛ ليجتمع عليهم لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكلّ ما وعده الله، أو: أوعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنّه ما عندنا منه إلّا الأسامي والمسمّيات ثمة. نعوذ بالله من سخطه وعذابه (من قطْرٍ آنٍ) زيد، عن يعقوب: نحاس مذاب بلغ حرّه إناه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تعلوها باشتعالها. وخصّ الوجه لأنّه أعزّ موضع في ظاهر البدن، كالقلب في باطنه؛ ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

٥١ ـ ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كلّ نفس مجرمة ما كسبت، أو: كلّ نفس من مجرمة ومطيعة، لأنّه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم، علم أنّه يثيب المؤمنين بطاعتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر.

٥٢ ـ ﴿هَٰذَا﴾ أي: ما وصفه في قوله: ﴿ولا تحسبنّ﴾ إلى قوله: ﴿سريع الحساب﴾ ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية في التذكير، والموعظة ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بهذا البلاغ. وهو معطوف على محذوف، أي: لينصحوا ﴿ولينذروا﴾ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لأنّهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصّلوا إلى التوحيد؛ لأنّ الخشية أمّ الخير كلّه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول.

* * *

سورة الحجر

ترتيبها ١٥ — آياتها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ «تلك» إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات. و﴿الكتاب﴾ والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ الكامل في كونه كتاباً ﴿و﴾ آي ﴿قرآن مبين﴾. كأنّه قيل: الكتاب الجامع للكمال وللغرابة في البيان.

٢ ـ ﴿رُّبَمَا﴾ بالتخفيف: مدنيّ، وعاصم. وبالتشديد: غيرهما. و﴿ما﴾ هي الكافّة؛ لأنّها حرف يجرّ ما بعده، ويختصّ بالاسم النكرة. فإذا كفّت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم. وإنّما جاز ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لأنّ المترقّب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقّقه، فكأنّه قيل: ربّما ودّ. ووداداتهم تكون عند النزع، أو: يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، أو: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، فيتمنّى الكافر لو كان مسلماً. كذا رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودادتهم. وإنَّما جيء بها على لفظ الغيبة لأنّهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلنَّ. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنّا مسلمين؛ لكان حسناً. وإنما قلّل بِرُبَّ؛ لأنَّ أهوال القيامة؛ تشغلهم عن التمنّي، فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودّوا لو

ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾

كانوا مسلمين. وقول من قال: إنّ (ربّ) يعني: بها الكثرة سهو؛ لأنّه ضدّ ما يعرفه أهل اللغة؛ لأنّها وضعت للتقليل.

٣ ـ ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ أمر إهانة، أي: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عمّا هم عليه، والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلّهم ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم. وفيه تنبيهٌ على أنّ إيثار التلذّذ والتنعّم، وما يؤدّي إليه طول الأمل، ليس من أخلاق المؤمنين.

٤ ـ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ ﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية. والقياس: ألاّ يتوسّط الواو بينهما كما في ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو، فجيء بالواو تأكيداً لذلك. والوجه: أن تكون هذه الجملة حالاً لقرية؛ لكونها في حكم الموصوفة، كأنّه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى، لا وصفاً. وقوله: ﴿كتاب معلوم﴾ أي: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ، وبيّن. ألاَ ترى إلى قوله:

٥ ـ ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ في موضع كتابها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي: عنه. وحذف لأنّه معلوم، وأنّث الأمة أوّلاً، ثمّ ذكّرها آخراً، حملاً على اللفظ والمعنى.

٦ ـ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الكفّار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾. يعنون محمّداً ﷺ. وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه، وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء. والتهكّم سائغ، ومنه ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. والمعنى: إنّك لتقول قول المجانين؛ حيث تدعي: أنّ الله نزّل عليك الذكر.

٧ ـ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ركبت مع «لا» و«ما» لامتناع الشيء لوجود غيره، أو: التحضيض. و«هل» ركّبت مع لا للتحضيض فحسب. والمعنى: هلاّ تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك، أو: هلاّ تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً.

٨ ـ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿تُنَزَّل الملائكة﴾: أبو بكر، و﴿تَنَزّل الملائكةُ﴾ أي: تتنزل غيرهم ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ تنزيلاً ملتبساً بالحكمة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿إذاً﴾ جواب لهم. وجزاء الشرط مقدّر. تقديره: ﴿و﴾ لو نزّلنا الملائكة ﴿ما كانوا﴾ منظرين إذاً، وما أخّر عذابهم.

٩ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وهو ردّ لإنكارهم، واستهزائهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. ولذلك قال: ﴿إنّا نحن﴾ فأكّد عليهم أنّه هو المنزل على القطع، وأنّه هو الذي نزّله محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كلّ وقت من الزيادة، والنقصان، والتحريف، والتبديل، بخلاف الكتب المتقدّمة، فإنّه لم يتولّ حفظها، وإنّما استحفظها الربّانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فوقع التحريف، ولم يكل القرآن إلى غيره حفظه. وقد جعل قوله: ﴿وإنّا له لحافظون﴾ دليلاً على أنّه منزّل من عنده آية، إذ لو كان من قول البشر، أو غير آية لتطرّق عليه الزيادة والنقصان، كما يتطرّق على كلّ كلام سواه. أو: الضمير في ﴿له﴾ لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ رسلاً ﴿في﴾ الفرق ﴿الأوّلين﴾. والشيعة: الفرقة إذا اتّفقوا على مذهب، وطريقة.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

١١ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلاّ وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلاّ وهو قريب من الحال ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعزّي نبيّه عليه الصلاة والسلام.

١٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما سلكنا الكفر، أو: الاستهزاء في شيع الأوّلين ﴿نسلكه﴾ أي: الكفر، أو الاستهزاء، ﴿في قلوب المجرمين﴾ من أمّتك من اختار ذلك. يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته: إذا أدخلته فيها. وهو حجة على المعتزلة في الأصلح، وخلق الأفعال.

١٣ ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالله، أو: بالذكر. وهو حال ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضت طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذّبوا رسله. وهو وعيدٌ لأهل مكّة على تكذيبهم.

١٤ ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية، وهو: فتحُ بابٍ من السماء ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون.

١٥ ـ ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ حيرت، أو: حبست، من الإبصار، من السَّكْر، أو: من السَّكَر. ﴿سُكِرَتْ﴾: مكّيّ، أي: حبست كما يحبس النهر من الجري. والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوّهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسّر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك. أو: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار؛ ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: ﴿إنّما﴾ ليدلّ على أنّهم يبتّون القول بأنّ ذلك ليس إلاّ تسكيراً للأبصار.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾ نجوماً، أو: قصوراً فيها الحرس، أو: منازل للنجوم ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾

١٧ ـ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي: السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ملعون، أو: مرميّ بالنجوم.

١٨ ـ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المسموع، و﴿من﴾ في محل النصب على الاستثناء ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ نجم ينقضّ فيعود ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين. قيل: كانوا لا يحجبون عن السموات كلّها. فلمّا ولد عيسى ـ عليه السلام ـ منعوا من ثلاث سموات، فلمّا ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلّها.

١٩ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها من تحت الكعبة. والجمهور على أنّه تعالى مدّها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ في الأرض: جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان. أو: له وزن، وقدر في أبواب المنفعة والنعمة. أو: ما يوزن كالزعفران، والذهب، والفضّة، والنحاس، والحديد، وغيرها. وخصّ ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن.

٢٠ ـ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾ ما يعاش به من المطاعم، جمع: معيشة. وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها، فإنّ تصريحَ الياء فيها خطأ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ ﴿مَن﴾ في محل النصب بالعطف على معايش، أو: على محلّ لكم. كأنّه قيل: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش و﴾ جعلنا لكم ﴿من لستم له برازقين﴾. أو: جعلنا لكم فيها معايش، ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم: العيال، والمماليك، والخدم؛ الذين يظنّون أنهم يرزقونهم، ويخطئون، فإنّ الله هو الرازق، يرزقهم وإيّاهم. ويدخل فيه الأنعام، والدوابّ، ونحو ذلك.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

ولا يجوز أن يكون محلّ ﴿من﴾ جرّاً بالعطف على الضمير المجرور في ﴿لكم﴾ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلاّ بإعادة الجارّ.

٢١ ـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلاّ ونحن قادرون على إيجاده، وتكوينه، والإنعام به. وما نعطيه إلاّ بمقدار معلوم، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كلّ مقدور.

٢٢ ـ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ جمع لاقحة، أي: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ﴾ حوامل بالسحاب؛ لأنّها تحمل السحاب في جوفها كأنّها لاقحة بها. من: لقحت الناقة: حملت. وضدّها: العقيم. ﴿الريح﴾: حمزة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقياً ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه﴾ كأنّه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه في السماء، وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين، دلالةً على عظيم قدرته، وعجزهم.

٢٣ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي بالإيجاد، ونميت بالإفناء. أو: نميت عند انقضاء الآجال، ونحيي لجزاء الأعمال. على التقديم والتأخير. إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلّهم. وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميّت، لأنّه يبقى بعد فنائه.

٢٤ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من تقدّم ولادة وموتاً ومن تأخّر، أو: من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو: من تقدّم في الإسلام، أو: في الطاعة، أو: في صف الجماعة، أو: صفّ الحرب ومن تأخّر.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

٢٥ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو وحده يقدر على حشرهم، ويحيط بحصرهم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ باهر الحكمة، واسع العلم.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ صفة لصلصال، أي: خلقه ﴿من صلصال﴾ كائن ﴿من حمأ﴾ أي: طين أسود متغيّر ﴿مَسْنُونٍ﴾ مصوّر. وفي الأوّل كان تراباً فعجن بالماء، فصار طيناً، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة، فصوّر ويبس، فصار صلصالاً، فلا تناقض.

٢٧ ـ ﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجنّ كآدم للناس. أو: هو إبليس. وهو منصوب بفعل مضمر يفسّره: ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار؛ التي خَلَق الله منها الجانّ.

٢٨ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

٢٩ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أتممت خلقته، وهيّأتها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وجعلت فيه الروح، وأحييته. وليس ثمّة نفخ، وإنّما هو تمثيل. والإضافة للتخصيص ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ هو أمر من: وقع، يقع، أي: اسقطوا على الأرض، يعني: اسجدوا له. ودخل الفاء لأنّه جواب ﴿إذا﴾. وهو دليلٌ على أنّه يجوز تقدّم الأمر عن وقت الفعل.

٣٠ ـ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فالملائكة جمع عامّ، محتمل للتخصيص، فقطع باب التخصيص بقوله: ﴿كلّهم﴾. وذكر الكلّ احتمل تأويل التفرّق، فقطعه بقوله: ﴿أجمعون﴾.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾

٣١ ـ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ ظاهر الاستثناء يدلّ على أنّه كان من الملائكة، لأنّ المستثنى يكون من جنس المستثنى منه. وعن الحسن: أنّ الاستثناء منقطع، ولم يكن هو من الملائكة. قلنا: غير المأمور لا يصير بالترك ملعوناً. وقال في الكشاف: كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثمّ استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلاّ هنداً ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ امتنع أن يكون معهم. و﴿أبى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلاّ سجد. فقيل: ﴿أبى﴾ ذلك، واستكبر عنه. وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى.

٣٢ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حرف الجرّ مع أن محذوف تقديره: ﴿مالك﴾ في ﴿ألاّ تكون مع الساجدين﴾ أيّ: أي غرض لك في إبائك السجود؟!

٣٣ ـ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: لا يصح منّي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾

٣٤ ـ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من السماء، أو: من الجنّة، أو: من جملة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ مطرود من رحمة الله. ومعناه: ملعون لأنّ اللعنة هو الطرد من الرحمة، والإبعاد منها.

٣٥ ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ضرب يوم الدين حدّاً لِلَّعْنَة؛ لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم. والمراد به: أنّك مذموم، مدعوّ عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذّب، فإذا جاء ذلك اليوم عذّبت بما ينسى اللعن معه.

٣٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ فأخرني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٣٧ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

٣٨ ـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يوم الدّين. و﴿يوم يبعثون﴾ و﴿يوم الوقت المعلوم﴾ في معنى واحد. ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنّما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنّه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأنظر إلى آخر أيّام التكليف.

٣٩ ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم. و﴿ما﴾ مصدريّة. وجواب القسم: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾. والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصي. ونحوه قوله: ﴿بما أغويتني لأزيّننّ لهم﴾ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢] في أنّه إقسام. إلاّ أنّ أحدهما: إقسام بصفة الذات، والثاني: بصفة الفعل. وقد فرّق الفقهاء بينهما. فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات ـ كالقدرة، والعظمة، والعزّة ـ يمين، والحلف بصفة الفعل ـ كالرحمة، والسخط ـ ليس بيمين. والأصحّ: أنّ الأيمان مبنية على العرف، فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً ومالا فلا. والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال، وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور. أو: أراد: إنّي أقدر على الاحتيال لآدم، والتزيين له الأكل من الشجرة، وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٤٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام: بصريّ، ومكّيّ، وشاميّ. استثنى المخلصين، لأنّه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلونه منه.

٤١، ٤٢ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: هذا طريق حقّ عليّ أن أراعيه، وهو: ألاّ يكون لك سلطان على عبادي إلاّ من اختار اتّباعك منهم لغوايته. وقيل معنى: ﴿عليّ﴾ إليّ. ﴿عليٌّ﴾: يعقوب، من علوّ الشرف، والفضل.

٤٣ ـ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الضمير للغاوين.

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

---

٤٤ ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب معلوم مفرز. قيل: أبواب النار: أطباقها، وأدراكها. فأعلاها للموحّدين يعذّبون بقدر ذنوبهم ثمّ يخرجون، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[(١)] وبضم العين: مدنيّ، وبصريّ، وحفص. المتّقي على الإطلاق: من يتّقي ما يجب اتّقاؤه مما نُهي عنه. وقال في «الشرح» إن دخل أهل الكبائر في قوله: ﴿لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم﴾ فالمراد بالمتّقين: الذين اتّقوا الكبائر، وإلاّ فالمراد به: الذين اتّقوا الشرك.

٤٦ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادخلوها. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ حال، أي: سالمين، أو مسلَّماً عليكم، تسلّم عليكم الملائكة. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الخروج منهما، والآفات فيها. وهو حال أخرى.

٤٧ ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهو: الحقد الكامن في القلب، أي: إن كان لأحدهم غلّ في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنّة من قلوبهم، وطيّب نفوسهم. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير منهم. وقيل: معناه: طهّر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنّة، ونزع منها كلّ غلّ، وألقى فيها التوادد، والتحابّ ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كذلك. قيل: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين، يرى بعضُهم بعضاً.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿وعِيون﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٢٥).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ
دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

٤٨ ـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ في الجنة، تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فتمام النعمة بالخلود.

٤٩، ٥٠ ـ ولمّا أتمّ ذكر الوعد والوعيد أتبعه: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس.

قال ﷺ: «لو يعلم العبدُ قدر عفو الله لما تورّع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة، ولما أقدم على ذنب»(١).

٥١ ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأخبر أمّتك. عطفه على: ﴿نبىء عبادي﴾ ليتّخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله، وانتقامه من المجرمين، ويتحقّقوا عنده أنّ عذابه: ﴿هو العذاب الأليم﴾ ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أضيافه. وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً. والضيف يجيء واحداً وجمعاً، لأنّه مصدر ضافه.

٥٢ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نسلّم عليك سلاماً، أو: سلّمنا سلاماً ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون، لا متناعهم من الأكل، أو: لدخولهم بغير إذن، وبغير وقت.

٥٣ ـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أي: إنّك مبشّر آمن فلا توجل. وبالتخفيف وفتح النون: حمزة ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحاق، لقوله في سورة هود [الآية: ٧١] ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾.

٥٤ ـ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أبشّرتموني مع مسّ الكبر بأن يولد لي؟ أي: أنّ الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هي «ما»

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/٣٩).

قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ
إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾

الاستفهامية دخلها معنى التعجّب، كأنّه قيل: فبأيّ أعجوبة ﴿تبشّرون﴾. وبكسر النون والتشديد: مكّيّ. والأصل: تبشرونني، فأدغم نون الجمع في نون العماد، ثمّ حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها ﴿تبشرون﴾ بالتخفيف: نافع، والأصل: تبشرونني، فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة، وحذف نون الجمع لاجتماع النونين. والباقون بفتح النون، وحذف المفعول. والنون نون الجمع.

٥٥ ـ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا لبس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك.

٥٦ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم. ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وبكسر النون: بصريّ، وعليّ ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلاّ المخطئون طريق الصواب، أو: إلاّ الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها.

٥٧ ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

٥٨ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: قوم لوط.

٥٩ ـ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يريد: أهله المؤمنين. والاستثناء منقطع؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، والمستثنى ليس كذلك. أو: متّصل، فيكون استثناء من الضمير في «مجرمين». كأنّه قيل: ﴿إلى قوم﴾ قد أجرموا كلّهم ﴿إلاّ آل لوط﴾ وحدهم. والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين؛ لأنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، يعني: أنّهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصّة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين: كإرسال السهم إلى المرمى، في أنّه في معنى التعذيب، والإهلاك. كأنه قيل: إنّا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكنّ آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، يعني: أنّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء، وينجوا هؤلاء. وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مجرى خبر لكنّ في

إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ

الاتّصال بآل لوط؛ لأنّ المعنى: لكنّ آل لوط منجون. وإذا اتّصل كان كلاماً مستأنفاً، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: ﴿إنّا لمنجّوهم﴾.

٦٠ ـ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ مستثنى من الضمير المجرور في ﴿لمنجّوهم﴾ وليس باستثناء من الاستثناء؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنّما يكون فيما اتّحد الحكم فيه، بأن يقول: أهلكناهم إلاّ آل لوط ﴿إلاّ امرأته﴾. وهنا قد اختلف الحكمان؛ لأنّ ﴿إلاّ آل لوط﴾ متعلّق بأرسلنا، أو: بمجرمين، و﴿إلاّ امرأته﴾ متعلّق بمنجوهم، فكيف يكون استثناء من استثناء؟! ﴿لَمُنْجُوهُم﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ ﴿قَدَرۡنَآ﴾ وبالتخفيف؛ أبو بكر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. قيل: لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح إنّ، لأنّه مع اسمه وخبره مفعول ﴿قدّرنا﴾. ولكنّه كقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]. وإنّما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدّر الله لقربهم، كما يقول خاصّة الملك: أمرنا بكذا، والآمر هو الملك.

٦١، ٦٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم، أي: ليس عليكم زيّ السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، فأخاف أن تطرقوني بشرّ.

٦٣ ـ ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه سرورك، وتشفّيك من أعدائك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعّدهم بنزوله، فيمترون فيه، أي: يشكّون، ويكذّبونك.

٦٤ ـ ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

٦٥ ـ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ في آخر الليل، أو: بعد ما يمضي شيء

وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

صالح من الليل ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وسر خلفهم، لتكون مطلعاً عليهم، وعلى أحوالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، فيرقّوا لهم. أو: جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني، والتوقّف؛ لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ حيث أمركم الله بالمضيّ إليه، وهو الشام، أو: مصر.

٦٦ ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ عدّى ﴿قضينا﴾ بإلى، لأنّه ضمّن معنى: أوحينا، كأنّه قيل: وأوحينا إليه مقضيّاً مبتوتاً. وفسّر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾. وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر. ودابرهم: آخرهم، أي: يستأصلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقت دخولهم في الصبح. وهو حال من هؤلاء.

٦٧ ـ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بالملائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة.

٦٨ ـ ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أساء إلى ضيفي فقد أساء إليّ.

٦٩ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: ولا تذلّوني بإذلال ضيفي. من: الخزي، وهو: الهوان. وبالياء فيهما[1]: يعقوب.

٧٠ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ عن أن تجير منهم أحداً، أو: تدفع عنهم، فإنّهم كانوا يتعرّضون لكلّ أحد، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر، والحجز بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. أو: عن ضيافة الغرباء.

---

(١) أي في قوله في الآية السابقة: ﴿تفضحون﴾ وقوله في هذه الآية: ﴿تحزنون﴾.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾

٧١ ـ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ فانكحوهنّ، وكان نكاح المؤمنات من الكفّار جائزاً. ولا تتعرّضوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله دون ما حرّم. فقالت الملائكة للوط عليه السلام:

٧٢ ـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرّون فكيف يقبلون قولك، ويصغون إلى نصيحتك؟ أو: الخطاب لرسول ﷺ. وهو قسمٌ بحياته ـ وما أقسم بحياة أحد قط ـ تعظيماً له. والعَمر والعُمر واحد، وهو البقاء، إلا أنّهم خصّوا القسم بالمفتوح إيثاراً للأخفّ؛ لكثرة دور الحلف على ألسنتهم، ولذا حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك قسمي.

٧٣ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق، وهو: بزوغ الشمس.

٧٤ ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريل ـ عليه السلام ـ إلى السماء ثمّ قلبها. والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

٧٥ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرّسين المتأمّلين، كأنّهم يعرفون باطن الشيء بسمةٍ ظاهرة.

٧٦ ـ ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإنّ هذه القرى، يعني: آثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت، يسلكه الناس، لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ★ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

٧٧ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم المنتفعون بذلك.

٧٨ ـ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وإنّ الأمر والشأن ﴿كان أصحاب الأيكة﴾ أي: الغيضة ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ لكافرين. وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ.

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

٧٩ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم لمّا كذّبوا شعيباً ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قرى قوم لوط، والأيكة. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتمّ به، فسمّي به الطريق، ومِطْمَر البنّاء؛ لأنّهما مما يؤتّم به.

٨٠ ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ هم ثمود. والحجر: واديهم. وهو بين المدينة والشام ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأنّ كلّ رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، فمن كذّب واحداً منهم، فكأنّما كذّبهم جميعاً، أو: أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل: «الخبيبون» في ابن الزبير وأصحابه.

٨١ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها.

٨٢ ـ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: ينقُبون في ﴿الجبال بيوتاً﴾ أو: يبنون من الحجارة ﴿ءَامِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم، ومن نقب اللصوص والأعداء. أو: ﴿آمنين﴾ من عذاب الله، يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه.

٨٣ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ في اليوم الرابع وقت الصبح.

٨٤ ـ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واقتناء الأموال النفيسة.

٨٥ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ خلقنا ملتبساً بالحقّ، لا باطلاً وعبثاً. أو: بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة لتوقّعها كلّ ساعة ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإيّاهم على حسناتك وسيّئاتهم، فإنّه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلاّ لذلك ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾

جميلاً بحلم وإغضاء. قيل: هو منسوخ بآية السيف. وإن أريد به المخالفة فلا يكون منسوخاً.

٨٦ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك، وخلقهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم.

٨٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات، وهي الفاتحة. أو: سبع سور، وهي الطوال. واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنّهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما. وقيل: سورة يونس. أو: أسباع القرآن ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هي من التثنية، وهي التكرير؛ لأنَّ الفاتحة مما يتكرّر في الصلاة. أو: من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله. والواحد: مثناة، أو: مثنية صفة للآية. وأمّا السور، أو الأسباع؛ فلما وقع فيها من تكرير القصص، والمواعظ، والوعد، والوعيد، ولما فيها من الثناء، كأنّها تثني على الله. وإذا جعلتَ السبع مثاني فـ﴿مِنْ﴾ للتبيين، وإذا جعلتَ القرآن مثاني فـ﴿مِنْ﴾ للتبعيض ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه؛ لأنه إذا أريد بالسبع الفاتحة، أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنّه اسم يقع على البعض، كما يقع على الكلّ. دليلهُ قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] يعني: سورة يوسف. وإذا أريد به الأسباع فالمعنى: ﴿ولقد آتيناك﴾ ما يقال له السبع المثاني ﴿والقرآن العظيم﴾ أي: الجامع لهذين النعتين، وهو التثنية، أو: الثناء، والعظم ثم قال لرسوله:

٨٨ ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه، متمنّ له ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفّار كاليهود، والنصارى، والمجوس، يعني: قد أوتيت النعمة العظمى التي كلّ نعمة ـ وإن عظمت ـ فهي إليها حقيرة، وهي: القرآن العظيم. فعليك أن تستغني به، ولا تمدّنّ عينيك إلى متاع الدنيا. وفي الحديث: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن»[1]. وحديث أبي بكر:

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً، وعظّم صغيراً[١] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنّ أموالهم ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أنّهم لم يؤمنوا، فيتقوّى بمكانهم الإسلام، والمسلمون ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين، وطبْ نفساً عن إيمان الأغنياء.

٨٩ ـ ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان: أنّ عذابَ الله نازلٌ بكم.

٩٠ ـ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ متعلّق بقوله ﴿ولقد آتيناك﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. وهم أهل الكتاب.

٩١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أجزاء ـ جمع: عضة، وأصلها: عضوة، فعلة، من عضّى الشاة: إذا جعلها أعضاء ـ حيث قالوا بعنادهم: بعضه حقّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما. فاقتسموه إلى حقّ وباطل، وعَضَوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي. أو: أريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم، وقد اقتسموه: فاليهود أقرّت ببعض التوراة، وكذّبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل، وكذّبت ببعض. ويجوز أن يكون: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ منصوباً بالنذير، أي: أَنذر المعضّين؛ الذين يُجزّئون القرآن إلى سحر، وشعر، وأساطير، مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين ـ وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكّة أيّام الموسم، فقعدوا في كلّ مدخل متفرّقين لينفّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنّه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، والآخر: شاعر. فأهلكهم الله ـ. و﴿لا تمدّنّ عينيك﴾ على الوجه الأوّل اعتراض بينهما؛ لأنه لمّا كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات

---

(١) قال الحافظ: لم أجده عن أبي بكر. (حاشية الكشاف ٢/٥٨٨).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾

إلى دنياهم، والتأسّف على كفرهم، ومن الأمر بأن يُقْبل بكلّيته على المؤمنين.

٩٢، ٩٣ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألنّ يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عمّا قالوه في رسول الله ﷺ، أو: في القرآن، أو: في كتب الله.

٩٤ ـ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، وأظهره. يقال: صدع بالحجة: إذا تكلّم بها جهاراً، من: الصديع، وهو الفجر. أو: ﴿فاصدع﴾ فافرق بين الحقّ والباطل، من: الصدع في الزجاجة، وهو: الإبانة ﴿بما تؤمر﴾. والمعنى: ﴿بما تؤمر﴾ به من الشرائع، فحذف الجارّ. كقوله[1]:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أمرت به[2] ... ...

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو أمر استهانة بهم.

٩٥ ـ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الجمهور على أنّها نزلت في خمسة نفر، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ، والاستهزاء به، فأهلكهم الله. وهم: الوليد بن المغيرة مرّ بنبّال، فتعلّق بثوبه سهم، فأصاب عِرْقاً في عقبه، فقطعه فمات، والعاص بن وائل: دخل في أخْمَصِه شوكة، فانتفخت رجله، فمات، والأسود بن عبد المطلب: عمي، والأسود بن عبد يغوث: جعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتّى مات، والحارث بن قيس امتخط قيحاً، ومات.

٩٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم يوم القيامة.

---

(١) هو خفاف بن ندبة، وقيل: غيره.

(٢) صدر بيت، وعجزه: فقد تركتك ذا مالٍ وذا نشب.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

٩٧ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو: في القرآن، أو: في الله.

٩٨ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله ـ والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم، وكثرة السجود ـ يكفك، ويكشف عنك الغمّ.

٩٩ ـ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودُمْ على عبادة ربك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، يعني: ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

* * *

(١) رواه أحمد (١ / ٢٠٦ و ٢٦٨).

سُورَةُ النَّحلِ

ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

١ ـ كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، ونزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء، وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. أي: هو بمنزلة الآتي الواقع ـ وإن كان منتظراً ـ لقرب وقوعه ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تبرّأ جلّ وعزّ عن أن يكون له شريك، وعن إشراكهم. فـ«ما» موصولة، أو: مصدريّة. واتّصال هذا باستعجالهم من حيث إنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب، وذلك من الشرك.

٢ ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي، أو: بالقرآن؛ لأنّ كلاًّ منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، أو: يحيي القلوب الميّتة بالجهل ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ «أن» مفسّرة، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى «أنذروا» ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: أعلموا بأنّ الأمر ذلك، من: نذرت بكذا؛ إذا علمته. والمعنى: أعلموا الناس قولي: ﴿لا إله إلاّ أنا﴾ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فخافون. وبالياء: يعقوب.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٣ـ ثمَّ دلّ على وحدانيته، وأنّه لا إله إلاّ هو بما ذكر ممّا لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض، وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وبالتاء في الموضعين:[1] حمزة، وعليّ. وخلْق الإنسان وما يكون منه، وهو قوله:

٤ ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فإذا هو منطيق، مجادل عن نفسه، مكافح لخصومه، مبين لحجته بعد ما كان نطفة لا حسّ به، ولا حركة. أو: فإذا هو خصيم لربّه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؟ وهو وصف للإنسان بالوقاحة، والتمادي في كفران النعمة. وخَلْق ما لا بدّ له منه من البهائم لأكله، وركوبه، وحمل أثقاله، وسائر حاجاته، وهو قوله:

٥ ـ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ هي الأزواج الثمانية، وأكثر ما يقع على الإبل. وانتصابها بمضمر يفسّره الظاهر، كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. أو: بالعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان، والأنعام. ثمّ قال: ﴿خلقها لكم﴾ أي: ما خلقها إلاّ لكم يا جنس الإنسان ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف، أو وبر، أو شعر ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ وهي نسلها، ودرّها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قدّم الظرف، وهو يؤذن بالاختصاص ـ وقد يؤكل من غيرها ـ لأنّ الأكل منها هو الأصلُ الذي يعتمده الناسُ في معايشهم. وأمّا الأكل من غيرها كالدجاج، والبط، وصيد البرّ والبحر، فكغير المعتدّ به، وكالجاري مجرى التفكّه.

٦ ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشيّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ترسلونها بالغداة إلى مسارحها. منّ الله تعالى بالتجمّل بها، كما

(١) أي في الآيتين (١ و ٣).

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ

منّ بالانتفاع بها، لأنّه من أغراض أصحاب المواشي؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشيّ، وسرّحوها بالغداة تزيّنت بإراحتها وتسريحها الأفنية. وفرّحت أربابها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. وإنّما قدمت الإراحة على التسريح، لأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع.

٧ ـ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ وبفتح الشين: أبو جعفر. وهما لغتان في معنى المشقّة. وقيل: المفتوح مصدر شقّ الأمر عليه شقاً. وحقيقته راجعة إلى الشقّ؛ الذي هو الصدع. وأما الشّق فالنصف؛ كأنّه يذهب نصف قوّته لما ينال من الجهد. والمعنى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه﴾ لو لم تخلق الإبل إلاّ بجهد ومشقّة، فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم. أو: معناه: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ بها ﴿إلاّ بشق الأنفس﴾. وقيل: أثقالكم: أبدانكم. ومنه: الثقلان للجنّ والإنس. ومنه: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. أي: بني آدم ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل، وتيسير هذه المصالح.

٨ ـ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ عطف على ﴿الأنعام﴾. أي: وخلق هذه للركوب والزينة. وقد احتجّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على حرمة أكل لحم الخيل بأنّه علّل خلقها للركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام، ومنفعة الأكل أقوى. والآية سيقت لبيان النعمة، ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنّة أدنى النعمتين، ويترك أعلاهما. وانتصاب ﴿زينة﴾ على المفعول له، عطفاً على محلّ ﴿لتركبوها﴾. وخلق ما لا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ومن هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره:

٩ ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ المراد به: الجنس. ولذا قال: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾. والقصد: مصدر بمعنى الفاعل. وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد،

وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ

أي: مستقيم، كأنّه يقصد الوجه الذي يؤمّه السالك، لا يعدل عنه. ومعناه: أنّ هداية الطريق الموصّل إلى الحقّ عليه. كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]. وليس ذلك للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكن يفعل ذلك تفضلاً. وقيل: معناه: وإلى الله. وقال الزّجاج: معناه: ﴿وعلى الله﴾ تبين الطريق الواضح المستقيم، والدعاء إليه بالحجج ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أراد: هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العامّ.

١٠ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ «لكم» متعلّق بأنزل. أو: خبر لشراب، وهو: ما يشرب ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ من: سامت الماشية؛ إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من: السُومة، وهي: العلامة؛ لأنها تؤثّر بالرعي علامات في الأرض.

١١ ـ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولم يقل: كلّ الثمرات؛ لأن كلّها لا تكون إلاّ في الجنّة، وإنّما أُنبت في الأرض بعض من كلّها للتذكرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلّون بها عليه، وعلى قدرته، وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة.

١٢ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[(١)] بنصب الكلّ على: ﴿و﴾ جَعَلَ ﴿النجومَ مسخراتٍ﴾. ﴿والنجومُ مسخراتٌ﴾

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿... والنجوم مسخرات﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٧٢).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

فقط: حفص. ﴿والشمسُ والنجومُ مسخراتٌ﴾: شاميّ، على الابتداء والخبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية، وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء، والعظمة.

١٣ ـ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿الليل والنهار﴾ أي: ما خلق فيها من حيوان، وشجر، وثمر، وغير ذلك ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال ﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

١٤ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك. ووصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسرع إليه، فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد. وإنّما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً؛ لأنّ مَبْنى الإيمان على العرف. ومن قال لغلامه: اشترِ بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ هي اللؤلؤ، والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ المراد بلبسهم: لبس نسائهم، ولكنّهنّ إنما يتزينّ بها من أجلهم، فكأنّها زينتهم، ولباسهم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ﴾ جواري تجري جرياً، وتشقّ الماء شقّاً. والمخر: شقّ الماء بحيزومها[1] ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو عطف على محذوف، أي: لتعتبروا ﴿ولتبتغوا﴾. وابتغاء الفضل: التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به.

١٥ ـ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهية أن تميل بكم، وتضطرب، أو: لئلا تميد بكم. لكنّ حذف المضاف أكثر. قيل: خلق الله الأرض فجعلت تميد، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها،

---

(١) رواه أحمد (١ /٢٠٦ و ٢٦٨).

وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدرِ الملائكة ممّ خلقت ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها ﴿أنهاراً﴾ لأنّ ﴿ألقى﴾ فيه معنى: جعل ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم، أو: إلى توحيد ربّكم.

١٦ ـ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ هي معالم الطرق، وكلّ ما يستدلّ به السابلة من جبل، وغير ذلك ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المراد بالنجم: الجنس؛ أو: هو الثريّا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي. فإن قلت: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدّم فيه النجم، مقحم فيه ﴿هُمْ﴾، كأنّه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنّه أراد قريشاً، فلهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، ولهم بذلك علم، لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصّصوا.

١٧ ـ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أي: الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي: الأصنام. وجيء بـ«مَنْ» الذي هو لأولي العلم، لزعمهم حيث سمّوها آلهة، وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم، أو: لأنّ المعنى: أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؟ وإنّما لم يقل: أفمن لا يخلق كمن لا يخلق ـ مع اقتضاء المقام بظاهره إيّاه؛ لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان، وسمّوها آلهة تشبيهاً بالله ـ لأنّهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾. وهو حجّة على المعتزلة في خلق الأفعال ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه.

١٨ ـ ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تضبطوا عددها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقّها من أداء الشكر. وإنّما أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ ما وراءها لا ينحصر، ولا يعدّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

١٩ ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ من أقوالكم، وأفعالكم. وهو وعيد.

٢٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ والآلهة الذين يدعونهم الكفّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبالتاء: غير عاصم ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

٢١ ـ ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ أي: هم ﴿أموات﴾ ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين؛ وأحياء لا يموتون؛ وعالمين بوقت البعث. وأثبت لهم صفات الخلق بأنّهم مخلوقون أموات، جاهلون بالبعث. ومعنى: ﴿أموات غير أحياء﴾: أنّهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، وأمرهم بالعكس من ذلك. والضمير في ﴿يبعثون﴾ للداعين، أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تهكّم بالمشركين، وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالةٌ على أنّه لا بدّ من البعث.

٢٢ ـ ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: ثبت بما مرّ أنّ الإلهيّة لا تكون لغير الله، وأنّ معبودكم واحد ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للوحدانيّة ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنها، وعن الإقرار بها.

٢٣ ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقّاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي: سرهم وعلانيتهم، فيجازيهم. وهو وعيد ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عن التوحيد، يعني: المشركين.

٢٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ لهؤلاء الكفار ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «ماذا» منصوب بـ «أنزل»، أي: أيَّ شيء ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾. أو: مرفوع على

لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ

الابتداء، أيْ: أيُّ شيء أنزله ربكم. و﴿أساطير﴾ خبر مبتدأ محذوف. قيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكّة، ينفّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاجّ عمّا أنزل على رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديث الأوّلين، وأباطيلهم. واحدتها: أسطورة. وإذا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ يخبرونهم بصدقه، وأنّه نبيّ، فهم الذين قالوا خيراً.

٢٥ ـ ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس، فحملوا أوزار ضلالهم كاملة، وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان. واللام للتعليل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يعلم أنهم ضلّال ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ محلّ ﴿ما﴾ رفع.

٢٦ ـ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: من جهة القواعد، وهي: الأساطين. وهذا تمثيل، يعني: أنّهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً، وعمدوه بالأساطين، فأُتي البينان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف، وماتوا، وهلكوا. والجمهور على أنّ المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل، طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهبّ الله الريح فخرّ عليه، وعلى قومه، فهلكوا. ﴿فأتى الله﴾ أي: أمره بالاستئصال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يحتسبون، ولا يتوقّعون.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلّهم بعذاب الخزي، سوى ما عذّبوا به في الدنيا ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم

ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ

ليوبّخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تعادون، وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ﴿تشاقون﴾: نافع، أي: تشاقّونني فيهم؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كأنّها مشاقّة الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياء والعلماء من أممهم؛ الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان، ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم، ويشاقّونهم. يقولون ذلك شماتة بهم. أو: هم الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ﴾ الفضيحة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وبالياء: حمزة، وكذا ما بعده[1] ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر بالله ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الصلح، والاستسلام، أي: أخبتوا، وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفران، والعداوة. فردّ عليهم أولو العلم، وقالوا: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وهذا أيضاً من الشماتة. وكذلك:

٢٩ ـ ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنّم.

٣٠ ـ ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾ وإنّما نصب هذا، ورفع أساطير؛ لأنّ التقدير هنا أنزل ﴿خيراً﴾ فأطبقوا الجواب على السؤال. وثمّة التقدير: هو ﴿أساطير الأوّلين﴾ فعدلوا بالجواب عن السؤال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: آمنوا، وعملوا الصالحات، أو: قالوا: ﴿لا إله إلاّ الله﴾ ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالرفع، أي: ثواب، وأمن، وغنيمة. وهو بدل من ﴿خيراً﴾ حكاية لقول الذين اتّقوا، أي: قالوا هذا القول، فقدم عليه تسميته خيراً، ثمّ حكاه. أو: هو كلام مستأنف عدة للقائلين، وجعل قولهم

(١) أي: قوله تعالى: ﴿تتوفاهم﴾ في الآية (٣٢).

وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن
تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

من جملة إحسانهم ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: لهم في الآخرة ما هو خير منها، كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح؛ لتقدّم ذكره.

٣١ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أو: هو المخصوص بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر؛ لأنه في مقابلة: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله! الله يقرأ عليك السلام. ويبشّره بالجنّة. ويقال لهم في الآخرة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم.

٣٣ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر هؤلاء الكفّار ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وبالياء: عليّ، وحمزة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: العذاب المستأصل، أو: القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك، والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير.

٣٤ ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاء استهزائهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ
فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن
يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن
يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا

---

٣٥ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ هذا كلام صدر منهم استهزاء، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ يعني: البحيرة، والسائبة، ونحوهما ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذّبوا الرسل، وحرّموا الحلال، وقالوا مثل قولهم استهزاء ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلاّ أن يبلغوا الحق، ويطّلعوا على بطلان الشرك، وقبحه.

٣٦ ـ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بأن وحّدوه ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الشيطان، يعني: طاعته ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لاختيارهم الهدى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: لزمته لاختياره إيّاها ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث أهلكهم الله، وأخلى ديارهم عنهم. ثمّ ذكر عناد قريش، وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وأعلمه أنّهم من قسم من حقّت عليه الضلالة، فقال:

٣٧ ـ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الدال: كوفيّ. الباقون: بضم الياء وفتح الدال. والوجه فيه: أن ﴿من يضلّ﴾ مبتدأ، و﴿لا يُهدَى﴾ خبره ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم، ويدفعون عنهم عذابه الذي أعدّ لهم.

٣٨ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ معطوف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ هو مصدر مؤكّد لما دلّ عليه ﴿بلى﴾ لأنّ يبعث موعد من الله، وبيّن أنّ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

الوفاء بهذا الوعد حقّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ وعده حقّ، أو: أنّهم يبعثون.

٣٩ ـ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلّق بما دلّ عليه ﴿بلى﴾ أي: يبعثهم ﴿ليبيّن لهم﴾، والضمير لـ﴿من يموت﴾ وهو يشمل المؤمنين والكافرين ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو الحقّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾.

٤٠ ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون. وبالنصب: شاميّ، وعليّ، على جواب كن. ﴿قولنا﴾ مبتدأ، و﴿أن نقول﴾ خبره، و﴿كن فيكون﴾ من كان التامّة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث بلا توقّف. وهذه عبارةٌ عن سرعة الإيجاد، تبيّن أنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته غير متوقّف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، الممتثل، ولا قول ثَمّ. والمعنى: أنّ إيجاد كلّ مقدور على الله بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات؟

٤١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ في حقّه، ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هم رسول الله وأصحابه، ظلمهم أهلُ مكّة، ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي: تبوئة ﴿حسنة﴾. أو: ﴿لنبوئنهم﴾ مباءة حسنة، وهي المدينة حيث آواهم أهلها، ونصروهم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الوقف لازم عليه لأنّ جواب ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ محذوف. والضمير للكفّار، أي: لو علموا ذلك لرغبوا في الدين. أو: للمهاجرين، أي: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لزادوا في اجتهادهم، وصبرهم.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

٤٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على مفارقة الوطن ـ الذي هو حرم الله المحبوب في كلّ قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم؟ ـ وعلى المجاهدة، وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون الأمر إلى ربهم، ويرضون بما أصابهم في دين الله.

٤٣ ـ ولما قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً نزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[1] على ألسنة الملائكة. ﴿نوحي﴾: حفص ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب ليعلموكم: أنّ الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلاّ بشراً. وقيل للكتاب: الذكر؛ لأنه موعظة، وتنبيه للغافلين ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٤ ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: بالمعجزات والكتب. والباء يتعلّق بـ«رجالاً» صفة له، أي: رجالاً ملتبسين بالبيّنات. أو: بـ«أرسلنا» مضمراً، كأنّه قيل: بم أرسل الرسل؟ فقيل: بالبيّنات. أو: بـ«نوحي»، أي: نوحي إليهم بالبيّنات، أو: بـ: «لا تعلمون»، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر مما أمروا به، ونهوا عنه، ووعدوا به، وأوعدوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تنبيهاته فينتبهوا.

٤٥ ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيّئات، وهم: أهل مكّة وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بغتة.

(١) في الأصل المخطوط: يُوحىٰ. وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وخلف، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٨١).

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ

---

٤٦ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ متقلّبين في مسايرهم، ومتاجرهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤٧ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ متخوّفين، وهو: أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوّفون، متوقّعون. وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم. والمعنى: أنّه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فإنّما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم.

٤٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ «ما» موصولة بـ﴿خلق الله﴾، وهو مبهم، بيانه: ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ أي: ترجع عن موضع إلى موضع. وبالتاء: بصريّ ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: الأيمان ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ جمع: شمال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال من الظلال. عن مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون. وهو حال من الضمير في ﴿ظلاله﴾ لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظلّ. وجمع بالواو والنون؛ لأن الدخور من أوصاف العقلاء أو: لأنّ في جملة ذلك من يعقل فغلّب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيّئة عن أيمانها وشمائلها، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله تعالى، غير ممتنعة عليه فيما سخّرها له من التفيؤ. والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، غير ممتنعة.

٤٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ بيان لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أنّ في السموات خلقاً يدبّون فيها، كما تدبّ الأناسيّ في الأرض. أو: بيان لما في الأرض وحده. والمراد بما في السموات: ملائكتهنّ، وبقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة من الحفظة وغيرهم. قيل: المراد

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ

بسجود المكلّفين: طاعتهم، وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقيادهم لإرادة الله. ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا؛ فلذا جاز أن يعبّر عنهما بلفظ واحد. وجيء بـ«ما» إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم. ولو جيء بـ«مَنْ» لتناول العقلاء خاصّة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٥٠ ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ هو حال من الضمير في: ﴿لا يستكبرون﴾ أي: لا يستكبرون خائفين ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إن علّقته بيخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم. وإن علّقته بربّهم حالاً منه، فمعناه: ﴿يخافون ربهم﴾ غالباً لهم قاهراً، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ وفيه دليلٌ على أنّ الملائكة مكلّفون، مدارون على الأمر والنهي، وأنّهم بين الخوف والرجاء.

٥١ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فإن قلت: إنّما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا: عندي رجال ثلاثة؛ لأن المعدودَ عارٍ عن الدلالة على العدد الخاصّ. فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد، ورجلان اثنان. قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالّ على شيئين: على الجنسية، والعدد المخصوص؛ فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنيّ به منهما هو العدد شفع بما يؤكّده، فدلّ به على القصد إليه، والعناية به؛ ألَا ترى أنّك لو قلت: إنّما هو إله، ولم تؤكّده بواحد، لم يحسن، وخيّل أنّك تثبت الإلهية لا الوحدانية؟! ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلّم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترغيب من قوله: فإيّاه فارهبوا. (فارهبوني): يعقوب.

٥٢ ـ ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًا﴾ واجباً ثابتاً؛ لأنّ كلّ نعمة منه. فالطاعة واجبة له على كلّ منعم عليه، وهو حال عمل فيه

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

الظرف. أو: ﴿وله﴾ الجزاء دائماً، يعني: الثواب، والعقاب ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

٥٣ ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ وأيّ شيء اتّصل بكم من نعمة عافية، وغِنى، وخصب ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿فـ﴾ـهو ﴿من الله﴾. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ المرض، والفقر، والجدب ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ فما تتضرّعون إلاّ إليه. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء، والاستغاثة.

٥٤ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب في ﴿وما بكم من نعمة﴾ إن كان عامّاً، فالمراد بالفريق الكفرة. وإن كان الخطاب للمشركين فقوله: ﴿منكم﴾ للبيان لا للتبعيض. كأنّه قال: فإذا ﴿فريق﴾ كافر وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

٥٥ ـ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنّهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة. ثمّ أوعدهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو عدول إلى الخطاب، على التهديد.

٥٦ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ أي: لآلهتهم. ومعنى: ﴿لا يعلمون﴾ أنّهم يسمّونها آلهة، ويعتقدون فيها أنّها تضرّ، وتنفع، وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ لأنّها جماد لا تضرّ، ولا تنفع. أو: الضمير في ﴿لا يعلمون﴾ للآلهة، أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم، أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرّباً إليهم ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنّها آلهة، وأنّها أهل للتقرّب إليها.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾

٥٧ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو: تعجّبٌ من قولهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين. ويجوز في ﴿ما﴾ الرفع على الابتداء، و﴿لهم﴾ الخبر. والنصب على العطف على البنات، و﴿سبحانه﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

٥٨ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار. فظل، وأمسى، وأصبح، وبات، تستعمل بمعنى الصيرورة؛ لأنّ أكثر الوضع يتّفق بالليل، فيظلّ نهاره مغتمّاً، مسودّ الوجه من الكآبة، والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء حنقاً على المرأة.

٥٩ ـ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ يستخفي منهم من أجل سوء المبشّر به، ومن أجل تعييرهم، ويحدّث نفسه، وينظر ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيمسك ما بشّر به على هون وذلّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أم يئده؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون الولد؛ الذي هذا محلّه عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

٦٠ ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفة السوء، وهي: الحاجة إلى الأولاد الذكور، وكراهة الإناث، ووأدهنّ خشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الغنى عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في تنفيذ ما أراد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في إمهال العباد.

٦١ ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم، ومعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قطّ، ولأهلكها كلّها بشؤم ظلم الظالمين. عن أبي هريرة

وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الحُبَارَى[1] لتموت في وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كاد الجُعَلُ[2] يهلك في جحره بذنب ابن آدم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿من دابّة﴾: من مشرك يدب ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أجل كلّ أحد. أو: وقت تقتضيه الحكمة. أو: القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٦٢ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رئاستهم، ومن الاستخفاف برسلهم. ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، أي: ويقولون الكذب: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، وهي الجنّة إن كان البعث حقاً، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] و﴿أن لهم الحسنى﴾: بدلٌ من ﴿الكذب﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿مُفْرِطون﴾: نافع. ﴿مُفَرِّطون﴾: أبو جعفر، فالمفتوح بمعنى مقدّمون إلى النار، معجّلون إليها، من: أفرطت فلاناً، وفرطته في طلب الماء: إذا قدّمته، أو: منسيّون متروكون، من: أفرطت فلاناً خلفي: إذا خلّفته ونسيته. والمكسور المخفّف، من: الإفراط في المعاصي، والمشدّد من التفريط في الطاعات، أي: التقصير فيها.

٦٣ ـ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أرسلنا رسلاً إلى من تقدّمك من الأمم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر، والتكذيب بالرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم في الدنيا تولّى إضلالهم بالغرور. أو: الضمير لمشركي قريش. أي: زين للكفّار قبلهم أعمالهم فهو وليّ هؤلاء لأنّهم منهم.

(١) «الحُبارى»: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً، رمادي اللون، على شكل الإوزة.

(٢) «الجُعَلُ»: جنس خنافس من مغمدات الأجنحة.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا

أو: هو على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

٦٤ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ هو البعث؛ لأنّه كان فيهم من يؤمن به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محلّ ﴿لتبيّن﴾ إلاّ أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنّهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخلت اللام على ﴿لتبين﴾ لأنّه فعل المخاطب، لا فعل المنزل ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٦٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع إنصاف وتدبّر؛ لأنّ من لم يسمع بقلبه، فكأنّه لا يسمع.

٦٦ ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ وبفتح النون: نافع، وشاميّ، وأبو بكر. قال الزجاج: سقيته وأسقيته بمعنى واحد. ذكر سيبويه الأنعام في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، ولذا رجع الضمير إليه مفرداً. وأما ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ في سورة المؤمنين [الآية: ٢١]، فلأنّ معناه الجمع. وهو استئناف، كأنّه قيل: كيف العبرة؟ فقال: ﴿نسقيكم مّما في بطونه﴾ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته[1]، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً. والكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث في

(١) إن كلام الإمام النسفي ـ رحمه الله ـ يتفق مع مفهوم عصره عن الطعام وتحولاته في جسم الإنسان، وقد بيّن العلمُ الحديث عملية الهضم والامتصاص في الأمعاء. وقد تجلّت المعجزة الربانية ـ إخراج اللبن المتميز بلونه وطعمه وتعقيمه وسَوْغ شربه من بين فرث ودم ـ بشكل أوضح؛ مما يؤكّد توافق العلم مع الإيمان.

سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

الكرش، ثمّ ينحدر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، وسُئِل شقيق[1] عن الإخلاص، فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في الحلق. ويقال: لم يغصّ أحد باللبن قطّ. و﴿من﴾ الأولى للتبعيض؛ لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، والثانية لابتداء الغاية.

٦٧ ـ ويتعلّق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ بمحذوف تقديره: ﴿و﴾ نسقيكم ﴿من ثمرات النخيل والأعناب﴾ أي: من عصيرها. وحذف لدلالة ﴿نسقيكم﴾ قبله عليه. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو: تتخذون. و﴿منه﴾ من تكرير الظرف للتوكيد. والضمير في ﴿منه﴾ يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير. والسكر: الخمر. سُمِّيت بالمصدر، من سكر سُكْراً وسَكَراً، نحو: رُشْداً ورَشَداً. ثمّ فيه وجهان: أحدهما: أنّ الآية سابقة على تحريم الخمر، فتكون منسوخة. وثانيهما: أن يجمع بين العتاب والمنّة. وقيل: السكر: النبيذ، وهو: عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتّى يذهب ثلثاه، ثمّ يترك حتّى يشتدّ. وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف ـ رحمها الله ـ إلى حدّ السكر. ويحتجان بهذه الآية ، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «الخمر حرام لعينها، والسكر من كلّ شراب»[2] وبأخبار جمّة ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الخلّ، والرُبّ، والتمر، والزبيب، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٦٨ ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وألهم. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ هي أن المفسّرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. قال الزجاج: واحد النحل نحلة، كنخل ونخلة. والتأنيث باعتبار هذا. و﴿من﴾ في ﴿من الجبال﴾ و﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

(١) هو شقيق بن إبراهيم البلخي، المتوفى سنة ١٩٤ هـ.
(٢) «الحيزوم»: الصدر أو وَسَطه.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

يرفعون من سقوف البيت، أو: ما يبنون للنحل في الجبال، والشجر، والبيوت من الأماكن التي تعسّل فيها، للتبعيض؛ لأنّها لا تبني بيوتها في كلّ جبل، وكلّ شجر، وكلّ ما يعرش. والضمير في ﴿يعرشون﴾ للناس. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

٦٩ - ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ابني البيوت، ثمّ كلي كلّ ثمرة تشتهينها. فإذا أكلتها ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك، وأفهمك في عمل العسل. أو: إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فاسلكي﴾ إلى بيوتك راجعة ﴿سبل ربّك﴾ لا تضلين فيها ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ جمع: ذلول. وهي حال من السبل؛ لأنّ الله تعالى ذلّلها، وسهّلها، أو: من الضمير في ﴿فاسلكي﴾ أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب، تلقيه من فيها، ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ منه أبيض، وأصفر، وأحمر من الشباب، والكهول، والشيب أو: على ألوان أغذيتها ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ لأنّه من جملة الأدوية النافعة. وقلّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل. وليس الغرض أنّه شفاء لكلّ مريض، كما أنّ كلّ دواء كذلك. وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو: لأنّ فيه بعض الشفاء؛ لأنّ النكرة في الإثبات تخصّ. وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال ﷺ: «اسقه عسلاً»، فجاءه وقال: زاده شراً. فقال ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك. اسقه عسلاً» فسقاه فصحّ[1]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: العسل شفاء من كلّ داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. ومن بدع الروافض: أن المراد بالنحل عليّ وقومه. وعن بعضهم: أنّ رجلاً قال عند المهديّ: إنّما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مّما يخرج من بطونهم. فضحك المهديّ. وحدّث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) في الطب ومسلم (٢٢١٧) في السلام.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً

عجيب أمرها، فيعلمون أنّ الله أودعها علماً بذلك، وفطّنها، كما أعطى أولي العقول عقولهم.

٧٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بقبض أرواحكم من أبدانكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ إلى أخسّه، وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، أو: ثمانون أو تسعون ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ لينسى ما يعلم، أو: لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل، أو: إلى الإفناء من الإحياء، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء.

٧١ ـ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل ممّا رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ في الرزق، يعني: الملاّك ﴿بِرَآدِّى﴾ بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾. فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم حتّى تتساووا في الملبس والمطعم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملة اسميّة وقعت في موضع جملة فعليّة في موضع النصب؛ لأنه جواب النفي بالفاء، وتقديره: ﴿فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾ فيستووا مع عبيدهم في الرزق. وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء. فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم. فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟! ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وبالتاء: أبو بكر. فجعل ذلك من جملة جحود النعمة.

٧٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جنسكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع: حافد. وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة، والخدمة. ومنه قول القانت: وإليك نسعى ونحفد. واختلف فيه فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد. والمعنى ﴿و﴾ جعل لكم ﴿حفدة﴾

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ

أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: بعضها؛ لأنّ كلّ الطّيبات في الجنّة، وطيّبات الدنيا أنموذج منها ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام، وشفاعتها ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ أو: الباطل: الشيطان، والنعمة: محمد ﷺ. أو: الباطل: ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحلّ لهم.

٧٣ ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: الصنم، وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئاً. فالرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق. فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئاً﴾ أي: لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان ﴿شيئاً﴾ بدلاً منه، أي: قليلاً. و﴿من السموات والأرض﴾ صلة للرزق إن كان مصدراً، أي: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، وصفة إن كان اسماً لما يرزق. والضمير في: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ لما؛ لأنه في معنى الآلهة بعد ما قال ﴿لا يملك﴾ على اللفظ. والمعنى: لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتّى ذلك منهم.

٧٤ ـ ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثلاً، فإنّه لا مثل له، أي: فلا تجعلوا له شركاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أنّه لا مثل له من الخلق ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، أو: ﴿إنّ الله يعلم﴾ كيف يضرب الأمثال ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك. والوجه: الأول. ثمّ ضرب المثل فقال:

٧٥ ـ ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا﴾ هو بدل من ﴿مثلاً﴾ ﴿مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبدٍ مملوك، عاجز عن التصرف، وبين حر مالك، قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرّف فيه، وينفق منه

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾

ما شاء. وقيّد بالملوك ليميزه من الحرّ؛ لأنّ اسم العبد يقع عليهما جميعاً، إذ هما من عباد الله. وبـ: ﴿لا يقدر على شيء﴾ ليمتاز من المكاتب والمأذون، فهما يقدران على التصرّف. و﴿من﴾ موصوفة، أي: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً، أو: موصولة ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾ جمع الضمير لإرادة الجمع، أي: لا يستوي القبيلان ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بأن الحمد والعبادة لله. ثم زاد في البيان فقال:

٧٦ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ الأبكم: الذي ولد أخرس فلا يَفهم، ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: ثِقْل وعيال على مَن يلي أمره، ويعوله ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ حيثما يرسله، ويصرفه في مطلب حاجة، أو كفاية مهم، لم ينفع، ولم يأتِ بنجح ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: ومَن هو سليم الحواس، نفّاع، ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو يأمر الناس بالعدل، والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ على سيرةٍ صالحة، ودين قويم. وهذا مثل ثانٍ، ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من آثار رحمته، ونعمته، وللأصنام التي هي أموات لا تضرّ، ولا تنفع.

٧٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه. أو: أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أنّ علمه غائب عن أهل السموات والأرض، لم يطّلع عليه أحدٌ منهم ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قرب كونها، وسرعة قيامها ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ كرجع طرف ـ وإنّما ضرب به المثل لأنّه لا يعرف زمان أقلّ منه ـ ﴿أَوۡ هُوَ﴾ أي: الأمر ﴿أَقۡرَبُ﴾. وليس هذا لشكّ المخاطب، ولكن المعنى: كونوا في كونها على هذا الاعتبار. وقيل: بل ﴿هو أقرب﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو يقدر

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ

على أن يقيم الساعة، ويبعث الخلق؛ لأنّه بعض المقدورات. ثمّ دلّ على قدرته بما بعده فقال:

٧٨ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وبكسر الألف وفتح الميم: عليّ، إتباعاً لكسرة النون. وبكسرهما: حمزة. والهاء مزيدة في أمّهات للتوكيد، كما زيدت في أراق، فقيل: أهراق. وشذّت زيادتها في الواحدة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ حال، أي: غير عالمين شيئاً من حقّ المنعم؛ الذي خلقكم في البطون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلاّ آلات لإزالة الجهل؛ الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه. والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلّة؛ التي جرت مجرى جموع الكثرة، لعدم السماع في غيرها.

٧٩ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وبالتاء: شاميّ، وحمزة ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذلّلات للطيران بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المواتية لذلك ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في قبضهنّ، وبسطهنّ، ووقوفهنّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بقدرته. وفيه نفي لما يصوّره الوهم من خاصيّة القوى الطبيعية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنّ الخلق لا غِنى به عن الخالق.

٨٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو فَعَلَ بمعنى مفعول، أي: ما يسكن إليه، وينقطع إليه من بيت، أو: إلف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ هي: قباب الأدم ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب، والنقض، والنقل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ بسكون العين: كوفيّ، وشاميّ. وبفتح العين: غيرهم.

وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

والظعن بفتح العين وسكونها: الارتحال ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قراركم في منازلكم. والمعنى: أنّها خفيفة عليكم في أوقات السفر، والحضر، على أنّ اليوم بمعنى الوقت ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: أصواف الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وأوبار الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ وأشعار المعز ﴿أَثَاثًا﴾ متاع البيت ﴿وَمَتَاعًا﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مدّة من الزمان.

٨١ ـ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ كالأشجار، والسقوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كنّ، وهو: ما سترك من كهف، أو غار ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ هي: القمصان، والثياب من الصوف، والكتّان، والقطن ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي: تقي البرد أيضاً، إلاّ أنه اكتفى بأحد الضدّين، ولأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم؛ لكون البرد يسيراً محتملاً ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ودروعاً من الحديد تردّ عنكم سلاح عدوّكم في قتالكم. والبأس: شدّة الحرب. والسربال عام يقع على ما كان من حديد، أو: غيره ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به، وتنقادون له.

٨٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فلا تبعة عليك في ذلك؛ لأنّ الذي عليك هو التبليغ الظاهر، وقد فعلت.

٨٣ ـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عددناها بأقوالهم، فإنّهم يقولون: إنّها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم. أو: في الشدّة، ثمّ في الرخاء ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين. أو: ﴿نعمة الله﴾: نبوّة محمد ﷺ، كانوا يعرفونها، ثمّ ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم، و«ثم» يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

المعرفة؛ لأنّ حقّ من عرف النعمة أن يعترف، لا أن ينكر.

٨٤ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ انتصابه باذكر ﴿نَبْعَثُ﴾ نحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبيّاً يشهد لهم وعليهم بالتصديق، والتكذيب، والإيمان، والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار. والمعنى: لا حجّة لهم، فدلّ بترك الإذن على أن لا حجّة لهم، ولا عذر ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربّكم؛ لأنّ الآخرة ليست بدار عمل. ومعنى: ﴿ثمّ﴾ أنّهم يُمْنون، أي: يُبتلَون بعد شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو أطمّ وأغلب منها، وهو أنّهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجّة.

٨٥ ـ ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون قبله.

٨٦ ـ ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التي عبدوها ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ أي: آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبد ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب؛ لأنها كانت جماداً لا تعرف من عبدها، ويحتمل: أنّهم كذّبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة، تنزيهاً لله عن الشرك.

٨٧ ـ ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ إلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء، والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أنّ لله شركاء، وأنّهم ينصرونهم، ويشفعون لهم، حين كذّبوهم، وتبرّؤوا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

٨٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحملوا غيرهم على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدّهم عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين الناس بالصدّ.

٨٩ ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيّهم؛ لأنّه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أمّتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين. أمّا في الأحكام المنصوصة فظاهر، وكذا فيما ثبت بالسنة، أو: بالإجماع، أو: بقول الصحابة، أو: بالقياس؛ لأنّ مرجع الكلّ إلى الكتاب، حيث أمرنا فيه باتّباع رسوله ﷺ وطاعته بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] وحثّنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمّته اتباع أصحابه بقوله: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[(١)]. وقد اجتهدوا، وقاسوا، ووطّؤوا طرق الاجتهاد والقياس، مع أنّه أمرنا به بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. فكانت السُّنة، والإجماع، وقول الصحابيّ، والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب، فتبيّن أنّه كان تبياناً لكلّ شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ودلالة إلى الحقّ، ورحمة لهم، وبشارة لهم بالجنّة.

٩٠ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كلّ ذي حقّ إلى حقّه ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى من أساء إليكم. أو: هما الفرض، والندب؛ لأن الفرض لابدّ من أن يقع فيه تفريط، فيجبره الندب ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء ذي القرابة، وهو: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧).

ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا

﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الذنوب المفرطة في القبح ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ طلب التطاول بالظلم، والكبر ﴿يَعِظُكُمْ﴾ حال، أو: مستأنف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون بمواعظ الله. وهذه الآية سببُ إسلام عثمان بن مظعون، فإنّه قال: ما كنتُ أسلمتُ إلاّ حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام، ولم يستقرّ الإيمان في قلبي، حتّى نزلت هذه الآية، وأنا عنده، فاستقرّ الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة، فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسلفه لمغدق، وما هو بقول البشر. وقال أبو جهل: إنّ إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق. وهي أجمعُ آية في القرآن للخير والشرّ، ولهذا يقرؤها كلّ خطيب على المنبر في آخر كلّ خطبة لتَكون عظة جامعة لكلّ مأمور، ومنهي.

٩١ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أيمان البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله. وأكّد ووكّد لغتان فصيحتان. والأصل: الواو، والهمزة بدل منها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورقيباً؛ لأنّ الكفيل مراع لحال المكفول به، مهيمن عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من البرّ والحنث، فيجازيكم به.

٩٢ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقض الأيمان ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته، فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾. جمع نكث، وهو: ما ينكث فتله. قيل: هي ريطة، وكانت حمقاء، تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثمّ تأمرهنّ فينقضن ما غزلن. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ حال، كأنكاثاً ﴿دَخَلًۢا﴾. أحد مفعولي: تتّخذ، أي: ولا تنقضوا

بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا

أيمانكم متّخذيها دخلاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: مفسدة وخيانة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أمة؛ يعني: جماعة قريش ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي أزيد عدداً، وأوفر مالاً من جماعة المؤمنين. ﴿هي أربى﴾ مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمّة. و﴿أمّة﴾ فاعل ﴿تكون﴾. وهي: تامة. و﴿هي﴾ ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الضمير للمصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسّكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم، وقلّة المؤمنين وفقرهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. وفيه تحذيرٌ عن مخالفة ملّة الإسلام.

٩٣ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حنيفة مسلمة ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة، فتجزون به.

٩٤ ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ كرّر النهي عن اتّخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظمه ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجّة الإسلام بعد ثبوتها عليها. وإنّما وحّدت القدم، ونكّرت؛ لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحقّ بعد أن تثبت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين. أو: بصدّكم غيركم؛ لأنّهم لو نقضوا أيمان البيعة، وارتدّوا لاتّخذوا نقضها سنّة لغيرهم يستنّون بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾. وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا

﴿قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

﴿قَلِيلًا﴾. عرضاً من الدنيا يسيراً، كأنّ قوماً ممن أسلم بمكّة زيّن لهم الشيطان ـ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش، واستضعافهم المسلمين، ولما كانوا يَعدونهم إن رجعوا من المواعيد ـ أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبّتهم الله ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

٩٦ ـ ﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٖ﴾ لا ينفد ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾[1] وبالنون: مكيّ، وعاصم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على أذى المشركين، ومشاقّ الإسلام ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٩٧ ـ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ «مَنْ» مبهم يتناول النوعين إلاّ أنّ ظاهره للذكور، فبيّن بقوله: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ ليعمّ الموعد النوعين ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ شرط الإيمان؛ لأنّ أعمال الكفار غير معتد بها. وهو يدلّ على أنّ العمل ليس من الإيمان ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ أي: في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح، موسراً كان أو معسراً، يعيش عيشاً طيّباً؛ إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فمعه ما يطيّب عيشه، وهو: القناعة، والرضا بقسمة الله تعالى. وأمّا الفاجر فأمره بالعكس: إن كان معسراً فظاهر، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنّأ بعيشه. وقيل: الحياة الطيّبة: القناعة، أو: حلاوة الطاعة، أو: المعرفة بالله، وصدق المقام مع الله، وصدق الوقوف على أمر الله، والإعراض عمّا سوى الله.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وليجزين﴾ وهي قراءة: قنبل، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن ذكوان، وهشام. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٩٥).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾

٩٨ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فعبّر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؛ لأنها سببٌ له. والفاء للتعقيب، إذ القراءة المصدّرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: إبليس ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، أو: الملعون. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. فقال لي: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام»[(١)].

٩٩ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ لإبليس ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ تسلّط، وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالمؤمن المتوكّل، لا يقبل منه وساوسه.

١٠٠ ـ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يتّخذونه وليّاً، ويتّبعون وساوسه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير يعود إلى ربهم، أو: إلى الشيطان، أي: بسببه.

١٠١ ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو: النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمةٍ رآها، وهو معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ هو جواب: ﴿إذا﴾. وقوله: ﴿والله أعلم بما ينزّل﴾ اعتراض. كانوا يقولون: إنّ محمّداً يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشقّ بالأهون، والأهون بالأشقّ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في ذلك.

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣٧) وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/٤٣٩): موضوع، آفته: جعفر بن عبد الواحد.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

١٠٢ ـ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ـ عليه السلام ـ أضيف إلى القدس، وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجواد. والمقدّس: المطهّر من المآثم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من عنده، وأمره ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزّله ملتبساً بالحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليبلوهم بالنسخ، حتّى إذا قالوا فيه: هو الحقُّ من ربنا والحكمة؛ لأنّه حكيم لا يفعل إلاّ ما هو حكمة وصواب، حكم لهم بثبات القدم، وصحة اليقين، وطمأنينة القلوب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ مفعول لهما، معطوفان على محلّ ﴿ليثبّت﴾ والتقدير: تثبيتاً لهم، وإرشاداً وبشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم.

١٠٣ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلاماً كان لحويطب قد أسلم، وحَسُن إسلامه، اسمه: عائش، أو يعيش، وكان صاحب كتب. أو: هو جبر؛ غلام روميّ لعامر بن الحضرميّ. أو: عبدان: جبر، ويسار. كانا يقرأان التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ يسمع ما يقرأان. أو: سلمان الفارسي ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ وبفتح الياء والحاء: حمزة، وعليّ ﴿إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، لسان أعجمي، غير بيّن. ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربيّ مبين﴾ ذو بيان وفصاحة. ردّاً لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وهذه الجملة، أعني: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ لامحل لها؛ لأنها مستأنفة، جواب لقولهم. واللسان: اللغة. ويقال: ألحد القبر، ولحده، وهو ملحد، وملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شقّ منه. ثمّ استعير لكلّ إمالة عن الاستقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه. ومنه الملحد؛ لأنّه أمال مذهبه عن الأديان كلّها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾

١٠٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ما داموا مختارين الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة على كفرهم.

١٠٥ ـ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنّه لا يترقّب عقاباً عليه. وهو ردّ لقولهم: ﴿إنّما أنت مفتر﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿الذين لا يؤمنون﴾، أي: وأولئك ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب. أو: ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ في قولهم: ﴿إنّما أنت مفتر﴾.

١٠٦ ـ جوّزوا أن يكون ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ شرطاً مبتدأ، وحذف جوابه؛ لأنّ جواب ﴿من شرح﴾ دالّ عليه، كأنّه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ساكن به ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً، واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأن يكون بدلاً من ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ على أن يجعل ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنّما يفتري الكذب ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. واستثنى منهم المكره، فلم يدخل تحت حكم الافتراء. ثمّ قال: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله﴾. وأن يكون بدلاً من المبتدأ؛ الذي هو ﴿أولئك﴾، أي: ومن كفر بالله من بعد إيمانه ﴿هم الكاذبون﴾. أو: من الخبر الذي هو الكاذبون، أي: وأولئك هم ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. وأن ينتصب على الذم.

رُوي أنّ ناساً من أهل مكّة فتنوا فارتدّوا، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه، وهو معتقدٌ للإيمان. منهم عمّار ـ وأما أبواه: ياسر

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟

وسميّة فقد قُتِلا، وهما أوّل قتيلين في الإسلام ـ فقيل لرسول الله ﷺ: إن عمّاراً كفر. فقال: «كلّا، إنّ عمّاراً مُلِيء إيماناً من قرنه إلى قدمه»[1] و«اختلط الإيمانُ بلحمه ودمه»[2]. فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي. فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه. وقال: «مالك؟! إن عادوا لك فَعُدْ لهم بما قلت»[3]. وما فعل أبو عمار أفضل؛ لأنّ في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام.

١٠٧ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد، وهو: لحوق الغضب، والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين للكفر.

١٠٨ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلا يتدبّرون، ولا يصغون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريقَ الرشاد ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ لأنّ الغفلة عن تدبّر العواقب هي غاية الغفلة، ومنتهاها.

١٠٩، ١١٠ ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ «ثم» يدلّ على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ من مكّة، أي: أنّه لهم لا عليهم، يعني: أنّه وليّهم وناصرهم، لا عدوّهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محميّاً منفوعاً، غير مضرور

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي، والواحدي في «الوسيط» عن الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢/ ٦٣٤).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٩).
(٣) رواه ابن عساكر. (كنز العمال ٣٣٥٢٠).

مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر. ﴿فَتَنوا﴾: شاميّ، أي: بعد ما عذّبوا المؤمنين، ثمّ أسلموا ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ ﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد هذه الأفعال، وهي: الهجرة، والجهاد، والصبر ﴿ لَغَفُورٞ﴾ لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقيّة. ﴿رَّحِيمٞ﴾ لا يعذّبهم على ما قالوا في حالة الإكراه.

١١١ ـ ﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي﴾ منصوب برحيم، أو: باذكر ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ وإنما أضيفت النفس إلى النفس؛ لأنّه يقال لعين الشيء، وذاته: نفسه، وفي نقيضه: غيره. والنفس: الجملة كما هي. فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها وذاتها، فكأنّه قيل: يوم يأتي كلّ إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمّه شأن غيره، كلّ يقول: نفسي، نفسي. ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كقولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ تُعطى جزاء عملها وافياً ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ في ذلك.

١١٢ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكلّ قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا، وتولّوا، فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن يراد قرية مقدّرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلا لمكّة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ من القتل والسبي ﴿ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج، والقلق مع الخوف ﴿ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من كلّ بلد ﴿ فَكَفَرَتۡ﴾ أهلها ﴿ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمع: نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع، وأدرع. أو: جمع: نعم، كبؤس وأبؤس ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ الإذاقة واللباس: استعارتان. والإذاقة المستعارة موقّعة على اللباس المستعار، ووجه صحّة ذلك: أنّ الإذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد، وما يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرّ، وأذاقه العذاب. شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ، والبشع. وأما اللباس فقد شبّه به ـ لا شتماله على اللابس ـ ما غشى الإنسان، والتبس به من بعض الحوادث. وأمّا إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنّه لمّا وقع عبارة عمّا يغشى منهما، ويلابس؛ فكأنّه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع، والخوف.

١١٣ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: في حال التباسهم بالظلم. قالوا: إنّه القتل بالسيف يوم بدر.

١١٤ ـ رُوي: أنّ رسول الله ﷺ وجّه إلى أهل مكّة في سني القحط بطعام، ففرّق فيهم، فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على يدي محمد ﷺ ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بدلاً عمّا كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات، والغصوب، وخبائث الكسوب ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون. أو: إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنّها شفعاؤكم عنده.

١١٥ ـ ثمّ عدّد عليهم محرّمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنّما للحصر. أي: المحرّم هذا دون البحيرة وأخواتها. وباقي الآية قد مرّ تفسيره.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ

---

١١٦ ـ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ هو منصوب بلا تقولوا، أي: ﴿ولا تقولوا﴾ الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحلّ والحرمة في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي، أو: إلى القياس المستنبط منه. واللام مثلها في قولك: لا تقولوا لما أحلّ الله هو حرام. وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب. ولك أن تنصب ﴿الكذب﴾ بـ«تصف» وتجعل ﴿ما﴾ مصدريّة، وتعلّق ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بـ﴿لا تقولوا﴾، أي: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا لوصف ألسنتكم الكذب، أي: ولا تحرّموا، ولا تحلّلوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم لا لأجل حجّة وبيّنة، ولكن قول ساذج، ودعوى بلا برهان. وقوله: ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنّه عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلّت الكذب بحليته، وصوّرته بصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر. واللام في: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ من التعليل الذي لا يتضمّن معنى الغرض ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

١١٧ ـ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهليّة منفعة قليلة، وعذابها عظيم.

١١٨ ـ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، يعني: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ...﴾ الآية [١٤٦]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالتحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فحرّمنا عليهم عقوبة على معاصيهم.

١١٩ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي:

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾

عملوا السوء جاهلين، غير متدبرين للعاقبة؛ لغلبة الشهوة عليهم، ومرادهم لذّة الهوى، لا عصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفير ما كثّروا قَبْلُ من الجرائم ﴿رَحِيمٌ﴾ بتوثيق ما وثّقوا بعد العزائم.

١٢٠ ـ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنّه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير، كقوله(١):

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أن يَجْمَعَ العالَم في واحدِ

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده، والناس كلّهم كفّار. أو: كان أمّة بمعنى مأموم، يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ هو القائم بما أمره الله. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنّ معاذاً كان أمّة، قانتاً لله. فقيل له: إنّما هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: الأمّة الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وكان معاذ كذلك. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو كان معاذ حيّاً لاستخلفته، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة. ومعاذ أمّة لله، قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»(٢) ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان إلى ملّة الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفّار قريش، لزعمهم أنّهم على ملّة أبيهم إبراهيم. وحذف النون للتشبيه بحروف اللين.

١٢١ ـ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ رُوي: أنّه كان لا يتغذّى إلاّ مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخّر غداءه، فإذا هو بفوجٍ من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخيّلوا له أن بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٠).
(٢) الشاعر هو: أبو نواس.

ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

شكراً لله على أنّه عافاني وابتلاكم ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ اختصّه، واصطفاه للنبوّة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى ملّة الإسلام.

١٢٢ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نبوّة، وأموالاً، وأولاداً. أو: تنويه الله بذكره، فكلّ أهل دين يتولّونه، أو: قول المصلّي منّا: كما صليت على إبراهيم ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لمن أهل الجنّة.

١٢٣ ـ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ تعظيم منزلة نبيّنا ﷺ، وإجلال محلّه، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتّباع رسولنا ملّته.

١٢٤ ـ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فرض عليهم تعظيمه، وترك الاصطياد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ رُوي: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض، وهو السبت، إلاّ شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة. فهذا اختلافهم في السبت؛ لأنّ بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمرَ الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله دون أولئك. وهو يحكم بينهم يوم القيامة، فيجازي كلّ واحد من الفريقين بما هو أهله.

١٢٥ ـ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة الصحيحة المحكمة، وهو: الدليل الموضح للحقّ، المزيل للشبهة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنّك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها، أو:

وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

بالقرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة، وموعظة حسنة. أو: الحكمة: المعرفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة: أن يخلط الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق، واللين، من غير فظاظة. أو: بما يوقظ القلوب، ويعظ النفوس، ويجلو العقول. وهو ردّ على مَن يأبى المناظرة في الدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بهم، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل، ومَن لا خير فيه عجزت عنه الحيل.

١٢٦ ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ سمّي الفعل الأوّل عقوبة، والعقوبة هي الثانية؛ لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالثانية ليست بسيّئة. والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل، أو: نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه. رُوي: أنّ المشركين مثّلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبيّ عليه الصلاة والسلام حمزة مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لأمثّلنّ بسبعين مكانك» فنزلت. فكفّر عن يمينه وكفّ عمّا أراده(١). ولا خلاف في تحريم المثلة؛ لورود الأخبار بالنهي عنها حتّى بالكلب العقور ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ الضمير في ﴿لهو﴾ يرجع إلى مصدر ﴿صبرتم﴾. والمراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لَصبركم خير لكم، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم؛ لأنّهم صابرون على الشدائد. ثمّ قال لرسول الله ﷺ:

١٢٧ ـ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أنت، فعزم عليه بالصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه، وتثبيته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكفّار أن لم يؤمنوا، وعلى المؤمنين،

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٤٢).

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾

وما فعل بهم الكفّار، فإنّهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: ﴿ضِيقٍ﴾ مكّي. والضيق تخفيف الضيّق، أي: في أمر ضيّق. ويجوز أن يكونا مصدرين، كالقيل والقول، والمعنى: ولا يضيقنّ صدرك من مكرهم، فإنّه لا ينفذ عليك.

١٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: هو وليّ الذين اجتنبوا السيّئات، ووليّ العاملين بالطاعات. قيل: من اتّقى في أفعاله، وأحسن في أعماله، كان الله معه في أحواله. ومعيّته: نصرته في المأمور، وعصمته في المحظور.

* * *

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

ترتيبها ١٧ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

١ ـ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيه الله عن السوء، وهو علم للتسبيح، كعثمان للرجل. وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله ﴿سبحان﴾. ثمّ نزّل سبحان منزلة الفعل فسدّ مسدّه، ودلّ على التنزيه البليغ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ. وسرى وأسرى لغتان ﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف. وقيّده بالليل. والإسراء لا يكون إلاّ بالليل للتأكيد، أو: ليدلّ بلفظ التنكير على تقليل مدّة الإسراء، وأنّه أسري به في بعض الليل من مكّة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: أسري به من دار أمّ هانىء بنت أبي طالب. والمراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد، والتباسه به. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الحرم كلّه مسجد. وقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق، وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة»[1]. وكان العروج به من بيت المقدس. وقد أخبر قريشاً عن عيرهم، وعدد جمالها، وأحوالها، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩) والبخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

العجائب، وأنّه لقي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى. وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكان في اليقظة. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: والله ما فُقد جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن عُرِج بروحه[(١)]. وعن معاوية مثله. وعلى الأوّل الجمهور، إذ لا فضيلةَ للحالم، ولا مزيّة للنائم ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ هو بيت المقدس، لأنّه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبّد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومهبط الوحي. وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الدالّة على وحدانيّة الله، وصدق نبوّته برؤيته السموات وما فيها من الآيات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بالأفعال. ولقد تصرّف الكلام على لفظ الغائب والمتكلّم، فقيل: ﴿أسرى﴾ ثمّ ﴿باركنا﴾ ثمّ ﴿إنّه هو﴾ وهي طريقة الالتفات، التي هي من طرق البلاغة.

٢ ـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب، وهو: التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: لا تتّخذوا. وبالياء: أبو عمرو. أي: لئلا يتّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربّاً تكلون إليه أموركم.

٣ ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو: على النداء فيمن قرأ ﴿لا تتّخذوا﴾ بالتاء على النهي. أي: قلنا لهم: ﴿لا تتّخذوا من دوني وكيلاً﴾ يا ذرّيّة من حملنا مع نوح ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ في السرّاء والضرّاء ـ والشكر: مقابلة النعمة بالثناء على المنعم. رُوي: أنّه كان لا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس إلاّ قال: الحمد لله ـ وأنتم ذرّيّة من آمن به، وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم، كما جعله آباؤكم أسوتهم. وآية

---

(١) قال الحافظ: قال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة بهذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٤٧).

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

رشد الأبناء: صحّة الاقتداء بسنّة الآباء. وقد عرفتم حال الآباء هنالك، فكونوا أيّها الأبناء كذلك.

٤ ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً، أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنّهم يفسدون في الأرض لا محالة. والكتاب: التوراة. و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف. أو: جرى القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون ﴿لتفسدنّ﴾ جواباً له، كأنّه قال: وأقسمنا ﴿لتفسدنّ في الأرض﴾ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: قتل زكريّا ـ عليه السلام ـ وحبس أرمياء ـ عليه السلام ـ حين أنذرهم سخط الله، والأخرى: قتل يحيى بن زكرياء ـ عليهما السلام ـ وقصد قتل عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبرنّ عن طاعة الله، من قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. والمراد به: البغي، والظلم، وغلبة المفسدين على المصلحين.

٥ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: وعد الله عقاب أولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ سلّطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أشدّاء في القتال، يعني: سنحاريب وجنوده، أو: بختنصر، أو: جالوت. قتلوا علماءهم، وأحرقوا التوراة، وخرّبوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ تردّدوا للغارة فيها. قال الزجاج: الجوس: طلب الشيء بالاستقصاء ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد العقاب وعداً لابدّ أن يفعل.

٦ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بعثوا عليكم حين تبتم، ورجعتم عن الفساد، والعلوّ. قيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم، وأموالهم، ورجوع الملك إليهم. وقيل: أعدنا لكم الدولة بملك طالوت، وقتل داود جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر، وهو: من ينفر مع الرجل من قومه.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

---

٧ ـ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ قيل: اللام بمعنى على، كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والصحيح: أنها على بابها، لأنّ اللام للاختصاص والعامل مختصّ بجزاء عمله حسنة كانت أو سيّئة. يعني: أنّ الإحسان والإساءة كلاهما مختصّ بأنفسكم، لا يتعدّى النفع والضرر إلى غيركم. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما أحسنت إلى أحد، ولا أسأت إليه، وتلاها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد المرّة الآخرة بعثناهم ﴿لِيَسُوءُوا﴾ أي: هؤلاء ﴿وُجُوهَكُمْ﴾. وحذف لدلالة ذكره أوّلاً عليه، أي: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها، كقوله: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧] ﴿ليسوء﴾: شاميّ، وحمزة، وأبو بكر. والضمير لله عزّ وجلّ، أو: للوعد، أو: للبعث. ﴿لنسوء﴾: عليّ ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ «ما علوا» مفعول «ليتبّروا» أي: ليهلكوا كلّ شيء غلبوه، واستولوا عليه. أو: بمعنى مدّة علوّهم.

٨ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى، وانزجرتم عن المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرّة ثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم. وقد عادوا، فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الإتاوة عليهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سُلّط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً. يقال للسجن: محصر، وحصير.

٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات، وأسدّها، وهي: توحيد الله، والإيمان برسله، والعمل بطاعته، أو: للملة، أو: للطريقة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿ويبشر﴾: حمزة، وعلي ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأنّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنّة.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ﴾

---

١٠ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ وبأن الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ـ قلبت تاء ـ ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني: النار. والآية تردّ القول بالمنزلة بين المنزلتين، حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم، ولم يذكر الفسقة.

١١ ـ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: ويدعو الله عند غضبه بالشرِّ على نفسه، وأهله، وماله، وولده، كما يدعو لهم بالخير. أو: يطلب النفع العاجل ـ وإن قلّ ـ بالضرر الآجل ـ وإن جلّ ـ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يتسرَّع إلى طلب كلّ ما يقع في قلبه، ويخطر بباله، لا يتأنّى فيه تأنّي المتبصّر. أو: أريد بالإنسان: الكافر، وأنّه يدعوه بالعذاب استهزاء، ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسّته الشدّة ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ يعني: أنّ العذاب آتيه لا محالة، فما هذا الاستعجال؟. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو النضر بن الحارث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، فأجيب، فضربت عنقه صبراً. وسقوط الواو من ﴿يدع﴾ في الخطّ على موافقة اللفظ.

١٢ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود، أي: ﴿فمحونا﴾ الآية التي هي الليل ﴿وجعلنا﴾ الآية التي هي النهار ﴿مبصرة﴾. أو: وجعلنا نيّري الليل والنهار آيتين، يريد: الشمس والقمر ﴿فمحونا آية الليل﴾، التي هي القمر، حيث لم يخلق له شعاعاً كشعاع الشمس، فترى الأشياء به رؤية بيّنة ﴿وجعلنا﴾ الشمس ذات شعاع، يبصر في ضوئها كلّ شيء؛ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتتوصّلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ باختلاف الجديدين ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ يعني: حساب الآجال، ومواسم الأعمال. ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار، ولا استراح حرّاص المكتسبين والتجّار ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ ممّا تفتقرون إليه في

فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا

دينكم ودنياكم ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ بيّناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجّة علينا.

١٣ ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عمله ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ يعني: أنّ عمله لازم له لزوم القلادة، أو: الغلّ للعنق لا يفكّ عنه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ﴾ هو صفة لـ«كتاباً» ﴿يُلَقَّاه﴾: شاميّ ﴿مَنشُورًا﴾ حال من ﴿يلقاه﴾ يعني: غير مطويّ ليمكنه قراءته. أو: هما صفتان للكتاب. ونقول له:

١٤ ـ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: كتاب أعمالك. وكلّ يُبعَث قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ الباء زائدة، أي: كفى نفسك ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز. وهو بمعنى حاسب. و«على» متعلّق به، من قولك: حسب عليه كذا، أو: بمعنى الكافي. وضع موضع الشهيد، فعدّي بعلى؛ لأنّ الشاهد يكفي المدّعي ما أهمّه. وإنّما ذكر ﴿حسيباً﴾ لأنّه بمنزلة الشهيد، والقاضي، والأمير، إذ الغالب أن يتولّى هذه الأمور الرجال، فكأنّه قيل: ﴿كفى﴾ نفسك رجلاً ﴿حسيباً﴾. أو: تؤوّل النفس بالشخص.

١٥ ـ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فلها ثواب الاهتداء، وعليها وبال الضلال ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: كلّ نفس حاملة وزراً فإنّما تحمل وزرها، لا وزر نفس أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وما صحّ منّا أن نعذّب قوماً عذاب استئصال في الدنيا، إلاّ بعد أن نرسل إليهم رسولاً يلزمهم الحجّة.

١٦ ـ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبابرتها بالطاعة، عن أبي عمرو، والزجّاج ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الأمر، كقولك: أمرته فعصى. أو: ﴿أمرنا﴾ كثّرنا، دليلهُ قراءة يعقوب

فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

﴿آمرنا﴾ ومنه الحديث: «خيرُ المال سكّة مأبورة أو مهرة مأمورة»[1] أي: كثيرة النسل ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ فأهلكناها إهلاكاً.

١٧ ـ ﴿وَكَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان لـ«كَمْ» ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يعني: عاداً، وثمود، وغيرهما ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها الستور.

١٨ ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاء ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من ﴿له﴾ بإعادة الجارّ. وهو بدل البعض من الكلّ؛ إذ الضمير يرجع إلى ﴿مَن﴾، أي: مَن كانت العاجلة همّه، ولم يرد غيرها، كالكفرة، تفضّلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد. فقيّد المعجّل بمشيئته، والمعجّل له بإرادته. وهكذا الحال؛ ترى كثيراً من هؤلاء يتمنّون ما يتمنّون، ولا يعطون إلاّ بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنّون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة. وأما المؤمن التقيّ فقد اختار غنى الآخرة، فإن أوتي حظّاً من الدنيا فبها، وإلاّ فربّما كان الفقر خيراً له ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا﴾ ممقوتاً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله.

١٩ ـ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ ـ هو مفعول به ـ أي: حقّها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّق لله في وعده ووعيده ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً عند الله، مُثاباً عليه. عن بعض السلف: مَن لم يكن معه ثلاثٌ لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونيّة صادقة،

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٦٨) والطبراني (٦٤٧٠ و ٦٤٧١) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/٢/ ١٤٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٧٨).

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًاۚ﴾

وعمل مُصيب. وتلا الآية. فإنّه شرط فيها ثلاث شرائط: في كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة، والسعي فيما كلّف، والإيمان الثابت.

٢٠ ـ ﴿كُلًّا﴾ كلّ واحد من الفريقين، والتنوين عوض عن المضاف إليه، وهو منصوب بقوله: ﴿نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿كلًّا﴾، أي: نمدّ هؤلاء ﴿وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مَن أراد العاجلة، ومَن أراد الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ رزقه. و﴿من﴾ تتعلّق بنمدّ. والعطاء: اسم للمعطَى، أي: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضّل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً عن عباده وإن عصوا.

٢١ ـ ﴿ٱنظُرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المال، والجاه، والسعة، والكمال ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ رُوي: أنّ قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر ـ رضي الله عنه ـ فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشقّ على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنّما أُتينا من قِبَلنا، إنهم دُعوا ودُعينا ـ يعني: إلى الإسلام ـ فأسرعوا، وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؟! ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر.

٢٢ ـ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به: أمّته ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فتصير جامعاً على نفسك الذمّ، والخذلان. وقيل: مشتوماً بالإهانة، محروماً عن الإعانة؛ إذ الخذلان ضدّ النصر والعون. دليلهُ: قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر.

٢٣ ـ ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿أن﴾ مفسِّرة و﴿لا تعبدوا﴾ نهي، أو: بألاّ تعبدوا ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وأحسنوا

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾

بالوالدين إحساناً، أو: بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ «إمّا» هي: إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها؛ ولذا أدخلت النون المؤكّدة في الفعل. ولو أفردت «إن» لم يصحّ دخولها. لا تقول: إن تكرمنّ زيداً يكرمك، ولكن: إمّا تكرمنّه ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعل ﴿يبلغنّ﴾. وهو في قراءة حمزة وعليّ: (يبلغانّ)، بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أحدهما﴾ فاعلاً، وبدلاً ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ مدنيّ، وحفص. ﴿أفَّ﴾: مكيّ، وشاميّ ﴿أفُّ﴾: غيرهم. وهو صوتٌ يدل على تضجّر. فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والفتح للتخفيف، والتنوين لإرادة التنكير، أي: أتضجّر تضجّراً. وتركه لقصد التعريف، أي: أتضجّر التضجّر المعلوم ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما عمّا يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهي والنهر أخوان ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف، والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً ليّناً كما يقتضيه حسن الأدب، أو: هو أن يقول يا أبتاه! يا أمّاه! ولا يدعوهما بأسمائهما فإنّه من الجفاء. ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نحلني أبو بكر كذا. وفائدة: ﴿عندك﴾ أنّهما إذا صارا كلّاً على ولدهما، ولا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشقّ عليه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتّى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما: أفّ، فضلاً عمّا يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما؛ حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثمّ ضيق الأمر في مراعاتهما حتّى لم يرخِّص في أدنى كلمةٍ تنفلت من المتضجّر مع موجبات الضجر، ومع أحوالٍ لا يكاد يصبرُ الإنسانُ معها.

٢٤ ـ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: اخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] فأضافه إلى الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود. والمعنى: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى مَن كان أفقر خَلْق الله

وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

إليهما بالأمس. وقال الزجاج: وألِنْ جانبك متذلّلاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادْعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعلَ ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك، وتربيتهما لك. والمراد بالخطاب غيره عليه الصلاة والسلام. والدعاء مختصّ بالأبوين المسلمين. وقيل: إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية. وعن النبيّ ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»(١). ورُوي: «يفعل البّار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاقّ ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنّة»(٢). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إيّاكم وعقوق الوالدين فإنّ الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاقّ، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء. إنّ الكبرياء لله ربّ العالمين»(٣).

٢٥ ـ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائركم من قصد البرّ إلى الوالدين، ومن النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبرّ، ثمّ فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر هنة تؤدّي إلى أذاهما، ثمّ أُبْتُم إلى الله، واستغفرتم منها ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ الأوّاب: الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة. فجاز أن يكون هذا عاماً لكلّ من فرطت منه جناية، ثمّ تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه، التائب من جنايته لوروده على أثره.

٢٦ ـ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ منك ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: النفقة إذا كانوا محارم فقراء ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ﴿وآت﴾ هؤلاء حقّهم من الزكاة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ

(١) رواه الترمذي (١٨٩٩).
(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٥٩).
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٢٥).

تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا
تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ
مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾

﴿تَبۡذِيرًا﴾ ولا تسرف إسرافاً. قيل: التبذير: تفريق المال في غير الحلّ والمحلّ. فعن مجاهد: لو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً. وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرفَ في الخير.

٢٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة، وهي: غاية المذمّة؛ لأنّه لا شرّ من الشيطان، أو: هم إخوانهم، وأصدقاؤهم؛ لأنّهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ فما ينبغي أن يُطاع، فإنّه لا يدعو إلاّ إلى مثل فعله.

٢٨ ـ ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من الردّ ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربّك ترجو أن يفتح لك ـ فسمّى الرزق: رحمة ـ فردّهم ردّاً جميلاً. فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء، والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبّب موضع السبب. يقال: يُسر الأمر وعُسر، مثل: سُعِد الرجل ونُحِس، فهو مفعول. وقيل معناه: ﴿فقل لهم﴾ رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنّه دعاء لهم ييسّر عليهم فقرهم، كأنّ معناه: قولاً ذا ميسور، وهو: اليسر، أي: دعاء فيه يسر. و﴿ابتغاء﴾ مفعول له، أو: مصدر في موضع الحال. و﴿ترجوها﴾ حال.

٢٩ ـ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ نصب على المصدر لإضافته إليه. وهذا تمثيلٌ لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ فتصير ﴿ملوماً﴾ عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضيّ عنده وعند الناس ـ يقول الفقير: أعطى فلاناً وحرمني، ويقول الغنيّ: ما يحسن تدبير أمر المعيشة ـ وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿مَّحۡسُورًا﴾ منقطعاً بك، لا شيء عندك، من: حسره السفر: إذا أثّر فيه أثراً بليغاً، أو: عارياً، من: حسر رأسه. وقد خاطرت مسلمة ضرّتها

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾

اليهوديّة في أنّه ـ يعني: محمداً ﷺ ـ أجود من موسى عليه السلام، فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه وقعد عرياناً، فأقيمت الصلاة، فلم يخرج للصلاة. فنزلت[1].

٣٠ـ ثمّ سلّى رسول الله ﷺ عمّا كان يرهقه من الإضاقة، بأنّ ذلك ليس لهوانٍ منك عليه، ولا لبخل به عليك، ولكن لأنّ بسطَ الأرزاق وقدرها مفوّض إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فليس البسط إليك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو يضيّق، فلا لوم عليك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ بمصالحهم، فيمضيها ﴿بَصِيرًا﴾ بحوائجهم، فيقضيها.

٣١ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ قتلهم أولادهم: وأدهم بناتهم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك، وضمن أرزاقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ إثماً عظيماً. يقال: خطىء خطأً، كأثم إثماً. ﴿خَطَأً﴾: شاميّ. وهو ضدّ الصواب، اسم من أخطأ. وقيل: هو والخطء، كالحذر والحذر. (خِطَاء) بالمدّ والكسر: مكّيّ.

٣٢ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ القصر فيه أكثر. والمدّ لغة. وقد قُرِىء به. وهو نَهي عن دواعي الزنى؛ كالمسّ، والقبلة، ونحوهما. ولو أُريد النهي عن نفس الزنى لقال: ولاتزنوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ معصية مجاوزة حدّ الشرع والعقل ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقه.

٣٣ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بارتكاب ما يبيح الدم ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مرتكب ما يبيحُ الدم ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تسلُّطاً على القاتل في الاقتصاص منه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ الضمير للوليّ، أي: فلا

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١٩٤).

إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ

يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة أهل الجاهلية. أو: الإسراف: المثلة. أو: الضمير للقاتل الأوّل. ﴿فلا تسرف﴾: حمزة، وعليّ، على خطاب الوليّ، أو: قاتل المظلوم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للوليّ، أي: حسبه أنّ الله قد نصره، بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك، أو: للمظلوم، أي: الله ناصره، حيث أوجب القصاص بقتله، وبنصره في الآخرة بالثواب، أو: للذي يقتله الوليّ بغير حق، ويسرف في قتله، فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف. وظاهر الآية يدلّ على أنّ القصاصَ يجري بين الحرّ والعبد، وبين المسلم والذميّ؛ لأنّ أنفس أهل الذمّة والعبيد داخلة في الآية؛ لكونها محرّمة.

٣٤ ـ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالخصلة والطريقة التي هي أحسن، وهي: حفظه، وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: ثماني عشرة سنة ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ بأوامر الله تعالى، ونواهيه ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ مطلوباً، يطلب من المعاهد ألاّ يضيعه، ويفي به. أو: إنّ صاحب العهد كان مسؤولاً.

٣٥ ـ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾[(١)] وبكسر القاف: حمزة، وعليّ، وحفص. وهو كلُّ ميزان صغير، أو كبير من موازين الدراهم وغيرها، وقيل: هو القرسطون، أي: القبان ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ المعتدل ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ في الدنيا ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ عاقبة. وهو تفعيل، من: آل؛ إذا رجع، وهو: ما يؤول إليه.

٣٦ ـ ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ ولا تتبع ما لم تعلم، أي: لا تقل: رأيتُ، وما رأيتَ، وسمعتُ، وما سمعتَ. وعن ابن الحنفيّة: لا تشهد بالزور. وعن ابن عباس: لا ترمِ أحداً بما لا تعلم. ولا يصحّ التثبّت به لمبطل

(١) في الأصل المخطوط: (بالقُسْطَاس) بضم القاف، وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٠).

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾

الاجتهاد؛ لأنّ ذلك نوع من العلم ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] وأقام الشارع غالب الظنّ مقام العلم، وأمر بالعمل به كما في الشهادات. ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ «أولئك» إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ لأنّ «أولئك» كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكون إشارة إلى غيرهم، كقول جرير:

ذمّ المنازلَ بعد منزلةِ اللّوى ... والعيشَ بعد أولئكَ الأيّام

و﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كلّ واحد منها كان مسؤولاً عنه. فمسؤول مسند إلى الجارّ والمجرور، كالمغضوب في: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يقال للإنسان: لم سمعتَ ما لم يحلّ لك سماعه؟ ولم نظرتَ إلى ما لم يحلّ لك النظر إليه؟ ولم عزمتَ على ما لم يحلّ لك العزم عليه؟ كذا في «الكشاف». وفيه نظرٌ لبعضهم، لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل، فأمّا إذا تقدّما فلا.

٣٧ ـ ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو حال، أي: ذا مرح ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها، وشدّة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهوتهكّم بالمختال. أو: لن تحاذيها قوّة. وهو حال من الفاعل، أو: المفعول.

٣٨ ـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ كوفيّ، وشاميّ على إضافة سيّىء إلى ضمير ﴿كلّ﴾. ﴿سيّئة﴾: غيرهم ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ذكّر ﴿مكروهاً﴾ لأنّ السيّئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبارَ بتأنيثه. ألا تراك تقول: الزنى سيّئة، كما تقول: السرقة سيّئة. فإن قلت: الخصال المذكورة بعضها سيّء، وبعضها حسن. ولذلك قرأ من قرأ ﴿سيّئه﴾ بالإضافة ـ أي: ما كان من المذكور سيّئاً كان عند الله مكروهاً ـ فما وجه قراءة من قرأ

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾

﴿سيئة﴾؟ قلت: ﴿كلّ ذلك﴾ إحاطة بما نهى عنه خاصّة، لا بجميع الخصال المعدودة.

٣٩ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ إلى هذه الغاية ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحّته، وتصلح النفس بأسوته ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ مطروداً من الرحمة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى ـ عليه السلام ـ أوّلها: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وآخرها: ﴿مدحوراً﴾. ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأنّ التوحيد رأس كلّ حكمة وملاكها، ومَن عَدِمه لم تنفعه حكمة، وإن بذّ فيها الحكماء، وحكّ بيافوخه السماء. وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضلّ من النَّعَم.

٤٠ ـ ثم خاطب الذين قالوا: الملائكة بنات الله بقوله: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ الهمزة للإنكار. يعني: أفخصّكم ربّكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم البنون ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ واتخذ أدونهم، وهي البنات؟ وهذا خلافُ الحكمة، وما عليه معقولكم. فالعبيدُ لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها، ويكون أردؤها وأدونها للسادات! ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ حيث أضفتم إليه الأولاد، وهي: من خواصّ الأجسام، ثم فضّلتم عليه أنفسكم، حيث يجعلون له ما تكرهون.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: التنزيل. والمراد: ولقد صرّفناه، أي: هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير؛ لأنه معلوم ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ وبالتخفيف: حمزة، وعليّ، أي: كرّرناه ليتّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ عن الحقّ.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾

وكان الثوريّ إذا قرأها يقول: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

٤٢ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ مع الله. ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾[1] وبالياء: مكّي، وحفص ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يعني: لطلبوا إلى من له الملك والربوبيّة ﴿سبيلاً﴾ بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو: لتقرّبوا إليه، كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. و﴿إذاً﴾ دالّة على أنّ ما بعدها وهو ﴿لابتغوا﴾ جواب عن مقالة المشركين، وجزاء لـ«لو».

٤٣ ـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ ﴿عُلُوًّا﴾ أي: تعالياً. والمراد: البراءة من ذلك، والنزاهة ﴿كَبِيرًا﴾ وصف العلوّ بالكبر مبالغة في معنى البراءة، والبعد ممّا وصفوه به.

٤٤ ـ ﴿تُسَبِّحُ﴾[2] وبالتاء: عراقيّ غير أبي بكر ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يقول: سبحان الله وبحمده. عن السديّ. قال ﷺ: «ما اصطيد حوت في البحر، ولا طائر يطير إلا بما يضيّع من تسبيح الله تعالى»[3] ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لاختلاف اللغات، أو: لتعسّر الإدراك. أو: سبب لتسبيح الناظر إليه، والدالّ على الخير كفاعله. والوجه الأوّل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن جهل العباد ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿تقولون﴾. وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، ورويس، والأعمش. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٤).
(٢) في الأصل المخطوط: ﴿يُسَبِّح﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ورويس، وابن محيصن. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٥).
(٣) رواه أبو نعيم كما في كنز العمال (١٩١٩)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٩١).

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ
وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ
يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ذا ستر، أو: حجاباً لا يرى، فهو مستور.

٤٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو: الذي يستر الشيء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلاً يمنع عن الاستماع ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يقال: وحد يحد وحداً وحدة، نحو: وعد يعد وعداً وعدة. فهومصدر سدّ مسدّ الحال. أصله: يحد وحده بمعنى واحداً ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿نُفُورًا﴾ مصدر بمعنى التولية، أو: جمع نافر، كقاعد وقعود. أي: يحبّون أن تذكر معه آلهتهم؛ لأنّهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

٤٧ ـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: نحن أعلم بالحال، أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها. فالقرآن هو المُسْتَمَع، وهو محذوف. ﴿وبه﴾ حال، وبيان لـ«ما»، أي: يستمعون القرآن هازئين لا جادين، والواجب عليهم أن يستمعوه جادّين ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ نصب بأعلم، أي: ﴿أعلم﴾ وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ وبما يتناجون به ﴿إذ هم﴾ ذوو ﴿نجوى﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بدل من ﴿إذ هم﴾ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سُحِر فجُنّ.

٤٨ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مثّلوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ﴿فضلّوا﴾ في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فهو متحيّر في أمره، لا يدري ما يصنع.

٤٩ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي: منكرو البعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: مجدّداً. ﴿وخلقاً﴾ حال، أي: مخلوقين.

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾

٥٠، ٥١ ـ ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي: السموات والأرض، فإنّها تكبر عندكم عن قبول الحياة ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ﴾ يعيدكم ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدّد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظاماً يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردّها الله بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة، أو حديداً، لكان قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ فسيحركونها نحوك تعجّباً، واستهزاء ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ أي: البعث، استبعاداً له، ونفياً ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي: هو قريب. وعسى للوجوب.

٥٢ ـ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى المحاسبة، وهو يوم القيامة ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي: تجيبون حامدين. والباء للحال. عن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لبثاً قليلاً أو: زماناً قليلاً في الدنيا، أو: في القبر.

٥٣ ـ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي ﴾ وقل للمؤمنين ﴿ يَقُولُوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وألين، ولا يخاشنوهم، وهي أن يقولوا: يهديكم الله ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يُلقي بينهم الفساد، ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقّة. والنزغ: إيقاع الشّر، وإفساد ذات البين. وقرأ طلحة: ﴿ينزِغ﴾ بالكسر. وهما لغتان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ ظاهر العداوة.

٥٤ ـ أو فسر ﴿التي هي أحسن﴾ بقوله: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾

أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

بالهداية والتوفيق ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالخذلان، أي: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنّكم من أهل النار، وإنّكم معذبون، وما أشبه ذلك ممّا يغيظهم، ويهيجهم على الشّر. وقوله: ﴿إنّ الشيطان ينزغ بينهم﴾ اعتراض ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً لأعمالهم، وموكولاً إليك أمرهم. وإنّما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم، ومُرْ أصحابك بالمداراة.

٥٥ ـ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم، وبكلّ ما يستأهل كلّ واحد منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله، وأنّه خاتم الأنبياء، وأنّ أمّته خير الأمم. لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمّته. ولم يعرّف الزبور هنا، وعرّفه في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ لأنّه كالعباس وعباس، والفضل وفضل.

٥٦ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهتكم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله. وهم الملائكة، أو: عيسى، وعزير، أو نفر من الجنّ عبدهم ناس من العرب، ثمّ أسلم الجنّ، ولم يشعروا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ادعوهم، فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضرّ من مرض، أو فقر، أو عذاب، ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر.

٥٧ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة، أي: يدعونهم آلهة، أو: يعبدونهم. والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: أنّ آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله عزّ وجلّ ﴿أَيُّهُمْ﴾ بدل من واو ﴿يبتغون﴾ و﴿أيّ﴾ موصولة، أي: يبتغي مَن هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب؟ أو: ضمّن يبتغون ﴿الوسيلة﴾ معنى يحرصون، فكأنّه قيل:

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

يحرصون ﴿أيّهم﴾ يكون ﴿أقرب﴾ إلى الله، وذلك بالطاعة، وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنّهم الهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأن يحذره كلّ أحد من ملك مقرّب، ونبيّ مرسل، فضلاً عن غيرهم.

٥٨ ـ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً. وعن مقاتل: وجدتُ في كتب الضحاك في تفسيرها: أما مكّة فيخرّبها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، وأما بلخ فتصيبهم هدّة فيهلك أهلها، وأما بدخشان فيخربها أقوام، وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون، وأما صغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع، وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء، فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً، وكذا فرغانة، والشاش، وأسبيجاب، وخوارزم. وأما بخارى فهي أرض الجبابرة، فيموتون قحطاً وجوعاً، وأما مرو فيغلب عليها الرمل، ويهلك بها العلماء والعباد، وأما هراة فيمطرون بالحيّات فتأكلهم أكلاً، وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد، وبرق، وظلمة، فيهلك أكثرهم. وأما الريّ فيغلب عليها الطبرية، والديلم، فيقتلونهم. وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سنابك الخيول، والجيوش، والصواعق، والرواجف. وأما همذان فالديلم يدخلها، ويخربها. وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة، وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير، ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر، فويل لأهلها ولأهل دمشق، وويل لأهل إفريقية، وويل لأهل الرملة، ولا يدخل بيت المقدس. وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أيّاماً، ثمّ هدّة تأتيهم، ويموت فيها العلماء. وأمّا كرمان وأصبهان وفارس

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾

فيأتيهم عدوّ، وصاحوا[١] صيحة تنخلع [لها] القلوب، وتموت الأبدان[٢].

٥٩ ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ استعير المنع لترك إرسال الآيات، و﴿أن﴾ الأولى مع صلتها في موضع النصب؛ لأنّها مفعول ثان لـ«منعنا». و﴿أن﴾ الثانية مع صلتها في موضع الرفع؛ لأنّها فاعل ﴿منعنا﴾. والتقدير: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين. والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى، وغير ذلك. وسنّة الله في الأمم أنّ من اقترح منهم آية، فأجيب إليها، ثمّ لم يؤمن، أن يعاجل بعذاب الاستئصال. والمعنى: وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلاّ أن كذّب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم، كعاد، وثمود، وأنّها لو أرسلت لكذّبوا بها تكذيب أولئك، وعذّبوا العذاب المستأصل. وقد حكمنا أن نؤخّر أمر من بُعثتَ إليهم إلى يوم القيامة. ثمّ ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون، ثمّ كذبوا بها لمّا أرسلت فأهلكوا، واحدة. وهي ناقة صالح ـ عليه السلام ـ لأنّ آثار هلاكهم قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ باقتراحهم ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ آية بيّنة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بها ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة، فالمعنى: لا نرسلها ﴿إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة، والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: ﴿وما نرسل﴾ ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها ﴿إلاّ تخويفاً﴾ وإنذاراً بعذاب الآخرة. وهو مفعول له.

٦٠ ـ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾

---

(١) كذا في الأصل، وما بين قوسين سقط منه.

(٢) هذا الخبر رواه مقاتل بن سليمان المُفَسِّر، ووهو متهم بالكذب، وينقل عن أهل الكتاب، وقيل: إنه لم يلق الضحّاك. ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٣).

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

واذكر إذ أوحينا إليك أنّ ربّك أحاط بقريش علماً وقدرة، فكلّهم في قبضته، فلا تبال بهم، وامض لأمرك، وبلّغ ما أرسلت به. أو: بشّرناك بوقعة بدر، وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فجعله كأن قد كان، ووجد، فقال: ﴿أحاط بالناس﴾ على سنته في أخباره. ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم»[١] وهو يُومىء إلى الأرض، ويقول: «هذا مصرع فلان». فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر بدر، وما أُرِي في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون، ويسخرون، ويستعجلون به استهزاء ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: ﴿و﴾ ما جعلنا ﴿الشجرة الملعونة في القرآن﴾ إلاّ فتنة للناس؛ فإنّهم حين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤] جعلوها سخرية، وقال: إنّ محمداً يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة، ثمّ يقول: تنبت فيها الشجرة. ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ إذ قالوا ذلك فإنّه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فوبر السمندل ـ وهو دويبة ببلاد الترك ـ يتّخذ منه مناديل إذا اتّسخت طرحت في النار، فذهب الوسخ، وبقي المنديل سالماً، لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها. وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أنّ الآيات إنّما تُرسل تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوّفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر، وخوّفوا بعذاب الآخرة، وبشجرة الزقوم، فما أثّر فيهم. ثمّ قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات؟

وقيل: الرؤيا هي الإسراء، والفتنة: ارتداد من استعظم ذلك. وبه تعلّق من يقول: كان الإسراء في المنام. ومن قال: كان في اليقظة، فسّر الرؤيا

(١) رواه مسلم (١٧٧٩).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

بالرؤية. وإنما سمّاها رؤيا على قول المكذّبين حيث قالوا له: لعلّها رؤيا رأيتها، استبعاداً منهم، كما سمّى أشياء بأساميها عند الكفرة، كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧]. أو هي رؤيا أنّه سيدخل مكّة. والفتنة: الصدّ بالحديبية. فإن قلت: ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم؟ قلت: معناه: والشجرة الملعون آكلها، وهم الكفرة، لأنّه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٣]. فوصفت بلعن أهلها على المجاز. ولأنّ العرب تقول لكلّ طعام مكروه ضارّ: ملعون، ولأنّ اللعن هو: الإبعاد من الرحمة. وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة.

٦١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ هو تمييز، أو حال من الموصول. والعامل فيه: ﴿أأسجد﴾ على ﴿أأسجد﴾ له وهو طين، أي: أصله طين.

٦٢ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ الكاف لا موضع لها، لأنّها ذكرت للخطاب تأكيداً. ﴿هذا﴾ مفعول به. والمعنى أخبرني عن هذا الذي ﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضّلته لم كرّمته عليّ، و﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]؟ فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ما تقدّم عليه، ثمّ ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾[1] وبلا ياء: كوفيّ، وشاميّ. واللام موطّئة للقسم المحذوف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنّهم بإغوائهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم: المخلصون. قيل: من كلّ ألف واحد. وإنّما علم الملعون ذلك بالإعلام، أو: لأنّه رأى أنه خلق شهوانيّ.

---

(١) في الأصل المخطوط (أخرتني). وهي قراءة: ابن كثير، ويعقوب، وابن محيصن، في حالتي الوصل والوقف. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٩).

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾

٦٣ ـ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضدّ المجيء، وإنّما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية، ثم عقّبه بذكر ما جرّه سوء اختياره، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ والتقدير: فإنّ جهنّم جزاؤهم وجزاؤك. ثمّ غلّب المخاطب على الغائب فقيل: ﴿جزاؤكم﴾ وانتصب ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: موفّراً بإضمار تجازون.

٦٤ ـ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ استزلّ، أو: استخفّ. استفزّه، أي: استخفّه. والفزّ: الخفيف ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بالوسوسة، أو: بالغناء، أو: بالمزمار ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أجمعْ، وصِحْ بهم. من الجلبة، وهو: الصياح ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1] بكلّ راكبٍ وماشٍ من أهل العيث. فالخيل: الخيّالة، والرجل: اسم جمع للراجل، ونظيره: الركب، والصحب. ﴿ورجِلك﴾: حفص، على أن فعلاً بمعنى فاعل، كتعب وتاعب. ومعناه: وجمعك الرجل. وهذا لأنّ أقصى ما يُستطاع في طلب الأمور: الخيل، والرجل. وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل، ورجال ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال الزّجاج: كلّ معصية في مال وولد، فإبليس شريكهم فيها، كالربا، والمكاسب المحرّمة، والبحيرة، والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصّل إلى الأولاد بالسبب الحرام، والتسمية بعبد العزّى، وعبد شمس ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وإيثار العاجل على الآجل، ونحو ذلك ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنّه صواب.

٦٥ ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يد بتبديل الإيمان،

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وَرَجْلِكَ﴾. وهذه قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ
إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ
ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

ولكن بتسويل العصيان ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكّلون به في الاستعاذة منك، أو: حافظاً لهم عنك. والكلّ أمر تهديد فيعاقب به. أو: إهانة، أي: لا يخلّ ذلك بملكي.

٦٦ ـ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يجري، ويُسيِّر ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني: الربح في التجارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

٦٧ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: خوف الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ذهب عن أوهامكم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إيّاه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه. أو: ﴿ضلّ من تدعون﴾ من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده الذي ترجونه، على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكاف. ﴿كَفُورًا﴾ للنعم.

٦٨ ـ ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: ﴿أ﴾ نجوتم ﴿فأمنتم﴾ فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ انتصب ﴿جانب﴾ بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] و﴿بكم﴾ حال. والمعنى: أن يخسف جانبَ البرّ، أي: يقلبه وأنتم عليه. والحاصل: أنّ الجوانب كلّها في قدرته سواء، وله في كلّ جانب، برّاً كان، أو بحراً، سبب من أسباب الهلاك، ليس جانب البحر وحده مختصّاً به، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرّ الخسف، وهو تغييب تحت التراب. والغرق: تغييب تحت الماء. فعلى العاقل أن يستوي خوفُه من الله في جميع الجوانب، وحيث كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هي: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يصرف ذلك عنكم.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾

٦٩ ـ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ﴿أم أمنتم﴾ أن يقوّي دواعيكم، ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا، فتركبوا البحر الذي نجّاكم منه، فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل عليكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي: الريح التي لها قصيف، وهو: الصوت الشديد، أو: هو الكاسر للفلك ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة، وهو: إعراضكم حين نجّاكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ مطالباً، من قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة. والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم، ثمّ لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً، ودركاً للثأر من جهتنا. [وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]][(١)] ﴿أن نخسف﴾، ﴿أو نرسل﴾، ﴿أن نعيدكم﴾، ﴿فنرسل﴾، ﴿فنغرقكم﴾ بالنون: مكيّ، وأبو عمرو.

٧٠ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والخطّ، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش، والمعاد، والاستيلاء، وتسخير الأشياء، وتناول الطعام بالأيدي. وعن الرشيد: أنّه أحضر طعاماً، فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ فقال له: جاء في تفسير جدّك ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق، فردّها، وأكل بأصابعه ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ باللذيذات، أو: بما كسبت أيديهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: على الكلّ، كقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. قال الحسن: أي: كلّهم. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] ذكر في «الكشّاف» أنّ المراد بالأكثر: الجميع. وعنه ﷺ: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة»[(٢)]. وهذا لأنّهم مجبولون

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة، وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما. فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم، ولأنه خلق الكلّ لهم، وخلقهم لنفسه.

٧١ ـ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ منصوب باذكر ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الباء للحال. والتقدير: مختلطين بإمامهم، أي: بمن ائتموا به من نبيّ، أو: مقدّم في الدين، أو: كتاب، أو: دين. فيقال: يا أتباع فلان! يا أهل دين كذا! أو: كتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير! ويا أصحاب كتاب الشرّ! ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ وإنّما قيل: ﴿أولئك﴾ لأنّ ﴿من﴾ في معنى الجمع ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء. ولم يذكر الكفّار، وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاءً بقوله:

٧٢ ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأعمى، أي: أضلّ طريقاً. والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات؛ لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة. أمّا في الدنيا فلفقد النظر، وأمّا في الآخرة فلأنّه لا ينفعه الاهتداء إليه. وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف «وأضل» ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالاً، والثاني مفخماً؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة، فلا يقبل الإمالة. وأمّا الأوّل فلم يتعلّق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف، فقبلت الإمالة. وأمالهما حمزة، وعليّ، وفخمهما: الباقون.

٧٣ ـ ولمّا قالت قريش: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتّى نؤمن بك نزل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين النافية. والمعنى: إنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا، ونواهينا، ووعدنا، ووعيدنا

لِيَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿لِيَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتقول علينا ما لم نقل، يعني: ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً، والوعيد وعداً ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: ولو اتّبعت مرادهم ﴿لاتّخذوك خليلاً﴾ ولكنت لهم وليّاً، وخرجت من ولايتي.

٧٤ ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ركوناً قليلاً. وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت.

٧٥ ـ ﴿إِذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ ﴿لأذقناك﴾ عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوّتك، كما قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٠]. وأصل الكلام: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأنّ العذاب عذابان: عذاب في الممات، وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة، وهو عذاب النار. والعذاب يوصف بالضعف كقوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مضاعفاً، فكأنّ أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات. ثمّ حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو الضعف، ثمّ أضيفت الصفة إضافة الموصوف، فقيل: ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾. ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر، وعذاب النار. وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين، دليل على أنّ القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله. ولمّا نزلت كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»(١) ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ معيناً لك يمنع عذابنا عنك.

(١) قال ابن حجر: لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلاً. (حاشية الكشاف ٢/ ٦٨٥). =

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

٧٦ ـ ﴿وَإِن كَادُوا﴾ أي: أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك بعدوانهم، ومكرهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ من أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَافَكَ﴾[1] بعدك، أي: بعد إخراجك ـ ﴿خلافك﴾: كوفيّ غير أبي بكر، وشاميّ بمعناه ـ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً فإنّ الله مهلكهم. وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. أو: معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربّه. وقيل: من أرض العرب، أو: من أرض المدينة.

٧٧ ـ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يعني: أن كلّ قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم. ونصبت نصب المصدر المؤكّد، أي: سنّ الله ذلك سنّة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلاً.

٧٨ ـ ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها. وعلى هذا: الآية جامعة للصلوات الخمس، أو: لغروبها. وعلى هذا يخرج الظهر، والعصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ هو الظلمة، وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر. سُمِّيت قرآناً ـ وهو القراءة ـ لكونها ركناً، كما سمّيت ركوعاً، وسجوداً. وهو حجّة على الأصمّ؛ حيث زعم: أنّ القراءة ليست بركن، أو: سُمِّيت قرآناً لطول قراءتها. وهو عطف على الصلاة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل، وأوّل ديوان النهار. أو: يشهده الكثير من المصلّين في العادة.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿خَلْفَكَ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وأبي جعفر، وابن محيصن، واليزيدي، ورويس، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ

٧٩ ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وعليك بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ التهجّد: ترك الهجود للصلاة. ويقال في النوم أيضاً: تهجّد ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس. وضع ﴿نافلة﴾ موضع تهجّداً؛ لأنّ التهجّد عبادة زائدة. فكان التهجّد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى: أن التهجّد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك، أو: فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوّع لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ نصب على الظرف، أي: ﴿عسى أن يبعثك﴾ يوم القيامة، فيقيمك ﴿مقاماً محموداً﴾. أو: ضمّن «يبعثك» معنى: يقيمك. وهو مقامّ الشفاعة عند الجمهور. ويدلّ عليه الأخبار، أو: هو مقام يُعطَى فيه لواء الحمد.

٨٠ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ هو مصدر. أي: ﴿أدخلني﴾ القبر إدخالاً مرضياً على طهارة من الزلاّت ﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي: ﴿أخرجني﴾ منه عند البعث إخراجاً مرضيّاً، ملقّى بالكرامة، آمناً من الملامة. دليله: ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد: إدخال المدينة والإخراج من مكّة. أو: هو عامّ في كلّ ما يدخل فيه، ويلابسه من أمر ومكان ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حجّة تنصرني على مَن خالفني، أو: ملكاً وعزاً قوياً، ناصراً للإسلام على الكفر، مُظهِراً له عليه.

٨١ ـ ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ﴾ وذهب، وهلك ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الشرك. أو: جاء القرآن، وهلك الشيطان ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ كان مضمحلاً في كل أوان.

٨٢ ـ ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ «مِنْ» للتبيين ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ من أمراض القلوب ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ وتفريج للكروب، وتطهير للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وفي الحديث: «من لم يستشفِ بالقرآن فلا شفاه

وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى

الله»[(١)] ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ ضلالاً لتكذيبهم به، وكفرهم.

٨٣ ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة، والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله، أو: ﴿أنعمنا﴾ بالقرآن أعرض ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يولّيه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه، ويولّيه ظهره. أو: أراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين. ﴿نأى﴾ بالإمالة: حمزة، وبكسرها: عليّ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر، والمرض، أو: نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

٨٤ ـ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلّ أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على مذهبه، وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى، والضلال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدّ مذهباً، وطريقة.

٨٥ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من أمر يعلمه ربّي. الجمهور: على أنّه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته، فأخبر أنّه من أمر الله، أي: ممّا استأثر بعلمه. وعن أبي هريرة: لقد مضى النّبي ﷺ وما يعلم الروح[(٢)]. وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته، بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه. والحكمة في ذلك: تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له؛ ليدل على أنّه عن إدراك خالقه أعجز. ولذا ردّ ما قيل في حدّه: إنّه جسم دقيق هوائيّ في كلّ جزء من الحيوان. وقيل: هو خلق عظيم روحانيّ أعظم من الملك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو جبريل عليه السلام ﴿نَزَلَ بِهِ

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢/٦٨٩). ورواه الدارقطني في الأفراد، كما في كنز العمال (٢٨١٠٦).

(٢) قال الحافظ: ذكره الواحدي في «الوسيط». (حاشية الكشاف ٢ / ٦٩٠).

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦﴾

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وعن الحسن: القرآن. دليله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ولأنّ به حياة القلوب و﴿من أمر ربيّ﴾ أي: من وحيه، وكلامه ليس من كلام البشر. ورُوِي: أنّ اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن الكلّ، أو سكت عن الكلّ، فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض، وسكت عن بعض فهو نبيّ. فبيّن لهم القصّتين، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم. وقيل: كان السؤال عن خلق الروح، يعني: أهو مخلوق أم لا؟ وقوله: ﴿من أمر ربيّ﴾ دليل خلق الروح، فكان هذا جواباً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الخطاب عامّ. فقد روُي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصّون بهذا الخطاب، أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلاّ قليلاً(١)» وقيل: هو خطاب لليهود خاصّة؛ لأنهم قالوا للنبيّ ﷺ: قد أوتينا التوراة، وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فقيل لهم: إنّ علم التوراة قليل في جنب علم الله. فالقلّة والكثرة من الأمور الإضافيّة. فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها، إلاّ أنّها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهي قليلة.

٨٦ ـ ثم نبّه على نعمة الوحي، وعزّاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿لنذهبنّ﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على «إن» توطئة للقسم. والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ﴿ثمّ لا تجد لك﴾ بعد الذهاب به من يتوكّل علينا باسترداده، وإعادته محفوظاً مسطوراً.

---

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٩٠).

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾

٨٧ ـ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ أي: إلا أن يرحمك ربّك، فيردّه عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالردّ. أو: يكون على الاستثناء المنقطع، أي: ولكن رحمة من ربّك تركته غير مذهوب به. وهذا امتنانٌ من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنّة العظيمة في تنزيله، وتحفيظه.

٨٨ ـ ونزل جواباً لقول نضر: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١]: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ معيناً. و﴿لا يأتون﴾ جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطّئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله[1]:

... ... يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[2]

لأنّ الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته، وحسن نظمه، وتأليفه؛ لعجزوا عن الإتيان بمثله.

٨٩ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ ردّدنا، وكرّرنا ﴿ لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كلّ معنى هو كالمثل في غرابته، وحسنه ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً. وإنّما جاز ﴿فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً﴾ ولم يجز ضربت إلاّ زيداً؛ لأنّ ﴿أبى﴾ متأوّل بالنفي، كأنّه قيل: فلم يرضوا ﴿إلاّ كفوراً﴾.

٩٠ ـ ولمّا تبين إعجاز القرآن، وانضمّت إليه المعجزات الأخر، ولزمتهم الحجة، وغُلبوا اقترحوا الآيات، فِعْل المبهوت، المحجوج، المتحيّر ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا ﴾ وبالتخفيف: كوفيّ ﴿ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مكّة ﴿ يَنۢبُوعًا ﴾ عيناً غزيرة، من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع. يفعول، من: نبع الماء.

(١) الشاعر: زهير بن أبي سُلمى.
(٢) عجز بيت وصدره: وإن أتاه خليل يوم مسغبة.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

٩١ - ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ﴾ والتشديد هنا مجمع عليه ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾.

٩٢ - ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بفتح السين: مدني، وعاصم، أي: قطعاً. يقال: أعطني كسفة من هذا الثوب. وبسكون السين غيرهما، جمع كسفة، كسدرة وسدر. يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ كفيلاً بما تقول شاهداً بصحّته. والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قُبُلاً، كقوله[١]:

... ... كنت منه ووالدي بَـرِيّـاً... ... ...[٢]

أو: مقابلاً كالعشير، بمعنى المعاشر، ونحوه: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أو: جماعة، حالاً من الملائكة.

٩٣ - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تصعد إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لأجل رقيك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو. ﴿كِتَٰبًا﴾ من السماء فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ صفة كتاب ﴿قُلْ﴾ (قال): مكّيّ، وشاميّ، أي: قال الرسول ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجّب من اقتراحاتهم عليه ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم. وكان الرسل لا يأتون قومهم إلاّ بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنّما هو إلى الله، فما بالكم تتخيّرونها عليّ؟

(١) الشاعر: الفرزدق.
(٢) البيت بتمامه:

رمـاني بـأمـر كنـت منـه ووالـدي بريّاً ومن جول الطوى رماني

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾

٩٤ ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أهل مكّة ومحل ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ نصب بأنه مفعول ثان لمنع ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النبيّ، والقرآن ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ فاعل منع. والتقدير: وما منعهم الإيمان بالقرآن، وبنبوّة محمد ﷺ إلا قولهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: إلاّ شبهة تمكّنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في ﴿أبعث الله﴾ للإنكار. وما أنكروه ففي قضية حكمته منكر[1]. ثم رد الله عليهم بقوله:

٩٥ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم كما يمشي الإنس ـ ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها، ويعلموا ما يجب علمه ـ ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ حال، أي: ساكنين في الأرض قارّين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يعلمهم الخير، ويهديهم المراشد. فأمّا الإنس فإنّما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم، وإرشادهم. و﴿بشراً﴾ و﴿ملكاً﴾ حالان من ﴿رسولاً﴾.

٩٦ ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أنّي بلّغت ما أرسلت به إليكم، وأنّكم كذبتم وعاندتم. ﴿شهيداً﴾ تمييز، أو: حال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المنذِرين، والمنذَرين ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالماً بأحوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم، فهو مجازيهم. وهذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، ووعيدٌ للكفرة.

٩٧ ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ وبالياء: يعقوب، وسهل. وافقهما أبو عمرو، ومدنيّ في الوصل، أي: من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى،

---

(١) كذا في الأصل، وفي الكشاف (٢/ ٦٩٤): وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنّ قضيّة حكمته ألا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء.

وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ

فهو المهتدي عند الله ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذله، ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يسحبون عليها، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[١] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامّون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك ، لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ طَفِىء لهبها ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقّداً.

٩٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: ﴿ذلك﴾ العذاب بسبب أنّهم كذّبوا بالإعادة بعد الإفناء، فجعل الله جزاءهم أن سلّط النار على أجزائهم تأكلها، ثمّ يعيدها، لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث.

٩٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت، أو: القيامة ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً مع وضوح الدليل.

١٠٠ ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديره: لو تملكون أنتم؛ لأنّ لو تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بدّ من فعل بعدها، فأضمر «تملك» على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل، وهو الواو، ضمير منفصل، وهو ﴿أنتم﴾

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٤ و ٣٦٣) والترمذي (٣١٤٢).

خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

لسقوط ما يتصل به من اللفظ. فأنتم فاعل الفعل المضمر، و﴿تملكون﴾ تفسيره. وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب. وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أنّ ﴿أنتم تملكون﴾ فيه دلالة على الاختصاص، وأنّ الناس هم المختصّون بالشحّ المتبالغ ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ رزقه، وسائر نعمه على خلقه ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ بخيلاً.

١٠١ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل. وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات - مكان الحجر - والبحر، والطور. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فـ﴾ـقلنا له ﴿اسأل بني إسرائيل﴾ أي: سلهم من فرعون، وقل له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلّق بالقول المحذوف، أي: فقلنا له: سلهم حين ﴿جاءهم﴾ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سحرت، فخولط عقلك.

١٠٢ - ﴿قَالَ﴾ أي: موسى. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ - حال، أي: بيّنات مكشوفات - إلاّ أنك معاند. ونحوه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿علمتُ﴾ بالضمّ: عليّ، أي: إنّي لست مسحوراً كما وصفتني، بل أنا عالم بصحّة الأمر، وأنّ هذه الآيات منزلها ﴿ربّ السموات والأرض﴾. ثم قارع ظنه بظنه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، كأنّه قال: إن ظننتني ﴿مسحوراً﴾ فأنا أظنّك ﴿مثبوراً﴾ هالكاً. وظنّي أصح من ظنّك؛ لأنّ له أمارة ظاهرة، وهي إنكارك ما عرفت صحّته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

وأمّا ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحّة أمري: إنّي لأظنك مسحوراً قول كذب. وقال الفراء ﴿مثبوراً﴾: مصروفاً عن الخير، من قولهم: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك وصرفك.

١٠٣ ـ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يخرجهم، أي: موسى وقومه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو: ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فحاق به مكره بأن استفزّه الله بإغراقه مع قبطه.

١٠٤ ـ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزّكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً، مختلطين إيّاكم وإيّاهم، ثمّ نحكم بينكم، ونميّز بين سعدائكم وأشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

١٠٥ ـ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ وما أنزلنا القرآن إلاّ بالحكمة، وما نزل إلاّ ملتبساً بالحقّ والحكمة، لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو: ما أنزلناه من السماء إلاّ بالحقّ، محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلاّ محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. قال الراوي: اشتكى محمد بن السّماك، فأخذنا ماءه، وذهبنا به إلى طبيب نصرانيّ، فاستقبلنا رجل حسن الوجه، طيّب الرائحة، نقيّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السّماك، فقال: سبحان الله! تستعينون على وليّ الله بعدوّ الله، اضربوه على الأرض، وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له: ضع يديك على موضع الوجع، وقل: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل﴾، ثمّ غاب عنّا، فلم نره. فرجعنا إلى ابن السماك، فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت. وقال: كان ذلك الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ
إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

١٠٦ ـ ﴿وَقُرْءَانًا﴾ منصوب بفعل يفسره: ﴿فَرَقْنَـٰهُ﴾ أي: فصلناه، أو: فرقنا فيه الحق من الباطل ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تؤدة، وتثبت ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

١٠٧ ـ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم، أو: العذاب الأليم. ثم علل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: التوراة من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ حال.

١٠٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أي: أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به، ولم يصدّقوا بالقرآن، فإنّ خيراً منهم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب قد آمنوا به، وصدّقوه، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً، وسبّحوا الله تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزّلة، وبشّر به من بعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد المذكور ﴿إنْ﴾ بمعنى: إنه، وهي تؤكّد الفعل، كما أنّ إنّ تؤكّد الاسم، وكما أكّدت ﴿إنّ﴾ باللام في ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] أكدت (إنْ) باللام في ﴿لمفعولاً﴾.

١٠٩ ـ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ معنى الخرور للذّقن: السقوط على الوجه. وإنّما خصّ الذقن لأنّ أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن. يقال: خرّ على وجهه، وعلى ذقنه، وخرّ لوجهه، ولذقنه. أمّا معنى «على» فظاهر، وأمّا معنى اللام فكأنّه جعل ذقنه ووجهه للخرور، واختصّه به؛ إذ اللام للاختصاص. وكرّر ﴿يخرّون للأذقان﴾ لاختلاف الحالين، وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا ۩﴾ لين قلب، ورطوبة عين.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ

١١٠ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ لمّا سمعه أبو جهل يقول: يا الله! يا رحمن! قال: إنّه نهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر! فنزلت. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقلّ ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت. والدعاء بمعنى التسمية، لا بمعنى النداء. و﴿أو﴾ للتخيير، أي: سموا بهذا الاسم، أو: بهذا، أو: اذكروا إمّا هذا، وإمّا هذا. والتنوين في: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ عوض من المضاف إليه. و﴿ما﴾ زيدت للتوكيد. و﴿أيّاً﴾ نصب بتدعوا، وهو مجزوم بأيّ، أي: أيّ هذين الاسمين ذكرتم، وسمّيتم ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الضمير في ﴿فله﴾ يرجع إلى ذات الله تعالى. والفاء لأنّه جواب الشرط، أي: أيّاماً تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ لأنّه إذا حسنت أسماؤه كلّها؛ حسن هذان الاسمان لأنّهما منها. ومعنى كونها أحسن الأسماء أنّها مستقلّة بمعاني التمجيد، والتقديس، والتعظيم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك، على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، إذ الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير. والصلاة أفعال وأذكار. وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا، وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته. والمعنى: ﴿ولا تجهر﴾ حتّى تسمع المشركين ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً. أو: معناه ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ كلّها ﴿ولا تخافت بها﴾ كلّها ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار. أو: ﴿بصلاتك﴾: بدعائك.

١١١ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود، والنصارى، وبنو مليح ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يذلّ، فيحتاج إلى ناصر، أو لم يوال أحداً من أجل مذلّة به؛ ليدفعها بموالاته

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ وعظّمه، وصفه بأنّه أكبر من أن يكون له ولد، أو شريك. وسمّى النبي ﷺ الآية آية العزّ. وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علّمه هذه الآية[1].

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق. (حاشية الكشاف ٢/ ٧٠١).

سُورَةُ الكَهْفِ

ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، لقّن الله عباده، وفقههم كيف يثنون عليه، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم، وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: شيئاً من العِوج. والعِوج في المعاني كالعَوج في الأعيان. يقال: في رأيه عِوَج، وفي عصاه عَوَج. والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة.

٢ ـ ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً. وانتصابه بمضمر، وتقديره: جعله ﴿قيّماً﴾ لأنّه إذا نفى عنه العوج، فقد أثبت له الاستقامة. وفائدة الجمع بين نفي العوج، وإثبات الاستقامة ـ وفي أحدهما غِنى عن الآخر ـ التأكيد. فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفّح. أو ﴿قيماً﴾ على سائر الكتب، مصدّقاً لها، شاهداً بصحّتها ﴿لِّيُنذِرَ﴾ «أنذر» متعدّ إلى مفعولين، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]. فاقتصر على أحدهما وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بَأْسًا﴾ عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾. وإنما اقتصر على أحد مفعولي أنذر؛ لأن المنذر به هو المسوق إليه، فاقتصر عليه ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأنّ لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: الجنّة ﴿ويَبْشُر﴾: حمزة، وعليّ.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾

---

٣ ـ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حال من هُمْ في ﴿لهم﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الأجر، وهو: الجنّة ﴿أَبَدًا﴾.

٤ ـ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ذكر المنذرين دون المنذر به، بعكس الأوّل، استغناء بتقديم ذكره.

٥ ـ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو: باتخاذه. يعني: أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم، ولكن عن جهل مفرط. فإن قلت: اتخاذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلت: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس ممّا يعلم لاستحالته. وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، أو: لأنّه في نفسه محال ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ المقلّدين ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز. وفيه معنى التعجّب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة! والضمير في ﴿كبرت﴾ يرجع إلى قولهم: ﴿اتخذ الله ولداً﴾. وسمّيت كلمة كما يسمّون القصيدة بها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظاماً؛ لاجترائهم على النطق بها، وإخراجها من أفواههم، فإنّ كثيراً ممّا يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات، لا يتمالكون أن يتفوهوا به، بل يكظمون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر؟! ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ما يقولون ذلك ﴿إلاّ كذباً﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: قولاً كذباً.

٦ ـ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: آثار الكفّار. شبهه وإيّاهم حين تولّوا عنه، ولم يؤمنوا به، وما تداخله من الأسف على تولّيهم برجل فارقه أحبّته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهّفاً على فراقهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بالقرآن ﴿أَسَفًا﴾ مفعول له، أي: لفرط الحزن. والأسف: المبالغة في الحزن، والغضب.

٧ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي: ما يصلح أن يكون زينة لها

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

ولأهلها، من زخارف الدنيا، وما يُستحسن منها. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وحسن العمل: الزهد فيها، وترك الاغترار بها.

٨ ـ ثمّ زهّد في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أرضاً ملساء ﴿جُرُزًا﴾ يابساً، لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة. والمعنى: نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، وغير ذلك.

٩ ـ ولمّا ذكر من الآيات الكلّيّة تزيين الأرض، بما خلق فوقها من الأجناس؛ التي لا حصر لها، وإزالة ذلك كلّه، كأن لم يكن، قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ يعني: أنّ ذلك أعظم من قصّة أصحاب الكهف، وإبقاء حياتهم مدّة طويلة. والكهف: الغار الواسع في الجبل. والرقيم: اسم كلبهم، أو: قريتهم. أو: اسم كتاب كتب في شأنهم. أو: اسم الجبل الذي فيه الكهف ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجباً﴾ من آياتنا، وصفاً بالمصدر، أو: على ذات عجب.

١٠ ـ ﴿إِذْ﴾ أي: اذكر ﴿إذ﴾ ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: الذي نحن عليه من مفارقة الكفّار ﴿رَشَدًا﴾ حتّى نكون بسببه راشدين، مهتدين. أو: اجعل أمرنا ﴿رشداً﴾ كلّه، كقولك: رأيت منك أسداً. أو: يسر لنا طريق رضاك.

١١ ـ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة، لا تنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول الذي هو الحجاب ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذوات عدد، فهو صفة لسنين. قال الزجاج: أي: تعدّ عدداً لكثرتها؛ لأنّ القليل يعلم مقداره من غير عدد، فإذا كثر عدّ. فأمّا

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ۝١٢ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ﴾

﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: ٢٠] فهي على القلّة؛ لأنّهم كانوا يعدّون القليل، ويزنون الكثير.

١٢ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أيقظناهم من النوم ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾ المختلفين منهم في مدّة لبثهم؛ لأنّهم لمّا انتبهوا اختلفوا في ذلك، وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم﴾. وكان الذين قالوا: ﴿ربّكم أعلم بما لبثتم﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو: ﴿أيّ الحزبين﴾ المختلفين من غيرهم ﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ غاية. و﴿أحصى﴾ فعل ماض. و﴿أمداً﴾ ظرف لـ﴿أحصى﴾، أو: مفعول له. والفعل الماضي خبر المبتدأ، وهو: ﴿أيّ﴾. والمبتدأ مع خبره سدّ مسدّ مفعولي ﴿نعلم﴾. والمعنى: أيّهم ضبط ﴿أمداً﴾ لأوقات لبثهم، وأحاط علماً بأمد لبثهم. ومن قال: أحصى: أفعل، من الإحصاء، وهو: العدّ، فقد زلّ؛ لأن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس. وإنّما قال: ﴿لنعلم﴾ مع أنّه تعالى لم يزل عالماً بذلك؛ لأنّ المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً، وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بيّنة لكفّاره. أو: المراد: ﴿لنعلم﴾ اختلافهما موجوداً، كما علمناه قبل وجوده.

١٣ ـ ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ جمع: فتى. والفتوة: بذل الندى، وكفّ الأذى، وترك الشكوى، واجتناب المحارم، واستعمال المكارم. وقيل: الفتى: من لا يدّعي قبل الفعل، ولا يزكّي نفسه بعد الفعل ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ يقيناً. وكانوا من خواصّ دقيانوس، قد قذف اللهُ في قلوبهم الإيمانَ، وخاف بعضهم بعضاً، وقالوا: ليخل اثنان اثنان منّا، فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه، ففعلوا، فحصل اتفاقهم على الإيمان.

١٤ ـ ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ وقوّيناها بالصبر على هجران الأوطان، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحقّ، والتظاهر بالإسلام ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ بين يدي الجبّار، وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين

فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ

عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفتخرين ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا﴾. ولئن سمّيناهم آلهة ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط، وهو: الإفراط في الظلم، والإبعاد فيه، من: شطّ يَشُطّ ويشِطّ: إذا بعد.

١٥ ـ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبر. وهو إخبار في معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ هلاّ ﴿يأتون﴾ على عبادتهم. فحذف المضاف ﴿بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجّة ظاهرة، وهو تبكيت؛ لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

١٦ ـ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب من بعضهم لبعض، حين صمّمت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ نصب عطف على الضمير، أي: ﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ واعتزلتم معبوديهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء متّصل؛ لأنهم كانوا يقرّون بالخالق، ويشركون معه غيره، كأهل مكّة. أو: منقطع، أي: وإذ عزلتم الكفّار والأصنام التي يعبدونها من دون الله. أو: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية، أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ صيروا إليه. أو: اجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من رزقه. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ﴿مَرْفِقاً﴾: مدنيّ، وشاميّ. وهو: ما يرتفق به، أي: ينتفع. وإنّما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، وقوّة في رجائهم؛ لتوكّلهم عليه، ونصوع يقينهم. أو: أخبرهم به نبيّ في عصرهم.

١٧ ـ ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ بتخفيف الزاي: كوفيّ ﴿تزوَرُّ﴾ شاميّ، ﴿تزّاور﴾: غيرهم. وأصله: تتزاور، فخفّف بإدغام التاء في الزاي، أو: حذفها. والكلّ من الزَّوَر، وهو: الميل. ومنه: زاره: إذا مال إليه.

﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾

والزُّور: الميل عن الصدق ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي: تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين. وحقيقتها: الجهة المسمّاة باليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم، أي: تتركهم، وتعدل عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ في متّسع من الكهف. والمعنى: أنّهم في ظلّ نهارهم كلّه لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنّهم في مكان واسع، منفتح، معرّض لإصابة الشمس، لولا أنّ الله يحجبها عنهم. وقيل: منفسح من غارهم، ينالهم فيه رَوح الهواء، وبرد النسيم، ولا يحسّون كرب الغار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس، وقرضها طالعة وغاربة آية ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس، ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شماليّ، مستقبل لبنات نعش، فهم في مُقْناة[1] أبداً. ومعنى ﴿ذلك من آيات الله﴾: أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ مثل ما مرّ في ﴿سبحان﴾[2] وهو ثناء عليهم بأنّهم جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم، فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنيّة ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: من أضلّه فلا هادي له.

١٨ ـ ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾[3] بفتح السين: شاميّ، وحمزة، وعاصم، غير الأعشى. وهو خطاب لكلّ أحد ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع: يقظ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. قيل: عيونهم مفتّحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك ﴿أيقاظاً﴾. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قيل: لهم تقلّبتان في السنة. وقيل: تقلّبة واحدة في يوم عاشوراء

(١) «المقناة»: الذي لا تطلع عليه الشمس، وهو نقيض: المضحاة..
(٢) أي: في سورة: الإسراء آية (٩٧).
(٣) في الأصل المخطوط ﴿تَحْسِبُهُمْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٥٣).

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضيّ ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ بالفناء، أو: بالعتبة ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ لأعرضت عنهم، وهربت منهم ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأنّ معنى ﴿ولّيت منهم﴾: فررت منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وبتشديد اللّام: حجازيّ، للمبالغة ﴿رُعْبًا﴾ تمييز. وبضم العين: شاميّ، وعليّ. وهو الخوف الذي يرعب الصدر، أي: يملؤه. وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، أو: لطول أظفارهم وشعورهم، وعظم أجرامهم. وعن معاوية: أنّه غزا الروم، فمرّ بالكهف، فقال: أريد أن أدخل، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لقد قيل لمن هو خير منك ﴿لولّيت منهم فراراً﴾، فدخلت جماعة بأمره، فأحرقتهم ريح.

١٩ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وكما أنمناهم تلك النومة، كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً، ويتعرّفوا حالهم، وما صنع الله بهم فيعتبروا، ويستدلّوا على عظم قدرة الله، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ رئيسهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم مدّة لبثكم ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ جواب مبنيّ على غالب الظن، وفيه دليلٌ على جواز الاجتهاد والقول بالظنّ الغالب ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ بمدّة لبثكم. إنكار عليهم من بعضهم، كأنّهم قد علموا بالأدلّة، أو بإلهام أن المدّة متطاولة، وأنّ مقدارها لا يعلمه إلاّ الله. ورُوي: أنّهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباهُهم بعد الزوال، فظنّوا أنّهم في يومهم، فلمّا نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. وقد استدلّ ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ على أنّ الصحيح: أن عددهم سبعة، لأنّه قد قال في الآية: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ وهذا واحد. وقالوا في جوابه: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، وهو جمع، وأقلّه ثلاثة، ثمّ قال: ﴿ربّكم أعلم بما لبثتم﴾ وهذا

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

قول جمع آخرين، فصاروا سبعة ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ كأنهم قالوا: ربّكم أعلم بذلك، لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهمّكم ﴿فابعثوا أحدكم﴾ أي: يمليخا. ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ هي الفضّة مضروبة كانت، أو غير مضروبة. وبسكون الراء: أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي طرسوس. وحملهم الورق عند فرارهم دليلٌ على أنّ حمل النفقة، وما يصلح للمسافر، هو رأي المتوكّلين على الله دون المتكلين على الاتّفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات. وعن بعض العلماء: أنّه كان شديد الحنين إلى بيت الله، ويقول: ما لهذا السفر إلا شيئان: شدّ الهمْيان، والتوكل على الرحمن ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيّ أهلها، فحذف، كما في: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. و﴿أيّ﴾ مبتدأ، خبره ﴿أزكى﴾ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أحلّ، وأطيب، أو: أكثر، وأرخص. ﴿طَعَامًا﴾ تمييز ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلّف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتّى لا يغبن، أو: في أمر التخفّي حتّى لا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلنّ ما يؤدّي إلى الشعور بنا من غير قصد منه، فسمّى ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنّه سبب فيه.

٢٠ ـ والضمير في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأهل المقدّر في ﴿أيّها﴾ ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يطّلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ بالإكراه. والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ «إذاً» يدلّ على الشرط، أي: ﴿ولن تفلحوا﴾ إن دخلتم في دينهم ﴿أبداً﴾.

٢١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم ـ لما في ذلك من الحكمة ـ أطلعنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن؛ لأنّ حالهم في نومهم وانتباههم بعدها

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

كحال من يموت ثمّ يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فإنّهم يستدلّون بأمرهم على صحة البعث ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ متعلق بأعثرنا، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث ـ فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح ـ ليرتفع الخلاف، وليتبيّن: أنّ الأجساد تبعث حيّة حسّاسة فيها أرواحها، كما كانت قبل الموت ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين توفّى الله أصحاب الكهف ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرّق إليهم الناس، ضنّاً بتربتهم، ومحافظة عليها، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنّهم تذاكروا أمرهم، وتناقلوا الكلام في أنسابهم، وأحوالهم، ومدّة لبثهم. فلمّا لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ﴿ربهّم أعلم بهم﴾. أو: من كلام الله عزّ وجلّ ردّاً لقول الخائضين في حديثهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكهم، وكانوا أولى بهم، وبالبناء عليهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ على باب الكهف ﴿مَّسْجِدًا﴾ يصلّي فيه المسلمون، ويتبرّكون بمكانهم.

رُوي: أنّ أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم حتّى عبدوا الأصنام، وأكرهوا على عبادتها. وممن شدّد في ذلك دقيانوس، فأراد فتيةً من أشراف قومه على الشرك، وتوعّدهم بالقتل، فأبوا إلاّ الثبات على الإيمان، والتصلّب فيه، ثمّ هربوا إلى الكهف، ومرّوا بكلب، فتبعهم، فطردوه، فأنطقه الله تعالى فقال: ما تريدون منّي؟ إنّي أحبّ أحبّاء الله، فناموا، وأنا أحرسكم. وقيل: مروا براعٍ معه كلب، فتبعهم على دينهم، ودخلوا الكهف، فضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله مَلَك مدينتَهم رجلٌ صالح، مؤمن. وقد اختلف أهلُ مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته، وأغلق بابه، ولبس مِسْحاً، وجلس على رماد، وسأل ربّه أن يبيّن لهم الحقّ، فألقى اللهُ في نفس رجلٍ من رعيانهم، فهدم ما سدّ به فم الكهف؛ ليتّخذه حظيرة لغنمه. ولمّا دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام، وأخرج الوَرِقَ، وكان من ضرب

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

دقيانوس، اتّهموه بأنّه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصّ عليه القصّة، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة معه، وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث. ثمّ قالت الفتية للملك: نستودعك الله، ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم، وتوفّى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكلّ واحد تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج[1]، وبنى على باب الكهف ﴿مسجداً﴾.

٢٢ ـ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في ﴿سيقولون﴾ لمن خاض في قصّتهم في زمن رسول الله ﷺ من المؤمنين وأهل الكتاب. سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخّر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم. ويُروى أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبيّ ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيّد ـ وكان يعقوبيّاً ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب ـ وكان نسطوريّاً ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. فحقّق اللهُ قولَ المسلمين. وإنّما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ وبما ذكرنا من قبل. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: هم سبعة نفر، أسماؤهم: يمليخا، ومكشلينا، ومشلينيا، هؤلاء أصحاب يمين الملك. وكان على يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش. وكان يستشير هؤلاء الستّة في أمره. والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير. وسين الاستقبال وإن دخل في الأوّل دون الآخرين، فهما داخلان في حكم السين، كقولك: قد أكرم وأنعم، تريد: معنى التوقّع في الفعلين جميعاً. أو: أريد بيفعل

(١) «الساج»: شجر عظيم صلب الخشب أسوده، يعظم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق كبير.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾

معنى الاستقبال الذي هو صالح له ﴿ثلاثة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة. وكذلك خمسة وسبعة. و﴿رابعهم كلبهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، واقعة صفة لثلاثة. وكذلك ﴿سادسهم كلبهم﴾ و﴿ثامنهم كلبهم﴾ ﴿رجماً بالغيب﴾ رمياً بالخبر الخفيّ، وإتياناً به، كقوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: ٥٣] أي: يأتون به. أو: وضع الرجم موضع الظنّ، فكأنّه قيل: ظنّاً بالغيب؛ لأنّهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظنّ، مكان قولهم: ظنّ، حتّى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين. والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف. وفائدتها: توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتّصافه بها أمر ثابت مستقر. وهذه الواو التي آذنت بأنّ الذين قالوا: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قالوه عن ثبات علم، ولم يرجموا بالظنّ كما رجم غيرهم. دليلُه: أنّ الله تعالى أتبع القولين الأوّلين قوله: ﴿رجماً بالغيب﴾، وأتبع القول الثالث قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: ﴿قل ربّي أعلم بعدّتهم﴾ وقد أخبركم بها بقوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنا من ذلك القليل.

وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب خاصّة. أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلّا في قليل منهم، وأكثرهم على ظنّ، وتخمين ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ إلا جدالاً ظاهراً، غير متعمّق فيه، وهو: أن تقصّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد من غير تجهيل لهم. أو: بمشهد من الناس ليظهر صدقك ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصّتهم سؤال متعنّت له، حتّى يقول شيئاً، فتردّه عليه، وتزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد؛ لأنّ الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصّتهم.

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ لأجل شيء تعزم عليه: ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ الشيء

غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿غَدًا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصّة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تقوله بأن يأذن لك فيه، أو: ولا تقولنّه إلاّ بأن يشاء الله، أي: إلاّ بمشيئته، وهو في موضع الحال، أي: إلاّ ملتبساً بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله. وقال الزجّاج: معناه: ﴿ولا تقولن﴾: إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى؛ لأن قول القائل: أنا أفعل ذلك إن شاء الله، معناه: لا أفعله إلا بمشيئة الله. وهذا نهي تأديب من الله لنبيّه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين. فسألوه، فقال[1]: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يستثن. فأبطأ عليه الوحي حتّى شقّ عليه.

٢٤ ـ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ مشيئة ربّك، وقل: إن شاء الله؛ إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى: ﴿إذا نسيت﴾ كلمة الاستثناء، ثمّ تنبّهت عليها، فتداركها بالذكر. عن الحسن: ما دام في مجلس الذكر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولو بعد سنة. وهذا محمولٌ على تدارك التبرّك بالاستثناء، فأمّا الاستثناء المغيّر حكماً فلا يصح إلاّ متّصلاً. وحكى: أنّه بلغ المنصور أنّ أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ خالف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا، فيخرجوا عليك؟. فاستحسن كلامه، وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده. أو معناه: ﴿واذكر ربّك﴾ بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها. أو: صلّ صلاة نسيتها إذا ذكرتها. أو: إذا نسيت فاذكره ليذكرك المنسيّ. ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا﴾ يعني: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربّك. وذكر ربّك عند نسيانه أن تقول: ﴿عسى ربّي أن يهديني﴾ لشيء آخر بدل هذا المنسيّ، أقرب منه رشداً، وأدنى خيراً ومنفعة ﴿أن يهدين﴾ ﴿إن ترن﴾ ﴿أن يؤتين﴾ ﴿أن تُعلّمن﴾: مكيّ في الحالين. ووافقه أبو عمرو، ومدنيّ في الوصل.

(١) رواه ابن المنذر عن مجاهد (الدر المنثور ٥/ ٣٧٧).

وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٥ ـ ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ يريد لبثهم فيه أحياء، مضروباً على آذانهم هذه المدّة. وهو بيانٌ لما أجمل في قوله: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ و﴿سنين﴾ عطف بيان لثلاثمئة ﴿ثلاثمئة سنين﴾ بالإضافة: حمزة، وعليّ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣] ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين لدلالة ما قبله عليه. و﴿تسعاً﴾ مفعول به؛ لأنّ زاد تقتضي مفعولين، فازداد يقتضي مفعولاً واحداً.

٢٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم، والحقّ ما أخبرك به. أو: هو حكاية لكلام أهل الكتاب، و﴿قل الله أعلم﴾ ردّ عليهم. والجمهور على أنّ هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدّة ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السموات والأرض، وخفي فيها من أحوال أهلها ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: وأسمع به. والمعنى: ما أبصره بكلّ موجود، وما أسمعه لكلّ مسموع ﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ من متولّ لأمورهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه ﴿أَحَدًا﴾ منهم ﴿ولا تشرك﴾ على النهي: شاميّ.

٢٧ ـ كانوا يقولون له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فقيل له: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فإنّه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على تبديلها، أو تغييرها، إنّما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

٢٨ ـ ولمّا قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحّ هؤلاء الموالي ـ وهم صهيب، وعمّار، وخبّاب، وسلمان، وغيرهم من فقراء المسلمين ـ

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ

نجالسك نزل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ واحبسها معهم، وثبّتها ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ دائبين على الدعاء في كلّ وقت. أو: ﴿بالغداة﴾ لطلب التوفيق، والتيسير، ﴿والعشيّ﴾ لطلب عفو التقصير. أو: هما: صلاة الفجر والعصر ﴿بالغُدوة﴾: شاميّ. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ رضا الله ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجاوز. عداه إذا جاوزه. وعدّي بعن لتضمّن عدا معنى نبا، في قولك: نبت عنه عينه. وفائدة التضمين: إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع الحال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر، وهو دليلٌ لنا على أنّه تعالى خالق أفعال العباد ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ مجاوزاً عن الحقّ.

٢٩ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الإسلام، أو: القرآن. و﴿الحقّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: جاء الحق، وزاحت العلل، فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير، لأنّه لمّا مكّن من اختيار أيّهما شاء، فكأنّه مخيَّر، مأمور بأن يتخيَّر ما شاء من النّجدين. ثمّ ذكر جزاء من اختار الكفر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين. فقيّد بالسياق ـ كما تركت حقيقة الأمر والتخيير بالسياق ـ وهو قوله: ﴿إنّا أعتدنا للظالمين﴾ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ شبّه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهي: الحجرة التي تكون حول الفسطاط. أو: هو دخان يحيط بالكفّار قبل دخولهم النار، أو: هو حائط من نار يطيفُ بهم ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ هو دُرْدِيّ الزيت، أو: ما أذيب من جواهر الأرض. وفيه تهكّم بهم ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قدّم ليشرب انشوى الوجه من حرارته ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾

وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ

ذلك ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ، من: الرفق. وهذه لمشاكلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

٣٠، ٣١ ـ وبيّن جزاء من اختار الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم. ولك أن تجعل: ﴿إنّا لا نضيع﴾ و﴿أولئك﴾ خبرين معاً. والمراد: من أحسن منهم عملاً، كقولك: السمن مَنَوان[1] بدرهم. أو: لأنّ ﴿من أحسن عملاً﴾ و﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ينتظمهما معنى واحد، فأقام ﴿من أحسن﴾ مقام الضمير ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من» للابتداء. وتنكير «أساور» ـ وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار ـ لإبهام أمرها في الحسن ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ «من» للتبيين ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه، أي: يجمعون بين النوعين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خصّ الاتّكاء؛ لأنه هيئة المتنعِّمين، والملوك على أسرّتهم. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنّة ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنّة، والأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأً.

٣٢ ـ ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ ومثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين ـ وكانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه: قطَروس، والآخر مسلم اسمه: يهوذا ـ وقيل: هما المذكوران في ﴿والصافّات﴾ في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فجعلاها شطرين، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار، فقال المؤمن: اللّهم إنّ أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنّة بألف، فتصدق به. ثمّ بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللّهم إنّي أشتري منك داراً في الجنّة بألف، فتصدّق

---

(١) «مَنَوان»: مثنى مَنَا، هو: كَيْل يُكال به السمن وغيره. أو: ميزان يُوزَن به.

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

به. ثمّ تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللّهم إنّي جعلت ألفاً صداقاً للحور. ثمّ اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللّهم إنّي اشتريتُ منك الولدان المخلّدين بألف، فتصدّق به. ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمرّ به في حشمه، فتعرّض له، فطرده، ووبّخه على التصدّق بماله ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ بستانين من كروم ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنّتين. وهذا ممّا يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزّرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفّوه؛ إذا أطافوا به، وحففته بهم، أي: جعلتهم حافّين حوله. وهو متعدّ إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنّها متواصلة متشابكة، لم يتوسّطها ما يقطعها مع الشكل الحسن، والترتيب الأنيق.

٣٣ ـ ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ﴾ أعطت. حمل على اللفظ، لأنّ لفظ كلتا مفرد. ولو قيل: «آتتا» على المعنى لجاز ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ نعتهما بوفاء الثمار، وتمام الأكل من غير نقص، ثمّ بما هو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب، فجعله أفضل ما يسقى به، وهو النهر الجاري فيها.

٣٤ ـ ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال. من: ثمّر ماله: إذا كثّره، أي: كانت له إلى الجنّتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب، والفضة، وغيرهما ﴿له ثَمَر﴾ ﴿وأحيط بثَمَره﴾ بفتح الميم والثاء: عاصم، وبضم الثاء، وسكون الميم: أبو عمرو، وبضمّهما: غيرهما ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يراجعه الكلام، من حار يحور: إذا رجع، يعني: قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنّتين ويريه ما فيهما، ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أنصاراً وحشماً، أو: أولاداً ذكوراً؛ لأنّهم ينفرون معه دون الإناث.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ

---

٣٥ ـ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ إحدى جنّتيه، أو: سمّاهما جنّة لاتّحاد الحائط، وجنّتين: للنهر الجاري بينهما ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارّ لها بالكفر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: أن تهلك هذه الجنة. شكّ في بيدودة جنّته لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك.

٣٦ ـ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ إقسام منه على أنّه إن ردّ إلى ربّه على سبيل الفرض، كما يزعم صاحبه، ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنّته في الدنيا، ادّعاء لكرامته عليه، ومكانته عنده ﴿منقلباً﴾ تمييز، أي: مرجعاً، وعاقبة.

٣٧ ـ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك؛ لأنّ خلق أصله سبب في خلقه، وكان خلقه خلقاً له ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: خلقك من نطفة ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ عدلك، وكمّلك إنساناً، ذكراً، بالغاً مبلغ الرجال. جعله كافراً بالله لشكّه في البعث.

٣٨ ـ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ بالألف في الوصل: شاميّ. الباقون: بغير ألف. وبالألف في الوقف اتّفاق. وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة، وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان، فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ «هو» ضمير الشأن. والشأن الله ربي. والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه ياء الضمير، وهو استدراك لقوله: ﴿أكفرت﴾. قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكنّي مؤمن موحّد، كما تقول: زيد غائب لكنّ عمراً حاضر. وفيه حذف، أي: أقول: هو الله بدليل عطف ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

٣٩ ـ ﴿وَلَوْلَآ﴾ وهلاّ ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿ما﴾ موصولة مرفوعة المحلّ على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ﴿ما شاء الله﴾. أو: شرطيّة

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

منصوبة الموضع، والجزاء محذوف، يعني: أي شيء شاء الله كان. والمعنى: هلاّ قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ﴿ما شاء الله﴾ اعترافاً بأنّها وكلّ ما فيها إنما حصل بمشيئة الله، وأنّ أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خرّبها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأنّ ما قويت به على عمارتها، وتدبير أمرها هو بمعونته، وتأييده من قرأ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا﴾ بنصب ﴿أقلّ﴾ فقد جعل ﴿أنا﴾ فصلاً. ومَن رفَع ـ وهو الكسائي ـ جعله مبتدأ و﴿أقلّ﴾ خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لـ«ترني» ﴿وَوَلَدًا﴾ فيه نصرة لمن فسّر النفر بالأولاد في قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

٤٠ ـ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا، أو: في العقبى. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً بيضاء، يزلق عليها لملاستها.

٤١ ـ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ غائراً، أي: ذاهباً في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ فلا يتأتّى منك طلبه، فضلاً عن الوجود. والمعنى: إن ترن أفقر منك، فأنا أتوقّع من صنع الله أن يقلب ما بي، وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنّة خيراً من جنّتك، ويسلبك لكفرك نعمته، ويخرّب بساتينك.

٤٢ ـ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ هو عبارة عن إهلاكه. وأصله: من: أحاط به العدوّ؛ لأنّه إذا أحاط به فقد ملكه، واستولى عليه. ثمّ استعمل في كلّ إهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يضرب إحداهما على الأخرى ندماً، وتحسّراً. وإنّما تقليب الكفّين كناية عن الندم والتحسّر؛ لأنّ النادم يقلّب كفيّه ظهراً لبطن، كما كُنِيَ عن ذلك بعضّ الكفّ، والسقوط في اليد. ولأنّه في معنى الندم عدّي تعديته بعلى، كأنّه قيل: فأصبح يندمُ ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

الأرض، وسقطت فوقها الكروم ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ تذكّر موعظة أخيه، فعلم أنه أُتي من جهة كفره وطغيانه، فتمنّى لو لم يكن مشركاً حتّى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمنّي. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان.

٤٣ ـ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصرته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو وحده القادر على نصرته، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلاّ أنّه لم ينصره لحكمة ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوّته عن انتقام الله.

٤٤ ـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿يكن﴾ بالياء، و﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو: حمزة، وعليّ. فهي بالفتح: النصرة، والتولّي، وبالكسر: السلطان، والملك. والمعنى ﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام، وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه. تقريراً لقوله: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾. أو: ﴿هنالك﴾ السلطان والملك ﴿لله﴾ لا يغلب. أو: في مثل تلك الحال الشديدة يتولّى الله، ويؤمن به كلُّ مضطر. يعني: أنّ قوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً﴾ كلمة ألجىء إليها، فقالها جزعاً ممّا دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. أو: ﴿هنالك الولاية لله﴾ ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة، وينتقم لهم. يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: ﴿فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنّتك، ويرسل عليها حسباناً من السماء﴾ ويؤيّده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه. أو: ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة، أي: في تلك الدار ﴿الولاية لله﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿الحقّ﴾ بالرفع: أبو عمرو، وعليّ، صفة للولاية. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي الحقّ، أو: هو الحقّ. غيرهما بالجرّ، صفة لله ﴿عقباً﴾ بسكون القاف: عاصم، وحمزة. وبضمّها: غيرهما، وفي الشواذ ﴿عقبى﴾ على وزن فعلى. وكلّها بمعنى العاقبة.

٤٥ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هي كماء أنزلناه

فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ

من السماء ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فالتفّ بسببه، وتكاثف، حتّى خالط بعضه بعضاً. أو: أثّر في النبات الماء، فاختلط به، حتّى روي ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ يابساً، مُتكسّراً. الواحدة: هشيمة ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تنسفه، وتطيّره ﴿الريح﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الإنشاء، والإفناء ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ قادراً. شبّه حال الدنيا في نضرتها، وبهجتها، وما يتعقّبها من الهلاك والإفناء، بحال النبات يكون أخضر، ثمّ يهيج، فتطيّره الريح كأن لم يكن.

٤٦ ـ ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا زاد القبر، وعدّة العقبى ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ جزاء ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ لأنّه وعد صادق، وأكثر الآمال كاذبة، يعني: أنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

٤٧ ـ ﴿وَيَوۡمَ﴾ واذكر يوم ﴿نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ ﴿تُسيَّر الجبالُ﴾: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، أي: تسير في الجوّ، أو: يذهب بها بأن تجعل هباء منثوراً، منبثاً ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ ليس عليها ما يسترها ممّا كان عليها من الجبال، والأشجار ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الموتى ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: فلم نترك. غادره، أي: تركه، ومنه الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل.

٤٨ ـ ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ مصطفّين، ظاهرين، ترى جماعتهم كما ترى كلّ واحد، لا يحجب أحد أحداً. شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم: ﴿لقد جئتمونا﴾. وهذا المضمر يجوزُ أن يكون عامل النصب في ﴿يوم نسيّر﴾ ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾ أي: لقد بعثناكم كما أنشأناكم أوّل مرّة، أو: جئتمونا عراة لا شيء معكم، كما خلقناكم أوّلاً. وإنّما قال: ﴿وحشرناهم﴾ ماضياً بعد ﴿نسيّر﴾ و﴿ترى﴾ للدلالة على حشرهم

بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

قبل التسيير، وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: ﴿وحشرناهم﴾ قبل ذلك ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور، أو: مكان وعد للمحاسبة.

٤٩ ـ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: صحف الأعمال ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: لا يترك شيئاً من المعاصي ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ حصرها، وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ في الصحف عتيداً. أو: جزاء ﴿ما عملوا﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل، أو: يزيد في عقابه، أو: يعذّبه بغير جرم.

٥٠ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود تحيّة، أو: سجود انقياد ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهو مستأنف، كأنّ قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: ﴿كان من الجنّ﴾ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ خرج عمّا أمره ربّه به من السجود. وهو دليلٌ على أنّه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ الهمزة للإنكار والتعجّب، كأنّه قيل: أعقيب ما وجد منه تتّخذونه وذرّيته ﴿أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ وتستبدلونهم بي؟ ومن ذرّيته: لا قيس: موسوس الصلاة، والأعور: صاحب الزنى، وبتر: صاحب المصائب، ومطوس: صاحب الأراجيف، وداسم: يدخل ويأكل مع من لم يسمّ الله تعالى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعة الله.

٥١ ـ ﴿۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي: إبليس، وذرّيته ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني:

وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

أنّكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وإنّما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلٰهية. فنفى مشاركتهم في الإلٰهيّة بقوله: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ لأعتضد بهم في خلقها، أو: أشاورهم فيه، أي: تفرّدت بخلق الأشياء، فأفردوني في العبادة ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: وما كنت متّخذهم ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً، فوضع المضلّين موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟!

٥٢ ـ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله للكفّار. وبالنون: حمزة ﴿نَادُواْ﴾ ادعوا بصوت عال ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم فيكم شركائي يمنعوكم من عذابي. وأراد الجنّ، وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً، من: وبِقَ يبِق وبوقاً: إذا هلك، أو: مصدر كالموعد، أي: ﴿وجعلنا بينهم﴾ وادياً من أودية جهنّم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد، مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، أو: الملائكة، وعزيراً، وعيسى. والموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً؛ لأنهم في قعر جهنم، وهم في أعلى الجنان.

٥٣ ـ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها، واقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مَصْرِفًا﴾ معدلاً.

٥٤ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ تمييز، أي: أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ـ إن فصّلتها واحداً بعد واحد ـ خصومة، ومماراة بالباطل، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كلّ شيء.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ

---

٥٥ ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: سببه، وهو الكتاب والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿أن﴾ الأولى: نصب، والثانية: رفع. وقبلها مضاف محذوف، تقديره: ﴿وما منع الناسَ﴾ الإيمانَ، والاستغفارَ إلا انتظارُ ﴿أن تأتيهم سنة الأوّلين﴾ وهي الإهلاك، أو: انتظارُ ﴿أن يأتيهم العذاب﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ كوفيّ، أي: أنواعاً، جمع: قبيل. الباقون ﴿قِبَلاً﴾ أي: عياناً.

٥٦ ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يوقف عليه، ويستأنف بقوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هو قولهم للرسل: ﴿ما أنتم إلاّ بشر مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلوا، ويبطلوا بالجدال النبوّة ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ القرآن ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ «ما» موصولة. والراجع من الصلة محذوف، أي: وما أنذروه من العقاب، أو: مصدريّة، أي: وإنذارَهم ﴿هُزُوًا﴾ موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبإبدال الهمزة واواً: حفص. وبضمّ الزاي والهمزة غيرهما.

٥٧ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن؛ ولذلك رجع الضمير إليها مذكّراً في قوله: ﴿أن يفقهوه﴾ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتذكّر حين ذكّر، ولم يتدبّر ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ عاقبة ﴿ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي، غير متفكّر فيها، ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لابُدَّ لهما من جزاء، ثمّ علّل إعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية. جمع كنان، وهو: الغطاء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً عن استماع الحقّ. وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ ﴿من﴾ ومعناه ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد

إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ

﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الإيمان ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ﴿إِذًا﴾ جزاء وجواب. فدلّ على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ـ بمعنى: أنّهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ـ وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً﴾ ﴿أَبَدًا﴾ مدّة التكليف كلّها.

٥٨ ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكّة عاجلاً، مع فرط عداوتهم لرسول الله ﷺ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ منجى، ولا ملجأ. يقال: وأل: إذا نجا، ووأل إليه: إذا لجأ إليه.

٥٩ ـ ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفة؛ لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. والخبر ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾. أو: ﴿تلك القرى﴾ نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: ﴿وتلك﴾ أصحاب ﴿القرى أهلكناهم﴾. والمراد: قوم نوح، وعاد، وثمود ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخّرون عنه، كما ضربنا لأهل مكّة يوم بدر. والمهلك: الإهلاك ووقته. وبفتح الميم وكسر اللام: حفص. وبفتحهما: أبو بكر، أي: لوقت هلاكهم، أو لهلاكهم. والموعد: وقت أو مصدر.

٦٠ ـ ﴿وَإِذْ﴾ واذكر ﴿إذ﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ هو يوشع بن نون. وإنّما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه، ويتبعه، ويأخذ منه العلم ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال. وقد حذف الخبر لدلالة الحال، والكلام عليه. أمّا الأولى: فلأنّها كانت حال سفر. أمّا الثاني: فلأنّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ غاية مضروبة

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾

تستدعي ما هي غاية له. فلا بدّ أن يكون المعنى: ﴿لا أبرح﴾ أسير ﴿حتّى أبلغ مجمع البحرين﴾. وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر ـ عليهما السلام ـ. وهو ملتقى بحر فارس والروم. وسُمِّي خضراً لأنّه أينما يصلّ يخضرّ ما حوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو: أسير زماناً طويلاً، قيل: ثمانون سنة. رُوي أنّه لمّا ظهر موسى ـ عليه السلام ـ على مصر مع بني إسرائيل، واستقرّوا بها بعد هلاك القبط سأل ربّه: أي عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يذكرني، ولا ينساني. قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقّ، ولا يتّبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى، أو: تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك مَن هو أعلم منّي، فدلّني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا ربّ! كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني. فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت، ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة فإذا رجل مُسَجًّى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنّى بأرضنا السلام؟! فعرّفه نفسه. فقال: يا موسى! أنا على علمٍ علّمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنتَ على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا.

٦١ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: نسي أحدهما، وهو يوشع لأنّه كان صاحب الزاد، دليله: ﴿فإنّي نسيت الحوت﴾ وهو كقولهم: نسوا زادهم، وإنّما ينساه متعهّد الزاد. قيل: كان الحوتُ سمكةً مملوحة، فنزلا ليلةً على شاطىء عين الحياة، ونام موسى. فلمّا أصاب السمكة رَوح الماء وبرده عاشت، ووقعت في الماء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: اتخذ طريقاً له من البرّ إلى البحر ﴿سَرَبًا﴾ نصب على المصدر، أي: سرب فيه سرباً، يعني: دخل فيه، واستتر به.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

---

٦٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين، ثمّ نزلا وقد سارا ما شاء الله ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ تعباً، ولم يتعب، ولا جاع قبل ذلك.

٦٣ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ هي موضع الموعد ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ثم اعتذر فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ وبضم الهاء: حفص ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بإلقاء الخواطر في القلب ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الهاء في: ﴿أنسانيه﴾ أي: وما أنساني ذكره ﴿إلاّ الشيطان﴾ ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وهو أنّ أثره بقي إلى حيث سار.

٦٤ ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلب. وبالياء: مكيّ. ووافقه أبو عمرو، وعليّ، ومدنيّ في الوصل. وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعاً لخطّ المصحف. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ﴿ذلك﴾ الذي كنّا نطلب؛ لأنّ ذهاب الحوت كان علماً على لقاء الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه ﴿قَصَصًا﴾ يقصّان ﴿قصصاً﴾ أي: يتبّعان آثارهما اتّباعاً، قال الزجاج: القصص: اتّباع الأثر.

٦٥ ـ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ أي: الخضر راقداً تحت ثوب، أو: جالساً في البحر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي: الوحي والنبوّة، أو: العلم، أو: طول الحياة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: الإخبار بالغيوب. وقيل: العلم اللدنّيّ ما حصل للعبد بطريق الإلهام.

٦٦ ـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد أرشُد به في ديني ﴿رَشَداً﴾ أبو عمرو، وهما لغتان، كالبخَل والبخل. وفيه دليلٌ

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾

على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يتركَ طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

٦٧ ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾[1] وبفتح الياء: حفص. وكذا ما بعده في هذه السورة ﴿صَبْرًا﴾ أي: عن الإنكار، والسؤال.

٦٨ ـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ تمييز. نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وعللّ ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزعَ إذا رأى ذلك، فكيف إذا كان نبيّاً؟!

٦٩ ـ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ من الصابرين عن الإنكار، والاعتراض ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ في محل النصب عطف على ﴿صابراً﴾ أي: ﴿ستجدني. . . . صابراً﴾ وغير عاصٍ. أو: هو عطف على ﴿ستجدني﴾ ولا محل له.

٧٠ ـ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون: مدنيّ، وشاميّ. وبسكون اللام وتخفيف النون: غيرهما. والياء ثابتة فيهما إجماعاً ﴿عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً، وقد علمت أنّه صحيح، إلاّ أنه خفي عليك وجه صحّته، فأنكرت في نفسك، ألا تفاتحني بالسؤال، ولا تراجعني فيه؛ حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من أدب المتعلّم مع العالم، والمتبوع مع التابع.

٧١ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلمّا ركباها قال أهلها: هما من اللصوص. وقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء، فحملوهما بغير نول، فلمّا لجّجوا[2] أخذ الخضر الفأس

(١) في الأصل المخطوط: ﴿مَعِيْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٨٢).
(٢) «لجّجوا»: بلغوا لُجّة البحر، أي: عُرْضه.

قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

فخرق السفينة، بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسدّ الخرق بثيابه. ثم ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾: ﴿ليغرق أهلها﴾ حمزة، وعليّ، من: غرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت شيئاً عظيماً، من: أَمِر الأمر: إذا عظم.

٧٢ـ ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

٧٣ـ فلما رأى موسى أنّ الخرق لا يدخله الماء، ولم يفرّ من السفينة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيته، أو: بشيء نسيته، أو: بنسياني، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، أو أراد بالنسيان الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أوّل مرّة ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ رهقه: إذا غشيه. وأرهقه إيّاه، أي: ولا تُغشني عسراً من أمري، وهو: اتّباعه إيّاه، أي: ولا تعسّر عليّ متابعتك، ويسّرها عليّ بالإغضاء، وترك المناقشة.

٧٤ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: ضرب برأسه الحائط. وقيل: أضجعه، ثمّ ذبحه بالسكين. وإنما قال: ﴿فقتله﴾ بالفاء، وقال: ﴿خرقها﴾ بغير فاء؛ لأنّ خرقها جعل جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ وإنّما خولف بينهما؛ لأنّ خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام ﴿زَكِيَّةً﴾ (زاكية): حجازيّ، وأبو عمرو. وهي الطاهرة من الذنوب، إمّا لأنّها طاهرة عنده؛ لأنّه لم يرها قد أذنبت، أو: لأنّها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل نفساً فيقتصّ منها. وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أنّ نجدة الحروريّ كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل! ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وبضم الكاف حيث كان: مدني، وأبو بكر. وهو المنكر. وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأنّ قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. أو: معناه

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

﴿جئت شيئاً﴾ أنكر من الأوّل؛ لأنّ الخرق يمكن تداركه بالسدّ، ولا يمكن تدارك القتل.

٧٥ ـ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ زاد ﴿لك﴾ هنا؛ لأنّ النكر فيه أكثر.

٧٦ ـ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ بعد هذه الكرة، أو: المسألة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق. و﴿لدني﴾ بتخفيف النون: مدنيّ، وأبو بكر.

٧٧ ـ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ هي: أنطاكية، أو: الأيلة، وهي أبعد أرض الله من السماء! ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ استضافا ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ضيّفه: أنزله، وجعله ضيفه قال ﷺ: «كانوا أهل قرية لئاماً»[١]. وقيل: شر القُرى التي تبخل بالقِرى ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا ﴾ في القرية ﴿ جِدَارًا ﴾ طوله مئة ذراع ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يكاد يسقط. استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهمّ والعزم لذلك ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بيده، أو: مسحه بيده، فقام، واستوى، أو: نقضه، وبناه. كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، وقد لزّتهما[٢] الحاجة إلى آخر كسب المرء، وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً. فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي: لطلبت على عملك جُعْلاً حتّى تستدفع به الضرورة ﴿لتَخِذت﴾ بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال: بصريّ. وبإظهارها: مكيّ. وبتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال: حفص. وبتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال في

(١) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٠٧).
(٢) «لزّتهما»: اضطرتهما، وألجأتهما.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

التاء: غيرهم. والتاء في تخذ أصل، كما في تبع. واتخذ: افتعل منه، كاتّبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

٧٨ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذه إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: ﴿هذا فراقٌ بيني وبينك﴾ وقد قرىء به. فأضيف المصدر إلى الظرف، كما يضاف إلى المفعول به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

٧٩ ـ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أمامهم، أو: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، أعلم الله به الخضر، وهو جلندى ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: ﴿يأخذ كلّ سفينة﴾ صالحة، لا عيب فيها ﴿غصباً﴾، وإن كانت معيبة تركها. وهو مصدر، أو: مفعول له. فإن قلت: قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ مسبّب عن خوف الغصب عليها، فكان حقّه أن يتأخّر عن السبب، قلت: المراد به التأخير، وإنّما قدّم للعناية.

٨٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ وكان اسمه: الحسين ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فخفنا أن يُغْشِيَ الوالدين المؤمنين ﴿طغياناً﴾ عليهما ﴿وكفراً﴾ لنعمتهما بعقوقه، وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شرّاً وبلاء، أو: يُعديهما بدائه، ويُضلّهما بضلاله، فيرتدّا بسببه. وهو من كلام الخضر. وإنّما خشي الخضر منه ذلك، لأنّه تعالى أعلمه بحاله، وأطلعه على سرّ أمره، وإن كان من قول الله تعالى فمعنى: ﴿فخشينا﴾ فعلمنا إن عاش أن يصير سبباً لكفر والديه.

٨١ ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ ﴿يُبَدِّلهما﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ طهارة، ونقاء من الذنوب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً. و﴿زكاة﴾

وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾

و﴿رحماً﴾ تمييز. رُوي أنّه وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ، فولدت نبيّاً، أو: سبعين نبيّاً. أو: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما. ﴿رُحُماً﴾: شاميّ. وهما لغتان.

٨٢ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ﴾ أصرم، وصريم ﴿يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هي: القرية المذكورة ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ أي: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئنّ إليها. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. أو: مال مدفون من ذهب وفضّة، أو: صحف فيها علم. والأوّل أظهر. وعن قتادة: أحلّ الكنز لمن قبلنا، وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة عليهم، وأحلّت لنا ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ قيل: جدّهما السابع ﴿صَٰلِحٗا﴾ ممن يصحبني. وعن الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدّي خير منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: الحلم ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ﴾ مفعول له، أو: مصدر منصوب بـ«أراد ربّك» لأنّه في معنى رحمهما ﴿مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ عن اجتهادي، وإنّما فعلته بأمر الله. والهاء تعود إلى الكلّ، أو: إلى الجدار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأجوبة الثلاثة ﴿تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ حذف التاء تخفيفاً. وقد زلّ أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الوليّ على النبيّ. وهو كفر جليّ حيث قالوا: أمر موسى بالتعلّم من الخضر، وهو وليّ! والجواب: أنّ الخضر نبيّ، وإن لم يكن ـ كما زعم البعض ـ فهذا ابتلاءٌ في حقّ موسى ـ عليه السلام ـ على أنّ أهل الكتاب يقولون: إنّ موسى هذا ليس موسى بن عمران، إنّما هو موسى بن مانان، ومن المحال أن يكون الوليّ وليّاً إلا بإيمانه بالنبيّ، ثمّ يكون النبيّ دون الوليّ! ولا غضاضة في طلب موسى العلم، لأنّ الزيادة في العلم مطلوبة. وإنّما ذكر

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

أوّلاً: ﴿فأردت﴾ لأنه إفساد في الظاهر، وهو فعله، وثالثاً: ﴿فأراد ربّك﴾ لأنّه إنعام محض، وغير مقدور البشر، وثانياً: ﴿فأردنا﴾ لأنّه إفساد من حيث الفعل، إنعام من حيث التبديل. وقال الزجاج: معنى: ﴿فأردنا﴾: فأراد الله عز وجل. ومثله في القرآن كثير.

٨٣ ـ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أي: اليهود على جهة الامتحان، أو: أبو جهل وأشياعه ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين وسليمان، وكافران: نمرود وبختنصر. وكان بعد نمرود. وقيل: كان عبداً صالحاً ملّكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وسخّر له النور والظلمة. فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل: نبيّاً، وقيل: ملَكاً من الملائكة. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: ليس بملك ولا نبيّ، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثمّ بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فَسُمِّي ذا القرنين، وفيكم مثله، أراد نفسه. قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد، فيقتلونه، فيحييه الله تعالى. وقال عليه الصلاة والسلام: «سمِّي ذا القرنين لأنّه طاف قرني الدنيا»[1] يعني: جانبيها؛ شرقها وغربها. وقيل: كان له قرنان، أي: ضفيرتان، أو انقرض في وقته قرنان من الناس، أو: لأنّه ملك الروم وفارس، أو: الترك والروم، أو: كان لتاجه قرنان، أو: على رأسه ما يشبه القرنين، أو: كان كريم الطرفين أباً وأماً. وكان من الروم ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾.

٨٤ ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا له فيها مكانة، واعتلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده من أغراضه، ومقاصده في ملكه ﴿سَبَبًا﴾ طريقاً موصّلاً إليه.

٨٥ ـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ السبب: ما يتوصّل به إلى المقصود من علم، أو: قدرة

(١) قال الحافظ: لم أجده مرفوعاً. (حاشية الكشاف ٢/ ٧٤٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

فأراد بلوغ المغرب ﴿فأتبع سبباً﴾ يوصله إليه حتّى بلغ، وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السدّين فأتبع سبباً. ﴿فأتبع﴾ ﴿ثمّ أتبع﴾: كوفيّ، وشاميّ. الباقون بوصل الألف وتشديد التاء. عن الأصمعي: ﴿أتبع﴾ لحق. و﴿اتّبع﴾ اقتفى، وإن لم يلحق.

٨٦ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى العمارة نحو المغرب، وكذا المطلع. قال ﷺ: «بدءُ أمره أنّه وجد في الكتب: أنّ أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيَخلُد، فجعل يسيرُ في طلبها، والخضر وزيره وابن خالته، فظفر فشرب، ولم يظفر ذو القرنين»[1] ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة، من: حمئت البئر: إذا صارت فيها الحمأة. (حامية): شاميّ، وكوفيّ، غير حفص، بمعنى حارّة. وعن أبي ذرّ: كنتُ رديفَ رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال: «أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّها تغرب في عين حامية»[2]. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند معاوية فقرأ معاوية: ﴿حامية﴾ فقال ابن عباس: ﴿حمئة﴾ فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، فوافق قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ولا تنافي. فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ عراة من الثياب، لباسهم جلود الصيد، وطعامهم ما لفظ البحر. وكانوا كفاراً ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إن كان نبيّاً فقد أوحى الله إليه بهذا، وإلاّ فقد أوحى إلى نبيّ فأمره النبيّ به، أو: كان إلهاماً. خيّر بين أن يعذّبهم بالقتل إن أصرّوا على أمرهم، وبين أن يتّخذ فيهم حسناً بإكرامهم، وتعليم

(١) رواه أبو داود (٤٠٠٢).
(٢) انظر: الدر المنثور (٥/ ٤٤٤ ـ ٤٤٨).

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

الشرائع إن آمنوا أو: التعذيب: القتل، واتخاذ الحسن: الأسر؛ لأنّه بالنظر إلى القتل إحسان.

٨٧ ـ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في القيامة، يعني: أمّا من دعوته إلى الإسلام فأبى إلاّ البقاء على الظلم العظيم، وهو الشرك، فذاك هو المعذّب في الدارين.

٨٨ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فله جزاء الفعلة الحسنى؛ التي هي كلمة الشهادة ﴿جزاءً الحسنى﴾ كوفيّ، غير أبي بكر، أي: فله الفعلة الحسنى جزاء ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: ذا يسر، أي: لا نأمره بالصعب الشاقّ، ولكن بالسهل المتيسّر من الزكاة، والخراج، وغير ذلك.

٨٩ ، ٩٠ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم الزنج ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ من دون الشمس ﴿سِتْرًا﴾ أي: أبنية. عن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. أو: الستر: اللباس. عن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

٩١ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين ﴿كذلك﴾، أي: كما وصفناه، تعظيماً لأمره ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود، والآلات، وأسباب الملك ﴿خُبْرًا﴾ نصب على المصدر؛ لأنّ في ﴿أحطنا﴾ معنى: خبرنا. أو: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها. أو: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني: أنّهم كفرة مثلهم، وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾

٩٢، ٩٣ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين. وهما جبلان؛ سدّ ذو القرنين ما بينهما. ﴿السَّدين﴾ و﴿سَدّاً﴾: مكيّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿السُّدّين﴾ و﴿سُدّاً﴾: حمزة، وعليّ. وبضمهما: غيرهم. قيل: ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح. وانتصب ﴿بين﴾ على أنّه مفعول به لـ﴿بلغ﴾، كما انجرّ بالإضافة في: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وكما ارتفع في ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] لأنّه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً. وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ من ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ هم الترك ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا يكادون يفهمونه إلاّ بجهد ومشقّة، من إشارة، ونحوها. ﴿يُفْقِهون﴾: حمزة، وعليّ، أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأنّ لغتهم غريبة، مجهولة.

٩٤ ـ ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما اسمان أعجميّان بدليل منع الصرف، وهمزهما عاصم فقط، وهما من ولد يافث. أو: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل، والديلم ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيّام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضر إلاّ أكلوه، ولا يابساً إلاّ احتملوه، ولا يموت أحدهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلّهم قد حمل السلاح، وقيل: هم على صنفين، طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (خراجاً): حمزة، وعليّ، أي: جعلاً نخرجه من أموالنا، ونظيرهما: النول، والنوال ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

٩٥ ـ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام. وبفكّه[١]. مكيّ ﴿فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما جعلني ﴿فيه﴾ مكيناً من كثرة المال، واليسار ﴿خير﴾ ممّا تبذلون لي من

---

(١) أي: فك الإدغام (ما مكّنني).

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي

الخراج، فلا حاجة لي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بفعلة، وصناع يحسنون البناء، والعمل، وبالآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ جداراً، أو: حاجزاً حصيناً موثقاً. والردم أكبر من السدّ.

٩٦ ـ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد. والزبرة: القطعة الكبيرة. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر، والنحاس المذاب. والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثمّ وضع المنافيخ حتّى إذا صارت كالنار صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمى، فاختلط، والتصق بعضه ببعضه، وصار جبلاً صَلْداً، وقيل: بُعْد ما بين السدّين مئة فرسخ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحتين: جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان، أي: يتقابلان. ﴿الصُّدُفين﴾: مكّيّ، وبصريّ، وشاميّ. ﴿الصُّدْفين﴾: أبو بكر ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: ﴿قال﴾ ذو القرنين للعَمَلة[1]: ﴿انفخوا﴾ في الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أي: المنفوخ فيه، وهو الحديد ﴿نَارًا﴾ كالنار ﴿قَالَ ءَاتُونِي﴾ أعطوني ﴿أُفْرِغْ﴾ أصبّ ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً، لأنّه يقطر. وهو منصوب بأفرغ، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. ﴿قال ائتوني﴾ بوصل الألف: حمزة. وإذا ابتدأ كسر الألف، أي: جيئوني.

٩٧ ـ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف التاء للخفّة؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوا السدّ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه، ولا نقب لصلابته.

٩٨ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: هذا السدّ نعمة من الله، ورحمة على عباده، أو: هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا دنا مجيء يوم

(١) «العَمَلة»: جمع العامِل.

جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

القيامة، وشارف أن يأتي ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدّ ﴿دَكَّآءَ﴾[1] أي: مدكوكاً مبسوطاً، مسوّى بالأرض. وكلّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ. ﴿دكّاء﴾: كوفيّ، أي: أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ آخر قول ذي القرنين.

٩٩ ـ ﴿۞وَتَرَكْنَا﴾ وجعلنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ بعض الخلق ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ يختلط ﴿فِي بَعْضٍ﴾ أي: يضطربون، ويختلطون إنسهم وجنّهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنّهم يموجون حين يخرجون مما وراء السدّ مزدحمين في البلاد. ورُوي: أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابّه، ثمّ يأكلون الشجر، ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله نَغَفاً[2] في أقفائهم، فيدخل في آذانهم، فيموتون. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي: جمع الخلائق للثواب والعقاب. ﴿جَمْعًا﴾ تأكيد.

١٠٠ ـ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ وأظهرناها لهم، فرأوها، وشاهدوها.

١٠١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنظر إليها أو: عن القرآن فأذكره بالتعظيم، أو: عن القرآن، وتأمّل معانيه. ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: كانوا صمّاً عنه، إلاّ أنّه أبلغ إذ الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به. وهؤلاء كأنّهم أُصْمِيَتْ أسماعهم، فلا استطاعة بهم للسمع.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿دكاً﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وهبيرة عن حفص عن عاصم. وقال غير هبيرة عن حفص عن عاصم: ﴿دكاء﴾ ممدوداً. معجم القراءات القرآنية (١٨/٤)، والسبعة في القراءات (ص ٤٠٢).

(٢) «النغف»: الدود الأبيض الذي يكون في النوى إذا أُنقع، أو يكون في أنوف الإبل والغنم.

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾

١٠٢ ـ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: أفظنّ الكفّار اتخاذهم عبادي، يعني: الملائكة وعيسى ـ عليهم السلام ـ أولياءَ نافعهم؟! بئس ما ظنّوا. وقيل: ﴿أن﴾ بصلتها سدّ مسدّ مفعولي ﴿أفحسب﴾. و﴿عبادي أولياء﴾ مفعولا ﴿أن يتّخذوا﴾ وهذا أوجه، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء. ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ هو ما يقام للنزيل، وهو الضيف. ونحوه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

١٠٣ ـ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ «أعمالاً» تمييز. وإنّما جمع ـ والقياس أن يكون مفرداً ـ لتنوّع الأهواء. وهم: أهل الكتاب، أو: الرهبان.

١٠٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ ضاع وبطل. وهو في محلّ الرفع، أي: هم ﴿الذين﴾ ﴿فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

١٠٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ فلا يكون لهم عندنا وزن، ومقدار.

١٠٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ هي عطف بيان لـ: ﴿جزاؤهم﴾ ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي: جزاؤهم جهنّم بكفرهم، واستهزائهم بآيات الله، ورسله.

١٠٧، ١٠٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تحوّلاً إلى غيرها، رضاً بما أعطوا. يقال: حال من مكانه حِولاً. أي: لا مزيد عليها حتّى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم، وأمانيهم. وهذه غاية الوصف، لأن الإنسانَ في الدنيا في أيّ نعيم

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

كان فهو طامحٌ، مائل الطرف إلى أرفع منه. أو: المراد: نفي التحوّل، وتأكيد الخلود.

١٠٩ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ قال أبو عبيدة: المداد: ما يكتب به، أي: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها ـ والمراد بالبحر: الجنس ـ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر ﴿مَدَدًا﴾ لنفد أيضاً، والكلمات غير نافدة. و﴿مدداً﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً. والمدد مثل المداد، وهو: ما يمدّ به. ﴿ينفد﴾: حمزة، وعليّ. وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فنزلت، يعني: أنّ ذلك خير كثير، ولكنّه قطرة من بحر كلمات الله.

١١٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فمن كان يأمل حسن لقاء ربّه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، أو: فمن كان يخاف سوء لقاء ربّه. والمراد باللقاء: القدوم عليه. وقيل: رؤيته كما هو حقيقة اللفظ، والرجاء على هذا مجرى على حقيقته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ خالصاً، لا يريد به إلاّ وجه ربّه، ولا يخلط به غيره. وعن يحيى بن معاذ: هو ما لا يُستحى منه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو نهي عن الشرك، أو: عن الرياء. قال ﷺ: «اتّقوا الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[1].

قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فهو معصومٌ ثمانية أيّام من كلّ فتنة تكون. فإن يخرج الدجّال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجّال. ومن قرأ ﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ﴾ إلى آخرها عند مضجعه كان له نوراً يتلألأ

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والثعلبي (حاشية الكشاف ٢/ ٧٥١).

. . . .

من مضجعه إلى مكّة، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه حتّى يقوم عن مضجعه. وإن كان مضجعه بمكّة فتلاها كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه، ويستغفرون له حتى يستيقظ»[(١)(٢)].

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبزار (حاشية الكشاف ٢/ ٧٥١).

(٢) هنا ينتهي السقط الذي بدأ من الآية (٣٨) من سورة الرعد.

سورة مريم

آياتها ٩٨ — ترتيبها ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾

١ ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال السُدّي: هو اسم الله الأعظم. وقيل: هو اسم للسورة. قرأ عليّ ويحيى بكسر الهاء والياء. ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء. وحمزة بعكسه. وغيرهم بفتحهما.

٢ ـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ، أي: هذا ﴿ذكر﴾ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول الرحمة ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بالقصر: حمزة، وعليّ، وحفص. وهو بدل من ﴿عبده﴾.

٣ ـ ﴿إِذْ﴾ ظرف للرحمة ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ دعاه دعاء سرّاً كما هو المأمور به، وهو أبعدُ عن الرياء، وأقربُ إلى الصفاء. أو: أخفاه لئلا يُلام على طلب الولد في أوان الكبر؛ لأنّه كان ابن خمس وسبعين، أو: ثمانين سنة.

٤ ـ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ هذا تفسير الدعاء. وأصله: يا ربّي، فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾: ضعف. وخصّ العظم لأنّه عمود البدن، وبه قوامه. فإذا وهن تداعى، وتساقطت قوّته. ولأنّه أشدّ ما فيه، وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحّده؛ لأنّ الواحد هو الدالّ على معنى الجنسيّة. والمراد: أنّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشدّ ما تركّب منه الجسد قد أصابه الوهن ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز، أي: فشا في

وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي

رأسي الشيب، واشتعال النار: إذا تفرّقت في التهابها، وصارت شعلاً. شبّه الشيب بشواظ النار في بياضه، وانتشاره في الشعر، وأخذه منه كلّ مأخذ باشتعال النار. ولا ترى كلاما أفصح من هذا. ألاَ ترى أنّ أصل الكلام: يا ربّ قد شخت، إذ الشيخوخة تشتملُ على ضعف البدن، وشيب الرأس المتعرّض لهما. وأقوى منه: ضعف بدني، وشاب رأسي، ففيه مزيد التقرير للتفصيل. وأقوى منه: وهنت عظام بدني. ففيه عدولٌ عن التصريح إلى الكناية، فهي أبلغ منه. وأقوى منه: أنا وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إني وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إنّي وهنت العظام من بدني، ففيه سلوكُ طريقي الإجمال والتفصيل. وأقوى منه: إنّي وهنت العظام منّي، ففيه ترك توسيط البدن. وأقوى منه: إنّي وهن العظم منّي لشمول الوهن العظام فرداً فرداً، باعتبار ترك جمع العظم إلى الأفراد؛ لصحّة حصول وهن المجموع بالبعض دون كلّ فرد فرد. ولهذا تركت الحقيقة في: شاب رأسي إلى أبلغ، وهي الاستعارة، فحصل: اشتعل شيب رأسي. وأبلغ منه: اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته، وهو الرأس لإفادة شمول اشتعال الرأس. إذ وزان: اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيباً، وزان: اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي ناراً. والفرق نيّر. ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز. وأبلغ منه: واشتعل الرأس منّي شيباً لما مرّ. وأبلغ منه: واشتعل الرأس شيباً، ففيه اكتفاءٌ بعلم المخاطب أنّه رأس زكريّا لقرينة العطف، على: وهن العظم مني ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، أي: بدعائي إيّاك ﴿رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم، سعيداً به، غير شقيّ فيه. يقال: سعد فلان بحاجته؛ إذا ظفر بها، وشقي: إذا خاب، ولم ينلها. وعن بعضهم: أنّ محتاجاً سأله، وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسّل بنا إلينا! وقضى حاجته.

٥ ـ ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ هم عصبته: إخوته، وبنو عمه. وكانوا شرار بني إسرائيل، فخافهم أن يغيّروا الدّين، وألاّ يحسنوا الخلافة على أمّته، فطلب عَقِباً صالحاً من صُلبه، يُقتدى به في إحياء الدين ﴿مِن وَرَآءِي﴾ بعد موتي. وبالقصر

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

وفتح الياء كهداي: مكّيّ. وهذا الظرف لا يتعلّق بخفت؛ لأنّ وجود خوفه بعد موته لا يتصوّر. ولكن بمحذوف. أو: بمعنى الولاية في ﴿الموالي﴾، أي: خفت فعل ﴿الموالي﴾ وهو تبديلهم، وسوء خلافتهم ﴿من ورائي﴾. أو: ﴿خفت﴾ الذين يلون الأمر ﴿من ورائي﴾ ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ اختراعاً منك بلا سبب: لأني وامرأتي لا نصلح للولادة ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً يلي أمرك بعدي.

٦ ـ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾ برفعهما صفة لـ«وليّاً» أي: هب لي ولداً وارثاً منّي العلم، ومن آل يعقوب النبوة. ومعنى وراثة النبوّة: أنّه يصلح لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوّة تورث، وبجزمهما: أبو عمرو، وعليّ على أنّه جواب للدعاء. يقال: ورثته، وورثت منه ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضياً ترضاه، أو: راضياً عنك، وبحكمك. فأجاب الله تعالى دعاءه، وقال:

٧ ـ ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ تولّى الله تسميته تشريفاً له. ﴿نَبشُرك﴾ بالتخفيف: حمزة ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسمّ أحد بيحيى قبله. وهذا دليلٌ على أنه في موضع الحال جديرٌ بالأثرة. وقيل: مثلاً وشبيهاً، ولم يكن له مثل في أنّه لم يعص، ولم يهمّ بمعصية قطّ، وأنّه ولد بين شيخ وعجوز، وأنّه كان حصوراً.

٨ ـ فلمّا بشّرته الملائكة به ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾: كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾ وليس هذا باستبعاد، بل هو استكشاف أنّه بأيّ طريق يكون؟ أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال، أم يحوّلان شابّين؟ ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: بلغت عتيّاً ـ وهو اليبس، والجساوة في المفاصل والعظام، كالعود اليابس ـ من أجل الكبر، والطعن في السنّ العالية. ﴿عتيّاً﴾ و﴿صِلِيًّا﴾

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ
ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

[مريم: ٧٠] و﴿جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] و﴿ بُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨] بكسر الأوائل: حمزة، وعليّ، وحفص إلا في ﴿بُكياً﴾.

٩ ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف رفع، أي: الأمر ﴿كَذلك﴾. تصديق له. ثمّ ابتدأ ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾. أو: نصب بقال. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى مبهم يفسّره ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي: خلق يحيى من كبيرين سهل ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أوجدتك من قبل يحيى. (خلقناك): حمزة، وعليّ ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ لأنّ المعدوم ليس بشيء.

١٠ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة أعرف بها حبل امرأتي ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تكلّم﴾ أي: حال كونك سويّ الأعضاء واللسان. يعني: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح ما بك خرس، ولا بَكَم. ودلّ ذكر الليالي هنا، والأيّام في آل عمران، على أنّ المنع من الكلام استمرّ به ثلاثة أيّام ولياليهنّ، إذ ذكر الأيّام يتناول ما بإزائها من الليالي. وكذا ذكر الليالي يتناول ما بإزائها من الأيّام عرفاً.

١١ ـ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ من موضع صلاته. وكانوا ينتظرونه، ولم يقدر أن يتكلّم ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أشار بأصبعه ﴿ أَن سَبِّحُوا۟﴾ صلوا، و«أنْ» هي المفسّرة ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صلاة الفجر، والعصر.

١٢ ـ ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ أي: وهبنا له يحيى، وقلنا له بعد ولادته وأوانَ الخطاب: ﴿يا يحيى﴾ ﴿ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ حال، أي: بجدّ، واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة. وهو فهم التوراة، والفقه في الدين ﴿ صَبِيًّا﴾ حال. قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبيّ، فقال: ما للّعب خُلقنا.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ
ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

١٣ ـ ﴿وَحَنَانًا﴾ شفقة، ورحمة لأبويه وغيرهما. عطفاً على ﴿الحكم﴾ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة وصلاحاً، فلم يعمل بذنب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مسلماً، مطيعاً.

١٤ ـ ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ بارّاً بهما، لا يعصيهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبّراً ﴿عَصِيًّا﴾ عاصياً لربّه.

١٥ ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أمان من الله له ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ من فتاني القبر ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾ من الفزع الأكبر. قال ابن عيينة: إنّها أوحش المواطن.

١٦ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿مَرۡيَمَ﴾، أي: اقرأ عليهم في القرآن قصّة مريم ليقفوا عليها، ويعلموا ما جرى عليها ﴿إِذِ﴾ بدل من ﴿مريم﴾ بدل اشتمال؛ إذ الأحيانُ مشتملةٌ على ما فيها. وفيه: أنّ المقصودَ بذكر مريم ذكر وقتها هذا؛ لوقوع هذه القصّة العجيبة فيه ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي: اعتزلت ﴿مَكَانًا﴾ ظرف ﴿شَرۡقِيًّا﴾ أي: تخلّت للعبادة في مكان مما يلي شرقيّ بيت المقدس، أو: من دارها معتزلة عن الناس. وقيل: قعدت في مشرقه للاغتسال من الحيض.

١٧ ـ ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾ جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها لتغتسل وراءه ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ والإضافة للتشريف. وإنّما سُمّي روحاً لأنّ الدين يحيا به، وبوحيه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا﴾ أي: فتمثّل لها جبريل في صورة آدميّ شابّ، أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، ﴿سَوِيًّا﴾ مستوي الخلق. وإنّما مثّل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه. ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ، ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

١٨ ـ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كان يرجى منك أن تتّقي الله، فإنِّي عائذةٌ به منك.

١٩ ـ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أمّنها ممّا خافت، وأخبر أنّه ليس بآدميّ، بل هو رسول من استعاذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى. أو: لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع. (ليهب لك) أي: الله: أبو عمرو، ونافع ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو: نامياً على الخير، والبركة.

٢٠ ـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ابن ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغي الرجال، أي: تطلب الشهوة من أيّ رجل كان. ولا يكون الولد عادة إلاّ من أحد هذين. والبغي: فعول عند المبرّد: «بغوي» فقلبت[1]، وأدغمت، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم تلحق تاء التأنيث، كما لم تلحق في: امرأة صبور، وشكور. وعند غيره هي فعيل، ولم تلحقها الهاء؛ لأنها بمعنى: مفعولة. وإن كانت بمعنى فاعلة، فهو قد يشبّه به مثل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٢١ ـ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الأمر كما قلت: لم يمسسك رجل نكاحاً، أو: سفاحاً ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إعطاء الولد بلا أب عليّ سهل ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعليل معلّله محذوف، أي: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ فعلنا ذلك. أو: هو معطوف على تعليل مضمر، أي: لنبيّن به قدرتنا ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي: عبرة، وبرهاناً على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن آمن به ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدّراً، مسطوراً في اللوح.

(١) أي: الواو ياء.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ

٢٢ ـ فلمّا اطمأنت إلى قوله، دنا منها، فنفخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾، أي: الموهوب، وكان سنّها: ثلاث عشرة سنة، أو: عشراً، أو: عشرين ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ اعتزلت وهو في بطنها. والجارّ والمجرور في موضع الحال. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته. وقيل: ستّة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلاّ عيسى. وقيل: حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وذلك لأنّها لمّا أحسّت بالحمل هربت من قومها، مخافة اللائمة.

٢٣ ـ ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جاء بها، وقيل: ألجأها. وهو منقول من جاء، إلاّ أن استعماله قد تغيّر بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألَا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أصلها. وكانت يابسة. وكان الوقت شتاء. وتعريفها مشعر بأنّها كانت نخلة معروفة. وجاز أن يكون التعريف للجنس، أي: جذع هذه الشجرة، كأنّه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منه الرطب؛ لأنّه خُرْسَةُ النفساء، أي: طعامها. ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ جزعاً ممّا أصابها ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ اليوم. مدنيّ، وكوفي ـ غير أبي بكر ـ وغيرهم: بالضمّ. يقال: مات يموت، ومات يمات ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر. بفتح النون: حمزة، وحفص. وبالكسر: غيرهما. ومعناهما واحد، وهو الشيء الذي حقّه أن يطرح، وينسى لحقارته.

٢٤ ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[1] أي: الذي تحتها. فـ«مَنْ» فاعل، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنّه كان بمكان منخفض عنها. أو: عيسى ـ عليه السلام ـ لأنّه خاطبها من تحت ذيلها. ﴿مِن تحتها﴾ مدنيّ وكوفيّ، سوى أبي بكر، والفاعل

(١) في الأصل المخطوط: ﴿مَنْ﴾. وهي قراءة: عاصم، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وزر، ومجاهد، والجحدري، والحسن، وابن عباس، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٩).

أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا

مضمر، وهو عيسى عليه السلام، أو جبريل عليه السلام، والهاء في ﴿تحتها﴾ للنخلة. ولشدّة ما لَقِيَتْ. سُلِّيَتْ بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لا تهتمي بالوحدة، وعدم الطعام والشراب، ومقالة الناس. و﴿أن﴾ بمعنى: أي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ بقربك، أو: تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته أن يقف وقف ﴿سَرِيًّا﴾ نهراً صغيراً. عند الجمهور. وسُئل النبيّ ﷺ عن السريّ فقال: «هو الجدول»[1]. وعن الحسن: سيّداً كريماً، يعني: عيسى ـ عليه السلام ـ ورُوي أنّ خالد بن صفوان قال له: إنّ العرب تسمّي الجدول سريّاً، فقال الحسن: صدقت. ورجع إلى قوله.

٢٥ ـ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضرب عيسى، أو جبريل ـ عليهما السلام ـ بعقبه الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى النهر اليابس، فاخضرّت النخلة، وأثمرت، وأينعت ثمرتها، فقيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ﴾ حرّكي ﴿إِلَيْكِ﴾ إلى نفسك ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال أبو عليّ: الباء زائدة، أي: هزّي جذع النخلة ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ بإدغام التاء الأولى في الثانية: مكيّ، ومدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وعليّ ، وأبو بكر. والأصل: «تتساقط» بإظهار التاءين. و﴿تساقط﴾ بفتح التاء والقاف، وطرح التاء الثانية، وتخفيف السين حمزة. و﴿يسّاقط﴾ بفتح الياء والقاف وتشديد السين: يعقوب، وسهل، وحمّاد ونصير. و﴿تُساقط﴾: حفص، من المفاعلة. وتُسْقِطْ ويُسْقِطْ وتَسْقُطْ ويَسْقُطْ، التاء للنخلة، والياء للجذع فهي تسع قراءات ﴿رُطَبًا﴾ تمييز، أو: مفعول به على حسب القراءة ﴿جَنِيًّا﴾ طرياً. وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض من العسل.

٢٦ ـ ﴿فَكُلِي﴾ من الجنيّ ﴿وَٱشْرَبِي﴾ من السريّ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد الرضيّ. و﴿عيناً﴾ تمييز، أي: طيبي نفساً بعيسى، وارفضي عنك ما أحزنك

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/ ٢٤٤).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِمَّا﴾ أصله: إن ما، فضمّت إن الشرطية إلى ما، وأدغمت فيها ﴿تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك صمتاً، وإمساكاً عن الكلام. كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: صياماً حقيقة، وكان صومهم فيه الصمت، فكان التزامهُ التزامَه. وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت، فصار ذلك منسوخاً فينا، وإنّما أمرت أن تنذر السكوت؛ لأنّ عيسى ـ عليه السلام ـ يكفيها الكلام بما يبرّىء به ساحتها، ولئلا تجادل السفَهاء. وفيه أنّ السكوتَ عن السفيه واجبٌ. وما قُدِعَ[1] سفيه بمثل الإعراض، ولا أطلِق عنانه بمثل العِراض. وإنما أخبرتهم بأنّها نذرت الصوم بالإشارة. وقد تسمّى الإشارة كلاماً وقولاً. ألا ترى إلى قول الشاعر في وصف القبور:

وتكلّمــت عــن أوجــه تبلى ... ...

وقيل: كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام. أو: سوّغ لها هذا القدر بالنطق ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ آدمياً.

٢٧ ـ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حال منها، أي: أقبلت نحوهم حاملة إيّاه، فلمّا رأوه معها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ بديعاً عجيباً. والفري: القطع، كأنّه يقطع العادة.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وكان أخاها من أبيها، ومن أفضل بني إسرائيل. أو: هو أخو موسى ـ عليهما السلام ـ. وكانت من أعقابه، وبينهما ألف سنة. وهذا كما يقال: يا أخا همدان! أي: يا واحداً منهم! أو: رجل صالح، أو طالح في زمانها، شبّهوها به في الصلاح، أو: شتموها به ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانياً ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنّة ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

---

(١) «قدع»: كُفَّ ومُنِع.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

٢٩ ـ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى أن يجيبهم، وذلك أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ قال لها: لا تحزني، وأحيلي بالجواب عليّ. وقيل: أمرها جبريل بذلك. ولمّا أشارت إليه غضبوا، وتعجّبوا، و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ حدث، ووجد ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ المعهود ﴿صَبِيًّا﴾ حال.

٣٠ ـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولمّا أسكتت بأمر الله لسانها الناطق، أنطق الله لها اللسان الساكت حتّى اعترف بالعبوديّة، وهو ابن أربعين ليلة، أو: ابن يوم. رُوي أنّه أشار بسبابته، وقال بصوت رفيع: ﴿إنّي عبد الله﴾. وفيه ردّ لقول النصارى ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ رُوي عن الحسن: أنَّه كان في المهد نبيّاً، وكلامه معجزته. وقيل: معناه: أنّ ذلك سبق في قضائه، أو: جعل الآتي لا محالة كأنّه وجد.

٣١ ـ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفّاعاً حيث كنت، أو: مُعلّماً للخير ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن ملكت مالاً. وقيل: صدقة الفطر. أو: تطهير البدن. ويحتمل: وأوصاني بأن آمركم ﴿بالصلاة والزكاة﴾ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ نصب على الظرف، أي: مدّة حياتي.

٣٢ ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ عطفاً على ﴿مباركاً﴾ أي: بارّاً بها، أكرمها، وأعظّمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبّراً ﴿شَقِيًّا﴾ عاقّاً.

٣٣ ـ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ «يوم» ظرف. والعامل فيه الخبر، وهو: ﴿عليّ﴾ ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: ذلك السلام الموجّه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجّه إليّ؛ إن كان حرف التعريف للعهد. وإن كان للجنس، فالمعنى: وجنس السلام ﴿عليّ﴾. وفيه تعريضٌ باللعنة على أعداء مريم وابنها؛ لأنّه إذا قال: وجنس السلام عليّ فقد عرّض بأن ضدّه عليكم، إذ المقام مقام مناكرة وعناد، فكان مَئِنّةً لمثل هذا التعريض.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾

٣٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿عِيسَى﴾ خبره ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نعته، أو: خبر ثان، أي: ﴿ذلك﴾ الذي قال: إني عبد الله وكذا وكذا ﴿عيسى ابن مريم﴾ لا كما قالت النصارى: إنه إله، أو: ابن الله! ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ كلمةُ الله. فالقول: الكلمة، والحقّ: الله. وقيل له: ﴿كلمة الله﴾ لأنّه ولد بقوله: كن، بلا واسطة أب. وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر. أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدلٌ. ونصبه: شاميّ، وعاصم على المدح ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكّون، من المرية: الشكّ. أو: يختلفون من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذاب. وقالت النصارى: ابن الله، وثالث ثلاثة.

٣٥ ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ما ينبغي له ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ جيء بمن لتأكيد النفي ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ نزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] بالنصب: شاميّ، أي: كما قال لعيسى كن، فكان من غير أب. ومن كان متّصفاً بهذا كان منزّهاً أن يشبه الحيوان الوالد.

٣٦ ـ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بالكسر: شاميّ، وكوفيّ على الابتداء. وهو من كلام عيسى، يعني: كما أنا عبده فأنتم عبيده، وعليّ وعليكم أن نعبده. ومن فتح عطف على ﴿بالصلاة﴾ أي: ﴿وأوصاني بالصلاة وبالزكاة﴾ وبأنّ ﴿الله ربّي وربّكم﴾ أو: علّقه بما بعده، أي: ولأنّ ﴿الله ربّي وربكم فاعبدوه﴾ ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرت ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

٣٧ ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الحزب: الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها. وهم ثلاث فرق: نسطوريّة، ويعقوبيّة، وملكانيّة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين أصحاب عيسى، أو: من بين قومه، أو: من بين الناس. وذلك: أنّ النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع، ثم اتّفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة، كانوا عندهم

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿فيكونَ﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾

أعلم أهل زمانهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وملكاء[1]. فقال يعقوب: هو الله هبط إلى الأرض، ثمّ صعد إلى السماء. فقال نسطور: كان ابن الله، أظهره ما شاء، ثمّ رفعه إليه. وقال الثالث: كذبوا، كان عبداً مخلوقاً نبيّاً، فتبع كلَّ واحد منهم قومٌ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأحزاب، إذ الواحد منهم على الحقّ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو: من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة، والأنبياء، وجوارحهم بالكفر. أو: من مكان الشهادة، أو: وقتها. أو: المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه. وجعله يوماً عظيماً لفظاعة ما شهدوا به في عيسى.

٣٨ ـ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ الجمهور على أنّ لفظه أمر، ومعناه التعجّب، والله تعالى لا يوصف بالتعجّب. ولكن المراد أنّ إسماعهم وإبصارهم جديرٌ بأن يتعجّب منهما بعد ما كانوا صمّاً عمياً في الدنيا. قال قتادة: إن عموا وصمّوا عن الحقّ في الدنيا، فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم! و﴿بهم﴾ مرفوع المحلّ على الفاعلية، كأكرم بزيد، فمعناه: كرم زيد جدّاً ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أقيم الظاهر مقام الضمير أي: لكنهم ﴿اليوم﴾ في الدنيا بظلمهم أنفسهم، حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم، ووضعوا العبادة في غير موضعها ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر، وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه ـ إشعاراً بأن لا ظلم أشدّ من ظلمهم.

٣٩ ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خوّفهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه يقع فيه الندم على ما فات. وفي الحديث: «إذا رأوا منازلهم في الجنّة أن لو آمنوا»[2] ﴿إِذْ﴾ بدل من يوم الحسرة، أو: ظرف للحسرة، وهو مصدر ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ هنا عن الاهتمام

---

(١) كذا في الأصل المخطوط والفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٦٢) وفي الكشاف والقرطبي «ملكان».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٥).

وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾

لذلك المقام ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يصدّقون به. و﴿هم﴾ و﴿هم﴾ حالان، أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين، غير مؤمنين.

٤٠ ـ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ أي: نتفرّد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلك، والفناء. وذكر ﴿من﴾ لتغليب العقلاء ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم. وفتح الياء: يعقوب، أي: يردّون فيجازون جزاء وفاقاً.

٤١ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ لقومك ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قصّته مع أبيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ بغير همز. وهمزه نافع. قيل: الصادق المستقيم في الأفعال، والصدّيق: المستقيم في الأحوال، فالصدّيق من أبنية المبالغة، ونظيره الضحّيك.

والمراد: فرط صدقه، وكثرة ما صدّق به من غيوب الله، وآياته، وكتبه، ورسله، أي: كان مصدّقاً لجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبياً في نفسه. وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ما هو بدل منه، وهو:

٤٢ ـ ﴿إِذۡ قَالَ﴾ وجاز أن يتعلق ﴿إذ﴾ بكان، أو: بـ﴿صديقاً نبيّاً﴾ أي: كان جامعاً لخصائص الصدّيقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات. والمراد بذكر الرسول إيّاه، وقصّته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس، ويبلّغه إياهم، كقوله ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩] وإلاّ فالله عزّ وعلا هو ذاكره، ومورده في تنزيله ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء. وفتحها: ابن عامر. والتاء عوض من ياء الإضافة. ولا يقال: يا أبتي؛ لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ المفعول فيهما منسيّ غير منويّ، ويجوز أن يقدر، أي: لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ يحتمل أن يكون ﴿شيئاً﴾ في موضع المصدر، أي: ﴿شيئاً﴾ من الغنى وأن يكون مفعولاً به من قولك: أغن عنّي وجهك، أي: بعّد.

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

٤٣ ـ ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الوحي، أو: معرفة الرب ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ «ما» في ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿ما لم يأتك﴾ يجوز أن تكون موصولة، أو: موصوفة ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ﴾ أرشدك ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً.

٤٤ ـ ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ لا تطعه فيما سوّل من عبادة الصنم. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ عاصياً.

٤٥ ـ ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ قيل: أعلم ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ قريناً في النار تليه ويليك، فانظر في نصيحته أباه كيف راعى المجاملة، والرفق، والخلق الحسن كما أمر. ففي الحديث: «أوحى اللهُ إلى إبراهيم: إنّك خليلي. فحَسِّنْ خلقك ولو مع الكفّار، تدخل مداخل الأبرار»[1]. فطلب منه أوّلاً العلّة في خطابه طلب منبّه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأنّ من يعبد أشرف الخلق منزلة ـ وهم الأنبياء ـ كان محكوماً عليه[2] بالغيّ المبين، فكيف بمن يعبد شجراً، أو حجراً لا يسمع ذكر عابده، ولا يرى هيئات عبادته، ولا يدفع عنه بلاء، ولا يقضي له حاجة؟! ثم ثنّى بدعوته إلى الحقّ مترفّقاً به، متلطّفاً، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنّه قال: إنّ معي شيئاً من العلم ليس معك، وذا علم الدلالة على الطريق السويّ، فهب أنّي وإيّاك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتّبعني أنجك من أن تضل وتتيه. ثمّ ثلّث بنهيه عمّا كان عليه بأنّ الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه، أوقعك في عبادة الصنم، وزيّنها لك، فأنت عابده في الحقيقة. ثمّ ربّع بتخويفه سوء العاقبة، وما يجره ما هو فيه [من التبعة

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٠).
(٢) مستدرك من المطبوع.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

والوبال][١] مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به، وأنّ العذاب لاصق به. بل قال: ﴿أخاف أن يمسّك عذاب﴾ بالتنكير المشعر بالتقليل، كأنه قال: إنّي أخاف أن يصيبك نفَيان ـ قليلٌ ـ من عذاب الرحمن. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب، كما أنّ رضوان الله أكبر من الصواب في نفسه. وصدّر كلّ نصيحة بقوله: ﴿يا أبت﴾ توسلاً إليه، واستعطافاً، وإشعاراً بوجوب احترام الأب، وإن كان كافراً.

٤٦ ـ فثمّ ﴿قَالَ﴾ آزر توبيخاً: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أترغب عن عبادتها؟! فناداه باسمه، ولم يقابل ﴿يا أبت﴾ بـ«يابنيّ». وقدّم الخبر على المبتدأ؛ لأنّه كان أهمّ عنده ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شتم الأصنام ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالرِّجام لأقتلنّك بالحجارة، أو: لأضربنّك بها حتى تتباعد، أو: لأشتمنّك ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ عطف على محذوف، يدلّ عليه: ﴿لأرجمنك﴾ تقديره: فاحذرني ﴿واهجرني﴾ ﴿مَلِيًّا﴾ ظرف، أي: زماناً طويلاً. من: الملاوة.

٤٧ ـ ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع، ومتاركة، أو: تقريب، وملاطفة. ولذا وعده بالاستغفار بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي: سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة، بأن يهديك للإسلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ ملطفاً بعموم النعم، أو: رحيماً، أو: مكرّماً. والحفاوة: الرأفة، والكرامة.

٤٨ ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أراد بالاعتزال: المهاجرة من أرض بابل إلى الشام. ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من أصنامكم ﴿وَأَدْعُوا۟﴾ وأعبد ﴿رَبِّى﴾. ثمّ قال تواضعاً، وهضماً للنفس، ومعرّضاً بشقاوتهم بدعاء آلهتم: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي: كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

٤٩ ـ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلما اعتزل الكفّار، ومعبودهم ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة ليستأنس بهما ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل واحد منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، أي: لمّا ترك الكفّار الفجّار لوجهه؛ عوّضه أولاداً مؤمنين، أنبياء.

٥٠ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي: المال، والولد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسناً، وهو: الصلاة على إبراهيم، وآل إبراهيم في الصلوات. وعبّر باللسان عمّا يوجد باللسان، كما عبّر باليد عمّا يطلق باليد، وهي: العطيّة ﴿عَلِيًّا﴾ رفيعاً، مشهوراً.

٥١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ كوفيّ، غير المفضل، أي: أخلصه الله، واصطفاه و﴿مخلِصاً﴾ غيرهم، أي: أخلص هو العبادة لله تعالى، فهو مخلص بما له من السعادة بأصل الفطرة، مخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمّة ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فالرسول الذي معه كتاب من الأنبياء. والنبيّ: الذي ينبىء عن الله ـ عز وجل ـ وإن لم يكن معه كتاب كيوشع.

٥٢ ـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ دعوناه، وكلّمناه ليلة الجمعة ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ هو جبل بين مصر ومدين ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من اليمين، أي: من ناحيته اليمنى. والجمهور على أنّ المراد: أيمن موسى ـ عليه السلام ـ لأنّ الجبل لا يمين له. والمعنى: أنّه حين أقبل من مدين يريد مصر، نودي من الشجرة، وكانت في جانب الجبل على يمين موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ تقريب منزلة ومكانة، دون منزل ومكان ﴿نَجِيًّا﴾ حال، أي: مناجياً، كنديم بمعنى: منادم.

٥٣ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ من أجل رحمتنا، وترؤفنا عليه ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل منه ﴿نَبِيًّا﴾ حال، أي: وهبنا له نبوّة أخيه، وإلاّ فهارون كان أكبر سنّاً منه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

٥٤ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم في الأصح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ وافيه، وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يعود إليه، فانتظره سنة في مكانه حتّى عاد. وناهيك أنّه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى. وقيل: لم يعد ربَّه موعداً إلاّ أنجزه. وإنّما خصّه بصدق الوعد ـ وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء ـ تشريفاً له، ولأنّه المشهور من خصاله ﴿وَكَانَ رَسُولٗا﴾ إلى جرهم ﴿نَّبِيّٗا﴾ مخبراً منذراً.

٥٥ ـ ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ أمّته؛ لأنَّ النبيَّ أبو أمّته، وأهل بيته. وفيه دليلٌ على أنّه لم يداهنْ غيره ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يحتمل أنّه إنّما خصّت هاتان العبادتان؛ لأنهما أمّا العبادات البدنية، والماليّة ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ قرىء: (مرضوّاً) على الأصل.

٥٦ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ﴾ هو أخنوخ، أوّل مرسل بعد آدم ـ عليه السلام ـ وأوّل من خطّ بالقلم، وخاط اللباس، ونظر في علم النجوم والحساب، واتخذ الموازين، والمكاييل، والأسلحة، فقاتل بني قابيل. وقولهم: سُمّي به لكثرة دراسته كتاب الله، لا يصح؛ لأنه لو كان «إفعيلاً» من الدرس، لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلميّة، وكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليلُ العجمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

٥٧ ـ ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوّة والزلفى عند الله. وقيل: معناه: رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة. وقد رآه النبيّ ﷺ ليلة المعراج فيها. وعن الحسن: إلى الجنّة، لا شيء أعلى من الجنّة. وذلك: أنّه حبّب لكثرة عبادته إلى الملائكة، فقال لملك الموت: أذقني الموت يهنْ عليّ، ففعل ذلك بإذن الله فحيي. وقال: أدخلني النار أزددْ رهبةً ففعل. ثمّ قال: أدخلني الجنّة أزددْ رغبةً، ففعل وقال له: أخرج، فقال: قد ذقتُ الموت، ووردت النار، فما أنا بخارج من الجنة، فقال الله عز وجل: بإذني فعل، وبإذني دخل، فَدَعْهُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ (٥٨) ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾

٥٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ «مِن» للبيان؛ لأن جميع الأنبياء مُنعم عليهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ «مِن» للتبعيض. وكان إدريس من ذريّة آدم لقربه منه؛ لأنّه جدّ أبي نوح ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ومن ذريّة إسرائيل، أي: يعقوب وهم: موسى، وهارون، وزكريّا، ويحيى، وعيسى؛ لأنّ مريم من ذريته ﴿وَمِمَّنۡ﴾ يحتمل العطف على ﴿من﴾ الأولى، والثانية ﴿هَدَيۡنَا﴾ لمحاسن الإسلام ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآ﴾ من الأنام، أو: لشرح الشريعة، وكشف الحقيقة ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة. وهو كلام مستأنف إن جعلت ﴿الذين﴾ خبراً لـ ﴿أولئك﴾، وإن جعلته صفة له كان خبراً. ﴿يتلى﴾ بالياء: قتيبة؛ لوجود الفاصل، مع أنّ التأنيث غير حقيقي ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين، رغبة ﴿وَبُكِيّٗا۩﴾ باكين رهبة. جمع باك، كسجود، وقعود، في جمع: ساجد، وقاعد. في الحديث: «اتلوا القرآن، وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[(١)]. وعن صالح المريّ: قرأتُ القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح هذه القراءة، فأين البكاء؟ ويقول في سجدة التلاوة: سبحان ربي الأعلى، ثلاثاً.

٥٩ ـ ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ فجاء من بعد هؤلاء المفضّلين ﴿خَلۡفٌ﴾ أولاد سوء. وبفتح اللام: لعقب الخير. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم اليهود ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ملاذ النفوس. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٥) وأبو داود (١٤٧٠) وابن ماجه (١٣٣٧) والدارمي (١/ ٣٤٩).

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ

المشهور. وعن قتادة: هو في هذه الأمة ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ جزاء غيّ. وكلّ شرّ عند العرب: غيّ، وكلّ خير: رشاد. وعن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ: هو واد في جهنّم أعدّ للمصرّ على الزنى، وشرب الخمر، وأكل الربا، والعاقّ، وشاهد الزور.

٦٠ ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ رجع عن كفره ﴿وَءَامَنَ﴾ بشرطه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بعد إيمانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[1] بضم الياء وفتح الخاء: مكّي، وبصريّ، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ولا يمنعونه، بل يضاعف لهم. أو: ولا يظلمون شيئاً من الظلم.

٦١ ـ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بدل من ﴿الجنة﴾ لأنّ الجنّة تشتمل على ﴿جنّات عدن﴾ لأنها جنس، أو: نصب على المدح ﴿عَدْنٍ﴾ معرفة؛ لأنه علم لمعنى العدن، وهو: الإقامة. أو: علم لأرض الجنة لكونها مكان إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ أي: ﴿عباده﴾ التائبين المؤمنين؛ الذين يعملون الصالحات؛ كما سبق ذكرهم، ولأنّه أضافهم إليه، وهو للاختصاص، وهؤلاء أهل الاختصاص ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وعدها وهي غائبة عنهم، غير حاضرة. أو: غائبون عنها، لا يشاهدونها ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، أو: ضمير الرحمن ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعوده، وهو: الجنّة ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: هم يأتونها.

٦٢ ـ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿لَغْوًا﴾ فحشاً، أو كذباً، أو مالا طائلَ تحته من الكلام، وهو: المطروح منه. وفيه تنبيهٌ على وجوب تجنب اللغو واتّقائه، حيث نزّه الله عنه داره التي لا تكليفَ فيها ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً من الملائكة، أو: من بعضهم على بعض. أو: لا يسمعون فيها إلاّ قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، فهو استثناء منقطع عند الجمهور. وقيل:

(١) في الأصل المخطوط: ﴿يُدْخَلون﴾.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

معنى السلام هو: الدعاء بالسلامة. ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة، كان ظاهره من باب اللغو: وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار ثَمّ؛ لأنّهم في النور أبداً، وإنّما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ومقدار الليل بإرخائها. والرزق بالبكرة والعشيّ أفضل العيش عند العرب، فوصف الله جنته بذلك. وقيل: أراد: دوام الرزق، كما تقول: أنا عند فلان بكرة وعشيّاً، تريد: الدوام.

٦٣ ـ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نجعلها ميراث أعمالهم، يعني: ثمرتها وعاقبتها. وقيل: يرثون المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا؛ لأنّ الكفر موت حكماً ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الشرك.

٦٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(١) والتنزّل على معنيين: معنى: النزول على مهل، ومعنى: النزول على الإطلاق، والأوّل أليق هنا، يعني: أنّ نزولنا في الأحايين وقتاً غبّ وقت ليس إلاّ بأمر الله ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: له ما قدّامنا، وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيها، فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلاّ بأمر الملك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكلّ حركة وسكون، وما يحدث من الأحوال، لا تجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنّى لنا أن نتقلّب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه؟!

٦٥ ـ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿ربُّك﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿ربّ السموات والأرض﴾ ثمّ قال لرسوله: لما عرفت أنّه

(١) رواه البخاري (٧٤٥٥).

﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾

متصف بهذه الصفات ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ فاثبت على عبادته، ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصطبر على مكافأة الحسود لعبادة المعبود، واصطبر على المشاقّ لأجل عبادة الخلّاق، أي: لتتمكن من الإتيان بها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ شبيهاً، ومثلاً، أو: هل يسمّى أحد باسم الله غيره؟ لأنّه مخصوص بالمعبود بالحقّ، أي: إذا صحّ أن لا معبود يوجّه إليه العباد العبادة إلاّ هو وحده؛ لم يكن بدّ من عبادته، والاصطبار على مشاقّها.

٦٦ ـ تهافت أبيّ بن خلف عظماً، وقال: أنبعث بعد ما صرنا كذا؟ فنزل: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾(١) والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه الكلام، وهو أبعث، أي: إذ ما متُّ أبعث. وانتصابه بـ﴿أُخرج﴾ ممتنع؛ لأنّ ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها، فلا تقول: اليوم لزيد قائم. ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، وتؤكّد مضمون الجملة، فلمّا جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد، واضمحلّ معنى الحال. و﴿ما﴾ في ﴿إذا ما﴾ للتوكيد أيضاً، فكأنّه قال: أحقّاً أنّا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد. وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار مِنْ قِبَلِ: أنّ ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم.

٦٧ ـ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خفيف: شاميّ، نافع، وعاصم، من: الذكر. والسائر: بتشديد الذال والكاف، وأصله ﴿يتذكّر﴾ كقراءة أبيّ، فأدغمت التاء في الذال، أي: أولا يتدبر؟ والواو عطفت ﴿لا يذكر﴾ على ﴿يقول﴾ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعني: أيقول ذلك ولا يتذكّر حال النشأة الأولى حتّى لا ينكر النشأة الأخرى؟ فإنّ تلك أدلّ على قدرة الخالق، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، وأما الثانية:

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٠٤).

أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾

فليس فيها إلاّ تأليف الأجزاء الموجودة، وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ هو دليل على ما بيّنا، وعلى أنّ المعدوم ليس بشيء، خلافاً للمعتزلة.

٦٨ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: الكفّار المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الواو للعطف. وبمعنى مع أوقع، أي: يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرن كلّ كافر مع شيطان في سلسلة. وفي إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حال، جمع جاث، أي: بارك على الركب. ووزنه فعول؛ لأنّ أصله جثوو، كسجود وساجد، أي: يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنّم عتلاً على حالهم؛ التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم.

٦٩ ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ طائفة شاعت ـ أي: تبعت ـ غاوياً من الغواة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ جراءةً، أو فجوراً، أي: لنخرجنّ من كلّ طائفة من طوائف الغيّ أعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نقدّم أولاهم بالعذاب فأولاهم. وقيل: المراد بأشدّهم عتياً: الرؤساء؛ لتضاعف جرمهم؛ بكونهم ضلاّلاً ومضلّين. قال سيبويه: ﴿أيهم﴾ مبنيّ على الضمّ لسقوط صدر الجملة التي هي صلته، وهو «هو» من ﴿أشدّ﴾ حتّي لو جيء به لأعرب بالنصب. وقيل: أيّهم هو أشدّ، وهذا لأنّ الصلة توضح الموصول وتبيّنه، كما أنّ المضاف إليه يوضح المضاف، ويخصّصه. فكما أنّ حذف المضاف إليه في ﴿من قبل﴾ يوجب بناء المضاف، وجب أن يكون حذف الصلة، أو شيء منها موجباً للبناء. وموضعها نصب بـ«ننزع». وقال الخليل: هي معربة. وهي مبتدأ، و﴿أشدّ﴾ خبره. وهو رفعٌ على الحكاية، تقديره: ﴿لننزعنّ﴾ الذين يقال فيهم: ﴿أيهم أشدّ على الرحمن عتيّاً﴾. ويجوز أن يكون النزع واقعاً على ﴿من كلّ شيعة﴾ كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٠] أي: لننزعنّ بعض كلّ شيعة، وكأنّ قائلاً قال: من هم؟ فقيل:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

أيّهم أشدّ عتياً. و﴿على﴾ يتعلّق بأفعل، أي: عتوّهم أشدّ على الرحمن.

٧٠ ـ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أحقّ بالنار ﴿صِلِيًّا﴾ تمييز، أي: دخولاً. والباء تتعلّق بـ«أولى».

٧١ ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ داخلها. والمراد: النار. والورود: الدخول عند عليّ وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ. وعليه جمهور أهل السنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨] ولقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] ولقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧٢] إذ النجاة إنّما تكون بعد الدخول، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلاّ دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم»[١]. و«تقول النار للمؤمن: جز يا مؤمن؛ فإنّ نورك أطفأ لهبي»[٢]. وقيل: الورود بمعنى الدخول؛ لكنّه يختصّ بالكفّار؛ لقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (وإن منهم) وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات. وعن عبد الله: الورود: الحضور، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وأجيب عنه بأن المراد: عن عذابها. وعن الحسن وقتادة: الورود: المرور على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، فيسلم أهل الجنّة، ويتقاذف أهل النار. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار: وهو مسّ الحمّى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الحمى حظّ كلّ مؤمن من النار»[٣]. وقال رجل من الصحابة لآخر: أيقنت بالورود؟ قال: نعم. قال: وأيقنت بالصدر؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ وفيم التثاقل؟ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم واجباً

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٢٩).
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) والديلمي في الفردوس (٢٣٦٥).
(٣) رواه البزار كما في كشف الأستار (٧٦٥).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾

كائناً محكوماً به. والحتم: مصدر حتم الأمر؛ إذا أوجبه، فسمّي به الموجب، كقولهم: ضرب الأمير.

٧٢ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ وعليّ: بالتخفيف ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ عن الشرك، وهم المؤمنون ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فيه دليلٌ على دخول الكلّ؛ لأنّه قال: ﴿ونذر﴾ ولم يقل: وندخل. والمذهب أنّ صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه، ثمّ ينجو لا محالة، وقالت المرجئة الخبيثة: لا يعاقب؛ لأنّ المعصية لا تضرّ مع الإسلام عندهم. وقالت المعتزلة: يخلّد.

٧٣ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات الإعجاز أو حججاً وبراهين ـ حال مؤكّدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] إذ آيات الله لا تكون إلاّ واضحة وحججاً ـ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مشركو قريش، وقد رجّلوا شعورهم، وتكلّفوا في زيّهم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للفقراء، ورؤوسهم شعثة، وثيابهم خشنة ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ بالفتح ـ وهو موضع القيام. والمراد: المكان، والمسكن. وبالضم: مكيّ، وهو: موضع الإقامة والمنزل ـ ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً يجتمع القوم فيه للمشاورة. ومعنى الآية: أنّ الله تعالى يقول: إذ أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبّر فيها إلى الافتخار بالثروة، والمال، وحسن المنزل والحال. فقال تعالى:

٧٤ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ فـ﴿كم﴾ مفعول أهلكنا، و﴿من﴾ تبيين لإبهامها، أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكلّ أهل عصر قرن لمن بعدهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنّك لو تركت: ﴿هم﴾ كان ﴿أحسن﴾ نصباً على الوصفيّة ﴿أَثَاثًا﴾ هو متاع البيت، أو: ما جدّ من الفرش ﴿وَرِئْيًا﴾ منظراً وهيئة فعيلٌ بمعنى مفعول، من: رأيت. ﴿وريّاً﴾ بغير همز مشدّداً: نافع، وابن عامر، على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ الإدغام. أو: من الريّ؛ الذي هو النعمة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾

٧٥ ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جواب ﴿مَن﴾ لأنها شرطيّة، وهذا الأمر بمعنى الخبر، أي: من كفر مدّ له الرحمن، يعني: أمهله، وأملى له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً؛ كقوله تعالى: ﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وإنّما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك، وأنّه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتُقطع معاذير الضّلال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ هي متّصلة بقوله ﴿خير مقاماً وأحسن نديّاً﴾. وما بينهما اعتراض، أي: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا، وهو تعذيب المسلمين إيّاهم بالقتل، والأسر ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وما ينالهم من الخزي، والنكال. فهما بدلان من ﴿ما يوعدون﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلاً ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أعواناً، وأنصاراً، أي: فحينئذ يعلمون أنّ الأمر على عكس ما قدّروه، وأنّهم شرّ مكاناً، وأضعف جنداً، لا خير مقاماً، وأحسن نديّاً، وأنّ المؤمنين على خلاف صفتهم. وجاز أن تتّصل بما يليها. والمعنى: أنّ الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم، لا ينفكّون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين، أو يشاهدوا الساعة. و«حتّى» هي التي يحكي بعدها الجمل. ألَا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها، وهي قوله: ﴿إذ رأوا ما يوعدون﴾ ﴿فسيعلمون﴾.

٧٦ ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ معطوف على موضع ﴿فليمدد﴾ لوقوعه موضع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّ، أو: يمدّ له الرحمن و﴿يزيد﴾، أي: يزيد في ضلال الضُلّال بخذلانه، ويزيد المهتدين، أي: المؤمنين ﴿هدى﴾ ثباتاً على الاهتداء، أو يقيناً، وبصيرة بتوفيقه ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أعمال الآخرة كلّها، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ ممّا يفتخر به الكفّار ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مرجعاً وعاقبة وفي التفضيل تهكّم بالكفّار؛ لأنّهم قالوا للمؤمنين:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾

﴿أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نديّاً﴾.

٧٧ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ثَمَّ. وبضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع: هاهنا، وفي الزخرف، ونوح: حمزة، وعليّ، جمع ولد، كأسْد في أَسَد، أو: بمعنى الوَلَد، كالعُرْب في العَرَب. ولمّا كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها، وصحّة الخبر عنها استعملوا أرأيت في معنى: أخبر. والفاء أفادت التعقيب، كأنّه قال: أخبر أيضاً بقصّة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك. وقوله: ﴿لأوتينّ﴾ جواب قسم مضمر.

٧٨ ـ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولهم: اطّلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه. الهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة، أي: انظر في اللوح المحفوظ فرأى مُنْيَتَه؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ موثقاً أن يؤتيه ذلك. أو: العهد: كلمة الشهادة.

وعن الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة. والمشهور أنّها في العاص بن وائل، فقد رُوي أنّ خباب بن الأرتّ صاغ للعاص بن وائل حليّاً، فاقتضاه الأجر، فقال: إنّكم تزعمون أنّكم تبعثون، وأنّ في الجنّة ذهباً وفضّة، فأنا أقضيك ثَمّ، فإنّي أوتي مالاً وولداً حينئذ.

٧٩ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على الخطأ، أي: هو مخطىء فيما يصوره لنفسه، فليرتدع ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: قوله. والمراد: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله، لأنّه كما قال: كتب من غير تأخير. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وهو كقوله[1]:

إذ ما انْتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمة[2] ... ...

أي: علم وتبيّن بالانتساب أنّي لست بابن لئيمة ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ نزيده ﴿من العذاب﴾ كما يزيد في الافتراء والاجتراء. من: المدد، يقال: مدّه وأمده

(١) هو زائد بن صعصعة.
(٢) صدر بيت، وعجزه: ولم تجدي من أن تقري بها بدا.

مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

بمعنى ﴿مَدًّا﴾ أكّد بالمصدر لغضبه تعالى.

٨٠ ـ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نَزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة. والمعنى: مسمى ما يقول وهو: المال، والولد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ حال، أي: بلا مال ولا ولد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾. [الإنعام: ٩٤]. فلا يجدي عليه تمنّيه، وتأليّه.

٨١ ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي: اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونها ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليتعززوا بآلهتهم، ويكونون لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب.

٨٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عمّا ظنوا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الضمير للآلهة، أي: سيجحدون عبادتهم، وينكرونها، ويقولون: والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون. أو: للمشركين، أي: ينكرون أن يكونوا قد عبدوها، كقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أي: المعبودون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المشركين ﴿ضِدًّا﴾ خصماً؛ لأنّ الله تعالى ينطقهم، فيقولون: يارب عذّب هؤلاء الذين عبدونا من دونك. والضدّ يقع على الواحد والجمع. وهو في مقابلة: ﴿لهم عزّاً﴾. والمراد ضدّ العزّ، وهو: الذّل، والهوان، أي: ﴿يكونون عليهم ضداً﴾ لما قصدوه، أي: يكونون عليهم ذلّاً، لا لهم عزّاً. وإن رجع الضمير في ﴿سيكفرون﴾ و﴿يكونون﴾ إلى المشركين، فالمعنى: ﴿ويكونون عليهم﴾ أي: أعداءهم ﴿ضدّاً﴾ أي: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

٨٣ ـ ثم عجّب نبيّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أي: خلّيناهم وإيّاهم، من: أرسلت البعير: أطلقته. أو: سلّطناهم عليهم بالإغواء ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تغريهم على المعاصي إغواء. والأزّ والهزّ أخوان. ومعناهما: التهييج، وشدّة الإزعاج.

٨٤ ـ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: إنما نعد لهم

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

أعمالهم للجزاء، أو أنفاسهم للفناء. وقرأها ابن السماك عند المأمون، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!.

٨٥، ٨٦ ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ركباناً على نوق، رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين سوق الأنعام؛ لأنّهم كانوا أضلّ من الأنعام ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشاً؛ لأنّ من يرد الماء لا يرده إلاّ لعطش. وحقيقة الورد: المسير إلى الماء، فيسمّى به الواردون. فالوفد: جمع وافد، كركب، وراكب. والورد: جمع وارد. ونصب ﴿يوم﴾ بمضمر، أي: ﴿يوم نحشر﴾ ﴿ونسوق﴾ نفعل بالفريقين ما لايوصف. أو: اذكر يوم نحشرهم.

ذُكِر المتّقون بأنّهم يُجمعون إلى ربّهم؛ الذي غمرهم برحمته، كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، والكافرون بأنّهم يساقون إلى النار، كأنّهم نعم عطاش يساقون إلى الماء استخفافاً بهم.

٨٧ ـ ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ حال. والواو إن جعل ضميراً فهو للعباد، ودلّ عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة. ويجوز أن يكون علامة للجمع، كالتي في: أكلوني البراغيث، والفاعل ﴿من اتخذ﴾ لأنّه في معنى الجمع. ومحلّ ﴿من اتخذ﴾ رفع على البدل من واو ﴿يملكون﴾ أو: على الفاعلية. أو: نصب على تقدير حذف المضاف، أي: ﴿إلاّ﴾ شفاعة ﴿من اتخذ﴾. والمراد: ﴿لا يملكون﴾ أن يُشفع لهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بأن آمن.

في الحديث: «من قال لا إله إلا الله كان له عند الله عهد»[(١)]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٧).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

كلّ صباح ومساء: اللّهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمّداً عبدك ورسولك، وإنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاّ برحمتك، فاجعل لي عهداً توفّينيه يوم القيامة، إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش. فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كان لهم عند الرحمن عهد؟ فيدخلون الجنّة»[1]. أو: يكون من: عهد الأمير إلى فلان بكذا: إذا أمره به، أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها.

٨٨ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي: النصارى واليهود، ومَن زعم أنّ الملائكة بنات الله.

٨٩ ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة. وهو ٢التفات، وأمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم ذلك. الإِدّ: العَجَبُ، أو: العظيم المنكر. والإِدّة: الشدّة. وأدّني الأمر: أثقلني، وعظم عليّ، أدّاً.

٩٠ ـ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ تقرب. وبالياء: نافع، وعليّ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ وبالنون: بصريّ، وشاميّ، وحمزة، وخلف، وأبو بكر. الانفطار: من: فطره: إذا شقّه. والتفطّر من: فطّره: إذا شقّقه ﴿مِنْهُ﴾ من عظم هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ تنخسف، وتنفصل أجزاؤها ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ وتسقط ﴿هَدًّا﴾ كسراً، أو قطعاً، أو هدماً. والهدّة: صوت الصاعقة من السماء. وهو مصدر، أي: تهدّ هدّاً من سماع قولهم. أو: مفعول له، أو: حال، أي: مهدودة.

٩١ ـ ﴿أَن دَعَوْا﴾ لأن سمّوا. ومحلّه جر بدل من الهاء في ﴿منه﴾. أو: نصب مفعول له، علّل الخرور بالهدّ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن. أو: رفع فاعل هدّاً، أي: هدّها دعاؤهم ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٣/ ٤٤).

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾

٩٢ ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ انْبغى: مطاوع بَغَى: إذ طلب، أي: ما يتأتّى له اتخاذ الولد، وما يَنطلب لو طُلب مثلاً؛ لأنّه محال غير داخل تحت الصحّة. وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة، وهو منزّه عنهما. وفي اختصاص الرحمن وتكريره كرّاتٍ بيان أنّه الرحمن وحده لا يستحقّ هذا الاسم غيره؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن.

٩٣ ـ ﴿إِن كُلُّ مَن﴾ نكرة موصوفة صفتها ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وخبر ﴿كلّ﴾ ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ووحّد ﴿آتي﴾ و﴿آتيه﴾ حملاً على لفظ ﴿كلّ﴾ وهو اسم فاعل، من: أتى. وهو مستقبل، أي: يأتيه ﴿عَبۡدٗا﴾، حال، أي: خاضعاً، ذليلاً، منقاداً. والمعنى: ما ﴿كلّ من في السموات والأرض﴾ من الملائكة والناس إلاّ هو يأتي الله يوم القيامة مقرّاً له بالعبودية. والعبوديّة والبنوّة تتنافيان حتّى لو ملك الأب ابنه يعتق عليه. ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً؟. وقرأ ابن مسعود (آتِ الرحمنَ) على أصله قبل الإضافة.

٩٤ ـ ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي: حصرهم بعلمه، وأحاط بهم.

٩٥ ـ ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا ولد، وبلا معين وناصر.

٩٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ مودّة في قلوب العباد. قال الربيع: يحبّهم الله ويحبّبهم إلى الناس. وفي الحديث: «يُعطى المؤمن مِقَةً[1] في صدور الأبرار، ومهابة في قلوب الفجّار». وعن قتادة وهَرِم:

(١) أي: محبة.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾

ما أقبل العبد إلى الله إلاّ أقبل الله بقلوب العباد إليه. وعن كعب: ما يستقرّ لعبدٍ ثناء في الأرض حتّى يستقرّ له في السماء.

٩٧ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ سهّلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك. حال ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ شداداً في الخصومة بالباطل، أي: الذين يأخذون في كلّ لديد، أي: شقّ، من: المراء والجدال. جمع: ألدّ. يريد أهل مكّة.

٩٨ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويف لهم، وإنذار ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل تجد، أو ترى، أو تعلم ـ والإحساس: الإدراك بالحاسّة ـ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً خفياً. ومنه: الركاز، أي: لمّا أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرى، ولا صوت يُسمَع، يعني: هلكوا كلّهم، فكذا هؤلاء، إن أعرضوا عن تدبّر ما أنزل عليك؛ فعاقبتهم الهلاك، فَلْيَهُنْ عليك أمرهم.

* * *

سورة طه

آياتها ١٣٥ ترتيبها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿طه﴾ فخّم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء: أبو عمرو. وأمالهما: حمزة، وعليّ، وخلف، وأبو بكر. وفخّمهما على الأصل غيرهم. وما روي عن مجاهد والحسن والضحّاك وعطاء وغيرهم أنّ معناه: يا رجل، فإن صحّ فظاهر، وإلاّ فالحقّ ما هو المذكور في سورة البقرة.

٢ ـ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إن جعلت ﴿طه﴾ تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ ـ و﴿القرآن﴾ ظاهر، أُوقع موقع المضمر لأنّها قرآن ـ وأن يكون جواباً لها، وهي قسم ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب بفرط تأسّفك عليهم، وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا، أو: بقيام الليل. فإنّه رُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام صلّى بالليل حتّى تورّمت قدماه. فقال له جبريل عليه السلام: أبقِ على نفسك، فإنّ لها عليك حقّاً[1]. أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة، وما بعثتَ إلاّ بالحنيفية السمحة.

٣ ـ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن أنزلناه تذكرة. أو: حال ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن يخافُ الله، أو: لمن يؤول أمره إلى الخشية.

---

(١) انظر: الدر المنثور (٥/٥٤٩).

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

٤ ـ ﴿تَنزِيلًا﴾ بدل من ﴿تذكرة﴾ إذا جعل حالاً، ويجوز أن ينتصب بنزّل مضمر، أو: على المدح، أو: بـ﴿يخشى﴾ مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يتعلّق بـ﴿تنزيلاً﴾، صلة له ﴿ٱلْعُلَى﴾ جمع العليا، تأنيث الأعلى. ووصف السموات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها.

٥ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفعٌ على المدح، أي: هو ﴿الرحمن﴾ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى، عن الزجاج. ونبّه بذكر العرش ـ وهو أعظم المخلوقات ـ على غيره. وقيل: لمّا كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك ممّا يردُف المُلك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا: استوى على العرش. أي: ملك وإن لم يقعد على السرير البتة. وهذا كقولك: يد فلان مبسوطة، أي: جواد وإن لم يكن له يد رأساً. والمذهب قول عليّ ـ رضي الله عنه ـ: الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأنّه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، لم يتغيّر عما كان.

٦ ـ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبر ومبتدأ ومعطوف ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ذلك كلّه ملكه ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ما تحت السبع الأرضين، أو: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

٧ ـ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ ترفع صوتك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ ما أسررته إلى غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ منه. وهو: ما أخطرته ببالك، أو: ما أسررته في نفسك، وما ستسرّه فيها.

٨ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: هو واحد بذاته وإن افترقت عبارات صفاته. ردّاً لقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى. و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾

٩ ـ ﴿وَهَلْ﴾ أي: وقد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ خبره. قفّاه بقصّة موسى ـ عليه السلام ـ ليأتسي به في تحمّل أعباء النبوّة والصبر على المكاره؛ لينال الدرجة العليا كما نالها موسى عليه السلام.

١٠ ـ ﴿إِذْ رَءَا﴾ ظرف لمضمر، أي: حين رأى ﴿نَارًا﴾ كان كيت وكيت، أو: مفعول به لا ذكر. رُوي أنّ موسى ـ عليه السلام ـ استأذن شعيباً في الخروج إلى أمّه، وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابنٌ في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلّ الطريق، وتفرّقت ماشيته، ولا ماء عنده، وقدح فصلَد زنده[1]، فرأى عند ذلك ﴿ناراً﴾ في زعمه، وكان نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أقيموا في مكانكم ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا﴾ والإيناس: رؤية شيء يُؤنس به ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ بنى الأمر على الرجاء؛ لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ بنار مقتبسة في رأس عود، أو: فتيلة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ ذوي هدى، أي: قوماً يهدونني الطريق. ومعنى الاستعلاء في ﴿على النار﴾ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها.

١١ ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقّد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها. وكانت شجرة العنّاب، أو العوسج، ولم يجد عندها أحداً. ورُوي أنّه كلّما طلبها بعدت عنه، فإذا تركها قربت منه. فثَمّ ﴿نُودِىَ﴾ موسى ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾.

١٢ ـ ﴿إِنِّىٓ﴾ بكسر الهمزة، أي: ﴿نودي﴾ فقيل: ﴿يا موسى إنّي﴾، ولأنّ النداء ضرب من القول، فعومل معاملته. وبالفتح: مكّيّ، وأبو عمرو، أي: نودي بأنّي ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ مبتدأ، أو: تأكيد، أو فصل. وكرّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة. رُوي: أنّه لمّا نودي ﴿يا موسى﴾ قال: من المتكلم؟

(١) «صلد زنده»: صوّت، ولم يخرج ناراً.

فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا

فقال الله عز وجل: ﴿أنا ربّك﴾ فعرف أنّه كلام الله عزّ وجلّ بأنّه سمعه من جميع جهاته الستّ، وسمعه بجميع أعضائه ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدّس، أو: لأنّهما كانتا من جلد حمار ميّت غير مدبوغ، أو: لأنّ الحفوة تواضع لله. ومن ثمّ طاف السلف بالكعبة حافين. والقرآن يدلّ على أنّ ذلك احترام للبقعة. وتعظيم لها. فخلعهما، وألقاهما من وراء الوادي ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهّر، أو: المبارك ﴿طُوٗى﴾ حيث كان مُنوَّن: شاميّ، وكوفيّ، لأنّه اسم علم للوادي، وهو بدل منه. وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة. وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين.

١٣ ـ ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوّة. (وإنّا اخترناك): حمزة ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك، للذي يوحى، أو: للوحي. واللام يتعلّق بـ«استمع»، أو: بـ﴿اخترتك﴾.

١٤ ـ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وحّدني، وأطعني ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار، أو: لأني ذكرتها في الكتب، وأمرت بها. أو: لأنْ أذكرك بالمدح والثناء، أو: لذكري خاصّة، لا تشوبه بذكر غيري، أو: لتكون لي ذاكراً غير ناس. أو: لأوقات ذكري، وهي مواقيت الصلاة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانه. وذا يصحّ بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي. وهذا دليلٌ على أنّه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها.

١٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لا محالة ﴿أَكَادُ﴾ أريد، عن الأخفش. وقيل: صلة. ﴿أُخۡفِيهَا﴾ قيل: هو من الأضداد، أي: أظهرها، أو: أسترها عن العباد، فلا أقول: هي آتية؛ لإرادتي إخفاءها. ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة ـ وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾

في كلّ وقت ـ لما أخبرت به ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلّق بـ﴿آتية﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بسعيها من خير أو شرّ.

١٦ ـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفنّك عن العمل للساعة، أو: عن إقامة الصلاة، أو: عن الإيمان بالقيامة. فالخطاب لموسى، والمراد به: أمّته ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لا يصدّق بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في مخالفة أمره ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك.

١٧ ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ «ما» مبتدأ، و﴿تلك﴾ خبره. وهي بمعنى: هذه. و﴿بيمينك﴾ حال عمل فيها معنى الإشارة، أي: قارّة، أو: مأخوذة بيمينك. أو: ﴿تلك﴾ موصول صلته ﴿بيمينك﴾. والسؤال للتنبيه ليقع المعجز بها بعد التثبّت فيها، أو: للتوطين لئلا يهوله انقلابها حيّة، أو: للإيناس، ورفع الهيبة في المكالمة.

١٨ ـ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا أعييت، أو: وقفت على رأس القطيع، وعند الطفرة[١] ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أخبط ورق الشجر ﴿على غنمي﴾ لتأكله ﴿وَلِىَ فِيهَا﴾ حفص ﴿مَـَٔارِبُ﴾ جمع مأربة بالحركات الثلاث، وهي: الحاجة ﴿أُخْرَىٰ﴾ والقياس: أُخَر. وإنّما قال ﴿أخرى﴾ ردّاً إلى الجماعة، أو: لنسق الآي. وكذا «الكبرى». ولمّا ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل، أو: ليسأل عنها الملك العلّام، فيزيد في الإكرام. والمآرب الأخر: أنّها كانت تماشيه، وتحدّثه، وتحارب العدوّ والسباع، وتصير رشاء فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وتحمل زاده، ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب. وكانت تقيه الهوامّ. والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكراً، أو: لأنّها جواب سؤال آخر؛ لأنّه لمّا قال: ﴿هي عصاي﴾ قيل له: ما تصنع بها؟ فأخذ يعدّد منافعها.

(١) «الطفرة»: الوثبة.

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾

١٩ ـ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ اطرح عصاك لتفرُغَ مما تتكىء عليه، فلا تسكن إلا بنا، وترى كنه ما فيها من المآرب، فتعتمد علينا في المطالب.

٢٠ ـ ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ فطرحها ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشي سريعاً. قيل: انقلبت ثعباناً يبتلع الصخر والشجر، فلمّا رآه يبتلع كلّ شيء خاف، وإنّما وصفت بالحيّة هنا، وبالثعبان ـ وهو العظيم من الحيات، وبالجانّ وهو الدقيق ـ في غيرها، لأنّ الحيّة اسم جنس يقعُ على الذكر، والأنثى، والصغير، والكبير. وجاز أن تنقلب حيّة صفراء دقيقة، ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجانّ أوّل حالها، وبالثعبان مآلها. أو: لأنّها كانت في عظم الثعبان، وسرعة الجانّ. وقيل: كان بين لَحيَيها أربعون ذراعاً.

٢١ ـ ولما ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها، وأخذ بلحييها ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ سنردّها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ تأنيث الأوّل. والسيرة: الحالة التي يكون عليها الإنسان، غريزيّة كانت، أو: مكتسبة. وهي في الأصل فِعْلة من السير، كالركبة من الركوب. ثمّ استعملت بمعنى الحالة، والطريقة. وانتصبت على الظرف، أي: سنعيدها في طريقتها الأولى، أي: في حال ما كانت عصا. والمعنى: نردّها عصا كما كانت. وأُري ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها إذا انقلبت حيّة عند فرعون.

٢٢ ـ ثم نبّه على آية آخرى فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد. وجناحا الإنسان: جنباه. والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سمّيا جناحين لأنّه يُجْنحهما عند الطيران. والمعنى: أدخلها تحت عضدك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس يُغْشي البصر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ لنبوّتك. ﴿بيضاء﴾ ﴿وآية﴾ حالان معاً. و﴿من غير سوء﴾ «من» صلة ﴿بيضاء﴾ كقولك: ابيضّت من غير سوء. وجاز أن ينتصب ﴿آية﴾ بفعل محذوف يتعلّق به لام:

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾

٢٣ ـ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حيّة لنريك بهاتين الآيتين بعض ﴿آياتنا الكبرى﴾ العظمى، أو: لنريك بهما الكبرى من آياتنا. أو المعنى: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.

٢٤ ـ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوز حدّ العبوديّة إلى دعوى الربوبيّة.

٢٥ ـ ولمّا أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي، وعرف أنّه كلّف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وسّعه ليحتمل الوحي والمشاقّ، ورديء الأخلاق من فرعون وجنده.

٢٦ ـ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ وسهّل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون. و﴿اشرح لي صدري﴾ آكد من: اشرح صدري؛ لأنّه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل؛ لأنّه بِقَوْله: ﴿اشرح لي﴾ و﴿يسّر لي﴾ علم أنّ ثمّ مشروحاً وميسّراً، ثمّ رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر.

٢٧ ـ ﴿وَٱحْلُلْ﴾ افتح ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ وكان في لسانه رتّة[1] للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه. وذلك لأنّ موسى أخذ لحية فرعون، ولطمه لطمة شديدة في صغره، فأراد قتله، فقالت آسية: أيّها الملك إنّه صغير لا يعقل، فجعلت في طشت ناراً، وفي طشت يواقيت، ووضعتهما لدى موسى، فقصد اليواقيت، فأمال المَلَكُ يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه، فاحترق لسانه، فصار لُكْنَةً منها. ورُوي أن يده احترقتْ، واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ. ولمّا دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي، وقد عجزتَ عنها. و﴿من لساني﴾ صفة لعقدة، كأنّه قيل: عقدة من عقد لساني، وهذا يشعر بأنّه لم تزل العقدة بكمالها. وأكثرهم على ذهاب جميعها.

٢٨ ـ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ عند تبليغ الرسالة.

(١) «الرتة»: العجمة في الكلام.

وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

٢٩ ـ ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾ ظهيراً أعتمد عليه، من: الوِزْر: الثِّقْل؛ لأنّه يتحمّل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو: من الوَزَر: الملجأ؛ لأنّ الملك يعتصم برأيه، ويُلْجِىء إليه أموره، أو: معيناً، من: الموازرة وهي: المعاونة. فوزيراً مفعول أوّل لـ : اجعل، والثاني: ﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ أو: ﴿لي وزيراً﴾ مفعولاه. وقوله:

٣٠ ـ ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان للوزير. وقوله: ﴿أَخِي﴾ بدل، أو: عطف بيان آخر. أو: ﴿وزيراً﴾ و﴿هارون﴾ مفعولاه. وقدّم ثانيهما على أوّلهما عناية بأمر الوزارة.

٣١ ـ ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ قوّ به ظهري. وقيل: الأزر: القوّة.

٣٢ ـ ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ اجعله شريكي في النبوّة والرسالة. و﴿أَشْدُدْ﴾ ﴿وأُشرِكْه﴾ على حكاية النفس: شاميّ على الجواب. والباقون: على الدعاء، والسؤال.

٣٣ ـ ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ﴾ نصلي لك، وننزّهك تسبيحاً ﴿كَثِيرٗا﴾.

٣٤ ـ ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ في الصلوات، وخارجها.

٣٥ ـ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ عالماً بأحوالنا.

٣٦ ـ فأجابه الله تعالى حيث: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أعطيت مسؤولك. فالسُّؤْل: الطلبة، فُعْل بمعنى: مفعول، كخبز بمعنى مخبوز. ﴿سولك﴾ بلا همز: أبو عمرو.

٣٧ ـ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَيۡكَ مَرَّةً﴾ كرّة ﴿أُخۡرَىٰٓ﴾ قبل هذه. ثمّ فسّرها فقال:

٣٨ ـ ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إلهاماً، أو: مناماً حين ولدت. فكان فرعون يقتل أمثالك. و﴿إذ﴾ ظرف لـ ﴿مننّا﴾. ثمّ فسّر ﴿ما يوحى﴾ بقوله:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾

٣٩ ـ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ ألقيه ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾. و﴿أن﴾ مفسّرة؛ لأنّ الوحي بمعنى القول ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ الجانب، وسُمِّي ساحلاً لأنّ الماء يَسحَله، أي: يقشِرُه. والصيغة أمر ليناسب ما تقدّم، ومعناه: الإخبار، أي: يلقيه اليمّ بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني: فرعون. والضمائر كلّها راجعة إلى موسى عليه السلام. ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تنافر النظم. والمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل، إن كان هو التابوت، لكنّ موسى عليه السلام في جوف التابوت. رُوي: أنّها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه، وقيّرته[1]، ثم ألقته في اليمّ. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير. وبينا هو جالسٌ على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به، فأخرج، ففتح، فإذا صبيٌّ أصبحُ الناس وجهاً، فأحبّه فرعون حبّاً شديداً، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. يتعلّق ﴿منّي﴾ بألقيت، يعني: إنّي أحببتك، ومن أحبّه الله أحبّته القلوب، فما رآه أحد إلاّ أحبّه. قال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحة ما رآها أحد إلاّ أحبّه ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿وألقيت عليك محبّة﴾ لتحبّ ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: لتربّى بمرأى منّي. وأصله من صنع الفرس، أي: أحسن القيام عليه، يعني: أنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ﴿ولْتُصْنَعْ﴾ بسكون اللام والجزم: يريد على أنّه أمر.

٤٠ ـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ بدل من ﴿إذ أوحينا﴾ لأنّ مشيَ أخته كان منّة عليه ﴿أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ رُوي أنّ أخته مريم جاءت متعرّفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت:

(١) قيّرته: دهنته بالقار، وهو الزفت: أحد المنتجات الثقيلة التي تتخلف من تقطير البترول الخام.

فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾

هل أدلّكم على من يضمّه إلى نفسه فيربيه؟ وأرادت بذلك المرضعة. وتذكير الفعل للفظ ﴿من﴾. فقالوا: نعم. فجاءت بالأمّ فقبل ثديها، فذلك قوله ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾ فرددناك ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ كما وعدناها بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قبطيّاً كافراً ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ من القود. قيل: الغمّ: القتل بلغة قريش. وقيل: اغتمّ بسبب القتل خوفاً من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له(١) باستغفاره ﴿قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي﴾. ونجّاه من فرعون بأن [ذهب به](٢) من مصر إلى مدين ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاء بإيقاعك في المحن، وتخليصك منها. والفتون: مصدر كالقعود. أو: جمع فتنة، أي: فتنّاك ضروباً من الفتن. والفتنة: المحنة، وكلّ ما يبتلي الله به عباده فتنة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب ـ عليه السلام ـ على ثماني مراحل من مصر. قال وهب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشر منها مهر لصفوراء، وأقام عنده ثماني عشرة سنة بعدها حتّى ولد له أولاد ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: موعد ومقدار للرسالة، وهو أربعون سنة.

٤١ ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ اخترتك، واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرّف على إرادتي ومحبتي. قال الزجاج: اخترتك لأمري، وجعلتك القائم بحجّتي، والمخاطب بيني وبين خلقي، كأنّي أقمت عليهم الحجة، وخاطبتهم.

٤٢ ـ ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ بمعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تفترا. من الوني، وهو: الفتور، والتقصير ﴿فِى ذِكْرِى﴾ أي: اتخذا ذكري جناحاً تطيران به. أو:

(١) مستدرك من المطبوع.
(٢) في الأصل: ذهبتَ.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

أريد بالذكر تبليغ الرسالة. فالذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها.

٤٣ ـ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كرّر، لأنّ الأوّل مطلق، والثاني مقيّد ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوز الحدّ بادّعاء الربوبيّة.

٤٤ ـ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الطُفا له في القول؛ لما له من حقّ تربية موسى، أو: كنّياه، وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة[1]. أو: عِدَاه شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع عنه إلاّ بالموت. أو: هو قوله: ﴿هل لك إلى أن تزكّى وأهديك إلى ربّك فتخشى﴾ فظاهره: الاستفهام، والمشورة ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتّعظ، ويتأمّل، فيذعن للحقّ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجرّه إنكاره إلى الهلكة. وإنّما قال: ﴿لعلّه يتذكّر﴾ مع علمه أنّه لا يتذكّر؛ لأنّ الترجّي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر علمه. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بأنّه لن يؤمن إلزام الحجة، وقطع المعذرة. وقيل معناه: ﴿لعلّه يتذكّر﴾ متذكّر ﴿أو يخشى﴾ خاشٍ. وقد كان ذلك من كثير من الناس. وقيل: ﴿لعلّ﴾ من الله واجب، وقد تذكّر، ولكن حين لم ينفعه التذكّر. وقيل: تذكّر فرعون، وخشي، وأراد اتّباع موسى، فمنعه هامان، وكان لا يقطع أمراً دونه. وتُليتْ عند يحيى بن معاذ فبكى، وقال: هذا رفقك بمن يقول أنا إلهٌ، فكيف بمن قال: أنت الإله؟ وهذا رفقك بمن قال: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ فكيف بمن قال: سبحان ربّي الأعلى؟

٤٥ ـ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يعجل علينا بالعقوبة. ومنه: الفارط، يقال: فرط عليه، أي: عَجِل ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا.

---

(١) هذا الكلام لا صحة له لا من نقل ولا من عقل، وإنما هو مجرد روايات إسرائيلية مضحكة!!.

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ
مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ

٤٦ ـ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿أَسۡمَعُ﴾ أقوالكم ﴿وَأَرَىٰ﴾ أفعالكم. قال ابن عباس: ﴿أسمع﴾ دعاءكما فأجيبه ﴿وأرى﴾ ما يراد بكما فأمنع، لست بغافل عنكما، فلا تهتمّا.

٤٧ ـ ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ أي: فرعون ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم عن الاستعباد، والاسترقاق ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ بتكليف المشاقّ ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾ بحجّة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على صدق ما ادَّعينا. وهذه الجملةُ جاريةٌ من الجملة الأولى، وهي: ﴿إنّا رسولا ربّك﴾ مجرى البيان، والتفسير؛ لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلّا ببيّنتها، وهي المجيء بالآية فقال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي: سلم من العذاب من أسلم، وليس بتحيّة. وقيل: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنّة على المهتدين.

٤٨ ـ ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ﴾ في الدنيا والعقبى ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان. وهي أرجى آي القرآن، لأنّه جعل جنس السلام للمؤمن، وجنس العذاب على المكذّب، وليس وراء الجنس شيء. فأتياه، وأدّيا الرسالة، وقالا له ما أُمِرا به.

٤٩ ـ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ خاطبهما، ثمّ نادى أحدهما؛ لأنّ موسى هو الأصل في النبوّة، وهارون تابعه.

٥٠ ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ «خلقه»: أوّل مفعولي أعطى، أي: أعطى خليقته كلّ شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به. أو: ثانيهما، أي: أعطى كلّ شيء صورته وشكله؛ الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذا الأنف

ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

والرِّجل واليد كلّ واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها. وقرأ نصير: ﴿خَلَقه﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه، أي: ﴿أعطى كل شيء﴾ مخلوق عطاء ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عرّف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا، والسعادة في العقبى.

٥١ ـ ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حال الأمم الخالية، والرمم البالية؟ سأله عن حال مَن تقدّم من القرون، وعن شقاء مَن شقي منهم، وسعادة مَن سعد.

٥٢ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ ـ مبتدأ وخبر ـ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: اللوح. خبر ثان. أي: هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلاّ هو، وما أنا إلاّ عبد، لا أعلم منه إلاّ ما أخبرني به علاّم الغيوب. وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ أي: لا يخطىء شيئاً. يقال: ضلَلت الشيء: إذا أخطأته في مكانه، فلم تهتدِ له، أي: لا يخطىء في سعادة الناس وشقاوتهم ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثوابهم وعقابهم. وقيل: ﴿لا ينسى﴾ ما علم، فيذكّره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أنّ معمول الخلق يوافق معلومه.

٥٣ ـ ﴿ٱلَّذِى﴾ مرفوع صفة لـ«ربّي»، أو: خبر مبتدأ محذوف. أو: منصوب على المدح ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ كوفيّ. وغيرهم: (مهاداً). وهما لغتان لما يبسط، ويفرش ﴿وَسَلَكَ﴾ أي: جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بالماء. نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطَاوَع للافتنان. وقيل: تمّ كلام موسى، ثمّ أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فأخرجنا به﴾ وقيل: هذا كلام موسى، أي: فأخرجنا نحن بالحراثة، والغرس ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ هو مصدر، سُمِّي به النابت، فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿شَتَّىٰ﴾ صفة للأزواج، أو: للنبات، جمع: شتيت، كمريض ومرضى، أي: أنّها مختلفة النفع، والطعم، واللون، والرائحة، والشكل، بعضها للناس، وبعضها للبهائم. ومن نعمته تعالى أنّ أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا﴾

الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتنا، ما لا تقدر على أكله قائلين:

٥٤ ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿فأخرجنا﴾، والمعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها، وتعلفوا بعضها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في الذي ذكرت ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ لدلالات ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول، واحدها: نُهية؛ لأنها تنهى عن المحظور، أو: يُنتهى إليها في الأمور.

٥٥ ـ ﴿۞ مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ أي: أباكم آدم ـ عليه السلام ـ وقيل: يعجن كلّ نطفة بشيء من تراب مدفنه، فيخلق من التراب والنطفة معاً، أو: لأنّ النطفة من الأغذية، وهي من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا متّم فدفنتم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾. والمراد بإخراجهم: أنّه يؤلّف أجزاءهم المتفرّقة المختلطة بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر.

عدّد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلّبون عليها، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرّعوا، وأمّهم التي منها ولدوا، وهي كفاتهم إذا ماتوا.

٥٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ﴾ أي: فرعون ﴿ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ وهي تسع آيات: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل ﴿فَكَذَّبَ﴾ الآيات ﴿وَأَبَىٰ﴾ قبول الحقّ.

٥٧ ـ ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنّه خاف منه خوفاً شديداً. وقوله: ﴿بسحرك﴾ تعلّل. وإلاّ فأيّ ساحر يقدر أن يخرجَ ملكاً من أرضه؟

٥٨ ـ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فلنعارضنّك بسحر مثل سحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

﴿وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر بمعنى الوعد. ويقدّر مضاف، أي: مكان موعد. والضمير في: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ للموعد. قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر. وغيره بالرفع على الوصف للموعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا﴾ هو بدل من المكان المحذوف. ويجوز ألّا يقدّر مضاف، ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه. وانتصب مكاناً بالمصدر، أو: بفعل يدلّ عليه المصدر ﴿سُوًى﴾[1] بالكسر: حجازيّ، وأبو عمرو، وعليّ. وغيرهم بالضمّ. وهو نعت لـ﴿مكاناً﴾، أو: مَنْصَفاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية.

٥٩ ـ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مبتدأ وخبر. وهو يوم عيدٍ كان لهم. أو: يوم نيروز. أو: يوم عاشوراء. وإنّما استقام الجواب بالزمان ـ وإن كان السؤال عن المكان على التأويل الأوّل ـ لأنّ اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لا محالة، فبذكر الزمان علم المكان، وعلى الثاني تقديره: وعدكم وعد يوم الزينة ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمع. في موضع رفع، أو: جرّ عطفاً على ﴿يوم﴾ أو: ﴿الزنية﴾ ﴿ضُحًى﴾ أي: وقت الضحوة؛ ليكون أبعد عن الريبة، وأبين لكشف الحقّ، وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

٦٠ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أدبر عن موسى معرضاً ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ مكره، وسحرته. وكانوا اثنين وسبعين، أو أربعمئة، أو سبعين ألفاً ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ للموعد.

٦١ ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ كوفيّ، غير أبي بكر. يهلككم. وغيرهم بفتح الياء والحاء. والسحت والإسحات بمعنى الإعدام. وانتصب على جواب النهي ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ من كذب على الله.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿سِوَى﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

٦٢ ـ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ اختلفوا، أي: السحرة، فقال بعضهم: هو ساحر مثلنا، وقال بعضهم: ليس هذا بكلام السحرة، أي: ﴿لا تفتروا على الله كذباً﴾ الآية ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي: تشاوروا في السرّ، وقالوا: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. والنجوى: يكون مصدراً واسماً. ثمّ لفّقوا هذا الكلام يعني:

٦٣ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يعني: موسى وهارون. قرأ أبو عمرو: (إنّ هذين لساحران) وهو ظاهر، ولكنّه مخالف للإمام. وابن كثير، وحفص، والخليل ـ وهو أعرف بالنحو واللغة ـ: ﴿إنْ هذان لساحران﴾ بتخفيف ﴿إن﴾ مثل قولك: إنْ زيد لمنطلق. واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخفّفة من الثقيلة. وقيل: هي بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلاّ»، أي: ما هذان إلاّ ساحران. دليله قراءة أبيّ: (إن ذان إلاّ ساحران) وغيرهم: ﴿إنّ هذان لساحران﴾ قيل: هي لغة بلحارث بن كعب، وخثعم، ومراد، وكنانة، فالتثنية في لغتهم بالألف أبداً، فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب، كعصا وسعدى، قال(١):

إنَّ أبـاهـا وأبـا أبـاهـا قـد بَلَغـا في المجـدِ غـايتـاهـا

وقال الزجاج: ﴿إنّ﴾ بمعنى نعم، قال الشاعر(٢):

ويَقُلْـنَ شيـبٌ قـد عـلا ك وقـد كبرتَ فقلـتُ إنَّـهْ

أي: نعم. والهاء للوقف. و﴿هذان﴾ مبتدأ، و﴿ساحران﴾ خبر مبتدأ محذوف. واللام داخلة على المبتدأ المحذوف، تقديره: هذان لهما ساحران، فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها، وهو الابتداء، أو قد تدخل اللام في الخبر، كما تدخل في المبتدأ. قال:

خالي لأنت ومن جرير خاله ... ...

---

(١) الشاعر: رؤبة، أو أبو النجم، أو رجل من بني الحارث بن كعب.
(٢) هو: عبيد الله بن قيس الرقيات.

يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

قال: وعرضته على المبرد فرضيه، وقد زيفه أبو عليّ.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بدينكم، وشريعتكم ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ الفضلى، تأنيث الأمثل، وهو: الأفضل.

٦٤ ـ ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ فأحكموا، أي: اجعلوه مجمعاً عليه حتّى لا تختلفوا. ﴿فاجْمَعوا﴾: أبو عمرو، ويعضُده ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] ﴿كَيْدَكُمْ﴾ هو ما يكاد به ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ مصطفّين، حال. أمروا بأن يأتوا صفاً؛ لأنّه أهيب في صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ وقد فاز من غلب. وهو اعتراض.

٦٥ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك أوّلاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما معنا. وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر، أو: رفع بأنّه خبر مبتدأ محذوف. معناه: اختر أحد الأمرين، أو: الأمر إلقاؤك، أو إلقاؤنا. وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه. وكأنّه تعالى ألهمهم ذلك، وقد وصّل إليهم بركته، وعلّم موسى عليه السلام اختيار إلقائهم أوّلاً حتّى:

٦٦ ـ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أوّلاً ليبرزوا ما معهم من مكائد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه، ويسلّط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيّرة للناظرين، وعبرة بيّنة للمعتبرين. فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ يقال في ﴿إذا﴾ هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق: أنّها إذا الكائنة لمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها، وجملة تضاف إليها، خصّت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجآت، والجملة ابتدائيّة لا غير. والتقدير: ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيّهم. والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيّهم، مخيّلة إليه السّعي ﴿يُخَيَّلُ﴾ وبالتاء: ابن ذكوان

إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ رفع بدل اشتمال من الضمير في ﴿يخيّل﴾ أي: يخيّل الملقي. رُوي: أنهم لطخوها بالزئبق، فلمّا ضربت عليها الشمس اضطربت، واهتزّت، فخيّلت ذلك.

٦٧ ـ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أضمر في نفسه خوفاً، ظنّاً منه أنّها تقصده؛ للجبلّة البشريّة. أو: خاف أن يخالج الناس شكّ فلا يتّبعوه.

٦٨ ـ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الغالب، القاهر. وفي ذكر إنّ وأنت وحرف التعريف ولفظ العلوّ ـ وهو: الغلبة الظاهرة ـ مبالغة بيّنة.

٦٩ ـ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ﴾ بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف: حفص. و﴿تَلَقّفُ﴾ ابن ذكوان. الباقون: تلقّفْ ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ زوّروا، وافتعلوا، أي: اطرح عصاك تبتلع عصيّهم وحبالهم. ولم يقل عصاك تعظيماً لها، أي: لا تحتفل بما صنعوا، فإنّ ما في يمينك أعظم منها. أو: تحقيراً، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العُوَيْد الفرد الذي في يمينك، فإنّه بقدرة ربك يتلقّفها على وحدته، وكثرتها ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ سِحْر: كوفي ـ غير عاصم ـ بمعنى ذي سحر، أو: هم لتوغّلهم في سحرهم، كأنّهم السحر. و﴿كيد﴾ بالرفع على القراءتين. و﴿ما﴾ موصولة، أو: مصدريّة. وإنّما وُحِّد ﴿ساحر﴾ ولم يُجْمع؛ لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسيّة، لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيّل أنّ المقصود هو العدد، ألَا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أينما كان.

٧٠ ـ فألقى موسى عصاه فتلقّفت ما صنعوا، فلعظيم ما رأوا من الآية دُفِعوا إلى السجود، فذلك قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنّهم ألقوا، فما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود، ثمّ ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! رُوي: أنهم رأوا الجنّة ومنازلهم فيها في السجود، فرفعوا رؤوسهم

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾

ثمّ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ إنّما قدم هارون هنا، وأخّر في الشعراء، محافظة للفاصل ولأنّ الواو لا توجب ترتيباً.

٧١ ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ بغير مدّ: حفص. وبهمزة ممدودة: بصريّ، وشاميّ، وحجازيّ. وبهمزتين: غيرهم ـ ﴿لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لموسى. يقال: آمن له، وآمن به ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ لعظيمكم، أو: لمعلّمكم. يقول أهل مكّة للمعلّم: أمرني كبيري ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ القطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كلّ واحد من العضوين يخالف الآخر بأنّ هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال. و﴿مِّنْ﴾ لابتداء الغاية؛ لأنّ القطع مبتدأ، وناشىء من مخالفة العضو العضوَ. ومحلّ الجار والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنّها مختلفات؛ لأنّها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتّصفت بالاختلاف. شبّه تمكّن المصلوب في الجذع بتمكّن المظروف في الظرف؛ فلذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وخصّ ﴿النخل﴾ لطول جذوعها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على إيمانكم به، أو: ربّ موسى على ترك الإيمان. وقيل: يريد نفسه ـ لعنه الله ـ وموسى عليه السلام ـ بدليل قوله: ﴿آمنتم له﴾. واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، كقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم.

٧٢ ـ ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ القاطعة الدالّة على صدق موسى ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطف على ﴿ما جاءنا﴾، أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم. وجوابه: ﴿لن نؤثرك﴾ مقدم على القسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القطع والصلب. قال[1]:

(١) الشاعر: أبو ذؤيب.

إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

وعَلَيْهما مَسْرُودتانِ قَضَاهُما[1] ... ...

أي: صَنَعَهُما. أو: احكم ما أنت حاكم ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: في هذه الحياة الدنيا، فانتصبت على الظرف، أي: إنّما تحكم فينا مدّة حياتنا.

٧٣ ـ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ «ما»: موصولة منصوبة بالعطف على ﴿خطايانا﴾ ﴿مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ حال من ﴿ما﴾. رُوي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر، انظر كيف نفعهم علمهم بالسحر، وضرّ فرعونَ جهلُه به؟ فكيف بعلم الشرع؟! ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ ثواباً لمن أطاعه ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ عقاباً لمن عصاه. وهو ردّ لقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

٧٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو ضمير الشأن. ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ كافراً ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ للمجرم ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح بالموت ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

٧٥ ـ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ مات على إيمانه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد الإيمان ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ جمع العليا.

٧٦ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر من الشرك بقول: لا إله إلاّ الله. قيل: هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم. وقيل: خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية، وهو أظهر.

---

(١) صدر بيت، وعجزه: داودُ، أو صَنَعُ السوابغِ تُبعُ.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ

٧٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ لمّا أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه؛ أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً، ويأخذ بهم طريق البحر ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: اجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً ﴿يَبَسًا﴾ أي: يابساً. وهو مصدرٌ وصف به، يقال: يبِس يَبَساً، ويُبْساً ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ حال من الضمير في ﴿فاضرب﴾، أي: اضرب لهم طريقاً غير خائف. ﴿لا تخفْ﴾: حمزة على الجواب ﴿دَرَكًا﴾ هو اسمٌ من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده، ولا يلحقونك ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق. وعلى قراءة حمزة: ﴿ولا تخشى﴾ استئناف، أي: وأنت لا تخشى. أو: يكون الألف للإطلاق، كما في ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]. فخرج بهم موسى من أوّل الليل، وكانوا سبعين ألفاً، وقد استعاروا حليّهم، فركب فرعون في ستمئة ألف من القبط، فقصّ أثرهم، فذلك قوله.

٧٨ ـ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وهو حال، أي: خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أصابهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾. هو من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

٧٩ ـ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وما أرشدهم إلى الحقّ والسداد. وهذا ردّ لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

٨٠ ـ ثم ذكرمنّته على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر، وأهلك فرعون وقومه، بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ﴿أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ وقلنا: ﴿يا بني إسرائيل﴾ ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أي: فرعون ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾. وذلك: أن الله تعالى وعد موسى أن يأتي هذا المكان، ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة. وإنّما نسب إليهم المواعدة؛ لأنّها كانت لنبيّهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم، ودينهم. و﴿الأيمن﴾ نصب، لأنّه صفة جانب. وقرِئ

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

بالجرّ على الجوار ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ في التيه، وقلنا لكم:

٨١ ـ ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. ﴿أنجيتكم﴾. ﴿وواعدتكم﴾. ﴿ورزقتكم﴾ كوفيّ ـ غير عاصم ـ ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ولا تتعدّوا حدود الله فيه؛ بأن تكفروا النعم، وتنفقوها في المعاصي، أو: لا يظلم بعضكم بعضاً فيه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ عقوبتي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك، أو: سقط سقوطاً لا نهوض بعده. وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك. وتحقيقه: سقط من شرف الإيمان، إلى حفرة من النيران. قرأ عليّ: ﴿فيحُل﴾، ﴿ويحلُل﴾. والباقون بكسرهما. فالمكسور في معنى الوجوب، مِن: حلّ الدين يحلّ: إذا وجب أداؤه. والمضمون في معنى النزول.

٨٢ ـ ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ وحّد الله تعالى، وصدّقه فيما أنزل ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدّى الفرائض ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثمّ استقام، وثبت على الهدى المذكور. وهو: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

٨٣ ـ ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ وأيّ شيء عَجَّل بك ﴿عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: عن السبعين الذين اختارهم. وذلك: أنّه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب، ثمّ تقدّمهم شوقاً إلى كلام ربّه، وأمرهم أن يتّبعوه. فقال الله تعالى: ﴿وما أعجلك﴾ أيّ شيء أوجب عجلتك؟! استفهام إنكار. و﴿ما﴾ مبتدأ و﴿أعجلك﴾ الخبر.

٨٤ ـ ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: هم خلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلاّ مسافة يسيرة. ثمّ ذكر موجب العجلة، فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾ أي: إلى الموعد الذي وعدت ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ لتزداد عنّي رضاً. وهذا دليلٌ على جواز الاجتهاد.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ

٨٥ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ألقيناهم في فتنة ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ من بعد خروجك من بينهم. والمراد بالقوم: الذين خلفهم مع هارون ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ بدعائه إيّاهم إلى عبادة العجل، وإجابتهم له. وهو منسوبٌ إلى قبيلة من بني إسْرائيل يقال لها: السامرة. وقيل: كان علجاً من كرمان، فاتخذ عجلاً. واسمه: موسى بن ظفر، وكان منافقاً.

٨٦ ـ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من مناجاة ربّه ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب، أو: حزيناً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، وكانت ألف سورة، كلّ سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً. ولا وعد أحسن من ذلك ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: مدّة مفارقتي إيّاكم. والعهد: الزمان. يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربّكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره، وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.

٨٧ ـ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم: مدنيّ، وعاصم. وبضمّها: حمزة، وعليّ. وبكسرها: غيرهم. أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا، وخلّينا، ورأينا لما أخلفناه، ولكنّا غلبنا من جهة السامريّ، وكيده ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بالضمّ والتشديد: حجازيّ، وشاميّ، وحفص. وبفتح الحاء والميم مع التخفيف: غيرهم ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أثقالاً من حليّ القبط، أو: أرادوا بالأوزار: أنّها آثام وتبعات؛ لأنّهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلّة أنّ غداً لنا عيدٌ، فقال السامريّ: إنّما حبس موسى لشؤم حرمتها ـ لأنّهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس

فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ
إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ
فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾

للمستأمن أن يأخذ مال الحربيّ. على أنّ الغنائم لم تكن تحل حينئذ ـ فأَحْرقوها. فخبأ في حفرة النار قالب عجل، فانصاغت عجلاً مجوّفاً فخار بدخول الريح في مجارٍ منه أشباه العروق. وقيل: نفخ فيه تراباً من موضع قوائم فرس جبريل ـ عليه السلام ـ يوم الغرق، وهو فرس الحياة فحيي، فخار، ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه ﴿فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ في نار السامريّ التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحليّ في النار، أو: ما معه من التراب؛ الذي أُخذ من أثر حافر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ.

٨٨ ـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السامريّ من الحفرة ﴿عِجْلًا﴾ خلقه الله تعالى من الحليّ التي سبكتها النار ابتلاء ﴿جَسَدًا﴾ مجسّداً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت. وكان يخورُ كما تخورُ العجاجيل ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: السامريّ وأتباعه: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾ فأجاب عامّتهم إلاّ اثني عشر ألفاً ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: ﴿فنسي﴾ موسى ربّه هنا، وذهب يطلبه عند الطور. أو: هو ابتداء كلام من الله عز وجل أي: نسي السامري ربّه، وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر. أو: نسي السامريّ الاستدلال على أنّ العجل لا يجوز أن يكون إلهاً بدليل قوله:

٨٩ ـ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ أي: أنّه ﴿لا يرجع﴾ فأن مخففة من الثقيلة ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: هو عاجز عن الخطاب، والضرّ، والنفع، فكيف يتخذونه إلهاً؟ فقيل: إنّه ما خار إلاّ مرّة.

٩٠ ـ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ابتليتم بالعجل، فلا تعبدوه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ كونوا على ديني الذي هو الحقّ ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في ترك عبادة العجل.

قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾

٩١ ـ ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزال مقيمين على العجل، وعبادته ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر هل يعبده كما عبدنا، وهل صدق السامريّ أم لا؟

٩٢ ـ فلما رجع موسى ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل.

٩٣ ـ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بالياء في الوصل والوقف: مكّيّ. وافقه أبو عمرو، ونافع في الوصل. وغيرهم: بلا ياء. أي: ما دعاك إلى ألا تتّبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي إلى تركه. وقيل: ﴿لا﴾ مزيدة. والمعنى: أيّ شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك، وتلحق بي وتخبرني؟ أو: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله؟ وهلاّ قاتلت من كفر بمن آمن. ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً؟ ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ أي: الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم.

٩٤ ـ ثم أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله غضباً وإنكاراً عليه؛ لأنّ الغيرة في الله ملكته ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ﴾ وبخفض الميم: شاميّ، وكوفيّ غير حفص. وكان أخاه لأبيه وأمّه عند الجمهور، ولكنه ذكر الأمّ استعطافاً، وترفيقاً ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ﴾ ثم ذكر عذره فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ﴾ إذا قاتلت بعضهم ببعض: ﴿فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أوخفت أن تقول: إن فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق، وتبع السامري فريق: فرقت بين بني إسرائيل ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوۡلِي﴾: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفيه دليل جواز الاجتهاد.

٩٥ ـ ثم أقبل موسى على السامريّ منكراً عليه حيث: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ﴾ ما أمرك الذي تخاطب عليه ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؟.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

٩٦ ـ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ. قال الزجاج: بصُر: علم، وأبصر: نظر، أي: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل. قال موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره، فما ألقيته على شيء إلاّ صار له رُوح، ولحم، ودم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ القبضة: المرّة من القبض. وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. وقرىء: ﴿فقبصت قبصة﴾ فالضاد: بجميع الكفّ، والصاد: بأطراف الأصابع ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرس الرسول. وقرىء بها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فطرحتها في جوف العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زيّنت ﴿لِى نَفْسِى﴾ أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي. وهو اعترافٌ بالخطأ، واعتذار منه.

٩٧ ـ ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما عشت ﴿أَن تَقُولَ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك: ﴿لَا مِسَاسَ﴾. أي: لا يمسّني أحد، ولا أمسّه. فمنع من مخالطة الناس منعاً كلّيّاً، وحرم عليهم مخالطته، ومكالمته، ومبايعته. وإذا اتفق أن يماسّ أحداً حمّ الماسّ والممسوس. وكان يهيمُ في البريّة يصيح: لا مساس. ويقال: إنّ ذلك موجود في أولاده إلى الآن. وقيل: أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يقتله، فمنعه الله منه لسخائه ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ لن يُخْلِفَك الله موعده؛ الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا. ﴿لن تُخلِفه﴾: مكيّ، وأبو عمرو، وهذا من: أخلفت الموعد: إذا وجدته خلفاً ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وأصله: ظللت، فحذف اللام الأولى تخفيفاً ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لنُذرينّه ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾. فحرقه، وذراه في البحر، فشرب بعضهم من مائه حبّاً له، فظهرت على شفاههم صفرة الذهب.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾

٩٨ ـ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: وسع علمه كلّ شيء.

٩٩ ـ ومحلّ الكاف من: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ما اقتصصنا عليك قصّة موسى وفرعون ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمم الماضية، تكثيراً لبيّناتك، وزيادة في معجزاتك ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: أعطيناك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ قرآناً، فهو ذكر عظيم، وقرآن كريم، فيه النجاةُ لمن أقبل عليه، وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار، الحقيقة بالتفكّر والاعتبار.

١٠٠ ـ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الذكر، وهو القرآن، ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة. سمّاها وزراً تشبيهاً في ثِقَلها على المعاقَب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الثقيل؛ الذي يُنقض ظهره، ويلقي عليه بُهْره. أو: لأنها جزاء الوزر، وهو: الإثم.

١٠١ ـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يحمل﴾. وإنّما جمع على المعنى، ووحّد في ﴿فإنه﴾ حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الوزر، أي: في جزاء الوزر، وهو: العذاب ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿ساء﴾ في حكم «بئس» وفيه ضمير مبهم يفسّره ﴿حملاً﴾. وهو تمييز. واللام في ﴿لهم﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء الحمل حملاً وزرهم.

١٠٢ ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ننفخ﴾: أبو عمرو ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ في القرن. أو: هو جمع صورة، أي: ننفخ الأرواح فيها. دليلهُ قراءة قتادة ﴿في الصُّوَر﴾ بفتح الواو، جمع صورة ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ حال، أي: عمياً، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وهذا لأنّ حدقة مَن يذهب نورُ بصره تزرقّ.

يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾

١٠٣ ـ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارّون ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض سرّاً لهول ذلك اليوم: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشۡرٗا﴾ أي: عشر ليال. يستقصرون مدّة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا؛ لما يعاينون من الشدائد التي تذكّرهم أيّام النعمة والسرور، فيتأسّفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لأنّ أيّام السرور قصار. أو: لأنّها ذهبت عنهم، والذاهب ـ وإن طالت مدّته ـ قصير بالانتهاء. أو: لاستطالتهم الآخرة. لأنّها أبد يستقصرُ إليها عمر الدنيا، ويُتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد رجّح الله قول من يكون أشدّ تقلُّلاً منهم بقوله:

١٠٤ ـ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم قولاً: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾. وهو كقوله: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

١٠٥ ـ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ سألوا النبي ﷺ ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟ وقيل: لم يسأل. وتقديره: إن سألوك ﴿فَقُلۡ﴾؛ ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ [البقرة: ١١١] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ﴾ [الكهف: ٨٣] لأنها سؤالات تقدّمت، فورد جوابها. ولم يكن فيها معنى الشرط، فلم يذكر الفاء ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ يجعلها كالرمل، ثمّ يرسل عليها الرياح فتفرّقها، كما يذرى الطعام. وقال الخليل: يقلعها.

١٠٦ ـ ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو: يجعل الضمير للأرض للعلم بها؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ مستوية، ملساء.

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ

١٠٧ ـ ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ انخفاضاً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ارتفاعاً. والعِوج بالكسر وإن كان في المعاني، كالمفتوح في الأعيان. والأرض عين، ولكن لمّا استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه مّا، وإن دقّت الحيلة، ولطفت، جرت مجرى المعاني.

١٠٨ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال، أي: يوم إذ نسفت. وجاز أن يكون بدلاً بعد بدل من ﴿يوم القيامة﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ إلى المحشر، أي: صوت الداعي، وهو إسرافيل، حين ينادي على صخرة بيت المقدس: أيّتها العظام البالية، والجلود المتمزّقة، واللحوم المتفرّقة، هلمّي إلى عرض الرحمن فيُقْبِلون من كلّ أوب إلى صوبه، لا يعدلون عنه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوجّ له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف، متّبعين لصوته ﴿وَخَشَعَتِ﴾ وسكنت ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هيبة وإجلالاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً لتحريك الشفاه. وقيل: هو من همس الإبل، وهو: صوت أخفافها إذا مشت، أي: لا تسمع إلاّ خفق الأقدام، ونقلها إلى المحشر.

١٠٩ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ محل ﴿من﴾ رفع على البدل من الشفاعة، بتقدير حذف المضاف، أي: ﴿لا تنفع الشفاعة إلاّ﴾ شفاعة ﴿من أذن له الرحمن﴾ أي: أذن للشافع في الشفاعة ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: رضي قوله لأجله بأن يكون المشفوع له مسلماً. أو: نصب على أنّه مفعول ﴿تنفع﴾.

١١٠ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما تقدّمهم من الأحوال، وما يستقبلونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: بما أحاط به علم الله، فيرجع الضمير إلى ﴿ما﴾، أو: يرجع الضمير إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى ليس بمحاطٍ به.

١١١ ـ ﴿۞ وَعَنَتِ﴾ خضعت، وذلّت. ومنه قيل للأسير: عان ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾

لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

أي: أصحابها ﴿لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت، وكل حياة يتعقّبها الموت فهي كأن لم تكن ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ الدائم، القائم على كلّ نفس بما كسبت، أو: القائم بتدبير الخلق ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ يئس من رحمة الله ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ من حمل إلى موقف القيامة شركاً؛ لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولا ظلم أشدّ مِن جعل المخلوق شريك مَن خلقه.

١١٢ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّق بما جاء به محمد ﷺ. وفيه دليلٌ أنّه يستحقّ اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة، فإن الإيمان شرط قبولها ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿فلا يخفْ﴾ على النهي: مكّي ﴿ظُلْمًا﴾ أن يزداد في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا ينقص من حسناته. وأصل الهضم: النقص، والكسر.

١١٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على ﴿كذلك نقصّ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ وكرّرنا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ الوعيد، أو: القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ عظة، أو: شرفاً بإيمانهم به. وقيل: ﴿أو﴾ بمعنى الواو.

١١٤ ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ارتفع عن فنون الظنون، وأوهام الأفهام، وتنزّه عن مضاهاة الأنام، ومشابهة الأجسام ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي احتاج إليه الملوك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المحقّ في الألوهيّة. ولمّا ذكر القرآن وإنزاله، قال استطراداً: وإذا لقّنك جبريل ما يُوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليك ريثما يسمعك، ويفهمك ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ بالقرآن ومعانيه. وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلاّ في العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

١١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي: أوحينا إليه ألاّ يأكل من الشجرة. يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان، وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه. فعطفت قصّة آدم عليه السلام على: ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد﴾. والمعنى: وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم، ووصّيناه ألاّ يقرب الشجرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل وجودهم؛ فخالف إلى ما نهي عنه، كما أنّهم يخالفون، يعني: أنّ أساس أمر بني آدم على ذلك، وعِرْقُهم راسخ فيه ﴿فَنَسِىَ﴾ العهد، أي: النهي. والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلّفوا لحفظوه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قصداً إلى الخلاف لأمره. أو: لم يكن آدم من أولي العزم. والوجود بمعنى العلم، ومفعولاه ﴿له عزماً﴾، أو: بمعنى نقيض العدم، أي: وعدمنا له عزماً، و﴿له﴾ متعلّق بـ﴿نجد﴾.

١١٦ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ منصوب باذكر ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قيل: هو السجود اللغويّ الذي هو الخضوع، والتذلّل. أو: كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم فيه له ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم. وقال الحسن: الملائكة لباب الخليقة من الأرواح، ولا يتناسلون، وإبليس من نار السموم. وإنّما صحَّ استثناؤه منهم؛ لأنّه كان يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة، كأنّه جواب لمن قال: لِمَ لم يسجد؟ والوجه ألاّ يقدر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فسجدوا﴾ وأن يكون معناه: أظهر الإباء، وتوقّف.

١١٧ ـ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حيث لم يسجد لك، ولم ير فضلك ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فلا يكوننّ سبباً لإخراجكما ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ فتتعب في طلب القوت، ولم يقل: فتشقيا اكتفاءً لرؤوس الآي، أو: دخلت تبعاً، ولأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة. ورُوي: أنّه أهبط إلى آدم ثور أحمر، وكان يحرث عليه، ويمسح العرقَ من جبينه.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾

١١٨ ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ عن الملابس؛ لأنها معدّة أبداً فيها.

١١٩ ـ ﴿وَأَنَّكَ﴾[١] بالكسر: نافع، وأبو بكر، عطفاً على ﴿إنّ﴾ الأولى. وغيرهما بالفتح عطفاً على ﴿ألاّ تجوع﴾ ومحلّه نصب بأنّ، وجاز للفصل، كما تقول: إنّ في علمي أنك جالس ﴿لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ لا تعطش لوجود الأشربة فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ لا يصيبك حرّ الشمس، إذ ليس فيها شمس، فأهلها في ظلّ ممدود.

١٢٠ ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أنهى إليه الوسوسة، كـ: أسرّ إليه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد ـ وهو الخلود ـ لأنّ من أكل منها خلد بزعمه، ولا يموت ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يفنى.

١٢١ ـ ﴿فَأَكَلَا﴾ أي: آدم وحوّاء ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا، مثل: جعل يفعل. وهو كـ«كاد» في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، إلاّ أنّه للشروع في أوّل الأمر، وكاد للدنو منه ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: يُلْزقان الورق بسوءاتهما للتستر، وهو: ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ضل عن الرأي. وعن ابن عيسى: خاب. والحاصل: أنّ العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي. وقد يكون عمداً فيكون ذنباً، وقد لا يكون عمداً فيكون زلّة. ولمّا وصف فعله بالعصيان، خرج فعله من أن يكون رشداً، فكان غيّاً؛ لأنّ الغيّ خلاف الرشد. وفي التصريح بقوله: ﴿وعصى آدم ربّه فغوى﴾ والعدول عن قوله: وزلّ آدم، مزجرة بليغة، وموعظة كافة للمكلّفين، كأنّه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نُعِيَتْ على النبيّ

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وإنك﴾.

ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر.

١٢٢ ـ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ قربه إليه، أو: اصطفاه. وقرىء به. وأصل الكلمة الجمع، يقال: جُبِيَ إليّ كذا، فاجتبيته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته ﴿وَهَدَىٰ﴾ وهداه إلى الاعتذار، والاستغفار.

١٢٣ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ يعني: آدم وحوّاء ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ياذرّية آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بالتحاسد في الدنيا، أو الاختلاف في الدين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كتاب، وشريعة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في العقبى. ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضمن الله لمن اتّبع القرآن ألاّ يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. يعني: أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتّبع كتاب الله، وامتثل أوامره، وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال، ومن عقابه.

١٢٤ ـ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن القرآن ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً. وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنّث. عن ابن جبير: نسلبه القناعة حتى لا يشبع. فمع الدين التسليم، والقناعة، والتوكّل، فتكون حياته طيّبة، ومع الإعراض: الحرص، والشحّ، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلاّ أظلم عليه وقته، ويشوّش عليه رزقه ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن الحجة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أعمى﴾ البصر. وهو كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهو الوجه.

١٢٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١٢٦ ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت. ثم فسّر فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر، وتركتها، وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك، ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

١٢٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لمّا توعّد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في العقبى، ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ أي: للحشر على العمى؛ الذي لا يزول أبداً أشدّ من العيش المنقضي.

١٢٨ ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: الله. بدليل قراءة زيد عن يعقوب ـ بالنون ـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿لهم﴾ ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد، وثمود، وقوم لوط، ويعاينون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول، إذا تفكّروا علموا أن استئصالهم لكفرهم، فلا يفعلون مثل ما فعلوا.

١٢٩ ـ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الحكم بتأخير العذاب عن أمّة محمد ﷺ ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لازماً. فاللزام مصدر لازم، فوصف به ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ القيامة. وهو معطوف على ﴿كلمة﴾. والمعنى: ﴿ولولا﴾ حكم سبق بتأخير العذاب عنهم ﴿وأجل مسمّى﴾ وهو القيامة ﴿لكان﴾ العذاب لازماً لهم في الدنيا، كما لزم القرون الماضية الكافرة.

١٣٠ ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك. ﴿وَسَبِّحْ﴾ وصلّ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربّك على أن وفّقك للتسبيح، وأعانك عليه

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: وتعمَّدْ آناء الليل، أي: ساعاته ﴿وأطراف النهار﴾ مختصاً لها بصلاتك. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العَتَمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص، كما اختصّت في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] عند البعض، وإنّما جمع ﴿وأطراف النهار﴾ وهما طرفان لأمن الإلباس. وهو عطف على ﴿قبل﴾ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ لعلّ للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك، ويسر قلبك. و﴿تُرضى﴾: عليّ، وأبو بكر، أي: يرضيك ربّك.

١٣١ ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نظر عينيك. ومدّ النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به. وفيه: أنّ النظر غير الممدود معفوّ عنه، وذلك أن يباده الشيء بالنظر، ثمّ يغض الطرف. ولقد شدّد المتّقون في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة، وعِدَدِ الفسقة في ملابسهم، ومراكبهم، حتّى قال الحسن: لا تنظروا إلى دقدقة هماليج[١] الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذلّ المعصية من تلك الرقاب!. وهذا لأنّهم إنّما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظّارة، فالناظر إليها محصّل لغرضهم، ومغر لهم على اتخاذها ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة. ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل الواقع على ﴿منهم﴾ كأنّه قال: إلى الذي متّعنا به ـ وهو أصناف ـ بعضَهم، وناساً منهم ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زينتها، وبهجتها. وانتصب على الذمّ، أو: على إبداله من محلّ ﴿به﴾. أو: على إبداله من ﴿أزواجاً﴾ على تقدير: ذوي زهرة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم حتّى يستوجبوا العذاب لوجود

(١) «هماليج»: جمع هِمْلاج، وهو البرذون. وحُسْن سَيْر الدابة في سُرْعة.

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

الكفران منهم، أو: لنعذّبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ ثوابه، وهو الجنّة، أو: الحلال الكافي. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ممّا رزقوا.

١٣٢ ـ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أمّتك، أو: أهل بيتك ﴿بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ﴾ أنت. دوام عليها ﴿عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك، ولا أهلك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم، فلا تهتمّ لأمر الرزق، وفرّغ بالك لأمر الآخرة؛ لأنّ مَن كان في عمل الله كان الله في عمله. وعن عروة بن الزبير: أنّه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿ولا تمدّنّ عينيك﴾ الآية، ثم ينادي: الصلاة! الصلاة! رحمكم الله. وكان بكر بن عبد الله المزنيّ إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله. وعن مالك بن دينار: مثله. وفي بعض المسانيد: أنّه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرّ أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى، بحذف المضافين.

١٣٣ ـ ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الكافرون ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هلاّ ﴿يأتينا﴾ محمد ﴿بآية من ربّه﴾ تدلّ على صحّة نبوّته ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ مدنيّ، وبصريّ، وحفص ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي: الكتب المتقدّمة، يعني: أنّهم اقترحوا على عادتهم في التعنّت آية على النبوّة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات، وأعظمها في باب الإعجاز؟ ـ يعني: القرآن ـ من قِبَلِ: أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة، ودليل صحّته؛ لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحّة ما فيها.

١٣٤ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل الرسول، أو: القرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ بالنصب لأنه جواب

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

الاستفهام بالفاء ﴿ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بنزول العذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ في العقبى.

١٣٥ ـ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ كلّ واحد منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر للعاقبة، ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاءت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَابُ﴾ مبتدأ وخبر، ومحلّهما نصب ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى النعيم المقيم.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا يقرأ أهل الجنّة إلاّ طه ويس»[1].

* * *

(١) قال الحافظ: رواه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب. (حاشية الكشاف ٣/ ١٠٠).
ورواه ابن مردويه من حديث أبي أمامة. (الدر المنثور ٥/ ٥٤٨).

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

ترتيبها ٢١ — آياتها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

---

١ ـ ﴿اقْتَرَبَ﴾ دنا. ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام صلة لـ﴿اقترب﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ المراد بالناس: المشركون؛ لأنّ ما يتلوه بعد من صفات المشركين ﴿حِسَابُهُمْ﴾ وقت محاسبة الله إيّاهم، ومجازاته على أعمالهم، يعني: يوم القيامة. وإنّما وصفه بالاقتراب لقلّة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى، ولأنّ كلّ آت قريب ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن حسابهم، وعمّا يفعل بهم ثَمّ ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأهّب لذلك اليوم. فالاقتراب عامّ، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلّفين، فربّ غافل عن حسابه؛ لاستغراقه في دنياه، وإعراضه عن مولاه، وربّ غافل عن حسابه؛ لاستهلاكه في مولاه، وإعراضه عن دنياه، فهو لا يفيق إلاّ برؤية المولى. والأوّل إنما يفيق في عسكر الموتى، فالواجب عليك أن تحاسِب نفسك قبل أن تحاسَب، وتنتبه للعرض قبل أن تنبّه، وتعرض عن الغافلين، وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين؛ لتفوز بلقاء ربّ العالمين.

٢ ـ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ شيء من القرآن ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ في التنزيل إثباته، مبتدأ تلاوته، قريب عهده باستماعهم، والمراد به: الحروف المنظومة، ولا خلاف في حدوثه ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ من النبيّ عليه الصلاة والسلام، أو غيره ممن يتلوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾

٣ ـ ﴿لَاهِيَةً﴾ حال من ضمير ﴿يلعبون﴾. أو: ﴿وهم يلعبون﴾ و﴿لاهية﴾ حالان من الضمير في ﴿استمعوه﴾. ومن قرأ ﴿لاهية﴾ بالرفع يكون خبراً بعد خبر؛ لقوله: ﴿وهم﴾. وارتفعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بـ: لاهيةً، وهي من: لها عنه: إذا ذهل، وغفل. والمعنى: قلوبهم غافلة عمّا يراد بها ومنها. وقال أبو بكر الورّاق: القلب اللاهي: المشغول بزينة الدنيا وزهرتها، والغافل عن الآخرة وأهوالها ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وبالغوا في إخفاء ﴿النَّجْوَى﴾، وهي: اسم من التناجي. ثم أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو: ﴿وأسرّوا﴾ إيذاناً بأنّهم الموسومون بالظلم فيما أسرّوا به، وجاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو: هو مجرور المحل لكونه صفة، أو بدلاً عن الناس، أو هو: منصوب المحلّ على الذم، أو: هو مبتدأ خبره ﴿أسرّوا النجوى﴾، فقدّم عليه، أي: والذين ظلموا أسرّوا النجوى ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلام كلّه في محلّ النصب بدل من ﴿النجوى﴾، أي: وأسرّوا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلّق بقالوا مضمراً، والمعنى: أنّهم اعتقدوا أنّ الرسول لا يكون إلاّ ملكاً، وأنّ كلّ من ادّعى الرسالة من البشر، وجاء بالمعجزة، فهو ساحر، ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون، وتعاينون أنّه سحر؟!

٤ ـ ﴿قَالَ رَبِّي﴾: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: ﴿قال﴾ محمّد. وغيرهم: ﴿قل ربي﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للذين أسرّوا النجوى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم قول كلّ قائل هو في السماء والأرض سرّاً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم.

٥ ـ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى: أنّه تخاليط أحلام رآها في نومه، فتوهّمها وحياً من الله إليه، ثمّ إلى

فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

أنّه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنّه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج[1]، والمبطل رجّاع غير ثابت على قول واحد، ثمّ قالوا: إن كان صادقاً في دعواه، وليس الأمر كما يظنّ، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ بمعجزة ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ كما أرسل من قبله باليد البيضاء، والعصا، وإبراء الأكمه، وإحياء الموتى. وصحّة التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنّه في معنى: كما أتى الأوّلون بالآيات؛ لأنّ إرسال الرسل متضمّن للإتيان بالآيات. أَلاَ ترى أنه لافرقَ بين قولك: أرسل محمّد، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

٦ ـ فردّ الله عليهم قولهم بقوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ صفة لقرية عند مجيء الآيات المقترحة؛ لأنّهم طلبوها تعنّتاً ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أولئك لم يؤمنوا بالآيات لمّا أتتهم، أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا، مع أنّهم أعتى منهم؟ والمعنى: أنّ أهل القرى المهلكة اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعهدوا أنّهم يؤمنون عندها، فلمّا جاءتهم نكثوا، وخالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون؛ لنكثوا أيضاً.

٧ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[2]: نُوحي حفص ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ العلماء بالكتابين، فإنّهم يعرفون: أنّ الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، وكان أهلُ مكة يعتمدون على قولهم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثمّ بيّن أنّه كمن تقدّمه من الأنبياء بقوله:

---

(١) لجلج: متردّد، وغير بيّن.

(٢) أثبتت في الأصل ﴿يُوحىٰ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٣٠).

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

٨ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ وحّد الجسد لإرادة الجنس ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لـ ﴿جسداً﴾، يعني: وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ كأنّهم قالوا: هلاّ كان ملكاً لا يُطعَم ويخلّد، معتقدين: أنّ الملائكة لا يموتون، أو: مسمّين بقاءهم الممتدّ وحياتهم المتطاولة: خلوداً.

٩ ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بإنجائهم. والأصل: في الوعد، مثل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ ممّا حلّ بقومهم ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ هم المؤمنون ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ بالكفر. ودلّ الإخبار بإهلاك المسرفين على أنّ ﴿من نشاء﴾ غيرهم.

١٠ ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم إن عملتم به، أو: لأنّه بلسانكم، أو: فيه ذكر دينكم، ودنياكم. والجملة، أي: ﴿فيه ذكركم﴾ صفة لـ ﴿كتاباً﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنون.

١١ ـ ﴿وَكَمْ﴾ نصب بقوله: ﴿قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: أهلها، بدليل قوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة. وهي واردة عن غضب شديد، وسخط عظيم؛ لأنّ القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبيّن تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم فإنّه كسر بلا إبانة ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ فسكنوا مساكنهم.

١٢ ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ أي: المهلكون ﴿بَأْسَنَآ﴾ عذابنا، أي: علموا علم حسّ، ومشاهدة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ من القرية، و﴿إذا﴾ للمفاجأة، و﴿هم﴾ مبتدأ، والخبر ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين. والركض: ضرب الدابّة بالرجل، فيجوز أن يركبوا دوابّهم، يركضونها هاربين من قريتهم لمّا أدركتهم مقدّمة العذاب، أو: شبهوا في سرعة عَدْوِهم على أرجلهم بالراكبين، الراكضين لدوابّهم، فقيل لهم:

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾

١٣، ١٤ ـ ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ والقائل بعض الملائكة ﴿وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ نعمتم فيه من الدنيا، ولين العيش. قال الخليل: المترف: الموسع عليه عيشه، القليل فيه همّه ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: يقال لهم ـ استهزاء بهم ـ: ﴿ارجعوا﴾ إلى نعيمكم ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غداً عمّا جرى عليكم، ونزل بأموالكم، فتجيبوا السائل عن علم، ومشاهدة. أو: ارجعوا، واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتّى يسألكم عبيدكم، ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقولوا لكم: بم تأمرون؟ وكيف نأتي ونذر؟ كعادة المنعمين المُخَدَّمين، أو: يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، أو: يسألكم الوافدون عليكم والطّماع، ويستمطرون سحاب أكفكم. أو: قال بعضهم لبعض: ﴿لا تركضوا وارجعوا﴾ إلى منازلكم وأموالكم ﴿لعلكم تسألون﴾ مالاً وخراجاً، فلا تُقتَلون. فنودي من السماء: يا لثارات الأنبياء! وأخذتهم السيوف. فثَمّ ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا حين لا ينفع الاعتراف.

١٥ ـ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ هي إشارة إلى ﴿يا ويلنا﴾ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ دعاءهم. و﴿تلك﴾ مرفوع على أنّه اسم زالت، و﴿دعواهم﴾ الخبر. ويجوز العكس ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد، أي: الزرع المحصود. ولم يجمع كما لم يجمع المقدّر ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميّتين خمود النار، و﴿حصيداً خامدين﴾ مفعول ثانٍ لجعل، أي: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، أي: جعلته جامعاً للطعمين.

١٦ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ اللعب فعل يروق أوّله، ولا ثبات له. و﴿لاعبين﴾ حال من فاعل ﴿خلقنا﴾. والمعنى: وما سوّينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع، ﴿وما بينهما﴾ من أصناف الخلق، للهو واللعب، وإنما سوّيناها لِيُسْتَدَلّ بها على قدرة مدبّرها، ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقضيه حكمتنا.

لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

١٧ ـ ثم نزّه ذاته عن سمات الحدث بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ـ أي: ولداً، أو امرأة. كأنّه ردّ على من قال: عيسى ابنه، ومريم صاحبته ـ ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من الولدان، أو: الحور ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ﴿إن كنّا﴾ ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقّنا، وقيل: هو نفي، كقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أي: ما كنّا فاعلين.

١٨ ـ ﴿بَلْ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو، وتنزيه منه لذاته، كأنّه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو، بل من سنتنا أن ﴿نَقْذِفُ﴾ أي: نرمي، ونسلّط ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ الشيطان. أو: بالإسلام على الشرك، أو: بالجدّ على اللعب ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيكسره، ويدحض الحقّ الباطل. وهذه استعارة لطيفة؛ لأنّ أصل استعمال القذف، والدمغ في الأجسام، ثمّ استعير القذف لإيراد الحقّ على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل. فالمستعار منه حسي، والمستعار له عقليّ، فكأنّه قيل: بل نورد الحقّ الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف، فيبطله إبطال الجسم القويّ الضّعيفَ ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أي: الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾ هالك ذاهب ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله من الولد، ونحوه.

١٩ ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فأنّى يكون شيء منه ولداً له، وبينهما تناف؟ ويوقف على ﴿الأرض﴾؛ لأنّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ ـ منزلة ومكانة، لا منزلاً ومكاناً، يعني: الملائكة: مبتدأ، خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتعظّمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيَوْن.

٢٠ ـ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يسبحون﴾ أي: تسبيحهم متّصل دائم في جميع أوقاتهم، لا تتخلّله فترة بفراغ، أو: بشغل آخر، فتسبيحهم جارٍ مجرى التنفّس منّا.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

٢١ ـ ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبّخاً، فجاء بـ«أم» التي بمعنى بل والهمزة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يحيون الموتى. و: ﴿من الأرض﴾ صفة لآلهة؛ لأنّ آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب، والفضّة، والحجر. و: تعبد في الأرض، فنسبت إليها، كقولك: فلان من المدينة، أي: مدنيّ. أو: متعلّق بـ﴿اتخذوا﴾، ويكون فيه بيان ابتداء غاية الاتخاذ. وفي قوله: ﴿هم ينشرون﴾ زيادة توبيخ ـ وإن لم يدّعوا أنّ أصنامهم تحيي الموتى، وكيف يدّعون، ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ـ لأنّه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار؛ لأنّ العاجز عنه لا يصحّ أن يكون إلهاً، إذ لا يستحقّ هذا الاسم إلاّ القادر على كلّ مقدور، والإنشار من جملة المقدورات. وقرأ الحسن: ﴿يَنْشُرون﴾ بفتح الياء، وهما لغتان. أنشر الله الموتى، ونشرها، أي: أحياها.

٢٢ ـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا﴾ أي: غير ﴿ٱللَّهُ﴾ وصفت ﴿آلهة﴾ بإلاّ، كما وصفت بغير لو قيل: آلهة غير الله. ولا يجوز رفعه على البدل؛ لأنّ «لو» بمنزلة «إنّ» في أنّ الكلام معه موجب. والبدل لا يسوغ إلاّ في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١] ولا يجوز نصبه استثناء؛ لأنّ الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحقّقين؛ لأنّه لا عموم له، بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء. والمعنى: لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتّى غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا لوجود التمانع. وقد قرّرناه في أصول الكلام. ثم نزّه ذاته فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والشريك.

٢٣ ـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنّه المالك على الحقيقة. ولو اعترض على السلطان بعض عبيده ـ مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه، وعدم الملك الحقيقي ـ لاستقبح ذلك، وعدّ سفهاً. فمن هو مالك الملوك، ورب الأرباب، وفعله صواب كلّه، أولى بألاّ يعترض عليه ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنّهم مملوكون خطّاؤون،

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

فما أخلقهم بأن يقال لهم: «لم فعلتم؟» في كلّ شيء فعلوه. وقيل: ﴿وهم يسألون﴾ يرجع إلى المسيح والملائكة، أي: هم مسؤولون، فكيف يكونون آلهة، والألوهيّة تنافي [الجنسية و][1] المسؤوليّة؟

٢٤ ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الإعادة لزيادة الإفادة، فالأوّل للإنكار من حيث العقل، والثاني من حيث النقل. أي: وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك، فقيل لمحمد: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجّتكم على ذلك. وذا عقليّ، وهو يأباه كما مرّ، أو نقليّ، وهو الوحي، وهو أيضاً يأباه، فإنّكم لا تجدون كتاباً من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده، وتنزيهه عن الأنداد ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني: أمّته ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يعني: أمم الأنبياء من قبلي. وهو واردٌ في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه ﴿معيَ﴾: حفص. فلمّا لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: القرآن. وهو نصب بـ﴿يعلمون﴾ وقرىء: ﴿الحقُّ﴾ أي: هو الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن النظر فيما يجب عليهم.

٢٥ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ وحمّاد ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ وحّدوني. فهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

٢٦ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فنزّه ذاته عن ذلك، ثمّ أخبر عنهم بأنّهم عباد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: بل هم عباد مكرمون، مشرّفون، مقرّبون، ليسوا بأولاد؛ إذ العبوديّة تنافي الولادة.

(١) من المطبوع.

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا

٢٧ ـ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ أي: بقولهم، فأنيبت اللام مناب الإضافة، والمعنى: أنهم يتّبعون قوله، فلا يسبق قولهم قوله، ولا يتقدّمون قوله بقولهم ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: كما أنّ قولهم، تابع لقوله، فعملهم أيضاً مبنيّ على أمره، لا يعملون عملاً لم يؤمروا به.

٢٨ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: ما قدّموا وأخّروا من أعمالهم. ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ أي: لمن رضي الله عنه، أو قال: لا إله إلاّ الله ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون.

٢٩ ـ ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ من الملائكة: ﴿ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ من دون الله ـ ﴿إنِّيَ﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ـ ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ ـ أي: ﴿فذلك﴾ القائل ـ خبره ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾. وهما جواب الشرط ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين الذين وضعوا الإلهية في غير موضعها. وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقّق عصمتهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة والضحاك: قد تحقّق الوعيد في إبليس، فإنّه ادّعى الإلهيّة لنفسه، ودعا إلى طاعة نفسه، وعبادته.

٣٠ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ (ألم ير) مكيّ ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا ﴾ أي: جماعة السموات وجماعة الأرض؛ فلذا لم يقل: كنّ ﴿ رَتْقًا ﴾ بمعنى المفعول، أي: ﴿كانتا﴾ مرتوقتين. وهو مصدر؛ فلذا صلح أن يقعَ موقعَ مرتوقتين ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ فشققناهما. والفتق: الفصل بين الشيئين. والرتق: ضد الفتق. فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: إنّه وارد في القرآن؛ الذي هو معجزة، فقام مقام المرئيّ المشاهد؛ ولأنّ الرؤية بمعنى العلم، وتلاصق الأرض والسماء، وتباينهما جائزان في العقل. فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بدّ له من مخصّص، وهو القديم جلّ جلاله. ثمّ قيل: إنّ السماء كانت لاصقة بالأرض، لا فضاء بينهما ﴿ففتقناهما﴾ أي: فصلنا بينهما

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

بالهواء: وقيل: كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة، ففتقها الله، وجعلها سبع سموات. وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها، وجعلها سبع أرضين. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: خلقنا من الماء كلّ حيوان، كقوله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] أو: كأنّما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه، وحبّه له، وقلّة صبره عنه، كقوله ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون بما يشاهدون.

٣١ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت. من: رسا: إذا ثبت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تضطّرب بهم، فحذف لا، واللام، وإنّما جاز حذف «لا» لعدم الإلباس، كما يُزاد كذلك في: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ طرقاً واسعة، جمع: فجّ، وهو الطريق الواسع. ونصب على الحال من ﴿سُبُلًا﴾ مُقَدَّمةً. فإن قلت: أيّ فرق بين قوله تعالى ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] وبين هذه؟ قلت: الأوّل للإعلام بأنّه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: لبيان أنّه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثَمَّ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

٣٢ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ في موضعه عن السقوط، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] أو: ﴿محفوظاً﴾ بالشهب عن الشياطين، كما قال ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ عن الأدلّة التي فيها كالشمس، والقمر، والنجوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكّرين فيها فيؤمنون.

٣٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ لتتصرّفوا فيه ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ لتكون سراج النهار ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ ليكون سراج الليل ﴿كُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أي: كلّهم، والضمير للشمس والقمر. والمراد

فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

بهما: جنس الطوالع. وجُمع جَمْع العقلاء للوصف بفعلهم، وهو: السباحة ﴿فِي فَلَكٍ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفلك: السماء. والجمهور على أنّ الفلك موج مكفوف تحت السماء، تجري فيه الشمس، والقمر، والنجوم. و﴿كل﴾ مبتدأ، خبره ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون أو يدورون. والجملة في محلّ النصب على الحال من الشمس، والقمر.

٣٤ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ البقاء الدائم ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ بكسر الميم: مدنيّ، وكوفيّ غير أبي بكر ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ والفاء الأوّل لعطف جملة على جملة، والثاني: لجزاء الشرط. كانوا يقدّرون أنّه سيموت، فنفى الله عنه الشماتة بهذا، أي: قضى الله ألا يخلّد في الدنيا بشر ﴿أفإن متّ﴾ أنت أيبقى هؤلاء؟

٣٥ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم. سمّي ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنّه في صورة الاختبار ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ بالفقر، والضرّ ﴿وَٱلْخَيْرِ﴾ الغِنى، والنفع ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر، والشكر. وعن ابن ذكوان: ﴿تَرْجِعون﴾.

٣٦ ـ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتّخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ مفعول ثان لـ: ﴿يتّخذونك﴾. نزلت في أبي جهل مرّ به النبيّ عليه الصلاة والسلام فضحك، وقال: هذا نبيّ بني عبد مناف ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ﴾ يعيب ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾. والذكر يكون بخير وبخلافه. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدوّاً فذمّ ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بذكر الله، وما يجب أن يذكر به من الوحدانيّة ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لا يصدّقون به أصلاً، فهم أحقّ بأن يتّخذوا هزواً منك، فإنّك محقّ، وهم مبطلون. وقيل: ﴿بذكر الرحمن﴾ أي:

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

بما أنزل عليك من القرآن ﴿هم كافرون﴾ جاحدون. والجملة في موضع الحال، أي: يتّخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية، وهي: الكفر بالله. وكرّر ﴿هم﴾ للتأكيد، أو: لأنّ الصلة حالت بينه وبين الخبر، فأعيد المبتدأ.

٣٧ ـ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فُسّر بالجنس. وقيل: نزلت حين كان نضر بن الحارث يستعجل بالعذاب. والعجَل والعجَلة مصدران، وهو: تقديم الشيء على وقته. والظاهر أنّ المراد الجنس، وأنّه ركب فيه العجلة، فكأنّه خلق من العجل، ولأنّه يكثر منه. والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم. فقدّم أوّلاً ذمّ الإنسان على إفراط العجلة، وأنّه مطبوع عليها، ثمّ منع، وزجر كأنّه قال: ليس ببدع منه أن يستعجل، فإنّه مجبول على ذلك، وهو طبعه، وسجيته، وقد رُكِّبَ فيه. وقيل: العجل: الطين بلغة حمير، قال شاعرهم:

والنبع في الصخرة الصَّمَّاء مَنْبِتُه والنَّخْلُ تُنْبِتُ بين الماءِ والعَجَلِ(١)

وإنّما منع عن الاستعجال، وهو مطبوع عليه، كما أمره بقمع الشهوة، وقد ركبها فيه؛ لأنّه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة، وترك العجلة. و﴿مِنْ عجلٍ﴾ حال، أي: عجلاً ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ نقماتي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها. وهو بالياء عند يعقوب. وافقه سهل، وعياش في الوصل.

٣٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إتيان العذاب، أو: القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قيل: هو أحد وجهي استعجالهم.

٣٩ ـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جواب «لو» محذوف. و﴿حين﴾ مفعول به ليعلم، أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو وقت تحيط

(١) «النبع»: شجر تتخذ منه القسي. «الصماء»: الصلبة.

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

بهم فيه النار من وراء وقدّام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر، والاستهزاء، والاستعجال. ولكنّ جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

٤٠ ـ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتحيّرهم، أي: لا يكفّونها، بل تفجؤهم فتغلبهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فلا يقدرون على دفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ فحلّ ونزل ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. سلّى رسول الله ﷺ عن استهزائهم بأنّ له في الأنبياء أسوة، وأنّ ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا.

٤٢ ـ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من عذابه إن أتاكم ليلاً أو نهاراً ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم معرضون عن ذكره، ولا يخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتّى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء، فصلحوا للسؤال عنه. والمعنى: أنّه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالىء، ثمّ بيّن أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. ثمّ أضرب عن ذلك بقوله:

٤٣ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ لما في ﴿أم﴾ من معنى «بل» فقال: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا، وحفظنا؟ ثم استأنف بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فبيّن: أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره، وينصره؟ ثمّ قال:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾

٤٤ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنّما هو منّا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلاّ تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متّعنا غيرهم من الكفّار، وأمهلناهم، حتّى طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، فظنّوا أنهم دائمون على ذلك. وهو أمل كاذب ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقص أرض الكفر، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردّها داراً للإسلام. وذكر ﴿نأتي﴾ يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين، وأنّ عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أَوَ كفار مكّة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟! أي: ليس كذلك، بل يغلبهم رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرنا.

٤٥ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أخوّفكم من العذاب بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ بفتح الياء والميم، ورفع ﴿الصمّ﴾ ﴿ولا تُسمع الصمّ﴾: شاميّ، على خطاب النّبيّ ﷺ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يخوفون. واللام في ﴿الصمّ﴾ للعهد. وهو إشارةٌ إلى هؤلاء المنذرين. والأصل: ولا يسمعون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم، وسدّهم أسماعهم إذا ما أنذروا.

٤٦ ـ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ دفعة يسيرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ صفة لـ: ﴿نفحة﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ولئن مسّهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلّوا، ودعوا بالويل على أنفسهم، وأقرّوا بأنّهم ظلموا أنفسهم حين تصامّوا، وأعرضوا. وقد بولغ حيث ذكر المسّ والنفحة؛ لأنّ النفح يدلّ على القلّة، يقال: نفحه بعطيّة: رضخه بها، مع أنّ بناءها للمرّة.

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

٤٧ ـ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزان، وهو: ما يوزن به الشيء فيعرف كميته. وعن الحسن: هو ميزان، له كفّتان ولسان. وإنّما جمع الموازين لتعظيم شأنها، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] والوزن لصحائف الأعمال في قول ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط. أو: على حذف المضاف، أي: ذوات القسط ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأهل يوم القيامة، أي: لأجلهم ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من الظلم. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي: وإن كان الشيء مثقال حبّة. ﴿مِثْقَالُ﴾ بالرفع: مدنيّ. وكذا في لقمان على ﴿كان﴾ التامّة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ صفة لـ: ﴿حبّة﴾ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وأنّث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبّة، كقولهم: ذهبتْ بعض أصابعهم ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ عالمين حافظين، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه.

٤٨ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ قيل: هذه الثلاثة هي التوراة، فهي فرقان بين الحقّ والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصّل به إلى سبيل النجاة، وذِكْرٌ. أي: شرف، أو: وعظ، وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح داريهم. ودخلت الواو على الصفات، كما في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩] وتقول: مررت بزيد الكريم، والعالم، والصالح. ولمّا انتفع بذلك المتّقون خصّهم بقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤٩ ـ ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جرّ على الوصفيّة. أو: نصب على المدح، أو: رفع عليه ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال، أي: يخافونه في الخلاء ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

٥٠ ـ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ كثير الخير، غزير النفع ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمّد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ، أي: جاحدون أنّه منزل من عند الله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

٥١ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ هداه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهارون، أو: من قبل محمد ﷺ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ﴾ بإبراهيم، أو: برشده ﴿عَٰلِمِينَ﴾ أي: علمنا أنّه أهل لما آتيناه.

٥٢ ـ ﴿إِذْ﴾ إمّا أن تتعلّق بـ: ﴿آتينا﴾، أو: بـ: ﴿رشده﴾ ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام المصوّرة على صورة السباع، والطيور، والإنسان. وفيه تجاهلٌ لهم ليحقر آلهتهم، مع علمه بتعظيمهم لها ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لأجل عبادتها مقيمون.

٥٣ ـ فلمّا عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فقلّدناهم.

٥٤ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أراد أنّ المقلِّدين والمقلَّدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر، لا يخفى على عاقل. وأكّد بـ: ﴿أنتم﴾ ليصحّ العطف؛ لأنّ العطف على ضميرٍ هو في حكم بعض الفعل ممتنع.

٥٥ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بالجدّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب؟ استعظاماً منه إنكارهُ عليهم، واستبعاداً أن يكون ما هم عليه ضلالاً. فَثَمَّ أضرب عنهم مخبراً بأنّه جادّ فيما قال، غير لاعب، مثبتاً لربوبيّة الملك العلاّم، وحدوث الأصنام بقوله:

٥٦ ـ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: التماثيل، فأنّى يعبد المخلوق، ويجحد الخالق؟! ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ المذكور من التوحيد شاهد ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

٥٧ ـ ﴿وَتَاللَّهِ﴾ ـ أصله: والله. وفي التاء معنى التعجّب، كأنه تعجب من تسهُّل الكيد على يده مع صعوبته، وتعذّره لقوّة سلطنة نمرود ـ ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ لأكسرنّها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال ذلك سرّاً من قومه، فسمعه رجل واحد، فعرّض بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: سأسقم؛ ليتخلّف فرجع إلى بيت الأصنام.

٥٨ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ قِطَعاً ـ من: الجذّ، وهو: القطع، جمع جذاذة، كزجاجة وزجاج. ﴿جِذاذاً﴾ بالكسر عليّ؛ جمع جذيذ، أي: مجذوذ، كخفيف وخفاف ـ ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام، أو، للكفّار. أي: فكسّرها كلّها بفأس في يده إلاّ كبيرها، فعلّق الفأس في عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها، فيتبيّن لهم عجزه، أو: إلى إبراهيم ليحتجّ عليهم، أو: إلى الله لما رأوا عجز آلهتهم.

٥٩ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفّار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إنّ من فعل هذا الكسر لشديد الظلم؛ لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير، والتعظيم.

٦٠ ـ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ الجملتان صفتان لـ: ﴿فَتًى﴾، إلا أنّ الأوّل ـ وهو ﴿يذكرهم﴾ أي: يعيبهم ـ لا بدّ منه لـ: «سمع»؛ لأنّك لا تقول: سمعت زيداً، وتسكت، حتى تذكر شيئاً مما يسمع، بخلاف الثاني. وارتفاع ﴿إبراهيم﴾ بأنّه فاعل ﴿يقال﴾. فالمراد الاسم لا المسمّى، أي: الذي يقال له هذا الاسم.

٦١ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: نمرود، وأشراف قومه ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ احضروا إبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ في محلّ الحال بمعنى معايَناً مشاهَداً، أي: بمرأى منهم، ومنظر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما سُمع منه، أو: بما فعله. كأنّهم كرهوا

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

عقابه بلا بيّنة. أو: يحضرون عقوبتنا له.

٦٢ ـ فلمّا أحضروه ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟

٦٣ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ عن الكسائي: أنّه يَقِفُ عليه، أي: فعله مَنْ فعَله. وفيه حذف الفاعل، وأنّه لا يجوز. وجاز أن يكون الفعل مسنداً إلى الفتى المذكور في قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾، أو إلى إبراهيم في قوله: ﴿يا إبراهيم﴾. ثمّ قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وهو مبتدأ وخبر. والأكثر على أنّه لا وقف، والفاعل ﴿كبيرهم﴾. و﴿هذا﴾ وصف، أو: بدل. ونسب الفعل إلى كبيرهم، وقَصَدَ تقريره لنفسه، وإثباته لها، على أسلوب تعريضيّ، تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجّة عليهم؛ لأنّهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنّه لا يصلح إلهاً. وهذا كما قال لك صاحبك، وقد كتبت كتاباً بخطّ رشيق: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أميّ، فقلت له: بل كتبته أنت. كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأميّ؛ لأنّ إثباته للعاجز منكما، والأمر دايرٌ بينكما، استهزاءٌ به، وإثبات للقادر. ويمكن أن يقال: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفّة، وكان غيظ كبيرها أشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنّ الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبَهم، كأنّه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإنّ من حقّ من يُعبد، ويُدعى إلهاً أن يقدر على هذا. ويحكى أنّه قال: غضب أن تُعبد هذه الصغار معه، وهو أكبر منها فكسّرهنّ. أو: هو معلّقٌ بشرطٍ لا يكون، وهو نطق الأصنام، فيكون نفياً للمخبَرِ به، أي: بل فعله كبيرهم ﴿إن كانوا ينطقون﴾ وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ اعتراض. وقيل: عرّض بالكبير نفسه، وإنّما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم في الحضور ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ عن حالهم ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

٦٤ ـ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فرجعوا إلى عقولهم، وتفكّروا بقلوبهم لمّا

فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

أخذ بمخانقهم، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]. فإنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابده البأس؟.

٦٥ ـ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قال أهلُ التفسير: أجرى الله الحقّ على لسانهم في القول الأوّل، ثمّ أدركتهم الشقاوة، أي: ردّوا إلى الكفر بعد أن أقرّوا على أنفسهم بالظلم. يقال: نكسته: قلبته؛ فجعلت أسفله أعلاه. أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم، وجاؤوا بالفكرة الصالحة، ثمّ انقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها؟. والجملة سدّت مسدّ مفعولي علمت. والمعنى: لقد علمت عجزهم عن النطق، فكيف نسألهم؟

٦٦ ـ ﴿قَالَ﴾ محتجّاً عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ هو في موضع المصدر، أي: نفعاً ما. ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه.

٦٧ ـ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «أف»: صوت إذا صُوِّت به علم أنّ صاحبه متضجّر. أضجره ما رأى مِن ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق، فتأفّف بهم. واللام لبيان المتأفّف به، أي: ﴿لكم﴾ ولآلهتكم هذا التأفّف. ﴿أُفٍّ﴾: مدنيّ، وحفص. ﴿أُفَّ﴾: مكيّ، وشاميّ. ﴿أُفِّ﴾: غيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ مَن هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً. فلمّا لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب:

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار؛ لأنّها أهول ما يعاقب به، وأفظع ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلاّ فرّطتم في نصرتها.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾

والذي أشار بإحراقه نمرود، أو: رجل من أكراد فارس. وقيل: إنّهم حين همّوا بإحراقه حبسوه، ثمّ بنوا بيتاً بكُوثى[1]، وجمعوا شهراً أصناف الخشب، ثمّ أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثمّ وضعوه في المنجنيق مقيّداً، مغلولاً، فرموا به فيها، وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل. وقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا! قال: فسلْ ربّك. قال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي. وما أحرقت النار إلا وثاقه. وعن ابن عباس: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل.

٦٩ ـ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ أي: ذات برد وسلام، فبولغ في ذلك، كأنّ ذاتها برد، وسلام ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أراد: ابردي، فيسلم منك إبراهيم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. والمعنى: أنّ الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ، والإحراق، وأبقاها على الإضاءة، والإشراق كما كانت، وهو على كلّ شيء قدير.

٧٠ ـ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ إحراقاً ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ فأرسل على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم، وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته.

٧١ ـ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: إبراهيم ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخيه هاران من العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أرض الشام. وبركتها: أن أكثر الأنبياء منها، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينيّة، وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغنيّ والفقير. وقيل: ما من ماء عذب في الأرض إلاّ وينبع أصله من صخرة بيت المقدس. رُوي: أنّه نزل بفلسطين، ولوط بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّها ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الناس إلى مُهاجر إبراهيم»[2].

(١) «كُوثَى»: اسم موضع بسواد العراق، في أرض بابل. انظر معجم البلدان (٤/ ٤٨٧).
(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٢).

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

٧٢ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قيل: هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق، أي: ﴿وهبنا له﴾ هبة. وقيل: هي ولد الولد، وقد سأل ولداً فأعطيه، وأعطى يعقوب ﴿نافلة﴾ أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال، وهي حال من يعقوب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهو المفعول الأوّل لقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ والثاني ﴿صَٰلِحِينَ﴾ في الدِّين، والنبوّة.

٧٣ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الدِّين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ بوحينا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهي جميع الأعمال الصالحة. وأصله: أن تُفعَل الخيراتُ، ثم فِعلاً الخيراتِ، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأصل: وإقامةِ الصلاةِ، إلَّا أنّ المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ لا للأصنام. فأنتم يا معشر العرب! أولاد إبراهيم، فاتَّبِعوه في ذلك.

٧٤ ـ ﴿وَلُوطًا﴾ انتصب بفعل يفسّره ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة. وهي: ما يجب فعله من العمل، أو: فصلاً بين الخصوم، أو: نبوّة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ من أهلها، وهي: سدوم ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ اللواطة، والضُّراط، وحذف المارّة بالحصى، وغيرها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.

٧٥ ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ في أهل رحمتنا، أو: في الجنة ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جزاء له على صلاحه، كما أهلكنا قومه عقاباً على فسادهم.

٧٦ ـ ﴿وَنُوحًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿نوحاً﴾ ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءه

فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ

﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: المؤمنين من ولده، وقومه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الطوفان، وتكذيب أهل الطغيان.

٧٧ ـ ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ منعناه منهم، أي: من أذاهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

٧٨ ـ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: واذكرهما ﴿إِذْ﴾ بدل منهما ﴿يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع. أو: الكرم ﴿إِذْ﴾ ظرف ليحكمان ﴿نَفَشَتْ﴾ دخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلاً فأكلته، وأفسدته. والنفش: انتشار الغنم ليلاً بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أرادهما والمتحاكمين إليهما ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ أي: كان ذلكَ بعلمنا، ومرأىً منّا.

٧٩ ـ ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ أي: الحكومة، أو: الفتوى ﴿سُلَيْمَـٰنَ﴾ وفيه دليلٌ على أنّ الصواب كان مع سليمان ـ صلوات الله عليه ـ. وقصّته: أنّ الغنم رعت الحرث، وأفسدته بلا راع ليلاً، فتحاكما إلى داود، فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتاهما، أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث. فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق بالفريقين. فعزم عليه ليحكمنّ، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها، وأولادها، وأصوافها، والحرث إلى ربِّ الغنم حتى يصلح الحرث، ويعود كهيئته يوم أفسد، ثمّ يترادّان. فقال: القضاء ما قضيتَ. وأمضى الحكم بذلك. وكان ذلك باجتهاد منهما. وهذا كان في شريعتهم. فأمّا في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه ـ رحمهم الله ـ بالليل أو بالنهار، إلاّ أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ يجب الضمان بالليل. وقال الجصّاص: إنّما ضَمِنُوا لأنّهم أرسلوها. ونسخ الضمان بقوله عليه الصلاة

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

والسلام: «العجماء جُبَار»[١]. وقال مجاهد: كان هذا صلحاً. وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير ﴿وَكُلًّا﴾ من داود، وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ نبوّة ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة بموجب الحكم ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وذلّلنا ﴿مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ وهو حال بمعنى مسبّحات، أو استئناف، كأنّ قائلاً قال: كيف سخّرهنّ؟ فقال: ﴿يسبّحن﴾ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على ﴿الجبال﴾ أو مفعول معه. وقدّمت الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأغرب، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد. رُوي: أنّه كان يمرّ بالجبال مسبّحاً، وهي تجاوبه. وقيل: كانت تسير معه حيث سار ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ بالأنبياء مثل ذلك، وإن كان عجباً عندكم.

٨٠ ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: عمل اللبوس والدروع. واللبوس: اللباس، والمراد: الدرع ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ شاميّ، وحفص. أي: الصنعة، وبالنون: أبو بكر، وحمّاد، أي: الله عزّ وجلّ. وبالياء: غيرهم، أي: اللبوس، أو: الله عزّ وجلّ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ من حرب عدوّكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: فاشكروا الله على ذلك.

٨١ ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ حال، أي: شديدة الهبوب. ووصفت في موضع آخر بالرّخاء؛ لأنّها تجري باختياره، فكانت في وقت رخاء، وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بأمر سليمان ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنهار، والأشجار، والثمار. والمراد: الشام، وكان منزله بها، وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ وقد أحاط علمنا بكلّ شيء، فتجري الأشياء كلّها على ما يقتضيه علمنا.

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (١٤٩٩) ومسلم (١٧١٠) (٤٥).

وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ

٨٢ ـ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي: وسخّرنا منهم ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدرّ، وما يكون فيها ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الغوص، وهو بناء المحاريب، والتماثيل، والقصور، والقدور، والجفان ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو: يبدّلوا، أو: يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه.

٨٣ ـ ﴿۞وَأَيُّوبَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿أيّوب﴾ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: دعا بأنّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ الضَّرّ ـ بالفتح ـ الضرر في كلّ شيء، وبالضم: الضرر في النفس من مرض، أو: هزال ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربّه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، فكأنَّه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيّوب أهل أن يُرحَم، فارحمه، واكشف عنه الضرّ الذي مسّه. عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة، ولم يشتك. وكيف يشكو مَن قيل له: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَـٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٤٤]؟ وقيل: إنّما شكا إليه تلذّذاً بالنجوى؛ لا منه تضرّراً بالشكوى. والشكاية إليه غاية القرب، كما أنّ الشكاية منه غاية البعد.

٨٤ ـ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أجبنا نداءه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ فكشفنا ضرّه إنعاماً عليه ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ رُوي: أنّ أيّوب ـ عليه السلام ـ كان روميّاً من ولد إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله سبعة بنين، وسبع بنات، وثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمئة فدان، يتبعها خمسمئة عبد، لكلّ عبد امرأة وولد ونخيل[١]. فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده، وماله، وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، أو: ثلاث عشرة سنة، أو: ثلاث سنين.

(١) مستدرك من المطبوع.

رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ

وقالت له امرأته يوماً: لو دعوتَ الله عزّ وجلّ! فقال: كم كانت مدّة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة. فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي. فلمّا كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم، ورزقه مثلهم معهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هو مفعول له ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يعني: ﴿رحمة﴾ لأيّوب، وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره، فيثابوا كثوابه.

٨٥ ـ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي: أذكرهم. وهو إلياس، أو: زكريا، أو: يوشع بن نون. وسُمِّي به، لأنّه ذو الحظّ من الله، والكفل: الحظّ ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: هؤلاء المذكورون كلّهم موصوفون بالصبر.

٨٦ ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ نبوّتنا، أو: النعمة في الآخرة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ممّن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد.

٨٧ ـ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، والنون: الحوت، فأضيف إليه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ حال، أي: مراغماً لقومه، ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها. رُوي: أنّه برِم بقومه لطول ما ذكّرهم، فلم يتّعظوا، وأقاموا على كفرهم، فراغمهم، وظنّ أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلاّ غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله. وكان عليه أن يصابر، وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم، فابتلي ببطن الحوت ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيّق ﴿عَلَيْهِ﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه دخل يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلاّ بك. قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية، فقال: أو يظنّ نبيّ الله ألاّ يَقدر عليه؟ قال: هذا من القدَرِ لا من القُدْرة ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، كقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧] أو: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

﴿أَن﴾ أي: بأنّه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أو بمعنى: أي ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي في خروجي من قومي قبل أن تأذن لي. في الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاّ استجيب له»[1]، وعن الحسن: ما نجّاه ـ والله ـ إلاّ إقراره على نفسه بالظلم.

٨٨ ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ غمّ الزلّة، والوحشة، والوحدة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعونا، واستغاثوا بنا. ﴿نُجّي﴾: شاميّ، وأبو بكر بإدغام النون في الجيم عند البعض؛ لأنّ النون لا تدغم في الجيم، وقيل: تقديره: نُجّيَ النجاءُ المؤمنين، فسكن الياء تخفيفاً، وأسند الفعل إلى المصدر، ونصب المؤمنين بالنجاء. لكنّ فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول، وهذا لا يجوز. وفيه تسكين الياء، وبابه: الضرورات. وقيل: أصله ننجّي، من التنجية، فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين، كما حذفت إحدى التاءين في ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤].

٨٩ ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ سأل ربّه أن يرزقه ولداً يرثه، ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلماً فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي، فإنّك خير وارث، أي: باق.

٩٠ ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ولداً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد عُقْرها، أو: حسنة، وكانت سيّئة الخلق ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الأنبياء المذكورين ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: إنهم إنّما استحقّوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٠) والنسائي (٦٥٥) في عمل اليوم والليلة، والحاكم(١ / ٥٠٥).

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝٩٣﴾

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: طمعاً وخوفاً، كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. وهما مصدران في موضع الحال، أو: المفعول له، أي: للرغبة فينا، والرهبة منّا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ متواضعين، خائفين.

٩١ ـ ﴿وَالَّتِي﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي﴾ ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته، من الحلال والحرام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أجرينا فيها روح المسيح، أو: أمرنا جبريل، فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها. وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ مفعول ثان ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] لأنّ حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي: ولادتها إيّاه من غير فحل. أو: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، فـ﴿آيةً﴾ مفعول المعطوف عليه، ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿آيتين﴾.

٩٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمّة: الملّة. و﴿هذه﴾ إشارة إلى ملّة الإسلام، وهي: ملّة جميع الأنبياء، و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال، أي: متوحّدة غير متفرقة. والعامل ما دلّ عليه اسم الإشارة، أي: أنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملّة واحدة غير مختلفة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: ربّيتكم اختياراً، فاعبدوني شكراً وافتخاراً. والخطاب للناس كافّة.

٩٣ ـ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أصل الكلام: وتقطّعتم، إلاّ أنّ الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات. والمعنى: وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، وصاروا فرقاً وأحزاباً، ثمّ توعّدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم على أعمالهم.

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ

---

٩٤ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شيئاً ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: فإنّ سعيه مشكور مقبول. والكفران مَثَل في حرمان الثواب، كما أنّ الشكر مَثَل في إعطائه. وقد نُفِيَ نَفْيَ الجنس ليكون أبلغ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ للسَّعي أي: الحفظة بأمرنا ﴿كَٰتِبُونَ﴾ في صحيفة عمله، فنثيبه به.

٩٥ ـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾: ﴿وحِرْمٌ﴾ كوفيّ ـ غير حفص ـ وخلف. وهما لغتان، كحِلّ وحلال وزناً، وضدّه معنى. والمراد بالحرام: الممتنع وجوده ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى: وممتنع على مُهْلَكٍ غيرُ ممكن ألاّ يرجع إلى الله بالبعث أو: ﴿وحرام على قرية أهلنكاها﴾ ـ أي: قدّرنا إهلاكهم، أو: حكمنا بإهلاكهم ذاك، وهو المذكور في الآية المتقدّمة من العمل الصالح، والسعي المشكور غير المكفور، ﴿أنهم لا يرجعون﴾ من الكفر إلى الإسلام.

٩٦ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيّ: الجملة من الشرط والجزاء، أعني: ﴿إذا﴾ وما في حيّزها ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: فتح سدّهما، فحذف المضاف، كما حذف المضاف إلى ﴿قرية﴾. ﴿فُتِّحت﴾: شاميّ. وهما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها: يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشْزٍ من الأرض، أي: ارتفاع ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون.

٩٧ ـ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القيامة. وجواب ﴿إذا﴾: ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ وهي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء، كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكّد. ولو قيل: فهي شاخصة، أو: إذا ﴿هي شاخصة﴾ كان سديداً.

شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ

﴿وهي﴾ ضمير مبهم يوضحه الأبصار، ويفسّره ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مرتفعة الأجفان، لا تكاد تطرِف من هول ما هم فيه ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون: ﴿يا ويلنا﴾، ويقولون: حال من ﴿الذين كفروا﴾ ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها.

٩٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، وإبليس، وأعوانه؛ لأنّهم بطاعتهم لهم، واتّباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم ﴿حَصَبُ﴾ حطب. وقرىء ﴿حطب﴾ ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فيها داخلون.

٩٩ ـ ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ كما زعمتم. ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ ما دخلوا النار ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿خَالِدُونَ﴾.

١٠٠ ـ ﴿لَهُمْ﴾ للكفّار. ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين، وبكاء، وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما؛ لأنهم صاروا صماً، وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

١٠١ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الخصلة المفضّلة في الحسن. تأنيث الأحسن. وهي، السعادة، أو البشرى بالثواب، أو التوفيق للطاعة. نزلت جواباً لقول ابن الزِّبَعْرى عند تلاوته عليه الصلاة والسلام على صناديد قريش: ﴿إنّكم وما تعبدون من دون الله﴾ إلى قوله ﴿خالدون﴾: أليس اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة؟[1] على أنّ قوله ﴿وما تعبدون﴾ لا يتناولهم؛ لأنّ ﴿ما﴾ لمن لا يعقل، إلاّ أنّهم أهل عناد، فزيد

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٢٧٠) من غير إسناد، وانظر حاشية الكشاف (٣ / ١٣٦).

أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ
ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا
بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ

في البيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: عزيراً، والمسيح، والملائكة ﴿عَنۡهَا﴾ عن جهنّم ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ لأنّهم لم يرضوا بعبادتهم. وقيل: المراد بقوله: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى﴾ جميع المؤمنين؛ لما رُوي أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ قرأ هذه الآية، ثمّ قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: سبقت لهم منّا العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية.

١٠٢ ـ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها الذي يحسّ، وحركة تلهّبها. وهذه مبالغة في الإبعاد عنها، أي: لا يقربونها حتّى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ من النعيم ﴿خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون. والشهوة: طلب النفس اللذة.

١٠٣ ـ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ النفخة الأخيرة ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ أي: تستقبلهم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مهنّئين على أبواب الجنّة يقولون: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربّكم في الدنيا.

١٠٤ ـ العامل في: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ ﴿لا يحزنهم﴾ أو: ﴿تتلقّاهم﴾. ﴿تُطوَى السماءُ﴾ يزيد. وطيّها: تكوير نجومها، ومحو رسومها، أو: هو ضدّ النشر: نجمعها، ونطويها ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أي: الصحيفة ﴿لِلۡكُتُبِ﴾ حمزة، وعليّ، وحفص، أي: للمكتوبات، أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وغيرهم: (للكتاب) أي: كما يُطوى الطومار للكتابة، أو: لما يكتب فيه؛ لأنّ الكتاب أصله المصدر، كالبناء، ثمّ يوقع على المكتوب. وقيل: ﴿السجلّ﴾ ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه. وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ. ﴿والكتاب﴾ على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها. والطيّ مضاف إلى الفاعل، وعلى الأوّل إلى المفعول ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ انتصب الكاف بفعل

وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

مضمر يفسّره ﴿نعيده﴾، و﴿ما﴾ موصولة، أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده، و﴿أوّل خلق﴾ ظرف لبدأنا، أي: أوّل ما خلق. أو: حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ، الثابت في المعنى. وأوّلُ الخلق: إيجاده، أي: فكما أوجده أوّلاً يعيده ثانياً، تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء. والتنكير في ﴿خلق﴾ مثله في قولك: هو أوّل رجل جاءني، تريد: أوّل الرجال، ولكنّك وحّدته ونكّرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى ﴿أوّل خلق﴾ أوّل الخلق بمعنى: أوّل الخلائق؛ لأنّ الخلق مصدر لا يجمع ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿نعيده﴾ عدة للإعادة ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي: ﴿وعداً﴾ كائناً لا محالة ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، أي: محقّقين هذا الوعد، فاستعدّوا له، وقدّموا صالح الأعمال؛ للخلاص من هذه الأهوال.

١٠٥ ـ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ كتاب داود ـ عليه السلام ـ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ التوراة ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: الشام ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ﴾ ساكنة الياء: حمزة، غيره: بفتح الياء ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: أمّة محمد ﷺ. أو: ﴿الزبور﴾ بمعنى المزبور، أي: المكتوب، يعني: ما أنزل على الأنبياء من الكتب. و﴿الذكر﴾ أمّ الكتاب، يعني: اللوح؛ لأنّ الكلّ أخذوا منه. دليلهُ: قراءة حمزة وخلف بضم الزاي، على جمع الزُّبر بمعنى المزبور. و﴿الأرض﴾: أرض الجنّة.

١٠٦ ـ ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو: في المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد، والوعيد، والمواعظ ﴿لَبَلَٰغًا﴾ لكفاية. وأصله: ما تبلغ به البغية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ موحّدين، وهم أمّة محمد ﷺ.

١٠٧ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ قال ﷺ: «إنّما أنا رحمة مهداة»[1] ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّه جاء بما يسعدهم إن اتّبعوه. ومن لم يتبع فإنّما أتي من عند

(١) رواه ابن سعد والحكيم الترمذي عن أبي صالح مرسلاً. (كنز العمال ٣١٩٩٥).

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ

نفسه، حيث ضيّع نصيبه منها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين في الدارين، وللكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال، والمسخ، والخسف. و﴿رحمة﴾ مفعول له، أو: حال، أي: ذا رحمة.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ لقصر الحكم على شيء، أو: لقصر الشيء على حكم، نحو: إنّما زيد قائم، وإنّما يقوم زيد. وفاعل ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. والتقدير: ﴿يُوحَى إليّ﴾ وحدانيّة إلهي. ويجوز أن يكون المعنى: إنّ الذي يوحى إليّ. فتكون ﴿ما﴾ موصولة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا.

١٠٩ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ حال، أي: مستوين في الإعلام به، ولم أخصص بعضكم. وفيه دليلُ بطلان مذهب الباطنيّة ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري متى يكون يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لم يطلعني عليه، ولكني أعلم بأنّه كائن لا محالة، أو: لا أدري متى يحلّ بكم العذاب إن لم تؤمنوا.

١١٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إنّه عالم بكلّ شيء، يعلم ما تجاهرونني به من الطعن في الإسلام، وما تكتمونه في صدوركم من الأحقاد، وهو مجازيكم عليه.

١١١ ـ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعلّ تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع لكم إلى الموت؛ ليكون ذلك حجّة عليكم.

١١٢ ـ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكّة بالعدل، أو: بما يحقّ عليهم من العذاب، ولاتحابهم، وشدّد عليهم، كما قال: «واشدد وطأتك على

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

مضر»[١]. ﴿قال ربّ﴾ حفص، على حكاية قول رسول الله ﷺ. ﴿ربُّ احكم﴾: يزيد، ﴿ربِّيَ أَحْكَمُ﴾: زيد، عن يعقوب ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ العاطف على خلقه ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وعن ابن ذكوان: بالياء. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة، فكذّب الله ظنونهم، وخيّب آمالهم، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم، [أي: الكفار، وهو: المستعان على ما يصفون][٢].

* * *

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٥٧).

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

سُورَةُ الحَجّ

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر بني آدم بالتقوى، ثمّ علّل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوّروها بعقولهم حتّى يبقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم؛ بامتثال ما أمرهم به ربّهم من التردّي بلباس التقوى؛ الذي يؤمّنهم من تلك الأفزاع. والزلزلة: شدّة التحريك والإزعاج. وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله، كأنّها هي التي تزلزل الأرض، على المجاز الحكميّ، أو: إلى الظرف؛ لأنها تكون فيها، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] ووقتها يكون يوم القيامة، أو: عند طلوع الشمس من مغربها، ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً؛ فإنّ هذا اسم لها حال وجودها.

٢ ـ وانتصب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الزلزلة، أو: الساعة. بقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ تغفل. والذهول: الغفلة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها، أو: عن الذي أرضعته، وهو الطفل. وقيل: ﴿مرضعة﴾ ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا حدث، وقد ألقمت الرضيع ثديها، نزعته عن فيه؛ لما يلحقها من الدهشة،

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبيّ. والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: حبلى ﴿حَمْلَهَا﴾ ولدها قبل تمامه. عن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ أيّها الناظر ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ على التشبيه لَمّا شاهدوا بساط العزة، وسلطنة الجبروت، وسرادق الكبرياء، حتّى قال كل نبيّ: نفسي نفسي ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على التحقيق ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وردّهم في نحو حالِ مَن يذهب السكر بعقله، وعن الحسن: ﴿وترى الناس سكارى﴾ من الخوف ﴿وما هم بسكارى﴾ من الشراب. ﴿سكرى﴾ فيهما بالإمالة: حمزة، وعليّ، وهو كعطشى في عطشان. رُوي أنّه نزلت الآيتان ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما النبيّ ﷺ، فلم نَرَ أكثر باكياً من تلك الليلة[1].

٣ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. نزلت في النضر بن الحارث، وكان جَدِلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بَلِيَ. أو: هي عامّة في كلّ من يخاصم في الدين بالهوى. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ عات مستمرّ في الشرّ، ولا وقف على ﴿مريد﴾ لأنّ ما بعده صفته.

٤ ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضي على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ﴾ أنّ الأمر والشأن ـ وهو فاعل ﴿كُتب﴾ ـ ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ تبعه، أي: تبع الشيطان، ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ فأنّ الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ عن سواء السبيل ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار، قال الزجاج: الفاء

---

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشاف ٣/١٤١). وفي المطبوع والكشاف: «يُر».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ

في ﴿فأنّه﴾ للعطف، و﴿أنّ﴾ مكررة للتأكيد. وردّ عليه أبو عليّ، وقال: إنّ ﴿مَنْ﴾ إن كان للشرط، فالفاء دخل لجزاء الشرط، وإن كان بمعنى الذي، فالفاء دخل على خبر المبتدأ. والتقدير: فالأمر أنّه يضلّه. قال: والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول. والمعنى: ﴿كتب﴾ على الشيطان إضلال من ﴿تولاه﴾ وهدايته إلى النار.

٥ - ثم ألزم الحجة على منكري البعث، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ يعني: إن ارتبتم في البعث، فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلاّ هذا، وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ﴾ خلقتم ﴿مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي: قطعة دم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: لحمة صغيرة قدر ما يمضغ. ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ المخلّقة: المسوّاة، الملساء من النقصان والعيب، كأن الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم. وإنما نقلناكم من حال إلى حال، ومن خلقة إلى خلقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا، وأنّ مَن قدر على خلق البشر من تراب أوّلاً، ثمّ من نطفة ثانياً، ولا مناسبة بين التراب الماء، وقدر أن يجعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما بدأه ﴿وَنُقِرُّ﴾ بالرفع عند غير المفضل، مستأنف بعد وقف، أي: نحن نثبّتُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ ثبوته، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وقت الولادة. وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾ من الرحم ﴿طِفۡلٗا﴾ حال. وأريد به الجنس، فلذا لم يجمع، أو: أريد به: ثمّ نخرج كلّ واحد منكم ﴿طفلاً﴾ ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ ثمّ نربّيكم لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمۡ﴾ كمال عقلكم وقوتكم. وهو من ألفاظ الجموع التي لا يستعمل

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ

لها واحد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشدّ، أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أخسّه، يعني: الهرم، والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: ﴿لكيلا يعلم﴾ شيئاً ﴿من بعد﴾ ما كان يعلمه. أو: لكيلا يستفيد علماً، وينسى ما كان عالماً به. ثُمّ ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة، يابسة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت ﴿وربأت﴾ حيث كان: يزيد: ارتفعت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن، سارّ للناظرين إليه.

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا، وهو ﴿أن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الوجود ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا الأرض ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

٧ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: أنه حكيم لا يخلف الميعاد. وقد وعدَ الساعة والبعث، فلا بدّ أن يفي بما وعد.

٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في صفاته، فيصفه بغير ما هو له. نزلت في أبي جهل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ضروريّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: استدلاليّ؛ لأنه يهدي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: وحي. والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة.

٩ ـ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال، أي: لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء[1]

(١) في المطبوع بعد هذا: وعن الحسن: ﴿ثاني عطفه﴾ ـ بفتح العين ـ أي: مانع تعطفه إلى غيره.

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ

﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليل للمجادلة. ﴿ليَضلّ﴾: مكّي، وأبو عمرو ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ﴾ أي: القتل يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: جمع له عذاب الدّارَيْن.

١٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: السبب في عذاب الدارين هو ما قدّمت نفسه من الكفر، والتكذيب، وكنَّى عنها باليد؛ لأنّ اليدَ آلةُ الكسب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلا يأخذ أحداً بغير ذنب، ولا بذنب غيره. وهو عطف على ﴿بما﴾ أي: وبأن الله. وذكر الظلاّم بلفظ المبالغة؛ لاقترانه بلفظ الجمع، وهو العبيد، ولأنّ قليل الظلم منه ـ مع علمه بقبحه واستغنائه ـ كالكثير منّاً.

١١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة. وهو حال، أي: مضطرباً ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ صحّة في جسمه، وسعة في معيشته، ﴿ٱطۡمَأَنَّ﴾ سكن، واستقرّ ﴿بِهِۦ﴾ بالخير الذي أصابه، أو: بالدين، فعبَد الله ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ شر، وبلاء في جسده، وضيق في معيشته ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ جهته، أي: ارتدّ، ورجع إلى الكفر. كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفر وغنيمة، قرّ واطمأنّ، وإلاّ فرّ وطار على وجهه. قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة مهاجرين، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، ونُتِجَتْ فرسه مهراً سويّاً، وولدت امرأته غلاماً سويّاً، وكثر ماله وماشيته، قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلاّ خيراً، واطمأنّ. وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلاّ شرّاً، وانقلب عن دينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حال. و«قد» مقدرة. دليلُه قراءة: روح، وزيد: (خاسر الدنيا والآخرة). والخسران في الدنيا بالقتل فيها، وفي الآخرة بالخلود في النار

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خسران الدّارَيْن ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

١٢ ـ ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الصنم، فإنه بعد الردّة يفعل كذلك ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الصواب.

١٣ ـ ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ والإشكال أنّه تعالى نفى الضرّ والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية، وأثبتهما لها هنا! والجواب: أنّ المعنى إذا فُهم ذهب هذا الوهم، وذلك أنّ الله تعالى سفّه الكافر بأنّه يعبد جماداً لا يملك ضرّاً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه أنّه يَشْفعه. ثمّ قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر ـ بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى أثر الشفاعة ـ: ﴿لمن ضره أقرب من نفعه﴾ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب. وكرّر يدعو، كأنّه قال: يدعو[1] يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه. ثمّ قال: ﴿لمن ضرّه﴾ بكونه معبوداً ﴿أقرب من نفعه﴾ بكونه شفيعاً.

١٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا وعد لمن عبد الله بكلّ حال، لا لمن عبد الله على حرف.

١٥ ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ المعنى: أنّ الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن ظنّ من أعاديه غير ذلك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ثمّ ليختنق به. وسمّي الاختناق قطعاً؛ لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وبكسر اللام: بصريّ وشاميّ ﴿فَلْيَنظُرْ

---

(١) من الكشاف ومن المطبوع.

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ

﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي الذي يغيظه، أو: ﴿ما﴾ مصدرية، أي: غيظه. والمعنى: فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمّي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء؛ لأنّه لم يكد به محسوده، إنّما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلاّ ما ليس بمذهب لما يغيظ.

١٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كلّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي: ولأنّ الله يهدي به الذين يعلم أنّهم يؤمنون ـ أو: يثبّت الذين آمنوا، ويزيدهم هدى ـ أنزله كذلك مبيّناً.

١٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ قيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان، وواحد للرحمن. والصابئون نوع من النصارى، فلا تكون ستّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في الأحوال والأماكن، فلا يجازيهم جزاء واحداً، ولا يجمعهم في موطن واحد. وخبر ﴿إنّ الذين آمنوا﴾: ﴿إنّ الله يفصل بينهم﴾ كما تقول: إنّ زيداً إنّ أباه قائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به، حافظ له، فلينظر كلّ امرىء معتقده، وقوله، وفعله. وهو أبلغ وعيد.

١٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ قيل: إنّ الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقيل: سُمِّيَت مطاوعة غير المكلّف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجوداً له؛ تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلّف؛ الذي كلّ خضوع دونه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ

ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة. أو: هو مرفوع على الابتداء ﴿ومن الناس﴾: صفة له، والخبر محذوف، وهو: مثاب. ويدل عليه قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وكثير منهم حقّ عليه العذاب بكفره، وإبائه السجود ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الإكرام، والإهانة، وغير ذلك. وظاهر هذه الآية، والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: شاء أشياء ولم يفعل. وهو يقول: ﴿يفعل ما يشاء﴾.

١٩ ـ ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان. فالخصم صفة وصف بها الفريق. وقوله: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ للمعنى، و﴿هذان﴾ للفظ. والمراد: المؤمنون والكافرون. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رجع إلى أهل الأديان المذكورة، فالمؤمنون خصم، وسائر الخمسة خصم ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دينه، وصفاته. ثمّ بين جزاء كلّ خصم بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهو فصل الخصومة المعنيّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧] ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ كأنّ الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثتهم، تشتمل عليهم، كما تقطّع الثياب الملبوسة. واختير لفظ الماضي؛ لأنّه كائن لا محالة، فهو كالثابت المتحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ بكسر الهاء والميم: بصريّ، وبضمها: حمزة، وعليّ، وخلف، وبكسر الهاء وضم الميم؛ غيرهم ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء الحارّ. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

٢٠ ـ ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِۦ﴾ بالحميم ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: يذيب أمعاءهم وأحشاءهم، كما يذيب جلودهم، فيؤثر في الظاهر والباطن.

٢١ ـ ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ﴾ سياط مختصّة بهم ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ يضربون بها.

كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

٢٢ ـ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل الاشتمال من ﴿منها﴾ بإعادة الجارّ. أو: الأولى لابتداء الغاية، والثانية بمعنى: من أجل، يعني: ﴿كلمّا أرادوا﴾ الخروج من النار ﴿من﴾ أجل ﴿غمّ﴾ يلحقهم فخرجوا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالمقامع. ومعنى الخروج عند الحسن: أنّ النار تضربهم بلهبها فتلقيهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً. والمراد: إعادتهم إلى معظم النار، لا أنهم ينفصلون عنها بالكليّة، ثمّ يعودون إليها ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي: ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذوقوا﴾ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الغليظ من النار المنتشر، العظيم الإهلاك. ثمّ ذكر جزاء الخصم الآخر فقال:

٢٣ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾. جمع: أسورة، جمع: سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب: مدني، وعاصم، على: ويؤتون ﴿لؤلؤاً﴾. وبالجر: غيرهم، عطفاً على ﴿من ذهب﴾ وبترك الهمزة الأولى في كل القرآن: أبو بكر، وحمّاد. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ إبريسم.

٢٤ ـ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: أُرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد، وإلى ﴿صراط الحميد﴾ أي: الإسلام. أو: هداهم الله في الآخرة، وألهمهم أن يقولوا: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وهداهم إلى طريق الجنة. و﴿الحميد﴾: الله المحمود بكلّ لسان.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون عن الدخول في الإسلام. ﴿ويصدّون﴾ حال من فاعل ﴿كفروا﴾ أي: ﴿و﴾ هم ﴿يصدّون﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم، كما يقال: فلان يحسن إلى الفقراء، فإنّه يراد

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

به: استمرار وجود الإحسان منه في الحال والاستقبال ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ويصدّون عن ﴿المسجد الحرام﴾ والدخول فيه ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ مطلقاً من غير فرق بين حاضر وباد، فإن أريد بالمسجد الحرام: مكّة، ففيه دليلٌ على أنّه لا تباع دور مكّة، وإن أريد به البيت، فالمعنى: أنّه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب حفص. مفعول ثان لجعلناه، أي: ﴿جعلناه﴾ مستوياً ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وغير المقيم. بالياء: مكيّ، وافقه أبو عمرو في الوصل. وغيره بالرفع، على أنّه خبر، والمبتدأ مؤخر، أي: العاكف فيه والباد سواء. والجملة مفعول ثان. و﴿للناس﴾ حال ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان. ومفعول ﴿يرد﴾ متروك؛ ليتناول كلّ متناول، كأنّه قال: ﴿ومن يرد فيه﴾ مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً. فالإلحاد: العدول عن القصد ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة. وخبر ﴿إنّ﴾ محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه. تقديره: ﴿إن الذين كفروا ويصدّون﴾ عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكلّ من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

٢٦ ـ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مباءة، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة، والعبادة. وقد رفع البيت إلى السماء أيّام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها، فكنست مكان البيت، فبناه على أسّه القديم ﴿أَن﴾ هي المفسّرة للقول المقدّر، أي: قائلين له: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾[(١)] من الأصنام، والأقذار. وبفتح الياء: مدنيّ، وحفص ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ لمن يطوف به ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ والمقيمين بمكّة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلّين. جمع راكع، وساجد.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿بَيْتيْ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٧٦).

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾

٢٧ ـ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ نادِ فيهم. والحج: هو القصد البليغ إلى مقصد منيع. روي أنّه صعد أبا قبيس، فقال: يا أيّها الناس حجّوا بيت ربّكم فأجاب مَن قدّر له أن يحجّ من الأصلاب والأرحام بـ: لبيّك اللهم لبيك. وعن الحسن: أنّه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجّة الوداع، والأوّل أظهر. وجواب الأمر ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة، جمع راجل، كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوفة على ﴿رجالاً﴾ كأنّه قال رجالاً، وركباناً. والضامر: البعير المهزول. وقدّم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة، كما ورد في الحديث ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكلّ ضامر؛ لأنّه في معنى الجمع. وقرأ عبد الله (يأتون) صفة للرجال، والركبان. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. قال محمد بن ياسين: قال لي شيخٌ في الطّواف: من أين أنت؟ قلت: من خراسان. قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين، أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب فاكتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك وقال:

زُرْ من هويتَ وإن شطَّتْ بك الدار ... وحال من دونه حُجْب وأستار
لا يمنعنّك بُعْدٌ عن زيارته ... إنَّ المحبّ لمن يهواه زوّار

٢٨ ـ واللام في: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليحضروا. متعلّق بـ ﴿أذِّنْ﴾، أو: بـ ﴿يأتوك﴾ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ نكّرها؛ لأنّه أراد منافع مختصّة بهذه العبادة دينيّة ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادة، وهذا لأنّ العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة، والصوم، أو: بالمال كالزكاة. وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال، وركوب الأهوال، وخلع الأسباب، وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، وفرقة الأولاد والخلّان، والتنبيه على ما يستمرّ عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء. فالحاجّ إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلاّ على عتاده، ولا يأكل إلاّ من زاده. فكذا المرء إذا خرج من شاطئ الحياة، وركب

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾

بحر الوفاة، لا ينفع وحدته إلاّ ما سعى في معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشته إلاّ ما كان يأنس به من أوراده. وغسل من يحرم وتأهبّه، ولبسه غير المخيط وتطيبه، مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره، لغسله وتجهيزه، مطيباً بالحنوط، ملفّفاً في كفن غير مخيط. ثم المحرّم يكون أشعث حيران، فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان. ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغباً ورهباً، سائلين خوفاً وطمعاً، وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العَرَصَات: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء، هو السوق لفصل القضاء. ومِنى هو موقف المُنى للمذنبين، إلى شفاعة الشافعين. وحلق الرأس والتنظيف، كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف. والبيت الحرام الذي ﴿مَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] من الإيذاء والقتال، أنموذج لدار السلام التي هي مَن نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال. غير أنّ الجنّة حفت بمكاره النفس العادية، كما أنّ الكعبة حفّت بمتالف البادية. فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي، شوقاً إلى لقاء يوم التنادي ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند الذبح ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وآخرها يوم النحر. وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسرين ـ رحمهم الله ـ وعند صاحبيه: هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: على ذبحه. وهو يؤيّد قولهما. والبهيمة: مبهمة في كلّ ذات أربع في البرّ والبحر، فبيّنت بالأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من لحومها. والأمر للإباحة. ويجوز الأكل من هدي التطوّع، والمتعة، والقران؛ لأنّه دم نسك، فأشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس، أي: شدّة ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ الذي أضعفه الإعسار.

٢٩ ـ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ ثمّ ليزيلوا عنهم أدرانهم. كذا قاله نفطويه. قيل: قضاء التفث: قصّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ﴾

والتفث: الوسخ. والمراد: قضاء إزالة التفث. وقال ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: قضاء التفث: مناسك الحج كلّها ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ مواجب حجّهم. والعرب تقول لكلّ من خرج عمّا وجب عليه: وفّى بنذره، وإن لم ينذر. أو: ما ينذرونه من أعمال البرّ في حجّهم. ﴿ولْيوفّوا﴾ بسكون اللام والتشديد: أبو بكر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الزيارة؛ الذي هو ركن الحجّ، ويقع به تمام التحلّل. اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عامر، وأبي عمرو[١]. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم؛ لأنه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] بناه آدم، ثمّ جدّده إبراهيم. أو: الكريم. ومنه عتاق الخيل لكرائمها، وعتاق الرقيق: الخروج من ذلّ العبوديّة إلى كرم الحريّة. أو: لأنه أعتق من الغرق؛ لأنه رفع زمن الطوفان. أو: من أيدي الجبابرة. كم من جبّار سار إليه ليهدمه فمنعه الله! أو: ومن أيدي الملاّك، فلم يملك قطّ. وهو مطافُ أهل الغبراء، كما أنّ العرشَ مطافُ أهل السماء، فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب، وجذبته جواذب الطلب، جعل يقطع مناكبَ الأرض مراحل، ويتخذ مسالكَ المهالك منازل. فإذا عاين البيتَ لم يزدْه التسلي به إلاّ اشتياقاً، ولم يفده التشفّي باستلام الحجر إلاّ احتراقاً. فيذبذبه الأسفُ لهفان، ويُردِّده اللهف حوله في الدوران. وطواف الزيارة آخر فرائض الحجّ الثلاث. وأوّلها الإحرام. وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام، حتّى لا يرتفض بارتكاب ما هو محذورٌ فيه، ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه. كما أنّ عقدَ الإسلام لا ينحلّ بازدحام الآثام. وترتفع ألفُ حوبة بتوبة. وثانيها: الوقوف بعرفات بسمة الابتهال، في صفة الاهتبال، وصدق الاعتزال عن دفع الاتّكال على مراتب الأعمال، وشواهد الأحوال.

٣٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ﴿ذلك﴾. أو: تقديره:

---

(١) أي أن قراءة: ﴿ليقضوا ـ ليوفوا ـ ليطوفوا﴾ بكسر اللامات الثلاث هي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وقنبل، وابن محيصن، ورويس، واليزيدي، وابن حجاز، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٧٧).

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾

ليفعلوا ﴿ذلك﴾ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الحرمة: ما لا يحلّ هتكه. وجميع ما كلّفه الله عزّ وجلّ بهذه الصفة من مناسك الحجّ وغيرها، فيحتمل أن يكون عامّاً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصّاً بما يتعلّق بالحجّ. وقيل: ﴿حرمات الله﴾: البيت الحرام، والمشعر الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام، والمسجد الحرام ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ومعنى التعظيم: العلم بأنّها واجبة المراعاة، والحفظ، والقيام بمراعاتها ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: أكلها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه. وذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. والمعنى: أنّ الله تعالى أحلّ لكم الأنعام كلها إلّا ما بيّن في كتابه، فحافظوا على حدوده، ولا تحرّموا شيئاً ممّا أحلّ؛ كتحريم البعض البحيرة، ونحوها. ولا تحلّوا ممّا حرّم كإحلالهم أكل الموقوذة، والميتة، وغيرهما. ولمّا حثّ على تعظيم حرماته، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان، وقول الزور بقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ لأنّ ذلك من أعظم الحرمات، وأسبقها. و﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس؛ لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ الذي هو الأوثان. وسمّى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، يعني: أنكم تنفرون بطباعكم عن الرجس، فعليكم أن تنفروا عنها. وجمع بين الشرك وقول الزور ـ أي: الكذب، والبهتان، أو شهادة الزور، وهو من الزَّوَر، وهو: الانحراف ـ لأنّ الشرك من باب الزور، إذ المشرك زاعم: أنّ الوثن تحقٌّ له العبادة.

٣١ ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مسلمين ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ حال كحنفاء ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تسلبه بسرعة. ﴿فتخَطّفه﴾ أي: تتخطّفه: مدنيّ ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تسقطه

﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾

ـ والهُويّ: السقوط ـ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد. يجوز أن يكون هذا تشبيهاً مركباً، ويجوز أن يكون مفرّقاً. فإن كان تشبيهاً مركّباً فكأنّه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده، بأن صوّر حاله بصورة حال من ﴿خرّ من السماء﴾ فاختطفته الطير، فتفرّق قطعاً في حواصلها، أو: عصفت به الريح حتّى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان مفرّقاً فقد شبّه الإيمان في علوّه بالسماء، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء المردية بالطير المتخطّفة، والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

٣٢ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ تعظيم الشعائر ـ وهي: الهدايا؛ لأنّها من معالم الحجّ ـ: أن يختارها عظام الأجرام، حساناً، سماناً، غالية الأثمان ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: فإنّ تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. وإنّما ذكرت القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى.

٣٣ـ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الركوب عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: وقت وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. والمراد: نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت، إذ الحرم حريم البيت. ومثله في الاتساع قولك: بلغت البلد، وإنّما اتّصل مسيرك بحدوده. وقيل: الشعائر: المناسك كلها. وتعظيمها: إتمامها. و﴿محلّها إلى البيت العتيق﴾ يأباه.

٣٤ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعة مؤمنة قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ ـ حيث كان بكسر السين؛ بمعنى الموضع: عليّ، وحمزة، أي: موضع قربان. وغيرهما بالفتح على المصدر، أي: إراقة الدماء، وذبح القرابين ـ و﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: عند نحرها، وذبحها

فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي: اذكروا على الذبح اسم الله وحده، فإنّ إلهكم إله واحد. وفيه دليلٌ على أنّ ذكر اسم الله شرط الذبح. يعني: أنّ الله تعالى شرع لكلّ أمة أن ينسكوا له، أي: يذبحوا له على وجه التقرّب، وجعل العلّة في ذلك أن يذكر اسمه ـ تقدّست أسماؤه ـ على النسائك ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصّة، واجعلوه له سالماً، أي: خالصاً، لا تشوبوه بإشراك ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ المطمئنّين بذكر الله، أو: المتواضعين الخاشعين. من: الخَبْت، وهو المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا. وقيل: تفسيره ما بعده، أي:

٣٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خافت منه هيبة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من المحن، والمصائب ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ في أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يتصدّقون.

٣٦ ـ ﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة، سمّيت لعظم بدنها، وفي الشريعة: يتناول الإبل والبقر. وقُرِىء برفعها. وهو كقوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ [يس: ٣٩] ﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من أعلام الشريعة التي شرعها الله. وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها. و﴿من شعائر الله﴾ ثاني مفعولي ﴿جعلنا﴾ ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ النفع في الدنيا، والأجر في العقبى ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ عند نحرها ﴿ صَوَآفَّ ﴾ حال من الهاء، أي: قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض، من وجب الحائط وجبة: إذا سقط، أي: إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها، وسكنت حركتها ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ إن شئتم ﴿ وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ ﴾ السائل، من: قنعت إليه: إذا خضعت له، وسألته،

وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يريك نفسه، ويتعرّض، ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضي بما عنده، وبما يُعْطَى من غير سؤال، من: قَنِعت قَنعاً وقناعة. والمعترّ: المتعرّض للسؤال ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها ﴿سخرناها لكم﴾. أو: هو كقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ﴾ [الحج: ٣٠] ثمّ استأنف فقال: ﴿سخرناها لكم﴾، أي: ذلّلناها لكم مع قوّتها وعظم أجرامها، لتتمكّنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

٣٧ ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: لن يتقبّل الله اللحوم والدماء، ولكن يتقبّل التقوى، أو: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدّق بها، ولا الدماء المراقة بالنحر. والمراد: أصحاب اللحوم والدماء. والمعنى: لن يُرضي المضحّون، والمقرّبون ربّهم إلاّ بمراعاة النيّة، والإخلاص، ورعاية شروط التقوى. وقيل: كان أهلُ الجاهلية إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت، ولطّخوه بالدم. فلمّا حجّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلت ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لتسمّوا الله عند الذبح، أو: لتعظّموا الله ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ على ما أرشدكم إليه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الممتثلين أوامره بالثواب.

٣٨ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ ـ ﴿يَدْفَعُ﴾[1] ـ: مكّيّ، وبصري. وغيرهما ﴿يدافع﴾ أي: يبالغ في الدفع عنهم ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين. ونحوه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١]. ثمّ علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمة الله، أي:

---

(١) هذه القراءة هي المثبتة في الأصل المخطوط، وأما ﴿يُدافِع﴾ فهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي. (السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٤٣٧).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾

لأنّه لا يحبّ أضدادهم، وهم الخونة الكفرة؛ الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله، ويغمِطونها.

٣٩ ـ ﴿أُذِنَ﴾: مدنيّ، وبصريّ، وعاصم ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. والمعنى: ﴿أذن﴾ لهم في القتال ـ فحذف المأذون فيه لدلالة ﴿يقاتلون﴾ عليه ـ ﴿بأنّهم ظلموا﴾ بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكّة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه، فيقول لهم: «اصبروا، فإنّي لم أومر بالقتال» حتّى هاجر. فأنزلت هذه الآية. وهي أوّل آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيّف وسبعين آية(١) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ على نصر المؤمنين ﴿لَقَدِيرٌ﴾ قادر. وهو بشارةٌ للمؤمنين بالنصرة. وهو مثلُ قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

٤٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل جرّ بدل من ﴿للذين﴾، أو: نصب بأعني، أو: رفع بإضمار «هُم» ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ بمكّة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: بغير موجب سوى التوحيد؛ الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين، لا موجب الإخراج. ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] ومحل ﴿أن يقولوا﴾ جرّ بدلاً من ﴿حقّ﴾ والمعنى: ما أخرجوا من ديارهم إلاّ بسبب قولهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ ﴿دفاع﴾: مدنيّ، ويعقوب ﴿ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ وبالتخفيف: حجازيّ ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾ أي: لولا إظهاره، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة، لا ستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبّداتهم، فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، وعزاه الواحدي في «الوسيط» للمفسرين. (حاشية الكشاف ٣/ ١٦٠).

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ

ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات ـ أي: كنائس. وسمّيت الكنيسة صلاة؛ لأنّها يُصلَّى فيها ـ ولا للمسلمين مساجد. أو: لغلب المشركون في أمّة محمد ﷺ على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمّتهم، وهدّموا متعبّدات الفريقين. وقدّم غير المساجد عليها لتقدّمها وجوداً، أو: لقربها من التهديم ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ في المساجد، أو: في جميع ما تقدّم. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه، وأولياءه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ على انتقام أعدائه.

٤١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلّه نصب بدل من ﴿مَن ينصره﴾. أو: جرّ تابع للذين أخرجوا ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هو إخبارٌ من الله عمّا ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكّنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين. وفيه دليل صحّة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن الحسن: هم أمّة محمد ﷺ ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه، وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه، وإعلاء كلمتهم.

٤٢ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هذا تسلية لمحمّد ﷺ من تكذيب أهل مكّة إيّاه، أي: لست بأوحديٍّ في التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَثَمُودُ﴾ صالحاً.

٤٣ ـ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً.

٤٤ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذّبه فرعون والقبط، ولم

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

يقل: وقوم موسى؛ لأنّ موسى ما كذّبه قومه بنو إسرائيل، وإنّما كذّبه غير قومه. أو: كأنّه قيل بعد ما ذكر تكذيب كلّ قوم رسولهم: ﴿وكذّب موسى﴾ أيضاً مع وضوح آياته، وظهور معجزاته، فما ظنّك بغيره؟ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أمهلتهم، وأخّرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم على كفرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري وتغييري، حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً. ﴿نكيري﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب.

٤٥ ـ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ﴿أهلكتها﴾: بصريّ ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ حال، أي: وأهلها مشركون ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. من: خوى النجم: إذا سقط ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يتعلّق بخاوية. والمعنى: أنّها ساقطة على سقوفها، أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثمّ تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ولا محلّ لـ ﴿فهي خاوية﴾ من الإعراب؛ لأنّها معطوفة على ﴿أهلكناها﴾ وهذا الفعل ليس له محلّ. وهذا إذا جعلنا ﴿كأيّن﴾ منصوب المحلّ على تقدير: كثيراً من القرى أهلكناها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: متروكة لفقد دلوها ورشائها. وَرَفْض تفقدها. أو: هي عاملة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلاّ أنّها عُطِّلت، أي: تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مجصّص، من الشِّيد: الجِصّ. أو: مرفوع البنيان، من: شاد البناء: رفعه. والمعنى: كم قرية أهلكناها! وكم بئر عطّلناها عن سقاتها! وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه! أي: أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن ورّادها. والأظهر: أن البئر والقصر على العموم.

٤٦ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا حثّ على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم، فيعتبروا ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ويسمعون

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾

ما يجب سماعه من الوحي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ الضمير في ﴿فإنها﴾ ضمير القصّة، أو: ضمير مبهم يفسّره ﴿الأبصار﴾. أي: فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار. ولكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه، وعينان في قلبه، فإذا أبصر ما في القلب، وَعَمِيَ ما في الرأس لم يضرّه، وإن أبصر ما في الرأس، وعمي ما في القلب لم ينفعه. وذكر الصدور لبيان أنّ محلّ العلم القلب، ولئلا يقال: إنّ القلب يعني به غير هذا العضو، كما يقال: القلب لبّ لكلِّ شيء.

٤٧ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآجل استهزاء ﴿ولن يخلف الله وعده﴾. كأنّه قال: ولِمَ يستعجلونك به؟ كأنّهم يجوّزون الفَوْت، وإنّما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وما وَعَدَهُ ليصيبنّهم ولو بعد حين ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يَعُدُّون: مكّيّ، وكوفيّ غير عاصم، أي: كيف يستعجلون بعذاب مَن يومٌ واحد من أيّام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأنّ أيّام الشدائد طوال.

٤٨ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع إليّ، فلا يفوتني شيء، وإنّما كانت الأولى، أي: ﴿فَكَأَيِّن﴾ [الحج: ٤٥] معطوفة بالفاء، وهذه أي: ﴿وكأين﴾ بالواو؛ لأنّ الأولى وقعت بدلاً عن ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، وهما: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٤٧].

٤٩ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنّما لم يقل بشير ونذير، لذكر

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾

الفريقين بعده؛ لأنّ الحديث مسوق إلى المشركين، و﴿يا أيها الناس﴾ نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أفلم يسيروا﴾ ووصفوا بالاستعجال. وإنّما أُقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا. أو: تقديره: ﴿نذير مبين﴾ وبشير. فبشّر أوّلاً فقال:

٥٠ ـ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: حسن. ثمّ أنذر فقال:

٥١ ـ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ سعى في أمر فلان: إذا أفسده بسعيه ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ حال ﴿معجزين﴾ حيث كان: مكّيّ، وأبو عمرو. وعاجزه: سابقه، كأنّ كلّ واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه، وعجزه. والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها، حيث سمّوها سحراً، وشعراً، وأساطير، مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتمّ لهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: النار الموقدة.

٥٢ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ زائدة لتأكيد النفي ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هذا دليلٌ على ثبوت التغاير بين الرسول والنبيّ، بخلاف ما يقوله البعض: إنّهما واحد. وسُئِل النبيُّ ﷺ عن الأنبياء فقال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر»[1]. والفرق بينهما: أنّ الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ: من لم ينزل عليه كتاب، وإنّما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله. وقيل: الرسول واضع شرع، والنّبيّ حافظ شرع غيره ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ قرأ. قال[2]:

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أوّلَ ليلةٍ تمنّي داودَ الزّبورَ على رِسْلِ

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ تلاوته، قالوا: إنّه عليه الصلاة والسلام كان في

---

(١) رواه ابن حبان (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ ـ ١٦٨).
(٢) الشاعر هو: حسان بن ثابت.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾

نادي قومه يقرأ ﴿والنجم﴾، فلمّا، بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ جرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى. ولم يفطن له، حتّى أدركته العصمة فتنبّه عليه. وقيل: نبّهه جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبرهم أنّ ذلك كان من الشيطان. وهذا القول غير مرضيّ؛ لأنّه لا يخلو إمّا أن يتكلّم النبيّ عليه الصلاة والسلام بها عمداً. وإنّه لا يجوز؛ لأنه كفر، ولأنّه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها. أو: أجرى الشيطان ذلك على لسان النبيّ عليه الصلاة والسلام جبراً، بحيث لا يقدر على الامتناع منه. وهو ممتنع؛ لأنّ الشيطان لا يقدرُ على ذلك في حقّ غيره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] ففي حقّه أولى. أو: جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة. وهو مردودٌ أيضاً؛ لأنّه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله. ولأنّه تعالى قال في صفة المنزل عليه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فلمّا بطلت هذه الوجوه لم يبق إلاّ وجه واحد، وهو أنّه عليه الصلاة والسلام سكت عند قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتكلّم الشيطان بهذه الكلمات متّصلاً بقراءة النبيّ ﷺ، فوقع عند بعضهم أنّه عليه الصلاة والسلام هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبيّ ﷺ[(١)]، وكان الشيطان يتكلّم في زمن النبيّ عليه الصلاة والسلام، ويسمع كلامه، فقد رُوي أنّه نادى يوم أحد: ألا إنّ محمداً قد قُتِل. وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يذهب به، ويبطله، ويخبر أنّه من الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يثبتها، ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إلى نبيه، وبقصد الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يدعه حتّى يكشفه، ويزيله.

ثمّ ذكر: أنّ ذلك ليفتن الله تعالى به قوماً بقوله:

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٢٦٣) وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ١١٥).

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾

---

٥٣ ـ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكّ، ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون المكذّبون، فيزداوا به شكّاً وظلمة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المنافقين والمشركين. وأصله: وإنّهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ.

٥٤ ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله، وبدينه، وبالآيات ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ﴾ فتطمئنّ ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيتأوّلون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبون لما أشكل منه المحمل؛ الذي تقتضيه الأصول المحكمة، حتّى لا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة.

٥٥ ـ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الصراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يعني: يوم بدر. فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج، أو: راحة، كالريح العقيم لا تأتي بخير، أو: شديد لا رحمة فيه، أو: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وعن الضحّاك: أنّه يوم القيامة، وأنّ المراد بالساعة: مقدّماته.

٥٦ ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ـ والتنوين عوض عن الجملة، أي: يوم يؤمنون، أو: يوم تزول مريتهم ـ ﴿لِّلَّهِ﴾ فلا منازع له فيه. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي. ثمّ بيّن حكمه فيهم بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

٥٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثمّ خصّ قوماً من الفريق الأوّل بفضيلة، فقال:

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في الجهاد ـ ﴿قُتّلوا﴾: شاميّ ـ ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ حتف أنفهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: الرزق الحسن: الذي لا ينقطع أبداً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال، المتكفّل للرزق بلا ملال.

٥٩ ـ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾ وبفتح الميم: مدنيّ. والمراد: الجنّة. ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لأنّ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال من قضى نحبه مجاهداً، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً، ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم معانداً. رُوي: أنّ طوئف من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: يا نبيّ الله! هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

٦٠ ـ ﴿۞ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾. وما بعده مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سمّي الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث إنّه سبب، وذلك مسبَّب عنه. ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: من جازى بمثل ما فعل به من الظلم، ثمّ ظُلم بعد ذلك، فحقّ على الله أن ينصره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿غَفُورٌ﴾ يستر أنواع العيوب. وتقريب الوصفين بسياق الآية: أنّ المعاقب مبعوث من عند الله على العفو، وترك العقوبة بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر، فهو تارك للأفضل، وهو ضامن لنصره في

ﵟذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚﵞ

الكرّة الثانية إذا ترك العفو، وانتقم من الباغي. وعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين. أو: دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلاّ القادر على ضدّه، كما قيل: العفو عند القدرة.

٦١ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنّه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته أنّه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ ـ أي: يزيد من هذا في ذلك، ومن ذلك في هذا، أو: بسبب أنّه خالق الليل والنهار ومصرّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشرّ، والبغي والإنصاف ـ وأنّه ﴿سميع﴾ لما يقولون، ولا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ﴿بصير﴾ بما يفعلون، ولا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي، وإن توالت الظلمات.

٦٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ عراقيّ غير ـ أبي بكر ـ ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار، وإحاطته بما يجري فيهما، وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أنّ الله الحقّ الثابت إلهيّته، وأنّ كل ما يُدْعىٰ إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنّه لا شيء أعلى منه شأناً، وأكبر سلطاناً.

٦٣ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ مطراً ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ بالنبات بعد ما كانت مسودّة يابسة. وإنّما صرف إلى لفظ المضارع، ولم يقل: فأصبحت؛ ليفيد بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلت: فرحت، وغدوت، لم يقع ذلك الموقع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾

وإنّما رفع ﴿فتصبح﴾ ولم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنّه لو نصب لبطل الغرض. وهذا لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم تر أنّي أنعمت عليك فتشكر. إن نصبته نفيت شكره، وشكوت من تفريطه فيه، وإن رفعته أثبتّ شكره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ واصل عمله، أو: فضله إلى كلّ شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم. أو: اللطيف: المختصّ بدقيق التدبير، والخبير: المحيط بكلّ قليل وكثير.

٦٤ ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السموات وما في الأرض ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود بنعمته قبل ثناء من في السموات ومن في الأرض.

٦٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من البهائم مذلّلة للركوب في البرّ ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: ومن المراكب جارية في البحر. ونصب الفلك عطفاً على ﴿ما﴾، و﴿تجري﴾ حال لها، أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يحفظها من ﴿أن تقع﴾ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ بأمره، أو: بمشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ بتسخير ما في الأرض ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإمساك السماء، لئلا تقع على الأرض. عدّد آلاءه مقرونة بأسمائه، ليشكروه على آلائه، ويذكرونه بأسمائه. وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنّ اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية يُستجاب لقارئها البتة.

٦٦ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ﴾ في أرحام أمّهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لإيصال جزائكم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم. أو:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرّب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصّل إلى المقصود.

٦٧ ـ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مرّ بيانه. وهو ردٌّ لقول مَن يقول: إنّ الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كلّ أمّة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ فلا يجادلنّك. والمعنى: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكّنهم من أن ينازعوك ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الذبائح، أو الدين. نزلت حين قال المشركون للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعني: الميتة ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادة ربّك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم. ولم يذكر الواو في ﴿لكل أمة﴾ بخلاف ما تقدم؛ لأن تلك وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها. وهذه وقعت مع أباعد عن معناها، فلم تجد معطفاً.

٦٨ ـ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ مراء وتعنتاً، كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك ألاّ يكون بينك وبينهم تنازع، وجدال ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول. والمعني: أنّ الله أعلم بأعمالكم، وما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، وتأديب يجاب به كلّ متعنّت.

٦٩ ـ ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا خطابٌ من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب؛ ومسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم.

٧٠ ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كيف يخفى عليه ما تعلمون، ومعلوم عند العلماء بالله أنّه يعلم كلّ ما يحدث في السموات والأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الموجود فيهما ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: علمه بجميع ذلك عليه يسير.

٧١ ـ ثمَّ أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ يُنْزِلْ: مكيّ، وبصريّ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة، وبرهاناً.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لم يتمسّكوا في عبادتهم لها ببرهان سماويّ من جهة الوحي، ولا حملهم عليها دليل عقليّ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وما للّذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم، ويصوّب مذهبهم.

٧٢ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الإنكار بالعبوس، والكراهة. والمنكر: مصدر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون. والسطو: الوثب، والبطش ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هم النبي ﷺ، وأصحابه ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم، أو: ممّا أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: ﴿النار﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استئناف كلام ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

٧٣ ـ ولمّا كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال المسيرة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ﴾ بيّن ﴿مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ لضرب هذا المثل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ﴿يَدْعُون﴾: سهل، ويعقوب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آلهة ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ ﴿لن﴾ لتأكيد نفي المستقبل، وتأكيده ـ هنا ـ للدلالة على أنّ خلق الذباب منهم مستحيل، كأنّه قال: محال أن يخلقوا. وتخصيص الذباب لمهانته، وضعفه، واستقذاره. وسُمّي ذباباً لأنه كلما ذُبّ

وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

لاستقذاره، آب لاستكباره ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ لخلق الذباب. ومحلّه: النصب على الحال، كأنّه قيل: مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب، مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه، وتعاونهم عليه. وهذا مِن أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية ـ التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلّها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ـ صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقلّ ما خلقه الله تعالى، وأذلّه ﴿ولو اجتمعوا﴾ لذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ ثاني مفعوليْ ﴿يسلبهم﴾ ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هذا الخلق الأقلّ الأذلّ لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل، فإذا سلبه الذباب عجزت الأصنام عن أخذه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: الصنم يُطلَب ما سُلب منه ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذباب يَطلب ما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حقّقت وجدت الطالب أضعف وأضعف، فإن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب، وذاك مغلوب.

٧٤ ـ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرفوه حقّ معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكاً له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إنّ الله قادر وغالب، فكيف يتّخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟! أو ﴿لقويّ﴾ بنصر أوليائه، ﴿عزيز﴾ ينتقم من أعدائه.

٧٥ ـ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رسلاً كإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أنّ رسل الله على ضربين: مَلَك، وبشر. وقيل: نزلت حين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره لرسالته. أو: ﴿سميع﴾ لأقوال الرسل فيما تقبله العقول

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ

﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوال الأمم في الردّ والقبول.

٧٦ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما مضى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لم يأت. أو: ما عملوه، وما سيعملونه. أو: أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه مرجع الأمور كلّها. والذي هو بهذه الصفات ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه، وتدابيره، واختيار رسله ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

٧٧ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ في صلاتكم. وكان أوّل ما أسلموا يصلّون بلا ركوع وسجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وفيه دليلٌ على أنّ الأعمال ليست من الإيمان، وأنّ هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجهَ الله لا الصنم ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قيل: لمّا كان للذكر مزيّة على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أوّلاً إلى الصلاة؛ التي هي ذكر خالص؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] ثمّ إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم، والحجّ، وغيرهما، ثمّ عمّ بالحثّ على سائر الخيرات. وقيل: أريد به صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ أو: كي تفوزا. أو: افعلوا هذا كلّه وأنتم راجون للفلاح، غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم.

٧٨ـ ﴿وَجَـٰهِدُوا۟﴾ أمرٌ بالغزو، أو: مجاهدة النفس والهوى، وهو: الجهاد الأكبر، أو: هو كلمة حق عند أمير جائر ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله، ومن أجله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وهو ألا يخاف في الله لومة لائم. يقال: هو حقّ عالم، وجدّ عالم، أي: عالم حقّاً وجدّاً، ومنه: ﴿حقّ جهاده﴾ وكان القياس حقّ الجهاد فيه، أو: حقّ جهادكم فيه، لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة، واختصاص. فلمّا كان الجهاد مختصّاً بالله من حيث إنّه مفعول لوجهه، ومن أجله، صحّت إضافته إليه. ويجوز أن يتّسع في الظرف، كقوله:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

ويومَ شَهِدْناهُ سُلَيْماً وعامِراً[١] ... ...

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم لدينه، ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، بل رخّص لكم في جميع ما كلّفكم من الطهارة، والصلاة، والصوم، والحجّ، بالتيمم، والإيماء، والقصر، والإفطار بعذر السفر والمرض، وعدم الراحلة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتبعوا ﴿ملّة أبيكم﴾. أو: نصب على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملّة أبيكم. وسمّاه أباً ـ وإن لم يكن أباً للأمّة كلّها ـ؛ لأنّه أبو رسول الله ﷺ، وكان أباً لأمّته؛ لأنّ أمّة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إنّما أنا لكم مثل الوالد»[٢] ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الله؛ بدليل قراءة أبيّ: ﴿الله سمّاكم﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدّمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن، أي: فضلكم على سائر الأمم، وسمّاكم بهذا الاسم الأكرم ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنّه قد بلّغكم رسالة ربّكم ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذ خصّكم بهذه الكرامة، والأثرة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بواجباتها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بشرائطها ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا بالله، وتوكلوا عليه، لا بالصلاة، والزكاة ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: مالِكُكم، وناصركم، ومتولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: الناصر هو، حيث أعانكم على طاعتكم، وقد أفلح من هو مولاه، وناصره.

* * *

(١) صدر بيت، وعجزه: قليل سوى الطعن النهال نوافله.

(٢) رواه أحمد (٢ / ٢٥٠) والنسائي (١ / ٣٨) وابن ماجه (٣١٣).

سُورَةُ المُؤمِنُون

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾

١ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ «قد»: نقيضة لمّا، هي تثبيت المتوقّع، و«لمّا» تنفيه. وكان المؤمنون يتوقّعون مثل هذه البشارة، وهي: الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقّعوه. والفلاح: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، أي: فازوا بما طلبوا، ونجوا ممّا هربوا. والإيمان في اللغة: التصديق، والمؤمن: المصدّق، لغة، وفي الشرع: كلّ مَن نطق بالشهادتين مواطئاً قلبُه لسانه، فهو مؤمن. قال ﷺ: «خلق الله الجنّة فقال لها: تكلّمي، فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ـ ثلاثاً ـ أنا حرام على كلّ بخيلٍ مُراء»[1] لأنّه بالرياء أبطل العبادات البدنيّة، وليس له عبادة ماليّة.

٢ ـ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون بالقلب، ساكنون بالجوارح. وقيل: الخشوع في الصلاة: جمع الهمّة لها، والإعراض عمّا سواها، وألاّ يجاوز بصره مصلاّه، وأن لا يلتفت، ولا يعبث، ولايسدل، ولا يفرقع أصابعه، ولا يقلّب الحصى، ونحو ذلك. وعن أبي الدرداء: هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التامّ، وجمع الاهتمام. وأضيفت الصلاة إلى المصلّين، لا إلى

(١) رواه أبو نعيم في صفة الجنة (١٧) وابن أبي الدنيا كما في النهاية (٢ / ٣٨٤).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾

المصلَّى له، لانتفاع المصلّي بها وحده، وهي: عدّته، وذخيرته. وأما المصلَّى له فغني عنها.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو: كلّ كلام ساقط حقّه أن يلغى، كالكذب، والشتم، والهزل. يعني: أنّ لهم من الجدّ ما شغلهم عن الهزل. ولمّا وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقّين على الأنفس؛ اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ مؤدّون. ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة، بخلاف مؤدّون. وقيل: الزكاة: اسم مشترك، يطلق على العين، وهو القدر الذي يخرجه المزكّي من النصاب إلى الفقير، وعلى المعنى: وهو فعل المزكي؛ الذي هو التزكية، وهو: المراد هنا، فجعل المزكّين فاعلين له؛ لأنّ لفظ الفعل يعمّ جميع الأفعال كالضرب، والقتل، ونحوهما. تقول للضارب، والقاتل، والمزكّي: فعل الضرب، والقتل، والتزكية. ويجوز أن يُرادَ بالزكاة العين، ويقدر مضاف محذوف، وهو: الأداء. ودخل اللام لتقدّم المفعول، وضعف اسم الفاعل في العمل، فإنك تقول: هذا ضارب لزيد، ولا تقول: ضرَب لزيد.

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ الفرج: يشمل سوءة الرجل والمرأة.

٦ ـ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: إلاّ والين على أزواجهم، أو: قوّامين عليهنّ، من قولك: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها. والمعنى: أنّهم ﴿لفروجهم حافظون﴾ في جميع الأحوال، إلاّ في حال تزوجهم، أو: تسرّيهم. أو: تعلق ﴿على﴾ بمحذوف يدلّ عليه ﴿غير ملومين﴾ كأنّه قيل: يلامون ﴿إلاّ على أزواجهم﴾ أي: يلامون على كلّ مباشرة، إلاّ على ما أطلق لهم ﴿فإنّهم غير ملومين﴾ عليه. وقال الفرّاء: ﴿إلاّ﴾ من ﴿أزواجهم﴾ أي: زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: إمائهم، ولم يقل: مَنْ؛ لأنّ المملوك جرى

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

مجرى غير العقلاء؛ ولهذا يُباع كما تباع البهائم! ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم، وإمائهم.

٧ ـ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ طلب قضاء شهوة من غير هذين ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان. وفيه دليلُ تحريم المتعة، والاستمناء بالكفّ لإرادة الشهوة.

٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ﴿لأمانتهم﴾: مكّيّ، وسهل. سمّي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه: أمانة، وعهداً. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وإنّما تؤدّى العيون لا المعاني. والمراد به: العموم في كلّ ما ائتمنوا عليه، وعوهدوا من جهة الله عز وجل، ومن جهة الخلق ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون. والراعي: القائم على الشيء بحفظٍ وإصلاحٍ، ، كراعي الغنم.

٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ (صلاتهم): كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾: يداومون في أوقاتها. وإعادة ذكر الصلاة؛ لأنها أهمّ، ولأنّ الخشوع فيها غير المحافظة عليها، ولأنّها وُحِّدَتْ أوّلاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، أيّة صلاة كانت. وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض، والواجبات، والسُّنن، والنّوافل.

١٠ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحقّاء بأن يسموا ورّاثاً دون مَن عداهم. ثمّ ترجم الوارثين بقوله:

١١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ من الكفار. في الحديث: «ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان: منزل في الجنّة ومنزل في النار، فإن مات ودخل الجنّة ورث أهل النار

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾

منزله، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله»[1] ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ هو البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر. وقال قطرب: هو أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أنّث الفردوس بتأويل الجنّة.

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: آدم ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ «مِنْ» للابتداء. والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسلّ من بين الكدر. وقيل: إنّما سمّي التراب الذي خلق آدم منه سلالة؛ لأنّه سلّ من كلّ تربة ﴿مِّن طِينٍ﴾ «مِنْ» للبيان، كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

١٣ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: نسله. فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ لأنّ آدم ـ عليه السلام ـ لم يُصَيَّر نطفة. وهو كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨]. وقيل: ﴿الإنسان﴾ بنو آدم، والسلالة: النطفة. والعرب تسمّي النطفة: سلالة، أي: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة﴾ يعني: من نطفة مسلولة ﴿من طين﴾، أي: مِنْ مخلوق من طين، وهو: آدم ـ عليه السلام ـ ﴿نُطْفَةً﴾ ماء قليلاً ﴿فِى قَرَارٍ﴾ مستقرّ، يعني: الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ حصين.

١٤ ـ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ أي: صيّرناها ـ بدلالة تعدّيه إلى مفعولين، والخلق يتعدّى إلى مفعول واحد ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم. والمعنى: أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لحماً قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ فصيّرناها عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فأنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس. ﴿عظماً﴾ ﴿العظم﴾: شاميّ، وأبو بكر. ﴿عظماً﴾ ﴿العظام﴾: زيد عن يعقوب. ﴿عظاماً﴾ ﴿العظم﴾ عن أبي زيد. وضع الواحد موضع الجمع

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٤١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لعدم اللبس؛ إذ الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾ الضمير يعودُ إلى الإنسان، أو: إلى المذكور ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: ﴿خلقاً﴾ مبايناً للخلق الأوّل، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وسميعاً وبصيراً، وكان بضدّ هذه الصفات. ولهذا قلنا: إذا غصب بيضة، فأفرخت عنده، يضمن البيضة، ولا يردّ الفرخ؛ لأنّه خلق آخر سوى البيضة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى أمره في قدرته، وعلمه ﴿أَحْسَنُ﴾ بدل، أو: خبر مبتدأ محذوف، وليس بصفة، لأنه نكرة وإن أضيف؛ لأنّ المضاف إليه عوض من «مِن» ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المقدّرين، أي: أحسن المقدّرين تقديراً. فترك ذكر المميّز لدلالة ﴿الخالقين﴾ عليه. وقيل: إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب النبيّ ﷺ نطق بذلك قبل إملائه، فقال له رسول الله ﷺ: «هكذا نزلت». فقال: عبد الله: إن كان محمد نبيّاً يُوحى إليه فأنا نبيّ يُوحى إليّ. فارتدّ، ولحق بمكّة، ثمّ أسلم يوم الفتح(١). وقيل: هذه الحكاية غير صحيحة؛ لأنّ ارتداده كان بالمدينة، وهذه السورة مكّيّة. وقيل: القائل عمر، أو: معاذ ـ رضي الله عنهما ـ.

١٥ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما ذكرنا من أمركم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عن انقضاء آجالكم.

١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ تحيون للجزاء.

١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ جمع طريقة، وهي: السموات؛ لأنّها طرق الملائكة، ومتقلّباتهم ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أراد بالخلق: السموات، كأنّه قال: خلقناها فوقهم، وما كنّا عنها غافلين وعن حفظها. أو: أراد به الناس، وأنّه إنّما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وما كان غافلاً عنهم، وعمّا يصلحهم.

---

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس (حاشية الكشاف ٣/ ١٧٩).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٨ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرّة، ويصلون إلى المنفعة، أو: بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، فماء الأرض كلّه من السماء، ثمّ استأدّى شكرهم بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه، فقيدوا هذه النعمة بالشكر.

١٩ ـ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بالماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى النخيل، والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من الجنّات، أي: من ثمارها. ويجوز أنّ هذا من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن صنعة يغتلّها، أي: أنّها طُعْمَته وجهته التي منها يحصّل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنّات وجوه أرزاقكم ومعايشكم، منها ترزقون، وتتعيّشون.

٢٠ ـ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جنّات﴾ وهي: شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ طور سيناء وطور سينين لا يخلو إمّا أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإمّا أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وهو جبل فلسطين. و﴿سيناء﴾ غير منصرف بكلّ حال، مكسور السين، كقراءة الحجازيّ وأبي عمرو؛ للتعريف والعجمة، أو مفتوحها كغيرهم[1]؛ لأنّ الألف للتأنيث كصحراء ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قال الزجاج: الباء للحال، أي: ﴿تنبت﴾ ومعها الدّهن. ﴿تُـنبِتُ﴾: مكيّ، وأبو عمرو، إمّا لأنّ أنبت بمعنى نبت، كقوله: حتى إذا أنبت البقل. أو: لأنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها، وفيه الدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: إدام لهم. قال مقاتل: جعل الله تعالى في هذه إداماً ودهناً. فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

(١) أي كقراءة غيرهم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾

وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان. وخصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنّها أكرم الشجر، وأفضلها، وأجمعها للمنافع.

٢١ ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم، وهي: الإبل، والبقر، والغنم ﴿لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم﴾ وبفتح النون: شاميّ، ونافع، وأبو بكر. وسقى وأسقى لغتان ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: نخرج لكم من بطونها لبناً سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الألبان، وهي منافع الأصواف، والأوبار، والأشعار ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لحومها.

٢٢ ـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام في البرّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في أسفاركم. وهذا يشير إلى أنّ المراد بالأنعام: الإبل؛ لأنّها هي المحمول عليها في العادة؛ فلذا قرنها بالفلك التي هي السفائن؛ لأنّها سفائن البرّ. قال ذو الرمة:

... ... سَفِينةُ بَرٍّ تحتَ خَدّي زِمامُها[1]

يريد: ناقته.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع على المحلّ، وبالجرّ على اللفظ. والجملة استئناف، تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقوبة الله؛ الذي هو ربكم، وخالقكم إذا عبدتم غيره، مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

٢٤ ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: أشرافهم لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب، ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلب الفضل عليكم،

(١) عجز بيت، وصدره: طروقاً وجلب الرحل مشدودة به.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾

ويترأس ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إرسال رسول ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ لأرسل ملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بإرسال بشر رسولاً، أو بما يأمرنا به من التوحيد، وسبّ آلهتنا. والعجب منهم: أنّهم رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوّة للبشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٥ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فانتظروا، واصبروا عليه إلى زمان، حتّى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلاّ قتلتموه.

٢٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فلمّا أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، والمعنى: أَهْلِكهم بسبب تكذيبهم إيّاي، إذ في نصرته إهلاكهم. أو: ﴿انصرني﴾ بدل ﴿ما كذّبون﴾ كقولك: هذا بذاك، أي: بدل ذاك. والمعنى: أبدلني من غمّ تكذيبهم سلوة النّصرة عليهم.

٢٧ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿فأوحينا إليه﴾ ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك، ورؤيته إيّاك، أو: بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معك من الله حفّاظاً يكلؤونك بعيونهم؛ لئلا يتعرّض لك، ولا يُفسد عليك مفسد عملك. ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أمرنا، وتعليمنا إيّاك صنعتها. روي: أنّه أوحي إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ[1] الطائر ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بأمرنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: فار الماء من تنوّر الخبز، أي: أخرج سبب الغرق، من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار. رُوي: أنّه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء يفورُ من التنوّر فاركبْ أنت ومَن معك في السفينة. فلمّا نبع الماءُ من التنوّر أخبرته امرأته، وكان تنوّر آدم فصار إلى نوح. وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ فأدخل

(١) «جؤجؤ»: صدر.

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾[1] من كل أمّتي زوجين، وهما أمّة الذكر، وأمّة الأنثى، كالجمال، والنوق، والحصان، والرماك ﴿اثْنَيْنِ﴾ واحدين مزدوجين كالجمل والناقة، والحصان والرَّمَكة[2]. رُوي: أنّه لم يحمل إلاّ ما يلد ويبيض. ﴿من كلٍّ﴾: حفص، أي: من كلّ أمّة ﴿زوجين اثنين﴾. و﴿اثنين﴾ تأكيد، وزيادة بيان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ونساءك، وأولادك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله بإهلاكه، وهو ابنه، وإحدى زوجتيه، فجيء بـ«على» مع سبق الضارّ، كما جيء باللام مع سبق النافع في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١] ونحوها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني نجاة الذين كفروا، فإنّي أغرقهم.

٢٨ ـ ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ فإذا تمكّنتم عليها راكبين ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم. ولم يقل: فقولوا، وإن كان ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾ في معنى: إذا استويتم؛ لأنه نبيّهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة.

٢٩ ـ ﴿وَقُل﴾ حين ركبت على السفينة، أو: حين خرجت منها ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾ أي: إنزالاً، أو: موضع إنزال. ﴿مَنزِلاً﴾ أبو بكر، أي: مكاناً ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل، وتتابع الخيرات.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿كلٍّ﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم. معجم القراءات القرآنية (٢٠٨/٤).

(٢) «الرَّمَكَة»: الفَرَس والبِرْذَوْنة تُتَّخذ للنسل.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ

٣٠ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لعبراً، ومواعظ. ﴿وَإِن﴾ هي المخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بين النافية وبينها. والمعنى: وإنّ الشأن، والقصّة ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذّكر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

٣١ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد قوم هود. ويشهد له قول هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصّة هود على أثر قصّة نوح في الأعراف، وهود، والشعراء.

٣٢ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ الإرسال يعدّى بـ«إلى»، ولم يعدّ بـ«في» هنا، وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: ٩٤] ولكنّ الأمّة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، كقول رُؤبة:

أَرْسَلْتُ فِيها مُصْعَباً ذا إقْحام[1] ... ...

﴿رَسُولًا﴾ هوداً ﴿مِّنْهُمْ﴾ من قومهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مفسّرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ ذكر مقال قوم هود في جوابه في الأعراف وهود بغير واو؛ لأنّه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا: كيت وكيت. وهاهنا مع الواو؛ لأنّه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول، ومعناه: أنّه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل. وليس بجواب للنبيّ ﷺ متّصل بكلامه، ولم يكن بالفاء، وجيء بالفاء في قصّة نوح؛ لأنّه جواب لقوله واقع عقيبه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ صفة لـ«الملأ»، أو: لقومه ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾

(١) صدر بيت، وعجزه: طباً فقيهاً بذوات الإبلام.

وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا
حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

أي: بلقاء ما فيها من الحساب، والثواب، والعقاب، وغير ذلك ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال، والأولاد ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: النبيّ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: منه. فحذف لدلالة ما قبله عليه، أي: من أين يدّعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم؟

٣٤ ـ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به، وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قاولوهم من قومهم ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ بالانقياد لمثلكم. ومِن حمقهم: أنهم أبوا اتّباع مثلهم، وعبدوا أعجز منهم.

٣٥ ـ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بالكسر: نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص. وغيرهم: بالضمّ ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبعوثون للسؤال، والحساب، والثواب، والعقاب، وثنّى ﴿أنكم﴾ للتأكيد. وحسن ذلك للفصل بين الأوّل والثاني بالظرف. و﴿مخرجون﴾ خبر عن الأوّل. والتقدير: ﴿أيعدكم﴾ أنكم مخرجون ﴿إذ متّم وكنتم تراباً وعظاماً﴾.

٣٦ ـ ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ وبكسر التاء: يزيد. ورُوي عنه بالكسر والتنوين فيهما. والكسائي يقف بالهاء؛ وغيره بالتاء. وهو اسم للفعل، واقع موقع بَعُد، وفاعلها مضمر، أي: بعد التصديق، أو: الوقوع ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب. أو: فاعلها: «ما توعدون» واللام زائدة، أي: بَعُد ما توعدون من البعث.

٣٧ ـ ﴿إِنْ هِيَ﴾ هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلاّ بما يتلوه من بيانه. وأصله: إن الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾. ثمّ وضع ﴿هي﴾ موضع الحياة؛ لأنّ الخبر يدلّ عليها، ويبيّنها. والمعنى: لا حياة إلاّ هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منّا. وهذا؛ لأنّ ﴿إن﴾ النافية دخلت على ﴿هي﴾ التي في معنى الحياة الدالّة على الجنس، فنفتها، فوازنت لا؛ التي لنفي الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا
آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا

بعض، ويولد بعض، ينقرض قرن فيأتي قرن آخر. أو: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت. وهو قراءة أبيّ، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

٣٨ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما هو إلاّ مفترٍ على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدّقين.

٣٩ ـ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فأجاب الله دعاء الرّسول بقوله:

٤٠ ـ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ﴿ما﴾ زائدة، أو: بمعنى شيء، أو: زمن. و﴿قليل﴾ بدل منها. وجواب القسم المحذوف ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ إذا عاينوا ما يحلّ بهم.

٤١ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ صاح عليهم فدمّرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل من الله. يقال: فلان يقضي بالحقّ، أي: بالعدل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبّههم في دمارهم بالغثاء، وهو: حميل السيل مما بلي، واسودّ من الورق، والعيدان ﴿فَبُعْدًا﴾ فهلاكاً. يقال: بَعِدَ بَعَداً وبُعْداً، أي: هلك. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بيان لمن دعي عليه بالبعد، نحو: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٤٢ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ قوم صالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم.

٤٣ ـ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ «مِنْ»: صلة، أي: ما تسبق أمّة ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوب لها، والوقت الذي حُدَّ لهلاكها، وكُتِبَ ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتأخّرون عنه.

٤٤ ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ فَعْلى. والألف للتأنيث؛ كسكرى؛ لأن الرسل جماعة؛ ولذا لا ينوّن؛ لأنّه غير منصرف. (تترىً) بالتنوين: مكيّ، وأبو عمرو، ويزيد؛ على أنّ الألف للإلحاق كأرطىً. وهو نصب على الحال في القراءتين،

كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ

أي: متتابعين واحداً بعد واحد. وتاؤها فيهما بدل من الواو. والأصل: وترى من الوتر، وهو الفرد، فقلبت الواو تاء، كتراث ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ الرسول يلابس المرسِل والمرسل إليه، والإضافة تكون بالملابسة، فتصحّ إضافته إليهما ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأمم والقرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخباراً يُسْمَرُ بها، ويتعجّب منها. والأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث النبيّ ﷺ. وتكون جمعاً للأحدوثة، وهو: ما يتحدّث به الناس تلهّياً، وتعجباً، وهو: المراد هنا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤٥ ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿أخاه﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجّة ظاهرة.

٤٦ ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعاً، وتكبّراً ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين، مترفعين.

٤٧ ـ ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ البشر يكون واحداً وجمعاً. ومثل، وغير يوصف بهما الاثنان، والجمع، والمذكّر، والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ خاضعون مطيعون، وكلّ من دان لملك فهو عابد له عند العرب.

٤٨ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

٤٩ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: قوم موسى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها، ومواعظها.

٥٠ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ تدلّ على قدرتنا على ما نشاء؛ لأنّه خلق من غير نطفة. وُحِّد لأنّ الأعجوبة فيهما واحدة. أو: المراد ﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمّه﴾ آية، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ جعلنا

إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ

مأواهما، أي: منزلهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ ـ شاميّ، وعاصم ﴿رُبْوَةٍ﴾ غيرهما ـ أي: أرض مرتفعة، وهي بيت المقدس، أو: دمشق، أو: الرملة، أو: مصر ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرّ من أرض مستوية منبسطة، أو: ذات ثمار وماء، يعني: أنه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء ظاهر جارٍ على وجه الأرض، وهو مفعول، أي: مدرك بالعين بظهوره، من: عانه؛ إذا أدركه بعينه. أو: فعيل؛ لأنّه نفّاع بظهوره وجريه، من: الماعون، وهو: المنفعة.

٥١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنّما المعنى: الإعلام بأن كلّ رسول في زمانه نودي بذلك، ووصّي به؛ ليعتقد السامعُ أنّ أمراً نودي له جميع الرسل، ووصّوا به حقيق أن يُؤخذ به، ويُعمل عليه. أو: هو خطاب لمحمّد ﷺ لفضله وقيامه مقام الكلّ في زمانه، وكان يأكل من الغنائم. أو: لعيسى ـ عليه السلام ـ لاتّصال الآية بذكره، وكان يأكل من غزل أمّه، وهو أطيب الطيّبات. والمراد بالطيبات: ما حلّ. والأمر للتكليف. أو: ما يستطاب، ويستلذّ، والأمر للترفيه والإباحة ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ موافقاً للشريعة ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على أعمالكم.

٥٢ ـ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ كوفيّ على الاستئناف. ﴿وأنّ﴾ حجازيّ، وبصريّ بمعنى: ولأنّ، أي: ﴿فاتّقون﴾ لأنّ هذه. أو: معطوف على ما قبله، أي: ﴿بما تعملون عليم﴾ وبأنّ هذه. أو: تقديره: ﴿و﴾ اعلموا ﴿أنّ هذه﴾ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ملّة واحدة، وهي: شريعة الإسلام. وانتصاب ﴿أمّة﴾ على الحال. والمعنى: وإنّ الدين دين واحد وهو الإسلام. ومثله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ وحدي، فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري.

٥٣ ـ ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تقطّع بمعنى: قطع، أي: قطعوا أمر دينهم

زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا
يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿زُبُرًا﴾ جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً. وقيل: تفرّقوا في دينهم فرقاً، كلّ فرقة تنتحل كتاباً. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعاً، وحرّفوه. وقُرىء ﴿زُبَراً﴾ جمع زُبْرة، أي: قطعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطّعين دينهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الكتاب، والدّين، أو: من الهوى، والرأي ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون، معتقدون أنّهم على الحقّ.

٥٤ ـ ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ جهالتهم، وغفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن يُقتلوا، أو يموتوا.

٥٥، ٥٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وخبر أنّ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. والعائد من خبر أنّ إلى اسمها محذوف، أي: نسارع لهم به. والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلاّ استدراجاً لهم إلى المعاصي، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم. وهذه الآية حجّة على المعتزلة في مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إنّ الله لا يفعل بأحد من الخلق إلاّ ما هو أصلح له في الدِّين. وقد أخبر: أنّ ذلك ليس بخير لهم في الدِّين، ولا أصلح ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ «بل» استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾ أي: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتّى يتأمّلوا في ذلك أنّه استدراج، أو: مسارعة في الخير.

٥٧ ـ ثمّ بيّن ذكر أوليائه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون.

٥٨ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بكتب الله كلّها، لا يفرّقون بين كتبه كالذين تقطّعوا أمرهم بينهم، وهم أهل الكتاب.

٥٩ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ كمشركي العرب.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾

٦٠ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات. وقُرِىء: ﴿يأتون ما أتوا﴾ بالقصر، أي: يفعلون ما فعلوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ألاّ تقبل منهم لتقصيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ الجمهور على أنّ التقدير: لأنّهم. وخبر ﴿إن الذين﴾:

٦١ ـ ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات فيبادرونها ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: لأجل الخيرات سابقون إلى الجنّات، أو: لأجلها سبقوا الناس.

٦٢ ـ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، يعني: أنّ الذي وصف به الصالحون غير خارج عن حدّ الوسع، والطاقة. وكذلك كلّ ما كلّفه عباده. وهو ردّ على من جوّز تكليف ما لا يُطاق ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ أي: اللوح، أو: صحيفة الأعمال ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يقرؤون منه يوم القيامة إلاّ ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب، أو نقصان ثواب، أو بتكليف ما لا وسع له به.

٦٣ ـ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها ممّا عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطّية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وعليها مقيمون، لا يفطمون عنها حتّى يأخذهم الله بالعذاب.

٦٤ ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعّميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ عذاب الدنيا، وهو: القحط سبع سنين، حين دعا عليهم النبيّ عليه الصلاة والسلام، أو: قتلهم يوم بدر. و﴿حتّى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام. والكلام: الجملة الشرطيّة ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون استغاثة. والجؤار: الصراخ باستغاثة، فيقال لهم:

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾

٦٥ ـ ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾. فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: من جهتنا لا يلحقكم نصر، أو: معونة.

٦٦ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى. والنكوص: أن يرجع القهقرى، وهو أقبح مشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه.

٦٧ ـ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ متكبّرين على المسلمين. حال من ﴿تنكصون﴾ ﴿بِهِۦ﴾ بالبيت، أو: بالحرم؛ لأنهم يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنّا أهل الحرم، والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت. أو: بـ«آياتي»؛ لأنّها في معنى كتابي. ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً. ضمّن ﴿مستكبرين﴾ معنى مكذّبين، فعدّي تعديته. أو: يتعلّق الباء بقوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ تسمرون بذكر القرآن، وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن، وتسميته شعراً وسحراً. والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع. وقرىء: (سمّاراً). أو: بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وهو من الهُجر: الهذيان. ﴿تُهجِرون﴾: نافع، من أهجر في منطقه: إذا أفحش.

٦٨ ـ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبّروا القرآن ليعلموا: أنّه الحقّ المبين، فيصدّقوا به، وبمن جاء به ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين، فلذلك أنكروه، واستبدعوه.

٦٩ ـ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ محمداً بالصدق، والأمانة، ووفور العقل، وصحّة النسب، وحسن الأخلاق؟! أي: عرفوه بهذه الصفات ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بغياً، وحسداً.

٧٠ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون؟ وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنّه أرجحهم

بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

عقلاً، وأثقبهم ذهناً ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الأبلج، والصراط المستقيم، وبما خالف شهواتهم وأهواءهم، وهو التوحيد والإسلام، ولم يجدوا له مردّاً ولا مدفعاً، فلذلك نسبوه إلى الجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ أقلّهم ما كان كارهاً للحق، بل كان تاركاً للإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ، وترك دين آبائه، كأبي طالب.

٧١ ـ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الله ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ فيما يعتقدون من الآلهة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ خصّ العقلاء بالذّكر؛ لأنّ غيرهم تبع ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم، أو: شرفهم؛ لأنّ الرسول منهم والقرآن بلغتهم. أو: بالذكر الذي كانوا يتمنّونه، ويقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الصافات: ١٦٨] ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم.

٧٢ ـ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾: حجازيّ، وبصريّ، وعاصم. ﴿خَرْجاً... فَخَرْجُ﴾: شاميّ. ﴿خراجاً... فخراج﴾: عليّ، وحمزة. وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كلّ عامل من أجرته، وجُعله. والخرج أخصّ من الخراج، تقول: خراج القرية، وخرج الكُردة(١)، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى. ولذا حسنت القراءة الأولى، يعني: ﴿أم تسألهم﴾ على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من الخالق خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أفضل المعطين.

(١) «الكردة»: المَشارَة من المزارع.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ
لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾
وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

٧٣ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام، فحقيقٌ أن يستجيبوا لك.

٧٤ ـ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو: الصراط المستقيم.

٧٥ ـ ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ لمّا أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العِلْهِز[١]، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنّك بُعثتَ رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع! فنزلت: الآية[٢]. والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ، وهو: القحط الذي أصابهم برحمته لهم، ووجدوا الخصب ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ أي: لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون. يعني: لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار، وعداوة رسول الله ﷺ، والمؤمنين، ولذهب عنهم هذا التملّق بين يديه.

٧٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ استشهد على ذلك بأنّا اخذناهم أوّلاً بالسيوف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، وأسرهم، فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة، أي: خضوع ولا تضرّع ـ وقوله: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ عبارة عن دوام حالهم، أي: وهم على ذلك بعد، ولذا لم يقلْ: وما تضرّعوا. ووزن استكان: استفعل، من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال.

٧٧ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا﴾ «فتّحْنا»: يزيد ﴿عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: باب

---

(١) «العلهز»: طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢١١).

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾

الجوع؛ الذي هو أشدّ من الأسر والقتل ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيّرون، آيسون من كلّ خير، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد ليستعطفك. أو: محنّاهم بكلّ محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة. وهم كذلك حتّى إذا عذّبوا بنار جهنّم فحينئذ يبلسون، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

٧٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصّها بالذكر؛ لأنّها يتعلّق بها من المنافع الدينيّة والدنيويّة ما لا يتعلّق بغيرها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون شكراً قليلاً. و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى حقّاً. والمعنى: إنّكم لم تعرفوا عظم هذه النعم، ووضعتموها غير مواضعها، فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله، ولم تستدلّوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولا تشركوا به شيئاً.

٧٩ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم، وبثّكم بالتناسل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم.

٨٠ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي النسم بالإنشاء، ويميتها بالإفناء ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مجيء أحدهما عقيب الآخر، واختلافهما في الظلمة والنور، أو: في الزيادة والقصور. وهو مختصّ به، ولا يقدر على تصريفهما غيره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفوا قدرتنا على البعث، أو: فتستدلّوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا.

٨١ ـ ﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ أي: أهل مكّة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: الكفّار قبلهم. ثمّ بيّن ما قالوا بقوله:

قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾

٨٢ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾[1] ﴿مِتنا﴾: نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص.

٨٣ ـ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل مجيء محمّد ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمع: أسطار، جمع: سطر، وهي: ما كتبه الأوّلون ممّا لا حقيقة له. وجمع: أسطورة أوفق. ثمّ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بإقامة الحجة على المشركين بقوله:

٨٤، ٨٥ ـ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؟ فإنّهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنّهم مقرّون بأنّه الخالق. فإذا قالوا: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعملوا أنّ من فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بألا يُشرَك به بعضُ خلقه في الربوبيّة. ﴿أفلا تَذَكَّرون﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص. وبالتشديد: غيرهم.

٨٦، ٨٧ ـ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به؟ أو: ﴿أفلا تتّقون﴾ في جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء.

٨٨ ـ ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الملكوت: الملك. والواو والتاء للمبالغة، فتنبيء عن عظم الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿مُتنا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٧/ ٦٨).

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

٨٩ ـ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ تخدعون عن الحقّ، أو: عن توحيده، وطاعته. والخادع: هو الشيطان، والهوى. الأول: ﴿لله﴾ بالإجماع، إذ السؤال ﴿لمن﴾ وكذا الثاني والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى، لأنّك إذ قلت: من ربّ هذا، فمعناه: لمن هذا؟ فيجاب: لفلان، كقول الشاعر:

إذا قيل مَن ربّ المزالف والقرى ورب الجيادِ الجرد؟ قيل: لخالد

أي: لمن المزالف. ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر؛ لأنك إذا قلت: من ربّ هذا؟ فجوابه: فلان.

٩٠ ـ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بأنّ نسبة الولد إليه محال، والشرك باطل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم: اتخذ الله ولداً ودعائهم الشريك. ثمّ أكّد كذبهم بقوله:

٩١ ـ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لأنه منزّه عن النوع، والجنس. وولد الرجل من جنسه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وليس معه شريك في الألوهيّة ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ لا نفرد كلّ واحد من الآلهة بالذي خلقه، فاستبدّ به، ولتميّز ملك كلّ واحد منهم عن الآخر، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولغلب بعضهم بعضاً، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون. وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنّه إله واحد، بيده ملكوت كلّ شيء. ولا يقال: «إذاً» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهاهنا وقع ﴿لذهب﴾ جزاء وجواباً، ولم يتقدّمه شرط، ولا سؤال سائل؛ لأنّ الشرط محذوف، وتقديره: ولو كان معه آلهة؛ لدلالة: ﴿وما كان معه من إله﴾ عليه. وهو جواب لمن حاجّه من المشركين ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد، والأولاد.

٩٢ ـ ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجرّ، صفة لله. وبالرفع: مدنيّ، وكوفيّ ـ غير حفص ـ خبر

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧﴾

مبتدأ محذوف ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ السرّ، والعلانية ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام؛ وغيرها.

٩٣، ٩٤ ـ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما» والنون مؤكّدان، أي: إن كان لا بدّ من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا، أو: في الآخرة ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فلا تجعلني قريناً لهم، ولا تعذّبني بعذابهم. عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أخبره الله أنّ له في أمّته نِقْمَةً، ولم يخبره متى وقتها، فأمر أن يدعو بهذا الدعاء. ويجوز أن يسأل النبيّ المعصوم ﷺ ربّه ما علم أنّه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنّه لا يفعله إظهاراً للعبوديّة، وتواضعاً لربّه. واستغفاره عليه الصلاة والسلام إذ قام من مجلسه سبعين مرة لذلك، والفاء في: ﴿فلا﴾ لجواب الشرط. و﴿ربّ﴾ اعتراض بينهما للتأكيد.

٩٥ ـ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ كانوا ينكرون الموعد بالعذاب، ويضحكون منه، فقيل لهم: إنّ الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأمّلتم، فما وجه هذا الإنكار؟

٩٦ ـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي﴾ الخلّة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾. وهوأبلغُ من أن يقال: بالحسنة السيّئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنّه قال: ادفع بالحسنى السيّئة، والمعنى: الصَّفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي شهادة أن لا إله إلاّ الله، والسيّئة: الشرك، أو: الفحش بالسلام، أو: المنكر بالموعظة. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من الشرك ـ أو: بوصفهم لك، وسوء ذكرهم ـ فنجازيهم عليه.

٩٧ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ من وساوسهم ونخساتهم. والهمز: النخس. والهمزات: جمع المرة منه، ومنه مهماز الرائض. والمعنى أنّ

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الشياطين يحثّون الناس على المعاصي، كما تهمز الراضة الدوابّ حثاً لها على المشي.

٩٨ ـ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربّه المكرر لندائه، وبالتعوّذ من أن يحضروه أصلاً، أو: عند تلاوة القرآن، أو: عند النزع.

٩٩ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يتعلّق بـ﴿يصفون﴾، أي: لا يزالون يشركون إلى وقت مجيء الموت. أو: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مُستعيناً بالله على الشيطان أن يستنزله على الحلم، ويغريه على الانتصار منهم ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: ردّوني إلى الدنيا. خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم، كخطاب الملوك.

١٠٠ ـ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] في الموضع الذي تركت، وهو: الدنيا؛ لأنّه ترك الدنيا، وصار إلى العقبى. قال قتادة: ما تمنّى أن يرجع إلى أهل، ولا إلى عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. ﴿لَعلّي﴾ ساكنة الياء: كوفيّ، وسهل، ويعقوب ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن طلب الرجعة، وإنكار، واستبعاد ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ المراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. وهو قوله: ﴿ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لا يخلّيها، ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة، والندم عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم. والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرُّجوع إلى الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لم يرد أنّهم يرجعون يوم البعث، وإنّما هو إقناطٌ كلّي لما علم أن لا رجوعَ بعد البعث إلا إلى الآخرة.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَعَلّيَ﴾ بفتح الياء. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٢٣).

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا

١٠١ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ قيل: إنّها النفخة الثانية ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وبالإدغام: أبو بكر لاجتماع المثلين وإن كانا من كلمتين. يعني: يقع التقاطع بينهم حيث يتفرّقون مثابين ومعاقبين، ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب، إذ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] وإنّما يكون بالأعمال ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا؛ لأنّ كلًّا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] فللقيامة مواطن ففي موطن يشتدّ عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون.

١٠٢ ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون، وهي: الموزونات من الأعمال الصالحة؛ التي لها وزن وقدر عند الله تعالى، من قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٠٣ ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالسيّئات. والمراد: الكفار ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من ﴿خسروا أنفسهم﴾ ولا محلّ للبدل والمبدل منه؛ لأنّ الصلة لا محلّ لها. أو: خبر بعد خبر لـ: ﴿أولئك﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف.

١٠٤ ـ ﴿تَلْفَحُ﴾ أي: تحرق ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ عابسون. فيقال لهم:

١٠٥ ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي﴾ أي: القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتزعمون أنّها ليست من الله تعالى.

١٠٦ ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ ملكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾. (شقاوتنا): حمزة، وعليّ. وكلاهما مصدر، أي: شقينا بأعمالنا السيّئة التي عملناها. وقول أهل التأويل:

وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح؛ لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره، ولا يكتب غير الذي علم أنّه يختاره، فلا يكون مغلوباً ومضطرّاً في الفعل. وهذا لأنّهم إنّما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط في أمره، فلا يحتمل أن يطلبوا لأنفسهم عذراً فيما كان منهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحقّ، والصواب.

١٠٧ ـ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر، والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا.

١٠٨ ـ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلّة، وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم، فإنّه لا يرفع، ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلّمون به ثَمّ، ولا كلام بعد ذلك إلاّ الشهيق، والزفير.

﴿أن يحضروني﴾ ﴿ارجعوني﴾ ﴿ولا تكلموني﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب، وغيره: بلا ياء.

١٠٩، ١١٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الأمر، والشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ☆ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مفعول ثان. وبالضم: مدنيّ، وحمزة، وعليّ. وكلاهما مصدر سخِر، كالسُّخر، إلاّ أنّ في ياء النسبة مبالغة. قيل: هم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. وقيل: أهل الصُّفة خاصّة، ومعناه: اتخذتموهم هزؤاً، وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذِكْرِى﴾ فتركتموه، أي: كان التشاغل بهم سبباً لنسيانكم ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

١١١ ـ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ بصبرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، أي: جزيتهم اليوم فوزهم؛ لأنّ جزى يتعدّى إلى اثنين ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً﴾ [الإنسان: ١٢]. ﴿إنهم﴾: حمزة،

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

عليّ، على الاستئناف، أي: ﴿إنهم هم الفائزون﴾ لا أنتم.

١١٢ ـ ﴿قَٰلَ﴾ أي: الله، أو: المأمور بسؤالهم من الملائكة ﴿قل﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ، أمر لمالك أن يسألهم ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الدنيا ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم عدد سنين لبثتم؟ فـ«كم» نصب بـ«لبثتم». و﴿عدد﴾ تمييز.

١١٣ ـ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا، بالإضافة إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها؛ لأنّ الممتحَن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مرّ عليه من أيّام الدعة ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ الحسّاب، أو: الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد، وأعمالهم. ﴿فسل﴾ بلا همز: مكيّ، وعليّ.

١١٤ ـ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: ما ﴿لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا﴾ زمناً ﴿قَلِيلٗا﴾ أو: لبثاً قليلاً ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ صدّقهم الله تعالى في تقالّهم لسني لبثهم في الدنيا، ووبّخهم على غفلتهم التي كانوا عليها. ﴿قُلْ إنْ﴾: حمزة، وعليّ.

١١٥ ـ ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ حال، أي: عابثين. أو: مفعول له، أي: للعبث ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم: حمزة، وعليّ، ويعقوب. وهو معطوفٌ على: ﴿أنّما خلقناكم﴾. أو: على ﴿عبثاً﴾ أي: للعبث، ولنترككم غير مرجوعين؟ بل خلقناكم للتكليف، ثمّ للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن، ونعاقب المسيء.

١١٦ ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ عن أن يخلق عبثاً ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الذي يحقّ له الملك؛ لأنّ كلّ شيء منه وإليه. أو: الثابت الذي لا يزول، ولا يزول ملكه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وصف العرش بالكرم؛ لأنّ الرحمة تنزل منه، أو: لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرىء شاذاً برفع الكريم صفة للربّ تعالى.

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

١١٧ ـ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ﴾ أي: لا حجّة ﴿لَهُۥ بِهِۦ﴾ اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فإنّ الله مثيبه. أو: صفة لازمة، جيء بها للتوكيد، كقولك: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ أي: جزاؤه وهذا جزاء الشرط ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فهو يجازيه لا محالة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ جعل فاتحة السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وخاتمتها ﴿إنّه لا يفلح الكافرون﴾ فشتّان ما بين الفاتحة والخاتمة. ثمّ علّمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله:

١١٨ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ ثمّ قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنّ رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

* * *

سُورَةُ النُّورِ

آياتها ٦٤ — ترتيبها ٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

١ ـ ﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿سورة﴾ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفة لها. وقرأ طلحة ﴿سورةً﴾ على: زيداً ضربته. أو: على اتل ﴿سورةً﴾. والسورة: الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة، واشتقاقها من: سور المدينة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: فرضنا أحكامها التي فيها. وأصل الفرض: القطع، أي: جعناها مقطوعاً بها. وبالتشديد: مكّيّ، وأبو عمرو للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو: لأنّ فيها فرائض شتّى، أو: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تتعظوا. وبتخفيف الذال: حمزة، وعليّ، وخلف، وحفص. ثمّ فصّل أحكامها فقال:

٢ ـ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ رفعهما على الابتداء. والخبر: محذوف، أي: فيما فرض عليكم ﴿الزانية والزاني﴾، أي: جلدهما. أو: الخبر: ﴿فَاجْلِدُوا﴾. ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي، وتضمينه معنى الشرط، وتقديره: التي زنت، والذي زنى فاجلدوهما، كما تقول: من زنى فاجلدوه، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤]. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، على إضمار فعل يفسّره الظاهر. وهو أحسن من ﴿سورة أنزلناها﴾ لأجل الأمر ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الجلد: ضرب الجِلْد. وفيه إشارةٌ إلى

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

أنه لا يبالغ ليصلَ الألم إلى اللحم. والخطاب للأئمة؛ لأنّ إقامة الحدّ من الدِّين، وهي على الكلّ، إلاّ أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم. وهذا حكم حرّ ليس بمحصن؛ إذ حكم المحصن الرجم. وشرائط إحصان الرجم: الحريّة، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والتزوّج بنكاح صحيح، والدخول. وهذا دليلٌ على أن التغريبَ غير مشروع؛ لأنّ الفاء إنّما يدخل على الجزاء، وهو اسم للكافي. والتغريب المرويّ منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] وقوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رحمة، والفتح لغة، وهي قراءة مكيّ. وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. والمعنى: أنّ الواجب على المؤمنين أن يتصلّبوا في دين الله، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده، فيعطّلوا الحدود، أو: يخفّفوا الضرب ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله، أو: حكمه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله ولدينه. وجواب الشرط مضمر، أي: فاجلدوا، ولا تعطّلوا الحدّ ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ وليحضر موضع حدّهما. وتسميته عذاباً دليل على أنّه عقوبة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا، وينزجر هو. وأقلّها: ثلاثة، أو أربعة. وهي صفة غالبة، كأنّها الجماعة الحافّة حول شيء. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أربعة إلى أربعين رجلاً ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين بالله.

٣ ـ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: الخبيث الذي من شأنه الزنى لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنّما يرغب في خبيثة من شكله، أو: في مشركة. والخبيثة: المسافحة كذلك، لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وإنّما يرغب فيها مَن هو مِن شكلها من الفسقة، أو المشركين. فالآيةُ تزهيدٌ في نكاح البغايا، إذ الزنى عديلُ الشرك في القبح. والإيمانُ قرينُ العفاف والتحصّن. وهو نظير قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾

لِلۡخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أوّل الإسلام، ثمّ نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]. وقيل: المراد بالنكاح: الوطء؛ لأنّ غير الزاني يستقذرُ الزانية ولا يشتهيها. وهو صحيحٌ لكنه يؤدّي إلى قولك: الزاني لا يزني إلاّ بزانية، والزانية لا يزني بها إلاّ زان. وسُئل ﷺ عمن زنى بامرأة، ثم تزوجها، فقال: «أوّله سفاح، وآخره نكاح»[1]. ومعنى الجملة الأولى: صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في الفواجر. ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفّاء، ولكن للزناة، وهما معنيان مختلفان. وقدّمت الزانية على الزاني أوّلاً؛ لأنّ تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادّة التي منها نشأت تلك الجناية؛ لأنها لو لم تُطْمِع الرجل، ولم تُومِض له، ولم تمكّنه لم يطمعْ، ولم يتمكّن، فلمّا كانت أصلاً وأولاً في ذلك بُدِىء بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصلٌ فيه؛ لأنّه الخاطب، ومنه بدء الطلب. وقرىء ﴿لا يَنْكِحْ﴾ بالجزم على النهي، وفي المرفوع أيضاً معنى النهي ولكن أبلغ وآكد. ويجوز أن يكون خبراً محضاً، على معنى: أن عادتهما جارية على ذلك، وعلى المؤمن ألاّ يدخل نفسه تحت هذه العادة، ويتصوّن عنها ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: الزنى، أو: نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنى، أو: لما فيه من التشبّه بالفساق، وحضور مواقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه، والغيبة. ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام؟! فكيف بمزاوجة الزّواني والقحاب؟!

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وبكسر الصاد: عليّ. أي: يقذفون بالزنى الحرائر والعفائف المسلمات المكلّفات. والقذف يكون بالزنى وبغيره. والمراد هنا: قذفهنّ بالزنى بأن يقول: يا زانية؛ لذكر المحصنات عقيب الزواني، ولا شتراط أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: ثمّ لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنى؛ لأنّ القذف بغير الزنى بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يكفي فيه شاهدان، وعليه التعزير. وشروط إحصان القذف: الحريّة،

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٥٦٥٧).

﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾

والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفّة عن الزنى. والمحصن كالمحصنة في وجوب حدّ القذف ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ إن كان القاذف حرّاً. ونصب ﴿ثمانين﴾ نصب المصادر، كما نصب ﴿مئة جلدة﴾. و﴿جلدة﴾ نصب على التمييز ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ نكّر ﴿شهادة﴾ في موضع النفي، فتعمّ كلّ شهادة. وردّ الشهادة من الحدّ عندنا، ويتعلّق باستيفاء الحدّ، أو: بعضه على ما عرف. وعند الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ يتعلّق ردّ شهادته بنفس القذف. فعندنا جزاء الشرط ـ الذي هو: الرمي ـ: الجلد، وردّ الشهادة على التأبيد، هو مدّة حياتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ كلام مستأنف، غير داخل في حيّز جزاء الشرط، كأنّه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطيّة. وقوله:

٥ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: القذف ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أحوالهم، استثناء من ﴿الفاسقون﴾. ويدلّ عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: يغفر ذنوبهم، ويرحمهم. وحقّ الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا؛ لأنّه عن موجب، وعند من جعل الاستثناء متعلّقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلاً من هم في ﴿لهم﴾:

٦ ـ ما ذكر حكم قذف الأجنبيّات وهذا بيان حكم قذف الزوجات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ أي: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ يرتفع على البدل من ﴿شهداء﴾ ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ﴾[1] وبالرفع: كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ على أنّه خبر. والمبتدأ ﴿فشهادة أحدهم﴾. وغيرهم بالنصب؛ لأنّه في حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر، والعامل فيه المصدر؛ الذي هو: ﴿فشهادة أحدهم﴾. وعلى هذا خبره محذوف، تقديره: فواجب شهادة أحدهم أربع ﴿شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

(١) في الأصل المخطوط ﴿أَرۡبَعَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

٧ ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ لاخلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور، والتقدير: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فهي مبتدأ وخبر ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

٨ ـ ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحبس. وفاعل يدرأ ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ إنّ الزوج ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى.

٩ ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ أي: الزوج ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى، نصب حفص ﴿الخامسة﴾ عطفاً على ﴿أربع﴾. وغيره رفعها بالابتداء. و﴿أنّ غضب الله﴾: خبره. وخفف نافع ﴿أنْ لعنة الله﴾ و﴿أنْ غَضِبَ الله﴾ بكسر الضاد، وهما في حكم المثقلة. و﴿أن غَضَبُ الله﴾: سهل، ويعقوب، وخُصّ الغضب في جانبها؛ لأنّ النساء يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث، فربمّا يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعن على ألسنتهنّ، وسقوط وقْعِه على قلوبهن، فذكر الغضب في جانبهنّ؛ ليكون رادعاً لهنّ. والأصل: أنّ اللعان عندنا شهادات مؤكّدات بالأيمان، مقرونة باللعن، قائمة مقام حدّ القذف في حقّه، ومقام حدّ الزنى في حقّها؛ لأنّ الله تعالى سمّاه شهادة، فإذا قذف الزوج زوجته بالزنى ـ وهما من أهل الشهادة ـ صحّ اللعان بينهما. وإذا التعنا ـ كما بيّن في «النهر» ـ لا تقع الفرقة حتّى يفرّق القاضي بينهما. وعند زفر ـ رحمه الله تعالى ـ تقع بتلاعنهما. والفرقة تطليقة بائنة. وعند أبي يوسف وزفر والشافعي ـ رحمهم الله ـ: تحريم مؤبّد. ونزلت آية اللعان في هلال، أو عويمر، حيث قال: وجدتُ على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء، فكذبته، فلاعن النبيُّ ﷺ بينهما[1].

---

(١) انظر القصة في سنن أبي داود برقم (٢٢٤٥) وما بعده.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾

١٠ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ تفضّله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ نعمته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف، أي: لفضحكم، أو: لعاجلكم بالعقوبة.

١١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وأصله: الأَفْكُ، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد: ما أفك به على عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت عائشة: فقدتُ عقداً في غزوة بني المصطلق، فتخلّفت، ولم يُعْرَفْ خلوّ الهودج لخفتي. فلمّا ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطّل بعيره، وساقه، حتّى أتاهم بعد ما نزلوا، فهلك فيّ مَن هلك، فاعتللتُ شهراً. وكان عليه الصلاة والسلام يسأل: «كيف أنتِ»؟ ولا أرى منه لطفاً كنتُ أراه حتّى عثرتْ خالةُ أبي ـ أمّ مسطح ـ فقالت: تعس مسطح. فأنكرتُ عليها، فأخبرتني بالإفك. فلمّا سمعت ازددتُ مرضاً، وبتّ عند أبويّ، لا يرقأ لي دمع، وما أكتحل بنوم، وهما يظنّان أنّ الدمعَ فالق كبدي، حتّى قال عليه الصلاة والسلام: «أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك» فقلت: بحمد الله لا بحمدك[1] ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة من العشرة إلى الأربعين. واعصوصبوا: اجتمعوا. وهم: عبد الله بن أبيّ رأس النفاق، وزيد بن رفاعة، وحسّان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومَن ساعدهم ﴿مِّنكُمْ﴾ من جماعة المسلمين. وهم ظنّوا أنّ الإفك وقع من الكفّار دون مَن كان من المؤمنين ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ عند الله ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنّ الله أثابكم عليه، وأنزل في البراءة منه ثماني عشرة آية. والخطاب لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان، ومَن ساءه ذلك من المؤمنين ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: على كلّ امرىء من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه. وكان بعضُهم ضحك، وبعضهم تكلّم فيه، وبعضهم سكت ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: عظمه،

(١) رواه أحمد (٦/ ١٩٤) والبخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠). بلفظ: أبشري يا عائشة!..»

﴿مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾

عبد الله بن أبيّ ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جهنم. ـ يُحكى: أنّ صفوان مرّ بهودجها عليه، وهو في ملأ من قومه فقال: مَن هذه؟ فقالوا: عائشة، فقال: والله ما نجتْ منه، ولا نجا منها!

١٢ ـ ثم وبّخ الخائضين فقال: ﴿لَّوْلَآ﴾ هلّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالذين منهم؛ فالمؤمنون كنفس واحدة، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿خَيْرًا﴾ عفافاً، وصلاحاً. وذلك نحو ما يروى: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: أنا قاطعٌ بكذب المنافقين؛ لأنّ الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك؛ لأنّه يقع على النجاسات فيتلطّخ بها، فلمّا عصمك الله من ذلك القدر من القذر، فكيف لا يعصمك عن صحبة مَن تكون متلطّخة مثل هذه الفاحشة؟! وقال عثمان: إنّ الله ما أوقع ظلّك على الأرض لئلا يضع إنسانٌ قدمه على ذلك الظل، فلمّا لم يمكّن أحداً من وضع القدم على ظلّك، كيف يمكّن أحداً من تلويث عرض زوجتك؟! وكذا قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ جبريل أخبرك أنّ على نعليك قذراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطّخة بشيء من الفواحش؟!

ورُوي: أنّ أبا أيّوب الأنصاريّ قال لامرأته: ألا ترين ما يقال؟! فقالت: لو كنتَ بدل صفوان أكنت تظنّ بحرم رسول الله سوءاً؟ فقال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله، فعائشة خير منّي، وصفوان خير منك. وإنّما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدلّ التصريح بلفظ الإيمان على أنّ الاشتراك فيه يقتضي ألاّ يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب، ولا طاعن. وهذا من الأدب الحسن، الذي قلّ القائم به، والحافظ له: وليتك تجد من يسمع ويسكت ولا يشيّعه بأخوات ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر لا يليق بهما.

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

١٣ ـ ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هلاّ ﴿جاؤوا﴾ على القذف لو كانوا صادقين ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه، وشريعته ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: القاذفون؛ لأنّ الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوتَ شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها. والذين رموا عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم يكن لهم بيّنة على قولهم، فكانوا كاذبين.

١٤ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «لولا» هذه لامتناع الشيء، لوجود غيره بخلاف ما تقدّم، أي: ﴿ولولا﴾ أنّي قضيتُ أن أتفضّل عليكم في الدنيا بضروب النعم؛ التي مِن جملتها الإمهال للتوبة، وأن أترحّم عليكم في الآخرة في العفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث، وخاض، واندفع.

١٥ ـ ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ: «مسَّكم» أو: لـ: «أفضتم» ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقّى القول، وتلقّنه، وتلقّفه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: أنّ بعضكم كان يقول لبعض: هل بلغك حديث عائشة؟ حتّى شاع فيما بينهم، وانتشر، فلم يبق بيت، ولا نادٍ إلا طار فيه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إنما قيّد بالأفواه، مع أنّ القول لا يكون إلاّ بالفمّ؛ لأنّ الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثمّ يترجم عنه اللسان. وهذا الإفكُ ليس إلاّ قولاً يدورُ في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ أي: خوضكم في عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿هَيِّنًا﴾ صغيرة ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ كبيرة. جزع بعضهم عند الموت، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف ذنباً لم يكن منّي على بال وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

١٦ ـ ﴿وَلَوْلَآ﴾ وهلاّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ فصل بين ﴿لولا﴾ و﴿قلتم﴾ بالظرف؛ لأنّ للظروف شأناً، وهو: تنزّلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها، وأنّها لا تنفكّ عنها؛ فلذا يتّسع فيها ما لا يتّسع في غيرها. وفائدة تقديم الظرف: أنّه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمّ قدم، والمعنى: هلاّ قلتم إذ سمعتم الإفك: ما يصحّ لنا أن نتكلّم بهذا؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ للتعجّب من عظم الأمر. ومعنى التعجّب في كلمة التسبيح: أنَّ الأصلَ أن يسبّح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثمّ كثر حتّى استعمل في كلّ متعجّب منه. أو: لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة. وإنّما جاز أن تكون امرأة النبيّ كافرة كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أن تكون فاجرة؛ لأنّ النبيّ مبعوثٌ إلى الكفّار ليدعوهم، فيجب ألاّ يكون معه ما ينفرهم عنه. والكفر غير منفر عندهم. وأما الكشخنة[1] فمن أعظم المنفرات ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٌ﴾ وذكر فيما تقدّم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبرّي.

١٧ ـ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟﴾ في أن تعودوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا الحديث من القذف، أو: استماع حديثه ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلّفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييج لهم ليتّعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو: الإيمان الصادّ عن كلّ قبيح.

١٨ ـ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلالات الواضحات، وأحكام الشرائع، والآداب الجميلة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم، وبأعمالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ يجزي على وفق أعمالكم. أو: علم صدق نزاهتها، وحكم ببراءتها.

(١) «الكشخنة»: الديانة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

١٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ما قبح جداً. والمعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة، ومحبّة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحدّ ـ ولقد ضرب النبيّ ﷺ ابن أُبيّ وحسّاناً ومسطحاً الحدَّ ـ ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار. وعدها إن لم يتوبوا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بواطن الأمور، وسرائر الصدور ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنّه قد علم محبّة من أحبّ الإشاعة، وهو معاقب عليها.

٢٠ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لعجّل لكم العذاب. وكرّر المنّة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنّة عليهم، والتوبيخ لهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾ حيث أظهر براءة المقذوف، وأثاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بغفرانه جناية القاذف إذا تاب.

٢١ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: آثاره، ووساوسه بالإصغاء إلى الإفك، والقول فيه ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ فإنّ الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما أفرط قبحه ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره النفوس، فتنفر عنه، ولا ترتضيه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا أنّ الله تفضّل عليكم بالتوبة الممحّصة، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ يطهّر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم، وإخلاصهم.

٢٢ ـ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف. من: ائتلى: إذا حلف، افتعال من الأليّة. أو: لا يقصّر، من: الألو ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في الدنيا ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يحلفوا على ألاّ يحسنوا

وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

إلى المستحقين للإحسان، أو: لا يقصّروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ العفو: الستر، والصفح: الإعراض، أي: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليعرضوا عن العقوبة ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فلتفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربّهم مع كثرة خطاياهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فتأدّبوا بأدب الله، واغفروا، وارحموا. نزلت في شأن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين حلف ألاّ ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكان مسكيناً، بدريّاً، مهاجراً. ولما قرأها النبيُّ ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أُحِبُّ أن يغفر الله لي. ورَدَّ إلى مسطح نفقته.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ السليمات الصدور، النقيّات القلوب، اللاتي ليس فيهنّ دهاء ولا مكر؛ لأنهنّ لم يجربن الأمور، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بما يجب الإيمان به. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هنّ أزواجه عليه الصلاة والسلام. وقيل: هنّ جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحدها. وإنّما جمع لأنّ من قذف واحدة من نساء النبيّ عليه الصلاة والسلام، فكأنّه قذفهنّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ جعل القَذَفَةَ ملعونين في الدارين، وتوعّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا.

٢٤ ـ والعامل في: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ يعذّبون. وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما أفكوا، أو: بهتوا.

٢٥ ـ والعامل في: ﴿يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب، صفة للدين، وهو: الجزاء. ومعنى الحقّ: الثابت الذي هم أهله. وقرأ مجاهد بالرفع صفة لله، كقراءة أبيّ (يوفّيهم الله الحقّ دينهم) وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحقّ وصفاً لله بأن ينتصب على المدح ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضروريّ. ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأوجز في ذلك، وأشبع، وفصّل، وأجمل، وأكّد، وكرّر، وما ذاك إلاّ لأمر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من أذنب ذنباً ثمّ تاب منه قبلت توبته، إلاّ مَن خاض في أمر عائشة. وهذا منه تعظيمٌ ومبالغة في أمر الإفك. ولقد برّأ اللهُ تعالى أربعة بأربعة، برّأ يوسف ـ عليه السلام ـ بشاهدٍ من أهلها، وموسى ـ عليه السلام ـ من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم ـ رضي الله عنها ـ بإنطاق ولدها، وعائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذه الآي العظام في كتابه المعجز، المتلوّ على وجه الدهر بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله، والتنبيه على إنافة محلّه ﷺ وعلى آله.

٢٦ ـ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من القول تقال ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال والنساء ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ منهم يتعرّضون ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من القول، وكذلك: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: فيهم. و﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيّبين، وأنّهم مبرّؤون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلم. وهو كلام جارٍ مجرى المثل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة، والطيب. ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت، وأنّهم مبرّؤون ممّا يقول أهل الإفك، وأن يُرادَ بالخبيثات والطيّبات النساء الخبائث يتزوّجن الخباث، والخباث تتزوّج الخبائث. وكذا أهل الطيب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مستأنف، أو: خبر بعد خبر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنّة. ودخل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ في مرضها، وهي خائفة من القدوم على الله تعالى، فقال: لا تخافي لأنّك لا تقدمين إلاّ على مغفرة ورزق كريم، وتلا الآية. فغشي عليها فرحاً بما تلا. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهنّ امرأة: نزل جبريل بصورتي في راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام أن يتزوّجني، وتزوّجني بكراً وما تزوّج بكراً غيري، وتوفّي

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

عليه الصلاة والسلام ورأسه في حجري، وقبر في بيتي، ونزل عليه الوحي وأنا في لحافه، وأنا ابنة خليفته وصدّيقه، ونزل عذري من السماء، وخلقت طيّبة عند طيّب، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً. وقال حسان معتذراً في حقّها:

حصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبحُ غَرْثَى من لحومِ الغوافلِ[(١)]
حليلةُ خيرِ الناس ديناً ومنصباً ... نبّي الهدى والمكرمات الفواضلِ
عقيلةُ حيٍّ من لؤيّ بن غالب ... كرام المباغي، مجدها غير زائلِ
مهذّبةٌ قد طيّب الله خيمها[(٢)] ... وطهّرها من كلّ شيْن وباطلِ

٢٧ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتاً لستم تملكونها، ولا تسكنونها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا؛ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقد قرأ به. والاستئناس في الأصل: الاستعلام، والاستكشاف، استفعال، من: آنَس الشيء: إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً، أي: حتّى تستعملوا أمطلقٌ لكم الدخول أم لا؟ وذلك بتسبيحة، أو: تكبيرة، أو: تحميدة، أو: تنحنح ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ والتسليم أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرات، فإن أذن له وإلاّ رجع. وقيل: إن تلاقيا يقدّم التسليم، وإلاّ فالاستئذان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان، والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحيّة الجاهلية والدمور ـ وهو: الدخول بغير إذن ـ وكان الرجلُ من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول: حيّيتم صباحاً، وحيّيتم مساء، ثمّ يدخل، فربّما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تَذَكّروا، وتتّعظوا، وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان.

٢٨ ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ من الآذنين ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

(١) «حصان»: عفيفة. «رزان»: ذات وقار وثبات. «غرثى»: جائعة، يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

(٢) «خيمها»: الخيم: السجية والطبيعة.

يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتّى تجدوا من يأذن لكم. أو: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ من أهلها ولكم فيها حاجة ﴿فلا تدخلوها﴾ إلّا بإذن أهلها؛ لأنّ التصرّف في ملك الغير لا بدّ من أن يكون برضاه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟﴾ أي: إذا كان فيها قوم فقالوا: ارجعوا ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا تلحّوا في إطلاق الإذن، ولا تلجّوا في تسهيل الحجاب، ولا تقفوا على الأبواب؛ لأنّ هذا ممّا يجلُب الكراهة. فإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كلّ ما يؤدّي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك. وعن أبي عبيد: ما قرعت باباً على عالم قط! ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: الرجوع أطيب وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور، والبعد عن الرّيبة، أو: أنفع، وأنمى خيراً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمخاطبين بأنّه عالم بما يأتون وما يذرون ممّا خوطبوا به، فموف جزاءه عليه.

٢٩ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾ في أن تدخلوا ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾. استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها، كالخانات، والرُّبُط، وحوانيت التجّار ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي: منفعة كالاستكنان من الحرّ والبرد، وإيواء الرحال والسلع، والشراء، والبيع. وقيل: الخَرِبات يتبرّز فيها. والمتاع: التبرّز ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد للذين يدخلون الخربات، والدور الخالية من أهل الريبة.

٣٠ ـ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ «من» للتبعيض. والمراد: غضّ البصر عمّا يحرم، والاقتصار به على ما يحلّ ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنى، ولم تدخل «من» هنا لأنّ الزنى لا رخصة فيه بوجه. ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية، وكفّها، وقدميها ـ في رواية ـ وإلى رأس المحارم، والصدر، والساقين، والعضدين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غضّ البصر، وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر عن دنس الإثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيه ترغيب وترهيب. يعني: أنّه ﴿خبير﴾

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ

بأحوالهم، وأفعالهم، وكيف يخينون أبصارهم، و﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى، وحذر في كلّ حركة، وسكون.

٣١ - ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أمرن بغضّ الأبصار، فلا يحلّ للمرأة أن تنظر من الأجنبيّ إلى ما تحت سرّته إلى ركبتيه، وإن اشتهت غضّت بصرها رأساً، ولا تنظر إلى المرأة إلاّ إلى مثل ذلك. وغضّ بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها، وإنّما قدّم غضّ الأبصار على حفظ الفروج، لأنّ النظر بريد الزنى، ورائد الفجور، فبذر الهوى طموح العين ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الزينة: ما تزينت به المرأة من حلي، أو كحل أو: خضاب. والمعنى: ولا يظهرن مواضع الزينة، إذ إظهار عين الزينة - وهي الحلي، ونحوها - مباح. فالمراد بها مواضعها، أو: إظهارها، وهي في مواضعها لإظهار مواضعها؛ لا لإظهار أعيانها، ومواضعها: الرأس، والأذن، والعنق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق، فهي للإكليل، والقرط، والقلادة، والوشاح، والدملج، والسوار، والخلخال ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إلاّ ما جرت العادة والجبلّة على ظهوره، وهو: الوجه، والكفّان، والقدمان، ففي سترها حرج بيّن، فإنّ المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة، والمحاكمة، والنكاح. وتضطرّ إلى المشي في الطرقات، وظهور قدميها، وخاصّة الفقيرات منهنّ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليضعن، من قولك: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليه ﴿ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ جمع خمار ﴿ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ بضم الجيم: مدنيّ، وبصريّ، وعاصم. كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها، وكنَّ يسدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة، فأمرن بأن يسدلنها من قدّامهنّ حتّى تغطّينها ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والساق، والرأس، ونحوها ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأزواجهن، جمع: بعل ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ ويدخل فيهم الأجداد ﴿ أَوْ ءَابَآءِ

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم أيضاً ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل، وسائر المحارم كالأعمام، والأخوال، وغيرهم دلالة ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: الحرائر؛ لأنّ مطلق هذا اللفظ يتناولُ الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: إمائهنّ. ولا يحلّ لعبدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها، خصياً كان، أو: عنّيناً، أو: فحلاً. وقال سعيد بن المسيّب: لا تغرنّكم سورة النور فإنّها في الإماء دون الذكور، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها أباحت النظر إليها لعبدها ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ﴾ بالنصب: شاميّ، ويزيد، وأبو بكر على الاستثناء، أو: الحال. وغيرهم بالجرّ على البدل، أو: على الوصفيّة ﴿أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء. قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنّهم بله، لا يعرفون شيئاً من أمرهنّ، أو: شيوخ صلحاء، أو: العنّين، أو: الخصيّ، أو: المخنّث. وفي الأثر: أنه المجبوب. والأوّل الوجه ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ حال ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ﴾ هو جنس، فصلح أن يُرادَ به الجمع ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لم يطّلعوا لعدم الشهوة. من: ظهر على الشيء: إذا اطّلع عليه، أو: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء، من: ظهر على فلان: إذا قوي عليه ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها، فيعلم أنّها ذات خلخال، فنهين عن ذلك؛ إذ سماع صوت الزينة كإظهارها، ومنه سمي صوت الحليّ: وسواساً ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿أَيُّهُ﴾ شاميّ إتباعاً للضمّة قبلها بعد حذف الألف لالتقاء الساكنين، وغيره على فتح الهاء؛ لأنّ بعدها ألفاً في التقدير ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾

العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه، وإن اجتهد؛ فلذا وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة، وبتأميل الفلاح إذا تابوا. وقيل: أحوج الناس إلى التوبة من توّهم أنّه ليس له حاجة إلى التوبة، وظاهر الآية يدلّ على أن العصيان لا ينافي الإيمان.

٣٢ ـ ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ ـ جمع: أيّم، وهو مَن لا زوجَ له رجلاً كان أو امرأة، بكراً كان أو ثيباً. وأصله: أيائم فقلبت ـ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الخيّرين، أو: المؤمنين. والمعنى: زوّجوا من تأيّم منكم من الأحرار، والحرائر، ومَن كان فيه صلاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: من غلمانكم، وجواريكم. والأمر للندب؛ إذ النكاح مندوب إليه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ من المال ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالكفاية، والقناعة، أو: باجتماع الرزقين. وفي الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»[(١)]. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ مثله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غنيّ، ذو سعة، لا يرزَؤه إغناء الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقيل: في الآية دليلٌ على أنّ تزويجَ النِّساء والأيامى إلى الأولياء، كما أنّ تزويج العبيد والإماء إلى الموالي. قلنا: الرجل لا يلي على الرجل الأيمّ إلا بإذنه، فكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها؛ لأنّ الأيّم ينتظمها.

٣٣ ـ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ وليجتهدوا في العفّة، كأنّ المستعفّ طالب من نفسه العفاف. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استطاعة تزوّج من المهر، والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ حتى يقدرهم على المهر والنفقة. قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم فإنّه له وجاء»[(٢)]. فانظر كيف رتّب هذه الأوامر،

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢٨٢).

(٢) رواه أحمد (١/٣٧٨) والبخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠) (١،٢).

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

فأمر أوّلاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غضّ البصر، ثمّ بالنكاح المُحَصِّن للدين المغني عن الحرام، ثمّ بعزّة النفس الأمّارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: المماليك الذين يطلبون الكتابة، فـ«الذين»: مرفوع بالابتداء، أو: منصوب بفعل يفسّره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. وهو للندب. ودخلت الفاء لتضمّنه معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، وهو أن يقول لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أدّاها عتَق، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تعتق منّي إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو: كتبت عليك الوفاء بالمال، وكتبت عليّ العتق. ويجوز حالّاً، ومؤجّلاً، ومنجّماً، وغير منجّم لإطلاق الأمر ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قدرة على الكسب، أو: أمانة وديانة. والندبيّة معلّقة بهذا الشرط ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين، وإعطائهم سهمهم من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وعند الشافعي: ـ رحمه الله ـ معناه: حطّوا من بدل الكتابة ربعاً. وهذا عندنا على وجه الندب. والأوّل الوجه؛ لأنّ الإيتاء هو التمليك، فلا يقع على الحطّ. سأل صبيح مولاه حويطباً أن يكاتبه فأبى، فنزلت.

واعلم أنّ العبيد أربعة: قنّ مقتنى للخدمة، ومأذون في التجارة، ومكاتب، وآبق. فمثال الأوّل: وليّ العزلة الذي حصل العِزُّ لَهُ بإيثار الخلوة، وترك العشرة. والثاني: وليّ العِشرة، فهو نجيّ الحضرة، يخالط الناس للخبرة، وينظر إليهم بالعبرة، ويأمرهم بالغيرة، فهو خليفة رسول الله ﷺ يحكم بحكم الله، ويأخذ لله، ويعطي في الله، ويفهم عن الله، ويتكلّم مع الله، فالدنيا سوق تجارته، والعقل رأس بضاعته، والعدل في الغضب والرضا ميزانه، والقصد في الفقر والغنى عنوانه، والعلم مَفْزَعُه ومنجاه، والقرآن كتاب الإذن من مولاه، فهو كائن في الناس بظواهره، بائن منهم بسرائره، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً، ثمّ وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾

وما هو مِنْهُمُ بالعيشِ فيهم ولكن معدن الذَّهب الرَّغام[١]

يأكل ما يأكلون، ويشرب ما يشربون، وما يدريهم أنّه ضيف الله، يرى السموات والأرض قائمات بأمره، وكأنه قيل فيه:

فإن تفقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزال

فحال وليّ العزلة أصفى وأحلى، وحال وليّ العشرة أوفى وأعلى. وَنُزِّلَ الأوّل من الثاني في حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان. أما النبيّ ﷺ فهو كريم الطرفين، ومعدن الشَّذَرَيْنِ[٢]، ومجمع الحالين، ومنبع الزلالين، فباطن أحواله مهتدي وليّ العزلة، وظاهر أعماله مقتدي وليّ العشرة. والثالث: المجاهد، المحاسب، العامل، المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب في اليوم والليلة خمس، وفي المئتين خمسة، وفي السنة شهر، وفي العمر زورة؛ فكأنّه اشترى نفسه من ربّه بهذه النجوم المرتَّبة، فيسعى في فكاك رقبته خوفاً من البقاء في ربقة العبوديّة، وطمعاً في فسحة الحريّة، ليسرح في رياض الجنّة، فيتمتّع بمناه، ويفعل ما يشاؤه ويهواه. والرابع: الأبّاق، فما أكثرهم! فمنهم القاضي الجائر، والعالم غير العامل، والقَرّاءُ المرائي، والواعظ الذي لا يفعل ما يقول، ويكون أكثر أقواله فضول، وعلى كلّ من لا يُنفعه نَصُول، فضلاً عن السارق، والزاني، والغاصب. فعنهم أخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاقَ لهم في الآخرة»[٣] ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ كان لابن أبيّ ستّ جَوَارٍ: معاذة، ومُسَيْكَة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، يكرههنّ على البغاء، وضرب عليهن الضرائب، فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله ﷺ، فنزلت. ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة. والبغاء: الزنى للنساء خاصّة. وهو مصدر البغي ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعفّفاً عن الزنى. وإنّما قيده بهذا الشرط؛ لأنّ الإكراه لا يكون إلاّ مع إرادة التحصّن. فآمر الطَّيِّعة للبغاء

(١) الرَّغام ـ بالفتح ـ : التراب.
(٢) «الشذر»: صغار اللؤلؤ، وقطع الذهب.
(٣) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات. (مجمع الزوائد ٥/ ٣٠٢).

لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾
۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ

لا يسمّى مُكْرِهاً، ولا أمره إكراهاً. ولأنّها نزلت على سبب، فوقع النهي على تلك الصفة. وفيه توبيخٌ بالموالي، أي: إذا رغبن في التحصّن فأنتم أحقّ بذلك ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ﴿لتبتغوا﴾ بإكراههنّ على الزنى أجورهنّ، وأولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لهنّ. وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهنّ والله، ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة، وهو الذي يُخاف منه التلف، فكانت آثمة. أو: لهم إذا تابوا.

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيَّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء: حجازيّ، وبصريّ، وأبو بكر، وحماد. والمراد: الآيات التي بُيّنت في هذه السورة، وأوضحت في معاني الأحكام والحدود. وجاز أن يكون الأصل مبيّناً فيها، فاتّسع في الظرف. وبكسرها: غيرهم، أي: بيّنت هي الأحكام والحدود. جعل الفعل لها مجازاً، أو: من: بيّن بمعنى تبيّن، ومنه المثل: قد بيّن الصبح لذي عينين ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أمثال من قبلكم، أي: قصّة عجيبة من قصصهم كقصّة يوسف ومريم ـ عليهما السلام ـ يعني: قصّة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما وعظ به من الآيات والمثل، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٢] ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور ١٦] ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هم المنتفعون بها، وإن كانت موعظة للكلّ.

٣٥ ـ نظير قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ و﴿يهدي الله لنوره﴾ قولك: زيد كرم وجود، ثمّ تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السموات. ونور السموات والأرض: الحق. شبّهه بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من الباطل إلى الحقّ، وأضاف النور إليهما للدلالة

كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

على سعة إشراقه، وفشوّ إضاءته، حتّى تضيء له السموات والأرض. وجاز أنّ يُراد: أهل السموات والأرض، وأنّهم يستضيئون به ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقرأ ابن مسعود ـ رحمه الله ـ ﴿مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة﴾. وقرأ أبيّ: ﴿مثل نوره المؤمن﴾ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي: الكوّة في الجدار غير النافذة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: سراج ضخم، ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من زجاج. شاميّ: أزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء، بضم الدال وتشديد الياء، منسوب إلى الدرّ؛ لفرط ضيائه، وصفائه. وبالكسر والهمزة: أبو بكر، وعليّ، كأنّه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمزة: أبو بكر، وحمزة. شبّهوا في زهرته بأحد الكواكب الدراري، كالمشتري، والزهرة، ونحوهما ﴿يُوقَدُ﴾[1] ﴿توقد﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: الزجاجة و﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف: شاميّ، ونافع، وحفص، و﴿تَوَقَّد﴾: مكيّ، وبصريّ، أي: هذا المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: ابتداء توقُّده من شجرة الزيتون، يعني: رُوِّيت زبالته[2] بزيتها ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع، أو: لأنّها نبتت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة نعتها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: منبتها الشام، يعني: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل في الوسط منهما، وهو الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: ليست ممّا تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو: غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشيّ جميعاً، فهي شرقيّة وغربيّة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ دهنها ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَوقد﴾.
(٢) «زبالته»: هي الفتيلة.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

والوبيص، فإنّه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هذا النور الذي شبّه به الحقّ نور متضاعف، قد تناصر فيه: المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، حتّى لم تبق بقيّة مما يقوّي النور، وهذا لأنّ المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع، فإنّ الضوء ينتشر فيه. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه. وضرب المثل يكون بدنيء محسوس معهود، لا بعليّ غير معاين ولا مشهود. فأبو تمام لمّا قال في المأمون:

إقدامُ عمروٍ في سماحةِ حَاتمٍ   في حِلْم أحنَفَ في ذكاء إياسِ

وقيل له: إنّ الخليفة فوق من مثّلته بهم، فقال مرتجلاً:

لا تنكروا ضَرْبي له مَن دونه   مثَلاً شَرُوداً في النَّدى والباسِ
فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ   مَثَلاً من المشكاة والنّبراسِ

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، أي: يوفّق لإصابة الحقّ من يشاء من عباده بإلهام من الله، أو: بنظره في الدليل ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيُبيِّن كلّ شيء ممّا يمكن أن يعلم به، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة) وقرأ أُبيٌّ (مثل نور المؤمن).

٣٦ ـ ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يتعلّق بـ«مشكاة»، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد. كأنّه قيل: ﴿مثل نوره﴾ كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو: بـ«توقد»، أي: توقد في بيوت، أو: بـ«يسبّح»، أي: يسبّح له رجال في بيوت. و﴿فيها﴾ تكرير فيه توكيد، نحو: زيد في الدار جالس فيها. أو: بمحذوف، أي: سبّحوا في بيوت ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ تبنى، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أو: تعظم، من:

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

الرفعة. وعن الحسن: ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يتلى فيها كتابه، أو: هو عامّ في كل ذكر ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: يصلّي له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ـ وإنما وحّد الغدوّ لأن صِلاته صلاة واحدة وفي الآصال صلوات. والآصال جمع أُصُل، جمع أصيل، وهو: العشيّ ـ.

٣٧ ـ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يسبح﴾. ﴿يُسبَّح﴾ شاميّ، وأبو بكر، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة، أعني: ﴿له فيها بالغدوّ﴾. و﴿رجال﴾ مرفوع بما دلّ عليه ﴿يسبح﴾ أي: يسبّح له ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ في السفر ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ في الحضر، وقيل التجارة: الشراء إطلاقاً لاسم الجنس على النوع. أو: خصّ البيع بعد ما عمّ؛ لأنّه أوغل في الإلهاء من الشراء؛ لأنّ الربح في البيعة الرابحة يقين، وفي الشراء مظنون ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللسان والقلب ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: وعن إقامة الصلاة. والتاء في إقامة عوض من الألف الساقطة للإعلال، الأصل: إقوام، فلمّا قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي: «إقاماً»، فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فلمّا أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء، فأسقطت ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: وعن إيتاء الزكاة. والمعنى: لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة، أو: يبيعون، ويشترون، ويذكرون الله مع ذلك، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين، كأولياء العشرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، و﴿يخافون﴾ حال من الضمير في ﴿تلهيهم﴾. أو: صفة أخرى لرجال ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ ببلوغها إلى الحناجر ﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بالشخوص، والزرقة. أو: تقلّب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان. كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

٣٨ ـ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يسبّحون ويخافون

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾

﴿ليجزيهم الله أحسن﴾ جزاء أعمالهم، أي: ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ﴿ويزيدهم﴾ على الثواب الموعود على العمل تفضلاً ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق. هذه صفات المهتدين بنور الله، فأما الذين ضلّوا عنه فالمذكورون في قوله:

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسربُ على وجه الأرض، كأنّه ماء يجري ﴿بِقِيعَةٍ﴾ بقاع، أو: جمع قاع، وهو: المنبسط المستوي من الأرض، كجيرة في جار ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ يظنّه العطشان ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء إلى ما توهّم أنه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ كما ظنّه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ أي: جزاء الله، كقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١] أي: يجد مغفرته، ورحمته ﴿عِندَهُۥ﴾ عند الكافر ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً. وحد بعد تقدّم الجمع، حملاً على كلّ واحد من الكفّار ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنّه لا يحتاج إلى عدّ وعقد، ولا يشغله حساب عن حساب، أو: قريب حسابه؛ لأنّ ما هو آت قريب. شبّه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتّبع الحقّ من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله، وتنجيه من عذابه ثم يخيب في العاقبة أمله، ويلقى خلاف ما قدّر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية ﴿الله عنده﴾ يأخذونه فيعتلونه إلى جهنّم، فيسقونه الحميم والغسّاق. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣] ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة، كان يترهّب ملتمساً للدين في الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام كفر.

٤٠ ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ﴾ هنا كأو في: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩] ﴿لُّجِّىٍّ﴾ عميق، كثير الماء، منسوب إلى اللُّج، وهو: معظم ماء البحر

يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحر، أو: من فيه، أي: يعلوه، ويغطيه ﴿مَوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي: من فوق الموج موج آخر ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ من فوق الموج الأعلى سحاب ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ أي: هذه ظلمات: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على الموج، وظلمة السحاب على الموج ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ أي: الواقع فيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مبالغة في لم يرها، أي: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبّه أعمالهم أوّلاً في فوات نفعها، وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً. ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب، حتّى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار. وشبّهها ثانياً في ظلمتها، وسوادها؛ لكونها باطلة، وفي خلوّها عن نور الحقّ بظلمات متراكمة من لجّ البحر، والأمواج، والسحاب ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ من لم يهده الله لم يهتد. عن الزجاج. في الحديث: «خلق الله الخلق في ظلمة، ثمّ رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ».

٤١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمّد علماً يقوم مقام العيان في الإيقان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ﴾ عطف على ﴿من﴾. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من ﴿الطير﴾ أي: يصففن أجنحتهن في الهواء ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ الضمير في ﴿علم﴾ لـ«كلٌّ»، أو: لله. وكذا في ﴿صلاته وتسبيحه﴾. والصلاة: الدعاء. ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة؛ التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لا يعزب عن علمه شيء.

٤٢ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنّه خالقهما. ومَن ملك شيئاً فبتمليكه إيّاه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الكلّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾

---

٤٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي﴾ يسوق إلى حيث يريد ﴿سَحَابًا﴾. جمع سحابة. دليله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ ـ وتذكيره للفظ ـ أي: يضمّ بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فتوقه ومخارجه، جمع خلل، كجبال في جبل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: ﴿وينْزل﴾ مكيّ. وبصريّ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية؛ لأنّ ابتداء الإنزال من السماء ﴿مِن جِبَالٍ﴾ للتبعيض؛ لأنّ ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ للبيان. أو: الأوليان للابتداء، والآخرة للتبعيض. ومعناه: أنّه ينزل البرد من السماء من جبال فيها. وعلى الأوّل مفعول ينزل: ﴿من جبال﴾ أي: بعض ﴿جبال﴾. ومعنى ﴿من جبال فيها من برد﴾: أن يخلق الله في السماء جبال برد، كما خلق في الأرض جبال حجر. أو: يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالبرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: يصيب الإنسان وزرعه ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يصيبه، أو: يعذّب به من يشاء، ويصرفه عمّن يشاء، فلا يُعَذِّب به ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضوئه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يخطفها. ﴿يذهب﴾ يزيد على زيادة الباء.

٤٤ ـ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يصرفهما في الاختلاف طولاً وقصراً، والتعاقب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إزجاء السحاب، وإنزال الودق والبرد، وتقلّب الليل والنهار ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي العقول. وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيّته، حيث ذكر تسبيح مَن في السموات والأرض، وما يطير بينهما، ودعاءهم له، وتسخير السحاب؛ إلى آخر ما ذكر. فهي براهين لائحة على وجوده، ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبّر. ثم بيّن دليلاً آخر، فقال تعالى:

٤٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾ ﴿خالق كُلِّ﴾: حمزة، وعليّ ـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ كلّ حيوان

مِن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا

يدبّ على وجه الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: من نوع من الماء مختصّ بتلك الدابّة، أو: من ماء مخصوص وهو النطفة. ثمّ خالف بين المخلوقات من النطفة، منها الهوامُّ، ومنها بهائم، ومنها أناسيّ. وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. وهذا دليلٌ على أنّ لها خالقاً ومدبّراً، وإلاّ لم تختلف لاتّفاق الأصل. وإنّما عرّف الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأنّ المقصود ثمّ: أنّ أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنّه هو الأصل، وإن تخلّلت بينه وبينها وسائط. قالوا: إنّ أوّل ما خلق الله الماء، فخلق منه النار، والريح، والطين، فخلق من النار: الجنّ، ومن الريح: الملائكة، ومن الطين: آدم، ودوابّ الأرض. ولمّا كانت الدابّة تشمل المميّز وغير المميز، غُلّب المميز، فأُعطِي ما وراءه حكمه، كأنّ الدوابّ كلّهم مميّزون. فمن ثمّ قيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيّة، والحوت ـ وسَمّى الزحف على البطن مشياً استعارة، كما يقال في الأمر المستمرّ: قد مشى هذا الأمر. أو: على طرائق المشاكلة، لذكر الزاحف مع الماشين ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم. وقدّم ما هو أعرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مَشْيٍ؛ من أرجل أو: غيرها، ثم الماشي على رجلين، ثمّ الماشي على أربع ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ كيف يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذّر عليه شيء.

٤٦ ـ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بلطفه، ومشيئته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام؛ الذي يوصل إلى جنّته. فالآيات لإلزام حجّته.

٤٧ ـ لمّا ذكر إنزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق: فرقة صدّقت ظاهراً وكذّبت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة صدّقت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كذّبت ظاهراً وباطناً، وهم الكافرون على هذا الترتيب. وبدأ بالمنافقين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ بألسنتهم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله،

ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

والرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن الانقياد لحكم الله، ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مخلصين. وهو إشارة إلى القائلين: آمنا، وأطعنا، لا إلى الفريق المتولّي وحده. وفيه إعلامٌ من الله بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان؛ لا عتقادهم ما يعتقد هؤلاء. والإعراض ـ وإن كان من بعضهم ـ فالرضا بالإعراض من كلّهم.

٤٨ ـ ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ـ أي: إلى رسول الله؛ كقولك: أعجبني زيد وكرمه، تريد: كرم زيد ـ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فاجأ مِنْ فريق منهم الإعراض. أنزلت في بشر المنافق، وخصمه اليهوديّ حين اختصما في أرضٍ، فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله ﷺ، والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إنّ محمّداً يحيف علينا.

٤٩ ـ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إذا كان الحقّ لهم على غيرهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال، أي: مسرعين في الطاعة طلباً لحقّهم، لا رضا بحكم رسولهم. قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنّهم لمعرفتهم أنّه ليس معك إلاّ الحقّ المرّ، والعدل البحت الخالص، يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحقّ؛ لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حقّ على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلاّ بحكومتك؛ لتأخذهم ما وجب لهم في ذمّة الخصم.

٥٠ ـ ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ قسّم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو: مرتابين في أمر نبوّته، أو: خائفين الحيف في قضائه. ثمّ أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾

بحاله، وإنّما هم ظالمون، يريدون أن يظلموا من له الحقّ عليهم. وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمّ يأبون المحاكمة إليه.

٥١ ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن الحسن ﴿قولُ﴾ بالرفع. والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف. و﴿أن يقولوا﴾ أوغل، بخلاف ﴿قول المؤمنين﴾ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ النبيّ ﷺ ﴿ليُحكم﴾: يزيد، أي: ليفعل الحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله الذي أنزل عليه ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ قوله ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمره ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٥٢ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتليت له هذه الآية، وهي جامعةٌ لأسباب الفوز. ﴿ويتقه﴾ بسكون الهاء: أبو عمرو، وأبو بكر بنية الوقف. وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة: حفص، وبكسر القاف والهاء غيرهم.

٥٣ ـ ﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلف المنافقون بالله، وهو جهد اليمين؛ لأنهم بذلوا فيها مجهودهم. وجهد يمينه مستعار من: جهد نفسه؛ إذ بلغ أقصى وسعها. وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شدّتها، ووكادتها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من قال بالله فقد جهد يمينه. وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم يجهَد اليمين جهداً، فحذف الفعل، وقدّم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنّه قال: جاهدين أيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرنا محمّد عليه الصلاة والسلام بالخروج إلى الغزو لغزونا، أو: بالخروج من ديارنا لخرجنا ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ لا تحلفوا كاذبين؛ لأنّه معصية ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أمثل، وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة. مبتدأ محذوف

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ

الخبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الذي يطلب منكم ﴿طاعة معروفة﴾ معلومة لا يُشكّ فيها، ولا يُرتاب، كطاعة الخلّص من المؤمنين، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يعلم ما في ضمائركم، ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وإنه فاضحكم لا محالة، ومجازيكم على نفاقكم.

٥٤ ـ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات. وهو أبلغ في تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾ يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه، وإنّما ضررتم أنفسكم؛ فإنّ الرسول ليس عليه إلاّ ما حمّله الله تعالى، وكلّفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأمّا أنتم فعليكم ما كلّفتم من التلقي بالقبول والإذعان؛ فإن لم تفعلوا، وتولّيتم، فقد عرّضتم نفوسكم سخط الله، وعذابه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم، فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى. فالضرر والنفع عائدان إليكم. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وما على الرسول إلا أن يبلغ، ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليتكم. و﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بمعنى التبليغ، كالأداء بمعنى التأدية. و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهر؛ لكونه مقروناً بالآيات، والمعجزات. ثمّ ذكر المخلصين فقال:

٥٥ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ ولمن معه. و﴿منكم﴾ للبيان. وقيل: المراد به: المهاجرون. ومن للتبعيض ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض الكفّار. وقيل: أرض المدينة. والصحيح: أنه عامّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلنّ هذا الدين على ما دخل عليه الليل» ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ ﴿اسْتُخْلِفَ﴾: أبو بكر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ

﴿دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾

﴿دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ﴿وليُبْدِلنّهم﴾ بالتخفيف؛ مكّيّ، وأبو بكر ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورّثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكّن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام ـ وتمكينه: تثبيته، وتوطيده ـ وأن يؤمّن سِرْبَهُم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه. وذلك أنّ رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكّة عشر سنين خائفين، ولمّا هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، حتّى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح. فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَغْبُرُون إلاّ يسيراً حتّى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس معه حديدة»[١]. فأنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب، ومزّقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا. والقسم المتلقى باللام والنون في ﴿ليستخلفنّهم﴾ محذوف، تقديره: وعدهم الله، وأقسم ﴿ليستخلفنّهم﴾. أو: نُزِّل وعد الله في التحقّق منزلة القسم، يُتلقى بما يتلقي به القسم، كأنّه أقسم الله ﴿ليستخلفنّهم﴾ ﴿يَعۡبُدُونَنِى﴾ إن جعلته استئنافاً فلا محلّ له، كأنّه قيل: ما لهم يُستخلفون ويؤمّنون؟ فقال: ﴿يعبدونني﴾. وإن جعلته حالاً عن ﴿وعد الله﴾ ـ أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم ـ فمحلّه النصب. ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔا﴾ حال من فاعل يعبدون، أي: ﴿يعبدونني﴾ موحِّدين. ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد الموعد. والمراد: كفران النعمة؛ كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هم الكاملون في فسقهم، حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة، وجسروا على غمطها[٢]. قال: أوّل من كفر هذه النعمة قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ فاقتتلوا

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٨/ ١٦٠). «لا تغبرون»: لاتبقون.

(٢) «غمطها»: احتقارها.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ

بعد ما كانوا إخواناً، وزال عنهم الخوف. والآية أوضح دليل على صحّة خلافة الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لأنّ المستخلَفين الذين آمنوا، وعملوا الصالحات هم هم.

٥٦ ـ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ولا يضرّ الفصل وإن طال. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يدعوكم إليه. وكرّرت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا، فإنّها من مستجلبات الرحمة. ثمّ ذكر الكافرين، فقال:

٥٧ ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فائتين الله بألاّ يقدر عليهم فيها. فالتاء خطاب للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وهو الفاعل، والمفعولان: ﴿الذين كفروا﴾، و﴿معجزين﴾. وبالياء شامي وحمزة. والفاعل: النبي ﷺ لتقدم ذكره، والمفعولان ﴿الذين كفروا﴾ و﴿معجزين﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معطوف على: ﴿لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين﴾، كأنّه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿ومأواهم النار﴾. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع، النار.

٥٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أمر بأن يستأذن العبيد، أو العبيد والإماء. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار. وقرىء بسكون اللام تخفيفاً. ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليوم والليلة، وهي: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنّه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي نصف النهار في القيظ؛ لأنّها وقت وضع الثياب للقيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنّه وقت التجرّد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي أوقات ثلاث عورات، فحذف المبتدأ والمضاف. وبالنصب كوفيّ غير حفص

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

بدلاً عن ﴿ثلاث مرّات﴾ أي: أوقات ثلاث عورات. وسمّي كلّ واحد من هذه الأحوال عورة؛ لأنّ الإنسان يختلّ تستره فيها. والعورة: الخلل، ومنها: الأعور: المختلّ العين. دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر ـ رضي الله عنه ـ وقت الظهيرة وهو نائم، وقد انكشف عنه ثوبه. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: وددتُ أنّ الله نهى عن الدخول في هذه السَّاعة إلاّ بالإذن. فانطلق إلى النبيّ ﷺ وقد نزلت عليه الآية[1]. ثمّ عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرّات بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهنّ. ثمّ بيّن العلّة في ترك الاستئذان وراء هذه الأوقات بقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: هم طوّافون بحوائج البيت ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ، خبره ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. تقديره: ﴿بعضكم﴾ طائف ﴿على بعض﴾ فحذف طائف لدلالة ﴿طوّافون عليكم﴾. فيجوز أن تكون الجملة بدلاً مِن التي قبلها وأن تكون مبيّنة مؤكّدة، يعني: أنّ بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام. فلو جزم الأمر بالاستئذان في كلّ وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوعٌ في الشرع بالنصّ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: كما بيّن حكم الاستئذان يبيّن لكم غيره من الآيات؛ التي احتجتم إلى بيانها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده.

٥٩ ـ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ﴾ أي: الأحرار دون المماليك ﴿الْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام؛ أي: إذا بلغوا، وأرادوا الدخول عليكم ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال، أو: الذين ذكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا

(١) قال الحافظ: هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي بغير سند. (حاشية الكشاف ٣/٢٥٣).

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ

بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟﴾ الآية [النور: ٢٧]. والمعنى: أنّ الأطفالَ مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذن إلاّ في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفالُ ذلك، ثمّ بلغوا بالاحتلام، أو: بالسنّ وجب أن يُفْطَمُوا عن تلك العادة، ويُحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار؛ الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلاّ بإذن. والناس عن هذا غافلون. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ثلاث آيات جحدهنّ الناس: الإذن كلّه، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨]. وعن سعيد بن جبير: يقولون هي منسوخة، والله! ما هي بمنسوخة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح الأنام ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما بيّن من الأحكام.

٦٠ ـ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ جمع قاعد؛ لأنّها من الصفات المختصّة بالنساء، كالطالق، والحائض، أي: اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكبرهنّ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه، وهي في محلّ الرفع صفة للمبتدأ، وهي ﴿القواعد﴾، والخبر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إثم ـ ودخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ في أن يضعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الظاهرة كالملحفة، والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غَيْرَ﴾ حال ﴿مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات زينة. يريد: الزينة الخفيّة كالشعر، والنحر، والساق، ونحو ذلك، أي: لا يقصدن بوضعها التبرّج، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرّج: تكلّف إظهار ما يجب إخفاؤه ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن. وهو مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يعلنّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يقصدن.

٦١ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال

وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ

سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبيّ ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى، والمريض، والأعرج، وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرّجون من ذلك، ويقولون: نخشى ألاّ تكون أنفسهم بذلك طيّبة، فنزلت الآية رخصة لهم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم؛ لأنّ ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه؛ ولذا لم يذكر الأولاد في الآية. وقد قال ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»[(١)]. أو: بيوت أزواجكم، لأنّ الزوجين صارا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة كبيت الزوج ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ لأنّ الإذن من هؤلاء ثابت دلالة ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مِفتح، وهو: ما يفتح به الغلق. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، له أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته. وأريد بملك المفاتح: كونها في يده، وحفظه. وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأنّ العبد وما في يده لمولاه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً، وهو: مَن يصدقك في مودّته، وتصدقه في مودّتك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه، وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاها أعتقها سروراً بذلك، فأمّا الآن فقد غلب الشحّ على الناس، فلا يُؤكَل إلاّ بإذن ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرّقين جمع

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٩) وأبو داود (٢٢٩١) وابن ماجه (٢٢٩٢).

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ
يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

شتّ. نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده، فربّما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإن لم يجدْ من يؤاكله أكل ضرورة. أو: في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلاّ مع ضيفهم، أو: تحرّجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها؛ الذين هم منكم ديناً، وقرابة. أو: ﴿بيوتاً﴾ فارغة، أو: مسجداً، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب بسلّموا؛ لأنّها في معنى: تسليماً نحو: قعدت جلوساً ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحيّة طلب سلامة، وحياة للمسلَّم عليه، والمحيّا من عند الله ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصفها بالبركة والطيب، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تعقلوا، وتفهموا.

٦٢ ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: الذي يُجمع له الناس نحو: الجهاد، والتدبير في الحرب، وكلّ اجتماع في الله حتّى الجمعة والعيدين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي: ويأذن لهم. ولما أراد الله عزّ وجلّ أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم حتّى يستأذنوه: ثالث الإيمان بالله، والإيمان برسوله، وجعلهما كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بـ«إنّما»، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول، أحاطته صلته بذلك الإيمانين، ثمّ عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وضمّنه شيئاً آخر، وهو أنّه جعل الاستئذان كالمصداق لصحّة

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٢ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾

الإيمانين، وعرّض بحال المنافقين، وتسلّلهم لواذاً ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ في الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذِكْر الاستغفار للمستأذنين دليلٌ على أنّ الأفضلَ ألاّ يستأذنوه. قالوا: وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدَّميهم في الدين والعلم، يظاهرونهم، ولا يتفرّقون عنهم إلاّ بالإذن. قيل: نزلت يوم الخندق. كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان.

٦٣ ـ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر، فدعاكم، فلا تفرّقوا عنه إلاّ بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إيّاكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي. أو: لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمّي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سمّاه به أبواه، ولا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا نبيّ الله، ويا رسول الله، مع التوقير، والتعظيم، والصَّوت المخفوض ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ يخرجون قليلاً قليلاً ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ حال، أي: ملاوذين. اللواذ، والملاوذة: هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا، أي: يتسلَّلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة، واستتار بعضهم ببعض ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: الذين يصدّون ﴿عن أمره﴾ دون المؤمنين. وهم المنافقون. يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وخالفه عن الأمر: إذا صدّ عنه دونه. والضمير في ﴿أمره﴾ لله سبحانه، أو: للرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى: عن طاعته ودينه. ومفعول ﴿يحذر﴾: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا، أو قتل، أو زلازل، وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرّب،

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

أو إسباغ النعم استدراجاً ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب.

٦٤ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ألا﴾: تنبيه على ألاَّ يخالفوا أمر مَن له ﴿ما في السموات والأرض﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أدخل ﴿قد﴾ ليؤكّد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى: أنّ جميع ما في السموات والأرض مختص به خلقاً، وملكاً، وعلماً، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجهدون في سترها؟! ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم: يعقوب، أي: ويعلم يوم يردّون إلى جزائه، وهو: يوم القيامة. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ﴿ما أنتم عليه﴾ عامّاً، و﴿يرجعون﴾ للمنافقين ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بما أبطنوا من سوء أعمالهم، ويجازيهم حقّ جزائهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فلا يخفى عليه خافية. ورُوي: أنّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسّرها على وجه لو سمعت الرومُ به لأسلمت.

* * *

سورة الفرقان

ترتيبها ٢٥ — آياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾

١ ـ ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من: البركة، وهي: كثرة الخير وزيادته. ومعنى تبارك الله: تزايد خيره، وتكاثر، أو: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله. وهي كلمة تعظيم، لم تستعمل إلاّ لله وحده، والمستعمل منه الماضي فحسب ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو مصدر فرق بين الشيئين: إذا فصل بينهما، وسُمِّي به القرآن لفصله بين الحقّ والباطل، والحلال والحرام، أو: لأنّه لم ينزل جملة، ولكن مفروقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد، أو: الفرقان ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ للجنّ والإنس. وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً، أي: مخوّفاً، أو: إنذاراً، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى﴾ رَفْعٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو: على الإبدال من ﴿الذي نزل﴾. وجُوِّزَ الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ﴿ليكون﴾ لأن المبدل منه صلته ﴿نزل﴾ و﴿ليكون﴾ تعليل له، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلاّ به، أو: نصب على المدح ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على الخلوص ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى في عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

كما زعمت الثنويّة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحدث ﴿كلّ شيء﴾ وحده، لا كما يقوله المجوس والثنويّة: من النور والظلمة، (وَيَزْدان، واهَرْمَنْ) ولا شبهة فيه لمن يقول: إنّ الله شيء، ولا لمن يقول بخلق القرآن؛ لأنّ الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعوله. على أنّ لفظ: ﴿شيء﴾ اختصّ بما يصحّ أن يخلق بقرينة ﴿وخلق﴾. وهذا أوضحُ دليل لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فهيّأه لما يصلح له بلا خلل فيه، كما أنّه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي نزّله، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا، أو: تقديره للبقاء إلى أمدٍ قصير معلوم.

٣ ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ الضمير للكافرين؛ لاندراجهم تحت العالمين، أو: لدلالة ﴿نذيراً﴾ عليهم؛ لأنّهم المنذرون ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: الأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أنّهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهيّة، والملك، والخلق، والتقدير عبادة عجزة، لا يقدرون على خلق شيء وهم مخلوقون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها، ولا جلب نفع إليها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: إماتة ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ إحياء ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ إحياء بعد الموت. وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها.

٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه، واخترعه محمد ﷺ من عند نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: اليهود، أو: عداس، ويسار، وأبو فكيهة الرومي، قاله النضر بن الحارث ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا إخبار من الله، ردّ للكفرة، فيرجع الضمير إلى الكفّار. و«جاء» يستعمل في معنى «فعل»، فيعدّى تعديته. أو: حذف الجارّ، وأوصل الفعل، أي: بظلم وجور. وظلمهم أن جعلوا العربيّ يتلقّن من

وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ

العجميّ الروميّ كلاماً عربيّاً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

٥ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أحاديث المتقدّمين، وما سطّروه؛ كرستم وغيره، جمع أسطار، أو: أسطورة كأحدوثة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تلقى عليه من كتابه ﴿بُكْرَةً﴾ أوّل النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخره. فيحفظ ما يُملى عليه، ثمّ يتلوه علينا.

٦ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم كلَّ سرٍّ خفيّ في السموات والأرض، يعني: أنّ القرآن لمّا اشتمل على علم الغيوب التي يستحيلُ عادةً أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعليم، دلّ ذلك على أنّه من عند علّام الغيوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولذا استوجبوها بمكابرتهم.

٧، ٨ ـ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء، وخطّ المصحف سُنّةٌ لا تُغيّر، وتسميتهم إيّاه بالرسول سخرية منهم؛ كأنّهم قالوا: أيّ شيء لهذا الزاعم أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ حال، والعامل فيها ﴿هذا﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: إن صح أنّه رسول الله ﷺ فما باله يأكل الطعام كما نأكل، ويتردّد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد؟! يعنون: أنّه كان يجب أن يكونَ مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيّش. ثمّ نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يُلقى إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثمّ نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير، أو: ﴿نأكل﴾ نحن،

وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ

كقراءة عليّ، وحمزة. وحسن عطف المضارع وهو: ﴿يُلْقى﴾ و﴿تكون﴾ على ﴿أنزل﴾ وهو ماض دخولُ المضارع، وهو ﴿فيكون﴾ بينهما. وانتصب ﴿فيكون﴾ على القراءة المشهورة؛ لأنّه جواب ﴿لولا﴾ بمعنى هلاّ، وحكمه حكم الاستفهام. وأراد بـ«الظالمين» بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إيّاهم بأعيانهم، غير أنّه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا. وهم كفّار قريش ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سحر فجنّ، أو: ذا سَحْر، وهو: الرئة، عنوا: أنّه بشر، لا ملك.

٩ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟﴾ بيّنوا ﴿لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفتري، والمُمْلَى عليه، والمسحور ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحقّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً إليه.

١٠ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ أي: تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً ممّا قالوا، وهو: أن يعجّل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنّات، والقصور. و﴿جنّات﴾ بدل من ﴿خيراً﴾. ﴿ويجعل﴾ بالرفع: مكيّ، وشاميّ، وأبو بكر؛ لأنّ الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم، والرفع.

١١ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ عطف على ما حكي عنهم، يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو: تكذيبهم بالساعة، أو: متّصل بما يليه، كأنّه قال: ﴿بل كذّبوا بالساعة﴾ فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب؟! وكيف يصدّقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟! ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وهيّأنا للمكذّبين بها ناراً شديدة الاستعار.

١٢ ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: النار، أي: قابلتهم ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: سمعوا صوت

سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

غليانها. وشبّه ذلك بصوت المتغيّظ، والزافر. أو: إذا رأتهم زبانيتها تغيّظوا، وزفروا غضباً على الكفّار.

١٣ ـ ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ من النار ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيْقاً﴾: ـ مكيّ ـ الكرب مع الضيق، كما أنّ الرَّوْحَ مع السعة؛ ولذا وصفت الجنّة بأنّ عرضها السموات والأرض. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه يضيق عليهم، كما يضيق الزجّ في الرّمح ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون في السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو: يقرن مع كلّ كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ حينئذ. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي: قالوا: واثبورا! أي: تعال يا ثبور فهذا حينك. فقال لهم:

١٤ ـ ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: إنّكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنّما هو ثبور كثير.

١٥ ـ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: المذكور من صفة النار ﴿خير﴾ ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وعدها، فالراجع إلى الموصول محذوف، وإنّما قال: ﴿أذلك خير﴾ ولا خير في النار، توبيخاً للكفّار ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ ثواباً ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً. وإنّما قيل: ﴿كانت﴾ لأنّ ما وعد الله، كأنّه كان لتحقّقه، أو: كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم.

١٦ ـ ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاؤونه ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يشاؤون﴾. والضمير في: ﴿كَانَ﴾ لـ: ﴿ما يشاؤون﴾ ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ موعوداً ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ مطلوباً، أو: حقيقاً أن يسأل، أو: قد سأله المسلمون والملائكة في دعواتهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿رَبَّنَا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ

﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨].

١٧ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾[1] للبعث، عند الجمهور. وبالياء: مكيّ، ويزيد، ويعقوب، وحفص ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد المعبودين من الملائكة، والمسيح، وعزير. وعن الكلبي: يعني: الأصنام ينطقها الله، وقيل: عامّ. و«ما» يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنّه قيل: ومعبوديهم ﴿فَيَقُولُ﴾ وبالنون: شاميّ ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿عبادي﴾ أي: المشركين ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ والقياس: ضلَّ عن السبيل، إلّا أنهم تركوا الجارّ كما تركوه في: هداه الطريق، والأصل: إلى الطريق، أو: للطريق. وضلّ مطاوع أضلّه، والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحقّ بإدخال الشبه، أم هم ضلّوا عنه بأنفسهم؟. وإنّما لم يقل: أأضللتم عبادي هؤلاء، أم ضلّوا السبيل، وزيد ﴿أنتم﴾ ﴿وهم﴾ لأنّ السؤال ليس عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجّه هذا العتاب، وإنّما هو عن متولّيه، فلا بدّ من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنّه المسؤول عنه. وفائدة سؤالهم ـ مع علمه تعالى بالمسؤول عنه ـ أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يُبَكِّتَ عبدتهم بتكذيبهم إيّاهم، فتزيد حسرتهم.

١٨ ـ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجب منهم مما قيل لهم، أو: قصدوا به تنزيه عن الأنداد، وأن يكون له نبيّ، أو ملك، أو غيرهما نداً. ثم قالوا ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما كان يصحّ ﴿لَنَآ﴾ ولا يستقيم أن نتولّى أحداً دونك، فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولّونا دونك؟! ﴿نُتَّخذ﴾: يزيد. و«اتخذ» يتعدّى إلى مفعول واحد نحو: اتّخذ وليّاً، وإلى مفعولين، نحو: اتّخذ فلاناً وليّاً، قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

---

(١) في الأصل المخطوط ثُبِّتت قراءة ﴿نَحْشُرُهم﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وعاصم، والشنبوذي، وطلحة، والحسن، وشعبة، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٧٧).

وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا

[الأنبياء: ٢١]. وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فالقراءة الأولى من المتعدّي إلى واحد وهو: ﴿من أولياء﴾ والأصل: أن نتّخذ أولياء، زيدت ﴿من﴾ لتأكيد معنى النفي. والقراءة الثانية من المتعدّي إلى المفعولين. فالمفعول الأول ما بني له الفعل، والمفعول الثاني: ﴿من أولياء﴾. و﴿من﴾ للتبعيض، أي: لا نتخذ بعض أولياء؛ لأن «منْ» لا تزاد في المفعول الثاني، بل في الأول. تقول: ما اتخذت من أحد وليّاً، ولَا تقول: ما اتّخذت أحداً من وليّ ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالأموال، والأولاد، وطول العمر، والسلامة من العذاب ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: ذكر الله، والإيمان به، والقرآن، والشرائع ﴿وَكَانُوا۟﴾ عند الله ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى، جمع بائر، كعائد وعود.

١٩ ـ ثمَّ يقال للكفّار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾. وهذه المفاجآت بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصّة إذا انضم إليها الالتفات، وحذف القول. ونظيرها: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] وقول القائل:

قالُوا خُرَاسانُ أَقْصَى ما يُرَادُ بِنا ... ثُـمَّ القُفُـولُ فقـد جِئْنـا خُـرَاسـانـا

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بقولكم فيهم: إنّهم آلهة، والباء على هذا كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥]. والجارّ والمجرور بدل من الضمير، كأنه قيل: فقد كذّبوا بما تقولون، وعن قنبل: بالياء، ومعناه: فقد كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. والباء على هذا كقولك: كتبت بالقلم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾[1] أي: فما

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يستطيعون﴾. وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٨٠).

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو: ينصروكم، وبالتاء: حفص، أي: فما تستطيعون أنتم يا كفّار صرف العذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم. ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك؛ لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم، يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فسّر بالخلود في النار. وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلاّ على قول المعتزلة، والخوارج.

٢٠ - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كسرت ﴿إنّ﴾ لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد ﴿إلاّ﴾ صفة لموصوف محذوف، والمعنى: ﴿وما أرسلنا قبلك﴾ أحداً ﴿من المرسلين﴾ إلاّ آكلين وماشين. وإنّما حذف اكتفاء بالجارّ والمجرور، أي: ﴿من المرسلين﴾ ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: وما منّا أحد، قيل: هو احتجاج على من قال: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ وتسلية للنبيّ عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: محنة، وابتلاء. وهذا تصبيرٌ لرسول الله ﷺ عما عيَّروه به من الفقر، ومشيه في الأسواق. يعني: أنّه جعل الأغنياء فتنة للفقراء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمّكم؟ وحُكي أنّ بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه فخرج ضجراً، فرأى خصيّاً في مراكب ومواكب، فخطر بباله شيء، فإذا بمن يقرأ هذه الآية، فقال: بلى، نصبر ربّنا. أو: جعلناك فتنة لهم؛ لأنّك لو كنت غنيّاً صاحب كنوز وجنان، لكان طاعتهم لك للدنيا، أو: ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به، أو: بمن يصبر، ويجزع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

٢١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأملون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير؛ لأنّهم كفرة لا يؤمنون بالبعث، أو: لا يخافون عقابنا إمّا لأنّ الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف، أو: لأنّ الرجاء في لغة تهامة الخوف ﴿لَوْلَآ﴾ هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رسلاً دون البشر، أو: شهوداً على نبوّته، ودعوى رسالته ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرة، فيخبرنا برسالته، واتّباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أضمروا الاستكبار عن الحقّ، وهو: الكفر، والعناد في قلوبهم ﴿وَعَتَوْ﴾ وتجاوزوا الحدّ في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وصف العتوّ بالكبر، فبالغ في إفراطه، أي: إنّهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلاّ أنّهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتوّ. واللام جواب قسم محذوف.

٢٢ ـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: يوم الموت، أو: يوم البعث و﴿يوم﴾ منصوب بما دلّ عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾، أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكّد لـ: ﴿يوم يرون﴾. أو: بإضمار اذكر، أي: اذكر ﴿يوم يرون الملائكة﴾ ثم أخبر فقال: ﴿لا بشرى﴾ بالجنة ﴿يومئذ﴾. ولا ينتصب بـ﴿يرون﴾؛ لأنّ المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ: ﴿بشرى﴾ لأنّها مصدر، والمصدر لا يعمل فيما قبله؛ ولأنّ المنفيّ بـ«لا» لا يعمل فيما قبل لا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهر في موضع ضمير، أو: عامّ تناولهم بعمومه. وهم الذين اجترموا[١] الذنوب. والمراد: الكافرون؛ لأنّ مطلق الأسماء يتناول أكمل المسمّيات ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حراماً محرّماً عليكم البشرى، أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنّما البشرى للمؤمنين. والحِجْرُ: مصدر. والكسر والفتح لغتان. وقرىء بهما. وهو: من: حجره: إذا منعه، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها.

(١) «اجترموا»: اكتسبوا وارتكبوا.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ

و﴿محجوراً﴾ لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت.

٢٣ ـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ الآية، هو صفة لـ: ﴿هباءً﴾، ولا قدوم هنا. ولكن مُثِّلَتْ حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه، وعصاه، فقدم إلى أشيائه، وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها، ومزّقها كلّ ممزّق. ولم يترك لها أثراً. والهباء: ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس، شبّه بالغبار. والمنثور: المفرّق. وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع، ولا يقع به الانتفاع. ثمّ بيّن فضل أهل الجنة على أهل النار، فقال:

٢٤ ـ ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ تمييز. والمستقرّ: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون، ويتحادثون ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم في الجنّة، ولكنّه سمّي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه. ورُوي أنّه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. وفي لفظ: «الأحسن» تهكّم به.

٢٥ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ والأصل: تتشقق، فحذف التاء: كوفيّ، وأبو عمرو. وغيرهم: أدغمها في الشين ﴿بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ لمّا كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام، كأنّه الذي تنشقُّ به السماء، كما تقول: شقَّ السنام بالشفرة، وانشقَّ بها ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (ونُنْزِلُ): مكيّ. و﴿تنزيلاً﴾ على هذا مصدر من غير لفظ الفعل، والمعنى: أنّ السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد.

٢٦ ـ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعته. ومعناه: الثابت؛

لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ

لأنّ كلّ مُلْكٍ يزول يومئذ، ولا يبقى إلاّ ملكه ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ خبره ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ شديداً. يقال: عَسُرَ عليه، فهو عَسير وعَسِر. ويفهم منه: يسره على المؤمنين. ففي الحديث: «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتّى يكون عليهم أخفّ من صلاة مكتوبة صلّوها في الدنيا»[1].

٢٧ ـ ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ عضّ اليدين كناية عن الغيظ والحسرة؛ لأنّه من روادفهما، فتذكر الرادفة، ويدلّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنىّ عنه. واللام في ﴿الظالم﴾ للعهد. وأُريد به عُقبة لما تبيّن. أو: للجنس فيتناول عُقبة وغيره من الكفّار ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ محمّد عليه الصلاة والسلام ﴿سَبِيلٗا﴾ طريقاً إلى النجاة، والجنّة، وهو: الإيمان.

٢٨ ـ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ وقرىء ﴿يا ويلتي﴾ بالياء، وهو الأصل؛ لأنّ الرجل ينادي ويلته ـ وهي: هُلْكته ـ يقول لها: تعالي فهذا أوانك. وإنما قلبت الياء ألفاً كما في: صحارى، ومدارى ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ فلان كناية عن الأعلام، فإن أريد الظالم عُتبة؛ لما رُوي: أنه اتّخذ ضيافة، فدعا إليها رسول الله ﷺ، فأبى أن يأكل من طعامه حتّى ينطق بالشهادتين، ففعل، فقال له أبيّ بن خلف ـ وهو خليله ـ: وجهي من وجهك حرام إلاّ أن ترجع، فارتدّ؛ فالمعنى: ليتني لم أتخذ أُبيّاً خليلاً، فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس، فكلّ من اتّخذ من المضلّين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعل كناية عنه. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

٢٩ ـ ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾ من الله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ـ أي: خليله. سمّاه شيطاناً؛

(١) رواه أحمد (٣ / ٧٥) وأبو يعلى (١٣٩٠).

لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ

لأنّه أضلّه كما يضلّه الشيطان. أو: إبليس؛ لأنّه الذي حمله على مخالّة المضلّ، ومخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾ هو مبالغة من الخذلان، أي: من عادته ترك من يواليه. وهذا حكاية كلام الله تعالى، أو: كلام الظالم.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: محمد ﷺ في الدنيا: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ متروكاً، أي: تركوه، ولم يؤمنوا به، من: الهجران. وهو مفعول ثان لـ: ﴿اتخذوا﴾. وفي هذا تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه؛ لأنّ الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم، حلّ بهم العذاب، ولم يُنظَروا.

٣١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: كذلك كان كلّ نبيّ قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم، والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدوّ يجوز أن يكون واحداً وجمعاً. والباء زائدة، أي: وكفى ربّك هادياً. وهو تمييز.

٣٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قريش، أو: اليهود ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ حال من القرآن، أي: مجتمعاً، يعني: هلّا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق؟! وهذا فضول من القول، ومماراة بما لا طائل تحته؛ لأنّ أمر الإعجاز، والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة، أو: مفرّقاً، و﴿نزل﴾ ـ هنا ـ بمعنى: أنزل، وإلا كان متدافعاً بدليل: ﴿جُمْلَةً واحدة﴾ وهذا اعتراض فاسدٌ؛ لأنّهم تحدّوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم حتّى لاذوا بالمناصبة، وفزعوا إلى المحاربة، وبذلوا المهج، وما مالوا إلى الحجج ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جواب لهم، أي: كذلك أنزل مفرّقاً في عشرين سنة، أو: في ثلاث وعشرين. وذلك في ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مدلول قوله: ﴿لولا نزّل عليه القرآن جملة﴾ لأنّ معناه:

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ﴾

لم أنزل عليك القرآن مفرّقاً؟ فأعلم أنّ ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لِنُقوّي بتفريقه ﴿فؤادك﴾ حتّى تعيه، وتحفظه؛ لأنّ المتلقن إنّما يقوى قلبه على حِفْظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لنثبّت فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول، وتتابع الرسول؛ لأنّ قلب المحبّ يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ معطوف على الفعل الذي تعلّق به ﴿كذلك﴾ كأنّه قال: كذلك فرّقناه، ورتلّناه، أي: قدّرناه آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، أو: أمرنا بترتيل قراءته. وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أي: اقرأه بترسّل، وتثبّت، أو: بيّناه تبييناً، والترتيل: التبيين في ترسّل، وتثبّت.

٣٣ ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، كأنّه مثل في البطلان، ﴿إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ أتيناك بالجواب الحقّ الذي لا محيد عنه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن معنى، ومؤدّىً من مثلهم، أي: من سؤالهم. وإنما حذف من مثلهم؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه، كما لو قلت: رأيت زيداً وعمراً، وكان عمر أحسن وجهاً. فيه دليلٌ على أنّك تريد: من زيد. ولمّا كان التفسير هو التكشيف عما يدلّ عليه الكلام، وُضِعَ موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل: معناه: كذا وكذا. أولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: ﴿هلاّ أنزل عليك القرآن جملة﴾ إلاّ أعطيناك من الأحوال ما يحقّ لك في حكمتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه، ودلالة على صحّته، يعني: أنّ تنزيله مفرّقاً، وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلّما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز من أن ينزل كلّه جملة.

٣٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ﴾ ﴿الذين﴾: مبتدأ، و﴿أولئك﴾ مبتدأ ثان، و﴿شرّ﴾ خبر ﴿أولئك﴾. و﴿أولئك﴾ مع ﴿شرّ﴾ خبر ﴿الذين﴾. أو: التقدير: هم ﴿الذين﴾، أو: أعني ﴿الذين﴾. و﴿أولئك﴾

مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ

مستأنف ﴿مَّكَانًا﴾ أي: مكانة، ومنزلة، أو: مسكناً، ومنزلاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأخطأ طريقاً، وهو من الإسناد المجازيّ. والمعنى: أنّ حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلّون سبيله، وتحتقرون مكانه، ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف، وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنّم، لعلمتم أنّ مكانكم شرّ من مكانه، وسبيلكم أضلّ من سبيله. وفي طريقته قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية. وعن النبيّ ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أصناف: صنف على الدواب، وصنف على أرجلهم، وصنف على وجوههم». قيل: يا رسول الله! كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذي مشّاهم على أقدامهم، يُمَشِّيهم على وجوههم»(١).

٣٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، كما آتيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿وَزِيرًا﴾وهو في اللغة: من يرجع إليه، ويُتَحَصَّن برأيه، من: الوَزَر، وهو: الملجأ. والوزارة لا تنافي النبوّة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضاً.

٣٦ ـ ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: فرعون، وقومه. وتقديره: فذهبا إليهم، وأنذرا فكذّبوهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ التدمير: الإهلاك بأمر عجيب. أراد اختصار القصّة، فذكر أوّلها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصّة، أعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

٣٧ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ دمّرنا ﴿قوم نوح﴾ ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً، وإدريس، وشيثاً ـ عليهم السلام ـ أو: كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم، أو:

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٦٣) والترمذي (٣١٤٢).

لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لقوم نوح ـ عليه السلام ـ وأصله: وأعتدنا لهم، إلاّ أنّه أراد تظليمهم فأظهر، أو: هو عامّ لكلّ من ظلم ظلم شرك ويتناولهم بعمومه ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: النار.

٣٨ ـ ﴿وَعَادًا﴾ أي: ﴿و﴾ دمّرنا ﴿عاداً﴾ ﴿وَثَمُودَاْ﴾ حمزة، وحفص، على تأويل القبيلة، وغيرهما ﴿وثموداً﴾ على تأويل الحيّ، أو: لأنّه اسم الأب الأكبر ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم شعيب. كانوا يعبدون الأصنام، وكذّبوا شعيباً، فبينا هم حول الرسّ ـ وهي: البئر غير المطويّة ـ انهارت بهم، فخسف بهم وبديارهم. وقيل: الرسّ: قرية قتلوا نبيّهم فهلكوا. أو: هم أصحاب الأخدود. والرس: الأخدود ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهلكنا أمماً ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلاّ الله، أرسل إليهم الرسل، فكذّبوهم، فأهلكوا.

٣٩ ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بيّنا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً. ﴿وكلاً﴾ الأوّل منصوب بما دلّ عليه: ﴿ضربنا له الأمثال﴾ وهو أنذرنا، أو: حذّرنا. والثاني بـ﴿تبّرنا﴾؛ لأنه فارغ له.

٤٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني: أهل مكة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ سدوم ـ وهي: أعظم قرى قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله أربعاً مع أهلها، وبقيت واحدة ـ ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: أمطر الله عليها الحجارة، يعني: أنّ قريشاً مرّوا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية؛ التي أهلكت بالحجارة من السماء. و﴿مطر السوء﴾ مفعول ثان. والأصل: أمطرت القرية مطراً، أو: مصدر محذوف الزوائد، أي: إمطار السوء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أما شاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم إلى الشام فيتفكرون فيؤمنون؟ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بل كانوا قوماً كفرة بالبعث، لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون، أو:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم.

٤١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ﴿إن﴾ نافية. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ اتخذه هزؤاً في معنى: استهزأ به. والأصل: اتخذه موضع هزؤ، أو: مهزوءاً به ﴿أَهَٰذَا﴾ محكيّ بعد القول المضمر. و﴿هذا﴾ استصغار، واستهزاء. أي: قائلين: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾. والمحذوف حال. والعائد إلى ﴿الذي﴾ محذوف، أي: بعثه.

٤٢ ـ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ﴿إن﴾: مخفّفة من الثقيلة، واللام فارقة. وهو دليلٌ على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وعرض المعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم، واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ هو وعيدٌ ودلالة على أنهم لا يفوتونه، وإن طالت مدّة الإمهال ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هو كالجواب عن قولهم: ﴿إن كاد ليضلّنا﴾ لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال؛ إذ لا يضل غيره إلاّ من هو ضالّ في نفسه.

٤٣ ـ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أيّ: من أطاع هواه فيما يأتي، ويذر، فهو عابد هواه، وجاعله إلهه. فيقول الله تعالى لرسوله، هذا الذي لا يرى معبوداً إلاّ هواه: كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟ يُروى: أنّ الواحد من أهل الجاهليّة كان يعبد الحجر، فإذا مرّ بحجر أحسن منه ترك الأوّل، وعبد الثاني. وعن الحسن: هو في كلّ متبّع هواه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً تحفظه من متابعة هواه، وعبادة ما يهواه. أو: ﴿أفأنت تكون عليه﴾ موكّلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى، عرّفه: أنّ إليه التبليغ فقط.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا

٤٤ ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿أم﴾: منقطعة، معناه: بل أتحسب كأنّ هذه المذمّة أشدّ من التي تقدّمتها حتّى حُقَّت بالإضراب عنها إليها، وهي: كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنّهم لا يلقون إلى استماع الحقّ أذناً، ولا إلى تدبّره عقلاً، ومشبّهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة، والضلالة. فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال؛ لتركهم الاستدلال. ثمّ هم أرجح ضلالة منها؛ لأنّ الأنعامَ تسبّح ربها، وتسجد له، وتطيع من يعلفها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرّها، وتهتدي لمراعيها، ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربّهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان؛ الذي هو عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشْرَعُ الهنيّ، والعذب الرويّ. فقالوا: للملائكة روح وعقل، وللبهائم نفس وهوى. والآدمي مجمع الكلّ ابتلاء. فإن غلبته النفس والهوى فَضلته الأنعام، وإن غلبه الروح والعقل فضَل الملائكة الكرام. وإنّما ذكر الأكثر؛ لأنّ فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا حبّ الرياسة، وكفى به داء عضالاً، ولأنّ فيهم مَن آمن.

٤٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربّك، وقدرته ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: بسطه فعمّ الأرض. وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور، لأنّه ظلّ ممدود لا شمس معه، ولا ظلمة. وهو كما قال في ظلّ الجنّة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لا شمس معه، ولا ظلمة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، ولا تذهبه الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ على الظلّ ﴿دَلِيلًا﴾ لأنّه بالشمس يعرف الظلّ، ولولا الشمس لما عرف الظلّ، فالأشياء تُعرف بأضدادها.

٤٦ ـ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: أخذنا ذلك الظلّ الممدود ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى حيث أردنا

قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير. أو: قليلاً قليلاً، أي: جزءاً فجزءاً بالشمس التي تأتي عليه. وجاء بـ: «ثمّ» لتفاضل ما بين الأمور، فكأنّ الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم من الثاني. شبّه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت.

٤٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم. والسبت: القطع. والنائم مسبوت؛ لأنّه انقطع عمله، وحركته. وقيل: السبات: الموت، والمسبوت: الميّت؛ لأنّه مقطوع الحياة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ويعضده ذكر النشور في مقابلته ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ إذ النشور: انبعاث من النوم، كنشور الميت. أو: ينشر فيه الخلق للمعاش. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأنّ في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية، ودنيويّة، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر. وقال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

٤٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيّ. والمراد به الجنس ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف بُشُر، جمع: بشور. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قدّام المطر، لأنّه ريح، ثمّ سحاب، ثمّ مطر. وهذه استعارة مليحة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿طَهُورًا﴾ بليغاً في طهارته. والطهور صفة، كقولك: ماءً طهوراً أي: طاهر. واسم كقولك لما يتطهر به: طهور، كالوضوء، والوقود، لما يتوضأ به، وتوقد به النار. ومصدر بمعنى: التطهّر، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً. ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلاّ بطهور»[1] أي: بطهارة. وما حُكي عن ثعلب: هو

(١) رواه الترمذي (١) بلفظ: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾

ما كان طاهراً في نفسه، مطهّراً لغيره. وهو مذهب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ إن كان هذا زيادة بيان لطهارته فحسن. ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]. وإلاّ فليس فعول من التفعيل في شيء. وقياسه على ما هو مشتقّ من الأفعال المتعدّية، كقطوع ومنوع، غير سديد؛ لأنّ بناء المفعول للمبالغة، فإن كان الفعل متعدّياً فالمفعول متعدّ، وإن كان لازماً فلازم.

٤٩ ـ ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ بالمطر. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكّر ﴿ميتاً﴾ على إرادة البلد، أو: المكان ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: ونسقي الماء البهائم والناس. و﴿مما خلقنا﴾: حال من: ﴿أنعاماً وأناسيّ﴾ أي: أنعاماً وأناسيّ ممّا خلقنا. وسقى وأسقى لغتان. وقرأ المفضّل والبرجميّ: ﴿ونَسقيه﴾. والأناسيّ: جمع إنسيّ على القياس، ككرسيّ وكراسيّ، أو: إنسان، وأصله: أناسين، كسرحان وسراحين، فأبدلت النون ياء، وأدغمت. وقدّم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسيّ؛ لأنّ حياتها سبب لحياتهما، فَقُدِّم ما هو سبب حياتهما على سقيهما. وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأنّ عامّة منافع الأناسيّ متعلّقة بها، فكأنّ الإنعام بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم. وتنكير الأنعام والأناسيّ ووصفها بالكثرة؛ لأنّ أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار، فيهم غنية عن سقي السماء. وأعقابهم ـ وهم كثير ـ يعيشون بماءٍ ينزله الله من رحمته. وتنكير البلدة لأنّه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظانّ الماء. ولمّا كان سقي الأناسيّ من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراماً لهم، وبياناً: أنّ من حقّهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم؛ لأنّ الطهوريّة شرط للإحياء.

٥٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: ﴿لِيَذْكُروا﴾ حمزة، وعليّ. يريد: ولقد صرّفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل، وهو ذكر إنشاء السحاب، وإنزال القطر، ليتفكّروا، ويعتبروا، ويعرفوا حق النعمة

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ۝٥٠ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾

فيه ويشكروا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ فأبى أكثرهم إلاّ كفران النعمة، وجحودها، وقلّة الاكتراث لها. أو: صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، والأوقات المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل، وطلّ، وجَوْد، ورذاذ، وديمة، فأبوا إلاّ الكفران، وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله يُصَرِّفُه حيث يشاء. وقرأ الآية. ورُوي: أنّ الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كلّ عام؛ لأنّه لا يختلف، ولكن يختلف فيه البلاد. وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة، والأنعام، والأناسيّ. ومن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله تعالى: كفَر، وإن رأى أنّ الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات، ودلالات عليها: لم يكفر.

٥١، ٥٢ ـ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۞ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لو شئنا لخفّفنا عنك أعباء نِذارة جميع القرى، ولبعثنا في كلّ قرية نبيّاً ينذرها، ولكن شئنا أن نجمع لك فضائلَ جميع المرسلين بالرسالة إلى كافّة العالمين، فقصرنا الأمر عليك، وعظّمناك به، فتكون وحدك ككلّهم ـ ولذا خوطب بالجمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] فقابل ذلك بالشكر، والتشدّد، والتصبُّر، ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم، ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء. وأريد بهذا تهييجه، وتهييج المؤمنين، وتحريكهم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالله، يعني: بعونه وتوفيقه ـ أو: بالقرآن، أي: جادلهم به، وقرّعهم بالعجز عنه ـ ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاقّ. ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿به﴾ إلى مادلّ عليه ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥١] من كونه نذير كافّة القرى؛ لأنّه لو بعث في كلّ قرية نذيراً لوجب على كلّ نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات، فكبر جهاده من أجل ذلك، وعظم. فقال له: ﴿وجاهدهم﴾ بسبب كونك نذير كافّة القرى ﴿جهاداً كبيراً﴾ جامعاً لكلّ مجاهدة.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ خلّاهما متجاورين، متلاصقين. تقول: مرجت الدابة: إذا خلّيتها ترعى، وسمّى الماءين الكثيرين الواسعين: بحرين ﴿هَٰذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ صفة لـ: ﴿عذب﴾، أي: شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ صفة لـ: ﴿ملح﴾، أي: شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حائلاً من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، فهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

٥٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: النطفة ﴿بَشَرًا﴾ إنساناً ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أراد تقسيم البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهنّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩] ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين: ذكراً وأنثى. وقيل: ﴿فجعله نسباً﴾ أي: قرابة ﴿وصهراً﴾ مصاهرة، يعني: الوُصْلَة بالنكاح. منَّ بالأنساب؛ لأنّ التواصلَ يقعُ بها، وبالمصاهرة؛ لأن التوالد يكون بهما.

٥٥ ـ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على معصية ربّه ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً ومظاهراً. وفعيل بمعنى مفاعل، غير عزيز. والظهير والمظاهر، كالعوين والمعاون. والمظاهرة: المعاونة. والمعنى: أنّ الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الرحمن.

٥٦ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذراً للكافرين.

٥٧ ـ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعلٍ مثاله ﴿إِلَّا مَن شَآءَ

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه من الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت، إلاّ أن تحفظ هذا المال، ولا تضيعه. فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوّره بصورة الثواب كأنّه يقول: إنَّ حفظك مالك بمنزلة الثواب لي، ورضائي به كرضا المثاب بالثواب. ولعمري إنّه عليه الصلاة والسلام مع أمّته بهذا الصدد. ومعنى اتّخاذهم إلى الله سبيلاً: تقرّبهم إليه بالإيمان، والطاعة، أو: بالصدقة، والنفقة. وقيل: المراد لكن ﴿من شاء أن يتّخذ﴾ بالإنفاق ﴿إلى﴾ رضا ﴿ربّه سبيلاً﴾ فليفعل. وقيل: تقديره: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلاّ اتّخاذ المدعوّ سبيلاً إلى ربّه بطاعته، فذلك أجري؛ لأنّ الله يأجرني عليه.

٥٨ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ اتخذ من لا يموت وكيلاً، لا يكلك إلى من يموت ذليلاً، يعني: ثق به، وأسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم، ولا تتكّل على حيّ يموت. وقرأها بعض الصالحين فقال: لا يصحّ لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق. والتوكّل: الاعتماد عليه في كلّ أمر ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزّهه عن أن يكل إلى غيره مَن توكلّ عليه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بتوفيقه الذي يوجب الحمد، أو: قل: سبحان الله وبحمده. أو: نزّهه عن كلّ العيوب بثناءٍ تثني عليه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، يعني: أنّه خبير بأحوالهم، كاف في جزاء أعمالهم.

٥٩ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدّة مقدارها هذه المدّة؛ لأنّه لم يكن حينئذ ليل ونهار. وعن مجاهد: أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة. وإنّما خلقها في ستّة أيّام، وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة، تعليماً لخلقه الرفق، والتثبيت ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: هو ﴿الرحمن﴾. فالرحمن: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدل من الضمير في ﴿استوى﴾،

فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ۝٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا

أو: ﴿الذي خلق﴾: مبتدأ، و﴿الرحمن﴾: خبره ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾ وبلا همزة: مكيّ، وعليّ ﴿بِهِۦ﴾ صلة ﴿سل﴾، كقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] كما تكون «عن» صلته في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فسأل به، كقولك: اهتم به، واشتغل به، وسأل عنه، كقولك: بحث عنه، وفتّش عنه. أو: صلة ﴿خَبِيرٗا﴾ ويكون ﴿خبيراً﴾ مفعول ﴿سل﴾، أي: ﴿فاسأل﴾ عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته، أو: ﴿فاسأل﴾ رجلاً ﴿خبيراً﴾ به، وبرحمته. أو: الرحمن: اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه، فقيل: فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتّى تعرف من ينكره. ومن ثم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلاّ الذي باليمامة، يعنون: مسيلمة، وكان يقال له: رحمان اليمامة.

٦٠ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ صلّوا لله، واخضعوا له ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرف الرحمن فنسجد له. فهذا سؤال عن المسمّى به؛ لأنّهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بـ: «ما»، أو: عن معناه؛ لأنّه لم يكن مستعملاً في كلامهم، كما استعمل الرحيم، والراحم، والرحوم ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ للذي تأمرنا بالسجود له، أو: لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منّا به. ﴿يأمرنا﴾: عليّ وحمزة، كأنّ بعضهم قال لبعض: ﴿أنسجد لما يأمرنا﴾ محمد، أو: ﴿يأمرنا﴾ المسمّى بالرحمن، ولا نعرف ما هو؟ وقد عاندوا؛ لأنّ معناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة؛ لأنّ فعلان من أبنية المبالغة، تقول: رجل عطشان؛ إذا كان في نهاية العطش ﴿وَزَادَهُمۡ﴾ قوله: ﴿اسجدوا للرحمن﴾ ﴿نُفُورٗا۩﴾ تباعداً عن الإيمان.

٦١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ هي منازل الكواكب السبعة السيارة، لكلّ كوكب بيتان يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع، فيصيب كلّ واحد منها ثلاثة بروج: فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سمّيت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنّها لهذه الكواكب كالمنازل لسكّانها. واشتقاق البروج من التبرّج؛ لظهوره. وعنه قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: هي النجوم الكبار لظهورها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في السماء ﴿سِرَاجًا﴾ يعني: الشمس لتوقّدها. ﴿سُرُجاً﴾: حمزة، وعليّ، أي: نجوماً ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل.

٦٢ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فعلة، من: خلف، كالرِّكبة من: ركب. وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما ذَوَيْ خلفة، يخلف أحدهما الآخر عند مضيه، أو: يخلفه في قضاء ما، فإنّه من الورد ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يتدبّر في تسخيرهما، واختلافهما، فيعرف مدبّرهما. ﴿يذكُر﴾: حمزة، وخلف، أي: يذكر الله. أو: المنسيّ فيقضي ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: يشكر نعمة ربّه عليه فيهما.

٦٣ ـ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾. أو: ﴿أولئك يجزون﴾ و﴿الذين يمشون﴾ وما بعدهما: صفة. والإضافة إلى ﴿الرحمن﴾ للتخصيص والتفضيل. وصف أولياءه بعد ما وصف أعداءه ﴿عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ حال، أو: صفة للمشي، أي: هيّنين، أو: مشياً هيّناً. والهون: الرفق، واللين، أي: يمشون بسكينة، ووقار، وتواضع، دون مرح، واختيال، وتكبّر، فلا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشَراً وبَطراً؛ ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سداداً من القول

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾

يسلمون فيه من الإيذاء، والإثم، أو: تسلّماً منكم نتارككم، ولا نجاهلكم، فأقيم السلام مقام التسليم. وقيل: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك، فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة. هذا وصف نهارهم. ثمّ وصف ليلهم بقوله:

٦٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد ﴿وَقِيَٰمًا﴾ جمع قائم. فالبيتوتة خلاف الظلول، وهي: أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة، وإن قلّ، فقد بات ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء. والظاهر: أنّه وصف لهم بإحياء الليل، أو: أكثره.

٦٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ هلاكاً لازماً. ومنه: الغريم؛ لملازمته. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثمّ عقّبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنّهم مع اجتهادهم خائفون، مبتهلون، متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم.

٦٦ ـ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: إنّ جهنّم. و﴿ساءت﴾ في حكم بئست، وفيها ضمير مبهم يفسّره ﴿مستقراً﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، معناه: ﴿ساءت مستقراً ومقاماً﴾ هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إنّ» وجعلها خبراً لها. أو: بمعنى: أحزنت، وفيها ضمير اسم «إنّ» و ﴿مستقراً﴾ حال، أو: تمييز. ويصح أن يكون التعليلان متداخلين، ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله تعالى، وحكاية لقولهم.

٦٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ لم يجاوزوا الحدّ في النفقة، أو: لم يأكلوا للتنعم، ولم يلبسوا للتصلّف. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم ينفقوا في المعاصي. فالإسراف مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدْر. وسمع رجلٌ رجلاً

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ﴾

يقول: لا خيرَ في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير. وقال ﷺ: «من منع حقاً فقد قتّر، ومن أعطى في غير حقّ فقد أسرف» ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بضم التاء: كوفيّ. وبضم الياء وكسر التاء: مدنيّ، وشاميّ. وبفتح الياء وكسر التاء: مكيّ، وبصريّ. والقَتَر، والإقتار، والتقتير: التضييق؛ الذي هو نقيض الإسراف ﴿وَكَانَ﴾ أي: إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإسراف، والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشيئين، والمنصوبان أي: ﴿بين ذلك قواماً﴾ خبران. وصفهم بالقصد؛ الذي هو بين الغلوّ والتقصير. وبمثله أُمِر عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] الآية. وسأل عبدُ الملك بن مروان عمرَ بن عبد العزيز عن نفقته حين زوّجه ابنته. فقال: الحسنة بين السَّيِّئتين، فعرف عبد الملك أنّه أراد ما في هذه الآية. وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة، ولكن لسدّ الجَوْعة، وستر العورة، ودفع الحَرِّ والقُرِّ. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كفى سرفاً ألاّ يشتهي رجلٌ شيئاً إلا أكله.

٦٨ ـ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا يشركون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرّمها، يعني: حرّم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بقودَ، أو: رجم، أو: ردّة، أو: شرك، أو: سعي في الأرض بالفساد. وهو متعلق بالقتل المحذوف، أو: بـ: لا يقتلون ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين، تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، كأنّه قيل: والذين طهّرهم الله مما أنتم عليه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم.

٦٩ ـ ﴿يُضَاعَفْ﴾ بدل من ﴿يلق﴾ لأنّهما في معنى واحد؛ إذ مضاعفة العذاب هي لُقِيُّ الآثام، كقوله:

لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ

متى تَـأتِنا تُلْمِـمْ بنـا في دِيـارنـا تجِـدْ حَطَبـاً جـزْلاً ونـاراً تـأجَّجـا[1]

فجزم «تلمم» لأنّه بمعنى تأتنا؛ إذ الإتيان هو الإلمام ﴿يُضَعَّفْ﴾: مكيّ، ويزيد، ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ﴾: شاميّ ﴿يُضاعَفُ﴾: أبو بكر على الاستئناف، أو: على الحال. ومعنى: يضاعف ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يعذب على مرور الأيّام في الآخرة عذاباً على عذاب. وقيل: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك، عذّب على الشرك، وعلى المعاصي جميعاً، تضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ﴿وَيَخْلُدْ﴾ جزمه جازم ﴿يضاعف﴾ ورفعه رافعه؛ لأنّه معطوف عليه ﴿فِيهِۦ﴾ في العذاب (فيهي) : مكيّ، وحفص بالإشباع. وإنّما خصّ حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد، والعرب تمدّ للمبالغة، مع أنّ الأصل في هاء الكناية: الإشباع ﴿مُهَانًا﴾ حال، أي: ذليلاً.

٧٠ ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك. وهو استثناء من الجنس في موضع النصب ﴿وَءَامَنَ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أي: يوفّقهم للمحاسن بعد القبائح، أو: يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان والطاعة، ولم يرد به: أن السيّئة بعينها تصير حسنة، ولكن المراد ما ذكرنا. ﴿يُبْدِلُ﴾ مخفّفاً: البرجميّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يكفّر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يبدّلها بالحسنات.

٧١ ـ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: ﴿ومن تاب﴾ وحقّق التوبة بالعمل الصالح فإنّه بذلك تائبٌ ﴿إلى الله متاباً﴾ مرضياً عنده، مكفّراً للخطايا، محصّلاً للثواب.

٧٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: الكذب، يعني: ينفرون عن محاضر الكذابين، ومجالس الخطّائين، فلا يقربونها تنزّهاً عن مخالطة الشر وأهله؛

(١) «الجزل»: الكثير العظيم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾

إذ مشاهدة الباطل شركة فيه. وكذلك النظّارة إلى ما لم تسوّغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا، وسبب وجود الزيادة فيه. وفي مواعظ عيسى ـ عليه السلام ـ: إيّاكم ومجالسة الخاطئين. أو: ﴿لا يشهدون﴾ شهادة ﴿الزور﴾ على حذف المضاف. وعن قتادة: المراد: مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية: لا يشهدون اللهو، والغناء ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بالفحش، وكلّ ما ينبغي أن يلغى، ويطرح. والمعنى: ﴿وإذا مرّوا بـ﴾ أهل ﴿اللغو﴾ والمشتغلين به ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين، مكرمين أنفسهم عن التلوّث به، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وعن الباقر ـ رحمه الله ـ: إذا ذكروا الفروج كنّوا عنها.

٧٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قرىء عليهم القرآن، أو: وُعِظوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا ليس بنفي للخرور، بل هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، ونحوه: لا يلقاني زيد مُسَلِّماً، هو نفي للسلام لا للقاء، يعني: أنّهم إذا ذكّروا بها ﴿خرّوا سجّداً وبكياً﴾ سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية لما أمروا به ونهوا عنه، لا كالمنافقين وأشباههم. دليلهُ قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

٧٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ﴿مِنْ﴾: للبيان، كأنّه قيل: ﴿هب لنا﴾ قرّة أعين. ثم بينت القرّة، وفسّرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد. أو: للابتداء، على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة، وصلاح. ﴿وذرّيّتنا﴾ أبو عمرو، وكوفيّ غير حفص، لإرادة الجنس، وغيرهم: ﴿ذرّيّاتنا﴾ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ إنّما نكّر لأجل تنكير القرّة؛ لأنّ المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنّه قال: هب لنا منهم

وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ

سروراً، وفرحاً. وإنّما قيل: ﴿أعين﴾ على القلّة دون «عيون»، لأنّ المراد: أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ويجوز أن يقال في تنكير ﴿أعين﴾: إنها أعين خاصّة، وهي: أعين المتّقين. والمعنى: أنهم سألوا ربّهم أن يرزقهم أزواجاً، وأعقاباً عمّالاً لله تعالى، يسرّون بمكانهم، وتقرّ بهم عيونهم. وقيل: ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى. وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أئمة يقتدون بنا في الدين، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس. أو: واجعل كلّ واحد منّا إماماً. قيل: في الآية ما يدلّ على أنّ الرئاسة في الدين يجب أن تُطلب، ويرغب فيها.

٧٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي: الغرفات، وهي: العلالي في الجنّة، فوحّد اقتصاراً على الواحد الدالّ على الجنس، دليلُهُ: قوله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفّار، ومجاهدتهم، وعلى الفقر، وغير ذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ ﴿ويَلْقَون﴾: كوفيّ، غير حفص ﴿تَحِيَّةً﴾ دعاء بالتعمير ﴿وَسَلَٰمًا﴾ ودعاء بالسلامة، يعني: أنّ الملائكة يحيّونهم، ويسلّمون عليهم، أو: يحيي بعضهم بعضاً، ويسلّم عليه.

٧٦ ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿حَسُنَتْ﴾ أي: الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع قرار، وإقامة. وهي في مقابلة ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

٧٧ ـ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ مُتضمِّنة لمعنى الاستفهام، وهي في محلّ النصب. ومعناه: ما يصنع بكم ربّي لولا دعاؤه إيّاكم إلى الإسلام، أو: لولا عبادتكم له، أي: أنّه خلقكم لعبادته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: الاعتبار عند ربّكم لعبادتكم، أو: ما يصنع

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، وهو كقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ رسولي يا أهل مكّة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ أي: ذا لزام، أو: ملازماً. وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل. وقال الضحّاك: ﴿ما يعبأ﴾: ما يبالي بمغفرتكم ﴿لولا دعاؤكم﴾ معه إلهاً آخر.

* * *

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ترتيبها ٢٦ — آياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

١ ـ ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿طس﴾ و﴿يس﴾ و﴿حم﴾ مُمَالٌ: كوفيّ غير الأعشى، والبرجميّ، وحفص. ويُظهِر النون عند الميم: يزيد، وحمزة. وغيرهما: يدغمها.

٢ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحّة أنه من عند الله، والمراد: به: السورة، أو: القرآن. والمعنى: آيات هذا المؤلّف من الحروف المبسوطة ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾.

٣ ـ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ قاتلٌ، و«لعلّ» للإشفاق ﴿نَّفْسَكَ﴾ من الحزن، يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو: لامتناع إيمانهم، أو: خيفة ألاّ يؤمنوا.

٤ ـ ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم. ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دلالة واضحة ﴿فَظَلَّتْ﴾ أي: فتظلّ؛ لأنّ الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل، تقول: إن زرتني أكرمتك، أي: أكرمك، كذا قاله الزجاج ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ رؤساؤهم، ومقدّموهم، أو: جماعاتهم. يقال: جاء عنق من الناس، لفوج منهم ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت فينا وفي بني أميّة، فستكون لنا عليهم الدولة، فتذلّ لنا أعناقهم بعد صعوبة، ويلحقهم هوان بعد عزّتهم.

٥ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: وما يجدّد لهم الله

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

بوحيه موعظة وتذكيراً، إلاّ جدّدوا إعراضاً عنه، وكفراً به.

٦ ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ محمّداً ﷺ فيما أتاهم به ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فسيعلمون ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وهذا وعيدٌ لهم، وإنذار بأنّهم سيعلمون إذا مسّهم عذاب الله يوم بدر، ويوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله؛ التي كانت خافية عليهم.

٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا﴾ ﴿كم﴾: نصب بأنبتنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود، كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام، كالرجل الكريم الذي نفعه عامّ. وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة: أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و«كم» تدلّ على أنّ هذا المحيط متكاثر، مفرط الكثرة. وبه نبّه على كمال قدرته.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إنّ في إنبات تلك الأصناف لآية على أنّ منبتها قادر على أحياء الموتى، وقد علم الله أنّ أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مَرْجُوِ إيمانهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن آمن منهم. ووحّد آية مع الإخبار بكثرتها؛ لأنّ ذلك مُشار به إلى مصدر أنبتنا، أو: المراد إنّ في كلّ واحد من تلك الأزواج لآية أيّ آية.

١٠، ١١ ـ ﴿وَإِذْ﴾ مفعول به، أي: اذكر إذ ﴿نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ﴾ «أن» بمعنى: أي ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، وبني إسرائيل بالاستعباد، وذبح الأولاد. سجّل عليهم بالظلم، ثم عطف ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عليهم عطف البيان، كأنّ معنى ﴿القوم الظالمين﴾ وترجمته: ﴿قوم فرعون﴾ وكأنّهما عبارتان تعتقبان على مؤدّىً واحد ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ائتهم زاجراً، فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حثّ وإغراء، ويحتمل أنّه حال من الضمير في ﴿الظالمين﴾ أي: يظلمون غير متقين الله، وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

١٢، ١٣ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الخوف: غمّ يلحق الإنسان لأمر سيقع ﴿أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ بتكذيبهم إيّاي. مستأنف، أو: عطف على ﴿أخاف﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تغلبني الحميّة على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال. وبنصبهما يعقوب عطفاً على ﴿يكذّبون﴾. فالخوف متعلّق بهذه الثلاثة على هذا التقدير، وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: أرسل إليه جبريل، واجعله نبيّاً يعينني على الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبيّاً بالشام، ولم يكن هذا الالتماس من موسى ـ عليه السلام ـ توقّفاً في الامتثال بل التماس عون في تبليغ الرسالة. وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر وكفى بطلب العون دليلاً على التقبّل، لا على التعلّل.

١٤ ـ ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ أي: تبعة ذنب بقتل القبطيّ، فحذف المضاف، أو: سمّى تبعة الذنب ذنباً كما يُسَمَّى جزاء السيّئة سيّئة ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أن يقتلوني به قصاصاً. وليس هذا تعلّلاً أيضاً بل استدفاع للبليّة المتوقعة، وفَرَقٌ من أن يقتل قبل أداء الرسالة؛ ولذا وعده بالكلاءة، والدفع بكلمة الردع. وجمع له الاستجابتين معاً في قوله:

١٥ ـ ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا﴾ لأنّه استدفعه بلاءهم، فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف. والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: ﴿اذهبا﴾ أي: جعلته رسولاً معك ﴿فاذهبا﴾. وعُطِف ﴿فاذهبا﴾ على الفعل الذي يدلّ عليه ﴿كلاّ﴾، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ، فاذهب أنت وهارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع آياتنا، وهي: اليد، والعصا، وغير ذلك ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أي: معكما بالعون والنصرة، ومع من أرسلتما إليه بالعلم، والقدرة ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ خبر لـ: «إنَّ» و﴿معكم﴾ لغو. أو: هما خبران، أي: سامعون. فالاستماع في غير هذا: الإصغاء للسماع. يقال: استمع إلى حديثه، أي: أصغى إليه. ولا يجوز حمله ـ هاهنا ـ على ذلك، فحمل على السماع.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٦ ـ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يُثَنَّ الرسول كما ثُني في قوله: ﴿إنّا رسولا ربك﴾ لأنّ الرسولَ يكون بمعنى المُرسَل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثمَّ بمعنى المُرسَل، فلم يكن بدّ من تثنيته. وجعل هنا بمعنى: الرسالة، فيستوي في الوصف به الواحد، والتثنية، والجمع، أو لأنهما لاتّحادهما، واتّفاقهما على شريعة واحدة، كأنّهما رسول واحد، أو: أريد إنّ كلّ واحد منّا.

١٧ ـ ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أرسل، لتضمن الرسول معنى الإرسال، وفيه: معنى القول ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد: خلّهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما، فأتيا بابه، فلم يؤذن لهما سنة، حتّى قال البواب: إن هاهنا إنساناً يزعم أنّه رسول ربّ العالمين، فقال: ائذن له لعلّنا نضحك منه. فأدّيا إليه الرسالة، فعرف فرعون موسى، فعند ذلك:

١٨ ـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾. وإنما حذف: فأتيا فرعون فقالا له ذلك اختصاراً. والوليد: الصبيّ؛ لقرب عهده من الولادة، أي: ألم تكن صغيراً فربّيناك؟! ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: ثلاثين سنة.

١٩ ـ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطيّ. فعرّض إذ كان ملكاً ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي، حيث قتلت خبّازي، أو: كنت على ديننا الذي تسمّيه كفراً. وهذا افتراء منه عليه؛ لأنّه معصوم من الكفر، وكان يعايشهم بالتقيّة.

٢٠ ـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أي: إذ ذاك ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين بأنّها تبلغ القتل. والضالّ عن الشيء: هو الذاهب عن معرفته، أو: الناسين، من قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فدفع وصف الكفر عن نفسه، ووضع الضالّين موضع الكافرين. ﴿وإذاً﴾ جواب وجزاء معاً. وهذا الكلام وقع جواباً لفرعون، وجزاء له؛ لأنّ قول فرعون: ﴿وفعلت فعلتك﴾ معناه: أنّك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فعلتها﴾ مجازياً لك، تسليماً لقوله؛ لأنّ نعمته كانت جديرة بأن تجازى نحو ذلك الجزاء.

٢١ ـ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني. وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠] الآية ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوّة، وعلماً، وزال عنّي الجهل، والضلالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من جملة رسله.

٢٢ ـ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كرر خبر امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله، وأبى أن تسمّى نعمته إلا نقمة حيث بيّن أنّ حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده، وتربيته. ولو تركهم لربّاه أبواه، فكأنّ فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه، وإخراجه من حجر أبويه إذا حقّقت. وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. ووحّد الضمير في ﴿تمنها﴾ و﴿عبّدت﴾ وجمع في ﴿منكم﴾ و﴿خفتكم﴾ لأنّ الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. وأمّا الامتنان فمنه وحده، وكذا التعبيد. ﴿وتلك﴾ إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدري ما هي إلاّ بتفسيرها. ومحلّ ﴿أن عبّدت﴾: الرفع عطف بيان لـ: ﴿تلك﴾، أي: تعبيدك بني إسرائيل ﴿نعمة تمنها عليّ﴾.

٢٣ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنّك تدّعي أنّك رسول ربّ العالمين، فما صفته؟ لأنّك إذا أردت السؤال عن صفة زيد، تقول: ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟. نصّ عليه صاحب «الكشاف» وغيره.

٢٤ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له على وفق سؤاله ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون الأشياء

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

بالدليل، فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً، أو: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح، نفعكم هذا الجواب، وإلاّ لم ينفع. والإيقان: العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال: الله موقن.

٢٥ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه ـ وهم خمسمئة رجل، عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصّة ـ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟! معجِّباً قومه من جوابه؛ لأنّهم يزعمون قدمهما، وينكرون أنّ لهما رباً. فاحتاج موسى إلى أن يستدلّ بما شاهدوا حدوثه وفناءه، فاستدلّ حيث:

٢٦ ـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو خالقكم، وخالق آبائكم، فإن لم تستدلّوا بغيركم فبأنفسكم. وإنّما قال: ﴿وربّ آبائكم﴾ لأنّ فرعون كان يدّعي الربوبيّة على أهل عصره، دون مَن تقدّمهم.

٢٧ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث يزعم أنّ في الوجود إلهاً غيري، وكان فرعون ينكر إلهيّة غيره.

٢٨ ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتستدلّون بما أقول فتعرفون ربّكم، وهذا غاية الإرشاد؛ حيث عمّم أوّلاً بخلق ﴿السموات والأرض﴾ وما بينهما، ثمّ خصّص من العامّ للبيان أنفسهم وآباءهم، لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته. ثمّ خصّص المشرق والمغرب؛ لأنّ طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر، على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما استدلّ به، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان. وقيل: سأله الفرعون عن المائية جاهلاً عن حقيقة سؤاله، فلمّا أجاب موسى بحقيقة الجواب، وقع عنده أنّ موسى حاد عن الجواب، حيث سأله عن المائية، وهو يجيبُ عن ربوبيّته،

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وآثار صنعه، فقال معجّباً لهم من جواب موسى: ﴿ألا تستمعون﴾؟ فعاد موسى إلى مثل قوله الأوّل، فجنّنه فرعون زاعماً أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأوّل، مبيّناً أنّ الفرد الحقيقي، إنّما يعرف بالصفات، وأنّ السؤال عن المائية محال. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعقلون﴾، أي: إن كان لكم عقل علمتم أنّه لا تمكن معرفته إلاّ بهذا الطريق. فلمّا تحيّر فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه:

٢٩ ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ أي: غيري إلهاً ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي: ﴿لأجعلنك﴾ واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه، فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق، فرداً، لا يبصر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قيل: لأسجننك، لم يؤدّ هذا المعنى، وإن كان أخصر.

٣٠ ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: ﴿أ﴾ تفعل بي ذلك ولو جئتك ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جائياً بالمعجزة.

٣١ ـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ بالذي يبيّن صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنّ لك بيّنة. وجواب الشرط مقدّر، أي: فأحضره.

٣٢ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانيّة لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة، والسحر. ورُوي: أنها ارتفعت في السماء قدر ميل، ثمّ انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى! مرني بما شئت، ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلاّ أخذتها. فأخذها فعادت عصا.

٣٣ ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ بياضها كان شيئاً يجتمعُ النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة. وكان بياضُها نوريّاً. رُوي: أنّ

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾

فرعونَ لمّا أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال لفرعون: ما هذه؟ قال فرعون: يدك. فأدخلها في إبطه، ثمّ نزعها، ولها شعاعٌ يكاد يغشي الأبصار، ويسدّ الأفق.

٣٤ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، والعامل فيه: ما يقدّر في الظرف، ونصب المحلّ، وهو: النصب على الحال من الملأ، أي: كائنين حوله. والعامل فيه ﴿قال﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر. ثمّ أغرى قومه على موسى بقوله:

٣٥ ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا﴾ منصوب؛ لأنه مفعول به، من قولك: أمرتك الخير ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أمره من حبس، أو: قتل. من: المؤامرة، وهي: المشاورة. أو: من الأمر الذي هو ضدّ النهي. لمّا تحير فرعون برؤية الآيتين، وزلّ عنه ذكر دعوى الإلهيّة، وحطّ عن منكبيه كبرياء الربوبيّة، وارتعدت فرائصه خوفاً، طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده، وهو إلٰههم، أو: جعلهم آمرين ونفسه مأموراً.

٣٦ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخّر أمرهما، ولا تباعث قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شُرَطاً يحشرون السحرة، وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ بقولهم:

٣٧ ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاؤوا بكلمة الإحاطة، وصيغة المبالغة؛ ليسكّنوا بعض قلقه.

٣٨ ـ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: يوم الزينة. وميقاته: وقت الضحى؛ لأنّه الوقت الذي وقّته لهم موسى ـ عليه السلام ـ من يوم الزينة في قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] والميقات: ما وقّت به، أي: حدّد من زمان، أو: مكان، ومنه: مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

٣٩ ـ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا. وهو استبطاء لهم في الاجتماع. والمراد منه: استعجالهم.

٤٠ ـ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: غلبوا موسى في دينه. وليس غرضهم اتّباع السحرة، وإنّما الغرض الكلّيّ ألاّ يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنّهم إذا اتّبعوهم لم يكونوا متّبعين لموسى.

٤١ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

٤٢ ـ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وبكسر العين: عليّ. وهما لغتان ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ﴿قال﴾ فرعون: ﴿نعم﴾ لكم أجر عندي، وتكونون مع ذلك من المقرّبين عندي في المرتبة والجاه، فتكونون أوّل من يدخل عليّ، وآخر من يخرج. ولمّا كان قوله: ﴿أئنّ لنا لأجراً﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وإنّكم إذاً لمن المقرّبين﴾ معطوفاً عليه، دخلت ﴿إذاً﴾ قارّة في مكانها؛ الذي يقتضيه من الجواب، والجزاء.

٤٣ ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته.

٤٤ ـ ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ﴾ سبعين ألف حبل ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ سبعين ألف عصاً. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً، وكذا العِصيّ ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أقسموا بعزّته وقوّته، وهو من أيمان الجاهليّة.

٤٥ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزوّرونه، فيُخيِّلون في حبالهم، وعصيّهم أنّها حيّات تسعى.

٤٦ ـ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ عُبِّرَ عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنّه

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ

ذكر مع الإلقاءات، ولأنّهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنّهم ألقوا.

٤٧ ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

٤٨ ـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف بيان لربّ العالمين؛ لأنّ فرعون كان يدعي الربوبيّة، فأرادوا أن يعزلوه. وقيل: إنّ فرعون لمّا سمع منهم ﴿آمنا بربّ العالمين﴾ قال: إيّاي عنيتم؟ قالوا: ﴿ربّ موسى وهارون﴾.

٤٩ ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وقد تواطأتم على أمر، ومكر ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم. ثم صرّح فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من أجل خلاف ظهر منكم ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنّه أراد به ترهيب العامّة؛ لئلاّ يتبعوهم في الإيمان.

٥٠ ـ ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر ـ وخبر ﴿لا﴾: محذوف، أي: في ذلك، أو: علينا ـ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

٥١ ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الشهداء، أو: من رعيّة فرعون. أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ـ أو: ﴿لا ضير﴾ علينا فيما تتوعدنّا به ـ إنّه لابدّ لنا من الانقلاب ﴿إلى ربنا﴾ بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو: لا ضير علينا في قتلك، إنّك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربّنا انقلاب من يطمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان.

٥٢ ـ ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ﴾ وبوصل الهمزة: حجازيّ ﴿بِعِبَادِىٓ﴾ بني إسرائيل. سمّاهم عباده لإيمانهم بنبيّه، أي: سرْ بهم ليلاً ـ وهذا بعد سنين من

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾

إيمان السحرة ـ. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه. علّل الأمر بالإسراء باتّباع فرعون وجنوده آثارهم، يعني: إنّي بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا، ويتّبعوكم، حتّى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر، فأهلكهم. ورُوي أنّه مات في تلك الليلة في كلّ بيت من بيوتهم ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتّى خرج موسى بقومه. ورُوي: أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كلّ أربعة أبيات في بيت، ثمّ اذبح الجداء، واضربوا بدمائها على أبوابكم فإنّي سآمر الملائكة ألاّ يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزاً فطيراً[١]، فإنّه أسرع لكم، ثمّ ﴿أسر بعبادي﴾ حتّى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري.

٥٣ ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للناس بعنف. فلمّا اجتمعوا قال:

٥٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة: الطائفة القليلة. ذكرهم بالاسم الدالّ على القلّة، ثمّ جعلهم قليلاً بالوصف، ثمّ جمع القليل، فجعل كلّ حزب منهم قليلاً، واختار جمع السلامة الذي هو للقلّة. أو: أراد بالقلّة: الذلّة، لا قلّة العدد، أي: أنهم لقلّتهم لا يُبالي بهم، ولا تتوقّع غلبتهم. وإنّما استقلّ قوم موسى ـ وكانوا ستمئة ألف وسبعين ألفاً ـ لكثرة مَن معه. فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف.

٥٥ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا، وتضيّق صدورنا، وهو خروجهم من مصرنا، وحملهم حلينا، وقتلهم أبكارنا.

٥٦ ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ شاميّ، وكوفيّ. وغيرهم: ﴿حذرون﴾. فالحذر: المتيقّظ، والحاذر: الذي يجدّد حذره. وقيل: المؤدّي في السلاح. وإنّما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه، يعني: ونحن قوم من عادتنا التيقّظ، والحذر،

---

(١) «الفطير»: خلاف الخمير، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا
لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾

واستعمال الحزم في الأمور. فإذا خرج علينا خارجٌ سارعنا إلى حَسْم فساده. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظنّ به العجز، والفتور.

٥٧ ـ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية.

٥٨ ـ ﴿وَكُنُوزٍ﴾ وأموال ظاهرة من الذهب والفضّة، وسمّاها: كنوزاً؛ لأنّهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى ﴿وَمَقَامٍ﴾ ومنزل ﴿كَرِيمٍ﴾ بهيّ بهيج. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المنابر.

٥٩ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، والرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عن الحسن: لمّا عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم، وأموالهم.

٦٠ ـ ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فلحقوهم ـ ﴿فاتَّبِعُوهم﴾: يزيد ـ ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حال، أي: داخلين في وقت شروق الشمس، وهو: طلوعها. أي: أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس.

٦١ ـ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كلّ فريق صاحبه. والمراد: بنو إسرائيل، والقبط ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدوّنا، وأمامنا البحر.

٦٢ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ثقة بوعد الله إياه ﴿كَلَّآ﴾ ارتدعوا عن سوء الظنّ بالله، فلن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ حفص ﴿رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيهديني طريق النجاة من إدراكهم، وإضرارهم. (سيهديني) بالياء: يعقوب.

٦٣ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: القلزم هو الذي يسلك الناس فيه من اليمن إلى مصر، أو: النيل ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضرب ﴿فانفلق﴾ فانشقّ، فصار اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جزء يفرّق منه ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ كالجبل المنطاد في السماء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا

٦٤ ـ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ قوم فرعون، أي: قرّبناهم من بني إسرائيل، أو: من البحر.

٦٥ ـ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ من الغرق.

٦٦ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ فرعون وقومه. وفيه إبطالُ القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنّهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم. رُوي أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأوّلكم، ويستقبل القبط ويقول: رويدكم يَلْحَقْ آخركم. فلمّا انتهى موسى إلى البحر، قال يوشع لموسى: أين أمرت؟ فهذا البحر أمامك، وغشيك آل فرعون. قال موسى: هاهنا فخاض يوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فدخلوا. ورُوي: أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكلّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء.

٦٧ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿لَـَٔايَةً﴾ لعبرة عجيبة لا توصف ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: المغرقين ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قالوا: لم يؤمن منهم إلا آسية، وحزقيل مؤمن آل فرعون، ومريم التي دلّت موسى على قبر يوسف.

٦٨ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بالانتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإنعام على أوليائه.

٦٩ ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي قريش ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خبره.

٧٠ ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ قوم إبراهيم، أو: قوم الأب ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أيّ شيء تعبدون. وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم أنّهم عبدة الأصنام. ولكنّه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس بمستحقّ للعبادة.

٧١ ـ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وجواب ﴿ما تعبدون﴾: ﴿أصناماً﴾ كـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾

فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

[سبأ: ٢٣] لأنّه سؤال عن المعبود لا عن العبادة. وإنما زادوا ﴿نعبد﴾ في الجواب افتخاراً، ومباهاة بعبادتها؛ ولذا عطفوا على نعبد، ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنّما قالوا ﴿فنظلّ﴾ لأنّهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو: معناه: الدوام.

٧٢ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ هل يسمعون دعاءكم، على حذف المضاف؛ فحذف لدلالة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

٧٣ ـ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها.

٧٤ ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ﴾ إضراب، أي: لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ، ولا نعبدها لشيء من ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقلّدناهم.

٧٥، ٧٦ ـ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوّلون.

٧٧ ـ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ العدوّ والصديق يجيئان في معنى: الوحدة، والجماعة، يعني: لو عبدتهم لكانوا أعداء لي يوم القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرّاء: هو من المقلوب، أي: فإنّي عدوّ لهم. وفي قوله: ﴿عدوّ لي﴾ دون «لكم» زيادة نصح؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنّهم عدوّ لكم، لم يكن بتلك المثابة ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنّه لم يدخل تحت الأعداء، كأنّه قال: لكن ربّ العالمين:

٧٨ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ بالتكوين في القرار المكين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمناجح الدنيا، ولمصالح الدين. والاستقبال في ﴿يهديني﴾ مع سبق العناية؛ لأنه يحتمل ﴿يهديني﴾ للأهمّ الأفضل. والأتمّ الأكمل. أو: ﴿الذي خلقني﴾ لأسباب خدمته ﴿فهو يهديني﴾ إلى آداب خلّته.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾

٧٩ ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ أضاف الإطعام إلى وليّ الإنعام؛ لأنّ الركون إلى الأسباب عادة الأنعام ﴿وَيَسْقِينِ﴾ قال ابن عطاء: هو الذي يحييني بطعامه، ويرويني بشرابه.

٨٠ ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وإنّما لم يقل: أمرضني؛ لأنّه قصد الذكر بلسان الشكر، فلم يُضِفْ إليه ما يقتضي الضير. ابن عطاء: ﴿وإذا مرضت﴾ برؤية الخلق، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ بمشاهدة الحقّ. الصادق[1]: ﴿وإذا مرضت﴾ برؤية الأفعال ﴿فهو يشفين﴾ بكشف منّة الإفضال.

٨١ ـ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ولم يقل: إذا متّ لأنّه الخروج من حبس البلاء، ودار الفناء، إلى روض البقاء، لوعد اللقاء. وأدخل ﴿ثمّ﴾ في الإحياء؛ لتراخيه عن الإفناء. وأدخل الفاء في الهداية والشفاء؛ لأنّهما يعقبان الخلق والمرض، لا معاً معاً.

٨٢ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ طمع العبيد في الموالي بالإفضال، لا على الاستحقاق بالسؤال ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ قيل: هو قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧] للبازغ. «هي أختي» لسارّة. وما هي إلاّ معاريض جائزة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربّهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

٨٣ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ حكمة، أو: حكماً بين الناس بالحقّ، أو: نبوة، لأنّ النبيّ ـ عليه السلام ـ ذو حكمة، وذو حكم بين عباد الله ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الأنبياء. ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) هو جعفر بن محمد الصادق، من أجلاء التابعين (ت: ١٤٨هـ) (الأعلام ٢/١٢٦).

وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

٨٤ ـ ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء حسناً، وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي. فأعطي ذلك. فكلّ أهل دين يتولّونه، ويثنون عليه. ووضع اللسان موضع القول؛ لأنّ القول يكون به.

٨٥ ـ ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن﴾ ﴿مِنْ﴾ يتعلّق بمحذوف، أي: وارثاً من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: من الباقين فيها.

٨٦ ـ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام. وكان وعده الإسلام يوم فارقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الكافرين.

٨٧ ـ ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ الإخزاء من الخزي، وهو: الهوان. أو: من الخزاية، وهي: الحياء. وهذا نحو الاستغفار كما بيّنا ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير فيه للعباد؛ لأنّه معلوم. أو: للضالّين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه، أي: ﴿ولا تخزني يوم﴾ يبعث الضالّون، وأبي فيهم.

٨٨ ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ هو بدل من ﴿يوم﴾ الأوّل ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً.

٨٩ ـ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن الكفر، والنفاق. وقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: أنّ المال إذا صرف في وجوه البرّ، وبنوه صالحون، فإنّه ينتفع به وبهم سليم القلب. أو: جعل المال والبنون في معنى الغنى، كأنّه قيل: ﴿يوم لا ينفع﴾ غنىً إلاّ غِنى ﴿من أتى الله بقلب سليم﴾؛ لأنّ غِنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما إنّ غناه في دنياه بماله، وبنيه. فقد جعل ﴿مَن﴾ مفعولاً لـ: ﴿ينفع﴾، أي: ﴿لا ينفع مال ولا بنون﴾ إلاّ رجلاً سلم قلبه مع ماله، حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين، وعلّمهم الشرائع. ويجوز على هذا: ﴿إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ من فتنة المال، والبنين. وقد صوّب الجليل، استثناء الخليل، إكراماً له. ثمّ جعله صفة له في قوله: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤]. وما أحسن ما رتّب ـ عليه السلام ـ كلامه

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

مع المشركين، حيث سألهم أوّلاً عمّا يعبدون، سؤال مقرّر لا مستفهم. ثمّ أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضرّ، ولا تنفع، ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة. ثمّ صوّر المسألة في نفسه دونهم، حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى، فعظّم شأنه، وعدّد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع ما يُرْجىٰ في الآخرة من رحمته. ثمّ أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين، ثمّ وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنّى الكرة إلى الدنيا، ليؤمنوا، ويطيعوا.

٩٠ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قرّبت. عطف جملة، أي: تُزْلَفُ بين موقف السعداء فينظرون إليها.

٩١ ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: أظهرت حتّى يكاد يأخذهم لهبها ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

٩٢، ٩٣ ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ يوبّخون على إشراكهم فيقال لهم: ﴿أين﴾ آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنهّم وآلهتهم وقود النار.

٩٤ ـ ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ أنكسوا، أو: طُرِح بعضهم على بعض ﴿فِيهَا﴾ في الجحيم ﴿هُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ وعبدتهم الذين برّزت لهم الجحيم. والكبكبة: تكرير الكبّ. جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنّه إذ ألقى في جهنّم ينكبّ مرّة بعد مرّة حتّى يستقرّ في قعرها. نعوذ بالله منها.

٩٥ ـ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ شياطينه، أو: متبعوه من عصاة الإنس، والجنّ.

٩٦ ـ ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح

تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

التقاول، والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة، والشياطين.

٩٧، ٩٨ ـ ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدِلكم أيّها الأصنام ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في العبادة.

٩٩ ـ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: رؤساؤهم الذين أضلّوهم، أو: إبليس وجنوده ومَن سنّ الشرك.

١٠٠ ـ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء، والأولياء، والملائكة.

١٠١ ـ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، إذا لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون. وأمّا أهل النار فبينهم التعادي: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] أو: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنّا نعدّهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنّهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاءٌ لهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. والحميم ـ من الاحتمام، وهو: الاهتمام، وهو الذي يهمّه ما يهمّك. أو: من الحامّة؛ بمعنى: الخاصّة، وهو الصديق الخاصّ. وجمع الشافع ووحّد الصديق، لكثرة الشفعاء في العادة. وأما الصديق ـ وهو: الصادق في ودادك، الذي يهمّه ما أهمّك ـ فقليل. وسُئِل حكيم عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. وجاز أن يراد بالصديق الجمع.

١٠٢ ـ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، وهو: لفعلنا كيت وكيت. أو: ﴿لو﴾ في مثل هذا، للتمنّي ـ كأنّه قيل: فليت لنا كرّة ـ لما بين معنيي لو وليت من التلاقي.

١٠٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من الأنباء ﴿لَءَايَةً﴾ أي: لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه: أنّ فريقاً منهم آمنوا.

١٠٤ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم ممن كذّب إبراهيم بنار الجحيم

ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المسلم كلّ ذي قلب سليم إلى جنّة النعيم.

١٠٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ القوم يذكر ويؤنث. قيل: وُلدَ نوح في زمن آدم ـ عليه السلام ـ. ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ ـ والمراد: نوح عليه السلام ـ قولك: فلان يركب الدوابّ، ويلبس البرود، وماله إلاّ دابّة أو برد. أو: كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً؛ فلذا جمع. أو: لأنّ من كذب واحداً منهم، فقد كذّب الكلّ؛ لأنّ كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وكذا جميع ما في هذه السورة.

١٠٦ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً، لا ديناً ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام، فتتركوا عبادة الأصنام.

١٠٧ ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمّد ﷺ في قريش.

١٠٨ ـ ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأدعوكم إليه من الحق.

١٠٩ ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أجراً ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كذلك أريده.

١١٠ ـ ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرّره ليقرّره في نفوسهم مع تعليق كلّ واحد منهما بعلّة، فعلّة الأوّل: كونه أميناً فيما بينهم، وعلّة الثاني: حسم طمعه منهم. كأنّه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي ﴿فاتّقوا الله﴾ ثمّ إذا عرفتم احترازي من الأجر ﴿فاتّقوا الله﴾.

١١١ ـ ﴿ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ﴾ الواو للحال، و«قد» مضمرة بعدها، دليلهُ: قراءة يعقوب: (وأتباعُك) جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو: تَبَع، كبطل وأبطال ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ السَّفِلَة. والرَّذالة: الخسّة، والدناءة. وإنّما استرذلوهم

قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

لاتّضاع نسبهم، وقلّة نصيبهم من الدنيا. وقيل: كانوا من أهل الصِّناعات الدَّنيئة. والصناعة لا تزري بالديانة. فالغِنى غِنى الدِّين، والنَّسب نسب التَّقوى. ولا يجوز أن يُسمَّى المؤمن رَذِلاً، وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسباً. وما زالت أتباع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كذلك.

١١٢ ـ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى﴾ وأيّ شيء علمي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الصِّناعات، إنّما أطلب منهم الإيمان.

١١٣ ـ وقيل: إنّهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم، فقالوا: إنّ الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه، فقال: ما عليّ إلاّ اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أنّ الله تعالى يحاسبهم على ما في قلوبهم.

١١٤ ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم.

١١٥ ـ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما عليّ إلاّ أن أنذركم إنذاراً بيّناً بالبرهان الصحيح؛ الذي يتميّز به الحقّ من الباطل، ثمّ أنتم أعلم بشأنكم.

١١٦ ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المقتولين بالحجارة.

١١٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ ليس هذا بإخبارٍ بالتكذيب؛ لعلمه أنّ عالم الغيب والشهادة أعلم؛ ولكنّه أراد أنّهم كذّبوني في وحيك، ورسالتك.

١١٨ ـ ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاحكم بيني وبينهم حكماً. والفتاحة: الحكومة. والفتّاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق، كما سمّي: فيصلاً؛ لأنه يفصل بين الخصومات ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾ حفص ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذاب عملهم.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾

١١٩ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وجمعه: فَلَكٌ، فالواحد بوزن: قُفْل، والجمع بوزن: أسد ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء. ومنه: شحنة البلد، أي: الذي يملؤه كفاية.

١٢٠ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد إنجاء نوح، ومن آمن معه ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه.

١٢١، ١٢٢ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم بإهانة من جحد، وأصرّ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المنعم بإعانة من وحّد، وأقرّ.

١٢٣ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هي: قبيلة. وفي الأصل: اسم رجل، وهو أبو القبيلة.

١٢٤ ـ ١٢٦ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تكذيب الرسول الأمين، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

١٢٧، ١٢٨ ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ برج حمام، أو: بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مرّ بهم ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون.

١٢٩ ـ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذ الماء، أو: قصوراً مشيدة، أو: حصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدنيا.

١٣٠ ـ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم أخذ العقوبة ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلاً بالسيف، وضرباً بالسّوط. والجبّار: الذي يقتل، ويضرب على الغضب.

١٣١ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في البطش ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه.

١٣٢ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم. ثم عدّدها عليهم فقال:

أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾

١٣٣ ـ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ قرن البنين بالأنعام؛ لأنهم يعينونهم على حفظها، والقيام عليها.

١٣٤، ١٣٥ ـ ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عصيتموني.

١٣٦ ـ ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نقبل كلامك، ودعوتك، وعظت أم سكتَّ. ولم يقل: أم لم تعظ؛ لرؤوس الآي.

١٣٧، ١٣٨ ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت، واتخاذ الأبنية إلاّ عادة الأوّلين، أو: ما نحن عليه دين الأوّلين. ﴿إلاّ خَلْق الأوّلين﴾: مكّي: وبصريّ، ويزيد، وعليّ. أي: ما جئت به اختلاق الأوّلين، وكذب المتنبّين قبلك، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أو: خَلْقُنا كخلْق الأوّلين، نموت ونحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الدنيا، ولا بعث ولا حساب.

١٣٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: هوداً ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بريح صرصر، عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٤٠ ـ ١٤٦ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ﴾ إنكار لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ في الذي استقرّ في هذا المكان من النعيم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العذاب والزوال والموت. ثمّ فسّره بقوله:

فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا
فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ
بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ
مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾

١٤٧ ـ ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثمّ تفصيل.

١٤٨ ـ ﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ وعطف ﴿نخل﴾ على ﴿جنّات﴾ مع أنّ الجنة تتناول النخل أوّل شيء، تفضيلاً للنخل على سائر الشجر ﴿طَلۡعُهَا﴾ هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هَضِيمٞ﴾ لين نضيج، كأنّه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

١٤٩ ـ ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ تنقبون ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾: شاميّ، وكوفيّ. حاذقين، حال. وغيرهم: ﴿فرِهين﴾ أشرين. والفَراهة: الكَيْسُ، والنشاط.

١٥٠، ١٥١ ـ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الكافرين، أو: التسعة الذين عقروا الناقة. جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكميّ ـ والمراد: الآمر ـ وهو كلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأوّل، كقوله: أنبت الربيع البقل.

١٥٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالظلم، والكفر ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بالإيمان، والعدل. والمعنى: أنّ فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصَّلاح.

١٥٣ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر: الذي سُحِرَ كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السَّحْر: الرئة، وأنّه بشر.

١٥٤ ـ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة.

١٥٥ ـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ﴾ نصيب من الماء، فلا تزاحموها فيه ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ لا تزاحمكم هي فيه. رُوي: أنهم قالوا: نريد ناقة عُشَراء تخرج

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾

من هذه الصخرة فتلد سَقْباً[١]، فقعد صالح يتفكّر، فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: صلّ ركعتين، واسأل ربك الناقة. ففعل. فخرجت، ونُتجت سقباً مثلها في العظم، ومُصَدَّرها ستّون ذراعاً. وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلّه، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء. وهذا دليلٌ على جواز المهايأة[٢] لأنّ قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ من المهايآت.

١٥٦ ـ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بضرب، أو: عقر، أو: غير ذلك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظّم اليوم لحلول العذاب فيه. ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأنّ الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشدّ.

١٥٧ ـ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها قدار، ولكنّهم راضون به، فأضيف إليهم. رُوي: أنّ عاقرها قال: لا أعقرها حتّى ترضوا أجمعين، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم. وكذلك صبيانهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة. أو: ندموا حين لا ينفع الندم، وذلك عند معاينة العذاب، أو: على ترك الولد.

١٥٨ ـ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المتقدّم ذكره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٥٩ ـ ١٦٥ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أراد بالعالمين: الناس.

---

(١) «السقب»: الذكر من ولد الناقة.
(٢) «المهايأة»: الأمر المتهايأ عليه. وتهايأ القومُ على الأمر: توافقوا، وتمالؤوا.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: أتطؤون الذكران من الناس مع كثرة الإناث؟ أو: أتطؤون أنتم مِن بين من عداكم من العالمين الذكران؟ أي: أنتم مختصون بهذه الفاحشة. و﴿العالمين﴾ على هذا: كلّ ما ينكح من الحيوان.

١٦٦ ـ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ «من» تبيين لما خلق، أو: تبعيض. والمراد: بما خلق العضو المباح منهنّ. وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. وفيه دليلٌ على تحريم أدبار الزوجات، والمملوكات. ومن أجازه فقد أخطأ خطأً عظيماً ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ العادي: المتعدّي في ظلمه، المتجاوز فيه الحدّ، أي: بل أنتم قوم أحقَّاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

١٦٧ ـ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن إنكارك علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا. ولعلّهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.

١٦٨ ـ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ هو أبلغ من أن يقول «قالٍ»، فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنّك تشهد بأنّه مساهم لهم في العلم. والقِلى: البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفيه دليلٌ على عظم المعصية؛ لأنّ قِلاه من حيث الدين.

١٦٩ ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم.

١٧٠ ـ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بناته، ومن آمن معه.

١٧١ ـ ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي: امرأة لوط، وكانت راضية بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فاستثناء الكافرة من الأهل، وهم مؤمنون، للاشتراك في هذا الاسم، وإن لم تشاركهم في الإيمان ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لها، أي: في الباقين في العذاب، فلم تنج منه. والغابر في اللغة: الباقي، كأنّه قيل:

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

إلاّ عجوزاً غابرة، أي: مقدّراً غبورها، إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم.

١٧٢ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ والمراد بتدميرهم: الائتفاك بهم.

١٧٣ ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ عن قتادة: أمطر الله على شُذّاذ القوم حجارة من السماء، فأهلكهم. وقيل: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فاعله ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. والمخصوص بالذّم ـ وهو مطرهم ـ محذوف. ولم يردْ بالمنذرين قوماً بأعيانهم، بل المرادُ جنس الكافرين.

١٧٤ ـ ١٧٦ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ بالهمزة والجرّ هي: غيضة تُنبتُ ناعم الشجر، عن الخليل. ﴿لَيْكَةَ﴾: حجازيّ، وشاميّ، وكذا في ﴿ص﴾ علم لبلد. قيل: أصحاب الأيكة هم أهل مدين، التجؤوا إلى غيضة؛ إذ ألحّ عليهم الوَهَج. والأصحّ أنهم غيرهم. نزلوا غيضة بعينها بالبادية، وأكثر شجرهم المُقْل؛ بدليل أنّه لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنّه لم يكن من نسبهم، بل كان من نسب أهل مدين. ففي الحديث: أنّ شعيباً أخا مدين أرسل إليهم، وإلى أصحاب الأيكة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٧٧، ١٨١ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتمّوه، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم. فالكيل واف، وهو مأمورٌ به، وطفيف، وهو منهي عنه، وزائد، وهو مسكوت عنه. فتركه دليلٌ على أنه إن فعله فقد أحسن، وإن لم يفعله فلا عليه.

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا

١٨٢ ـ ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[١] وبكسر القاف: كوفيّ، غير أبي بكر. وهو: الميزان، أو: القبّان. وإن كان من القسط وهو العدل، وجعلت العين مكررة، فوزنه «فعلاس» وإلاّ فهو رباعيّ.

١٨٣ ـ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ﴾ يقال: بخسته حقه؛ إذا نقصته إياه ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها في الإفساد، وذلك نحو: قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك، فنهوا عن ذلك، يقال: عثا في الأرض: إذا أفسدَ. وعثى في الأرض، لغة في عَثِيَ.

١٨٤ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الجبلّة: عطف على «كم»، أي: اتقوا الذي خلقكم، وخلق الجبلّة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الماضين.

١٨٥، ١٨٦ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو هنا ليفيد معنيين، كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير، والبشريّة. وتركها في قصة ثمود ليفيد معنىً واحداً وهو كونه مسحراً. ثمّ قرّر بكونه بشراً مثلهم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ «إن» مخفّفة من الثقيلة. واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية. وإنما تفرّقتا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؛ لأنّ أصلهما أن يتفرّقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إنْ زيداً لمنطلق، فلمّا كان بابا ﴿كان﴾ و﴿ظننت﴾ من جنس باب المبتدأ والخبر، فعل ذلك في البابين، فقيل: إنْ كان زيد لمنطلقاً، وإنْ ظننته لمنطلقاً.

١٨٧ ـ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[٢]: حفص. وهما[٣] جمعا كِسْفَةٍ، وهي:

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿القُسطاس﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وحمزة، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٢٥).

(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿كِسْفاً﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٢٦).

(٣) أي قراءة: ﴿كِسْفاً﴾ وقراءة ﴿كِسَفاً﴾.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾

القطعة. وكسفه: قطعه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب، أو: الظُّلَّة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقاً أنّك نبيّ، فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء، أي: قطعاً من السماء عقوبة.

١٨٨ ـ ﴿قَالَ رَبِّيٓ﴾ بفتح الياء: حجازيّ، وأبو عمرو. وبسكونها: غيرهم ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنّ الله أعلم بأعمالكم، وبما تستحقّون عليها من العقاب، وإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم، والمشيئة.

١٨٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هي سحابة أظلّتهم بعد ما حبس عنهم الريح، وعذبوا بالحرّ سبعة أيّام، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها ممّا نالهم من الحرّ، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

١٩٠، ١٩١ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقد كرّر في هذه السورة في أوّل كلّ قصة وآخرها ما كرّر، تقريراً لمعانيها في الصدور؛ ليكون أبلغ في الوعظ، والزجر، ولأنّ كلّ قصّة فيها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به.

١٩٢ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ منزّل منه.

١٩٣ ـ ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخفّف. والفاعل: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل؛ لأنّه أمين على الوحي الذي فيه الحياة. حجازيّ، وأبو عمرو، وزيد، وحفص. وغيرهم: بالتشديد، ونصب ﴿الروحَ﴾. والفاعل هو الله تعالى، أي: جعل الله الروح نازلاً به. والباء على القراءتين للتعدية.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ﴾

١٩٤ ـ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفّظك، وفهّمك إيّاه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

١٩٥ ـ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ بلغة قريش، وجرهم ﴿مُّبِينٍ﴾ فصيح مصحّح عمّا صحّفته العامّة. والباء إمّا أن يتعلّق بـ﴿المنذرين﴾، أي: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ أو: بـ: ﴿نزل﴾، أي: نزّله ﴿بلسان عربي﴾ لتنذر به، لأنّه لو نزّله بلسان أعجميّ لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه، فيتعذّر الإنذار به. وفي هذا الوجه: أنّ تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنّك تفهمه، وتُفهمه قومَك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنّك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها. وقد يكون الرجل عارفاً بعدّة لغات؛ فإذا كُلّم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه إلاّ إلى معاني الكلام، وإن كُلّم بغيرها كان نظره أوّلاً في ألفاظها، ثمّ في معانيها، وإن كان ماهراً بمعرفتها. فهذا تقرير أنّه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربيّ.

١٩٦ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماويّة. وقيل: إنّ معانيه فيها. وفيه دليلٌ على أنّ القرآنَ قرآن إذا ترجم بغير العربيّة، فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسيّة في الصلاة.

١٩٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾(١): شاميّ. جعلت ﴿آية﴾ اسم كان. وخبره ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: القرآن لوجود ذكره في التوراة. وقيل: في ﴿تكن﴾ ضمير القصّة، و﴿آية﴾ خبر مقدّم، فالمبتدأ ﴿أن يعلمه﴾. والجملة خبر كان. وقيل: كان تامّة، والفاعل ﴿آية﴾، و﴿أن يعلمه﴾ بدل منها، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي:

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تكن... آيةٌ﴾.

عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾

أو لم تحصل لهم آية. وغيره: ﴿يكن﴾ بالتذكير، و﴿آية﴾ بالنصب، على أنها خبره، و﴿أن يعلمه﴾ هو الاسم، وتقديره: ﴿أو لم يكن لهم﴾ علم علماء ﴿بني إسرائيل﴾ آية ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام، وغيره. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]. وخط في المصحف ﴿علمؤا﴾ بواو قبل الألف.

١٩٨ ـ ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ جمع أعجم، وهو: الذي لا يفصح، وكذلك الأعجميّ، إلاّ أنّ فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. ولمّا كان من يتكلّم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم، وأعجميّ، شبهوه بمن لا يفصح، ولا يبين. والعجميّ: الذي من جنس العجم أفصح، أو: لم يفصح. وقرأ الحسن: ﴿الأعْجَمِيِّين﴾. وقيل: ﴿الأعجمين﴾ تخفيف ﴿الأعجَميِّين﴾ كما قالوا: الأشعرون، أي: الأشعريُّون، بحذف ياء النسبة. ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة؛ لأنّ مؤنثه عجماء.

١٩٩ ـ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ والمعنى: إنّا أنزلنا القرآن على رجل عربيّ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته،وأنّه معجز، وانضمّ إلى ذلك اتّفاق علماء أهل الكتُب قبله على أنّ البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم، وقد تضمّنت معانيه وقصصه، وصحّ بذلك أنّها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسمّوه: شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هذه من افتراء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله، فقرأه عليهم هكذا معجزاً لكفروا به كما كفروا، ولتمحّلوا لجحودهم عذراً، ولسمّوه: سحراً. ثم قال:

٢٠٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ أي: أدخلنا التكذيب، أو: الكفر، وهو مدلول قوله: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر، والإصرار عليه، يعني: مثل هذا السَّلْك ﴿سلكناه﴾ في قلوبهم،

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

وقرّرناه فيها فكيف ما فعل بهم، وعلى أيّ وجه دبّر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيّروا عمّا هم عليه من الكفر به، والتكذيب له، أي: كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] وهو حجّتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرّها.

٢٠١ ـ وموقع قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن. من قوله: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾ موقع الموضح والملخص؛ لأنّه مسوق لثباته مكذّباً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنّهم لا يزالون على التكذيب به، وجحوده، حتّى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غير مؤمن به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المراد: معاينة العذاب عند الموت، ويكون ذلك إيمان يأس، فلا ينفعهم.

٢٠٢ ـ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

٢٠٣ ـ ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ و﴿فيأتيهم﴾ معطوفان على ﴿يروا﴾ ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ يسألون النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجابون إليها.

٢٠٤ ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لهم، وإنكار عليهم قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك. قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغترّ بحياته، والتذّ بمراداته، وسكن مألوفاته، والله تعالى يقول:

٢٠٥ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ قيل: هي سنو مدّة الدنيا.

٢٠٦ ـ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

٢٠٧ ـ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ به في تلك السنين. والمعنى: أنّ استعجالهم بالعذاب إنّما كان لاعتقادهم أنّه غير كائن، ولا لاحق بهم، وأنّهم ممتّعون بأعمار طوال في سلامة، وأمن. فقال الله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أشراً، واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل. ثمّ قال: هَبْ أنّ الأمر كما

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يعتقدون من تمتيعهم، وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنّى لقاءه، فقال: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم.

٢٠٨ ـ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم. ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلاّ كما في: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] لأنّ الأصل عدم الواو؛ إذ الجملة صفة لـ: ﴿قرية﴾، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

٢٠٩ ـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة؛ لأنّ أنذر وأذكر متقاربان، فكأنّه قيل: مُذكرون تذكرة. أو: حال من الضمير في ﴿منذرون﴾ أي: ينذرونهم ذوي تذكرة، أو: مفعول له، أي: ينذرون لأجل التذكرة، والموعظة، أو: مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هذه ﴿ذكرى﴾ والجملة اعتراضيّة. أو: صفة بمعنى ﴿منذرون﴾ ذوو ﴿ذكرى﴾. أو: تكون ﴿ذكرى﴾ متعلّقة بأهلكنا، مفعولاً له. والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلاّ بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم؛ فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين.

٢١٠ ـ ولمّا قال المشركون: إنّ الشياطين تلقي القرآن على محمد، نزل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

٢١١ ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ وما يتسهّل لهم، ولا يقدرون عليه.

٢١٢ ـ ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ عن استراقه ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ لممنوعون بالشهب.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾

٢١٣ ـ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تهديد لغيره على التعريض وتحريك له على زيادة الإخلاص.

٢١٤ ـ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خصّهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته. أو: ليعلموا أنّه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأنّ النّجاة في اتّباعه دون قربه. ولمّا نزلت صَعِد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب، وقال: «يا بني عبد المطّلب! يا بني هاشم! يا بني عبد مناف! يا عبّاس عمّ النبيّ! يا صفيّة عمّة رسول الله: إنّي لا أملك لكم من الله شيئاً»[1].

٢١٥ ـ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألنْ جانبك، وتواضعْ. وأصله: أنّ الطائر إذا أراد أن ينحطّ في الوقوع كسر جناحه، وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه. فجُعِل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع، ولين الجانب ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عشيرتك، وغيرهم.

٢١٦ ـ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنذر قومك، فإن اتّبعوك، وأطاعوك، فأخفض لهم جناحك، وإن عصوك، ولم يتبعوك، فتبرّأ منهم، ومن أعمالهم من الشرك بالله، وغيره.

٢١٧ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزّته، وينصرك عليهم برحمته، يكفك شرّ من يعصيك منهم، ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى مَن يملك أمره، ويقدر على نفعه وضرّه. وقالوا: المتوكّل من إنْ دهمه أمرٌ لم يحاولْ دفعه عن نفسه بما هو معصية لله. وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: التوكّل أن تُقْبِل بالكليّة على ربّك، وتُعْرِض بالكليّة عما دونه؛ فإنّ حاجتك إليه في الدارين. (فتوكّل): مدنيّ، وشاميّ، عطف على ﴿فقل﴾ أو: ﴿فلا تدع﴾.

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٣٣) ومسلم (٢٠٤) والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٦ / ٢٤٨).

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾

٢١٨ ـ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ متهجّداً.

٢١٩ ـ ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: ﴿و﴾ يرى تقلّبك ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في المصلّين. أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة. وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجّد، وتقلّبه في تصفّح أحوال المتهجّدين من أصحابه ليطّلع عليهم من حيث لا يشعرون، وليعلم كيف[1] يعبدون الله، ويعملون لآخرتهم. وقيل: معناه ﴿يراك﴾ حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلّبه ﴿في الساجدين﴾: تصرّفه فيما بينهم بقيامه، وركوعه، وسجوده، وقعوده إذا أمّهم. وعن مقاتل: أنّه سأل أبا حنيفة. هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني. فتلا له هذه الآية.

٢٢٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه، وتعمله. هوّن عليه معاناة مشاقّ العبادات، حيث أخبر برؤيته له، إذ لا مشقّة على مَن يعلم أنّه يعمل بمرأى مولاه، وهو كقولك: بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي.

٢٢١ ـ ونزل جواباً لقول المشركين: إنّ الشياطين تلقي السمع على محمد ﷺ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أخبركم أيها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾. ثمّ نبّأ فقال:

٢٢٢ ـ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام، وهم: الكهنة، والمتنبّئة، كسطيح، ومسيلمة. ومحمّد ﷺ يشتم الأفّاكين ويذمّهم، فكيف تنزل الشياطين عليه؟!

٢٢٣ ـ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ هم الشياطين. كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلّمون به، مما اطّلعوا عليه من الغيوب، ثمّ يوحون به إلى أوليائهم. و﴿يلقون﴾ حال، أي: تنزّل ملقين السمع. أو: صفة لـ: ﴿كل أفّاكٍ﴾ لأنّه في معنى الجمع، فيكون في محلّ الجرّ.

---

(١) في الأصل المخطوط: أنهم كيف.

وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

أو: استئناف فلا يكون له محلّ، كأنّه قيل: لم تنزّل على الأفّاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنّهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل: ﴿يلقون﴾ إلى أوليائهم ﴿السمع﴾ أي: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفّاكون ﴿يلقون السمع﴾ إلى الشياطين، ويتلقّون وحيهم إليهم. أو: ﴿يلقون﴾ المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفّاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. فالأفّاك: الذي يكثر الإفك. ولا يدلّ ذلك على أنّهم لا ينطقون إلاّ بالإفك، فأراد أنّ هؤلاء الأفّاكين قلّ من يصدّق منهم فيما يحكي عن الجنّيّ، وأكثرهم مفترٍ عليه. وعن الحسن: وكلهم. وإنّما فرّق بين ﴿وإنّه لتنزيل ربّ العالمين﴾ و﴿وما تنزّلت به الشياطين﴾ و﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين﴾ وهنّ أخوات؛ لأنّه إذا فرّق بينهن بآيات ليست منهنّ، ثمّ رجع إليهنّ مرّة بعد مرّة، دلّ ذلك على شدّة العناية بهنّ، كما إذا حدّثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء، فتعيد ذكره، ولا تنفكّ عن الرجوع إليه.

٢٢٤ ـ ونزل فيمن كان يقول الشعر، ويقول: نحن نقول كما يقول محمد ﷺ، واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾. أي: لا يتّبعهم على باطلهم، وكذبهم، وتمزيق الأعراض، والقدح في الإنسان، ومدح من لا يستحقّ المدح والهجاء، ولا يستحسن ذلك منهم إلاّ ﴿الغاوون﴾ أي: السفهاء، أو: الراوون، أو: الشياطين، أو: المشركون. قال الزجاج: إذا مدح، أو: هجا شاعر بما لا يكون، وأحبّ ذلك قوم، وتابعوه فهم الغاوون. ﴿يَتْبَعُهُمُ﴾ نافع.

٢٢٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾ خبر أنّ، أي: في كلّ فنّ من الكذب يتحدّثون، أو: في كلّ لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. وهو تمثيلٌ لذهابهم في كلّ شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأبخلهم على حاتم.

٢٢٦ ـ عن الفرزدق: أنّ سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ

فقال: وجب عليك الحدّ، فقال: قد درأ اللهُ عنيّ الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب، والخلف في الوعد.

٢٢٧ ـ ثمّ استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كعبد الله بن رواحة، وحسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكر الله، وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى، والثناء عليه، والحكمة، والموعظة، والزهد، والأدب، ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمّة، ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة، لكنّه بالحضور ﴿وَانتَصَرُوا﴾ وهَجوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ هُجُوا، أي: ردوا هجاء من هجا رسول الله ﷺ والمسلمين. وأحقّ الخلق بالهجاء من كذّب رسول الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ قال له: «اهجهم، فوالذي نفسي بيده! لهو أشدّ عليهم من النبل»[(١)] وكان يقول لحسّان: «قل وروح القدس معك»[(٢)]. ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبّرين، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه، وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه. وقد تلاها أبو بكر لعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حين عهد إليه. وكان السلف يتواعظون بها. قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنّا ما الذي فاته منّا. و﴿أيّ﴾ منصوب بـ﴿ينقلبون﴾ على المصدر لا بـ: ﴿سيعلم﴾؛ لأنّ أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها، أي: ينقلبون أيّ انقلاب. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن سعد في الطبقات. (حاشية الكشاف ٣ / ٣٤٥).
(٢) رواه البخاري (٣٢١٣) ومسلم (٢٤٨٦).

سورة النمل

ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أي: ﴿و﴾ آيات ﴿كتاب مبين﴾. و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب المبين: اللوح. وإبانته: أنه قد خُطَّ فيه كلّ ما هو كائن، فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. أو: القرآن، وإبانته: أنّه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم. وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخيّ، والجواد.. ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنّما نكّر الكتاب هنا، وعرّفه في الحجر، وعرّف القرآن هنا، ونكّره ثَمّ؛ لأنّ القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمّد ﷺ، ووصفان له؛ لأنّه يُقرأ ويكتب. فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف.

٢ ـ ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ في محلّ النصب على الحال من ﴿آيات﴾، أي: هادية ومبشرة. والعامل فيها ما في ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة. أو: الجرّ على أنه بدل من ﴿كتاب﴾ أو: صفة له. أو: الرفع على هي ﴿هدى وبشرى﴾، وعلى البدل من ﴿آيات﴾، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر لـ: ﴿تلك﴾، أي: ﴿تلك آيات﴾ وهادية من الضلالة، ومبشّرة بالجنّة. وقيل: ﴿هدى﴾ لجميع الخلق وبشرى ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خاصّة.

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

---

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يديمون على فرائضها، وسننها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يؤدّون زكاة أموالهم ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من جملة صلة الموصول. ويحتمل أن تتمّ الصلة عنده. وهو استئناف، كأنّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هم الموقنون بالآخرة. ويدلّ عليه: أنه عقد جملة اسميّة، وكُرِّرَ فيها المبتدأ الذي هو ﴿هم﴾ حتّى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمّل المشاقّ.

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بخلق الشهوة حتّى رأوا ذلك حسناً، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون في ضلالتهم، كما يكون حال الضالّ عن الطريق.

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال. ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشدّ الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة، وثواب الله.

٦ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتؤتاه، وتلقّنه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أيّ ﴿حكيم﴾ وأيّ ﴿عليم﴾. وهذا معنى تنكيرهما. وهذه الآية بساط، وتمهيد لما يريد أن يسوقَ بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

٧ ـ ﴿إِذْ﴾ منصوب باذكر، كأنّه قال: على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصّة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ لزوجته ومَن معه عند مسيره من مدين إلى مصر: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنّه كان قد ضلّه ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ بالتنوين: كوفيّ، أي: شعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسة. بدل، أو: صفة. وغيرهم ﴿بشهابِ قبسٍ﴾ على

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

الإضافة؛ لأنّه يكون قبساً، وغير قبس. ولا تدافع بين قوله: ﴿سآتيكم﴾ هنا، و﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ في القصص [الآية: ٢٩] مع أنّ أحدهما ترجٍّ، والآخر تيقن؛ لأنّ الراجي إذا قوي رجاؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة، ومجيئه بسين التسويف عِدَةٌ لأهله أنّه يأتيهم به، وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. وبأو؛ لأنّه بنى الرجاء على أنّه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما، إمّا هداية الطريق، وإمّا اقتباس النار. ولم يدر أنّه ظافر على النار بحاجتيه الكلّيّتين، وهما عزّ الدنيا والآخرة. واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصّة واحدة دليلٌ على جواز نقل الحديث بالمعنى، وجواز الصلاة بالفارسية، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم. والطاء بدل من تاء افتعل؛ لأجل الصاد.

٨ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: النار التي أبصرها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أن مخفّفة من الثقيلة. وتقديره: ﴿نودي﴾ موسى بأنّه ﴿بورك﴾. والضمير ضمير الشأن. وجاز ذلك من غير عوض، وإن منعه الزمخشريّ؛ لأنّ قوله ﴿بورك﴾ دعاء. والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة. أو: مفسّرة لأنّ في النداء معنى القول، أي: قيل له: ﴿بورك﴾ أي: قُدِّس، أو: جعل البركة والخير في ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: (بورك من في) مكان ﴿النار﴾ وهم الملائكة، ومَنْ حول مكانها ـ أي: موسى ـ بحدوث أمر دينيّ فيها، وهو تكليم الله موسى ـ عليه السلام ـ واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هو من جملة ما نودي، فقد نزّه ذاته عمّا لا يليق به من التشبُّه، وغيره.

٩ ـ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الضمير في ﴿إنّه﴾ للشأن ﴿أنا الله﴾ مبتدأ وخبر. و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للخبر. أو: يرجع إلى مادلّ عليه ما قبله، أي: إنّ مكلّمك ﴿أنا﴾، و﴿الله﴾ بيان لأنا، و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للمبيّن، وهو تمهيدٌ لما أراد أن يظهر على يده من المعجزة.

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ

١٠ ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلم معجزتك، فتأنس بها. وهو عطف على ﴿بورك﴾ لأنّ المعنى: ﴿نودي أن بورك من في النار...و﴾ أن ﴿ألق عصاك﴾. كلاهما تفسير لنودي. فالمعنى: قيل له: ﴿بورك من في النار﴾ وقيل له: ﴿ألق عصاك﴾. ويدلّ عليه ما ذكر في سورة القصص ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله: ﴿أن يا موسى إنّي أنا الله﴾ على تكرير حرف التفسير ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرّك، حال من الهاء في (رآها) ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ـ حيّة صغيرة ـ حال من الضمير في ﴿تهتز﴾ ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره خوفاً من وثوب الحية عليه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يلتفت، أو: لم يرجع. يقال: قد عقّب فلان: إذا رجع يقاتل بعد أن ولّى. فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إيّاهم. أو: لا يخاف لديّ المرسلون من غيري.

١١ ـ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: لكن ﴿من ظلم﴾ من غيرهم؛ لأنّ الأنبياء لا يظلمون. أو: لكن ﴿من ظلم﴾ منهم، من زلّ من المرسلين فجاء منه غير ما أذنت له، ممّا يجوز على الأنبياء، كما فرط من آدم، ويونس، وداود، وسليمان ـ عليهم السلام ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أي: أتبع توبة ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ زلّة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر زلّته، وأرحمه، فأحقّق أمنيّته. وكأنّه تعريضٌ بما قال موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطيّ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦].

١٢ ـ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك، وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ نيرة تغلب نور الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص. و﴿بيضاء﴾ و﴿من غير سوء﴾ حالان ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ كلام مستأنف. و﴿في﴾ يتعلّق بمحذوف، أي: اذهب في ﴿تسع آيات﴾. أو: ﴿وألق عصاك... وأدخل يدك... في﴾ جملة ﴿تسع آيات﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ «إلى» يتعلّق بمحذوف، أي: مرسلاً ﴿إلى فرعون﴾

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن أمر الله، كافرين.

١٣ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ معجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال، أي: ظاهرة بيّنة. جعل الإبصار لها، وهو في الحقيقة لمتأمّليها؛ لملابستهم إيّاها بالنظر، والتفكّر فيها، أو: جعلت كأنّها تبصر فتهدي؛ لأنّ العمي لا تقدر على الاهتداء، فضلاً أن تهدي غيرها. ومنه قوله: كلمة عوراء؛ لأنّ الكلمة الحسنة ترشد، والسيّئة تغوي ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لمن تأمّله. وقد قوبل بين المبصرة والمبين.

١٤ ـ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ قيل: الجحود لا يكون إلاّ من علم الجاحد، وهذا ليس بصحيح؛ لأنّ الجحودَ هو الإنكار. وقد يكون الإنكارُ للشيء للجهل به، وقد يكون بعد المعرفة تعنّتاً. كذا ذكر في «شرح التأويلات». وذكر في «الديوان»: يقال: جحد حقّه، وبحقّه بمعنىً. والواو في: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ للحال، وقد بعدها مضمرة. والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أي: جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم، وضمائرهم ﴿ظُلْمًا﴾ حال من الضمير في ﴿جحدوا﴾: وأيّ ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنّها آيات من عند الله، ثمّ سمّاها سحراً بيّناً! ﴿وَعُلُوًّا﴾ تكبراً وترفّعاً عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق هنا، والإحراق ثمَّ.

١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم، أو: علماً سنيّاً غزيراً. والمراد: علم الدين، والحكم ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في ترك الأصلح. وهنا محذوف ليصحّ عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء، كقولك: أعطيته فشكر. وتقديره: آتيناهما علماً، فعملا به، وعلّماه، وعرفا حقّ النعمة فيه ﴿وقالا الحمد لله الذي فضّلنا﴾. والكثير المفضّل عليه من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنّهما فُضّلا على كثير، وفُضّل عليهما كثير. وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدّم حملته، وأهله، وأنّ نعمة

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

العلم من أجلّ النعم، وأنّ من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده. وما سمّاهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلاّ لمداناتهم لهم في الشرف، والمنزلة؛ لأنّهم القوّام لما بُعِثُوا من أجله. وفيها: أنّه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقدَ العالم أنّه إن فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: كلّ الناس أفقه من عمر.

١٦ ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر، قالوا: أوتي النبوّة مثل أبيه، فكأنّه ورثه، وإلاّ فالنبوّة لا تُورث ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، واعترافاً بمكانها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة؛ التي هي علم منطق الطير. والمنطق: كلّ ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف المفيد وغير المفيد. وكان سليمان ـ عليه السلام ـ يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض. رُوي: أنّه صاحت فاختة[(١)]، فأخبر أنّها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خُطّاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رَخَمَة[(٢)] فقال: تقول: سبحان ربّي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قُمْرِيّ[(٣)] فأخبر أنّه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدء تقول: كلّ شيء هالك إلاّ الله، والقطاط[(٤)] تقول: من سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم! عش ما شئتَ آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد من الناس أُنسٌ، والضفدع يقول: سبحان ربّي القُدّوس[(٥)] ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد به: كثرة

(١) «الفاختة»: نوع من الحمام المُطَوَّق إذا مشى توسع في مشيه، وباعد بين جناحيه وإبطيه، وتمايل.

(٢) «الرَّخَمة»: طائر غزير الريش، أبيض اللون مبقَّع بسواد، له منقار طويل.

(٣) «القمري»: نوع من الحمام مطوّق حسن الصوت.

(٤) «القطاة»: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

(٥) هذه رواية إسرائيلية، الله أعلم بصحتها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

ما أوتي، كما تقول: فلان يعلم كلّ شيء، ومثله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ قول وارد على سبيل الشكر، كقوله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»(١) أي: أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً. والنون في ﴿علّمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ نون الواحد المطاوع، وكان ملكاً مطاعاً، فكلّم أهل طاعته على حاله التي كان عليها، وليس التكبّر من لوازم ذلك.

١٧ ـ ﴿وَحُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾. رُوي: أنّ معسكره كان مئة فرسخ في مئة فرسخ: خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمئة منكوحة وسبعمئة سُرّيّة. وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ. وكان يُوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب وفضّة، فيقعد وحوله ستمئة ألف كرسيّ من ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر(٢). ويُروى أنّه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيِّره. فأوحى الله تعالى إليه وهو يسيرُ بين السماء والأرض: إنّي قد زدتُ في ملكك: لا يتكلّم أحد بشيء إلاّ ألقته الريح في سمعك. فيُحكَى: أنه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي آلُ داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فنزل، ومشى إلى الحرّاث، وقال: إنّما مشيت إليك لئلا تتمنّى ما لا تقدر عليه، ثمّ قال: تسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أوتي آلُ داود ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يوقف سُلافُ

(١) رواه الحاكم (١ / ٣٠).
(٢) تصدير الرواية بالتضعيف يوحي بعدم صحّتها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾

العسكر[1] حتّى يلحقهم الثواني؛ فيكونوا مجتمعين، وذلك للكثرة العظيمة. والوزع: المنع. ومنه قول عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ما يزع السلطان أكثر مما يزعُ القرآن.

١٨ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ أي: ساروا حتّى إذا بلغوا وادي النمل ـ وهو وادٍ بالشام كثير النمل. وعدّي بـ«على»؛ لأنّ إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء ـ ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ عرجاء تسمّى طاخية، أو: منذرة ـ وعن قتادة أنّه دخل الكوفة فالتفّتْ عليه الناس، فقال: سلوا عمّا شئتم، فسأله أبو حنيفة ـ رحمه الله وهو شابّ ـ عن نملة سليمان: أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: كانت أنثى. فقيل له: بماذا عرفت؟ فقال: بقوله ﴿قالت نملة﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة. وذلك: أنّ النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والأنثى، فتميّز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو، وهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ولم يقل: ادخلن؛ لأنّه لمّا جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهنّ مجرى خطابهم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ لا يكسرنّكم. والحطم: الكسر. وهو نهي مستأنف. وهو في الظاهر نهي لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهي لهنّ عن البروز والوقوف؛ على طريقة: لا أرينّك هاهنا، أي: لا تحضر هذا الموضع. وقيل: هو جواب الأمر، وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد؛ لأنه من ضرورات الشعر ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ قيل: أراد ﴿لا يحطمنكم﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ـ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا لم يفعلوا، . قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل، فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال.

١٩ ـ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ متعجّباً من حذرها، واهتدائها لمصالحها،

(١) «سلاف العسكر»: متقدّموهم.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ونصيحتها للنمل. أو: فرحاً لظهور عدله. و﴿ضاحكاً﴾ حال مؤكّدة؛ لأنّ ﴿تبسّم﴾ بمعنى ضحك. وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم، كذا قاله الزّجاج ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني. وحقيقته: كُفَّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النبوّة، والملك، والعلم ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ لأنّ الإنعامَ على الوالدين إنعامٌ على الولد ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ في بقيّة عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: وأدخلني الجنّة ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لا بصالح عملي، إذ لا يدخل الجنّة أحد إلاّ برحمته، كما جاء في الحديث ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة أنبيائك المرسلين، أو: مع ﴿عبادك الصالحين﴾.

رُوي: أنّ النملة أحسّت بصوت الجنود، ولا تعلم أنّهم في الهواء، فأمر سليمان ـ عليه السلام ـ الريح فوقفت لئلا يضْعَرْنَ[1] حتّى دخلن مساكنهنّ، ثمّ دعا بالدعوة.

٢٠ ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ﴾ مكيّ، وعليّ، وعاصم. وغيرهم بسكون الياء. والتفقّد: طلب ما غاب عنك ﴿لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ﴿أم﴾ بمعنى بل، والمعنى: أنّه تعرّف الطير، فلم يجد فيها الهدهد، فقال: مالي لا أراه؟! على معنى: أنّه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو: غير ذلك. ثمّ لاح له أنه غائب، فأضرب عن ذاك، وأخذ يقول: بل هو غائب. وذكر: أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ لما حجّ خرج إلى اليمين، فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلّي، فلم يجدوا الماء. وكان الهدهدُ قُناقِنَه[2]، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فتستخرج الشياطين الماء. فتفقّده لذلك. وذكر أنّه وقعت لفحةٌ من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال، فدعا عريف الطير، وهو النسر، فسأله عنه، فلم يجد عنده

---

(١) وضع في الأصل المخطوط تحت هذه الكلمة معناها وهو: يخوفن.

(٢) «القناقن»: الدليل الهادي، والبصير بالماء في حفر القني.

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

علمه. ثمّ قال لسيّد الطير ـ وهو العقاب ـ: عليّ به. فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبلٌ، فقصدته، فناشدها الله فتركته. فلمّا قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّهما على الأرض، وقال: يا نبيّ الله! اذكر وقوفك بين يدي الله. فارتعد سليمان، وعفا عنه.

٢١ ـ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بنتف ريشه، وإلقائه في الشمس، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه، أو: بإلزامه خدمة أقرانه، أو: بالحبس مع أضداده. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. أو: بإيداعه القفص، أو: بطرحه بين يدي النمل ليأكلنّه. وحلّ له تعذيب الهدهد؛ لما رأى فيه من المصلحة، كما حلّ ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع. وإذا سخّر له الطير ولم يتمّ التسخير إلاّ بالتأديب حَلَّ له التأديب والسياسة ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾ بالنون الثقيلة؛ ليشاكل قوله ﴿لأعذبنّه﴾ وحذف نون العماد للتخفيف (ليأتينّني) بنونين، مكّيّ، الأولى للتأكيد، والثانية للعماد ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة له فيها عذر ظاهر على غيبته.

والإشكال أنّه حلف على أحد ثلاثة أشياء، اثنان منها فعله ولا مقال فيه، والثالث فعل الهدهد، وهو مشكل؛ لأنه من أين درى أنّه يأتي بسلطان حتّى قال والله ﴿ليأتيني بسلطان﴾؟ وجوابه: أنّ معنى كلامه: ليكوننّ أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب، ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما. وليس في هذا ادّعاء دراية.

٢٢ ـ ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقّد سليمان إياه ـ وبضمّ الكاف غير عاصم، وسهل، ويعقوب، وهما لغتان ـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: مُكثاً ﴿غير﴾ طويل، أو: ﴿غير﴾ زمان بعيد، كقوله: عن قريب. ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان. فلمّا رجع سأله عما لقي في غيبته ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ علمت شيئاً من جميع جهاته ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ألهم الله الهدهد

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

فكافح[1] سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوّة والعلوم الجمّة، ابتلاء له في علمه. وفيه دليلُ بطلان قول الرافضة: إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحدٌ أعلم منه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ غير منصرف، أبو عمرو. وجعله اسماً للقبيلة، أو: المدينة. وغيره بالتنوين. جعله اسماً للحيّ، أو: الأب الأكبر ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿من سبأ بنبأ﴾ من محاسن الكلام. ويسمى البديع، وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى هاهنا. ألاَ ترى أنّه لو وضع مكان ﴿بنبأ﴾ بخبر؛ لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحّ؛ لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

٢٣ ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ هي بلقيس بنت شراحيل. وكان أبوها ملك أرض اليمن، وقد ولد له أربعون ملكاً ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك. وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ راجع إلى سبأ على تأويل القوم، أو: أهل المدينة ﴿وَأُوتِيَتْ﴾ حال. و«قد» مقدّرة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ما يليق بحالها ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ كبير. قيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً. وكان من ذهب وفضّة. وكان مرصّعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزمرد، وعليه سبعة أبيات، على كلّ بيت باب مغلق. واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرشها، كذلك. وقد أخفى الله تعالى على سليمان لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ـ عليهما السلام ـ.

٢٤ ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل التوحيد ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق. ولا يبعد من

(١) «كافح»: لقي مواجهة.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

الهدهد التهدّي إلى معرفة الله تعالى، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاءُ الرجاحُ العقول يهتدون لها.

٢٥ ـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد. أي: ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ لئلاّ ﴿يسجدوا﴾ فحذف الجارّ مع أنْ، وأدغمت النون في اللام. ويجوز أن تكون ﴿لا﴾ مزيدة. ويكون المعنى: ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى أن يسجدوا. وبالتخفيف: يزيد، وعليّ. وتقديره: ﴿ألا﴾ يا هؤلاء ﴿اسجدوا﴾. فـ﴿ألا﴾ للتنبيه، و﴿يا﴾ حرف النداء، ومناداه محذوف. فمن شدّد لم يقف إلاّ على ﴿العرش العظيم﴾. ومن خفّف وقف على ﴿فهم لا يهتدون﴾ ثمّ ابتدأ ﴿ألا يا اسجدوا﴾. وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجّاج: إنّه لا يجب السجود مع التشديد؛ لأنّ مواضع السجدة إمّا أمر بها، أو مدح للآتي بها، أو: ذمّ لتاركها. وإحدى القراءتين أمر، والأخرى ذمّ للتارك ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ سمّي المخبوء بالمصدر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قتادة: خَبْءُ السماء: المطر، وخَبْءُ الأرض: النبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(١) وبالتاء فيهما: عليّ، وحفص.

٢٦ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾ وَصْفُ الهدهد عرش الله بالعظم تعظيمٌ له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وَوَصْفه عرش بلقيس تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. إلى هاهنا كلام الهدهد.

٢٧ ـ فلمّا فرغ من كلامه ﴿۞ قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر؛ الذي هو التأمّل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. وهذا

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يخفون... يعلنون...﴾ وهي قراءة: حمزة، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٤٨).

﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾

أبلغُ من: أم كذبت؛ لأنّه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق به. ثمّ كتب سليمان كتاباً صورته: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد؛ فلا ﴿تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾. وطبعه بالمسك، وختمه بخاتمه. وقال للهدهد:

٢٨ ـ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ﴾ بسكون الهاء تخفيفاً، أبو عمرو، وعاصم، وحمزة. ويختلسها كسر لتدلّ الكسرة على الياء المحذوفة؛ يزيد وقالون ويعقوب. ﴿فألقهي﴾ بإثبات الياء: غيرهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها؛ لأنّه ذكرهم معها في قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤] وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنحَّ ﴿عنهم﴾ إلى مكانٍ قريب، بحيث تراهم ولا يرونك؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما الذي يردّونه من الجواب.

٢٩ ـ فأخذ الهدهدُ الكتابَ بمنقاره، ودخل عليها من كوّة، فطرح الكتاب على نحرها، وهي راقدةٌ، وتوارى في الكوّة، فانتبهت فزعة. أو: أتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة، فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة. فلمّا رأت الخاتم ﴿قَالَتْ﴾ لقومها خاضعة خائفة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيّ ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو مختوم. قالﷺ: «كرامة الكتاب: ختمه»[1]. وقيل: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفّ به. أو: مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم، أو: لأنه من عند ملك كريم.

٣٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو تبيين لما ألقي إليها، كأنها لمّا قالت ﴿إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: ﴿إنّه من سليمان وإنّه﴾ كيت وكيت.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٩٩).

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً

٣١ - و«أن» في: ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ لا ترفعوا ﴿عَلَيَّ﴾ ولا تتكبروا كما تفعل الملوك مفسّرة كقوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] يعني: أي: امشوا - ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين، أو: منقادين. وكتب الأنبياء - عليهم السلام - مبنيّة على الإيجاز، والاختصار.

٣٢ - ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليّ في الأمر الذي نزل بي. والفتوى: الجواب في الحادثة؛ اشتقّت على طريق الاستعارة من الفَتَاء في السنّ. والمراد - هنا - بالفتوى: الإشارة عليها بما عندهم من الرأي. وقصدُها بالرجوع إلى الاستشار بهم تطييبُ أنفسهم ليمالئوها، ويقوموا معها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة، أو: ممضية حكماً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ - بكسر النون. والفتح لحن؛ لأن النون إنّما تُفتح في موضع الرفع، وهذا في موضع النصب. وأصله: تشهدونني، فحذفت النون الأولى للنصب. والياء لدلالة الكسرة عليها. وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب، أي: تحضروني، أو: تشيروني، وتشهدوا أنّه صواب، أي: لا أَبُتُّ أمراً إلاّ بمحضركم. قيل: كان أهلُ مشورتها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، كلّ واحد على عشرة آلاف.

٣٣ - ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوّة: قوّة الأجساد، والآلات، وبالبأس: النجدة، والبلاء في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: موكولٌ هو إليك، ونحنُ مطيعون لك، فمرينا بأمرك نطعك، ولا نخالفك. كأنّهم أشاروا عليها بالقتال. أو: أرادوا: نحنُ من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي، والمشورة، وأنتِ ذات الرأي، والتدبير، فانظري ماذا ترين نتبع رأيك. فلما أحسّت منهم الميلَ إلى المحاربة مالتْ إلى المصالحة، ورتّبت الجواب، فزيّفت أوّلاً ما ذكروه، وأرتهم الخطأ فيه، حيث:

٣٤ - ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة، وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خرّبوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أذلّوا أعزّتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا، وأسروا.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾

فذكرتْ لهم سوءَ مغبة الحرب. ثمّ قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرّة التي لا تتغير؛ لأنّها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك، ورأت، ثمّ ذكرت بعد ذلك حديث الهدية، وما رأت من الرأي السّديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها. واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية. ومن استباح حراماً فقد كفر. فإذا احتجّ له بالقرآن على وجه التحريف، فقد جمع بين كفرين.

٣٥ ـ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أي: ﴿مرسلة﴾ رسلاً ﴿بهديّه﴾ ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ فمنتظرة ﴿بِمَ﴾ ـ أي: بما؛ لأنّ الألف تحذف مع حرف الجرّ في: «ما» الاستفهامية ـ ﴿يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بقبولها أم بردّها؛ لأنّها عرفت عادة الملوك، وحُسْن مواقع الهدايا عندهم. فإن كان ملكاً قبلها وانصرف، وإن كان نبيّاً ردّها، ولم يرضَ منّا إلاّ أن نتّبعه على دينه. فبعثت خمسمئة غلام عليهم ثياب الجواري وحليّهن، راكبي خيل مغشّاة بالديباج، ومحلاّة اللجم والسروج بالذهب المرصّع بالجواهر، وخمسمئة جارية على رِمَاك[1] في زيّ الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضّة، وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت، وحُقّاً فيه درّة عذراء، وجَزْعة معوجّة الثقب. وبعثت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر بن عمرو، بدليل قوله تعالى ﴿بم يرجع المرسلون﴾. وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنتَ نبيّاً فميّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقّ، واثقب الدرّة ثقباً مستوياً، [واسلك في الخرزة خيطاً][2]. ثمّ قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولَنك منظره، وإن رأيته بشّاً لطيفاً فهو نبيّ. فأقبل الهدهد، فأخبر سليمانَ الخبَرَ كلّه. فأمر سليمان ـ عليه السلام ـ الجنّ، فضربوا لبِنَات الذهب والفضّة، وفرشوها في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شُرَفه من الذهب والفضّة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات. وأمر بأولاد الجنّ ـ وهم خلقٌ كثير ـ فأُقيموا عن

(١) «رِماك»: أي: إناث الخيل.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، ومستدرك من المطبوع.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾

اليمين واليسار، ثمّ قعد على سريره والكراسيّ من جانبيه. واصطفّت الشياطينُ صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوامّ كذلك. فلمّا دنا القوم، ورأوا الدوابّ تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا. ولمّا وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طَلْقٍ، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، وقال: أين الحُقُّ؟ فأمر الأَرَضَة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت فيها[1]، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه. ثمّ ردّ الهدية، وقال للمنذر: ﴿ارجع إليهم﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ رسولُها المنذرُ بن عمرو ﴿سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾؟ بنونين، وإثبات الياء في الوصل والوقف: مكيّ وسهل. وافق: مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل. ﴿أتمدّونّي﴾: حمزة، ويعقوب في الحالين. وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما. والخطاب للرسل ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوّة، والملك، والنعمة. وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من زخارف الدنيا ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ الهديّة: اسم المهدَى، كما أنّ العطيّة اسم المعطَى، فتضاف إلى المهدِي والمهدَى له. تقول: هذه هديّة فلان، تريد: هي التي أهداها، أو: أهديت إليه. والمعنى: أنّ ما عندي خير ممّا عندكم، وذلك أنّ الله آتاني الدِّين الذي فيه الحظّ الأوفر، والغِنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يُستزاد عليه. فكيف يرضى مثلي بأنّ يمدّ بمال؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلاّ ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزادون، ويُهْدَى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همّتكم. وحالي خلاف حالكم، وما أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلاّ بالإيمان، وترك المجوسيّة. والفرق بين قولك: أتمدّني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء، أنّي إذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي في الغِنى، وهو مع ذلك يمدّني بمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن

(١) أي: في الخرزة المارّ ذكرها.

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ﴾

خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاجُ معه إلى إمداده، كأنّي أقول له: أنكر عليك ما فعلت؛ فإنّي غنيّ عنه. وعليه ورد: ﴿فما آتاني الله﴾.

وَوَجْهُ الإضراب: أنه لمّا أنكر عليهم الإمداد، وعلّل إنكاره؛ أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو أنّهم لا يعرفون سبب رِضاً ولا فرحٍ إلاّ أن يُهدى إليهم حظّ من الدنيا؛ التي لا يعلمون غيرها.

٣٧ ـ ﴿ٱرۡجِعۡ﴾ خطاب للرسول، أو: الهدهد محمّلاً كتاباً آخر ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا﴾ وحقيقة القِبَل: المقاومة، والمقابلة، أي: لا يقدرون أن يقابلوهم ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ الذلّ: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ، والملك. والصغار: أن يقعوا في أسرٍ، واستعباد.

٣٨ ـ فلمّا رجع إليها رسولُها بالهدايا، وقصَّ عليها القصّة، قالت: هو نبيّ، ومالنا به طاقة. ثمّ جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات، وغلّقت الأبواب، ووكّلت به حرساً يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه. وشَخَصَتْ إليه في اثني عشر ألف قَيْل[1]، تحت كل قَيْل ألوف. فلمّا بلغت على رأس فرسخ من سليمان ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أراد أن يريها بذلك بعض ما خصّه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان ـعليه السلامـ. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم، لعلمه أنّها إذا أسلمت لم يحلّ له أَخْذُ مالها. وهذا بعيدٌ عند أهل التحقيق. أو: أراد أن يُؤتى به فينكّر، ويغيّر، ثمّ ينظر أتثبته، أم تنكره، اختباراً لعقلها.

٣٩ ـ ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وهو: الخبيث المارد، واسمه ذكوان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ مجلس حكمك، وقضائك ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ﴾ على حمله

(١) «القَيْل»: من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم.

لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ

﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو، لا أختزل منه شيئاً، ولا أبدّله. فقال سليمان ـ عليه السلام ـ: أريد أعْجَلَ من هذا.

٤٠ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ أي: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله الله تعالى عند قول العفريت، أو: جبريل ـ عليه السلام ـ. والكتاب على هذا: اللوح المحفوظ. أو: الخضر. أو: آصف بن برخيا كاتب سليمان ـ عليه السلام ـ. وهو الأصحّ. وعليه الجمهور. وكان عنده اسمُ الله الأعظم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وهو: يا حيّ، يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام. أو: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً، لا إله إلاّ أنت. وقيل: كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً ـ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بالعرش. و﴿آتيك﴾ في الموضعين يجوزُ أن يكون فعلاً، أو: اسم فاعل. ومعنى قوله ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن تردّه أبصرتَ العرشَ بين يديك. ويُروى أنّ آصف قال لسليمان ـ عليه السلام ـ: مُدّ عينيك حتّى ينتهي طرفك. فمدّ عينيه، فنظر نحو اليمين، ودعا آصف، فغار العرش في مكانه، ثمّ نبغ عند مجلس سليمان ـ عليه السلام ـ بقدرة الله تعالى، قبل أن يَرُدَّ طرفه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ثابتاً لديه، غير مضطرب ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: حصول مرادي، وهو حضور العرش، في مدّة ارتداد الطرف ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ عليّ، وإحسانه إليّ بلا استحقاق مني، بل هو فضلٌ خالٍ عن العوضِ، صافٍ عن الغرض ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ ليمتحنني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ إنعامه ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّه يحطّ به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، ويستجلب به المزيد، وترتبط به النعمة، فالشكرُ قيدٌ للنعمة الموجودة، وصيدٌ للنعمة المفقودة. وفي كلام بعضهم: «إنّ كفران النعمة بوار. وقلما اتَّسَعَتْ[1] نافرةٌ فرجعت في نصابها. فاستدعِ شاردها

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: أقشعت.

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ

بالشكر. واستدمْ راهنها بكرم الجوار. واعلم أنّ سبوغَ ستر الله تعالى متقلّص عمّا قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً» أي: لم تشكر لله نعمه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته. قال الواسطي: ما كان مِنَّا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنّة والفضل علينا.

٤١ ـ ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيّروا، أي: اجعلوا مقدّمه مؤخّره، وأعلاه أسفله ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على الجواب ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفة عرشها، أو: للجواب الصواب إذا سُئِلت عنه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ ها: للتنبيه. والكاف: للتشبيه، وذا: اسم إشارة. ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن: أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأجابت أحسن جواب. فلم تقل: هو هو، ولا ليس به. وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقطعْ في المحتمل للأمرين. أو: لمّا شبّهوا عليها بقولهم: ﴿أهكذا عرشك﴾ شبّهت عليهم بقولها: ﴿كأنّه هو﴾ مع أنّها علمتْ أنّه عرشها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من كلام بلقيس. أي: ﴿وأوتينا العلم﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحّة نبوّتك بالآيات المتقدّمة من أمر الهدهد والرسل، من قبل هذه المعجزة، أي: أخبار[1] العرش، أو: من قبل هذه الحالة، ﴿وكنّا مسلمين﴾ منقادين لك، مطيعين لأمرك. أو: من كلام سليمان ومَلَئِه. عطفوا على كلامها قولهم: ﴿وأوتينا العلم﴾ بالله، وبقدرته، وبصحّة ما جاء من عنده قبل علمها. أو: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ موحّدين، خاضعين.

٤٣ ـ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ متّصل بكلام سليمان. أي: وصدّها

---

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: إحضار.

إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

عن العلم بما علمناه ـ أو: عن التقدّم إلى الإسلام ـ عبادة الشمس، ونَشْؤها بين ظهرانيِّ الكفرة. ثم بيّن نَشْأها بين الكفرة بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. أو: كلام مبتدأ. أي: قال الله تعالى: ﴿وصدّها﴾ قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالُها عن سواء السبيل. أو: ﴿صدّها﴾ الله، أو: سليمان عمّا ﴿كانت تعبد﴾ بتقدير حذف الجار، وإيصال الفعل.

٤٤ ـ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ القصر، أو: صحن الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء عظيماً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ﴿سأقيها﴾: بالهمزة: مكيّ. رُوي: أنّ سليمان أمر قبل قدومها، فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير، والجنّ، والإنس. وإنّما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوّته. وقيل: إنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنّها كانت بنت جنّيّة! وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجنّ والإنس، فيخرجون من مُلْكِ سليمان إلى مُلْكٍ هو أشدّ، فقالوا له: إنّ في عقلها شيئاً، وهي شَعْراء الساقين، ورِجلها كحافر الحمار. فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرحَ ليتعرف ساقها ورِجْلها. فكشفت عنهما فإذا هي أحسنُ الناس ساقاً وقدماً ـ إلاّ أنّها شعراء ـ فصرف بصره، ثمّ ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملّس مستو ـ ومنه: الأمرد ـ ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج. وأراد سليمان تزويجها، فكره شعرها، فعملت لها الشياطين النورة، فأزالته، فنكحها سليمان، وأحبّها، وأقرّها على ملكها. وكان يزورُها في الشهر مرّة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدتْ له ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المحققون: لا يحتمل أن يحتالَ سليمانُ ـ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

عليه السلام ـ لينظر إلى ساقيها وهي أجنبيّة. فلا يصحّ القولُ بمثله.

٤٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًا﴾ بدل ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكسر النون في الوصل: عاصم، وحمزة، وبصريّ. وبضمّ النون: غيرهم إتباعاً للباء. والمعنى: بأن اعبدوا الله، أي: وَحِّدوه ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فَرِيقَانِ﴾ خبر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة. وهي العامل في ﴿إذا﴾. والمعنى: فإذا قوم صالح ﴿فريقان﴾ مؤمن به وكافر به ﴿يختصمون﴾ فيقول كلّ فريق: الحقّ معي. وهو مبيَّن في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]. وقال الفريق الكافر: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

٤٦ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب الذي توعدون به ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة؟ ﴿لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة.

٤٧ ـ ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ تشاءمنا بك؛ لأنهم قُحِطوا عند مبعثه؛ لتكذيبهم فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: ﴿تطيّرنا﴾. وقرىء به. فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت الألف لسكون الطاء ﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشرّكم عند الله، وهو قدره، وقسمته. أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم، وفتنة. ومنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. وأصله: أنّ المسافر إذا مرّ بطائر فيزجره، فإن مرّ سانحاً[١] تيامن. وإذا مرّ

---

(١) «سانحاً»: السانح: ما ولاك ميامنه، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك.

بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

بارحاً[١] تشاءم. فلمّا نسبوا الخير والشرّ إلى الطّائر استعير لما كان سببهما من قدر الله، وقسمته، أو: من عمل العبد؛ الذي هو السَّببُ في الرحمة، والنّقمة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون، أو: تعذّبون بذنبكم.

٤٨ ـ ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود، وهي: الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو جمع لا واحد له، ولذا جاز تمييز التسعة به. فكأنّه قيل: تسعة أنفس. وهو من الثلاثة إلى العشرة. وعن أبي دُرَيْدٍ[٢]: رأسهم قدار بن سالف. وهم الذين سعوا في عقر الناقة. وكانوا أبناءَ أشرافهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: أنّ شأنهم الإفساد البحت، لا يخلط بشيء من الصلاح، كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح. وعن الحسن: يظلمون الناسَ، ولا يمنعون الظالمين من الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معايبَ الناس، ولا يسترون عوراتهم.

٤٩ ـ ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ تحالفوا ـ خبر في محلّ الحال بإضمار قد، أي: ﴿قالوا﴾ متقاسمين. أو: أمر، أي: أمر بعضهم بعضاً بالقسم ـ ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ لنقتلنّه بياتاً، أي: ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ ولده وتبعه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ لوليّ دمه. ﴿لِتبيّتنّه﴾ بالتاء وبضمّ التاء الثانية ﴿ثمّ لتقولنّ﴾ بالتاء وضم اللام: حمزة، وعليّ ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾: حفص. ﴿مَهلَك﴾: أبو بكر، وحمّاد، والمفضّل، مِن: هلك. فالأوّل: موضع الهلاك، والثاني: المصدر. ﴿مُهلَك﴾: غيرهم، مِن: أهلك، وهو الإهلاك، أو: مكان الإهلاك. أي: لم نتعرّض لأهله، فكيف تعرّضنا له؟ أو: ما حضرنا موضع هلاكه، فكيف تولّيناه؟ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما ذكرنا.

(١) «بارحاً»: البارح: ما ولاك مياسره، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك.
(٢) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: دؤاد.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

٥٠ ـ ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح ـ عليه السلام ـ وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبّه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. رُوي: أنّه كان لصالح مسجد في الحجر في شِعْبٍ يصلّي فيه، فقالوا: زعم صالح أنّه يفرغ منّا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث. فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناه، ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله صخرةً من الهَضْب حيالهم[1]، فبادروا، فطبّقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فُعِل بقومهم، وعذّب الله كلّاً منهم في مكانه، ونجّى صالحاً ـ عليه السلام ـ ومَن معه.

٥١ ـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بفتح الألف: كوفيّ، وسهلٌ، وبكسرها: غيرهم، على الاستئناف. ومن فتحه رفعه على أنّه بدل من العاقبة، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهي تدميرهم. أو: نصبه على معنى لـ﴿أنّا﴾، أو: على أنّه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالصيحة.

٥٢ ـ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ ساقطة منهدمة، مِن: خوى النجم؛ إذا سقط. أو: خالية من الخَواء. وهي حال عمل فيها ما دلّ عليه ﴿تلك﴾. ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعل بثمود ﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا، فيتّعظون.

٥٣ ـ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصالح ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ترك أوامره،

(١) «صخرة من الهضب حيالهم»: أي: من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة. وقعد «حياله»: أي: إزاءه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

وكانوا أربعة آلاف، نجوا مع صالح من العذاب.

٥٤ ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ﴾ أي: واذكر ﴿لوطاً﴾. و﴿إذ﴾ بدل من ﴿لوطاً﴾ أي: واذكر وقت قول لوط ﴿لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: إتيان الذكور ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنّها فاحشة لم تسبقوا إليها؛ من: بصر القلب. أو: يرى ذلك بعضُهم من بعض؛ لأنّهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها لا يتستّر بعضهم من بعض مجانةً، وانهماكاً في المعصية. أو: ﴿تبصرون﴾ آثار العصاة قبلكم، وما نزل بهم. ثمّ صرح فقال:

٥٥ ـ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ للشهوة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: أنّ الله تعالى إنّما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادّة لله في حكمته ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعل الجاهلين بأنّها فاحشة مع علمكم بذلك. أو: أريد بالجهل: السفاهة، والمجانة التي كانوا عليها. وقد اجتمع الخطابُ والغيبةُ في قوله: ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ و﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] فغلب الخطاب على الغيبة لأنّه أقوى، إذ الأصلُ أن يكون الكلامُ بين الحاضرين.

٥٦ ـ ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لوطاً ومتّبعيه. فخبر ﴿كان﴾: ﴿جواب﴾. واسمه: ﴿أن قالوا﴾ ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزّهون عن القذورات[1]، فينكرون هذا العمل القذر، ويغيظنا إنكارهم. وقيل: هو استهزاء: كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

٥٧ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: القاذورات.

قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ بالتشديد، سوى حماد، وأبي بكر. أي: قدّرنا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الباقين في العذاب.

٥٨ ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار.

٥٩ ـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمر رسوله محمّداً ﷺ بتحميده، ثمّ بالصلاة على المصطفين من عباده؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيّته وقدرته على كلّ شيء. وهو تعليمٌ لكلّ متكلّم في كلّ أمر ذي بال بأن يتبرّك بهما، ويستظهر بمكانهما. أو: هو خطاب للوط ـ عليه السلام ـ وأن يحمد الله على هلاك كفّار قومه، ويسلّم على من اصطفاه الله، ونجّاه من هلكتهم، وعصمه من ذنوبهم ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياء: بصريّ، وعاصم. ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتّى يوازن بينه وبين من هو خالق كلّ شيء. وإنّما هو إلزام لهم، وتهكّم بحالهم. وذلك أنّهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يؤثر عاقلٌ شيئاً على شيء إلاّ لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير، ومنفعة. فقيل لهم ـ مع العلم بأنّه لا خير فيما آثروه، وأنّهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً ـ: لينبّهوا على الخطأ المفرط، والجهل المُورِط؛ وليعلموا: أنّ الإيثارَ يجبُ أن يكون للخير الزائد. وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله خير، وأبقى، وأجلّ، وأكرم»[1].

ثمّ عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، فقال:

٦٠ ـ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والفرق بين ﴿أم﴾ و﴿أم﴾ في ﴿أمّا يشركون﴾ و﴿أمّن خلق السموات﴾ أن تلك متّصلة، إذ المعنى: أيّهما خير،

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد، وأخرجه الثعلبي في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر... (حاشية الكشاف ٣ / ٣٧٥).

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة. لمّا قال ﴿آلله خير﴾ أم الآلهة، قال: بل ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ خير، تقريراً لهم بأنّ من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلّم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته، وإيذاناً بأنّ إنبات الحدائق ـ المختلفة الأصناف، والألوان، والطُعم، والأشكال مع حسنها ـ بماء واحد، لا يقدر عليه إلاّ هو وحده ﴿بِهِۦ﴾ بالماء ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين. والحديقة: البستان عليه حائط. من الإحداق، وهو: الإحاطة ﴿ذَاتَ﴾ ولم يقل ذوات؛ لأنّ المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت ﴿بَهۡجَةٍ﴾ حسن، لأنّ الناظر يبتهجُ به، ثم رشَّح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد: أنّ تأتّي ذلك محالٌ من غيره ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به، ويجعل شريكاً له ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾ به غيره. أو: ﴿يعدلون﴾ عن الحقّ الذي هو التوحيد. و﴿بل هم﴾ بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم.

٦١ ـ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أم من خلق﴾ فكان حكمها حكمه. ﴿قَرَارًا﴾ دحاها، وسوّاها للاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ ظرف، أي: وسطها. وهو المفعول الثاني. والأوّل ﴿أَنۡهَٰرًا﴾. و﴿بين البحرين﴾ مثله ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ للأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً تمنعها عن الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًاۗ﴾ مانعاً أن يختلطا ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ التوحيد، فلا يؤمنون.

٦٢ ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضطرار: افتعال من الضرورة، وهي: الحالة المحوجة إلى اللجأ. يقال: اضطره إلى كذا. والفاعل والمفعول مضطّر. والمضطّر: الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر إلى الإلجاء

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

والتضرّع إلى الله، أو: المذنب إذا استغفر، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد، وهو منه على خطر ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الضرّ، أو: الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فيها. وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك، والتسلّط ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وبالياء: أبو عمرو. وبالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص. و﴿ما﴾ مزيدة. أي: ﴿تذكّرون﴾ تذكّراً قليلاً.

٦٣ ـ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم بالنجوم ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ليلاً، وبعلامات في الأرض نهاراً ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ ﴿بُشْرًۢا﴾ من البشارة. وقد مرّ[2] ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قدام المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦٤ ـ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشىء الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وإنما قيل لهم: ﴿ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنّه أزيحت علّتهم بالتمكين من المعرفة، والإقرار، فلم يبقَ لهم عذرٌ في الإنكار ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطَر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النباتَ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجّتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ مع الله إلهاً آخر.

٦٥ ـ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ فاعل ﴿يعلم﴾.

---

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿تذّكّرون﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبي عمرو، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان، ويعقوب، وأبي جعفر، معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٦٣).

(٢) أي في سورة الأعراف آية (٥٧).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾

و﴿الغيب﴾ ـ وهو ما لم يقمْ عليه دليلٌ، ولا اطّلع عليه مخلوق ـ: مفعوله. ﴿والله﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾. والمعنى: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله. نعم إنّ الله يتعالى عن أن يكونَ ممّن في السموات والأرض، ولكنّه جاء على لغة بني تميم، حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتّصل، يجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتّصل، ويقولون: ما في الدار أحد إلاّ حمار. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من زعم أنّه يعلمُ ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية. والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله﴾. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يعلمون ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ينشرون.

٦٦ ـ ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾: مكيّ، وبصريّ، ويزيد، والمفضّل. أي: انتهى وتكامل، من: أدركت الفاكهة: تكاملت نضجاً. ﴿بل ادّرك﴾ عن الأعشى. افتعل. ﴿بل ادّارك﴾: غيرهم. استحكم. وأصله: تدارك، فأدغمت التاء في الدال، وزيد ألف الوصل ليمكن التكلّم بها ﴿عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في شأن الآخرة، ومعناها. والمعنى: أنّ أسباب استحكام العلم وتكامله بأنّ القيامة كائنة قد حصلت لهم، ومكّنوا من معرفته، وهم شاكّون جاهلون. وذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم، وتكرير لجهلهم. وصفهم أوّلاً بأنّهم لا يشعرون وقت البعث، ثمّ بأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة كائنة، ثمّ بأنّهم يخبطون في شكّ ومرية، فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، ثمّ بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى. وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه؛ فلذا عدّاه بـ «من» دون «عن» لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التدبّر، والتفكّر. ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية ـ وهو وصفُ المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكين من المعرفة ـ بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب؛ أنّ العباد لا علم لهم بشيء منه: أنه لمّا ذكر أنّ العباد لا يعلمون الغيب؛ كان هذا بياناً لعجزهم،

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أنّ عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنّهم يقولون للكائن الذي لا بدّ من كونه، وهو وقت جزاء أعمالهم: لا يكون ـ مع أنّ عندهم أسباب معرفة كونه، واستحكام العلم به. وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكّماً بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما أَعْلَمَكَ! على سبيل الهزء. وذلك حيث شكّوا، وعموا عن إثباته، الذي الطريق إلى عمله مسلوك، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه، الذي لا طريق إلى معرفته. ويجوز أن يكون ﴿أدرك﴾ بمعنى: انتهى وفني، من قولك: أَدْرَكَتِ الثمرة؛ لأنّ تلك غايتها التي عندها تُعْدَمُ. وقد فسّرها الحسن بـ: اضمحلّ علمهم في الآخرة. و﴿تدارك﴾ من: تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك.

٦٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا أحياء؟! وتكرير حرف الاستفهام في: «إذا» و«إنَّ» في قراءة عاصم، وحمزة، وخلف، إنكار بعد إنكار، وجحود عقيب جحود، ودليل على كفر مؤكّد مبالغ فيه. والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿لمخرجون﴾ وهو نخرج؛ لأنّ اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام، أو أنّ، أو لام الابتداء، لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن؟ والضمير في ﴿إنّا﴾ لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم، لكنّه غُلِّبَتِ الحكاية على الغائب. ﴿وآباؤنا﴾ عطف على الضمير في ﴿كنّا﴾ لأنّ المفعول جرى مجرى التوكيد.

٦٨ ـ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل محمّد ﷺ. قدّم هنا ﴿هذا﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي المؤمنون قُدِّم ﴿نحن وآباؤنا﴾ على ﴿هذا﴾ ليدلّ على أنّ المقصود بالذكر هو البعث هنا، وثمَّ المبعوث ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا إلاّ أحاديثهم، وأكاذيبهم.

٦٩ ـ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: آخر أمر الكافرين. وفي ذكر الإجرام لطف للمسلمين في ترك الجرائم، كقوله تعالى:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥].

٧٠ ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنّهم لم يتبعوك، ولم يُسْلِموا فَيَسْلَمُوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم وكيدهم لك، فإنّ الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضَيقاً بالفتح، وهو قراءة غير ابن كثير، وبالكسر، وهو قراءته.

٧١ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّ العذابَ نازلٌ بالمكذّب.

٧٢ ـ ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استعجلوا العذاب الموعود، فقيل لهم: عسى أن يكون ردفكم بعضه، وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللام للتأكيد كالباء في: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. أو: ضمّن معنى فعل يتعدّى باللام، نحو: دنا لكم، وأزف لكم. ومعناه: تبعكم، ولحقكم، وعسى ولعلّ وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدلّ على صدق الأمر، وجدّه، فعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

٧٣ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: إفضال ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بترك المعاجلة بالعذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أكثرهم لا يعرفون حقّ النعمة فيه، ولا يشكرونه، فيستعجلون العذاب بجهلهم.

٧٤ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من القول. فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكن له وقت مقدّر. أو: أنّه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ، ومكائدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه. وقرىء ﴿تَكُنّ﴾ يقال: كننت الشيء، وأكننته: إذا

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

سترته، وأخفيته.

٧٥ ـ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ سمّى الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة، وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العافية والعاقبة، ونظائرهما: الرميّة، والذبيحة، والنطيحة في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة كالراوية. كأنّه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة إلاّ وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ. والمبين: الظاهر، البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة.

٧٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإنّهم اختلفوا في المسيح، فتحزّبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة، حتّى لعن بعضهم بعضاً. وقد نزل القرآنُ ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا، وأخذوا به، وأسلموا. يريد: اليهود، والنصارى.

٧٧ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم، وآمن، أي: من بني إسرائيل. أو: منهم، ومن غيرهم.

٧٨ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدله؛ لأنّه لا يقضي إلاّ بالعدل، فسمّي المحكوم به حكماً. أو: بحكمته. ويدلّ عليه قراءة من قرأ ﴿بِحِكَمه﴾ جمع حكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه. أو: ﴿العزيز﴾ في انتقامه من المبطلين، ﴿العليم﴾ بالفصل بينهم وبين المحقّين.

٧٩ ـ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمره بالتوكّل على الله، وقلّة المبالاة بأعداء الدين ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وعلّل التوكّل بأنّه على الحقّ الأبلج، وهو: الدين الواضح الذي لا يتعلّق به شكّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحقّ حقيق بالوثوق على الله، وبنصرته.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

٨٠، ٨١ ـ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لمّا كانوا لا يعون ما يسمعون، ولا به ينتفعون، شُبِّهوا بالموتى، وهم: أحياء، صحاح الحواس، وبالصمّ الذين يُنْعَقُ بهم فلا يسمعون، وبالعمي حيث يضلّون الطريق، ولا يقدر أحدٌ أن ينزع ذلك عنهم، ويجعلهم هداةً بصراء إلاّ الله عزَّ وجلَّ. ثمّ أكّد الحال الأصمِّ بقوله ﴿إذا ولّوا مدبرين﴾ لأنّه إذا تباعد عن الداعي بأن يُولي عنه مدبراً، كان أبعد عن إدراك صوته. ﴿ولاَ يَسمع الصمُّ﴾: مكّيّ، وكذا في الروم. ﴿وما أنت تهدي العميَ﴾ وكذا في الروم: حمزة ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلاّ على الذين علم الله أنّهم يؤمنون بآياته، أي: يصدّقون بها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون مِن قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني: جعله سالماً، لله خالصاً له.

٨٢ ـ ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سمّى معنى القول ومؤدّاه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب. ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفة الساعة، وظهور أشراطها، وحين لا تنفع التوبة ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هي: الجسّاسة. في الحديث: «طولها ستّون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هاربٌ، ولها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان»[١] وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيّل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرّة، وذنب كبش، وخفّ بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربيّة، فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[٢] بخروجي، لأنّ خروجها من الآيات. وتقول: ألاَ لعنة

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة. (حاشية الكشاف ٣ / ٣٨٤).
(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿إنّ﴾ بالكسر وهي قراءة: ابن عامر، =

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

الله على الظالمين. أو: تكلّمهم ببطلان الأديان كلّها سوى دين الإسلام، أو: بأنّ هذا مؤمن، وهذا كافر. وفتح ﴿أنّ﴾: كوفيّ وسهل، على حذف الجار، أي: تكلّمهم بأن. وغيرهم كسروا؛ لأنَّ الكلامَ بمعنى القول، أو: بإضمار القول، أي: تقول الدابّة ذلك. ويكون المعنى: بآيات ربّنا، أو هي حكاية لقول الله تعالى عند ذلك. ثمّ ذكر قيام الساعة فقال:

٨٣ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ «مِنْ»: للتبعيض، أي: واذكر يوم نجمع من كلّ أمة من الأمم زمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ «مِنْ»: للتبيين ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتّى يجتمعوا، ثمّ يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارةٌ عن كثرة العدد، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة.

٨٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حضروا موقف الحساب، والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديداً: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ المنزلة على رسلي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال، كأنّه قال ﴿أكذبتم بآياتي﴾ بادىء الرأي من غير فكر، ولا نظر يؤدّي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنّها حقيقةٌ بالتصديق، أو: بالتكذيب؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث لم تتفكّروا فيها؟ فإنّكم لم تخلقوا عبثاً.

٨٥ ـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

٨٦ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حال. جعل الإبصار للنهار، وهو لأهله. والتقابل مُراعى من حيث المعنى؛ لأنّ معنى ﴿مبصراً﴾:

= وابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وخلف، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٧١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ﴾

لیبصروا فيه طرق التقلّب في المكاسب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون فيعتبرون. وفيه دليلٌ على صحّة البعث؛ لأنَّ معناه: ألم يعلموا أنّا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا؛ ليعلموا أنّ ذلك لم يجعل عبثاً، بل محنة وابتلاء، ولا بدّ عند ذلك من ثوابٍ وعقاب. فإذا لم يكونا في هذه الدار، فلا بدّ من دارٍ أخرى للثواب والعقاب.

٨٧ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن، أو: جمع صورة. والنافخ إسرافيل ـ عليه السلام ـ ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ واختير ﴿فزع﴾ على يفزع؛ للإشعار بتحقّق الفزع وثبوته، فإنه كائنٌ لا محالة. والمراد: فزعهم عند النفخة الأولى حين يُصْعَقُون ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا من ثبّت الله قلبه من الملائكة. قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام ـ. وقيل: الشهداء، وقيل: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ: منهم موسى ـ عليه السلام ـ لأنّه صُعِق مرة. ومثله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: حمزة، وحفص، وخلف. ﴿آتوه﴾: غيرهم، وأصله: آتيوه ﴿دَاخِرِينَ﴾ حال، أي: صاغرين. ومعنى الإتيان: حضورهم الموقف، أو رجوعهم إلى أمره، وانقيادهم له.

٨٨ ـ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين: شاميّ، وحمزة، ويزيد، وعاصم. وبكسرها: غيرهم. حال من المخاطب ـ ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة، ممسكة عن الحركة ـ مِن: جمد في مكانه: إذا لم يبرح ـ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿تحسبها﴾ ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: مرّاً مثل مرّ السحاب. والمعنى: أنّك إذا رأيتَ الجبال وقت النَّفخة ظننتها ثابتة في مكانٍ واحد لعظمها، وهي تسيرُ سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا يكادُ يُبَيَّنُ حركتها، كما قال النابغةُ في صفة جيش:

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

بأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تَهَمْلَجُ[1]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر عمل فيه ما دلّ عليه ﴿تمرّ﴾ لأنّ مُرورَها كمرّ السّحاب من صُنْع الله، فكأنه قيل: صنع الله ذلك صنعاً. وذكر اسم الله؛ لأنه لم يذكر قبل ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكم خلقه ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يفعلون مكّيّ، وبصريّ غير سهل، وأبو بكر غير يحيى، وغيرهم: بالتاء، أي: أنّه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك. ثمّ لخّص ذلك بقوله:

٨٩ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بقول: لا إله إلا الله عند الجمهور ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: فله خيرٌ حاصلٌ من جهتها، وهو الجنّة. وعلى هذا لا يكون ﴿خير﴾ بمعنى أفضل، ويكون ﴿منها﴾ في موضع رفع صفة لخير ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ كوفيّ، أي: ﴿من فزعٍ﴾ شديد، مفرط الشدّة، وهو: خوف النار. أو: من فزع مّا وإن قلّ. وبغير تنوين: غيرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كوفيّ، ومدنيّ. وبكسر المِيم: غيرهم، والمراد: يوم القيامة ﴿ءَامِنُونَ﴾ أمِنَ يعدى بالجارّ وبنفسه، كقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

٩٠ ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالشرك ﴿فَكُبَّتْ﴾ ألقيت ﴿وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ يقال: كببت الرجل؛ ألقيته على وجهه، أي: ألقوا على رؤوسهم في النار. أو: عبّر عن الجملة بالوجه، كما يعبّر بالرأس والرقبة عنها، أي: ألقوا في النار. ويقال لهم تبكيتاً عند الكبّ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك، والمعاصي.

(١) «الأرعن»: الجبل العالي. «الطود»: الجبل العظيم. «الحاج»: لحج السيف وغيره ـ بالكسر ـ؛ يلحج لحجاً: إذا نشب في الغمد، فلا يخرج. «الركاب»: المطي، لا واحد له من لفظه. «الهملجة»: السير الرهو السهل. والهملاج: السريع.

إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ
أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ
فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ

٩١ ـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ مكّة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ جعلها حرماً آمناً، يأمن فيها اللاجيء إليها، ولا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفّر صيدها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ مع هذه البلدة، فهو مالكُ الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين له.

٩٢ ـ ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ من التلاوة، أو: من التُّلُوّ، كقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]. أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخصّ الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ﴿وأن أكون﴾ من الحنفاء الثابتين على ملّة الإسلام ﴿وأن أتلو القرآن﴾ لأعرفَ الحلال والحرام، وما يقتضيه الإسلام. وخصّ مكّة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنّها أحبّ بلاده إليه، وأعظمها عنده. وأشار إليها بقوله: ﴿هذه﴾ إشارة تعظيم لها، وتقريب، دالاً على أنّها موطن نبيّه، ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم؛ الذي هو خاصّ وصفها، وجعل دخول كلّ شيء تحت ربوبيّته وملكوته، كالتابع لدخولها تحتها ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ باتّباعه إيّاي فيما أنا بصدده من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، والدخول في الملّة الحنيفيّة، واتبّاع ما أنزل عليّ من الوحي ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: ومن ضلّ ولم يتبّعني، فلا عليّ، وما أنا إلاّ رسول منذر ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٩٣ ـ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ ثُمّ أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها. وقيل: هو انشقاق القمر، والدخان، وما حلّ بهم

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

من نقمات الله في الدنيا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، مدنيّ، وشاميّ، وحفص، ويعقوب. خطاب لأهل مكّة. وبالياء: غيرهم. أي: كلّ عمل يعملونه فإنّ الله عالم به، غير غافل عنه. فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه.

* * *

سُورَةُ القَصَصِ

ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا
يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ

١، ٢ ـ ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يقال: بان الشيء، وأبان، بمعنى واحد. ويقال: أبنته. فأبان لازم ومتعدّ. أي: مبين خيره، وبركته، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد.

٣ ـ ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك، أي: يقرؤه جبريل بأمرنا. ومفعول ﴿نتلو﴾: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: نتلو عليك بعضَ خبرهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال، أي: محقّين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق في علمنا أنّه مؤمن؛ لأنّ التلاوة إنّما تنفعُ هؤلاء دون غيرهم.

٤ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل، كأنّ قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما؟ فقال: إن فرعون ﴿عَلَا﴾ طغى، وجاوز الحدّ في الظلم، أو استكبر، وافتخر بنفسه، ونسي العبوديّة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مملكته، يعني: مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فرقاً يشيّعونه على ما يريد، ويطيعونه، لا يملك أحدٌ منهم أن يلويَ عنقه. أو: فرقاً مختلفة، يكرم طائفة، ويهين أخرى، فأكرم القبطيّ، وأهان الإسرائيليّ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يترك البنات أحياءً للخدمة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

وسَبَبُ ذبح الأبناء: أنّ كاهناً قال له: يولد مولودٌ في بني إسرائيل يذهبُ ملكك على يده. وفيه دليلٌ على حُمْق فرعون، فإنّه إن صدّق الكاهن لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل؟ و﴿يستضعف﴾ حال من الضمير في ﴿وجعل﴾. أو: صفة لشيعاً. أو: كلامٌ مستأنف. و﴿يذبّح﴾ بدل من ﴿يستضعف﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه: أنّ القتلَ ظلماً إنما هو فعلُ المفسدين؛ إذ لا طائل تحته، صدق الكاهن، أو كذب.

٥ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضّل. وهو دليلٌ لنا في مسألة الأصلح. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون، واقتصاصاً له. أو: حال من ﴿يستضعف﴾ أي: يستضعفهم فرعون، ونحن نريدُ أن نمنّ عليهم. وإرادةُ الله تعالى كائنةٌ، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة يُقتدى بهم في الخير، أو دعاة إلى الخير، أو: ولاة، وملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: يرثون فرعون وقومه ملكهم، وكلّ ما كان لهم.

٦ ـ ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مكّن له: إذا جعل له مكاناً يقعد عليه، أو: يرقد. ومعنى التمكين ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ أي: أرض مصر، والشام ـ أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ويسلّطهم، وينفذ أمرهم ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ بضمّ النون، ونصب ﴿فرعون﴾ وما بعده. وبالياء، ورفع ﴿فرعون﴾ وما بعده: عليّ، وحمزة، أي: يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولودٍ منهم ﴿ويَرَى﴾ نصب عطف على المنصوب قبله، كقراءة النون. أو: رفع على الاستئناف ﴿مِنْهُم﴾ من بني إسرائيل. ويتعلّق بـ﴿نري﴾ دون ﴿يحذرون﴾ لأنّ الصّلةَ لا تتقدّمُ على الموصول ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ الحذر: التوقّي من الضّرر.

٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإلهام، أو: بالرؤيا، أو: بإخبار مَلَك، كما كان لمريم. وليس هذا وحي رسالة، فلا تكون هي رسولاً ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿أن﴾:

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

بمعنى أي، أو مصدريّة ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل، بأن يسمع الجيرانُ صوتَه فينمّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ البحر ـ قيل: هو نيل مصر ـ ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ من الغرق، والضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ بفراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بوجهٍ لطيف لتربِّيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان. والفرق بين الخوف والحزن: أنّ الخوفَ غمّ يلحق الإنسان لمتوقّع، والحزن: غمّ يلحقه لواقع، وهو: فراقه، والإخطار به. فنهيت عنهما. وبشّرت بردّه إليها، وجعله من المرسلين. ورُوي: أنّه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد. ورُوي: أنها حين ضربها الطلق كانت بعضُ القوابل الموكّلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها فعالجتها. فلمّا وقع إلى الأرض هالها نورٌ بين عينيه، ودخل حبُّه قلبها، فقالت: ما جئتك إلاّ لأقتل مولودك، وأخبرَ فرعونَ، ولكن وجدتُ لابنك حبّاً ما وجدتُ مثله فاحفظيه. فلمّا خرجت القابلة جاءت عيونُ فرعون، فلفّته في خرقة، ووضعته في تنّور مسجور، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، فانطلقت إليه، وقد جعل اللهُ النارَ برداً وسلاماً، فلما ألحّ فرعونُ في طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه في اليمّ، فألقته في اليمّ بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

٨ ـ ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذه. قال الزجاج: كان فرعون من أهل فارس من إصطخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أي: ليصير الأمرُ إلى ذلك، لا أنّهم أخذوه لهذا، كقولهم: للموت ما تلد الوالدة، وهي لم تلدْ لأن يموت ولدُها، ولكن المصير إلى ذلك. كذا قاله الزجاج. وعن هذا قال المفسرون: إنّ هذه لام العاقبة والصّيرورة. وقال صاحب «الكشاف»: وهي لام كي؛ التي معناها التعليل، كقولك: جئتك لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها واردٌ على طريق المجاز؛ لأنّ ذلك لمّا كان نتيجة التقاطهم له، شبّه بالداعي الذي يفعل الفاعلُ فعله لأجله، وهو الإكرام؛ الذي هو نتيجةُ المجيء ﴿وَحَزَنًا﴾ ﴿وحُزْناً﴾:

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

عليّ، وحمزة. هما لغتان، كالعُدم، العَدَم ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ﴾ تخفيف: خاطئين؛ أبو جعفر. أي: كانوا مذنبين، فعاقبهم الله بأن ربّي عدوّهم ومَن هو سببُ هلاكهم على أيديهم. أو: ﴿كانوا خاطئين﴾ في كلّ شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوّهم بِبِدْعٍ منهم.

٩ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ رُوي: أنّهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه، فلم يقدروا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأتْ في جوف التابوت نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا بصبي نوره بين عينيه، فأحبّوه. وكانت لفرعون بنت برصاء، فنظرت إلى وجهه فَبرِئت. فقال الغواةُ من قومه: هو الذي نحذرُ منه، فأذن لنا في قتله. فهمّ بذلك، فقالت آسية: ﴿قرّة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك، لا لي. وفي الحديث: «لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها»(١). وهذا على سبيل الفرض، أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها، ولأسلم كما أسلمت. و﴿قرّة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو قرّة، و﴿لي ولك﴾ صفتان لقرّة ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ خاطبته خطاب الملوك، أو: خاطبت الغواة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع. وذلك لما عاينتْ من النور، وبُرء البَرْصاء ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أو: نتبنّاه؛ فإنّه أهلٌ لأن يكون ولداً للملوك ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حال. وذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾ وقالت امرأة فرعون كذا ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنّهم على خطأ عظيم في التقاطه، ورجاء النفع منه، وتبنّيه. وقوله: ﴿إنّ فرعون﴾ الآية: جملة اعتراضيّة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكّدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان!

---

(١) قال الحافظ: هذا طرف من حديث الفتون الطويل، أخرجه النسائي. (حاشية الكشاف ٣/٣٩٤).

وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ

١٠ ـ ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ فصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صِفراً[١] من العقل لما دهمها من فرط الجزع لمّا سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ لتُظْهِر به. والضمير لـ: «موسى» ـ عليه السلام ـ. والمراد: بأمره، وقصّته، وأنّه ولدها. قيل: لمّا رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيحُ وتقول: يابْناه! وقيل: لمّا سمعت أنّ فرعون أخذ التابوت لم تشكّ أنّه يقتله، فكادت تقول: وابناه! شفقةً عليه. و﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة، أي: إنها كادت ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ لولا ربطنا على قلبها، والربط على القلب: تقويته بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المصدّقين بوعدنا. وهو: ﴿إنّا رادّوه إليك﴾. وجواب لولا محذوف، أي: لأبْدَتْهُ. أو: فارغاً من الهمّ حين سمعت أنّ فرعون تبنّاه ﴿إن كادت لتبدي﴾ بأنّه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنّا طأمنّا قلبها، وسكّنّا قلقها؛ الذي حدث به من شدّة الفرح؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله، لا بتبنّي فرعون. قال يوسف بن الحسين: أُمِرت أمّ موسى بشيئين، ونُهيت عن شيئين، وبُشّرت ببشارتين، فلم ينفعها الكلُّ حتى تولّى الله حياطتها، فربط على قلبها.

١١ ـ ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ﴾ مريم. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره لتعلمي خبره ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ أي: أبصرته ﴿عَن جُنُبٖ﴾ عن بعد. حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من المضمر في ﴿بصرت﴾ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنّها أخته.

١٢ ـ ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ تحريم منع، لا تحريم شرع، أي: منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمّه، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتّى أهمّهم ذلك. والمراضع: جمع مرضع، وهي المرأةُ التي ترضع. أو: جمع مَرْضع، وهو موضع الرضاع، يعني: الثدي، أو: الرضاع ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل قصّها أثره، أو: من

(١) «صفراً»: صفر الإناء: خلا.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قبل أن نردّه على أمّه ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته ـ وقد دخلتْ داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ـ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ أي: موسى ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟ النصح: إخلاص العمل من شائب الفساد. رُوي: أنّها لمّا قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قال هامان: إنّها لتعرفه، وتعرف أهله، فخذوها حتّى تخبر بقصّة هذا الغلام. فقالت: إنّما أردتُ وهم للملك ناصحون. فانطلقت إلى أمّها بأمرهم، فجاءت بها، والصبيّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع. فحين وجد ريحها استأنس، والتقم ثديها. فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كلّ ثدي إلاّ ثديك؟ فقالتْ: إنّي امرأةٌ طيّبة الريح، طيبة اللبن، لا أُوتى بصبيّ إلاّ قبلني. فدفعه إليها، وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ. فعندها ثبت، واستقرّ في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله:

١٣ ـ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً. وقوله: ﴿ولا تحزن﴾ معطوف على ﴿تقرّ﴾. وإنّما حلّ لها ما تأخذه من الدينار كلّ يوم كما قال السدّي ـ لأنّه مال حربيّ، لا أنه أجرة على إرضاع ولدها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو داخل تحت علمها، أي: ﴿ولتعلم أنّ وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنّه حقّ فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

١٤ ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ بلغ موسى نهاية القوّة، وتمام العقل، وهو جمع شدّة، كنعمة وأنعُم، عند سيبويه ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ فاعتدل، وتمّ استحكامه وهو أربعون سنة. ويُروي: أنّه لم يبعث نبيّ إلاّ على رأس أربعين سنة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ نبوّة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً، أو: علماً بمصالح الدّارين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

فعلنا بموسى وأمّه نفعل بالمؤمنين. قال الزجّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنّهما يؤدّيان إلى الجنّة؛ التي هي جزاءُ المحسنين. والعالم الحكيم: من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فجعلهم جهّالاً إذ لم يعلموا بالعلم.

١٥ ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل، أي مختفياً وهو بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار. وقيل: لمّا شبّ، وعقل أخذ يتكلّم بالحقّ، وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل المدينة إلاّ على تغفّل ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل. قيل: هو السامريّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مخالفيه من القبط، وهو فاتون. وقيل: فيهما ﴿هذا. وهذا﴾ ـ وإن كانا غائبين ـ على جهة الحكاية. أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: ﴿هذا من شيعته وهذا من عدوّه﴾ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فاستنصره ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ ضربه بجُمْع كفّه، أو: بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسمّاه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنّه كان مُسْتَأْمِناً فيهم، ولا يحلّ قتل الكافر الحربيّ، أو: لأنّه قتله قبل أن يؤذن له في القتل. وعن ابن جريج: ليس لنبيّ أن يقتل ما لم يؤمر ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

١٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربّ ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بفعل صار قتلاً ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ زلّتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ زلّته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بإقالة الزلل ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بإزالة الخجل.

١٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

و﴿بما أنعمت عليّ﴾ قسم جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾. أو: استعطاف، كأنّه قال: ربّ اعصمني بحق ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة. ﴿فلن أكون﴾ إن عصمتني ﴿ظهيراً للمجرمين﴾. وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون، وانتظامه في جملته، وتكثيره سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

١٨ ـ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ على نفسه من قتل القبطيّ أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال، أي: يتوقّع المكروه، وهو الاستقادة منه، أو: الأخبار، أو: ما يُقال فيه. وقال ابن عطاء: ﴿خائفاً﴾ على نفسه ﴿يترقّب﴾ نصرة ربه. وفيه دليلٌ على أنّه لابأسَ بالخوف من دون الله، بخلاف ما يقوله بعضُ الناس: إنّه لا يسوغ الخوف من دون الله ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ ﴿إذا﴾: للمفاجأة، وما بعدها مبتدأ ـ ﴿اسْتَنصَرَهُ﴾ أي: موسى ﴿بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه. والمعنى: أنّ الإسرائيليّ الذي خلّصه موسى استغاث به ثانياً من قبطيّ آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: للإسرائيليّ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ضالّ عن الرشد، ظاهر الغيّ، فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك. والرشيد في التدبير لا يفعل فعلاً يفضي إلى البلاء على نفسه، وعلى مَن يريدُ نصرته.

١٩ ـ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي﴾ بالقبطيّ الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيليّ ـ لأنّه ليس على دينهما، ولأنّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ـ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيليّ لموسى وقد توهّم أنّه أراد أخذه، لا أخذ القبطيّ؛ إذ قال له: ﴿إنّك لغويّ مبين﴾: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطيّ ﴿بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتّالاً بالغضب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في كظم الغيظ. وكان قتل القبطيّ بالأمس قد شاع، ولكن خفي قاتلُه. فلمّا أفشى على موسى ـ عليه

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ

السلام ـ علم القبطيّ أنّ قاتله موسى، فأخبر فرعون، فهمّوا بقتله

٢٠ ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ هو مؤمنُ آل فرعون. وكان ابنُ عمّ فرعون ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لرجل، أو: حال من رجل؛ لأنّه وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يأمر بعضُهم بعضاً بقتلك، أو: يتشاورون بسببك. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتآمران، ويأتمران؛ لأنّ كلّ واحد منهما يأمر صاحبه بشيء، أو: يشير عليه بأمر ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لك بيان، وليس بصلة ﴿الناصحين﴾ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول، كأنه قال: إني من النّاصحين. ثمّ أراد أن يبيّن فقال: ﴿لك﴾ كما يقال: سقياً لك، ومرحباً لك.

٢١ ـ ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق، أو: أن يلحقه من يقتله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قوم فرعون.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ نحوها. والتَّوجُّه: الإقبال على الشيء. و﴿مدين﴾ قرية شعيب ـ عليه السلام ـ سُمِّيت بمدين بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلاّ حسن ظنّه بربّه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسطه، ومعظم نهجه. فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين.

٢٣ ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ وصل. ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذي يسقون منه. وكان بئراً ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ على جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من

﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ﴾

مكانهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ تطردان غنمهما عن الماء؛ لأنّ على الماء مَن هو أقوى منهما، فلا تتمكّنان من السقي، أو: لئلا تختلط أغنامُهما بأغنامهم. والذود: الطّرد، والدّفع ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ما شأنكما؟ وحقيقته: ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الذياد، فسمّي المخطوب خطباً ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي﴾ غنمنا ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ مواشيهم. ﴿يَصْدُر﴾: شاميّ، ويزيد، وأبو عمرو، أي: يرجع. فالرعاء: جمع راع، كقائم وقيام ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ﴾ لا يمكنه سقي الأغنام ﴿كَبِيرٞ﴾ في حاله، أو: في السن لا يقدر على رعي الغنم. أبلتا عليه عذرهما في توليهما السّقي بأنفسهما.

٢٤ ـ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما لأجلهما رغبةً في المعروف، وإغاثة للملهوف. رُوي: أنّه نحى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلواً، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق بها ـ فكانت لا ينزعها إلاّ أربعون ـ فاستقى بها، وصبّها في الحوض، ودعا بالبركة. وترك المفعول في ﴿يسقون﴾ و﴿تذودان﴾ و﴿لا نسقي﴾ و﴿فسقى﴾ لأنّ الغرض هو الفعل لا المفعول، ألاَ ترى أنّه إنّما رحمهما لأنّهما كانتا على الذياد، وهم على السّقي، ولم يرحمهما؛ لأنّ مذودهما غنم، ومسقيّهم إبل مثلاً، وكذا في ﴿لا نسقي﴾ و﴿فسقى﴾ المقصود هو السقي لا المسقيّ. ووجهُ مطابقة جوابهما سؤاله: أنّه سألهما عن سَبَب الذود. فقالتا: السبب في ذلك أنّا امرأتان مستورتان، ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحيي من الاختلاط بهم، فلا بُدَّ لنا من تأخير السّقي إلى أن يفرغوا. وإنّما رضي شعيب ـ عليه السلام ـ لابنتيه بسقي الماشية؛ لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه. وأمّا المروءة فعاداتُ الناس في ذلك متباينة، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوال العجم. ومذهبُ أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ظلّ سَمُرة. وفيه دليلُ جواز الاستراحة في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعضُ المتقشّفة. ولما طال البلاءُ عليه أنس بالشكوى، إذ لا نقص في الشكوى إلى المولى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ﴾ لأيّ شيء

أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير، غثّ أو سمين ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج. وعُدِّي ﴿فقير﴾ باللام؛ لأنّه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: كان لم يذق طعاماً سبعة أيام، وقد لصق ظهره بطنه. ويحتمل أن يريدَ: إنّي فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدارين، وهو النجاة؛ لأنه كان عند فرعون في مُلْكٍ، وثروة. قال ذلك رضاً بالعدل السنيّ، وفرحاً به، وشكراً له. وقال ابنُ عطاء: نظر من العبوديّة إلى الربوبيّة، وتكلّم بلسان الافتقار، لِما ورد على سرّه من الأنوار.

٢٥ ـ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ﴿على استحياءٍ﴾: في موضع الحال، أي: مستحية. وهذا دليلُ كمال إيمانها، وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا. فأتته مستحية قد استترتْ بكمّ درعها. و﴿ما﴾ في ﴿ما سقيت﴾ مصدريّة، أي: جزاء سقيك. رُوي: أنهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قَبْل الناس، وأغنامهما حُفَّل[1]، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا، فسقى لنا. فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي. فتبعها موسى ـ عليه السلام ـ فألزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: قصّته وأحواله مع فرعون. والقصص مصدر، سُمّي به المقصوص ﴿قَالَ﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا. وفيه دليلُ جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى، والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورّع. وأمّا أَخْذ الأجر على البرّ والمعروف، فقيل: إنّه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى ـ عليه السلام ـ على أنه رُوي أنّها لمّا قالت: ﴿ليجزيك﴾ كره ذلك. وإنّما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأنّ للقاصد حرمة. ولمّا وضع شعيبٌ الطعامَ بين

(١) «حفّل»: ضرع حافل: ممتلىء لبناً.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ

يديه امتنع، فقال شعيب: ألست جائعاً؟ قال: بلى! ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيتُ لهما، وإنّا أهل بيت لا نبيعُ ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف ثمناً. فقال شعيب ـ عليه السلام ـ: هذه عادتُنا مع كلّ مَن ينزلُ بنا. فأكل.

٢٦ ـ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيراً لرعي الغنم. رُوي: أنّ كبراهما كانت تسمّى: صفراء، والصغرى: صفيراء. وصفراء هي التي ذهبتْ به، وطلبتْ إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوّجها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال: وما علمكِ بقوته، وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، وأمْرها بالمشي خلفه. وورود الفعلُ بلفظ الماضي للدلالة على أنّ أمانته وقوته أمران متحققان. وقولها: ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾ كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعتْ هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتمّ مرادك. وقيل: ﴿القويّ﴾ في دينه ﴿الأمين﴾ في جوارحه. وقد استغنتْ بهذا الكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول: استأجره لقوّته، وأمانته. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر في عمر.

٢٧ ـ ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوّجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ قوله: ﴿هاتين﴾ يدلُّ على أنّه كان له غيرهما. وهذه مواعدةٌ منه، ولم يكن ذلك عقداً للنكاح، إذ لو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ تكون أجيراً لي. مِن: أجرته؛ إذا كنت له أجيراً ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرفه. والحجّة: السنة. وجمعها حجج. والتزوّج على رعي الغنم جائز بالإجماع؛ لأنه من باب القيام بأمر الزوجيّة، فلا مناقضة، بخلاف التزوّج على الخدمة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي: عمل عشر حجج ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فذلك تفضّل منك، ليس بواجب عليك. أو: فإتمامه من عندك، ولا أُحْتِمُهُ عليك، ولكنّك إن فعلته فهو منك

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

تفضّل، وتبرّع ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام أتمّ الأجلين، وحقيقة قولهم: شققت عليه، وشقّ عليه الأمر: أنّ الأمر إذا تعاظمك فكأنّه شقّ عليك ظنّك باثنين، تقول: تارة أطيقه، وطوراً لا أطيقه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة. والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح؛ الاتّكال على توفيقه فيه، ومعونته؛ لأنّه إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعلْ ذلك.

٢٨ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. وهو إشارةٌ إلى ما عاهده عليه شعيب. والخبر: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾. يعني: ﴿ذلك﴾ الذي قلته، وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعاً، لا يخرج كلانا عنه، لا أنا عمّا شرطت عليّ، ولا أنت عمّا شرطت على نفسك. ثُمَّ قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي: أيّ أجل ﴿قضيت﴾ من الأجلين يعني: العشر أو الثماني ـ و﴿أيّ﴾ نصب بـ﴿قضيت﴾ و﴿ما﴾ زائدة مؤكّدة لإبهام أيّ. وهي شرطيّة، وجوابها: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه. قال المبرّد: قد علم أنّه لا عدوانَ عليه في أتمهما ولكن جمعهما ليجعلَ الأقلّ كالأتمّ في الوفاء، وكما أنّ طلبَ الزيادة على الأتمّ عدوان، فكذا طلب الزيادة على الأقلّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو: من وكل إليه الأمر، وعدّي بـ«على» لأنّه استعمل في موضع الشاهد والمقيت. رُوي: أنّ شعيباً كانت عنده عِصِيّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذْ عصاً من تلك العصيّ. فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنّة، ولم يزل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب، فمسّها، وكان مكفوفاً فطن بها، فقال: غيرها. فما وقع في يده إلاّ هي سبع مرّات. فعلم أنّ له شأناً. ولمّا أصبح قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرقَ الطريق فلا تأخذْ على يمينك فإنّ الكلأ، وإن كان بها أكثر، إلاّ أنّ فيها تنّيناً[1] أخشاه عليك وعلى الغنم. فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدرْ

(١) «تنيناً»: ثعباناً.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا التنين قد أقبل، فحاربته العصا حتّى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامية، فلمّا أبصرها دامية، والتنين مقتولاً ارتاح لذلك. ولمّا رجع إلى شعيب مسّ الغنم فوجدها مِلاءَ البطون، وغزيرة اللبن. فأخبره موسى ففرح، وعلم أنّ لموسى والعصا شأناً، فقال له: إنّي وهبتُ لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدْرَع ودَرْعاء. فأوحي إليه في المنام أن اضربْ بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فوضعت كلّهن أدْرَعَ ودَرْعاء. فوفى له بشرطه.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال ﷺ: «قضى أوفاهما وتزوّج صغراهما»(١). وهذا بخلاف الرواية التي مرّت ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ امرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لمّا تمّ أجلُ المحنة، ودنا أيام الزلفة، وظهر أنوار النبوّة، سار بأهله لتَشْتَرِكَ معه في لطائف صنع ربّه ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطّريق؛ لأنه قد ضلّ الطّريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ بالنسبة إلى موسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ العُنّاب، أو: العوسج ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿أن﴾: مفسرة، أو: مخفّفة من الثقيلة ـ ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال جعفر: أبصر ناراً دلّته على الأنوار؛ لأنـه رأى النور على هيئة النار. فلمّا دنا منها شملته أنوارُ القدس، وأحاطت به جلابيبُ الأنس، فخوطب بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلّماً شريفاً، أُعْطِي ما سأل، وأمن ممّا خاف. الجذوة ـ باللغات الثلاث، وقرىء بهنّ. فعاصم بفتح الجيم. وحمزة وخلف: بضمّها.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٨٨).

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾

وغيرهم: بكسرها ـ: العود الغليظ كانت في رأسه نار، أو لم تكن. ﴿من﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و﴿من الشجرة﴾ بدل ﴿من شاطىء الواد﴾ بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطىء، أي: الجانب.

٣١ ـ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ونودي أن ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾. فألقاها، فَقَلَّبها الله ثعباناً ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرّك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيّة في سعيها، وهي ثعبان في جثّتها ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع. فقيل له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ أي: أمنت من أن ينالك مكروهٌ من الحيّة.

٣٢ ـ ﴿ٱسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ بفتحتين: حجازيّ، وبصريّ. ﴿الرَّهْب﴾: حفص ﴿الرُّهْب﴾: غيرهم. ومعنى الكلّ: الخوف. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب مابك من فرَق، أي: لأجل الحيّة. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلّ خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل: معنى ضمّ الجناح: أنّ الله تعالى لمّا قَلَّب العصا حيّة، فزع موسى ـ عليه السلام ـ واتقاها بيده، كما يفعل الخائفُ من الشيء. فقيل له: إن اتّقاك بيدك فيه غضاضةٌ عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلبُ حيّة، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتّقائك بها، ثمّ أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضمّ جناحه إليه. أو: أريد بضمّ جناحه إليه: تجلّده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حيّة، حتّى لا يضطرب، ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنّه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما، وإلاّ فجناحاه مضمومان إليه، مشمّران. ومعنى ﴿من الرهب﴾: من أجل الرهب، أي: إذا

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى
لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ﴾

أصابك الرهب عند رؤية الحيّة، فاضمم إليك جناحك. جعل الرهب الذي كان يُصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضمّ جناحه إليه. ومعنى ﴿واضمم إليك جناحك﴾ و﴿اسلك يدك في جيبك﴾ على أحد التفسيرين واحد. ولكن خُولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين، إذ الغرضُ في أحدهما خروجُ اليد بيضاء، وفي الثاني: إخفاءُ الرهب. ومعنى ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ في طه: أدخل يمناك تحت يسراك ﴿فَذَٰنِكَ﴾ مخفّفاً مثنّى ذاك. ومشدّداً: مكّيّ، وأبو عمرو، مثنّى ذلك. فإحدى النونين عوض من اللام المحذوفة. والمراد: اليد، والعصا ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ حجّتان نيّرتان بيّنتان. وسُمِّيت الحجة برهاناً لإنارتها، من قولهم للمرأة البيضاء: بَرَهْرَهَة ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: أرسلناك ﴿إلى فرعون ومَلَئِه﴾ بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

٣٣ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به. وبالياء: يعقوب.

٣٤ ـ ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾ حفص ﴿رِدْءًا﴾ حال، أي: عوناً، يقال: ردأته: أعنته. وبلا همز: مدنيّ ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ عاصم، وحمزة. صفة، أي: ﴿ردءاً﴾ مصدّقاً لي. وغيرهما: بالجزم، جواب لأرسله. ومعنى تصديقه موسى: إعانته إيّاه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿هو أفصح منّي لساناً فأرسله معي﴾. وفضل الفصاحة إنّما يحتاجُ إليه لتقرير البرهان، لا لقوله: صدقت. فسحبان وباقل فيه يستويان[1] ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿يكذبوني﴾ في الحالين: يعقوب.

٣٥ ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوّيك به ـ إذ اليد تشتدُّ بشدّة العضد؛

(١) «سحْبَان»: رجل من ربيعة يضرب به المثل في البلاغة والبيان. و«بَاقِل»: رجل يضرب به المثل في العيِّ. انظر لسان العرب مادة (بقل).

وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا
فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

لأنّه قوام اليد. والجملة تقوى بشدّة اليد على مزاولة الأمور ـ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ غلبة، وتسلّطاً، وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ الباء تتعلّق بـ: ﴿يصلون﴾، أي: لا يصلون إليكما بسبب آياتنا. وتمّ الكلام. أو: بـ: نجعل لكما سلطاناً، أي: نسلّطكما بآياتنا. أو: بمحذوف، أي: اذهبا بآياتنا. أو: هو بيان لـ: ﴿الغالبون﴾ لا صلة، أو: قسم جوابه ﴿لا يصلون﴾ مقدّماً عليه ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أي: سحر تعمله أنت، ثمّ تفتريه على الله. أو: سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر، وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿في آبائنا﴾: حال منصوبة عن هذا، أي: كائناً في زمانهم، يعني: ما حدّثنا بكونه فيهم.

٣٧ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ﴿ربّي أعلم﴾ منكم بحال من أهّله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبيّاً، وبعثه بالهدى، ووعده حُسْنَ العقبى، يعني: نفسه. ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهّله لذلك؛ لأنّه غنيّ حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبّيء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. و﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]. والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها: أن يختم للعبد بالرحمة والرّضوان، وتلقّي الملائكة بالبشرى والغفران. ﴿قال موسى﴾ بغير واو: مكيّ. وهو حسن؛ لأنّ الموضعَ موضعُ سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام: سحراً مفترى. ووجه الأخرى: أنّهم قالوا ذلك، وقال موسى هذا ليوازن الناظرُ بين القول والقول، ويتبصّر فساد أحدهما، وصحّة الآخر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

﴿رَبِّيَ أعلم﴾: حجازيّ، وأبو عمرو ﴿ومن يكون﴾: حمزة، وعليّ.

٣٨ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده، أي: مالكم من إله غيري. أو: هو على ظاهره، وأنّ إلهاً غيره غير معلوم عنده ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبخ لي الآجرّ، واتّخذه. وإنّما لم يقل هذا؛ لأنّه أوّل من عمل الآجرّ، فهو يُعلّمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنّه أفصح، وأشبه بكلام الجبابرة، إذ أَمْرُ هامان ـ وهو وزيره ـ بالإيقاد على الطين مُنادىً باسمه بـ«يا» في وسط الكلام، دليل التعظّم والتجبّر ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصراً عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾ أي: أصعد، فالطلوع والاطلاع: الصّعود ﴿إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ حَسِبَ: أنّه تعالى في مكانٍ كما كان هو في مكان ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في دعواه: أنّ له إلهاً، وأنّه أرسله إلينا رسولاً. فقد تناقض المخذول. فإنّه قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، ثمّ أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنّه غير متيقّن بكذبه. وكأنّه تحصّن من عصا موسى ـ عليه السلام ـ فلبّس، وقال: ﴿لعلّي أطّلع إلى إله موسى﴾. رُوي: أنّ هامان جمع خمسين ألف بنّاء، وبنى صرحاً لم يبلغه بناء أحدٍ من الخلق، فضرب الصرحَ جبريلُ ـ عليه السلام ـ بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل! وقطعة في البحر، وقطعة في المغرب. ولم يبق أحدٌ من عمّاله إلاّ هلك.

٣٩ ـ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ تعظّم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالباطل. فالاستكبار بالحقّ لله تعالى، وهو المتكبّر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. كما حكى رسولُنا عن ربّه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيتُه في النار»[1]. وكلّ مستكبر

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٤٨) ومسلم (٢٦٢٠) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤).

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ
إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ
مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

سواه فاستكباره بغير الحقّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يَرْجِعُون﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب.

٤٠ ـ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام المفخّم؛ الذي دلّ به على عظمة شأنه. شبّههم ـ استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجمّ الغفير ـ بحصيات أخذهنّ آخذٌ بكفه، فطرحهنّ في البحر ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحَذِّرْ قومك، فإنّك منصورٌ عليهم.

٤١ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: عمل أهل النار. قال ابنُ عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق. فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلّون على سبيل الرّشاد. وفيه دلالةُ خلق أفعال العباد ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب.

٤٢ ـ ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إيّاهم بعدهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المبعدين، أو: المُهْلكين، أو المشوَّهين بسواد الوجوه، وزرقة العيون. و﴿يوم﴾ ظرف للمقبوحين.

٤٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ـ عليهم السلام ـ ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب. والبصيرة: نور القلب الذي يبصر به الرشد، والسّعادة، كما أنّ البصر نور العين الذي تبصر به. يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب ـ لأنّها كانت عُمياً لا تستبصر، ولا تعرف حقّاً من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً؛ لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتّبعها؛ لأنّهم إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا
وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

٤٤ ـ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب. وهو الذي وقع فيه ميقاتُ موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: كلّمناه ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم: ٥٢] ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحي إليه، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته.

٤٥ ـ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم، ففترت النبوّة، وكادت الأخبارُ تخفى، واندرست العلومُ، ووقع التحريفُ في كثيرٍ منها، فأرسلناك مجدّداً لتلك الأخبار، مبيّناً ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقصّة موسى ـ عليه السلام ـ كأنّه قال: وما كنتَ شاهداً لموسى، وما جرى عليه، ولكنّا أوحيناه إليك. فذكر سبب الوحي الذي هو إطالةُ الفترة، ودلّ به على المسبّب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب، والمؤمنون به ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلّماً منهم، يريدُ الآيات التي فيها قصّة شعيب وقومه. و﴿تتلو﴾ في موضع نصب خبر ثان، أو: حال من الضمير في ﴿ثاوياً﴾ ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكنّا أرسلناك، وأخبرناك بها، وعلّمناكها.

٤٦ ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن: خذ الكتاب بقوّة ﴿وَلَٰكِن﴾ علمناك، [وأرسلناك][1] ﴿رَّحْمَةً﴾ للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في زمان الفترة بينك وبين عيسى، وهو خمسمئة وخمسون سنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(١) مستدرك من المطبوع.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟

٤٧ ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظّلم. ولمّا كان أكثرُ الأعمال تُزاول بالأيدي، نسبت الأعمال إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب، تغليباً للأكثر على الأقلّ ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند العذاب ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لولا﴾ الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف. والثانية: تحضيضيّة. والفاء الأولى للعطف، والثانية جواب ﴿لولا﴾ لكونها في حكم الأمر، إذ الأمرُ باعثٌ على الفعل، والباعث والمحضّض من وادٍ واحد. والفاء تدخل في جواب الأمر. والمعنى: ولولا أنّهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي: هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ محتجّين علينا بذلك، لما أرسلنا إليهم، يعني: أنّ إرسالَ الرسول إليهم إنّما هو ليُلْزَموا الحجة، ولا يُلْزِمُوها؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى، وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول؛ لدخول لولا الامتناعية عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال، ولكن العقوبة لمّا كانت للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنّها سبب الإرسال، فأدخلت عليها ﴿لولا﴾.

وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

٤٨ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: القرآن، أو الرسول المصدّق بالكتاب المعجز ﴿قَالُوا۟﴾ كفّار مكّة ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هلاّ أعطي ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ يعني أبناء جنسهم، ومن مذهبهم مذهبهم، وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى ـ عليه السلام ـ ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن؟ ﴿قَالُوا۟﴾ في موسى وهارون

سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ
مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ
أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

﴿ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾[١] تعاونا ـ ﴿سحْران﴾: كوفيّ، أي: ذوا سحر. أو: جعلوهما سحْرين مبالغة في وصفهما بالسحر ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ بكلّ واحدٍ منهما ﴿ كَٰفِرُونَ﴾. وقيل: إنّ أهلَ مكّة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى والتوراة، و﴿قالوا﴾ في موسى ومحمد: ﴿ساحران تظاهرا﴾، أو: في التوراة والقرآن: ﴿سحران تظاهرا﴾ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمّد ﷺ، فأخبروهم أنّه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ﴿ساحران تظاهرا﴾.

٤٩ ـ ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ مما أنزل على موسى، ومّما أنزل عَلَيّ ﴿ أَتَّبِعْهُ﴾ جواب ﴿فأتوا﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّهما سحران.

٥٠ ـ ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فاعلم﴾ أنهم قد ألزموا، ولم تبق لهم حجة إلاّ اتّباع الهوى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: لا أحد أضلّ ﴿ممن اتّبع﴾ في الدّين ﴿هواه﴾. و﴿بغير هدى﴾ حال، أي: مخذولاً، ولا مُخلّىً بينه وبين هواه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥١ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ التوصيل: تكثير الوصل، وتكريره. يعني: أنّ القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً، وعْداً ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكّروا، فيفلحوا.

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿ساحران﴾ وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب، والحسن. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٦).

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

٥٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن. وخبر ﴿الذين﴾، ﴿هُم بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. نزلت في مؤمني أهل الكتاب.

٥٣ ـ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل، نزول القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿إنه﴾ تعليل للإيمان به؛ لأنّ كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. وقوله ﴿إنّا﴾ بيان لقوله ﴿آمنّا﴾ لأنّه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا بأنّ إيمانهم به متقادم.

٥٤ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن. أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله. أو: بصبرهم على أذى المشركين، وأهل الكتاب ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية، أو: بالحلم الأذى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يزكون.

٥٥ ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ الباطل، والشتم من المشركين ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟﴾ للاّغين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمان منّا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم، وصحبتهم.

٥٦ ـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تُدْخِلَ في الإسلام كلَّ مَن أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بمن يختار الهداية، ويقبلها، ويتّعظ بالدلائل والآيات. قال الزجّاج: أجمع المفسّرون على أنها نزلت في أبي طالب. وذلك أنّه قال عند موته: يا معشر بني هاشم! صدّقوا محمداً تفلحوا. فقال ﷺ: «يا عمّ! تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟!» قال: فما

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

تريد يابن أخي؟ قال: «أريد منك أن تقولَ: لا إله إلاّ الله أشهد لك بها عند الله». قال: يابن أخي! قد علمتُ أنّك صادق، ولكنّي أكرهُ أن يقال: خَرِعَ عند الموت[1]. وإن كانت الصيغة عامّة. والآية حجّة على المعتزلة؛ لأنّهم يقولون: الهدى هو البيان. وقد هَدَى الناس أجمع، ولكنّهم لم يهتدوا لسوء اختيارهم، فدلّ أنّ ما وراء البيان ما يسمَّى هداية، وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة.

٥٧ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قالت قريش: نحن نعلمُ أنك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك، وخالفنا العرب بذلك أن يتخطّفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجة بأنه مكّن لهم في الحرم؛ الذي آمنَهُ بحرمة البيت، وآمَنَ قُطّانه بحرمته، والثمرات تُجبى إليه من كلّ أوب، وهم كفرة، فأنّى يستقيمُ أن يعرّضهم للتخطّف، ويسلبهم الأمن إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وبالتاء: مدنيّ، ويعقوب، وسهل. أي: يُجلب، ويُجمع ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ معنى الكلّيّة: الكثرة، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو مصدر؛ لأنّ معنى ﴿يجبى إليه﴾ يرزق، أو: مفعول له، أو: حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصّصها بالإضافة، كما تنتصب عن النكرة المتخصِّصة بالصفة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلّق بـ﴿من لدنّا﴾. أي: قليل منهم يقرّون بأنّ ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنّه من عند الله لعلموا أنّ الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطّف إذا آمنوا به.

---

(١) قال الحافظ: لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق، أو أخصر منه. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٢٢). وفي حاشية الأصل المخطوط: الخرع: الجُبْنُ والخور.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

٥٨ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذا تخويفٌ لأهل مكّة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم، فلم يشكروا النعمة، وقابلوها بالبطرِ فأهلكوا. و﴿كم﴾ نصب بـ﴿أهلكنا﴾ و﴿معيشتها﴾ بحذف الجارّ، وإيصال الفعل، أي: في معيشتها. والبطر: سوء احتمال الغِنى، وهو: ألاّ يحفظ حق الله فيه ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار، كبلاد ثمود، وقوم شعيب، وغيرهم ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال، والعامل فيها: الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السّكنى، أي: لم يسكنها إلاّ المسافر، ومارّ الطريق يوماً، أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا.

٥٩ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ في كلّ وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ ـ وبكسر الهمزة: حمزة، وعليّ، أي: في القرية التي هي أمّها، أي: أصلها، ومعظمها ـ ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة. أو: ﴿وما كان﴾ في حكم الله، وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض ﴿حتّى يبعث﴾ في أمّ القرى ـ يعني: مكّة؛ لأنّ الأرضَ دُحيت من تحتها ـ ﴿رسولاً﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: وما أهلكناهم للانتقام إلاّ وأهلها مستحقّون العذاب بظلمهم، وهو: إصرارُهم على كفرهم، وعنادهم، ومكابرتهم بعد الإعذار إليهم.

٦٠ ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأيّ شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلاّ تمتّع وزينة أيّاماً قلائل، وهي: مدّة الحياة الفانية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه دائم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ الباقي خيرٌ من الفاني. وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء، والباقون

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾

بالتاء لا غير. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنّ الله تعالى خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر. فالمؤمن يتزود والمنافق يتزيّن، والكافر يتمتّع. ثمّ قرّر هذه الآية بقوله:

٦١ ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنّة ـ فلا شيء أحسن منها؛ لأنّها دائمة؛ ولذا سمّيت الجنّة بالحسنى ـ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: رائيه، ومدركه، ومصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضِروا النار؟ ونحوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل ـ عليه اللعنة ـ أو: في عليّ، وحمزة، وأبي جهل، أو: في المؤمن، والكافر. ومعنى الفاء الأولى: أنّه لمّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله، عقّبه بقوله: ﴿أفمن وعدناه﴾ أي: أبعد هذا التفاوت الجليّ يُسَوّى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب؛ لأنّ لقاء الموعود مسبّب عن الوعد. و﴿ثمّ﴾ لتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع. ﴿ثمّ هُوَ﴾: عليٌّ. كما قيل: عضْد في عضُد، شبّه المنفصل بالمتّصل.

٦٢ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي الله الكفّار نداء توبيخ، وهو عطف على ﴿يوم القيامة﴾ أو: منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بناءً على زعمهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومفعولا ﴿تزعمون﴾: محذوفان، تقديره: ﴿كنتم﴾ تزعمونهم شركائي. ويجوز حذفُ المفعولين في باب: ظننت، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما.

٦٣ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: الشياطين، أو: أئمة الكفر. ومعنى ﴿حقّ عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه، وثبت. وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك، وسوّلنا لهم الغيّ. صفته، والراجع إلى الموصول محذوف. والخبر: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ والكاف ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفة مصدر

تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ

محذوف، تقديره: أغويناهم فغووا غيّاً، مثل ما ﴿غوينا﴾. يعنون: أنّا لم نغو إلاّ باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأنّ إغواءنا لهم لم يكن إلاّ وسوسة وتسويلاً، فلا فرقَ إذاً بين غيّنا وغيّهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلّة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب. وهو كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، وممّا اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

٦٤ ـ ﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأصنام لتخلّصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

٦٥ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا إليكم. حكى أوّلاً ما يوبّخهم به من اتّخاذهم له شركاء، ثمّ ما يقوله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنّهم إذا وبّخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأنّ الشياطين هم الذين استغووهم، ثمّ ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم، وعجزهم عن نصرتهم، ثمّ ما يبكّتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

٦٦ ـ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ خفيت عليهم الحجج، أو: الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجّة، رجاء أن يكون عنده عذر وحجّة؛ لأنّهم يتساوون في العجز عن الجواب.

٦٧ ـ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بربّه، وبما جاء من عنده

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أن يفلح عند الله. وعسى من الكرام تحقيق. وفيه بشارةٌ للمسلمين على الإسلام، وترغيبٌ للكافرين على الإيمان.

٦٨ ـ ونزلت جواباً لقول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: نفسه، أو: أبا مسعود: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. وفيه دلالةُ خلق الأفعال. ويُوقف على: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. أي: ﴿وربّك يخلق ما يشاء و﴾ ربّك ﴿يختار﴾ ما يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله ﴿الخيرة﴾ عليهم. ولم يدخل العاطف في ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ لأنّه بيان لقوله: ﴿ويختار﴾، إذ المعنى: أنّ الخيرة لله. وهو أعلمُ بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختارَ عليه. ومن وصل على معنى ﴿ويختار﴾: الذي ﴿لهم﴾ فيه﴿الخيرة﴾، فقد أبعد. بل ﴿ما﴾ لنفي اختيار الخلق، تقريراً لاختيار الحقّ. ومن قال: ومعناه ﴿ويختار﴾ للعباد ﴿ما﴾ هو خيرٌ لهم وأصلح، فهو مائلٌ إلى الاعتزال. و﴿الخِيَرة﴾ من التخيّر يُستعمل بمعنى المصدر، وهو التخيّر، وبمعنى المتخيّر، كقولهم: محمّد خيرة الله من خلقه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: الله بريء من إشراكهم، وهو منزّه عن أن يكون لأحدٍ عليه اختيار.

٦٩ ـ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله ﷺ، وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلاّ اختير عليه غيره في النبوّة!

٧٠ ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستأثر بالإلهيّة المختصة به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة: القبلة، لا قبلة إلاّ هي ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدنيا ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] والتحميد ثمَّ على وجه اللذّة، لا الكلفة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث، والنشور. وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

٧١ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ بحذف الهمزة: عليّ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ هو مفعول ثان لجعل، أي: دائماً من: السَّرْد، وهو: المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد. والميم مزيدة، ووزنه فَعْمَل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: أخبروني مَن يقدرُ على هذا.

٧٢ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ولم يقل بنهار تتصرّفون فيه، كما قال: ﴿بليل تسكنون فيه﴾ بل ذكر الضياء، وهو: ضوء الشمس؛ لأنّ المنافعَ التي تتعلّق به متكاثرةٌ، ليس التصرّف في المعاش وحده. والظلام ليس بتلك المنزلة. ومن ثمّ قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾؛ لأنَّ السمعَ يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده. وقرن بالليل: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنّ غيرك يبصرُ من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون، ونحوه.

٧٣ ـ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ﴿لتسكنوا﴾ في الليل ﴿ولتبتغوا من﴾ فضل الله في النهار، فيكون من باب اللّف والنشر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه. وقال الزجاج: يجوزُ أن يكون معناه: ﴿لتسكنوا﴾ فيهما ﴿ولتبتغوا من﴾ فَضْل الله فيهما. ويكون المعنى ﴿جعل لكم﴾ الزمان ليلاً ونهاراً ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فيه.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ

٧٤ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرّر التوبيخ باتخاذ الشركاء؛ ليؤذن أن لا شيءَ أجلبُ لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيءَ أدخلُ في مرضاته من توحيده.

٧٥ ـ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: نبيّهم؛ لأنَّ الأنبياءَ للأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك، ومخالفة الرسول ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ التوحيد ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضّائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهيّة غير الله، والشفاعة لهم.

٧٦ ـ ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ﴾ لا ينصرف للعجمة والتعريف؛ ولو كان فاعولاً، من: قرنت الشيء؛ لا نصرف ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان إسرائيليّاً، ابن عمّ لموسى. فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمّى المنوّر؛ لحسن صورته. وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامريّ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي، وهو: الظلم. قيل: ملّكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، أو: من البغي: الكبر. تكبّر عليهم بكثرة ماله، وولده، أو: زاد عليهم في الثياب شبراً ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ﴿ما﴾ بمعنى الذي، في موضع نصب بآياتنا، وإنّ واسمها وخبرها صلة الذي، ولهذا كسرت إنّ. والمفاتح: جمع مِفتح بالكسر، وهو: ما يُفتح به، أو: مَفتح بالفتح، وهو: الخزانة. والأصوب: أنها المقاليد ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ لَتُثقِلُ العصبة. فالباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: إذا أثقله حتّى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة. وكان يحملُ مفاتيحَ خزائنه ستّون بغلاً، لكلّ خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع، وكانت من جلود ﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ الشدّة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون. وقيل: القائل موسى ـ عليه السلام ـ

لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

ومحلّ ﴿إذ﴾ نصب بـ«تنوء» ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر بكثرة المال، كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. ولا يفرح بالدنيا إلّا من رضي بها، واطمأنّ بها. وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنّه يتركها عن قريب؛ فلا يفرح بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ البطرين بالمال.

٧٧ ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى، والثروة ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بأن تتصدّق على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرف إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أن تأخذَ ما يكفيك، ويصلحك. وقيل معناه: واطلب بدنياك آخرتك، فإنّ ذلك حظُّ المؤمنِ منها ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسنَ إليك بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم، والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على استحقاقٍ لما فيّ من العلم؛ الذي فضلت به الناس، وهو علم التوراة، أو: علم الكيمياء. وكان يأخذُ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة. و﴿عندي﴾ صفة لـ: «علم». قال سهل: ما نظر أحدٌ إلى نفسه فأفلح. والسعيد مَن صُرِفَ بَصَرُه عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية منّة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال. والشقيّ من زيّن في عينه أفعاله، وأقواله، وأحواله، فافتخر بها، وادّعاها لنفسه. فشؤمه يهلكه يوماً، كما خسف بقارون لمّا ادّعاها لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ هو إثباتٌ لعلمه بأنّ الله ﴿قد أهلك... من القرون﴾ قبله ﴿من هو﴾ أقوى منه، وأغنى، لأنّه قد قرأه في التوراة. كأنّه قيل: ﴿أو لم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتّى لا يغترّ بكثرة ماله،

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وقوّته. أو: نفي لعلمه بذلك؛ لأنّه لمّا قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادّعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكلّ نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتّى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أو: أكثر جماعةً، وعدداً ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لعلمه تعالى بهم، بل يدخلون النار بغير حساب، أو يعترفون بها بغير سؤال، أو يعرفون بسيماهم فلا يسألون، أو لا يسألون ليُعْلَم من جهتهم بل يسألون سؤال توبيخ، أو لا يسأل عن ذنوب الماضين ﴿المجرمون﴾ من هذه الأمّة.

٧٩ ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليه الأرجوان، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر. وعن يمينه ثلاثمئة غلام، وعن يساره ثلاثمئة جارية بيض عليهنّ الحلي والديباج. و﴿في زينته﴾ حال من فاعل ﴿خرج﴾ أي: متزيّناً ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين. وإنّما تَمَنَّوه على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر. وقيل: كانوا كفّاراً ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ قالوه غبطة. والغابط: هو الذي يتمنّى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، كهذه الآية. والحاسد: هو الذي يتمنّى أن تكون نعمة صاحبه له دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. وقيل لرسول الله ﷺ: هل يَضرُّ الغبط؟ قال: «لا، إلاّ كما يضرّ العِضَاةَ الخَبَطُ»[١] ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظّ: الجدّ، وهو: البخت، والدولة.

٨٠ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالثواب، والعقاب، وفناء الدنيا، وبقاء

(١) قال الحافظ: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. (حاشية الكشاف ٣/ ٤٣٢).

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ

العقبى، لغابطي قارون ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصل ويلك: الدعاء بالهلاك. ثمّ استعمل في الزجر، والردع، والبعث على ترك ما لا يرضى. وفي «التبيان في إعراب القرآن»: هو مفعول فعل محذوف، أي: ألزمكم الله ﴿ويلكم﴾ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: لا يلقّن هذه الكلمة، وهي: ﴿ثواب الله خير﴾، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات، وزينة الدنيا، وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير.

٨١ ـ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كان قارون يؤذي موسى ـ عليه السلام ـ كلّ وقت، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألف درهم على درهم، فحسبه، فاستكثره، فشحّت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا فمرْ بما شئت. قال: نبرطل فلانة البغيّ حتّى ترميه بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل. فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، أو: حكمها. فلمّا كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل! من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه. فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنَّكَ فجرتَ بفلانة. فأحضرت، فناشدها بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق! فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي. وقال: يا ربّ! إن كنت رسولك فاغضبْ لي. فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت فإنّها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل! إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل. فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثمّ قال: يا أرض خذيهم! فأخذتهم إلى الركب. ثمّ قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأوساط. ثمّ قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأعناق. وقارون وأصحابه يتضرّعون إلى موسى، ويناشدونه بالله والرحم. وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه. ثمّ قال:

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

خذيهم! فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى لموسى: استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتي لو استرحمني مرّة لرحمته. فقال بعضُ بني إسرائيل: إنّما أهلكه ليرث ماله، فدعا الله حتّى خسف بداره، وكنوزه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى، أو: من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوّه فانتصر، أي: منعه منه فامتنع.

٨٢ ـ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلته من الدنيا ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ ـ ظرف لـ: «تمنّوا». ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة ـ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾! ﴿وَيْ﴾ منفصلة عن ﴿كأنّ﴾ عند البصريّين. قال سيبويه: وَيْ: كلمة تنبيهٍ على الخطأ وتندّم، يستعلمها النادم بإظهار ندامته. يعني: أنّ القوم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿ياليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ وتندّموا ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كنّا نتمنّاه بالأمس ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1]. وبفتحتين: حفص، ويعقوب، وسهل. وفيه ضمير الله تعالى ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: تندّموا. ثمّ قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

٨٣ ـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ ﴿تلك﴾: تعظيم لها، وتفخيم لشأنها. يعني: تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ ـ خبر ﴿تلك﴾ و﴿الدار﴾ نعتها ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ بغياً؛ ابن جبير. أو: ظلماً؛

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿لَخُسِفَ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٣٤).

وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ

الضحاك ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله. ولم يعلّق الموعد بترك العلوّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ١١٣]. فعلّق الوعيد بالركون. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل أنه قرأها، ثمّ قال: ذهبت الأمانيّ هاهنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنّه كان يردّدها حتّى قُبض. وقال بعضهم: حقيقته: التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٨٤ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ مرّ في «النمل»[1]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه: فلا يجزون. فوضع ﴿الذين عملوا السيّئات﴾ موضع الضمير؛ لأنّ في إسناد عمل السيّئة إليهم مكرّراً فضلَ تهجين بحالهم، وزيادة تبغيض للسيّئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إلا﴾ مثل ﴿ما كانوا يعملون﴾. ومن فضله العظيم: ألاّ يجزي السيّئة إلاّ بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها، وبسبعمئة.

٨٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه، والعمل بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيّ معاد، و﴿إلى معاد﴾ ليس لغيرك من البشر. لذا نكّره. أو: المراد به مكّة. والمراد: ردّه إليها يوم الفتح لأنّها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد؛ لغلبة رسول الله وقهره لأهله، ولظهور عزّ الإسلام وأهله، وذلّ الشرك وحزبه. والسورة مكيّة، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكّة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده،

---

(١) أي: الآية [٨٩] من سورة النمل.

﴿قُلْ رَبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٨٥ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾

ومولد آبائه. ولمّا وعد رسوله الردّ إلى معادٍ قال: ﴿قُل﴾ للمشركين: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني: نفسه، وماله من الثواب في معادٍ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعني: المشركين، وما يستحقّونه من العقاب في معادهم ﴿مَن﴾ في محلّ نصب بفعل مضمر، أي: يعلم.

٨٦ ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ﴾ يوحى ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ هو محمول على المعنى، أي: وما ألقي إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربّك. أو: إلاّ بمعنى: لكن للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ معيناً لهم على دينهم.

٨٧ ـ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ـ هو على الجمع ـ أي: لا يمنعنّك هؤلاء عن العمل بآيات الله ـ أي: القرآن ـ ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآيات، أي: بعد وقت إنزاله. و﴿إذ﴾ يضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ، ويومئذ ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ توحيده، وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٨٨ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الخطاب في الظاهر للنبيّ ﷺ، والمراد به: أهل دينه، ولأنّ العصمة لا تمنعُ النهي. والوقف على ﴿آخر﴾ لازم؛ لأنّه لو وصل لصار: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة لـ: ﴿إلهاً آخر﴾. وفيه من الفساد ما فيه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلاّ إيّاه. والوجه يعبّر به عن الذّات. وقال مجاهد: يعني: عِلْمَ العلماء إذا أريد به وجه الله ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء في خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

* * *

سُورَةُ العَنكَبُوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الحسبان: قوّة أحد النقيضين على الآخر كالظنّ، بخلاف الشكّ فهو الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما. ولا يصحّ تعليقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل. فلو قلت: حسبت زيداً، وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتّى تقول: حسبت زيداً عالماً، وظننت الفرس جواداً؛ لأنّ قولك: زيد عالم، والفرس جواد، كلام دالّ على مضمون، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظنّ لا اليقين، أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتّى يتمّ لك غرضك. والكلام الدالّ على المضمون؛ الذي يقتضيه الحسبان هنا: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أنّ تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا. فالترك أوّل مفعولي ﴿حسب﴾، ولقولهم: آمنا هو الخبر. وأما غير مفتونين فتتمّة الترك؛ لأنّه من الترك الذي هو بمعنى التصيير، كقول عنترة:

فتركتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه[1] ... ...

(١) هذا صدر البيت، وعجزه: يقضمن حُسْن بنانه والمعصم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

ألا ترى أنّك قبل المجيء بالحسبان تَقْدِر أن تقول: تركَهم غيرَ مفتونين لقولهم آمنا، على تقدير: حاصل ومستقرّ قبل اللام. وهو استفهامُ توبيخ. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقّة، وهجر الشهوات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفّار على أذاهم وكيدهم. ورُوي أنّها نزلتْ في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، أو: في عمّار بن ياسر، وكان يُعذَّبُ في الله.

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اختبرنا ـ وهو موصول بـ﴿أحسب﴾ أو: بـ: ﴿لا يفتنون﴾ ـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع الفتن. فمنهم من يُوضع المنشار على رأسه، فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه: ومعنى علمه تعالى ـ وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده ـ: أنّه يوجد. والمعنى: وليتميّزن الصادق منهم من الكاذب. قال ابنُ عطاء: يتبيّن صدقُ العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيّام الرخاء، وصبر في أيّام البلاء، فهو من الصّادقين. ومن بطر في أيّام الرخاء، وجزع في أيّام البلاء، فهو من الكاذبين.

٤ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك، والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا. يعني: أنّ الجزاءَ يلحقهم لا محالة. واشتمال صلة ﴿أن﴾ على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويجوز أن يضمّن ﴿حسب﴾ معنى قدّر. و﴿أم﴾ منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أنّ هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل؛ لأنّ ذلك يقدّر أنّه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يُظَنُّ أنّه لايُجازى بمساوئه. وقالوا: الأول في المؤمنين، وهذا في الكافرين ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «ما» في موضع رفع، على

مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ

معنى: ساء الحكم حكمهم. أو: نصب على معنى ساء حكماً يحكمون، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

٥ ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يأمل ثوابه، أو: يخاف حسابه ـ فالرجاء يحتملهما ـ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿لَءَاتٍ﴾ لا محالة. فليبادر العمل الصالح الذي يصدّق رجاءه، ويحقق أمله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء ما. وقال الزجاج: ﴿مَنْ﴾ للشرط، ويرتفع بالابتداء. وجواب الشرط ﴿فإنّ أجل الله لآت﴾ كقولك: إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد.

٦ ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله، أو: الشيطان بدفع وساوسه، أو: الكفّار ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنّ منفعة ذلك ترجع إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن طاعتهم، ومجاهدتهم. وإنّما أَمَرَ ونَهَىٰ رحمةً لعباده.

٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

٨ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ «وصّى»: حكمه حكم: «أمر» في معناه وتصرّفه، يقال: وصّيت زيداً بأن يفعل خيراً؛ كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصّاهم بكلمة التوحيد، وأمرهم بها. وقولك: وصّيت زيداً بعمرو، معناه: وصّيته بتعهّد عمرو، ومراعاته، ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ ووصّيناه بإيتاء والديه حسناً، أو: بإيلاء والديه حسناً، أي: فعلاً ذا حسن، أو: ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ويجوز أن يجعل ﴿حسناً﴾ من باب قولك: زيداً، بإضمار:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

اضرب، إذا رأيته متهيّئاً للضرب. فتنصبه بإضمار أَوْلِهِمَا، أي: أعطهما، أو: افعل بهما حسناً؛ لأنّ التوصية بهما دالّة عليه، وما بعده مطابق له. كأنّه قال: قلنا أَوْلِهِمَا معروفاً، ولا تطعهما في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على ﴿بوالديه﴾ وابتدىء ﴿حسناً﴾ حسن الوقف. وعلى التفسير الأوّل: لا بدّ من إضمار القول. معناه: وقلنا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيّها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ـ أي: لا علم لك بإلٰهيّته. ـ والمراد: بنفي العلم نفي المعلوم، كأنّه قال: ﴿لتشرك بي﴾ شيئاً لا يصحّ أن يكون إلهاً ـ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فلا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع مَن آمن منكم، ومَن أشرك ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم حق جزائكم وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات، والاستقامة في الدِّين.

رُوي: أنَّ سعد بن أبي وقّاص لمّا أسلم نذرت أمّه ألاّ تأكل ولا تشرب حتى يرتدّ، فشكا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، والتي في لقمان(١)، والتي في الأحقاف(٢).

٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هو مبتدأ والخبر: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم. والصَّلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنّى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قال سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أو: في مدخل الصّالحين، وهو الجنّة.

١٠ ـ ونزلت في المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ المنافقين، أي: إذا مسّه أذى من الكفار ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي:

(١) [لقمان: ١٤].
(٢) [الأحقاف: ١٥].

وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ

جزع من ذلك، كما يجزع من عذاب الله ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي: وإذا نصر الله المؤمنين وغنّمهم اعترضوا، فقالوا: ﴿إنّا كنّا معكم﴾ أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، فأعطونا نصيبنا من المغْنم ﴿ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: هو أعلم ﴿ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من العالمين بما في صُدورهم. ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص. ثمّ وَعَد المؤمنين، وأوعد المنافقين بقوله:

١١ ـ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أي: حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما.

١٢ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أمروهم باتّباع سبيلهم، وهي: طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر. وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا، وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتّباع، أي: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قولُ صناديد قريش. كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنا نتحمّل عنكم الإثم ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ لأنّهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نيّة الخلف.

١٣ ـ ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي: أثقال أنفسهم، يعني: أوزارهم بسبب كفرهم ﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي: أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي: أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم. وهو كما قال: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]

وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الأكاذيب، والأباطيل.

١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمره ألفاً وخمسين سنة، بُعِث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمئة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستّين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمئة سنة، فقال له ملكُ الموت: يا أطولَ الأنبياء عمراً كيف وجدتَ الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان دخلتُ وخرجت. ولم يقل تسعمئة وخمسين سنة، لأنّه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره. وهذا لِتَوَهُّمِ زائل هنا، فكأنه قيل: تسعمئة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلاّ أنّ ذلك أخصر، وأعذب لفظاً، وأملأ بالفائدة. ولأن القصّة سيقت لذكر ما ابْتُلي به نوح ـ عليه السلام ـ من أمّته، وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا ﷺ. فكان ذكر الألف أفخم، وأوصل إلى الغرض، وجيء بالمميّز أوّلاً بالسنة، ثمّ بالعام، لأنّ تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ هو: ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سبيل، أو: ظلام ليل، أو: نحوهما ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالكفر.

١٥ ـ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ أي: نوحاً ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، منهم أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾ أي: السفينة، أو: الحادثة، أو: القصة ﴿ءَايَةً﴾ عبرة، وعظة ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يتّعظون بها.

١٦ ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بإضمار اذكر، وأبدل عنه ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان تشتملُ على ما فيها. أو: معطوف على: ﴿نُوحًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إبراهيم﴾. و﴿إذ﴾: ظرف لأرسلنا. يعني: أرسلناه حين بلغ من السنّ أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة

لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾

والتقوى. وقرأ إبراهيم النخعيّ وأبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ: ﴿وإبراهيم﴾ بالرفع على معنى: ﴿و﴾ من المرسلين ﴿إبراهيم﴾ ﴿لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إن كان فيكم بما هو خيرٌ لكم مما هو شرّ لكم.

١٧ ـ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ أصناماً ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ وتُكَذِّبون، أو: تصنعـون. وقرأ أبو حنيفة والسلمي ـ رحمهما الله ـ ﴿وتُخَلِّقُون﴾ من خلّق بمعنى التكثير في خلق ﴿إِفۡكًا﴾ وقرىء ﴿أَفِكاً﴾ وهو مصدر، نحو: كذب، ولعب، والإفك مخفّف منه كالكِذْب واللعِب من أصلهما. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة، وشركاء لله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كلَّه، فإنه هو الرازق وحده، لا يرزق غيره ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فاستعدّوا للقائه بعبادته، والشكر على أنعمه. وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

١٨ ـ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: وإن تكذبوني فلا تضرّونني بتكذيبكم؛ فإنّ الرسل قبلي كذبتهم أممهم وما ضرّوهم، وإنّما ضرّوا أنفسهم حيث حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم. وأمّا الرسول فقد تمّ أمره، حيث بلّغ البلاغ المبين، الذي زال معه الشكّ، وهو: اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أي: وإن كنت مكذّباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة، حيث كذّبوا، وعلى الرسول أن يبلّغ، وما عليه أن يصدَّق ولا يكذّب. وهذه الآيةُ والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿فما كان جواب قومه﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾

محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث، وإدريس، ونوح، وغيرهم؛ وأنْ تكون آياتٍ وقعت معترضةً في شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، بين أوّل قصّة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: فالجمل الاعتراضية لابدّ لها من اتّصال بما وقعت معترضة فيه، فلا تقول: مكّة وزيد قائم خير بلاد الله؟ قلت: نعم، وبيانه: أنّ إيراد قصّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليس إلاّ إرادة التنفيس عن رسول الله ﷺ، وأن تكون مسلاةً له بأنّ أباه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مُبتلىً بنحو ما ابتلي به من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذّبوا﴾ على معنى: إنّكم يا معشر قريش إن تكذّبوا محمّداً ﴿فقد كذّب﴾ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه، وكلّ أمّة نبيّها؛ لأنّ قوله: ﴿فقد كذّب أمم من قبلكم﴾ لابدّ من تناوله لأمّة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متّصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه، ووضوح حجّته وبرهانه.

١٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: كوفيّ غير حفص ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: قد رأوا ذلك، وعلموه. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يبدىء﴾ وليست الرؤية واقعة عليه، وإنّما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] على البدء دون الإنشاء. بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الخلق﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

٢٠ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمّد. وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قُلْ ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم، واختلاف أحوالهم، لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة. وبدأ وأبدأ: بمعنىً ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: البعث وبالمدّ[1] حيث كان: مكّيّ، وأبو عمرو. وهذا

(١) أي: مدّ الشين بعد تحريكها.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ
تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ
مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ
ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ

دليلٌ على أنّهما نشأتان، وأنّ كلّ واحدة منهما إنشاء، أي: ابتداء، واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود. غير أنّ الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله. والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق، ثمّ ينشيء النشأة الآخرة. وإنما قيل كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة؛ لأنَّ الكلام معهم وقع في الإعادة، فلمّا قرّرهم في الإبداء بأنّه من الله احتجَّ عليهم بأنّ الإعادة إنشاء مثل الإبداء. فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألاّ تُعجزه الإعادة. فكأنّه قال: ثمّ ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشيء النشأة الآخرة. فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه، وأوقعه مبتدأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قادر.

٢١ ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية، وبالحرص والقناعة، أو: بسوء الخلق وحُسْنه، أو: بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو: بمتابعة البدع وبملازمة السنّة ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ تردّون، وترجعون.

٢٢ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ ربكم، أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أفسح منها، وأبسط لو كنتم فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولّى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابي.

٢٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بدلائله على وحدانيّته، وكتبه، ومعجزاته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ جنّتي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

٢٤ ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين، فاتّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ

﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حين قذفوه فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ رُوي: أنّه لم يُنتَفَعْ في ذلك اليوم بالنار، يعني: يوم أُلقي إبراهيم في النار، وذلك لذهاب حرّها.

٢٥ ـ ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حمزة، وحفص ﴿مودةً بينكم﴾: مدنيّ، وشاميّ، وحماد، ويحيى، وخلف ﴿مودّةُ بينكم﴾: مكّيّ، وبصريّ، وعلّي ﴿مودّةٌ بينَكم﴾: الشّموني، والبرجميّ. فالنصب على وجهين؛ على التعليل، أي: لتتوادّوا بينكم، وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، واتّفاقكم عليها، كما يتّفق الناس على مذهب، فيكون ذلك سبب تحابّهم، وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]. و﴿ما﴾ كافّة، أي: اتّخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم، على تقدير حذف المضاف، أو: اتّخذتموها ﴿مودّةً بينكم﴾ أي: مودودة بينكم، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لإنّ، و﴿ما﴾ موصولة، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مودّة بينكم. والمعنى: أنّ الأوثان مودّةٌ بينكم، أي: مودودة، أو: سبب مودّة. ومَن أضاف المودّة جعل ﴿بينكم﴾ اسماً لا ظرفاً، كقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦] ومن نوّن ﴿مودّة﴾ ونصب ﴿بينكم﴾ فعلى الظرف ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ تتبرأ الأصنام من عبّادها ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي: يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن، فيلعن الأتباع القادة ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ثمّة.

٢٦ ـ ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿لُوطٞ﴾ هو ابن أخت إبراهيم، وهو أوّل من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من كَوْثى، وهي من سواد الكوفة إلى حرّان، ثمّ منها إلى فلسطين، وهي من بريّة الشام. ومن ثمّ قالوا: لكلّ نبيّ هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه في هجرته لوط، وسارّة، وقد تزوّجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ﴿إلى﴾ حيث أمرني ﴿ربي﴾ بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلاّ بما هو خير.

٢٧ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وَلَدَ وَلَدٍ. ولم يذكر إسماعيل لشهرته ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: في ذرّية إبراهيم، فإنّه شجرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد به: الجنس، يعني: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أَجْرَهُۥ﴾ الثناء الحسن، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبّة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فيه دليلٌ على أنّه تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من أهل الجنة، عن الحسن.

٢٨ ـ ﴿وَلُوطًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وهي اللواط ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقرّرة لفاحشة تلك الفعلة، كأنّ قائلاً قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقيل: لأنّ أحداً قبلهم لم يقدم عليها. قالوا: لم يَنْزُ ذَكَر على ذَكَر قبل قوم لوط.

٢٩ ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ بالقتل، وأخذ المال كما هو عمل قطّاع الطريق. وقيل: اعتراضهم السّابلة بالفاحشة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ مجلسكم. ولا يقال للمجلس نادٍ إلاّ ما دام فيه أهلُه ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: المضارطة، والمجامعة، والسباب، والفحش في المزاح، والحذف بالحصى،

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾

ومضغ العلك، والفرقعة، والسّواك بين الناس ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب ﴿إنكم﴾ ﴿أينكم﴾ شاميّ، وحفص، وهو: الموجود في الإمام[1]. وكلّ واحد بهمزتين: كوفيّ غير حفص. ﴿آينكم﴾، بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو، و﴿أينكم﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكيّ، ونافع غير قالون، وسهل، ويعقوب غير زيد.

٣٠ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي، والفواحش.

٣١ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة، يعني: إسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إضافة ﴿مهلكو﴾ لم تفد تعريفاً لأنها بمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجْوَرُ من قاضي سدوم. و﴿هذه القرية﴾ تشعر بأنّها قريبة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ قالوا: إنّها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: الظلم قد استمرّ منهم في الأيام السالفة وهم عليه مصرّون. وظلمهم: كفرهم، وأنواع معاصيهم.

٣٢ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، وهو: لوط ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾[2] ﴿لَنُنجينّه﴾: يعقوب، وكوفيّ غير عاصم

---

(١) أي: مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَنُنْجينّه﴾.

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ

﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. ثمّ أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله:

٣٣ ـ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم. و﴿أن﴾ صلة أكّدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر، كأنّهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنّه قيل: كما أحسّ بمجيئهم فاجأته المساءة من غير رَيْثٍ خيفة عليهم من قومه أن يتناولوهم بالفجور ﴿سيء بهم﴾[1]: مدنيّ، وشاميّ، عليّ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم، وبتدبير أمرهم ذرعه، أي: طاقته. وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة. كما قالوا: رحب الذراع إذا كان مطيقاً له. والأصل فيه: أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع، وضُرب ذلك مثلاً في العجز، والقدرة. وهو نصب على التمييز ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وكوفيّ غير حفص ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الكاف في محلّ الجرّ. فتنصب ﴿أهلك﴾ بفعل محذوف، أي: ﴿و﴾ ننجي ﴿أهلك﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

٣٤ ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ ﴿منزّلون﴾ شاميّ ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

٣٥ ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِّقَوْمٍ﴾ يتعلّق بـ﴿تركنا﴾ أو: بـ﴿بيّنة﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى ﴿مدين﴾ ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ

(١) قوله: «سيء بهم»: أي: بإشمام كسرة السين الضمة.

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد
تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا
بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة، أو: خافوه ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قاصدين الفساد.

٣٧ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أو: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ لأنّ القلوب رجفت لها ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ في بلدهم، وأرضهم. أو: في ديارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يُلْبَسُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميّتين.

٣٨ ـ ﴿وَعَادٗا﴾ منصوب بإضمار أهلكناها، لأن قوله ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يدّل عليه، لأنّه في معنى الإهلاك ﴿وَثَمُودَاْ﴾: حمزة، وحفص، وسهل، ويعقوب ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ـ يعني ما وصفه من إهلاكهم ـ ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ مِنْ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. وكان أهل مكّة يمرّون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي أمروا بسلوكه، وهو: الإيمان بالله، ورسله ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ عقلاء متمكّنين من النظر، وتمييز الحقّ من الباطل، ولكنّهم لم يفعلوا.

٣٩ ـ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي: وأهلكناهم ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ فائتين. أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

٤٠ ـ ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فيه رد على من يجوّز العقوبة بغير ذنب ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ هي ريح عاصف فيها حصباء، وهي لقوم لوط ﴿وَمِنۡهُم

مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ

﴿مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هي لمدين وثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني: قوم نوح عليه السلام وفرعون عليه اللعنة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، والطغيان.

٤١ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة. يعني: مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: ﴿كمثل العنكبوت﴾ فيما تتخذه لنفسها من البيت، فإنّ ذلك البيت لا يدفع عنها الحرّ والبرد، ولا يقي بما تقي البيوت. فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة. جعل حاتم ﴿اتّخذت﴾ حالاً ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهن من بيتها. عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإنّ تركه يورث الفقر ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ هذا مثلهم، وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. وقيل: معنى الآية: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتّخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجرٍ وجصٍّ، أو: ينحته من صخر. وكما أنّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان ﴿لو كانوا يعلمون﴾. وقال الزّجاج في جماعة: تقدير الآية: ﴿مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء﴾ ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ﴿كمثل العنكبوت﴾.

٤٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: بصريّ، وعاصم، غير الأعشى، والبرجميّ. و﴿ما﴾ بمعنى الذي، وهو مفعول ﴿يعلم﴾. ومفعول ﴿يدعون﴾ مضمر، أي: يدعونه، يعني: يعبدونه ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿من﴾ في ﴿من

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٤ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾

شيء﴾ للتبيين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا شريك له ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة. وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كلّ شيء ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلاّ بحكمةٍ وتدبير.

٤٣ ـ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ ﴿الأمثال﴾: نعت، والخبر: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نبيّنها ﴿للناس﴾ كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ به، وبأسمائه، وصفاته. أي: لا يعقل صحّتها وحسنها، ولا يفهم فائدتها إلاّ هم، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنّما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتّى تبرزها وتصوّرها للأفهام، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحِّد. وعن النبي ﷺ أنّه تلا هذه الآية فقال: «العالم مَن عقل عن الله، فعمل بطاعته واجتنب سخطه». ودلّت الآية على فضل العلم على العقل.

٤٤ ـ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: محقاً، يعني: لم يخلقهما باطلاً، بل لحكمة، وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وخصّهم بالذكر لانتفاعهم بها.

٤٥ ـ ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تقرّباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه، ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: دُمْ على إقامة الصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: الفعلة القبيحة كالزنى مثلاً ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ هو ما ينكره والعقل والشرع. قيل: من كان مراعياً للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً مّا. فقد رُوي أنّه قيل يوماً لرسول الله ﷺ:

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

إن فلاناً يصلّي بالنهار، ويسرق بالليل، فقال: «إنّ صلاته لتردعه»[١] ورُوي أنّ فتى من الأنصار كان يصلّي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلاّ ركبه، فوصف له، فقال: «إنّ صلاته ستنهاه». فلم يلبث أن تاب[٢]. وقال ابن عوف: ﴿إن الصلاة تنهى﴾ أي: إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. وعن الحسن: من لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة، وهي وبالٌ عليه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات. وإنّما قال: ﴿ولذكر الله﴾ ليستقلّ بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر لأنّها ذكر الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ولذكر الله﴾ إيّاكم برحمته ﴿أكبر﴾ من ذكركم إيّاه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأنّ ذكره بلا علّة، وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأنّ ذكره لا يفنى، وذكركم لا يبقى. وقال سلمان: ذكر الله أكبر من كلّ شيء وأفضل. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»[٣] وسُئِل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»[٤]. أو: ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم، أو: ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية، أو: ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير، والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

٤٦ ـ ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي ﴿هي

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والبزار وأبو يعلى. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٥٦).
(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٥٦).
(٣) رواه مالك (١ / ٢١١) والترمذي (٣٣٧٤) وابن ماجه (٣٧٩٠).
(٤) رواه ابن شاهين وابن النجار (كنز العمال ٣٩٣٩).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

أحسن﴾ وهي مقابلةُ الخشونة باللين، والغضب بالكظم ـ كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفعْ فيهم الرفق. فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: ﴿إلاّ الذين﴾ آذوا رسول الله ﷺ. أو ﴿إلاّ الذين﴾ أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو: معناه ﴿ولا تجادلوا﴾ الداخلين في الذمة المؤدين للجزية ﴿إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا﴾ فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدلّ على جواز المناظرة مع الكفرة في الدِّين، وعلى جواز تعلّم علم الكلام الذي به تتحقّق المجادلة ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ من جنس المجادلة بالأحسن. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم ﴿وقولوا آمنّا﴾ بالله، وكتبه، ورسله. فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم وإن كان حقاً لم تكذّبوهم»(١).

٤٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلناه مصدّقاً لسائر الكتب السّماويّة. أو: كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك ﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ هم: عبد الله بن سلام، ومن آمن معه ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل مكّة ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾. أو: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب، ﴿ومن هؤلاء﴾ الذين كانوا في زمان النبي ﷺ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها، وزوال الشبهة عنها ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلاّ المتوغلون في الكفر، المصمّمون عليه؛ ككعب بن الأشرف وأضرابه.

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٦) وأبو داود (٣٦٤٤).

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ

٤٨ ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن ﴿مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ خص اليمين، لأن الكتابة غالباً تكون باليمين، أي: ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً ﴿إِذًا﴾ أي: لو كان شيء من ذلك، أي: من التلاوة، والخطّ ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجد نعته في كتبنا أميّ، لا يكتب، ولا يقرأ، وليس به، أو: لارتاب مشركو مكّة، وقالوا: لعلّه تعلّمه، أو كتبه بيده. وسمّاهم مبطلين لإنكارهم نبوّته. وعن مجاهد والشعبيّ: ـ رحمهما الله ـ ما مات النبيّ ﷺ حتى كتب وقرأ!

٤٩ ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: في صدور العلماء به، وحفّاظه. وهما من خصائص القرآن: كون آياته بيّنات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور. بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلاّ من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الواضحة ﴿إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم.

٥٠ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ﴿آية﴾ بغير ألف: مكّيّ، وكوفيّ غير حفص. أرادوا: هلاّ (أنزل عليه آية) مثل: الناقة، والعصا، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزل أيّتها شاء، فلست أملك منها شيئاً ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كلّفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أقول: أَنْزِلْ عليّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي: أنّ المراد من الآيات ثبوت الدلالة، والآيات كلّها في حكم آية واحدة في ذلك.

٥١ ـ أي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ـ إن كانوا طالبين للحقّ غير متعنّتين ـ هذا القرآن الذي تدومُ تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

لا تزول، كما تزول كلّ آية بعد كونها، أو: تكون في مكان دون مكان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدّهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون المتعنّتين.

٥٢ ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً بصدق ما أدّعيه من الرسالة، وإنزال القرآن عليّ، وبتكذيبكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مُطَّلع على أمري وأمركم، وعالم بحقّي وباطلكم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ باليهودية، أو بالشرك، أو بإبليس ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان. إلاّ أنّ الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. ورُوي: أنَّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمّد! من يشهد لك بأنّك رسول الله؟ فنزلت:

٥٣ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ وهو: يوم القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بآجالهم. والمعنى: ﴿ولولا أجل﴾ قد سمّاه الله، وبيّنه في اللوح لعذابهم، والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمّى، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ العذاب في الأجل المسمّى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

٥٤ ـ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ستحيط بهم.

٥٥ ـ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِّن

ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا

﴿فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. ولا وقف على ﴿بالكافرين﴾ لأنّ ﴿يوم﴾ ظرف إحاطة النار بهم ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء: كوفيّ، ونافع ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم.

٥٦ ـ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وبسكون الياء: بصريّ، وكوفيّ، غير عاصم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ وبفتح الياء: شاميّ، يعني: أنّ المؤمن إذا لم يتسهّل له العبادة في بلد هو فيه، ولم يتمشّ له أمر دينه، فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنّه فيه أسلم قلباً، وأصحّ ديناً، وأكثر عبادة. والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً. وقالوا: لم نجد أعون على قهر النفس، وأجمع للقلب، وأحثّ على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن، وأربط للأمر الدينيّ من مكّة ـ حرسها الله تعالى ـ. وعن سهل: إذا ظهرت المعاصي والبِدَع في أرض، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنّة»[١] ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وبالياء: يعقوب. وتقديره: ﴿فإيّاي﴾ فاعبدوا ﴿فاعبدوني﴾. وجيء بالفاء في ﴿فاعبدون﴾ لأنّه جواب شرط محذوف؛ لأنّ المعنى: ﴿إنّ أرضي واسعة﴾ فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضٍ، فأخلصوها في غيرها. ثمّ حذف الشرط، وعوّض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص. ثمّ شجّع المهاجر بقوله:

٥٧ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: واجدة مرارته وكربه، كما يجدُ الذائق طعم المذوق، لأنّها إذا تيقّنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب ﴿يرجعون﴾ يحيى ﴿ترجعون﴾ يعقوب.

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ لننزلنّهم من الجنّة

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٦١).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

علالي. (لَنُثْوِيَنَّهم) كوفيّ غير عاصم من الثَّواء، وهو: النزول للإقامة. وثَوِيَ غير متعدّ، فإذا تعدّى بزيادة الهمزة لم يتجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف إمّا إجراؤه مجرى لننزلنّهم، أو: لنؤوينّهم، أو: حذف الجارّ وإيصال الفعل، أو تشبيه الظرف المؤقّت بالمبهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. ويوقف على: ﴿العاملين﴾ على أنّ:

٥٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي. والوصل أجود ليكون ﴿الذين﴾ نعتاً للعاملين ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولم يتوكّلوا في جميع ذلك إلاّ على الله.

٦٠ ـ ولمّا أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكّة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ أي: وكم من دابّة. ﴿وكائن﴾ بالمدّ والهمز مكّيّ. والدابّة: كلّ نفس دبّت على وجه الأرض عقلت، أو لم تعقل ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يرزق تلك الدوّاب الضعاف إلاّ الله، ولا يرزقكم أيضاً ـ أيها الأقوياء ـ إلاّ هو، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يقدّركم، ولم يقدّر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدوابّ التي لا تحمل. وعن الحسن: ﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تدّخره، إنّما تصبح فيرزقها الله. وقيل: لا يدّخر شيء من الحيوان قوتاً إلاّ ابن آدم، والفأرة، والنملة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

٦١ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ﴿وَلَئِن﴾ سألت هؤلاء المشركين من خالق السموات والأرض على كبرهما، وسعتهما؟ ﴿و﴾ من الذي ﴿سخّر الشمس والقمر﴾؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾

فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كلّه؟

٦٢ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأنّ من يشاء مبهم غير معين، فكان الضمير مبهماً مثله. قدَر الرزق وقترَه بمعنىً: إذا ضيّقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم. في الحديث: «إنّ من عبادي مَن لا يُصْلح إيمانه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»[1].

٦٣ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم مقرّون بذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض، أو: على أنّه ممن أقرّ بنحو ما أقرّوا به، ثمّ نفعه ذلك في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبّرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات، ونقيم عليهم من الدلالات. أو: ﴿لا يعقلون﴾ ما تريد بقولك ﴿الحمد لله﴾.

٦٤ ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: ما هي، لسرعة زوالها عن أهلها، وموتهم عنها، إلاّ كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرّقون. وفيه ازدراء بالدنيا، وتصغير لأمرها. وكيف لا يصغّرها وهي لا تزنُ عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذّذ به الإنسان فيلهيه ساعة، ثم ينقضي ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة، أي: ليس فيها إلاّ حياة مستمرّة دائمة لا موت فيها، فكأنّها في ذاتها حياة. والحيوان مصدر حَيَّ، وقياسه: حييان، فقلبت الياء الثانية

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨ و٨١٠٠) من حديث عمر وأنس رضي الله عنهما.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

واواً. ولم يقل: لهي الحياة لما في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة، والموت سكون فمجيئه على بناء دالّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة. ويوقف على ﴿الحيوان﴾؛ لأنّ التقدير: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي. ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك، وليس كذلك.

٦٥ ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ هو متّصل بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به، وشرح من أمرهم، معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلاّ الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عادوا إلى حال الشرك.

٦٦ ـ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعمة. قيل: هي لام كي. وكذا في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ فيمن قرأها بالكسر. أي: لكي يكفروا، وكي يتمتعوا. والمعنى: يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها، والتلذذ لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة، لا إلى التمتع والتلذذ. وعلى هذا لا وقف على ﴿يشركون﴾. ومن جعله لام الأمر ـ متثبّتاً بقراءة ابن كثير، وحمزة، وعليّ ﴿وَلْيَتَمَتَّعوا﴾ بسكون اللام، على وجه التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وتحقيقه في أصول الفقه، تقف عليه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم.

٦٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ممنوعاً مصوناً ﴿آمِنًا﴾ يأمن داخلوه ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يستلبون قتلاً وسبياً

أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالشيطان والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بمحمّد ﷺ والإسلام.

٦٨ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بنبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام، والكتاب ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لم يتلعثموا في تكذيبه حين سمعوه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا تقرير لثَوائهم في جهنّم؛ لأنّ همزة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً. يعني: ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله، وكذّبوا بالحق مثل هذا التكذيب.

أو: ألم يصحّ عندهم أنّ ﴿في جهنم مثوىً للكافرين﴾ حين اجترؤوا مثل هذا الجرأة. وذكر المثوى في مقابلة ﴿لنبوّئنّهم﴾ يؤيّد قراءة الثاء.

٦٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمفعول ليتناول كلّ ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان، وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقّنا، ومن أجلنا، ولوجهنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أبو عمرو. أي: لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير، وتوفيقاً. وعن الداراني: ﴿والذين جاهدوا﴾ فما علموا ﴿لنهديهم﴾ إلى مالم يعلموا. فقد قيل: من عمل بما علم وفّق لما لا يعلم. وقيل: إنّ الذي نرى من جهلنا[1] بما لا نعلم، إنّما هو لتقصيرنا فيما نعلم. وعن فضيل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في طلب العلم ﴿لنهدينهم﴾ سبل العمل به. وعن سهل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في إقامة السنّة ﴿لنهدينّهم﴾ سبل الجنّة. وعن ابن عطاء: ﴿جاهدوا﴾ في رضانا ﴿لنهدينّهم﴾ الوصول إلى محلّ الرِّضوان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿جاهدوا﴾ في طاعتنا ﴿لنهدينّهم﴾ سُبُل ثوابنا. وعن الجنيد ـ رحمة الله عليه ـ: ﴿جاهدوا﴾ في التوبة ﴿لنهدينّهم﴾ سبل الإخلاص، أو: ﴿جاهدوا﴾ في خدمتنا لنفتحنّ عليهم سبل المناجاة معنا،

(١) في الأصل المخطوط: جَهدنا. وهو خطأ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

والأنس بنا، أو: ﴿جاهدوا﴾ في طلبنا تحرياً لرضانا ﴿لنهدينّهم﴾ سُبُل الوصول إلينا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة، والمعونة في الدنيا، وبالثواب والمغفرة في العقبى.

* * *

سورة الروم

ترتيبها ٣٠ — آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾

١، ٣ ـ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أي: غَلَبَتْ فارسُ الرومَ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أقرب أرض العرب، لأنّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوّهم ﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: غلبة فارس إيّاهم، وقرىء بسكون اللام. فالغَلَب والغَلْب مصدران. وقد أضيف المصدر إلى المفعول ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس. ولا وقف عليه لتعلّق:

٤ ـ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ به. وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعاتٍ وبصرى، فغلب فارس الروم، والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز، فبلغ الخبر مكّة، فشقّ على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنّ فارس

لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ

مجوس لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمتوا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيّون، وقد أظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر: والله ليظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين. فقال له أبيّ بن خلف: كذبت! فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «زِدْ في الخطر، وأبعد في الأجل». فجعلاها مئة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ من جرح رسول الله ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرّيّة أبيّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدّق به»[(١)].

هذه آيةٌ بيّنة على صحّة نبوّته، وأنّ القرآن من عند الله؛ لأنّها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار. عن قتادة. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمّد ـ رحمهما الله ـ: أنّ العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفّار. وقد احتجّا على صحّة ذلك بهذه القصة ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل كل شيء، ومن بعد كلّ شيء. أو: حين غلبوا وحين يغلبون. كأنّه قيل: من قبل كونهم غالبين ـ وهو وقت كونهم مغلوبين ـ ومن بعد كونهم مغلوبين ـ وهو وقت كونهم غالبين، يعني: أنّ كونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخراً ليس إلاّ بأمر الله وقضائه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس، ويحلّ ما وعد الله من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبه مَن له كتاب على مَن لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من كفّار مكّة. وقيل: نصر الله: هو: إظهار صدق المؤمنين فما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. والباء يتّصل بـ ﴿يفرح﴾ فيوقف على ﴿الله﴾

(١) رواه الترمذي (٣١٩٤).

يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ

لا على ﴿المؤمنون بنصر الله﴾ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ العاطف على أوليائه.

٦ ـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ وعد من الله للمؤمنين. فقوله: ﴿وعد الله﴾ بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بنصر الروم على فارس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٧ ـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من ﴿لا يعلمون﴾. وفيه بيان: أنّه لا فرقَ بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوزُ تحصيل الدنيا ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يفيد أنّ للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهّال من التمتّع بزخارفها، وباطنها: أنّها مجازٌ إلى الآخرة يتزوّد منها إليها بالأعمال الصالحة. وتنكير الظاهر يفيد أنّهم لا يعلمون إلاّ ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿هم﴾ الثانية: مبتدأ. و﴿غافلون﴾ خبره. والجملة خبر ﴿هم﴾ الأولى. وفيه بيان أنّهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها.

٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً، كأنّه قيل: ﴿أو لم﴾ يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر. والتفكّر لا يكون إلاّ في القلوب، ولكنّه زيادة تصوير لحال المتفكّرين، كقولك: اعتقده في قلبك. وأن يكون صلة للتفكّر نحو: تفكّر في الأمر، وأجال فيه فكره. ومعناه على هذا: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾ التي هي أقربُ إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلمُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحِكَم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لابُدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقت تُجازى فيه على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لابُدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ متعلّق بالقول المحذوف. معناه: ﴿أو لم يتفكّروا﴾ فيقولوا هذا القول. وقيل معناه:

إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟

فيعلموا؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنّما خلقها مقرونة بالحقّ، ومصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمّى لابدّ لها من أن تنتهي إليه، وهو قيامُ الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾ كيف سمّى تركهم غير راجعين إليه عبثاً؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث، والجزاء ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ لجاحدون. وقال الزجّاج ـ رحمه الله ـ: أي: لكافرون بلقاء ربّهم.

٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمَّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية. ثمّ وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: المدمَّرون ﴿أَكْثَرَ﴾ صفة مصدر محذوف. و«ما» مصدريّة في ﴿مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكّة ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وتقف عليها لحقّ الحذف، أي: فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما كان تدميره إيّاهم ظلماً لهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنّهم ظلموا أنفسهم، حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

١٠ ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ بالنصب: شاميّ، وكوفيّ ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. ومحلّها رفع على أنّها اسم ﴿كان﴾ عند من نصب ﴿عاقبة﴾ على الخبر، ونصبٌ عند من رفعها. والمعنى: أنّهم عوقبوا في الدنيا بالدّمار، ثمّ كانت عاقبتهم السوأى ـ إلاّ أنّه وضع المظهر وهو ﴿الذين أساؤوا﴾ موضع المضمر ـ أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدّت للكافرين ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ لـ﴿أن

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ
يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ
يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي

كذّبوا﴾ أو: بـ ﴿أن﴾. وهو يدلّ على أنّ معنى ﴿أساؤوا﴾ كفروا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني: ثمّ كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائهم بها.

١١ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وبالياء: أبو عمرو، وسهل.

١٢ ـ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ﴾ ييئس ويتحيّر. يقال: ناظرته فأبلس، إذا لم ينبس وييئس من أن يحتجّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المشركون.

١٣ ـ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله. وكتب ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ في المصحف بواو قبل الألف كما كتب ﴿علمؤا بني إسرائيل﴾ ـ وكذلك كتبت ﴿السوأى﴾ بالألف قبل الياء ـ إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي: يكفرون بالهيتهم، ويجحدونها، أو: ﴿وكانوا﴾ في الدنيا ﴿كافرين﴾ بسببهم.

١٤ ـ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الضمير في ﴿يتفرّقون﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه؛ حيث قال:

١٥ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ أي: بستان، وهي: الجنّة. والتنكير لإبهام أمرها، وتفخيمه ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يسرّون. يقال: حبره، إذا سرّه سروراً تهلّل له وجهه، وظهر فيه أثره. ثمّ اختلف فيه لاحتمال وجوه المسارّ، فقيل: يكرمون، وقيل. يحلّون، وقيل: هو السماع في الجنّة.

١٦ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: البعث ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي

ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مقيمون، لا يغيبون عنه، ولا يخفّف عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ ـ لمّا ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بالتسبيح ظاهره؛ الذي هو تنزيه الله من السوء، والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات؛ لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة. أو: الصلاة، فقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هل نجد الصلوات الخمس في القرآن؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية. وهو نصب على المصدر. والمعنى: نزّهوه عمّا لا يليق به، أو صلّوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر.

١٨ ـ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض. ومعناه: أنّ على المميّزين كلّهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه. و﴿في السموات﴾ حال من ﴿الحمد﴾ ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر. وهو معطوف على ﴿حين تمسون﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. أظهَر: أي: دخل في وقت الظهر. والقول الأكثر أنّ الصلوات الخمس فُرِضتْ بمكّة.

١٩ ـ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، أو الإنسان من النطفة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ البيضة من الطائر، أو النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن. و﴿الميْت﴾ بالتخفيف فيهما: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحمّاد، وبالتشديد غيرهم ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] حمزة، وعليّ، وخلف. أي: ومثل ذلك الإخراج ﴿تَخْرُجون﴾ من قبوركم. والكاف في محلّ النصب بـ﴿تَخْرُجون﴾. والمعنى: أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة مَن هو قادر على إخراج الميّت

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَخْرُجون﴾، وهي قراءة من أشار إليهم المؤلف.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

من الحيّ، وعكسه. روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «من قرأ ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى الثلاث، وآخر سورة ﴿والصافّات﴾ دبر كلّ صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات أجري له بكل حرف عشر حسنات في قبره». وعنه ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ إلى قوله ﴿وكذلك تخرجون﴾ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته»[(١)].

٢٠ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ومن علامات ربوبيّته، وقدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: آدم وذرّيّته ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ تتصرفون فيما فيه معاشكم، و﴿إذا﴾ للمفاجآت. وتقديره: ﴿ثم﴾ فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

٢١ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: حوّاء خلقت من ضلع آدم ـ عليه السلام ـ والنساء بعدها خُلِقْنَ من أصلاب الرجال، أو: من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألِفِ والسكون، ومابين الجنسين المختلفين من التنافر. يقال: سكن إليه: إذا مال إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي بينكم التوادّ، والتراحم بسبب الزواج. وعن الحسن: المودّة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد. وقيل: المودّة للشابة، والرحمة للعجوز. وقيل: المودّة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان، أي: بغض المرأة زوجها، وبغض الزوج المرأة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أنّ قوام الدنيا بوجود التناسل.

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٦).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

٢٢ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: اللغات، أو: أجناس النطق وأشكاله ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما. ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلاّ فلو تشاكلت واتّفقت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بيّنة حيث ولدوا من أب واحد، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلاّ الله متفاوتون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[1] جمع عالَم. وبكسر اللام حفص، جمع عالِم. ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٣ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ هذا من باب اللفّ. وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلاّ أنه فُصِل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين. أو: المراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما. والجمهور على الأوّل لتكرره في القرآن. وأسدّ المعاني ما دلّ عليه القرآن ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون سماع تدبّر بآذان واعية.

٢٤ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ في ﴿يريكم﴾ وجهان إضمار «أنْ» كما في حرف ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وإنزال الفعل منزلة المصدر. وبهما فسّر المثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»[2] أي: أن تسمع، أو: سماعك ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة، أو: من الإخلاف ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. أو: ﴿خوفاً﴾ للمسافر ﴿وطمعاً﴾ للحاضر. وهما منصوبان على المفعول له، على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع؛ أو: على الحال، أي: خائفين، وطامعين ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وبالتخفيف مكّيّ، وبصريّ

(١) أثبت المؤلف رحمه الله قراءة ﴿لِلْعَالَمِين﴾ بفتح اللام.
(٢) انظره في: مجمع الأمثال للميداني (١/١٢٩).

مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

﴿مَآءً﴾ مطراً ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكّرون بعقولهم.

٢٥ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ تثبت بلا عمد ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإقامته، أو: بتدبيره، وحكمته ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم. هذا كقوله ﴿يريكم﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنّه قال: ﴿ومن آياته﴾ قيام السموات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثمّ خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد: سرعة وجود ذلك من غير توقّف. وإنّما عُطِفَ هذا على قيام السموات والأرض بـ﴿ثمّ﴾ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلاّ قامت تنظر، كما قال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. و﴿إذا﴾ الأولى للشرط، والثانية للمفاجآت، وهي تنوبُ مناب الفاء في جواب الشرط. و﴿من الأرض﴾ متعلّق بالفعل لا بالمصدر. وقولك: دعوته من مكان كذا، يجوز أن يكون: مكانك، ويجوز أن يكون: مكان صاحبك.

٢٦ ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم، لا يمتنعون عليه، أو: مقرّون بالعبوديّة.

٢٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: ينشئهم ثم يعيدهم للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي: البعث ﴿أَهْوَنُ﴾ أيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء. فلم أنكرتم الإعادة؟ وأخّرت الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدّمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] لقصد الاختصاص هناك، وأمّا هنا فلا معنى للاختصاص. وقال أبو عبيدة والزجّاج وغيرهما: الأهون

وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ

بمعنى الهيّن، فيوصف به الله عزّ وجلّ، وكان ذلك على الله يسيراً، كما قالوا: الله أكبر، أي: كبير. والإعادة في نفسها عظيمة، ولكنّها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء. أو: ﴿هو أهون﴾ على الخلق من الإنشاء؛ لأنّ قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً، ثمّ علقاً، ثمّ مضغاً، إلى تكميل خلقهم ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره، وقد عرف به ووصف ﴿في السموات والأرض﴾ على ألسنة الخلائق، وألسنة الدلائل، وهو أنّه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكلّ مقدور ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يجري كلّ فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المثل الأعلى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ: هو قول لا إله إلاّ الله. ومعناه: ﴿وله﴾ الوصف الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله:

٢٨ ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ فهذا مثلٌ ضربه الله عزّ وجلّ لمن جعل له شريكاً من خلقه. و﴿من﴾ للابتداء. كأنّه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ﴿هَل لَّكُم﴾ معاشر الأحرار ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ عبيدكم ـ و﴿من﴾ للتبعيض ـ ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾؟ ﴿من﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه: هل ترضون لأنفسكم ـ وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر، وعبيد كعبيد ـ أن يشارككم بعضهم ﴿فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمۡ﴾ معاشر الأحرار والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَآءٞ﴾ من غير تفصلة بين حرّ وعبد، يحكم مماليككم في أموالكم كحكمكم ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿سواء﴾ أي: تخافون معاشر السادة عبيدكم فيها، فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم، خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم ﴿كَخِيفَتِكُمۡ﴾ أي: خيفةً كخيفتكم ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ يعني: كما يخاف بعضُ

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾

الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربّ الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعضَ عبيده له شركاء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ موضع الكاف نصب، أي: مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبينّها؛ لأنّ التمثيل ممّا يكشف المعاني، ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبّرون في ضرب الأمثال.

٢٩ ـ فلمّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسهم بما أشركوا، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اتّبعوا ﴿أهواءهم﴾ جاهلين ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: أضلّه الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ من العذاب.

٣٠ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوّم وجهك له، وعدّله، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً. وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه. فإنّ مَن اهتمّ بالشيء عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه ﴿حَنِيفًا﴾ حال عن المأمور، وعن الدّين ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: الزموا ﴿فطرة الله﴾. والفطرة: الخلقة. ألَا ترى إلى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾؟! والمعنى: أنّه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نابين[(١)] عنه ولا منكرين له؛ لكونه مجاذِباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتّى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر. ومَن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجنّ. ومنه قوله ﷺ: «كلّ عبادي خلقتُ حنفاء، فاجتالتهم الشياطينُ عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[(٢)] وقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، حتّى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه، وينصّرانه»[(٣)]. وقال الزجّاج: معناه: أنّ الله تعالى فطر الخلق

---

(١) «نبا»: تجافى وتباعد.
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٩٣) والبخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).

ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ

على الإيمان به، على ما جاء في الحديث: «إنّ الله عزّ وجلّ أخرج من صُلب آدم ذُرِّيَّتَهُ كالذرّ، وأشهدهم على أنفسهم بأنّه خالقهم»[1] وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فكلّ مولود هو من تلك الذرية؛ التي شهدت بأنّ الله تعالى خالقها. فمعنى ﴿فطرة الله﴾: دين الله ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ أي: خلق ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة، أو: تغيّر. وقال الزجّاج: معناه: لا تبديل لدين الله. ويدلّ عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

٣١ ـ ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ راجعين إليه. وهو حال من الضمير في الزموا. وقوله: ﴿واتّقوه﴾ ﴿وأقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوف على هذا المضمر. أو: من قوله ﴿فأقم وجهك﴾ لأنّ الأمر له عليه الصلاة والسلام أمر لأمّته، فكأنّه قال: فأقيموا وجوهكم ﴿منيبين إليه﴾. أو التقدير: كونوا ﴿منيبين﴾. دليله: قوله: ﴿ولا تكونوا﴾ ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّوها في أوقاتها ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

٣٢ ـ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿المشركين﴾ بإعادة الجارّ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ جعلوا أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم. (فارقوا): حمزة، وعليّ. وهي قراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ أي: تركوا دين الإسلام ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ فرقاً، كلّ واحدة تشايع إمامها الذي أضلّها ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ فَرِحٌ بمذهبه مسرور، يحسب باطله حقّاً.

٣٣ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ﴾ شدّة من هزال، أو: مرض، أو: قحط، أو:

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧٢).

دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

غير ذلك ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ في العبادة.

٣٤ ـ ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ ـ هذه لام كي. وقيل: لام الأمر للوعيد ـ ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بكفركم قليلاً ـ أمر وعيد ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم.

٣٥ ـ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجّة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلّمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنّه قال: فهو يشهدُ بشركهم، وبصحّته ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ «ما» مصدريّة، أي: بكونهم بالله ﴿يُشْرِكُونَ﴾. أو: موصولة، ويرجع الضمير إليها، أي: فهو يتكلّم بالأمر الذي بسببه يشركون. أو: معنى الآية: ﴿أم أنزلنا عليهم﴾ ذا سلطان، أي: ملكاً معه برهان، فذلك الملك يتكلّم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

٣٦ ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر، أو: سعة، أو: صحّة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ بطروا بسببها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاء من جدب، أو ضيق، أو: مرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب شؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من الرحمة. فـ﴿إذا﴾ المفاجأة جواب الشرط، نابت عن الفاء لتآخيهما في التعقيب.

٣٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكر عليهم بأنّهم قد علموا بأنّه الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتّى يعيد إليهم رحمته؟!

٣٨ ـ ولمّا ذكر أنّ السيّئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن

يفعل، وما يجب أن يترك، فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعطِ قريبك ﴿حَقَّهُۥ﴾ من البرّ والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ نصيبهما من الصدقة المسمّاة لهما. وفيه دليلُ وجوب النفقة للمحارم، كما هو مذهبنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيتاء حقوقهم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذاته، أي: يقصدون بمعروفهم إيّاه خالصاً ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد: وما أعطيتم أكلة الربا ليربو في أموالهم، ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكو عند الله، ولا يبارك فيه. وقيل: هو من الربا الحلال، أي: وما تعطونه من الهديّة لتأخذوا أكثر منها (فلا يربو عند الله) لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً، لا تطلبون به مكافأة، ولا رياء، وسمعة، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المُضعف: المقوي، والموسر لذي القوّة واليسار. ﴿أتيْتُم من رباً﴾ بلا مدّ: مكّيّ، أي: وما غشيتموه من إعطاء ربا. ﴿لِتُرْبوا﴾ مدنيّ، أي: لتزيدوا في أموالهم. وقوله: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ التفاتٌ حسن، لأنه يفيدُ التعميم، كأنه قيل: من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين. والمعنى: ﴿المضعفون﴾ به؛ لأنّه لا بدّ له من ضمير يرجع إلى ﴿ما﴾ الموصولة. وقال الزجّاج في قوله: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي: فأهلها ﴿هم المضعفون﴾ أي: هم الذين يضاعف لهم الثواب، يعطون بالحسنة عشر أمثالها.

٤٠ ـ ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هو المختصّ بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: أصنامكم التي زعمتم أنّهم شركاء الله ﴿مَّن

يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ
وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ
سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾
فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال. فلم يجيبوا عجزاً، فقال استبعاداً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. و﴿من﴾ الأولى والثانية والثالثة كلّ واحدة منهنّ مستقلّة بتأكيدٍ لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

٤١ ـ ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ نحو: القحط، وقلّة الأمطار، والريع في الزراعات، والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدوابّ، وكثرة الغرق، ومحق البركات من كل شيء ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وشركهم ـ كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] أي: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ أي: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ـ وبالنون: عن قنبل ـ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من المعاصي. ثمّ أكّد تسبيب المعاصي لغضب الله، ونكاله بقوله:

٤٢ ـ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا، فينظروا كيف أهلك الله الأمم، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم.

٤٣ ـ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة، الذي لا يتأتّى فيه عوج ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ هو مصدر بمعنى الردّ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يتعلّق بـ ﴿يأتي﴾. والمعنى: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يردّه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠] أو بـ ﴿مردّ﴾ على معنى: لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدّعون، أي: يتفرّقون.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

٤٤ ـ ثُمَّ أشار إلى غناه فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي يمهد فراشه، ويوطّئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغّص عليه مرقده من نتوء أو غير ذلك. والمعنى بأنّه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم، فأضيف إليهم. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرَرَ الكفر لا يعُود إلاّ على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجعُ إلى المؤمن لا تجاوزه.

٤٥ ـ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلّق بـ ﴿يمهدون﴾ تعليل له. وتكرير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح؛ لتقرير: أنّه لا يفلحُ عنده إلاّ المؤمن ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: عطائه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير بعد تقرير، على الطرد والعكس.

٤٦ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن آيات قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ هي الجنوب، والشمال، والصّبا. وهي: رياح الرحمة. وأمّا الدبور فريح العذاب. ومنه قوله ﷺ: «اللّهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً»[١]. وقد عدّد الفوائد في إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: أرسلها للبشارة بالغيث، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ولإذاقة الرحمة وهي: نزول المطر، وحصول الخصب الذي يتبعه، والرّوح الذي مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، وغير ذلك ـ ﴿وليذيقكم﴾ معطوف على ﴿مبشّرات﴾ على المعنى. كأنّه قيل: ليبشركم، وليذيقكم، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بتدبيره، أو بتكوينه، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ الآية [يس: ٨٢] ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يريد تجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيها.

(١) رواه أبو يعلى (٢٤٥٦) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ

٤٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم. ويدلّ على هذا الإضمار قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ـ أي: كفروا ـ بالإهلاك في الدنيا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكان نصر المؤمنين حقّاً علينا بإنجائهم مع الرسل. وقد يوقف على ﴿حقّاً﴾. ومعناه: ﴿وكان﴾ الانتقام منه ﴿حقّاً﴾. ثمّ يُبتدأ ﴿علينا نصر المؤمنين﴾. والأول أصحّ.

٤٨ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ ﴿الرِّيح﴾: مكّيّ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ﴾ أي: السحاب ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في سَمت السّماء، وشقّها ـ كقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ـ و﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ناحية الشمال، أو: الجنوب، أو: الدبور، أو: الصبا ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعاً، جمع كِسْفَة، أي: يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مرّة، ويجعله قطعاً متفرّقة غير منبسطة مرّة ـ ﴿كِسْفاً﴾ يزيد، وابن ذكوان ـ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ في التارتين جميعاً ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يريد إصابة بلادهم، وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون.

٤٩ ـ ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ كرّر للتأكيد كقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧]. ومعنى التوكيد فيها: الدلالة على أنّ عهدهم بالمطر قد تطاول، فاستحكم يأسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين.

٥٠ ـ ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ﴾ شاميّ، وكوفيّ، غير أبي بكر. وغيرهم ﴿أَثَر﴾ ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات، وأنواع الثمار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الله ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يعني: أنّ ذلك القادر الذي يحيي

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ

الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم. فهذا استدلالٌ بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ﴿وهو على كلّ شيء﴾ من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

٥١ ـ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي: الدبور ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: أثر رحمة الله ـ لأنّ رحمة الله هي الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأنّ معنى آثار الرحمة: النبات، واسم النبات يقعُ على القليل والكثير؛ لأنّه مصدر سمّي به ما ينبت ـ ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضراره. وقال ﴿مصفرّاً﴾ لأنّ تلك صفرة حادثة. وقيل: فرأوا السحاب مصفرّاً؛ لأنّ السحاب الأصفر لا يمطر. واللام في ﴿لئن﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط. والسَّادُّ مسدّ جوابي القسم والشرط: ﴿لَّظَلُّوا﴾ ومعناه: لَيَظَلُّنَّ ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: من بعد اصفراره، أو: من بعد الاستبشار. ذمّهم الله تعالى بأنّه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر استبشروا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا، وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقنطوا؛ وأن يشكروا نعمته، ويحمدوه عليها، ففرحوا؛ وأن يصبروا على بلائه، فكفروا.

٥٢ ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: موتى القلوب، أو: هؤلاء في حكم الموتى، فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ﴿ولا يَسمَع الصمُّ﴾ ـ: مكّيّ ـ ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. فإن قلت: الأصمّ لا يسمع مقبلاً أو مدبراً، فما فائدة هذا التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى لا يسمع، ولا يفهم بالإشارة.

٥٣ ـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن﴾ أي: عُمْي القلوب. ﴿وما أنت تهدي العمي﴾ حمزة ﴿ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضلّ

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ

عنه بإشارة منك له إليه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ ما تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لأعلام الله تعالى.

٥٤ ـ ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ من النطف، كقوله: ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: حال الشباب. وبلوغ الأشد ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني: الشيخوخة، والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف، وقوّة، وشباب، وشيبة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿الْقَدِيرُ﴾ على تغييرهم. وهذا الترديدُ في الأحوال أبينُ دليل على الصَّانع العليم القدير. وفتح الضاد في الكلّ: عاصم، وحمزة، وضمّ غيرهما، وهو اختيارُ حفص[(١)]. وهما لغتان، والضمّ أقوى في القراءة؛ لما رَوىٰ ابن عمر قال: قرأتها على رسول الله ﷺ ﴿من ضَعف﴾ فأقرأني ﴿من ضُعف﴾.

٥٥ ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة. سمّيت بذلك لأنّها في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو: لأنّها تقع بغتة، كما تقول: «في ساعة» لمن تستعجله. وجرت علماً لها؛ كالنجم للثريّا ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف الكافرون. ولا وقف عليه، لأنّ ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في القبور، أو: في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ جواب القسم. استقلّوا مدّة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا لهول يوم القيامة، وطول مقامهم في شدائدها، أو: ينسون، أو: يكذبون ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا، ويقولون: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

٥٦ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ هم الملائكة أو الأنبياء، والمؤمنون

(١) قرأ حفص بالفتح والضم؛ الفتح عن عاصم، والضم عن نفسه. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٧٧).

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علم الله المثبت في اللوح، أو في حكم الله وقضائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾. ردّوا ما قالوه، وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة، ثمّ وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقّ؛ لتفريطكم في طلب الحقّ، واتّباعه. الفاء لجواب شرط يدلّ عليه الكلام، تقديره: إن كنتم منكرين البعث ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذي أنكرتموه.

٥٧ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء: كوفيّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربّكم بتوبة. من قولك: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته.

٥٨ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ولقد وصفنا لهم كلّ صفة، كأنّها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كلّ قصّة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم، وما يقولون، وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم، ولا يسمع من استعتابهم. ولكنّهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل!

٥٩ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع ـ وهو: الختم ـ يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتّى يسمّوا المحقّين مبطلين. وهم أعرقُ خلق الله في تلك الصفة.

٦٠ ـ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم، أو: عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك على أعدائك، وإظهار دين الإسلام على كلّ دين ﴿حَقٌّ﴾ لابدّ من إنجازه،

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

والوفاء به ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملنّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب، أو: لا يحملنّك على الخفّة والقلق جزعاً ممّا يقولون ويفعلون، فإنّهم ضُلّال، شاكّون، لا يستبدع منهم ذلك ﴿ولا يستخفْنّك﴾ بسكون النون، عن يعقوب.

* * *

سُورَةُ لُقْمَان

آياتها ٣٤ — ترتيبها ٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة. أو: وصف بصفة الله عزّوجلّ على الإسناد المجازيّ.

٣ ـ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالان من الآيات. والعامل معنى الإشارة في ﴿تلك﴾. حمزة: بالرفع، على أنّ ﴿تلك﴾ مبتدأ، و﴿آيات الكتاب﴾ خبره، و﴿هدى﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو، أو: هي هدى ورحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات المذكورة في قوله:

٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ونظيره قول أوس:

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ بكَ الظَّنَّ كَـأَنْ قَـدْ رأى وقـد سَمِعـا

أو: للذين يعملون جميع ما يحسن، ثمّ خصّ منهم القائمين بهذه الثلاث لفضلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا﴾

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ صفة لهدى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ عطف عليه.

٦ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث. وكان يشتري أخبارَ الأكاسرة من فارس، ويقول: إنّ محمّداً يقصّ طرفاً من قصّة عاد وثمود، فأنا أحدّثكم بأحاديث الأكاسرة. فيميلون إلى حديثه، ويتركون استماع القرآن. واللهو: كلّ باطل ألهى عن الخير وعمّا يعني. ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء. وكان ابن عباسٍ وابنُ مسعود ـ رضي الله عنهما ـ يحلفان أنّه الغناء. وقيل: الغناء: مفسدة للقلب، منفدة للمال، مسخطة للربّ. وعن النبيّ ﷺ: «ما من رجل يرفعُ صوتَه بالغناء إلاّ بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتّى يكون هو الذي يسكت»[١]. والاشتراء من الشراء كما روي عن النضر، أو: من قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي: استبدلوه منه، واختاروه عليه، أي: يختار حديث الباطل على حديث الحقّ. وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى «مِنْ»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث. والمراد بالحديث: الحديث المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمةُ الحشيش»[٢]. أو: للتبعيض، كأنّه قيل: ومن الناس من يشتري بعضَ الحديث الذي هو اللهو منه ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: ليصدّ الناس عن الدخول في الإسلام، واستماع القرآن. ﴿ليَضلّ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، أي: ليثبت على ضلاله الذي كان عليه، ويزيد فيه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام، والقرآن ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر به ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي: السبيل. بالنصب، كوفيّ غير أبي بكر،

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١١٩).
(٢) انظره في كشف الخفاء (١/ ٤٥٣).

هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

عطفاً على ﴿ليضلّ﴾. ومن رفع عطفه على ﴿يشتري﴾ ﴿هُزُوًا﴾[1] بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبضمّ الزاى بلا همز؛ حفص. وغيرهم بضمّ الزاي والهمزة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: يهينهم ـ و﴿مَنْ﴾ لإبهامه؛ يقعُ على الواحد والجمع ـ أي: للنضر وأمثاله.

٧ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أعرض عن تدبّرها متكبّراً، رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها. وهو حال من ﴿مستكبراً﴾. والأصل: كأنّه. والضمير ضمير الشأن ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثِقلاً. وهو حال من ﴿لم يسمعها﴾. و﴿أذْنيه﴾: نافع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ ولا وقف عليه؛ لأنّ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأوّل مؤكّد لنفسه، والثاني مؤكّد لغيره. إذ ﴿لهم جنّات النعيم﴾ في معنى وعدهم الله جنّات النعيم، فأكد معنى الوعد بالوعد. و﴿حقاً﴾ يدلُّ على معنى الثبات، فأُكِّدَ به معنى الوعد. ومؤكّدهما: ﴿لهم جنّات النعيم﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء، فيهين أعداءه بالعذاب الأليم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بما يفعل، فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم.

١٠ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير للسموات. وهو استشهادٌ برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾. كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني. ولا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّها مستأنفة، أو: في محلّ الجرّ صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئيّة، يعني: أنّه

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿هزؤاً﴾.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ

عمدها بعمد لا ترى، وهي: إمساكها بقدرته ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم ﴿وَبَثَّ﴾ ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن.

١١ ـ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: آلهتهم. بكّتهم بأنّ هذه الأشياء العظيمة ممّا خلقه الله، فأروني ما خلقته آلهتكم حتّى استوجبوا عندكم العبادة ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلالٍ ليس بعده ضلال.

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هو لقمان بن باعوراء، ابن أخت أيوب، أو: ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر. وعاش ألف سنة، وأدرك داود ـ عليه السلام ـ وأخذ منه العلم. وكان يفتي قبل مبعث داود ـ عليه السلام ـ فلمّا بعث قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كُفيت؟ وقيل: كان خيّاطاً، وقيل: كان نجّاراً، وقيل راعياً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال عكرمة والشعبيّ ـ رحمهما الله ـ: كان نبيّاً. والجمهور على أنّه كان حكيماً، ولم يكن نبيّاً. وقيل: خُيّر بين النبوّة والحكمة، فاختار الحكمة، وهي: الإصابة في القول والعمل. وقيل تلمّذ بألف نبيّ وتلمّذ له ألف نبيّ. و«أنْ» في: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مُفسِّرة، والمعنى: أي اشكر لله؛ لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول. وقد نبّه الله تعالى على أنّ الحكمة الأصليّة، والعلم الحقيقيّ هو العمل بهما، وعبادة الله، والشكر له، حيث فسّر إيتاء الحكمة بالحثّ على الشكر. وقيل: لا يكون الرجلُ حكيماً حتّى يكون حكيماً في قوله، وفعله، ومعاشرته، وصحبته. وقال السريّ (السقطي)[1] ـ رحمه الله ـ: الشكر: ألاّ

(١) مستدرك من المطبوع. والسَّري السَّقْطي: أبو الحسن، من كبار المتصوفة، وهو خال الجُنيد وأستاذه. توفي ببغداد سنة ٢٥٣ هـ.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

تعصي الله بنعمه. وقال الجنيد: ألاّ ترى معه شريكاً في نِعمه. وقيل: هو الإقرارُ بالعجز عن الشكر. والحاصل: أنّ شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة. ورؤية العجز في الكلّ، دليل قبول الكلّ ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ منفعته تعود إليه، فهو يريدُ المزيد ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمد، وإن لم يحمده أحد.

١٣ ـ ﴿وَإِذْ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أنعم، أو: أشكم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾[1] مكّي ﴿يا بُنَيِّ﴾؛ حفص، وبفتحه في كلّ القرآن ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنّه تسوية بين من لا نعمة إلاّ هي منه وبين من لا نعمة له أصلاً.

١٤ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهناً على وهن﴾ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايدُ ضعفها ويتضاعف؛ لأنّ الحملَ كلّما ازداد، وعظم ازدادت ثِقَلاً، وضعفاً ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ هو تفسيرٌ لـ: «وصّينا» أي: وصّيناه بشكرنا، وبشكر والديه. وقوله: ﴿حملته أمّه وهناً على وهن، وفصاله في عامين﴾ اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، لأنه لمّا وصّى بالوالدين ذكر ما تكابده الأمّ، وتعانيه من المشاقّ في حَمْله وفصاله هذه المدّة الطويلة، تذكيراً بحقّها العظيم مفرداً. وعن ابن عيينة: من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرك إليّ، وحسابك عليّ.

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ كما في الأصل المخطوط قراءة: ﴿يا بُنيْ﴾. وهي قراءة من أشار إليه المؤلف.

وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ

١٥ ـ ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به: نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد: الأصنام. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: صحاباً ﴿معروفاً﴾ حسناً بخُلُق جميل، وحلم، واحتمال، وبرّ، وصلة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي: ﴿واتّبع سبيل﴾ المؤمنين في دينك، ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا. وقال ابنُ عطاء: صاحِبْ مَن ترى عليه أنوار خدمتي ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعك، ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما. وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصيّة لقمان من النهي عن الشرك، يعني: إنّا وصّيناه بوالديه، وأمرناه ألّا يطيعهما في الشرك، وإن جهَدا كلّ الجَهد؛ لقبحه.

١٦ ـ ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾(١) بالرفع: مدنيّ. والضمير للقصّة. وأنّث المثقال لإضافته إلى الحبّة، كما قال(٢):

... ... كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدَّمِ(٣)

وكان تامة. والباقون بالنصب. والضمير لِلْهَنَةِ من الإساءة والإحسان، أي: إن كانت مثلاً في الصغر كحبّة خردل ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكانت مع صغرها في أخفى موضع، وأحرزه، كجوف الصخرة،

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مثقالُ﴾.
(٢) الشاعر: الأعشى، ميمون بن قيس.
(٣) عجز بيت، وصدره: وتشرق بالقول الذي أذعته.

يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ

أو: حيث كانت في العالم العلويّ، أو: السفليّ ـ والأكثر على أنها الصخرة التي عليها الأرض، وهي: السجّين تُكتب فيها أعمال الكفار، وليست من الأرض ـ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة، فيحاسب بها عاملها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بتوصّل علمه إلى كلّ خفيّ ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه. أو: ﴿لطيف﴾ باستخراجها ﴿خبير﴾ بمستقرها.

١٧ ـ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في ذات الله إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر. أو: ﴿على ما أصابك﴾ من المحن؛ فإنها تورثُ المنح ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أوصيك به ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ممّا عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام، أي: أمر به أمراً حتماً. وهو من تسمية المفعول بالمصدر. وأصله من معزومات الأمور، أي: من مقطوعاتها، ومفروضاتها. وهذا دليلٌ على أنّ هذه الطّاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

١٨ ـ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ولا تعرض عنهم تكبّراً. (تُصَاعر): أبو عمرو، ونافع، وحمزة، وعليّ. وهو بمعنى ﴿تصعّر﴾ والصَّعْر: داء يصيبُ البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولّهم شقّ وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبّرون ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: تمرح ﴿مرحاً﴾، أو: أوقع المصدر موقع الحال، أي: مَرِحاً. أو: ﴿لا تمش﴾ لأجل المرح، والأشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبّر ﴿فَخُورٍ﴾ من يعدّد مناقبه تطاولاً.

١٩ ـ ﴿وَٱقْصِدْ﴾ القصد: التوسّط بين العُلوّ والتقصير ﴿فِى مَشْيِكَ﴾ أي: اعدل فيه حتّى يكون مشياً بين مشيين، لا تدبّ دبيب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطّار. قال عليه الصلاة والسلام: «سُرعة المشي تذهب بهاءَ

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ۝١٩ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾

المؤمن»[١]. وأما قول عائشة في عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كان إذا مشى أسرع. فإنّما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: معناه: وانظر موضع قدميك متواضعاً ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ وانقص منه، أي: اخفض صوتك ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أوحشها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ لأن أوّله زفير وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثوريّ: صياح كلّ شيء تسبيح إلاّ الحمار فإنّه يصيحُ لرؤية الشيطان؛ ولذلك سمّاه الله منكراً. وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيهٌ على أنّ رفع الصوت في غاية الكراهة. يؤيده ما رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام كان يعجبه أن يكون الرجلُ خفيض الصوت، ويكره أن يكونَ مجهور الصوت. وإنّما وحّد صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنّه لم يردْ أن يذكر صوت كلّ واحد من آحاد الجنس حتّى يجمع، بل المرادُ أنّ كلّ جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

٢٠ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وغير ذلك ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: البحار، والأنهار، والمعادن، والدوابّ، وغير ذلك ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ وأتمّ ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ مدنيّ، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. ﴿نِعۡمَةً﴾: غيرهم. والنعمة: كلّ نفع قصد به الإحسان ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ ما يُعلم بالمشاهدة ﴿وَبَاطِنَةٗ﴾ مالا يعلم إلاّ بدليل. ثمّ قيل: الظاهرة: البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى ـ عليه السلام ـ: إلهي! دلّني على أخفى نعمتك على عبادك. فقال: أخفى نعمتي عليهم النَّفَس. وقيل: تخفيف الشرائع، وتضعيف الذرائع، والخَلْقُ، والخُلُقُ، ونيل العطايا، وصرف البلايا، وقبول الخلق، ورضا الربّ. وقال ابن عباس

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٩٠).

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾

ـ رضي الله عنه ـ: الظاهرة: ما سوّى من خَلْقك، والباطنة: ما ستر من عيوبك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ نزلت في النضر ابن الحارث. وقد مرّ في الحجّ.

٢١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يتّبعونهم ﴿ولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي: في حال دعاء الشيطان إيّاهم إلى العذاب.

٢٢ ـ ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدّيَ هنا بـ«إلى» وفي ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] باللام. فمعناه مع اللام: أنّه جعل وجهه ـ وهو ذاته ونفسه ـ سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه: مع إلى: أنّه سلم إليه نفسه، كما يسلّم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكلّ عليه، والتفويض إليه ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فيما يعمل ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ تمسّك، وتعلّق ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾ هي ما يعلّق به الشيء ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ تأنيث الأوثق. مثّل حال المتوكّل بحال من أراد أن يتدلّى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمونِ انقطاعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: هي صائرةٌ إليه، فيجازي عليها.

٢٣ ـ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ من: حَزَنَ ﴿يحزنك﴾ نافع، من: أَحْزَنَ، أي: لا يهمّنك كفر مَن كفر ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ فنعاقبهم على أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه.

٢٤ ـ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ زماناً ﴿قَلِيلٗا﴾ بدنياهم ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ شديد. شُبّه إلزامُهم التعذيب، وإلحاقهم إيّاه باضطرار المضطرّ

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ

إلى الشيء. والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد: الشدّة، والثِّقل على المعذَّب.

٢٥ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنّه يجبُ أن يكونَ له الحمد والشكر، وألاّ يعبد معه غيره. ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ذلك يلزمهم، وإذا نبّهوا عليه لم ينتهوا.

٢٦ ـ ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حَمْد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقّ للحمد وإن لم يحمدوه.

٢٧ ـ قال المشركون: إنّ هذا ـ أي: الوحي ـ كلام سينفد، فأعلم الله: أنّ كلامه لا ينفد بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ﴿والبَحْرَ﴾ أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم أنّ، وهو: ﴿ما﴾. والرفع على محلّ ﴿أنّ﴾ ومعمولها، أي: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو: على الابتداء، والواو للحال، على معنى: ولو أنَّ الأشجارَ أقلامٌ في حال كون البحر ممدوداً. وقرىء ﴿يُمِدُّه﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنّ الشجر أقلام، والبحر مداد. لكن أغنى عن ذكر المداد قوله: ﴿يمدّه﴾ لأنّه من قولك: مدّ الدواة، وأمدّها. جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً، فهي تصبّ فيه مدادها أبداً صبّاً لا ينقطع. والمعنى: ولو أنَّ أشجارَ الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكُتبتْ بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، لما نفدت كلماته، ونفدت الأقلام والمداد. كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٩] فإن قلت: زعمت أنّ قوله: ﴿والبحر يمدّه﴾ حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

الحال. قلت: هو كقولك: جئت والجيش مصطفّ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف. وإنّما ذُكِّرَ شجرة على التوحيد؛ لأنّه أريد تفصيل الشجر، وتقصّيها شجرة شجرة، حتّى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة؛ إلاّ قد بريت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهي جمع قلّة على الكلم، وهي جمع كثرة؛ لأنّ معناه: أنّ كلماته لا تفي بكِتبتها البحار، فكيف بكَلِمِهِ؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرجُ من علمه وحكمته شيء، فلا تنفد كلماته، وحكمه.

٢٨ ـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلاّ كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة، فحذف للعلم به، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، فلا يشغله شأنٌ عن شأن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لقول المشركين: إنّه لا بعث ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

٢٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليل ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافع العباد ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِىٓ﴾ في فلكه، ويقطعه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء: عيّاش.

دلّ أيضاً ـ بتعاقب الليل والنهار، وزيادتهما ونقصانهما، وجري النيّرين في فلكيهما على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق ـ على عظم قدرته وكمال حكمته.

٣٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: عراقيّ غير أبي بكر، ﴿مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف الذي وصف به ـ من

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾

عجائب قدرته وحكمته؛ التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله ـ إنما هو بسبب أنّه هو الحقّ الثابت إلٰهيته، وأنّ من دونه باطل الإلهيّة، وأنّ الله ﴿هو العليّ﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان.

٣١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ وقرىء ﴿الفُلُك﴾. وكلّ فُعْل يجوز فيه: فُعُل، كما يجوز في كلّ فُعُلٍ فُعْلٌ ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه، ورحمته. أو: بالريح؛ لأنّ الريحَ من نِعَم الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه. وهما صفتا المؤمن. فالإيمان نصفان: نصفٌ شكر، ونصفٌ صبر. فكأنه قال: ﴿إنّ في ذلك لآيات لكلّ﴾ مؤمن.

٣٢ ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: الكفار ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ الموج يرتفع فيعود مثل الظلل. والظلّة: كلّ ما أظلّك من جبل، أو: سحاب، أو: غيرهما ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: باقٍ على الإيمان والإخلاص، الذي كان منه، ولم يعد إلى الكفر أو: متوسط في الكفر والظلم، انزجر بعض الانزجار، ولا يغلو في كفره. أو: ﴿مقتصد﴾ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط. والمقصد قليل نادر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحقيقتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار. والختر: أقبح الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ لربّه.

٣٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً. والمعنى: ﴿لا يجزي﴾ فيه، فحذف ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؛ لأنّ الجملة الاسميّةَ آكد من الجملة الفعليّة. وقد انضمَّ إلى ذلك قوله: ﴿هو﴾، وقوله:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

﴿مولود﴾. والسبب في ذلك: أنّ الخطاب للمؤمنين، وعِلْيَتُهم[1]: قبض آباؤهم على الكفر، فأريد حَسْم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة. ومعنى التأكيد في لفظ المولود: أنّ الواحدَ منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته، فضلاً أن يشفع لأجداده، إذ الولدُ يقعُ على الولد وولد الولد، بخلاف المولود فإنّه لمن ولد منك، كذا في «الكشّاف» ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث، والحساب، والجزاء ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها؛ فإن نعمتها دانية، ولذّاتها فانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان، أو: الدنيا، أو: الأمل.

٣٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقت قيامها ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد: شامي، ومدنيّ، وعاصم. وهو عطفٌ على ما يقتضيه الظرفُ من الفعل، تقديره: إنّ الله يثبت عنده علم الساعة وينزّل ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ في إبانه، من غير تقديم ولا تأخير ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، وتامّ أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ برّة، أو: فاجرة ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير، أو شرّ. وربّما كانت عازمة على خير فعملت شرّاً، وعازمة على شرّ فعملت خيراً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: أين تموت. وربّما أقامت بأرض وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها، فترمي بها مرامي القدر حتّى تموت في مكانٍ لم يخطر ببالها. رُوي أنّ ملك الموت مرّ على سليمان ـ عليهما السلام ـ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت. قال: كأنه يريدني! وسأل سليمان ـ عليه السلام ـ أن يحملَه على الريح، ويلقيه ببلاد الهند، ففعل. ثمّ قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأنّي أُمِرْتُ أن أقبضَ روحه بالهند وهو عندك! وجعل العلم لله، والدراية للعبيد، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة. والمعنى: أنّها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختصّ بها.

(١) «عليتهم»: أي: أشرافهم وعظماؤهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾

ولا شيء أخصّ بالإنسان من كسبه وعاقبته. فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان ما عداهما أبعد. وأمّا المنجّم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنّه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً. على أنّه مجرّد الظنّ والظنّ غير العلم. وعن النبي ﷺ: «مفاتح الغيب خمس»[1] وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

ورأى المنصور في منامه صورة ملك، وسأله عن مدّة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبّرها المعبّرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: هو إشارة إلى هذه الآية، فإنّ هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلاّ الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالغيوب ﴿خَبِيرٌۢ﴾ بما كان وبما ويكون. وعن الزهريّ ـ رحمه الله ـ: أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب.

* * *

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٤ و٥٢ و٥٨) والبخاري (٤٦٩٧).

فهرس الآيات

الموضوع	الصفحة
(١٠) سورة يونس	
تفسير الآيتين (١ ـ ٢)	٥
تفسير الآية (٣)	٦
تفسير الآيات (٤ ـ ٦)	٧
تفسير الآيات (٧ ـ ٩)	٨
تفسير الآيات (١٠ ـ ١٢)	٩
تفسير الآيتين (١٣ ـ ١٤)	١٠
تفسير الآيتين (١٥ ـ ١٦)	١١
تفسير الآيتين (١٧ ـ ١٨)	١٢
تفسير الآيات (١٩ ـ ٢١)	١٣
تفسير الآية (٢٢)	١٤
تفسير الآيتين (٢٣ ـ ٢٤)	١٥
تفسير الآية (٢٥)	١٧
تفسير الآيتين (٢٦ ـ ٢٧)	١٨
تفسير الآيات (٢٨ ـ ٣٠)	١٩
تفسير الآيات (٣١ ـ ٣٣)	٢٠

(٢٧) سورة النمل

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

« ت ٧١٠ هـ »

حققه وخرج أحاديثه
يوسف علي بديوي

راجعه وقدم له
محيي الدين ديب مستو

الجزء الثالث

دار الكلم الطيب
بيروت

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

الطَّبعَة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢

بيروت. ص.ب: ١١٣/٦٣١٨

سُورَةُ السَّجْدَةِ

ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ
هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ﴾ ـ على أنها اسم السورة ـ مبتدأ، وخبره: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تنزيل﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف. أو: هو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو: يرتفع بالابتداء، وخبره: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محلّ له. والضمير فيه راجع إلى مضمون الجملة، كأنّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلاً من رب العالمين؛ لأنّه معجز للبشر ومِثْله أبعد شيء من الريب. ثمّ أضرب عن ذلك إلى قوله:

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ـ أي: اختلقه محمد ﷺ لأنّ ﴿أم﴾ هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة. معناه: بل أيقولون افتراه، إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منه؛ لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ولم يفتره محمّد ﷺ كما قالوا تعنتاً وجهلاً ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: العرب ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ «ما» للنفي. والجملة صفة لـ ﴿قوماً﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾

الترجّي من رسول الله ﷺ كما كان ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] على الترجّي من موسى وهارون.

٤ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى عليه بإحداثه ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون بمواعظ الله.

٥ ـ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر الدنيا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كله، أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو: يوم القيامة ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيّام الدنيا. ولا تمسّك للمشبّهة بقوله ﴿إليه﴾ في إثبات الجهة؛ لأنّ معناه: إلى حيث يرضاه، أو: أمره، كما لا تشبّث لهم بقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩] ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الموصوف بما مرّ عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب أمره وتدبيره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ البالغ لطفه وتيسيره. وقيل: لا وقف عليه، لأنّ:

٧ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ صفته ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: حسّنه، لأنّ كلّ شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿خَلَقَهُۥ﴾ كوفيّ، ونافع، وسهل، على الوصف، أي: كلّ شيء خلقه فقد أحسن. ﴿خلقَه﴾ غيرهم على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ آدم ﴿مِن طِينٍ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من نطفة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: منيّ. وهو بدل من ﴿سلالة﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف، حقير.

٩ ـ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه، كقوله: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ الإضافة للاختصاص، كأنّه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختصّ هو به، وبعلمه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا، وتبصروا، وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون قليلاً.

١٠ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ القائل: أبيّ بن خلف. ولرضاهم بقوله: أسند إليهم ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميّز منه، كما يضلّ الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها. وقرأ عليّ: ﴿ضلِلنا﴾ بكسر اللام، يقال: ضلّ يَضِلّ، وضلّ يَضَلّ. وانتصب الظرف في ﴿أئذا ضللنا﴾ بما يدلّ عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نُبْعَثُ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون. لمّا ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنّهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده.

١١ ـ ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ﴿يتوفّاكم ملك الموت الذي وكلّ﴾ بقبض أرواحكم ﴿ثمّ﴾ ترجعون ﴿إلى ربّكم﴾ بعد ذلك مبعوثين للحساب، والجزاء. وهذا معنى لقاء الله. والتوفّي: استيفاء النفس وهي الروح، أي: يقبض أرواحكم أجمعين. من قولك: توفّيت حقّي من فلان: إذا أخذته وافياً كَمَلاً من غير نقصان. وعن مجاهد: حُويّت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثمّ يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر بذلك كلّه، وهو الخالُق لأفعال المخلوقات. فهذا وجهُ الجمع بين هذه

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾

الآية، وبين قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

١٢ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو: لكلّ أحد. و«لو» امتناعية. والجواب محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. و«لو» و«إذ» للمضيّ. وإنّما جاز ذلك لأنّ المترقّب من الله بمنزلة الموجود. ولا يقدر لـ ﴿ترى﴾ ما يتناوله؛ كأنّه قيل: ﴿ولو﴾ تكون منك الرؤية. و﴿إذ﴾ ظرف له ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ من الذّل، والحياء، والندم ﴿عند ربهم﴾ ﴿عِندَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾. ويوقف عليه لحقّ الحذف، إذا التقدير: يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعدك، ووعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. أو كنّا عمياً وصمّاً، فأبصرنا وسمعنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: الإيمان، والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث، والحساب الآن.

١٣ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ في الدنيا ﴿هُدَىٰهَا﴾ أي: لو شئنا أعطينا كلّ نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف، لما علمنا منهم اختيار الكفر، وإيثاره. وهو حجّة على المعتزلة، فإنّ عندهم: شاء الله أن يعطي كلّ نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها، لكنّها لم تهتد، وهم أوّلوا الآية بمشيئة الجبر، وهو تأويلٌ فاسد؛ لما عرف في تبصّرة الأدلّة ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن وجب القول مني لما علمت أنّه يكون منهم ما يستوجبون به جهنّم، وهو ما علم منهم أنّهم يختارون الردّ والتكذيب. وفي تخصيص الجنّ والإنس إشارة إلى أنّه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنّم.

١٤ ـ ﴿فَذُوقُوا۟﴾ العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ﴾ بما تركتم عمل لقاء ﴿يَوْمِكُمْ﴾

هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ

هَٰذَآ﴾ وهو: الإيمان به ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ وتركناكم في العذاب كالمنسيّ ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: العذاب الدائم، الذي لا انقطاع له ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر، والمعاصي.

١٥ ـ ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وعظوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ سجدوا لله تواضعاً، وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ونزّهوا الله عمّا لا يليق به، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ عن الإيمان، والسجود له.

١٦ ـ ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع، وتتنحّى ﴿جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم. قال سهل: وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثمّ مدحهم عليه، فقال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ ﴿يَدۡعُونَ﴾ داعين ﴿رَبَّهُمۡ﴾ عابدين له ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ مفعول له، أي: لأجل خوفهم من سخطه، وطمعهم في رحمته، وهم المتهجّدون. عن النبيّ ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»(١). وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة. يعني: صلاة الليل. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أناس من أصحاب النبيّ ﷺ يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم(٢). وقيل: هم الذين يصلّون صلاة العَتَمة لا ينامون عنها ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله تعالى.

١٧ ـ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ «ما» بمعنى الذي ﴿أُخۡفِي﴾ على حكاية النفس: حمزة ويعقوب ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعدّ لهؤلاء من

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٢).

(٢) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشاف ٣ / ٥١٢).

جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ
دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعۡرَضَ

الكرامة ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر، أي: جوزوا ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عن الحسن ـ رحمه الله ـ: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وفيه: دليلٌ على أنّ المرادَ: الصلاة في جوف الليل؛ ليكون الجزاءُ وفاقاً.

١٨ ـ ثمَّ بيّن أنّ من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع مَن هو في ظلمة الكفر والعصيان بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗا﴾، أي: كافراً، وهما محمولان على لفظ ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ على المعنى، بدليل قوله:

١٩ ـ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ هي نوعٌ من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش ﴿نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثمّ صار عاماً.

٢٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: ملجؤهم، ومنزلهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا دليلٌ على أنّ المرادَ بالفاسق: الكافر، إذ التكذيب يقابل الإيمان.

٢١ ـ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي: عذاب الدنيا من الأسر، وما محنوا به من السنة سبع سنين ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عذاب الآخرة، نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخِذْلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: العذاب الأدنى: عذاب القبر ـ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ لعلّ المعذّبين بالعذاب الأدنى ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

٢٢ ـ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ

عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ

﴿عَنْهَآ﴾ أي: فتولّى عنها، ولم يتدبّر فيها. و﴿ثمّ﴾ للاستبعاد، أي: أنّ الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثمّ لم تنتهزها؟! استبعاداً لتركه الانتهاز ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ولم يقل: منه؛ لأنّه إذا جعله أظلم كلّ ظالم، ثمّ توعّد المجرمين عامّة بالانتقام منهم؛ فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام. ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: لقاء موسى ربّه في الآخرة. كذا عن النبيّ ﷺ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى هدىً لقومه.

٢٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس، ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله، وشرائعه ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم بذلك حين صبروا على الحق وطاعة الله. أو: عن المعاصي ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾[1]: حمزة وعليّ، أي: لصبرهم عن الدنيا. وفيه دليلٌ على أنّ الصبرَ ثمرتُه إمامة الناس ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التوراة ﴿يُوقِنُونَ﴾ يعلمون علماً لا يخالجه شكّ.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحقّ من المبطل.

٢٦ ـ ﴿أَوَلَمْ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منويّ من جنس المعطوف، أي: ﴿أ﴾ لم يدع ﴿يَهْدِ﴾ يبيّن، والفاعل: الله؛ بدليل قراءة زيد عن يعقوب

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة (لِمَا صبروا). وهي قراءة من ذكرهم.

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿نَهْدِ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكّة ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يكون فاعل ﴿يهد﴾؛ لأنّ ﴿كم﴾ للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله. ومحلّه نصب بقوله: ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ كعاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: أهل مكة يمرّون في متاجرهم على ديارهم، وبلادهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيتعظون.

٢٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ نجري المطر، والأنهار ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: الأرض التي جرز نباتها، أي: قطع، إما لعدم الماء، أو: لأنه رُعي. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز، بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ من عَصْفه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبّه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بأعينهم، فيستدلّوا على إحياء الموتى.

٢٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ النصر، أو: الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. وكان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين. أو: يفتح بيننا وبينهم. فإذا سمع المشركون قالوا: ﴿متى هذا الفتح﴾ أي: في أيّ وقت يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنه كائن.

٢٩ ـ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: يوم القيامة ـ وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم، أو: يوم بدر، أو: يوم فتح مكّة ـ ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾. وهذا الكلام لا ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً. ولكن لمّا كان غرضهم في السُّؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به، ولا تستهزئوا، فكأنّي بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. ومن

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾

فسّره بيوم الفتح، أو: بيوم بدر، فهو يريد المقتولين منهم، فإنّهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

٣٠ ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ﴾ النصرة عليهم، وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم، وهلاككم. وكان عليه الصلاة والسلام لا ينام حتّى يقرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. وقال: «من قرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»[١] وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة ﴿ألم تنزيل﴾ هي المانعة، تمنع من عذاب القبر.

* * *

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣ / ٥١٧).

سُورَةُ الأَحْزَابِ

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ

قال أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ لزرّ: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قال: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذي يحلف به أبيّ، إن كانت لتعدل سورة البقرة، أو: أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أبيّ: أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يُحكى أنّ تلك الزيادة كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأكلتها الداجن، فمن تأليفات الملاحدة، والروافض.

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبالهمزة: نافع، أي: يا أيها المخبر عنّا، المأمون على أسرارنا، المبلِّغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنّما لم يقل: يا محمد، كما قال: ﴿يا آدم﴾ ﴿يا موسى﴾ تشريفاً له، وتنويهاً بفضله. وتصريحه باسمه في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونحوه لتعليم الناس بأنّه رسول الله ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أثبت على تقوى الله، ودُمْ عليه، وازددْ منه، فهو بابٌ لا يدرك مداه ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ولا تساعدهم على شيء، واحترسْ منهم، فإنّهم أعداء الله

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾

والمؤمنين. ورُوي: أنّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلميّ، قدموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ، وأعطاهم النبيّ[(١)] الأمان على أن يكلّموه. فقالوا له: ارفضْ ذكر آلهتنا، وقل: إنّها تشفع وتنفع. ووازرهم المنافقون على ذلك، فهمّ المسلمون بقتلهم؛ فنزلت. أي: ﴿اتّق الله﴾ في نقض العهد ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكّة ﴿والمنافقين﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم ﴿حَكِيمًا﴾ في تأخير الأمر بقتالهم.

٢ ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يُوحي إليك ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لم يزل عالماً بأعمالهم، وأعمالكم. وقيل: إنما جمع لأنّ المراد بقوله: ﴿اتّبع﴾ هو وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم، ومكرهم بكم.

٣ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وأسند أمرك إليه، وكِلْه إلى تدبيره ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، موكولاً إليه كلّ أمر. وقال الزجاج: لفظه وإن كان لفظ الخبر، والمعنى: اكتفِ بالله وكيلاً.

٤ ـ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجةً وأمومة في امرأة، ولا بنوّة ودِعْوَةً في رجل. والمعنى: أنّه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين ـ لأنه لا يخلو إمّا أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه، وإمّا أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك،

(١) مستدرك من المطبوع.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾

فذلك يؤدّي إلى اتّصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظانّاً، موقناً شاكّاً، في حالة واحدة ـ لم يحكم أيضاً أن تكون المرأةُ الواحدة أمّاً لرجل وزوجاً له؛ لأنّ الأمّ مخدومة والمرأة خادمة، وبينهما منافاة، وأن يكون الرجلُ الواحد دَعيّاً لرجل وابناً له؛ لأن النبوّة أصالة في النسب، والدِعْوَةُ إلصاق عارض بالتسمية لاغير، لئلا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل.

وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، وهو رجلٌ من كلب سُبِي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام لعمّته خديجة، فلمّا تزوجها رسولُ الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمّه فَخُيِّر فاختار رسولَ الله ﷺ فأعتقه، وتبنّاه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلمّا تزوّج النبيُّ ﷺ زينب ـ وكانت تحت زيد ـ قال المنافقون: تزوّج محمدٌ امرأةَ ابنه، وهو ينهى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمّد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه. وقيل: كان أبو معمر أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين، فأكذب الله قولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبنّي. والتنكير في ﴿رجل﴾ وإدخال ﴿من﴾ الاستغراقية على ﴿قلبين﴾ وذكر الجوف للتأكيد. ﴿اللائي﴾ بياء بعد الهمزة حيث كان، كوفيّ، وشاميّ. ﴿اللاءِ﴾ نافع، ويعقوب، وسهل. وهي جمع التي ﴿تُظَاهِرون﴾ عاصم، من: ظاهر؛ إذا قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمّي ﴿تَظَاهَرون﴾ عليّ، وحمزة، وخلف ﴿تَظّاهَرون﴾ شاميّ من اظّاهر بمعنى تظاهر. غيرهم ﴿تَظّهّرون﴾ من: اظّهّر بمعنى: تظهّر. وعدّي بـ«مِنْ» لتضمّنه معنى البعد؛ لأنّه كان طلاقاً للجاهلية ونظيره: آلى من امرأته لمّا ضمّن معنى التباعد منها عدّي بـ«مِنْ». وإلاّ، فـ«آلى» في أصله ـ الذي هو معنى حلف وأقسم ـ ليس هذا بحكمه. والدعيّ: فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يُدْعى ولداً. وجمع على أفعلاء شاذّاً ـ لأنّ بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقيّ وأتقياء، وشقيّ وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو: رميّ وسميّ ـ للتشبيه اللفظيّ ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: أنّ قولكم للزوجة: هي أمّ، وللدعيّ: هو ابن قول تقولونه بألسنتكم، لا حقيقة له، إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأمّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ما هو حقّ ظاهره وباطنه ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي:

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾

سبيل الحقّ. ثمّ قال ما هو الحقّ وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله:

٥ ـ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾. وبيّن أنّ دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل. وقيل: كان الرجل في الجاهليّة إذا أعجبه جَلَدَ الرجل ضمّه إلى نفسه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان بن فلان. ثمّ انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجُمَلَ الطلبيّة، ثمّ فصل الخبريّة عنها، ووصل بينها، ثمّ فصل الاسميّة عنها، ووصل بينها، ثمّ فصل بالطلبيّة ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم في الدين، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي، يريد: الأخوّة في الدين، والولاية فيه ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ ولكن الإثم فيما تعمّدتموه بعد النهي، أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بنيّ! على سبيل الخطأ، وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمّدين. و﴿ما﴾ في موضع الجرّ عطف على ﴿ما﴾ الأولى. ويجوز أن يُراد العفو عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم، ثمّ تناول لعمومه خطأ التبنّي وعمده. وإذا وجد التبنّي، فإن كان المتبنَّى مجهول النسب، وأصغر سنّاً منه، ثبت نسبه منه، وعتق إن كان عبداً له. وإن كان أكبر سنّاً منه لم يثبت النسب، وعتق عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. وأمّا المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبنّي، وعتق إن كان عبداً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمِّد.

٦ ـ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: أحقّ بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه. أو: هو أولى بهم، أي: أرأف بهم، وأعطف عليهم، وأنفع

وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

لهم، كقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي قراءة ابن مسعود: (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد: كلّ نبيّ أبو أمّته. ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأنّ النبيَّ ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ في تحريم نكاحهنّ، ووجوب تعظيمهنّ، وهنّ فيما وراء ذلك كالإرث وغيره كالأجنبيّات، ولهذا لم يتعدّ التحريم إلى بناتهنّ ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثمّ نسخ ذلك، وجعل التوارث بحقّ القرابة ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، وأن يكون لابتداء الغاية، أي: أولو الأرحام بحقّ القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أي: الأنصار بحقّ الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحقّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناء من خلاف الجنس، أي: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وهو: أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث. وعدّي ﴿تفعلوا﴾ بإلى لأنّه في معنى: تُسْدوا. والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدِّين ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

٧ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ واذكر حين ﴿أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدِّين القيّم ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصاً. وقدّم رسول الله على نوح ومَن بعده؛ لأنّ هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع. فلمّا كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدّم عليهم، ولولا ذلك لقدّ مَن قدّمه زمانه ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾

وثيقاً ـ وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه ـ وإنّما فعلنا ذلك:

٨ ـ ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الأنبياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ عمّا قالوه لقومهم. أو: ﴿ليسأل﴾ المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأنّ من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو: ﴿ليسأل﴾ الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم. وهو كقوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وهو عطف على ﴿أخذنا﴾ لأنّ المعنى أنّ الله أكّد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ﴿وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾. أو: على ما دلّ عليه: ﴿ليسأل الصادقين﴾ كأنّه قال: فأثاب المؤمنين ﴿وأعدّ للكافرين﴾.

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أُحُد بِسَنةٍ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: الأحزاب. وهم: قريش، وغطفان، وقريظة، وبني النضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا. قال ﷺ: «نُصِرت بالصبا، وأُهْلِكَت عادٌ بالدبور»[١] ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاطئة فأخصرتهم، وسَفَتِ التراب في وجوههم. وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبّرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فانهزموا من غير قتال. وحين سمع رسولُ الله ﷺ بإقبالهم، ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان، ثمّ خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنسوان فَرُفِعوا في الآطام[٢]، واشتدّ الخوفُ. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من

(١) رواه أحمد (١/٢٢٨و٣٢٤) والبخاري (٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠).
(٢) «الآطام»: الحصون.

وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

الأحابيش، وبني كنانة، وأهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان. وخرج غطفان في ألف ومَن تابعهم من أهل نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامّتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حرب بينهم إلاّ الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق، والثبات على معاونة النبيّ ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾. وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكفّار من البغي، والسعي في إطفاء نور الله.

١٠ ـ ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل من ﴿إذ جاءتكم﴾ ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق، بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة، أو: عدلت عن كلّ شيء، فلم تلتفت إلاّ إلى عدوّها لشدّة الروع ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة: رأس الغلصمة، وهي: منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئةُ من شدّة الفزع أو الغضب ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثلٌ في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. رُوي: أنّ المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم. قولوا: اللهم استرْ عوراتنا، وآمِنْ روعاتنا»[1] ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ خطاب للذين آمنوا، ومنهم: ثُبَّتُ القلوب والأقدام، والضعاف القلوب، والمنافقون. فظنّ الأوّلون بالله أنّه يبتليهم فخافوا الزلل، وضعف الاحتمال. وأمّا الآخرون فظنّوا بالله ما حُكي عنهم. قرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿الظنون﴾ بغير ألف في الوصل والوقف، وهو القياس. وبالألف فيهما: مدنيّ، وشاميّ، وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف. وبالألف في الوقف: مكيّ، وعليّ، وحفص،

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجه (٣٨٧١) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾

ومثله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية من قال:

أقلّي اللومَ عاذِلَ والعِتابا[١] ... ...

وهنّ كلّهنّ في الإمام بألفٍ.

١١ ـ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ امْتُحِنوا بالصبر على الإيمان ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وحرّكوا بالخوف تحريكاً بليغاً.

١٢ ـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطف على الأولى ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: هو وصف المنافقين بالواو، كقوله:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام وليْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

وقيل: هم قوم لا بصيرةَ لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ رُوي: أنّ مُعتّب بن قُشَير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدرُ أن يتبرّز فرقاً[٢]! ما هذا إلاّ وعد غرور.

١٣ ـ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، وهم: عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾[٣] وبضمّ الميم: حفص، أي: لا قرار لكم ـ هاهنا ـ ولا مكان تقومون فيه، أو: تقيمون ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى الكفر. أو: من عسكر رسول الله إلى المدينة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي:

---

(١) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولي إن أصبت لقد أصابا.

(٢) «فرقاً»: خوفاً.

(٣) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مَقَام﴾ وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١١٤).

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

بنو حارثة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذات عورة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ العورة: الخلل. والعوِرة: ذات العورة. وهي قراءةُ ابن عباس: يقال: عوِر المكان عَوَراً؛ إذا بدا منه خلل يُخافُ منه العدوّ، والسارق. ويجوز أن يكون ﴿عورة﴾ تخفيف عوِرة. اعتذروا أنّ بيوتهم عرضة للعدوّ والسُّرَّاق، لأنّها غير محصّنة، فاستأذنوه ليحصّنوها، ثمّ يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنّهم لا يخافون ذلك، وإنّما يريدون الفرارَ من القتال.

١٤ ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة، أو: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، أي: ولو دخلت هذه العساكر المتحزّبة التي يفرّون خوفاً منها مدينتهم، أو: بيوتهم من نواحيها كلّها، وانثالت[١] على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ عند ذلك الفزع ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: الردّة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها ﴿لأتوها﴾ بلا مدّ: حجازيّ، أي: لجاؤوها، وفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بإجابتها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقّف. أو: ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم ﴿إلاّ يسيراً﴾ فإنّ الله يهلكهم. والمعنى: أنّهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ليفرّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافّة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورعباً. وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا[٢] عليهم أرضهم وديارهم، وعُرِضَ عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء. وما ذاك إلاّ لمقتهم الإسلام، وحبّهم الكفر.

١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بنو حارثة من قبل الخندق، أو: من قبل نظرهم إلى الأحزاب ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً مُقْتَضىً، حتّى يوفى به.

(١) «انثالت»: انصبّت.

(٢) «كبسوا»: أغاروا فجأة.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

١٦ ـ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم لم تمتّعوا في الدنيا إلاّ قليلاً، وهو مدّة أعماركم وذلك قليل. وعن بعض المروانيّة: أنه مرّ بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب.

١٧ ـ ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ممّا أراد الله إنزاله بكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ في أنفسكم من قتل، أو: غيره ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إطالة عمر في عافية وسلامة. أي: من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة؛ لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً.

١٨ ـ ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: من يعوّق عن نصرة رسول الله ﷺ، أي: يمنع، وهم المنافقون ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في الظاهر من المسلمين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قرّبوا أنفسكم إلينا، ودعوا محمداً. وهي لغة أهل الحجاز، فإنهم يسوّون فيه بين الواحد والجماعة. وأمّا تميم فيقولون: هلمّ يا رجل، وهلمّوا يا رجال. وهو صوت سمّي به فعل متعدّ، نحو: أحضِرْ، وقرّب ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً قليلاً، أي: يحضرون ساعة رياء، ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودُهم، ثمّ ينصرفون.

١٩ ـ ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، وهو: البخيل. نصبت على الحال من الضمير في ﴿يأتون﴾، أي: يأتون الحرب بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من قبل العدوّ، أو منه عليه الصلاة والسلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كما ينظر المغشيّ عليه من معالجة سكرات الموت حذراً، وخوَراً، ولواذاً بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ زال ذلك الخوف، وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم بالكلام. خطيب مِسْلَق: فصيح، ورجل مِسْلَاق: مبالغ في الكلام، أي: يقولون: وفروا قسمتنا، فإنّا قد شاهدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوّكم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم أشحّة على المال، والغنيمة. و﴿أشحّة﴾ حال من فاعل ﴿سلقوكم﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ إحباط أعمالهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً.

٢٠ ـ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: لجبنهم يظنّون أنّ الأحزاب لم ينهزموا، ولم ينصرفوا، مع أنهم قد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانية ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ البادون: جمع البادي، أي: يتمنّى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا ممّا فيه المؤمنون من القتال ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلّ قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عن أخباركم، وعمّا جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء، وسمعة.

٢١ ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ بالضمّ حيث كان؛ عاصم ـ أي: قدوة. وهو: المؤتَسَى به، أي: المُقْتَدَى به ـ كما تقول: في البيضة عشرون مَناحديدِ، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، أو: فيه خصلة من حقّها أن يُؤتَسى بها حيث قاتل بنفسه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: يخاف الله، ويخاف اليوم الآخر. أو: يأمل ثواب الله، ونعيم اليوم الآخر. قالوا: ﴿لمن﴾ بدل من ﴿لكم﴾. وفيه ضعف؛ لأنّه لا يجوزُ البدل من ضمير المخاطب. وقيل: ﴿لمن﴾ يتعلّق بحسنة، أي: ﴿أسوة حسنة﴾ كائنة ﴿لمن كان﴾

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في الخوف والرجاء، والشدّة والرخاء.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وعدهم الله أن يُزَلْزَلوا حتّى يستغيثوه، ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فلمّا جاء الأحزاب، واضطربوا، ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وعلموا أنّ الجنة والنصرة قد وجبا لهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «إنّ الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال أو عشر». فلمّا رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك[١]. و﴿هذا﴾ إشارة إلى الخطب، أو: البلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم، ومجيئهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

٢٣ ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما عاهدوه عليه. فحذف الجار كما في المثل: «صَدَقني سنَّ بَكْرِه»[٢] أي: صدقني في سنّ بكره بطرح الجارّ، وإيصال الفعل إليه. نَذَرَ رجالٌ من الصحابة أنّهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وغيرهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: مات شهيداً كحمزة، ومصعب ـ رضي الله عنهما ـ. وقضاء النحب: صار عبارة عن الموت؛ لأن كلّ حيّ من المحدثات لابدّ له أن يموت، فأكنه نذرٌ لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه، أي: نذره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾

---

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣/ ٥٣١).

(٢) وأصله: أنّ رجلاً ساوم رجلاً ببعير، وسأله عن سنّه، فزعم أنه بازل ـ أي: عمره تسع سنين ـ فبينما هما كذلك نَفَر، فدعاه: هِرَع هِرَع! فسكن. وهي كلمة تسكن بها الصغار، فقال المشتري ذلك، يريد: أنه صدق في سنّه الآن لمّا دعاه بتلك الكلمة، وقد كان كاذباً. (المستقصى ٢/ ١٤٠).

وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ

الموت، كعثمان، وطلحة ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ العهد ﴿تَبْدِيلًا﴾ ولا غيّروه، لا المُسْتَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريضٌ لمن بدّ لوا من أهل النفاق ومرض القلوب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

٢٤ ـ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بوفائهم العهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ غذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ بعفو الحوبة. جُعِل المنافقون كأنّهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم؛ لأنّ كلا الفريقين مسوقٌ إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنّهما استويا في طلبهما، والسَّعي في تحصيلها.

٢٥ ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال. أي: مغيظين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه خيراً بزعمهم. وهو حال، أي: غير ظافرين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح، والملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قادراً، غالباً.

٢٦ ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. والصيصة: ما تُحصّن به. رُوي: أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتي رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس وعلى السّرج. فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: مِن متابعة قريش. [فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾

وعن سرجه][1]. فقال يا رسول الله! [إن الملائكة لم تضع السلاح][2]. إنّ الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ غليهم؛ فإنّ الله داقّهم دقّ البيض على الصّفا، وإنّهم لكم طعمة. فأذّن في الناس: أنْ مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّي العصر إلاّ في بني قريظة. فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تنزلون على حكمي»؟! فأبوا. فقال: «على حكم سعد بن معاذ»؟! فرضوا به. فقال سعد: حكمتُ فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فكبّر النبيُّ ﷺ وقال: «لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». ثمّ استنزلهم، وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدّمهم فضرب أعناقهم، وهم من ثمانمئة إلى تسعمئة. وقيل: كانوا ستمئة مقاتل وسبعمئة أسير[3] ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف. وبضم العين: شاميّ، وعليّ ﴿فَرِيقًا﴾ ونصب بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم رالجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء، والذّراري.

٢٧ ـ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ اي: المواشي، والنقود، والأمتعة. رُوي: أنّ رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنّكم في منازلكم»[4] ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بقصد القتال، وهي مكّة، أو: فارس والروم، أو: خبير، أو: كلّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السعادة، وكثرة الأموال ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعال: أن يقوله مَن في المكان

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٤ وما بعدها).
(٤) أخرجه الواقدي. (حاشية الكشاف ٣/ ٥٣٤).

أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ

المرتفع لمن في المكان المستوطىء، ثمّ كثر حتّى استوت في استعماله الأمكنة. ومعنى ﴿تعالين﴾: أقبلن بإرادتكنّ واختياركنّ لأحد الأمرين، ولم يردْ نهوضهنّ إلإيه بأنفسهنّ، كقوله: قام يُهدِّدني ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكلّ مطلقة إلا المفوّضعة قبل الوطء ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ وأطلقكنّ ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ لا ضرار فيه.

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب، وزيادة نفقة، وتغايرن، فغَمّ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت. فبدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت أحبّهنّ إليه، فخيّرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله، ورسوله، والدار الآخرة، فرؤي الفرحُ في وجه رسول الله ﷺ، ثمّ اختارت جميعهنّ اختيارها. ورُوي: أنّه قال لِعائشة: «إنّي ذاكرٌ لك امراً، عليك ألاّ تعجلي فيه حتّى تستأمري أبويك». ثم قرأ عليها القرآن. فقال: «أفي هذا أستأمر أبويّ! فإنّي اريدُ الله ورسوله والدار الآخرة»[١].

وحكم التخيير في الطلاق: أنّه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترتُ نفسي، أن تقع تطليقة بائنة. وإذا اختارت زوجَها لم يقعْ شيء. وعن عليّ ـرضي الله عنهـ: إذا اختارتْ زوجها فواحدة رجعيّة، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة.

٢٩ ـ ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ مِنْ: للبيان، لا للتبعيض ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

٣٠ ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾ سيئة بليغة في القبح ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ ظاهر فحشها. مِن: بيّن، بمعنى: تبيّن. وبفتح الياء: مكيّ، وأبو بكر. قيل: هي عصيانهنّ رسول الله ﷺ، ونشوزهنّ. وقيل: الزنى، والله عاصمٌ رسولهَ من ذلك ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ ﴿يُضعَّفْ لها العذابَ﴾ مكيّ، وشاميّ،

(١) رواه البخاري (٤٧٨٥) ومسلم (١٤٧٥).

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ

﴿يُضعَّف﴾: أبو عمرو، ويزيد، ويعقوب ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهنّ من النساء؛ لأنّ ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحدٍ من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ؛ ولذا كان الذمّ للعاصي العالم أشدّ من العاصي الجاهل؛ لأنّ المعصية من العالم أقبح؛ ولذا فضل حدّ الأحرار على العبيد، ولا يُرجم الكافر ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهنّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ هيناً.

٣١ ـ ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الأقنوت: الطاعة ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ﴾ وبالياء فيهما: حمزة، وعليّ ﴿أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ مثلي ثواب غيرهما ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ جليل القدر، وهو: الجنّة.

٣٢ ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، إذا تُقُصِّيَتْ أمّة النساء جماعة جماعة لم توجد منهنّ جماعة واحدة تساويكنّ في الفضل. وأحدٌ في الأصل بمعنى وَحَدٍ، وهو: الواحد. ثمّ وضع في النفي العامّ مستوياً فيه المذكّر والمؤنّث، والواحد وما وراءه ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ إن أردتنّ التقوى، أو: إن كنتنّ متّقيات ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: إذا كلمتنّ الرجال من وراء الحجاب، فلا تجئنّ بقولكنّ خاضعاً، أي: ليّناً خنثاً مثل كلام المريبات ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ بالنصب، على جواب النهي ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ ريبة، وفجور ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ حسناً مع كونه خشناً.

٣٣ ـ ﴿وَقَرۡنَ﴾ مدني، وعاصم غير هبيرة، وأصله: إقررن، فحذفت الراء تخفيفاً، وألقيت فتحتها على ما قبلها، أو: من: قار يقار، إذا اجتمع. والباقون ﴿قِرْن﴾ من: وقر، وقاراً، أو: من قرّ، يقرّ، حذفت الأولى من را، أي: اِقْررن فراراً من التكرار، ونقلت كسرتها إلى القاف ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بضمّ الباء، بصريّ، ومدنيّ، وحفص ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: القديمة.

وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ

والتبرّج: التبختر في المشي، أو: إظهار الزينة. والتقدير: ﴿لا تبرّجن﴾ تبرّجاً مثل تبرّج النساء في الجاهليّة الأولى، وهي الزّمن الذي ولد فيه إبراهيم، أو: ما بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ أو: زمن داود وسليمان ـ عليهم السلام ـ. والجاهليّة الأخرى ما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ أو: الجاهليّة الأولى الكفر قبل الإسلام، والجاهليّة الأخرى جاهليّة الفسوق والفجور في الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ خصّ الصلاة والزكاة بالأمر، ثمّ عمّ بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأنّ مَن واظب عليهما جرّتاه إلى ما وراءهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإثم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو: على المدح. وفيه دليلٌ على أنّ نساءه من أهل بيته. وقال: ﴿عنكم﴾ لأنّه أريد الرّجال والنساء من آله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام. بيّن أنه إنّما نهاهنّ، وأمرهنّ، ووعظهنّ؛ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأنّ عِرْض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوّث بدنه بالأرجاس. وأمّا المحسنات فالعرض منها نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفيرٌ لأولي الألباب عن المناهي، وترغيب لهم في الأوامر.

٣٤ ـ ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنّة، أو: بيان معاني القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، أي: هو عالم بأفعالكنّ، وأقوالكنّ، وأحوالكنّ، فاحذرن مخالفة أمره، ونهيه، ومعصية رسوله.

٣٥ ـ ولمّا نزل في نساء النبيّ ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟! فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ المسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو: المفوّض أمره إلى الله، المتوكّل عليه، مَن

وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

أسلم وجهه إلى الله ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدّق به ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في النيّات، والأقوال، والأعمال ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن السيّئات ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدّق في كلّ أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين، ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عمّا لا يحلّ ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وقراءة القرآن، والاشتغال بالعلم من الذكر. والمعنى: ﴿والحافظات﴾ فروجهنّ ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدّم عليه. والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين: أنّ الأوّل نظير قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان، واشتركا في حكم واحد، فلم يكن بدّ من توسّط العاطف بينهما. وأمّا الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع. ومعناه: أنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم.

٣٦ ـ خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمّته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت، وأبى أخوها عبد الله. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وما صحّ لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور، ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] أن يختاروا من أمرهم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿تكون﴾ بالتاء، وهي قراءة: ابن =

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ

ما شاؤوا. بل من حقّهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره، فقالا: رضينا يا رسول الله! فأنكحها إيّاه، وساق عنه إليها مهرها. وإنّما جمع الضمير في ﴿لهم﴾ وإن كان من حقّه أن يوحّد؛ لأنّ المذكورين وقعا تحت النفي، فعمّا كلّ مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. و﴿يكون﴾ بالياء: كوفيّ. والخيرة: ما يتخيّر. ودلّ ذلك على أنّ الأمرَ للوجوب ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فإن كان العصيان عصيان رَدٍّ، وامتناعٍ عن القبول، فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فِعْلٍ مع قبول الأمر، واعتقادُ الوجوب، فهو ضلال خطأ وفسق.

٣٧ ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجلّ النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبنّي ـ فهو متقلّب في نعمة الله ونعمة رسوله. وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب بنت جحش، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إيّاه، فوقعت في نفسه[1]، فقال: «سبحان الله مقلّب القلوب». وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله، فقال لرسول الله ﷺ: إنّي أريدُ أن أفارق صاحبتي، فقال: «مالك؟ أرابك منها شيء؟» قال: لا والله ما رأيت منها إلاّ خيراً! ولكنّها تتعظّم عليّ لشرفها، وتؤذيني، فقال له: أمسك عليك زوجك ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تطلقها ـ وهو نهي تنزيهٍ إذ الأولى ألاّ يطلّق، أو: ﴿واتّق الله﴾ فلا تذمّها بالنسبة إلى الكبر، وأذى الزوج ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وهو الذي أبداه الله تعالى. وقيل: الذي أخفى في نفسه

= كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٢٥).

(١) هذا كلام باطل، ولا أصل له، ويتنافى مع منصب النبوة، فهي ابنة عمته يعرفها ﷺ من قدم، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ

تعلّق قلبه بها، ومودّة مفارقة زيد إيّاها. والواو في ﴿وتخفي في نفسك﴾، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: قالة الناس بأنّه نكح امرأة ابنه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ واو الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة ألاّ يمسكها؛ وتخفي خاشياً قالة الناس، وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لو كتم رسول الله ﷺ شيئا ممّا أوحي إليه لكتم هذه الآية ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، قيل: قضى منه وطره. والمعنى: ﴿فلمّا﴾ لم يبقَ فيها حاجة وتقاصرت عنها همّته، وطلّقها، وانقضت عدّتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. رُوي: أنّها لمّا اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليّ زينب». قال زيد: فانطلقت، وقلت: يا زينب! أبشري، إنّ رسول الله ﷺ يخطبك، ففرحت، وتزوّجها رسولُ الله ﷺ، ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتّى امتدّ النهار[(١)] ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ قيل: قضاء الوطر: إدراك الحاجة، وبلوغ المراد منه ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي يريد أن يكوّنه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوّناً لا محالة. وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب.

٣٨ ـ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أحلّ له، وأمره، وهو نكاح زينب امرأة زيد. أو قدّر له من عدد النساء ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسم موضوع موضع المصدر ـ كقولهم: تُرْباً، وجندلاً ـ مؤكّد لقوله: ﴿ما كان على النبيّ من حرج﴾، كأنّه قيل: سنّ الله ذلك سنّة في الأنبياء الماضين، وهو: ألاّ يُحرِّجَ عليهم في الإقدام على ما أباح لهم، ووسّع عليهم في باب النكاح وغيره. وقد

(١) ذكره الثعلبي بغير سند. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٤١).

فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾

كانت تحتهم المهائر[1] والسراري، وكانت لداود مئة امرأة، وثلاثمئة سُرِّيّة، ولسليمان ثلاثمئة حرّة وسبعمئة سرّيّة! ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ في الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً. ولا وقف عليه إن جعلت:

٣٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿الذين﴾ الأوّل. وقفْ إن جعلته في محلّ الرفع، أو: النصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يبلّغون﴾ أو: أعني: ﴿الذين يبلغون﴾ ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وصف الأنبياء بأنّهم لا يخشون إلاّ الله، تعريض بعد التصريح في قوله: ﴿وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ كافياً للمخاوف. أو: محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن يُخْشَى منه.

٤٠ ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتّى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر، والنكاح. والمراد: من رجالكم البالغين. والحسن والحسين: لم يكونا بالغين حينئذ. والطاهر والطيّب والقاسم وإبراهيم: توفّوا صبياناً ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾. وكلّ رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة، والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحِدٌ من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم. والتبنّي من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح التاء: عاصم بمعنى الطابع، أي: آخرهم، يعني: لا ينبأ أحد بعده. وعيسى ممن نبّىء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ﷺ، كأنّه بعض أمته. وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع، وفاعل الختم. وتقوّيه قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (ولكن نبياً ختم النبيين) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

(١) المَهائِر: جمع المَهيْرة، وهي الحرائر، ضد السَّراري.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ

٤١، ٤٢ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، وأكثروا ذلك ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ﴾ أوّل النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصّا بالذكر؛ لأنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. والفعلان ـ أي: اذكروا الله، وسبّحوه ـ موجّهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم، وصلّ يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر. وإنّما اختصّ من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانةً لفضله على سائر الأذكار؛ لأنّ معناه: تنزيه ذاته عمّا لا يجوز عليه من الصفات. وجاز أن يُراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنّها من جملة الذكر. ثمّ خصّ من ذلك التسبيح ﴿بكرة﴾ وهي صلاةُ الفجر ﴿وأصيلاً﴾ وهي صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو: صلاة الفجر، والعشاءين.

٤٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ لمّا كان من شأن المصلّي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه، وترؤّفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوّها على ولدها. ثمّ كثر حتّى استعمل في الرحمة والترؤّف. ومنه قولهم: صلّى الله عليك، أي: ترحّم عليك، وترأف. والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللّهم صلّ على المؤمنين. جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنّهم فاعلون الرحمة والرأفة. والمعنى: هو الذي يترحّم عليكم، ويترأف حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر، والتوفّر على الصلاة، والطّاعة ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ هو دليلٌ على أنّ المرادَ بالصلاة: الرحمة. ورُوي: أنّه لمّا نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر: ما خصّك الله يا رسول الله بشرف إلاّ وقد أشركنا فيه، فنزلت:

٤٤ ـ ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: تحيّة الله لهم ﴿يَوۡمَ

يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يرونه ﴿سَلَٰمٌ﴾ يقول الله تبارك وتعالى: السلام عليكم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة.

٤٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم وتصديقهم، أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم. وهو حال مقدّرة، كما تقول: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدّراً به الصيد غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالنار.

٤٦ ـ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره، أو: تيسيره ـ والكلّ منصوب على الحال ـ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ جلّى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالّون، كما يُجلّى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. والجمهور على أنّه القرآن. فيكون التقدير: وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً. ووصف بالإنارة؛ لأنّ من السرج مالا يضيء إذا قلّ سليطه، ودقّت فتيلته. أو: ﴿شاهداً﴾ بوحدانيتنا ﴿ومبشراً﴾ برحمتنا، ﴿ونذيراً﴾ بنقمتنا، ﴿وداعياً إلى﴾ عبادتنا، ﴿وسراجاً﴾ وحجّة ظاهرة لحضرتنا.

٤٧ ـ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ثواباً عظيماً.

٤٨ ـ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المراد به: التهييج، والدوام والثبات على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هو بمعنى: الإيذاء. فيحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل، أي: اجعل إيذائهم إيّاك في جانب، ولا تبال بهم، ولا تخفْ من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إيّاهم مكافأة لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيكهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى به مفوّضاً إليه.

وقيل: إنّ الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف، وقابل كلّاً منها بخطاب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

مناسب له. قابل الشاهد بقوله: ﴿وبشّر المؤمنين﴾ لأنّه يكون شاهداً على أمّته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضلُ الكبير؛ والمبَشِّرَ بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنّه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسبٌ للبشارة؛ والنَّذيرَ بـ﴿دع أذاهم﴾ لأنّه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل، أو: آجل، كانوا منذرين به في المستقبل؛ والدَّاعِيَ إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وتوكّل على الله﴾ لأنَّ من توكّل على الله يسّر عليه كلّ عسير، والسِّراجَ المنير بالاكتفاء به وكيلاً؛ لأنّ من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

٤٩ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي: تزوجتم. والنكاح هو: الوطء في الأصل. وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنّه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً لأنّها سببه وكقول الراجز:

أَسْنمةُ الآبالِ[1] في سَحَابِهِ

سَمَّى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنّه سبب سمن الآبال، وارتفاع أسنمته. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلاّ في معنى العقد؛ لأنّه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسّة، والقربان، والتغشّي، والإتيان. وفي تخصيص المؤمنات ـ مع أنّ الكتابيّات تساوي المؤمنات في هذا الحكم ـ إشارة إلى أنّ الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ والخلوة الصحيحة كالمسّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فيه دليلٌ على أنّ العدة تجبُ على النساء للرجال. ومعنى ﴿تعتدّونها﴾ تستوفون عددها، تفتعلون، من: العدّ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ والمتعة تجبُ للتي طلّقها قبل الدخول بها، ولم يُسمِّ لها مَهْراً دون غيرها ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تمسكوهنّ ضراراً، وأخرجوهنّ من منازلكم؛ إذ لا عدّة لكم عليهنّ.

(١) «الآبال»: جمع الإبل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً﴾

٥٠ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ إذ المهر أجر على البضع. ولهذا قال الكرخيّ: إنّ النكاح بلفظ الإجارة جائز. وقلنا: التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة. وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو: فرضها وتسميتها في العقد ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ وهي صفيّة، وجويرية، فأعتقهما، وتزوّجهما ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ و﴿مع﴾ ليس للقران، بل لوجودهما فحسب، كقوله: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَـٰنَ﴾ [النمل: ٤٤] وعن أمّ هانىء بنت أبي طالب: خطبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرتُ، فعذرني، فأنزل الله هذه الآية فلم أحلّ له لأني لم أهاجرْ معه[1] ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وأحللنا لك من وقع لها أن تَهب لك نفسها، ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتّفق ذلك؛ ولذلك نكّرها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو بيانُ حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحدٌ منهنّ بالهبة. وقيل: الواهبة نفسها: ميمونة بنت الحارث، أو: زينب بنت خزيمة، أو: أمّ شريك بنت جابر، أو: خولة بنت حكيم. وقرأ الحسن: ﴿أن﴾ بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بغير ﴿إن﴾ ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ استنكاحها: طلب نكاحها، والرغبة فيه. وقيل: نكح واستنكح بمعنى. والشرط الثاني تقييد للشرط الأوّل. شرط في الإحلال هبتها نفسها. وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله ﷺ، كأنّه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها؛ أو إرادته هي: قبول الهبة، وما به تتمّ. وفيه دليلُ جواز النكاح بلفظ الهبة؛ لأنّ رسولَ الله ﷺ وأمّته سواء في الأحكام، إلاّ فيما خصّه الدليل ﴿خَالِصَةً﴾ بلا مهر ـ حال من الضمير في

(١) رواه الترمذي (٣٢١٤).

﴿لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾

﴿وهبت﴾ أو: مصدر مؤكّد ـ أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوصاً. والفاعلة في المصادر غير عزيز، كالعافية، والكاذبة ﴿لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجبُ المهر لغيرك، وإن لم يسمّه، أو: نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله لِلنَّبِيِّ: ﴿إن أراد النبيّ﴾. ثمّ رجع إلى الخطاب ليؤذن أنّ الاختصاصَ تكرمةٌ له لأجل النبوّة. وتكريره تفخيمٌ له ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمّتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق. متصل بـ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ جملة اعتراضيّة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده.

٥١ ـ ﴿۞ تُرْجِى﴾ بلا همز. مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، وحفص. وبهمز. غيرهم: تؤخّر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تضمّ، يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهنّ، وتضاجع من تشاء، أو: تطلّق من تشاء، وتمسك من تشاء، أو: لا تقسم لأيتهنّ شئت، وتقسم لمن شئت، أو: تترك تزوّج من شئت من نساء أمّتك، وتزوَّج من شئت. وهذه قسمةٌ جامعةٌ لما هو الغرض؛ لأنّه إمّا أن يطلّق وإمّا أن يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم. وإذا طلّق وعزل فإمّا أن يُخَلِّي المعزولة لا يبتغيها أو: يبتغيها، ورُوي: أنّه أرجى منهنّ: جويرية، وسودة، وصفيّة، وميمونة، وأمّ حبيبة ـ رضي الله عنهنَّ ـ. فكان يقسمُ لهنّ ما شاء كما شاء. وكانت ممن آوى إليه: عائشة، وحفصة، وأمّ سلمة، وزينب ـ رضي الله عنهنَّ ـ، أرجى خمساً، وآوى أربعاً[(١)]. ورُوي: أنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير، وعبد الرزاق عن معمر، كلاهما عن منصور، عن أبي رزين، وهذا مرسل. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٥٢).

وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

كان يسوّي مع ما أطلق له، وخيّر فيه إلاّ سودة، فإنّها وهبت ليلتها لعائشة، وقالت: لا تطلّقني حتّى أُحْشَرَ في زمرة نسائك ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أي: ليس إذا عزلتها لم يجز لك ردّها إلى نفسك. و﴿من﴾: رفع بالابتداء، وخبره: ﴿فلا جناح﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقرب إلى قرّة عيونهنّ، وقلّة حزنهنّ، ورضاهنّ جميعاً؛ لأنهنّ إذا علمن أنّ هذا التفويض من عند الله اطمأنّت نفوسهنّ، وذهب التغاير، وحصل الرضا، وقرّت العيون. ﴿كلّهنّ﴾ بالرفع تأكيد لنون ﴿يرضين﴾ وقرىء (ويرضيْن كلّهنّ بما آتيتهنّ) على التقديم. وقرىء شاذّاً ﴿كلَّهنّ﴾ بالنصب تأكيداً لهنّ في ﴿آتيتهنّ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فيه وعيدٌ لمن لم ترض منهنّ بما دبّر الله من ذلك، وفوّض إلى مشيئة رسوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يُتّقى ويُحْذَر.

٥٢ ـ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ وبالتاء: أبو عمرو، ويعقوب، وغيرهما بالتذكير؛ لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقيّ، وإذا جاز بغير فصل: في ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠] فمع الفصل أجوز ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التسع؛ لأنّ التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أنّ الأربع نصاب أمّته ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلّهن، أو بعضهنّ، كرامة لهنّ، وجزاءً على ما اخترن، ورضين، وقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهنّ التسع التي مات عنهنّ: عائشة، حفصة، أمّ حبيبة، سودة، أمّ سلمة، صفيّة، ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية. و﴿من﴾ في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد النّفي، وفائدته: استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في موضع

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾

الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تبدّل﴾ أي: تتبدّل، لا من المفعول الذي هو ﴿من أزواج﴾ لتوغله في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهنّ. وقيل: هي أسماء بنت عُميس امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنّها ممن أعجبه حسنهنّ. وعن عائشة، وأمّ سلمة ـ رضي الله عنهما ـ: ما مات رسول الله ﷺ حتّى أحلّ له أن يتزوّج من النساء ما شاء. يعني: أنّ الآية نسخت، ونسخها إمّا بالسنة، أو: بقوله: ﴿إنّا أحللنا لك أزواجك﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثنى ممن حرم عليه الإماء، ومحلّ ﴿ما﴾ رفع بدل من ﴿النساء﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظاً. وهو تحذير عن مجاوزة الحدود.

٥٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ ﴿أن يؤذن لكم﴾: في موضع الحال، أي: ﴿لا تدخلوا﴾ إلاّ مأذوناً لكم. أو: في معنى الظّرف، تقديره: وقت أن يؤذن لكم. و﴿غير ناظرين﴾: حال من ﴿لا تدخلوا﴾. وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنّه قيل: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾، أي: غير منتظرين. وهؤلاء قوم كانوا يتحيّنون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: ﴿لا تدخلوا﴾ يا هؤلاء المتحيّنون للطعام ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾. وإنى الطعام: إدراكه. يقال: أنيَ الطعام إنى، كقولك: قلاه قلىً. وقيل: إناه: وقته، أي: ﴿غير ناظرين﴾ وقت الطعام، وساعة أكله. ورُوي: أنّ النّبيّ ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنساً أن يدعوَ بالناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوج فيخرج، ثمّ يدخل فوج، إلى أن قال: يا رسول الله! دعوتُ حتّى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرّق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدّثون، فأطالوا، فقام رسولُ الله ﷺ ليخرجوا، فطاف رسولُ الله ﷺ بالحجرات، وسلّم عليهنّ، ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدّثون.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾

وكان رسولُ الله ﷺ شديدَ الحياء فتولّى، فلما رأوه متولياً خرجوا، فرجع، ونزلت[1] ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فتفرقوا ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور معطوف على ﴿ناظرين﴾ أو: منصوب، أي: ﴿ولا﴾ تدخلوها ﴿مستأنسين﴾. نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدّثه به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ من إخراجكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنّ إخراجكم حقٌّ ما ينبغي أن يُستحيا منه. ولمّا كان الحياءُ ممّا يمنع الحييّ من بعض الأفعال قيل: ﴿لا يستحيي من الحقّ﴾ أي: لا يمتنع منه، ولا يتركه ترك الحييّ منكم. وهذا أدبٌ أدّب اللهُ به الثقلاء. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: حسبك في الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء رسول الله ﷺ لدلالة بيوت النبيّ؛ لأنّ فيها نساءه ﴿مَتَٰعًا﴾ عارية، أو: حاجة ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطرالشيطان، وعوارض الفتن. وكانت النساءُ قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يحبّ ضَرْبَ الحجاب عليهنّ، ويودّ أن ينزلَ فيه، وقال: يا رسول الله! يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت[2]. وذكر: أنّ بعضَهم قال: أَنُنْهَى أن نكلّم بنات عمّنا إلاّ مِن وراء حجاب؟! لئن مات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأتزوجنّ فلانة، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾. أي: وما صحّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، ولا نكاح أزواجه من

(١) رواه أحمد (٣ / ٩٨و١٠٥و٢٠٠) والبخاري (٤٧٩٤) ومسلم (١٤٢٨) (٨٧ و٨٩ و٩٠).
(٢) رواه البخاري (٤٧٩٠).

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ

بعد موته[1] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

٥٤ ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ من أذى النبي ﷺ، أو: من نكاحهنّ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعاقبكم به.

٥٥ ـ ولمّا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله! أو نحن أيضاً نكلمهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نساء المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليهنّ في ألا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العمّ والخال لأنّهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاءت تسمية العمّ أباً، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيل عمّ يعقوب ـ عليهم السلام ـ. وعبيدهنّ عند الجمهور كالأجانب. ثمّ نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل فضل تشديد، كأنّه قيل: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أمرتنّ به من الاحتجاب، وأنزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ عالماً. قال ابنُ عطاء: الشهيد: الذي يعلم خطرات القلوب، كما يعلم حركات الجوارح.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي:

---

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٥٦).

﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُوا۟﴾

قولوا: اللّهم صلِّ على محمد، أو: صلّى الله على محمد ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللّهم سلّم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه انقياداً. وسُئِل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية، فقال: «إنّ الله وكّل بي ملكين فلا أُذْكَر عند عبد مسلم فيصلّي عليّ إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين. ولا أُذْكَر عند عبد مسلم فلا يصلّي عليّ إلا وقال ذانك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين»(١). ثمّ هي واجبة مرّة عند الكرخي ـ رحمه الله ـ، وكلّما ذكر اسمه عند الطحاوي ـ رحمه الله ـ، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور. وإن صلّى على غيره على سبيل التبع كقولك: صلّى الله على النبّي وآله، فلا كلام فيها، وأمّا إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

٥٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يؤذون رسول الله. وذكر اسم الله للتشريف، أو عبّر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر، وإنكار النبوّة، مجازاً. وإنّما جعل مجازاً فيهما، وحقيقة الإيذاء يتصوّر في رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة تحت لفظ واحد ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ طردهم الله عن رحمته في الدارين ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ في الآخرة.

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُوا۟﴾ أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنّ ذا يكون غير حقّ أبداً. وأمّا هذا فمنه حقّ ـ كالحدّ، والتعزير ـ ومنه باطل. قيل: نزلتْ في ناسٍ من المنافقين يؤذون عليّاً ـ رضي الله عنه ـ ويسمعونه، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات. وعن الفضيل: لا يحلّ لك أن تؤذي كلباً، أو: خنزيراً

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٩٣).

﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩ ۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾

بغير حقّ، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟! ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ﴾ تحمّلوا ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ عظيماً ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ ظاهراً.

٥٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الجلباب: ما يستر الكلّ مثل الملحفة، عن المبرّد. ومعنى: ﴿يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ يرخينها عليهنّ، ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ، يقال: إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك. و﴿من﴾ للتبعيض، أي: ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها، تتقنّع، حتّى تتميّز من الأمَة. أو: المراد أن يتجلببن ببعض ما لهنّ من الجلابيب، أي: لا تكون متبذلةً في درع وخمار كالأمة، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. وذلك أنَّ النساء كُنّ في أوّل الإسلام على هجّيراهنّ[1] في الجاهليّة، متبذّلات، تبرز المرأةُ في درع وخمار لا فَصْل بين الحرة والأمَة. وكان الفتيان يتعرّضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهنّ في النخيل والغيطان للإماء، وربمّا تعرّضوا للحرّة بحسبان الأمَة، فأمرن أن يخالفن بزيّهنّ عن زيّ الإماء بلبس الملاحف، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهنّ طامع. وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ أي: أولى وأجدر بأن يعرفن، فلا يتعرّض لهنّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ لما سلف منهنّ من التفريط ﴿رَّحِيمٗا﴾ بتعليمهنّ آداب المكارم.

٦٠ ـ ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ فجور، وهم: الزناة. من قوله: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هُم ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هُزِموا، وقُتِلوا، وجَرَى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوبَ

---

(١) أي عادتهنّ.

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

المؤمنين. يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبراً متزلزلاً، غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنك بقتالهم، أو: لنسلطنّك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ في المدينة. وهو عطفٌ على ﴿لنغرينّك﴾ لأنّه يجوز أن يُجابَ به القسم لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. ولمّا كان الجلاءُ عن الوطن أعظمَ من جميع ما أُصيبوا به عطف بثمّ لبعد حاله عن حال المعطوف عليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً. والمعنى: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم ﴿والمرجفون﴾ عمّا يؤلّفون من أخبار السّوْء، لنأمرنّك بأن تفعل بهم الأفعال التي تسوؤهم، ثمّ بأن تضطرّهم إلى طلب إخلاء عن المدينة، وإلى ألا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء ـ وهو التحريشُ ـ على سبيل المجاز.

٦١ ـ ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو: الحال، أي: ﴿لا يجاورونك﴾ إلا ﴿ملعونين﴾. فالاستثناء دخل على الظرف والحال معاً كما مرّ. ولا ينتصب عن ﴿أخذوا﴾ لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلهما ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ التشديد يدلّ على التكثير.

٦٢ ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكّد، أي: سنّ الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتّلوا أينما وجدوا ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يبدّل الله سنّته، بل يجريها مجرىً واحداً في الأمم.

٦٣ ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً، لأنّ الله تعالى عمّى وقتها في التوراة، وفي كلّ كتاب، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنّه عِلْمٌ قد استأثر الله به، ثمّ بيّن لرسوله أنّها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

شيئاً قريباً. أو: لأنّ الساعة في معنى الزمان.

٦٤، ٦٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الإيقاد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذا يردّ مذهب الجهميّة لأنهم يزعمون أن الجنّة والنار تفنيان. ولا تقف على ﴿سعيراً﴾ لأنّ قوله ﴿خالدين﴾ حال عن الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يمنعهم.

٦٦ ـ اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تُصَرَّف في الجهات، كما ترى البضعة[1] تدور في القدر إذا غلت. وخصّصت الوجوه؛ لأنّ الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو يكون الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فنتخلّص من هذا العذاب. فتمنّوا حين لا ينفعهم التمنّي.

٦٧ ـ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ جمع سيد. (ساداتنا): شاميّ، وسهل، ويعقوب، جمع الجمع. والمراد: رؤساء الكفرة الذين لقّنوهم الكفر، وزيّنوه لهم ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ ذوي الأسنان منّا، أو: علماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ يقال: ضلّ السبيل، وأضلّه إيّاه. وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها: الوقف والدلالة على أنّ الكلام قد انقطع، وأنّ ما بعده مستأنف.

٦٨ ـ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ للضلال، والإضلال ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالباء: عاصم؛ ليدلّ على أشدّ اللعن، وأعظمه. وغيره: بالثاء، تكثيراً لأعداد اللعائن.

٦٩ ـ ونزل في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة بعض الناس

(١) «البضعة»: من اللحم وغيره: القطعة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ «ما» مصدريّة، أو: موصولة. وأيهما كان، فالمراد: البراءة عن مضمون القول ومؤدّاه، وهو الأمرُ المعيب. وأذى موسى ـ عليه السلام ـ هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، أو: اتهامهم إيّاه بقتل هارون، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءة موسى ـ عليه السلام ـ كما برّأ نبينا ﷺ بقوله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ذا جاه، ومنزلة، ومستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش: (وكان عبداً لله وجيهاً).

٧٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحقّ. والسداد: القصد إلى الحقّ، والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عمّا خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسدّدوا قولهم في كلّ باب؛ لأنّ حفظ اللسان، وسداد القول رأس كلّ خير. ولا تقف على ﴿سديداً﴾ لأنّ جواب الأمر قوله:

٧١ ـ ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يقبل طاعتكم، أو: يوفّقكم لصالح الأعمال ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي: يمحها. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنّكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبّل حسناتكم، والإثابة عليها، ومن مغفرة سيّئاتكم، وتكفيرها. وهذه الآية مقرّرة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عمّا يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتّقاء الله في حفظ اللسان؛ ليترادف عليهم النهي والأمر، مع إتباع النهي ما يتضمّن الوعيد من قصّة موسى ـ عليه السلام ـ وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى، والداعي إلى تركه. ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ أتبعه قوله:

٧٢ ـ ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهو يريدُ بالأمانة:

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

الطاعة لله، وبحمل الأمانة: الخيانة. يقال: فلان حامل الأمانة، ومحتمل لها، أي: لا يؤدّيها إلى صاحبها حتّى تزول عن ذمّته، إذ الأمانة كأنّها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها؛ ولهذا يقال: ركبته الديون، ولي عليه حقّ، فإذا أدّاها لم تبق راكبة له، ولا هو حاملاً لها، يعني: أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت بأمر الله انقياد مثلها، وهو ما يتأتّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تليقُ بها، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً، وتكويناً، وتسوية على هيئات مختلفة، وأشكال متنوّعة، كما قال ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وأخبر أنّ الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب يسجدون لله، وإنّ من الحجارة لما يهبط من خشية الله. وأمّا الإنسان فلم تكن حاله فيما يصحّ منه من الطاعة، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل، صالح للتكليف، مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها، ويليق بها من الانقياد، وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أبين الخيانة فيها، وألا يؤدّينها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وَخِفْنَ من الخيانة فيها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: خان فيها، وأبى إلا أن يكون محتملاً لها، لا يؤدّيها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركاً لأداء الأمانة ﴿جَهُولًا﴾ لإخطائه ما يُسْعِدُه مع تمكّنه منه، وهو أداؤها. قال الزّجاج: الكافر والمنافق حملا الأمانة، أي: خانا، ولم يُطيعا. ومَن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

وقيل: معنى الآية: أنّ ما كلفّه الإنسان بلغ من عظمه أنّه عُرِضَ على أعظم ما خلق الله من الإجرام، وأقواه، فأبى حمله، وأشفق منه ﴿وحملها الإنسان﴾ على ضعفه ﴿إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث حمل الأمانة، ثمّ لم يف بها، وضمنها، ثمّ خان بضمانه فيها. ونحو هذا من الكلام كثيرٌ في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم. من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوّي العوج.

٧٣ ـ واللام في: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

للتعليل؛ لأنّ التعذيبَ هنا نظير التأديب في قولك: ضربته للتأديب. فلا تقف على ﴿جهولاً﴾، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿ويتوبُ الله﴾ بالرفع ليجعل العلّة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدىء ﴿ويتوبُ الله﴾. ومعنى المشهورة: ليعذّب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنّه إذا تيب على الوافي كان نوعاً من عذاب الغادر. أو: للعاقبة، أي: حملها الإنسان، فآل الأمر إلى تعذيب الأشقياء، وقبول توبة السعداء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين.

* * *

سُورَةُ سَبَإٍ

ترتيبها ٣٤ — آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ إن أجري على المعهود، فهو بما حمد به نفسه محمود. وإن أجري على الاستغراق، فله لِجُلِّ المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك الحمد، للتحميد أهلاً ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سرّاً، وجهراً ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين من المولى، غير أنّ الحمد هنا واجبٌ؛ لأنَّ الدنيا دار تكليف؛ وثمَّ لا ؛ لعدم التكليف. وإنّما يحمد أهل الجنّة سروراً بالنعيم، وتلذّذاً بما نالوا من الأجر العظيم، بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء، والعَرْض.

٢ ـ ﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأموات، والدفائن، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، وجوهر المعادن، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار، وأنواع البركات، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد إليها من

وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الملائكة، والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لما يجترئون عليه .

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: منكرو البعث ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ نفي للبعث، وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أوجب ما بعد النفي بـ ﴿بلى﴾ على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثمّ أعيد إيجابهم مؤكّداً بما هو الغاية في التوكيد، والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله ـ عزّ وجلّ ـ ثمّ أُمِدَّ التوكيد القسميّ بما أُتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوّة حال المقسم عليه، وبشدّة ثباته، واستقامته؛ لأنّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر. وكلّما كان المستشهد به أرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى، وآكد، والمستشهد عليه أثبت، وأرسخ. ولمّا كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، كان الوصف بما يرفع إلى علم الغيب أولى، وأحقّ. ﴿عالمُ الغيب﴾: مدنيّ، وشاميّ، أي: هو ﴿عالم الغيب﴾. (علّام الغيب): حمزة، وعليّ، على المبالغة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ وبكسر الزاي: عليّ. يقال: عزب، ويعزب إذا غاب، وبعد ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ من مثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرّة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إلا في اللوح المحفوظ ﴿ولا أصغر، ولا أكبر﴾ بالرفع عطف على ﴿مثقال ذرّة﴾. ويكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن. أو: رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿في كتاب﴾.

٤ ـ واللام في: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا فيه من مدارج الإيمان ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. متعلّق بلتأتينكم، تعليلاً له.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

---

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جاهدوا في ردّ القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين، ظانّين أنهم يفوتوننا. ﴿مُعَجِّزين﴾: مكي، وأبو عمرو، أي: مُثْبطين الناس عن اتّباعها، وتأمّلها، أو: ناسبين الله إلى العجز ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع الميم: مكّي، وحفص، ويعقوب، صفة لعذاب، أي: عذاب أليم من بين العذاب. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب. وغيرهم: بالجرّ، صفة. لـ﴿رجز﴾

٦ ـ ﴿وَيَرَى﴾ في موضع الرفع بالاستئناف، أي: ويعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ـ يعني: أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابهم من أمّته، أو: علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ـ ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ـ يعني: القرآن ـ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الصدق. و﴿هو﴾ فصل، و﴿الحقّ﴾ مفعول ثان. أو: في موضع النصب معطوف على ﴿ليجزي﴾، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنّه الحقّ، علماً لا يزاد عليه في الإيقان. ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ الله، أو: الذي أنزل إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو دينُ الله.

٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال(١) قريش بعضُهم لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وإنّما نكّروه ـ مع أنّه كان مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ـ تجاهلاً به، وبأمره. وباب التجاهل في البلاغة وَالي سِحْرِها. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنّكم تُبعثون، وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، ويمزّق أجسادكم البلى ﴿كلّ ممزق﴾ أي: يفرّقكم كلّ تفريق. فالممزق مصدر بمعنى التمزيق، والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿إنّكم لفي خلق

---

(١) أي: قال رجال قريش، أو سادة قريش وزعماؤها.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾

جديد﴾ أي: تبعثون. والجديد: فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، تقول: جَدَّ فهو جديد، لـ«قلّ» فهو قليل، ولا يجوز أنـكم بالفتح للاّم في خبره.

٨ ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مفترٍ على الله كذباً فيما نُسبَ إليه من ذلك؟ والهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ثُمَّ قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار، وفيما يؤدّيهم إليه من الضلال عن الحقّ، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون. جُعِل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنّهما كائنان في وقتٍ واحد، لأنّ الضلال لمّا كان العذاب من لوازمه جعلا كأنّهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأنَّ البعيدَ صفة الضالّ إذا بَعُدَ عن الجادّة.

٩ ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ وبالإدغام: عليّ، للتقارب بين الفاء والباء. وضعّفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ الثلاثة بالياء: كوفيّ غير عاصم، لقوله: ﴿أفترى على الله كذباً﴾ ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾[1] كسفاً: حفص ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنّهما حيثما كانوا، وأينما ساروا أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسفَ الله بهم، أو: يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول، وبما جاء به، كما فعل بقارون، وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض، والفكر فيهما،

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة ﴿كِسْفاً﴾: وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٤٥).

﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾

وما تدلاّن عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له؛ إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنّه قادر على كلّ شيء من البعث، ومن عقاب من يكفر به.

١٠ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ﴾ بدل من ﴿فضلاً﴾ أو: من ﴿آتينا﴾ بتقدير قولنا ﴿يا جبال﴾ أو: قلنا ﴿يا جبال﴾ ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب. أي: رجّعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أنّ الله يخلقُ فيها تسبيحاً فيسمع منها كما يسمع من المسبّح، معجزة لداود ـ عليه السلام ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على محلّ الجبال، ﴿والطيرُ﴾ زيد، عطف على لفظ الجبال.

وفي هذا النظم من الفخامة التي لا تخفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنّه ما من حيوان وجماد إلاّ وهو منقادٌ لمشيئة الله تعالى. ولو قال: آتينا داود منّا فضلاً تأويب الجبال معه، والطير، لم تكن فيه هذه الفخامة.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين يصرفه بيده كيف شاء، من غير نار، ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة.

١١ ـ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ «أن» بمعنى: أي، أي: أمرناه: ﴿أن اعمل﴾ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعاً واسعة تامّة، من: السبوغ، وهو: أوّل من اتّخذها. وكان يبيعُ الدرع بأربعة آلاف، فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدّق على الفقراء. وقيل: كان يخرجُ متنكّراً، فيسأل الناس عن نفسه، ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه. فقيّض الله له ملكاً في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعْم الرجلُ لولا خصلة فيه، وهو: أنّه يطعم عياله من بيت المال. فسأل عند ذلك ربّه أن يسبّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه صنعةَ الدُّروع ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولا غلاظاً فيفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾

﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ الضمير لداود، وأهله ﴿صَٰلِحًا﴾ خالصاً يصلح للقبول ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فأجازيكم عليه.

١٢ ـ ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: سخّرنا ﴿لسليمان الريح﴾ وهي الصبا. ورفع ﴿الريح﴾ أبو بكر، وحمّاد، والفضل، أي: ﴿لسليمان الرِّيحُ﴾ مُسَخَّرةٌ ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشيّ كذلك. وكان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغدّى بالريّ، ويتعشّى بسمرقند ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ أي: معدن النحاس. فالقطر: النحاس، وهو: الصُّفر، ولكنّه أساله، فكان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء، وكان قبل سليمان ـ عليه السلام ـ لا يذوب. وسمّاه: عين القطر باسم ما آل إليه ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ﴾ «من»: في وضع نصب، أي: ﴿و﴾ سخّرنا له من الجنّ من يعمل ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغۡ﴾ ومن يعدل ﴿مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ـ عليه السلام ـ ضربه ضربةً أحرقته.

١٣ ـ ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مساجد، أو: مساكن ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صور السباع، والطيور. رُوي: أنّهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيّه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعَدَ بَسَط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظلّه النسران بأجنحتهما. وكان التصويرُ مباحاً حينئذ ﴿وَجِفَانٖ﴾ جمع جفنة ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ جمع جابية، وهي: الحياض الكبار. قيل: كان يقعدُ على الجفنة ألف رجل. (كالجوابي) في الوصل والوقف: مكّيّ، ويعقوب، وسهل. وافق أبو عمرو في الوصل. الباقون بغير ياء اكتفاءً بالكسرة ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

على الأثافيّ لا تنزل عنها لعظمها، وقيل: إنّها باقية باليمن. وقلنا لهم: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: ارحموا أهل البلاد، واسألوا ربّكم العافية، عن الفضيل. و﴿شكراً﴾ مفعول له، أو: حال، أي: شاكرين. أو: اشكروا شكراً؛ لأنّ ﴿اعملوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث إنّ العمل للمنعم شكر له. أو: مفعول به، يعني: إنّا سخّرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً. وسُئِل الجنيدُ ـ رحمه الله ـ عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾[1] بسكون الياء: حمزة، وغيره بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفّر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً، واعترافاً، وكدحاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من يشكر على أحواله كلّها. وقيل: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود ـ عليه السلام ـ أنّه جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلّا وإنسان من آل داود ـ عليه السلام ـ قائم يصلّي.

١٤ ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنّ، أو آل داود ـ عليه السلام ـ ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأَرَضَة، وهي: دويبة يقال لها: سُرْفَةٌ، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أَرَضَتِ الخشبة أرضاً؛ إذا أكلتها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ والمِنْسَأةُ العصا؛ لأنّهُ ينسأ بها، أي: يطرد. ﴿ومنساته﴾ بغير همز: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علمت الجنُّ علماً بيّناً بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟﴾ بعد موت سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. ورُوي: أنّ داود ـ عليه السلام ـ أسّس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى ـ عليه السلام ـ فمات قبل أن

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿عباديْ﴾ بسكون الياء.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾

يتمه، فوصّى به إلى سليمان ـ عليه السلام ـ، فأمر الشياطين بإتمامه. فلمّا بقي من عمره سنة سأل ربّه أن يعمّي عليهم موته حتّى يفرغوا منه، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ـ عليه السلام ـ ثلاثاً وخمسين سنة. ملك وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة. وابتدأ بناء بيت المقدس لأربعٍ مضين من ملكه. ورُوي: أنّ أفريدون جاء ليصعد كرسيّه، فلما دنا ضربَ الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحدٌ بعده أن يدنو منه.

١٥ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف بتأويل الحيّ، وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: حمزة، وحفص ﴿مَسْكِنِهم﴾: عليّ، وخلف. وهو موضعُ سكناهم. وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن، أو مسكن كلّ واحد منهم. غيرهم: (مساكنهم) ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿آية﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية ﴿جنّتان﴾. ومعنى كونهما آية: أنّ أهلهما لمّا أعرضوا عن شكر الله تعالى سلبهم الله النعمة ليعتبروا، ويتّعظوا، فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وغمط النعم. أو: جعلهما آية، أي: علامة دالّة على قدرة الله، و إحسانه، ووجوب شكره ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أراد: جماعةً من البساتين عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. وكلّ واحدة من الجماعتين في تقاربها، وتضامّها كأنّها جنّة واحدة، كما تكون بساتين البلاد العامرة. أو: أراد: بستاني كلّ رجل منهم عن يمين مسكنه، وشماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو: لما قال لهم لسان المقال، أو هم أحقّاء بأن يقال لهم ذلك. ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقكم ﴿بلدة طيّبة﴾ وربّكم الذي رزقكم، وطلب شكركم ﴿ربّ غفور﴾ لمن شكره. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل، فتعمل بيديها، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر، وأطيبها، ليس فيها

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

بعوض، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حيّة، ومن يمرّ بها من الغرباء يموت قمله لطيب هواها.

١٦ ـ ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ وكذّبوهم، وقالوا: ما نعرف لله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: المطر الشديد، أو: العرم: اسم الوادي، أو: الجرذ الذي نقب عليهم السّكر. قالوا: لما طغوا سلّط الله عليهم الجرذ، فنقبه من أسفله، فغرّقهم ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل ﴿جنّتين﴾ للمشاكلة، وازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل: الثمر يثقل ويخفّف. وهو قراءة نافع، ومكّيّ. والخمط: شجر الأراك. أو: كلّ شجر ذي شوك ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل: شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عوداً. ووجه من نوّن الأُكُلَ ـ وهو غير أبي عمرو ـ أن: أصله: ذواتي أكلِ أكل خمطٍ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو: وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ووجه أبي عمرو: أنّ أكل الخمط في معنى البَرير[1] فكأنه قيل: ذواتي برير. والأثل والسدر معطوفان على ﴿أكلٍ﴾ لا على خمط؛ لأن الأثل لا أكل له. وعن الحسن: قلّل السدر لأنّه أكرم ما بُدِّلوا؛ لأنه يكون في الجنان.

١٧ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فهو مفعول ثانٍ مقدّم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ كوفيّ غير أبي بكر. ﴿وهل يُجازَى إلاّ الكفور﴾، غيرهم. يعني: ﴿وهل يجازَى﴾ مثل هذا الجزاء إلاّ من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله. أو: هل يعاقب؛ لأنّ الجزاء وإن كان عاماً على يُستعمل في معنى المعاقبة، وفي معنى الإثابة، لكن المراد الخاصّ، وهو: العقاب.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ.

(١) البرير: ثمر الأراك، واحدها: بريرة.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ

١٨ ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه ـ وهي: قرى الشام ـ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. و﴿ظاهرة﴾ للسَّابلة لم تبعد عن مسالكهم حتّى لا تخفى عليهم. وهي أربعة آلاف وسبعمئة قرية متّصلة من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقيل المسافر في قرية، ويروح في أخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ وقلنا لهم: ﴿سيروا﴾. ولا قول ثمَّ، ولكنهم لمّا مكّنوا من السير، وسوّيت لهم أسبابه، فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: ﴿سيروا فيها﴾ إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإنّ الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو: سيروا فيها ﴿آمنين﴾ لا تخافون عدوّاً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدّة سفركم، وامتدت أيّاماً وليالي.

١٩ ـ ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: يا ليتها كانت بعيدة، فنسير على نجائبنا، ونربح في التجارات، ونفاخر في الدوابّ والأسباب. بطروا النعمة، وملّوا العافية، وطلبوا الكدّ والتعب ﴿بَعِّدْ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿وَظَلَمُوٓا۟﴾ بما قالوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدّث الناس بهم، ويتعجّبون من أحوالهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرّقناهم تفريقاً، اتّخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرّقوا أيادي سبأ. فلحق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم. أو: لكلّ مؤمن؛ لأنّ الإيمان نصفان: نصفه شكر، ونصفه صبر.

٢٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ بالتشديد: كوفيّ، أي: حقّق عليهم ظنّه، أو: وجده صادقاً. وبالتخفيف: غيرهم، أي: صدق في ظنه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾

إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ
بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ
أَذِنَ لَهُۥ

الضمير في ﴿عليهم﴾، و﴿اتّبعوه﴾ لأهل سبأ، أو: لبني آدم. وقلّل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلّتهم بالإضافة إلى الكفّار ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

٢١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ لإبليس على الذين صار ظنّه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط، واستيلاء بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً. والتغيّر على المعلوم لا على العلم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه. وفعيل ومفاعل: متآخيان.

٢٢ ـ ﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم آلهة من دون الله. فالمفعول الأوّل: الضمير الراجع إلى الموصول، وحذف كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً لطول الموصول بصلته. والمفعول الثاني: آلهة، وحذف؛ لأنّه موصوف صفته ﴿من دون الله﴾ والموصوف يجوزُ حذفه، وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً. فإذاً مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين. والمعنى: ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة، وسمّيتموهم باسمه، والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. ثمّ أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شرّ، أو نفع أو ضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ومالهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق، ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ من عَوين يعينه على تدبير خلقه. يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوا كما يدعى، ويُرْجَوا كما يرجى؟

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الله، يعني: إلاّ لمن وقع الإذن

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

للشفيع لأجله، وهي: اللام الثانية في قولك: أُذِنَ لِزَيدٍ لِعَمروٍ، أي: لأجله. وهذا تكذيبٌ لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿أُذن له﴾: كوفيّ غير عاصم، إلاّ الأعشى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها ربّ العزّة في إطلاق الإذن. و﴿فَزّع﴾: شاميّ، أي: الله تعالى. والتفزيع: إزالة الفزع. و﴿حتّى﴾ غاية لما فهم من أنّ ثمّ، انتظاراً للإذن، وتوقّفاً، وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم، أولا يؤذن لهم؟! كأنه قيل: يتربصون، ويتوقّعون مليّاً فزعين ﴿حتى غذا فزع عن قلوبهم﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ سأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾ قال: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قول الحقّ. وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلوّ والكبرياء، ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم ذلك اليوم إلاّ بإذنه، وأن يشفع إلاّ لمن ارتضى.

٢٤ ـ ﴿۞ قُلْ﴾ أمره بأن يقرّرهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾. ثمّ أمره بأن يتولى الإجابة، والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم ﴿الله﴾، وذلك للإشعار بأنّهم مقرّون به بقلوبهم، إلاّ أنّهم ربّما أبوا أن يتكلّموا به؛ لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الموحّدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من الكلام المنصف الذي كلّ من سمعه من مُوَال، أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي دَرْجة بعد تَقَدُّمه ما قُدِّم من التقدير: دلالة غير خفيّة على مَن هو من الفريقين على الهدى، ومَن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض. ونحوه قولك للكاذب: إنّ أحدنا لكاذب. وخُولِف بين

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

حرفي الجرّ الداخلين على الهدى والضلال؛ لأنّ صاحبَ الهدى كأنه مستعلٍ على فرس جواد يَرْكُضُه حيث شاء، والضال كأنّه منغمس في الظلام لا يدري أين يتوجّه.

٢٥ ـ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخلُ في الإنصاف من الأوّل، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين، وهو مأمورٌ به مشكورٌ، والعملَ إلى المخاطَبين. وهو مزجورٌ عنه محظور.

٢٦ ـ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بلا جور، ولا ميل ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

٢٧ ـ ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ﴾ بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ في العبادة معه. ومعنى قوله: ﴿أروني﴾ ـ وكان يراهم ـ أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على حالة الإشرك به ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، فلا يشاركه أحد ـ و﴿هو﴾ ضمير الشأن ـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره.

٢٨ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالة عامّة لهم، محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجّاج: معنى الكافّة في اللغة: الإحاطة؛ والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف. والتاء على هذا للمبالغة، كتاء الراوية، والعلاّمة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقرّ ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصرّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

٢٩ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: القيامة المشار إليها في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٣٠ ـ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعاد: ظرف الوعد من مكان، أو زمان. وهو ـ هنا ـ الزمان، ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿ميعادٌ يومٌ﴾[1] فأبدل منه اليوم. وأما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: بعير سانية ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يمكنكم التأخّر عنه بالاستمهال، ولا التقدّم إليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنّهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون له، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجوابُ على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على سبيل الإنكار والتعنّت، وأنّهم مُرْصَدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخّراً عنه، ولا تقدماً عليه.

٣١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أبو جهل، وذووه ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما نزل قبل القرآن من كتب الله، أو: القيامة، والجنّة، والنار. يعني: أنهم جحدوا أن يكون القرآنُ من الله، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾، يردّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ في الجدال. أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسول الله ﷺ، أو: للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجب، فحذف الجواب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: للرؤوس، والمقدّمين ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله، ورسوله.

---

(١) انظر هذه القراءة في التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥/٢٥٨)، والبحر المحيط (٧/٢٨٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾

٣٢ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أُولِيَ الاسم، أي: ﴿نحن﴾ حرف الإنكار؛ لأن المرادَ إنكارُ أن يكونوا هم الصادّين لهم عن الإيمان، وإثبات أنّهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه، وأنّهم أوتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ إنّما وقعت ﴿إذ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت إذ، وإذا من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنّه قد اتّسع في الزمان مالم يتّسع في غيره، فأضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين لاختياركم، وإيثاركم الضلال على الهدى، لا لقولنا، وتسويلنا.

٣٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لم يأت بالعاطف في: ﴿قال الذين استكبروا﴾ وأُتِيَ في ﴿وقال الذين استضعفوا﴾ لأنّ الذين استضعفوا مرّ أوّلاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثمّ جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأوّل ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل مكركم بنا في الليل والنهار، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازيّ، أي: الليل والنهار مكراً بطول السلامة فيهما حتّى ظننّا أنّكم على حقٍّ ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أشباهاً. والمعنى: أنّ المستكبرين لمّا أنكروا بقولهم: ﴿أنحن صددناكم﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أنّ ذلك بكسبهم، واختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنّهم قالوا: ما كان الإجرامُ من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيّانا على الشرك، واتّخاذ الأنداد ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أضمروا، أو: أظهروا، وهو من الأضداد. وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم، وإضلالهم. والمستضعفون على ضلالهم، واتّباعهم المضلّين ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الجحيم

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في أعناقهم، فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقّوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٣٤ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبيّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعّموها، ورؤساؤها: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. هذه تسليةٌ للنبيّ ﷺ ممّا مُني به من قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنّه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلاّ قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهلُ مكّة، وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، كما قال:

٣٥ ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أرادوا: أنّهم أكرم على الله من أن يعذّبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، فظنّوا أنّهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فأبطل الله ظنهم بأنّ الرزقَ فضلٌ من الله يقسمه كيف يشاء. فربما وسَّع على العاصي، وضيّق على المطيع، وربّما عكس، وربّما وسّع عليهما، وضيّق عليهما، فلا ينقاسُ عليه أمر الثواب بقوله:

٣٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ـ قَدْرُ الرزق: تضييقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٣٧ ـ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: وما جماعة أموالكم، ولا جماعة أولادكم ﴿بالتي تقرّبكم﴾ وذلك: أن الجمع المكسّر؛ عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث. والزلفى والزلفة، كالقربى والقربة. ومحلّها النصب، أي: تقرّبكم قربة، كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء من «كُمْ» في ﴿تقرّبكم﴾ يعني: أنّ الأموال

فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

لا تقرّب أحداً إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرّب أحداً إلاّ من علّمهم الخير، وفقههم في الدين، ورسّخهم للصلاح والطاعة. وعن ابن عيسى[1]: ﴿إلاّ﴾ بمعنى لكن، و﴿مَن﴾ شرط جوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: ﴿فأولئك لهم﴾ أن يجازَوا الضعفَ، ثمّ جزاءٌ الضعفَ، ثمّ جزاءُ الضعف. ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعفَ لهم حسناتُهم الواحدة عشراً. وقرأ يعقوب: ﴿جزاءٌ الضعفُ﴾ على ﴿فأولئك لهم﴾ الضعف جزاءً ﴿بما عملوا﴾ بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غرف منازل الجنّة. (في الغرفة): حمزة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كلّ هائل، وشاغل.

٣٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطالها. ﴿مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسّع ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ «ما» شرطيّة، في موضع النصب ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيانه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يعوّضه. لا معوّض سواه إمّا عاجلاً بالمال، أو آجلاً بالثواب. جواب الشرط ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ المطعمين، لأنّ كلّ ما رزق غيره من سلطان، أو: سيّد، أو: غيرهما، فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوقُ بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني، وجعلني ممن يشتهي، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد لا يشتهي!

(١) في المطبوع: عباس.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا

٤٠ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[١] وبالياء فيهما: حفص، ويعقوب. هذا خطابٌ للملائكة، وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: إيَّاكِ أعني، واسمعي يا جارة[٢]. ونحو قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

٤١ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الموالاة: خلاف المعاداة، وهي: مفاعلة، من الولي، وهو: القرب. والوليّ يقع على الموالي والموالَى جميعاً. والمعنى: أنت الذي نواليه ﴿مِن دُونِهِم﴾ إذ لا موالاة بيننا وبينهم. فبيّنوا بإثبات موالاة الله، ومعاداة الكفّار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأنَّ مَن كان على هذه الصفة كانت حالُه منافية لذلك ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدَتْ، فيُعْبَدون بعبادتها، أو: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجنّ، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الإنس، أو: الكفّار ﴿بِهِم﴾ بالجنّ ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾.

٤٢ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأنّ الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة، ولا مضرّة لأحد؛ لأنّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو: الله، فكانت حالُها خلاف حال الدنيا التي هي دار التكليف، والنَّاس فيها مخلًّى بينهم يتضارّون، ويتنافعون. والمراد: أنه

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿نحشرهم، نقول﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٦٥).

(٢) هذا المثل في: مجمع الأمثال (١/ ٨٠). يُضْرب لمن يتكلّم بكلامٍ ويريد به شيئاً غيره.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلاّ هو. ثمّ ذكر عاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع العبادة في غير موضعها ـ معطوف على ﴿لا يملك﴾ ـ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

٤٣ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: إذا قُرِىء عليهم القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون ﴿مَا هَٰذَا﴾ أي: محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقالوا ـ والعدولُ عنه دليلٌ على إنكار عظيم، وغضب شديد ـ ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن، أو: لأمر النبوّة كلّه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: الحق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. بَتُّوه على أنّه سحر، ثمّ بتّوه على أنّه بيّن ظاهر؛ كلّ عاقل تأمّله سمّاه سحراً.

٤٤ ـ ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكّة كتباً يدرسونها، فيها برهان على صحّة الشرك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

٤٥ ـ ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وكذّب الذين تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية الرسل، كما كذّبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: وما بلغ أهلُ مكّة عشر ما أوتي الأوّلون من طول الأعمار، وقوّة الأجرام، وكثرة الأموال، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذّبين الأوّلين. فليحذروا من مثله ـ وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب ـ أي: فحين كذّبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغنِ عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وإنّما قال: ﴿فكذّبوا رسلي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وكذّب الذين من قبلهم﴾؛ لأنّه لمّا كان معنى قوله: ﴿وكذّب

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

الذين من قبلهم﴾ وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه. وهو كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمّد ﷺ.

٤٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة. وقد فسّرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُوا۟﴾ على أنّه عطف بيان لها، وقيل: هو بدل. وعلى هذين الوجهين هو في محلّ الجرّ. وقيل: هو في محلّ الرفع على تقدير: هي ﴿أن تقوموا﴾، أو: النصب على تقدير: أعني. فأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ، وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده، أو: قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب. والمعنى: إنّما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحقّ، وتخلصتم، وهي: ﴿أن تقوموا﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لوجه الله خالصاً ـ لا لحميّة، ولا عصبيّة، بل لطلب الحقّ ـ ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ وفرداً فرداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمر محمّد ﷺ، وما جاء به، أمّا الاثنان فيتفكّران، ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتّى يؤدّيهما النظر الصحيح إلى الحقّ. وكذلك الفرد يتفكّر في نفسه بعدل، ونصفة، ويعرض فكره على عقله. ومعنى تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماعَ مما يشوّش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرويّة، ويقلّ الإنصاف فيه، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلاّ نصرة المذهب. و﴿تتفكّروا﴾ معطوف على ﴿تقوموا﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون. والمعنى: ﴿ثمّ تتفكّروا﴾ فتعلموا ﴿ما بصاحبكم من جنّة﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدّام ﴿عذاب شديد﴾ وهو عذاب الآخرة. وهو كقوله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»[١].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١٠) ومسلم (٨٦٧) (٤٤و٤٥) والنسائي (٣/ ١٨٨) وابن ماجه (٤٥).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

٤٧ ـ ثمّ بيّن أنّه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري، وتبليغي الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط، تقديره: أيّ: شيء سألتكم من أجر كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ومعناه: نفي مسألة الأجر رأساً، نحو: مالي في هذا فهو لك، أي: ليس لي فيه شيء ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص. وبسكون الياء: غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أنّي لا أطلبُ الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلّا منه.

٤٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ بالوحي. والقذف: توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويُستعار لمعنى الإلقاء. ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]. ومعنى ﴿يقذف بالحقّ﴾ يلقيه، وينزله إلى أنبيائه، أو: يرمي به الباطل فيدمغه، ويزْهقه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مرفوع على البدل من الضمير في ﴿يقذف﴾، أو: على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

٤٩ ـ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام، والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زال الباطل، وهلك؛ لأنّ الإبداء والإعادة من صفات الحيّ، فعدمهما عبارة عن الهلاك. والمعنى: جاء الحق، وزهق الباطل، كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: دخل النبيّ ﷺ مكّة، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود نَبْعَةٍ[١] يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[٢].

وقيل: الباطل: الأصنام. وقيل: إبليس؛ لأنّه صاحب الباطل، أو: لأنّه هالك. كما قيل له الشيطان، من شاط: إذا هلك، أي: لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه، فالمنشىء والباعث هو الله.

---

(١) النَّبْع: شجر تتخذ منه السهام والقِسيُّ.
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٧٧) والبخاري (٢٤٧٨) ومسلم (١٧٨١).

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

٥٠ ـ ولمّا قالوا: قد ضللت بترك دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: إن ضللت فمنّي وعليّ، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فبتسديده بالوحي إليّ. وكان قياس التقابل أن يقال: ﴿وإن اهتديت﴾ فإنما أهتدي لها، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]. ولكن هما متقابلان معنىً؛ لأنّ النفس كلّ ما عليها وضارّ لها فهو بها، وبسببها؛ لأنّها الأمّارة بالسوء، ومالها ممّا ينفعها فبهداية ربّها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكلّ مكلّف. وإنّما أمر رسولَه أن يسنده إلى نفسه؛ لأنّ الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محلّه، وسداد طريقته، كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ منّي ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

٥١ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، أي: لو رأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلة ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند البعث، أو: عند الموت، أو: يوم بدر ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا مهرب، أو: فلا يفوتون الله، ولا يسبقونه ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ عطف على ﴿فزعوا﴾ أي: فزعوا، وأخذوا، فلا فوت لهم. أو: على ﴿لا فوت﴾ على معنى ﴿إذ فزعوا﴾ فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو: ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو: من صحراء بدر إلى القليب.

٥٢ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمّد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو: بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول، أي: كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم، يريد: أنّ التوبة كانت تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو: أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثّلت حالهم بحال من يريد أن يتناولَ الشيء من غلوة، كما يتناول الآخر من قِيس ذراع. ﴿التناؤش﴾ بالهمزة: أبو عمرو، وكوفيّ غير حفص. همزت الواو؛ لأنّ كلّ واو مضمومة ضمتها

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾

لازمة إن شئت أبدلتها همزة، وإن شئت لم تبدل، نحو قولك: أدْوُرٌ، وتَقَاوُمٌ، وإن شئت قلت: أدؤر، وتقاؤم. وعن ثعلب: التناؤش ـ بالهمز ـ: التناول من بُعْدٍ، وبغير همز: التناول من قرب.

٥٣ ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ من قبل العذاب، أو: في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوف على ﴿قد كفروا﴾ على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلّمون بالغيب، أو: بالشيء الغائب، يقولون: لابعث، ولاحساب، ولا جنّة، ولا نار ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق، أو: عن الحقّ، والصواب. أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ: شاعر، ساحر، كذّاب. وهذا تكلّم بالغيب، والأمر الخفيّ؛ لأنّهم لم يشاهدوا منه سحراً، ولا شعراً، ولا كذباً. وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله؛ لأنّ أبعد شيء ممّا جاء به السحر والشعر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم، وجربت الكذب. ﴿ويُقْذَفون﴾ محبوب عن أبي عمرو على البناء للمفعول، أي: تأتيهم به شياطينهم، ويلقنونهم إيّاه. وإن شئت فعلّقه بقوله: ﴿وقالوا آمنّا به﴾ على أنه مثّلهم في طلبهم تحصيل ما عطّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: ﴿آمنا﴾ في الآخرة، وذلك مطلبٌ مستبعد، بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظنّ في لحوقه، حيث يريد أن يقعَ فيه لكونه غائباً عنه بعيداً. ويجوز أن يكونَ الضميرُ في ﴿آمنّا به﴾ للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وكانوا يقولون: وما نحن بمعذّبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة، والعقاب، والثواب، ونحن أكرمُ على الله من أن يعذّبنا، قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا. فهذا كان قذفهم بالغيب. وهو غيبٌ ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دارَ الجزاء لا ينقاسُ على دار التكليف.

٥٤ ـ ﴿وَحِيلَ﴾ وحجز ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنّة، أو: من الردّ إلى الدنيا كما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا،

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

وحيل؛ كلّها للمعنى، والمراد بها: الاستقبال؛ لتحقّق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرسل، والبعث ﴿مُّرِيبٍ﴾ موقع للريبة، من أرابه؛ إذا أوقعه في الريبة. هذا ردّ على مَن زعم: أنّ الله لا يعذّب على الشكّ.

* * *

سُورَةُ فَاطِرٍ

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ
يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليماً، وتعظيماً ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدئها، ومبتدعها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري معنى الفاطر حتّى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُوْلِىٓ﴾ ذوي. اسم جمع لـ«ذو». وهو بدل من ﴿رسلاً﴾ أو: نعت له ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لـ﴿أجنحةٍ﴾، وإنّما لم تنصرف لتكرّر العدل فيها، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر، كما عدل عمر عن عامر، وعن تكريرٍ إلى غير تكريرٍ. وقيل: للعدل والوصف. والتعويل عليه. والمعنى: أنّ مِنَ الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان، أي: لكلّ واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعلّ الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: يزيد في خَلْق الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن، والخط الحسن، والملاحة في العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من: طول قامة، واعتدال صورة، وجزالة في الرأي، وذلاقة[1] في اللسان، ومحبّة في قلوب المؤمنين، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

---

(١) «الذلاقة»: الحدّة والطلاقة.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

٢ ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ نكّر الرحمة للإشاعة والإبهام. كأنّه قال: مِنْ أيّة ﴿رحمة﴾ رزق، أو: مطر، أو: صحّة، أو: غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا أحد يقدرُ على إمساكها وحبسها. واستعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألَا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ يمنع، ويحبس ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ مُطْلِقَ له ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه. وأنّث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمِّن معنى الشرط على معنى الرحمة. ثمّ ذكّره حملاً على اللفظ المرجوع إليه، إذ لا تأنيثَ فيه؛ لأنّ الأوّل فسّر بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسّر الثاني فترك على أصل التذكير. وعن معاذ مرفوعاً: «لا تزالُ يدُ الله مبسوطة على هذه الأمّة ما لم يرفقْ خيارهم بشرارهم، ويعظّمْ برّهم فاجرهم، وتعنْ قرّاؤهم أمراءهم على معصية الله. فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، القادر علىٰ الإرسال والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمةُ إرساله وإمساكه.

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟﴾ باللسان، والقلب ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي التي تقدّمت من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد؛ وإرسال الرسل لبيان السُّبُلَ دعوة إليه، وزلفة لديه؛ والزيادة في الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثمّ نبّه على رأس النعم، وهو اتّحاد المنعم، بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ برفع ﴿غير﴾ على الوصف محلاً لأنّ ﴿خالق﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: لكم. وبالجر: عليّ، وحمزة، على الوصف لفظاً ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون صفة لخالق ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة، لا محلّ لها ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فبأيّ وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/ ١٥٠).

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

٤ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ نعى به على قريش سوء تلقّيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلّى رسولَه بأنّ له في الأنبياء قبله أسوة. ولهذا نكّر ﴿رسل﴾ أي: رسل ذوو عدد كثير، وأولو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم؛ لأنّه أسلى له. وتقدير الكلام: ﴿وإن يكذّبوك﴾ فتأسّ بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأنّ الجزاء يتعقّب الشرط. ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه. فوضع: ﴿فقد كذّبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأسّ، استغناءً بالسبب عن المسبب، أي: بالتكذيب عن التأسّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلامٌ يشملُ على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذِّب والمكذَّب[1]. ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء: شاميّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب، وسهل.

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم الدنيا، ولا يذهلنّكم التّمتع بها، والتلذّذ بمنافعها عن العمل للآخرة، وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، فإنّه يمنّيكم الأمانيّ الكاذبة، ويقول: إنّ الله غنيّ عن عبادتك، وعن تعذيبك.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ظاهر العداوة. فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدَنّ منكم إلاّ ما يدلّ على معاداته في سرّكم وجهركم. ثمّ لخّص سرّ أمره، وخطأ من اتّبعه بأنّ غرضه الذي يؤمّه في دعوة شيعته هو أن يوردَهم موردَ الهلاك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فمن أجابه حين دعى فله عذاب شديد؛ لأنّه صار من حزبه،

(١) زاد في المطبوع: بما يستحقّانه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

أي: أتباعه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم.

٨ ـ ولمّا ذكر الفريقين قال لنبيّه ﷺ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ بتزيين الشيطان، كمن لم يزيّن له. فكأنّ رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾. وذكر الزّجاج أنّ المعنى: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله﴾ ذهبت نفسك عليه حسرة. فحذف الجواب لدلالة: ﴿فلا تذهب نَفْسُكَ﴾ عليه. أو: أفمن زيّن له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ عليه. ﴿فلا تُذهب نفسك﴾: يزيد، أي: لا تهلكها ﴿حسرات﴾ مفعول له، يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات. و﴿عليهم﴾ صلة ﴿تذهب﴾ كما تقول: هلك عليه حبّاً، ومات عليه حزناً. ولا يجوزُ أن يتعلّق بحسرات؛ لأنّ المصدَر لا تتقدَّمُ عليه صلته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

٩ ـ ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ ﴿الرّيح﴾ مكّيّ، وحمزة، وعليّ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد: مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وحفص. وبالتخفيف: غيرهم ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بالمطر ـ لتقدّم ذكره ضمناً ـ ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يبسها. وإنّما قيل ﴿فتثير﴾ لتحكي الحال التي تقعُ فيها إثارة الرياح السحاب، وتُسْتَحضر تلك الصورة الدالّة على القدرة الرّبانيّة. وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصيّة بحال تستغرب. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميّت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لِمَا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص، وأدلّ عليه ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ الكاف في محلّ الرفع، أي: مثل إحياء الموات، نشور

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

الأموات. قيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش تنبت منه أجسادُ الخلق.

١٠ - ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزّة كلّها مختصّة بالله؛ عزة الدنيا، وعزّة الآخرة. وكان الكافرون يتعزّزون بالأصنام، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]. والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعزّزون بالمشركين، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فبيّن أن لا عزّة إلاّ لله. والمعنى: فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿فلله العزة جميعاً﴾ موضعه، استغناءً به عنه، لدلالته عليه؛ لأنّ الشيءَ لا يُطلب إلاّ عند صاحبه، ومالكه. ونظيره قولك: مَنْ أراد النصيحة؛ فهي عند الأبرار، تريدُ: فليطلبها عندهم، إلاّ أنّك أقمت ما يدلّ عليه مقامه. وفي الحديث: «إنّ ربّكم يقول كلّ يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز»[(١)]. ثمّ عرّف أنّ ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ومعنى قوله: ﴿إليه﴾ إلى محلّ القبول والرضا، وكلّ ما اتّصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود. وإلى حيث لا ينفذ فيه إلاّ حكمه. و﴿الكلم الطيّب﴾ كلمات التوحيد، أي: لا إله إلا الله. وكان القياس: الطيبّة، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يذكّر، ويؤنّث. و﴿العمل الصالح﴾ العبادة الخالصة. يعني: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ الكلم الطيّب. فالرافع: الكلم. والمرفوع: العمل؛ لأنّه لا يقبل عمل إلاّ من موحِّد. وقيل: الرافع: الله، والمرفوع: العمل، أي: ﴿العمل الصالح يرفعه﴾ الله. وفيه إشارةٌ إلى أنّ العملَ يتوقّف على الرفع، والكلم الطيِّب يصعد بنفسه. وقيل: العمل الصالح يرفعُ العامل، ويشرّفه، أي: من أراد العزّ فليعمل عملاً صالحاً، فإنّه هو الذي يرفعُ العبد ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي صفة لمصدر محذوف، أي:

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢١).

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾

المكرات ﴿السيئات﴾ لأنّ مكر فعل غير متعدّ. لا يقال: مكر فلان عمله. والمراد مكر قريش بهﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يَبُورُ﴾ خبر، أي: ﴿ومكر أولئك﴾ الذين مكروا ﴿هو﴾ خاصّة ﴿يبور﴾ أي: يفسد، ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكّة، وقتّلهم، وأثبتهم في قليب بدر. فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقّق فيهم قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

١١ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هو في موضع الحال، أي: إلاّ معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ﴿وما يعمّر من﴾ أحد ـ وإنّما سمّاه معمّراً بما هو صائر إليه ـ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: اللوح، أو: صحيفة الإنسان ﴿ولا يَنْقُص﴾ زيد. فإن قلت: الإنسان إمّا معمّر، أي: طويل العمر، أو: منقوص العمر، أي: قصيره. فإمّا أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صحّ قوله: ﴿وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتّكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنّه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلامُ الناس. يقولون: لا يثيب الله عبداً، ولا يعاقبه إلاّ بحقّ. أو: تأويل الآية: أنّه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة، ثمّ يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم، ذهب يومان، حتّى يأتي على آخره، فذلك نقصان عمره. وعن قتادة: المعمّر: من بلغ ستين سنة. والمنقوص من عمره: من يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إحصاءه، أو: زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾

---

١٢ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ـ وقيل: هو الذي يكسر العطش ـ ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ مريء، سهل الانحدار لعذوبته، وبه يرتفع شرابه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: هو الذي يحرق بملوحته ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ ومن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقّ للماء بجريها ـ يقال: مخرت السفينة الماء، أي: شقّته. وهي جمع ماخرة ـ ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضل الله ـ ولم يجر له ذكرٌ في الآية، ولكن فيما قبلها. ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه ـ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين ـ العذب والملح ـ مثلين للمؤمن والكافر. ثمّ قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه: ويحتملُ غير طريقة الاستطراد، وهو أن يشبّه الجنسين بالبحرين، ثمّ يفضّل البحر الأجاج على الكافر، بأنّه قد شارك العذب في منافع من السمك، واللؤلؤ، وجري الفلك فيه، والكافر خلوّ من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

١٣ ـ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتّى يصير الزائدُ منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلّل أضوَءَ صورةٍ، لأسْوَأ سيرة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو: ﴿الله ربكم﴾ خبر إنّ. و﴿له الملك﴾ جملة مبتدأة

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾

واقعة في قران قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونهم من دون الله ـ ﴿يَدْعُون﴾ قتيبة ـ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهي القشرة الرقيقة الملتفّة على النواة.

١٤ ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنّهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنّهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلّهية، ويتبرّؤون منها ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم، وعبادتكم إيّاهم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا ينبّئك ـ أيها المفتون بأسباب الغرور ـ كما ينبّئك الله الخبير بخبايا الأمور. وتحقيقه: ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد: أنّ الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحقّ؛ لأني خبيرٌ بما أخبرت به.

١٥ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال ذو النون ـ رحمه الله ـ: الخلقُ محتاجون إليه في كلّ نَفَسٍ، وخطوة، ولحظة، وكيف لا؟ ووجودهم به، وبقاؤهم به ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الأشياء أجمع، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود بكلّ لسان.

ولم يسمّهم بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغنيّ الذي هو مُطْعِمُ الأغنياء. وذكر ﴿الحميد﴾ ليدلّ به على أنّه الغنيّ النافع بغناه خَلْقه، الجواد المنعم عليهم، إذ ليس كلّ غنيّ نافعاً بغناه إلاّ إذا كان الغنيُّ جواداً منعماً. فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لمّا خلق اللهُ الخلقَ حكم لنفسه بالغِنى، ولهم بالفقر، فمن ادّعى الغنى حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فَقْرُه إليه. فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسرّ إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتّى تكون عبوديّته محضة، فالعبوديّة هي: الذلّ

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا

والخضوع، وعلامته: ألاّ يسأل من أحد. وقال الواسطيّ: مَن استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزّز بالله لا يذلّ. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلّما ازداد افتقاراً ازداد غِنى. وقال يحيى ـ رحمه الله ـ: الفقرُ خيرٌ للعبد من الغِنى؛ لأنّ الذلّة في الفقر، والكبر في الغِنى. والرجوع إلى الله بالتواضع والذلّة، خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كلّ شيء، والفقر إليه في كلّ شيء، والرجوع إليه من كلّ شيء. وقال الشبلي ـ رحمه الله ـ: الفقر يجرّ البلاء، وبلاؤه كلّه عزّ.

١٦، ١٧ ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلّكم إلى العدم، فإنّ غناه [بذاته][1] لا بكم في القدم؛ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

١٨ ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى. والوزر والوقر أخوان. ووزَر الشيء: إذا حمله. والوازرة: صفة للنفس. والمعنى: أنّ كلّ نفس يوم القيامة لا تحملِ إلاّ وزرها؛ الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الوليّ بالوليّ، والجار بالجار. وإنّما قيل: ﴿وازرة﴾ ولم يقل ﴿ولا تزر﴾ نفس ﴿وزر أخرى﴾ لأنّ المعنى: أنّ النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلاّ حاملة وزرها لا وزر غيرها. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وارد في الضالّين المضلّين. وإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كلّه أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألاَ ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ثِقْلها، أي: ذنوبها ليتحمّل عنها بعض ذلك

---

(١) من المطبوع.

لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوّ ـ وهو مفهومٌ من قوله ﴿وإن تدع﴾ ـ ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة قريبة كأب، أو: ولد، أو: أخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ومعنى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾، أنّ الأوّل دالّ على عدل الله في حكمه، وألاّ يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني: في بيان أَنْ لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتّى إنّ نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفّف بعض وقرها لم تجب، ولم تُغَثْ، وإن كان المدعوّ بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، أي: يخشون ربّهم غائبين عن عذابه. أو: يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: ﴿بالغيب﴾ في السّر حيث لا اطلاع للغير عليه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في مواقيتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر بفعل الطاعات، وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾. وهو اعتراضٌ مؤكّد لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما من جملة التزكّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع. وهو وعدٌ للمتزكّين بالثواب.

١٩ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، أو: للجاهل والعالم.

٢٠ ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مثل للكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الإيمان.

٢١ ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ الحقّ والباطل، أو: الجنّة والنار. والحرور: الريح الحارّ كالسموم، إلاّ أنّ السموم تكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار؛ عن الفرّاء.

٢٢ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه. وزيادة «لا» لتأكيد معنى النّفي. والفرق بين هذه الواوات: أنّ بعضها ضمّت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممّن لا يدخل

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه، فيهدي من يشاء هدايته، وأمّا أنت فخفيّ عليك أمرهم؛ فلذلك تحرصُ على إسلام قوم مخذولين. شبّه الكفّار بالموتى؛ حيث لا ينتفعون بمسموعهم.

٢٣ ـ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عليك إلّا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المُنْذَرُ ممّن يسمعُ الإنذارَ نفع، وإن كان من المصرِّين فلا عليك.

٢٤ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محقّاً، أو: محقّين، أو: صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً ﴿بالحقّ﴾ ﴿بَشِيرًا﴾ بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالوعيد ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ وما ﴿من أمّة﴾ قبل أمّتك ـ والأمّة: الجماعة الكثيرة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣] ويقال لأهل كلّ عصر: أمّة. والمراد هنا: أهل العصر. وقد كانت آثارُ النّذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ فلم تخلُ تلك الأمم من نذير. وحين اندرست آثارُ نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد ﷺ ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخوفهم وخامة الطغيان، وسوء عاقبة الكفران. واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؛ لأنّ النذارةَ مشفوعةٌ بالبشارة، فدلّ ذِكْر النذارة على ذِكْر البشارة.

٢٥ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال، و«قد» مضمرة ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور. ولمّا كانت هذه الأشياءُ في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضُها في جميعهم، وهي: البيّنات، وبعضها في بعضهم، وهي: الزبر، والكتاب. وفيه مسلاةٌ لرسول الله ﷺ.

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنواع العقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم، وتعذيبي لهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾

٢٧ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها من: الرمّان، والتفّاح، والتين، والعنب، وغيرها ممّا لا يحصر. أو: هيئاتها من: الحمرة، والصّفرة، والخضرة، ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ طرق مختلفة اللون، جمع جُدَّةٍ، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب. وهو تأكيدٌ للأسود. يقال: أسود غربيب، وهو الذي أبعد في السواد، وأغرب فيه. ومنه: الغراب. وكان من حقّ التأكيد أن يتبع المؤكّد، كقولك: أصفر فاقع، إلاّ أنّه أضمر المؤكّد قبله. والذي بعده تفسير للمضمر. وإنّما يفعلُ ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدلّ على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً. ولا بدّ من تقدير حذف المضاف، أي: في قوله: ﴿ومن الجبال﴾ ذو جدد بيض، وحمر، وسود، حتّى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

٢٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات، والجبال. ولمّا قال: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء﴾ وعدّد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعته، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: العلماء به؛ الذين علموه بصفاته، فعظّموه. ومن ازداد١٣٦ علماً به ازداد منه خوفاً، ومَن كان علمه به أقلّ كان آمن. وفي الحديث: «أعلمُكم بالله أشدّكم له خشية»[1]. وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يُؤذِن أنّ معناه: أنّ الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم. ولو عكس لكان المعنى: أنّهم لا يخشون إلاّ الله، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية». (حاشية الكشاف ٣ / ٦١١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. وبينهما تغاير، ففي الأوّل بيان أنّ الخاشين[(١)] هم العلماء، وفي الثاني بيان أنّ المخشيّ منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة، وعمر بن عبد العزيز، وابن سيرين ـ رحمهم الله ـ: ﴿إنّما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾. والخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنّما يعظم الله من عباده العلماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية بدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم، والمعاقِب المثيب حقّه أن يُخْشَى.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: مسرّين النفل، ومعلنين الفرض. يعني: لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إنّ ﴿تِجَٰرَةً﴾ هي: طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد، يعني: تجارة ينتفي عنها الكساد، وتنفُق عند الله.

٣٠ ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلّق بـ: لن تبور، أي: ﴿ليوفّيهم﴾ بنفاقها عنده ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه. أو: يرجون في موضع الحال، أي: راجين. واللام تتعلّق بيتلون وما بعده، أي: فعلوا جميع ذلك من التلاوة، وإقامة الصلاة، والإنفاق لهذا الغرض. وخبر ﴿إنّ﴾: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: ﴿غفور﴾ لهم ﴿شكور﴾ لأعمالهم، أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

٣١ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن. و﴿من﴾ للتبيين ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة؛ لأنّ الحقّ لا ينفكّ عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

(١) في الأصل المخطوط: الخاشعين. والمثبت هو الصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾

لما تقدّمه من الكتب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فَعَلِمَكَ، وأبصر أحوالك، ورآك أهلاً لأن يُوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز؛ الذي هو عِيار على سائر الكتب.

٣٢ ـ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثمّ أورثناه من بعدك ـ أي: حكمنا بتوريثه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ وهم أمّته من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومَن بعدهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ إلى يوم القيامة؛ لأنّ الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمّة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثمّ رتّبهم على مراتب، فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. وهذا التأويل يوافق التنزيل، فإنّه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٠٦] والحديث: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»(١) وعنه ﷺ: «السابق يدخل الجنّة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثمّ يدخل الجنّة، وأمّا الظالم لنفسه فيحبس حتّى يظنّ أنّه لن ينجو، ثمّ تناله الرحمة فيدخل الجنّة»(٢). رواه أبو الدرداء.

والأثر: فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ السابق: المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر بالنعمة غير الجاحد له؛ لأنّه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

---

(١) رواه ابن مردويه كما في (الدر المنثور ٧ / ٢٥) وذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ٣٤٦) ورواه العقيلي في (الضعفاء الكبير ٣ / ٤٤٣) في ترجمة الفضل بن عميرة.

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٨) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣) وطريق الهجرتين (ص٣٦٦).

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

وقول السلف: فقد قال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن البصري: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية، فقال: كلّهم مؤمنون، وأمّا صفة الكفّار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، فإنّه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكلّ راجع إلى قوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أهلُ الإيمان، وعليه الجمهور. وإنّما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم، فإنّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم. والسابقون أقلّ من القليل. وقال ابنُ عطاء ـ رحمه الله ـ: إنّما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنّما قدّمه ليعرّفه أنّ ذنبه لا يبعده مِن ربِّه. وقيل: لأنَّ أوّلَ الأحوال معصية، ثمّ توبة، ثمّ استقامة. وقال سهل: السابق العالم، والمقتصد: المتعلّم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذي يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق: الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم مَن أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصد: من يجتهد ألاّ يأخذها إلاّ من حلال، والسابق: مَن أعرض عنها جملة. وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب العقبى، والسابق: طالب المولى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره، أو: بعلمه، أو: بتوفيقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراث الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٣٣ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر ثان لـ«ذلك»، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، والخبر: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الفرق الثلاث ﴿يُدخَلونها﴾ أبو عمرو ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: من ذهب مرصَّع باللؤلؤ. ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب والهمز: نافع، وحفص، عطفاه على محلّ ﴿من أساور﴾ أي: يحلّون أساور ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذّة، والزينة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا
دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى
كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾

٣٤ ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الطاعات وإن قلّت.

٣٥ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها، يقال: أقمت، إقامة، ومقاماً، ومقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من عطائه وإفضاله، لا باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ومشقّة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب وفترة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿لَغوب﴾ بفتح اللام، وهو شيء يلغب منه، أي: لا نتكلّف عملاً يُلْغبنا.

٣٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ جواب النفي، ونصبه بإضمار أن، أي: ﴿لا يُقْضَى عليهم﴾ بموت ثان فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنّم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿يُجزى كلُّ﴾: أبو عمرو.

٣٧ ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون، فهو يفتعلون من الصراخ، وهو: الصياح بجهد وشدّة. واستعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صَوْتَه ﴿رَبَّنَآ﴾ يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: أخرجنا من النار، وردّنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر، ونطع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة، أي: تعميراً ﴿يتذكر فيه من تذكر﴾. وهو متناول لكلّ عمر تمكّن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلاّ أنّ التوبيخ في المتطاول أعظم. ثمّ قيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: أربعون، وقيل: ستّون ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾

فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

الرسول ﷺ، أو: المشيب. وهو عطف على معنى ﴿أولم نعمركم﴾ لأنّ لفظه استخبار، ومعناه: إخبار، كأنّه قيل: قد عمّرناكم ﴿وجاءكم النذير﴾ ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ناصر يعينهم.

٣٨ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنّه إذا علم ما في الصدور ـ وهو أخفى ما يكون ـ فقد علم كلّ غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها. وهي تأنيث ذو، في نحو قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «ذو بطنِ خارجةَ جاريةٌ»[1] أي: مافي بطنها من الحبَل لأنّ الحبَل يصحب البطن. وكذا المضمرات تصحب الصدور. و«ذو» موضوع لمعنى الصحبة.

٣٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلَف: خليفة، ويُجمع على: خلائف. والمعنى: أنّه جعلكم خلفاء في أرضه، قد ملّككم مقاليد التصرّف فيها، وسلّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فوبالُ كفره راجعٌ عليه. وهو مقتُ الله، وخسار الآخرة، كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، وهو أشدّ البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾: هلاكاً، وخسراناً.

٤٠ ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أرأيتم﴾ لأنّ معنى ﴿أرأيتم﴾: أخبروني، كأنّه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء، وعمّا استحقّوا به الشركة،

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٧٥٢).

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أروني﴾ أيّ جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَاتِ﴾ أم لهم مع الله شركة في خَلْق السموات ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: معهم كتاب من عند الله ينطقُ بأنهم شركاؤه، فهم على حجّة وبرهان من ذلك الكتاب. ﴿بيّنات﴾: عليّ، وابن عامر، ونافع، وأبو بكر ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ ما يَعِدُ ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم﴾ ـ بدل من ﴿الظالمون﴾ وهم الرؤساء ـ ﴿بَعْضًا﴾ أي: الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ هو قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

٤١ ـ ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ يمنعهما من أن تزولا؛ لأنّ الإمساك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. و﴿من﴾ الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً لعظم كلمة الشرك، كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

٤٢ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصب على المصدر، أي: إقساماً بليغاً، أو: على الحال، أي: جاهدين في أيمانهم. ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ بلغ قريشاً قبل مبعث النبيّ ﷺ أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول ﴿لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: من الأمّة التي يقال فيها: هي إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى، والاستقامة، كما يقال للداهية العظيمة: هي إحدى الدواهي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلمّا بعث رسول الله ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلاّ تباعداً عن الحقّ ـ وهو إسنادٌ مجازيّ ـ.

ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا

٤٣ ـ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مفعول له. وكذا ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾. والمعنى: و﴿ما زادهم إلاّ نفوراً﴾ للاستكبار ﴿ومكر السيىء﴾. أو: حال، يعني: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ. وأصل قوله: ﴿ومكر السيىء﴾ وأن مكروا السيىء، أي: المكر السيىء، ثمّ ومكراً السيىء، ثم ومكر السيىء. والدليل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر. وفي المثل: «من حفر لأخيه جبّاً، وقع فيه مُنْكباً»[1] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذّبوا برسلهم من الأمم قبلهم. والمعنى: ﴿فهل ينظرون﴾ بعد تكذيبك إلاّ أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذّبي الرسل. جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بيّن أن سنّته التي هي الانتقام من مكذّبي الرسل سنّة لا يبدّلها في ذاتها، ولا يحوّلها عن أوقاتها، وأنّ ذلك مفعول لا محالة.

٤٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام، واليمن، والعراق من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم، ودمارهم ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتداراً، فلم يتمكّنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أيّ شيء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادراً عليهم.

٤٥ ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض؛ لأنّه جرى ذكر الأرض في قوله:

(١) ذكره الزمخشري في: «المستقصى في أمثال العرب» رقم (١٣٠٢).

مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمةٍ تدبُّ عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي: لم تخف عليه حقيقةُ أمرهم، وحكمة حكمهم.

* * *

سُورَةُ يسٓ

ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿يسٓ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: يا إنسان في لغة طيّىء. وعن ابن الحنفيّة: يا محمّد. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى سمّاني في القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزّمّل، والمدّثّر، وعبد الله»[1]. وقيل: يا سيّد ﴿يس﴾ بالإمالة: عليّ، وحمزة، وخلف، وحمّاد، ويحيى.

٢ ـ ﴿وَالْقُرْءَانِ﴾ قسم ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو: لأنّه دليل ناطق بالحكمة، أو: لأنّه كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلّم به.

٣ ـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم. وهو ردّ على الكفّار حين قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

٤ ـ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو: صلة للمرسلين، أي: الذين أرسلوا ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: طريقة مستقيمة، وهو: الإسلام.

(١) رواه بنحوه ابن عدي وابن عساكر. (كنز العمال ٣٢١٦٩).

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾

٥ ـ ﴿تَنزِيلَ﴾ بنصب اللام: شاميّ، وكوفيّ غير أبي بكر، على: اقرأ ﴿تنزيل﴾ أو: على أنه مصدر، أي: نزّل ﴿تنزيل﴾. وغيرهم بالرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿تنزيل﴾. والمصدر بمعنى المفعول ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد.

٦ ـ واللام في: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متّصل بمعنى ﴿المرسلين﴾ أي: أرسلت ﴿لتنذر قوماً﴾ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ﴿ما﴾ نافية عند الجمهور، أي: ﴿قوماً﴾ غير منذر آباؤهم على الوصف، بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]. أو: موصولة منصوبة على المفعول الثاني، أي: العذاب الذي أُنْذِرَه آباءهم، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] أو: مصدريّة، أي: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، أي: مثل إنذار آبائهم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إن جعلت ﴿ما﴾ نافية، فهو متعلّق بالنفي، أي: لم ينذروا ﴿فهم غافلون﴾. وإلاّ فهو متعلّق بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين.. لتنذر﴾ كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنّه غافل، أو: فهو غافل.

٧ ـ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] أي: تعلّق بهم هذا القول، وثبت عليهم، ووجب؛ لأنّهم ممّن علم أنّهم يموتون على الكفر.

٨ ـ ثم مثّل تصميمهم على الكفر، وأنّه لا سبيل إلى ارعوائهم؛ بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنّهم لا يلتفتون إلى الحقّ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدّين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، في ألاّ تأمّل لهم، ولا تبصّر، وأنّهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان، ملزوزة إليها ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ مرفوعة رؤوسهم، يقال: قمح

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟

البعير فهو قامح؛ إذا روي فرفع رأسه، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذي في عُنُق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن، حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يخلّيه يطأطىء رأسه، فلا يزال مقحماً.

٩ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بفتح السين: حمزة، وعليّ، وحفص. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وماكان من خلق الله كالجبل، ونحوه، فبالضمّ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم، اي: غطّيناها، وجعلنا عليها غشاوة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحقّ، والرشاد.

وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أنّ أبا جهل حلف: لئن رأى محمّداً يصلّي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلّي، ومعه حجر ليدمغه به، فلمّا رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجرُ بيده، حتّى فكّوه عنها بجَهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزوميّ آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره.

١٠ ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: سواء عليه الإنذار وتركه، والمعنى: من أضلّه الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار. رُوي: أنّ عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدريّ، فقال: كأني لم أقرأها، أشهدك أنّي تائب عن قولي في القدر. فقال عمر: اللّهم إن صدق فتبْ عليه، وإن كذب فسلّط عليه مَن لا يرحمه. فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق.

١١ ـ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنّما ينتفع بإنذارك من اتّبع القرآن ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وخاف عقاب الله، ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ وهي العفو عن ذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنّة.

١٢ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات، وغيرها

﴿وَءَاثَـٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾

﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ ما هلكوا عنه من أثر حسن: كعلم علّموه، أو: كتاب صنّفوه، أو: حبيس، أو: رباط، أو: مسجد صنعوه، أو سيّىء: كوظيفة وظّفها بعض الظلمة، وكذلك كلّ سنّة حسنة، أو: سيّئة يستنّ بها، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلۡإِنسَـٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدّم من أعماله، وأخّر من آثاره. وقيل: هي خطاهم إلى الجمعة، أو: إلى الجماعة ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَـٰهُ﴾ عددناه، وبيّنّاه ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ يعني: اللوح المحفوظ؛ لأنّه أصلُ الكتب، ومقتداها.

١٣ ـ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ ومثّل لهم. من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثل، و: هذه الأشياء على ضرب واحد، أي: على مثال واحد. والمعنى: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ مثل أصحاب القرية، أي: أنطاكية، أي: اذكر لهم قصّة عجيبة، قصّة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب ﴿إِذۡ﴾ بدل من أصحاب القرية ﴿جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ رسل عيسى ـ عليه السلام ـ، بعثهم دعاةً إلى الحقّ، وكانوا عبدة أوثان.

١٤ ـ ﴿إِذۡ﴾ بدل من ﴿إذ﴾ الأولى. ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ أي: أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ بأمرنا ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ صادقاً وصدوقاً، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النّجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ابنٌ مريض من سنين، فمسحاه، فقام، وآمن حبيب. وفشا الخبر، فَشُفِي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال لهما: ألنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ قالا: نعم. مَن أوجدك وآلهتك. فقال: حتّى أنظر في أمركما. فتبعهما الناسُ، وضربوهما. وقيل: حبسا. ثمّ بعث عيسى ـ عليه السلام ـ شمعون، فدخل متنكّراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنّك حبستَ رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا. فدعاهما.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

فقال شمعون: مَن أرسلكما؟ قالا: الله الذي خَلَق كلّ شيء، ورزق كلّ حيّ، وليس له شريك. فقال: صِفاه وأوجزاه. قالا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك. فدعا بغلام أكمه، فدعوا الله، فأبصر الغلام. فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال الملك: ليس لي عنك سرّ، إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضرّ، ولا ينفع. ثمّ قال: إنْ قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنا به. فدعوا بغلام مات من سبعة أيّام، فقام، وقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لما متّ عليه من الشرك، وأنا أحذّركم ما أنتم فيه! فآمنوا. وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومن هم؟ قال: شمعون وهذان؟ فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أنّ قوله قد أثّر فيه نصحه فآمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذّب أصحابُ القرية الرسولين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فقوّيناهما ـ ﴿فعزَزنا﴾: أبو بكر، من: عزّه يعزّه؛ إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ـ ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون. وترك ذكر المفعول به، لأنّ المراد ذكر المعزّز به و[هو][1] شمعون، وما لطف فيه من التدبير حتّى عزّ الحق، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلامُ منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له، وتوجّهه إليه كأنّ ما سواه مرفوض ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قال الثلاثةُ لأهل القرية.

١٥ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحاب القرية ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ رفع ﴿بشر﴾ هنا، ونصب في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لانتقاض النفي بإلاّ، فلم يبق لـ«ما» شبه بليس وهو الموجب بعمله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: وحياً ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ما أنتم إلاّ كذبة.

١٦ ـ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أكّد الثاني باللام دون الأوّل؛ لأنّ الأوّل ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿ربّنا

(١) من المطبوع.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾

يعلم﴾ جارٍ مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله.

١٧ ـ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآية الشاهدة لصحته.

١٨ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكلّ شيء مالوا إليه، وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنّكم، أو لنطردنّكم، أو: لنشتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وليصيبنّكم عذاب الحريق، وهو أشدّ عذاب.

١٩ ـ ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ وهو: الكفر ﴿أَئِن﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط: كوفيّ، وشاميّ ﴿ذُكِّرْتُم﴾ وعظتم، ودعيتم إلى الإسلام، وجواب الشرط مضمر. وتقديره: تطيّرتم. ﴿آين﴾ بهمزة ممدودة، بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو. و﴿أين﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكيّ، ونافع ﴿ذكرتم﴾ بالتخفيف: يزيد ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العصيان. فمن ثمّ أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله، وتذكيرهم. أو: بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيّكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرّك به من رسل الله.

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب النجّار، وكان في غارٍ من الجبل يعبد الله، فلمّا بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه، فقال: أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: الرسل. فقالوا: أَوَ أنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مرجعكم.

﴿ومالِي﴾: حمزة.

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا
صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

٢٣ ـ ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ بهمزتين: كوفيّ ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ شرط جوابه ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من مكروه. ﴿ولا ينقذوني﴾ ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥] في الحالين: يعقوب.

٢٤ ـ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا اتّخذت. ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيِّن.

٢٥ ـ ولمّا نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به. ولمّا قتل:

٢٦، ٢٧ ـ ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وقبره في سوق أنطاكية. ولم يقل: قيل له؛ لأنّ الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً. وفيه دلالةٌ أنّ الجنّة مخلوقة. وقال الحسن: لمّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه، وهو في الجنّة، ولا يموت إلاّ بفناء السموات والأرض! فلمّا دخل الجنّة، ورأى نعيمها: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بمغفرة ربّي لي، أو: بالذي غفر لي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ بالجنّة.

٢٨ ـ ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ «ما»: نافية ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتله، أو: رفعه ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لتعذيبهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما كان يصحّ في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاكَ كلّ قومٍ على بعض الوجوه دون بعض لحكمةٍ اقتضت ذلك.

٢٩ ـ ﴿إِن كَانَتۡ﴾ الأخذة، أو: العقوبة ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاح جبريل ـ عليه السلام ـ صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ ميّتون، كما تخمد النار.

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا

والمعنى: أنّ الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر، والخندق.

٣٠ ـ ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الحسرة: شدّة الندم. وهذا نداء للحسرة عليهم، كأنّما قيل لها: تعالي يا حسرة، فهذه من أحوالك التي حقّك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسل. والمعنى: أنّهم أحقّاء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون ويتلهّف على حالهم المتلهّفون. أو هم مُتَحَسَّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

٣١ ـ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ «كم» نصب بأهلكنا، و﴿يروا﴾ معلّق عن العمل في ﴿كم﴾ لأنّ ﴿كم﴾ لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام، أو: للخبر؛ لأنّ أصلها الاستفهام، إلاّ أنّ معناه نافذ في الجملة. وقوله: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كم أهلكنا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ﴿ألم يروا﴾ كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم أنهم غير راجعين إليهم.

٣٢ ـ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ «لمّا» بالتشديد: شاميّ، وعاصم، وحمزة، بمعنى إلاّ، ﴿وإن﴾ نافية. وغيرهم بالتخفيف، على أنّ ﴿ما﴾ صلة للتأكيد ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة. وهي متلقّاة باللام لا محالة. والتنوين في ﴿كلّ﴾ عوض من المضاف إليه. والمعنى: إنّ كلّهم محشورون، مجموعون، محضرون للحساب، أو: معذَّبون، وإنّما أخبر عن كلّ بجميع لأنّ «كلاًّ» يفيد الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، يعني: أنّ المحشر يجمعهم.

٣٣ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: وعلامة تدلُّ على أنَّ اللهَ يبعثُ الموتى إحياء الأرض الميتة، ويجوز أن يرتفع ﴿آية﴾ بالابتداء، و﴿لهم﴾ صفتها، وخبرها ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ اليابسة. وبالتشديد: مدنيّ ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ بالمطر. وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك ﴿نسلخ﴾. ويجوز أن تُوصف

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿الأرض﴾ و﴿الليل﴾ بالفعل؛ لأنّه أُريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات في وصفها بالأفعال، ونحوه:

ولقـد أَمُـرُّ على اللئيـمِ يَسُبُّنـي[1] ... ...

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريد به الجنس ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدّم الظرف ليدلّ على أنّ الحبّ هو الشيء الذي يتعلّق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان. وإذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء.

٣٤ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ زائدة عند الأخفش. وعند غيره: المفعول محذوف، تقديره: ما ينتفعون به.

٣٥ـ ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الضمير لله تعالى، أي: ﴿ليأكلوا﴾ ممّا خلقه الله من الثمر ﴿من ثُمُره﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وممّا عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك من الأعمال، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثارٌ من كدّ بني آدم. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿وجعلنا﴾. ﴿وفجّرنا﴾ فنقل الكلام من التكلّم إلى الغيبة على طريق الالتفات. ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى النخيل، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنّه علم أنّها في حكم النخيل ممّا علّق به من أكل ثمره. ويجوز أن يُرادَ من ثمر المذكور، وهو الجنّات، كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبُلَق ... كـأنـه في الجِلْـدِ تَـوْلِيـعُ البَهَـق

فقيل له، فقال: أردت كأنّ ذلك. (وما عَمِلتْ) كوفيّ غير حفص. وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين، والبصرة، والشام، مع الضمير. وقيل: ﴿ما﴾ نافية، على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاء، وحثّ على شُكْر النِّعمة.

(١) صدر بيتٍ لرجل من بني سلول، وعجزه: فمضيتُ ثمة قلتُ: لا يعنيني.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

٣٦ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النخل، والشجر، والزرع، والثمر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصَّلوا إلى معرفتها، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

٣٧ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، أو: ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض، فيعرى نفس الزمان كشخص زنجيّ أسود؛ لأنّ أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة، فاكتسى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

٣٨ ـ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ وآية لهم الشمس تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدّ لها مؤقّت مقدّر، تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبّه بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره. أو: لحدّ لها من مسيرها كلّ يوم في مرائي عيوننا، وهو المغرب. أو: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير، والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كلّ مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكلّ معلوم.

٣٩ ـ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ نصب بفعل يفسِّره ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. وبالرفع: مكّيّ، ونافع، وأبو عمرو، وسهل، على الابتداء، والخبر: ﴿قدّرناه﴾ أو على: وآية لهم القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمرُ كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو يسيرُ فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، ثمّ يستسرُّ ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بدّ في ﴿قدّرناه منازل﴾ من تقدير مضاف؛ لأنّه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، أي: قدّرنا نوره يزيد وينقص، أو: قدّرنا مسيره ﴿منازل﴾ فيكون ظرفاً. فإذا كان في آخر منازله دق، واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ ـ هو عودُ الشّمراخ إذا يبس

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

واعوج. ووزنه فعلون، من الانعراج، وهو: الانعطاف ـ ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق المُحْوِل، وإذا قدم دقّ، وانحنى، واصفرّ. فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه.

٤٠ ـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: لا يتسهّل لها، ولا يصحُّ، ولا يستقيم ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقتٍ واحد، وتداخله في سلطانه فتطمس نوره؛ لأنّ لكلٍّ واحد من النيّرين سلطاناً على حياله. فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ولا يسبق الليل النهار، أي: آيَةَ الليل آيَةَ النهار، وهما النيّران، ولا يزال الأمرُ على هذا الترتيب إلى أن تقومَ القيامةُ، فيجمع الله بين الشمس والقمر، وتطلع الشمس من مغربها ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوضٌ من المضاف إليه، أي: وكلّهم. والضمير للشموس والأقمار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون.

٤١ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (ذُرّياتهم): مدنيّ، وشاميّ. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء. والمراد بالذرّيّة: الأولاد، ومن يهمّهم حمله. وكانوا يبعثونهم إلى التجارات براً أو بحراً. أو: الآباء لأنّها من الأضداد. والفلك على هذا: سفينة نوح ـ عليه السلام ـ . وقيل: معنى حمل الله ذريّاتهم فيها: أنّه حمل آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذريّاتهم. وإنّما ذكر ذريّاتهم دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم.

٤٢ ـ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل. وهي سفائن البرّ.

٤٣ ـ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث، أو: فلا إغاثة ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ لا يُنْجَوْن.

٤٤ ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولا ينقذون إلا لرحمة منّا، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما منصوبان على المفعول له.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

---

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخّر مما أنتم تعملونه من بعد، أو: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذّبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب ﴿إذا﴾ مضمر، أي: أعرضوا. وجاز حذفه لأن قوله:

٤٦ ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدلّ عليه. و﴿من﴾ الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبعيض، أي: ودأبهم الإعراض عند كل آية، وموعظة.

٤٧ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لمشركي مكّة ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بمكّة زنادقة، فإذا أُمِروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله، ونطعمه نحن؟! ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو: حكاية قول المؤمنين لهم، أو: هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

٤٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعد البعث، والقيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون. خطاب للنبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

٤٩ ـ ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، من: خصمه: إذا غلبه في الخصومة. وشدّد الباقون الصاد، أي: يخصّمون بإدغام التاء في الصاد، لكنه مع فتح الخاء مكّي بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء: مدنيّ، وبكسر الياء والخاء: يحيي، فأتبع الياء الخاء في الكسر، وبفتح الياء وكسر الخاء غيرهم. والمعنى: تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ
ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ
ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

٥٠ ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصَّيحة.

٥١ ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية. والصور: القرن، أو: جمع صورة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يَعْدُون.

٥٢ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الكفار ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ من أنشرنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ مضجعنا. وقف لازم: عن حفص. وعن مجاهد: للكفّار هجعة يجدون فيها طعم النوم. فإذا صيح بأهل القبور قالوا: ﴿من بعثنا؟﴾ ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كلام الملائكة، أو: المتّقين، أو: الكافرين يتذكّرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم، أو: بعضهم بعضاً. أو ﴿ما﴾ مصدريّة. ومعناه: هذا وَعْدُ الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدْق. أو: موصولة، وتقديره: هذا الذي وعده الرحمن، والذي صدقه المرسلون، أي: والذي صدق فيه المرسلون.

٥٣ ـ ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

٥٤ ـ ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٥ ـ ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ بضمتين: كوفيّ، وشاميّ، وبضمة وسكون: مكيّ، ونافع، وأبو عمرو. والمعنى: في أيّ شغل، وفي شغل لا يوصف، وهو: افتضاض الأبكار، على شطّ الأنهار، تحت الأشجار، أو: ضرب الأوتار، أو: ضيافة الجبّار ﴿فَـٰكِهُونَ﴾ خبر ثان ﴿فكهون﴾: يزيد.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا

والفاكه والفكه: المتنعم المتلذّذ. ومنه الفكاهة؛ لأنه مّما يتلذّذ به. وكذلك الفكاهة.

٥٦ ـ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف عليه ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ حال، جمع ظلّ، وهو الموضع الذي لا تقعُ عليه الشمس. كذئب وذئاب. أو: جمع ظُلّة، كبرمة وبرام، دليله قراءة: حمزة، وعليّ. ﴿ظُلَل﴾ جمع ظُلّة، وهي: ما سترك عن الشمس ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير في الحَجَلة، أو: الفراش فيها ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر، أو: ﴿في ظلال﴾ خبر، و﴿على الأرائك﴾ مستأنف.

٥٧ ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يفتعلون، من: الدعاء، أي: كلّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم، أو: يتمنّون، من قولهم: ادَّع عليّ ما شئت، أي: تمنّه علَيّ. الفراء: هو من الدعوى، ولا يدّعون: ما لا يستحقون.

٥٨ ـ ﴿سَلَامٌ﴾ بدل من: ﴿مَا يدّعون﴾. كأنّه قال لهم: سلام، يقال ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. والمعنى: أنّ الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة، أو: بغير واسطة تعظيماً لهم، وذلك متمنّاهم، ولهم ذلك لا يُمْنَعونه. قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: والملائكة يدخلون عليهم بالتحيّة من ربِّ العالمين.

٥٩ ـ ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة. وذلك حين يحشر المؤمنون، ويُسار بهم إلى الجنّة. وعن الضحاك: لكلّ كافرٍ بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يَرى، ولا يُرى أبداً. ويقول لهم يوم القيامة:

٦٠ ـ ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ العهد: الوصيّة. وعهِد إليه: إذا وصّاه. وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلّة العقل، وأنزل عليهم من دلائل السّمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويُزيّنه لهم.

٦١ ـ ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحّدوني، وأطيعوني ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما عهد

﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَـٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَآءُ
لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾

إليهم من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: صراط بليغ في استقامته، ولا صراط أقوم منه.

٦٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد: مكيٌّ، وعاصم، وسهل ﴿جُبُلًّا﴾ بضم الجيم والباء والتشديد: يعقوب ﴿جُبْلًا﴾ مخففاً: شاميّ، وأبو عمرو ﴿جُبُلًا﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام: غيرهم. وهذه لغات في معنى الخلق ﴿كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل.

٦٣ ـ ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها.

٦٤ ـ ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها بكفركم، وإنكاركم لها.

٦٥ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم من الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يُروى: أنهم يجحدون، ويخاصمون. فيشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم، وتكلّم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إنّي لا أجيزُ عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنّ كنت أناضل»[(١)].

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم، وأذهبنا أبصارهم. والطمس: تعفية شقّ العين حتّى تعود ممسوحة ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ على حذف الجارّ، وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٦٥٣).
«أناضل»: أجادل.

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ

فكيف ﴿يبصرون﴾ حينئذ، وقد طمسنا أعينهم؟!

٦٧ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قردة، وخنازير، أو: حجارة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (على مكاناتهم): أبو بكر، وحمّاد. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام، أي: ﴿لمسخناهم﴾ في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء، أو: ﴿مُضِيًّا﴾ أمامهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ خلفهم.

٦٨ ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾: عاصم، وحمزة. والتنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. الباقون ﴿نَنْكُسْه في الخلق﴾ أي: نقلبه فيه، يعني: من أطلنا عمره نكَسنا خلقه، فصار بدل القوّة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وذلك أنّا خلقناه على ضعفٍ في جسده، وخلق من عقل وعلم، ثمّ جعلناه يتزايدُ إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوّته، ويعقل، ويعلم ماله وما عليه، فإذا انتهى نكّسناه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ فجعلناه يتناقصُ حتّى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده، وقلّة عقله، وخلوّه من العلم، كما ينكّس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ مَن قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوّة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلّة التمييز، قادرٌ على أن يطمسَ على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت. وبالتاء: مدنيّ، ويعقوب، وسهل.

٦٩ ـ وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، فنزل ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾. أي: وما علّمنا النبيّ عليه الصلاة والسلام قول الشعراء. أو: ﴿وما علّمناه﴾ بتعليم القرآن ﴿الشعر﴾ على معنى: أنّ القرآن ليس بشعر، فهو كلامٌ موزونٌ مقفّى، يدلّ على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥ﴾ وما يصحّ له، ولا يليق بحاله، ولا يتطلّب لو طلبه،

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له، ولم يتسهّل، كما جعلناه أمّيّاً لا يتهدّى للخطّ لتكون الحجّة أثبت، والشبهة أدحض. وأمّا قوله:

أنــــا النبـــيُّ لا كَــــذِبْ أنــــا ابـــنُ عبـــدِ المطَّلـــبْ

وقوله:

هــل أنــتِ إلا أصبــعٌ دَميــتِ وفي سبيـــل اللهِ مـــا لَقِيـــتِ

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السَّليقة، من غير صنعة فيه، ولا تكلّف، إلا أنّه اتّفق من غير قصد إلى ذلك، ولا التفات منه أن جاء موزوناً، كما يتّفق في خطب الناس، ورسائلهم، ومحاورتهم أشياء موزونة، ولا يُسمّيها أحد شعراً؛ لأنّ صاحبه لم يقصد الوزن. ولا بدّ منه. على أنّه عليه الصلاة والسلام قال: لقيت بالسكون، وفتح الباء في: كذب، وخفض الباء في: المطلب. ولمّا نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: المعلّم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هو إلاّ ذكر من الله يوعظ به الإنس والجنّ، وما هو إلا قرآن كتاب سماويّ يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبّدات، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!

٧٠ ـ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن، أو: الرسول. ﴿لتنذر﴾: مدنيّ، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً، متأمّلاً؛ لأنَّ الغافل كالميّت، أو: حيّاً بالقلب ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يتأمّلون، وهم في حكم الأموات.

٧١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: ممّا تولّينا نحن إحداثه، ولم يقدر على تولّيه غيرنا ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملّكناها إيّاهم، فهم متصرّفون فيها تصرّف الملاّك، مختصّون بالانتفاع بها، أو: فهم لها ضابطون، قاهرون.

وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

٧٢ـ ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ وصيّرناها منقادة لهم، وإلاّ فمن كان يقدر عليها لولا تذليله تعالى، وتسخيره لها؛ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبّح بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وهو ما يركب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: سخّرناها لهم ليركبوا ظهرها، ويأكلوا لحمها.

٧٣ـ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الجلود، والأوبار، وغير ذلك ﴿وَمَشَـٰرِبُ﴾ من اللبن، وهو: جمع مشرب، وهو: موضع الشُّربِ، أو: الشِّربُ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعام الأنعام؟!

٧٤ـ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لعلّ أصنامهم تنصرهم إذا حزبهم أَمْرٌ.

٧٥ـ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتهم. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ نصر عابديهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفّار للأصنام أعوان وشيعة يخدمونهم، ويذبّون عنهم. أو: اتّخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهّموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنّهم يجعلون وقوداً للنار.

٧٦ـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء، وكسر الزاي: نافع، من: حزنه، وأحزنه، يعني: فلا يُهِمنَّك تكذيبهم، وأذاهم، وجفاؤهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنّا مجازوهم عليه. فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتّى ينقشع عنه الهمّ، ولا يرهقه الحزن. ومَن زعم أنّ مَن قرأ ﴿أنّا نعلم﴾ بالفتح فسدت صلاته، وإن اعتقد معناه كفر، فقد أخطأ؛ لأنّه يمكن حمله على حذف لام التعليل، وهو كثيرٌ في القرآن، والشعر، وفي كلّ كلام. وعليه تلبيةُ رسول الله ﷺ: «أنّ الحمد

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

والنعمة لك»[١]. كسر أبو حنيفة، وفتح الشافعيّ ـ رحمة الله عليهما ـ وكلاهما تعليل. فإن قلت: إن كان المفتوح بدلاً من ﴿قولهم﴾ كأنّه قيل: ﴿فلا يحزنك﴾ أنّا نعلم ما يسرُّون وما يعلنون، ففساده ظاهر. قلت: هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، فقد تبيَّن أنَّ تعلُّق الحزن بكون الله عالماً، وعدم تعلّقه، لا يدوران على كسر إنّ وفتحها، وإنّما يدوران على تقديرك، فيفضّل إن فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل، ولا تقدر معنى البدل، كما أنّك تفضّل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدر معنى المفعوليّة. ثمّ إن قدّرته كاسراً، أو فاتحاً على ما عظّم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلاّ نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على علمه تعالى بسرّهم وعلانيتهم، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك، كما في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

٧٧ـ ونزل في أبيّ بن خلف حين أخذ عظماً بالياً، وجعل يفتّه بيده، ويقول: يا محمد! أترى الله يحيي هذا بعد ما رمَّ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنّم»[٢] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مذرة، خارجة من الإحليل؛ الذي هو قناة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الخصومة، أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوّله، يتصدّى لمخاصمة ربّه، وينكر قدرته على إحياء الميّت بعد ما رمّت عظامه، ثمّ يكون خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات. وهو غاية المكابرة.

٧٨ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتّه العظم ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ من المنيّ، فهو أغرب من إحياء العظم. المصدر مضاف إلى المفعول، أي: خلقنا إيّاه ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ هو اسمٌ لما بلي من العظام، غير صفة، كالرُّمّة والرفات،

(١) رواه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤).
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٢٤٦).

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾

فلهذا لم يؤنّث، وقد وقع خبراً لمؤنّث. ومن يثبت الحياة في العظام، ويقول: إنّ عظام الميّت نجسة؛ لأنّ الموت يؤثّر فيها من قبَل أنّ الحياة تحلّها، يتشبّث بهذه الآية. وهي عندنا طاهرة، وكذا الشعر، والعصب؛ لأنّ الحياة لا تحلّها، فلا يؤثّر فيها الموت. والمراد بإحياء العظام في الآية: ردّها إلى ما كانت عليه غضّة رطبة في بدن حيّ حسّاس.

٧٩ ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتداء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه أجزاؤه وإن تفرّقت في البرّ والبحر، فيجمعه، ويعيده كما كان.

٨٠ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقدحون. ثمّ ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادّة النار الماء، وانطفائها به، وهي الزناد التي تُوري بها الأعراب، وأكثرها من المَرْخ والعَفار. وفي أمثالهم: «في كلّ شجر نار، واستمجد المرخُ والعفار»[1] يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ ـ وهو ذكر ـ على العفار ـ وهي أنثى ـ فتنقدح النار بإذن الله. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس من شجرة إلاّ وفيها النار إلاّ العنّاب؛ لمصلحة الدقّ للثياب. فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر، قدر على المعاقبة بين الموت والحيَاة في البشر. وإجراء أحد الضدّين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب. و: «الأخضر» على اللفظ، وقرىء: «الخضراء» على المعنى. ثمّ بيّن أنّ مَن قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خَلْق الأناسيّ أقدر بقوله:

٨١ ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصِّغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدهم؛ لأنّ المعاد مثل للمبتدأ،

(١) انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص٢٠٢).

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾

وليس به ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قل: ﴿بلى﴾ هو قادرٌ على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات.

٨٢ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾ شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أن يكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة، فالحاصل: أن المكوّنات بتخليقه وتكوينه، ولكن عبّر عن إيجاده بقوله: ﴿كن﴾ من غير أن كان منه كاف ونون، وإنّما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنّه يقول كما لا يثقل قول ﴿كن﴾ عليكم، فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق، وإعادتهم ﴿فيكونَ﴾: شاميّ وعليّ، عطف على ﴿يقول﴾. وأما الرفع فلأنّها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأنّ تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي: ﴿أمره أن يقول له كن﴾.

٨٣ ـ ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: ملك كلّ شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة، يعني: هو مالك كلّ شيء ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت ﴿تَرْجِعُون﴾ يعقوب.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكلّ شيء قلباً، وإنّ قلب القرآن يس. من قرأ يس يريدُ بها وجه الله غفر الله له، وأعطي من الأجر كأنّما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرّة»(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له»(٢).
وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله، وإن كان ظمآن أرواه الله، وإن كان عُرْياناً ألبسه الله، وإن كان خائفاً أمّنه الله، وإن كان مستوحشاً آنسه الله، وإن كان فقيراً أغناه الله، وإن كان في السجن أخرجه الله، وإن كان أسيراً خلّصه الله، وإن كان ضالاً هداه الله، وإن كان مديوناً قضى الله دينه من خزائنه».
وتُدعى: الدافعة، والقاضية تدفع عنه كلّ سوء، وتقضي له كلّ حاجة.

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٧).
(٢) رواه الدارمي عن عطاء بن أبي رباح بلاغاً. (الدر المنثور ٧ / ٣٨).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

ترتيبها ٣٧ — آياتها ١٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾

١ ـ ٣ ـ ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة، أو: بنفوسهم الصافّات أقدامها في الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقاً، وعن المعاصي بالإلهام، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وهو قولُ ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ أو: بنفوس العلماء العمّال ﴿الصافّات﴾ أقدامها في التهجّد، وسائر الصلوات: ﴿فالزاجرات﴾ بالمواعظ والنصائح ﴿فالتاليات﴾ آيات الله، والدارسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصفّ الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك. و﴿صفّاً﴾ مصدر مؤكّد. وكذلك ﴿زجراً﴾ والفاء تدلُّ على ترتيب الصفات في التفاضل، فتقيد الفضل للصفّ، ثمّ للزجر، ثمّ للتلاوة، أو: على العكس.

٤ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ قيل: هو جواب قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥].

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ

٥ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿ربّ﴾ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاثمئة وستّون مشرقاً. وكذلك المغارب. تشرق الشمس كلّ يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب. ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأمّا ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ فإنّه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما، وأمّا ﴿ربّ المشرق والمغرب﴾ فإنّه أراد به الجهة. فالمشرق جهة والمغرب جهة.

٦ ـ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القربى منكم. تأنيث الأدنى ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ حمزة وحفص، على البدل من ﴿زينة﴾. والمعنى: ﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا﴾ بالكواكب ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾ أبو بكر، على البدل من محلّ ﴿بزينة﴾ أو: على إضمار: أعني، أو: على إعمال المصدر منوّناً في المفعول ﴿بزينةِ الكواكبِ﴾ غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب. وأصله: بزينةٍ الكواكبُ. أو: على إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسّنها؛ لأنّها إنّما زيّنت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله: بزينةٍ الكواكبَ؛ لقراءة أبي بكر.

٧ ـ ﴿وَحِفْظًا﴾ محمول على المعنى؛ لأنّ المعنى: إنّا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] أو: الفعل المعلّل مقدّر كأنّه قيل: ﴿وحفظاً من كلّ شيطان﴾ زيّناها بالكواكب، أو: معناه حفظناها حفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة.

٨ ـ والضمير في: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لـ ﴿كلّ شيطان﴾ لأنّه في معنى الشياطين. ﴿يسمّعون﴾ كوفيّ غير أبي بكر. وأصله: يتسمّعون. والتسمّع: تطلّب السماع، يقال: تسمّع فسمع، وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ، اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنّهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو: يتسمّعوا. وقيل: أصله لئلا يسمعوا، فحذفت اللام كما حذفت في جئتك أن تكرمني، فبقي ألّا يسمعوا فحذفت أن، وأهدر عملها، كما في قوله:

إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ

أَلَا أَيُّهذا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوغى(١) ... ...

وفيه تعسُّف يجبُ صَوْن القرآن عن مثله، فإنَّ كلَّ واحد من الحذفين غير مردود على انفراده، ولكن اجتماعهما منكر. والفرق بين سمعت فلاناً يتحدّث، وسمعت إليه يتحدّث، وسمعت حديثه وإلى حديثه: أنّ المعدّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الملائكة؛ لأنّهم يسكنون السموات. والإنس والجنّ هم الملأ الأسفل؛ لأنّهم سكان الأرض ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرمَون بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أيّ جهة صعدوا للاستراق.

٩ ـ ﴿دُحُورًا﴾ مفعول له، أي: ﴿ويقذفون﴾ للدحور، وهو الطرد. أو: مدحورين على الحال، أو: لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى، فكأنّه قيل: يدحرون، أو: قذفاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم، من: الوصوب، أي: أنّهم في الدنيا مرجومون بالشهب. وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم، غير منقطع.

١٠ ـ و«مَنْ» في: ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محلّ الرفع بدل من الواو في ﴿لا يسمعون﴾ أي: لا يسمع الشياطين إلاّ الشيطان الذي ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: سلب السلبة. يعني: أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ لحقه ﴿شِهَابٌ﴾ أي: نجم رجم ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء.

١١ ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر كفّار مكّة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خلقاً، من قولهم: شديد الخلق، وفي خلقه شدّة، أو: أصعب خلقاً وأشقّه، على معنى الردّ لإنكارهم البعث، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة، ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما. وجيء بـ«مَنْ» تغليباً

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد، وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي.

إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

للعقلاء على غيرهم. ويدلّ عليه قراءة من قرأ (أم من عددنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ لاصق، أو: لازم. وقرىء به. وهذا شهادةٌ عليهم بالضعف؛ لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة. أو: احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ [الرعد: ٥]؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

١٢ ـ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إيّاك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك ومن تعجّبك. أو: ﴿عجبت﴾ من إنكارهم البعث ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ من أمر البعث ﴿بل عجبتُ﴾: حمزة، وعليّ، أي: استعظمت. والعجب روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء، فَجُرِّدَ لمعنى الاستعظام في حقه تعالى؛ لأنَّه لا يجوز عليه الروعة. أو: معناه: قل يا محمّد ﴿بل عجبتُ﴾.

١٣ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتّعظون به.

١٤ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر، ونحوه ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها، أو: يبالغون في السخرية.

١٥ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

١٦ ـ ﴿أَءِذَا﴾ استفهام إنكار ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: أنبعث إذا كنّا تراباً، وعظاماً.

١٧ ـ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على محلّ إنّ واسمها، أو: على الضمير في ﴿مبعوثون﴾ والمعنى: أيبعث أيضاً آباؤنا؛ على زيادة الاستبعاد، يعنون: أنهم أقدم. فبعثهم أبعد وأبطل ﴿أو آباؤنا﴾ بسكون الواو: مدنيّ، وشاميّ، أي: أيبعث واحد منّا على المبالغة في الإنكار ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الأقدمون.

١٨ ـ ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿نِعَمْ﴾: عليّ. وهما لغتان ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾

١٩ ـ ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان كذلك فما ﴿هِيَ﴾ إلاّ ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾. و﴿هي﴾: لا ترجع إلى شيء إنّما هي مبهمة موضّحها خبرها. ويجوز فإنّما البعثة ﴿زجرة واحدة﴾ وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة. من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليهم ﴿فَإِذَا هُم﴾ أحياء بصراء ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينتظرون ما يحلُّ بهم.

٢٠ ـ ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: اليوم الذي نُدان فيه، أي: نُجازى بأعمالنا.

٢١ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. ثمّ يحتمل أن يكون ﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله: ﴿احشروا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة و﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿۞ احْشُرُوا﴾ خطاب الله للملائكة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم أو قرناءهم من الشياطين، أو: نساءهم الكافرات. والواو: بمعنى مع. وقيل: للعطف. وقُرِىء بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ظلموا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الأصنام ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دلّوهم، عن الأصمعي. هديته في الدين هدى، وفي الطريق هداية ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار.

٢٤ ـ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم. ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن أقوالهم، وأفعالهم.

٢٥ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا. وقيل: هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وهو في موضع النصب على الحال، أي: ﴿مالكم﴾ غير متناصرين.

بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦ ـ ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون. أو: قد أسلم بعضهم بعضاً، وخذله عن عجز، فكلّهم مستسلم غير منتصر.

٢٧ ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: التابع على المتبوع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون.

٢٨ ـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الأتباع للمتبوعين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن القوّة، والقهر؛ إذ اليمين موصوفة بالقوّة، وبها يقع البطش، أي: أنّكم كنتم تحملوننا على الضلال، وتقسروننا عليه.

٢٩ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الرؤساء ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، مختارين له على الكفر، غير ملجئين.

٣٠ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ﴾ تسلط نسلبكم به تمكّنكم، واختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

٣١ ـ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمنا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأنّا ذائقون لعذابه لا محالة؛ لعلمه بحالنا. ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنّه عدل به إلى لفظ المتكلّم لأنّهم متكلِّمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قوله:

فقد زَعَمَتْ هوازنُ قَلَّ مالي[1] ... ...

ولو حكى قولها لقال: قلَّ مالك.

٣٢ ـ ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾، فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

٣٣ ـ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإنّ الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

(١) صدر بيت، وعجزه: وهل لي غير ما أنفقت مال.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

٣٤ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بالمشركين ﴿إنّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكلّ مجرم.

٣٥ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا عنها، وأبوا إلاَّ الشرك.

٣٦ ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ بهمزتين: شاميّ، وكوفيّ ﴿لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون: محمّداً ﷺ.

٣٧ ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ ردّ على المشركين ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

٣٨، ٣٩ ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلا زيادة.

٤٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام: كوفيّ، ومدنيّ. وكذا ما بعده. أي: لكن عباد الله ـ على الاستثناء المنقطع.

٤١، ٤٢ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ﴾ فسّر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي: كلّ ما يتلذّذ به، ولا يتقوّت لحفظ الصحّة، يعني: أنّ رزقهم كلّه فواكه؛ لأنّهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأنّ أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلذّذ. ويجوز أن يُرادَ: ﴿رزق معلوم﴾ منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذّة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. والنفس إليه أسكن ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ معظّمون.

٤٣ ـ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون حالاً، وأن يكون خبراً بعد خبر. وكذا:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

٤٤ ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ التقابل أتمّ للسرور، وآنس.

٤٥ ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾[١] بغير همز: أبو عمرو، وحمزة في الوقف، وغيرهما: بالهمزة. يقال للزجاجة فيها الخمر كأس. وتسمّى الخمر نفسها كأساً. وعن الأخفش: كلّ كأس في القرآن فهي الخمر. وكذا في تفسير ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أو: من نهر معين، وهو: الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون. وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنّة في أنهار كما يجري الماء. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

٤٦ ـ ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ وصفت باللذة، كأنّها نفس اللذة وعينها، أو: ذات لذّة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

٤٧ ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا. وهو من: غاله، يغوله، غولاً: إذا أهلكه، وأفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكرون، من: نُزِف الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف ﴿يُنْزِفون﴾: عليّ، وحمزة، أي: لا يسكرون، أو: لا يَنْفَد شرابهم، من: أنزف الشارب؛ إذا ذهب عقله، أو: شرابه.

٤٨ ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين.

٤٩ ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون. شبههنّ ببيض النعام المكنون في الصفاء. وبها تشبه العرب النساء، وتسميهنّ بيضات الخدور.

٥٠ ـ وعُطِف ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني: أهل الجنّة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ على

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (بكاس) بغير همز. وهي قراءة: أبي عمرو، وأبي جعفر، والسوسي. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٣٥).

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ
بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

﴿يطاف عليهم﴾ والمعنى: يشربون، فيتحادثون على الشراب كعادة الشَّرْب[1]. قال:

ومـا بَقِيَـتْ مِـنَ اللـذَّاتِ إلاّ   أحـاديـثُ الكـرام على المُـدَام[2]

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، إلاّ أنّه جيء به ماضياً على ما عُرِف في أخباره.

٥١، ٥٢ ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ﴾ بهمزتين: شاميّ، وكوفيّ ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين.

٥٣ ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون. من الدين، وهو: الجزاء.

٥٤ ـ ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين؟ قيل: إنّ في الجنّة كوىً ينظر أهلُها منها إلى أهل النار. أو: قال الله تعالى لأهل الجنّة: ﴿هل أنتم مطّلعون﴾ إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

٥٥ ـ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ المسلم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في وسطها.

٥٦ ـ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. وهي تدخلُ على كاد كما تدخل على كان، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والإرداء: الإهلاك. وبالياء في الحالين: يعقوب.

٥٧ ـ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وهي: العصمة، والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب، كما أُحْضِرْتَهُ أنت وأمثالك.

٥٨، ٥٩ ـ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره: ﴿أ﴾ نحن مخلّدون منعّمون ﴿فما نحن بميتين﴾

---

(١) «الشرب»: جمع شارب.
(٢) البيت للفرزدق.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾

ولا معذّبين. والمعنى: أنّ هذه حال المؤمنين، وهو: ألا يذوقوا إلاّ الموتة الأولى، بخلاف الكفّار فإنهم فيما يتمنّون فيه الموت كلّ ساعة. وقيل لحكيم: ما شرٌّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنّى فيه الموت. وهذا قولٌ يقوله المؤمن تحدّثاً بنعمة الله بمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة تعذيب. و﴿موتتنا﴾: نصب على المصدر. والاستثناء متّصل، تقديره: لا نموت إلاّ مرّة، أو: منقطع، وتقديره: لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. ثمّ قال لقرينه تقريعاً له:

٦٠ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمر الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. ثمّ قال الله عز وجل.

٦١ ـ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ وقيل هو أيضاً من كلامه.

٦٢ ـ ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ تمييز، أي: نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خير نزلاً ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خير نزلاً؟ والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق. والزقوم: شجر مرّ يكون بتهامة.

٦٣ ـ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو: ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ فكذّبوا.

٦٤ ـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنّم وأغصانها ترتفعُ إلى دركاتها.

٦٥ ـ ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها. وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر؛ لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنّه شرّ محض. وقيل: الشيطان: حيّة عرفاء، قبيحة المنظر، هائلة جداً.

٦٦ ـ ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ من الشجرة، أو: من طلعها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

فمالئو بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد.

٦٧ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أكلها ﴿لَشَوْبًا﴾ لخلطاً ولمزاجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]. والمعنى: ثمّ إنّهم يملؤون البطون من شجرة الزقّوم، وهو حارّ، يحرق بطونهم، ويعطشهم، فلا يسقون إلاّ بعد مليٍّ تعذيباً لهم ذلك العطش، ثمّ يسقون ما هو أحرّ، وهو: الشراب المشوب بالحميم.

٦٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: أنّهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم ـ وهي: الدركاتُ التي أسكنوها ـ إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملّوا، ويسقون بعد ذلك، ثمّ يرجعون إلى دركاتهم. ومعنى التراخي في ذلك ظاهر.

٦٩، ٧٠ ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ علّل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين، واتّباعهم إيّاهم في الضلال، وترك اتّباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنّهم يُحثّون حثّاً.

٧١ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قوم قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الأمم الخالية بالتقليد، وترك النظر والتأمل.

٧٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياء ـ عليهم السلام ـ حذّروهم العواقب.

٧٣ ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: الذين أنذروا، وحذّروا. أي: أهلكوا جميعاً.

٧٤ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلاّ الذين آمنوا منهم، وأخلصوا لله دينهم، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين.

٧٥ ـ ولمّا ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذَرين، أتبع

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾

ذلك ذكر نوح، ودعاءه إيّاه حين أيس من قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ دعانا لننجيه من الغرق. وقيل: أريد به قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ اللام الداخلة على «نِعْمَ»: جواب قسم محذوف. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: ﴿ولقد نادانا نوح﴾ فو الله لنعم المجيبون نحن. والجمع دليلُ العظمة والكبرياء. والمعنى: أنّا أجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

٧٦ ـ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ ومَن آمن به، وأولاده ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ غمّ الغرق.

٧٧ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وقد فني غيرهم. قال قتادة: الناسُ كلّهم من ذرّيّة نوح. وكان لنوح ـ عليه السلام ـ ثلاثة أولاد: سام: وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام: وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث: وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

٧٨ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي:

٧٩ ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعني: يسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكيّ، كقولك: قرأت سورة أنزلناها ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ثبت هذه التحية فيهم جميعاً، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنّه قيل: ثبّت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين، يسلّمون عليه عن آخرهم.

٨٠ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ علّل مجازاته بتلك التكرمة السنيّة بأنّه كان محسناً.

٨١ ـ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثمّ علّل كونه محسناً بأنّه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان، وأنّه القصارى من صفات المدح، والتعظيم.

٨٢ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: الكافرين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

٨٣ ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: من شيعة نوح، أي: ممّن شايعه على أصول الدين، أو: شايعه على التصلّب في دين الله، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلاّ نبيّان: هود، وصالح.

٨٤ ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ «إذ» تعلّق بما في الشيعة من معنى المشايعة. يعني: ﴿وإنّ﴾ ممّن شايعه على دينه وتقواه حين ﴿جاء ربّه بقلب سليم﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ﴿لإبراهيم﴾. أو: بمحذوف، وهو: اذكر. ومعنى المجيء بقلبه ربّه: أنّه أخلص لله قلبه، وعلم الله ذلك منه، فضرب المجيء مثلاً لذلك.

٨٥، ٨٦ ـ ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ «إفكاً» مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنّه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنّهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكونَ ﴿إفكاً﴾ مفعولاً به، أي: أتريدون إفكاً. ثمّ فسّر الإفك بقوله: آلهة من دون الله، على أنها إفك في نفسها؛ أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

٨٧ ـ ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أيّ شيءٍ ظنكّم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنتم تعبدون غيره. و﴿ما﴾ رفع بالابتداء. والخبر: ﴿ظنّكم﴾. أو: فما ظنّكم به ماذا يفعل بكم، وكيف يعاقبكم، وقد عبدتم غيره، وعلمتم أنّه المنعم على الحقيقة، فكان حقيقاً بالعبادة؟

٨٨ ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي: نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء، متفكّراً في نفسه كيف يحتال. أو: أراهم أنّه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنه استدلّ بأمارة على أنه يسقم.

٨٩ ـ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي: مشارف للسقم ـ وهو: الطاعون، وكان أغلب

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾

الأسقام عليهم. وكانوا يخافون العدوى ـ ليتفرّقوا عنه. فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد. ففعل بالأصنام ما فعل. وقالوا: علم النجوم كان حقاً، ثمّ نسخ الاشتغال بمعرفته. والكذب حرام إلاّ إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مِعْراض من الكلام، أي: سأسقم. أو: مَنْ في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داءً. ومات رجل فجأة، فقالوا: مات، وهو صحيح. فقال أعرابيّ: أصحيح مَن الموت في عنقه؟ أو: أراد ﴿إنّي سقيم﴾ النفس لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا.

٩٠ ـ ﴿فَتَوَلَّوْا﴾ فأعرضوا ﴿عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ مولّين الأدبار.

٩١ ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فمال إليهم سرّاً ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ وكان عندها طعام.

٩٢ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنّه خاطبها خطاب من يعقل.

٩٣ ـ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنّه قال: فضربهم ﴿ضرباً﴾ لأنّ ﴿راغ عليهم﴾ بمعنى: ضربهم. أو: ﴿فراغ عليهم﴾ يضربهم ﴿ضرباً﴾ أي: ضارباً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أي: ضرباً شديداً قويّاً؛ لأنّ اليمين أقوى الجارحتين، وأشدّهما، أو: بالقوّة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذي سبق منه، وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٩٤ ـ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون. من الزفيف، وهو: الإسراع ﴿يُزفون﴾: حمزة، من: أزفّ، إذا دخل في الزفيف، إزفافاً، وكأنّه قد رآه بعضهم يكسرها، وبعضهم لم يره، فأقبل مَن رآه مسرعاً نحوه، ثمّ جاء من لم يره يكسرها، فقال لمن رآه: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثمّ قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم بقوله:

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ

٩٥ ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم.

٩٦ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام؟ أو: ﴿ما﴾ مصدريّة، أي: وخلق أعمالكم. وهو دليلُنا في خلق الأفعال، أي: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟

٩٧ ـ ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لأجله ﴿بُنْيَٰنًا﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة. وقيل: كلّ نار بعضها فوق بعض فهي جحيم.

٩٨ ـ ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين عند الإلقاء.

٩٩ ـ فخرج من النار ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني، ويعصمني، ويوفّقني. ﴿سيهديني﴾ فيهما: يعقوب.

١٠٠ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد.

١٠١ ـ ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ انطوت البشارة على ثلاث: على أنّ الولد غلام ذكر، وأنّه يبلغ أوانَ الحلم؛ لأنّ الصبيَّ لا يُوصف بالحلم، وأنّه يكون حليماً؛ وأيّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثمّ استسلم لذلك؟!.

١٠٢ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وحوائجه. و﴿معه﴾ لا يتعلّق بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حدّ السعي، ولا بالسعي؛ لأنّ صلة المصدر لا تتقدّم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنّه لمّا قال «فلمّا بلغ السعي» أي: الحدّ الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع من؟ قال: مع أبيه.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾

وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ حفص. والباقون بكسر الياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وبفتح الياء فيهما: حجازيّ، وأبو عمرو، قيل له في المنام: اذبح ابنك. ورؤيا الأنبياء وحي، كالوحي في اليقظة. وإنّما لم يقل: رأيت؛ لأنّه رأى مرّة بعد مرّة. فقد قيل: رأى ليلة التروية كأنّ قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلمّا أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح: أمن الله هذا الحلم، أم من الشيطان؟ فمن ثَمّ سمّى يوم التروية، فلمّا أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنّه من الله، فمن ثمّ سمّى يوم عرفة، ثمّ رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره، فسمّي يوم النحر ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي على وجه المشاورة، لا من رؤية العين. ولم يشاوره ليرجعَ إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ ﴿تُري﴾: عليّ، وحمزة، أي: ماذا تبصر من رأيك، وتبديه ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ أي: ﴿ما تؤمر﴾ به. وقرىء به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح. رُوي: أنّ الذبيح قال لأبيه: يا أبت! خُذْ بناصيتي، واجلس بين كتفي، حتّى لا أوذيك إذا أصابتني الشفرة، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي، عسى أن ترحمني، واجعل وجهي إلى الأرض. ويُروى: اذبحني وأنا ساجد، واقرأ على أمّي سلامي، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمّي فافعل، وإنّه عسى أن يكون أسهلَ لها.

١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ انقادا لأمر الله، وخضعا ـ وعن قتادة ـ رحمه الله ـ: أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه ـ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ وصرعه على جبينه، ووضع السكين على حلقه فلم يعمل، ثمّ وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. رُوي أنَّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى. وجواب ﴿لمّا﴾ محذوف، تقديره: ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبين﴾ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ ـ أي: حقّقت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح ـ كان ما كان بما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف من

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾

استبشارهما، وحمدهما لله، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله. أو: الجواب: قبلنا منه، و: ﴿ناديناه﴾ معطوف عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة.

١٠٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاختبار البيّن الذي يتميّز فيه المخلصون من غيرهم، أو: المحنة البيّنة.

١٠٧ ـ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ﴾ هو ما يذبح. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الكبشُ الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنّة حتّى فُدِي به إسماعيل. وعنه: لو تمّت تلك الذبيحة لصارت سنّة، وذبح الناس أبناءهم ﴿عَظِيمٖ﴾ ضخم الجثّة، سمين. وهي السُّنّة في الأضاحي. ورُوي: أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتّى أخذه، فبقيت سنّة في الرمي. ورُوي: أنّه لمّا ذبحه قال جبريل: الله أكبر، الله أكبر. وقال: الذبيح ـ عليه السلام ـ: لا إله إلاّ الله، والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، ولله الحمد، فبقي سُنّة. وقد استشهد أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بهذه الآية فيمن نذر ذَبح ولده: أنّه يلزمه ذبح شاة.

والأظهر: أنّ الذبيح إسماعيل، وهو قول أبي بكر، وابن عباس، وابن عمر، وجماعة من التابعين ـ رضي الله عنهم ـ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين»[١] فأحدهما جدّه إسماعيل والآخر أبوه عبد الله. وذلك: أنَّ عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرّباً، وكان عبد الله آخراً ففداه بمئة من الإبل، ولأنّ قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير. وعن الأصمعيّ أنّه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعيّ! أين عزَب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكّة؟ وإنما كان إسماعيل بمكّة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكّة. وعن عليّ، وابن مسعود، والعبّاس، وجماعة من التابعين ـ رضي الله عنهم ـ أنّه إسحاق. ويدلُّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف

(١) انظر مستدرك الحاكم (٢/ ٥٥٤).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾.

ـ عليهما السلام ـ: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

وإنما قال: ﴿وفديناه﴾ وإن كان الفادي إبراهيم ـ عليه السلام ـ والله تعالى هو المُفْتَدَى منه؛ لأنه الآمر بالذبح؛ لأنّه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به. وهاهنا إشكال: وهو أنّه لا يخلو إمّا أن يكون ما أتى به إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بطحه على شقّه، وإمرار الشفرة على حلقه في حُكْم الذبح أم لا؟ فإن كان في حُكْم الذبحِ، فما معنى الفداء، والفداء هو: التخليص من الذبح ببدل؟ وإن لم يكن، فما معنى قوله: ﴿قد صدّقت الرؤيا﴾؟ وإنّما كان يصدّقها لو صحّ منه الذبح أصلاً أو بدلاً. ولم يصحّ. والجواب: أنّه ـ عليه السلام ـ قد بذل وسعه، وفعل مايفعل الذابح، ولكنّ الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه. وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ـ عليه السلام ـ بدلاً منه. وليس هذا بنسخ للحكم، كما قال البعض، بل ذلك الحكم كان ثابتاً، إلاّ أنّ المحلّ الذي أضيف إليه لم يحلّه الحكم على طريق الفداء دون النسخ، وكان ذلك ابتلاء ليستقرّ حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال، على أنّ المبتغى منه في حقّ الولد أن يصير قرباناً بنسبة الحكم إليه، مكرماً بالفداء الحاصل لمعرّة الذبح، مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة، وإنّما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله. وقد سمّي فداء في الكتاب لا نسخاً.

١٠٨، ١٠٩ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا وقف عليه لأنّ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول ﴿وتركنا﴾.

١١٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل إنّا هنا كما في غيره؛ لأنّه قد سبق في هذه القصّة، فاستخفّ بطرحه اكتفاءً بذكره مرّة عن ذكره ثانية.

١١١، ١١٢ ـ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ حال مقدّرة من إسحاق. ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف، أي: ﴿وبشّرناه بـ﴾ وجود

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿إسحاق نبيّاً﴾، أي: بأن يوجد مقدّرة نبوّته، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثانية. وورودها على سبيل الثناء؛ لأنّ كلّ نبيّ لا بدّ أن يكون من الصالحين.

١١٣ ـ ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبيّ، أوّلهم يعقوب، وآخرهم عيسى ـ عليهم السلام ـ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ كافر ﴿مُبِينٞ﴾ ظاهر. أو: محسن إلى الناس، وظالم على نفسه بتعدّيه عن حدود الشرع. وفيه تنبيهٌ على أنّ الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البرّ الفاجر، والفاجر البرّ، وهذا ممّا يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أنّ الظلم في أعقابهما لم يعدْ عليهما بعيب ولا نقيصة، وأنّ المرء يعاب بسوء فعله، ويُعاقب على ما اجترحتْ يداه لا على ما وجد من أصله، أو فرعه.

١١٤ ـ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بالنبوّة.

١١٥ ـ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ من الغرق، أو: من سلطان فرعون، وقومه، وغشمهم.

١١٦ ـ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: موسى وهارون، وقومهما ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون، وقومه.

١١٧ ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ البليغ في بيانه، وهو: التوراة.

١١٨ ـ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾

---

١١٩ ـ ١٢٣ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى. وقيل: هو إدريس النبيّ ـ عليه السلام ـ. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وإنّ إدريس) في موضع ﴿إلياس﴾.

١٢٤ ـ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله!.

١٢٥ ـ ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ ـ هو علم لصنم كان من ذهب. وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه. فتنوا به، وعظّموه حتى أخدموه أربعمئة سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان بموضعهم يقال له بك، فركّب وصار بعلبكّ، وهو من بلاد الشام ـ وقيل: إلياس مُوَكَّلٌ بالفيافي، كما وكّل الخضر بالبحار. والحسن يقول: قد هلك إلياس والخضر، ولا نقول كما يقول الناس: إنهما حيّان ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدّرين؟!.

١٢٦ ـ ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بنصب الكلّ: عراقيّ غير أبي بكر، وأبي عمرو، على البدل من ﴿أحسن﴾. وغيرهم بالرفع على الابتداء.

١٢٧، ١٢٨ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من قومه.

١٢٩، ١٣٠ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي: إلياس وقومه المؤمنين، كقولهم: الخبيبون، يعني: أبا خبيب عبد الله بن الزبير، وقومه ﴿آل ياسين﴾: شاميّ، ونافع؛ لأن ياسين اسم أبي الياس، فأضيف إليه الآل.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾
إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ
أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

---

١٣١ ـ ١٣٥ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ في الباقين.

١٣٦ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿الْآخَرِينَ﴾.

١٣٧ ـ ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

١٣٨ ـ ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ والوقف عليه مطلق ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: تمرّون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها؟! وإنّما لم يختم قصّة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصّة من قبلهما؛ لأنّ الله تعالى قد سلّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتفى بذلك عن ذكر كلّ واحد منفرداً بالسلام.

١٣٩، ١٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ﴾ الإباق: الهرب إلى حيث لا يُهتَدى إليه الطلب، فَسُمِّيَ هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء. وكان يونس ـ عليه السلام ـ وعد قومه العذاب. فلمّا تأخّر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم. فقصد البحر، وركب السفينة، فوقفت، فقالوا: هاهنا عبد آبق من سيّده. وفيما يزعم البحّارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس ـ عليه السلام ـ فقال: أنا الآبق، وزجّ بنفسه في الماء. فذلك قوله:

١٤١ ـ ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعهم مرّة أو: ثلاثاً بالسهام. والمساهمة: إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة.

١٤٢ ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ فابتلعه ﴿الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامة.

١٤٣ ـ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح؛ أو:

لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

من القائلين: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أو: من المصلّين قبل ذلك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. ويقال: إنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

١٤٤ ـ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الظاهر لبثه حيّاً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. وقد لبث في بطنه ثلاثة أيّام، أو: سبعة، أو: أربعين يوماً. وعن الشعبيّ ـ رحمه الله ـ: التقمه ضحوة، ولَفَظَه عشيّة.

١٤٥ ـ ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا بناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت. ورُوي: أنّه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد.

١٤٦ ـ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أنبتناها فوقه مظلّة له، كما كان يطنّب البيت على الإنسان ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ الجمهور على أنّه القرع. وفائدته: أنّ الذباب لا يجتمعُ عنده، وأنّه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً. وقيل لرسول الله ﷺ: إنّك لتحبّ القرع. قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»[(١)].

١٤٧ ـ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ المراد به: القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام. فيكون قد مضمراً ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر، إذا رآها الرائي قال هي: مئة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج: قال غير واحد: معناها: بل يزيدون. قال ذلك الفرّاء وأبو عبيدة. ونقل عن ابن عباس كذلك.

١٤٨ ـ ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ به، وبما أرسل به ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالهم.

١٤٩ ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ معطوف على مثله في أوّل السورة، أي: على ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الصافات: ١١] وإن تباعدت

---

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٤/ ٦٢).

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

بينهما المسافة. أَمَرَ رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلاً، ثمّ ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثمّ أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضّيزى التي قسموها، حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهنّ، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهنّ.

١٥٠ ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ حاضرون. تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل؛ لأنه كما لم يعلموا ذلك مشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. أو: معناه أنّهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنّهم شاهدوا خلقهم.

١٥١، ١٥٢ ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم.

١٥٣ ـ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام. وهو استفهام توبيخ. وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام.

١٥٤ ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد.

١٥٥ ـ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص.

١٥٦ ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجّة نزلت عليكم من السماء بأنّ الملائكة بنات الله.

١٥٧ ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

١٥٨ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾ بين الله ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمهم أنّهم بناته. وقالوا: إنّ الله تزوّج من الجنّ، فولدت له الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ ولقد علمت الملائكة إنّ الذين قالوا هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار.

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

١٥٩ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزّه نفسه عن الولد، والصَّاحبة.

١٦٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن المخلصين ناجون من النار. و﴿سبحان الله﴾ اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقعَ الاستثناءُ من واو ﴿يصفون﴾ أي: يصفه هؤلاء بذلك. ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه به.

١٦١ ـ ١٦٣ ـ ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبوديكم ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ وهم جميعاً ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلّين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام، أي: لستم تضلّون أحداً إلّا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنّهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. يقال: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنّكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلّين أحداً إلّا من قدّر عليه أن يصلى الجحيم، أي: يدخل النار. وقيل: ما أنتم بمضلّين إلا من أوجبت عليه الضلال في السَّابقة. و: ﴿ما﴾ في ﴿ما أنتم﴾ نافية. و﴿من﴾ في موضع النصب بـ﴿فاتنين﴾. وقرأ الحسن: ﴿صَالُ الجحيم﴾ بضم اللام، ووجهه أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة، وحذف الواو لالتقاء الساكنين، هي واللام في: ﴿الجحيم﴾ و﴿من﴾ موحَّد اللفظ مجموع المعنى، فحمل ﴿هو﴾ على لفظه، والصالون على معناه.

١٦٤ ـ ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في العبادة لا يتجاوزه، فحذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه.

١٦٥ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ نصفّ أقدامنا في الصلاة، أو: نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين.

١٦٦ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزّهون، أو: المصلّون. والوجه: أن يكون هذا

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

وما قبله من قوله: ﴿سبحان الله عمّا يصفون﴾ من كلام الملائكة حتّى يتّصل بذكرهم في قوله: ﴿ولقد علمت الجنّة﴾ كأنّه قيل: ولقد علم الملائكة، وشهدوا: أنّ المشركين مفترون عليهم في مناسبة ربّ العزّة، وقالوا ﴿سبحان الله﴾ فنزّهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّؤوهم منه، وقالوا للكفرة: وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلّوه إلاّ مَن كان مِن أهل النار، وكيف نكون مناسبين لربّ العزّة، وما نحن إلاّ عبيد أذلاّء بين يديه، لكلّ منّا مقامٌ معلومٌ من الطاعة، لا يستطيع أن يزلّ عنه ظفراً خشوعاً لعظمته، ونحن الصافّون أقدامنا لعبادته، مسبّحين، ممجّدين، كما يجب على العباد لربّهم. وقيل: هو مِن قول رسول الله ﷺ، يعني: وما منّ المسلمين أحد إلاّ له المقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ثمّ ذكر أعمالهم، وأنّهم الذين يصطفّون في الصلاة، ويسبّحون الله، وينزّهونه عمّا لا يجوز عليه.

١٦٧ ـ ١٧٠ ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ أي: مشركو قريش قبل مبعثه ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتاباً من كتب الأوّلين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذّبنا كما كذّبوا، ولا خالفنا كما خالفوا. فجاءهم الذكر الذي هو سيّد الأذكار، والكتاب الذي هو معجزٌ من بين الكتب ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبّة تكذيبهم، وما يحلّ بهم من الانتقام. ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وفي ذلك أنّهم كانوا يقولونه مؤكّدين للقول، جادّين فيه، فكم بين أوّل أمرهم وآخره!

١٧١ ـ ١٧٣ ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الكلمة قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وإنّما سمّاها كلمة، وهي كلمات؛ لأنّها لمّا انتظمت في معنى واحد، كانت في حكم كلمة مفردة. والمراد: الموعد بعلوّهم على عدوّهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوّهم عليهم في

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾

الآخرة. وعن الحسن: ما غلب نبيّ في حرب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى. والحاصل: أنّ قاعدة أمرهم، وأساسه، والغالب منه: الظفر، والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، والمحنة. والعبرة للغالب.

١٧٤ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدّة يسيرة، وهي المدّة التي أمهلوا فيها، أو: إلى يوم بدر، أو: إلى فتح مكّة.

١٧٥ ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذلك. وهو للوعيد لا للتبعيد. أو: انظر إليهم إذا عذّبوا ﴿فسوف يبصرون﴾ ما أنكروا، أو: أعلمهم فسوف يعلمون.

١٧٦ ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قبل حينه؟

١٧٧ ـ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ صباحهم. واللام في: ﴿المنذرين﴾ مبهم في جنس ما أنذروا؛ لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. مثّل العذاب النازل بهم ـ بعد ما أنذروه فأنكروه ـ بجيش أنذر بهجومه قومَه بعضُ نصّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة. وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً، فسمّيت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر.

١٧٨، ١٧٩ ـ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وإنّما ثنّى ليكون تسلية على تسلية، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة، وهي: إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنّه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرّة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالآخر: عذاب الآخرة.

١٨٠ ـ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيف الربّ إلى العزّة لاختصاصه بها؛ كأنّه

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قيل: ذو العزّة، كما تقول: صاحب صدق؛ لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يُرَاد أنّه ما من عزّة لأحد إلاّ وهو ربّها ومالكها، كقوله: ﴿ تُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والصّاحبة، والشّريك.

١٨١ ـ ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عمّ الرسل بالسلام بعد ما خصّ البعض في السورة؛ لأنّ في تخصيص كلّ بالذكر تطويلاً.

١٨٢ ـ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله، ونسبوه إليه ممّا هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عمّا وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لربِّ العالمين على ما قيّض لهم من حسن العواقب. والمراد: تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سبحان ربّك...﴾ إلى آخر السورة.

* * *

سُورَةُ صٓ

ترتيبها ٣٨ آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ

١ ـ ﴿صٓ﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّي، والتنبيه على الإعجاز. ثمّ أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه، كأنّه قال: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي الشرف إنّه لكلام معجز. ويجوز أن يكون ﴿ص﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنّه اسم للسورة، كأنّه قال: هذه ﴿ص﴾ أي: هذه السورة التي أعجزت العرب ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ كما تقول: هذا حاتم والله. تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله. وكذلك إذا أقسم بها، كأنّه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إنّه لمعجز. ثمّ قال:

٢ ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ تكبّر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحقّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف لله ولرسوله. والتنكير في: ﴿ عزّة وشقاق﴾ للدلالة على شدّتهما، وتفاقمهما. وقرىء ﴿في غِرَّةٍ﴾ أي: في غفلة عمّا يجب عليهم من النظر، واتّباع الحقّ.

٣ ـ ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوي العزّة، والشقاق ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أمّة ﴿فَنَادَوا۟﴾ فدعوا، واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿وَّلَاتَ﴾ هي

حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾

«لا» المشبّهة بـ«ليس» زيدت عليها تاء التأنيث، كما زيدت على «ربّ» و«ثمّ» للتوكيد. وتغيّر بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلاّ على الأحيان، ولم يبرز إلاّ أحد مقتضييها، إمّا الاسم أو الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً. وهذا مذهبُ الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها «لا» النافية للجنس، زيدت عليها التاء، وخصّت بنفي الأحيان. وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ مَنْجى منصوب بها، كأنّك قلت: ولا حين مناص لهم. وعندهما أنّ النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص.

٤ ـ ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ رسول من أنفسهم يعني: استبعدوا أن يكون النبيّ من البشر ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾.

٥ ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلاّ الكافرون المتوغّلون في الكفر، المنهمكون في الغيّ، إذ لا كفر أبلغ من أن يسمّوا مَنْ صدّقه الله: كاذباً ساحراً، ويتعجّبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الأبلج، ولا يتعجّبوا من الشرك، وهو باطلٌ لجلج. رُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا أسلم فرح به المؤمنون، وشقّ على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ يريدون الذين دخلوا في الإسلام ـ وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال: يا بن أخي! هؤلاء قومك يسألونك سؤالاً فلا تمل كلّ الميل على قومك. فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تسألوني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال ﷺ: «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» قالوا: نعم، وعشراً. أي: نعطيكها وعشر كلمات معها. فقال: «قولوا: لا إله إلاّ الله». فقاموا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾؟ ـ أي: أصيّر ـ ﴿إنّ هذا لشيء عجاب﴾[(1)] أي:

(١) رواه أحمد (١/ ٣٦٢) والترمذي (٣٢٣٢) والحاكم (٢/ ٤٣٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ

بليغ في العجب. وقيل: العجيب ماله مثل، والعجاب ما لا مثل له.

٦ ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكّتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد، قائلين بعضهم لبعض: ﴿أمشوا﴾ و«أن» بمعنى أي؛ لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بدّ لهم من أن يتكلّموا، ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم متضمّناً معنى القول ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا﴾ الأمر ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريده الله تعالى، ويحكم بإمضائه، فلا مردّ له، ولا ينفع فيه إلاّ الصبر. أو: إنّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا، فلا انفكاكَ لنا منه.

٧ ـ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ بالتوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في ملّة عيسى؛ التي هي آخر الملل؛ لأنّ النصارى مثلّثة غير موحّدة، أو: في ملّة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ كذب اختلقه محمّد ﷺ من تلقاء نفسه.

٨ ـ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟! أنكروا أن يختصّ بالشرف من بين أشرافهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ من القرآن ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشكّ، والحسد حينئذ ، أي: إنّهم لا يصدّقون به إلاّ أن يمسّهم العذاب فيصدّقون حينئذ.

٩ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ يعني: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتّى يصيبوا بها من شاؤوا، أو يصرفوها عمّن شاؤوا، ويتخيّروا للنبوّة بعض صناديدهم، ويترفّعوا بها عن محمّد. وإنّما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه، الوهّاب الكثير المواهب، المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته. ثمّ رشّح هذا المعنى فقال:

١٠ ـ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتّى يتكلّموا في الأمور الربّانيّة،

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾

والتدابير الإلهيّة التي يختصّ بها ربّ العزّة والكبرياء. ثمّ تهكّم بهم غاية التهكّم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرّف في قسمة الرحمة ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصّل بها إلى السماء، حتّى يدبّروا أمر العالم، وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون. ثم وعد نبيه ﷺ النصرة عليهم بقوله:

١١ ـ ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ. ﴿مَّا﴾ صلة مقوّية للنكرة المبتدأة ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر، ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك. خبر المبتدأ ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ متعلّق بجند، أو: بمهزوم. يريد: ما هم إلّا جند من الكفّار المتحزّبين على رسول الله مهزوم عمّا قريب، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث لما به يهذون.

١٢ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكّة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾. قيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه، وقيل: يوتّد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه.

١٣ ـ ﴿وَثَمُودُ﴾ ـ وهم قوم صالح ـ صالحاً ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: الغيضة شعيباً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أراد بهذه الإشارة: الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنّهم الذين وجد منهم التكذيب.

١٤ ـ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ ذكر تكذيبهم أوّلاً في الجملة الخبريّة على وجه الإبهام، حيث لم يبيّن المكذَّب، ثمّ جاء بالجملة الاستثنائيّة، فأوضحه فيها، وبين المكذَّب وهم الرسل، وذكر أنّ كلّ واحد من الأحزاب كذّب جميع

﴿فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾

الرسل؛ لأنّ في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتّحاد دعوتهم. وفي تكرير التكذيب، وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد أنواع من المبالغة المسجّلة عليهم باستحقاق أشدّ العقاب، وأبلغه. ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حقّ عقابهم. (عذابي) (عقابي) في الحالين: يعقوب.

١٥ ـ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما ينتظر أهل مكة ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: النفخة الأولى، وهي: الفزع الأكبر ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ وبالضمّ: حمزة وعليّ، أي: ما لها من توقّف مقدار فُواق، وهو ما بين حلبتي الحالب، أي: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما لها من رجوع وترداد، من: أفاق المريض: إذا رجع إلى الصحّة. وفواق الناقة: ساعة يرجع الدرّ إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب، لا تثنّى، ولا تردّد.

١٦ ـ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ حظّنا من الجنّة؛ لأنّه عليه الصلاة والسلام ذكر وعد الله المؤمنين الجنّة، فقالوا على سبيل الهزء: ﴿عجّل لنا﴾ نصيبنا منها، أو: نصيبنا من العذاب الذي وعدته، كقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وأصل القطّ: القسط من الشيء؛ لأنّه قطعة منه، من: قطّه: إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قطّ؛ لأنها قطعة من القرطاس ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

١٧ ـ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك، وصنْ نفسك أن تزلّ فيما كلّفت من مصابرتهم، وتحمّل أذاهم ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلّة اليسيرة، فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا القوّة في الدين ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليلٌ لذي الأيد. رُوي: أنّه كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وهو أشدُّ الصوم، ويقومُ نصفَ الليل.

١٨ ـ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا﴾ ذلّلنا ﴿ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾. قيل: كان تسخيرها أنّها تسير معه

﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

ـ إذا أراد سيرها ـ إلى حيث يريد ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى: مسبّحات، على الحال. واختار ﴿يسبحن﴾ على مسبّحات؛ ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: في طرفي النهار. والعشيّ: وقت العصر إلى الليل، والإشراق: وقت الإشراق، وهو حين تُشرق الشمس، أي: تضيء، وهو وقت الضحى. وأمّا شروقها: فطلوعها، تقول: شرقت الشمس ولمّا تُشرق. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما عرفت صلاة الضحى إلاّ بهذه الآية.

١٩ ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ وسخّرنا ﴿الطير﴾ مجموعة من كلّ ناحية. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت؛ فذلك حشرها ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كلّ واحد من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبّح؛ لأنّها كانت تُسبِّح لتسبيحه ووضع الأوّاب موضع المسبّح؛ لأنّ الأوّاب، وهو التوّاب، الكثير الرجوع إلى الله، وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله، ويديم تسبيحه، وتقديسه. وقيل: الضمير لله، أي: كلّ من داود والجبال والطير لله أوّاب، أي: مسبّح، مرجّع للتسبيح.

٢٠ ـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوّيناه. قيل: كان يبيتُ حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الزبور، وعلم الشرائع. وقيل: كلّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ علم القضاء، وقطع الخصام، والفصل بين الحقّ والباطل. والفصل هو: التمييز بين الشيئين. وقيل للكلام البيّن: فصل؛ بمعنى المفصول؛ كضرب الأمير. وفصل الخطاب: البيّن من الكلام الملخّص الذي يتبيّنه من يخاطب به لا يلتبس عليه. وجاز أن يكون الفصل بمعنى الفاصل؛ كالصَّوْم والزَّوْر. والمراد بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب؛ الذي يفصلُ بين الصحيح والفاسد، والحقّ والباطل. وهو كلامُه في القضايا، والحكومات، وتدابير الملك، والمشورات. وعن عليّ ـ رضي الله

﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

عنه ـ: هو الحكم بالبيّنة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل. وعن الشعبيّ: هو قوله أمّا بعد، وهو أوّلُ من قال أمّا بعد، فإنّ من تكلّم في الأمر الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أمّا بعد.

٢١ ـ ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة. والخصم: الخصماء. وهو يقعُ على الواحد والجمع؛ لأنّه مصدر في الجمع[1] تقول: خصمه خصماً. وانتصاب ﴿إِذۡ﴾ بمحذوف، تقديره: ﴿وهل أتاك نبأ﴾ تحاكم ﴿الخصم﴾، أو: بالخصم لما فيه من معنى الفعل ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ تصعّدوا سوره، ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع. والمحراب: الغرفة، أو: المسجد، أو: صدر المسجد.

٢٢ ـ ﴿إِذۡ﴾ بدل من الأولى. ﴿دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ رُوي: أنَّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس، فتسوّرا عليه المحراب، فلم يشعر إلاّ وهما بين يديه جالسان ﴿ففزع منهم﴾ لأنّهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء، ولأنّهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون مَن يدخل عليه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن ﴿خصمان﴾ ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ تعدّى، وظلم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ ولا تجر، مِن: الشطط، وهو: مجاوزةُ الحد، وتخطي الحقّ ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق، ومحجّته، والمراد: عين الحقّ، ومحضه. رُوي: أنّ أهل زمان داود ـ عليه السلام ـ كان يسألُ بعضُهم بعضاً أن ينزلَ له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبته، وكان لهم عادةٌ في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتّفق أنّ عين داود ـ عليه السلام ـ وقعت على امرأة

(١) في المطبوع: الأصل.

إِنَّ هَٰذَآ أَخِى

أوريا فأحبّها، فسأله النزولَ له عنها، فاستحى أن يردّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أمّ سليمان، فقيل له: إنّك مع عظم منزلتك، وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسألَ رجلاً ليس له إلاّ امرأة واحدة النزول [عنها لك][1] بل كان الواجبَ عليك مغالبةُ هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا، ثمّ خطبها داود، فآثره أهلها، فكانت زلّته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. وما يُحكى أنّه بعث مرّة بعد مرّة أوريا إلى غزاة البلقاء[2]، وأحبّ أن يُقْتَل ليتزوّجها فلا يليقُ من المتّسمين بالصلاح من أفناء المسلمين[3] فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من حدّثكم بحديث داود ـ عليه السلام ـ على ما يرويه القصّاص جلدته مئة وستّين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

ورُوي: أنّه حُدِّثَ بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحقّ، فكذّب المحدّث به، وقال: إن كانت القصّة على مافي كتاب الله فما ينبغي أن يلتمسَ خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك! وإن كانت على ما ذكرتَ، وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس.

والذي يدلُّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصّته ـ عليه السلام ـ ليس إلاّ طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. وإنّما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التّصريح؛ لكونها أبلغ في التّوبيخ من قِبَل أنّ التأمّل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكّناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ هو بدل من هذا، أو: خبر لإنّ. والمراد: أخوّة الدين، أو: أخوّة الصداقة والألفة، أو: أخوّة الشركة والخلطة؛ لقوله: ﴿وإنّ كثيراً من

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) «البلقاء»: مدينة بالشام.

(٣) «أفناء المسلمين»: يُقال: هو من أفناء الناس؛ إذا لم يعلم ممن هو.

لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ

الخلطاء﴾ ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[١]: ﴿وَلِيَ﴾ حفص. والنعجة: كناية عن المرأة[٢]. ولمّا كان هذا تصويراً للمسألة، وفرضاً لها لا يمتنع أن يفرض الملائكة في أنفسهم، كما تقول: لي أربعون شاة ولك أربعون، فخلطناها، ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعها ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ ملّكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اجعلها كفلي، أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبني ـ يقال: عزّه، يعزُّه ـ ﴿فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ في الخصومة، أي: أنّه كان أقدر على الاحتجاج منّي. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاجّ المجادل، أو: أراد خطبت المرأة، وخطبها هو، فخاطبني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبني حيث زُوّجها دوني. ووجهُ التمثيل: أنْ مثّلت قصّة أوريا مع داود بقصّة رجل له نعجة واحدة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمّة المئة، فطمع في نعجة خليطه، وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجّه في ذلك محاجّة حريص على بلوغ مراده. وإنّما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

٢٤ ـ ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ حتّى يكون محجوباً بحكمه. وهذا جوابُ قسم محذوف. وفي ذلك استنكارٌ لفعل خليطه. والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول. وقد ضمّن معنى الإضافة، فعدّي تعديتها، كأنّه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب. وإنّما ظَلَّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه، ولكنّه لم يُحْكَ في القرآن لأنّه معلوم. ويروى: أنّه قال: أنا أريد أن آخذها منه، وأكمل نعاجي مئة. فقال داود: إن رمتَ ذلك ضربنا

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة ﴿وَلِيْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٦١).

(٢) الصواب أن يبقى التفسير على ظاهر القرآن، وحقيقة ما ورد فيه من أن الخصمين بشران، وأن النعاج شياه. انظر: تفسير الرازي (٢٦/ ١٨٩) والبحر المحيط (٧/ ٣٩١).

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة، فقال: ياداود! أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا؛ وأنت فعلت كيت وكيت. ثمّ نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء، والأصحاب ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المستثنى منصوب، وهو من الجنس. والمستثنى منه ﴿بعضهم﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما» للإبهام، و﴿هم﴾ مبتدأ. و﴿قليل﴾ خبره ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: علم، وأيقن. وإنّما استعير له؛ لأنَّ الظنَّ الغالب يداني العلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لزلّته ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: سقط على وجهه ساجداً لله. وفيه دليلٌ على أنّ الركوع يقوم مقام السجود في الصلاة إذا نوى؛ لأنّ المراد مجرّد ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة. والركوع في الصلاة يعملُ هذا العمل، بخلاف الركوع في غير الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة. ورُوي: أنّه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة، لا يرفع رأسه إلاّ لصلاة مكتوبة، أو: مالا بدّ منه، ولا يرقأ دمعه حتّى نبت العشب من دمعه، ولم يشرب ماءً إلاّ وثلثاه دمع.

٢٥ ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: زلّته ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُرْبَة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع، وهو: الجنّة.

٢٦ ـ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، أو: جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحقّ. وفيه دليلٌ على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغيّر ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله إذ كنت خليفةً، أو: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في قضائك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بنسيانهم يوم العذاب.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ

٢٧ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق. ﴿بَٰطِلًا﴾ خلقاً باطلاً، لا لحكمة بالغة، أو: مبطلين عابثين. كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] وتقديره: ذوي باطل، أو: عبثاً، فوضع باطلاً موضعه، أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحقّ المتين، وهو: أنّا خلقنا نفوساً أودعناها العقل، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها، ثمّ عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الظنّ بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا، وإنّما جعلوا ظانّين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنّه خالق السموات والأرض وما بينهما؛ بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] لأنه لمّا كان إنكارهم للبعث، والحساب، والثواب، والعقاب مؤدّياً إلى أنّ خلقها عبث وباطل، جُعِلوا كأنّهم يظنّون ذلك، ويقولونه؛ لأنّ الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحده فقد جحد الحكمة في خَلْق العالم ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٨ ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار. والمراد: أنّه لو بطل الجزاء كما يقول الكفّار لاستوت أحوال من أصلح، وأفسد، واتّقى، وفجر. ومن سوّى بينهم كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً.

٢٩ ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ صفة أخرى ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وأصله: ﴿ليتدبّروا﴾. وقرىء به، ومعناه: ليتفكّروا فيها، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به. عن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيّعوا حدوده. ﴿لتدبّروا﴾

وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى

على الخطاب بحذف إحدى التاءين: يزيد ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وليتّعظ بالقرآن أولو العقول.

٣٠ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: سليمان. وقيل: داود، وليس بالوجه، فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وعلّل كونه ممدوحاً بكونه أوّاباً، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى.

٣١ ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان. ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ بعد الظهر ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السراع جمع جواد؛ لأنّه يجودُ بالركض، وصفها بالصفون لأنّه لا يكون في الهُجْنِ، وإنّما هو في العراب. وقيل: وصفها بالصفون وبالجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: الجياد، الطوال الأعناق، من الجيد. رُوي: أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ غزا أهل دمشق ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلّى الظهر على كرسيه، واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتّى غربت الشمس، وغفل عن العصر. وكانت فرضاً عليه، فاغتمّ لما فاته فاستردّها، وعقرها تقرّباً لله وبقي مئة، فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها. وقيل: لمّا عقرها أبدله خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره.

٣٢ ـ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي: آثرت حبّ الخيل عن ذكر ربّي، كذا عن الزجّاج. فأحببت بمعنى: آثرت، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] و ﴿عن﴾ بمعنى على. وسمّى الخيل خيراً كأنّها نفس الخير؛ لتعلّق الخير بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الخيلُ معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[١]. وقال أبو عليّ ـ رحمه الله ـ: ﴿أحببت﴾ بمعنى

(١) رواه البخاري (٢٨٤٩) ومسلم (١٨٧١).

حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

جلست، من: إحباب البعير، وهو بروكه ﴿حبّ الخير﴾ مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾. والذي دلّ على أنّ الضمير للشمس مرور ذكر العشيّ ولابدّ للمضمر من جَرْي ذكر، أو: دليل ذكر. أو: الضمير لـ «الصافنات»، أي: حتّى توارت بحجاب الليل، يعني: الظلام.

٣٣ـ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: قال للملائكة: ردّوا الشمس عليّ لأصلّي العصر. فَرُدَّتِ الشمس له، وصلّى العصر. أو: ردّوا الصافنات ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يمسح ﴿مسحاً﴾ أي: يمسح السيف بسوقها ـ وهي جمع ساق، كدار ودور ـ وأعناقها. يعني: يقطّعها؛ لأنّها منعته عن الصلاة. تقول: مسح عِلاوَتَهُ: إذا ضرب عنقه. ومسح المسفِّر الكتاب[1]: إذا قطع أطرافه بسيفه، وقيل: إنّما فعل ذلك كفّارة لها، أو: شكراً لردّ الشمس. وكانت الخيلُ مأكولةً في شريعته، فلم يكن إتلافاً. وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها.

٣٤ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ سرير ملكه ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله. قيل: فتن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته: أنّه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفكّ من السخرة، فسبيلنا أن نقتله، أو: نُخَبِّلَه. فعلم ذلك سليمان ـ عليه السلام ـ فكان يغذوه[2] في السحابة خوفاً من مضرّة الشياطين، فألفى ولده ميتاً على كرسيّه، فتنبّه على زلّته في أن لم يتوكّل فيه على ربّه. ورُوي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كلّ واحدة منهنّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهنّ، فلم تحمل إلّا امرأة واحدة، جاءت بشقّ رجل، فجيء به على كرسيّه،

(١) في الصحاح: سفرت الكتاب أسفره سفراً. وسفرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر الصبح: أي: أضاء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق.
(٢) «يغذوه»: غذوت الصبي باللبن؛ أي: ربيته به فاغتذى.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

فوضع في حجره. فوالذي نفس محمد بيده! لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1]. وأمّا ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ـ عليه السلام ـ فمن أباطيل اليهود.

٣٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قدّم الاستغفار على استيهاب الملك، جرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال ﴿لَّا يَنبَغِي﴾ لا يتسهّل، ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أي: دوني. وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو. وإنّما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً. وكان قبل ذلك لم يُسَخَّر له الريح والشياطين، فلمّا دعا بذلك سُخِّرَتْ له الريح والشياطين. وأن يكون معجزة حتّى يخرق العادات ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ (الرياح): أبو جعفر ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان. ﴿رُخَاءً﴾ ليّنة طيّبة، لا تزعزع. وهو حال من ضمير ﴿تجري﴾ ﴿حَيْثُ﴾ ظرف تجري ﴿أَصَابَ﴾ قصد، وأراد. والعرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب.

٣٧ ـ ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح، أي: وسخّرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ بدل من ﴿الشياطين﴾ كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ أي: ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ، وهو أوّل من استخرج اللؤلؤ من البحر. والمعنى: سخرنا له ﴿كلّ بناء وغوّاص﴾ من الشياطين.

٣٨ ـ ﴿وَآخَرِينَ﴾ عطف على ﴿كل بناء﴾ داخل في حكم البدل ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب، والكفّ عن الفساد. والصَفَد: القيد. وسمّي به العطاء لأنّه ارتباط للمنعم عليه. ومنه قول عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من برّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك.

(١) رواه البخاري (٣٤٢٤).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾

٣٩ ـ ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك، والمال، والبسطة ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت، من: المنّة، وهي: العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن الإعطاء ـ وكان إذا أعطى أُجِرَ، وإن منع لم يأثم بخلاف غيره ـ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلّق بـ﴿عطاؤنا﴾ وقيل: هو حال منه، أي: ﴿هذا عطاؤنا﴾ جمّاً كثيراً، لا يكاد يقدر على حصره. أو: ﴿هذا﴾ التسخير ﴿عطاؤنا فامنن﴾ على من شئت من الشياطين بالإطلاق ﴿أو أمسك﴾ من شئت منهم في الوثاق ﴿بغير حساب﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك.

٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ﴿لزلفى﴾: اسم ﴿إنّ﴾ والخبر ﴿له﴾ والعامل في ﴿عند﴾ الخبر.

٤١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو بدل من ﴿عبدنا﴾ أو: عطف بيان ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال منه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعاه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ بأنّي مسّني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال: بأنه مسّه؛ لأنّه غائب ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ قراءة العامة: ﴿بِنُصُبٍ﴾ يزيد: بتثقيل نُصُب ﴿بِنَصَبٍ﴾ كرشد ورشد: يعقوب ﴿بِنَصْبٍ﴾ على أصل المصدر: هبيرة، والمعنى واحد، وهو: التعب، والمشقّة ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم. يريد: مرضه، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب[1]، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو: بالتوفيق في دفعه، وردّه بالصبر الجميل. ورُوي: أنّه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين، فارتدّ أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه: أنّه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى منكراً فسكت عنه، أو: ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلّة سبقت منه.

٤٢ ـ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب ـ عليه السلام ـ أي: أرسلنا

---

(١) «الوصب»: المرض.

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤﴾

إليه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب برجلك الأرض، وهي أرض الجابية[1]، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك. وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، فذهب الداءُ من ظاهره وباطنه بإذن الله.

٤٣ ـ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاده مثلهم ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مفعول لهما، أي: الهبة كانت للرحمة له، ولتذكير أولي الألباب؛ لأنّهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغّبهم في الصبر على البلاء.

٤٤ ـ ﴿وَخُذۡ﴾ ـ معطوف على ﴿اركض﴾ ـ ﴿بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ حُزمة صغيرة من حشيش، أو: رَيحان، أو: غير ذلك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قبضة من الشجر ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ وكان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مئة إذا برأ، فحلّل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها؛ لحسن خدمتها إيّاه. وهذه الرخصة باقية. ويجبُ أن يصيبَ المضروب كلّ واحدة من المئة. والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فحرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين، وكانتا متعلّق أيّوب ـ عليه السلام ـ إذا قام! ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ﴾ علمناه ﴿صَابِرٗا﴾ على البلاء. نعم قد شكا إليه ما به، واسترحمه، لكن الشكوى إلى الله لا تسمّى جزعاً، فقد قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] على أنّه ـ عليه السلام ـ كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم: أنّه لو كان نبيّاً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلاّ القلب واللسان ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ أيوب ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

---

(١) «الجابية»: مدينة بالشام.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

٤٥ ـ ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿عبدنا﴾: مكّي ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فمن جمع فإبراهيم ومَن بعده عطف بيان لـ: ﴿عبادنا﴾، ومن وحّد فإبراهيم ـ عليه السلام ـ وحده عطف بيان له، ثمّ عطف ذرّيّته على ﴿عبدنا﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غُلِّبَتْ، فقيل في كلّ عمل: هذا مّما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا تتأتّى فيه المباشرة بالأيدي، أو: كان العمّال جُذْماً لا أيدي لهم، وعلى هذا ورد قوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: أولي الأعمال، والفكر؛ كأنّ الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكّرون أفكار ذوي الديانات في حكم الزّمنى، الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم. أو فيه تعريضٌ بكلّ من لم يكن من عمّال الله، ولا من المستبصرين في دِيْن الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمّل، مع كونهم متمكّنين منهما.

٤٦ ـ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة، لا شوب فيها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿ذكرى﴾: في محلّ النصب، أو: الرفع بإضمار: أعني، أو: هي، أو الجر على البدل من ﴿خالصة﴾ والمعنى: ﴿إنّا أخلصناهم﴾ بـ ﴿ذكرى الدار﴾ و﴿الدار﴾ هنا: الدار الآخرة، يعني: جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكّرون الناس الدار الآخرة، ويزهّدونهم في الدنيا، كما هو ديدن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. أو: معناه: أنّهم يكثرون ذكر الآخرة، والرجوع إلى الله، وينسون ذكر الدنيا. ﴿ بخالصةِ ذكرى﴾ على الإضافة: مدني وهي من إضافة الشيء إلى ما يبيّنه؛ لأنّ الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى. و﴿ذكرى﴾ مصدر ومضاف إلى المفعول، أي: بأن خلص ذكرى الدار. وقيل: ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوص، فهي مضافة إلى الفاعل، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، على أنّهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمّ آخر، إنّما همّهم ذكرى الدار لا غير. وقيل: ﴿ذكرى الدار﴾ الثناء الجميل في الدنيا، وهذا شيء قد أخلصهم به، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به، يقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾

---

٤٧ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيّر، أو: خيْر على التخفيف، كأموات في جمع ميّت، أو: ميْت.

٤٨ ـ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ كأنّ حرف التعريف دخل على يسع ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، أي: وكلهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

٤٩ ـ ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: ﴿هذا﴾ شرف، وذكر جميل، يذكرون به أبداً. ﴿وإنّ﴾ لهم مع ذلك لحسن مرجع، يعني: يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة ربّ جليل. ثمّ بيّن كيفية حسن ذلك المرجع، فقال:

٥٠ ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿حسن مآب﴾ ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال من ﴿جنّات﴾ لأنّها معرفة لإضافتها إلى ﴿عدن﴾ وهو علم، والعامل فيها ما في ﴿للمتّقين﴾ من معنى الفعل ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ ارتفاع الأبواب بأنّها فاعل ﴿مفتّحة﴾ والعائد محذوف، أي: ﴿مفتّحة لهم الأبواب﴾ منها، فحذف كما حذف في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩] أي: لهم. أو: أبوابها، إلاّ أنّ الأوّل أجود. أو: هي بدل من الضمير في ﴿مفتّحة﴾ وهو ضمير الجنّات، تقديره: مفتّحة هي ﴿الأبواب﴾ وهو من بدل الاشتمال.

٥١ ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من المجرور في ﴿لهم﴾ والعامل ﴿مفتّحة﴾ ﴿فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: ﴿وشراب﴾ كثير، فحذف اكتفاء بالأوّل.

٥٢ ـ ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ لِدَاتٌ أسنانهنّ كأسنانهم؛ لأنّ التحابّ بين الأقران أثبت؛ وكأنّ اللدات سمّين أتراباً؛ لأنّ التراب مسّهن في وقت واحد.

٥٣ ـ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالياء: مكيّ، وأبو عمرو ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: ليوم تجزى كلّ نفس بما عملت.

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ

٥٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ من انقطاع. والجملة حال من الرزق، والعامل الإشارة.

٥٥ ـ ﴿هَٰذَا﴾ خبر، والمبتدأ محذوف، أي: الأمر هذا، أو: هذا كما ذكر ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مرجع.

٥٦ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل منه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ شبّه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

٥٧ ـ ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: هذا حميم وغَسَّاق فليذوقوه. فهذا: مبتدأ، و﴿حميم﴾ خبره، ﴿وغَسّاق﴾ عطف على الخبر، ﴿فليذوقوه﴾ اعتراض. أو: العذب ﴿هذا فليذوقوه﴾ ثمّ ابتدأ فقال: هو ﴿حميم﴾ ﴿وغسّاق﴾ بالتشديد: حمزة، عليّ، وحفص. والغساق بالتشديد والتخفيف: ما يَغْسَق من صديد أهل النار. يقال: غَسَقت العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده.

٥٨ ـ ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخر﴾ أو: مذوق آخر ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مثل العذاب المذكور ﴿وأُخَرُ﴾ بصريّ، أي: ﴿و﴾ مذوقات ﴿أُخَرُ﴾ من شكل هذا المذوق في الشدّة، والفظاعة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ صفة لآخر؛ لأنّه يجوز أن يكون ضروباً.

٥٩ ـ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم. والاقتحام: الدخول في الشيء بشدّة، والقُحْمة: الشدّة. وهذه حكايةُ كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت رَحْباً من البلاد لا ضيقاً. أو: رَحُبت بلادك رحباً. ثم تدخل عليه «لا» في

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾

دعاء السوء و﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ داخلوها، وهو تعليلٌ على لاستجابهم الدعاء عليهم. وقيل: ﴿هذا فوج مقتحم﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، و﴿لا مرحباً بهم إنهم صالو النار﴾ كلام الرؤساء، وقيل: هذا كلّه كلام الخزنة.

٦٠ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقّ به. وعلّلوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب، أو: لصليهم، أي: إنّكم دعوتمونا إليه، فكفرنا باتّباعكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: النار.

٦١ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾ ومعناه: ذا ضعف. ونحوه قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله.

٦٢ ـ ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ يعنون: فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأرذال؛ الذين لا خير فيهم، ولا جدوى.

٦٣ ـ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾(١) بلفظ الإخبار: عراقيّ غير عاصم، على أنّه صفة لرجالاً، مثل ﴿كنّا نعدّهم من الأشرار﴾ وبهمزة الاستفهام: غيرهم، على أنّه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم. ﴿سُخرياً﴾: مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، والمفضّل ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾. هو متصل بقوله: ﴿مالنا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار، كأنّهم ليسوا فيها؟ بل أزاغت عنهم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿اتخذناهم﴾ موصولة الألف، وهي قراءة: أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، ويعقوب، وخلف، والأعمش، واليزيدي، وعبد الله. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٧٣).

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

أبصارنا، فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنّة، وبين أن يكونوا من أهل النار، إلاّ أنّه خفي عليهم مكانهم.

٦٤ ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لصدق كائن لا محالة، لابدّ أن يتكلّموا به. ثمّ بيّن ماهو، فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾. ولمّا شبّه تقاولهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سمّاه تخاصماً، ولأنّ قول الرؤساء: ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول أتباعهم: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة، فسمّى التقاول كلّه تخاصماً؛ لاشتماله على ذلك.

٦٥ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكّة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ما أنا إلاّ رسول منذر، أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأقول لكم: إنّ دين الحقّ توحيد الله، وأن تعتقدوا أن لا إله إلاّ الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ بلا ندّ، ولا شريك ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء.

٦٦ ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملك والربوبيّة في العالم كلّه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب مَن التجأ إليه.

٦٧ ـ ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأنّ الله واحد لا شريك له ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ لا يعرض عن مثله إلاّ غافل شديد الغفلة، ثمّ:

٦٨ ـ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ غافلون.

٦٩ ـ ﴿مَا كَانَ لِىَ﴾ : ـ حفص ـ ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ احتجّ بصحّة نبوّته بأنّ ما ينبىء به عن الملأ الأعلى، واختصامهم، أمر ما كان له به من علم قطّ. ثمّ علمه، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو: الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب، فعلم أنّ ذلك لم يحصل له إلاّ بالوحي من الله.

٧٠ ـ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لـ ﴿إنّما أنا نذير مبين﴾ ومعناه:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ

ما يوحى إليّ إلاّ للإنذار، فحذف اللام، وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليّ إلاّ هذا، وهو أن أنذر، وأبلّغ، ولا أفرّط في ذلك، أي: ما أومر إلاّ بهذا الأمر وحده، وليس إليَّ غير ذلك. ويكسر ﴿إنّما﴾ يزيد على الحكاية، أي: إلاّ هذا القول، وهو أن أقول لكم: ﴿إنّما أنا نذير مبين﴾ ولا أدّعي شيئاً آخر. وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. والمراد بالملأ الأعلى: أصحاب القصّة، الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنّهم كانوا في السماء، وكان التقاول بينهم. و﴿إذ يختصمون﴾ متعلّق بمحذوف، إذ المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم.

٧١ ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ـ بدل من ﴿إذ يختصمون﴾ في شأن آدم ـ حين قال تعالى على لسان ملك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

٧٢ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فإذا أتممت خلقته، وعدّلته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ الذي خلقته ـ وأضافه إليه تخصيصاً، كـ: بيت الله، وناقة الله. والمعنى: أحييته، وجعلته حسّاساً، متنفساً ـ ﴿فَقَعُوا۟﴾ أمر من: وقع يقع، أي: اسقطوا على الأرض. والمعنى: اسجدوا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. قيل: كان انحناء يدلّ على التواضع، وقيل: كان سجدة لله، أو: كان سجدة التحيّة.

٧٣ ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ كلّ للإحاطة. و﴿أجمعون﴾ للاجتماع، فأفاد أنّهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

٧٤ ـ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظّم عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر.

٧٥ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

أي: بلا واسطة، امتثالاً لأمري، وإعظاماً لخطابي. وقد مرّ: أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده، فغلّب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتّى قيل: في عمل القلب: هو ما عملت يداك، وحتّى قيل لمن لا يدي له: «يداك أوكتا وفوك نفخ»(١) وحتّى لم يبق فرق بين قولك: هذا ممّا عملتَه، وهذا مما عملَتْه يداك. ومنه قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] و ﴿لما خلقت بيديّ﴾ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ استفهام إنكار ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ممّن علوت وفُقْتَ. وقيل: ﴿أستكبرت﴾ الآن، أم لم تزل مذ كنت من المستكبرين.

٧٦ ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ يعني: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنّه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟ لأنّه من طين، والنار تغلب الطين، وتأكله. وقد جرت الجملة الثانية من الأولى ـ وهي ﴿خلقتني من نار﴾ ـ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

٧٧ ـ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السموات، أو: من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنّه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقته، واسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم، أي: مطرود. تكبّر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين، وزلّ عنه: أن الله أمر به ملائكته، واتّبعوا أمره إجلالاً لخطابه، وتعظيماً لأمره، فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره.

٧٨ ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيّ، أي: إبعادي من كلّ الخير ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. ولا يُظَنُّ أنّ لعنته غايتها يوم الدين، ثمّ تنقطع؛ لأنّ معناه: أنّ عليه اللعنة في الدنيا وحدها، فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد. أو: لمّا كان عليه اللعنة في أوان الرحمة، فأولى أن تكون عليه في غير أوانها. وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن

(١) هذا مثل، انظره في: جمهرة الأمثال (٢/ ٢٤٣ و٤٣٠) ومجمع الأمثال(١/ ٥٥ و٢/ ٤١٤).

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]؟!.

٧٩ ـ ٨١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فامهلني ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الوقت المعلوم: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنّه معلوم عند الله معين، لا يتقدّم، ولا يتأخر.

٨٢، ٨٣ ـ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بعزّة الله، وهي: سلطانه، وقهره ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام: مكّيّ، وبصريّ، وشاميّ.

٨٤ ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع: كوفيّ غير عليّ، على الابتداء، أي: الحقّ قسمي، أو: على الخبر، أي: أنا الحقّ. وبالنصب وغيرهم على أنّه مقسم به، كقوله: اللهَ لأفعلن كذا، يعني: حذف عنه الباء فانتصب، وجوابه: ﴿لأملأنّ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، وهو منصوب بأقول، ومعناه: ولا أقول إلاّ الحقّ. والمراد بالحقّ إمّا اسمه عزّوجلّ الذي في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] أو: الحقّ الذي هو نقيضُ الباطل، عظّمه الله بإقسامه به.

٨٥ ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ من جنسك. وهم: الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرّية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنّم من المتبوعين والتابعين ﴿أجمعين﴾ لا أترك منهم أحداً.

٨٦، ٨٧ ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو: للوحي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنّعون ويتحلّون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قطّ متصنّعاً، ولا مدّعياً بما ليس عندي، حتّى أنتحل النبوّة، وأتقوّل القرآن ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ للثقلين أوحى إليّ فأنا أبلّغه.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»[(١)].

٨٨ـ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ نبأ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: يوم القيامة.

ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر.

* * *

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ١٠٩).

سُورَةُ الزُّمَرِ

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

١ ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن، مبتدأ خبره: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله، أو: خبر مبتدأ محذوف، والجارّ صلة التنزيل، أو: غير صلة، بل هو خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ﴿تنزيل الكتاب﴾ هذا من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٢ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرار؛ لأنّ الأوّل كالعنوان للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾ حال ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السرّ، فالدين منصوب بـ ﴿مخلصاً﴾.

٣ ـ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلصَ له الطاعة من كلّ شائبة كَدَرٍ لاطّلاعه على الغيوب والأسرار. وعن قتادة: الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلاّ الله. وعن الحسن: الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة. وهو مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ﴿والذين﴾

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ

عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر، أي: تقريباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ﴿وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يهدي مَن هو في علمه أنّه يختار الكفر، يعني: لا يوفّقه للهدى، ولا يعينه وقت اختياره الكفر، ولكنّه يخذله. وكَذِبُهم: قولهم في بعض من اتّخذوا من دون الله أولياء: بنات الله. ولذا عقّبه محتجّاً عليهم بقوله:

٤ ـ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لو جاز اتّخاذ الولد على ما تظنّون، لاختار مما يخلق ما يشاء، لا ما تختارون أنتم، وتشاؤون ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزّه ذاته عن أن يكون له أحدُ ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد، ودلّ على ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يعني: أنّه واحد، متبرّىء عن انضمام الأعداد، متعالٍ عن التجزّؤ والولاد، قهّار غلّاب لكلّ شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فأنّى يكون له أولياء وشركاء؟

٥ ـ ثمّ دلّ بخلق السموات والأرض وتكوير كلّ واحد من المَلَوَيْن[1] على الآخر، وتسخير النيّرين، وجريهما لأجل مسمّى، وبثّ الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام، على أنّه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾. والتكوير: اللّف واللّيّ، يقال: كار العمامة على رأسه، وكوّرها،

---

(١) «الملوان»: الليل والنهار.

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ

والمعنى: إنّ كلّ واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه. فشبّه في تغييبه إيّاه بشيء ظاهر لفّ عليه ما غيّبه عن مطامح الأبصار، أو: أنّ هذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً، فشبّه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر، فلم يؤمن بمسخّرهما ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لمن فكّر واعتبر، فآمن بمدبّرهما.

٦ ـ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حوّاء من قُصَيْراه[1]. قيل: أخرج ذرّيّة آدم من ظهره كالذرّ، ثمّ خلق بعد ذلك حوّاء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: جعل، عن الحسن. أو: خلقها في الجنّة مع آدم ـ عليه السلام ـ ثمّ أنزلها. أو: لأنّها لا تعيش إلاّ بالنبات، والنبات لا يقوم إلاّ بالماء، وقد أنزل الماء، فكأنّه أنزلها ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى، من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما بيّن في سورة الأنعام. والزوج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد، ووتر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ إلى تمام الخَلْق ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة. أو: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه مفعولاته هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يُعْدَلُ بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثمّ بيّن أنّه غنيّ عنهم بقوله:

٧ ـ ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم، وأنتم محتاجون إليه

(١) «قصيراه»: مثنى القُصَيْرى، وهي أعلى الأضلاع وأسفلها. وهما قُصَيْرَان.

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ

لتضرّركم بالكفر، وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لأنّ الكفر ليس برضا الله تعالى وإن كان بإرادته ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنّه سبب فوزكم، فيثيبكم عليه الجنّة. ﴿يرضهُ﴾ بضمّ الهاء والإشباع: مكّيّ، وعليّ ﴿يرضه﴾ بضمّ الهاء بدون الإشباع نافع، وهشام، وعاصم غير يحيى وحمّاد. وغيرهم: ﴿يرضهْ﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يؤاخذ أحدٌ بذنب آخر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ إلى جزاء ربّكم رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفيّات القلوب.

٨ ـ ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو: أبو جهل، أو: كلّ كافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء، وشدّة. والمسّ في الأعراض مجاز ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء، لا يدعو غيره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله عزّ وجلّ ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربّه الذي كان يتضرّع إليه. و﴿ما﴾ بمعنى من، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. أو: ﴿نسي﴾ الضرّ الذي ﴿كان يدعو﴾ الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً ﴿لِّيُضِلَّ﴾: ﴿لِيَضِلَّ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: الإسلام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ من أهلها.

٩ ـ ﴿أَمَّنْ﴾ قرأ بالتخفيف: مكّيّ، ونافع، وحمزة، على إدخال همزة الاستفهام على ﴿من﴾ وبالتشديد غيرهم، على إدخال ﴿أم﴾ عليه. و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ كغيره، أي: أمن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت: المطيع لله، وإنّما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جَرْي ذكر الكافر قبله، وقوله بعده ﴿قل هل يستوي الذي يعملون والذين

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ

لايعلمون﴾ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاته ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ حالان من الضمير في ﴿قانت﴾ ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: الجنّة. ودلَّت الآية على أنَّ المؤمن يجبُ أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله. ثمّ الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فيجب ألّا يجاوز أحدهما حدّه ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعلمون ويعملون، كأنّه جعل مَن لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراءٌ عظيمٌ بالذين يقتنون العلوم، ثمّ لا يقنُتون، ويفتنّون فيها ثمّ يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: أريد به التشبيه، أي: كما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جمع لبّ، أي: إنّما يتّعظ بوعظ الله أولو العقول.

١٠ ـ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بلا ياء، عند الأكثر. ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ أي: أطاعوا الله في الدنيا. و﴿في﴾ يتعلّق بأحسنوا لا بـ﴿حسنة﴾، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا، فلهم حسنة في الآخرة، وهي: دخول الجنة، أي: حسنة لا توصف. وقد علّقه السدي بـ﴿حسنة﴾ ففسّر الحسنة بالصحّة، والعافية. ومعنى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي: لا عذر للمفرّطين في الإحسان ألبتّة، حتّى إن اعتلّوا بأنّهم لا يتمكّنون في أوطانهم من التوفّر على الإحسان، قيل لهم: فإنّ أرض الله واسعة، وبلاده كثيرة، فتحوّلوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها من تجرّع

أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾

الغصص، واحتمال البلايا في طاعة الله، وازدياد الخير ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف. وهو حال من الأجر، أي: موفّراً.

١١ ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ بأن أعبد الله ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمرت بإخلاص الدين.

١٢ ـ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين. أي: مقدّمهم، وسابقهم في الدنيا والآخرة. والمعنى: أنّ الإخلاص له السّبْقَة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فالأوّل أمر بالعبادة مع الإخلاص، والثاني بالسبق. فلاختلاف جهتيهما نزّلا منزلة المختلفين، فصحّ عطف أحدهما على الآخر.

١٣ ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك، وذلك: أنّ كفّار قريش قالوا له عليه الصلاة والسلام: ألا تنظر إلى أبيك، وجدّك، وسادات قومك يعبدون اللات والعزّى؟! فنزلت ردّاً عليهم.

١٤ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ فهذه الآية إخبارٌ بأنْه يخصّ الله وحده بعبادته، مخلصاً له دينه دون غيره. والأولى إخبار بأنّه مأمورٌ بالعبادة والإخلاص، فالكلام أوّلاً واقع في نفس الفعل وإثباته، وثانياً فيمن يُفْعَل الفعلُ لأجله؛ ولذلك رتّب عليه قوله:

١٥ ـ ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أمرُ تهديدٍ. وقيل له: إن خالفت دين آبائك فقد خسرت، فنزلت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران، الجامعين لوجوهه، وأسبابه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإهلاكها في النار ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: وخسروا أهليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنّهم أضلّوهم، فصاروا إلى النار. ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ حيث صدّر

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ

الجملة بحرف التنبيه، ووسّط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرّف الخسران، ونعته بالمبين، وذلك لأنّهم استبدلوا بالجنّة ناراً، وبالدرجات دركات.

١٦ ـ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظلل﴾ لآخرين، أي: النار محيطة بهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وصف من العذاب، أو: ﴿ذلك﴾ الظلل ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ليؤمنوا به، ويجتنبوا عن مناهيه ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطي. خوّفهم بالنار، ثمّ حذّرهم نفسه.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الشياطين. فعلوت، من الطغيان، كالملكوت والرحموت؛ إلاّ أنّ فيها قلباً بتقديم اللام على الغين. أطلقت على الشيطان، أو: الشياطين لكون الطاغوت مصدراً، وفيها مبالغات، وهي التسمية بالمصدر، كأنّ عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب وهو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها ـ هاهنا ـ الجمع. وقرىء ﴿الطواغيت﴾ ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل الاشتمال من ﴿الطاغوت﴾ أي: عبادتها ﴿وَأَنَابُوٓا۟﴾ رجعوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، تتلقّاهم الملائكة عند حضور الموت مبشّرين، وحين يحشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هم الذين اجتنبوا، وأنابوا. وإنّما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير. أراد أن يكونوا نقّاداً في الدين، يميّزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل. فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب ـ حراصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً. أو: يستمعون القرآن وغيره فيتّبعون القرآن، أو: يستمعون أوامر الله فيتّبعون أحسنها، نحو: القصاص، والعفو، ونحو ذلك، أو: يستمعون الحديث مع

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ

القوم فيه محاسن ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويكفّ عمّا سواه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: المنتفعون بعقولهم.

/ ١٩ ـ ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أصل الكلام: أمن حقّ عليه كلمة العذاب ـ أي: وجب ـ فأنت تنقذه. جملة شرطيّة دخلت عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثمّ دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف، تقديره: أأنت مالك أمرهم؟ فمن حقّ عليه العذاب فأنت تنقذه؟ والهمزة الثانية هي الأولى، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار. ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير، أي: تنقذه. فالآية على هذا جملة واحدة، أو: معناه ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ ينجو منه؟ فأنت تنقذه؟! أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضلّه الله، وسبق في علمه أنّه من أهل النار.

٢٠ ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ أي: لهم منازل في الجنّة رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها، يعني: للكفّار ظللٌ من النار، وللمتّقين غرف ﴿مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت منازلها ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ﴿وَعۡدَ﴾: مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله ﴿لهم غرف﴾ في معنى: وعدهم الله ذلك.

٢١ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ يعني: المطر. وقيل: كلّ ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثمّ يقسمه الله ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عيوناً، ومسالك، ومجاري كالعروق في الأجساد. و﴿ينابيع﴾ نصب على الحال، أو: على الظرف. و﴿في الأرض﴾ صفة لينابيع ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ هيئاته من: خضرة، وحمرة، وصفرة، وبياض. أو: أصنافه من: برّ، وشعير، وسمسم، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجفّ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بعد نضارته، وحسنه ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متكسّراً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾

فالحطام: ما تفتّت وتكسّر من النبت وغيره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إنزال الماء، وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لتذكيراً، وتنبيهاً على أنّه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن إهمال وتعطيل.

٢٢ ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أي: وسّع صدره ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فاهتدى. وسُئِل رسول الله ﷺ عن الشرح، فقال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح». فقيل: هل له علامة؟ قال: «نعم: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(١) ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان وبصيرة. والمعنى: ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ فاهتدى، كمن طبع على قلبه فقسا قلبه؟! فحذف؛ لأنّ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدلّ عليه ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: من ترك ذكر الله، أو: من أجل ذكر الله، أي: إذا ذكر الله عندهم، أو: آياته ازدادت قلوبهم قساوة، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة.

٢٣ ـ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في إيقاع اسم الله مبتدأً، وبناءِ ﴿نزّل﴾ عليه، تفخيمٌ لأحسن الحديث ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أحسن الحديث﴾ أو: حال منه ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق، والبيان، والوعظ، والحكمة، والإعجاز، وغير ذلك ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ﴿كتاباً﴾ جمع مثنّى، بمعنى: مردّد ومكرّر لما ثنّى من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهيه، ووعده، ووعيده، ومواعظه. فهو بيان لكونه متشابهاً؛ لأنّ القصص المكرّرة وغيرها لا تكون إلاّ متشابهة. وقيل: لأنّه يثنّى في التلاوة فلا يملّ. وإنّما جاز وصف الواحد بالجمع؛ لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي: جملته. ألا تراك

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١٢٧). وانظره في تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠ـ١٨١) والدر المنثور (٣ / ٣٥٥) وتنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٣٧) تحقيق يوسف بديوي.

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

تقول: القرآن أسباع، وسور وآيات؟! فكذلك تقول: أقاصيص، وأحكام، ومواعظ مكرّرات. أو: منصوب على التمييز من ﴿متشابهاً﴾ كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب، وتتحرّك ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. يقال: اقشعرّ الجلد، إذا تقبض تقبّضاً شديداً، والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن، وبآيات وعيده، أصابهم خشية تقشعرّ منها جلودهم. وفي الحديث: «إذا اقشعرّ جلدُ المؤمن من خشية الله تحاتّت عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها»(١) ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. وعدّي بـ«إلى» لتضمّنه معنى فعل متعدّ بـ«إلى»، كأنّه قيل: اطمأنّت إلى ذكر الله ليّنة غير منقبضة. واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؛ لأنّ رحمته سبقت غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلاّ كونه رؤوفاً رحيماً. وذكرت الجلود وحدها أوّلاً، ثمّ قرنت بها القلوب ثانياً؛ لأنّ محل الخشية: القلب، فكان ذكرها يتضمّن ذكر القلوب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهم مَن علم منهم اختيار الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الحقّ.

٢٤ ـ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمن أمن من العذاب؟! فحذف الخبر كما حذف في نظائره. وسوء العذاب: شدّته، ومعناه: أنّ الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنّه أعزّ أعضائه عليه. والذي يُلقى في النار يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيّأ له أن يتّقي النار إلاّ بوجهه الذي كان يتّقي المخاوف بغيره، وقاية له، ومحاماة عليه

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣١٠).

وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُواْ﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: كسبكم.

٢٥ ـ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أنّ الشرّ يأتيهم منها. بينا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم.

٢٦ ـ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذلّ، والصغار، كالمسخ، والخسف، والقتل، والجلاء، ونحو ذلك من عذاب الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لآمنوا.

٢٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتعظوا.

٢٨ ـ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكّدة، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وإنساناً عاقلاً. فتذكر رجلاً وإنساناً توكيداً. أو: نصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ مستقيماً، بريئاً من التناقض والاختلاف. ولم يقل: مستقيماً؛ للإشعار بألّا يكون فيه عوج قطّ. وقيل: المراد بالعوج: الشكّ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

٢٩ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ بدل. ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازعون، ومختلفون ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ ـ مصدر: سلم، والمعنى: ذا سلامة ـ ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي: ذا خلوص له من الشركة. (سالماً): مكّيّ، وأبو عمرو، أي: خالصاً له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة، وهو تمييز، والمعنى: هل تستوي صفتاهما وحالاهما؟! وإنّما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرىء: ﴿مثلين﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره. مثّل الكافر

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾

ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، كلّ واحد منهم يدّعي أنّه عبده، فهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهن شتّى وهو متحيّر، لا يدري أيّهم يرضي بخدمته، وعلى أيّهم يعتمد في حاجاته، وممن يطلب رزقه، وممّن يلتمس رفقه، فهمّه شعاع[1]، وقلبه أوزاع[2]، والمؤمن: بعبدٍ له سيّد واحد، فهمّه واحد، وقلبه مجتمع.

٣٠ ـ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وبالتخفيف: مَنْ حلّ به الموت. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسيرَ ميْتٍ وميّت   فدونك وقد فسّرتُ إن كنت تعقل
فمن كان ذا روحٍ فذلك ميّتٌ   وما المَيْتُ إلا مَن إلى القبر يُحمل

كانوا يتربّصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر: أنّ الموت يعمّهم، فلا معنى للتربّص وشماتة الفاني بالفاني. وعن قتادة ـ رحمه الله ـ: نعى إلى نبيّه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. أي: إنّك وإيّاهم في عداد الموتى؛ لأنّ ما هو كائن فكأن قد كان.

٣١ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إنّك وإيّاهم ـ فغلّب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ـ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجّ أنت عليهم بأنك بلّغت فكذّبوا، واجتهدت في الدعوة فلجّوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته. تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، ويقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون. قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلمّا قُتِل عثمان ـ رضي الله عنه ـ قالوا: هذه خصومتنا. وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة، وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم. والوجه هو الأوّل؛ ألَا ترى إلى قوله:

٣٢ ـ ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ

(١) أي: متفرق.
(٢) «الأوزاع»: مشتت أو مفرّق.

وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ

بِهِ ﴾ [الزمر: ٣٣] وما هو إلاّ بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة ﴿كذب على الله﴾: افترى عليه بإضافة الولد، والشريك إليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو: ما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال رويّة، أو: اهتمام بتمييز بين حقّ وباطل، كما يفعل أهل النّصفة فيما يسمعون ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله، وكذّبوا بالصدق. واللام في ﴿للكافرين﴾ إشارة إليهم.

٣٣ ـ ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو رسول الله ﷺ، جاء بالحقّ، وآمن به. وأراد به: إيّاه ومَن تبعه، كما أراد بموسى إيّاه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾. وقال الزجّاج: روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ محمّد رسول الله ﷺ، ﴿و﴾ الذي ﴿صدق به﴾ أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ. وروي: أنّ الذي جاء بالصدق محمّد رسول الله ﷺ، ﴿صدّق به﴾: المؤمنون. والكلّ صحيح. كذا قالوا. والوجه في العربيّة أن يكون ﴿جاء﴾ و﴿صدّق﴾ لفاعل واحد؛ لأنّ التغاير يستدعي إضمارَ الذي وذا غير جائز، أو: إضمار الفاعل من غير تقدّم الذكر، وذا بعيد.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشجّ أعدل بني مروان.

٣٦ ـ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية، وتقريرها ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ أي: محمّداً ﷺ ﴿عباده﴾: حمزة، وعليّ، أي: الأنبياء والمؤمنين. وهو مثل: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]

وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: بالأوثان التي اتّخذوها آلهة من دونه، وذلك: أنّ قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنّا نخاف أن تخبُلك آلهتنا، وإنّا نخشى عليك مضرّتها لعيبك إياها ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٧ ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ بغالب، منيع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه. وفيه وعيدٌ لقريش، ووعد للمؤمنين بأنّه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم. ثمّ أعلم بأنّهم مع عبادتهم الأوثان مقرّون بأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض بقوله:

٣٨ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ ـ بفتح الياء سوى حمزة ـ ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض، أو: فقر، أو: غير ذلك ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ دافعات شدّته عنّي ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ صحّة، أو: غِنى، أو: نحوهما ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ ﴿كاشفاتٌ ضرّه﴾ ﴿ممسكاتٌ رحمتَه﴾ بالتنوين على الأصل: بصريّ. وفرض المسألة في نفسه دونهم؛ لأنّهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأنّ خالق العالم هو الله وحده، ثمّ يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ أو برحمة، هل تقدرون على خلاف ذلك؟ فلمّا أفحمهم قال الله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافياً لمعرّة أوثانهم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يروى: أنّ النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل: ﴿قل حسبي الله﴾ وإنّما قال: ﴿كاشفات﴾ و﴿ممسكات﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿ويخوّفونك بالذين من دونه﴾ لأنّهنّ إناث، وهنّ: اللات، والعزّى، ومناة. وفيه تهكّم بهم، وبمعبوديهم.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ

٣٩، ٤٠ ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى، كما يستعار هنا وحيث للزمان، وهما للمكان ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي. وحذف للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأنّ حالته تزداد كلّ يوم قوّة؛ لأنّ الله تعالى ناصره ومعينه. ألَا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كيف توعّدهم بكونه منصوراً عليهم عالياً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّهم إذا أتاهم الخزي والعذاب، فذاك عزّه وغلبته من حيث إنّ الغلبة تتمّ له بعزّ عزيز من أوليائه، وبذلّ ذليل من أعدائه. و﴿يخزيه﴾ صفة للعذاب، كمقيم، أي: عذاب مخزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم، وهو عذاب النار ﴿مكاناتكم﴾: أبو بكر، وحمّاد.

٤١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، ولأجل حاجتهم إليه؛ ليبشّروا، وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ومن اختار الضلالة فقد ضرّها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ. ثمّ أخبر بأنّه الحفيظ القدير عليهم بقوله:

٤٢ ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفس: الجُمَل كما هي. وتوفّيها: إماتتها، وهو: أن تسلب ما هي به حيّة حسّاسة درّاكة ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنّائمين بالموتى، حيث لا يميّزون ولا يتصرّفون، كما أنّ الموتى كذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ﴾ ﴿قُضِيَ﴾: حمزة، وعلي ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الحقيقيّ، أي:

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾

لا يردّها في وقتها حيّة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: ﴿يتوفّى الأنفس﴾ أي: يستوفيها، ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ﴿و﴾ يتوفّ الأنفس ﴿التي لم تمت في منامها﴾ وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتي تُتوفّ في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفَس، والنائم يتنفس. ولكلّ إنسان نفْسان: إحداهما: نفس الحياة، وهي: التي تفارقُ عند الموت، والأخرى: نفس التمييز، وهي: التي تفارقه إذا نام.

ورووا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في ابن آدم نفس وروح [بينهما شعاع][1] مثل شعاع الشمس، فالنفسُ هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النَّفَس والتحرّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه.

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا نُبِّهَ من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

وعنه: ما رأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت بعد الإرسال فيلقيها الشيطان فهي كاذبة.

وعن سعيد بن جبير: إنّ أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها إلى انقضاء مدّة حياتها.

ورُوي: أنّ أرواح المؤمنين تعرجُ عند النوم في السماء، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود، ومَن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذنْ لهم فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إنّ في توفّي الأنفس مائتة ونائمة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على قدرة الله، وعلمه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيلون فيه أفكارهم، ويعتبرون.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ﴾

---

٤٣ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتّخذ قريش ـ والهمزة للإنكار ـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَآءَ﴾ حين قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، ولا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يشفعون ﴿ولو كانوا لا يملكون شيئاً﴾ قطّ، ولا عقل لهم.

٤٤ ـ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أي: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلّا بإذنه. وانتصب ﴿جميعاً﴾ على الحال ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تقرير لقوله: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾ لأنّه إذا كان له الملك كلّه، والشفاعة من الملك، كان مالكاً لها ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ متّصل بما يليه. معناه: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ اليوم ﴿ثمّ إليه ترجعون﴾ يوم القيامة. فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلّا له، فله ملك الدنيا والآخرة.

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ مدار المعنى على ﴿وحده﴾ أي: إذا أفرد الله بالذكر، ولم تذكر معه آلهتهم ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ نفرت، وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني: آلهتهم ذكر الله معهم، أو: لم يذكر ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ لافتتانهم بها. أو: إذا قيل: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، نفروا؛ لأنّ فيها نفياً لآلهتهم. ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كلّ واحد منهما غاية في بابه، فالاستبشار: أن يمتلىء قلبه سروراً حتّى تنبسط له بشرة وجهه، ويتهلّل، والاشمئزاز: أن يمتلىء غمّاً وغيظاً حتّى يظهر الانقباض في أديم وجهه. والعامل في ﴿إذا ذكر﴾ هو العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة. تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار.

٤٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يا ﴿فاطر﴾ ـ وليس بوصف كما يقوله المبرّد، والفرّاء ـ ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ السرّ، والعلانية ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ﴾

بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ

تقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وقيل: هذه محاكمة من النبيّ للمشركين إلى الله. وعن الربيع ابن المسيّب: لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلاّ أجيب، سواها. وعن الربيع بن خثيم ـ وكان قليل الكلام ـ أنّه أخبر بقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ وقالوا: الآن يتكلّم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. ورُوي: أنّه قال على أثره: قُتِل مَن كان ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

٤٧ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ الهاء تعود إلى ما ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ شدّته ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه مالم يكن قطّ في حسبانهم، ولا يحدّثون به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيّئات. وعن سفيان الثوري: أنّه قرأها فقال: ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ عند موته فقيل له، فقال: أخشى آيةً من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدوَ لي من الله مالم أحتسبه.

٤٨ ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: سيّئات أعمالهم التي كسبوها، أو: سيّئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم، وأحاط ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء هزئهم.

٤٩ ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ﴾ أعطيناه تفضّلاً ـ يقال: خوّلني: إذا أعطاك على غير جزاء ـ ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ ـ ولا تقف عليه؛ لأنّ جواب ﴿إذا﴾ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّي أنّي سأعطاه لما فيّ من فضل، واستحقاق. أو: ﴿على علم﴾ منّي بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وإنّما ذكر الضمير في ﴿أوتيته﴾ وهو للنعمة، نظراً إلى المعنى؛ لأنّ

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

قوله: ﴿نعمة منّا﴾ شيئاً من النعمة، وقسماً منها. وقيل: ﴿ما﴾ في ﴿إنما﴾ موصولة لا كافّة، فيرجع الضمير إليها، أي: إنّ الذي أوتيته على علم ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ـ إنكار لقوله، كأنّه قال: ما خوّلناك من النعمة لما تقول ﴿بل هي فتنة﴾ أي: ابتلاء وامتحان لك، أتشكر أم تكفر. ولمّا كان الخبر مؤنّثاً، أعني: ﴿فتنة﴾. ساغ تأنيث المبتدأ لأجله. وقرىء: ﴿بل هو فتنة﴾ على وفق ﴿إنما أوتيته﴾ ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّها فتنة. والسبب في عطف هذه الآية بالفاء، وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو: أنّ هذه وقعت مسبّبة عن قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت﴾ على معنى: أنّهم يشمئزّون عن ذكر الله، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّ أحدهم ضرّ دعا من اشمأزّ عن ذكره دون من استبشر بذكره. وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حقّ الاعتراض أن يؤكّد المعترض بينه وبينه. قلت: ما في الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربّه بأمر من الله، وقوله: ﴿أنت تحكم بين عبادك﴾ ثمّ ما عقّبه من الوعيد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنّه قيل: قل يا ربّ لا يحكم بيني وبين هؤلاء، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، إلاّ أنت. وقوله: ﴿ولو أنّ للذين ظلموا﴾ متناول لهم ولكلّ ظالم إن جعل عامّاً، أو: إيّاهم خاصّة إن عنيتهم به، كأنّه قيل: ﴿ولو أنّ﴾ لهؤلاء الظالمين ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به﴾ حين أُحْكِمَ عليهم بسوء العذاب. وأمّا الآية الأولى فلم تقع مسبّبة، وما هي إلاّ جملة ناسبت جملة قبلها، فعطفت عليها بالواو، نحو: قام زيد، وقعد عمرو. وبيان وقوعها مسبّبة أنّك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه. فهذا تسبيبٌ ظاهر، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضر التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمّة، كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً في الالتجاء.

٥٠ ـ ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ هذه المقالة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قارون وقومه، حيث قال: ﴿إنّما أوتيته على علم عندي﴾ وقومه راضون بها، فكأنّهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

اخرون قائلون مثلها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما يجمعون منها.

٥١ ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جزاء سيّئات كسبهم، أو سمّى جزاء السيّئة سيّئة للازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم ببدر، وحبس عنهم الرزق، فقحطوا سبع سنين ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين من عذاب الله. ثمّ بسط لهم، فمطروا سبع سنين، فقيل لهم:

٥٢ ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويضيّق؟ وقيل: يجعله على قدر القوت ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله ـ عز وجل ـ.

٥٣ ـ ﴿۞ قُلْ﴾ يا محمد يقول الله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾ ـ وبسكون الياء: بصريّ، وحمزة، وعليّ ـ ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي، والغلوّ فيها ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ لا تيأسوا ـ وبكسر النون: عليّ، وبصريّ ـ ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفو عنها إلاّ الشرك. وفي قراءة النبي ﷺ: (يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي). ونظير نفي المبالاة: نفي الخوف في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]. قيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحبّ أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»(١) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٠٠).

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

٥٤ ـ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ وأخلصوا له العمل ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العذاب.

٥٥ ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم.

٥٦ ـ ﴿أَن تَقُولَ﴾ لئلا تقول. ﴿نَفْسٌ﴾ إنّما نكّرت؛ لأنّ المراد بها بعض الأنفس، وهي: نفس الكافر. ويجوز أن يُراد نفس متميّزة من الأنفس إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو: بعذاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الألف بدل من ياء المتكلّم. وقرىء ﴿يا حسرتي﴾ على الأصل، و(يا حسرتاي) على الجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ قصّرت. و﴿ما﴾ مصدرية مثلها في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في أمر الله، أو: في طاعة الله، أو: في ذاته. وفي حرف عبد الله بن مسعود (في ذكر الله). والجنب: الجانب. يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه، وناحيته، وفلان ليّن الجانب والجنب. ثمّ قالوا: فرّط في جنبه، وفي جانبه، يريدون: في حقّه. وهذا من باب الكناية؛ لأنّك إذا أثبتّ الأمر في مكان الرجل، وحيّزه، فقد أثبتّه فيه. ومنه الحديث: «مِن الشرك الخفيّ: أن يصلّيَ الرجل لمكان الرجل»(١) أي: لأجله. وقال الزجّاج: معناه: فرّط في طريق الله، وهو: توحيده، والإقرار بنبوّة محمّد ﷺ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين. قال قتادة: لم يكفه أن

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨١).

أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ

ضيّع طاعة الله حتّى سخر من أهلها. ومحلّ ﴿وإن كنت﴾: النصب على الحال، كأنّه قال: فرّطت وأنا ساخر، أي: فرّطت في حال سخريتي.

٥٧ ـ ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ أي: أعطاني الهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ من الذين يتّقون الشرك. قال الشيخ الإمام أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا الكافر أعرفُ بهداية الله من المعتزلة. وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يقولون: لو وفّقنا الله للهداية، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منّا اختيار الضلالة والغواية، فخذلنا، ولم يوفّقنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم، وأعطاهم التوفيق لكنّهم لم يهتدوا. والحاصل: أنّ عند الله لطفاً؛ من أُعطي ذلك اهتدى، وهو التوفيقُ والعصمة، ومَن لم يعطه ضلّ وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحقّ بعد ما مُكِّن من تحصيله، لذلك.

٥٨ ـ ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الموحِّدين.

٥٩ ـ ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿بلى﴾: ردّ من الله عليه، كأنّه يقول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ وبيّنت لك الهداية من الغواية، وسبيل الحقّ من الباطل، ومكّنتك من اختيار الهداية على الغواية، واختيار الحقّ على الباطل. ولكن تركت ذلك، وضيّعته، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضدّ ما أمرت به، فإنّما جاء التضييع من قبلك، فلا عذر لك. و﴿بلى﴾ جواب لنفي تقديريّ؛ لأنّ معنى ﴿لو أنّ الله هداني﴾: ما هُدِيتُ. وإنّما لم يقرن الجواب به؛ لأنه لابُدَّ من حكاية أقوال النفس على ترتيبها، ثمّ الجواب من بينها عمّا اقتضى الجواب.

٦٠ ـ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه من

وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

إضافة الشريك والولد إليه، ونفي الصفات عنه ﴿وُجُوهُهُم﴾ مبتدأ ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾ خبر. والجملة في محلّ النصب على الحال إن كان ﴿ترى﴾ من رؤية البصر، وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثان ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو إشارة إلى قوله: ﴿واستكبرت﴾.

٦١ ـ ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ ﴿ويُنجي﴾ رَوْحٌ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم. يقال: فاز بكذا؛ إذا أفلح به، وظفر بمراده منه وتفسير المفازة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنّه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: ﴿لا يمسّهم السوء﴾ أي: ينجّيهم بنفي السوء، والحزن عنهم، أي: لا يمسّ أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن. أو: بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاة منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب نجاتهم: العمل الصالح. ولهذا فسّر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المفازة بالأعمال الحسنة. ويجوز بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح، وهو دخول الجنّة. ويجوز أن يسمّى العمل الصالح في نفسه مفازة؛ لأنه سببها. ولا محلّ لـ ﴿لا يمسّهم﴾ على التفسير الأوّل؛ لأنّه كلام مستأنف، ومحلّه النصب على الحال على الثاني. ﴿بمفازاتهم﴾ كوفيّ، غير حفص.

٦٢ ـ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ردّ على المعتزلة، والثنويّة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ.

٦٣ ـ ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو مالك أمرها، وحافظها. وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن، ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها. ومنه قولهم: فلان ألقيتْ إليه مقاليد الملك، وهي: المفاتيح، واحدها: مِقْليد. وقيل: لا واحد لها من لفظها. والكلمة أصلها فارسيّة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هو متّصل بقوله: ﴿وينجّي الله الذين اتّقوا﴾ أي:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾

ينجّي الله المتّقين بمفازاتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعتُرِض بينهما بأنّه خالق كلّ شيء وهو مهيمن عليه، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلّفين فيها، وما يجزون عليها. أو: بما يليه على أنّ كلّ شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه ﴿والذين كفروا﴾ وجحدوا أن يكون الأمر كذلك ﴿أولئك هم الخاسرون﴾. وقيل: سأل عثمان ـ رضي الله عنه ـ رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: «يا عثمان! ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير»[١]. وتأويله على هذا: أنّ لله هذه الكلمات يوحَّد بها، ويمجَّد، وهي مفاتيحُ خير السموات والأرض، من تكلّم بها من المتّقين أصابه، و﴿الذين كفروا بآيات الله﴾ وكلمات توحيده وتمجيده ﴿أولئك هم الخاسرون﴾.

٦٤ـ ﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ ﴿تأمرونّيَ﴾: مكّيّ. ﴿تأمرونَني﴾ على الأصل: شاميّ. ﴿تأمرونيَ﴾: مدنيّ. وانتصب ﴿أفغير﴾ بـ﴿أعبد﴾. و﴿تأمرونّي﴾ اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بتوحيد الله؟

٦٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وإنّما قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد، والموحى إليهم جماعة؛ لأنّ معناه: (أُوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك)، وإلى الذين من قبلك مثله. واللام الأولى موطّئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب. وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط. وإنّما صحّ هذا الكلام، مع علمه تعالى بأنّ رسله لا يشركون؛ لأنّ

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٤١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٥).

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به غيره، ولأنّه على سبيل الفرض. والمحالات يصحّ فرضها. وقيل: لئن طالعت غيري في السرّ ليحبطنّ ما بيني وبينك من السّر.

٦٦ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردّ لما أمروه به من عبادة آلهتهم، كأنّه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله، فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيّد ولد آدم.

٦٧ ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وما عظّموه حقّ عظمته؛ إذ دعوك إلى عبادة غيره. ولمّا كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حقّ معرفته وقدّره في نفسه حقّ تقديره، عظّمه حقّ تعظيمه، قيل: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾. ثمّ نبّههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كُنه جلاله لاغير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو: جهة مجاز. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك قوله: ﴿جميعاً﴾ وقوله: ﴿والسموات﴾ ولأنّ الموضع موضع تعظيم فهو مقتضٍ للمبالغة ﴿والأرض﴾: مبتدأ، و﴿قبضته﴾ الخبر، و﴿جميعاً﴾: منصوب على الحال. أي: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة. والقبضة: المرّة من القبض. والقُبْضة: المقدار المقبوض بالكفّ، ويقال: أعطني قَبضة من كذا، تريد: معنى القُبْضة تسمية بالمصدر، وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون ﴿جميعاً قبضته﴾ أي: ذوات قبضته، يقبضهنّ قبضة واحدة، يعني: أنّ الأرضين مع عظمهنّ وبسطتهنّ لا يبلغن إلاّ قبضة واحدة من قبضاته، كأنّه يقبضها قبضة بكفّ واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان. أي: لا تفي إلاّ بأكلة فذّة من أكلاته. وإذا أريد معنى القُبْضة فظاهر؛ لأنّ المعنى: أنّ الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكفّ واحدة. والمطويّات من الطيّ الذي هو ضدّ النشر، كما قال:

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجلّ أن يطويه بيمينه. وقيل: ﴿قبضته﴾: ملكه بلا مدافع ولا منازع. و﴿بيمينه﴾ بقدرته. وقيل: ﴿مطويّات بيمينه﴾ مُفْنَيَات بقَسَمه؛ لأنّه أقسم أن يفنيها ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد مِنْ هذه قُدْرَتُه وعظمته! وما أعلاه عمّا يضاف إليه من الشركاء!

٦٨ ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ مات ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام ـ وقيل: هم حملة العرش، أو: الرضوان، والحور، ومالك، والزبانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ هي في محلّ الرفع؛ لأنّ المعنى: ﴿ونفخ في الصور﴾ نفخة واحدة ﴿ثم نفخ فيه﴾ نفخة ﴿أخرى﴾. وإنّما حذفت لدلالة ﴿أخرى﴾ عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب، أو: ينظرون أمر الله فيهم. ودلّت الآية على أنّ النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث، والجمهور على أنّها ثلاث: الأولى للفزع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧] والثانية للموت، والثالثة للإعادة.

٦٩ ـ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: بعدله بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقال: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»(١). وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنّه يزيّنها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحقّ بين أهلها. ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وقال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يجوز أن يخلق الله نوراً فينوّر به أرض الموقف. وإضافته إليه تعالى للتخصيص كـ: بيت الله،

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ
جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ
كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وناقة الله ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحائف الأعمال، ولكنّه اكتفى باسم الجنس، أو: اللوح المحفوظ ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة، وما أجابهم قومهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: الحفظة. وقيل: هم الأبرارُ في كلّ زمان، يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحها بإثبات العدل.

٧٠ ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير كتاب، ولا شاهد. وقيل: هذه الآية تفسير قوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: ﴿ووفّيت كلّ نفس ما عملت﴾ من خير وشرّ، لا يزاد في شرّ، ولا ينقص من خير.

٧١ ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً كما يُفعل بالأسارى، والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس، أو: قتل ﴿زُمَرًا﴾ حال، أي: أفواجاً متفرّقة بعضها في أثر بعض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما: كوفيّ ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ وهي سبعة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ حفظة جهنّم، وهم: الملائكة الموكّلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من بني آدم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أتونا، وتلوا علينا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمة الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] بسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب، وهو: الكفر، والضلال.

٧٢ ـ ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة، أي: مقدّرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس؛ لأنّ مثوى المتكبّرين

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ

فاعل ﴿بئس﴾ وبئس فاعلها اسم معرّف بلام الجنس، أو: مضاف إلى مثله. والمخصوص بالذّم محذوف، تقديره: فبئس مثوى المتكبّرين جهنّم.

٧٣ ـ ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المراد: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلاّ راكبين إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفعل بمن يكرم، ويشرّف من الوافدين على بعض الملوك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ هي التي تُحكى بعدها الجمل، والجمل المحكيّة بعدها هي الشرطية، إلاّ أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف؛ لأنّه في صفة ثواب أهل الجنّة، فدلّ بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف. وقال الزجاج: تقديره: حتّى إذا جاؤوها ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ دخلوها. فحذف دخلوها؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه. وقال قوم: ﴿حتّى إذا جاؤوها﴾ جاؤوها ﴿وفتحت أبوابها﴾ فعندهم جاؤوها محذوف، والمعنى: ﴿حتّى إذا جاؤوها﴾ وقع مجيئهم مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنّم لا تُفتح إلاّ عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنّة فمتقدّم فتحها؛ لقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]. فلذلك جيء بالواو، كأنّه قال: ﴿حتى إذا جاؤوها و﴾ وقد ﴿فتحت أبوابها﴾. ﴿طبتم﴾ من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا. وقال الزجّاج: أي: كنتم طيّبين في الدنيا، ولم تكونوا خبيثين، أي: لم تكونوا أصحاب خبائث. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طاب لكم المقام. وجعل دخول الجنّة مسبباً عن الطيب والطهارة؛ لأنها دار الطيّبين، ومثوى الطاهرين. قد طهّرها الله من كلّ دنس، وطيّبها من كلّ قذر، فلا يدخلها إلاّ مناسب لها، موصوف بصفتها.

٧٤ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من نعيم العقبى ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الجنّة. وقد أورثوها، أي: ملكوها، وجعلوا ملوكها. وأطلق تصرّفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث، وتصرّفه فيما يرثه، واتّساعه فيه ﴿ نَتَبَوَّأُ ﴾ ـ حال ـ ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾

فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

أي: يكون لكلّ واحد منهم جنّة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوّأ أي: فيتّخذ مقرّاً ومتبوّأً من جنّته حيث يشاء ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ في الدنيا: الجنّة.

٧٥ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ حال من الملائكة ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: محدقين من حوله و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿حافّين﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولون: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر. أو: سُبّوح قُدّوس، ربّ الملائكة والروح؛ وذلك للتلذّذ دون التعبّد؛ لزوال التكليف ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الأنبياء والأمم، أو: بين أهل الجنّة والنار ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: يقول أهل الجنّة: شكراً حين دخولها، وتمّ وعد الله لهم، كما قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

وكان رسول الله ﷺ يقرأ كلّ ليلة بني إسرائيل والزمر[١].

* * *

(١) رواه أحمد (٦ / ٦٨و١٢٢و١٨٩) والترمذي (٣٤٠٢) والحاكم (٢ / ٤٣٤) وأبو يعلى في مسنده (٤٦٤٣) وانظره في مجمع الزوائد (٢ / ٢٧٢).

سورة غافر

آياتها ٨٥ — ترتيبها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ

الحواميم كلها مكيات؛ عن ابن عباسٍ.

١ ـ ﴿حمٓ﴾ وما بعده بالإمالة: حمزة، وعليّ، وخلف، ويحيى، وحمّاد ـ رحمهم الله ـ وبين الفتح والكسر: مدنيّ، وغيرهم: بالتفخيم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه اسم الله الأعظم.

٢ ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع بسلطانه عن أن يتقوّل عليه متقوّل ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمن صدّق به، وكذّب فهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين.

٣ ـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساترِ ذنب المذنبين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي الفضل على العارفين، أو: ذي الغِنى عن الكلّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ لمن قال: لا إله إلاّ الله ﴿شديد العقاب﴾ لمن لا يقول: لا إله إلاّ الله. والتوب، والثوب، والأوب: أخوات، في معنى الرجوع. والطَّوْل: الغِنى،

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

والفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة؟ قلت: أمّا ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فمعرفتان؛ لأنّه لم يُرِدْ بهما حدوث الفعلين حتّى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقيّة، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأمّا ﴿شديد العقاب﴾ فهو في تقدير: شديد عقابه، فتكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: لمّا وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأنَّ كلَّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو في: ﴿وقابل التوب﴾ لنكتة، وهي: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محّاءة للذنوب كأن لم يذنب، كأنّه قال: جامع المغفرة، والقبول.

ورُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصير﴾ وختم الكتاب. وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتّى تجده صاحياً، ثمّ أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلمّا أتته الصحيفة جعل يقرؤها، ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه. فلم يبرح يردّدها حتّى بكى. ثمّ نزع، فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلمّا بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلّة فسدّدوه[1]، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[2] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة أيضاً كـ: ﴿ذي الطول﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجع.

٤ ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ما يخاصم فيها بالتكذيب بها،

(١) زاد في المطبوع والكشاف (٤/ ١٥٠): ووقفوه.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٧).

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦﴾

والإنكار لها. وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. وأمّا الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحلّ مشكلها، واستنباط معانيها، وردّ أهل الزيغ بها، فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ بالتجارات النافقة، والمكاسب المربحة، سالمين غانمين، فإنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب. ثمّ بيّن كيف ذلك، فأعلم أنّ الأمم الذين كذّبت قبلهم أهلكت، فقال:

٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل، وناصبوهم ـ وهم: عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ـ ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي: قوم نوح، والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه فيقتلوه. والأخيذ: الأسير ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بالكفر ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليبطلوا به الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مُظْهَر[(١)]: مكّيّ، وحفص. يعني: أنّهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم، فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: وإنّكم تمرّون على بلادهم تعاينون أثر ذلك. وهذا تقريرٌ فيه معنى التَّعجُّب.

٦ ـ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ـ ﴿كلمات ربك﴾: مدنيّ، وشاميّ ـ ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محلّ الرفع بدل من ﴿كلمة ربّك﴾، أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو: في محلّ النصب بحذف لام التعليل، وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك

---

(١) أي: لم تدغم الذال مع التاء كما في قراءة نافع وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾

هؤلاء؛ لأنّ علّة واحدة تجمعهم ﴿أنهم﴾ من ﴿أصحاب النار﴾. ويلزم الوقف على النار؛ لأنّه لو وصل لصار:

٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ ـ يعني: حاملي العرش، والحافّين حوله، وهم الكروبيّون سادة الملائكة ـ صفة لأصحاب النار، وفساده ظاهر.

رُوي: أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طرفهم. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى أمَر جميع الملائكة أن يغدوا، ويروحوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[1]. وقيل: حول العرش سبعون ألف صف قيام، يطوفون به مهلّلين، مكبّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ من الملائكة قيام، يهلّلون ويكبّرون ومن ورائهم مئة ألف صفّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلا وهو يُسبِّح بما لا يسبّح به الآخر ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو: ﴿الذين﴾، ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: مع حمده، أو: الباء تدلّ على أنّ تسبيحهم بالحمْدِ لَهُ ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ وفائدته ـ مع علمنا بأنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبّحون بحمده مؤمنون ـ: إظهار شرف الإيمان، وفضله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصَّلاح لذلك، وكما عقّب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿ويؤمنون به﴾ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كأنّه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم. وفيه دليلٌ على أنّ الاشتراك في الإيمان يجبُ أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿ربّنا﴾ وهذا المحذوف حال ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ فالرحمة والعلم هما اللذان وسعا كلّ شيء في المعنى؛ إذ الأصل: وسع كلّ شيء رحمتك، وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن

(١) قال الحافظ: لم أجده. (الكشاف ٤ / ١٥٢).

فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ
عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ
مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ

أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز، مبالغة في وصفه بالرحمة، والعلم ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة لتناسب ذكر الرحمة، والعلم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريق الهدى الذي دعوت إليها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٨ ـ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ «مَنْ»: في موضع نصب عطف على ﴿هم﴾ في ﴿وأدخلهم﴾ أو: في ﴿وعدتهم﴾ والمعنى: ﴿وعدتهم و﴾ وعدت من صلح من آباءهم ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب. وأنت مع ملكك وعزّتك لا تفعل شيئاً خالياً عن الحكمة. وموجب حكمتك: أن تفي بوعدك.

٩ ـ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جزاء السيّئات، وهو عذاب النار ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ﴾ أي: دفع العذاب ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم، فتناديهم خزنة النار: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم. فاستغنى بذكرها مرّة، والمقت: أشدّ البغض. وانتصاب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بـ«المقت» الأوّل عند الزمخشريّ، والمعنى: أنّه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمّارة بالسوء والكفر ـ حين كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله، وتختارون عليه الكفر ـ أشدّ ممّا تمقتونهنّ اليوم وأنتم في النار، إذ أوقعنكم فيها باتّباعكم هواهنّ. وقيل: معناه: ﴿لمقت الله﴾ إيّاكم الآن ﴿أكبر﴾ من مقت بعضكم لبعض، كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إذ تدعون﴾ تعليل. وقال

﴿فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾

«جامع العلوم» وغيره: ﴿إذ﴾ منصوب بفعل مضمر دلّ عليه ﴿لمقت الله﴾، أي: يمقتهم الله حين دُعُوا إلى الإيمان فكفروا. ولا ينتصب بالمقت الأوّل؛ لأنّ قوله: ﴿لمقت الله﴾ مبتدأ، وهو: مصدر، وخبره: ﴿أكبر من مقتكم﴾ فلا يعمل في ﴿إذ تدعون﴾؛ لأنّ المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلّق به شيء يكون في صلته؛ لأنّ الإخبار عنه يؤذن بتمامه، وما يتعلّق به يؤذن بنقصانه، ولا بالثاني لاختلاف الزمانين، وهذا لأنّهم مقتوا أنفسهم في النار، وقد دُعُوا إلى الإيمان في الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فتصرّون على الكفر.

١١ ـ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتتين وإحياءتين، أو: موتتين وحياتين. وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أوّلاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم. وصحّ أن يُسمّى خلقهم أمواتاً إماتة، كما صحّ أن يقال: سبحان من صغّر جسم البعوضة، وكبّر جسم الفيل. وليس ثمّة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر. والسبب فيه أنّ الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانعُ أحدَ الجائزين، فقد صرف المصنوع من الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه. وبالإحياءتين: الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقيل: الموتة الأولى في الدنيا، والثانية في قبره بعد الإحياء للسؤال. والإحياء الأوّل: إحياؤه في قبره بعد موتها للسؤال، والثاني: للبعث ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا أنّ الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث، وما تبعه من معاصيهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار ـ أي: إلى نوع من الخروج سريع، أو: بطيء لنتخلّص ـ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط، أَم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلامُ مَن غلب عليه اليأس، وإنّما يقولون ذلك تحيّراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ

١٢ ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج قطّ بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ـ ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ شأنه، فلا يردّ قضاؤه، ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ العظيم سلطانه، فلا يحدّ جزاؤه. وقيل: كأنّ الحرورية[1] أخذوا قولهم: «لا حكم إلاّ الله» من هذا. وقال قتادة: لما خرج أهلُ حروراء قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: مَن هؤلاء؟ قيل: المحكّمون. أي: يقولون: لا حكم إلاّ لله. فقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: كلمة حقّ أريد بها باطل.

١٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الريح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وبصريّ ﴿رِزۡقٗا﴾ مطراً؛ لأنّه سبب الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظ، وما يعتبر بآيات الله إلاّ من يتوب من الشرك، ويرجع إلى الله، فالمعاند لا يتذكّر ولا يتّعظ. ثمّ قال للمنيبين:

١٤ ـ ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وإن عاب ذلك أعداءكم؛ ممن ليس على دينكم.

١٥ ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: ﴿هو﴾ مرتّبة على قوله ﴿الذي يريكم﴾. أو: أخبار مبتدأ محذوف. ومعني ﴿رفيع الدرجات﴾: رافع السموات بعضها فوق بعض، أو: رافع درجات عباده في الدنيا بالمنزلة، أو: رافع منازلهم في الجنّة. و﴿ذو العرش﴾ مالك عرشه الذي فوق السموات. خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه في مملكته.

(١) «الحرورية»: طائفة من الخوارج تُنسب إلى «حرور» اسم قرية.

مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ

و﴿الروح﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ أو: الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من أجل ﴿أمره﴾ أو: بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ أي: الله، أو الملقى عليه وهو النبيّ عليه الصلاة والسلام، ويدلّ عليه قراءة يعقوب ﴿لتنذر﴾ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه يلتقي فيه أهلُ السماء وأهل الأرض، والأوّلون والآخرون ﴿التلاقي﴾: مكيّ، ويعقوب.

١٦ ـ ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون، لا يسترهم شيء من جبل، أو: أكمة، أو: بناء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ أي: من أعمالهم، وأحوالهم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه، ثمّ يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر الخلق بالموت. وينتصب ﴿اليوم﴾ بمدلول ﴿لمن﴾ أي: ﴿لمن﴾ ثبت ﴿الملك﴾ في هذا اليوم. وقيل: ينادي مناد، فيقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ فيجيبه أهلُ المحشر: ﴿لله الواحد القهّار﴾.

١٧ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لمّا قرّر: أنّ الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك، وهي: أنّ كل نفس تُجزى ﴿بما كسبت﴾ عملت في الدنيا من خير وشرّ، وأنّ الظلم مأمون منه؛ لأنّه ليس بظلام للعبيد، وأنّ الحساب لا يبطىء؛ لأنّه لا يشغله حسابٌ عن حساب، فيحاسب الخلقَ كلّه في وقتٍ واحد، وهو أسرعُ الحاسبين.

١٨ ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ القيامة، سمّيت بها لأزوفها، أي: لقربها. ويبدل من يوم الأزفة: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبُهم عن مقارّها، فتلصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفّسوا، ويتروّحوا ﴿كَٰظِمِينَ﴾ ممسكين بحناجرهم. من كظم القربة: شدّ رأسها. وهو مُحالٌ من القلوب محمولٌ على أصحابها. وإنّما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنّه وصفها بالكظم؛ الذي هو من أفعال العقلاء. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

للكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ محبّ مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يشفّع. وهو مجازٌ؛ لأنّ الطاعة حقيقة لا تكون إلاّ لمن فوقك. والمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كما في قوله:

... ... ولا تَرَى الضبَّ بها يَنْجَحِرْ[1]

يريد نفي الضبّ وانجحاره، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع البتّة.

١٩ ـ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة. والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحلّ ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وما تسرّه من أمانة، أو خيانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبيّة بشهوة مسارقة، ثمّ يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته مَن بحضرته، والله يعلمُ ذلك كلّه. و﴿يعلم خائنة الأعين﴾: خبر من أخبار ﴿هو﴾ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: ١٣] مثل ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر: ١٥] ولكن ﴿يلقي الروح﴾ قد علّل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾. ثمّ استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

٢٠ ـ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاته لا يحكم إلاّ بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وآلهتهم لا يقضون بشيء. وهذا تهكّم بهم؛ لأنّ ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو: لا يقضي. ﴿تدعون﴾: نافع ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ووعيدٌ لهم بأنّه يسمع ما يقولون، ويُبصر ما يعملون، وأنّه يعاقبهم عليه، وتعريضٌ بما يدعون من دونه، وأنّها لا تسمع، ولا تبصر.

---

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.

۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾

٢١ ـ ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: آخر أمر الذين كذّبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿هم﴾: فصل، وحقّه أن يقعَ بين معرفتين، إلاّ أنّ ﴿أشدّ منهم﴾ ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجري مجراه. (منكم): شاميّ ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: حصوناً، وقصوراً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ عاقبهم بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ولم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله.

٢٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: الأخذ بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ قادر على كل شيء ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجّة ظاهرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟﴾: هو ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فسمّوا السلطان المبين: سحراً، وكذباً.

٢٥ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالنبوّة ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أوّلاً ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: ضياع. يعني: أنهم باشروا قتلهم أوّلاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني هذا القتل الثاني.

وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بعث موسى ـ عليه السلام ـ وأحسَّ بأنّه قد وقع، أعاده عليهم غيظاً، وظنّاً منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرة موسى ـ عليه السلام ـ وما علم أنّ كيده ضائع في الكرّتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾. كان إذا همّ بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقلّ من ذلك، وما هو إلاّ ساحر، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنّك عجزتَ عن معارضته بالحجّة. والظاهر أنّ فرعون قد استيقن أنه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ وما هو بسحر، ولكن كان فيه خبّ، وكان قتّالاً، سفّاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل مَن أحسّ بأنّه هو الذي يهدمُ ملكه؟ ولكنّه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد على فرط خوفه منه، ومِن دعوته ربّه. وكان قوله: ﴿ذروني أقتل موسى﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنّهم هم الذين يكفّونه، وما كان يكفّه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغيّر ما أنتم عليه. وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ بضمّ الياء، ونصب الدال: مدنيّ، وبصريّ، وحفص، وغيرهم: بفتح الياء، ورفع الدال، والأوّل أولى لموافقة ﴿يُبَدِّل﴾، والفساد في الأرض: التقاتل، والتّهارج الذي يذهب معه الأمن، وتتعطّل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً. كأنّه قال: ﴿إنّي أخاف﴾ أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وقرأ غير أهل الكوفة: ﴿وأن﴾. ومعناه: ﴿إنّي أخاف﴾ فساد دينكم ودنياكم معاً.

٢٧ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لمّا سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. وفي قوله: ﴿ربّكم﴾ بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكّل عليه اعتصامه. وقال: ﴿من كلّ متكبّر﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ. وأراد بالتكبّر: الاستكبار عن الإذعان للحقّ. وهو أقبحُ استكبار، وأدلُّه على دناءة صاحبه، وعلى فرط

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

ظلمه. وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنّه إذا اجتمع في الرجل التجبُّر، والتكذيب بالجزاء، وقلّة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلاّ ارتكبها. وعذت، ولذت: أخوان. و(عتّ) بالإدغام: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ.

٢٨ ـ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ قيل: كان قبطيّاً، ابن عمّ لفرعون، آمن بموسى سرّاً. و﴿من آل فرعون﴾: صفة لرجل. وقيل: كان إسرائيليّاً. و﴿من آل فرعون﴾ صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون. واسمه: سمعان، أو: حبيب، أو: خربيل، أو: حزبيل. والظاهر الأوّل ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ﴾ لـ: ﴿أن يقول﴾. وهذا إنكارٌ منه عظيم، كأنّه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرّمة، وما لكم علّة في ارتكابها إلاّ كلمة الحقّ؟ وهي قوله: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وهو ربُّكم أيضاً لا ربّه وحده ﴿وَقَدْ جَآءَكُم﴾ الجملة حال ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: أنّه لم يُظْهِر لتصحيح قوله ببيّنة واحدة، ولكن بيّنات من عند من نُسِبَتْ إليه الربوبيّة. وهو استدراجٌ لهم إلى الاعتراف به ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ احتجّ عليهم بطريق التقسيم، فإنّه لا يخلو من أن يكون كاذباً، أو: صادقاً. فإن: ﴿يك كاذباً فعليه﴾ وبال ﴿كذبه﴾ ولا يتخطّاه ﴿وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ من العذاب. ولم يقل: كلّ الذي يعدكم ـ مع أنّه وعد من نبيّ صادق القول ـ مداراة لهم، وسلوكاً لطريق الإنصاف. فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له. وليس فيه نفي إصابة الكلّ، فكأنّه قال لهم: أقلّ ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم. وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضاً. وتفسير البعض بالكلّ مزيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مجاوز للحدّ ﴿كَذَّابٌ﴾ في ادّعائه. وهذا أيضاً من باب المجاملة،

يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ

والمعنى: أنّه إن كان مسرفاً كذّاباً خذله الله، وأهلكه، فتتخلّصون منه. أو: لو كان مسرفاً كذّاباً لما هداه الله بالنبوّة، ولما عضده بالبيّنات. وقيل: أوهم أنه عنى بالمسرف موسى، وهو يعني به: فرعون.

٢٩ ـ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾: عالين ـ وهو حال من ﴿كم﴾ في ﴿لكم﴾ ـ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ يعني: أنّ لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرّضوا لبأس الله، أي: عذابه، فإنّه لا طاقة لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿ينصرنا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنّه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم برأي إلاّ بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلاّ قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح. أو: ما أعلمكم إلاّ ما أعلم من الصواب، ولا أدّخر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ـ عليه السلام ـ ولكنّه كان يتجلّد. ولولا استشعاره لم يستشر أحداً، ولم يقِفِ الأمرَ على الإشارة.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: مثل أيّامهم؛ لأنّه لمّا أضافه إلى الأحزاب، وفسّرهم بقوله:

٣١ ـ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ولم يُلْبِس أنّ كلّ حزب منهم كان لهم يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم في عملهم من: الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصي، وكون ذلك دائباً منهم لا يفترون عنه. فلا بدّ من حذف مضاف، أي: ﴿مثل﴾ جزاء دأبهم. وانتصاب

وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿مثل﴾ الثاني بأنّه عطف بيان لمثل الأوّل ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذّبهم بغير ذنب، أو: يزيد على قدر ما يستحقّون من العذاب، يعني: أن تدميرَهم كان عدلاً؛ لأنّهم استحقّوه بأعمالهم، وهو أبلغُ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكّر، وَمَنْ بعد عن إرادة ظلم مّا لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة بأنّه لا يريدُ لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأنّ أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك. وهذا تخويفٌ بعذاب الدنيا. ثمّ خوّفهم من عذاب الآخرة بقوله:

٣٢ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[1] ـ أي: يوم القيامة. ﴿التَّنادِ﴾: مكّيّ، ويعقوب، في الحالين. وإثبات الياء هو الأصل، وحذفها حسن؛ لأنّ الكسرة تدلّ على الياء، وأواخر هذه الآي على الدال. وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وقيل: ينادى: ألا إنّ فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إنّ فلاناً شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

٣٣ ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع، ودافع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد.

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هو يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ. وقيل: يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة. وقيل: إنّ فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمّر إلى زمنه.

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿التنادي﴾ وهي قراءة: ورش، وابن وردان، وعبد الوارث، وقالون. معجم القراءات القرآنية (٦/ ٤٤).

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾

وقيل: هو فرعون آخر. وبّخهم بأنّ يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ فشككتم فيها، ولم تزالوا شاكّين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، أي: أقمتم على كفركم، وظننتم أنّه لا يجدّد عليكم إيجاب الحجّة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: مثل هذا الإضلال يضلّ الله كلّ مسرف في عصيانه، مرتاب، شاكّ في دينه.

٣٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ ـ بدل من ﴿من هو مسرف﴾ وجاز إبداله منه، وهو جمع؛ لأنّه لا يريد مسرفاً واحداً، بل كلّ مسرف ـ ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في دفعها، وإبطالها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي: عظم بغضاً. وفاعل ﴿كبر﴾ ضمير ﴿من هو مسرف﴾ وهو جمع معنى، وموحّد لفظاً. فحمل البدل على معناه. والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يرفع ﴿الذين﴾ على الابتداء، ولابد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في ﴿كبر﴾ تقديره: جدال ﴿الذين يجادلون كبر مقتاً﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿قلبٍ﴾ بالتنوين: أبو عمرو. وإنّما وصف القلب بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما، كما تقول: سَمِعَتِ الأذنُ، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة.

٣٦ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه، أو: جهلاً منه: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ قصراً ـ وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه يقال: صَرِح الشيء: إذا ظهر ـ ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ ـ وبفتح الياء: حجازيّ، وشاميّ، وأبو عمرو ـ ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾، ثمّ أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإبانةً أنّه يقصد أمراً عظيماً:

أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

٣٧ ـ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: طرقها، وأبوابها، وما يؤدّي إليها ـ وكل ما أدّاك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه ـ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب حفص، على جواب الترجّي، تشبيهاً للترجّي بالتمنّي. وغيره بالرفع عطفاً على ﴿أبلغ﴾ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ والمعنى: فأنظر إليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في قوله: له إله غيري ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين، وذلك الصدّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيمة. وبفتح الصاد: غير كوفي ويعقوب، أي: غيره صدّاً، أو: هو بنفسه صدوداً. والمزيّن: الشيطان بوسوسته، كقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]. أو الله تعالى، ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[النمل: ٤] ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسران، وهلاك.

٣٨ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ ﴿اتبعوني﴾ في الحالين: مكّيّ، ويعقوب، وسهل ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هو نقيض الغيّ. وفيه تعريضٌ شبيه بالتصريح: أنّ ما عليه فرعون وقومه سبيل الغيّ. أجمل أوّلاً، ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا، وتصغير شأنها بقوله:

٣٩ ـ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تمتّع يسير. فالإخلادُ إليها أصلُ الشرّ، ومنبع الفتن. وثنّى بتعظيم الآخرة، وبيّن أنّها هي الوطن والمستقرّ بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

ثمّ ذكر الأعمال سيّئها وحسنها، وعاقبة كلّ منهما ليثبّط عمّا يتلف، وينشّط لما يُزلف، بقوله:

٤٠ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ـ ﴿يُدخلون﴾: مكّيّ، وبصريّ، ويزيد، وأبو بكر.

٤١، ٤٢ ـ ثمّ وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتّخاذ الأنداد؛ الذي عاقبته النار، بقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ﴾ ـ وبفتح الياء: حجازيّ، وأبو عمرو ـ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: الجنة ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ ـ هو بدل من ﴿تدعونني﴾ الأول. يقال: دعاه إلى كذا، ودعاه له، كما يقال: هداه إلى الطريق، وهداه له ـ ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيّته. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنّه قال: ﴿وأشرك به ما ليس﴾ بإله، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلهاً؟ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ وهو الله سُبحانه وتعالى. وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنّهم قومه، وأنه من آل فرعون. وجيء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ لأنّ الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل، وتفسير له بخلاف الثالث.

٤٣ ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾ عند البصريين ﴿لا﴾ ردّ لما دعاه إليه قومه، و﴿جرم﴾ فعل بمعنى حقّ، و﴿أنّ﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي: حقّ، ووجب بطلان دعوته ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ معناه: ﴿أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة﴾ إلى نفسه قطّ، أي: من حقّ المعبود بالحقّ أن يدعو العباد إلى طاعته. وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدّعي الربوبيّة. أو: معناه ليس له استجابة دعوة ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أو: ﴿دعوة﴾ مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها، ولا منفعة كلا دعوة. أو: سميّت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمّي الفعل المجازى عليه باسم

وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ

بالجزاء، في قولهم: «كما تدين تدان»[1] ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأنّ رجوعنا إليه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

٤٤ ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ وأسلّم ﴿أَمْرِىٓ﴾ ـ وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنهم توعّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بأعمالهم، ومآلهم.

٤٥ ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائد مكرهم، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: إنّه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألف في طلبه، فمنهم مَن أكلته السباع، ومَن رجع منهم صَلَبه فرعون ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٤٦ ـ ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من ﴿سوء العذاب﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو: مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعرضهم عليها: إحراقهم بها ـ يقال: عرض الإمامُ الأسارى على السيف؛ إذا قتلهم به ـ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: في هذين الوقتين يعذّبون بالنار. وفيما بين ذلك إمّا أن يعذبوا بجنس آخر، أو: ينفّس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غدوّاً وعشيّاً﴾ عبارة عن الدوام. هذا في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال لخزنة جهنّم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ من: الإدخال. مدنيّ، وحمزةُ، وعليٌّ، وحفصٌ، وخلفٌ، ويعقوب. وغيرهم: ﴿ادخُلوا﴾ أي: يُقال لهم: ﴿ادخلوا﴾ يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاب جهنّم. وهذه الآيةُ دليلٌ على عذاب القبر.

٤٧ ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ ﴿و﴾ اذكر وقت تخاصمهم ﴿فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ

(١) انظره في: الأمثال النبوية (٢/ ٥٣) ومجمع الأمثال (٢/ ١٥٥ و١٦٢).

ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾

ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ يعني: الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ تباعاً، كخدم في جمع خادم ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبٗا﴾ جزءاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

٤٨ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، أي: ﴿إنّا﴾ كلّنا ﴿فيها﴾ لا يغني أحدٌ عن أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار.

٤٩ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوّام بتعذيب أهلها. وإنّما لم يقل لخزنتها؛ لأنّ في ذكر ﴿جهنّم﴾ تهويلاً وتفظيعاً. ويحتمل أنّ جهنّم هي أبعدُ النار قعراً؛ من قولهم: بئر جهنّام؛ بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفّار، وأطغاهم، فلعلّ الملائكة الموكّلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله؛ فلهذا تعمّدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ـ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا﴾ قدْرَ يومٍ من الدنيا ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

٥٠ ـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزنة توبيخاً لهم بعد مدّة طويلة: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ﴾ أي: أولم تكن القصّة. وقوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ تفسير للقصّة ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُواْ﴾ أي: الكفّار: ﴿بَلَىٰۚ قَالُواْ﴾ أي: الخزنة تهكّماً بهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ أنتم، فلا استجابة لدعائكم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ بطلان. وهو من قول الله تعالى عزَّ وجلَّ. ويحتمل أن يكونَ من كلام الخزنة.

٥١ ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنّه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجّة والظفر على

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ

مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتصّ مِن أعدائهم ولو بعد حين. ﴿يوم﴾ نصب محمول على موضع الجارّ والمجرور، كما تقول: جئتك في أمس واليوم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند ربّ العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال. ﴿تقوم﴾: الرازيّ، عن هشام.

٥٢ ـ ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ ﴾ هذا بدل من ﴿يوم يقوم﴾، أي: لا يقبل عذرهم ﴿لا ينفع﴾: كوفيّ، ونافع ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: ﴿سوء﴾ دار الآخرة، وهو: عذابها.

٥٣ ـ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يريد به: جَميع ما أتاه في باب الدين من: المعجزات، والتوراة، والشرائع ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور، لأنّ الكتاب جنس.

٥٤ ـ ﴿ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ﴾ إشهاداً وتذكرة. وانتصابهما على المفعول له، أو: على الحال ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لذوي العقول.

٥٥ ـ ﴿ فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما يجرّعك قومك من الغصص ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يعني: أنَّ ما سبق به وعدي من نصرتك، وإعلاء كلمتك ﴿حق﴾ ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: لذنب أمّتك ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: دُمْ على عبادة ربّك، والثناء عليه. وقيل: هما صلاتا العصر والفجر. وقيل: قل: سبحان الله، وبحمده.

٥٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ لا وقف

إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا

عليه؛ لأنّ خبر إنّ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تعظّم، وهو إرادةُ التقدّم؛ والرياسة، وألا يكون أحدٌ [فوقهم][1] فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم، ويكونوا تحت يدك، وأمرك، ونهيك؛ لأنّ النبوّة تحتها كلّ ملك ورياسة. أو: إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسداً، وبغياً. ويدلّ عليه قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو: إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ ببالغي موجب الكبر ومقتضاه، وهو متعلّق إرادتهم من الرياسة، والنبوّة، أو: دفع الآيات ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىءْ إليه من كيد مَن يحسدك، ويبغي عليك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما تقول ويقولون ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرّهم.

٥٧ ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ لمّا كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، وهو أصلُ المجادلة، ومدارها، حجّوا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرّين بأنّ الله خالقها، فإنّ مَن قدر على خَلْقها مع عظمها، كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتأمّلون؛ لغلبة الغفلة عليهم.

٥٨ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ «لا» زائدة ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون. بتاءين: كوفيّ. وبياء، وتاء: غيرهم. و﴿قليلاً﴾ صفة مصدر محذوف، أي: تذكّراً قليلاً يتذكّرون. و﴿ما﴾ صلة زائدة.

٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا بدّ من مجيئها، وليس بمرتاب فيها؛

(١) مستدرك من المطبوع.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

لأنّه لا بدَّ من جزاء؛ لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصّة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها.

٦٠ ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم. فالدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن؛ ويدلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ هذه الآية ﷺ[(١)]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وحِّدوني أغفر لكم. وهذا تفسيرٌ للدعاء بالعبادة. ثمّ للعبادة بالتوحيد. وقيل: سلوني أعطكم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ ﴿سَيُدْخَلون﴾: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

٦١ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هو من الإسناد المجازيّ، أي: مبصراً فيه؛ لأنّ الإبصارَ في الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، ولم يكونا حالين، أو: مفعولاً لهما، رعاية لحقّ المقابلة؛ لأنّهما متقابلان معنى؛ لأنّ كلّ واحد منهما يؤدّي مؤدّى الآخر، ولأنّه لو قيل: لتبصروا فيه؛ فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازيّ، ولو قيل: ساكناً، لم تتميّز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة. ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج؟! وساكن لا رَيحٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لَمُفَضِّلٌ، أو: لَمتفضّل؛ لأنّ المرادَ تنكيرُ الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنّما يكون بالإضافة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم؛ حتّى لا يتكرر ذكر الناس؛ لأنّ في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنّهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٧) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٢٤٧) وابن ماجه (٣٨٢٨).

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

---

٦٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من: الإلهية والربوبيّة، وخلق كلّ شيء، والوحدانيّة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، ومن أيّ وجهٍ تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟!

٦٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كلّ من جحد بآيات الله، ولم يتأمّلها، ولم يطلب الحقّ؛ أفك كما أفكوا.

٦٤ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرّاً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذيذات ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦٥ ـ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مَن قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: والحمد لله ربّ العالمين.

٦٦ ـ ولمّا طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان نزل: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ هي: القرآن، وقيل: العقل، والوحي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أستقيم، وأنقاد ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ

٦٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أي: أصلكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اقتصر على الواحد؛ لأنّ المرادَ بيانُ الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلّق بمحذوف، تقديره: ﴿ثمّ﴾ يبقيكم ﴿لتبلغوا﴾. وكذلك ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين: مكّيّ، وحمزة، وعليّ، وحمّاد، ويحيى، والأعشى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بلوغ الأشدّ، أو: من قبل الشّيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معناه: ﴿و﴾ يفعل ذلك ﴿لتبلغوا أجلاً مسمّى﴾ وهو وقت الموت، أو: يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر، والحجج.

٦٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فإنّما يكوّنه سريعاً من غير كلفة.

٦٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام، أو: ثلاثة أصناف، أو: للتأكيد.

٧٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٧١، ٧٢ ـ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ إذ: ظرف زمان ماض، والمراد به الاستقبال هنا؛ لقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ وهذا لأنّ الأمور المستقبلة لمّا كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها، عبّر عنها بلفظ ما كان، ووجد، والمعنى: على الاستقبال ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾. والخبر: ﴿في أعناقهم﴾. والمعنى: ﴿إذ الأغلال﴾ والسلاسل في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ يجرّون

ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ

في الماء الحارّ ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ من: سجر التنّور: إذا ملأه بالوقود، ومعناه: أنّهم في النار، فهي محيطةٌ بهم، وهم مسجورون بالنار، مملوءة بها أجوافهم.

٧٣، ٧٤ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ☆ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني: الأصنام التي تعبدونها ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: تبيّن لنا أنّهم لم يكونوا شيئاً، وما كنّا نعبد بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أنّ فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء، إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو طلبوا الآلهة، أو: طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا، أو: كما أضلّ هؤلاء المجادلين يضلّ سائر الكافرين؛ الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين.

٧٥ ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحقّ، وهو: الشرك، وعبادة الأوثان. فيقال لهم:

٧٦ ـ ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم ـ قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلود ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقّ، جهنّمُ.

٧٧ ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بإهلاك الكفّار ﴿حَقّٞ﴾ كائن. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فإن نُرِكَ، و﴿ما﴾ مزيدة، لتوكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألاَ تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن:

بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

إمّا تكرمنّي أكرمك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هذا الجزاء متعلّق بنتوفينّك، وجزاء ﴿نرينّك﴾ محذوف، وتقديره: ﴿فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب، وهو: القتل يوم بدر، فذاك ﴿أو﴾ إن ﴿نتوفينّك﴾ قبل يوم بدر ﴿فإلينا يرجعون﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشدّ الانتقام.

٧٨ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أممهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبيّ: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الله تعالى بعث نبيّاً أسود، فهو ممن لم تذكر قصّته في القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً، يعني: إنّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية ممّا تقترحونه إلاّ أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة. وهو وعيدٌ وردّ عقيب اقتراحهم الآيات ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون؛ الذين اقترحوا الآية[1].

٧٩ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.

٨٠ ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: الألبان، والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها، وعلى الفلك في البرّ، والبحر.

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: الآيات عناداً.

وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾

٨١ ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أنّها[1] من عند الله. و﴿أيّ﴾ نصب بـ﴿تنكرون﴾. وقد جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأيّة آيات الله قليل؟ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنّث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحمارة غريب، وهي في «أيّ» أغرب لإبهامه.

٨٢ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بدلاً[2] ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قصوراً، ومصانع ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ـ ما نافية ـ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلمّا جاءهم الرسل بعلوم الديانات ـ وهي: أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا، والظلف[3] عن الملاذّ والشهوات ـ لم يلتفتوا إليها وصغّروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا: أنّه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم الفلاسفة والدهريّين؛ فإنّهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى ـ عليه السلام ـ وقيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذّبون، فلا حاجةَ بنا إلى مَن يُهذّبنا. أو: المراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به، كأنّه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، مرحين. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أو: الفرح للرسل، أي: الرسل لمّا رأوا جهلهم،

(١) زاد في الأصل المخطوط: ليست، ولم نَرَ إثباتها؛ لأنّ المعنى سيتغيّر.
(٢) كذا في الأصل المخطوط، و«بدل الشيء»: الخَلَفُ منه.
(٣) «الظلف»: الكفُّ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

واستهزاءهم بالحقّ، وعلموا سوء عاقبتهم، وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم، واستهزائهم، فرحوا بما أوتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلهم، واستهزائهم.

٨٤ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدّة عذابنا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

٨٥ـ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يصحّ، ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ ـ بمنزلة وعد الله، ونحوه من المصادر المؤكّدة ـ ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أنّ الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع، وأنّ العذاب نازل بمكذّبي الرسل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿هنالك﴾: مكان مستعار للزمان. والكافرون خاسرون في كلّ أوان، ولكنه يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات: أنّ ﴿فما أغنى عنهم﴾ نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾؛ و﴿فلمّا جاءتهم﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ كقوله: رزق زيد المال، فمنع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء؛ و﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ تابع لقوله: ﴿فلمّا جاءتهم﴾ كأنّه قال: فكفروا ﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ آمنوا. وكذلك ﴿فلم يك ينفعهم﴾ تابع لإيمانهم لمّا رأوا بأس الله.

* * *

سورة فصلت

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

١، ٣ ـ ﴿حمٓ﴾ إن جعلته اسماً للسورة كان مبتدأ، و: ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبره. وإن جعلته تعديداً للحروف كان ﴿تنزيل﴾ خبراً لمبتدأ محذوف. و﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: ﴿تنزيل﴾: مبتدأ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفته ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ميزت، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من: أحكام، وأمثال، ومواعظ، ووعد، ووعيد، وغير ذلك ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصّل ﴿قرآناً﴾ من صفته كيت وكيت، أو: على الحال، أي: ﴿فصّلت آياته﴾ في حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لقوم﴾ عرب ﴿يعلمون﴾ ما نزّل عليهم من الآيات المفصّلة، المبيّنة بلسانهم العربيّ. و﴿لقوم﴾ يتعلّق بتنزيل، أو: بفصّلت. أي: ﴿تنزيل﴾ من الله لأجلهم، أو: ﴿فصّلت آياته﴾ لهم. والأظهر أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده. أي: ﴿قرآناً عربياً﴾ كائناً ﴿لقوم﴾ عرب.

٤ ـ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان لقرآناً ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي:

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ

لا يقبلون، من قولك: تشفّعت إلى فلان، فلم يسمع قولي، ولقد سمعه ولكنّه لمّا لم يقبله، ولم يعمل بمقتضاه، فكأنّه لم يسمعه.

٥ ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أغطية، جمع: كنان، وهو: الغطاء ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ ستر. وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبّل الحقّ، واعتقاده، كأنّها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، ومجّ أسماعهم له، كأنّ بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين، كأنّ بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً، وحاجزاً منيعاً من جبل، أو: نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا. أو: ﴿فاعمل﴾ في إبطال أمرنا ﴿إنّنا عاملون﴾ في إبطال أمرك. وفائدة زيادة ﴿مِنْ﴾ أنّ الحجاب ابتدأ منّا، وابتدأ منك، فالمسافة المتوسّطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. ولو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى: أنّ حجاباً حاصل وسط الجهتين.

٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿قلوبنا في أكنّة﴾. ووجهه: أنّه قال لهم: إني لست بملك، وإنّما أنا بشر مثلكم، وقد أوحي إليّ دونكم، فصحّت نبوّتي بالوحي إليّ وأنا بشر، وإذا صحّت نبوّتي وجب عليكم اتّباعي، وفيما يوحى إليّ: أنّ إلهكم إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد، وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتّخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا يؤمنون بوجوب الزكاة، ولا يعطونها، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو: الإيمان ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالبعث،

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وإنّما جمع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؛ لأنّ أحبّ شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيقُ روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على استقامته، وصدق نيّته، ونصوع طويّته. وما خدع[1] المؤلّفة قلوبهم إلاّ بلُمظة[2] من الدنيا، فقرّت عصبيتهم، ولانت شكيمتهم. وما ارتدّت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها.

٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع. قيل: نزلت في المرضى، والزمنى، والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة، كتب لهم الأجر كما كانوا يعملون[3].

٩ ـ ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والإثنين، تعليماً للأناة، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شركاء، وأشباهاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق جميع الموجودات، وسيّدها، ومربّيها.

١٠ ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾. وإنّما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها، وليبصر أنّ الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلّها مفتقرة إلى ممسكٍ، وهو: الله عزّ وجلّ ﴿وَبَٰرَكَ﴾ بالماء، والزرع، والشجر، والثمر ﴿فِيهَا﴾ في الأرض. وقيل: ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أرزاق أهلها، ومعايشهم، وما يصلحهم. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وقسم فيها أقواتها) ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمة أربعة أيام. يريد بالتتمّة: اليومين، تقول: سرت من البصرة

(١) استعمال «خدع» غير لائق؛ لأنه ﷺ إنما تألفهم من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.
(٢) «اللمظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.
(٣) أي: في حال صحتهم.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾

إلى بغداد في عشرة، وإلى الكوفة في خمسة عشر، أي: في تتمّة خمسة عشر. ولا بدّ من هذا التقدير؛ لأنّه لو أجري على الظاهر لكانت ثمانية أيّام، لأنه قال: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ ثمّ قال: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ ثم قال: ﴿فقضاهنّ سبع سموات في يومين﴾ فيكون خلاف قوله ﴿في ستّة أيام﴾ في موضع آخر. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والعمران، والخراب، فتلك أربعة أيام. وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة، وخلق آدم ـ عليه السلام ـ في آخر ساعة من يوم الجمعة»[1]. قيل: هي السَّاعة التي تقومُ فيها القيامة ﴿سَوَآءً﴾ ﴿سواءٍ﴾: يعقوب، صفة للأيام، أي: في أربعة أيام مستويات، تامّات ﴿سَوَآءٌ﴾: يزيد، أي: هي سواء. غيرهما: على المصدر، أي: استوت ﴿سواء﴾ أي: استواء، أو: على الحال ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلّق بـ﴿قدّر﴾، أي: قدّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها، المحتاجين إليها؛ لأن كلاًّ يطلب القوت، ويسأله، أو: بمحذوف، كأنّه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها؟

١١ ـ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد. تقول العرب: فعل فلان كذا ثمّ استوى إلى عمل كذا، يريدون: أنّه أكمل الأوّل، وابتدأ الثاني. ويفهم منه أنّ خلق السماء كان بعد خلق الأرض. وبه قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وعنه: أنه قال: أوّل ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة، في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثمّ ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع، واجتمع زبد، فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً، والدخان سماء.

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٢٧) ومسلم (٢٧٨٩).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنّه أراد أن يكوّنهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع. وإنّما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأنّه قد خلق جرم الأرض أوّلاً غير مدحوّة، ثمّ دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقبيّة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضيّاً. وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأنّ امتناعهما من تأثير قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلنّ هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنّه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين، أو: مكرهتين. وإنّما لم يقل طائعتين على اللفظ، أو: طائعات على المعنى؛ لأنّهما سموات، وأرضون؛ لأنّهنّ لمّا جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: ﴿طائعين﴾ في موضع طائعات، كقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

١٢ ـ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ فأحكم خلقهن. قال:

وعَلَيْهِما مَسْرُودَتان قَضاهُما[1] ... ...

والضمير يرجع إلى السماء؛ لأنّ السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسّراً بقوله: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾. والفرق بين النّصبين: أنّ الأوّل: على الحال، والثاني: على التمييز، ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في يوم الخميس، والجمعة ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ ما أمر به فيها، ودبّره من خَلْق الملائكة والنيران، وغير ذلك ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ القريبة من الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بكواكب ﴿وَحِفۡظٗا﴾ وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظاً ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بمواقع الأمور.

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب، وعجزه: داودُ؛ أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّعُ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

١٣ ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوّفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ عذاباً شديد الوقع، كأنّه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

١٤ ـ ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كلّ جانب، وأعملوا فيهم كلّ حيلة، فلم يروا منهم إلاّ الإعراض. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم، وعذاب الآخرة. ﴿أن﴾ بمعنى أي، أو: مخففة من الثقيلة، أصله: بأنّه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا﴾ أي: القوم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل ـ فمفعول شاء محذوف ـ ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. معناه: فإذا أنتم بشر، ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمن بكم، وبما جئتم به. وقوله: ﴿أرسلتم به﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنّما هو على كلام الرسل، وفيه تهكّم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقوله: ﴿فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء؛ الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

رُوي: أن قريشاً بعثوا عتبة بن ربيعة ـ وكان أحسنهم حديثاً ـ ليكلِّم رسولَ الله ﷺ وينظر ما يردُّ. فأتاه وهو في الحطيم، فلم يسأل شيئاً إلاّ أجابه، ثم قرأ ﷺ عليه السورةَ إلى قوله: ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فناشده بالرحم، وأمسك على فيه، ووثب مخافة أن يصبّ عليهم العذاب، فأخبرهم به، وقال: لقد عرفتُ السحر والشعر، فوالله ماهو بساحر ولا بشاعر، فقالوا: لقد صبأت، أما فهمتَ منه كلمة؟ فقال: لا، ولم أهتدِ إلى جوابه، فقال عثمان بن مظعون: ذلك والله لتعلموا أنّه من ربّ العالمين.

ثم بيّن ما ذكر من صاعقة عاد وثمود، فقال:

١٥ ـ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تعظّموا فيها على أهلها

وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ

بما لا يستحقّون به التعظُّم، وهو القوّة، وعظم الأجرام. أو: استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال، وخَلْق عظيم، وبلغ من قوّتهم أنّ الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أولم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أوسع منهم قدرة؛ لأنّه قادرٌ على كلّ شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوف على ﴿فاستكبروا﴾، أي: كانوا يعرفون أنّها حقّ، ولكنّهم جحدوها، كما يجحد المودعُ الوديعة.

١٦ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة تصرصر، أي: تصوّت في هبوبها، من: الصرير. أو: باردة، تحرق بشدّة بردها. تكرير لبناء الصرّ، وهو البرد. قيل: إنّها الدّبور ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم ﴿نحْسات﴾: مكّيّ، وبصريّ، ونافع. نُحِس نَحَساً: نقيض سعد سعداً. وهو نَحِس. وأما نَحْس فإمّا مخفّف نحِس، أو: صفة على فعْل، أو: وصف بمصدر. وكانت من الأربعاء في آخر شوّال إلى الأربعاء. وما عذّب قوم إلاّ في الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضاف العذابَ إلى الخزي، وهو: الذلّ، على أنّه وصف للعذاب، كأنّه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد الفعل السّيّىء، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازيّ. ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به، فشتّان ما بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ من الأصنام التي عبدوها، على رجاء النصر لهم.

١٧ ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع على الابتداء هو الفصيح لوقوعه بعد حرف الابتداء. والخبر: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾. وبالنصب المفضّل بإضمار فعل يُفسِّره ﴿فهديناهم﴾ أي: بيّنا لهم الرشد ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ داهية العذاب ﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان، وصف

بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا

به العذاب مبالغة، أو: أبدله منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بكسبهم، وهو شركهم ومعاصيهم. وقال الشيخ أبو منصور: يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين كما بيّنا، ويحتمل خلق الاهتداء فيهم، فصاروا مهتدين، ثمّ كفروا بعد ذلك، وعقروا الناقة؛ لأنّ الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان، والتوفيق، وخَلْق فعل الاهتداء. فأمّا الهدى المضاف إلى الخَلْق يكون بمعنى البيان لا غير.

وقال صاحب «الكشّاف» فيه: فإن قلت: أليس معنى قولك هديته حصَّلت فيه الهدى؟ الدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت: للدلالة على أنّه مكّنهم، فأزاح عللهم، ولم يُبْقِ لهم عُذراً، فكأنّه حصّل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها، ويقتضيها.

وإنّما تمحّل بهذا؛ لأنّه لا يتمكّن من أن يفسّره بخلق الاهتداء؛ لأنّه يخالف مذهبه الفاسد.

١٨ ـ ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اختاروا الهدى على العمى من تلك الصاعقة ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ اختيار العمى على الهدى.

١٩ ـ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: الكفّار من الأوّلين والآخرين. ﴿نَحشُرُ أعداءَ﴾: نافع، ويعقوب ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتّى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارةٌ عن كثرة أهل النار. وأصله: من وزَعته، أي: كففته.

٢٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ صاروا بحضرتها. و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد: أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وقيل: هي كناية عن الفروج.

٢١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها عليهم

قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الحيوان. والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله؛ الذي قدر على إنطاق كلّ حيوان ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وهو قادرٌ على إنشائكم أوّل مرّة، وعلى إعادتكم، ورَجْعِكم إلى جزائه.

٢٢ ـ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنّكم كنتم غير عالمين بشاهدتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث، والجزاء أصلاً ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولكنّكم إنّما استترتم لظنّكم: ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ وهو الخفيّات من أعمالكم.

٢٣ ـ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ وذلك الظنّ هو الذي أهلككم ﴿وذلكم﴾ مبتدأ، و﴿ظنّكم﴾ خبر. و﴿الذي ظننتم بربكم﴾ صفته، و﴿أرداكم﴾ خبر ثان. أو: ﴿ظنكم﴾ بدل من ذلكم، و﴿أرداكم﴾ الخبر ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

٢٤ ـ ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكّوا به من الثواء في النار ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يطلبوا الرضا فمالهم من المرضيّين، أو: وإن يسألوا العتبى ـ وهي: الرجوعُ لهم إلى ما يحبّون جزعاً مما هم فيه ـ لمْ يعتبوا: لم يُعطوا العتبى، ولم يُجابوا إليها.

٢٥ ـ ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدّرنا لمشركي مكّة، يقال: هذان ثوبان قَيْضان أي: مثلان. والمقايضة: المعاوضة. وقيل: سلّطنا عليهم ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً من الشياطين؛ جمع قرين، كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ

فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ

﴿قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدّم من أعمالهم، وما هم عازمون عليها. أو: ﴿ما بين أيديهم﴾ من أمر الدنيا، واتّباع الشهوات ﴿وما خلفهم﴾ من أمر العاقبة، وأن لا بَعْثَ ولا حساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملة أمم. ومحلّه النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾، أي: ﴿حقّ عليهم القول﴾ كائنين ﴿في﴾ جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ قبل أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ هو تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم، وللأمم.

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ إذا قُرِىء ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتّى تشوّشوا عليه، وتغلبوا على قراءته. واللغو: الساقط من الكلام؛ الذي لا طائلَ تحته.

٢٧ ـ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يجوز أن يريدَ بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين، والآمرين لهم باللغو خاصّة، وأن يذكر الذين كفروا عامّة لينطوي تحت ذكرهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿ولنجزينّهم﴾ أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر.

٢٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الأسوأ. ويجب أن يكون التقدير: ﴿أسوأ﴾ جزاء ﴿الذي كانوا يعملون﴾ حتّى تستقيم هذه الإشارة ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: النار في نفسها دار الخلد. كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها ﴿جَزَآءًۢ﴾ أي: جوزوا بذلك جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٢٩ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ وبسكون الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا في فَخِذ فَخْذ: مكّيّ، وشاميّ، وأبو بكر. وبالاختلاس: أبو عمرو ﴿ٱلَّذَيْنِ

أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

﴿أَضَلَّانَا﴾ أي: الشيطانين الذين أضلانا ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ لأنّ الشيطان على ضربين: جنّيّ، وإنسيّ. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ـ ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار جزاء إضلالهم إيّانا.

٣٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: نطقوا بالتوحيد ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنّه تلاها، ثمّ قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشدّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لم يروغوا روغان الثعالب» أي: لم ينافقوا. وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أخلصوا العمل. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أدّوا الفرائض. وعن الفضيل ـ رحمه الله ـ: زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية.

وقيل: حقيقة الاستقامة: القرار بعد الإقرار، لا الفرار بعد الإقرار ـ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أَنْ بمعنى: أي، أو: مخفّفة من الثقيلة. وأصله: بأنّه ﴿لا تخافوا﴾ والهاء ضمير الشأن، أي: لا تخافوا ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلّفتم. فالخوف: غمّ يلحق الإنسان لتوقّع المكروه، والحزن: غمّ يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو: حصول ضارّ. والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كلّ غمّ فلن تذوقوه ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا. وقال محمّد بن عليّ الترمذي: ﴿تتنزّل عليهم﴾ ملائكة الرحمن، عند مفارقة الأرواح عن الأبدان، ﴿أن لا تخافوا﴾ سلب الإيمان، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما كان من العصيان، ﴿وأبشروا﴾ بدخول الجنان ﴿التي كنتم توعدون﴾ في سالف الأزمان.

٣١ ـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كما أنّ الشياطين قرناء

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتّقين، وأحبّاؤهم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنّون.

٣٢ ـ ﴿نُزُلًا﴾ هو رزق النزيل، وهو: الضيف. وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿ما﴾ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نعت له.

٣٣ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله ـ ﷺ ـ دعا إلى التوحيد ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ خالصاً ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً بالإسلام، ومعتقداً له.، و: أصحابه عليه الصلاة والسلام، أو: المؤذّنون، أو: جميع الهداة، والدعاة إلى الله.

٣٤ ـ ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: أنّ السيئة والحسنة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان، فادفع بها السيّئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة، فالحسنة أن تعفوَ عنه، والتي هي أحسن أن تحسنَ إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمّك فتمدحه، أو: يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوّه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنّك إذا فعلت ذلك انقلب عدوّك المشاقّ مثل الوليّ الحميم مصافاة لك. ثمّ قال:

٣٥ ـ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يلقّى هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ إلاّ أهل الصبر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إلاّ رجل خير، وفّق لحظّ عظيم من الخير. وإنّما لم يقل: فادفع بالتي هي أحسن؛ لأنّه على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. وقيل: ﴿لا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: لا تستوي الحسنة والسيّئة. وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، ولكن وضع «التي هي

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ

أحسن» موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنّ مَن دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿بالتي هي أحسن﴾: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. وفسّر الحظ بالثواب. وعن الحسن: والله ما عظم حظّ دون الجنّة. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدوّاً مؤذياً للنبيّ ﷺ، فصار وليّاً مُصَافياً.

٣٦ ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنّه ينخسه؛ يبعثه على مالا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، أو: أريد ﴿وإمّا ينزغنّك﴾ نازغ، وصفاً للشيطان بالمصدر، أو: لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطانُ عمّا وُصِّيْتَ به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على حلمك، ولا تطعه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنزغ الشيطان.

٣٧ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالّة على وحدانيته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر، ونور مقرّر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. الضمير في ﴿خلقهنّ﴾ للآيات، أو: اللّيل والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة مالا يعقل حكم الأنثى، أو: الإناث، تقول: الأقلام بريتها، وبريتهنّ. ولعلّ ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصّابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى، فَنُهوا عن هذه الواسطة، وأُمِرُوا أن يقصدوا بسجودهم وَجْهَ الله خالصاً إن كانوا إيّاه يعبدون، وكانوا موحِّدين غير مشركين، فإنّ مَن عَبَدَ مع الله غيره لا يكونُ عابداً لله.

٣٨ ـ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ

وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا
ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ
لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾

﴿وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ لا يملّون. والمعنى: ﴿فإن استكبروا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به، وأبوا إلاّ الواسطة فدعهم وشأنهم، فإنّ الله تعالى لا يعدم عابداً وساجداً بالإخلاص، وله العباد المقرّبون؛ الذين ينزّهونه بالليل والنهار عن الأنداد. و﴿عند ربّك﴾ عبارة عن الزلفى، والمكانة، والكرامة. وموضع السجدة عندنا ﴿لا يسأمون﴾، وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ عند ﴿تعبدون﴾. والأوّل أحوط.

٣٩ ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسة مغبرّة. والخشوع: التذلّل، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتۡ﴾ انتفخت ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورة.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يميلون عن الحقّ في أدلّتنا[1] ـ يقال: ألحد الحافر ولحد؛ إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شقّ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحّة والاستقامة. ﴿يَلحَدون﴾ حمزة ـ ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ هذا نهاية في التهديد، ومبالغة في الوعيد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

٤١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ بالقرآن؛ لأنّهم لكفرهم به طعنوا فيه، وحرّفوا تأويله ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ حين جاءهم. وخبر ﴿إنّ﴾ محذوف، أي: يعذبون، أو: هالكون. أو: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي: منيع، محميّ بحماية الله.

---

(١) زاد في المطبوع: بالطعن.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾

٤٢ ـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ التبديل، أو: التناقض ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: بوجهٍ من الوجوه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ مستحقّ للحمد.

٤٣ ـ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلاّ مثل ما قال للرسل كفّار قومهم من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلاّ مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول هو قوله: ﴿إنّ ربّك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾.

٤٤ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة العجم. كانوا لتعنّتهم يقولون: هلاّ نزل القرآن بلغة العجم! فقيل: لو كان كما يقترحون ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ـ أي: بيّنت ـ بلسان العرب حتّى نفهمها ـ تعنتاً ـ ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[1] بهمزتين كوفيّ غير حفص، الهمزة للإنكار، يعني: لأنكروا، وقالوا: ﴿أ﴾ قرآن ﴿أعجميّ﴾ ورسول ﴿عربيّ﴾ أو: مرسل إليه عربيّ. الباقون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة. والأعجميّ: الذي لا يُفْصِح، ولا يفهم كلامه، سواء كان من العجم أو العرب. والعجميّ منسوب إلى أمّة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح. والمعنى: إنّ آيات الله على أيّ طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنّتاً؛ لأنّهم غير طالبين للحقّ، وإنما يتبعون أهواءهم. وفيه إشارةٌ إلى أنّه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسيّة ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إرشاد إلى الحقّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشكّ؛ إذ

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿أأعجميٌّ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وروح. معجم القراءات القرآنية (٦/ ٧٥).

وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ

الشكّ مرض ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ في موضع الجرّ لكونه معطوفاً على ﴿للذين آمنوا﴾، أي: هو ﴿للذين آمنوا هدى وشفاء و﴾ هو لـ ﴿الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم، إلاّ أنّ فيه عطفاً على عاملين، وهو جائز عند الاخفش. أو: الرفع، وتقديره: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ هو ﴿في آذانهم وقر﴾ على حذف المبتدأ، أو: ﴿في آذانهم﴾ منه ﴿وقر﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم، كأنّهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة. وقيل: ﴿ينادون﴾ في القيامة ﴿من مكان بعيد﴾ بأقبح الأسماء.

٤٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ـ فقال بعضهم: هو حقّ، وقال بعضهم: هو باطل ـ كما اختلف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل: الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة، وأنّ الخصومات تُفصل في ذلك اليوم. ﴿ولولا﴾ ذلك ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنّ الكفار ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

٤٦ ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فنفسه نفع ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرّ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذّب غير المسيء.

٤٧ ـ ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها يردّ إليه، يجب على المسؤول أن يقولَ: الله يعلم ذلك ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ـ: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. غيرهم: بغير ألف ـ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها قبل أن تنشق ـ جمع كمّ ـ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع إلاّ وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل،

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى

وساعاته، وأحواله من: الخداج، والتمام، والذكورة، والأنوثة، والحسن، والقبح، وغير ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أضافهم إلى نفسه على زعمهم، وبيانه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم. وفيه تهكّم، وتقريع ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ﴾ أعلمناك، وقيل: أخبرناك، وهو الأظهر؛ إذ الله تعالى كان عالماً بذلك. وإعلام العالم محال، أمّا الإخبار للعالم بالشيء فيتحقّق بما علم به، إلاّ أن يكون المعنى: إنّك علمت من قلوبنا الآن: أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنّه إذا علمه من نفوسهم فكأنّهم أعلموه ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: مامنّا أحد يشهد بأنّ لك شريكاً، وما منّا إلاّ من هو موحِّد لك. أو: ﴿ما منّا من﴾ أحد يشاهدهم؛ لأنّهم ضلّوا عنهم، وضلّت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. وقيل: هو كلام الشركاء. أي: ﴿ما منّا من شهيد﴾ يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة.

٤٨ ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّواْ﴾ وأيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب.

٤٩ ـ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ لا يملّ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الكافر ـ بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ـ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة، والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة. بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير. والقنوط: أن يظهرَ عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله، ورَوْحِه. وهذا صفة الكافر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٥٠ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ وإذا فرجنا عنه بصحّة بعد مرض، أو: سعة بعد ضيق، قال: ﴿هذا لي﴾ أي: هذا حقّي وصل

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

إليّ؛ لأنّي استوجبته بما عندي من خير، وفضل، وأعمال برّ. أو: ﴿هذا لي﴾ لا يزول عنّي ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: ما أظنّها تكون قائمة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ كما يقول المسلمون: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ﴾ عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنّة. أو: الحالة الحسنى من الكرامة، والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد، لا يفتر عنهم.

٥١ ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، فنسي المنعم، وأعرض عن شكره ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وتباعد عن ذكر الله، ودعائه، أو: ذهب بنفسه، وتكبّر، وتعظّم، وتحقيقه: أن يوضع جانبه موضع نفسه؛ لأنّ مكان الشيء وجهته ينزّل منزلة نفسه، ومنه قول الكتّاب: وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون: نفسه، وذاته، فكأنّه قال: وناء بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضر، والفقر ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتهال، والتضرُّع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام، كما استعير الغلظ لشدّة العذاب. ولا منافاة بين قوله: ﴿فيؤوس قنوط﴾ وبين قوله: ﴿فذو دعاء عريض﴾ لأن الأوّل في قوم، والثاني في قوم. أو: قنوط في البرّ، وذو دعاء في البحر. أو: قنوط بالقلب، ذو دعاء باللسان. أو: قنوط من الصنم، ذو دعاء لله تعالى.

٥٢ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ثمّ جحدتم أنّه من عند الله ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ منكم؟ إلاّ أنّه وضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضع منكم بياناً لحالهم، وصفتهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

٥٣ ـ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: القرآن، أو: الإسلام ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ موضع ﴿بربّك﴾ الرفع على أنّه فاعل، والمفعول محذوف. وقوله: ﴿ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أنّ ربّك على كلّ شيء شهيد، أي: أولم تكفهم شهادة ربّك على كلّ شيء. ومعناه: أنّ هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبيّنون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب؛ الذي هو على كلّ شيء شهيد.

٥٤ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالم بجمل الأشياء، وتفاصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية، فيجازيهم على كفرهم، ومريتهم في لقاء ربّهم.

* * *

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ترتيبها ٤٢ آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾

١، ٢ ـ فصل ﴿حمٓ﴾ من ﴿عٓسٓقٓ﴾ كتابة مخالفاً لـ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] تلفيقاً بأخواتها، ولأنّه آيتان و﴿كهيعص﴾ آية واحدة.

٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: مثل ذلك الوحي، أو: مثل ذلك الكتاب ﴿يوحي إليك﴾ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿الله﴾ يعني: أنّ ما تضمّنته هذه السورة من المعاني قد أوحى اللهُ إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى من قبلك، يعني: إلى رسله. والمعنى: أنّ الله كرّر هذه المعاني في القرآن، وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلاّ أوحي إليه بـ ﴿حم ۞ عسق﴾ ﴿يوحَى﴾ بفتح الحاء: مكّيّ، ورافع اسم ﴿الله﴾ على هذه القراءة مادلّ عليه ﴿يوحي﴾ كأنّ قائلاً قال: مَن الموحي؟ فقيل: الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب بقهره ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ المصيب في فعله، وقوله.

٤ ـ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُلْكاً ومِلْكاً ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ شأنه ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ برهانه.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

٥ ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ـ وبالياء: نافع، وعليّ ـ ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يتشقّقن. ﴿ينفطرن﴾ بصريّ، وأبو بكر. ومعناه: يكدن ينفطرن من علوّ شأن الله وعظمته، يدلّ عليه مجيئه بعد: ﴿العليّ العظيم﴾. وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. ومعنى ﴿من فوقهنّ﴾ أي: يبتدىء الانفطار من جهتهنّ الفوقانيّة، وكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهنّ، من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنّها جاءت من الذين تحت السموات، ولكنّه بولغ في ذلك؛ فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنّه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهنّ، دع الجهة التي تحتهنّ. وقيل: ﴿من فوقهنّ﴾ من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين. وقيل: يتشقّقن لكثرة ما على السموات من الملائكة. قال عليه الصلاة والسلام: «أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد»[1] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعاً لما يرون من عظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للمؤمنين منهم ـ كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] ـ خوفاً عليهم من سطواته، أو: يوحّدون الله، وينزّهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه، متعجّبين ممّا رأوا من تعرّضهم لسخط الله تعالى، ﴿ويستغفرون﴾ لمؤمني أهل الأرض؛ الذين تبرّؤوا من تلك الكلمة، أو: يطلبون إلى ربّهم أن يحلم عن أهل الأرض، ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لهم.

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: جعلوا له شركاء، وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، فيجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكّل عليهم، ولا مفوّض إليك أمرهم، إنّما أنت منذر فحسب.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ﴾

٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أنّ الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر؛ لأنّ هذا المعنى كرّره الله في كتابه، فالكاف: مفعول به لأوحينا ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي: أوحينا إليك، وهو قرآنٌ عربيّ بيّن ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: مكّة؛ لأنّ الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنها أشرف البقاع، والمراد: أهل أمّ القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّ الخلائق تجمع فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له، يقال: أنذرته كذا، وأنذرته بكذا. وقد عدّي ﴿لتنذر أمّ القرى﴾ إلى المفعول الأوّل ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ إلى المفعول الثاني ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ومنهم ﴿فريق في الجنّة﴾ ومنهم ﴿فريق في السعير﴾ والضمير للمجموعتين؛ لأنّ المعنى: يوم جَمْع للخلائق.

٨ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلّهم ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يكرم من يشاء بالإسلام، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

٩ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الفاء لجواب شرط مقدّر، كأنّه قيل بعد إنكار كلّ وليّ سواه: إن أرادوا وليّاً بحقّ ﴿فالله هو الوليّ﴾ بالحقّ، وهو الذي يجب أن يُتولّى وحده، ولا وليّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيقُ بأن يُتّخذ وليّاً دون من لا يقدرُ على شيء.

١٠ ـ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم فيه الكفّار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمرٍ من أمور الدين، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوّض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المحقّين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم

ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيه ردُّ كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كفاية شرّهم. وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم؛ التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح، وغيره.

١١ - ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ارتفاعه على أنّه أحد أخبار ﴿ذلكم﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم. يقال: ذرأ الله الخلق: بثّهم، وكثّرهم ﴿فِيهِ﴾ - في هذا التدبير، وهو: أن جعل الناس والأنعام أزواجاً، حتّى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد، والتناسل. واختير ﴿فيه﴾ على به؛ لأنّه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبثّ، والتكثير. والضمير في ﴿يذرؤكم﴾ يرجعُ إلى المخاطبين والأنعام، مغلّباً فيه المخاطبون العقلاء على الغُيَّب ممّا لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قيل: إنّ كلمةَ التشبيه كرّرت لتأكيد نفي التماثل، وتقديره: ليس مثله شيء، وقيل: المثل زيادة، وتقديره: ليس كهو شيء. كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لأنّ المراد نفي المثليّة، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. وقيل: المراد ليس كذاته شيء؛ لأنّهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به: نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية؛ لأنّهم إذا نفوه عمّن يسدّ مسدّه فقد نفوه عنه، فإذا علم أنّه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ليس كمثله شيء، إلاّ ما تعطيه الكنايةُ من فائدتها. وكأنّهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفيُ المماثلة عن ذاته. ونحوه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فمعناه: بل هو جوادٌ من غير تصوّر يد، ولا بسط لها؛ لأنّها وقعت عبارة عن الجود، حتّى إنّهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، ومَن لا مثل له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع

ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ

المسموعات بلا أذن ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيّات بلا حدقة، وكأنّه ذكرهما لئلا يتوهم أنّه لا صفة له، كما لا مثل له.

١٢ ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مرّ في «الزمر» ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣ ـ ﴿۞ شَرَعَ﴾ بيّن، وأظهر ﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي: ﴿شرع لكم من الدين﴾ دين نوح ومحمّد ومَن بينهما من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثمّ فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام؛ الذي هو توحيدُ الله، وطاعته، والإيمان برسله، وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون المرءُ بإقامته مسلماً، ولم يرد به الشرائع فإنّها مختلفة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ومحلّ ﴿أن أقيموا﴾ نصب بدل من مفعول ﴿شرع﴾ والمعطوفين عليه. أو: رفع على الاستئناف، كأنّه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في الدين. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لا تتفرّقوا، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم، وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله، والتوحيد ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ يجتلب، ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الدين بالتوفيق، والتسديد ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يقبل على طاعته.

١٤ ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ أي: أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ إلاّ من بعد أن علموا أنّ الفرقة ضلال، وأمر متوعّد عليه على ألسنة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً، وطلباً للرئاسة، والاستطالة بغير

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

حقّ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ـ وهي: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ـ ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهلُ الكتاب؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حقّ الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ مدخل في الريبة. وقيل: وما تفرّق أهلُ الكتاب ﴿إلاّ من بعد ما جاءهم العلم﴾ بمبعث رسول الله ﷺ ـ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ـ ﴿وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب: التوراة، والإنجيل.

١٥ ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرّق، ولما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعباً ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملّة الحنيفيّة القديميّة ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾ أيّ كتاب صحّ أنّ الله تعالى أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرّقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١] ـ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: كلّنا عبيده ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ويجوز أن يكون معناه: إنّا لا نؤاخذ بأعمالكم، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر وصرتم محجوجين به، فلا حاجة إلى المحاجّة، ومعناه: لا إيراد حجّة بيننا؛ لأنّ المتحاجّين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل لقضاء، فيفصل بيننا، وينتقم لنا منكم.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

١٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهليّة ـ كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيكم، فنحن خيرٌ منكم، وأولى بالحقّ. وقيل: ﴿من بعد ما استجيب﴾ لمحمّد عليه الصلاة والسلام دعاؤه في المشركين يوم بدر ـ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾: باطلة ـ وسمّاها حجّة ـ وإن كانت شبهة ـ لزعمهم أنّها حجّة ـ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

١٧ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أي: ملتبساً به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والسَّوِيّة. ومعنى إنزال العدل: أنّه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: هو عين الميزان، أنزله في زمن نوح ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: لعلّ الساعة قريب منك وأنت لا تدري. والمراد: مجيء الساعة. والساعة في تأويل البعث. ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أنّ الساعة يوم الحساب، ووضع الموازين بالقسط، فكأنّه قيل: أمركم الله بالعدل، والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

١٨ ـ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون، وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ ـ المماراة: الملاجّة؛ لأنّ كلّ واحد منهما يمري ما عند صاحبه ـ ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ؛ لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى. وقد دلّ الكتاب والسنة على وقوعها، والعقول تشهدُ على أنّه لا بدّ من دار جزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾

١٩ ـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ في إيصال المنافع، وصرف البلاء من وجهٍ يلطف إداركه. أو: برّ بليغ البرّ بهم، قد توصّل برّه إلى جميعهم. وقيل: من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه. أو: من ينشر المناقب، ويستر المثالب. أو: من يعفو عمّن يهفو. أو: يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلّفه الطاعة دون الطاقة، وعن الجنيد ـ رحمه الله ـ: لطف بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه. في الحديث: «إنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده ذلك. وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده ذلك»[1] ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كلّ شيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغْلَب.

٢٠ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سُمّي ما يعمله العامل ممّا يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ بالتوفيق في عمله، أو: التضعيف في حسناته، أو: بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مَن كان عمله للدنيا، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ شيئاً ﴿منها﴾ ـ لأنّ مِن للتبعيض ـ وهو رزقه الذي قُسِم له، لا ما يريده، ويبتغيه ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وماله نصيب قطّ في الآخرة. ولم يذكر في عوامل الآخرة أنّ رزقه المقسوم يصلُ إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله، وفوزه في المآب.

٢١ ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ قيل: هي «أم» المنقطعة، وتقديره: بل ألهم شركاء، وقيل: هي المعادلة لألف الاستفهام. وفي الكلام إضمار، تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أم لهم﴾ آلهة ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨).

وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ

أي: لم يأمر به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أو: ولولا العدة بأنّ الفصلَ يكونُ يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو: لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة، وإن أخّر عنهم في دار الدنيا.

٢٢ ـ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ نازلٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ كأنّ روضة جنّة المؤمن أطيب بقعة فيها، وأنزهها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ نصب بالظرف لا بـ ﴿يشاؤون﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

٢٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الفضل الكبير ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ ﴿يَبْشُر﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، وحمزة، وعليّ ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: به، فحذف الجارّ، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثمّ حذف الراجع إلى الموصول، كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. ولمّا قال المشركون: أيبتغي محمّد على تبليغ الرسالة أجراً؟ نزل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. يجوز أن يكون استثناء متّصلاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً إلاّ هذا، وهو: أن تودّوا أهل قرابتي. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكنّي أسألُكم أن تودُّوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. ولم يقل إلا مودّة القربى، أو: المودّة للقربى؛ لأنهم جعلوا مكاناً للمودّة، ومقرّاً لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم حبّ شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبّي ومحلّه. وليست ﴿في﴾ بصلة للمودّة كاللام، إذا قلت: إلاّ المودّة للقربى، إنما هي متعلّقة بمحذوف، تعلّق الظرف

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

به، في قولك: المال في الكيس. وتقديره: ﴿إلاّ المودّة﴾ ثابتة ﴿في القربى﴾ ومتمكّنة فيها. والقربى مصدر، كالزلفى، والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: ﴿في﴾ أهل ﴿القربى﴾. وروي: أنها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله! مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبتْ علينا مودّتهم؟ قال: عليّ، وفاطمة، وابناهما ـ رضي الله عنهم ـ وقيل: معناه: إلاّ أن تودّوني لقرابتي فيكم، ولا تؤذوني، ولا تهيجوا عليّ، إذ لم يكن من بطون قريش إلاّ بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرّب إلى الله تعالى، أي: إلاّ أن تحبّوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة، والعمل الصالح ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة. عن السديّ ـ رحمه الله ـ: أنّها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومودّته فيهم. والظاهر: العموم في أيّ حسنة كانت، إلاّ أنّها تتناول المودّة تناولاً أوّليّاً لذكرها عقيب ذكر المودّة في القربى ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعفها، كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرىء (حسنى) وهو مصدر كالبشرى، والضمير يعودُ إلى الحسنة، أو: إلى الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بِطَوْلِهِ ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضله. وقيل: قابلٌ للتوبة، حاملٌ عليها. وقيل: الشكور في صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة، وتوفية ثوبها، والتفضّل على المثاب.

٢٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم» منقطعة، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثمّ إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى، وأفحشها؟ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افترى على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقّة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: الشرك، وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿يختم﴾ لأنّ محوَ الباطل غير مُعَلّقٍ بالشرط، بل هو وعدٌ مطلق، دليلُه: تكرار اسم الله، ورَفْعُ ﴿ويحقّ﴾. وإنّما سقطت الواو في الخطّ كما سقطت في ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] على أنّها مثبتة في مصحف نافع ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام، ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ﷺ. وقد فعل الله ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ﴿عليم﴾ بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك.

٢٥ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقال: قبلت منه الشيء: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولي. ويقال: قبلته عنه، أي: عزلته عنه، وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجعَ عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما، والعزم على ألّا يعودَ، وإن كان لعبدٍ فيه حقّ لم يكن بدّ من التفصّي على طريقه. وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: هو اسمٌ يقع على ستّة معان؛ على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كلّ ضحك ضحكته. وعن السدّيّ: هو صدقُ العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علاّم الغيوب. وعن غيره: هو ألاّ يجدَ حلاوة الذنب في القلب عند ذكره. وعن سهل ـ رحمه الله ـ: هو الانتقالُ من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد ـ رحمه الله ـ: هو الإعراض عمّا دون الله ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء: كوفيّ غير أبي بكر، أي: من التوبة، والمعصية. ولا وقفَ عليه للعطف عليه، واتّصال المعنى.

٢٦ ـ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إذا دعوه استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا، وزادهم على مطلوبهم. واستجاب وأجاب بمعنىً. والسين في مثله لتوكيد الفعل، كقولك: تعظم، واستعظم. والتقدير: ويجيب الله الذين آمنوا، وقيل: معناه: ويستجيب للذين، فحذف اللام. مَنَّ عليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا، ويعفو عن سيّئاتهم، ويستجيبُ لهم إذا دعوه، ويزيدهم على ما سألوا. وعن إبراهيم بن أدهم: أنّه قيل له:

وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ

ما بالنا ندعوه فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

٢٧ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ اي: لو أغناهم جميعاً ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البغي: الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة[1]. وكفى بحال فرعون عبرة. أو: من البغي، وهو: الكبر، أي: لتكبّروا في الأرض ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ بتقدير. يقال: قدره، قدْراً، وقدَراً ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدُر لهم ما تقتضيه حكمته، فيفقر ويُغني، ويمنع، ويعطي، ويقبض، ويبسط، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. وما ترى من البسط على مَن يبغي، ومن البغي بدون البسط، فهو قليل. ولا شكّ أنّ البغيَ مع الفقر أقلّ ومع البسط أكثر وأغلب.

٢٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بالتشديد: مدنيّ، وشاميّ، وعاصم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وقرىء ﴿قنِطوا﴾ ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب. وقيل لعمر ـ رضي الله عنه ـ: اشتدّ القحط، وقنط الناس! فقال: مُطِروا إذاً. أراد هذه الآية. أو أراد رحمته في كلّ شيء ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولّى عباده بإحسانه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهلُ طاعته.

٢٩ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: من علامات قدرته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿وَمَا بَثَّ﴾ فرّق و﴿ما﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً حملاً على المضاف، أو: المضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدوابّ تكون في الأرض وحدها، لكن يجوزُ أن ينسبَ الشيء إلى جميع المذكور وإن كان

(١) «مأشرة»: الأشر: البطر، وهو قلة احتمال النعمة، والطغيان بها، وشدّة المَرَح.

وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنّما هو في فخذٍ[١] من أفخاذهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنّما يخرج من الملح. ولا يبعدُ أن يخلق في السموات حيواناً يمشون فيها مشي الأناسيّ على الأرض، أو: يكون للملائكة مشي مع الطيران، فوصفوا بالدَّبيب كما وصف به الأناسيّ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾. إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

٣٠ ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ غمّ، وألم، ومكروه ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بجناية كسبتموها عقوبة عليه (بما كسبت) مدنيّ، وشاميّ، على أن ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿بما كسبت﴾ خبره من غير تضمين معنى الشرط، ومَن أثبت الفاء فعلى تضمين معنى الشرط. وتعلّق بهذه الآية من يقول بالتناسخ؛ وقال: لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألّموا. وقلنا: الآية مخصوصة بالمكلّفين بالسباق والسياق، وهو ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقب عليه، أو: عن كثيرٍ من الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: من لم يعلم أنّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربّه إليه.

وقال محمّد بن حامد: العبدُ ملازِمٌ للجنايات في كلّ أوان، وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه، وجناية الطاعة من وجوه، والله يُطهِّر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفّف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة.

وعن عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ: هذه أرجى آيةٍ للمؤمنين في القرآن، لأنّ الكريمَ إذا عاقب مرّةً لا يُعاقِب ثانياً، وإذا عفا لا يعود.

٣١ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بفائتين ما قُضيَ عليكم من المصائب

(١) «فخذ»: العشائر أقلُّها فخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب، وهو أكثرها.

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ متولٍ بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حلّ بكم.

٣٢ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي: السفينة ﴿الجواري﴾ في الحالين: مكّيّ، وسهل، ويعقوب. وافقهم مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال.

٣٣ ـ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ (الرِّياح): مدنيّ ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، أي: لكلّ مؤمن مخلص. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. أو: ﴿صبّار﴾ على طاعته ﴿شكور﴾ لنعمته.

٣٤ ـ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنّ، وهو عطف على ﴿يسكن﴾ والمعنى: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ فيركدن، أو: يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازي عليها. وإنّما أدخل العفو في حكم الإيباق، حيث جزم جزمه؛ لأنّ المعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً، وينج ناساً على طريق العفو عنهم.

٣٥ ـ ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب، عطف على تعليل محذوف، تقديره: لينتقم منهم ﴿ويعلم﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالها ودفعها ﴿ويعلمُ﴾: مدنيّ، وشاميّ على الاستئناف ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه.

٣٦ ـ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿ما﴾ الأولى ضمّنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدّق بجميع ماله، فلامه الناس.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

٣٧ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذا ما بعده ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس. (كبير الإثم): عليّ، وحمزة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كبير الإثم هو الشرك ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بالغفران في حال الغضب. والمجيء بـ ﴿هم﴾ وإيقاعه مبتدأً، وإسناد ﴿يغفرون﴾ إليه: لهذه الفائدة. ومثله: ﴿هم ينتصرون﴾.

٣٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عزّ وجلّ للإيمان به، وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به، وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتمّوا الصلوات الخمس ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، يعني: لا ينفردون برأي حتّى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلاَّ هُدوا لأرشد أمورهم. والشورى مصدر، كالفتيا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدّقون.

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ الظلم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممّن ظلمهم، أي: يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم، ولا يعتدون. وكانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفسّاق، وإنّما حمدوا على الانتصار؛ لأنّ من انتصر، وأخذ حقّه، ولم يجاوز في ذلك حدّ الله، فلم يسرف في القتل إن كان وليّ دم، فهو مطيع لله، وكلّ مطيع محمود.

٤٠ ـ ثم بيّن حدّ الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فالأولى سيّئة حقيقة، والثانية لا، وإنما سمّيت سيّئة؛ لأنّها مجازاة السوء، أو: لأنّها تسوء من تنزل به، ولأنّه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيّئة لأنّها إضرار، وإنّما صارت حسنة لغيرها، أو: في تسمية الثانية سيّئة إشارة إلى أنّ العفو مندوب إليه. والمعنى: أنّه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو، والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمة لا يقاس

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

أمرها في العظم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالظلم، أو: الذين يجاوزون حدّ الانتصار. في الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلاّ من عفا»[1].

٤١ ـ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: أخذ حقّه بعد ما ظُلم ـ على إضافة المصدر إلى المفعول ـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ـ إشارة إلى معنى ﴿من﴾ دون لفظه ـ ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب.

٤٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتكبّرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفسّر السبيل بالتبعة، والحجة.

٤٣ ـ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم، والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبر، والغفران منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي ندب إليها، أو: ممّا ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه، ولا يترخّص في تركه. وحذف الراجع ـ أي: منه ـ لأنّه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن مَنَوَانِ بدرهم. وقال أبو سعيد القرشيّ: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أجلّ الأحوال، ومن جزع من المصيبات، وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه، ثمّ لم تنفعه شكواه.

٤٤ ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إيّاه، ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب ـ واختير لفظ الماضي للتحقيق ـ ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ
ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ

٤٥ ـ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار؛ إذ العذاب يدلّ عليها ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متضائلين، متقاصرين ممّا يلحقهم من الذلّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ «يوم» متعلق بخسروا ـ وقول المؤمنين واقع في الدنيا ـ أو: بـ﴿قال﴾، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم.

٤٦ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة.

٤٧ ـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنْ﴾ يتّصل بـ﴿لا مردَّ﴾، أي: لا يرده الله بعد ما حكم به، أو: بـ﴿يأتي﴾، أي: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مخلص من العذاب، ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً ممّا اقترفتموه، ودوّن في صحائف أعمالكم. والنكير: الإنكار.

٤٨ ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ما عليك إلاّ تبليغ الرسالة، وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد: الجمع ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة، وسعة، وأمناً، وصحّة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطر لأجلها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاء كالمرض، والفقر، ونحوهما ـ وتوحيد ﴿فرح﴾

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

باعتبار اللفظ، والجمع في ﴿وإن تصبهم﴾ باعتبار المعنى ـ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾. ولم يقل: فإنّه كفور؛ ليسجّل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. والكفور: البليغ الكفران. والمعنى: أنّه يذكر البلاء، وينسى النعم، ويَغْمُطُها. قيل: أريد به كفران النعمة. وقيل: أريد به الكفر بالله تعالى.

٤٩، ٥٠ ـ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرنهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾. لمّا ذكر إذاقة الإنسان الرحمة، وإصابته بضدّها، أتبع ذلك: أنّ له تعالى الملك، وأنّه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخصّ بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً. والعقيم: التي لا تلد. وكذلك رجل عقيم؛ إذا كان لا يولد له. وقدّم الإناث أوّلاً على الذكور، لأنّ سياقَ الكلام أنّه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهمّ، والأهمّ واجبُ التقديم. وليلي الجنسُ الذي كانت العرب تعدّه بلاءً ذِكْرَ البلاء. ولمّا أخّر الذكور ـ وهم أحقّاء بالتقديم ـ تدارك تأخيرهم لتعريفهم؛ لأنّ التعريف تنويه وتشهير. ثمّ أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقّه من التقديم والتأخير، وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدّمهنّ ولكن لمقتض آخر، فقال: ﴿ذكراناً وإناثاً﴾. وقيل: نزلت في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث وهب للوط وشعيب إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كلّ شيء.

٥١ ـ ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحّ لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾

أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

أي: إلهاماً ـ كما روي: «نفث في روعي»[1]، أو: رؤيا في المنام؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «رؤيا الأنبياء وحي»[2]. وهو كأمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذبح الولد ـ ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي: يسمع كلاماً من الله، كما سمع موسى ـ عليه السلام ـ من غير أن يبصر السامع من يكلّمه. وليس المراد به حجاب الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا يجوزُ عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به: أنّ السّامعَ محجوبٌ عن الرؤية في الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: يرسل ملكاً ﴿فَيُوحِىَ﴾ الملك إليه. وقيل: ﴿وحياً﴾ كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي: نبيّاً، كما كلّم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وحياً﴾ و«أن يرسل» مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنّ أن يرسلَ في معنى إرسالاً. و﴿من وراء حجاب﴾ ظرف واقع موقع الحال؛ كقوله ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. والتقدير وما صحّ أن يكلّم أحداً إلاّ موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو: مرسلاً. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ﴾ بأن يوحي، أو: أن يُسْمِعَ من وراء حجاب، أو: أن يُرْسِلَ رسولاً، وهو اختيار الخليل. ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحي﴾ بالرفع: نافع، على تقدير ﴿أو﴾ هو ﴿يرسل رسولاً فيوحي﴾ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ إذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من الوحي ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ قاهر، فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب في أقواله، وأفعاله، فلا يعارض.

٥٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل قبلك، أو: كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إيحاءً كذلك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريد: ما أوحى إليه؛ لأنّ الخلق يحيون به في دينهم، كما يحيا الجسد بالروح. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ ـ الجملة حال من الكاف في ﴿إليك﴾ ـ ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: شرائعه، ﴿ولا الإيمان﴾ بالكتاب؛ لأنّه إذا كان لا يعلم بأنّ الكتاب ينزلُ عليه لم يكن عالماً بذلك الكتاب. وقيل: الإيمان يتناولُ أشياء؛ بعضها الطريق إليه العقل،

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٠).
(٢) رواه البخاري (٨٥٩).

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك ما كان له فيه علم حتّى كسبه بالوحي ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ لتدعو ـ وقرىء به ـ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الإسلام.

٥٣ ـ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ ـ بدل ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَلْكاً ومُلْكاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ هو وعيد بالجحيم، ووعد بالنعيم.

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ صيّرناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً للقسم. وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه. والمبين: البيّن للذين أنزل عليهم؛ لأنّه بلغتهم وأساليبهم، أو: الواضح للمتدبّرين، أو: الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان كلّ ما تحتاجُ إليه الأمّة في أبواب الديانة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

٤ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ وإنّ القرآن مثبتٌ عند الله في اللوح المحفوظ، دليلُه قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] وسُمِّي أمّ الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. ﴿أمّ الكتاب﴾ بكسر الألف: عليّ وحمزة ﴿لَعَلِىٌّ﴾ خبر إنّ، أي: في أعلى طبقات البلاغة، أو: رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

٥ ـ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ ﴿أ﴾ فننحّي عنكم الذكر، ونذوده عنكم.

صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا

على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب[1] عن الحوض. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهملكم ﴿فنضرب عنكم الذكر﴾ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب، وجعله قرآناً عربيّاً ليعقلوه، وليعملوا بمواجبه ﴿صَفْحًا﴾ مصدر، من: صفح عنه؛ إذا أعرض، منتصب على أنّه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجّة به إعراضاً عنكم. ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر؛ لأنّه يقال: ضربت عنه؛ أي: أعرضت. كذا قاله الفراء ﴿أَن كُنتُمْ﴾ لأن كنتم ﴿إن كنتم﴾: مدنيّ، وحمزة، وعليٌّ. وهو من الشرط الذي يصدرُ عن المدلّ بصحّة الأمر المتحقّق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملتُ لك فوفّني حقّي، وهو عالم بذلك ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مفرطين في الجهالة، مجاوزين الحدّ في الضلالة.

٦ ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى مَن تقدّمك.

٧ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هي حكاية حال ماضية مستمرّة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

٨ ـ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تمييز. والضمير للمسرفين؛ لأنّه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصّتهم، وحالهم العجيبة التي حقّها أن تسير مسير المثل[2]. وهذا وعدٌ لرسول الله ﷺ، ووعيد لهم.

٩، ١٠ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ـ: كوفي.

---

(١) «الغرائب»: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.

(٢) في الأصل المخطوط: مثل المسير، والمثبت من الكشاف للزمخشري (٣/٤٧٨).

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

أي: موضع قرارٍ وغيره ﴿مهاداً﴾ أي: موضع قرار ـ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا في أسفاركم.

١١ ـ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ فأحيينا ـ عدول من المغايبة إلى الإخبار لعلم المراد بالمخاطب بالمراد ﴿بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يزيد: ﴿ميِّتاً﴾ ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿تَخْرُجون﴾: حمزة، وعليّ. ولا وقف على ﴿العليم﴾ لأنّ ﴿الذي﴾ صفته. وقد وقف عليه أبو حاتم، على تقدير: هو ﴿الذي﴾؛ لأنّ هذه الأوصافَ ليست من مقول الكفّار؛ لأنّهم ينكرون الإخراجَ من القبور، فكيف يقولون: ﴿كذلك تخرجون﴾؟ بل الآيةُ حجّةٌ عليهم في إنكار البعث.

١٢ ـ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: تركبونه. يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فَغُلِّبَ المتعدّي بغير واسطة لقوّته على المتعدّى بواسطة، فقيل: تركبونه.

١٣ ـ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تركبونه، وهو: الفلك، والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ذلّل هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء: إذا أطاقه. وحقيقة أقرنه: وجده قرينته؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف.

١٤ ـ ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ لراجعون قيل: يذكرون عند ركوبهم مركب الدنيا آخر مركبهم منها، وهو: الجنازة. وعن النبيّ ﷺ: «أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فإذا استوى على الدابّة قال: الحمد لله على كلّ حال ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾ إلى قوله ﴿لمنقلبون﴾ وكبّر ثلاثاً، وهلّل

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

ثلاثاً»[١]. وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وحكي: أنّ قوماً ركبوا، وقالوا ﴿سبحان الذي سخّر لنا...﴾ الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرّك هزالاً، فقال: إنّي مقرن لهذه، فسقط منها لوثبتها، واندقّت عنقه.

وينبغي ألّا يكون ركوبُ العاقل للتنزّه والتلذّذ، بل للاعتبار، ويتأمّل عنده أنه هالك لا محالة، ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه.

١٥ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متّصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفنّ به ﴿و﴾ قد ﴿جعلوا له﴾ مع ذلك الاعتراف ﴿من عباده جزءاً﴾ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده. ﴿جزُؤاً﴾: أبو بكر، وحمّاد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لجحود للنعمة، ظاهر جحوده؛ لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصلُ الكفران كلّه.

١٦ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: بل أتّخذ. والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم، وتعجيباً من شأنهم، حيث ادّعوا أنّه اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولهم الأعلى.

١٧ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبهاً ـ لأنّه إذا جعل الملائكة جزءاً لله، وبعضاً منه، فقد جعله من جنسه، ومماثلاً له؛ لأنّ الولدَ لا يكونُ إلاّ من جنس الوالد ـ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم: أنّ أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت، اغتم، واربدّ وجهه غيظاً[٢] وتأسفاً، وهو مملوءٌ من

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦).
(٢) أي: تغيّر إلى الغبرة من الغضب.

أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ

الكرب. والظلول: بمعنى الصيرورة.

١٨ ـ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: ﴿أو﴾ يُجْعَلُ للرحمن مِن الولد مَن هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنّه ﴿ينشّأ في الحلية﴾ أي: يتربّى في الزينة، والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم(١)، ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ وذلك لضعف عقولهنّ(٢). قال مقاتل ـ رحمه الله ـ: لا تتكلّم المرأة إلاّ وتأتي بالحجة عليها. وفيه أنّه جعل النشأ في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنبَ ذلك، ويتزيّن بلباس التقوى. و﴿من﴾ منصوب المحلّ. والمعنى: ﴿أوَ﴾ جعلوا ﴿من يَنشَأ في الحلية﴾ ـ يعني: البنات ـ لله عزّ وجلّ ﴿يُنشّأ﴾: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: يربَّى. قد جمعوا في كفرةٍ ثلاث كفرات، وذلك أنّهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخسّ النوعين، وجعلوه من الملائكة المكرّمين، فاستخفّوا بهم.

١٩ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ أي: سمّوا، وقالوا: إنّهم إناث ﴿عند الرحمن﴾: مكّيّ، ومدنيّ، وشاميّ، أي: عنديّة منزلة ومكانة، لا منزل ومكان، والعباد جمع: عبد. وهو ألزمُ في الحجاج مع أهل العناد، لتضادّ بين العبوديّة والولاد ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ وهذا تهكّم بهم، يعني: أنّهم يقولون ذلك من غير أن يستندَ قولُهم إلى علم، فإنّ الله لم يضطرّهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقهم حتّى يخبروا عن المشاهدة ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها. وهذا وعيد.

٢٠ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ أي: الملائكة. تعلّقت المعتزلةُ بظاهر هذه الآية في أنّ الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنّما شاء الإيمان، فإنّ

(١) «مجاثاة الخصوم»: جثا: برك على ركبتيه.

(٢) في الأصل المخطوط: «عقولهم».

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾

الكفّار ادّعوا: أنّ الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي: لو شاء منا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منّا عبادة الأصنام. والله تعالى ردّ عليهم قولهم، واعتقادهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ المقول ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون. ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا. وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا، أو: لمنعنا عن عبادتها منع قهر، واضطرار، وإذ لم يفعل فقد رضي بذلك، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء لا جدّاً واعتقاداً، فأكذبهم الله تعالى فيه، وجهّلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد، كما قال مخبراً عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] وهذا حقّ في الأصل، ولكن لمّا قالوا ذلك استهزاء، كذّبهم الله بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] ثمّ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد، وجعلوا المشيئة حجّة لهم فيما فعلوا باختيارهم، وظنّوا أنّ الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك، فردّ الله تعالى عليهم.

٢١، ٢٢ ـ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن، أو: من قبل قولهم هذا ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون، عاملون. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ﴿أشهدوا﴾ خلقهم أم أتيناهم كتاباً، فيه: أنّ الملائكة إناث؟! ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ بل لا حجة لهم يتمسّكون بها، لا من حيث العيان، ولا من حيث العقل، ولا من حيث السمع إلاّ قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين، فقلّدناهم، وهي من الأمّ، وهو القصد. فالأمّة: الطريقة التي تؤمّ، أي: تقصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الظرف صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

٢٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبيّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾

متنعّموها، وهم: الذين أترفتهم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يحبّون إلاّ الشهوات، والملاهي، ويعافون مشاقَّ الدين، وتكاليفه ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وهذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وبيان: أنّ تقليدَ الآباء داءٌ قديم.

٢٤ ـ ﴿۞ قَٰلَ﴾: شاميّ، وحفص، أي: النذير. (قل) غيرهما، أي: قيل للنذير: قل ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟! ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ثابتون على دين آبائنا، وإن جئتنا بما هو أهدى، وأهدى.

٢٥ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فعاقبناهم بما استحقّوه على إصرارهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: اذكر إذ قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريء ـ وهو مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكّر والمؤنّث، كما تقول: رجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل، والمعنى: ذو عدل، وذات عدل ـ ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢٧ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطع، كأنّه قال: لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يثبّتني على الهداية.

٢٨ ـ ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلمة التوحيد التي تكلّم بها ـ وهي قوله: ﴿إنّني براء ممّا تعبدون ۞ إلاّ الذي فطرني﴾ ـ ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذرّيته فلا يزال فيهم من يوحّد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ مَن أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم. والترجّي لإبراهيم ـ عليه السلام ـ.

٢٩ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكّة، وهم من عقب إبراهيم

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ـعليه السلام ـ بالمدّ في العمر، والنعمة، فاغترّوا بالمهلة، وشغلوا بالتنعّم، واتّباع الشهوات، وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أي: محمّد عليه الصلاة والسلام ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البيّنة.

٣٠ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٣١ ـ ﴿وَقَالُواْ﴾ متحكمين بالباطل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ـ فيه استهانةٌ به ـ ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: على رجل عظيم من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما. والقريتان: مكّة والطائف. وعنوا بعظيم مكّة: الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفيّ. وأرادوا بالعظيم: مَن كان ذا مال، وجاه، ولم يعرفوا: أنّ العظيم مَن كان عند الله عظيماً.

٣٢ ـ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة. والهمزة للإنكار المستقلّ بالتجهيل والتعجيب من تحكّمهم في اختيار مَن يصلح للنبوّة. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لم نجعل قسمة الأدون إليهم، وهو الرزق، فكيف النبوّة؟ أو: كما فضّلت البعض على البعض في الرزق، فكذا أخصّ بالنبوّة من أشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرّف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتّى يتعايشوا، ويصلوا إلى منافعهم، هذا بماله، وهذا بأعماله ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة، أو: دين الله، وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمعُ هؤلاء من حطام الدنيا.

٣٣ ـ ولمّا قلّل أمر الدنيا، وصغّرها أردفه ما يقرّر قلّة الدنيا عنده، فقال:

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولولا كراهة[1] أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۞ وَزُخْرُفًا﴾ أي: لجعلنا للكفّار سقوفاً، ومصاعد، وأبواباً، وسرراً، كلّها من فضة، وجعلنا لهم زخرفاً، أي: زينة من كلّ شيء. والزخرف: الذهب، والزينة. ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ: سقفاً من فضّة وزخرف، أي: بعضها من فضّة، وبعضها من ذهب، فنصب عطفاً على محلّ من فضّة. ﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من ﴿لمن يكفر﴾. ﴿سَقْفاً﴾ على الجنس: مكّيّ، وأبو عمرو، ويزيد. والمعارج: جمع معرج، وهي: المصاعد إلى العلالي. ﴿عليها يظهرون﴾ على المعارج ﴿يظهرون﴾ السطوح، أي: يعلونها ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿إن﴾ نافية، و﴿لمّا﴾ بمعنى إلاّ، أي: وما﴿كلّ ذلك﴾ إلاّ ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وقد قرىء به. وقرأ ﴿لَمَا﴾ غير عاصم، وحمزة، على أنّ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. و﴿ما﴾ صلة، أي: إنّ كلّ ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن يتّقي الشرك.

٣٦ ـ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وقرىء ﴿ومن يعشَ﴾. والفرق بينهما: أنّه إذا حصلت الآفة في بصره، قيل: عشي يعشى. وإذا نظر نظر العُشْي ولا آفة به، قيل: عشا[2]. ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] ومعنى القراءة بالضمّ: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنّه الحقّ وهو يتجاهل، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

(١) من المطبوع.
(٢) مضارعه: يعشو.

نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نسلّطه عليه، فهو معه في الدنيا والآخرة، يحمله على المعاصي، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن داوم عليه لم يقرنه الشيطان.

٣٧ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ليمنعون العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وإنما جمع ضمير ﴿من﴾ وضمير الشيطان؛ لأنّ ﴿من﴾ مبهم في جنس العاشي، وقد قيّض له شيطان مبهم في جنسه، فجاز أن يرجعَ الضمير إليهما مجموعاً.

٣٨ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ ـ على الواحد: عراقيّ في غير أبي بكر، أي: العاشي. (جاءانا) غيرهم. أي: العاشي، وقرينه ـ ﴿قَالَ﴾ لشيطانه: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلّب، كما قيل: العُمَران، والقَمَران. والمراد: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت.

٣٩ ـ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ صحّ ظلمكم، أي: كفركم، وتبيّن، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنّكم كنتم ظالمين ـ و﴿إذ﴾ بدل من اليوم ـ ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. ﴿أنّكم﴾ في محلّ الرفع على الفاعليّة، أي: ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب، أو: كونكم مشتركين في العذاب، كما كان عموم البلوى يُطَيِّبُ القلب في الدنيا، كقول الخنساء:

ولـولا كثـرةُ البـاكين حـولي ... على إخـوانهـم لقتلـتُ نفسـي
ولا يبكـون مثـلَ أخـي ولكـن ... أُعـزِّي النفـسَ عنـه بـالتـأسّـي

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم، ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه. وقيل: الفاعل مضمر، أي: ولن ينفعكم هذا التمنّي، أو: الاعتذار لـ ﴿أنّكم في العذاب مشتركون﴾ لاشتراككم في سببه، وهو: الكفر. ويؤيّده قراءة من قرأ: ﴿إنّكم﴾ بالكسر.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

---

٤٠ ـ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: مَن فقد سمع العقول ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ أي: من فقد البصائر ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلالة.

٤١ ـ ﴿فَإِمَّا﴾ ـ دخلت ﴿ما﴾ على ﴿إن﴾ توكيداً للشرط، وكذا النون الثقيلة في ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ ـ نتوفينَّك قبل أن ننصرك عليهم، ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أشدّ الانتقام في الآخرة.

٤٢ ـ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ قبل أن نتوفّينك ـ يعني: يوم بدر ـ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون. وصفهم بشدّة الشكيمة في الكفر والضلال بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصمّ...﴾ الآية. ثمّ أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله: ﴿فإمّا نذهبنّ بك...﴾ الآيتين.

٤٣ ـ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ فتمسّك ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، واعمل به ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على الدين الذي لا عوجَ له.

٤٤ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الذي أُوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ ولأمّتك ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقّه، وعن تعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

٤٥ ـ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ليس المراد بسؤال الرسل: حقيقة السؤال، ولكنّه مجاز عن النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم؛ هل جاءت عبادة الأوثان قطّ في ملّة من ملل الأنبياء؟. وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدّق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنّهم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج: ٧١]. وهذه الآية

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾

في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها. وقيل: إنّه ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأمّهم، وقيل له: سلهم، فلم يشكك، ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم مَن أرسلنا وهم أهل الكتابين[1]. وإنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنّهم على الباطل. ﴿وسل﴾ بلا همز: مكّي، وعليّ. ﴿رُسْلِنا﴾: أبو عمرو.

٤٦ ـ ثمّ سلّى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما أجابوه به عند قوله: ﴿إني رسول رب العالمين﴾ محذوف دلّ عليه قوله:

٤٧ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾. وهو مطالبتهم إيّاه بإحضار البيّنة على دعواه، وإبراز الآية. ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها، ويهزؤون بها، ويسمّونها سحراً. و﴿إذا﴾ للمفاجأة. وهو جواب ﴿فلمّا﴾ لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب في محلّ ﴿إذا﴾ كأنه قيل: ﴿فلمّا جاءهم بآياتنا﴾ فاجؤوا وقت ضحكهم.

٤٨ ـ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها، وصاحبتها التي كانت قبلها في نقض العادة. وظاهر النظم يدلّ على أنّ اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل: المراد بهذا الكلام: أنهنّ موصوفات بالكبر، ولا يكدن يتفاوتن فيه. وعليه كلامُ الناس، يقال: هما أخوان، كلّ واحد منهما أكرم من الآخر ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ ـ هو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآية ـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

٤٩ ـ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لتعظيمهم

(١) أي: التوراة والإنجيل.

ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ

علم السحر ﴿ياأيُّهُ الساحر﴾ بضم الهاء بلا ألف: شاميّ، ووجهه أنّها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلمّا سقطت لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو: بعهده عندك، وهو: النبوّة. أو: ﴿بما عهد عندك﴾ من كشف العذاب عمّن اهتدى ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ مؤمنون.

٥٠ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ ينقصون العهد بالإيمان، ولا يفون به.

٥١ ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط، أو: أمر منادياً فنادى، كقولك: قطع الأمير اللص؛ إذا أمر بقطعه ﴿فِي قَوۡمِهِۦ﴾ جعلهم محلّاً لندائه، وموقعاً له ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: أنهار النيل ـ ومعظمها أربعة ـ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ من تحت قصري، وقيل: بين يديّ في جناني، والواو عاطفة للأنهار على ﴿ملك مصر﴾. و﴿تجري﴾ نصب على الحال منها، أو: الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، و﴿الأنهار﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ. وعن الرشيد: أنه لمّا قرأها قال: لأولينّها أخسّ عبيدي، فولاها الخصيب، وكان خادمه على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر: أنّه وليها، فخرج إليها، فلمّا شارفها، قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتّى قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ قوّتي وضعف موسى، وغناي وفقره.

٥٢ ـ ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ «أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة، كأنّه قال: أثبت عندكم، واستقرّ أنّي ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ ـ وهذه حالي ـ ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ ضعيف

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا

حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما كان به من الرتّة[1].

٥٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ﴾ فهلاّ ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾: حفص، ويعقوب، وسهل، جمع: سِوار. غيرهم: (أساورة) جمع إسوار، وهو: السوار، حذف الياء من أساوير، وعوض منها التاء ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ أراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار، وطوّقوه بطوقٍ من ذهب ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يمشون معه، يقترن بعضهم ببعض؛ ليكونوا أعضاده، وأنصاره.

٥٤ ـ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ استفزّهم بالقول، واستزلهم، وعمل فيهم كلامه. وقيل: طلب منهم الخفّة في الطاعة، وهي الإسراع إليها ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن دين الله.

٥٥ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آسف: منقول من أسف أسفاً: إذا اشتدّ غضبه. ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي، فاستوجبوا أن نعجّل لهم عذابنا، وانتقامنا، وألاّ نحلم عنهم.

٥٦ ـ ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ جمع سالف، كخادم وخدم ﴿سُلُفاً﴾: حمزة، وعليّ، جمع سليف، أي: فريق قد سلف ﴿وَمَثَلًا﴾ وحديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يضرب بهم الأمثال، ويقال: مثلكم مثل قوم فرعون ﴿لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ لمن يجيء بعدهم، ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفّار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، ومثلاً يحدثون به.

٥٧ ـ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ لمّا قرأ رسول الله ﷺ على قريش:

(١) «الرتة»: العجمة في الكلام.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] غضبوا. فقال ابن الزِّبَعْرى: يا محمّد! أخاصّة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال: ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبيّ، وتثني عليه خيراً وعلى أمّه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد. والملائكة يعبدون. فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم. ففرحوا، وضحكوا، وسكت النبيّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ...﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فنزلت هذه الآية[1].

والمعنى: ﴿ولمّا﴾ ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إيّاه ﴿إِذَا قَوۡمُكَ﴾ قريش ﴿مِنۡهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً، وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله. ﴿يصُدّون﴾: مدنيّ، وشاميّ، وعليّ، والأعشى، من الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحقّ، ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد، وهو الجلبة، وأنّهما لغتان، نحو: يعكِف، ويعكُف.

٥٨ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾ يعنون: أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ إلاّ لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميْز بين الحقّ والباطل ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ لدّ، شداد الخصومة، دأبهم اللجاج، وذلك: أنّ قوله تعالى: ﴿إنّكم وما تعبدون﴾ لم يرد به إلاّ الأصنام؛ لأنّ ما لغير العقلاء، إلاّ أنّ ابن الزبعرى بخداعه لمّا رأى كلام الله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكلّ معبود غير الله على طريق اللجاج، والجدال، وحبّ المغالبة، والمكابرة، وتوقّح في ذلك، فتوقّر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربّه.

---

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشاف ٢ / ١٣٦).

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾

٥٩ ـ ﴿إِنْ هُوَ﴾ وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العباد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوّة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ وصيّرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

٦٠ ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً منكم. كذا قاله الزجاج. وقال في «جامع العلوم»: لجعلنا بدلكم. و﴿من﴾ بمعنى البدل ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم في الأرض، أو: يخلف الملائكة بعضهم بعضاً. وقيل: ﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور ﴿لجعلنا منكم﴾ لولّدنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في ﴿الأرض﴾ كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل، لتعرفوا تميّزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أنّ الملائكة أجسام لا تتولّد إلّا من أجسام، والقديم متعال عن ذلك.

٦١ ـ ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإنّ عيسى ممّا يعلم به مجيء الساعة. وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَعَلَمٌ﴾ وهو العلامة، أي: وإنّ نزوله علم للساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكنّ فيها، من المرية، وهو: الشكّ ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ وبالياء فيهما: سهل، ويعقوب، أي: واتّبعوا هداي وشرعي، أو: رسولي. أو: هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: ﴿هذا﴾ الذي يدعوكم إليه.

٦٢ ـ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن الإيمان بالساعة، أو: عن الاتّباع ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة إذ أخرج أباكم من الجنّة، ونزع عنه لباس النور.

٦٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، أو: بآيات الإنجيل، والشرائع البيّنات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل، والشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الدين، لا أمر الدنيا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

٦٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى ـ عليه السلام ـ.

٦٥ ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزّبة بعد عيسى ـ عليه السلام ـ، وهم: اليعقوبيّة، والنسطوريّة، والملكانيّة، والشمعونيّة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

٦٦ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقوم عيسى، أو: للكفّار ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة، أي: ﴿هل ينظرون إلاّ﴾ إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم، كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

٦٧ ـ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين. وانتصاب ﴿يومئذ﴾ بـ﴿عدو﴾، أي: تنقطع في ذلك اليوم كلّ خلّة بين المتخالّين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً إلاّ خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلّة الباقية.

٦٨ ـ ﴿يَٰعِبَادِ﴾[1] بالياء في الوصل والوقف: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وبفتح الياء: أبو بكر. الباقون: بحذف الياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو حكاية لما يُنادَى به المتّقون المتحابّون في الله يومئذ.

٦٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ منصوب المحلّ صفة لعبادي؛ لأنّه منادىً مضاف ﴿ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صدّقوا بآياتنا ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ لله، منقادين له.

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة (ياعبادي).

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ
وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ

٧٠ ـ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ المؤمنات في الدنيا ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تسرّون سروراً يظهر حباره، أي: أثره على وجوهكم.

٧١ ـ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾ جمع: صحيفة ﴿مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ أي: من ذهب أيضاً، والكوب: الكوز لا عروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنّة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ ـ: مدنيّ، وشاميّ، وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول، وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل، والفاعل، والمفعول ـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنّها إمّا مشتهيات في القلوب، أو: مستلذّة في العيون ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٧٢ ـ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿تلك﴾ إشارة إلى الجنّة المذكورة، وهي مبتدأ، و﴿الجنة﴾ خبر، و﴿التي أورثتموها﴾ صفة ﴿الجنّة﴾ أو: الجنّة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، و﴿التي أورثتموها﴾ خبر المبتدأ، أو: التي أورثتموها صفة، و﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلّق بمحذوف، أي: حاصلة، أو كائنة، كما في الظروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأوّل تتعلّق بـ﴿أورثتموها﴾، وشبّهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

٧٣ ـ ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ﴿من﴾ للتبعيض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزيّنة بالثمار أبداً. وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ في الجنّة من ثمرها إلاّ نبت مكانها مثلاها»(١).

٧٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبر بعد خبر.

٧٥ ـ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ خبر آخر، أي: لا يخفّف، ولا ينقص ﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ في

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٥٣٠).

مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾

العذاب ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ آيسون من الفرج، متحيّرون.

٧٦ ـ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «هم»: فصل.

٧٧ ـ ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ لمّا أيسوا من فتور العذاب ﴿نادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار ـ وقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنّ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قرأ ﴿يا مال﴾ فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم ـ ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، من: قضى عليه: إذا أماته ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لابثون في العذاب، لا تتخلّصون عنه بموت ولا فتور.

٧٨ ـ ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ كلام الله تعالى. ويجبُ أن يكون في ﴿قال﴾ ضمير الله. لمّا سألوا مالكاً أن يسأل الله القضاء عليهم أجابهم الله بذلك، وقيل: هو متّصل بكلام مالك[1] والمراد بقوله: ﴿جئناكم﴾ الملائكة، إذ هم رسل الله، وهو منهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لا تقبلونه، وتنفرون منه؛ لأنّ مع الباطل الدعة، ومع الحقّ التعب.

٧٩ ـ ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ﴾ أم أحكم مشركو مكة ﴿أَمۡرٗا﴾ من كيدهم، ومكرهم بمحمّد ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ كيدنا، كما أبرموا كيدهم.

٨٠ ـ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة، فنزل: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ حديث أنفسهم ﴿وَنَجۡوَىٰهُم﴾ ما يتحدّثون فيما بينهم، ويخفونه عن غيرهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما، ونطّلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الحفظة ﴿لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ عندهم يكتبون ذلك. وعن يحيى بن معاذ: مَن ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فقد جعله أهون الناظرين إليه. وهو من أمارات النفاق.

(١) أي: فضمير قال يعود على مالك.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾

٨١ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وصحّ ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ فأنا أوّل من يعظّم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه. وهذا كلامٌ واردٌ على سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد، وذلك: أنّه علّق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلّق بها محالاً مثلها. ونظيره: قول سعيد بن جبير للحجّاج ـ حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى: لو عرفت أنّ ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. وقيل: ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ في زعمكم ﴿فأنا أوّل العابدين﴾ أي: الموحّدين لله المكذّبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ في زعمكم فأنا أوّل الآنفين من أن يكون له ولد. من: عبِد يعبَد: إذا اشتدّ أنفه، فهو عبِدٌ وعابدٌ. وقرىء ﴿العبدين﴾. وقيل: هي ﴿إن﴾ النافية، أي: ما ﴿كان للرحمن ولد فأنا أوّل﴾ من قال بذلك، وعبد، ووحّد. ورُوي: أنّ النضر قال: إن الملائكة بنات الله، فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدّقني. فقال له الوليد: ما صدّقك، ولكن قال: ما ﴿كان للرحمن ولد فأنا أوّل﴾ الموحّدين من أهل مكّة أن لا ولد له ﴿وُلْد﴾: حمزة، وعليّ. ثم نزّه ذاته عن اتّخاذ الولد، فقال:

٨٢ ـ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: هو ربّ السموات والأرض والعرش، فلا يكون جسماً؛ إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد، لأنّ التولّد من صفة الأجسام.

٨٣ ـ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: القيامة. وهذا دليلٌ على أنّ ما يقولونه من باب الجهل، والخوض، واللعب.

٨٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف، فلذلك علّق به الظرف في قوله: في السماء، وفي الأرض، كما تقول: هو حاتم

وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ

في طيّ، وحاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنّك قلت: هو جواد في طيّ، جواد في تغلب. وقرىء: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله). ومثله قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنّه ضمّن معنى المعبود، والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، والتقدير: ﴿وهو الذي﴾ هو ﴿في السماء إله﴾. ﴿إله﴾ يرتفعُ على أنّه خبر مبتدأ مضمر، ولا يرتفع ﴿إله﴾ بالابتداء، و﴿في السماء﴾: خبرٌ لخلو الصلة حينئذ من عائد يعودُ إلى الموصول ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون.

٨٥ ـ ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرجعون﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ.

٨٦ ـ ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلهتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا: أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ولكن ﴿من شهد بالحق﴾ بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله ربهم حقّاً، ويعتقدون ذلك، هو الذي يملك الشفاعة. وهو استثناء منقطع، أو: متّصل؛ لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة.

٨٧ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، أو: من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟

٨٨ ـ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرّ: عاصم، وحمزة، أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله ﴿يَٰرَبِّ﴾ والهاء يعود إلى محمد ﷺ لتقدّم ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وبالنصب، الباقون عطفاً على محلّ ﴿الساعة﴾ أي: يعلم الساعة، ويعلم ﴿قيله﴾ أي: قِيْلَ محمّدٍ ﴿يا ربّ﴾. والقيل، والقول، والقال، والمقال واحد. ويجوزُ أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾

وحذفه. وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ كأنّه قيل: وأقسم بقيله: ﴿يا ربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾. وإقسام الله بقيله رفع منه، وتعظيم لدعائه، والتجائه إليه.

٨٩ ـ ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودّعهم، وتاركهم ﴿وَقُلۡ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: تَسَلُّمٌ منكم ومتاركة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ من الله لهم، وتسلية لرسوله ﷺ. وبالتاء: مدنيّ، وشاميّ.

* * *

سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ

في الخبر: «من قرأها في ليلة جمعةٍ أصبح مغفوراً له»(١).

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: القرآن. الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت ﴿حم﴾ تعديداً للحروف، أو: اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حم﴾ مقسماً بها. وجواب القسم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، أو: ليلة النصف من شعبان. وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. والجمهور على الأوّل؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. ثمّ قالوا: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثمّ نزل به جبريل في وقت وقوع الحاجة إلى نبيّه محمّد ﷺ، وقيل: ابتداء نزوله في ليلة القدر. والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، ويستجاب من الدعاء، ولو لم يوجد فيها

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يُضَعَّف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾

إلّا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

٤ ـ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسّر بهما جواب القسم، كأنّه قيل: أنزلناه لأنّ من شأننا الإنذار، والتحذير من العقاب. وكان إنزالنا إيّاه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كلّ أمر حكيم. ومعنى ﴿يفرق﴾ يفصل، ويكتب ﴿كلّ أمر﴾ من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمرهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تجيء في السنة المقبلة ﴿حكيم﴾ ذي حكمة، أي: مفعولٍ على ما تقضيه الحكمة. وهو من الإسناد المجازيّ؛ لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز.

٥، ٦ ـ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ نصب على الاختصاص، جعل كلّ أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثمّ زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر ﴿أمراً﴾ حاصلاً ﴿من عندنا﴾ كما اقتضاه علمنا، وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له، على معنى: إنّا أنزلنا القرآن؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا؛ لأجل الرحمة عليهم. أو: تعليل لقوله: ﴿أمراً من عندنا﴾. و﴿رحمة﴾ مفعول به. وقد وصف الرحمة بالإرسال، كما وصفها به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] والأصل: ﴿إنّا كنّا مرسلين رحمة﴾ منّا. فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأنّ الربوبيّة تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

٧ ـ ﴿رَبِّ﴾ كوفيّ بدل من ﴿ربّك﴾، وغيرهم بالرفع، أي: هو رب ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. ومعنى الشرط: أنّهم كانوا يقرّون بأنّ للسموات والأرض ربّاً وخالقاً، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل، وإنزال الكتب رحمة من الربّ، ثمّ قيل: إنّ هذا الربّ هو السميع العليم؛ الذي

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾

أنتم مقرّون به، ومعترفون بأنّه ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم، وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديث، وَحُدِّثْتَ بقصته.

٨ ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ﴾ أي: هو ربّكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عطف عليه. ثمّ ردّ أن يكونوا موقنين بقوله:

٩ ـ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ وإنّ إقرارهم غير صادر عن علم، وتيقّن، بل قول مخلوط بهزؤ، ولعب.

١٠ ـ ١٢ ـ ومفعول: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فانتظر ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾ يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ[(١)]، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص. وقيل: إنّ قريشاً لمّا استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللّهم اشْدُدْ وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعِلْهِزَ[(٢)]. وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان. وكان يحدّث الرجل، فيسمع كلامه، ولا يَرَاه من الدخان[(٣)] ﴿مُّبِينٖ﴾ ظاهر حاله، لا يشكّ أحد في أنّه دخان ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ يشملهم، ويُلْبِسُهم، وهو في محلّ الجرّ صفة لـ: «دخان». وقوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ ـ أي: سنؤمن إن كُشِفَ عنّا العذاب ـ منصوب المحلّ بفعل مضمر، وهو: يقولون. و: يقولون: منصوب المحلّ على الحال، أي: قائلين ذلك.

---

(١) «الحنيذ»: المشوي.

(٢) «العلهز»: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة.

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٤١) والبخاري (٤٨٢٤) ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩).

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾

١٣، ١٤ ـ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كيف يذكرون، ويتّعظون، ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظم، وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبيّنات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذّكّروا، وتولّوا عنه، وبهتوه بأنّ عدّاساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علّمه، ونسبوه إلى الجنون.

١٥ ـ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ زماناً ﴿قليلاً﴾ أو: كشفاً ﴿قليلاً﴾ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه، أو: إلى العذاب.

١٦ ـ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو يوم القيامة، أو: يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم. وانتصاب ﴿يوم نبطش﴾ بـ«اذكر»، أو: بما دلّ عليه: ﴿إنّا منتقمون﴾ وهو: ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأنّ ما بعد إنّ لا يعمل فيما قبلها.

١٧ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المشركين ـ أي: فعلنا بهم فعل المختبر؛ ليظهر منهم ما كان باطناً ـ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو: كريم في نفسه حسيب نسيب؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبياً إلاّ من سراة قومه، وكرامهم.

١٨ ـ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ﴾ هي ﴿أن﴾ المفسّرة؛ لأنّ مجيء الرسول إلى مَن بعث إليهم متضمّن لمعنى القول؛ لأنّه لا يجيئهم إلاّ مبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله. أو: المخفّفة من الثقيلة. ومعناه: ﴿وجاءهم﴾ بأنّ الشأن والحديث ﴿أدّوا إليّ﴾ سلّموا إليّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ هو مفعول به، وهم بنو إسرائيل، يقول: أدّوهم إليّ، وأرسلوهم معي، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم، على معنى: ﴿أدّوا إليّ﴾ يا ﴿عباد الله﴾ ما هو واجب لي

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾

عليكم من الإيمان لي، وقبول دعوتي، واتّباع سبيلي. وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: على رسالتي، غير متهم.

١٩ ـ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ هذه مثل الأولى في وجهيها، أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه، أو: لا تستكبروا على نبيّ الله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تدلّ على أني نبيّ.

٢٠ ـ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ ـ «عتُّ»: مدغم: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ ـ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلوني رجماً، ومعناه: أنّه عائذٌ بربّه، متـكل على أنّه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعّدونه من الرجم، والقتل.

٢١ ـ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحّوا عنّي، أو: فخلوني كفافاً لا لي ولا عليّ، ولا تتعرّضوا لي بشرِّكم وأذاكم، فليس جزاء مَن دعاكم إلى ما فيه فلاحُكم ذلك. ﴿ترجموني﴾ ﴿فاعتزلوني﴾ في الحالين: يعقوب.

٢٢ ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ شاكياً قومه ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ بأن هؤلاء، أي: دعا ربّه بذلك. قيل: كان دعاؤه: اللهم عجّل لهم ما يستحقّونه بإجرامهم. وقيل: هو قوله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وقرىء: ﴿إنّ هؤلاء﴾ بالكسر؛ على إضمار القول، أي: ﴿فدعا ربّه﴾ فقال: ﴿إنّ هؤلاء﴾.

٢٣ ـ ﴿فَأَسْرِ﴾ مِن: أسرى ﴿فاسر﴾ بالوصل: حجازيّ، مِن: سرى. والقول مضمر بعد الفاء ﴿فـ﴾ قال: أسر ﴿بِعِبَادِي﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: دبّر الله أن تتقدّموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجّي المتقدّمين، ويغرق التابعين.

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝٢٩ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾

٢٤ ـ ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ ساكناً. أراد موسى ـ عليه السلام ـ لمّا جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، فأُمِر بأن يتركه ساكناً على هيئته قارّاً على حاله؛ من انتصاب الماء، وكون الطريق يبساً، لا يضربه بعصاه، ولا يغيّر منه شيئاً ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. وقيل: الرهو: الفجوة الواسعة، أي: أتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ بعد خروجك من البحر. وقُرىء بالفتح، أي: لأنّهم.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿كَمۡ﴾ عبارة عن الكثرة، ومنصوب بقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة. وقيل: المنابر.

٢٧ ـ ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾ تنعّم ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ متنعّمين.

٢٨ ـ ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ أي: الأمر كذلك. فالكاف في موضع الرفع على أنّه خبر مبتدأ مضمر ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة، ولا دين، ولا ولاء. وهم: بنو إسرائيل.

٢٩ ـ ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لأنّهم ماتوا كفّاراً. والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، فيبكي على المؤمن من الأرض مُصلاَّه، ومن السماء مَصْعَدُ عمله. وعن الحسن ـ رحمة الله عليه ـ: أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي: لم يُنظروا إلى وقت آخر، ولم يُمهلوا.

٣٠ ـ ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ أي: الاستخدام، والاستعباد، وقتل الأولاد.

٣١ ـ ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ بدل من ﴿العذاب المهين﴾ بإعادة الجارّ، كأنّه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم، وإهانتهم. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك ﴿من فرعون﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ متكبّراً ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ خبر ثان، أي: كان متكبّراً مسرفاً.

وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ

٣٢ ـ ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: عالمين بمكان الخيرة، وبأنّهم أحقّاء بأن يختاروا ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

٣٣ ـ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسّلوى، وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ كفّار قريش ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ﴾ ما الموتة ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾. والإشكال: أنّ الكلامَ وقع في الحياة الثانية لا في الموت، فهلاّ قيل: إن هي إلاّ حياتنا الأولى؟ وما معنى ذِكْر الأولى؟ كأنّهم وُعِدوا موتة أخرى حتّى جحدوها، وأثبتوا الأولى. والجواب: أنّه قيل لهم: إنّكم تموتون موتة تتعقّبها حياة؛ كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إن هي إلاّ موتتنا الأولى﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقّبها حياة إلاّ الموتة الأولى، فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] في المعنى. ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم.

٣٦ ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إن صدقتم فيما تقولون، فعجِّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربّكم ذلك، حتّى يكون دليلاً على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حقّ.

٣٧ ـ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوّة، والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبّع الحميريّ، كان

وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ
ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

مؤمناً وقومه كافرين. وقيل: كان نبيّاً. وفي الحديث: «ما أدري أكان تبّع نبيّاً أو غير نبيّ»[١] ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿قوم تبّع﴾ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين، منكرين للبعث.

٣٨ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال. ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب، كان خلق الخلق للفناء خاصّة، فيكون لعباً.

٣٩ ـ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالجدّ، ضدّ اللعب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه خلق لذلك.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقت موعدهم كلّهم.

٤١ ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ أي: وليٌّ؛ أيُّ ولي كان عن أيِّ وليٍّ كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من إغناء، أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنّهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كلَّ مولىً.

٤٢ ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في محلّ الرفع على البدل من الواو في ﴿ينصرون﴾ أي: لا يمنع من العذاب ﴿إلاّ من﴾ رحمه ﴿الله﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأوليائه.

٤٣ ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ هي على صورة شجر الدنيا لكنّها في النار. والزقّوم: ثمرها، وهو كلّ طعام ثقيل.

---

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٢٨٠).

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

٤٤ ـ ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ هو: الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء: أنّه كان يقرىء رجلاً، فكان يقول: طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر يا هذا. وبهذا تستدلّ على أنّ إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدّية معناها[1]. ومنه أجاز أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ القراءة بالفارسيّة بشرط أن يؤدّي القارىء المعاني كلّها على كمالها من غير أن يَخْرِمَ منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهدُ أنّها إجازة كلا إجازة؛ لأنّ في كلامَ العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والدقائق مالا يستقلّ بأدائه لسان من فارسيّة وغيرها. ويُروى رجوعه إلى قولهما، وعليه الاعتماد.

٤٥ ـ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ هو دُرديّ[2] الزيت. والكاف رفع خبر بعد خبر ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾[3] ـ وبالياء: مكّي، وحفص، فالتاء للشجرة، والياء للطعام ـ.

٤٦ ـ ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحارّ الذي انتهى غليانه. ومعناه: غلياً ﴿كغلي الحميم﴾. فالكاف منصوب المحلّ. ثمّ يقال للزبانية:

٤٧ ـ ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الأثيم ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة ـ ﴿فاعتُلوه﴾ مكّي، ونافع، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ـ ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

٤٨ ـ ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ المصبوب هو الحميم

---

(١) قال أحمد بن المنير الإسكندري في «الانتصاف»: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمولٌ على إيضاح المعنى؛ ليكون وضوحُ المعنى عند المتعلّم عوناً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب «الانتصار» وهو الوجه. (حاشية الكشاف٤/ ٢٨١).

(٢) «الدردي»: ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٣) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿تغلي﴾. بالتاء. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وخلف، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٦/ ١٤٢).

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۝٥٥﴾

لا عذابه، إلاّ أنّه إذا صبّ عليه الحميم، فقد صبّ عليه عذابه، وشدّته. وصب العذاب: استعارة. ويقال له:

٤٩ ـ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ له على سبيل الهزؤ والتهكّم ﴿أنّك﴾ أي: لأنّك، عليّ.

٥٠ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب، أو: هذا الأمر هو ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون.

٥١ ـ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ بالفتح، وهو: موضع القيام. والمراد: المكان. وهو من الخاصّ الذي وقع مستعملاً في معنى العموم. وبالضمّ: مدنيّ، وشاميّ. وهو: موضع الإقامة ﴿أَمِينٍ﴾ مِن: أمن الرجل أمانة، فهو أمين. وهو ضد الخائن. فوصف به المكان استعارة؛ لأنّ المكان المخيف كأنّما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

٥٢ ـ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿مقام أمين﴾.

٥٣ ـ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه. وهو تعريب: استبر. واللفظ إذا عرّب خرج من أن يكون أعجمياً؛ لأنّ معنى التعريب أن يجعلَ عربيّاً بالتصرّف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، فساغ أن يقعَ في القرآن العربيّ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم. وهو أتمُّ للأنس.

٥٤ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف مرفوعة، أي: الأمر ﴿كذلك﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرنّاهم. ولهذا عدّي بالباء ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء، وهي: الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء، وهي: الواسعة العين.

٥٥ ـ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون في الجنّة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ من الزوال، والانقطاع، وتولّد الضرر من الإكثار.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

٥٦ ـ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ البتّة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا. وقيل: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٥٧ ـ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: للفضل. فهو مفعول له، أو: مصدر مؤكّد لما قبله؛ لأنّ قوله: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ تفضّل منه لهم؛ لأنّ العبدَ لا يستحقّ على الله شيئاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: صرف العذاب، ودخول الجنّة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٥٨ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب. وقد جرى ذكره في أوّل السورة ﴿بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٥٩ ـ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلُّ بك من الدّوائر.

* * *

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

آياتها ٣٧ — ترتيبها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

١، ٢ ـ ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلتها اسماً للسورة فهي مرفوعة بالابتداء، والخبر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة للتنزيل. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تنزيل الكتاب﴾: مبتدأ، والظرف: خبراً ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٣، ٤ ـ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ لدلالات على وحدانيّته. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿إنّ في﴾ خلق ﴿السموات والأرض لآيات﴾ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. دليلُه قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾. ويعطف ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ على الخلق المضاف؛ لأنَّ المضافَ إليه ضمير مجرور متّصل يقبح العطف عليه ﴿ءَايَٰتٌ﴾ حمزة وعليّ بالنصب، وغيرهما بالرفع، مثل قولك: إنّ زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو: وعمرو في السوق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٥ ـ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ ـ أي: مطر. وسُمّي به لأنّه سببُ الرزق ـ ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ـ ﴿الريح﴾ حمزة وعليّ ـ ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالنصب: عليّ وحمزة، وغيرهما بالرفع. وهذا من

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾

العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت. فالعاملان إذا نصبت ﴿إنّ﴾ و﴿في﴾. أقيمت الواو مقامهما فعملت الجرّ في ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ والنصب في ﴿آيات﴾. وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وحرف ﴿في﴾. عملت الواو الرفع في آيات، والجرّ في ﴿واختلاف﴾. وهذا مذهب الأخفش؛ لأنّه يجُوِّز العطفَ على عاملين، وأمّا سيبويه فإنّه لا يجيزه. وتخريج الآية عنده أن يكونَ على إضمار ﴿في﴾. والذي حسّنه تقدُّم ذكر ﴿في﴾ في الآيتين قبل هذه الآية. ويؤيّده قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وفي اختلاف الليل والنهار). ويجوز أن ينتصب ﴿آيات﴾ على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله، أو: على التكرير توكيداً لآيات الأولى. كأنّه قيل: آياتٍ آياتٍ. ورفعها بإضمار ﴿هي﴾ والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقان، وتوسيطه، وتأخير الآخر: أنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظراً صحيحاً علموا أنّها مصنوعة، وأنّه لابُدَّ لها من صانعٍ فآمنوا بالله، فإذا نظروا في خَلْق أنفسهم، وتنقّلها من حال إلى حال، وفي خلقِ ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدَّد في كلِّ وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

٦ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة، أي: تلك الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ في محلِّ الحال، أي: متلوّة ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾. والعامل دلّ عليه ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعد آيات الله. كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، ويريدون: أعجبني كرم زيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ حجازيّ، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. وبالتاء غيرهم، على تقدير: قل يا محمّد.

٧ ـ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ متبالغ في اقتراف الآثام.

يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

٨ ـ ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في موضع جرّ صفة ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره، ويقيم عليه ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحقّ، مزدرياً لها، معجباً بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناسَ عن استماع القرآن. والآية عامّة في كلّ مَن كان مضارّاً لدين الله. وجيء بثمّ؛ لأنّ الإصرارَ على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعدٌ في العقول ﴿كَأَن﴾ مخفّفة. والأصل: كأنّه ﴿لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ الجملة: النصب على الحال، أي: ﴿يصرُّ﴾ مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبره خبراً يظهر أثره على البشرة.

٩ ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا، وعلم أنّه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ اتّخذ الآيات ﴿هُزُوًا﴾. ولم يقل: اتّخذه؛ للإشعار بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات؛ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه. ويجوزُ أن يرجعَ الضميرُ إلى الشيء؛ لأنّه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نَفْسِي بشيءٍ مِنَ الدُّنيا مُعَلَّقَة اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفِيها[1]

حيث: أراد عتبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ـ إشارة إلى ﴿كلّ أفّاك أثيم﴾ لشموله الأفّاكين ـ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مخز.

١٠ ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ من قدّامهم ـ الوراء: اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف، أو: قدّام ـ ﴿جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموال ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ ـ ﴿ما﴾ فيهما مصدريّة، أو: موصولة ـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في جهنم.

---

(١) كنّى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها: عتبة؛ ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثاً.

﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾

١١ ـ ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ إشارة إلى القرآن. يدلُّ عليه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنّ آيات ربّهم هي القرآن، أي: هذا القرآنُ كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيد رجل، أي: كامل في الرجوليّة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ ـ هو أشدّ العذاب ـ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع: مكّيّ، ويعقوب، وحفص، صفة لعذاب. وغيرهم: بالجرّ صفة لرجز.

١٢ ـ ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة، أو: بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطريّ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٣ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هو تأكيد ﴿ما في السموات﴾. وهو مفعول ﴿سخر﴾. وقيل: ﴿جميعاً﴾: نصب على الحال ﴿مِّنْهُ﴾ حال، أي: سخر هذه الأشياء كائنة ﴿منه﴾ وحاصلة من عنده، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه النعم كلّها ﴿منه﴾، أو: صفة للمصدر، أي: تسخيراً ﴿منه﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤ ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم اغفروا ﴿يغفروا﴾ ـ فحذف المقول؛ لأنّ الجواب يدلّ عليه. ومعنى ﴿يغفروا﴾ يعفوا، ويصفحوا. وقيل: إنَّه مجزوم بلام مضمرة، تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف. وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقّعون وقائع الله بأعدائه. من قولهم لوقائع العرب: «أيّام العرب». وقيل: لا يؤمّلون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت في عمر ـ رضي الله عنه ـ حين شتمه رجلٌ من المشركين من بني غفار، فهمَّ أن يبطشَ به ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا ليوفّيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير ﴿قَوْمًا﴾ على المدح لهم، كأنّه قيل: ﴿ليجزي﴾ أيّما قوم، وقوماً مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم ـ ﴿لنجزي﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

﴿لِيُجزي قوماً﴾ يزيد، أي ﴿لِيُجزَى﴾ الخيرُ ﴿قوماً﴾. فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه، كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] لأنّ قوله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص: ٣١] دليلٌ على تواري الشمس. وليس التقدير: ﴿ليجزَى﴾ الجزاء ﴿قوماً﴾ لأنّ المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. أمّا إقامة المفعول الثاني مقام الفاعل فجائز، وأنت تقول: جزاك الله خيراً ـ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الإحسان.

١٥ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: لها الثواب، وعليها العقاب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه.

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة، والفقه، أو: فصل الخصومات بين الناس؛ لأنّ الملك كان فيهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ خصّها بالذكر لكثرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ممّا أحلّ الله لهم ما طاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

١٧ ـ ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ آيات، ومعجزات ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فما وقع الخلافُ بينهم في الدِّين ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إلّا من بعد ما جاءهم ما هو موجبٌ لزوال الخلاف، وهو العلم. وإنّما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أي: لعداوةٍ وحسدٍ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: المرادُ: اختلافُهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً، وطلباً للرئاسة، لا عن جهل يكون الإنسانُ به معذوراً.

١٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة، ومنهاج ﴿مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتّبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ

﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهّال ودينهم المبنيّ على هوى وبدعة. وهم رؤساءُ قريش حين قالوا: ارجعْ إلى دين آبائك.

١٩ ـ ﴿إِنَّهُمْ﴾ إنّ هؤلاء الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم موالوه. وما أبين الفضل بين الولايتين!

٢٠ ـ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جعل ما فيه من معالم الدِّين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل روحاً وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لمن آمن، وأيقن بالبعث.

٢١ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ «أم»: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان ﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر. ومنه: الجوارح، وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيِّرهم. وهو من «جعل» المتعدّي إلى مفعولين. فأوّلهما الضمير، والثاني الكاف في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والجملة التي هي ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأنّ الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد ﴿سواءً﴾: عليّ، وحمزة، وحفص بالنصب على الحال من الضمير في ﴿نجعلهم﴾. ويرتفع محياهم ومماتهم بـ﴿سواءً﴾، وقرأ الأعمش ﴿ومماتَهم﴾ بالنصب. جعل ﴿محياهم ومماتهم﴾ ظرفين، كمقدم الحاجّ، أي: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة في الرزق والصحّة. وعن تميم الداريّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان يصلّي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي، ويردّدها إلى الصباح. وعن الفضيل ـ رحمة الله عليه ـ: أنه بلغها،

سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا
كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ
سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا

فجعل يردّدها[(١)]، ويقول: يا فضيل! ليت شعري من أيّ الفريقين أنت؟! ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ بئس ما يقضون؛ إذْ حسبوا أنهم كالمؤمنين، فليس من أُقْعِدَ على بساط الموافقة، كمن أقعد في مقام المخالفة، بل نفرّق بينهم فنعلي المؤمنين، ونخزي الكافرين.

٢٢ ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ليدلّ على قدرته ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ معطوف على هذا المعلّل المحذوف ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

٢٣ ـ ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنّه يعبده كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ منه باختياره الضلال. أو: أنشأ فيه فعل الضلال ﴿على علم﴾ منه بذلك ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ فلا يقبل وعظاً ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ فلا يعتقد حقاً ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ فلا يبصر عبرة ـ ﴿غَشْوَة﴾ حمزة، وعليّ ـ ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ من بعد إضلال الله إيّاه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص، وغيرهم: بالتشديد، فأصل الشرّ: متابعة الهوى، والخير كلّه في مخالفته، فنعم ما قال:

إذا طلبتكَ النفسُ يوماً بشهوةٍ … وكــان إليهــا للخــلافِ طــريــق
فَدَعْها وخالفْ ما هويتَ فإنّما … هــواكَ عــدوٌّ والخــلافُ صــديــق

٢٤ ـ ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة ـ لأنّهم وعدوا حياة ثانية ـ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ التي نحن فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك، أو: يصيبنا الأمران الموت والحياة ـ يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها ـ وليس وراء ذلك حياة. وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ، أي: يموتُ الرجل، ثمّ

(١) ليست في الأصل المخطوط، واستدركت من المطبوع ليستقيم المعنى.

وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ

تجعل روحُه في مواتٍ فيحيا به ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ كانوا يزعمون أنّ مرور الأيّام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كلَّ حادثة تحدثُ إلى الدهر والزمان، وترى أشعارَهم ناطقةً بشكوى الزمان، ومنه قوله ﷺ: «لاتسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر»[1]. أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين، ولكن عن ظنّ وتخمين.

٢٥ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ ـ أي: القرآن، يعني: ما فيه من ذكر البعث ـ ﴿بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ـ وسمّى قولهم حجّة وإن لم يكن حجّة؛ لأنه في زعمهم حجّة ـ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾. أي: أحيوهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى البعث. و﴿حجّتهم﴾ خبر كان. واسمها ﴿أن قالوا﴾. والمعنى: ﴿ما كان حجّتهم إلاّ﴾ مقالتهم ﴿ائتوا بآبائنا﴾. وقرىء ﴿حُجّتُهم﴾ بالرفع على أنها اسم ﴿كان﴾ و﴿أن قالوا﴾: الخبر.

٢٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً. ومَن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في الجمع ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على البعث؛ لإعراضهم عن التفكُّر في الدّلائل.

٢٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ عامل النصب في ﴿يوم تقوم﴾ هو ﴿يخسر﴾. و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿يوم تقوم﴾.

٢٨ ـ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ جالسة على الركب. يقال: جثا فلان يجثو؛ إذا جلس على ركبتيه. وقيل: ﴿جاثية﴾ مجتمعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ ـ بالرفع على الابتداء.

(١) رواه البخاري (٦١٨١) ومسلم (٢٢٤٦).

تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا
نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى
رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى
مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

﴿كلّ﴾: يعقوب، على الإبدال من ﴿كلّ أمّة﴾ ـ ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها ـ فاكتفى باسم الجنس ـ فيقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٢٩ ـ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضيف الكتاب إليهم لملابسته إيّاهم؛ لأنّ أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله تعالى؛ لأنّه مالكه، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمالَ عباده ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ يشهد عليكم لما عملتم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نستكتب الملائكة أعمالكم. وقيل: نسخت، واستنسخت: بمعنىً. وليس ذلك بنقل من كتاب، بل معناه: نثبت.

٣٠ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ جنّته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٣١ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. والمعنى: ﴿أ﴾ لم يأتكم رسلي ﴿فلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ ـ فحذف المعطوف عليه ـ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

٣٢ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالجزاء ﴿حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ ـ بالرفع عطف على محلّ إنّ واسمها ﴿والساعةَ﴾ حمزة. عطف على ﴿وعد الله﴾ ـ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيّ شيء الساعة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾. أصله: نظنّ ظنّاً، ومعناه: إثبات الظنّ فحسب، فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظنّ مع نفي ما سواه. وزيد نفي ما سوى الظنّ توكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

٣٣ ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر لهؤلاء الكفار ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ قبائح أعمالهم، أو: عقوبات أعمالهم السيّئات، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم.

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٤ ـ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم عُدّة لقاء يومكم، وهي: الطاعة، وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: ﴿نسيتم لقاء﴾ الله تعالى في ﴿يومكم هذا﴾ ولقاء جزائه ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: منزلكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٣٥ ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ﴿لا يَخرجون﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم، أي: يرضوه.

٣٦ ـ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فاحمدوا الله الذي هو ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ من السموات والأرض والعالمين، فإنَّ مثل هذه الربوبيّة العامّة توجبُ الحمدَ والثناء على كلِّ مربوب.

٣٧ ـ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكبّروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أحكامه.

* * *

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ
مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ملْتبساً بالحكمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُنتهى إليه، وهو: يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ عما أنذروه من هول ذلك اليوم؛ الذي لا بدّ لكلِّ مخلوق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون به، ولا يهتمّون بالاستعداد له.

ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدريّة، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

٤ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعبدونه من الأصنام: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي شيء خلقوا ممّا في الأرض إن كانوا آلهة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ شركة مع الله في خلق السموات؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا الكتاب، وهو القرآن، يعني: أنّ هذا الكتابَ ناطقٌ بالتوحيد، وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلاّ وهو ناطقٌ بمثل ذلك، فائتوا بكتاب واحد منزل من قبله، شاهد بصحّة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو: بقيّة من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ الله أمركم بعبادة الأوثان.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ

٥ ـ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: أبداً.

٦ ـ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: الأصنام لعبدتها ﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾ تقول: ما دعوناهم إلى عبادتنا. ومعنى الاستفهام في: ﴿من أضلّ﴾ إنكار أن يكون في الضلاّل كلّهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السَّميع المجيب القادر على كلِّ شيء، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيبُ لهم، ولا قدرة به على استجابة أحدٍ منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ﴿وإذا﴾ قامت القيامة، و﴿حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا﴾ عليهم ضدّاً، فليسوا في الدارين إلاّ على نكد ومضَرة: لا تتولاّهم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم. ولمّا أسند إليهم ما يسندُ إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل: ﴿مَن﴾ و﴿هم﴾ ووصْفُهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكّم بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٧ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ جمع بيّنة، وهي: الحجة والشاهد، أو: واضحات مبيّنات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحقّ: الآيات، وبالذين كفروا: المتلوّ عليهم. فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلوّ بالحقّ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بادهوه بالجحود ساعة أتاهم، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر، ولا إعادة نظر ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره في البطلان، لا شبهة فيه.

٨ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات: سحراً إلى ذكر قولهم: إنّ محمّداً ﷺ ﴿افتراه﴾ أي: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً. والضّمير

قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

للحقّ، والمراد به: الآيات ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: ﴿إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله بعقوبة الافتراء عليه، فلا تقدرون على كفّه عن معاجلتي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه، فكيف أفتريه، وأتعرّض لعقابه؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تندفعون فيه من القدح في وحي الله، والطعن في آياته، وتسميته سحراً تارة، وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصِّدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار. ومعنى ذكر العلم والشهادة: وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر، وآمنوا.

٩ ـ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بديعاً، كالخفّ بمعنى الخفيف. والمعنى: إنِّي لستُ بأوّل مرسل فتنكروا نبوّتي ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ﴿ما﴾ يفعل الله ﴿بي و﴾ بكم فيما يستقبل من الزمان. وعن الكلبيّ: «قال له أصحابه ـ وقد ضجروا من أذى المشركين ـ: حتّى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أأترك بمكّة أم أُومر بالخروج إلى أرضٍ قد رفعت لي، ورأيتها ـ يعني: في منامه ـ ذات نخيل وشجر؟»[(١)] و﴿ما﴾ في ﴿ما يفعل﴾ يجوزُ أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهاميّة مرفوعة. وإنّما دخل ﴿لا﴾ في قوله: ﴿ولا بكم﴾، مع أنّ ﴿يُفْعَلُ﴾ مثبت غير منفي، لتناول النفي في ﴿ما أدري﴾ ما، وما في حيّزه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام عند الجمهور. ولهذا قيل: إنّ هذه الآية مدنيّة لأنّ إسلامَ ابنِ سلام بالمدينة. رُوي: أنّه لمّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ نظر إلى

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٥٤).

عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ

وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذّاب، قال له: إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلاّ نبيّ: ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ وما بالُ الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أوّل أشراط الساعة فنارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أوّل طعام يأكله أهلُ الجنّة فزيادة كبد حوت. وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجلُ نزعه، وإن سبق ماءُ المرأة نزعته». فقال: أشهد أنك رسول الله حقّاً[1] ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضمير للقرآن، أي: مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من: التوحيد، والوعد، والوعيد، وغير ذلك. ويجوزُ أن يكون المعنى: إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهدٌ على نحو ذلك، يعني: كونه من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به. وجواب الشرط محذوف، تقديره: ﴿إن كان﴾ القرآنُ ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ ألستم ظالمين؟! ويدلُّ على هذا المحذوف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والواو الأولى عاطفةٌ لـ: ﴿كفرتم﴾ على فعل الشرط، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة لـ: ﴿استكبرتم﴾ على ﴿شهد شاهد﴾. وأمّا الواو في ﴿وشهد﴾ فقد عطفت جملة قوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾ والمعنى: ﴿قل﴾ أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله، فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، ألستم أضلَّ الناس وأظلمهم؟

١١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لأجلهم، وهو كلام كفّار مكّة، قالوا: عامّة من يتبع محمداً السقاط، يعنون: الفقراء، مثل: عمّار، وصهيب، وابن مسعود ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ العامل في ﴿إذ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه،

(١) رواه أحمد (٣/ ١٠٨) والبخاري (٣٣٢٩) والنسائي في عشرة النساء (١٨٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٨ـ٥٢٩) وابن حبان (٧١٦١).

فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا

تقديره: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ظهر عنادهم. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبّب عنه. وقولهم: ﴿إفك قديم﴾ أي: كذب متقادم، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

١٢ ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة. وهو مبتدأ و﴿من قبله﴾ ظرف واقع خبراً مقدّماً عليه. وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، نحو: في الدار زيد قائماً. ومعنى ﴿إماماً﴾: قدوة يؤتمّ به في دين الله وشرائعه، كما يؤتمّ بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، وعمل بما فيه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، ولما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿مصدّق﴾. والعامل في ﴿مصدّق﴾ أو: من ﴿كتاب﴾ لتخصّصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوّز أن يكون مفعولاً لـ: ﴿مصدّق﴾، أي: يصدّق ذا لسان عربيٍّ، وهو الرسول ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: الكتاب ﴿لتنذر﴾: حجازيّ، وشاميّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ في محلّ النصب معطوف على محلّ ﴿لينذر﴾ لأنه مفعول له ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين.

١٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على توحيد الله، وشريعة نبيّه محمد ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.

١٤ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من ﴿أصحاب الجنّة﴾ والعامل فيه معنى الإشارة؛ الذي دلّ عليه ﴿أولئك﴾ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جزاء﴾: مصدر لفعل دلّ عليه الكلام، أي: جوزوا ﴿جزاء﴾.

١٥ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ كوفيّ، أي: وصّيناه بأن يحسن ﴿بوالديه إحساناً﴾ ﴿حَسناً﴾ غيرهم، أي: وصّيناه بوالديه أمراً ذا حسن، أو: بأمر ذي حسن، فهو في موضع البدل من قوله ﴿بوالديه﴾ وهو من بدل الاشتمال

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ بفتح الكاف: حجازيّ، وأبو عمرو. وهما لغتان في معنى المشقّة. وانتصابه على الحال، أي: ذات كره، أو: على أنّه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كره ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدّة حمله وفطامه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليلٌ على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر؛ لأنّ مدّة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستّة أشهر. وبه قال أبو يوسف ومحمد ـ رحمهما الله ـ. وقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: المراد به: الحمل بالأكفّ ﴿وفصله﴾: يعقوب. والفصل والفصال كالفطم والفطام، بناءً ومعنىً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو جمع، لا واحد له من لفظه. وكان سيبويه يقول: واحده شِدَّةٌ. وبلوغ الأشدّ: أن يكتهل، ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة. ووجهه: أن يكون ذلك أوّل الأشدّ، وغايته الأربعين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ـ المراد به: نعمة التوحيد والإسلام. وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأنّ النعمة عليهما نعمة عليه ـ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ ـ قيل: هي الصلوات الخمس ـ ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذرّيّتي موقعاً للصلاح، ومظنّة له ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كلّ ذنب ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين.

١٦ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: حمزة وعليّ وحفص. ﴿يُتَقَبَّلُ﴾ ﴿ويُتَجاوز﴾ ﴿أحسنُ﴾: غيرهم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هو كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه. تريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم. ومحلّه النصب على الحال على معنى كائنين ﴿في أصحاب الجنّة﴾ ومعدودين فيهم ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكّد لأنّ قوله يتقبّل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبّل والتجاوز

﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ﴾

قيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وفي أبيه أبي قحافة، وأمّه أمّ الخير، وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. فإنّه آمن بالنبيّ ﷺ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة. ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أولئك الذين حقّ عليهم القول﴾. والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول؛ ولذلك وقع الخبر مجموعاً. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هو في الكافر العاقّ لوالديه، المكذّب بالبعث. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قبل إسلامه. ويشهد لبطلانه كتاب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقليّة. أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيّها الناس هذا الذي قال الله تعالى فيه ﴿والذي قال لوالديه أفّ لكما﴾. فسمعت عائشة رضي الله عنها فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسمّيه لسمّيته، ولكنّ الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَضٌ من لعنة الله[1]. أي: قطعة ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ مدنيٌّ وحفص ﴿أفَّ﴾ مكّيٌّ وشاميٌّ ﴿أفٍّ﴾ غيرهم. وهو صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنّه متضجّر، كما إذا قال: حَسِّ؛ علم أنّه متوجّع. واللام للبيان. أي: هذا التأفيف لكما خاصّة ولأجلكما دون غيركما ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أُبعَثَ و﴿أخرج﴾ من الأرض ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا﴾ أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور. والمراد به: الحثّ والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ءَامِنْ﴾ بالله وبالبعث ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٤٩١).

مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القول ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

١٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ في جملة أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرار والفجّار ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: منازل ومراتب ﴿من﴾ جزّاء ﴿ما عملوا﴾ من الخير والشّر. أو ﴿من﴾ أجل ﴿ما عملوا﴾ منهما. وقيل: ﴿درجات﴾، وقد جاء: الجنّة درجات، والنار دركات، على وجه التغليب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بالياء: مكّيٌّ، وبصريّ، وعاصم ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾. أي: ﴿وليوفّيهم أعمالهم﴾ ولا يظلمهم حقوقهم، قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، فاللام متعلّقة بمحذوف.

٢٠ ـ ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عرضهم على النار: تعذيبهم بها. من قولهم: عُرِض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: «عرضت الناقة على الحوض» يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ أي: يقال لهم: ﴿أذهبتم﴾ وهو ناصب الظرف ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾. أي: ما كتب لكم حظّ من الطيّبات إلاّ ما قد أصبتموه في دنياكم. وقد ذهبتم به وأخذتموه. فلم يبق لكم بعد استيفاء حظّكم شيءٌ منها. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنّي أستبقي طيّباتي ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ بالطيّبات ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: الهوان. وقرىء به ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تتكبرون ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ أي: باستكباركم وفسقكم.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا

٢١ ـ ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: هوداً ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حِقْف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من: احقوقف الشيء إذا اعوجَّ. عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو واد بين عمان ومَهْرَة ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو: الإنذار ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن خلف هود. وقوله: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ وقع اعتراضاً بين: ﴿أنذر قومه﴾ وبين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والمعنى: ﴿واذكر﴾ إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخّر عنه مثل ذلك.

٢٢ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا. فالأفك: الصرف. يقال: أفكه عن رأيه ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعْدِك.

٢٣ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو. أي: الذي هو شأني أن أبلّغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: ولكنّكم جاهلون لا تعلمون: أنّ الرسل بعثوا منذرين، لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما تعدنا﴾ أو: هو مبهم وضّح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إمّا تمييزاً أو حالاً. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق من السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. روي: أنّ المطر قد احتبس عنهم فرأوا سحابةً استقبلت أوديتهم، فقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر،

بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

وأظهروا من ذلك فرحاً. وإضافة «مستقبل» و«ممطر» مجازيّة غير معرَّفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود ﴿بل هو﴾. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: (قال هود بل هو) ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب. ثمّ فسّره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجمّ الكثير. فعبّر عن الكثرة بالكلّيّة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ربّ الريح ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ عاصم وحمزة وخلف. أي: ﴿لا يرى﴾ شيء ﴿إلاّ مساكنهم﴾. غيرهم: ﴿لا ترى إلاّ مساكنَهم﴾ والخطاب للرائي من كان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿نجزي﴾ من أجرم مثل جرمهم. وهو تحذير لمشركي العرب. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه في حظيرةٍ، ما يصيبهم من الريح إلاّ ما تلذّه الأنفس، وإنّها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ ﴿إن﴾ نافية. أي: فيما ما مكنّاكم فيه. إلاّ أنّ ﴿إن﴾ أحسن في اللفظ لما في مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع. ألا ترى: أنّ الأصل في مهما ما ما، فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء. وقد جعلت ﴿إن﴾ صلة وتؤول بأنّا ﴿مكنّاهم في﴾ مثل ما ﴿مكنّاهم فيه﴾. والوجه هو الأوّل. لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾ [غافر: ٨٢]. و﴿ما﴾ بمعنى الذي، أو: نكرة موصوفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي: آلات الدرك والفهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ﴿من شيءٍ﴾ من الإغناء، وهو القليل منه ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «إذ»: نصب بقوله: ﴿فما أغنى﴾. وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدّى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إذ أساء. لأنّك إذا ضربته في وقت إساءته فإنّما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إلاّ

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا

أنّ إذ، وحيث غلبتا دون سائر الظروف في ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء استهزائهم. وهذا تهديد لكفّار مكّة، ثمّ زادهم تهديداً بقوله:

٢٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ نحو: حجر ثمود، وقرى قوم لوط. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العبر ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا.

٢٨ ـ ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاّ ﴿نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القربان ما تقرّب به إلى الله تعالى. أي: اتّخذوهم شفعاء متقرّباً بهم إلى الله تعالى؛ حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولي اتّخذ الراجع إلى الذين محذوف. أي: اتّخذوهم. والثاني ﴿آلهة﴾. و﴿قرباناً﴾ حال ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وذلك﴾: إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم، وضلالهم عنهم. أي: ﴿وذلك﴾ أثر ﴿إفكهم﴾ الذي هو اتّخاذهم إيّاها آلهةً، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب.

٢٩ ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. والنفر دون العشرة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جنّ نصيبين ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: الرسول ﷺ أو القرآن. أي: ﴿فلمّا﴾ كانوا منه بحيث يسمعون ﴿قَالُوٓا﴾ أي: قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُوا﴾ اسكتوا مستمعين. روي: أنّ الجنّ كانت تسترق السمع، فلمّا حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلاّ لنبأٍ حدث، فنهض سبعة نفر، أو تسعة من أشراف جنّ

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾

نصيبين، أو نينوى، منهم: زوبعة. فضربوا حتّى بلغوا تهامة. ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسولَ الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلّي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته[١]. وعن سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمرّوا به، فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم[٢]. وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليه نفراً منهم، فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلاّ عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيري، فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة في شعب الحجون، فخطّ لي خطّاً وقال: لا تخرج منه حتّى أعود إليك، ثمّ افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً. فقال لي رسول الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سوداً. فقال: «أولئك جنّ نصيبين». وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم ﴿اقرأ باسم ربّك﴾[٣] ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ النبيُّ ﷺ من القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إيّاهم.

٣٠، ٣١ ـ ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وإنّما قالوا من بعد موسى لأنّهم كانوا على اليهوديّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: لا ثواب لهم إلاّ النّجاة من النار لهذه الآية. وقال مالك وابن

(١) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله.
(٢) هو في الحديث الذي قبله.
(٣) قال الحافظ: لم أجده بتمامه في سياق واحد (حاشية الكشاف ٤/ ٣١٢).

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾

أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد ـ رحمهم الله ـ: لهم الثواب والعقاب. وعن الضحّاك: أنّهم يدخلون الجنّة، ويأكلون، ويشربون؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

٣٢ ـ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا ينجي منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣٣ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ هو كقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. ويقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ محلّه الرفع؛ لأنه خبر «أنّ» يدلّ عليه قراءة عبد الله (قادر)، وإنّما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على: أنّ وما في حيّزها. وقال الزجّاج: لوقلت: ما ظننت أنّ زيداً بقائم جاز كأنّه قيل: أليس الله بقادر؟ ألا ترى إلى وقوع: «بلى» مقرّرة للقدرة على كلّ شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾ هو جواب للنفي ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤ ـ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقال: لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ فناصب الظرف القول المضمر. و﴿هذا﴾ إشارة إلى العذاب ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا.

٣٥ ـ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ أولو الجدّ والثبات والصبر ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ «من»: للتبعيض. والمراد بأولي العزم: ما ذكر في الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. ويونس ليس منهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وكذا آدم لقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. أو: للبيان، فيكون أولو العزم صفة

وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

الرسل كلّهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكفّار قريش بالعذاب. أي: لا تدع لهم بتعجيله، فإنّه نازلٌ بهم لا محالة وإن تأخّر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ أي: أنّهم يستقصرون حينئذ مدّة لبثهم في الدنيا حتّى يحسبوها ساعةً من نهار ﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا ﴿بلاغ﴾. أي: هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة. أو: هذا تبليغ من الرسول ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك عذاب. والمعنى: فلن يُهْلَكَ بعذاب الله ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: المشركون الخارجون عن الاتّعاظ به والعمل بموجبه.

* * *

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

آياتها ٣٨ — ترتيبها ٤٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدّوا غيرهم عنه. قال الجوهريُّ: صدّ عنه، يصدّ، صدوداً: أعرض. وصدَّه عن الأمر، صدّاً: منعه، وصرفه عنه. وهم المطعمون يوم بدر، أو: أهل الكتاب، أو: عامٌّ في كلّ من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحقيقته: جعلها ضالّة ضائعة ليس لها من يتقبّلها، ويثيب عليها؛ كالضالّة من الإبل. وأعمالهم: ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام. أو ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله.

٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هم ناس من قريش، أو: من الأنصار، أو: من أهل الكتاب، أو: عامّ ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن. وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه. وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: القرآن. وقيل: إنّ دين محمد ﷺ هو الحقّ؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها، وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿ذلك﴾: مبتدأ. وما بعده خبره. أي: ﴿ذلك﴾ الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيّئات الثاني، والإصلاح كائن بسبب اتّباع هؤلاء ﴿الباطل﴾ وهو الشيطان، وهؤلاء ﴿الحقّ﴾ وهو القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبيّن الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾. والضمير راجع إلى الناس. أو: إلى المذكورين من الفريقين على معنى: أنّه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وقد جعل اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين واتّباع الحقّ مثلاً لعمل المؤمنين. أو: جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفّار، وتكفير السيّئات مثلاً لفوز الأبرار.

٤ ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل، وقدّم المصدر، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنّك تذكر المصدر وتدلّ على الفعل بالنصبة التي فيه. و﴿ضرب الرقاب﴾ عبارةٌ عن القتل، لا أنّ الواجب تضرب الرقاب خاصّة دون غيرها من الأعضاء، ولأنّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارةً عن القتل وإن ضُرِبَ غيرُ رقبته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: اسم ما يوثق به. والمعنى: ﴿فشدّوا﴾ وثاق الأسارى حتّى لا يفلتوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: بعد أن تأسروهم ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ﴿منّاً﴾ و﴿فداء﴾ منصوبان بفعليهما مضمرين أي: ﴿فإمّا﴾ تمنون ﴿منّا﴾ أو تفدون ﴿فداء﴾. والمعنى: التخيير بين الأمرين بعد الأسر: بين أن يمنّوا عليهم، فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. وحكم أسارى المشركين عندنا: القتل أو الاسترقاق. والمنّ والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] لأنّ

حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

سورة براءة من آخر ما نزل. وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ: ليس اليوم منٌّ ولا فداء [إنما هو الإسلام أو ضرب العنق][1] أو المراد بالمنّ: أن يمنّ عليهم بترك القتل، ويسترقّوا. أو يمنّ عليهم، فيخلّوا لقبولهم الجزية. وبالفداء: أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين[2]. فقد رواه الطحاويّ مذهباً عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو قولهما. والمشهور: أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حرباً علينا. وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ: للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة: القتل، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمنّ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها، وآلاتها التي لا تقوم إلّا بها؛ كالسلاح، والكراع. وقيل: ﴿أوزارها﴾ آثامها. يعني: ﴿حتّى﴾ يترك أهل الحرب؛ وهم المشركون شركهم بأن يسلموا. أو: ﴿حتّى﴾ لا يخلو من أن يتعلّق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء. فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ: أنّهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى ألّا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ. وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: إذا علّق بالضرب والشدّ فالمعنى: أنّهم يقتلون ويؤسرون حتّى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين، وإذا علّق بالمنّ والفداء فالمعنى: أنّه يمنّ عليهم، ويفادون حتّى تضع حرب بدر أوزارها، إلّا أن يتأوّل المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾ فهو مبتدأ وخبر، أو افعلوا بهم ﴿ذلك﴾ فهو في محلّ النصب ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك؛ كالخسف، أوالرجفة، أو غير ذلك ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين، وتمحيقاً للكافرين ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ بصريٌّ وحفص ﴿قاتلوا﴾ غيرهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) كذا في الأصل المخطوط: المشركين وبذلك نعيد الضمير في: (بأساراهم) إلى المسلمين.

سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ
يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ
ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾

---

٥ ـ ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ ﴾ إلى طريق الجنّة أو إلى الصواب في جواب مُنْكرٍ ونَكيرٍ ﴿ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم.

٦ ـ ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ عن مجاهد: عرّفهم مساكنهم فيها حتّى لا يحتاجوا أن يسألوا، أو: طيّبها لهم من: العَرْفِ، وهو طيب الرائحة.

٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: دين الله ورسوله ﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ على عدوّكم، ويفتح لكم ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في مواطن الحرب، أو على محجّة الإسلام.

٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في موضع رفع بالابتداء. والخبر ﴿ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾. وعطف قوله ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ على الفعل الذي نصب ﴿تعساً﴾؛ لأنّ المعنى: ﴿فـ﴾ قال: ﴿تعساً لهم﴾. والتعس: العثور. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردّي في النار.

٩ ـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: التعس والضلال ﴿ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي: القرآن، ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

١٠ ـ ﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يعني كفّار أمّتك ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ مشركي قريش ﴿ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ أمثال تلك الهلكة لأنّ التدمير يدلّ عليها.

١١ ـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وليّهم وناصرهم ﴿ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ أي: لا ناصر لهم، فالله مولى العبد من جهة الاختراع، وملك التصرف فيه، والنصرة، فهو مولى المؤمنين والكافرين من جهة الاختراع والتصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النُّصْرة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا

١٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيّاماً قلائل ﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكّرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عمّا هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ منزل ومقام.

١٣ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي: وكم ﴿من قرية﴾ ـ للتكثير. وأراد بالقرية أهلها. ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ ـ ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أي: وكم من قرية أشدّ قوّة من قومك الذين أخرجوك؛ أي: كانوا سبب خروجك ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ أي. فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم.

١٤ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: ﴿أفمن كان على﴾ حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات. يعني: رسول الله ﷺ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هم أهل مكة الذين زيّن لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. وقال: ﴿سوء عمله﴾ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ للحمل على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٥ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ صفة الجنّة العجيبة الشأن ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ﴾ داخل في حكم الصلة؛ كالتكرير لها، ألا ترى إلى صحّة قولك: التي فيها أنهار. أو حال: أي: مستقرّة. فيها أنهار ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ غير متغيّر اللون والريح والطعم ـ يقال: أسن الماء: إذا تغير طعمه وريحه. ﴿أسن﴾ مكيٌّ ـ ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. أي: ما هو إلاّ التلذّذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار، ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿مثل﴾ مبتدأ خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ حارّاً في النهاية ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾. والتقدير: أمثل الجنّة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه: النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه. وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤] وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادة تصوير لمكابرة من يسوّي بين المتمسّك بالبيّنة والتابع لهواه، وأنّه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنّة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسْقى أهلها الحميم.

١٦ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ هم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه ولا يعونه، ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم. فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ علماً وبصيرةً، أو شرح صدورهم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أعانهم عليها. أو: آتاهم جزاء تقواهم. أو: بيّن لهم ما يتّقون.

١٨ ـ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: ينتظرون ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ أي: إتيانها. فهو بدل اشتمال من الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فُجاءةً ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ علاماتها، وهو مبعث محمّد ﷺ، وانشقاق القمر، والدخان. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ قال الأخفش: التقدير: فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم.

١٩ ـ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ﴾ أنّ الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾

وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب مَنْ على دينك. وفي شرح التأويلات: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكنّا لا نعلمه، غير أنّ ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر. وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتّصال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ ويعلم حيث تستقرّون من منازلكم. أو: ﴿متقلّبكم﴾ في حياتكم ﴿ومثواكم﴾ في القبور. أو: ﴿متقلّبكم﴾ في أعمالكم ﴿ومثواكم﴾ من الجنّة والنار. ومثله حقيق بأن يتّقى، ويخشى، وأن يستغفر. وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فاعلم أنّه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

٢٠ ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ مبيّنة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلاّ وجوب القتال. وعن قتادة ـ رحمه الله ـ كلّ سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قِبَل: أنّ القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق. أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً؛ كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل من الوَلْيِ، وهو القرب. ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

٢١ ـ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف. أي: ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ فإذا جدّ الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من كراهة الجهاد.

٢٢ ـ ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فلعلّكم، إن أعرضتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة من الإفساد في الأرض بالتغاور، والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، ووأد البنات. وخبر عسى: ﴿أن تفسدوا﴾ والشرط اعتراض بين الاسم والخبر. والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطّعوا أرحامكم إن تولّيتم.

٢٣ ـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

٢٤ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتّى لا يجسروا على المعاصي؟ و﴿أم﴾ في ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بمعنى بل، وهمزة التقرير؛ للتسجيل عليهم بأنّ قلوبهم مقفلة لا يتوصّل إليها ذكر، ونكّرت القلوب لأنّ المراد: على قلوبٍ قاسيةٍ مبهمٍ أمرها في ذلك. والمراد: بعض القلوب، وهي قلوبَ المنافقين. وأضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأنّ المراد الأقفال المختصّة بها. وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح، نحو: الرين، والختم، والطبع.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: المنافقون، رجعوا إلى الكفر سرّاً بعد وضوح الحقّ لهم ـ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ﴾ زين ﴿لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ: ﴿إنَّ﴾، نحو: إنّ زيداً عمرو مرّ به ـ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الآمال والأماني. ﴿وأُمليَ﴾ أبو عمرو. أي: أمهلوا، ومدّ في عمرهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ

٢٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: المنافقون قالوا لليهود ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: عداوة محمد ـ ﷺ ـ، والقعود عن نصرته ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسرّ، حمزة وعليّ وحفص. ﴿أسرارهم﴾ غيرهم. جمع سرّ.

٢٧ ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ﴿فكيف﴾ يعملون؟ وما حيلتهم حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يتوفّ أحد على معصية إلاّ يضرب من الملائكة في وجهه ودبره.

٢٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ ـ إشارة إلى التوفّي الموصوف ـ ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنّهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ من نصرة المؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٢٩ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادهم. والمعنى: أظنّ المنافقون: أنّ الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين؟

٣٠ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرّفناكهم ودللناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله بعلامة يُعْلَمون بها. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «ما أُخفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين. كان يعرفهم بسيماهم» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن في فحوى كلامهم؛ لأنّهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في ﴿فلعرفتهم﴾ داخلة في جواب ﴿لو﴾ كالتي في ﴿لأريناكهم﴾ كرّرت في المعطوف. وأمّا اللام في ﴿ولتعرفنّهم﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف.

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾

و﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ فيميز خيرها من شرّها.

٣١ ـ ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً. أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الجهاد. أي: نعلم كائناً ما علمنا أنّه سيكون ﴿ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ أسراركم. ﴿وليبلونّكم حتّى يعلم... ويبلو﴾ أبو بكر. وعن الفضيل ـ رحمه الله ـ: أنّه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلُنا؛ فإنّك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، وعذبتنا.

٣٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ وعادوه، يعني: المطعمين يوم بدر. وقد مرّ ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنّه الحقّ، وعرفوا الرسول ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ التي عملوها في مشاقّة الرسول. أي: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم.

٣٣ ـ ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ بالنفاق أو بالرياء.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ قيل: هم أصحاب القليب. والظاهر العموم.

٣٥ ـ ﴿ فَلَا تَهِنُواْ ﴾ فلا تضعفوا، ولا تذلّوا للعدوّ ﴿ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ ﴾ وبالكسر حمزة وأبو بكر وأبو عمرو. وهما المسالمة. أي: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ أي: لأغلبون. و﴿تدعوا﴾ مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ ﴾ بالنصرة. أي: ناصركم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

٣٦ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تنقطع في أسرع مدّة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الشرك ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانهم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: ولا يسألكم جميعها. بل ربع العشر. والفاعل الله أو الرسول. وقال سفيان بن عيينة: غيضاً من فيض.

٣٧ ـ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يجهدكم ويطلبه كلّه. والإحفاء: المبالغة، وبلوغ الغاية في كلِّ شيء. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه: إذا استأصله ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ﴾ أي: الله، أو: البخل ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع؛ لأنّه عند مسألة المال تظهر العداوة والحقد.

٣٨ ـ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ﴾ ﴿ها﴾ للتنبيه ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ موصول بمعنى الذين، صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي: أنتم الذين تدعون ﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هي النفقة في الغزو أو الزكاة. كأنّه قيل: الدليل على أنّه لو أحفاكم لبخلتم، وكرهتم العطاء: أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالرفع لأنّ ﴿مَنْ﴾ هذه ليست للشرط. أي: فمنكم ناس يبخلون به ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربّه. وقيل: ﴿يبخل﴾ على نفسه، يقال: بخلت عليه، وعنه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي: إنّه لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنّه غنيٌّ عن الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وإن تعرضوا أيّها العرب عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله ـ وهو معطوف على ﴿وإن تؤمنوا وتتّقوا﴾ ـ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً خيراً منكم، وأطوع، وهم فارس. وسئل رسول الله ﷺ عن القوم ـ وكان سلمان إلى جنبه ـ فضرب على فخذه، وقال:

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾

«هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا لتناوله رجالٌ من فارس»[١] ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: ﴿ثمّ لا يكونوا﴾ في الطاعة ﴿أمثالكم﴾ بل أطوع منكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٢/٤١٧) والبخاري (٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

سُورَةُ الفَتْحِ

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾

١ ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب؛ لأنّه مُنْغَلِقٌ ما لم يظفر به، فإذا ظفر به فقد فتح. ثمّ قيل: هو فتح مكّة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكّة عام الحديبية عِدَةً له بالفتح. وجيء به على لفظ الماضي لأنّها في تحقّقها بمنزلة الكائنة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبر عنه ما لا يخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، فرموا المشركين حتّى أدخلوهم ديارهم، وسألوا الصلح، فكان فتحاً مبيناً. وقال الزجّاج: كان في فتح الحديبية آيةٌ عظيمة، وذلك: أنّه نزح ماؤها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثمّ مجّه في البئر، فدرّت بالماء حتّى شرب جميع الناس. وقيل: هو فتح خيبر. وقيل: معناه: قضينا لك قضاء بيّناً على أهل مكّة؛ أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت. من: الفتاحة، وهي: الحكومة.

٢ ـ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة. والتقدير: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ فاستغفر ﴿ليغفر لك الله﴾. ومثله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ

إلى قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ١ ـ ٣]. ويجوز أن يكون فتح مكّة ـ من حيث إنّه جهاد للعدوّ ـ سبباً للغفران. وقيل: الفتح لم يكن ليغفر له، بل لإتمام النعمة، والنصر العزيز. ولكنّه لمّا عدّد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم. كأنّه قيل: يسَّرنا لك فتح مكّة، أو كذا؛ لنجمع لك بين عزِّ الدارين، وأغراض الآجل والعاجل ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. أو ﴿ما تقدم﴾ من حديث مارية ﴿وما تأخر﴾ من امرأة زيد ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعلاء دينك، وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ ويثبّتك على الدين المرضيّ.

٣ ـ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ قويّاً منيعاً لاذلّ بعده أبداً.

٤ ـ ٦ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ السكينة للسكون كالبهيتة للبهتان. أي: أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح؛ ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم. وقيل: السكينة: الصبر على ما أمر الله، والثقة بوعد الله، والتعظيم لأمر الله ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أي: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض، كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن قضيّته: أن سكّن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم أن يفتح لهم. وإنّما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه، ويشكروها، فيثيبهم، ويعذّب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ وقع السَّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده.

عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

يقال: فِعْلُ سَوْءٍ؛ أي: مسخوط فاسد. والمراد: ظنّهم أنّ الله لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكّة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[1] مكّيّ وأبو عمرو. أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسُّوء: الهلاك والدمار. غيرهما ﴿دائرة السَّوء﴾ بالفتح. أي: الدائرة التي يذمّونها، ويسخطونها. السَّوء والسُّوء كالكَره والكُره والضَّعف والضُّعف. إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء. وأمّا السوء فجار مجرى الشرّ الذي هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنّم.

٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً، فلا يردّ بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر.

٨ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ تشهد على أمّتك يوم القيامة، وهذه حال مقدّرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار.

٩ ـ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّوه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ. والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله، ومن فرّق الضمائر فجعل الأوّلَيْن للنبيّ ﷺ فقد أبعد. ﴿ليؤمنوا﴾ مكّيّ وأبو عمرو. والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصلوات الأربع.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بيعة الرضوان. ولما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أكّده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. يريد: أنّ يد

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (السُّوء). وهي قراءة: مكّيّ، وأبي عمرو.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾

رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله منزّه عن الجوارح، وعن صفات الأجسام. وإنّما المعنى: تقرير أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما؛ كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. و﴿إنّما يبايعون الله﴾ خبر إنّ ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلاّ عليه. قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى ألاّ نفرّ: فما نكث أحد منّا البيعة إلاّ جدّ بن قيس، وكان منافقاً. اختبأ تحت إبْطِ بعيره، ولم يسر مع القوم[1] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به. ومنه قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ حفص ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ ـ وبالنون حجازيّ وشاميّ ـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنّة.

١١ ـ ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلّفوا عن الحديبية. وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والديل. وذلك أنّه ﷺ حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدي لِيُعْلِمَ: أنّه لا يريد حرباً. فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم. وظنّوا: أنّه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هي جمع أهل. اعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلّفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم، وأنّ الذي خلّفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشكّ في الله والنفاق،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٣٥). وروى بعضه أحمد (٣/ ٣٩٦) ومسلم (١٨٥٦) (٦٨ و ٦٩) والترمذي (١٥٩١) والنسائي (٧ / ١٤٠).

قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ
ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ

وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادرٍ عن حقيقةٍ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرّكم من قتلٍ أو هزيمةٍ ﴿ضُرًّا﴾ حمزة وعليّ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ من غنيمةٍ وظفرٍ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

١٢ ـ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ من علوّ الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ جمع بائر كعائذ وعوذ. من: بار الشيء: هلك، وفسد. أي: ﴿وكنتم قوما﴾ فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خير فيكم. أو: هالكين عند الله مستحقّين لسخطه وعقابه.

١٣ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم، فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله، والإيمان برسوله فهو كافر. ونكّر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنّها نار مخصوصة. كما نكّر ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

١٤ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يغفر ويعذّب بمشيئته وحكمته. وحكمته: المغفرة للمؤمنين، والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

١٥ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. ﴿كَلِمَ الله﴾ حمزة وعليّ. أي: يريدون أن يغيّروا موعد الله لأهل الحديبية.

قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ

وذلك: أنّه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكّة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين، لا يصيبون منهم شيئاً ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر. وهو إخبار من الله بعدم اتّباعهم، ولا يبدّل القول لديه ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ انصرافهم إلى المدينة: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لم يأمركم الله به ﴿بل تحسدوننا﴾ أن نشارككم في الغنيمة ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلاّ شيئاً قليلاً. يعني مجرّد القول. والفرق بين الإضرابين: أنّ الأوّل: ردّ أن يكون حكم الله ألاّ يتّبعوهم وإثبات الحسد، والثاني: إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطمّ منه، وهو الجهل وقلّة الفقه.

١٦ ـ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفة، قوم مسيلمة، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنّ مشركي العرب والمرتدّين هم الذين لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف. وقيل: هم فارس، وقد دعاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين؛ إما المقاتلة، أو الإسلام. ومعنى ﴿يسلمون﴾ على هذا التأويل: ينقادون؛ لأنّ فارس مجوس تقبل منهم الجزية. وفي الآية دلالة صحّة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٧ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفى الحرج عن ذوي العاهات في التخلّف عن الغزو ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الجهاد وغير

يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ

ذلك ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿ندخله﴾ و﴿نعذّبه﴾ مدنيّ وشاميّ.

١٨ ـ ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هي بيعة الرضوان. سمّيت بهذه الآية. وقصّتها: أنّ النبيّ ﷺ حين نزل بالحديبية بعث خَوّاس بن أميّة الخزاعيّ رسولاً إلى مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش. فلمّا رجع دعا بعمر ـ رضي الله عنه ـ ليبعثه، فقال: إنّي أخافهم على نفسي لما عُرِفَ من عداوتي إيّاهم. فبعث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فخبّرهم: أنّه لم يأت لحرب، وإنّما جاء زائراً للبيت، فوقّروه، واحتبس عندهم، فأُرْجِف بأنّهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتّى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشاً ولا يفرّوا. ﴿تحت الشجرة﴾ وكانت سمرة. وكان عدد المبايعين ألفاً وأربعمئة ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ وجازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غبّ انصرافهم من مكّة.

١٩ ـ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر. وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسّمها عليهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض.

٢٠ ـ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه هم مع النبيّ ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم. يعني: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم. فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدي أهل مكّة

وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم

بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفّة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرةً يعرفون بها أنّهم من الله عز وجل بمكان، وأنّه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وفعل ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرةً، ويقيناً، وثقة بفضل الله.

٢١ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿هذه﴾. أي: فعجّل لكم ﴿هذه﴾ المغانم ﴿و﴾ مغانم ﴿أخرى﴾ هي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر عليها، واستولى، وأظهركم عليها. ويجوز في ﴿أخرى﴾ النصب بفعل مضمر يفسّره ﴿قد أحاط الله بها﴾ تقديره ﴿و﴾ قضى الله ﴿أخرى﴾ قد أحاط بها. وأمّا ﴿لم تقدروا عليها﴾ فصفة لأخرى. والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بـ ﴿لم تقدروا﴾ و﴿قد أحاط الله بها﴾ خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٢ ـ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ولم يصالحوا ـ أو من حلفاء أهل خيبر ـ ﴿لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لغلبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

٢٣ ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكّد. أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنّةً. وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

٢٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي أهل مكّة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ عن أهل مكّة. يعني: قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعدما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة. وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ على أنّ مكّة فتحت عنوةً لا صلحاً. وقيل: كان في غزوة الحديبية؛ لما روي: أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمئة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه، وأدخله

بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ

حيطان مكّة[1]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتّى أدخلوهم البيوت ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: بمكّة. أو بالحديبية لأنّ بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدركم وسلّطكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وبالياء أبو عمرو.

٢٥ ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ هو ما يُهدى إلى الكعبة. ونصبه عطفاً على ﴿كم﴾ في ﴿صدّوكم﴾ أي: ﴿صدوكم﴾ ﴿و﴾ صدّوا ﴿الهدي﴾ ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾ محبوساً عن ﴿أن يبلغ﴾. و﴿معكوفاً﴾ حال. وكان ﷺ ساق سبعين بدنة ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ مكانه الذي يحلّ فيه نحره. أي: يجب. وهذا دليل على أنّ المحصر محلُّ هديه الحرم. والمراد: المحلُّ المعهود، وهو منىً ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ بمكّة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم، أو من الضمير المنصوب في ﴿تعلموهم﴾ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ إثم وشدّة. وهي مفعلة من: عَرَّهُ، بمعنى عَرَاهُ: إذا دهاه ما يكرهه، ويشقّ عليه. وهو الكفّارة إذا قتله خطأً، وسوء قالة المشركين: أنّهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ ﴿أن تطؤوهم﴾. يعني: ﴿أن تطؤوهم﴾ غير عالمين بهم. والوطء: عبارة عن الإيقاع والإبادة. والمعنى: أنّه كان بمكّة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميّزين منهم. فقيل: ﴿ولولا﴾ كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقّة؛ لما كفّ أيديكم عنهم. وقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له من كفّ الأيدي عن أهل مكّة والمنع عن قتلهم صوناً

(١) أخرجه الطبراني. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤١).

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾

لمن بين أظهرهم من المؤمنين. كأنه قال: كان الكفّ ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم، أو: ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرّقوا وتميّز المسلمون من الكافرين وجواب ﴿لولا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لو﴾ . ويجوز أن يكون ﴿لو تزيّلوا﴾ كالتكرير لـ ﴿لولا رجال مؤمنون﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الجواب. تقديره: ﴿ولولا﴾ أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ ولو كانوا متميّزين لعذّبناهم بالسيف ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٦ ـ والعامل في: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريش ﴿لعذّبنا﴾ أي: لعذّبناهم في ذلك الوقت. أو: اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا، وهي الأنفة، وسكينة المؤمنين، وهي الوقار: ما يروي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل بالحديبية بعثت قريشٌ سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومِكْرَز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكّة من العام القابل ثلاثة أيام. ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً. فقال ﷺ لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا. ولكن اكتب: باسمك اللهم. ثمّ قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكّة». فقالوا: لو نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة. فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنّي رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزّوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقّروا وحلُموا[1] ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ الجمهور على أنّها كلمة

(١) رواه البخاري (٢٧٣١و٢٧٣٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٠٥).

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾

الشهادة. وقيل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. والإضافة إلى التقوى باعتبار أنّها سبب التقوى وأساسها. وقيل: ﴿كلمة﴾ أهل ﴿التقوى﴾ ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ أي: المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهۡلَهَا﴾ بتأهيل الله إيّاهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ فيجري الأمور على مصالحها.

٢٧ ـ ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب ـ فحذف الجارّ وأوصل الفعل؛ كقوله: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] روي: أنّ رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكّة آمنين وقد حلقوا وقصّروا. فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنّهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إنّ رؤيا رسول الله ﷺ حقّ. فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وغيره: والله! ما حلقنا، ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام. فنزلت[1] ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿صدق﴾ أي: صدقه فيما رأى في كونه وحصوله صدقاً ملتبساً ﴿بالحقّ﴾ أي: بالحكمة البالغة. وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض. ويجوز أن يكون ﴿بالحقّ﴾ قسماً؛ إمّا بالحقّ الذي هو نقيض الباطل، أو بالحقّ الذي هو من أسمائه. وجوابه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾. وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حكاية من الله تعالى قول رسوله لأصحابه وقصهم عليه. أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، والشرط معترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿آمنين﴾ ﴿رُءُوسَكُمۡ﴾ أي: جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكّدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤٥). وروى ابن جرير بعضه كما في: الدر المنثور (٧/ ٥٣٨).

﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾

أي من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

٢٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنس الدين. يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقّق ذلك سبحانه، فإنّك لا ترى ديناً قطّ إلاّ وللإسلام دونه العزّة والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام؛ حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن. عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: شهد على نفسه أنّه سيظهر دينه. والتقدير: وكفاه الله شهيداً. و﴿شهيّداً﴾ تمييز، أو حال.

٢٩ ـ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو ﴿محمّد﴾ لتقدّم قوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾. أو مبتدأ خبره ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾. وقف عليه نُصَيْر ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ـ أي: أصحابه: مبتدأ. والخبر ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾. أو: ﴿محمّد﴾ مبتدأ. و﴿رسول الله﴾ عطف بيان ﴿والذين معه﴾ عطف على المبتدأ. و﴿أشدّاء﴾ خبر عن الجميع. ومعناه: غلاظ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون. وهو خبر ثان. وهما جمعا شديد، ورحيم، ونحوه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وبلغ من تشدّدهم على الكفّار أنّهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزَق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم. وبلغ من تراحُمهم فيما بينهم: أنّه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلاّ صافحه وعانقه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ راكعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال، كما أنّ ﴿ركّعاً﴾ و﴿سجّداً﴾ كذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من التأثير الذي يؤثّره السجود. وعن عطاء ـ رحمه الله ـ: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا

ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

بالليل، لقوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فراخه. يقال: أشطأ الزرع: إذا فرّخ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قوّاه. ﴿فأزره﴾ شاميّ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الرقّة إلى الغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ يتعجّبون من قوّته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ ﴿أخرج شطأه﴾ بأبي بكر ﴿فآزره﴾ بعمر ﴿فاستغلظ﴾ بعثمان﴿فاستوى على سوقه﴾ بعليّ ـ رضي الله عنهم ـ. وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقّيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم؛ لأنّ النبيّ ﷺ قام وحده، ثمّ قوّاه الله تعالى بمن آمن معه؛ كما يقوّي الطاقةَ الأولى من الزرع ما يحتفّ بها ممّا يتولّد منها حتّى يعجب الزرّاع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقّيهم في الزيادة والقوّة. ويجوز أن يعلّل به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ لأنّ الكفّار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزّهم به في الدنيا غاظهم ذلك. و﴿مِنْ﴾ في ﴿منهم﴾ للبيان كما في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ الذي هو الأوثان. وقولك: أنفق من الدراهم. أي: اجعل نفقتك هذا الجنس. وهذه الآية تردّ قول الروافض: إنّهم كفروا بعد وفاة النبيّ ﷺ. إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنّما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.

* * *

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٣).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة، من قدَمه؛ إذا تقدّمه في قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ [هود: ٩٨]. وحذف المفعول ليتناول كلّ ما يقع في النفس ممّا يقدَّم من القول أو الفعل. وجاز ألاّ يقصد مفعول، والنهي متوجّه إلى نفس التقدمة. كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أو هو من قدّم بمعنى تقدّم كوجّه [بمعنى توجّه][١]. ومنه: مقدّمة الجيش. وهي الجماعة المتقدّمة منه. ويؤيّده قراءة يعقوب ﴿لا تَقدَّموا﴾ بحذف إحدى تاءي تتقدّموا ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان: أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه. فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسّعاً؛ كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره. وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمّى تمثيلاً. وفيه فائدة جليلة وهي: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، واستدرك من المطبوع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾

يجري مجرى قولك: سرّني زيد وحُسْنُ حاله. أي: سرّني حسن حال زيد. فكذلك هنا المعنى بين يدي رسول الله ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوّة الاختصاص. ولمّا كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك. وفي هذا تمهيد لما نُقِم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ؛ لأنّ من فضّله الله بهذه الأثْرة، واختصّه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيّب والإجلال أن يُخْفَضَ بين يديه الصوت. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فنزلت وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحاً آخر[(١)]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنّها نزلت في النهي عن صوم يوم الشكّ[(٢)] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتّقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون. وحقّ مثله أن يُتّقى.

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كلّ خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأمّلهم ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألاّ تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضّوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتّى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحةً ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلّمتموه وهو صامت؛ فإيّاكم والعدول عمّا نهيتم عنه من رفع الصوت. بل عليكم ألاّ تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمّدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضادّ الجهر. أو لا تقولوا له: يا محمد! يا أحمد! وخاطبوه بالنبوّة والسكينة والتعظيم. ولمّا نزلت هذه الآية ما كلّم النبيَّ ﷺ أبو بكر وعمر إلاّ كأخي السرار[(٣)]. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّها نزلت في ثابت بن قيس بن

---

(١) رواه عبد الرزاق. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٥٠).
(٢) ذكره الثعلبي والدارقطني. المصدر السابق.
(٣) رواه البخاري (٤٨٤٥).

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، وكان إذا كلَّم رفع صوته، وربَّما كان يكلّم النبيّ ﷺ فيتأذَّى بصوته. وكاف التشبيه في محلّ النصب. أي: ﴿لا تجهروا له﴾ جهراً مثل ﴿جهر بعضكم لبعض﴾. وفي هذا أنهّم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتّى لا يسوغ لهم إلاّ أن يكلّموه بالمخافتة. وإنّما نهوا عن جهرٍ مخصوص. أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم. وهو الخلوّ من مراعاة أبّهة النبوّة، وجلالة مقدارها ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ منصوب الموضع على أنّه مفعول له متعلّق بمعنى النهي. والمعنى: انتهوا عمّا نهيتم عنه لحبوط أعمالكم. أي: لخشية حبوطها، على تقدير حذف المضاف ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٣ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تمَّ اسم ﴿إنّ﴾ عند: ﴿رسول الله﴾. والمعنى: يخفضون أصواتهم في مجلسه تعظيماً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وتمّ صلة ﴿الذين﴾ عند قوله: ﴿للتقوى﴾. و﴿أولئك﴾ مع خبره: خبر ﴿إنّ﴾. والمعنى: أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب، وفتنه: إذا أذابه، فخلّص إبريزه من خبثه، ونقّاه. وحقيقته: عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال من: محنه. وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جملة أخرى. قيل: نزلت في الشيخين رضي الله عنهما لِمَا كان منهما من غضّ الصوت. وهذه الآية ـ بنظمها الذي رتّبت عليه من إيقاع الغاضّين أصواتهم اسماً لـ: ﴿إنّ﴾ المؤكّدة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره دالّة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ نزلت في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، ونادوا النبيَّ ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرجْ إلينا يا محمّد؛ فإنّ مدحنا زين، وذمّنا شين، فاستيقظ وخرج[1]، والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظلّه من خلف أو قدّام. و﴿من﴾ لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها. وهي فعلة بمعنى مفعولة؛ كالقُبْضَةِ. وجمعها: الحجرات ـ بضمتين ـ والحجرات ـ بفتح الجيم ـ وهي قراءة يزيد. والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ. وكانت لكلٍّ منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها ولعلّهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها. ولكنّها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم، وكان الباقون راضين فكأنّهم تولّوه جميعاً ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قُصِدَ استثناؤه. ويحتمل أن يكون المراد: النفي العامّ؛ إذ القلّة تقع موقع النفي.

وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محلّ رسول الله ﷺ. منها: التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل. ومنها: إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ولو تأمّل متأمّل من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك. فتأمّل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها من غير تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنسِ التقديم من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني. ثمّ أثنى على الغاضين أصواتهم ليدلّ على عظيم موقعه عند الله. ثمّ عقّبه بما هو أطمُّ، وهجنته أتمُّ من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة وابن مردويه وابن منده والثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/٣٥٨).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

يصاح بأهون الناس قدراً؛ لينبّه على فظاعة ما جسروا عليه؛ لأنّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً.

٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أي: ﴿ولو﴾ ثبت صبرهم. ومحلّ ﴿أنّهم صبروا﴾: الرفع على الفاعليّة. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس. وقيل: الصبر مرٌّ، لا يتجرعه إلاّ حرٌّ. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيد: أنّه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دينهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة، واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

٦ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أجمعوا أنّها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدّقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهليّة، فلمّا شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدّوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد، فوجدهم يصلّون، فسلّموا إليه الصدقات فرجع[1]. وفي تنكير الفاسق والنبأ شياعٌ في الفسّاق والأنباء. كأنّه قال: أيُّ فاسق جاءكم بأيِّ نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتوقّفوا فيه، وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. وفي الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل؛ لأنّا لو توقّفنا في خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. والفسوق: الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: فقَست البيضة: إذا كسرتها

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١).

﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾

وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفَست الشيء: إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له عليه. ثمّ استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر. حمزة وعليّ: ﴿فتثبتوا﴾. والتثبّت والتبيّن متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ لئلّا تصيبوا ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ حال. يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصّة ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. الندم: ضرب من الغمّ، وهو أن تغتمّ على ما وقع منك، تتمنّى أنه لم يقع، وهو غمّ يصحب الإنسان صحبة لها دوام.

٧ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يخبره، فينهتك ستر الكاذب. أو: فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه. ثمّ قال مستأنفاً: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم في الجهد والهلاك. وهذا يدلّ على أنّ بعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وأنّ بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وقيل: هم ﴿الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. ولمّا كانت صفة الذين حبّب الله إليهم الإيمان غايرت صفة المتقدّم ذكرهم وقعت ﴿لكنّ﴾ في حاقّ موقعها من الاستدراك، وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجّة الإيمان بركوب الكبائر ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ترك الانقياد لما أمر به الشارع ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي ﴿أولئك﴾ المستثنون ﴿هم الراشدون﴾ يعني: أصابوا طريق الحقّ، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرشد: الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه. من: الرشادة، وهي: الصخرة.

٨ ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام.

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

والانتصاب على المفعول له. أي: حبب وكرّه للفضل والنعمة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يُفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل.

٩ ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك ابنُ أُبيّ بأنفه، وقال: خلِّ سبيل حمارك فقد آذانا نَتْنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك! ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتّى استبّا، وتجالدا، وجاء قوماهما ـ وهما الأوس والخزرج ـ فتجالدوا بالعصيّ، وقيل: بالأيدي، والنعال، والسَّعَف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، ونزلت[1]. وجمع ﴿اقتتلوا﴾ حملاً على المعنى؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وثنّى في ﴿فأصلحوا بينهما﴾ نظراً إلى اللفظ ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ البغي: الاستطالة، والظلم، وإباء الصلح ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ أي: ترجع، والفيء: الرجوع. وقد سمّى به الظّل والغنيمة لأنّ الظّل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفّار إلى المسلمين. وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت، فإذا كفّت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ المذكور في كتابه من الصلح، وزوال الشحناء ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ واعدلوا. وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أُمِرَ به في إصلاح ذات البين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. والقُسْط: الجور. والقِسْط: العدل. والفعل منه: أقسط. وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

١٠ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولّي

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾

الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان: أنّ الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوّة لم ينقص عنها. ثمّ قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولاداً ألزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما. فالإخْوَةُ في الدين أحقّ بذلك ﴿إخوتكم﴾ يعقوب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي: ﴿اتّقوا الله﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجوّاً. والآية تدلّ على أنّ البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي.

١١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ القوم: الرجال خاصّة؛ لأنّهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] هو في الأصل جمع قائم؛ كصوم، وزور في جمع صائم وزائر. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة في ﴿قوم﴾ لم يقل: ﴿ولا نساء﴾ وحقّق ذلك زهير في قوله:

وما أَدْري ولستُ إخال أَدْري أقـومٌ آلُ حِصْـنٍ أم نسـاءُ؟

وأمّا قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين. ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنّهن توابع لرجالهنّ. وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد ﴿لا يسخر﴾ بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يقصد إفادة الشياع، وأن يصير كلّ جماعة منهم منهيّة عن السخرية. وإنّما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه. وقوله: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف ورد مورد جواب المستخبر عن علّة النهي. وإلاّ فقد كان حقّه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوب أن يعتقد كلُّ واحد: أنّ

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾

المسخور منه ربّما كان عند الله خيراً من الساخر؛ إذ لا اطّلاع للناس إلاّ على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر. والذي يزن عند الله خلوص الضمائر. فينبغي ألاّ يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته. فلعلّه أخلص ضميراً، وأتقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته. فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكّل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً[١] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تطعنوا أهل دينكم. واللمز: الطعن، والضرب باللسان ﴿ولا تُلَمِّزوا﴾ يعقوب وسهل. والمؤمنون كنفس واحدة. فمتى عاب المؤمن المؤمنَ فكأنّما عاب نفسه. وقيل: معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به. لأنّ من فعل ما استحقّ به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز بالألقاب: التداعي بها. والنبز: لقب السوء. والتلقيب المنهيّ عنه هو ما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيراً به وذمّاً له، فأمّا ما يحبّه فلا بأس به. وروي: أنّ قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلال وخبّاب وعمّار وصهيب ـ رضي الله عنهم ـ فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة. وعن أنس رضي الله عنه: عيّرت نساء النبيّ ﷺ أمّ سلمة بالقصر[٢]. وروي: أنّها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع، فأتى يوماً وهو يقول: تفسّحوا حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ. فقال لرجل: تنحّ؛ فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة. يريد أمّاً كان يعيّر بها في الجاهليّة فخجل الرجل. فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحدٍ في الحسب بعدها أبداً[٣] ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الاسم هاهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم. وحقيقته ما سما من ذكره

(١) رواه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد. (حاشية الكشاف ٤/٣٦٨).
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٥ـ ١٣٦) والترمذي (٣٨٩٤) والنسائي في عشرة النساء (٣٣).
(٣) ذكره الثعلبي ومَن تبعه عن ابن عباس بغير سند. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٠).

وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

وارتفع بين الناس. كأنّه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق. وقوله: ﴿بعد الإيمان﴾ استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يحظره الإيمان كما تقول: بئس الشأن بعد الكِبْرة الصَّبْوة.

وقيل: كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهوديّ! يا فاسق! فنهوا عنه. وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهوديّة بعد إيمانه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمّا نهى عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وحّد وجمع للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يقال: جنبه الشرّ: إذا أبعده عنه. وحقيقته: جعله في جانب. فيعدّى إلى مفعولين. قال الله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومطاوعه: اجتنب الشرّ، فنقص مفعولاً. والمأمور باجتنابه بعض الظنّ. وذلك البعض موصوف بالكثرة. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. قال الزجّاج: هو ظنّك بأهل الخير سوءاً. فأمّا أهل الفسق فلنا أن نظنّ فيهم مثل الذي ظهر منهم. أو معناه: اجتناباً ﴿كثيراً﴾ أو: احترزوا من الكثير ليقع التحرّز عن البعض. والإثم: الذنب الذي يستحقّ صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه، كالنكال والعذاب ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم. يقال: تجسّس الأمر: إذا تطلّبه وبحث عنه. تَفَعُّلٌ من الجسّ. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله. وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب معايب ما ستره الله على عباده ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: الذكر بالعيب في ظهر الغيب. وهي من الاغتياب، كالغِيْلَةِ من الاغتيال. وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره»[1]. فإن كان فيه فهو غيبة؛ وإلاّ فهو بهتان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الغيبة: إدام كلاب الناس ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿ميْتاً﴾ مدنيّ. وهذا

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٨٤) ومسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٤).

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۝١٢ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها: جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبّة. ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أحدكم﴾ والإشعار بأنّ أحداً من الأحدين لا يحبُّ ذلك. ومنها: أن لم يُقْتَصَرْ على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها: أن يُقْتَصَرْ على لحم الأخ حتّى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوِّدة أن تأكل منها؛ كذلك فاكره لحم أخيك وهو حيّ. وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، أو من أخيه. ولمّا قرّرهم بأنّ أحداً منهم لا يحبّ أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل. فليتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ التوّاب: البليغ في قبول التوبة. والمعنى ﴿واتّقوا الله﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه: والندم على ما وجد منكم منه، فإنّكم إن اتقيتم تقبّل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتّقين التائبين. وروي: أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوماً. فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إداماً. وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ. فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان. فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلمّا راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً. قال: «إنّكما قد اغتبتما، ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه» ثم قرأ الآية[١]. وقيل: غيبة الخلق، إنّما تكون من الغيبة عن الحقّ.

١٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحوّاء. أو كل واحدٍ منكم من أبٍ وأم. فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء. فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشُّعْبُ: الطبقة الأولى من الطبقات الستّ التي عليها العرب. وهي: الشعب،

(١) هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راوٍ (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٤).

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل

والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيّ بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسمّيت الشعوب؛ لأن القبائل تشعّبت منها ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: إنّما رتّبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدَّعوا التفاضل في الأنساب. ثمّ بيّن الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ في الحديث: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتّق الله»[(١)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وروي: أنّه ﷺ طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه. ثمّ قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبيَّة الجاهليّة وتكبّرها، يا أيّها الناس! إنّما الناس رجلان مؤمن تقيّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هين على الله». ثمّ قرأ الآية[(٢)]. وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط ألّا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده رسول الله ﷺ، ثم توفّي فحضر دفنه، فقالوا في ذلك شيئاً، فنزلت[(٣)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٞ﴾ بهمم النفوس في دعواها.

١٤ ـ ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أي: بعض الأعراب ـ لأنّ من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ـ وهم أعراب بني أسد، قدموا المدينة في سنةٍ جَدْبة فأظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنّون عليه ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿قُل﴾ لهم

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو يعلى، وإسحاق، وعبد، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٥).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦١) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠).
(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٥).

﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يا محمد: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ لم تصدّقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان هو التصديق. والإسلام: الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين، بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. وهذا من حيث اللغة. وأمّا في الشرع فالإيمان والإسلام واحد لما عرف. وفي ﴿لمّا﴾ معنى التوقّع. وهو دالّ على أنّ بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. والآية تنقض على الكراميّة مذهبَهم: أنّ الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقال: ﴿قل﴾ لا تقولوا: آمنّا ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾. أو: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ ولكن أسلمتم. قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً فقيل: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ مع أدب حسن فلم يقل: كذبتم ـ تصريحاً ـ ووضع ﴿لم تؤمنوا﴾ الذي هو نفي ما ادّعوا إثباته موضعه واستغنى بقوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنّا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان. ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿آمنّا﴾ كذلك. ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به. وليس قوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ فإنّ فائدة قوله ﴿لم تؤمنوا﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه. كأنّه قيل لهم: ﴿ولكن قولوا: أسلمنا﴾ حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنّه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قولوا﴾ ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في السرّ بترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ (يألتكم) بصريّ ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً. ألت، يألت، وألات، يُليت، ولات، يليت: بمعنى، وهو النقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

١٥، ١٦ ـ وصف المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ ارتاب: مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشكّ مع التهمة. والمعنى: أنّهم آمنوا، ثمّ لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتّهام لما صدّقوه. ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهاً على مكانه. وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّاً جديداً ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المجاهَد منويّاً، وهو العدوّ المحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في: جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها؛ وبالمجاهدة بالمال نحو صنيع عثمان في جيش العسرة، وأن يتناول الزكاة وكلّ ما يتعلّق بالمال من أعمال البرّ. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿المؤمنون﴾: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنّا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحقّ. وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ صفة لهم. ولمّا نزلت هذه الآية جاؤوا، وحلفوا: أنّهم مخلصون فنزل: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك.

١٧ ـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أسلموا﴾ يعني: بإسلامهم. والمنّ: ذكر الأيادي تعريضاً للشكر، ونهينا عنه ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المنّة لله عليكم ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ بأن هداكم، أو: لأن. ﴿لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن صحّ زعمكم، وصدقت دعواكم. إلا أنّكم تزعمون وتدّعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ﴿إن

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

كنتم صادقين﴾ في ادّعائكم الإيمان فللّه المنة عليكم. وقرىء: ﴿إن هداكم﴾.

١٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وبالياء مكّيّ. وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. يعني: أنّه تعالى يعلم كلّ مستترٍ في العالم، ويبصر كلّ عملٍ تعملونه في سرّكم وعلانيتكم، لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟!.

* * *

سُورَةُ قٓ

ترتيبها ٥٠ — آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ

١ ـ ٣ ـ الكلام في: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ كالكلام في ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ١ ـ ٢] سواء بسواء؛ لالتقائهما في أسلوب واحد. و﴿المجيد﴾: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه، وعمل بما فيه، مَجُدَ عند الله وعند الناس. وقوله: ﴿بل عجبوا﴾ أي: كفّار مكّة ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: محمد ﷺ، إنكار لتعجّبهم ممّا ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلّا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه. وإذا علم أنّ مخوفاً أظلّهم لزمه أن ينذرهم. فكيف بما هو غاية المخاوف؟ وإنكار لتعجّبهم ممّا أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كلّ شيء، وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنّه لا بدّ من الجزاء. ثمّ عوّل على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾، دلالة على أنّ تعجّبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحقّ بالإنكار. ووضع ﴿الكافرون﴾ موضع الضمير للشهادة على أنّهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. و﴿هذا﴾ إشارة إلى

ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾

الرجع. و﴿إذا﴾ منصوب بمضمر معناه: أحين نموت ونبلى نُرجَع؟ ﴿مِتنا﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر؛ كقولك: هذا قولٌ بعيد؛ أي: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث. والوقف على ﴿تراباً﴾ على هذا حسن. وناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع: ما دلّ عليه المنذِر من المنذَر به وهو البعث.

٤ ـ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع؛ لأنّ من لطف علمه حتّى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياءً كما كانوا ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيّر. وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

٥ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل للدلالة على أنّهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجّبهم، وهو التكذيب بالحقّ الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه؛ أي: اضطرب من سعته، فيقولون تارة: شاعر، وطوراً: ساحر، ومرّة: كاهن، لا يثبتون على شيءٍ واحد. وقيل: الحق: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

٦، ٧ ـ ثُمَّ دلّهم على قدرته على البعث فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ رفعناها بغير عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنيّرات ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ من فتوق وشقوق. أي: أنها سليمة من العيوب، لافتق فيها، ولا صدع، ولا خلل ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ دحوناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، لولا هي لمالت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ يُبْتَهَجُ به لحسنه.

تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ
وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ
مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ
وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا

٨ ـ ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ لنبصر به، ونذكّر كلَّ ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ راجعٍ إلى ربه، مفكّرٍ في بدائع خلقه.

٩ ـ ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ أي: وحبَّ الزَّرع الذي من شأنه أن يحصد؛ كالحنطة، والشعير، وغيرهما.

١٠ ـ ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ طوالاً في السماء ﴿لَّهَا طَلۡعٞ﴾ هو كلّ ما يُطْلَعُ من ثمر النخيل ﴿نَّضِيدٞ﴾ منضود بعضه فوق بعض؛ لكثرة الطلع وتراكمه، أو: لكثرة ما فيه من الثمر.

١١ ـ ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: أنبتناها ﴿رزقاً﴾؛ لأنّ الإنبات في معنى الرزق فيكون ﴿رزقاً﴾ مصدراً من غير لفظه. و: هو مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ قد جفّ نباتها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة؛ كذلك تخرجون أحياءً بعد موتكم لأنّ إحياء الموات كإحياء الأموات. والكاف في محلّ الرفع على الابتداء.

١٢ ـ ١٤ ـ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ قبل قريش ﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ هو بئر لم تطو. وهم قوم باليمامة. وقيل: أصحاب الأخدود ﴿وَثَمُودُ ۞ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ﴾ أراد بفرعون قومه كقوله: ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ [يونس: ٨٣] لأنّ المعطوف عليه ﴿قوم نوح﴾ والمعطوفات جماعةٌ ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ سمّاهم إخوانه؛ لأنّ بينهم وبينه نسباً قريباً ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ هو ملك باليمن أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام، فكذّبوه. وسمّي به لكثرة تبَعِه ﴿كُلّٞ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ لأنّ من كذّب رسولاً واحداً فقد كذب جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجب وحلّ وعيدي. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدٌ لهم.

١٥ ـ ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أعيا بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار

بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾

﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ أي: أنّا لم نعجز عن الخلق الأوّل، فكيف نعجز عن الثاني؟ والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ في خلط وشبهة وقد لبَّس عليهم الشيطان وحيَّرهم. وذلك تسويله إليهم: أنّ إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح. وهو أنّ من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بعد الموت. وإنّما نكَّر الخلق الجديد ليدلَّ على عظمة شأنه، وأنَّ حقَّ من سمع به أن يخاف، ويهتمّ به.

١٦ ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ الوسوسة: الصوت الخفيُّ، ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويَهْجُسُ في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قوله صوّت بكذا ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾ المراد قرب علمه منه ﴿مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هو مثل في فرط القرب. والوريد: عرق في باطن العنق. والحبل: العرق. والإضافة للبيان؛ كقولهم: بَعِير سانيَةٍ.

١٧ ـ ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين الحافظين ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ التلقّي: التلقّن بالحفظ والكتابة. والقعيد: المقاعد؛ كالجليس بمعنى المجالس. وتقديره: ﴿عن اليمين﴾ قعيد ﴿وعن الشمال قعيد﴾ من المتلقيين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدي بـريئـاً ومـن أجـل الطـويِّ رمـاني

أي: رماني بأمر كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً. و﴿إذ﴾ منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب. والمعنى: أنّه لطيف يتوصّل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه. وهو أقرب من الإنسان من كلّ قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفّظ به إيذاناً بأنّ استحفاظ الملكين أمر هو غنيٌّ عنه. وكيف لا يَسْتَغني عنه وهو مطّلع على أخفى الخفيّات؟ وإنّما ذلك لحكمة، وهي ما في كِتْبَةِ الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم القيامة لطف له في الانتهاء عن السيّئات، والرغبة في الحسنات.

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ
تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾
لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا

١٨ ـ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به وما يَرْمي به من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر. ثمّ قيل: يكتبان كلَّ شيءٍ حتّى أنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلاّ ما فيه أجر أو وزر. وقيل: إنّ الملكين لا يجتنبانه إلاّ عند الغائط والجماع.

١٩ ـ لمّا ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم: أنّ ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة. ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي. وهو قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدّته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ﴾ الإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان في قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ على طريق الالتفات ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب.

٢٠ ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: وقت ذلك الوعيد. على حذف المضاف. والإشارة إلى مصدر ﴿نفخ﴾.

٢١ ـ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. ومحل ﴿معها سائق﴾ النصب على الحال من ﴿كلّ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

٢٢ ـ ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أي: يقال لها: لقد كنت ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ النازل بك اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. جعلت الغفلة كأنّها غطاء غطّى به جسده كلّه، أو غشاوة غطّى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقّظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحقّ، ورَجَعَ بصرُه الكليلُ عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقّظه.

٢٣ ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهور على أنّه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿هَٰذَا﴾ أي: ديوان عمله. مجاهد: شيطانه الذي قُيّض له في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ

مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

﴿قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿هذا﴾ أي: الذي وكّلتُ به ﴿مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ و﴿ما﴾ نكرة بمعنى شيء. والظرف بعده وصف له. وكذلك ﴿عتيد﴾. و﴿ما﴾ وصفتها خبر ﴿هذا﴾. والتقدير: ﴿هذا﴾ شيء ثابت ﴿لديّ عتيد﴾.

٢٤ ـ ثمّ يقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ والخطاب للسائق والشهيد. أو: لمالك. وكأنّ الأصل: ألق، ألق. فناب ﴿ألقيا﴾ عن: ألق، ألق. لأنّ الفاعل كالجزء من الفعل، فكانت تثنية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل. وقيل: أصله: أَلْقِيَنْ. والألف بدل من النون إجراء للوصل مجرى الوقف؛ دليله: قراءة الحسن (ألقين) ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعم والمنعم ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند مجانب للحقّ معادٍ لأهله.

٢٥ ـ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه. أو: منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخطّ للحقّ ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكّ في الله وفي دينه.

٢٦ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأ متضمّن معنى الشرط، خبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾. أو بدل من ﴿كلّ كفّار﴾ و﴿فألقياه﴾ تكرير للتوكيد. ولا يجوز أن يكون جراً صفة لـ ﴿كفّار﴾ لأنّ النكرة لا توصف بالموصولة.

٢٧ ـ ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي قرن به. وهو شاهد لمجاهد ـ رحمه الله ـ. وإنّما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى، لأنّ الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول. أعني: مجيء كلّ نفس مع الملكين، وقول قرينه ما قال له. وأمّا هذه فهي مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول؛ كما في مقاولة موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون. وكأنّ الكافر قال: ربِّ هو أطغاني، فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنّه طغى، واختار الضلالة على الهدى.

٢٨ ـ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى: ﴿قال قرينه﴾ كأنّ قائلاً قال: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال: لا تختصموا﴾ ﴿لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾

أي: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصامكم، ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي، وعلى ألسنة رسلي، فما تركت لكم حجّةً عليَّ. والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيدة؛ كما في قوله ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو مُعَدِّيَةٌ على أنّ: قدّم مطاوع بمعنى: تقدّم.

٢٩ ـ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لا تطمعوا أن أبدّل قولي ووعيدي بإدخال الكفّار في النار ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب. وقال: ﴿بظلّام﴾ على لفظ المبالغة؛ لأنّه من قولك: هو ظالم لعبده وظلّام لعبيده.

٣٠ ـ ﴿يَوْمَ﴾[1] نصب بظلّام أو بمضمر نحو: اذكر وأنذر ﴿نَقُولُ﴾: نافع وأبو بكر. أي: ﴿يقول﴾ الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهو مصدر كالمجيد. أي: أنها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد! أي: هل بقي فيَّ موضع لم يمتلىء؟! يعني: قد امتلأت. أو: أنها تستزيد. وفيها موضع للمزيد. وهذا على تحقيق القول من جهنّم. وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح. والسؤال لتوبيخ الكفرة؛ لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا.

٣١ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً ﴿غير بعيد﴾. أو على الحال. وتذكيره؛ لأنّه على زنة المصدر كالصليل. والمصادر يستوي في الوصف بها المذكّر والمؤنّث. أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً ﴿غير بعيد﴾. ومعناه: التوكيد كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

٣٢ ـ ﴿هَـٰذَا﴾ مبتدأ، وهو إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر ﴿أزلفت﴾، ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ ـ صفته. وبالياء مكّيّ، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى ذكر الله. خبره: ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظ لحدوده. في الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً».

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يقول﴾ وهي قراءة نافع، وأبي بكر، كما نص على ذلك. وما أثبتناه هي قراءة حفص.

مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ

٣٣ ـ ﴿مَّنْ﴾ مجرور المحلّ بدل من ﴿أوّاب﴾. أو رفع بالابتداء، وخبره: ﴿ادخلوها﴾ على تقدير يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ لأنّ ﴿مَنْ﴾ في معنى الجمع ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة. وقرن بالخشية اسمه الدالّ على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي. وهو خشيته مع علمه: أنّه الواسع الرحمة؛ كما أثنى عليه بأنّه خاش، مع أنّ المخشيّ منه غائب ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المفعول. أي: خشيه وهو غائب. أو: صفة لمصدر خشي. أي: خشيه خشيةً ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب. الحسن: إذا أغلق الباب وأرخى الستر ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله. وقيل: بسريرةٍ مرضيّةٍ، وعقيدةٍ صحيحة.

٣٤ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: مقدّرين الخلود.

٣٥ ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشتهون. والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف.

٣٦ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذّبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ من قومك ﴿بَطْشًا﴾ قوّة وسطوة ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾ فخرّقوا ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ وطافوا. والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: ﴿هم أشدّ منهم بطشاً﴾ أي: شدّة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقّب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون. فهل رأوا لهم محيصاً حتّى يؤمّلوا مثله لأنفسهم؟ ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿فنقِّبوا﴾ على الأمر ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من الله، أو من الموت.

٣٧ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيراً وعظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ ٱلْمُنَادِ

واع؛ لأنّ من لا يعي قلبه فكأنّه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بفطنته؛ لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنّهُ غائب.

٣٨ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ إعياء. قيل: نزلت في اليهود ـ لُعِنَتْ ـ تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستّة أيام، أوّلها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش. وقالوا: إنّ الذي وقع من التشبيه في هذه الأمّة إنّما وقع من اليهود. ومنهم أخذ. وأنكر اليهود التربيع في الجلوس، وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت.

٣٩ ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول اليهود، ويأتون به من الكفر والتشبيه. أو: على ما يقول المشركون في أمر البعث؛ فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً ربّك. والتسبيح محمول على ظاهره. أو على الصلاة. فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر.

٤٠ ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان، أو: التهجد ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات ـ والسجود والركوع يعبّر بهما عن الصلاة ـ وقيل: النوافل بعد المكتوبات. أو: الوتر بعد العشاء. والأدبار جمع دُبُرٍ ﴿وإدبار﴾ حجازيّ، وحمزة، وخلف. مِنْ: أدبرت الصلاة: إذا انقضت وتمّت. ومعناه: وقت انقضاء السجود؛ كقولهم: آتيك خفوق النجم.

٤١ ـ ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامه. وفي ذلك تهويل، وتعظيم لشأن المخبر به. وقد وقف يعقوب عليه. وانتصب ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بما دلّ عليه: ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي: ﴿يوم ينادي المنادي﴾ يخرجون من القبور. وقيل: تقديره: ﴿واستمع﴾ حديث ﴿يوم ينادي المنادي﴾ ﴿المنادي﴾ بالياء في

مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

الحالين مكّيّ وسهل ويعقوب، وفي الوصل مدنيّ وأبو عمرو. وغيرهم بغير ياء فيهما. والمنادي إسرافيل، ينفخ في الصور، وينادي: أيّتها العظام البالية! والأوصال المتقطّعة! واللحوم المتمزّقة! والشعور المتفرّقة! إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، وهي وسط الأرض.

٤٢ ـ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ ـ بدل من ﴿يوم ينادي﴾ ـ ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلّق بالصيحة. والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور.

٤٣، ٤٤ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الخلق ﴿وَنُمِيتُ﴾ أي: ونميتهم في الدينا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرهم ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ خفيف كوفيّ وأبو عمرو. وغيرهم بالتشديد ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: تتصدّع الأرض، فيخرج الموتى من صدوعها ﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور. أي: مسرعين ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هيّن. وتقديم الظرف يدلّ على الاختصاص، أي: لا يتيسّر مثل ذلك الأمر العظيم إلاّ على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤٥ ـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا. تهديد لهم، وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. أي: ما أنت بمسلّط عليهم. إنّما أنت داع وباعث. وقيل: هو من: جبره على الأمر، بمعنى: أجبره. أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفع إلاّ فيه.

* * *

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ترتيبها ٥١ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

---

١ ـ ٤ ـ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح؛ لأنّها تذرو التراب وغيره. وبإدغام التاء في الذال حمزة، وأبو عمرو ﴿ذَرْوًا﴾ مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ السحاب لأنّها تحمل المطر ﴿وِقْرًا﴾ مفعول الحاملات ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ الفلك ﴿يُسْرًا﴾ جرياً ذا يسر؛ أي: ذا سهولة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة؛ لأنّها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها؛ أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك، أو يتولّى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنّها تنشىء السحاب. وتقلّه وتصرّفه، وتجري في الجوّ جرياً سهلاً، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب. ومعنى الفاء على الأوّل: أنّه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسّم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحار ومنافعها. وعلى الثاني: أنّها تبتدىء في الهبوب، فتذروا التراب والحصباء، فتقلّ السحاب، فتجري في الجوّ باسطةً له، فتقسّم المطر.

٥، ٦ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدريّة. والموعود البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾ وَعْدٌ صادق؛ كعيشةٍ راضية؛ أي: ذات رضا ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠
ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣

٧ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ هذا قسم آخر ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ الطرائق الحسنة، مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسّره. جمع: حبيكة، كطريقة، وطرق. ويقال: إنّ خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها: نجومها. جمع: حباك.

٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: قولهم في الرسول: ساحر، وشاعر، ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر، وأساطير الأوّلين.

٩ ـ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول. أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشدّ منه وأعظم، أو: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله؛ أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحقّ لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لـ ﴿ما توعدون﴾ أو لـ ﴿الدِّيْن﴾. أقسم بالذاريات على أنّ وقوع أمر القيامة حقّ، ثمّ أقسم بالسماء على أنّهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكّ، ومنهم جاحد، ثمّ قال: ﴿يؤفك﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من: هو المأفوك.

١٠ ـ ﴿قُتِلَ﴾ لعن. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك. ثمّ جرى مجرى لعن ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكذّابون المقدّرون ما لا يصحّ. وهم أصحاب القول المختلف. واللام إشارة إليهم كأنّه قيل: ﴿قتل﴾ هؤلاء ﴿الخرّاصون﴾.

١١ ـ ١٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عمّا أمروا به ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يوم الجزاء. وتقديره: أيّان وقوع يوم الدين؛ لأنّه إنّما تقع الأحيان ظروفاً للحدثان. وانتصب اليوم الواحد في الجواب بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن وهو الجملة، ومحلّه نصب بالمضمر الذي هو «يقع» أو رفع على هو ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يحرقون.

ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ

١٤ ـ ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا﴾ عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ﴿هذا﴾ العذاب هو الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠].

١٥، ١٦ ـ ثُمَّ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: تكون العيون، وهي الأنهار الجارية بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لكلّ ما أعطاهم من الثواب، راضين به. و﴿آخذين﴾ حال من الضمير في الظرف. وهو خبر ﴿إنّ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخول الجنّة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده:

١٧، ١٨ ـ ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون. و﴿ما﴾ مزيدة للتوكيد ـ و﴿يهجعون﴾ خبر كان. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلةٍ من الليل. أو مصدريّة. والتقدير: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، فيرتفع هجوعهم: لكونه بدلاً من الواو في ﴿كانوا﴾، لا بقليلاً؛ لأنّه لمّا صار موصوفاً بقوله: ﴿من الليل﴾ خرج من شبه الفعل، وعمله باعتبار المشابهة. أي: كان هجوعهم ﴿قليلاً من الليل﴾. ولا يجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية على معنى: أنّهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويُحْيُونَهُ كلّه؛ لأنّ ﴿ما﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا تقول: زيداً ما ضربت ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وصفهم بأنّهم يحيون الليل متهجّدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنّهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. والسحر: السدس الأخير من الليل.

١٩ ـ ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: الذي يتعرّض ولا يسأل حياء.

٢٠، ٢١ ـ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ تدلّ على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره،

﴿لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقلّبين فيها، وهي مجزّأة، فمن سهل، ومن جبل، ورخوة، وعَذَاة، وسَبَخة، وفيها عيون متفجّرة، ومعادن مفتّنة، ودواب منبثّة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ للموحّدين الذين سلكوا الطريق السويَّ البرهانيَّ الموصّل إلى المعرفة، فهم نظّارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة. كلّما رأوا آيةً عرفوا وجه تأمّلها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الخلق، ما تتحيّر فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبّرها وصانعها. دع الأسماع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خلقت له، وما سوّي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنّي؛ فإنّه إذا جسا[1] شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذلّ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وما قيل: إنّ التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف؛ لأنّه يفضي إلى تقديم ما في حيّز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

٢٢ ـ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ المطر؛ لأنّه سبب الأقوات. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنّه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنّكم تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنّة فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أنّ ما ترزقونه في الدنيا، وما توعدونه في العقبى كلّه مقدور مكتوب في السماء.

٢٣ ـ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ الضمير يعود إلى الرزق، أو إلى ما توعدون ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2] بالرفع كوفيّ غير حفص صفة للحق. أي:

(١) «جسا»: يَبِس وصَلُب وغلُظ.

(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿مثلُ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، =

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾

حقّ مثل نطقكم. وغيرهم النصب أي: ﴿أنّه لحق﴾ حقّاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. و﴿ما﴾ مزيدة. وعن الأصمعيّ: أنه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعود. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. قال: اتل عليّ. فتلوت: ﴿والذاريات﴾ فلمّا بلغت قوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحرها، ووزّعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما وولّى. فلمّا حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابيّ قد نحل واصفرّ، فسلّم عليّ، واستقرأ السورة. فلما بلغت الآية صاح وقال: ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً﴾ ثمّ قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدّقوه بقوله حتّى حلف. قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

٢٤ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ تفخيم للحديث، وتنبيه على أنّه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنّما عرفه بالوحي. وانتظامها بما قبلها باعتبار أنّه قال: ﴿وفي الأرض آيات﴾ وقال في آخر هذه القصّة: ﴿وتركنا فيها آية﴾ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الضيف: للواحد والجماعة، كالصوم، والزور؛ لأنّه في الأصل مصدر ضافه. وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً؛ لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ. أو لأنّهم كانوا في حسبانه كذلك ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله؛ لقوله: ﴿بل عباد مكرمون﴾. وقيل: لأنّه خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجّل لهم القرى.

٢٥ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ نصب بالمكرمين إذا فسّر بإكرام إبراهيم لهم. وإلا فبإضمار اذكر ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلِّم عليكم سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم ﴿سلام﴾ فهو مرفوع على الابتداء.

= والأعمش، وشعبة، وخلف، وابن أبي إسحاق، والحسن. معجم القراءات القرآنية (٦/ ٢٤٦).

قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠

وخبره محذوف. والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام؛ كأنّه قصد أن يحييهم بأحسن ممّا حيّوه به أخذاً بأدب الله. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. حمزة وعليّ ﴿سِلۡمٌ﴾. والسلم: السلام ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم ﴿قوم منكرون﴾ فعرّفوني من أنتم.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه. ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يباده بالقِرَى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفّه. وكان عامّة مال إبراهيم عليه السلام البقر ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل، أو حثّهم عليه، ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ فأضمر ﴿مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾. خوفاً؛ لأنّ من لم يأكل طعامك، لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنّهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ إنّا رسل الله. وقيل: مسح جبريل العجل فقام ولحق بأمّه ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي: يبلغ ويعلم. فالمُبَشَّرُ به إسحاق عند الجمهور.

٢٩ ـ ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ في صيحة. من: صرّ القلم والباب. وقال الزجاج: الصرّة: شدّة الصياح هاهنا. ومحلّه النصب على الحال. أي: فجاءت صارّة. وقيل: فأخذت في صياح. وصرّتها: قولها: ﴿يا ويلتا﴾ ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ أي: أنا ﴿عجوز﴾ فكيف ألد؟ كما قال في موضع آخر: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧٢].

٣٠ ـ ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء. وروي: أنّ جبريل قال لها حين استبعدت:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

٣١ـ٣٤ـ ولمّا علم أنهم ملائكة، وأنّهم لا ينزلون إلاّ بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ أرسلتم بالبشارة خاصّة، أو لأمر آخر، أو لهما؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد السجّيل، وهو طينٌ طبخ كما يطبخ الآجر حتّى صار في صلابة الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة. من: السّومة وهي: العلامة، على كلّ واحدٍ منها اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ سمّاهم: مسرفين، كما سمّاهم: عادين؛ لإسرافهم وعدوانهم في عملهم، حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

٣٥ـ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لوطاً ومن آمن به.

٣٦ـ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: غير أهل بيت. وفيه دليل: على أنّ الإيمان والإسلام واحد؛ لأنّ الملائكة سمّوهم مؤمنين ومسلمين هنا.

٣٧ـ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ في قراهم ﴿آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قيل: هي ماء أسود منتن.

٣٨ـ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ معطوف على ﴿وفي الأرض آيات﴾. أو على قوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ على معنى ﴿و﴾ جعلنا ﴿في موسى﴾ آية؛ كقوله.

علفتُها تبناً وماءً بارداً ... ...[1]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة، وهي: اليد والعصا.

---

(١) وتمامه: حتى شتت همالة عيناها.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾

٣٩، ٤٠ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه. والركن: ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه من كفره وعناده. وإنما وصف يونس عليه السلام به في قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] لأنّ موجبات اللوم تختلف. وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكفر ملوم على مقداره، وراكب الكبيرة والصغيرة والزلّةِ كذلك. والجملة مع الواو حال من الضمير في ﴿فأخذناه﴾

٤١ ـ ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ هي: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر. وهي ريح الهلاك. واختلف فيها. والأظهر: أنّها الدبور لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكتْ عادٌ بالدَّبور»(١).

٤٢ ـ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ هو: كلّ ما رمّ؛ أي: بلي، وتفتّت من عظم، أو نبات، أو غير ذلك. والمعنى: ما تترك من شيءٍ هبّت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلاّ أهلكته.

٤٣ ـ ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

٤٤ ـ ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذاب، وكلُّ عذاب مهلك صاعقة. ﴿الصعقة﴾ عليّ. وهي: المرّة، من مصدر: صعقتهم الصاعقة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ لأنّها كانت نهاراً يعاينونها.

٤٥ ـ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: هرب. أو هو من قولهم: ما يقوم به: إذا

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) ومسلم (٩٠٠).

وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

عجز عن دفعه ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب. أو: لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأنّ معنى الانتصار المقابلة.

٤٦ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قوم نوح﴾ لأنّ ما قبله يدلّ عليه. أو: ﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح﴾. وبالجرّ أبو عمرو، وعليّ، وحمزة. أي ﴿و﴾ في ﴿قوم نوح﴾ آية. ويؤيّده قراءة عبد الله (وفي قوم نوح) ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ كافرين.

٤٧ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ نصب بفعل يفسّره ﴿بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ بقوّةٍ. والأيد: القوّة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون. من الوسع، وهي: الطاقة. والموسع: القويُّ على الإنفاق. أو: ﴿لموسعون﴾ ما بين السماء والأرض.

٤٨ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ بسطناها، ومهّدناها. وهي منصوبة بفعل مضمر. أي: وفرشنا الأرض، فرشناها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ نحن.

٤٩ ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. وعن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والموت والحياة. فعدّد أشياء وقال: كلّ اثنين منها زوج. والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج؛ لتتذكّروا، فتعرفوا الخالق، وتعبدوه.

٥٠، ٥١ ـ ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من الشرك إلى الإيمان بالله. أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. أو ممّا سواه إليه ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والتكرير للتوكيد. والإطالة في الوعيد أبلغ.

٥٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً أو مجنوناً. ثمّ فسّر ما أجمل بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل قومك

﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾ هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم.

٥٣ ـ ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ الضمير للقول. أي: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول؛ حتّى قالوه جميعاً متّفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يتواصوا به؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحدٍ، بل جمعتهم العلّة الواحدة، وهي: الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

٥٤ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فلا لوم عليك في إعراضك بعدما بلّغت الرسالة، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة.

٥٥ ـ ﴿وَذَكِّرْ﴾ وعظ بالقرآن ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تزيد في علمهم.

٥٦ ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامّة. بل المراد بها المؤمنون من الفريقين. دليله: السياق، أعني: ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وما خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين) وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنّهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنّه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بدّ أن توجد منهم، فإذا لم يؤمنوا علم أنّه خلقهم لجهنّم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: إلاّ لآمرهم بالعبادة، وهو منقول عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وقيل: إلاّ ليكونوا عباداً لي. والوجه: أن تحمل العبادة على التوحيد، فقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلّ عبادةٍ في القرآن فهي توحيد. والكلّ يوحّدونه في الآخرة لما عرف: أنّ الكفار كلّهم مؤمنون موحّدون في الآخرة. دليله قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] نعم قد أشرك البعض في الدنيا لكن مدّة الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقلّ من يوم. ومن اشترى غلاماً وقال: ما اشتريته إلاّ

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

للكتابة كان صادقاً في قوله: ما اشتريته إلاّ للكتابة، وإن استعمله في يومٍ من عمره لعملٍ آخر.

٥٧ ـ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم، أو: واحداً من عبادي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ قال ثعلب: أنْ يطعموا عبادي. وهو إضافة تخصيص؛ كقوله ﷺ خبراً عن الله تعالى: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني، ومن آذى مؤمناً فقد آذاني»[(١)].

٥٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد القوّة. و﴿المتين﴾ بالرفع صفة لذو. وقرأ الأعمش بالجرّ صفة للقوّة على تأويل الاقتدار.

٥٩ ـ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكّة ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ نصيباً من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المُهْلَكَةِ. قال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزول العذاب. وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

٦٠ ـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر ﴿ليعبدوني﴾ ﴿أن يطعموني﴾ ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء في الحالين يعقوب. وافقه سهل في الوصل، الباقون بغير ياء.

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٥٨٠٦)، وانظره في: فيض القدير (٨٥١٢) وميزان الاعتدال للذهبي (٩٦٢٨).

سُورَةُ الطُّورِ

آياتها ٤٩ — ترتيبها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾

١ ـ ٧ ـ ﴿وَالطُّورِ﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى وهو بمدين ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ هو القرآن. ونكّر لأنّه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب. أو اللوح المحفوظ، أو التوراة ﴿فِي رَقٍّ﴾ هو الصحيفة، أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿مَّنشُورٍ﴾ مفتوح لاختم عليه، أو: لائح ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أي: الضُّرَاح. وهو بيت في السماء حيال الكعبة. وعمرانه بكثرة زوّاره من الملائكة. روي: أنّه يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ويخرجون ثمّ لا يعودون إليه. وقيل: الكعبة؛ لكونها معمورة بالحجّاج والعمّار ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، أو العرش ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء أو الموقد. والواو الأولى للقسم، والبواقي للعطف. وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أوعد الكفّار به ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مُطْعِم ـ رضي الله عنه ـ: أتيت رسول الله ﷺ أكلّمه في الأسارى، فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلمّا بلغ: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع﴾ أسلمتُ خوفاً من أن ينزل العذاب[1].

---

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، والذي جاء في الصحيح أن ذلك في صلاة المغرب، وأنه =

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

٨ ـ ١٤ ـ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ لا يمنعه مانع، والجملة صفة ﴿لواقع﴾ أي: واقع غير مدفوع. والعامل في ﴿يوم﴾: ﴿لواقع﴾ أي: يقع في ذلك اليوم. أو: اذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ في الهواء كالسحاب؛ لأنّها تصير هباءً منثوراً ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] ويبدل ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ من ﴿يوم تمور﴾. والدعّ: الدفع العنيف. وذلك: أنّ خزنة النار يُغلّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزخّاً في أقفيتهم، فيقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

١٥ ـ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ ﴿أسحر﴾ خبره. يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحر ﴿أفسحر هذا﴾؟ يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا. يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه؛ كما كنتم عمياً عن الخبر؟ وهذا تقريع وتهكّم.

١٦ ـ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر ﴿سواء﴾ محذوف؛ أي: ﴿سواء عليكم﴾ الأمران: الصبر وعدمه. وقيل: على العكس. وعلّل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنّ الصبر إنّما تكون له مزيّة على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاءَ الخير. وأمّا الصبر على العذاب الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له، ولا منفعة، ولا مزيّة له على الجزع.

= لما سمع: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾: كاد قلبي يطير. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٠٩).

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا

١٧ ـ ٢٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ في أيّة جنّات ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ﴿و﴾ أيّ ﴿نعيم﴾ بمعنى الكمال في الصفة. أو ﴿في جنّات ونعيم﴾ مخصوصة بالمتّقين، خلقت لهم خاصّة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. والظرف خبر. أي: متلذّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على ﴿في جنّات﴾ أي: ﴿إنّ المتّقين﴾ استقرّوا ﴿في جنّات... ووقاهم ربّهم﴾ أو على ﴿آتاهم ربّهم﴾ على أن تجعل ﴿ما﴾ مصدريّة. والمعنى: ﴿فاكهين﴾ بإيتائهم ربّهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. أو: الواو للحال «وقد» بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلاً وشرباً ﴿هنيئاً﴾. أو طعاماً وشراباً ﴿هنيئاً﴾. وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كلوا واشربوا﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ وقرناهم ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٍ﴾ عظام الأعين، حسانها.

٢١ ـ ٢٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ. و﴿ألحقنا بهم﴾ خبره. و﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ ﴿وأتبعناهم﴾: أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أولادهم ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الفاعل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذرّيّة عن أعمال الآباء. وقيل: إن الذرّيّة وإن لم يبلغوا مبلغاً يكون منهم الإيمان استدلالاً، وإنّما تلقّنوا منهم تقليداً فهم يلحقون بالآباء. ﴿ذرّيّتهم. ذرّيّاتهم﴾ مدنيّ ﴿ذرياتِهم. ذرّيّاتِهم﴾ أبو عمرو ﴿ذرّيّاتُهم ذرّيّاتِهم﴾ شاميّ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وما نقصناهم ﴿من﴾ ثواب ﴿عملهم من شيء﴾ ﴿ألِتناهم﴾ مكيّ. ألَت، يألِت، وألِت، يألَت لغتان ﴿من﴾ الأولى متعلّقة بـ ﴿ألتناهم﴾، والثانية زائدة ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرهون، فنفس المؤمن مرهونة بعمله ويجازى به ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وإن لم يقترحوا ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ خمراً. أي:

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

يتعاطون، ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم، يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يجري بينهم ما يُلغَى. يعني: لا يجري بينهم باطل، ولا مافيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا؛ لأنّ عقولهم ثابتة فيتكلّمون بالحكم والكلام الحسن. ﴿لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ﴾ مكّيٌّ وبصريٌّ.

٢٤ ـ ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ مملوكون ﴿لَّهُمْ﴾ مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصدف؛ لأنّه رطباً أحسن وأزكى. أو: مخزون؛ لأنه لا يخزن إلاّ الثمين الغالي القيمة. في الحديث: «إنَّ أدنى أهل الجنّة منزلةً من ينادي الخادم من خدّامه فيجيبه ألف ببابه: لبّيك لبّيك»[1].

٢٥ ـ ٢٨ ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استحقّ به نيل ما عند الله ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقّاء القلوب من خشية الله. أو: خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان. أو: من ردّ الحسنات، والأخذ بالسيّئات ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ هي: الريح الحارّة التي تدخل المسامّ، فسمّيت بها نار جهنّم لأنّها بهذه الصفة ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله والمصير إليه ـ يعنون: في الدنيا ـ ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ولا نعبد غيره، ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عُبد أثاب، وإذا سئل أجاب. ﴿أنّه﴾ بالفتح مدنيّ وعليّ؛ أي: بأنّه، أو لأنّه.

٢٩ ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ﴿ربّك﴾ وإنعامه عليك بالنبوّة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٤١٢).

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ

زعموا. وهو في موضع الحال، والتقدير: لست كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك.

٣٠ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، أي: ننتظر نوائب الزمان فيهلك؛ كما هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابغة. و﴿أم﴾ في أوائل هذه الآي منقطعة بمعنى: بل، والهمزة.

٣١ ـ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربّص هلاككم كما تتربّصون هلاكي.

٣٢ ـ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن، وشاعر، مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يُدعون: أهل الأحلام والنُّهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

٣٣، ٣٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ﴿بَل﴾ ردّ عليهم. أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنّه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه، وما محمد إلّا واحد من العرب ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ﴾ مختلق ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ محمّداً تقوّله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

٣٥، ٣٦ ـ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ أم أحدثوا وقُدّروا التقدير الذي عليه فطرتهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ من غير مقدّر ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ﴿أم هم الخالقون﴾ فلا يأتمرون ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلا يعبدون خالقهما

بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ
فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ
ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يتدبّرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوّة والرزق وغيرهما، فيخصّوا من شاؤوا بما شاؤوا ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الغالبون حتّى يدبّروا أمر الربوبيّة، ويبينوا الأمور على مشيئتهم. وبالسين مكّيٌّ وشاميٌّ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتّى يعلموا ما هو كائن من يتقدّم هلاكه على هلاكهم، وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون. قال الزجاج: ﴿يستمعون فيه﴾ أي: عليه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

٣٩ ـ ٤١ ـ ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ ثمّ سفّه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه؛ أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم[1]، فزهّدهم ذلك في اتّباعك ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتّى يقولوا: لا نبعث وإن بعثنا لم نعذّب.

٤٢، ٤٣ ـ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم، في دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إشارة إليهم، و أريد بهم كلّ من كفر بالله ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم، ويحيق بهم مكرهم، وذلك: أنهم قتلوا يوم بدر. أو: المغلوبون في الكيد. من: كايدته، فكدته ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) أي: أثقلهم وبهظهم.

وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٤٤ ـ ٤٦ ـ ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ﴾ الكسف: القطعة. وهو جواب قولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. يريد: أنّهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب ﴿مَّرۡكُومٞ﴾ قد رُكِم، أي: جمع بعضه على بعض يمطرنا، ولم يصدّقوا أنّه كسف ساقط للعذاب ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ بضم الياء: عاصمٌ وشاميٌّ. الباقون بفتح الياء. يقال: صعقه، فصعق. وذلك عند النفخة الأولى؛ نفخة الصعق، ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

٤٧ ـ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وإنّ لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون يوم القيامة. وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك.

٤٨، ٤٩ ـ ثمّ أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقّة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراك، ونكلؤك. وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ الجماعة. ألا ترى إلى قوله ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة، وهو ما يقال بعد التكبير: سبحانك اللّهم وبحمدك. أو من أيّ مكان قمت. أو من منامك ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر اللّيل. ﴿وأدبار﴾ زيد. أي: في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه ﴿ومن الليل﴾، صلاة العشاءين، ﴿وإدبار النجوم﴾ صلاة الفجر.

* * *

سورة النجم

آياتها ٦٢ ترتيبها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾

١، ٢ ـ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ أقسم بالثريا، أو بجنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب، أو انتثر يوم القيامة. وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحقّ ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ أي: محمد ﷺ. والخطاب لقريش ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ في اتّباع الباطل. وقيل: الضلال نقيض الهدى. والغيّ نقيض الرشد. أي: هو مهتد راشد. وليس كما تزعمون من نسبتكم إيّاه إلى الضلال والغيِّ.

٣، ٤ ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، إنما هو وحي من عند الله يوحى إليه. ويحتجّ بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام. ويجاب: بأن الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد وقرّرهم عليه كان كالوحي، لا نطقاً عن الهوى.

٥ ـ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ علّم محمداً ﷺ ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ ملكٌ شديد قواه. والإضافة غير حقيقيّة؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها. وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور. ومن قوّته: أنّه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثمّ قلبها، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾

٦ ـ ١٠ ـ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ منظرٍ حسن ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقيّة دون الصورة التي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة دحية. وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أحبّ أن يراه في صورته التي جبل عليها ﴿فاستوى﴾ له في الأفق الأعلى ـ وهو أفق الشمس فملأ الأفق. وقيل: ما رآه أحدٌ من الأنبياء عليهم السلام في صورته الحقيقيّة سوى محمد ﷺ مرّتين، مرّة في الأرض، ومرّة في السماء ﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ مطلع الشمس ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فزاد في القرب ـ والتّدلي: هو النزول بقرب الشيء ـ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عربيّين. وقد جاء التقدير بالقوس، والرمح، والسوط، والذراع، والباع. ومنه: لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين. وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنّة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها»(١). والقدُّ: السوط. وتقديره: ﴿فكان﴾ مقدار مسافة قربه مثل ﴿قاب قوسين﴾ فحذفت هذه المضافات. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: على تقديركم؛ كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وهذا لأنّهم خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رمحين أو أنقص. وقيل: بل أدنى ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجر لاسمه ذكر لأنّه لا يلتبس. كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. قيل: أوحى إليه: «إنّ الجنّة محرّمة على الأنبياء حتّى تدخلها، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك»(٢).

١١ ـ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد محمد ﴿مَا رَأَىٰ﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لمّا رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنّه عرفه. يعني: أنّه رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشكّ في أنّ ما رآه حقّ.

(١) رواه البخاري (٢٧٩٣).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٤٢٠).

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾

وقيل: المرئيّ هو الله سبحانه. رآه بعين رأسه. وقيل: بقلبه.

١٢ ـ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتجادلونه. من المراء وهو المجادلة. واشتقاقه من: مَرْي الناقةِ. كأنّ كلّ واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه ﴿أفتَمْرُونه﴾ حمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب. أفتغلبونه في المراء. من: ماريته فمريته. ولما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ فعدّى بعلى كما تقول: غلبته على كذا. وقيل: ﴿أفتمرونه﴾ أفتجحدونه. يقال: مريته حقّه: إذا جحدته. وتعدّيته بعلى لا تصحّ إلاّ على مذهب التضمين.

١٣، ١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمّد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرّة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو «مرّة» لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل، فكانت في حكمها. أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها. وذلك ليلة المعراج ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ الجمهور على أنّها شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش. و﴿المنتهى﴾ بمعنى موضع الانتهاء. أو الانتهاء؛ كأنّها في منتهى الجنّة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد. وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

١٥ ـ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: الجنّة التي يصير إليها المتّقون. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦ ـ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: رآه ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها. فقد علم بهذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالّة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف. فقد قيل: يغشاها الجمّ الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها. وقيل: يغشاها فراش من ذهب.

١٧ ـ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ بصر رسول الله ﷺ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

١٨ ـ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ الآيات التي هي كبراها وعظماها. يعني: حين رُقِي به إلى السماء فأرِي عجائب الملكوت.

١٩، ٢٠ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عزّ وجلّ؛ هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها ربّ العزة؟ ﴿اللات والعزى ومناة﴾ أصنام لهم. وهي مؤنّثات. فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش. وهي فَعْلَةٌ من: لوى؛ لأنّهم كانوا يلوون عليها، ويعكُفون للعبادة. والعزّى كانت لغطفان، وهي سَمُرة، وأصلها تأنيث الأعزّ. وقطعها خالد بن الوليد. ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وقيل: لثقيف. وكأنّها سمّيت: مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها؛ أي: تراق ﴿ومناءة﴾ مكّيٌّ. مفعلة من النوء. كأنّهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبرّكاً بها ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي صفة ذمّ؛ أي: المتأخرة الوضيعة المقدار. كقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم. ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم لِلاّت والعزّى.

٢١ ـ ٢٣ ـ كانوا يقولون: إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويزعمون: أنّهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات، وكراهتهم لهنّ، فقيل لهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾. أي: جعلكم لله البنات ولكم البنين ﴿قسمةٌ ضيزى﴾ أي: جائرة، من: ضازه، يضيزه: إذا ضامه. و﴿ضيزى﴾ فُعلى؛ إذ لا فِعلى في النعوت. فكسرت الضاد للياء؛ كما قيل: بيض، وهو بوض، مثل: حمر وسود ﴿ضئزى﴾ بالهمز مكّيٌّ، من: ضأزه، مثل ضازه ﴿إِنْ هِىَ﴾ ما الأصنام ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسمّيات؛ لأنّكم تدّعون الإلهيّة لما هو أبعد شيءٍ منها، وأشدّ منافاة لها ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: سمّيتم بها ـ يقال: سمّيته زيداً، وسمّيته بزيد ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلاّ توهّم أنّ ما هم عليه حقّ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تشتهيه أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار؛ أي: ليس ﴿للإنسان﴾ يعني: الكافر ﴿ما تمنى﴾ من شفاعة الأصنام، أو من قوله ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو تمنّي بعضهم أن يكون هو النبيَّ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: هو مالكهما، وله الحكم فيهما، يعطي النبوّة، والشفاعة من شاء وارتضى، لا من تمنّى.

٢٦ ـ ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ يعني: أنّ أمر الشفاعة ضيق. فإنّ الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحدٍ لم تغن شفاعتهم شيئاً قطّ ولم تنفع ﴿إلاّ﴾ إذا شفعوا ﴿من بعد أن يأذن الله﴾ لهم في الشفاعة ﴿لمن يشاء﴾ الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتهم؟!

٢٧، ٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: ﴿ليسمّون﴾ كلَّ واحدٍ منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ لأنّهم إذا قالوا للملائكة: بنات الله؛ فقد سمّوا كلّ واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بما يقولون. وقرىء ﴿بها﴾ أي: بالملائكة أو التسمية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ هو تقليد الآباء ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: إنّما يعرف الحقّ الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقّن لا بالظنّ والتوهّم.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ فأعرض عمّن رأيته معرضاً عن ذكر

وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

الله؛ أي: القرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ﴾ أي: اختيارهم الدنيا، والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ منتهى علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ﴿هو أعلم﴾ بالضالّ والمهتدي ومجازيهما.

٣١ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بعقاب ما ﴿عملوا﴾ من السوء. أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنّة. أو بسبب الأعمال الحسنى. والمعنى: أنّ الله عز وجلّ إنّما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلّفين والمسيء منهم. إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء.

٣٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل. أو في موضع رفع على المدح. أي: هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من الإثم؛ لأنّ الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر. والكبائر: الذنوب التي يكبر عقابها ﴿كبير﴾ حمزة، وعليّ. أي: النوع الكبير منه ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر. كأنّه قال: ﴿والفواحش﴾ منها خاصّة. قيل: الكبائر: ما أوعد الله عليه النار. والفواحش ما شرع فيها الحدّ. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: الصغائر. والاستثناء منقطع لأنّه ليس من الكبائر والفواحش. وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل، وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها، واهضموها. فقد علم الله الزكيّ منكم، والتقيّ أوّلاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام، وقبل أن تخرجوا من بطون أمّهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثمّ يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحجّنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنّه جائز. لأنّ المسرّة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فاكتفوا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس.

٣٣ ـ ٣٧ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ قطع عطيّته وأمسك. وأصله: إكداء الحافر. وهو أن تلقاه كُدْية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فيمن كفر بعد الإسلام. وقيل: في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتّبع رسول الله ﷺ فعيّره بعض الكافرين، وقال له: تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم في النار. قال: إنّي خشيت عذاب الله، فضمن له، إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه، أن يتحمّل عنه عذاب الله، ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثمّ بخل به ومنعه ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ فهو يعلم أنّ ما ضمنه من عذاب الله حق؟ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي: التوراة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وفي صحف إبراهيم ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: وفَّر وأتمّ؛ كقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كلّ وفاء وتوفية. وقرىء مخففاً. والتشديد مبالغة في الوفاء. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: ما أمره الله بشيءٍ إلاّ وفّى به. وعن عطاء بن السائب: عهد ألاّ يسأل مخلوقاً. فلمّا قذف في النار قال له جبريل ـ عليه السلام ـ ألك حاجة؟ فقال أمّا إليك فلا. وعن النبيّ ﷺ: «وفّى عمله كلّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار»(١). وهي صلاة الضحى. وروي: ألا أخبركم لم سمّى الله خليله ﴿الذي وفّى﴾؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى ﴿حين تظهرون﴾(٢). وقيل: وفّى سهام الإسلام، وهي ثلاثون: عشرة في التوبة ﴿التائبون...﴾ وعشرة في الأحزاب ﴿إنّ المسلمين...﴾ وعشرة في المؤمنين ﴿قد أفلح المؤمنون...﴾.

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٢٧).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٩).

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

٣٨ ـ ٤٢ ـ ثم أَعْلَم بما في صحف موسى وإبراهيم فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ﴿تزر﴾ من وَزَرَ يَزِرُ: إذا اكتسب وزراً، وهو الإثم. و﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة. والمعنى: أنّه ﴿لا تزر﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ ﴿أن﴾ وما بعدها الجرّ بدلاً من ﴿ما في صحف موسى﴾ أو الرفع على هو ﴿ألاّ تزر﴾ كأنّ قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: ﴿ألاّ تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلاّ سعيه. وهذه أيضاً ممّا في صحف إبراهيم وموسى. وأمّا ما صح في الأخبار من الصدقة عن الميّت والحجّ عنه فقد قيل، إنّ سَعْيَ غيره لما لم ينفعه إلاّ مبنيّاً على سعي نفسه ـ وهو أن يكون مؤمناً ـ كان سعيُ غيره كأنه سعي نفسه؛ لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. ولأنّ سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه. ولكن إذا نواه به؛ فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ ثمّ يجزى العبد سعيه ـ يقال: جزاه الله عمله، وجزاه على عمله ـ بحذف الجارّ وإيصال الفعل ـ ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثمّ فسّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: هذا كلّه في الصحف الأولى. والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء. أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٤٣ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق الضحك والبكاء. وقيل: خلق الفرح والحزن. وقيل: ﴿أضحك﴾ المؤمن في العقبى بالمواهب، وأبكاه في الدنيا بالنوائب.

٤٤ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ قيل: ﴿أمات﴾ الآباء، ﴿وأحيا﴾ الأبناء. أو ﴿أمات﴾ بالكفر ﴿وأحيا﴾ بالإيمان. أو ﴿أمات﴾ هنا ﴿وأحيا﴾ ثمّة.

٤٥ ـ ٤٩ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تُدفق في الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقال: مني، وأمنى ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القُنية. وهي المال الذي تأثّلته، وعزمت ألّا تخرجه من يدك ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدّة الحرّ. وكانت خزاعة تعبدها. فأعلم الله تعالى: أنّه ربّ معبودهم هذا.

٥٠ ـ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ هم قوم هود. وعاد الأخرى إرم. (عَادَ الُّولى) مدنيّ وبصريّ غير سهل بإدغام التنوين في اللام، وطرح همزة الأولى، ونقل ضمّتها إلى لام التعريف.

٥١ ـ ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ حمزة وعاصم. الباقون ﴿وثموداً﴾. وهو معطوف على ﴿عاداً﴾. ولا ينتصب بـ ﴿فما أبقى﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله، لا تقول: زيداً فضربت. وكذا ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله. والمعنى: وأهلك ثمود فما أبقاهم.

٥٢ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلك ﴿قوم نوح﴾ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من عاد وثمود؛ لأنهم كانوا يضربونه حتّى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتّى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه.

٥٣ ـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت. وهم قوم لوط. يقال: أفكه، فائتفك ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل ـ عليه السلام ـ، ثمّ أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها ﴿والمؤتفكة﴾ منصوب بـ ﴿أهوى﴾.

٥٤ ـ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ ألبسها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾. تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

٥٥ ـ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكّك؟ أبما أولاك من النعم؟ أو بما كفاك من النقم؟ أو: بأيّ نِعَم ربّك الدالة على وحدانيّته وربوبيّته تشكّك؟

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

٥٦ ـ ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد منذر ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ من المنذرين الأوّلين. وقال: ﴿الأولى﴾ على تأويل الجماعة. أو: ﴿هذا﴾ القرآن ﴿نذير من النذر الأولى﴾ أي: إنذار من جنس الإنذارات ﴿الأولى﴾ التي أنذر بها من قبلكم.

٥٧ ـ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ قربت الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١].

٥٨ ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة، أي: مبينة متى تقوم. كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة؛ أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلاّ الله تعالى، غير أنّه لا يكشفها.

٥٩ ـ ٦٢ ـ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعاً ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ غافلون، أو لاهون لاعبون. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أي: ﴿فاسجدوا لله﴾ واعبدوه، ولا تعبدوا الآلهة.

* * *

سُورَةُ القَمَر

ترتيبها ٥٤ — آياتها ٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ نصفين. وقرىء (وقد انشقّ). أي: ﴿اقتربت الساعة﴾ وقد حصل من آيات اقترابها: أنّ القمر قد انشقّ؛ كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشّر بقدومه. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: رأيت حِرَاء بين فلقتي القمر. وقيل: معناه: ينشقّ يوم القيامة. والجمهور على الأوّل، وهو المرويُّ في الصحيحين. ولا يقال: لو انشقّ لما خفي على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقلوه متواتراً؛ لأنّ الطباع جبلت على نشر العجائب؛ لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم.

٢ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكّة ﴿آيَةً﴾ تدلّ على صدق محمّد ﷺ ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن الإيمان به ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ محكم قويّ؛ من المرّة: القوّة. أو: دائم مطّرد. أو: مارٌّ ذاهب، يزول، ولا يبقى.

٣ ـ ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبيّ ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زيّن لهم الشيطان من دفع الحقّ بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدهم الله ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ كائن في وقته. وقيل: ﴿كلّ﴾ ما قُدِّرَ واقع. وقيل: ﴿كلّ أمر﴾ من أمرهم واقع ﴿مستقرّ﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾

أي: سيثبت، ويستقرّ عند ظهور العقاب والثواب.

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية، أو: أنباء الآخرة، وما وُصِفَ من عذاب الكفّار ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجار عن الكفر. تقول: زجرته، وازدجرته، أي: منعته. والأصل: ازتجر، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً؛ لأنّ التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسبا. وهذا في آخر كتاب سيبويه.

٥ ـ ﴿حِكْمَةٌۢ﴾ بدل من ﴿ما﴾ أو على: هو ﴿حكمة﴾ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ نهاية الصواب أو: ﴿بالغة﴾ من الله إليهم ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ ﴿ما﴾ نفي. والنذر: مصدر بمعنى الإنذار.

٦ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك أنّ الإنذار لا يغني فيهم. نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بـ﴿يخرجون﴾؛ أو بإضمار اذكر. ﴿الداعي﴾ ﴿إلى الداعي﴾ سهل، ويعقوب، ومكّيّ فيهما. ووافق مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل. ومن أسقط الياء اكتفى بالكسرة عنها. وحذف الواو من: ﴿يدع﴾ في الكتابة لمتابعة اللفظ. و﴿الداعي﴾: إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنّها لم تعهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ﴿نكْر﴾ بالتخفيف مكّيّ.

٧ ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾[1] عراقيّ غير عاصم. وهو حال من الخارجين. وهو فعل للأبصار. وذكّر كما تقول: يخشع أبصارهم. غيرهم ﴿خُشَّعاً﴾ على يخشعن أبصارهم. وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ويجوز أن يكون في ﴿خشّعاً﴾ ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه. وخشوع الأبصار كناية عن الذلّة؛ لأنّ ذلّة الذّليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿خاشعاً﴾. وهي قراءة: عراقي غير عاصم كما نص على ذلك.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾

القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في كثرتهم، وتفرّقهم في كلِّ جهة. والجراد مثلٌ في الكثرة والتموّج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد.

٨ ـ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد.

٩ ـ ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكّة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً ـ عليه السلام ـ ومعنى تكرار التكذيب: أنّهم كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلّما مضى منهم قرن مكذّبٌ تبعه قرنٌ مكذّبٌ، أو: كذّبت ﴿قوم نوح﴾ الرسل ﴿فكذّبوا عبدنا﴾ أي: لمّا كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأساً كذّبوا نوحاً لأنّه من جملة الرسل ﴿وَقَالُوا۟: مَجْنُونٌ﴾ هو ﴿مجنون﴾ ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ وازدجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدّد بالقتل. أو: هو من جملة قيلهم. أي: ﴿قالوا﴾: هو ﴿مجنون﴾ وقد ازدجرته الجنّ، وتخبّطته، وذهبت بلبّه.

١٠ ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي: بأنّي ﴿مغلوب﴾ غلبني قومي فلم يسمعوا منّي، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم بعذابٍ تبعثه عليهم.

١١ ـ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿ففتّحنا﴾ شاميٌّ، ويزيدُ، وسهلٌ، ويعقوب ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ منصبّ في كثرة وتتابع، لم ينقطع أربعين يوماً.

١٢ ـ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلّها كأنّها عيون تتفجّر. وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: مياه السماء والأرض. وقرىء: (الماءان) أي: النوعان من الماء السماويّ والأرضيّ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حالٍ قدرها الله كيف شاء. أو: ﴿على أمر قد قدر﴾ في اللوح المحفوظ: أنّه يكون. وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾

١٣ ـ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها، وتؤدّي مؤدّاها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه:

... ... ولـ ـكنّ قميصي مسرودة من حديدِ(١)

أراد: ولكنَّ قميصي درع. ألا ترى أنّك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة لم يصحّ. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدسر: جمع دسار، وهو المسمار. فِعال. من: دسره: إذا دفعه؛ لأنّه يدسر به منفذه.

١٤ ـ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا، أو بحفظنا. و: ﴿بأعيننا﴾ حال من الضمير في ﴿تجري﴾ أي: محفوظة بنا ﴿جَزَآءً﴾ مفعول له لما قدّم من فتح أبواب السماء وما بعده. أي: فعلنا ذلك جزاءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وهو نوح عليه السلام. وجعله مكفوراً؛ لأنّ النبيَّ نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح نعمة مكفورة.

١٥ ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة أو الفعلة. أي: جعلناها ﴿ءَايَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجوديّ دهراً طويلاً حتّى نظر إليها أوائل هذه الأمّة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ، يتّعظ، ويعتبر. وأصله: مذتكر ـ بالذال والتاء ـ ولكن التاء أبدلت منها الدال، والدال والذال من موضع، فأدغمت الذال في الدال.

١٦ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ﴿ونذري﴾ يعقوب فيهما. وافقه سهل في الوصل. غيرهما بغير ياء. وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة.

١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ سهّلناه للادّكار والاتّعاظ؛ بأن شحنّاه

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره: مفرشي صهوةُ الحصان ولـ.

فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ يتّعظ؟ وقيل: ولقد سهّلناه للحفظ، وأعنّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالبٍ لحفظه ليعان عليه؟ ويروى: أنّ كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلاّ نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن.

١٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله. أو: إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم.

١٩ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردةً، أو شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشَّرِّ. فقد استمرّ عليهم حتّى أهلكهم. وكان في أربعاءَ في آخر الشهر.

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفّون آخذاً بعضهم بأيدي بعض، ويتداخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر، فيندسّون فيها، فتنزعهم، وتكبّهم، وتدقّ رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه، وشبّهوا بأعجاز النخل؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال. وذكّر صفة ﴿نخل﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنّث؛ كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٢٣، ٢٦ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ انتصب ﴿بشراً﴾ بفعل يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تقديره: أنتبع بشراً منّا واحداً ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ كان يقول: إن لم تتّبعوني كنتم في ضلال عن الحقّ ﴿وسعر﴾ ونيران؛ جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتّبعناك كنّا إذاً كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ، والبعد عن الصواب، والسعر: الجنون. وقولهم: ﴿أبشراً﴾ إنكار لأن يتّبعوا

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾

مثلهم في الجنسيّة، وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا: ﴿منّا﴾ لأنّه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا ﴿واحداً﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً. أو أرادوا ﴿واحداً﴾ من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم. ويدلّ عليه قوله: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بطر، متكبّر، حمله بطره وطلبه التعظّم علينا على ادّعاء ذلك ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أصالح أم من كذّبه؟ ﴿ستعلمون﴾ شاميّ وحمزة على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم. أو هو كلام الله على سبيل الالتفات.

٢٧ ـ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. وهو مفعول له، أو حال ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصّر ما هم صانعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتّى يأتيك أمري.

٢٨ ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم. وقال: ﴿بينهم﴾ تغليباً للعقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ محضور، يحضر القوم الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً.

٢٩ ـ ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة. أو: فتعاطى الناقة فعقرها. أو: فتعاطى السيف. وإنّما قال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧] في آية أخرى لرضاهم به؛ أو لأنّه عقر بمعونتهم.

٣٠، ٣١ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في اليوم الرابع من عقرها ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾. والهشيم: الشجر اليابس المتهشّم المتكسّر. و﴿المحتظر﴾: الذي يعمل الحظيرة. وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطّؤه البهائم، فيتحطّم ويتهشّم. وقرأ

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار؛ أي: الحظيرة.

٣٢، ٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار. ولذا صرفه. ويقال: لقيته بسحر: إذا لقيته في سحر يومه. وقيل: هما سحران. فالسحر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: عند انصداعه.

٣٥ ـ ﴿نِّعْمَةً﴾ مفعول له؛ أي: إنعاماً ﴿مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه، وطاعته.

٣٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ـ عليه السلام ـ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكذّبوا بالنذر متشاكّين.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ طلبوا الفاحشة من أضيافه ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم. وقيل: مسحناها، وجعلناها كسائر الوجه، لا يرى لها شقّ. روي: أنّهم لمّا عالجوا باب لوط ـ عليه السلام ـ ليدخلوا قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا. ﴿إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك﴾ فصفقهم جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه صفقة، فتركهم يتردّدون، لا يهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لـوط ﴿فَذُوقُوا۟﴾ فقلـت لهـم ﴿ذوقـوا﴾ على ألسنـة المـلائكـة ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أوّل النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم عذاب الآخرة.

٣٩، ٤٠ ـ وفائدة تكرير ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أن يجدّدوا عند استماع كلّ نبأ من أنباء الأوّلين ادّكاراً واتّعاظاً، وأن يستأنفوا

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾

تنبّهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثّ على ذلك والبعث عليه. وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كلّ نعمة عدّها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كلّ آية أوردها. وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصوّرة للأذهان، مذكورة غير منسيّة في كل أوان.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ موسى، وهارون، وغيرهما من الأنبياء. أو: هو جمع نذير، وهو الإنذار.

٤٢ ـ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

٤٣ ـ ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ الكفّار المعدودين: قوم نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وآل فرعون؛ أي: أهم خير قوّة، وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقلّ كفراً وعناداً؟ يعني: أنّ كفّاركم مثل أولئك، بل شرّ منهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكّة براءة في الكتب المتقدّمة: أنّ من كفر منكم وكذّب الرسل كان آمناً من عذاب الله، وأمنتم بتلك البراءة؟

٤٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ ـ جماعة أمرنا مجتمع ـ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام.

٤٥ ـ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ جمع أهل مكّة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، كما قال:

كلُوا في بَعْضِ بطنِكُمْ تَعِفُّوا[1] ... ...

أي: ينصرفون منهزمين. يعني: يوم بدر. وهذه من علامات النبوّة.

٤٦ ـ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم بعد بدر ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشدّ من

---

(١) صدر بيت، وعجزه: فإنّ زمانكم زمن خميص.

﴿وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾

موقف بدر. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يُهْتَدَىٰ لدوائه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا أو: أشدّ. من: المِرّة.

٤٧، ٤٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقّ في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة. أو في هلاك ونيران ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ يجرّون فيها ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد مسّ الحمّى، وذاق طعم الضرب؛ لأنّ النار إذا أصابتهم بحرّها فكأنّها تمسّهم مسّاً بذلك. و﴿سقر﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف لأنّها علم لجهنّم، من سقرته النار: إذا لوّحته.

٤٩ ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿كلَّ﴾: منصوب بفعل مضمر يفسّره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذّاً. والنصب أولى لأنّه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿خلقناه﴾ في موضع الجرّ وصفاً لشيء، ويكون الخبر ﴿بقدر﴾ وتقديره: ﴿إنّا كلّ شيء﴾ مخلوق لنا كائن ﴿بقدر﴾. ويحتمل أن يكون ﴿خلقناه﴾ هو الخبر، وتقديره: ﴿إنّا كلّ شيء﴾ مخلوق لنا ﴿بقدر﴾. فلمّا تردّد الأمر في الرفع عدل إلى النصب. وتقديره: إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر. فيكون الخلق عامّاً لكلّ شيء. وهو المراد بالآية. ولا يجوز في النصب أن يكون ﴿خلقناه﴾ صفة لشيء؛ لأنّه تفسير الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف. والقدْر والقدَر: التقدير. أي: بتقدير سابق. أو خلقنا كلَّ شيءٍ مقدّراً، محكماً، مرتّباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو: مقدّراً، مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علمناه حاله وزمانه. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر. فنزلت الآية[(١)]. وكان عمر يحلف أنّها نزلت في القدريّة.

٥٠ ـ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلّا كلمة واحدة. أي: ﴿وما أمرنا﴾ لشيء نريد تكوينه إلّا أن نقول له: كن؛ فيكون ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ على قدر ما يلمح أحدكم ببصره. وقيل: المراد بأمرنا: القيامة كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ
مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

٥١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ.

٥٢، ٥٣ ـ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: أولئك الكفّار. أي: ﴿وكلّ شيء﴾ مفعول لهم ثابت ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظة: فـ﴿فعلوه﴾: في موضع جرّ نعت لشيء. و﴿في الزبر﴾ خبر لكلّ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كلّ ما هو كائن ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور في اللوح.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ وأنهار. اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة، والضياء. ومنه: النهار.

٥٥ ـ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضيّ ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ عنديّة منزلة وكرامة، لا مسافة ومماسّة، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ قادر. وفائدة التنكير فيهما: أن يُعْلَمَ: أن لا شيء إلاّ وهو تحت ملكه وقدرته.

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

آياتها ٧٨ — ترتيبها ٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾

---

١ ـ ٤ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الجنس أو آدم أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ عدّد الله عزّ وجل آلاءه. فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وصنوف نعمائه وهي نعمة الدين. وقدَّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها، وأقصى مراقيها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، لأنّه أعظم وحي الله رتبةً، وأعلاه منزلةً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً. وهو سنام الكتب السماويّة ومصداقها، والعيار عليها. وأخّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره. ثمّ أتبعه إيّاه ليعلم أنّه إنّما خلقه للدين، وليحيط علماً بوحيه وكتبه. وقدّم ما خلق الإنسان من أجله عليه. ثمّ ذكر ما تميّز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير. و﴿الرحمن﴾ مبتدأ. وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف؛ لمجيئها على نمط التعديد. كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزّك بعد ذلّ، كثّرك بعد قلّة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. فما تنكر من إحسانه؟

٥، ٦ ـ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بحسابٍ معلوم، وتقديرٍ سويٍّ يجريان في

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

بروجهما ومنازلهما، وفي ذلك منافع للناس، منها علم السنين والحساب ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له؛ كالبقول ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساق ـ وقيل: النجم: نجوم السماء ـ ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلّفين في انقياده. واتّصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنويّ لما علم: أنّ الحسبان حسبانه، والسجود له لا لغيره، كأنّه قيل: ﴿الشمس والقمر﴾ بحسبانه، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ له. ولم يذكر العاطف في الجمل الأولِ ثمّ جيء به بعد، لأنّ الأولَ وردت على سبيل التعديد تبكيتاً لمن أنكر آلاءه؛ كما يبكَّت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال المذكور. ثمّ ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف. وبيان التناسب: أنّ الشمس والقمر سماويّان، والنجم والشجر أرضيّان. فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين. وأنّ جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله. فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

٧ ـ ٩ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعةً، مسموكةً حيث جعلها منشأ أحكامه، ومصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبّه بذلك على كبرياء شأنه، وملكه، وسلطانه ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: كلّ ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان، وقَرَسْطون، ومكيال، ومقياس. أي: خلقه موضوعاً على الأرض؛ حيث علّق به أحكام عباده من التسوية، والتعديل في أخذهم وإعطائهم ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ لـ ﴿ألاّ تطغوا﴾. أو هي ﴿أن﴾ المفسّرة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقوّموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكرّر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحثّ عليه.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾

١٠ ـ ١٣ ـ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوّة على الماء ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ للخلق، وهو كلّ ما على ظهر الأرض من دابّة. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: الإنس والجنّ. فهي كالمهاد لهم، يتصرّفون فوقها ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ ضروب ممّا يتفكّه به ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ هي أوعية الثمر. الواحد: كِمٌّ بكسر الكاف. أو كلّ ما يَكُم. أي: يغطّى من ليفه، وسعفه، وكُفُرَّاه. وكلّه منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره، وجمّاره، وجذوعه ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ هو ورق الزرع أو التبن ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ الرزق وهو اللبّ. أراد ﴿فيها﴾ ما يتلذّذ به من الفواكه، والجامع بين التلذّذ والتغذّي، وهو ثمر النخل، وما يتغذّى به وهو الحبّ ﴿والريحانِ﴾ بالجرّ حمزة وعليّ. أي: ﴿والحبّ ذو العصف﴾ الذي هو علف الأنعام، ﴿والريحان﴾ الذي هو مطعم الأنام. والرفع على ﴿و﴾ ذو ﴿الريحان﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه: ﴿و﴾ فيها ﴿الريحان﴾ الذي يشمّ ﴿والحبَّ ذا العصف والريحانَ﴾ شاميّ، أي: وخلق الحبّ والريحان. أو: وأخصُّ الحبَّ والريحان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: النعم ممّا عدد من أوّل السورة. جمع: أَلَىً، وإِلَىً ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين، بدلالة الأنام عليهما.

١٤ ـ ١٦ ـ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾ أي: الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف. ولا اختلاف في هذا وفي قوله: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩] لاتّفاقها معنى؛ لأنّه يفيد: أنّه خلقه من تراب جعله طيناً، ثمّ حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ أبا الجنّ. قيل: هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٖ﴾. هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار. من: مرج الشيء: إذا اضطرب، واختلط ﴿مِّن نَّارٖ﴾ هو بيان لمارج؛ كأنّه قيل: من صاف ﴿من نار﴾ أو مختلط ﴿من نار﴾ أو أراد: ﴿من نار﴾ مخصوصة

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ

كقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٧، ١٨ ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٩، ٢٣ ـ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين، لا فصل بين المائين في مرأى العين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوزان حدّيهما، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ﴿يُخرج﴾ مدنيّ وبصريّ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ وبلا همز، أبو بكر ويزيد. وهو كبار الدرّ ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغاره. وإنّما قال: منهما، وهما يخرجان من الملح؛ لأنّهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنّما خرجت من مَحَلّةٍ من محالّه. وقيل: لا يخرجان إلّا من ملتقى الملح والعذب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَلَهُ﴾ ولله ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن. جميع جارية. قال الزجاج: الوقف عليها بالياء. والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على بعد. ولكن يروم الكسر في الراء؛ ليدلّ على حذف الياء ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعات الشُّرَّع. ﴿المنشِئات﴾ بكسر الشين، حمزة ويحيى، الرافعات الشُّروع. أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾

وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾

ذو العظمة والسلطان ـ وهو صفة الوجه ـ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. وفي الحديث: «أَلِظّوا بياذا الجلال والإكرام»[(١)] وروي: أنّه ﷺ مرّ برجل وهو يصلّي، ويقول: يا ذا الجلال والإكرام. فقال: «قد استجيب لك»[(٢)] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة في الفناء باعتبار أنّ المؤمنين به يصلون إلى النعيم السرمد. وقال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يقرّب الحبيب إلى الحبيب.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقف عليها نافع. كلٌّ من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه، فيسأله أهل السموات ما يتعلّق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم. وينصب ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرفاً لما دلّ عليه ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي: كلّ وقت وحين يحدث أموراً ويجدّد أحوالاً. كما روي: أنه ﷺ تلاها، فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[(٣)]. وعن ابن عيينة: الدهر عند الله يومان: أحدهما اليوم الذي هو مدّة الدنيا، فشأنه فيه الأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع. والآخر يوم القيامة. فشأنه فيه الجزاء والحساب. وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شأناً. وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية فاستمهله إلى الغد، وذهب كئيباً يفكّر فيها، فقال غلام له أسود: يا مولاي! أخبرني ما أصابك لعلّ الله يسهل لك على يدي. فأخبره. فقال: أنا أفسرّها للملك. فأعلمه. فقال: أيها الملك! شأن الله: أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميّت. ويخرج الميّت من الحيّ، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلى، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ عزيزاً، ويفقر غنياً، ويغني فقيراً. فقال الأمير: أحسنت.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٥).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٦) والترمذي (٣٥٢٧).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان في صحيحه (٦٨٩).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾

وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله. وقيل: سوق المقادير إلى المواقيت. وقيل: إنّ عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحّ: أنّ الندم توبة، وقوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ وقد صحّ: أنّ القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألاّ يكون الندم توبة في تلك الأمّة ويكون توبة في هذه الأمة. وقيل: إنّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وكذا قيل: ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾ مخصوص بقوم إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ وأما قوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فإنّها شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها، فقام عبد الله، وقبّل رأسه، وسوّغ خراجه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣١، ٣٢ ـ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدّده: سأفرغ لك، يريد: سأتجرد للإيقاع بك من كلّ ما يشغلني عنه. والمراد: التوفّر على النكاية فيه، والانتقام منه. ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فلا يبقى إلاّ شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل. ﴿سيفرغ﴾ حمزة وعليّ. أي: الله تعالى ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجنّ؛ سمّيا بذلك؛ لأنهما ثقلا الأرض ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٦ ـ ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هو كالترجمة لقوله ﴿أيّها الثقلان﴾ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هرباً من قضائي فاخرجوا. ثمّ قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ بقوّة وقهر وغلبة. وأنّى لكم ذلك؟ وقيل: دلّهم على العجز عن قوّتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأقطار اليوم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ

وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحدق بهم الملائكة. فإذا رآهم الجنّ والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلاّ وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وبكسر الشين مكّي، وكلاهما اللهب الخالص ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان ﴿ونحاسٍ﴾ مكّيّ وأبو عمرو. فالرفع عطف على ﴿شواظ﴾. والجرّ على ﴿نار﴾. والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكما لهب خالص من النار، ودخان لتسوقكم إلى المحشر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تُمنعان منهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٧، ٤٥ ـ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ انفكّ بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر. وقيل: أصل لون السماء الحمرة، ولكن من بُعدها ترى زرقاء ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت. كما قال: ﴿كالمهل﴾ وهو درديّ الزيت. وهو جمع دهن. وقيل: ﴿الدهان﴾ الأديم الأحمر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيوم تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: ولا جنّ. فوضع الجانّ الذي هو أبو الجنّ موضع الجنّ؛ كما يقال: هاشم ويراد ولده. والتقدير: لا يسأل إنس ولا جانّ عن ذنبه. والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أنّ ذلك يوم طويل وفيه مواطن، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر. وقال قتادة ـ رحمه الله ـ: قد كانت مسألة، ثمّ ختم على أفواه القوم، وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾ ليعلم من جهته، ولكن يسأل للتوبيخ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: يؤخذ تارةً بالنواصي، وتارةً بالأقدام ﴿فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماء حارّ قد انتهى حرّه. أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة في هذا: نجاة الناجي منه بفضله ورحمته، وما في الإنذار به من التنبيه.

٤٦ ـ ٦١ ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة، فيترك المعاصيَ، أو: فأدّي الفرائض. وقيل: هو مقحم كقوله: ونفيت عنه مقام الذئب، أي: ونفيت عنه الذئب ﴿جَنَّتَانِ﴾ جنّة الإنس وجنّة الجنّ؛ لأنّ الخطاب للثقلين، وكأنه قيل: لكلّ خائفين منكما جنّتان، جنّة للخائف الإنسيّ، وجنّة للخائف الجنيّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أغصان. جمع فنن، وخص الأفنان؛ لأنّها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتدّ الظلال، ومنها تجتنى الثمار. أو: ألوان. جمع فنّ. أي: له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. قال:

ومن كلّ أفنانِ اللذاذة والصِّبا لهوتُ به والعيشُ أخضرُ ناضرُ

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا﴾ في الجنّتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: تجريان بالماء الزلال إحداهما: التسنيم والأخرى: السلسبيل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان، صنف معروف وصنف غريب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على المدح للخائفين، أو: حال منهم؛ لأنّ ﴿من خاف﴾ في معنى الجمع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جمع فراش ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع: بطانة ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ديباج ثخين، وهو معرَّب. قيل: ظهائرها من سندس. وقيل: لا يعلمها إلاّ الله ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وثمرها قريب يناله القائم، والقاعد، والمتكىء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنّتين، لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس. أو: في هذه الآلاء المعدودة من الجنّتين، والعينين، والفاكهة، والفرش، والجنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ [بكسر الميم: الدوريّ][(١)] وعليٌّ: بضمّ الميم. والطمث: الجماع بالتدمية، ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾. وهذا دليل: على أنّ الجنّ يطمثون كما يطمث الإنس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ صفاءً ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ بياضاً، فهو أبيض من اللؤلؤ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب. وقيل: ما جزاء من قال: لا إله إلاّ الله إلاّ الجنّة. وعن إبراهيم الخوّاص فيه: هل جزاء الإسلام؛ إلاّ دار السلام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٢، ٧٧ ـ ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ ومن دون تينك الجنّتين الموعودتين للمقرّبين، ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ سوداوان من شدّة الخضرة. قال الخليل: الدهمة: السواد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوّارتان بالماء لا تنقطعان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ ألوان الفواكه ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. والرمّان والتمر ليسا من الفواكه عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ للعطف؛ ولأنّ التمر فاكهةٌ وطعام، والرمّان فاكهةٌ ودواء. فلم يخلصا للتفكّه. وهما قالا: إنّما عطفا على الفاكهة لفضلهما؛ كأنّهما جنسان آخران لما لهما من المزيّة، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيّرات. فخفّفت. وقرىء ﴿خيّرات﴾ على الأصل. والمعنى: فاضلات الأخلاق، حسان

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واستدرك من المطبوع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾

الخَلْق ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: مخدَّرات. يقال: امرأة قصيرة، ومقصورة، أي: مخدّرة. وقيل: الخيام من الدرّ المجوّف ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أصحاب الجنّتين. ودلّ عليهم ذكر الجنّتين ﴿وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ هو كلّ ثوب عريض. وقيل: الوسائد ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ﴾ ديباج، أو: طنافس ﴿حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإنّما تقاصرت صفات هاتين الجنّتين عن الأوليين، حتّى قيل: ﴿ومن دونهما﴾، لأنّ ﴿مدهامّتان﴾ دون ﴿ذواتا أفنان﴾، و﴿نضّاختان﴾ دون ﴿تجريان﴾، و﴿فاكهة﴾ دون ﴿كلِّ فاكهة﴾، وكذلك صفة الحور والمتّكأ.

٧٨ ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ ذي العظمة ﴿ذو الجلال﴾ شاميّ صفة للاسم ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ لأوليائه بالإنعام.

روى جابر: أنّ النبيّ ﷺ قرأ سورة الرحمن فقال: «مالي أراكم سكوتاً؟! الجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً، ما أتيت على قول الله ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ إلاّ قالوا: ولا بشيءٍ من نعمك ربّنا نكذِّب، فلك الحمد، ولك الشكر»(١).

وكرّرت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرّة: ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم؛ ثمّ: سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنّم؛ وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنّتين وأهلهما على عدد أبواب الجنّة، وثمانية أخرى بعدها للجنّتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنّة، وغلقت عنه أبواب جهنّم.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

ترتيبها ٥٦ آياتها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾

١ ـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة. وقيل: وصفت بالوقوع؛ لأنّها تقع لا محالة. فكأنّه قيل: إذا وقعت لا بدّ من وقوعها. ووقوع الأمر: نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقّعه. أي: نزل ما كنت أترقّب نزوله. وانتصاب ﴿إذا﴾ بإضمار اذكر.

٢ ـ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ نفس ﴿كاذبة﴾. أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله، وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأنّ كلّ نفس حينئذٍ مؤمنةٌ صادقةٌ مصدّقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

٣ ـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: هي ﴿خافضة رافعة﴾ ترفع أقواماً وتضع آخرين.

٤ ـ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ حرّكت تحريكاً شديداً حتّى يتهدّم كلُّ شيءٍ فوقها من جبلٍ وبناء. وهو بدل من ﴿إذا وقعت﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾. أي: تخفض وترفع وقت رجّ الأرض، وبسّ الجبال.

وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾

---

٥ ـ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ وفتّتت حتّى تعود كالسويق. أو: سيقت. من: بَسَّ الغنم: إذا ساقها كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠].

٦ ـ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾ غباراً ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرّقاً.

٧ ـ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً. يقال للأصناف التي بعضها من بعض أو يذكر بعضها مع بعض: أزواج ﴿ثَلَٰثَةً﴾ صنفان في الجنّة، وصنف في النار. ثمّ فسّر الأزواج فقال:

٨ ـ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ. وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر المبتدأ الأوّل. وهو تعجيب من حالهم في السعادة، وتعظيم لشأنهم. كأنّه قال: ما هم؟ وأيّ شيء هم؟

٩ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم. أو: أصحاب المنزلة السنيّة، وأصحاب المنزلة الدنيّة الخسيسة. من قولك: فلان منّي باليمين، وفلان منّي بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة. وذلك لتيمّنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأهل النار ذات الشمال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أيّ شيء هم؟ وهو تعجيب من حالهم في الشّقاء.

١٠، ١١ ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ خبره. تقديره: ﴿السابقون﴾ إلى الخيرات ﴿السابقون﴾ إلى الجنّات. وقيل: الثاني تأكيد للأوّل. والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والأوّل أوجه.

١٢ ـ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: هم ﴿في جنّات النعيم﴾.

١٣، ١٤ ـ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: هم ﴿ثلّة﴾. والثلّة: الأمّة من الناس الكثيرة. والمعنى: أنّ السابقين كثير ﴿من الأولين﴾ وهم الأمم

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

من لدن آدم إلى نبينا محمد عليهما السلام ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمّة محمّد ﷺ. وقيل: ﴿من الأوّلين﴾ من متقدّمي هذه الأمّة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخّريها. وعن النبي ﷺ: «الثلّتان جميعاً من أمّتي»(١).

١٥ ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير؛ ككثيب، وكثب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة، منسوجة بالذهب، مشبّكة بالدرّ والياقوت.

١٦ ـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير في ﴿على﴾ وهو العامل فيها. أي: استقرّوا عليها ﴿متكئين﴾ ﴿عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض. وصفوا بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودّة. و﴿متقابلين﴾ حال أيضاً.

١٧ ـ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ غلمان. جمع: وليد ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان، لا يتحوّلون عنه. وقيل: مقرَّطون. والخُلَدَةُ: القرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيّئات فيعاقبوا عليها. وفي الحديث: «أولاد الكفّار خدّام أهل الجنة»(٢).

١٨ ـ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب. وهي: آنية لا عروة لها، ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق. وهو: ما له خرطوم، وعروة ﴿وَكَأْسٍ﴾ وقدح فيه شراب، وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمرٍ تجري من العيون.

١٩ ـ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها. وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. أو: لا يفرّقون عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا يسكرون. نُزِفَ الرجل: ذهب عقله بالسكر ﴿ولا ينزِفون﴾ بكسر الزاي: كوفيٌّ. أي: لا ينفد شرابهم. يقال: أنزف القوم: إذا فني شرابهم.

(١) رواه الطبري وابن عدي. (حاشية الكشاف ٤/٤٥٨).
(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٢) وانظر مجمع الزوائد (٧/٢١٩).

وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ
ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا
سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾
وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

٢٠ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله.

٢١ ـ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنّون.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء. أي: ﴿و﴾ فيها ﴿حور عين﴾ أو ﴿و﴾ لهم ﴿حور عين﴾. ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ولدان﴾. و﴿حورٍ﴾ يزيد، وحمزة، وعليٌّ عطفاً على ﴿جنّات النعيم﴾ كأنّه قال: هم في جنّات وفاكهة ولحم وحور ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ﴾ في الصفاء، والنقاء ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون. وقال الزجّاج: كأمثال الدرّ حين يخرج من صدفه، لم يغيّره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال.

٢٤ ـ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جزاءً﴾: مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كلّه لجزاء أعمالهم. أو: مصدر. أي: يجزون ﴿جزاء﴾.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هذياناً ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إلاّ قولاً ذا سلامة. والاستثناء منقطع. و﴿سلاماً﴾ بدل من ﴿قيلاً﴾ أو مفعول به لـ﴿قيلاً﴾. أي: ﴿لا يسمعون فيها﴾ إلاّ أن يقولوا ﴿سلاماً سلاماً﴾. والمعنى: أنهّم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد سلام.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر: شجر النبق. والمخضود: الذي لا شوك له؛ كأنّما خضد شوكه.

٢٩ ـ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز. والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة.

٣٠ ـ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتدّ منبسط كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾

٣١ ـ ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ جارٍ بلا حدٍّ ولا خدٍّ. أي: يجري على الأرض في غير أخدود.

٣٢، ٣٣ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أي: كثيرة الأجناس ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا، بل هي دائمة ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه. وقيل: ﴿لا مقطوعة﴾ بالأزمان، ﴿ولا ممنوعة﴾ بالأثمان.

٣٤، ٣٨ ـ ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر. أو: نضدت حتّى ارتفعت. أو: ﴿مرفوعة﴾ على الأسرّة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش. ﴿مرفوعة﴾ على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦] ويدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ ابتدأنا خلقهنّ ابتداء من غير ولادة. فإمّا أن يراد: اللاتي ابتدىء إنشاؤهنّ، أو: اللاتي أعيد إنشاؤهنّ. وعلى غير هذا التأويل أضمر لهنّ؛ لأنّ ذكر الفرش ـ وهي المضاجع ـ دلّ عليهنّ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ عذارى، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً ﴿عُرُبًا﴾ حمزة، وخلف، ويحيى، وحماد. جمع: عروب، وهي: المتحبّبة إلى زوجها، الحسنة التبعّل ﴿أَتۡرَابٗا﴾ مستويات في السنّ، بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ كذلك. واللام في: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ من صلة ﴿أنشأنا﴾

٣٩، ٤٠ ـ ﴿ثُلَّةٞ﴾ أي: أصحاب اليمين ثلّة ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾. فإن قلت: كيف قال قبل هذا: ﴿وقيل من الآخرين﴾ ثمّ قال هنا: ﴿وثلة من الآخرين﴾؟ قلت: ذاك في السابقين، وهذا في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأوّلين والآخرين جميعاً. وعن الحسن: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة.

٤١ ـ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الشمال والمشأمة واحدة.

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

٤٢ ـ ﴿فِي سَمُومٍ﴾ في حرّ نار تنفذ في المسامّ ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء حارّ متناهي الحرارة.

٤٣ ـ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود.

٤٤ ـ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفي لصفتي الظلّ عنه؛ يريد أنّه ظلّ، ولكن لا كسائر الظلال. سمّاه ظلاًّ، ثمّ نفى عنه برد الظلّ ورَوْحَه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحرّ ـ وذلك كرمه ـ ليمحق ما في مدلول الظلّ من الاسترواح إليه. والمعنى: أنه ظِلٌّ حارّ ضارّ.

٤٥، ٤٦ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعّمين. فمنعهم ذلك عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: على الذنب العظيم. أو: على الشرك؛ لأنه نقض عهد الميثاق. والحنث: نقض العهد المؤكّد باليمين. أو: الكفر بالبعث. بدليل قوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

٤٧ ـ ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تقديره: ﴿أ﴾ نبعث ﴿إذا متنا﴾. وهو العامل في الظرف. وجاز حذفه؛ إذ ﴿مبعوثون﴾ يدلّ عليه. ولا يعمل فيه ﴿مبعوثون﴾؛ لأنّ ﴿إنّ﴾ والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما.

٤٨ ـ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. وحسن العطف على المضمر في: ﴿لمبعوثون﴾ من غير تأكيدٍ بنحن، للفاصل الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ لفصل لا المؤكدة للنفي ﴿أوْ آباؤنا﴾ مدنيٌّ، وشاميٌّ.

٤٩، ٥٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وُقِّت

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى: مِنْ؛ كخاتم فضّة. والميقات: ما وقّت به الشيء. أي: حدّ. ومنه: مواقيت الإحرام. وهي: الحدود التي لا يجاوزها من يريد دخول مكّة إلاّ محرماً.

٥١ ـ ٥٥ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، وهم أهل مكّة ومَنْ في مثل حالهم ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ﴾، ﴿من﴾: لابتداء الغاية ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾، ﴿من﴾: لبيان الشجر ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ـ أنّث ضمير الشجر على المعنى، وذكّره على اللفظ في ﴿منها﴾ و﴿عليه﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾ بضمّ الشين مدنيّ، وعاصم، وحمزة، وسهل. وبفتح الشين غيرهم. وهما مصدران ﴿ٱلْهِيمِ﴾ هي إبل عطاش لا تَروَى. جمع: أهيم وهيماء. والمعنى: أنه يسلّط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقّوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه البطون؛ سُلِّطَ عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يُقطِّع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم. وإنّما صحّ عطف الشاربين على الشاربين ـ وهما لذوات متّفقة وصفتين مختلفتين؛ لأنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً. فكانتا صفتين مختلفتين.

٥٦ ـ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ هو الرزق الذي يعدّ للنازل تكرمةً له ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

٥٧ ـ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا﴾ فهلاّ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إمّا بالخلق؛ لأنّهم وإن كانوا مصدّقين به إلاّ أنّه لمّا كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنّهم يُكذِّبون به؛ وإمّا بالبعث؛ لأنّ من خلق أوّلاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

٥٨ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تمنونه؛ أي: تقذفونه في الأرحام من النطف.

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ
أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾

٥٩ ـ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تقدّرونه، وتصوّرونه، وتجعلونه بشراً سويّاً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

٦٠ ـ ٦٢ ـ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ تقديراً، وقسمناه عليكم قسمةَ الأرزاق على اختلافٍ وتفاوتٍ؛ كما تقتضيه مشيئتنا. فاختلفت أعماركم من قصير، وطويل، ومتوسّط. ﴿قدرنا﴾ بالتخفيف مكيٌّ. سبقته بالشيء: إذا أعجزته عنه، وغلبته عليه، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أنّا قادرون على ذلك لا تغلبونني عليه. و﴿أمثالكم﴾ جمع: مِثْل؛ أي: ﴿على أن نبدّل﴾منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ ﴿و﴾ على أن ﴿ننشئكم في﴾ خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنا نقدر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم. فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أمثالكم﴾ جمع مِثْل؛ أي: ﴿على أن نبدّل﴾ ونغيّر صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿النشاءة﴾ مكيٌّ، وأبو عمرو ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ من قدر على شيءٍ مرّةً لم يمتنع عليه ثانياً. وفيه دليل صحّة القياس؛ حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

٦٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ما تحرثونه من الطعام؛ أي: تثيرون أرضه، وتلقون فيها البَذْرَ.

٦٤ ـ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه وتردّونه نباتاً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون. وفي الحديث: «لا يقولنّ أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت»[1].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣) والبزار كما في كشف الأستار (١٢٨٩) والبيهقي (٦/١٣٨) وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٦٧).

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ
جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

٦٥ ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ هشيماً متكسّراً قبل إدراكه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَعَجَّبُون، أو تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه، أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها.

٦٦، ٦٧ ـ ﴿إِنَّا﴾ أي: تقولون: ﴿إنّا﴾ ـ ﴿أئنا﴾ أبو بكر ـ ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمون غرامةَ ما أنفقنا. أو مهلكون لهلاك رزقنا. من: الغرام، وهو: الهلاك، ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارَفون، محدودون، لا مجدودون، لا حظّ لنا، ولا بخت لنا. ولو كنّا مجدودين لما جرى علينا هذا.

٦٨، ٦٩ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي: الماء العذب الصالح للشرب ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب الأبيض، وهو أعذب ماء ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا؟

٧٠ ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً، أو: مرّاً لا يُقْدَر على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلّا ﴿تشكرون﴾. ودخلت اللام على جواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿لجعلناه حطاماً﴾ ونزعت منه هنا؛ لأنّ ﴿لو﴾ لمّا كانت داخلة على جملتين معلّقة ثانيتهما بالأولى تعلّق الجزاء بالشرط ولم تكن مُخْلَصَةً للشرط كإن، ولا عاملة مثلها، وإنّما سرى فيها معنى الشرط اتّفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها: أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلّق فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك، ولمّا شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كلّ أحد به، وتساوي حالي حذفه وإثباته، على أنّ تقدّم ذكرها والمسافة قصيرةٌ مغنٍ عن ذكرها ثانية، ولأنّ هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أنّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأنّ الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قِبَل: أنّ المشروب إنّما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾

٧١ ـ ٧٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد ـ والعرب تقدح بعودين تحكّ أحدهما على الآخر، ويسمّون الأعلى: الزند، والأسفل: الزندة، شبّهوهما بالفحل والطروقة ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيراً لنار جهنّم، حيث علّقنا بها أسباب المعاش، وعمّمنا بالحاجة إليها البلوى؛ لتكون حاضرةً للناس ينظرون إليها، ويذكرون ما أوعدوا به ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين النازلين في القَواء، وهي: القفر. أو: للذين خلت بطونهم، أو مزاودهم من الطعام. من قولهم: أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها. بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ لأنّ النعمة فيه سابقة على جميع النعم. ثمّ بما به قوامه، وهو: الحبّ، فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ثمّ بما يعجن به ويشرب عليه، وهو: الماء، ثمّ بما يخبز به، وهو: النار. فحصول الطعام بمجموع الثلاثة، ولا يستغني عنه الجسد مادام حيّاً.

٧٤ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزّه ربّك عمّا لا يليق به أيها المستمع المستدلّ. أو أراد بالاسم: الذكر. أي: ﴿فسبّح﴾ بذكر ﴿ربّك العظيم﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه. وقيل: قل: سبحان ربّي العظيم. وجاء مرفوعاً: أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»[(١)].

٧٥ ـ ٧٧ ـ ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: فأقسم و﴿لا﴾ مزيدة مؤكّدة، مِثْلُها في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرىء (فلا قسم) ومعناه: فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء أُدخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسم ثمّ حذف المبتدأ. ولا يصحّ أن تكوّن اللام لام القسم؛ لأنّ حقّها أن تقرن بها النون المؤكّدة ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها ﴿بموقع﴾ حمزة،

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩).

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾

وعليٌّ. ولعلّ لله تعالى في آخر الليل إذا انحطّت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة، أو: للملائكة عباداتٍ موصوفة، أو: لأنّه وقت قيام المتهجّدين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها، واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وهو اعتراض في اعتراض؛ لأنه اعترض به بين القسم والمقسم عليه. وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضيّ، أو نفّاع جمّ المنافع. أو ﴿كريم﴾ على الله، واعترض بـ ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وصفته.

٧٨ ـ ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَّكْنُونٍ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل. أو من غير المقرّبين من الملائكة لا يطّلع عليه مَنْ سواهم.

٧٩ ـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من جميع الأدناس؛ أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون، وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّه إلاّ من هو على الطهارة من الناس، والمراد: مسّ المكتوب منه.

٨٠ ـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أو: وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله، فكأنّه في نفسه تنزيل. ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو: هو ﴿تنزيل﴾ على حذف المبتدأ.

٨١ ـ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون به؛ كمن يدهن في بعض الأمر، أي: يلين جانبه، ولا يتصلّب فيه تهاوناً به.

٨٢ ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب، أي: وضعتم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وهي[1]

(١) في الكشاف: وقيل: هي. الكشاف (٤/٥٩).

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾

قراءة رسول الله ﷺ ـ (وتجعلون شكركم أنكم تكذّبون) أي: (تجعلون شكركم) لنعمة القرآن ﴿أنكم تكذّبون﴾ به. وقيل: نزلت في الأنواء، ونسبتهم السقيا إليها. والرزق: المطر. أي: ﴿وتجعلون﴾ شكر ما يرزقكم الله من الغيث ﴿أنكم تكذّبون﴾ بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

٨٣ ـ ٨٧ ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، أي: الروح عند الموت ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ ممرّ الطعام والشراب ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الخطاب لمن حضر الميّت تلك الساعة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تعقلون ولا تعلمون ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مربوبين. من: دان السلطان الرعيّة: إذا ساسهم ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ تردّون النفس، وهي الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم غير مربوبين مقهورين. ﴿فلولا﴾ في الآيتين للتحضيض يستدعي فعلاً، وذا قوله: ﴿ترجعونها﴾ واكتفى بذكره مرّة. وترتيب الآية ﴿فلولا﴾ ترجعونها ﴿إذا بلغت الحلقوم﴾ إن كنتم غير مدينين. و﴿فلولا﴾ الثانية مكرّرة للتأكيد. ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ ياأهل الميّت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت. والمعنى: أنكم في جحودكم آيات الله في كلّ شيء: إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم: سحرٌ وافتراءٌ، وإن أرسل إليكم رسولاً صادقاً قلتم: ساحرٌ كذّابٌ، وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا؛ على مذهبٍ يؤدّي إلى الإهمال والتعطيل. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمّة قابض، وكنتم صادقين في تعطيلكم، وكفركم بالمحيي، المميت، المبدىء، المعيد؟!

٨٨، ٨٩ ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

٩٠، ٩١ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فسلامٌ لك﴾ ياصاحب اليمين ﴿من﴾ إخوانك ﴿أصحاب اليمين﴾ أي: يسلّمون عليك؛ كقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

٩٢ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قيل لهم في هذه السورة: ﴿ثمّ إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون﴾.

٩٣، ٩٤ ـ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال فيها. وفي هذه الآيات إشارة إلى أنّ الكفر كلّه ملّةٌ واحدةٌ، وأنّ أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنّهم غير مكذّبين.

٩٥، ٩٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الحقّ الثابت من اليقين، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وروي: أنّ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ دخل على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في مرض موته فقال له: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي. فقال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال: ألا نأمر بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: ندفعه إلى بناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه. قد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة. فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً»[(١)]. وليس في هذه السور الثلاث ذكر الله (اقتربت، الرحمن، الواقعة)[(٢)].

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٢٦) والحارث بن أبي أسامة كما في المطالب العالية (٣/ ٣٨٣).
(٢) أي: لفظ الجلالة (الله) لم يرد في هذه السور الثلاث المذكورة.

سُورَةُ الحَدِيدِ

ترتيبها ٥٧ — آياتها ٢٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ

---

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء في بعض الفواتح ﴿سبّح﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بني إسرائيل بلفظ المصدر، وفي الأعلى بلفظ الأمر، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها. وهي أربع: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل قد عدّي باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وتسبّحوه﴾. وأصله: التعدّي بنفسه؛ لأنّ معنى سبحته: بعّدته عن السوء، منقول من سَبَحَ: إذا ذهب وبعد. فاللام إمّا أن تكون مثل اللام في: نصحته، ونصحت له، وإمّا أن يراد بـ﴿سبّح لله﴾ اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنتقم من مكلّف لم يسبّح له عناداً، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في مجازاة من سبّح له انقياداً.

٢ ـ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا لغيره. وموضع ﴿يُحۡيِۦ﴾ رفع. أي: هو ﴿يحيي﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء. أو: نصب؛ أي: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ محيياً، ومميتاً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

٣ ـ ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ هو القديم الذي كان قبل كلّ شيء ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي يبقى

وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ

بعد هلاك كلّ شيءٍ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلّة الدالّة عليه ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواسّ وإن كان مرئيّاً. والواو الأولى معناها: الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأوّليّة والآخريّة، والثالثة على أنّه الجامع بين الظهور والخفاء، وأمّا الوسطى فعلى أنّه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمرُّ الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. وهو في جميعها ظاهر وباطن. وقيل: ﴿الظاهر﴾: العالي على كلّ شيءٍ، الغالب له، من: ظهر عليه: إذا علاه وغلبه ﴿والباطن﴾: الذي بطن كلّ شيءٍ؛ أي: علم باطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن: «من أيام الدنيا». ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستّة أصلاً؛ ليكون عليها المدار ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يدخل في الأرض من البذر، والقطر، والكنوز، والموتى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموماً، وبالفضل والرحمة خصوصاً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥، ٦ ـ ﴿لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يدخل الليل في النهار، بأن ينقص من الليل، ويزيد في النهار ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٧ ـ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟﴾ يحتمل الزكاة، والإنفاق في سبيل الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أنّ الأموال التي في أيديكم إنّما هي أموال الله

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾

بخلقه وإنشائه لها. وإنما مولّكم إيّاها للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرّف فيها. فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلاّ بمنزلة الوكلاء والنوّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله، ولْيَهُنْ عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه. أو: ﴿جعلكم مستخلفين﴾ ممن كان قبلكم بتوريثه إيّاكم، وسينتقل منكم إلى من بعدكم، فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٨ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ هو حال من معنى الفعل في ﴿مالكم﴾ كما تقول: مالك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؟ أي: ﴿ومالكم﴾ كافرين بالله. والواو في ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال. فهما حالان متداخلتان. والمعنى: وأيّ عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾ ﴿و﴾ قبل ذلك ﴿قد أخذ﴾ الله ﴿ميثاقكم﴾ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أو بما ركّب فيكم من العقول، ومكّنكم من النظر في الأدلّة. فإذا لم تبق لكم علّة بعد أدلّة العقول، وتنبيه الرسول، فمالكم لا تؤمنون ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما؟ فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. ﴿أُخِذ ميثاقكم﴾ أبو عمرو.

٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله تعالى أو: محمّد بدعوته ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بالمدّ والهمزة، حجازيّ، وشاميّ، وحفص ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: أشدّ الرحمة.

١٠ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ في ألا تنفقوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يرث كل شيءٍ فيهما، لا يبقى منه باقٍ لأحدٍ من مالٍ وغيره. يعني: وأيُّ

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾

غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، والجهاد مع رسوله، والله مهلككم، فوارث أموالكم. وهو من أبلغ البعث في الإنفاق في سبيل الله. ثمّ بيّن التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي: فتح مكّة قبل عزّ الإسلام وقوّة أهله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف، لأنّ قوله: ﴿من الذين أنفقوا من بعد﴾ يدلّ عليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح ـ ﴿و﴾ هم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الذين قال فيهم النبيّ ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[(١)] ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحدٍ من الفريقين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنّة مع تفاوت الدرجات. فـ: ﴿كلاًّ﴾ مفعول أوّل لوعد. و﴿الحسنى﴾ مفعول ثانٍ. ﴿وكلٌّ﴾ شاميّ. أي: ﴿وكل﴾ وعده ﴿الله الحسنى﴾: قيل: نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأنّه أوّل من أسلم، وأوّل من أنفق في سبيل الله. وفيه دليل على فضله وتقدّمه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

١١ ـ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب نفسه. والمراد: الإنفاق في سبيله. واستعير لفظ القرض ليدلّ على التزام الجزاء ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً من فضله ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف ﴿كريم﴾ في نفسه ﴿فيضعّفُهُ﴾ مكّيّ ﴿فيضعّفَهُ﴾ شاميّ ﴿فيضاعفَهُ﴾ عاصم، وسهل ﴿فيضاعفُهُ﴾ غيرهم. فالنصب على جواب الاستفهام، والرفع على: فهو يضاعفه، أو عطف على ﴿يقرض﴾.

١٢ ـ ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرف لقوله: ﴿وله أجر كريم﴾ أو: منصوب بإضمار «اذكر» تعظيماً لذلك اليوم ﴿يَسْعَىٰ﴾ يمضي ﴿نُورُهُم﴾ نور

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠).

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾

التوحيد والطاعات. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين؛ كما أنّ الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم، وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنّة ومرّوا على الصراط يسعون، سَعَى بسعيهم ذلك النور، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ أي: دخول جنّات؛ لأنّ البشارة تقع بالأجداث دون الجثث ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣ ـ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ هو بدل من ﴿يوم ترى﴾ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا؛ لأنّه يُسْرَع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة ﴿أنظِرونا﴾ حمزة، من: النَّظِرة، وهي الإمهال، جُعِلَتْ اتئادهم في المضيّ إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ طرد لهم وتهكّم بهم. أي: تقول لهم الملائكة، أو: المؤمنون ﴿ارجعوا﴾ إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور، فالتمسوا هنالك، فمن ثمّ يقتبس. أو: ﴿ارجعوا﴾ إلى الدنيا ﴿فالتمسوا نوراً﴾ بتحصيل سببه، وهو الإيمان ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط حائل بين شقّ الجنّة وشقّ النار ـ قيل: هو الأعراف ـ ﴿لَّهُ﴾ لذلك السور ﴿بَابٌ﴾ لأهل الجنّة يدخلون منه ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطن السور، أو الباب، وهو الشقّ الذي يلي الجنّة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: النور، أو الجنّة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من عنده، ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أي: الظلمة، أو: النار.

١٤ ـ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون مرافقتهم في الظاهر ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في

وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

التوحيد ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ طول الآمال، والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وغرّكم الشيطان بأنّ الله عفوّ كريم، لا يعذّبكم، أو: بأنه: لا بعث ولا حساب.

١٥ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ وبالتاء شاميٌّ. ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ﴾ مرجعكم ﴿ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ هي أولى بكم، وحقيقة ﴿مولاكم﴾ مَحْراكم؛ أي: مكانكم الذي يقال فيه: هو أولى بكم؛ كما يقال: هو مئنّة للكرم؛ أي: مكان؛ لقول القائل: إنه لكريم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

١٦ ـ ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ﴾ من: أنى الأمر، يأني: إذا جاء إناه. أي: وقته. قيل: كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه. فنزلت. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلّا أربع سنين. وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: إنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً. فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالتخفيف: نافع، وحفص. الباقون ﴿نزّل﴾. و﴿ما﴾ بمعنى الذي. والمراد بالذكر ﴿وما نزل من الحقّ﴾: القرآن؛ لأنّه جامع للأمرين للذكر والموعظة، وأنّه حق نازل من السماء ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾[١] القراءة بالياء عطف على ﴿تخشع﴾. وبالتاء: رويسٌ على الالتفات. ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبّخوا. وذلك: أنّ بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (ولا تكونوا) بالتاء، وهي قراءة: رويس وغيره.

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ

والإنجيل خشعوا لله ورقّت قلوبهم، فلمّا طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ باتّباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين. أي: وقليل منهم مؤمنون.

١٧ ـ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنّه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

١٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾(١) بتشديد الدال وحده، مكّيٌّ، وأبو عمرو. وهو اسم فاعل من: صدّق، وهم الذين صدّقوا الله ورسوله.. يعني: المؤمنين. الباقون: بتشديد الدّال والصّاد وهو اسم فاعل من: تصدّق، فأدغمت التاء في الصاد، وقرىء على الأصل ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو عطف على معنى الفعل في ﴿المصّدّقين﴾ لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى الفعل، وهو: اصّدّقوا. كأنّه قيل: ﴿إنّ﴾ الذين اصّدّقوا ﴿وأقرضوا﴾. والقرض الحسن: أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس، وصحّة النّية على المستحق للصدقة ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ ﴿يُضَعَّف﴾ مكّيّ، وشاميّ ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: الجنة.

١٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: أنّ المؤمنين بالله ورسله عند الله بمنزلة الصدّيقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستُشهِدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثل أجر الصدّيقين والشهداء، ومثل نورهم. ويجوز أن يكون ﴿والشهداء﴾ مبتدأ و﴿لهم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿المصدّقين﴾. وهي قراءة: من ذكر وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٧/ ٨٦ ـ ٨٧).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أجرهم﴾: خبره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

٢٠ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان، ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدّهقان ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: مُباهاة بهما ـ والتكاثر: ادّعاء الاستكثار ـ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ متفتتاً. شبه حال الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلّة جدواها بنباتٍ أنبته الغيث، فاستوى، وقوي، وأُعجِبَ به الكفّار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات. فبعث عليه العاهة، فهاج، واصفرّ، وصار حطاماً، عقوبةً لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنّة. وقيل: الكفّار: الزرّاع ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفّار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين. يعني: أنّ الدنيا ليست إلاّ من محقّرات الأمور. وهي: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلاّ أمور عظام. وهي: العذاب الشديد، والمغفرة والرضوان من الله الحميد. والكاف في ﴿كمثل غيث﴾ في محلّ رفع على أنّه خبر بعد خبر. أي: الحياة الدنيا مثل غيث ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لمن ركن إليها، واعتمد عليها. قال ذو النون: يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا، وإن طلبتموها فلا تحبّوها؛ فإنّ الزاد منها، والمقيل في غيرها.

٢١ ـ ولمّا حقر الدنيا وصغّر أمرها، وعظّم أمر الآخرة، بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك، وهي: المغفرة المنجية من العذاب الشديد، والفوز بدخول الجنّة، بقوله: ﴿سَابِقُوا﴾ أي: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقيل: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدّي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾

وذكر العرض دون الطول؛ لأنّ كلّ ما له عرض وطول فإنّ عرضه أقلّ من طوله. فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أنّ طوله أبسط. أو أريد بالعرض البسطة. وهذا ينفي قول من يقول: إنّ الجنة في السماء الرابعة لأنّ التي في إحدى السموات لا تكون في عرض السموات والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنّة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون. وفيه دليل: على أنه لا يدخل أحد الجنّة إلاّ بفضل الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٢ ـ ثمّ بيّن: أن كلّ كائن بقضاء الله وقدره بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجدب، وآفات الزروع والثمار. وقوله: ﴿في الأرض﴾ في موضع الجرّ، أي: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ ثابتة ﴿في الأرض﴾ ـ ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ في اللوح ـ وهو في موضع الحال ـ أي: إلاّ مكتوباً ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد.

٢٣ ـ ثمّ علّل ذلك وبيّن الحكمة فيه بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها، أو من العافية وصحّتها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فرح المختال الفخور ﴿بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ أعطاكم. من: الإيتاء. أبو عمرو: ﴿أتاكم﴾ أي: جاءكم. من: الإتيان. يعني: أنّكم إذا علمتم: أنّ كلّ شيء مقدّر مكتوب عند الله قلّ أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي؛ لأنّ من علم: أنّ ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطّن نفسه على ذلك. وكذلك من علم: أنّ بعض الخير واصل إليه، وأنّ وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله. وليس أحد إلاّ وهو يفرح عند منفعة

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾

تصيبه، ويحزن عند مضرّة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً. وإنّما يذمّ من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأنّ من فرح بحظّ من الدنيا، وعظم في نفسه؛ اختال، وافتخر به، وتكبّر على الناس.

٢٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿كلّ مختال فخور﴾. كأنّه قال: ﴿لا يحب﴾ الذين يبخلون. يريد: الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظّاً من الدنيا، فلِحُبِّهم له، وعزّته عندهم يَزْوُونَه عن حقوق الله، ويبخلون به ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ ويحضّون غيرهم على البخل، ويرغّبونهم في الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق. وعن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عمّا نهي عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات، فكيف عنه؟ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. (فإن الله الغنيّ) بترك ﴿هو﴾ مدنيّ وشاميّ.

٢٥ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج المعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الوحي. وقيل: الرسل الأنبياء، والأوّل أولى، لقوله: ﴿معهم﴾؛ لأنّ الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ روي: أنّ جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مُرْ قومك يزنوا به ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاءً واستيفاء ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ولا يظلم أحدٌ أحداً ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنّة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة، والإبرة، وروي: ومعه المَرّ والمسحاة. وعن الحسن ﴿وأنزلنا الحديد﴾ خلقناه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال به ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم، ومعايشهم، وصنائعهم؛ فما من صناعة إلاّ ﴿و﴾ الحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾

﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾

باستعمال السيوف، والرماح، وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. وقال الزجاج: ﴿ليعلم الله﴾ من يقاتل مع رسوله في سبيله ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ غائباً عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ يدفع بقوّته، بأس من يعرض عن ملّته ﴿عَزِيزٞ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرّض لنصرته.

والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة: أنّ الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام والحدود الدينية، يبين سبل المراشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنّما يقع بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل. وهي الميزان. ومن المعلوم: أنّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعة للتعامل بالسَّوية، إنّما تحفظ العام على اتّباعهما بالسيف، الذي هو حجة الله على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو الحديد، الذي وصف بالبأس الشديد.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وخصا بالذكر لأنّهما أبوان للأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أولادهما ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ الوحي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخطّ بالقلم. يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿فَمِنۡهُم﴾ فمن الذّرّية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ هذا تفصيل لحالهم. أي: ﴿فمنهم﴾ من اهتدى باتّباع الرسل و﴿منهم﴾ من فسق؛ أي: خرج عن الطاعة. والغلبة للفساق.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: نوح، وإبراهيم، ومن مضى من الأنبياء ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ﴾ مودّةً وليناً ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ تعطّفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبيّ ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ هي ترهبهم في

مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الجبال فارّين من الفتنة في الدين، مخلّصين أنفسهم للعبادة. وهي الفَعْلَة المنسوبة إلى الرَهْبان. وهو الخائف. فعلان من: رَهَبَ، كخشيان من: خشي. وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره: ﴿و﴾ ابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ أي: خرّجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع. أي: ولكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان ﴿ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره؛ لأنّه عهد مع الله لا يحلّ نكثه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢] الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٩ ـ ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ ليعلم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين لم يسلموا، و﴿لا﴾ مزيدة ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة أصله: أنه ﴿لا يقدرون﴾. يعني: أنّ الشأن لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ينالون شيئاً ممّا ذكر من فضل الله من الكفلين، والنور، والمغفرة؛ لأنّهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلاً قط ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ عطف على ﴿أن لا يقدرون﴾ ـ ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: في ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

آياتها ٢٢ — ترتيبها ٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

١ ـ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تحاورك. وقرىء بها. وهي: خولة بنت ثعلبة، امرأة أوس بن الصامت، أخي عبادة. رآها وهي تصلّي، وكانت حسنة الجسم، فلمّا سلّمت راودها، فأبت فغضب، فظاهر منها. فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابّة مرغوب فيَّ. فلما خلا سنِّي، ونَثَرتْ بطني ـ أي: كثر ولدي ـ جعلني عليه كأمّه. وروي: أنّها قالت: إنّ لي صبياناً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فقال ﷺ: «ما عندي من أمرك شيء». وروي: أنّه قال لها: «حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً، وإنّما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ. فقال: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، كلّما قال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»، هتفت، وشكت إلى الله فنزلت[1] ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ في شأنه ومعناه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤ / ١ ـ ٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾

مراجعتكما الكلام. من: حار: إذا رجع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع شكوى المضطرّ ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ عاصم ﴿يُظَهِّرون﴾ حجازيّ وبصريّ. غيرهم: ﴿يَظَّاهَرون﴾. وفي ﴿مِنكُم﴾ توبيخ للعرب؛ لأنّه كان من أيمان أهل جاهليّتهم خاصّة دون سائر الأمم ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ زوجاتهم ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ ﴿أمّهاتُهم﴾ المفضل؛ فالأوّل حجازيّ، والثاني تميميّ ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ يريد: أنّ الأمّهات على الحقيقة الوالدات، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع. وكذا أزواج رسول الله ﷺ لزيادة حرمتهنّ. وأمّا الزوجات فأبعد شيء من الأمومة، فلذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: تنكره الحقيقة والأحكام الشرعيّة ﴿وَزُورًا﴾ وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف منهم.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ بيّن في الآية الأولى: أنّ ذلك من قائله منكرٌ وزورٌ. وبيّن في الثانية حكم الظهار ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ العود الصيرورة ابتداءً أو بناءً. فمن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] ومن الثاني: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] ويعدّى بنفسه كقولك: عدته: إذا أتيته وصرت إليه، وبحرف الجرّ بـ: إلى، وعلى، وفي، واللام، كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومنه: ﴿ثمّ يعودون لما قالوا﴾ أي: ﴿يعودون لـ﴾ نقض ﴿ما قالوا﴾ أو لتداركه على حذف المضاف. وعن ثعلب: ﴿يعودون﴾ لتحليل ما حرّموا، على حذف المضاف أيضاً. غير أنه أراد بما قالوا: ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، كقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أراد المقول فيه، وهو المال والولد. ثمّ اختلفوا: أنّ النقض بماذا يحصل؟ فعندنا: بالعزم على الوطء، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: بمجرد الإمساك؛ وهو ألّا يطلقها عقيب

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ﴾

الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ. ولم يجز المدبّر، وأمّ الولد، والمكاتب الذي أدّى شيئاً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الضمير يرجع إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهِر والمظاهَر منها. والمماسة: الاستمتاع بها من جماع، أو لمسٍ بشهوةٍ، أو نظرٍ إلى فرجها بشهوةٍ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ لأنّ الحكم بالكفّارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتّعظوا بهذا الحكم، حتى لا تعودوا إلى الظهار، وتخافوا عقاب الله عليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمّي. وإذا وضع موضع أنتِ عضواً منها يعبر به عن الجملة، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأمّ كالبطن والفخذ، أو مكان الأمّ ذات رحم محرم منه بنسبٍ، أو رضاعٍ، أو صهرٍ، أو جماعٍ، نحو أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع، أو عمّتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي، أو أمّ امرأتي، أو ابنتها، فهو مظاهر. وإذا امتنع المظاهر من الكفّارة، للمرأة أن ترافعه، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفّر، وأن يحبسه. ولا شيء من الكفّارات يجبر عليه، ويحبس إلاّ كفّارة الظهار. لأنّه يضرّ بها في ترك التكفير، والامتناع من الاستمتاع. فإن مس قبل أن يكفّر استغفر الله ولا يعود حتّى يكفّر. وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مس، عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ.

٤ ـ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ﴾ فعليه إطعام ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكلّ مسكين نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. ويجب أن يقدّمه على المسيس، ولكن لا يستأنف إن جامع في خلال الإطعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ لتصدّقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليّتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: الأحكام التي

حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ

وصفنا في الظهار، والكفّارة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ التي لا يجوز تعدّيها ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يتّبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعادون ويشاقون ﴿كُبِتُواْ﴾ أخزوا، وأهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من أعداء الرسل ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ تدلّ على صدق الرسول وصحّة ما جاء به ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يذهب بعزّهم وكبرهم.

٦ ـ ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ﴾ منصوب بـ﴿مهين﴾، أو بإضمار اذكر، تعظيماً لليوم ﴿ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث، أو مجتمعين في حالٍ واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تخجيلاً لهم، وتوبيخاً، وتشهيراً بحالهم، يتمنّون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنّما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ.

٧ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ﴾ من: كان التامّة؛ أي: ما يقع ﴿مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: التناجي. وقد أضيفت إلى ثلاثة، أي: ﴿من نجوى ثلاثة﴾ نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﴿رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾ ولا أقلّ ﴿مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه. وقد تعالى عن المكان علوّاً كبيراً.

وتخصيص الثلاثة والخمسة: لأنها نزلت في المنافقين. وكانوا يتحلّقون للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين. فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ﴿ولا أدنى من﴾ عددَيْهم ﴿ولا أكثر﴾ إلاّ والله معهم يسمع

أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا
عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا
جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

ما يقولون. ولأنّ أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب. وأوّل عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة، إلى ستة، إلى ما اقتضته الحال. فذكر عزوعلا الثلاثة، والخمسة، وقال: ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ فدلّ على الاثنين والأربعة. وقال: ﴿ولا أكثر﴾ فدلّ على ما يقارب هذا العدد ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، ويريدون أن يغيظوهم، ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم: أنّ غزاتهم غُلبوا، وأنّ أقاربهم قُتلوا. فنهاهم رسول الله ﷺ، فعادوا لمثل فعلهم. وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول ومخالفته. ﴿وَيَنتَجُوْن﴾ حمزة، وهو بمعنى الأوّل ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني: أنّهم يقولون في تحيّتك: السام عليك يا محمد. والسام: الموت. والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً لعاقبنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ أي: يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع؛ جهنّم.

٩ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألسنتهم، وهو خطاب للمنافقين. والظاهر: أنّه خطاب للمؤمنين ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: ﴿إذا تناجيتم﴾ فلا تَشبّهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشرّ ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ بأداء الفرائض، والطاعات ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ وترك المعاصي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

للحساب، فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شرّ.

١٠ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوان ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من تزيينه ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أي: الشيطان. وبضم الياء نافع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو الحزن ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إلى الله، ويستعيذون به من الشيطان.

١١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ توسّعوا فيه ﴿في المجالس﴾ عاصم. والمراد: مجلس رسول الله ﷺ. وكانوا يتضامّون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة. كقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. مُقاتِل: في صلاة الجمعة ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾ فوسّعوا ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كلّ ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، وغير ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين، أو انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أمرتم بالنهوض عنه، أو انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وأعمال الخير ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ بالضمّ فيهما: مدنيٌّ، وشاميٌّ، وعاصم غير حمّاد ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بامتثال أوامره، وأوامر رسوله ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ والعالمين منهم خاصّة ﴿دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وفي الدرجات قولان: أحدهما: في الدنيا في المرتبة، والشرف، والآخر: في الآخرة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه كان إذا قرأها قال: يأيّها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبيّ ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١]. وعنه ﷺ: «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين

(١) رواه أحمد (٥/١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾

سنة». وعنه ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»(١). فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خيّر سليمان ـ عليه السلام ـ بين العلم والمال والملك، فاختار العلم. فأعطى المال والملك معه. وقال ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يا إبراهيم! إنّي عليم أحبّ كلّ عليم»(٢). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أيّ شيءٍ أدرك من فاته العلم؟ وأيّ شيءٍ فات من أدرك العلم؟. وعن الزبيريّ: العلم ذَكَر، فلا يحبّه إلاّ ذكورة الرجال. والعلوم أنواع، فأشرفها أشرفها معلوماً.

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ أي: قبل نجواكم. وهي استعارة ممن له يدان. كقول عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم، ويستنزل به اللئيم. يريد: قبل حاجته ﴿ذَٰلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دينكم ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ لأنّ الصدقة طُهْرة ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدّقون به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل: كان ذلك عشر ليال ثمّ نسخ. وقيل: ما كان إلاّ ساعة من نهار ثمّ نسخ. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته تصدّقت بدرهم، وسألت رسول الله ﷺ عشر مسائل فأجابني عنها: قلت: يا رسول الله! ما الوفاء؟ قال: «التوحيد، وشهادة لا إله إلاّ الله». قلت: وما الفساد؟ قال: «الكفر، والشرك بالله». قلت: وما الحقّ؟ قال: «الإسلام، والقرآن، والولاية إذا انتهت إليك». قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة». قلت: وما عَلَيَّ؟ قال: «طاعة الله، وطاعة رسوله». قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: «بالصدق واليقين». قلت: وماذا

(١) رواه ابن ماجه (٤٣١٣).
(٢) رواه ابن عبد البر في العلم. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٩٣).

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا
غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً

أسأل الله؟ قال: «العافية» قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كل حلالاً، وقل صدقاً» قلت: وما السرور؟ قال: «الجنّة». قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء الله». فلمّا فرغت منها نزل نسخها[١].

١٣ ـ ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ما أمرتم به، وشقّ عليكم ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفّف عنكم، وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة؛ كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فلا تفرّطوا في الصلاة، والزكاة، وسائر الطاعات ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعدٌ ووعيدٌ.

١٤ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ كان المنافقون يتولّون اليهود، وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مسلمون! ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من اليهود. كقوله ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: يقولون: والله إنّا لمسلمون لا منافقون! ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون منافقون.

١٥ ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كانوا في الزمان الماضي مصرّين على سوء العمل. و هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

١٦ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمائهم وأموالهم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٩٤).

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا
يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

﴿فَصَدُّواْ﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعدهم العذاب المخزي لكفرهم وصدّهم، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

١٧ ـ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً من الإغناء، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله في الآخرة: أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا على ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من النفع، أو: يحسبون أنهم على شيءٍ من النفع ثَمَّ بأيمانهم الكاذبة كما انتفعوا ها هنا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ حيث استوت حالهم فيه الدنيا والآخرة.

١٩ ـ ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استولى عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾. قال شاه الكرمانيّ: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكّر في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربّه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكّر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنده ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٢٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذلّ خلق الله، لا ترى أحداً أذلّ منهم.

٢١ ـ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ بالحجّة والسيف أو بأحدهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

٢٢ - ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ هو مفعول ثان لـ: ﴿تجد﴾، أو حال، أو صفة لـ: ﴿قوماً﴾. و﴿تجد﴾ بمعنى تصادف على هذا ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ خالفه وعاداه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾. أي: من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والمراد: أنّه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقّه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغةً في الزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلّب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم. وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، وبقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: اثبته فيها، وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بكتابٍ أنزله، فيه حياةٌ لهم. ويجوز أن يكون الضمير للإيمان؛ أي: ﴿بروح﴾ من الإيمان، على أنّه في نفسه روح لحياة القلوب به. وعن الثوريّ: أنّه قال: كانوا يرون أنّها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي روّاد: أنّه لقيه المنصور فلمّا عرفه هرب منه، وتلاها. وقال سهل: من صحّح إيمانه، وأخلص توحيده فإنّه لا يأنس بمبتدع، ولا يجالسه، ويظهر له من نفسه العداوة. ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عزّ الدنيا، أو عِرْضِها أذلّه الله بذلك العزّ، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدّق فليجرب ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بتوحيدهم الخالص، وطاعتهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة، أو بما قضى عليهم في الدنيا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أنصار حقّه، ورعاة خلقه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الباقون في النعيم المقيم، الفائزون بكلّ محبوب، الآمنون من كلّ مرهوب.

* * *

سُورَةُ الحَشْرِ

آياتها ٢٤ — ترتيبها ٥٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ روي: أنّ هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير. وذلك: أنّ النبيَّ ﷺ حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسولَ الله ﷺ على ألاّ يكونوا عليه ولا له. فلمّا ظهر يوم بدر، قالوا: هو النبيُّ الذي نعته في التوراة. فلمّا هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكّة، وحالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاريّ فقتل كعباً غِيلةً. ثمّ خرج ﷺ مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم. فلمّا قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلاّ الجلاء، على أن يَحْمِل كلُّ ثلاثة أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء، وأذرعات.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بالمدينة. واللام في ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ تتعلّق بـ﴿أخرج﴾. وهي اللام في

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] وقوله: جئته لوقت كذا. أي: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى أوّل الحشر: أنّ هذا أوّل حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قطّ. وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو: هذا أوّل حشرهم، وآخر حشرهم: إجلاءُ عمر إيّاهم من خيبر إلى الشام. أو: آخر حشرهم حشر يوم القيامة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من شكّ: أنّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية، فهم الحشر الأوّل، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله ﷺ لمّا خرجوا: «امضوا فإنّكم أوّل الحشر، ونحن على الأثر»(١). قتادة: إذا كان آخر الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام وبها تقوم عليهم القيامة. وقيل: معناه: أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حُشِرَ لقتالهم؛ لأنّه أوّل قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدّة بأسهم، ومنعتهم، ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعُدّتهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ﴿ظنّوا﴾: أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفرق بين هذا التركيب وبين النظم الذي جاء عليه: أنّ في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إيّاهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأنّ في إسناد الجملة إليه: دليلاً على اعتقادهم في أنفسهم: أنهم في عزّة ومنعة لا يُبالى معها بأحدٍ يتعرّض لهم، أو يطمع في مُعازّتهم(٢). وليس ذلك في قولك: وظنّوا أنّ حصونهم تمنعهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر الله وعقابه. وفي الشواذّ ﴿فآتاهم الله﴾ أي: فآتاهم الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ من حيث لم يظنّوا ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّةً على يد أخيه رضاعاً ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يخرّبون﴾ أبو عمرو. والتخريب والإخراب: الإفساد بالنقض والهدم. والخربة: الفساد. كانوا

---

(١) رواه البزار والبيهقي كما في الدر المنثور (٨/ ٨٩).

(٢) أي: مغالبتهم.

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ

يخربون بواطنها، والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم، وألاّ تبقى لهم بالمدينة دار، ولا منهم ديّار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواه الأزقّة، وألاّ يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيّد الخشب والساج. وأمّا المؤمنون فداعيهم إلى التخريب إزالة متحصّنهم، وأن يتّسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين: أنهم لمّا عرّضوهم بنكث العهد لذلك، وكانوا السبب فيه؛ فكأنّهم أمروهم به، وكلّفوهم إيّاه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: تأمّلوا فيما نزل بهؤلاء، والسبب الذي استحقّوا به ذلك، فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. وهو دليل على جواز القياس.

٣ ـ ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي؛ كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ﴾ سواء أُجْلوا أو قتلوا ﴿فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الذي لا أشدّ منه.

٤ ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: إنّما أصابهم ذلك بسبب أنهم: ﴿شَاقُّوا اللَّهَ﴾ خالفوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٥ ـ ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ هو بيان لـ: ﴿ما قطعتم﴾. ومحلّ ﴿ما﴾ نصب بقطعتم، كأنّه قيل: أيّ شيءٍ قطعتم. وأنّث الضمير الراجع إلى ﴿ما﴾ في قوله ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنّه في معنى اللينة. واللينة: النخلة، من: الألوان. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها. وقيل: اللينة: النخلة الكريمة؛ كأنهم اشتقّوها من اللِّين ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقطعها، وتركها بإذن الله ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها.

٦ ـ ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ جعله فيئاً له خاصّة ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير

فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ
ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيلٍ أو ركابٍ منكم على ذلك. والركاب: الإبل. والمعنى: ﴿فما أوجفتم﴾ على تحصيله، وتغنيمه خيلاً، ولا ركاباً، ولا تعبتم في القتال عليه، وإنّما مشيتم إليه على أرجلكم لأنَّه على ميلين من المدينة، وكان ﷺ على حمارٍ فحسب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصّلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلّطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلّط رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوّض إليه، يضعه حيث يشاء، ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوةً وقهراً، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلاّ ثلاثة منهم لفقرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

٧ ـ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإنّما لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنّها بيان للأولى. فهي منها غير أجنبيّة عنها. بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة. وزيّف هذا القول بعض المفسّرين وقال: الآية الأولى نزلت في أموال بني النضير وقد جعلها الله لرسوله خاصّة؛ وهذه الآية في غنائم كلّ قرية تؤخذ بقوّة الغزاة. وفي الآية بيان مصرف خمسها فهي مبتدأ ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ ـ ﴿تكونُ دولةٌ﴾ يزيد، على كان التامة. والدُولة والدَولة ما يدول للإنسان؛ أي: يدور من الجدّ. ومعنى قوله: كي لا يكون دولةً ﴿بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ كي لا يكون الفيء؛ الذي حقّه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، جَدًّا بين الأغنياء يتكاثرون به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمةٍ أو فيءٍ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ عن أخذه منها ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه، ولا تطلبوه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تخالفوه، وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾

ﷺ. والأجود أن يكون عاماً في كلّ ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه. وأمر الفيء داخل في عمومه.

٨ ـ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ـ بدل من قوله: ﴿ولذى القربى﴾ والمعطوف عليه. والذي منع الإبدال من: ﴿لله وللرسول﴾ وإن كان المعنى لرسول الله: أن الله عزّ وجلّ أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنّه يترفّع برسول الله عن التسمية بالفقير، وأنّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزّ وعلا ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكّة. وفيه دليل: على أنّ الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأنّ الله تعالى سمّى المهاجرين فقراء مع أنّه كانت لهم ديار وأموال ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: يطلبون الجنّة ورضا الله ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ﴿ينصرون﴾ دين الله ﴿و﴾ يعينون ﴿رسوله﴾ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم.

٩ ـ ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على المهاجرين. وهم الأنصار ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ توطنوا المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله:

علفتهـــا تبنـــاً ومـــاء بـــارداً .. ..

أو: وجعلوا الإيمان مستقرّاً ومتوطّناً لهم لتمكّنهم واستقامتهم عليه؛ كما جعلوا المدينة كذلك. أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنّهم سبقوهم في تبوُّء دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتّى شاطروهم أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتّى تزوّج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ

والمحتاج إليه يسمّى: حاجة. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا، ولم تطمح إلى شيءٍ منه تحتاج إليه. وقيل: ﴿حاجة﴾ حسداً ممّا أعطي المهاجرون من الفيء، حيث خصهم النبيُّ ﷺ به. وقيل: ﴿لا يجدون في صدورهم﴾ مس ﴿حاجة من﴾ فَقْدِ ﴿ما أوتوا﴾ فحذف المضافان ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فقر. وأصلها: خصاص البيت، وهي: فروجه. والجملة في موضع الحال. أي: مفروضة خصاصتهم.

روي: أنّه نزل برجل منهم ضيف، فنوّم الصبية،. وقرّب الطعام، وأطفأ السراج ليشبع ضيفه، ولا يأكل هو.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أهدي لبعضهم رأس مشويّ، وهو مجهود، فوجهه إلى جاره، فتداولته تسعة أنفس حتّى عاد إلى الأوّل.

أبو زيد: قال لي شابٌّ من أهل بلخ: ما الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا. فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ. بل: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الظافرون بما أرادوا. والشحُّ: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزّةً حريصةً على المنع. وأمّا البخل: فهو المنع نفسه. وقيل: الشحّ: أكل مال أخيك ظلماً. والبخل: منع مالك. وعن كسرى: الشحّ أضرّ من الفقر؛ لأنّ الفقير يتّسع إذا وجد بخلاف الشحيح.

١٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ عطف أيضاً على ﴿المهاجرين﴾ وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسان. وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: دخل في هذا الفيء كلُّ من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام. فجعل الواو للعطف فيهما. وقرىء ﴿للذين﴾ فيهما ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ قيل: هم المهاجرون

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

والأنصار. عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسبّوهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: الصحابة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب: ما تقول في عثمان، وطلحة، والزبير؟ قال: أقول ما قوّلنيه الله. وتلا هذه الآية.

١١ ـ ثم عَجَّبَ نَبِيَّهُ فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا؟﴾. أي: ﴿ألم تر﴾ يا محمّد ﴿إلى﴾ عبد الله بن أبيّ وأشياعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني النضير. والمراد: أخوّة الكفر ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. روي: أنّ ابن أبيٍّ وأصحابه دسُّوا إلى بني النضير حين حاصرهم النبي ﷺ: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم. ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه. أو: في خذلانكم، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم لليهود. وفيه دليل: على صحّة النبوّة؛ لأنّه إخبار بالغيب.

١٢ ـ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وإنّما قال: ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنّهم لا ينصرونهم، على الفرض والتقدير. كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمنّ المنافقون ﴿ثمّ لا ينصرون﴾ بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم. أو: لينهزمنّ اليهود، ثمّ لا ينفعهم نصرة المنافقين.

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ

١٣ ـ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدّ مرهوبيّة. مصدر رهب المبنيّ للمفعول. وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دلالة على نفاقهم. يعني: أنّهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتّى يخشوه حقّ خشيته.

١٤ ـ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين: يعني: اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾. ﴿جدار﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنّما هو بينهم إذا اقتتلوا. ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة؛ لأنّ الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ أي: اليهود والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتّحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرّقة، لا ألفة بينها. يعني: أنّ بينهم إحناً وعداواتٍ فلا يتعاضدون حقّ التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفرّق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ تشتّت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم.

١٥ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر. فحذف المبتدأ ﴿قَرِيبًا﴾ أي: استقرّوا ﴿من قبلهم﴾ زمناً ﴿قريباً﴾ ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. من قولهم: كلأٌ وبيلٌ: وخيمٌ سيِّىء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار.

١٦ ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ

أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ

﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال، ووعدهم إيّاهم النصر، ثمّ متاركتهم لهم وإخلافهم، كمثل الشيطان؛ إذا استغوى الإنسان بكيده، ثمّ تبرّأ منه في العاقبة. وقيل: المراد استغواؤه قريشاً يوم بدر. وقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٧ ـ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ ﴿عاقبتهما﴾ خبر ﴿كان﴾ مقدّم. وأنّ مع اسمها وخبرها، أي: ﴿في النار﴾. في موضع الرفع على الاسم و﴿خالدين﴾ حال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفوها ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ نكر النفس تقليلاً للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: يوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له. أو: عبّر عن الآخرة بالغد كأنّ الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد. وتنكيره لتعظيم أمره. أي: ﴿لغد﴾ لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: مكتوب على باب الجنّة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدّمنا، خسرنا ما خلّفنا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرّر الأمر بالتقوى تأكيداً. أو: ﴿اتّقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنّه قرن بما هو عمل ﴿واتقوا الله﴾ في ترك المعاصي؛ لأنّه قرن بما يجري مجرى الوعيد وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وفيه: تحريض على المراقبة؛ لأنّ من علم: أنّ الله مطّلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

١٩ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تركوا ذكر الله عزّ وجلّ وما أمرهم به

فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

٢٠ ـ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ هذا تنبيه للناس، وإيذان بأنهم، لفرط غفلتهم، وقلّة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم على إيثار العاجلة، واتّباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنّة والنار، والبون العظيم بين أصحابهما، وأنّ الفوز العظيم مع أصحاب الجنّة والعذاب الأليم مع أصحاب النار، فمن حقهم أن يعلموا ذلك، وينبّهوا عليه، كما تقول لمن يعقّ أباه: هو أبوك. تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبّهه بذلك على حقّ الأبوّة الذي يقتضي البرّ والتعطّف. وقد استدلّت الشافعيّة بهذه الآية: على أنّ المسلم لا يقتل بالكافر، وأنّ الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء. وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه، والكافي.

٢١ ـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآن وعظمته: أنّه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن؛ لخشع، أي: لخضع، وتطأطأ، وتصدّع. أي: تشقّق ﴿من خشية الله﴾. وجائز أن يكون هذا تمثيلاً؛ كما في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي إشارة إلى هذا المثل، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد: توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلّة تخشّعه عند تلاوة القرآن، وتدبّر قوارعه وزواجره.

٢٢ ـ ثُمَّ ردَّ على من أشرك وشبّهه بخلقه فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السرّ والعلانية. أو: الدنيا والآخرة. أو: المعدوم والموجود ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾

٢٣ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ﴾ الذي لا يزول ملكه ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ المنزّه من القبائح. وفي تسبيح الملائكة: سُبّوح قُدّوس، ربّ الملائكة والروح ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه. عن الزّجاج ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ واهب الأمن. وعن الزجّاج: الذي أَمِنَ الخلق من ظلمه. أو: المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الرقيب على كلّ شيء، الحافظ له. مُفَيْعِل، من: الأمن، إلاّ أنّ همزته قلبت هاء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ العالي العظيم الذي يذلّ له من دونه. أو: العظيم الشأن في القدرة والسلطان. أو: القهّار ذو الجبروت ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ نزّه ذاته عمّا يصفه به المشركون.

٢٤ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدّر لما يوجده ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ الموجد ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ في الأرحام ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الدالّة على الصفات العلا ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. ختم السورة بما بدأ به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته». فأعدت عليه فأعاد عليّ، فأعدت عليه فأعاد عليّ»[1].

* * *

(١) رواه الثعلبي كما في حاشية الكشاف (٤/ ٥١٠).

سُورَةُ المُمْتَحنَة

ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ روي: أنّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم ـ يقال لها: سارة ـ أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهّز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قال: احتجت حاجة شديدة. فحثّ عليها بني عبد المطلب فكسوها، وحملوها، وزوّدوها. فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكّة. نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة، اعلموا: أنّ رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم. فخرجت سارّة، ونزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ عليّاً، وعمّاراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد ـ وكانوا فرساناً ـ وقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكّة، فخذوه منها، وخلّوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فأدركوها، فجحدت، وحلفت. فهَمُّوا بالرجوع. فقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: والله ما كُذِبْنا، ولا كُذِبَ رسول الله ﷺ، وسلّ سيفه. وقال: أخرجي الكتاب، أو تضعي رأسك. فأخرجته من عِقاص شعرها ـ وروي: أنّ رسول الله ﷺ أمّن جميع الناس يوم الفتح إلّا أربعة؛ هي أحدهم ـ فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾

عليه؟» فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكنّي كنت امرأً مُلْصَقاً في قريش، ولم أكن من أَنْفُسِهَا، وكلّ من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكّة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت: أنّ الله ينزل عليهم بأسه، وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه، وقبل عذره. فقال: عمر ـ رضي الله عنه ـ: دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر ـ رضي الله عنه ـ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1]. عُدِّيَ اتّخذ إلى مفعوليه، وهما: ﴿عدوّي﴾ و﴿أولياء﴾. والعدوّ: فعول من: عدا؛ كعفوّ، من: عفا. ولكنّه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفيه دليل: على أنّ الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان ﴿تُلْقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لا تتّخذوا﴾. والتقدير: لا تتّخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. أو مستأنف بعد وقف، على التوبيخ. والإلقاء: عبارة عن إيصال المودّة، والإفضاء بها إليهم. والباء في ﴿بالمودّة﴾ زائدة، مؤكّدة للتعدّي؛ كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ثابتة على أنّ مفعول ﴿تلقون﴾ محذوف. معناه: ﴿تلقون إليهم﴾ أخبار رسول الله ﷺ ﴿بـ﴾ سبب ﴿المودّة﴾ التي بينكم، وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ حال من ﴿لا تتّخذوا﴾ أو من ﴿تلقون﴾. أي: لا تتولّوهم أو توادّونهم؟ وهذه حالهم ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ دين الإسلام، والقرآن ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم، أو حال من الذين ﴿كفروا﴾ ﴿أَن تُؤْمِنُواْ﴾ تعليل لـ ﴿يخرجون﴾ أي: يخرجونكم من مكّة لإيمانكم ﴿بالله ربّكم﴾ ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلّق بـ ﴿لا تتّخذوا﴾. أي: لا تتولّوا أعدائي ﴿إن كنتم﴾

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨١ ـ ٢٨٣). قال الحافظ: وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين. (حاشية الكشاف ٤/٥١١).

جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ

أوليائي. وقول[1] النحويّين في مثله: هو شرط، جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي﴾ مصدر في موضع الحال؛ أي: ﴿إن كنتم خرجتم﴾ مجاهدين في سبيلي ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ ومبتغين مرضاتي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تفضون إليهم بمودّتكم سرّاً. أو: ﴿تسرّون إليهم﴾ أسرار رسول الله ﷺ ﴿بـ﴾ سبب ﴿المودة﴾ وهو استئناف ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾. والمعنى: أيّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم: أنّ الإخفاء، والإعلان سيّان في علمي، وأنا مطلع رسولي علي ما تسرّون؟ ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أي: هذا الإسرار ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحقّ والصواب.

٢ ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ إن يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ خالصي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقتل والشتم ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنّوا لو ترتدّون عن دينكم. فإذاً موادّة أمثالهم خطأ عظيم منكم. والماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة. كأنّه قيل: وودّوا قبل كلّ شيء كفركم وارتدادكم. يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضارّ الدنيا والدين، من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض. وردّكم كفّاراً، أو: ردكم كفاراً أسبق المضارّ عندهم، وأوّلها؛ لعلمهم: أنّ الدِّين أعزّ عليكم من أرواحكم؛ لأنّكم بذّالون لها دونه. والعدوّ أهمّ شيءٍ عنده أن يقصد أهمّ شيءٍ عند صاحبه.

٣ ـ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون الكفّار من أجلهم، وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم. ثمّ قال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . . .﴾ الآية [عبس: ٣٤]. فما لكم

(١) القول بمعنى المقول، وهو مبتدأ خبره: هو شرط الخ.

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ
وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ
مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

ترفضون حقّ الله مراعاةً لحقّ من يفرّ منكم غداً؟ ﴿يَفْصِلُ﴾ عاصم ﴿يُفَصِّل﴾ حمزة، وعليّ. والفاعل هو الله عزّ وجلّ ﴿يُفَصَّلُ﴾ ابن ذكوان. غيرهم: ﴿يُفْصَل﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٤ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوةٌ في التبرّي من الأهل ﴿حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في أقواله. ولهذا استثنى منه ﴿إلاّ قول إبراهيم﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين. وقيل: كانوا أنبياء ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمع: بريء، كظريف، وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بالأفعال، ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فيحنئذٍ نترك عداوتكم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. وذلك لـ ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: اقتدوا به في أقواله، ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من هدايةٍ، ومغفرةٍ، وتوفيقٍ. وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١] ولكن المراد: استثناء جملة قوله لأبيه. والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له. كأنّه قال: أستغفر لك، ومافي طاقتي إلاّ الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متّصل بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. وقيل: معناه: قولوا ﴿ربنا﴾ فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أقبلنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع.

٥ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنوننا بعذاب ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الحاكم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾

٦ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ثُمَّ كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم. ولذا جاء به مصدّراً بالقسم؛ لأنّه الغاية في التأكيد، وأبدل عن قوله ﴿لكم﴾ قوله ﴿لمن كان يرجو الله﴾ أي: ثوابه أو: يخشى الله، وعقّبه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن أمرنا، ووالى الكفّار ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الخلق ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد. فلم يترك نوعاً من التأكيد إلاّ جاء به.

٧ ـ ولمّا أنزلت هذه الآيات، وتشدّد المؤمنون في عداوة آبائهم، وأبنائهم، وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم في تحوّل الحال إلى خلافه فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من أهل مكّة من أقربائكم ﴿مودّة﴾ بأن يوفّقهم للإيمان. فلمّا يسّر فتح مكّة أظفر الله بأمنيتهم، فأسلم قومهم، وتمّ بينهم التحابّ. و﴿عسى﴾ وعد من الله على عادات الملوك، حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى، أو: لعلّ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك، أو: أريد به إطماع المؤمنين ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب القلوب، وتحويل الأحوال، وتسهيل أسباب المودّة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلم من المشركين.

٨ ـ ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ تكرموهم، وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً. ومحلّ ﴿أن تبرّوهم﴾ جرّ على البدل من ﴿الذين لم يقاتلوكم﴾. وهو بدل اشتمال. والتقدير: ﴿عن﴾ برّ ﴿الذين﴾ ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتقضوا إليهم بالقسط، ولا تظلموهم. وإذا نهي عن الظلم في حق المشرك فكيف في حقّ المسلم؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

٩ ـ ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ هو بدل من ﴿الذين قاتلوكم﴾. والمعنى: لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء. وإنّما ينهاكم عن تولّي هؤلاء ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث وضعوا التولّي غير موضعه.

١٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ سمّاهنّ مؤمنات لنطقهنّ بكلمة الشهادة، أو لأنّهنّ مشارفات لثبات إيمانهنّ بالامتحان ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ نصب على الحال ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابتلوهنّ بالنظر في الأمارت، ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهنّ. وعن ابن عباس: امتحانها: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ منكم، فإنّكم وإن رزتم أحوالهنّ لا تعلمون ذلك حقيقة، وعند الله حقيقة العلم به ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم، وهو الظنّ الغالب بظهور الأمارات، وتسمية الظنّ علماً يؤذن بأنّ الظنّ الغالب، وما يفضي إليه القياس جارٍ مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلا تردّوهن إلى أزواجهنّ المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا حلّ بين المؤمنة والمشرك لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور. ونزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردّ على أهل مكّة من جاء مؤمناً منهم. فأنزل الله هذه الآية بياناً؛ إنّ ذلك في الرجال، لا في النساء؛ لأنّ المسلمة لا تحلّ للكافر. وقيل: نسخت هذه الآية الحكم الأوّل ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ثمّ نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ؛ لأنّ المهر أجر البضع. وبه احتجّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أن لا عدّة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾ بصريّ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾. العصمة: ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر: جمع كافرة. وهي التي بقيت

وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ

في دار الحرب، أو لحقت بدار الحرب مرتدّةً. أي: لا يكن بينكم وبينهنّ عصمة، ولا علقة زوجيّة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من كانت له امرأة كافرة بمكّة فلا تَعتدنَّ بها من نسائه؛ لأنّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفّار ممن تزوّجها ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوّجها منا ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي: جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ كلام مستأنف، أو: حال من حكم الله على حذف الضمير. أي: يحكمه الله. أو: جعل الحكم حاكماً على المبالغة. وهو منسوخ، فلم يبق سؤال المهر؛ لا منّا؛ ولا منهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

١١ ـ ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ وإن انفلت أحدٌ منهنّ إلى الكفّار ـ وهو في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (أحد) ـ ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتّى غنمتم ـ عن الزجّاج ـ ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدّت زوجاتهم، ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخٌ أيضاً.

١٢ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ هو حال ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ يريد: وأد البنات ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ عمّا مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيق ما سلف، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتوفيق ما ائتنف. وروي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا فرغ يوم فتح مكّة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه يبايعهنّ عنه بأمره، ويبلغهنّ عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنّعة متنكّرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة. فقال ﷺ: «أبايعكنّ على ألّا تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على ألّا يشركن بالله شيئاً. فقال ﷺ: «ولا يسرقن» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنّي أصبت من ماله هَنَاتٍ. فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها فقال لها: «إنّك لهند» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك! فقال: «ولا يزنين» فقالت: أو تزني الحرّة؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهنّ» فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. فأنتم وهم أعلم ـ وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر ـ فضحك عمر ـ رضي الله عنه ـ حتّى استلقى، وتبسّم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان» فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال: «ولا يعصينك في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ـ وهو يشير: إلى أنّ طاعة الولاة لا تجب في المنكر[1] ـ.

١٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم السورة بما بدأ به. قيل: هم المشركون ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها؛ لأنّهم ينكرون البعث

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٩ و٥٠ و٢٠٦) وأبو داود (٣٥٣٢) والنسائي (٨/ ٢٤٦).
وانظر القصة في أسد الغابة (٥/ ٥٦٢) والإصابة (٤/ ٤٠٩) والطبقات (٨/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي: كما يئسوا، إلاّ أنّه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم. أو كما يئس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة. أي: هؤلاء كسلفهم. وقيل: هم اليهود. أي: ﴿لا تتولّوا قوماً﴾ مغضوباً عليهم ﴿قد يئسوا من﴾ أن يكون لهم حظّ في ﴿الآخرة﴾ لعنادهم رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿كما يئس الكفّار من﴾ موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفّار؛ أي: ﴿كما يئس الكفّار﴾ الذين قُبِروا من خير الآخرة؛ لأنّهم تبيّنوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

ترتيبها ٦١ — آياتها ١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

١، ٢ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله لعملناه. فنزلت آية الجهاد، فتباطأ بعضهم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. ﴿لِمَ﴾ هي: لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية، كما دخل عليها غيرها من حروف الجرّ في قولك: بم، وفيم، ومم، وعم، وإلام، وعلام. وإنّما حذفت الألف؛ لأنّ ما، واللام، أو غيرها كشيءٍ واحد.. وكَثُرَ الاستعمال في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً قال:

علام قام يشتمني جرير؟ *

والوقف على زيادة هاء السكت، أو الإسكان. ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف.

٣ ـ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قصد في ﴿كبر﴾ التعجّب من غير لفظه كقوله:

غَلَتْ نابٌ كُلَيْبٌ بَواؤُها

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤ وَإِذۡ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ
فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾

ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنّ التعجب لا يكون إلاّ من شيءٍ خارج عن نظائره. وأسند إلى ﴿أن تقولوا﴾ ونصب ﴿مقتاً﴾ على التمييز. وفيه دلالة: على أنّ قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه. والمعنى: ﴿كبر﴾ قولكم مالا تفعلون مقتاً عند الله. واختير لفظ المقت؛ لأنه أشدّ البغض. وعن بعض السلف: أنّه قيل له: حدّثنا. فقال: أتأمرونني أن أقول مالا أفعل، فأَسْتَعْجِلَ مقت الله؟!

٤ ـ ثُمَّ أعلم الله عزّ وجلّ ما يحبّه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي: صافّين أنفسهم، مصدر وقع موقع الحال ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض. وقيل: أريد به: استواء نيّاتهم في حرب عدوّهم، حتّى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رصّ بعضه إلى بعض. وهو حالٌ أيضاً.

٥ ـ ﴿وَإِذۡ﴾ منصوب باذكر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بجحود الآيات، والقذف بما ليس فيَّ ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾ في موضع الحال؛ أي: ﴿لم تؤذونني﴾ عالمين علماً يقيناً ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ وقضيّة علمكم بذلك توقيري، وتعظيمي، لا أن تؤذوني ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ مالوا عن الحقّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من الهداية. أو: لمّا تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم. أو: فلمّا اختاروا الزيغ ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: خذلهم وحرمهم توفيق اتّباع الحقّ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي من سبق في علمه: أنّه فاسق.

٦ ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ

يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾

﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدّمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي. يعني: أنّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر. ﴿بَعْدِيَ﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو، وأبو بكر، وهو اختيار الخليل وسيبويه. وانتصب ﴿مصدّقاً﴾ ﴿ومبشّراً﴾ بما في الرسول من معنى الإرسال ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى، أو محمّد عليهما الصلاة السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. (ساحر) حمزةُ، وعليٌّ.

٧ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأيّ الناس أشدّ ظلماً ممن يدعوه ربّه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراءَ الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقّ: ﴿هذا سحر﴾، والسحر: كذبٌ، وتمويهٌ.

٨ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ هذا تهكّم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هذا سحر﴾. مثّلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه. والمفعول محذوف، واللام للتعليل. والتقدير: ﴿يريدون﴾ الكذب ﴿ليطفئوا نورَ الله بأفواههم﴾ أي: بكلامهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مكيٌّ، وحمزةُ، وعليٌّ، وحفص. ﴿متمٌّ نورَه﴾ غيرهم. أي: متمُّ الحقِّ، ومُبَلِّغُه غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الملّة الحنيفيّة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل! فما بقي دين من الأديان إلاّ وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام. وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلاّ دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تُنَجِّيكم: شاميّ.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾

١١ ـ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنّهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تؤمنون﴾ وهو بمعنى: آمنوا عند سيبويه. ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾. ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود: (آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا). وإنّما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنّه امتثل، فهو يخبر عن إيمانٍ وجهادٍ موجودين ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه خير لكم كان خيراً لكم حينئذ؛ لأنّكم إذا علمتم ذلك، واعتقدتموه أحببتم الإيمان، والجهاد فوق ما تحبّون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

١٢ ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وخلود. يقال: عدن بالمكان إذ أقام به. كذا قيل ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمةٌ أخرى عاجلةٌ محبوبةٌ إليكم. ثمّ فسّرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل. وهو فتح مكّة، والنصر على قريش. أو: فتح فارس، والروم. وفي ﴿تحبّونها﴾ شيء من التوبيخ على محبّة العاجل. وقال صاحب الكشف: «معناه: ﴿هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم﴾ ﴿و﴾ على تجارة ﴿أخرى تحبّونها﴾. ثمّ قال: ﴿نصرٌ﴾ أي: هي ﴿نصر﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تؤمنون﴾ لأنّه في معنى الأمر. كأنّه قيل: آمنوا، وجاهدوا يثبكم الله، وينصركم، ﴿وبشّر﴾ يا رسول الله ﴿المؤمنين﴾ بذلك. وقيل: هو عطف على «قل» مراداً قبل: ﴿يأيّها الذين آمنوا هل أدلّكم﴾.

١٤ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أي: ﴿أنصار﴾ دينه ﴿أنصاراً لله﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ظاهره تشبيه

قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

كونهم أنصاراً بقول عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ولكنّه محمول على المعنى: أي: ﴿كونوا أنصار الله كما﴾ كان الحواريّون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ومعناه: ﴿من﴾ مِنْ جندي متوجّهاً ﴿إلى﴾ نصرة ﴿الله﴾ ليطابق جواب الحواريين، وهو قوله: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن الذين ينصرون الله. ومعنى: ﴿من أنصاري﴾ مَن الأنصار الذين يختصّون بي، ويكونون معي في نصرة الله. و﴿الحواريّون﴾: أصفياؤه. وهم أوّل من آمن به. وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواريّ الرجل: صفيّه، وخالصته. من: الحور، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يحوّرون الثياب. أي: يبيّضونها ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ فقوّينا مؤمنيهم على كفّارهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ فغلبوا عليهم.

* * *

سُورَةُ الجُمُعَةِ

ترتيبها ٦٢ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

---

١ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التسبيح إمّا أن يكون تسبيح خلقة. يعني: إذا نظرت إلى كلّ شيء دلتك خلقته على وحدانيّة الله تعالى، وتنزيهه عن الأشباه. أو تسبيح معرفة: بأن يجعل الله بلطفه في كلّ شيءٍ ما يعرف به الله تعالى وينزّهه. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أو تسبيح ضرورة: بأن يجري الله التسبيح على كلّ جوهر من غير معرفةٍ له بذلك.

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ أرسل ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: بعث رجلاً أمّيّاً في قوم أمّيّين. وقيل: ﴿منهم﴾ كقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يعلمون نسبه وأحواله. والأمّيّ: منسوب إلى أمّة العرب؛ لأنّهم كانوا لا يكتُبون ولا يقرؤون من بين الأمم. وقيل: بدئت الكتابة بالطائف، وهم أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم من الشرك وخبائث الجاهليّة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن

﴿وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنّة، أو الفقه في الدين ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبل محمّد ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كفر وجهالة ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واللام دليل عليها. أي: كانوا في ضلال، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

٣ ـ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ مجرور معطوف على ﴿الأمّيّين﴾ يعني: أنّه بعثه ﴿في الأمّيّين﴾ الذين على عهده ﴿و﴾ في ﴿آخرين﴾ من الأمّيّين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم. وهم الذين بعد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أو: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين. وقيل: هم العجم. أو منصوب معطوف على المنصوب في ﴿ويعلّمهم﴾ أي: يعلّمهم ﴿و﴾ يعلم ﴿آخرين﴾؛ لأنّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلّه مستنداً إلى أوّله، فكأنّه هو الذي تولّى كلّ ما وجد منه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أمّيّاً من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه من بين كافّة البشر.

٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً، وهو: أن يكون نبيّ أبناء عصره، ونبيّ أبناء العصور الغوابر، هو ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ إعطاءه، وتقتضيه حكمته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٥ ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ كلّفوا علمها، والعمل بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثمّ لم يعملوا بها فكأنّهم لم يحملوها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ جمع: سفر، وهو: الكتاب الكبير. و﴿يحمل﴾ في محلّ النصب على الحال، أو الجرّ على الوصف؛ لأنّ الحمار كاللئيم في قوله:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني(١) ... ...

شبّه اليهود في أنّهم حملة التوراة وقرّاؤها، وحفّاظ ما فيها، ثمّ لم يعملوا

---

(١) صدر بيت، وعجزه: فأعِفُّ ثم أقول لا يعنيني.

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بها، ولم ينتفعوا بآياتها ـ وذلك: أنّ فيها نعت رسول الله ﷺ، والبشارة به، ولم يؤمنوا به ـ بالحمار حُمِّلَ كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلاّ ما يمرّ بجنبيه وظهره من الكدّ والتعب. وكلّ من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ﴿بئس﴾ مثلاً ﴿مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله﴾. أو: ﴿بئس مثل القوم﴾ المكذّبين مثلهم. وهم اليهود؛ الذين كذّبوا بآيات الله الدالّة على صحّة نبوّة محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وقت اختيارهم الظلم. أو: ﴿لا يهدي﴾ من سبق في علمه: أنّه يكون ظالماً.

٦، ٧ ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ هادَ، يهود: إذا تهوّد ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] أي: إن كان قولكم حقّاً، وكنتم على ثقة فتمنّوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه. ثمّ قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا من الكفر. ولا فرق بين «لا» و«لن» في أنّ كلّ واحدةٍ منهما نفي للمستقبل، إلاّ أنّ في «لن» تأكيداً وتشديداً ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] ومرّةً بغير لفظه ﴿ولا يتمنّونه﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم.

٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محالة. والجملة خبر ﴿إنّ﴾ ودخلت الفاء لتضمُّن ﴿الذي﴾ معنى الشرط ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ النداء: الأذان. و﴿من﴾ بيان لإذا، وتفسير له، ويوم الجمعة: سيد الأيام. وفي الحديث: «من مات يوم الجمعة كَتَب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر»(١) ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ فامضوا. وقرىء بها. وقال الفرّاء: السعي، والمضيّ، والذهاب، واحد. وليس المراد به: السرعة في المشي ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الخطبة عند الجمهور. وبه استدلّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أنّ الخطيب إذا اقتصر على «الحمد لله» جاز ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنّما خصّ البيع من بينها؛ لأنّ يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال. فقيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ﴿وذروا البيع﴾ الذي نفعه يسير ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من البيع والشراء ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٠ ـ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أدّيت ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ـ أمر إباحة ـ ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ الرزق، أو: طلب العلم، أو: عيادة المريض، أو: زيارة أخ في الله ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ واشكروه على ما وفّقكم لأداء فرضه ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

١١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ تفرّقوا عنك إليها. وتقديره: ﴿وإذا رأوا تجارةً﴾ انفضوا إليها ﴿أو لهواً﴾ انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وإنّما خصّ التجارة؛ لأنّها كانت أهمّ عندهم.

روي: أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء، فقدم دحية بن خليفة بتجارة

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤١١٣) وأبو نعيم في الحلية (٣ / ١٥٥).

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾

من زيت الشام، والنبيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، فما بقي معه إلاّ ثمانية، أو اثنا عشر. فقال ﷺ: «والذي نفس محمّد! بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»[١]. وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، فهو المراد باللهو ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَآئِمًا﴾ تخطب. وفيه دليل: على أنّ الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: لا يفوتهم رزق الله بترك البيع، فهو خير الرازقين.

* * *

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٨٦).

سُورَةُ المُنَافِقُون

ترتيبها ٦٣ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟

---

١ ـ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أرادوا شهادة واطأت قلوبهم فيها ألسنتهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ﴿والله يعلم﴾ إنّ الأمر كما يدلّ عليه قولهم: ﴿إنك لرسول الله﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ادّعاء المواطأة. أو: إنّهم ﴿لكاذبون﴾ فيه؛ لأنّه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادةً. أو: إنّهم ﴿لكاذبون﴾ عند أنفسهم؛ لأنّهم كانوا يعتقدون: أنّ قولهم ﴿إنك لرسول الله﴾ كذب، وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

٢ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وقايةً من السبي والقتل. وفيه دليل: على أن: «أشهد» يمين ﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الإسلام بالتنفير، وإلقاء الشبه ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم، وصدّهم الناس عن سبيل الله. وفي ﴿ساء﴾ معنى التعجّب؛ الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾. أي: ﴿ذلك﴾ القول الشاهد عليهم بأنّهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾. أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾

أي: ذلك كله ﴿بـ﴾ سبب ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثم كفروا﴾ ثمّ ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم: إن كان ما يقوله محمّد حقّاً فنحن حمير، ونحو ذلك. أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثمّ نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ الآية [البقرة: ١٤] ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فختم عليها حتّى لا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبّرون، أو لا يعرفون صحّة الإيمان.

٤ ـ والخطاب في ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله، أو: لكلّ من يخاطب ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابن أبيٍّ رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، وقوم من المنافقين في مثل صفته. فكانوا يحضرون مجلس النبيِّ ﷺ، فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن. فكان النبيُّ ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وموضع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ رفع على هم ﴿كأنّهم خشب﴾ أو هو كلام مستأنف لا محلّ له ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط. شبّهوا في استنادهم ـ وما هم إلاّ أجرام خالية عن الإيمان والخير ـ بالخشب المسندة إلى الحائط؛ لأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقفٍ، أو جدارٍ، أو غيرهما من مظانّ الانتفاع، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط. فشبِّهوا به في عدم الانتفاع. أو: لأنّهم أشْباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿خُشْبٌ﴾ أبو عمرو، غير عبّاس وعليّ، جمع: خشبة؛ كبدنة، وبدن. و﴿خُشُب﴾ كثمرة، وثُمُر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿كلّ صيحة﴾ مفعول أوّل. والمفعول الثاني: ﴿عليهم﴾. وتمّ الكلام. أي: ﴿يحسبون كلَّ صيحةٍ﴾ واقعةً ﴿عليهم﴾ وضارّةً لهم لجبنهم ورعبهم. يعني: إذا نادى منادٍ في العسكر، أو انفلتت دابّة، أو أنشدت ضالّة؛ ظنّوه إيقاعاً بهم. ثمّ قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة؛ لأنّ أعدى الأعداء العدوّ المداجي؛ الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء

﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

الدويُّ ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تغترر بظاهرهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم. أو: تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يعدلون عن الحقّ، تعجُّباً من جهلهم، وضلالتهم.

٥ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها، وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً ﴿لَوَوْا﴾ بالتخفيف نافع ﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار والاستغفار.

روي: أنّ رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع ـ وهو ماءٌ لهم ـ وهزمهم، وقتلهم، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر، وسنان الجهنيّ حليف لابن أبيّ، واقتتلا. فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسنان: يا للأنصار! فأعان جهجاهاً جعالُ من فقراء المهاجرين، ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك! وقال: ما صحبنا محمّداً إلاّ لنُلطَم! والله ما مثلنا ومثلهم إلاّ كما قال: سمّن كلبك يأكلك! أما والله! ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾ عنى بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول الله ﷺ. ثمّ قال لقومه: والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمّد. فسمع بذلك زيد بن أرقم ـ وهو حدث ـ فقال: أنت والله الذليل، القليل، المُبَغَّضُ في قومك، ومحمّد في عزٍّ من الرحمن، وقوّةٍ من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت! فإنّما كنت ألعب. فأخبر زيدٌ رسول الله ﷺ. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله! فقال: «إذن تُرْعَدُ آنُفٌ كثيرة بيثرب» قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجريّ، فأمر به أنصارياً. قال: «فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه؟» وقال ﷺ لعبد الله: «أنت صاحب الكلام الذي بلغني». قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذب. فهو قوله: ﴿اتّخذوا أيمانهم جنّة﴾ فقال الحاضرون: «يا رسول الله! شيخنا وكبيرنا، لا تصدّق عليه كلام غلامٍ عسى أن يكون قد وهم. فلمّا نزلت قال

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

رسول الله ﷺ لزيد: «يا غلام إنّ الله قد صدقك وكذّب المنافقين» فلمّا بان كذب عبد الله؛ قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شدادٌ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه فنزل: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ ولم يلبث إلاّ أيّاماً حتّى اشتكى ومات[1].

٦ ـ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنّهم لا يلتفتون إليه، ولا يعتدّون به؛ لكفرهم. أو: لأنّ الله لا يغفر لهم. وقرىء ﴿استغفرت﴾ على حذف حرف الاستفهام؛ لأن ﴿أم﴾ المعادلة تدلّ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٧ ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يتفرّقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وله الأرزاق والقسم، فهو رازقهم منها؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولكنّ عبد الله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك، فيهذون بما يزيّن لهم الشيطان.

٨ ـ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوّة ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمن أعزّه الله وأيّده من رسوله ومن المؤمنين. وهم الأخصّاء بذلك، كما أنّ المذلّة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثّة: ألست على الإسلام وهو العزّ الذي لا ذلّ معه والغنى الذي لا فقر معه؟ وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨٧) وأصل القصة في الصحيحين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

أنّ فيك تيهاً. قال: ليس بتيه، ولكنّه عزّة. وتلا هذه الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ والتصرف فيها، والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب النتاج ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس، أو: عن القرآن ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين. وقيل: من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعو الباقي بالفاني.

١٠ ـ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ﴿من﴾ للتبعيض. والمراد بالإنفاق: الواجب ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: ﴿من قبل أن﴾ يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييأس معه من الإمهال، ويتعذّر عليه الإنفاق ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ هلا أخّرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلى زمان قليلٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدّق ـ وهو جواب ﴿لولا﴾ ـ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤمنين. والآية في المؤمنين. وقيل: في المنافقين. (وأكون) أبو عمرو بالنصب عطفاً على اللفظ. والجزم على موضع ﴿فأصّدّق﴾ كأنّه قيل: إن أخّرتني أصّدّقْ وأكنْ.

١١ ـ ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ المكتوب في اللوح المحفوظ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1] حمّاد، ويحيى ـ والمعنى: أنّكم إذا علمتم: أنّ تأخير الموت عن وقته ممّا لا سبيل إليه، وأنّه هاجم لا محالة، وأنّ الله عليم

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يعلمون﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

. . . .

بأعمالكم فمجازٍ عليها من منع واجب وغيره، لم يبق إلاّ المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات، والاستعداد للقاء الله.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ التَّغَابُن

آياتها ١٨ ترتيبها ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدّم الظرفان ليدلّ بتقديمها على اختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنه مبدىء كلّ شيء، والقائم به. وكذا الحمد؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأمّا ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يده.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر، وفاعلٍ له، ومنكم آتٍ بالإيمان، وفاعل له. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: ﴿هو الذي﴾ تفضّل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم. وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين. فما بالكم تفرّقتم أمماً ﴿فمنكم الكافر ومنكم مؤمن﴾؟ وقدّم الكفر لأنّه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وهو ردّ لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين. وقيل: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر﴾ بالخلق وهم الدهريّة ﴿ومنكم مؤمن﴾ به.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

٣ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. وهو أن جعلها مقارَّ المكلّفين، ليعملوا فيجازيهم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم أحسن الحيوان كلّه، وأبهاه بدليل: أنّ الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته: أنّه خلق منتصباً غير منكبٍّ. ومن كان دميماً، مشوّه الصورة، سمج الخلقة، فلا سماجة ثمَّ، ولكن الحسن على طبقات. فلانحطاطها عمّا فوقها لا تستملح، ولكنّها غير خارجة عن حدّ الحسن. وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم، كما أحسن صوركم.

٤ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نبّه بعلمه ما في السموات والأرض، ثمّ بعلمه بما يُسِرُّه العباد ويعلنونه، ثمّ بعلمه بذات الصدور؛ أنّ شيئاً من الكلّيات، والجزئيّات غير خافٍ عليه. فحقّه أن يُتّقى ويحذر، ولا يجترأ على شيءٍ ممّا يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد. وكل ما ذكره بعد قوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق، ولا تشكر نعمته.

٥ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطاب لكفّار مكّة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا وبال كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في العقبى.

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بأنّ الشأن والحديث ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا الرسالة للبشر، ولم ينكروا العبادة للحجر ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن الإيمان ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أطلق ليتناول كلَّ شيء، ومن جملته إيمانهم وطاعتهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ على صنعه.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ
ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ

٧، ٨ ـ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: أهل مكّة، والزعم: ادّعاء العلم. ويتعدّى تَعدِّيَ العلم ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾: ﴿أن﴾ مع ما في حيّزه قائم مقام المفعولين. وتقديره: أنهم ﴿لن يبعثوا﴾ ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد ﴿لن﴾ وهو البعث ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أكّد الإخبار باليمين. فإن قلت: ما معنى اليمين على شيء أنكروه؟ قلت: هو جائز؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعاً في القلب، فكأنّه قيل لهم: ما تنكرونه كائنٌ لا محالة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ﴾ أي: البعث ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ هيّن ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ يعني: القرآن؛ لأنّه يبين حقيقة كلّ شيءٍ، فيهتدىٰ به؛ كما بالنور ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فراقبوا أموركم.

٩ ـ ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ انتصب الظرف بقوله: ﴿لتنبؤن﴾ أو بإضمار اذكر ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يجمع فيه الأوّلون، والآخرون ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ هو مستعار من: تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. كما ورد في الحديث. ومعنى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ ـ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم ـ: استعظام له، وأنّ تغابنه هو التغابن في الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ صفة للمصدر؛ أي: عملاً ﴿صالحاً﴾ ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ﴾ وبالنون فيهما: مدنيٌّ، وشاميٌّ ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٠، ١١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ شدّة، ومرض، وموت أهلٍ، أو إِلّا

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

شيء يقتضي همّاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه، وتقديره، ومشيئته. كأنّه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] أو بشرحه للازدياد من الطاعة والخير. أو: ﴿يهد قلبه﴾ حتى يعلم: أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، وإن ظُلِم غفر ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٢ ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: فعليه التبليغ. وقد فعل.

١٣ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بَعْثٌ(١) لرسول الله ﷺ على التوكل عليه حتّى ينصره على من كذّبه، وتولّى عنه.

١٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ أي: إنّ من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقّونهم ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدوّ، أو للأزواج والأولاد جميعاً. أي: لما علمتم أنّ هؤلاء لا يخلون من عدوّ، فكونوا منهم على حذر، ولا تأمنوا غوائلهم، وشرّهم ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عنهم إذا اطّلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿وَتَصْفَحُوا۟﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا۟﴾ بستر ذنوبهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ويكفّر عنكم. قيل: إنّ ناساً أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجُهم وأولادُهم، وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقّوا لهم ووقفوا. فلمّا هاجروا بعد ذلك، ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين،

(١) أي: تحريض.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فزيّن لهم العفو.

١٥ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاءٌ، ومحنةٌ؛ لأنّهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم. ولم يدخل فيه ﴿مِنْ﴾ كما في العداوة؛ لأنّ الكلّ لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب، وقد يخلو بعضهم عن العداوة.

١٦ ـ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ جهدكم ووسعكم. قيل: هو تفسير لقوله: ﴿حقّ تقاته﴾ ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ فيما تؤمرون به، وتنهون عنه ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وقال الكسائيّ: يكن الإنفاق ﴿خيراً لأنفسكم﴾. والأصح: أنّ تقديره ائتوا ﴿خيراً لأنفسكم﴾ وافعلوا ما هو خير لها. وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر، وبيان؛ لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد، وما أنتم عاكفون عليه من حبّ الشهوات، وزخارف الدنيا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٧ ـ ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنيةٍ وإخلاصٍ. وَذِكْرُ القرض تلطّف في الاستدعاء ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً، أو سبعمئة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل، ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقيل الجليل من ذنب البخيل. أو يُضَعِّفُ الصدقة لدافعها، ولا يعجّلُ العقوبة لمانعها.

١٨ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

أي: ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المعزّ بإظهار السُّيُوب[1] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في الإخبار عن الغيوب.

* * *

(١) «السيوب»: جمع السَّيْب، وهو العطاء والمال والمعروف.

سورة الطلاق

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خُصَّ النبيّ ﷺ بالنداء، وعُمَّ بالخطاب؛ لأنّ النبيَّ إمام أمّته وقدوتهم. كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا؛ إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه، وأنّه قدوة قومه. فكان هو وحده في حكم كلّهم، وسادّاً مسدَّ جميعهم. وقيل: التقدير: ﴿ياأيّها النبيّ﴾ والمؤمنون. ومعنى: ﴿إذا طلّقتم النساء﴾ إذا أردتم تطليقهنّ. على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه. كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]. ومنه: كان الماشي إلى الصلاة، والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فطلقوهن مستقبلات ﴿لعدتهن﴾. وفي قراءة رسول الله ﷺ (في قبل عدّتهن). وإذا طلّقت المرأة في الطهر المتقدّم للقرء الأوّل من أقرائها فقد طلّقت مستقبلة لعدّتها. والمراد: أن تطلّق المدخول بهنّ من المعتدّات بالحيض في طهر لم يجامعن فيه، ثمّ يُخلَّيْنَ حتّى تنقضي عدّتهنّ. وهذا أحسن الطلاق ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ واضبطوها بالحفظ، وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلاتٍ كوامل، لا نقصان فيهنّ. وخوطب

(١) رواه أحمد (٣ / ١١٤ و ١٩٠ و ٢٧٩) والبخاري (٣٠٥١) ومسلم (١٨٠٩).

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ

الأزواج لغفلة النساء ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضي عدتهنّ ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهنَّ التي يسكنّها قبل العدّة، وهي بيوت الأزواج. وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى. وفيه دليل على أنّ السكنى واجبٌ، وأنّ الحنث بدخول دارٍ يسكنها فلان بغير ملك ثابتٌ فيما إذا حلف: لا يدخل داره. ومعنى الإخراج: ألاّ يخرجهنّ البعولة غضباً عليهنَّ، وكراهة لمساكنتهنّ، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألاّ يأذنوا لهنَّ في الخروج إذا طلبن ذلك، إيذاناً بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ بأنفسهنّ إن أردن ذلك ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قيل: هي الزنى. أي: إلاّ أن يزنين، فيخرجن لإقامة الحدّ عليهنّ. وقيل: خروجها قبل انقضاء العدّة فاحشة في نفسه ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبّتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها. والمعنى: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة﴾ و ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ﴾ لعلّكم تندمون فتراجعون.

٢، ٣ ـ ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن آخر العدّة ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي: فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة، والإمساك بالمعروف، والإحسان. وإن شئتم فترك الرجعة، والمفارقة، واتّقاء الضرار، وهو: أن يراجعها في آخر عدّتها، ثمّ يطلّقها تطويلاً للعدّة عليها، وتعذيباً لها ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه؛ لئلا يقع بينهما التجاحد ﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ من المسلمين ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ لوجهه خالصاً. وذلك: أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرضٍ من الأغراض سوى إقامة الحقّ، ودفع الظلم ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الحثّ على إقامة

يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ

الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: إنّما ينتفع به هؤلاء ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكّدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة. والمعنى: ﴿ومن يتّق الله﴾ فطلّق للسنة، ولم يضارّ المعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط، فأشهد ﴿يجعل﴾ الله ﴿له مخرجاً﴾ ممّا في شأن الأزواج من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرّج عنه، ويعطه الخلاص ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من وجهٍ لا يخطر بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذلكم يوعظ به﴾. أي: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة. وعن النبيّ ﷺ: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[١] وقال ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿ومن يتّق الله...﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها[٢].

وروي: أنّ عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له فأتى رسول الله ﷺ فقال: أُسِرَ ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: «ما أمسى عند آل محمد إلاّ مدّ. فاتّق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم». فعاد إلى بيته، وقال لامرأته: إن رسول الله أمرني وإيّاك أن نستكثر من قول: لا حول ولاقوّة إلا بالله العليّ العظيم. فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به، فجعلا يقولان ذلك، فبينا هو في بيته؛ إذ قرع ابنه الباب ومعه مئة من الإبل تغفّل عنها العدوّ فاستاقها. فنزلت هذه الآية[٣] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه في الدارين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ حفص. أي: منفذ أمره. غيره: ﴿بالغٌ أمرَهُ﴾. أي: يبلغ ما يريد، ولا يفوته مراد،

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي. (حاشية الكشاف ٤/ ٥٥٦).
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠).
(٣) رواه الثعلبي، والبيهقي نحوه. (حاشية الكشاف ٤/ ٥٥٦).

قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم

ولا يعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديراً وتوقيتاً. وهذا بيان لوجوب التوكّل على الله، وتفويض الأمر إليه؛ لأنّه إذا علم أنّ كلّ شيءٍ من الرزق ونحوه لا يكون إلّا بتقديره، وتوقيته؛ لم يبق إلّا التسليم للقدر، والتوكّل.

٤ ـ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ روي: أنّ ناساً قالوا: قد عرفنا عدّة ذوات الأقراء؛ فما عدّة اللائي لم يحضن؟ فنزلت ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ ﴿إن﴾ أشكل عليكم حكمهنّ، وجهلتم كيف يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: فهذا حكمهنّ. وقيل: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في دم البالغات مبلغ اليأس ـ وقد قدّروه بستّين سنة، وبخمس وخمسين ـ أهو دم حيض أو استحاضة؟ ﴿فعدّتهنّ ثلاثة أشهر﴾. وإذا كانت هذه عدّة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ هنّ الصغائر. وتقديره: ﴿واللائي لم يحضن﴾ فعدّتهنّ ثلاثة أشهر. فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدّتهنّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. والنصّ يتناول المطلّقات، والمتوفّى عنهنّ أزواجهن. وعن عليٍّ، وابن عباسٍ ـ رضي الله عنهم ـ: عدّة الحامل المتوفى عنها [زوجها][1] أبعد الأجلين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ ييسّر له من أمره، ويحلل من عقده بسبب التقوى.

٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما علم من حكم هؤلاء المعتدّات ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

٦ ـ ثمّ بيّن التقوى في قوله: ﴿ومن يتّق الله﴾؛ كأنّه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدّات؟ فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

---

(١) ليست في الأصل المخطوط.

﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾

هي ﴿من﴾ التبعيضيّة، مبعّضها محذوف. أي: ﴿أسكنوهنّ﴾ مكاناً ﴿من حيث سكنتم﴾ أي: بعض مكان سكناكم ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له. كأنّه قيل: ﴿أسكنوهنّ﴾ مكاناً من مسكنكم ممّا تطيقونه. والوجد: الوسع والطاقة. وقرىء بالحركات الثلاث. والمشهور الضمّ.

والنفقة والسكنى واجبتان لكلّ مطلّقة. وعند مالكٍ، والشافعيِّ ـ رحمهما الله ـ: لا نفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس: أنّ زوجها أبتّ طلاقها. فقال رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»(١). وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا لقول امرأة لعلّها نسيت أو شبّه لها. سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لها السكنى والنفقة»(٢) ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولا تستعملوا معهنّ الضرار ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهنّ، أو يشغل مكانهنَّ، أو غير ذلك حتّى تضطرّوهنّ إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلّقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ ذوات أحمال ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾. وفائدة اشتراط الحمل: أنّ مدّة الحمل ربما تطول، فيظن ظانّ أنَّ النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدّة الحائل. فنفي ذلك الوهم ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ يعني: هؤلاء المطلّقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنّ، أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجيّة ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فحكمهنَّ في ذلك حكم الأظآر. ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهنّ مالم يبنَّ، خلافاً للشافعيِّ ـ رحمه الله ـ ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم﴾ أي: تشاوروا على التراضي في الأجرة. أو ليأمر بعضكم بعضاً. والخطاب للآباء والأمّهات ﴿بِمَعۡرُوفٖ﴾ بما يليق بالسنّة، ويحسن في المروءة. فلا يماكس الأب، ولا تعاسر الأمّ؛ لأنّه ولدهما، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ تضايقتم فلم ترض الأمّ بما ترضع به الأجنبيّة، ولم يزد الأب على ذلك

(١) رواه الترمذي (١١٨٠) وابن ماجه (٢٠٣٦).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤١٢) ومسلم (١٤٨٠/ ٤٤) وأبو داود (٢٢٨٨).

فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ فستوجد ولا تُعْوِز مرضعةٌ غير الأمّ ترضعه. وفيه طرف من معاتبة الأمّ على المعاسرة. وقوله: ﴿له﴾ أي: للأب. أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمّه.

٧ ـ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لينفق كلّ واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلّقات والمرضعات. ومعنى: ﴿قدر عليه رزقه﴾ ضيّق. أي: رزقه الله على قدر قوته ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أعطاها من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق في المعيشة سعة. وهذا وعد لذي العسر باليسر.

٨، ٩ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهل قريةٍ ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿نكراً﴾ مدنيّ وأبو بكر: منكراً عظيماً ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً. والمراد: حساب الآخرة، وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده مَلْقِيٌّ في الحقيقة. وما هو كائن فكأن قد كان.

١٠، ١١ ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد، وبيان لكونه مترقباً. كأنّه قال: ﴿أعدّ الله لهم﴾ هذا العذاب ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه. ويجوز أن يراد: إحصاء السيّئات، واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظة، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل، وأن يكون ﴿عتت﴾ وما عطف عليه صفة للقرية، و﴿أعدّ الله لهم﴾ جواباً لـ ﴿كأيّن﴾ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾

﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي: القرآن. وانتصب ﴿رَّسُولًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أرسل رسولاً. أو: هو بدل من ﴿ذكراً﴾ كأنّه في نفسه ذكر. أو على تقدير حذف المضاف أي: ﴿قد أنزل الله إليكم﴾ ذا ذكر ﴿رسولاً﴾، وأريد بالذكر: الشرف. لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذا شرفٍ ومجدٍ عند الله؛ وبالرسول: جبريل، أو: محمد ـ عليهما السلام ـ ﴿يَتْلُوا۟﴾ أي: الرسول، أو: الله عز وجلّ ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح. أو: ليخرج الذين علم أنّهم يؤمنون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر، أو الجهل إلى نور الإيمان، أو العلم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون مدنيّ وشاميّ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. وحّد، وجمع، حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجُّب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب.

١٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أجمع المفسّرون على أن السموات سبع ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ قيل: ما في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع إلاّ هذه الآية. وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمئة عام. وغلظ كلّ سماءٍ كذلك. والأرضون مثل السموات. وقيل: الأرض واحدة. إلاّ أنّ الأقاليم سبعة ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهنّ، وملكه ينفذ فيهنّ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام يتعلّق بـ ﴿خلق﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ هو تمييز. أو: مصدر من غير لفظ الأوّل. أي: قد علم كلّ شيء علماً.

* * *

سورة التحريم

ترتيبها ٦٦ — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي: أنّ رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعلمت بذلك حفصة. فقال لها: «اكتمي عليَّ، وقد حرّمت مارية على نفسي، وأبشرك: أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي». فأخبرت به عائشة. وكانتا متصادقتين. وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاها بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلّقها. واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: راجعها فإنّها صوّامة قوّامة، وإنها لمن نسائك في الجنّة[١].

وروي: أنّه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّا نشمّ منك ريح المغافير. وكان يكره رسول الله ﷺ التفَل، فحرّم العسل[٢]. فمعناه: ﴿لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين،

---

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه. (حاشية الكشاف ٥٦٣/٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٧) ومسلم (١٤٧٤).

تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ

أو: من العسل ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لـ: ﴿تحرّم﴾، أو: حال، أو: استئناف. وكان هذا زلّة منه؛ لأنّه ليس لأحد أن يحرّم ما أحل الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك، فلم يؤاخذك به.

٢ ـ ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدّر الله لكم ما تحلّلون به أيمانكم. وهي: الكفّارة. أو: قد شرع لكم تحليلها بالكفّارة. أو: شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم. من قولك: حلّل فلان في يمينه: إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله عقيبها، حتّى لا يحنث. وتحريم الحلال يمينٌ عندنا. وعن مقاتل: أنّ رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية. وعن الحسن: أنّه لم يكفر؛ لأنَّه كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. وإنّما هو تعليم للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ سيّدكم، ومتولّي أموركم. وقيل: ﴿مولاكم﴾ أولى بكم من أنفسكم، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أحلَّ وحرَّم.

٣ ـ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أفشته إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلع النبيَّ ﷺ على إفشائها الحديث على لسان جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكرّماً. قال سفيان ـ رحمه الله ـ: ما زال التغافل من فعل الكرام. ﴿عرف﴾ بالتخفيف، عليٌّ؛ أي: جازى عليه. من قولك للمسيء: لأعرِفَنَّ لك ذلك. وقيل: المعرَّف: حديث الإمامة، والمعرض عنه: حديث مارية. وروي أنّه قال لها: «ألم أقل لك: اكتمي عليّ؟ قالت: والذي بعثك بالحقّ ما ملكت نفسي ـ فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله بها أباها[1] ـ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ نبّأ النبيّ حفصة بما أفشت من السرّ إلى عائشة ـ رضي

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/٥٦٦).

قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ

الله عنهما ـ ﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالسرائر ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالضمائر.

٤ ـ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما. وجواب الشرط محذوف. والتقدير: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ فهو الواجب. ودلّ على المحذوف: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حبِّ ما يحبُّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بالتخفيف كوفيّ. وإن تعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سرّه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ وليُّه وناصره. وزيادة ﴿هو﴾ إيذان بأنّه يتولّى ذلك بذاته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليّه ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صلح من المؤمنين. أي: كلّ من آمن وعمل صالحاً. وقيل: من بريء من النفاق. وقيل: الصحابة. وهو واحد أريد به الجمع. كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس. تريد الجنس. وقيل: أصله: صالحو المؤمنين، فحذفت الواو عن الخط موافقة للفظ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد نصرة الله، وجبريل، وصالحي المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له. فما يبلغ تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه؟ ولمّا كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله قال: ﴿بعد ذلك﴾ تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

٥ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ ﴿يُبَدِّلَهُ﴾ مدنيّ وأبو عمرو. فالتشديد للكثرة ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾. فإن قلت: كيف تكون المبدّلات خيراً منهنّ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمّهات المؤمنين؟ قلت: إذا طلّقهنّ رسول الله ﷺ لإيذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهنّ من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهنّ ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقرّات مخلصات.

قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾ مطيعاتٍ، فالقنوت: هو القيام بطاعة الله. وطاعة الله في طاعة رسوله ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب، أو راجعات إلى الله، وإلى أمر رسوله ﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾ لله ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ مهاجرات، أو صائمات. وقيل للصائم: سائح؛ لأنّ السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه. فشبّه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ إنّما وسط العاطف بين الثيّبات والأبكار دون سائر الصفات لأنّهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ نوعاً من النار لا تتّقد إلاّ بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿عَلَيۡهَا﴾ يلي أمرها، وتعذيب أهلها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ في أجرامهم غلظة وشدّة، أو غلاظ الأقوال، شداد الأفعال ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ﴾ في موضع الرفع على النعت ﴿مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ في محلّ النصب على البدل. أي: ﴿لا يعصون﴾ ما أمر الله. أي: أمره. كقوله: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٣]. أو: لا يعصونه فيما أمرهم ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾. وليست الجملتان في معنى واحد. إذ معنى الأولى: أنّهم يتقبّلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنّهم يؤدّون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه، ولا يتوانون فيه.

٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا، أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار: ﴿لا تعتذروا﴾ لأنّه لا عذر لكم، أو لأنّه لا ينفعكم الاعتذار.

٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ صادقة، عن الأخفش ـ رحمه الله ـ وقيل: خالصة. يقال: عسل ناصح: إذا خلص من الشمع. وقيل: ﴿نصوحاً﴾ من نصاحة الثوب. أي: توبةً ترفو خروقك في دينك، وترمّ

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ

خللك. ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس؛ أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور أثرها في صاحبها، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها. وبضمّ النون حمّاد ويحيى. وهو مصدر، أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحاً. وجاء مرفوعاً: «أنّ التوبة النصوح: أن يتوب ثمّ لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضرع»[1]. وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشرّ أن يتوب عن الذنب ثمّ يعود فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الاستغفار باللسان، والندم بالجنان، والإقلاع بالأركان ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى، ولعلّ، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ﴾ بـ﴿يدخلكم﴾ ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ في موضع الخبر ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالقول الغليظ، والوعظ البليغ. وقيل: بإقامة الحدود عليهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجّة باللسان ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

---

(١) انظره بنحوه في الدر المنثور (٨/ ٢٢٧).

مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ

﴿مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ مثّل الله عزّ وجلّ حال الكفّار في أنّهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيّاً، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط لمّا نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما، فلم يغن الرسولان ﴿عنهما﴾ أي: عن المرأتين بحقّ ما بينهما وبينهما من [الزواج](١) إغناءً ما من عذاب الله، ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع﴾ سائر ﴿الداخلين﴾ الذين لا وُصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوحٍ، وقوم لوط.

١١ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هي: آسية بنت مزاحم. آمنت بموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تعذّب: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ ـ فكأنّها أرادت الدرجة العالية، لأنه تعالى منزّه عن المكان، فعبّرت عنها بقولها: ﴿عندك﴾ ـ ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: من عمل فرعون، أو: من نفس فرعون الخبيثة، وخصوصاً من عمله، وهو الكفر، والظلم، والتعذيب بغير جرم ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القبط كلّهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل، من سير الصالحين.

١٢ ـ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ المخلوقة لنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ

---

(١) في الأصل المخطوط: أزواجِ.

رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

رَبِّهَا﴾ أي: بصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بصريٌّ، وحفص. يعني: الكتب الأربعة ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. لمّا كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، غلب ذكوره على إناثه، و﴿من﴾ للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت ﴿من القانتين﴾ لأنّها من أعقاب هارون أخي موسى ـ عليهما السلام ـ.

ومثّل حال المؤمنين في أنّ وُصلة الكافرين لا تضرّهم، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله، بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أنّ قومها كانوا كفّاراً.

وفي طيِّ هذين التمثيلين تعريض بأمّيِّ المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه، وإشارة إلى أنّ من حقهما أن تكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين، وألاّ تتّكلا على أنّهما زوجا رسول الله ﷺ.

* * *

سُورَةُ المُلك

آياتها ٣٠ — ترتيبها ٦٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وتُسمّى الواقية والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر.

وجاء مرفوعاً: «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب»(١).

١ ـ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: في تصرُّفه الملك، والاستيلاء على كلّ موجود، وهو مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المقدورات، أو: من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على الكمال.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿الذي﴾ قبله ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: ما يصحّ بوجوده الإحساس، والموت: ضدّه. ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحّح وإعدامه. والمعنى: ﴿خلق﴾ موتكم وحياتكم أيّها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعمّ الأمير والأسير، والحياة التي لا تفي بعليل ولا طبيب، فيظهر منكم ما علم أنّه يكون منكم، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لوجه الله.

(١) رواه الطبري وابن مردويه موقوفاً من حديث ابن مسعود. (الدر المنثور ٨/ ٢٣٢).

وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ

والصواب: أن يكون على السنّة. والمراد: أنّه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل، وسلّط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح. فما وراءه إلاّ البعث والجزاء الذي لابدّ منه. وقدّم الموت على الحياة؛ لأنّ أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فَقُدِّمَ لأنّه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهمُّ. ولمّا قُدّم الموتُ الذي هو أثر صفة القهر، على الحياة التي هي أثر اللطف، قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ الستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ مطابقة بعضها فوق بعض. من: طابق النَّعلَ: إذا خصفها طبقاً على طبق. وهذا وصف بالمصدر. أو: على ذات طباق. أو: على طوبقت ﴿طباقاً﴾. وقيل: جمع: طبق، كجمل وجمال. والخطاب في: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ للرسول، أو: لكل مخاطب ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ ﴿من تفوّت﴾ حمزة، وعلي. ومعنى البناءين واحد، كالتعاهد والتعهّد. أي: من اختلافٍ واضطرابٍ. وعن السدّي: من عيب. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأنّ بعض الشيء يفوت بعضاً، ولا يلائمه. وهذه الجملة صفة لـ «طباقاً». وأصلها ﴿ما ترى﴾ فيهنّ ﴿من تفاوت﴾. فوضع ﴿خلق الرحمن﴾ موضع الضمير، تعظيماً لخلقهنّ، وتنبيهاً على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو: أنّه خلق الرحمن، وأنّه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ ردّه إلى السماء، حتّى يصحَّ عندك ما أُخبِرْتَ به بالمعاينة، ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ صدوع وشقوق. جمع: فَطَر، وهو: الشقّ.

٤ ـ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ كرّر النظر مرّتين أي: ﴿كرتين﴾ مع الأولى. وقيل: سوى الأولى. فتكون ثلاث مرات. وقيل: لم يرد به الاقتصار على مرّتين، بل أراد به التكرير بكثرة. أي: كرّر نظرك، ودقّقه؛ هل ترى خللاً أو

يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ

عيباً. وجواب الأمر ﴿يَنقَلِبْ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً، أو بعيداً ممّا تريد. وهو حال من البصر ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليلٌ مُعْيٍ، ولم تر فيها خللاً.

٥ ـ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القربى. أي: ﴿السماء الدنيا﴾ منكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح. والمصابيح: السرج. فسمّيت بها الكواكب. والناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح. فقيل: ﴿ولقد زينا﴾ سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بمصابيح﴾ أي: بأيّ مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف مالا علم له به. والرجوم: جمع رجم. وهو مصدر سمّي به ما يرجم به. ومعنى كونها: ﴿رجوماً للشياطين﴾ أن ينفصل عنها شهاب كقبسٍ يؤخذ من نار، فيقتل الجنّيَّ، أو يخبله؛ لا إنَّ الكواكب تزول عن أماكنها؛ لأنّها قارّةٌ في الفلك على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

٦ ـ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ ولكلّ من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، جهنّم.

٧ ـ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ طرحوا في جهنّم، كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ لجهنّم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً منكراً، كصوت الحمير. شبّه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

٨ ـ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميّز، يعني: تتقطّع، وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ على الكفّار. فجعلت كالمغتاظة عليهم استعارة لشدّة غليانها بهم ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾
فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ

جماعة من الكفّار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مالك، وأعوانه من الزبانية، توبيخاً لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ رسولٌ يخوّفكم من هذا العذاب.

٩ ـ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأنّه تعالى أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: فكذّبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ممّا يقولون من وعد، ووعيد، وغير ذلك، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: قال الكفّار للمنذرين: ما أنتم إلاّ في خطأ عظيم. فالنذير بمعنى الإنذار. ثمّ وصف به منذروهم لغلوّهم في الإنذار كأنّهم ليسوا إلاّ إنذاراً. وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفّار على إرادة القول. ومرادهم بالضلال: الهلاك. أو: سمّوا جزاء الضلال باسمه؛ كما سُمِّيَ جزاء السيّئة والاعتداء سيّئةً واعتداءً. ويسمّى المشاكلة في علم البيان. أو: كلام الرسل لهم حكوه للخزنة؛ أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

١٠ ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالب الحقّ ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نعقله عقل متأمّل ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في جملة أهل النار. وفيه دليل: على أنّ مدار التكليف على أدلّة السمع والعقل، وأنهما حجّتان ملزمتان.

١١ ـ ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وبضمّ الحاء يزيد، وعليٌّ. فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته. اعترفوا أو جحدوا؛ فإنّ ذلك لا ينفعهم. وانتصابه على أنّه مصدر وقع موقع الدعاء.

١٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: الجنّة.

١٣ ـ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار، والإجهار. ومعناه: ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما. روي:

إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

أنّ مشركي مكّة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل بما قالوا فيه، ونالوا منه. فقالوا فيما بينهم: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمّد، فنزلت. ثمّ علّله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلّم به؟

١٤ ـ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع بأنّه فاعل يعلم ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنكر ألاّ يحيط علماً بالمضمر، والمسرّ، والمجهر مَنْ خلقها، وصفته أنّه: ﴿اللطيف﴾ أي: العالم بدقائق الأشياء ﴿الخبير﴾ العالم بحقائق الأشياء. وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد. وقال أبو بكر بن الأصمّ، وجعفر بن حرب: ﴿مَنْ﴾ مفعول، والفاعل مضمر، وهو الله تعالى. فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال.

١٥ ـ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ ليّنةً، سهلة، مذلّلة لا تمنع المشي فيها ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها استدلالاً، واسترزاقاً، أو: جبالها، أو طرقها ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: من رزق الله فيها ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

١٦ ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَنْ ملكوته ﴿في السماء﴾ لأنّها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه، وكتبه، وأوامره، ونواهيه، فكأنّه قال: ﴿أأمنتم﴾ خالق السماء وملكه. ولأنّهم كانوا يعتقدون النِّسبة، وأنّه في السماء، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: ﴿أأمنتم من﴾ تزعمون أنّه ﴿في السماء﴾ وهو متعال عن المكان ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرّك.

١٧ ـ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة ﴿أن يرسل﴾ بدل من بدل اشتمال. وكذا ﴿أن يخسف﴾ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتم

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ۝١٩ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾

المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

١٨ ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم؛ إذ أهلكتهم.

١٩ ـ ثُمَّ نبّه على قدرته على الخسف وإرسال الحاصب بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانهنّ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممن إذا ضربن بها جنوبهنّ. ﴿ويقبضن﴾: معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى. أي: يصففن ﴿ويقبضن﴾، أو ﴿صافّاتٍ﴾ وقابضاتٍ. واختيار هذا التركيب باعتبار: أنّ أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والهواء للطائر كالماء للسابح. والأصل في السباحة: مدّ الأطراف وبسطها. وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرّك. فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل، على معنى أنهنّ صافّاتٍ، ويكون منهنّ القبضِ تارةً بعد تارةٍ؛ كما يكون من السابح ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع عند القبض والبسط ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقدرته. وإلا فالثقيل يتسفّل طبعاً ولا يعلو. وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك. و﴿ما يمسكهنّ﴾ مستأنف، وإن جعل حالاً من الضمير في ﴿يقبضن﴾ يجوز ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق، وكيف يدبّر العجائب.

٢٠ ـ ﴿أَمَّنْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿هَٰذَا﴾. ويبدل من ﴿هذا﴾ ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾. ومحلّ ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رفع نعت لـ: ﴿جند﴾ محمول على اللفظ. والمعنى: من المشار إليه بالنصر غير الله تعالى؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

٢١ ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ ﴿أم من﴾ يشار إليه، ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك﴾ الله ﴿رزقه﴾؟ وهذا على التقدير. ويجوز أن

بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

يكون إشارة إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم: أنهم يُحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنّهم الجند الناصر والرازق. فلمّا لم يتّعظوا أضرب عنهم فقال: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ تمادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ استكبار عن الحقّ ﴿وَنُفُورٍ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتّبعوه.

٢٢ ـ ثُمَّ ضرب مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي: ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي مُعْتَسِفاً وخبر ﴿مَنْ﴾: ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أرشد ـ فأكبّ مطاوع كبّه، يقال: كببته فأكبّ، مطاوع كبّه ـ ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستوياً منتصباً، سالماً من العثور، والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طريقٍ مستو. وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف لدلالة ﴿أهدى﴾ عليه. وعن الكلبيِّ: عُني بالمكبّ: أبو جهل، وبالسويِّ: النبي ﷺ.

٢٣ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم ابتداءً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصّها؛ لأنّها آلات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم؛ لأنّكم تشركون بالله، ولا تخلصون له العبادة، والمعنى: ﴿تشكرون﴾ شكراً قليلاً. و﴿ما﴾ زائدة. وقيل: القلّة عبارة عن العدم.

٢٤ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحساب والجزاء.

٢٥ ـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين استهزاءً: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به؟ يعني: العذاب. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في كونه، فأعلمونا زمانه.

٢٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: علم وقت العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ مُخوِّفٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّن لكم الشرائع.

٢٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الوعد. يعني: العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم.

سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ
أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا
فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

وانتصابها على الحال ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ساءت رؤية الوعد وجوههم، بأن عَلَتْها الكآبة والمساءة، وغشيتها القَتَرَة والسواد ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ القائلون الزبانية ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء. أي: تسألون تعجيله، وتقولون: ائتنا بما تعدنا. أو: هو من الدعوى، أي: كنتم بسببه تدّعون أنّكم لا تبعثون. وقرأ يعقوب ﴿تَدْعُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني؛ كقوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من الأصحاب ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ فأخّر في آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ مؤلم؟ كان كفّار مكّة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربّصون لإحدى الحسنيين: إمّا أن نهلك؛ كما تتمنّون، فننقلب إلى الجنّة، أو نرحم بالنصرة عليكم؛ كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار؟ لابدّ لكم منه.

٢٩ ـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إليه الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ صدّقناه، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ فوّضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب ـ وبالياء: عليّ ـ ﴿مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ نحن أم أنتم.

٣٠ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض، لا تناله الدلاء. وهو وصف بالمصدر، كعدل بمعنى: عادل ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ جارٍ يصل إليه من أراده. وتليت عند ملحد فقال: يأتي بالمعول والمُعِين، فذهب ماء عينيه في تلك الليلة وعَمِيَ. وقيل: إنّه محمد بن زكريّا المتطبّب. زادنا الله بصيرة.

* * *

سُورَةُ القَلَمِ

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿نٓ﴾ الظاهر: أنّ المراد به هذا الحرف من حروف المعجم. وأمّا قول الحسن: إنّه الدواة، وقول ابن عباس: إنّه الحوت الذي عليه الأرض، واسمه يهموت، فمشكل؛ لأنّه لا بدّ له من الإعراب سواء كان اسم جنس، أو اسم علم. فالسكون دليل على أنّه من حروف التّهجّي ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ أي: ما كتب به اللوح، أو: قلم الملائكة، أو: الذي يكتب به الناس. أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يسطره الحفظة، أو: ما يكتب من الخير من كتب. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدريّة. وجواب القسم:

٢ ـ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوّة وغيرها فـ ﴿أنت﴾ اسم ﴿ما﴾. وخبرها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾. و﴿بنعمة ربّك﴾: اعتراض بين الاسم والخبر. والباء في ﴿بنعمة﴾ يتعلّق بمحذوف. ومحلّه: النصب على الحال، والعامل فيها ﴿بمجنون﴾. وتقديره: ﴿ما أنت﴾ بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنّها زائدة لتأكيد النفي. وهو جواب قولهم:

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾
بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٣ ـ ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثواباً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو: ﴿غير ممنون﴾ عليك.

٤ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو ما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[1]. أي: ما فيه من مكارم الأخلاق. وإنّما استعظم خلقه لأنّه جَادَ بالكونين، وتوكّل على خالقهما.

٥، ٦ ـ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: عن قريب ترى ويرون ـ وهذا وعدٌ له ووعيدٌ لهم ـ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ المجنون لأنّه فتن؛ أي: محن بالجنون. والباء مزيدة. أو: المفتون مصدر كالمعقول؛ أي: ﴿بأيكم﴾ الجنون. وقال الزجّاج: الباء بمعنى: في. تقول: كنت ببلد كذا، أي: في بلد كذا. وتقديره: في ﴿أيّكم المفتون﴾ أي: في أيّ الفريقين منكم المجنون، فريق الإسلام، أو فريق الكفر.

٧ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلّوا عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بالعقلاء، وهم المهتدون.

٨ ـ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم. وقد أرادوا على أن يعبد الله مدّةً وآلهتهم مدّةً، ويكفوا عنه غوائلهم.

٩ ـ ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو تلين لهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلينون لك. ولم ينصب بإضمار أن، وهو جواب التمنّي؛ لأنّه عدل به إلى طريق آخر، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: ﴿فـ﴾ هم ﴿يدهنون﴾ يعني: فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك.

(١) رواه مسلم (٧٤٦) والنسائي (٣/١٩٩).

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾

١٠ ـ ١٦ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل ـ وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ـ ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير في الرأي والتميز، من المهانة، وهي: القلّة، والحقارة. أو: كذّاب؛ لأنّه حقير عند الناس ﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب، طعّان، مغتاب ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم. والنميم والنميمة: السعاية ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل. والخير: المال. أو: منّاع أهله من الخير. وهو الإسلام. والمراد: الوليد بن المغيرة عند الجمهور. وكان يقول لبنيه العشرة: من أسلم منكم منعته رفدي ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز في الظلم حدّه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام ﴿عُتُلٍّۭ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عدّ له من المثالب ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ. وكان الوليد دعيّاً في قريش ليس من سِنْخهم[1]، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أمّه ولم يعرف حتّى نزلت هذه الآية. والنطفة إذا خبثت خبث الناشيء منها.

روي: أنّه دخل على أمّه وقال: إنّ محمّداً وصفني بعشر صفات وجدت تسعاً فيّ، فأمّا الزنيم فلا علم لي به. فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاّ ضربت عنقك، فقالت: إنّ أباك عنّين، وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده، فدعوت راعياً إلى نفسي فأنت من ذلك الراعي ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ متعلّق بقوله: ﴿ولا تطع﴾. أي: ولا تطعه مع هذه المثالب لـ ﴿أن كان ذا مال﴾ أي: ليساره وحظّه من الدنيا. ويجوز أن يتعلّق بما بعده. أي: لـ ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ كذّب بآياتنا. يدلّ عليه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ولا يعمل فيه ﴿قال﴾ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله. ﴿أأن﴾ حمزة، وأبو بكر. أي: ألأن كان ذا مالٍ كذّب؟ ﴿آن﴾ شاميّ، ويزيد، ويعقوب، وسهل.

قالوا: لمّا عاب الوليد النبيّ ﷺ ـ كاذباً ـ باسم واحد، وهو: المجنون،

(١) «السنخ»: الأصل.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

سمّاه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً. فإن كان من عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشر، كان من فضله: أنّ من صلّى عليه واحدةً صلّى الله عليه عشراً ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنكويه ﴿عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ على أنفه مهانةً له، وعلماً يعرف به. وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأنّ الوسم عليه أبشع. وقيل: خطم بالسيف يوم بدر، فبقيت سمة على خرطومه.

١٧، ١٨ ـ ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ امتحنّا أهل مكّة بالقحط والجوع حتّى أكلوا الجيف والرِّمَمَ بدعاء النبيّ ﷺ حيث قال: «اللّهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف»(١) ﴿كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنّة بقرية يقال لها: ذَرْوان، وكانت على فرسخين من صنعاء، فكان يأخذ منها قوت سنةٍ ويتصدّق بالباقي على الفقراء. فلمّا مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولو عيال. فحلفوا: ﴿ليصرمنّها مصبحين﴾ في السّدَف(٢)، خفيةً عن المساكين. ولم يستثنوا في يمينهم. فأحرق الله جنّتهم. وقال الحسن: كانوا كفّاراً. والجمهور على الأوّل ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾ حلفوا ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ ليقطعنّ ثمرها ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء ـ حال من فاعل «يَصْرِمُنَّها» ـ ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. وسمّي استثناء وإن كان شرطاً صورة؛ لأنّه يؤدّي مؤدّى الاستثناء من حيث: أنّ معنى قولك: لأخرجنّ إن شاء الله، و: لا أخرج إلاّ أن يشاء الله، واحدٌ.

١٩، ٢٠ ـ ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل عليها بلاء، قيل: أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ أي: في حال نومهم ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾ فصارت الجنّة ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم. أي: احترقت فاسودّت. أو: كالصبح. أي:

---

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥ / ٢٩٤).
(٢) «السدف»: الظلمة.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

صارت أرضاً بيضاء بلا شجر. وقيل: كالمصرومة، أي: كأنّها صرمت لهلاك ثمرها.

٢١، ٢٢ ـ ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾ باكروا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ولم يقل إلى حرثكم؛ لأنّ الغدوّ إليه ليصرموه كان غدوّاً عليه. أو: ضُمِّنَ الغدوّ معنى الإقبال. أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ مريدين صرامه.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ ذهبوا ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنّة. و﴿أن﴾ مفسّرة. وقرىء بطرحها بإضمار القول. أي: ﴿يتخافتون﴾ يقولون: ﴿لا يدخلنّها﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾. والنهي عن دخول المسكين نهي عن التمكين. أي: لا تمكّنوه من الدخول.

٢٥ ـ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على جِدٍّ في المنع ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عند أنفسهم على المنع. كذا عن نفطويه. أو الحرد: القصد والسرعة. أي: ﴿وغدوا﴾ قاصدين إلى جنّتهم بسرعتهم ﴿قادرين﴾ عند أنفسهم على صرامها وزيّ منفعتها عن المساكين. أو: هو علم للجنّة، أي ﴿غدوا على﴾ تلك الجنّة ﴿قادرين﴾ على صرامها عند أنفسهم.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: جنّتهم محترقةً ﴿قَالُوٓاْ﴾ في بديهة وصولهم: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضللنا جنّتنا، وما هي بها؛ لما رأوا من هلاكها. فلمّا تأملوا وعرفوا أنّها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمنا خيرها؛ لجنايتنا على أنفسنا.

٢٨، ٢٩ ـ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلاّ تستثنون؛ إذ الاستثناء: تسبيح؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله؛ لأنّ الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له. وكلّ واحدٍ من التفويض والتنزيه تعظيم. أو: ﴿لولا﴾ تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيّتكم. كأنَّ أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، فتوبوا عن هذه العزيمة

قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

الخبيثة، فعصوه، فعيّرهم. ولهذا ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلّموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلّم به أوّلاً، وأقرّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف، وترك الاستثناء، ونزّهوه عن أن يكون ظالماً.

٣٠، ٣١ ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين، ويحيل كلُّ واحدٍ منهم اللائمة على آخر. ثمّ اعترفوا جميعاً بأنّهم تجاوزوا الحدّ بقوله: ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ بمنع حقّ الفقراء وترك الاستثناء.

٣٢ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ وبالتشديد: مدنيّ وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من هذه الجنّة. ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير، راجون لعفوه. عن مجاهد: تابوا، فأبدلوا خيراً منها. وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: بلغني أنّهم أخلصوا فأبدلهم بها جنّة تسمّى الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً.

٣٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي ذكرنا، عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب.

٣٤ ـ ثمّ ذكر ما عنده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنّاتٍ ليس فيها إلاّ التنعم الخالص بخلاف جنّات الدنيا.

٣٥، ٣٦ ـ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ استفهام إنكار على قولهم: لو كان مايقول محمّد حقاً فنحن نُعطى في الآخرة خيراً ممّا يعطى هو ومن معه، كما في الدنيا. فقيل لهم ﴿أ﴾ نحيف في الحكم ﴿فنجعل المسلمين﴾ كالكافرين؟ ثمّ قيل لهم على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج ـ وهو:

أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ

التسوية بين المطيع والعاصي ـ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتّى تحكموا فيه بما شئتم.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ تقرؤون في ذلك الكتاب ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم. والأصل: تدرسون أنّ لكم ما تخيّرون ـ بفتح أنّ ـ لأنّه مدروس لوقوع الدرس عليه، وإنّما كسرت لمجيء اللام. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: ٧٨ـ ٧٩] وتخيّر الشيء واختاره: أخذ خيره.

٣٩، ٤٠ ـ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾ عهود مؤكّدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ نعت ﴿أيمان﴾. ويتعلّق ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ببالغة. أي: أنها تبلغ ذلك اليوم، وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. أو بالمقدّر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا ﴿إلى يوم القيامة﴾ لا نخرج عن عهدتها إلّا يومئذ إذا حكّمناكم وأعطيناكم ما تحكمون ـ ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ به لأنفسكم. وهو جواب القسم؛ لأنّ معنى: ﴿أم لكم أيمان علينا﴾ أم أقسمنا لكم بأيمان مغلّظة متناهية في التوكيد ﴿سَلۡهُمۡ﴾ أي: المشركين ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل بأنّه يكون ذلك.

٤١ ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبهم فيه؟ ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم؛ يعني: أنّ أحداً لا يسلّم لهم هذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنّه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

٤٢ ـ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ ناصب الظرف ﴿فليأتوا﴾ أو: اذكر مضمراً، والجمهور على أنّ الكشف عن الساق عبارة عن شدّة الأمر وصعوبة الخطب. فمعنى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يوم يشتدّ الأمر، ويصعب، ولا كشف ثمّة

وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

ولا ساق، ولكن كنى به عن الشدّة لأنّهم إذا ابتلوا بشدّة كشفوا عن الساق. وهذا كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة؛ ولا يد ثمّة ولا غلّ، وإنّما هو كناية عن البخل. وأمّا من شبّه فلضيق عطنه، وقلّة نظره في علم البيان. ولو كان الأمر كما زعم المشبّه لكان من حقّ الساق أن يعرَّف؛ لأنّها ساق معهودة عنده ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي: الكفّار ثمّة ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ لا تكليفاً، ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأنّ ظهورهم تصير كصياصي[١] البقر لا تنثني عند الخفض والرفع.

٤٣ ـ ﴿خَٰشِعَةً﴾ ذليلة ـ حال من الضمير في ﴿يُدْعَوْنَ﴾ ـ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾. أي: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم صغار ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ على ألسن الرسل ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: وهم أصحّاء، فلا يسجدون. فكذلك منعوا عن السجود ثمّة.

٤٤ ـ ﴿فَذَرْنِى﴾ يقال: ذرني وإيّاه أي: كله إليّ فإنّي أكفيكه ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ ـ معطوف على المفعول، أو مفعول معه ـ ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بالقرآن. والمراد: كل أمره إليّ، وخلّ بيني وبينه، فإنّي عالم بما ينبغي أن يفعل به، مطيق له. ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكّل عليّ في الانتقام منه. تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديداً للمكذّبين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة. يقال: استدرجه إلى كذا؛ أي: استنزله إليه درجة فدرجة حتّى يورّطه فيه. واستدراج الله تعالى العصاة: أن يرزقهم الصحّة والنعمة، فيجعلون رزق الله ذريعةً إلى ازدياد المعاصي ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنّه استدراج. قيل: كلّما جدّدوا معصيةً جدّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنّه مستدرج»[٢] وتلا الآية.

---

(١) «الصياصي»: جمع الصِّيصة؛ وهي قَرْن البقر.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٠٧٣).

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

٤٥ ـ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قويّ شديد. فسمّى إحسانه، وتمكينه كيداً، كما سمّاه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك. والأصل: أنّ معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن. ولا يجوز أن يسمَّى الله كائداً وماكراً ومُسْتَدْرِجاً.

٤٦ ـ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ غرامة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلا يؤمنون؟ استفهام بمعنى النفي. أي لست تطمع أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم ذلك، فيمتنعوا لذلك.

٤٧ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ ـ عند الجمهور ـ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به.

٤٨ ـ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم؛ لأنهم وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ كيونس ـ عليه السلام ـ في العجلة والغضب على القوم حتّى لا تبتلى ببلائه. والوقف على الحوت؛ لأنّ ﴿إِذْ﴾ ليس بظرف؛ لما تقدّمه؛ إذ النداء طاعة، فلا ينهى عنه. بل مفعولُ محذوفٍ. أي: اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربّه في بطن الحوت بـ ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً. من: كظم السقاء؛ إذا ملأه.

٤٩ ـ ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ﴾ رحمة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: لولا أنّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه، وقبول عذره ﴿لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معاتب بزلّته. لكنّه رحم، فنبذ غير مذموم.

٥٠ ـ ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح، ولم تبق له زلّة. وقيل: من الأنبياء. وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين. والوجه هو الأوّل؛ لأنّه كان مرسلاً ونبيّاً قبله

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ الآية [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠].

٥١، ٥٢ ـ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وبفتح الياء، مدنيّ. ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة واللام علمها. زلقه، وأزلقه: أزاله عن مكانه. أي: قارب الكفّار من شدّة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدّة حنقهم عليك. وكانت العين في بني أسد. فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيّام فلا يمرّ به شيءٌ فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله؛ إلاّ هلك. فأريد بعض العيّانين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم مثله رجلاً، فعصمه الله عن ذلك. وفي الحديث: «العين حقّ، وإنّ العين لَتُدْخِلُ الجمل القدر، والرجل القبر»[(١)]. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: رقية العين هذه الآية ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ إنّ محمّداً ﴿لمجنون﴾ حَيْرَةً في أمره، وتنفيراً عنه، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للجنِّ والإنس. يعني: أنهم جنّنوه لأجل القرآن. وما القرآن إلاّ موعظة للعالمين. فكيف يجنّن من جاء بمثله؟ وقيل: ﴿لمّا سمعوا الذكر﴾ أي: ذكره ﷺ ﴿وما هو﴾ أي: محمد ﷺ ﴿إلاّ ذكر﴾ شرف ﴿للعالمين﴾ فكيف ينسب إليه الجنون؟!

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٢١٤) وانظره في فيض القدير (٥٧٤٨) وتذكرة الموضوعات (ص ٢٠٧).

سُورَةُ الحَاقَّةِ

آياتها ٥٢ — ترتيبها ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا

١ ـ ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء؛ التي هي آتيةٌ لا ريب فيها. من: حقَّ، يحقُّ ـ بالكسر ـ أي: وجب.

٢ ـ ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر الحاقّة. والأصل: ﴿الحاقّة﴾ ما هي؟ أي: أيُّ شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. أي: حقُّها أن يستفهم عنها لعظمها. فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأيّ شيءٍ أعلمك ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾؟ يعني: أنّك لا علم لك بكنهها، ومدى عظمها؛ لأنّه من العظم والشدّة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين. ﴿وما﴾ رفع بالابتداء. و﴿أدراك﴾ الخبر. والجملة بعده في موضع نصب لأنّها مفعول ثان لـ: «أدرى».

٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: بالحاقّة. فوضعت القارعة موضعها لأنّهما من أسماء القيامة. وسمّيت بها؛ لأنّها تقرع الناس بالأفزاع، والأهوال.

٥، ٦ ـ ولمّا ذكرها، وفخّمها؛ أتبع ذكر ذلك من كذّب بها، وما حلّ بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكّة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم: ﴿فَأَمَّا

﴿ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾

﴿ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحدّ في الشدّة. واختلف فيها. فقيل: الرجفة. وقيل: الصيحة. وقيل: الطاغية ـ مصدر كالعافية ـ أي: بطغيانهم. ولكنّ هذا لا يطابق قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ﴾ أي: بالدبور؛ لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصبا وأُهْلِكَتْ عاد بالدبور»(١) ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت. من: الصّرّة: الصيحة. أو: باردة، من: الصِّرّ؛ كأنها التي كرّر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدّة بردها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديد العصف. أو: عتت على خزّانها فلم يضبطوها بإذن الله، غضباً على أعداء الله.

٧ ـ ﴿سَخَّرَهَا﴾ سلّطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾. وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع. جمع: حاسم؛ كشهود. تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ على الداء كرّة بعد أخرى حتّى ينحسم. وجاز أن يكون مصدراً. أي: تحسم حسوماً؛ بمعنى: تستأصل استئصالاً ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطب ﴿ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهابّها، أو: في الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ حال، جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال أخرى ﴿أَعْجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ﴾ جمع: نخلة ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة أو بالية.

٨ ـ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿من﴾ نفس ﴿باقية﴾. أو: ﴿من﴾ بقاء؛ كالطاغية بمعنى: الطغيان.

٩ ـ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ تقدّمه من الأمم. ﴿ومن قِبَله﴾ بصريٌّ، وعليٌّ. أي: ومن عنده من تُبّاعه ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ﴾ قرى قوم لوط، فهي ائتفكت. أي: انقلبت بهم ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعلة. أو: بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

١٠ ـ ﴿فَعَصَوْا۟﴾ أي: قوم لوط ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لوطاً ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾

شديدة زائدة في الشدّة؛ كما زادت قبائحهم في القبح.

١١، ١٢ ـ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: آباءكم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوع عليه السلام ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفعلة. وهي: إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عظةً وعبرةً ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وتحفظها ﴿أُذُنٌ﴾ بضم الذال، غير نافع ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع. قال قتادة: وهي: أذن عقلت عن الله، وانتفعت بما سمعت.

١٣ ـ ١٥ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى. ويموت عندها الناس. والثانية يبعثون عندها ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ دقّتا وكسرتا، أي: ضرب بعضها ببعض حتّى تندقّ، وترجع كثيباً مهيلاً، هباءً منبثاً، ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ نزلت النازلة، وهي: القيامة. وجواب ﴿إذا﴾: ﴿وقعت﴾، و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿إذا﴾.

١٦، ١٧ ـ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فتحت أبواباً ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسترخية، ساقطة القوّة، بعد ما كانت محكمة ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ للجنس بمعنى الجمع. وهو أعمّ من الملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ جوانبها. واحدها: رجاً، مقصور؛ لأنّها إذا انشقّت وهي مسكن الملائكة فيلجؤون إلى أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ منهم. واليوم تحمله أربعة. وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة. وعن الضحّاك: ثمانية صفوف. وقيل: ثمانية أصناف.

١٨ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال. شبّه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحواله. ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرةٌ، وحالٌ كانت تخفى في الدنيا. وبالياء: كوفيّ غير عاصم. وفي الحديث: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات. فأمّا عرضتان: فجدال ومعاذير. وأمّا الثالثة: فعندها تطير

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

الصحف، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه، والهالك كتابه بشماله»[١].

١٩ ـ ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض. ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته[٢]: ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم للفعل. أي: خذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ تقديره: ﴿هاؤم﴾ كتابي ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. والعامل في: ﴿كتابيه﴾ اقرؤوا عند البصريّين؛ لأنهم يعملون الأقرب. والهاء في ﴿كتابيه﴾ و﴿حسابيه﴾ و﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾ للسكت. وحقّها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. وقد استحبّ إيثار الوقف إيثاراً لثباتها؛ لثبوتها في المصحف.

٢٠ ـ ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ علمت. وإنّما أُجْرِيَ الظنّ مجرى العلم؛ لأنّ الظنّ الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ولأنّ ما يدرك بالاجتهاد قلّما يخلو عن الوساوس والخواطر، وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظنّ عليها لما لا يخلو عنه ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ معاينٌ حسابي.

٢١ ـ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها، كـ: لابن.

٢٢ ـ ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور. وهو خبر بعد خبر.

٢٣ ـ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمارها قريبة من يُريدها ينالها، القاعد كالقائم.

٢٤ ـ يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً، لا مكروه فيهما، ولا أذى. أو: هنئتم هنيئاً ـ على المصدر ـ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ فما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضية من أيّام الدنيا. وعن ابن عباس: هي في الصائمين. أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤) والترمذي (٢٤٢٥) وابن ماجه (٤٢٧٧).
(٢) في الأصل المخطوط: لجماعة.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٢٥ ـ ٢٩ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي: ياليتني لم أعلم ما حسابي ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ ياليت الموتة التي متُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعة لأمري. فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا. فـ ﴿ما﴾ نفي، والمفعول محذوف. أي: شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ملكي، وتسلّطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضلّت عني حجتي؛ أي: بطلت حجتي التي كنت أحتجّ بها في الدنيا.

٣٠ ـ ٣٢ ـ فيقول الله تعالى لخزنة جهنّم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أدخلوه ـ يعني: ثمّ لا تصلّوه إلاّ الجحيم، وهي: النار العظمى. أو نصب الجحيم بفعل يفسّره ﴿صلّوه﴾ ـ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ ـ بذراع الملك، عن ابن جريج. وقيل: لا يعرف قدرها إلاّ الله ـ ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية.

٣٣، ٣٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل. كأنّه قيل: ماله يعذّب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بأنّه ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ على بذل طعام المسكين. وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأنّ الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنّما يطعمونهم لوجه الله، ورجاء الثواب في الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم. أي: أنّه مع كفره لا يحرّض غيره على إطعام المحتاجين. وفيه دليل قويّ على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأنه عطفه على الكفر، وجعله دليلاً عليه، وقرينةً له، ولأنّه ذكر الحضّ دون الفعل ليعلم: أنّ تارك الحضّ إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحقّ. وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: أنّه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا. وهذه الآيات ناطقة على أنّ المؤمنين يرحمون جميعاً، والكافرون لا يرحمون؛ لأنه قسم الخلق صنفين، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين، ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله: ﴿إنّي ظننت أنّي ملاق حسابيه﴾، وصنفاً منهم أهل الشمال، ووصفهم بالكفر بقوله: ﴿إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾. وجاز أنّ الذي يعاقب من المؤمنين إنّما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه.

٣٥ ـ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يدفع عنه، ويحترق له قلبه.

٣٦ ـ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار. فِعْلين من: الغسل. والنون زائدة. وأريد هنا: ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم.

٣٧ ـ ﴿لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا. وخَطِيء الرجل: إذا تعمّد الذنب.

٣٨، ٣٩ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الملائكة والأرواح. فالحاصل: أنّه أقسم بجميع الأشياء.

٤٠ ـ ٤٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: محمّد ﷺ، أو: جبريل عليه السلام. أي: يقوله ويتكلّم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدّعون ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تقولون ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. وبالياء فيهما: مكّيّ، وشاميّ، ويعقوب، وسهل. وبتخفيف الذال: كوفيّ غير أبي بكر. والقلّة في معنى العدم. يقال: هذه أرض قلّما تنبت؛ أي: لا تنبت أصلاً. والمعنى: لا تؤمنون، ولا تذكّرون البتّة.

٤٣ ـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو ﴿تنزيل﴾ بياناً؛ لأنّه قول رسول نزل عليه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

٤٤ ـ ٤٦ ـ ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذّب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخصّ اليمين لأنّ القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره. وإذا أراد أن يوقعه في جيده، وأن يكفحه بالسيف ـ وهو أشدّ على المصبور لنظره إلى السيف ـ أخذ بيمينه. ومعنى ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لأخذنا بيمينه. وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه، وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه.

٤٧ ـ ﴿فَمَا مِنكُم﴾ الخطاب للناس، أو: للمسلمين ﴿مِّنۡ﴾ ﴿من﴾ زائدة ﴿عَنۡهُ﴾ عن قتل محمد ﷺ. وجمع ﴿حَٰجِزِينَ﴾ وإن كان وصف ﴿أَحَدٍ﴾؛ لأنه في معنى الجماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤٨ ـ ٥١ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَتَذۡكِرَةٞ﴾ لعظة ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ به، المكذّبين له إذا رأوا ثواب المصدّقين به ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ لعين اليقين، ومحض اليقين.

٥٢ ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله: سبحان الله.

* * *

سُورَةُ المَعَارِجِ

ترتيبها ٧٠ — آياتها ٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ هو النضر بن الحارث. قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] أو: هو النبيّ ﷺ، دعا بنزول العذاب. ولمّا ضمِّن سأل معنى دعا عُدّي تعديته كأنّه قيل: دعا داعٍ ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ من قولك: دعا بكذا: إذا استدعاه، وطلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]. و﴿سال﴾ بغير همز، مدنيٌّ وشاميٌّ. وهو من السؤال أيضاً إلاّ أنّه خفّف بالتليين. و﴿سائل﴾ مهموز إجماعاً.

٢، ٣ ـ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ صفة لعذاب. أي ﴿بعذاب واقع﴾ كائنٍ ﴿للكافرين﴾ ﴿لَيۡسَ لَهُۥ﴾ لذلك العذاب ﴿دَافِعٞ﴾ رادّ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متّصل بواقع. أي: واقع من عنده. أو: بدافع. أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ أي: مصاعد السماء للملائكة. جمع: مَعْرَج، وهو: موضع العروج.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾﴾

٤ ـ ثمَّ وصف المصاعد، وبعد مداها في العلوّ والارتفاع، فقال: ﴿تَعۡرُجُ﴾ تصعد، وبالياء عليٌّ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام. خصّه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه. أو: خلقٌ هم حفظةٌ على الملائكة، كما أنّ الملائكة حفظةٌ علينا. أو: أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيۡهِ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ من: صلة ﴿تعرج﴾ ﴿كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ من سني الدنيا لو صعد فيه غير الملك. أو: من: صلة ﴿واقع﴾. أي: يقع ﴿في يوم﴾ طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم. وهو يوم القيامة. فإمّا أن يكون استطالة له لشدّته على الكفّار، أو لأنّه على الحقيقة كذلك. فقد قيل: فيه خمسون موطناً كلّ موطن ألف سنة. وما قدر ذلك على المؤمنين إلاّ كما بين الظهر والعصر.

٥ ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ متعلّق بـ ﴿سأل سائل﴾ لأنّ استعجال النضر بالعذاب إنّما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي. وكان ذلك ممّا يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ بلا جزعٍ، ولا شكوى.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي: الكفار ﴿يَرَوۡنَهُۥ﴾ أي: العذاب، أو يوم القيامة ﴿بَعِيدٗا﴾ مستحيلاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ كائناً لا محالة. فالمراد بالبعيدِ: البعيدُ من الإمكان، وبالقريبِ: القريبُ منه.

٨ ـ نُصِبَ ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ بـ ﴿قريباً﴾. أي: يمكن في ذلك اليوم. أو: هو بدل عن ﴿في يوم﴾ فيمن علّقه بـ ﴿واقع﴾ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كدرديّ الزيت، أو: كالفضّة المذابة في تلوّنها.

٩ ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأنّ الجبال ﴿جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بسّت وطيّرت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيّرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟﴾

١٠ ـ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه. وعن البزي، والبرجمي: بضمّ الياء. أي: ﴿لا يُسأل﴾ قريب عن قريب. أي: لا يطالب به، ولا يؤخذ بذنبه.

١١ ـ ١٤ ـ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صفة. أي: ﴿حميماً﴾ مبصَّرين معرَّفين إيّاهم. أو: مستأنف. كأنّه لمّا قال: ﴿ولا يسأل حميمٌ حميماً﴾ قيل: لعلّه لا يبصره. فقيل: ﴿يبصّرونهم﴾ ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكّنوا [من تساؤلهم][1]. والواو ضمير الحميم الأوّل. و﴿هم﴾ ضمير الحميم الثاني. أي: يبصّر الأحماءُ الأحماءَ، فلا يخفون عليهم. وإنّما جمع الضميران، وهما للحميمين؛ لأنّ فعيلاً يقع موقع الجمع ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يتمنّى المشرك. وهو مستأنف. أو: حال من الضمير المرفوع، أو المنصوب من: ﴿يبصّرونهم﴾ ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ وبالفتح مدنيّ، وعليّ على البناء، للإضافة إلى غير متمكّن ﴿بِبَنِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ وزوجته ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الأدنين ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ تضمّه انتهاءً إليها. وبغير همز يزيد ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الافتداء. عطف على ﴿يفتدى﴾.

١٥ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتنبيه على أنّه لا ينفعه الافتداء، ولا ينجيه من العذاب ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ النار. ودلّ ذكر العذاب عليها. أو: هو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر. أو: ضمير القصّة ﴿لَظَىٰ﴾ علم للنار.

١٦ ـ ﴿نَزَّاعَةً﴾ حفص، والمفضّل، على الحال المؤكدة. أو: على الاختصاص، للتهويل. وغيرهما بالرفع؛ خبر بعد خبر لـ: «إنّ». أو على: هي نزّاعةٌ ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين. أو: جمع: شواة. وهي: جلدة الرأس، تنزعها نزعاً فتفرّقها، ثمّ تعود إلى ما كانت.

١٧، ١٨ ـ ﴿تَدْعُوا۟﴾ بأسمائهم يا كافر! يا منافق! إليّ إليّ، أو: تهلك. من

(١) في الأصل المخطوط: لتساؤلهم.

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾

قولهم: دعاك الله؛ أي: أهلكك. أو: لمّا كان مصيره إليها جعلت كأنّها دعته ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ فجعله في وعاءٍ ولم يؤدِّ حقّ الله منه.

١٩ ـ ٢١ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أريد به الجنس، ليصحّ استثناء المصلّين منه. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسيره ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. والهلع: سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع، فقال: قد فسّره الله تعالى. ولا يكون تفسير أبين من تفسيره. وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه الناس. وهذا طبعه. وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعه. والشرُّ: الضرُّ، والفقر، والخير: السعة، والغنى، أو: المرض، والصحّة.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ أي: صلواتهم الخمس ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها. عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يعني: الزكاة؛ لأنّها مقدّرةٌ معلومةٌ. أو: صدقةٌ[١] يوظّفها الرجل على نفسه، يؤدّيها في أوقات معلومة ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفّف عن السؤال، فيحسب غنيّاً، فيحرم.

٢٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون. واعترض بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ بالهمز سوى أبي عمرو. أي: لا ينبغي لأحدٍ وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجّحاً بين الخوف والرجاء.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

٢٩، ٣٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ نسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: إمائهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ترك الحفظ.

٣١ ـ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ طلب منكحاً ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجات، والمملوكات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدلّ على حرمة المتعة، ووطء الذكر، والبهائم، والاستمناء بالكفّ.

٣٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ ﴿لأمانتهم﴾: مكّيٌّ. وهي تتناول أمانات الشرع، وأمانات العباد ـ ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: عهودهم. ويدخل فيها: عهود الخلق، والنذور، والأيمان ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون، غير خائنين، ولا ناقضين. وقيل: الأمانات ما تدلّ عليه العقول، والعهد: ما أتى به الرسول.

٣٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾: حفص وسهل ويعقوب ﴿قَآئِمُونَ﴾ يقيمونها عند الحكّام بلا ميل إلى قريب وشريف، وترجيح للقويّ على الضعيف، إظهاراً للصلابة في الدين، ورغبةً في إحياء حقوق المسلمين.

٣٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كرّر ذكر الصلاة لبيان أنّها أهمّ. أو: لأنّ إحداهما للفرائض، والأخرى للنوافل. وقيل: الدوام عليها: الاستكثار منها. والمحافظة عليها: ألاّ تضيع عن مواقيتها. أو: الدوام عليها: أداؤها في أوقاتها. والمحافظة عليها: حفظ أركانها، وواجباتها، وسننها، وآدابها.

٣٥ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. هما خبران.

٣٦، ٣٧ ـ ﴿فَمَالِ﴾ كتب مفصولاً اتّباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ﴾ نحوك. معمول ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين. حال من ﴿الذين كفروا﴾. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ عن يمين النبيِّ ﷺ، وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ حال. أي: فرقاً شتّى. جمع: عزة. وأصلها: عزوة، كأنّ كلّ فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، فهم مفترقون.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

٣٨ ـ كان المشركون يحتفّون حول النبيّ ﷺ حلقاً، وفرقاً فرقاً، يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم. فنزلت: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء سوى المفضّل ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمؤمنين.

٣٩ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة المذرة، ولذلك أبهم إشعاراً بأنّه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرّفون، ويدّعون التقدّم، ويقولون: لندخلنّ الجنّة قبلهم؟ أو معناه: ﴿إنّا خلقناهم﴾ من نطفةٍ، كما خلقنا بني آدم كلّهم. ومِنْ حُكْمِنا: ألاّ يدخل أحدٌ الجنّة إلا بالإيمان. فَلِمَ يطمع أن يدخلها من لا إيمان له؟.

٤٠، ٤١ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ مطالع الشمس ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ على أن نهلكهم ونأتي بخلقٍ أمثل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين.

٤٢، ٤٣ ـ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدع المكذّبين ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يومهم﴾ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ بفتح الياء، وضم الراء سوى الأعشى ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ جمع: سريع. حال. أي: إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ شاميٌّ، وحفص، وسهل. ﴿نَصْبٍ﴾ المفضّل. ﴿نُصْبٍ﴾ غيرهم. وهو: كلّ ما نصب وعبد من دون الله ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون.

٤٤ ـ ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يخرجون﴾. أي: ذليلة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يعني: لا يرفعونها لذلّتهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وهم يكذّبون به.

* * *

سُورَةُ نُوحٍ

ترتيبها ٧١ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

١ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه بالسريانيّة: الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾ خوّف. أصله: بأن أنذر. فحذف الجارّ وأوصل الفعل. ومحلّه عند الخليل جرٌّ، وعند غيره نصبٌ. أو ﴿أن﴾ مفسّرة بمعنى: أي؛ لأنّ في الإرسال معنى القول ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة، أو: الطوفان.

٢ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخوّف ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّن لكم رسالة الله بلغةٍ تعرفونها.

٣ ـ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه. و﴿أن﴾ هذه نحو ﴿أن أنذر﴾ في الوجهين ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه. وإنّما أضافه إلى نفسه؛ لأنّ الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

٤ ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أو: للتبعيض؛ لأنّ ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام؛ كالقصاص وغيره. كذا في شرح التأويلات ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

﴿مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨﴾

﴿مُّسَمًّى﴾ وهو وقت موتكم ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الموت ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي: ﴿لو كنتم تعلمون﴾ ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم، لآمنتم. قيل: إنّ الله تعالى قضى مثلاً: أنّ قوم نوح إن آمنوا عمّرهم ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخّركم ﴿إلى أجل مسمّى﴾. أي: تبلغوا ألف سنة. ثمّ أخبر: أنّ الألف إذا جاء لا يؤخّر كما يؤخّر هذا الوقت. وقيل: إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام. فكأنّه عليه السلام أمّنهم عن ذلك، ووعدهم: أنّهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا. أي: أنّكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمّى آمنين من عدوّكم.

٥، ٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دائباً بلا فتور ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن طاعتك. ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده، وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة. وهو كقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجس. وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا، فلا يغرّنّك، فإنّ أبي قد أوصاني به.

٧ ـ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليؤمنوا فتغفر لهم، فاكتفى بذكر المسبّب ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدّوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بثيابهم لئلا يبصروني كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ وتعظّموا عن إجابتي. وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم

٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: مجاهراً. أو: مصدر ﴿دعوتهم﴾ كقعد القرفصاء؛ لأنّ الجهار أحد نوعي الدعاء. يعني: أظهرت لهم الدعوة في المحافل.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢﴾

٩ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ أي: خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السرّ. فالحاصل: أنّه دعاهم ليلاً ونهاراً في السرّ، ثمّ دعاهم جهاراً، ثمّ دعاهم في السرّ والعلن، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف: يبتدىء بالأهون، ثمّ بالأشدّ فالأشدّ. فافتتح بالمناصحة في السرّ. فلمّا لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة. فلمّا لم تؤثّر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و﴿ثمّ﴾ تدلّ على تباعد الأحوال؛ لأنّ الجهار أغلظ من الإسرار. والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

١٠ ـ ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من الشرك؛ لأنّ الاستغفار طلب المغفرة. فإن كان المستغفر كافراً فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمناً فهو من الذنوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ لم يزل غفّاراً لذنوب من ينيب إليه.

١١، ١٢ ـ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ كثيرة الدرور ـ ومفعال يستوي فيه المذكّر والمؤنّث ـ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ يزدكم أموالاً وبنين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ﴾ بساتين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبّون الأموال والأولاد، فحرّكوا بهذا على الإيمان. وقيل: لمّا كذّبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين. فوعدهم أنّهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب، ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه: أنّه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ـ شبّه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء ـ وقرأ الآيات. وعن الحسن: أنّ رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلّة النسل، وآخر قلّة ريع أرضه، فأمرهم كلّهم بالاستغفار. فقال له الربيع[1]:

(١) هو الربيع بن صبيح، أبو بكر: أول من صنّف بالبصرة. كان عابداً ورعاً. خرج غازياً إلى السند فمات في البحر، ودفن في إحدى الجزر سنة (١٦٠ هـ).

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

أتاك رجال يشكون أبواباً، فأمرتهم كلّهم بالاستغفار. فتلا الآيات.

١٣، ١٤ ـ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون لله عظمةً، عن الأخفش. قال: والرجاء هنا: الخوف؛ لأنّ مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس. والوقار: العظمة. أو: لا تأملون له توقيراً. أي: تعظيماً. والمعنى: مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إيّاكم في دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال. أي: مالكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؛ لأنّه ﴿خلقكم أطواراً﴾ أي: تارات، وكرات: خلقكم أوّلاً: نطفاً، ثمّ: خلقكم علقاً، ثمّ: خلقكم مضغاً، ثمّ: خلقكم عظاماً ولحماً.

١٥ ـ نبّههم أوّلاً على النظر في أنفسهم لأنّها أقرب، ثمّ على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الدالّة على الصانع بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضاً على بعض.

١٦ ـ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السموات. وهو في السماء الدنيا؛ لأنّ بين السموات ملابسة من حيث إنّها طباق. وجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ، كما يقال: في المدينة كذا، وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ: إنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات، وظهورهما مما يلي الأرض. فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات لأنّها لطيفة لا تحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مصباحاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره. وضوء الشمس أقوى من نور القمر. وأجمعوا: على أنّ الشمس في السماء الرابعة.

١٧، ١٨ ـ ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأكم. استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتم نباتاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكّده بالمصدر. أي: أيَّ إخراج.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟

١٩، ٢٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطةً ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا﴾ لتنقلبوا عليها، كما ينقلب الرجل على بساطه ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة أو مختلفة.

٢١ ـ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: السفلة والفقراء ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي: الرؤساء أصحاب الأموال، والأولاد. ﴿ووُلْده﴾ مكّيٌّ، وعراقيٌّ، غير عاصم. وهو جمع ولد، كأسد وأسد ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة.

٢٢ ـ ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ معطوف على ﴿لم يزده﴾. وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَنْ﴾ لأنه في معنى الجمع. والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين، وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ عظيماً. وهو أكبر من الكِبَار. وقرىء به. وهو أكبر من الكبير.

٢٣ ـ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على العموم أي: عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بفتح الواو وضمّها. وهو قراءة نافع. لغتان. صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس. وهما لا ينصرفان للتعرف ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميّين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر. أي: هذه الأصنام الخمسة على الخصوص. وكأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم. فخصّوها بعد العموم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب. فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمَذْحِج، ويعوق لمُراد، ونسر لحمير. وقيل: هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلمّا ماتوا صوّروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة. فلمّا طال الزمان قال لهم إبليس: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

٢٤ ـ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ أي: الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

﴿كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

[إبراهيم: ٣٦]. أو: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف على ﴿ربّ إنّهم عصوني﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قال﴾ وبعد الواو النائبة عنه. ومعناه: ﴿قال نوح ربّ إنّهم عصوني﴾ ﴿و﴾ قال ﴿لا تزد الظالمين﴾ أي: قال هذين القولين. وهما في محلّ النصب لأنّهما مفعولا ﴿قال﴾ ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ هلاكاً. كقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

٢٥ ـ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ ﴿خطاياهم﴾ ـ أبو عمرو. أي: ذنوبهم ـ ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ عظيمة. وتقديم ﴿ممّا خطيئاتهم﴾ لبيان: أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، وإدخالهم في النيران، إلاّ من أجل خطيئاتهم. وأكّد هذا المعنى بزيادة ﴿ما﴾. وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا. فإنّ كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهنّ. والفاء في ﴿فأدخلوا﴾ للإيذان بأنّهم عذّبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض. وهو: فَيْعَالٌ، من: الدَّوْرِ. وهو من الأسماء المستعملة في النفي العامّ.

٢٧ ـ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلاّ من إذا بلغ فجر وكفر. وإنّما قال ذلك؛ لأنّ الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٢٨ ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وكانا مسلمين، واسم أبيه: لمك. واسم أمّه: شمخاء. وقيل: هما آدم وحوّاء. وقرىء: ﴿لولديّ﴾ يريد: ساماً وحاماً ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنّه علم: أنّ من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة. خصّ

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾

أوّلاً من يتّصل به؛ لأنّهم أولى، وأحقّ بدعائه، ثمّ عمّ المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكاً، فأهلكوا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: دعا نوح عليه السلام بدعوتين: إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأخرى على الكافرين بالتبار. وقد أجيبت دعوته في حقّ الكفار بالتبار. فاستحال ألاّ تستجاب دعوته في حقّ المؤمنين.

واختلف في صبيانهم حين أغرقوا. فقيل: أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يكن معهم صبيّ حين أغرقوا. وقيل: علم الله براءتهم فأهلكوا بغير عذاب.

* * *

سُورَةُ الجِنّ

ترتيبها ٧٢ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾

١ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمّتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أنّ الأمر والشأن. أجمعوا على فتح ﴿أنّه﴾ لأنّه فاعل ﴿أوحى﴾، و﴿أَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ [الجن: ١٦] و﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ [الجن: ١٨] للعطف على ﴿أنّه استمع﴾ فأن مخففة من الثقيلة. و﴿أن قَدْ أَبْلَغُوا﴾ [الجن: ٢٨] لتعدّي يعلم إليها، وعلى كسر ما بعد فاء الجزاء وبعد القول نحو ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] و﴿قالوا إنّا سمعنا﴾ لأنّه مبتدأ محكيٌّ بعد القول. واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من ﴿أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ٣ ـ ١٤] ففتحها شاميٌّ، وكوفيٌّ غير أبي بكر، عطفاً على ﴿أنّه استمع﴾ أو على محلّ الجار والمجرور في ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢] تقديره: صدّقناه، وصدّقنا: أنّه تعالى جدّ ربّنا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن: ٤] إلى آخرها. وكسرها غيرهم عطفاً على ﴿إنّا سمعنا﴾ وهم يقفون على أواخر الآيات ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ جنّ نصيبين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبيّ ﷺ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عجيباً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه،

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

وصحّة معانيه. والعجب ما يكون خارجاً عن العادة. وهو مصدر وضع موضع العجيب.

٢ ـ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن. ولمّا كان الإيمان به إيماناً بالله، وبوحدانيّته، وبراءةً من الشرك، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ من خلقه. وجاز أن يكون الضمير في ﴿به﴾ لله تعالى؛ لأنّ قوله: ﴿بربّنا﴾ يفسّره.

٣ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمته. يقال: جدّ فلان في عيني، أي: عظم. ومنه قول عمر، أو أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا، أي: عظم في عيوننا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً﴾ زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفّار الجنّ والإنس.

٤ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، أو إبليس ـ إذ ليس فوقه سفيه ـ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ كفراً لبعده عن الصواب. من: شطّت الدار، أي: بعدت. أو: قولاً يجوز فيه عن الحقّ. وهو نسبة الصاحبة والولد إليه. والشطط: مجاوزة الحدِّ في الظلم وغيره.

٥ ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قولاً ﴿كذباً﴾ أو مكذوباً فيه. أو: نصب على المصدر؛ إذ الكذب نوعٌ من القول. أي: كان في ظنّنا: أنّ أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه. وكنّا نصدّقهم فيما أضافوا إليه حتّى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم.

٦ ـ كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوفٍ من الأرض قال: أعوذ بسيّد هذا الوادي من سفهاء قومه ـ يريد: كبير الجنّ ـ فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الإنسُ الجنَّ باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً، وسفهاً، وكبراً بأن قالوا: سدنا الجنّ والإنس. أو: فزاد الجنُّ الإنسَ

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ
حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ
شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا
مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ

﴿رهقاً﴾ إثماً لاستعاذتهم بهم. وأصل الرهق: غشيان المحظور.

٧ ـ ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأنّ الجنّ ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت. أي: أنّ الجنّ كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثمّ بسماع القرآن اهتدوا، وأقرّوا بالبعث. فهلاّ أقررتم كما أقرّوا!

٨ ـ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. واللمس: المسُّ. فاستعير للطلب؛ لأنّ الماسّ طالب متعرّف ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ جَمْعاً أقوياء من الملائكة يحرسون. جمع: حارس. ونُصِبَ على التمييز. وقيل: الحرس اسم مفرد في معنى الحرّاس، كالخدم في معنى الخدّام، ولذا وصف بشديد. ولو نظر إلى معناه لقيل: شداداً ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع: شهاب. أي: كواكب مضيئة.

٩ ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء قبل هذا ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماع أخبار السماء. يعني: كنّا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل المبعث ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ يريد الاستماع ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ بعد المبعث ﴿يَجِدْ لَهُۥ﴾ لنفسه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ صفة لشهاباً، بمعنى: الراصد. أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله. أو: هو اسم جمع للراصد على معنى: ذوي شهابٍ راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب، ويمنعونهم من الاستماع. والجمهور على أنّ ذلك لم يكن قبل مبعث محمد ﷺ. وقيل: كان الرجم في الجاهليّة. ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأوقات فمنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث النبيّ ﷺ.

١٠ ـ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ﴾ عذابٌ ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعدم استراق السمع ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً ورحمةً.

١١ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأبرار المتّقون ﴿وَمِنَّا﴾ قومٌ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فحذف

كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

الموصوف. وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه. أو أرادوا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان للقسمة المذكورة. أي: كنّا ذوي مذاهب متفرّقة أو أديان مختلفة. والقدد جمع: قدّة، وهي القطعة. من: قددت السير؛ أي: قطعته.

١٢ ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ لن نفوته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال. أي: لن نعجزه كائنين ﴿في الأرض﴾ أينما كنّا فيها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: ﴿ولن نعجزه﴾ هاربين منها إلى السماء. وهذه صفة الجنّ وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

١٣ ـ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بالله ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ ﴿فـ﴾ ـهو ﴿لا يخاف﴾ ـ مبتدأ وخبر ـ ﴿بَخْسًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: ولا ترهقه ذلّة. من قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفيه دليل: على أنّ العمل ليس من الإيمان.

١٤ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ المؤمنون ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحقّ قسط: جار. وأقسط: عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ طلبوا هدى. والتحرّي: طلب الأحرى. أي: الأولى.

١٥ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟﴾ في علم الله ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقوداً. وفيه دليل: على أنّ الجنّيّ الكافر يعذّب في النار. ويتوقّف في كيفية ثوابهم.

١٦ ـ ﴿وَأَلَّوِ﴾ ﴿وأن﴾ مخفّفة من الثقيلة. يعني: وأنّه. وهو من جملة الموحى. أي: أوحى إليّ أنّ الشأن لو ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: القاسطون ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيراً. والمعنى: لوسّعنا عليهم الرزق. وذكر الماء الغدق؛ لأنّه سبب سعة الرزق.

لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

١٧ ـ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خُوِّلوا منه ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ القرآن، أو: التوحيد، أو: العبادة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء: عراقيّ غير أبي عمرو: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقّاً. مصدر صعد. يقال: صَعِدَ، صَعَداً، وصعوداً. فوصف به العذاب لأنّه يتصعّد المعذّب أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يطيقه. ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما تصعّدني شيءٌ ما تصعّدتني خطبة النكاح. أي: ما شقّ عليَّ.

١٨ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ من جملة الموحى. أي: أوحي إليّ: ﴿أنّ المساجد﴾ أي: البيوت المبنيّة للصلاة فيها ﴿لله﴾. وقيل: معناه: ﴿و﴾ لـ﴿أنّ المساجد لله فلا تدعوا﴾ على أنّ اللام متعلّقة بلا تدعوا. أي: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في المساجد؛ لأنّها خالصة لله ولعبادته. وقيل: المساجد أعضاء السجود وهي: الجبهة، واليدان، والركبتان، والقدمان.

١٩ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ إلى الصلاة. وتقديره: فأوحي إليّ أنه لمّا قام عبد الله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده، ويقرأ القرآن. ولم يقل نبيّ الله، أو رسول الله؛ لأنّه من أحبّ الأسماء إلى النبيّ ﷺ، ولأنّه لمّا كان واقعاً في كلامه ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع، أو: لأنّ عبادة عبد الله ليست بمستبعد حتّى يكونوا عليه لبداً ﴿كَادُوا۟﴾ كاد الجنّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جماعات. جمع: لبدة. تعجّباً ممّا رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجاباً بما تلاه من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله.

٢٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وحده ـ (قال) غير عاصم وحمزة ـ ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في العبادة. فلم تتعجّبون وتزدحمون عليَّ؟

٢١ ـ ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ مضرّةً ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ نفعاً. أو: أراد بالضرّ الغيَّ، بدليل قراءة أُبيّ (غيّاً ولا رشداً) يعني: لا أستطيع أن أضرّكم، وأن أنفعكم. لأنّ الضارّ والنافع هو الله.

قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

٢٢ ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يدفع عني عذابه أحدٌ إن عصيته؛ كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ.

٢٣ ـ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء من: ﴿لا أملك﴾. أي: ﴿لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾ ﴿إلّا بلاغاً من الله﴾. و﴿قل: إنّي لن يجيرني﴾ اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه. وقيل: ﴿بلاغاً﴾ بدل من: ﴿ملتحداً﴾. أي: ﴿لن أجد من دونه﴾ منجى ﴿إلاّ﴾ أن أبلّغ عنه ما أرسلني به. يعني: لا ينجيني إلاّ أن أبلّغ عن الله ما أرسلت به، فإنّ ذلك ينجيني. وقال الفرّاء: هذا شرط وجزاء وليس باستثناء. وإن منفصلة من لا، وتقديره: إن لا أبلّغ بلاغاً. أي: إن لم أبلّغ لم أجد من دونه ملتجأ ولا مجيراً لي، كقولك: إن لا قياماً فقعوداً. والبلاغ في هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطف على ﴿بلاغاً﴾ كأنّه قيل: ﴿لا أملك لكم﴾ إلاّ التبليغ والرسالات. أي: إلاّ أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله. ناسباً لقوله إليه، وأن أبلّغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان. و﴿من﴾ ليست بصلة للتبليغ؛ لأنّه يقال: بلّغ عنه. إنّما هي بمنزلة ﴿من﴾ في ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١] أي: ﴿بلاغاً﴾ كائناً ﴿من الله﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في ترك القبول بما أنزل على الرسول، لأنّه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وحّد في ﴿له﴾ وجمع في ﴿خالدين﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

٢٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ يتعلّق بمحذوف دلّت عليه الحال. كأنّه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتّى ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون. أي: الكافر لا ناصر له يؤمئذٍ، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبياؤه عليهم السلام.

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

---

٢٥ ـ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ﴾ ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ﴾ وبفتح الياء حجازيّ وأبو عمرو ﴿أَمَدًا﴾ غايةً بعيدة. يعني: أنّكم تعذّبون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حالّ، أم مؤجّل.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلاّ رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له. فإنّه يطلعه على غيبه ما شاء. و﴿من رسول﴾ بيان لمن ارتضى. والوليُّ إذا أخبر بشيءٍ فظهر فهو غير جازم عليه. ولكنّه أخبره بناءً على رؤياه أو بالفراسة. على أنّ كلّ كرامة للوليّ فهي معجزة للرسول. وذكر في التأويلات: قال بعضهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجّمة، وليس كذلك فإنّ فيهم من يصدق خبره. وكذلك المتطبّبة يعرفون طبائع النبات، وذا لا يعرف بالتأمّل، فعلم بأنّهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره، وبقي علمه في الخلق ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ يدخل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتّى يبلّغ الوحي.

٢٨ ـ ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الله ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي: الرسل ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كاملةً، بلا زيادةٍ ولا نقصان إلى المرسل إليهم. أي: ليعلم الله ذلك موجوداً حال وجوده، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنّه يوجد. وحّد الضمير في ﴿من بين يديه﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾، وجمع في ﴿أبلغوا﴾ لمعناه ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار. فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟ و﴿عدداً﴾ حال. أي: وعلم كلّ شيءٍ معدوداً محصوراً. أو مصدر في معنى: إحصاءً.

* * *

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

ترتيبها ٧٣ — آياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ

١ ـ ٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمّل. وهو الذي تزمّل في ثيابه، أي: تلفّف بها. بإدغام التاء في الزاي. وكان النبيّ ﷺ نائماً بالليل متزمّلاً في ثيابه، فأمر بالقيام للصلاة بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿الليل﴾. و﴿إلاّ قليلاً﴾ استثناء من: ﴿نصفه﴾ تقديره: ﴿قم﴾ نصف الليل ﴿إلاّ قليلاً﴾ من نصف الليل ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف ـ بضم الواو، غير عاصم وحمزة ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين. والمراد: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقلّ من نصف الليل على البتّ، وبين أن يختار أحد الأمرين. وهما: النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن جَعَلْتَ ﴿نصفه﴾ بدلاً من ﴿قليلاً﴾ كان تخييراً بين ثلاثة أشياء: بين قيام نصف الليل تامّاً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه. وإنّما وصف النصف بالقلّة بالنسبة إلى الكلّ. وإلاّ فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف. ولهذا قلنا: إذا أقرّ: أنّ لفلان عليه ألف درهم إلاّ قليلاً: أنّه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بيّن

﴿تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾

وفصّل. من: الثغر المرتّل، أي: المفلّج. أو: اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف، وحفظ الوقوف، وإشباع الحركات ﴿تَرْتِيلًا﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنّه لا بدّ منه للقارىء.

٥ ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ سننزل عليك ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: القرآن؛ لما فيه من الأوامر، والنواهي؛ التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين. أو: ﴿ثقيلاً﴾ على المنافقين. أو: كلاماً له وزن، ورجحان، ليس بالسفساف الخفيف.

٦ ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ بالهمز سوى ورش: قيام الليل، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فهي مصدر من: نشأ: إذا قام، ونهض، على «فاعلة» كالعافية. أو: العبادة التي تنشأ بالليل؛ أي: تحدث. أو: ساعات الليل؛ لأنّها تنشأ ساعة فساعة. وكان زين العابدين يصلّي بين العشاءين ويقول: هذه ناشئة الليل ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾[1] وفاقاً، شاميٌّ، وأبو عمرو. أي: يواطىء فيها قلب القائم لسانه. وعن الحسن: أشدّ موافقة بين السرّ والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. غيرهما ﴿وطئاً﴾ أي: أثقل على المصلّي من صلاة النهار؛ لطرد النوم في وقته، من قوله ﷺ: «اللّهم اشدد وطأتك على مضر»[2] ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسدُّ مقالاً، وأثبت قراءةً؛ لهدوّ الأصوات، وانقطاع الحركات.

٧ ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تصرّفاً، وتقلّباً في مهمّاتك، وشواغلك، ففرّغ نفسك بالليل لعبادة ربّك. أو: فراغاً طويلاً لنومك وراحتك.

٨ ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره في الليل والنهار. وذكر الله يتناول: التسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلاة، وتلاوة القرآن، ودراسة العلم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطع إلى عبادته عن كلّ شيء، والتبتّل: الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره. وقيل: رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: (وِطاءً) وهي قراءة: شامي وأبي عمر؛ كما بيَّنَ.
(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣) ومسلم (٦٧٥).

تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾

﴿تَبۡتِيلٗا﴾ في اختلاف المصدر زيادة تأكيد. أي: بتَّلك الله، فتبتّل. أو جيء به مراعاةً لحقّ الفواصل.

٩ ـ ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالرفع، أي: هو ﴿ربّ﴾. أو: مبتدأ، خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وبالجرّ شاميّ، وكوفيّ غير حفص، بدل من ﴿ربّك﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: على القسم بإضمار حرف القسم، نحو: الله لأفعلنّ. وجوابه: ﴿لا إله إلاّ هو﴾ كقولك: والله لا أحد في الدار إلاّ زيد. ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ وليّاً، أو كفيلاً بما وعدك من النصر. أو: إذا علمت أنّه ملك المشرق والمغرب، وأن لا إله إلاّ هو ﴿فاتّخذه﴾ كافياً لأمورك. وفائدة الفاء ألاّ تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهّار؛ إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار.

١٠ ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيَّ من الصاحبة والولد، أو فيك من الساحر والشاعر ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ جانبهم بقلبك، وخالفهم مع حسن المخالفة، وترك المكافأة. وقيل: هو منسوخ بآية القتال.

١١ ـ ﴿وَذَرۡنِي﴾ أي: كلهم إليّ فأنا كافيهم ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ رؤساء قريش. مفعول معه. أو: عطف على ﴿ذرني﴾ أي: دعني وإيّاهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ التنعّم. وبالكسر: الإنعام. وبالضم: المسرّة ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلًا﴾ إلى يوم بدر، أو: إلى يوم القيامة،

١٢، ١٣ ـ ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ للكافرين في الآخرة ﴿أَنكَالٗا﴾ قيوداً ثقالاً. جمع: نِكل ﴿وَجَحِيمٗا﴾ ناراً محرقة ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ أي: الذي يتشبَّثُ في الحلقوم، فلا يُساغ. يعني: الضريع، والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ يخلص وجعه إلى القلب. وروي: أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق[1]. وعن الحسن: أنّه أمسى صائماً فأتي

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/١٣٥).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾

بطعام فعرضت له هذه الآية: فقال: ارفعه. ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له، فقال: ارفعه. وكذا الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني وغيره فجاؤوا، فلم يزالوا، حتّى شرب شربةً من سويق.

١٤ ـ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما في ﴿لدينا﴾ من معنى الفعل. أي: استقرّ للكفّار ﴿لدينا﴾ كذا وكذا يوم ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تتحرّك حركةً شديدة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً. من: كثب الشيء إذا جمعه. كأنّه فعيل بمعنى: مفعول ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلاً بعد اجتماعه.

١٥، ١٦ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: ذلك الرسول، إذ النكرة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأوّل ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً غليظاً. وإنّما خصّ موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون ـ عليه اللعنة ـ لأنّ خبرهما كان منتشراً بين أهل مكّة لأنّهم كانوا جيران اليهود.

١٧ ـ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مفعول ﴿تتقون﴾. أي: ﴿فكيف تتّقون﴾. عذاب يوم كذا ﴿إن كفرتم﴾ هنا؟. أو: ظرف. أي: ﴿فكيف﴾ لكم التقوى في يوم القيامة ﴿إن كفرتم﴾ في الدنيا؟ أو: منصوب بـ ﴿كفرتم﴾ على تأويل جحدتم. أي: ﴿فكيف﴾ لكم ﴿تتقون﴾ الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؟ لأنّ تقوى الله: خوف عقابه ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ ـ صفة لـ ﴿يوماً﴾. والعائد محذوف. أي: فيه ـ ﴿شِيبًا﴾ من هوله وشدّته. وذلك حين يقال لآدم ـ عليه السلام ـ: قم فابعث بعث النار من ذرّيتك. هو جمع: أشيب. وقيل: هو على التمثيل للتهويل. يقال: في الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال.

١٨ ـ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضاً. أي: ﴿السماء﴾ على

كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ

عظمها وإحكامها تنفطر فيه، أي: تنشقّ، فما ظنّك بغيرها من الخلائق؟ والتذكير على تأويل السماء بالسقف. أو: ﴿السماء﴾ شيء ﴿منفطر﴾ وقوله: ﴿به﴾ أي: بيوم القيامة. يعني: أنّها تنفطر لشدّة ذلك اليوم، وهوله؛ كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول، وهو: اليوم؛ أو: إلى الفاعل، وهو: الله عزّ وجلّ ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً.

١٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء اتّعظ بها، واتّخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

٢٠ ـ ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أقلّ. فاستعير الأدنى ـ وهو الأقرب ـ للأقلّ؛ لأنّ المسافة بين الشيئين إذا دنت قلّ ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ بضمّ اللام سوى هشام ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ منصوبان. عطف على ﴿أدنى﴾ مكّيٌّ وكوفيٌّ. ومن جرّهما عطف على ﴿ثلثي﴾ ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ عطف على الضمير في ﴿تقوم﴾ وجاز بلا توكيد؛ لوجود الفاصل ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. أي: ويقوم ذلك المقدار جماعةٌ من أصحابك ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ولا يقدر على تقدير الليل والنهار، ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلّا الله وحده. وتقديم اسمه عزّ وجلّ مبتدأً مبنيّاً عليه لـ ﴿يقدّر﴾ هو الدالّ على أنّه مختصّ بالتقدير. ثمّ إنهم قاموا حتّى انتفخت أقدامهم. فنزل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلّا بشدةٍ ومشقّةٍ، وفي ذلك حرج ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فخفّف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ ـ في الصلاة، والأمر للوجوب ـ أو في غيرها، والأمر للندب ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾. روى أبو حنيفة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّه قال: من قرأ مئة آية في ليلةٍ لم يكتب من الغافلين. ومن قرأ مئتي آية كتب من القانتين. وقيل: أراد بالقرآن الصلاة لأنّها بعض أركانها. أي: فصلّوا ما تيسّر عليكم ولم يتعذّر من صلاة الليل. وهذا ناسخ للأوّل. ثمّ نسخ هذا بالصلوات الخمس. ثمّ بيّن الحكمة في

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

النسخ، وهي تعذّر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ أي: أنه. مخفّفة من الثقيلة. والسين بدل من تخفيفها وحذف اسمها. ﴿مَّرْضَىٰ﴾ فيشقّ عليهم قيام الليل ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يضربون﴾ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. سوّى بين المجاهد والمكتسب؛ لأنّ كسب الحلال جهاد قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء. وقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أموت بين شعبتي رحلٍ أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كرّر الأمر بالتيسير لشدّة احتياطهم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتُوا۟﴾ الواجبة ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ـ بالنوافل ـ والقرض لغةً: القطع، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدّق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى. وإنّما أضافه إلى نفسه لئلاّ يمنّ على الفقير فيما يتصدّق عليه. وهذا لأنّ الفقير معاون له في تلك القربة، فلا يكون له عليه منّة، بل المنّة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي: ثوابه. وهو جزاء الشرط ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ ممّا خلفتم وتركتم. فالمفعول الثاني لتجدوه ﴿خيراً﴾ و﴿هو﴾ فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنّ «أفعل من» أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأجزل ثواباً ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من السيّئات، والتقصير في الحسنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿رَّحِيمٌ﴾ يخفّف عن أهل الجهد والتوفيق.

* * *

سورة المدثر

آياتها ٥٦ — ترتيبها ٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾

١، ٢ ـ روى جابر: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد! إنّك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً. فنظرت فوقي، فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض» ـ يعني: الملك الذي ناداه ـ «فرعبت ورجعت إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقلت: دثريني، دثريني». فدثّرته خديجة. فجاء جبريل وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1] أي: المتلفّف بثيابه، من: الدثار. وهو: كلُّ ما كان من الثياب فوق الشعار. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. وأصله: المتدثّر. فأدغم ﴿قُمْ﴾ من مضجعك. أو: ﴿قم﴾ قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرْ﴾ فحذّر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. أو: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد. وقيل: سمع من قريش ما كرهه، فاغتم فتغطّى بثوبه مفكّراً؛ كما يفعل المغموم. فقيل له: ياأيُّها الصارف أذى الكفّار عن نفسك بالدِّثار؛ قم فاشتغل بالإنذار؛ وإن آذاك الفجّار.

(١) رواه البخاري (٤٩٢٣، ٤٩٢٤) ومسلم (١٦١) (٢٥٧، ٢٥٨).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾

٣ ـ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختصَّ ربك بالتكبير. وهو: التعظيم. أي: لا تُكبر في عينك غيره، وقل: عند ما يعروك من غير الله: الله أكبر. وروي: أنّه لمَّا نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبّرت خديجة، وفرحت، وأيقنت أنّه الوحي[1]. وقد يحمل على تكبير الصلاة. ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ كأنّه قيل: وما كان فلا تدعْ تكبيره.

٤ ـ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأنّ الصلاة لا تصحّ إلاّ بها. وهي الأوْلى في غير الصلاة. أو: فقصّر مخالفةً للعرب في تطويلهم الثياب، وجرّهم الذيول؛ إذ لا يؤمن معه إصابة النجاسة. أو: طهّر نفسك مما يستقذر من الأفعال. يقال: فلان طاهر الثياب: إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، وفلانٌ دنس الثياب للغادر؛ ولأنّ من طهّر باطنه يطهِّر ظاهره ظاهراً.

٥ ـ ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء يعقوب، وسهل، وحفص. وغيرهم بالكسر: العذاب. والمراد: ما يؤدّى إليه ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي: اثبت على هجره؛ لأنّه كان بريئاً منه.

٦ ـ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع. وهو منصوب المحلّ على الحال. أي: لا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً. أو: طالباً أكثر ممّا أعطيت؛ فإنّك مأمور بأجلِّ الأخلاق، وأشرف الآداب. وهو من: منَّ عليه: إذا أنعم عليه. وقرأ الحسن ﴿تستكثرْ﴾ بالسكون جواباً للنهي.

٧ ـ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه، وكلِّ مصبورٍ عليه، ومصبور عنه.

٨ ـ ١٠ ـ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نفخ في الصور. وهي: النفخة الأولى. وقيل: الثانية ﴿فَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مرفوع المحلّ، بدل من «ذلك» ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر. كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. والفاء في عَلَى

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٦٤٥).

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ
شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

﴿فإذا﴾ للتسبيب، وفي ﴿فذلك﴾ للجزاء؛ كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير، يلقون في عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه. والعامل في ﴿فإذا﴾ ما دلّ عليه الجزاء. أي: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ عسر الأمر ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأكّد بقوله ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنّه يسير على المؤمنين. أو: ﴿عسير﴾ لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

١١ ـ ١٤ ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: كله إليَّ. يعني: الوليد بن المغيرة. وكان يلقّب في قومه بالوحيد. ﴿ومن خلقت﴾ معطوف، أو مفعول معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الياء في ﴿ذرني﴾. أي: ذرني وحدي معه، فإنّي أكفيك أمره. أو: من التاء في ﴿خلقت﴾ أي: خلقته وحدي، لم يشركني في خلقه أحدٌ. أو: من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَنْ﴾ أي: خلقته منفرداً بلا أهل، ولا مال، ثمّ أنعمت عليه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً. أو: مُمَدّاً بالنماء. وكان له الزَّرع، والضَّرع، والتجارة. وعن مجاهد: كان له مئة ألف دينار. وعنه: أنَّ له أرضاً بالطائف لا ينقطع ثمرها ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكّة لغناهم عن السفر. وكانوا عشرةً أسلم منهم خالد، وهشام، وعمارة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاه والرياسة، فأتممت عليه نعمتي الجاه المال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

١٥ ـ ١٦ ـ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ استبعادٌ أو استنكارٌ لطمعه وحرصه، أي: يرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر. وقال الحسن: ﴿أن أزيد﴾ أي: أن أدخله الجنّة، فأعطيه مالاً وولداً، كما قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] ﴿كَلَّآ﴾ ردع له، وقطع لرجائه. أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم. فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتّى هلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا﴾ للقرآن ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً جاحداً. وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأنَّ قائلاً قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنّه جحد آيات المنعم، وكفر بذلك نعمته. والكافر لا يستحقّ المزيد.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ﴾

١٧ ـ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عقبة شاقّة المصعد، وفي الحديث: «الصعود: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثمّ يهوي فيه كذلك أبداً»[1].

١٨ ـ ٢٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ تعليل للوعيد، كأنّه تعالى عاجله بالفقر والذلّ، بعد الغنى والعزّ، لعناده؛ ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب؛ لبلوغه بالعناد غايته، وتسميته القرآن سحراً. يعني: ﴿إنّه فكّر﴾ ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقوله، وهيّأه ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرّر للتأكيد. و﴿ثمّ﴾ يشعر بأنّ الدعاء الثاني أبلغ من الأوّل.

٢١ ـ ٢٣ ـ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه الناس، أو فيما قدّر ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطّب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبّض، والكلوح ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عنه أو عن مقامه وفي مقاله. و﴿ثمّ نظر﴾ عطف على ﴿فكّر وقدّر﴾ والدعاء اعتراض بينهما. وإيراد ﴿ثمّ﴾ في المعطوفات لبيان: أنّ بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروى عن السحرة. روي: أنّ الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يعلى. فقالت قريش: صبأ والله الوليد. فقال أبو جهل ـ وهو ابن أخيه ـ: أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزيناً، وكلّمه بما أحماه. فأتاهم، فقال: يزعمون: أنّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يُخْنِقُ؟ ويقولون: إنّه كاهن، فهل رأيتموه قطّ يتكهّن؟ ويزعمون: أنّه شاعر. فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ ويزعمون: أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟» فقالوا في كلّ ذلك: اللهم لا. ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلاّ ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ وما الذي يقوله إلاّ سحر يؤثر عن مسيلمة، وأهل بابل. فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا متعجّبين منه. وذكر الفاء دليل على أنّ هذه الكلمة لمّا خطرت بباله نطق بها من غير تلبّث ﴿إِنْ هَٰذَآ

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٦).

﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين؛ لأنّ الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ سأدخله. بدل من ﴿سأرهقه صعوداً﴾ ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تهويل لشأنها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: هي ﴿لا تبقي﴾ لحماً ﴿ولا تذر﴾ عظماً. أو: ﴿لا تبقى﴾ شيئاً يُلقى فيها إلاّ أهلكته ﴿ولا تذر﴾ ه هالكاً، بل يعود كما كان.

٢٩ ـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي لوّاحةٌ ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ جمع: بشرة، وهي: ظاهر الجلد. أي: مسوّدةٌ للجلود أو محرقةٌ لها.

٣٠ ـ ﴿عَلَيْهَا﴾ على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: يلي أمرها ﴿تسعة عشر﴾ ملكاً عند الجمهور. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفاً. وقيل: نقيباً.

٣١ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي: خزنتها ﴿إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ لأنهم خلاف جنس المعذّبين، فلا تأخذهم الرأفة والرقّة؛ لأنّهم أشدّ الخلق بأساً. فللواحد منهم قوّة الثقلين ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، حتّى قال أبو جهل لمّا نزلت ﴿عليها تسعة عشر﴾: ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدهم؟!. فقال أبو الأشدّ ـ وكان شديد البطش ـ: «أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين». فنزلت: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي: وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد، مع أنّه لا يطلب في الأعداد العلل: إن ستّة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستّة يسوقونهم، وستّة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر خازن جهنّم. وهو مالك، وهو الأكبر. وقيل: في سقر تسعة عشر دركاً، وقد سلّط على كلّ درك ملك. وقيل: يعذب فيها بتسعة عشر لوناً من العذاب، [وعلى][1] كلّ لون ملك موكّل. وقيل: إنّ جهنّم تحفظ بما تحفظ

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ

به الأرض من الجبال. وهي تسعة عشر. وإن كان أصلها مئة وتسعين إلاّ أنّ غيرها ينشعب عنها ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ لأنّ عدّتهم تسعة عشر في الكتابَيْن. فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا: أنّه منزّل من الله ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بمحمّد ـ وهو عطف على ﴿ليستيقن﴾ ـ ﴿إِيمَـٰنًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا سائر ما أنزل. أو: يزدادون يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف أيضاً. وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان؛ إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دلاّ على انتفاء الارتياب، ثمّ عطف على ﴿ليستيقن﴾ أيضاً ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المشركون. فإن قلت: النفاق ظهر في المدينة والسورة مكيّة. قلت: معناه: وليقول ﴿المنافقون﴾ الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة ﴿والكافرون﴾ بمكّة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب. وذا لا يخالف كون السورة مكيّة. وقيل: المراد بالمرض: الشكّ، والارتياب؛ لأنّ أهل مكّة كان أكثرهم شاكّين. و﴿مثلاً﴾ تمييز لهذا، أو: حال منه، كقوله: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] ولمّا كان ذكر العدد في غاية الغرابة، وأنّ مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمّي مثلاً. والمعنى: أيّ شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟ وأيّ معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر، لا عشرين؟ وغرضهم إنكاره أصلاً، وأنّه ليس من عند الله، وأنّه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ الكاف نصب. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى. أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى ـ يعني: إضلال المنافقين والمشركين حتّى قالوا ما قالوا، وهدي المؤمنين بتصديقه ورؤية الحكمة في ذلك ـ ﴿يضلّ الله من يشاء﴾ من عباده، وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء. وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله بالهداية

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾

والإضلال. ولمّا قال أبو جهل: أما لربِّ محمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟! نزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفرط كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعزُّ عليه تتميم الخزنة عشرين. ولكن له في هذا العدد الخاصّ حكمة لا تعلمونها ﴿وَمَا هِيَ﴾ متّصل بوصف سقر. و﴿هي﴾ ضميرها أي: ﴿وما﴾ سقر وصفتها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تذكرة للبشر. أو: ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

٣٢ ـ ٣٧ ـ ﴿كَلَّا﴾ إنكار ـ بعد أن جعلها ذكرى ـ أن تكون لهم ذكرى لأنّهم لا يتذكّرون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف. وغيرُهم: ﴿إذا دَبَر﴾ ودَبَر بمعنى: أدبر. ومعناهما: ولّى وذهب. وقيل: ﴿أدبر﴾ ولّى ومضى. و﴿دَبَر﴾ جاء بعد النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أضاء. وجواب القسم ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ سقر ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هي جمع: الكبرى. أي: ﴿لإحدى﴾ البلايا، أو الدواهي ﴿الكبر﴾. ومعنى كونها إحداهنّ: أنها من بينهنّ واحدة في العظم، لا نظيرة لها؛ كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء ﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من ﴿إحدى﴾. أي: ﴿إنها لإحدى﴾ الدواهي إنذاراً؛ كقولك: هي إحدى النساء عفافاً. وتُبْدَل من ﴿لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بإعادة الجارّ ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه. وعن الزجّاج: إلى ما أمر أو عمّا نهى.

٣٨ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ هي ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنّه لو قصدت الصفة لقيل: رهين. لأنّ فعيلا بمعنى مفعول، يستوى فيه المذكّر والمؤنّث. وإنّما هي: اسم بمعنى: الرهن؛ كالشتيمة بمعنى: الشتم؛ كأنّه قيل: ﴿كلّ نفس بما كسبت﴾ رَهْنٌ. والمعنى: ﴿كلّ نفس﴾ رَهْنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك.

٣٩ ـ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي: أطفال المسلمين؛ لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها. أو: إلاّ المسلمين؛ فإنهم فكّوا رقابهم بالطاعة؛ كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحقّ.

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠﴾

٤٠ ـ ٤٢ ـ ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي: هم ﴿في جنّاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عنهم. أو: يتساءلون غيرهم عنهم ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أدخلكم فيها. ولا يقال: لا يطابق قوله: ﴿ما سلككم﴾ ـ وهو سؤال للمجرمين ـ قوله: ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم؟ لأنّ ﴿ما سلككم﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم. وإنّما هو حكاية قول المسؤولين عنهم؛ لأنّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلّين﴾. إلاّ أنّه اختصر كما هو نهج القرآن. وقيل: ﴿عن﴾ زيادة.

٤٣ ـ ٤٨ ـ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أي: لم نعتقد فرضيّتها ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ كما يطعم المسلمون ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ الخوض: الشروع في الباطل، أي: نقول الباطل والزور في آيات الله ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الحساب والجزاء ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ من الملائكة، والنبيين، والصالحين؛ لأنّها للمؤمنين دون الكافرين. وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين. في الحديث: «إنّ من أمّتي من يدخل الجنّة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر»[١].

٤٩ ـ ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ التذكير، وهو: العظة؛ أي: القرآن ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ مولّين. حال من الضمير. نحو: مالك قائماً؟

٥٠، ٥١ ـ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ﴾ أي: حمر الوحش. حال من الضمير في ﴿معرضين﴾ ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ شديدة النفار، كأنّها تطلب النفار من نفوسها. وبفتح

(١) رواه أحمد (٤/ ٢١٢).

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الفاء مدنيٌّ، وشاميٌّ؛ أي: استنفرها غيرها ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ حال. و«قد» معها مقدّرة. والقسورة: الرماة، أو: الأسد. فعولة من القسر. وهو: القهر والغلبة. شبّهوا في إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر بحمر جدّت في نفارها.

٥٢ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ. وذلك: أنّهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتّى تأتي كلَّ واحدٍ منا بكتب من السماء، عنوانها: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتّباعك ونحوه قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كلّ رجل منّا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار.

٥٣ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات. ثمّ قال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف.

٥٤ ـ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ رَدَعَهُم عن إعراضهم عن التذكرة. وقال: إنّ القرآن ﴿تذكرةٌ﴾ بليغةٌ كافيةٌ.

٥٥ ـ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: ﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينساه فعل، فإنّ نَفْع ذلك عائد إليه.

٥٦ ـ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وبالتاء: نافع ويعقوب ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلاّ وقت مشيئة الله، أو: إلاّ بمشيئة الله ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في الحديث: «هو أهلٌ أن يتقى، وأهلٌ أن يغفر لمن اتّقاه»[1].

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٨) وابن ماجه (٤٢٩٩).

سُورَةُ القِيَامَةِ

ترتيبها ٧٥ — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أقسم، عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ. و﴿لا﴾ صلة؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] وقوله:

في بئر لا حُورٍ سَرَى وما شعر ... ...

وقوله:

تذكَّرت ليلى فاعترتني صبابةٌ وكاد ضميرُ القلب لا يتقطَّعُ

وعليه الجمهور. وعن الفرّاء ﴿لا﴾ ردّ لإنكار المشركين البعث، كأنّه قيل: ليس المراد كما تزعمون، ثمّ قيل: أقسم بيوم القيامة. وقيل: أصله: ﴿لأقسم﴾ كقراءة ابن كثير، على أنّ اللام للابتداء، و: ﴿أقسم﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: لأنا أقسم. ويقوّيه: أنّه في الإمام بغير ألف، ثمّ أشبع فظهر من الإشباع ألف. وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب، وقد يفارقه.

٢ ـ ٣ ـ ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنّه قسم آخر. وعن الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة، فهي صفة ذمّ، وعلى القسم صفة

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

مدح، أي: النفس المتّقية التي تلوم على التقصير في التقوى. وقيل: هي نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنّة. وجواب القسم محذوف. أي: لتبعثنّ. دليله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد تفرّقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب.

٤ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ أوجبت ما بعد النفي. أي: ﴿بلى﴾ نجمعها ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من الضمير في نجمع. أي: نجمعها ﴿قادرين﴾ على جمعها وإعادتها كما كانت. أو: قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرها، فكيف بكبار العظام؟

٥ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على ﴿أيحسب﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

٦ ـ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال متعنِّتٍ مستبعدٍ لقيام الساعة.

٧ ـ ١٠ ـ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ تحيّر فزعاً. وبفتح الراء مدنيٌّ: شَخَصَ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه، أو: غاب. من قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١] وقرأ أبو حيوة بضمّ الخاء ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب. أو: جمعا في ذهاب الضوء. أو: يجمعان فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ هو مصدر. أي: الفرار من النار. أو: المؤمن أيضاً من الهول. وقرأ الحسن بكسر الفاء. وهو يحتمل المكان والمصدر.

١١، ١٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن طلب المفرّ ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصّة ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقرّ العباد. أو: موضع قرارهم من جنّة أو نار، مفوّض ذلك إلى مشيئته، من شاء أدخله الجنّة، ومن شاء أدخله النار.

١٣ ـ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ يخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عملٍ عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ مالم يعمله.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

١٤ ـ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ شاهدٌ. والهاء للمبالغة، كعلّامة. أو: أنّثه لأنّه أراد به جوارحه؛ إذ جوارحه تشهد عليه. أو: هو حجّة على نفسه. والبصيرة: الحجّة. قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وتقول لغيرك: أنت حجة على نفسك، وبصيرة. رفعٌ بالابتداء، وخبره ﴿على نفسه﴾ تقدّم عليه. والجملة خبر ﴿الإنسان﴾ كقولك: زيد على رأسه عمامة. والبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك الموكَّل عليه.

١٥ ـ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو أرخى ستوره. والمِعْذار: الستر. وقيل: ولو جاء بكلّ مَعذرة ما قبلت منه، فعليه من يكذب عذره. والمعاذير ليس بجمع معذرة؛ لأنّ جمعها معاذر. بل هي: اسم جمع لها. ونحوه: المناكير في المنكر.

١٦، ١٧ ـ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ بالقرآن. وكان ﷺ يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلّت منه. فقيل له: ﴿لا تحرّك﴾ لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ ﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة؛ ولئلا يتفلّت منك. ثمّ علّلَ النهي عن العجلة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وإثبات قراءته في لسانك. والقرآن: القراءة. ونحوه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

١٨، ١٩ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريل ـ فجعل قراءة جبريل قراءته ـ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: قراءته عليك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ إذا أشكل عليك شيءٌ من معانيه.

٢٠، ٢١ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث. أو: ردع لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكار لها عليه. وأكّده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنّه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنّكم خلقتم من عجل، وطبعتم عليه تعجلون في كلّ شيء، ومن ثمّ ﴿تحبّون العاجلة﴾ الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾

تعملون لها. والقراءة بالتاء فيهما مدنيٌّ وكوفيٌّ.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿وُجُوهٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنةٌ ناعمةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بلا كيفيّة، ولا جهة، ولا ثبوت مسافةٍ، وحمل النظر على الانتظار لأمر ربّها، أو لثوابه، لا يصح؛ لأنّه يقال: نظرت فيه: أي: تفكّرت. ونظرته: انتظرته. ولا يعدّى بإلى إلاّ بمعنى الرؤية. مع أنّه لا يليق الانتظار في دار القرار.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحةٌ شديدةُ العبوس، وهي: وجوه الكفار ﴿تَظُنُّ﴾ تتوقّع ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعلٌ هو في شدّته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهيةٌ تقصم فقار الظهر.

٢٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنّه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبّهوا على ما بين أيديكم من الموت؛ الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة؛ التي تبقون فيها مخلّدين ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح. وجاز وإن لم يجرلها ذكر؛ لأنّ الآية تدلّ عليها ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال. جمع: ترقوة.

٢٧ ـ ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ يقف حفص على ﴿من﴾ وقيفة. أي: قال حاضرو المحتضر بعضهم لبعض: أيّكم يرقيه ممّا به؟ من: الرقية، مِنْ حدِّ: «ضَرَبَ» أو: هو من كلام الملائكة: أيّكم يرقَى بروحه: أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟ من الرقيِّ، من حدِّ «علم».

٢٨ ـ ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن المحتضر ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أنّ هذا الذي نزل به هو: فراق الدنيا المحبوبة.

٢٩ ـ ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ التوت ساقاه عند موته. وعن سعيد بن المسيِّب: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه. وقيل: شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة، على أنّ الساق مثلٌ في الشدّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هما همّان: همّ الأهل والولد، وهمُّ القدوم على الواحد الصمد.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾

٣٠ ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ هو مصدر: ساقه. أي: مساق العباد إلى حيث أمر الله، إمّا إلى الجنّة، أو إلى النار.

٣١، ٣٢ ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالرسول والقرآن ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ الإنسان ـ في قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ ـ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان. أو: ﴿فلا صدّق﴾ ماله. يعني: فلا زكّاه.

٣٣ ـ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر. أصله: يتمطط. أي: يتمدّد؛ لأنّ المتبختر يمدُّ خطاه، فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ﴿فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرّر للتأكيد. كأنّه قال: ويل لك، فويل، ثمّ ويل لك، فويل. وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار.

٣٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أيحسب الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يبعث، ولا يجازى؟

٣٧ ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بالياء: ابن عامر، وحفص. أي: يراق المني في الرحم. وبالتاء: يعود إلى النطفة.

٣٨ ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فخلق الله منه بشراً سوياً.

٣٩ ـ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي: من المنيِّ الصنفين.

أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

٤٠ ـ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أليس الفعّال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة؟ وكان ﷺ إذا قرأها يقول: «سبحانك، بلى»[١].

* * *

(١) رواه أبو داود (٨٨٧).

سورة الإنسان

ترتيبها ٧٦ — آياتها ٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

---

١ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ قد مضى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ آدم ـ عليه السلام ـ ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أربعون سنة مصوَّراً قبل نفخ الروح فيه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لم يذكر اسمه، ولم يدر ما يراد به؛ لأنّه كان طيناً يمرّ به الزمان. ولو كان غير موجود لم يوصف بأنَّه قد أتى عليه حين من الدهر. ومحلّ ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ النصب على الحال من ﴿الإنسان﴾. أي: أتى عليه ﴿حينٌ من الدهر﴾ غير مذكور.

٢ ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ولد آدم ـ وقيل: الأوّل ولد آدم أيضاً. و﴿حين من الدهر﴾ على هذا: مدّة لبثه في بطن أمّه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس ـ ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نعت، أو: بدل منها. أي: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] قد امترج فيها الماءان. ومشجه، ومزجه: بمعنى. و﴿نطفة أمشاج﴾ كبرمة أعشار. فهو لفظ مفرد غير جمع؛ ولذا وقع صفة للمفرد. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال. أي: خلقناه مبتلين. أي: مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ذا سمع وبصر.

٣ ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيّنّا له طريق الهدى بأدلّة العقل والسمع ﴿إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

﴿شَاكِرًا﴾ مؤمناً ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كافراً، حالان من الهاء في ﴿هديناه﴾. أي: إن شكر أو كفر فقد هديناه السبيل في الحالين. أو من ﴿السبيل﴾ أي: عرّفناه السبيل ﴿إمّا﴾ سبيلاً ﴿شاكراً وإمّا﴾ سبيلاً ﴿كفوراً﴾. ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

٤ ـ ولمّا ذكر الفريقين أتبعهما ما أعدّ لهما فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع سلسلة. بغير تنوين: حفص، ومكّيٌّ، وأبو عمرو، وحمزة. وبه؛ ليناسب ﴿أغلالاً وسعيراً﴾ إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب: غيرهم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً موقدة.

٥، ٦ ـ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع: برّ، أو: بارّ، كربّ، وأرباب، وشاهد، وأشهاد. وهم الصادقون في الإيمان، أو: الذين لا يؤذون الذرَّ، ولا يضمرون الشرَّ ـ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ خمر. فنفس الخمر تسمّى: كأساً. وقيل: الكأس: الزجاجة إذا كانت فيها خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾ ماءُ كافورٌ. وهو اسم عين في الجنّة ماؤها في بياض الكافور، ورائحته، وبرده ﴿عَيْنًا﴾ بدل منه ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: منها، أو: الباء زائدة، أو: هو محمول على المعنى. أي: يلتذّ بها. أو: يروى بها. وإنّما قال أوّلاً: بحرف ﴿مِنْ﴾ وثانياً بحرف الباء؛ لأنّ الكأس مبتدأ شربهم، وأوّل غايته. وأمّا العين فيها يمزجون شرابهم فكأنّه قيل: يشرب عباد الله بها الخمر ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧ ـ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم. وهو جواب مَنْ عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟ والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات؛ لأنّ مَنْ وفّى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشراً، من: استطار الفجر.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾

٨ ـ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حبّ الطعام، أي: مع الاشتهاء والحاجة إليه. أو: على حبّ الله ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ مأسوراً مملوكاً أو غيره.

٩ ـ ثمّ عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لطلب ثوابه. أو: هو بيان من الله عزّ وجلّ عمّا في ضمائرهم؛ لأنّ الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ هديّةً على ذلك ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ ثناءً. وهو مصدر، كالشكر.

١٠ ـ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ أي: إنّا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة. أو: ﴿إنّا نخاف من ربّنا﴾ فتصدّقنا لوجهه حتّى نأمن من ذلك الخوف ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء. نحو: نهارك صائم. والقمطرير: الشديد العبوس؛ الذي يجمع ما بين عينيه.

١١ ـ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ صانهم من شدائده ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجّار ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ فرحاً في القلوب.

١٢ ـ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على الإيثار.

نزلت في عليٍّ، وفاطمةَ، وفضّةَ ـ جاريةٍ لهما ـ: لما مرض الحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ نذروا صوم ثلاثة أيام. فاستقرض عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ من يهوديٍّ ثلاثة أصوع من الشعير فطحنت فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ كلّ يوم صاعاً وخبزت، فآثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً، ولم يذوقوا إلاّ الماء في وقت الإفطار[1] ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً فيه مأكلٌ هنيءٌ ﴿وَحَرِيرًا﴾ فيه ملبسٌ بهيٌّ.

(١) قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق، فهذا وأشباهه عامتها مفتعلة. (نوادر الأصول ١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾

١٣ ـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأسرّة. جمع: الأريكة ﴿لَا يَرَوۡنَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿متكئين﴾: غير رائين ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ لأنّه لا شمس فيها ولا زمهرير، فظلّها دائم، وهواؤها معتدل، لا حرّ شمس يحمي، ولا شدّة بردٍ تؤذي. وفي الحديث: «هواء الجنّة سجسج لا حرٌّ ولا قرٌّ»[1]. فالزمهرير: البرد الشديد. وقيل: القمر. أي: الجنّة مضيئةٌ، لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

١٤ ـ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ قريبةً منهم ظلال أشجارها. عُطفت على ﴿جنّة﴾. أي: ﴿و﴾ جنّةٍ أخرى ﴿دانية عليهم ظلالها﴾. كأنّهم وعدوا جنّتين؛ لأنّهم وصفوا بالخوف ـ بقوله: ﴿إنّا نخاف من ربّنا﴾ ـ ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَذُلِّلَتۡ﴾ سخّرت للقائم والقاعد والمتكيء. وهو حال من ﴿دانية﴾ أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم. أو: معطوفة عليها، أي: ﴿ودانيةً عليهم ظلالها﴾ ومذلّلة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها. جمع: قِطْف ﴿تَذۡلِيلٗا﴾.

١٥، ١٦ ـ ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾ أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب. والآنية: جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ أي: من فضّة ـ جمع: كوب، وهو: إبريق لا عروة له ـ ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ كان تامّة. أي: كوّنت فكانت قوارير بتكوين الله. نصب على الحال ـ ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ أي: مخلوقة من فضّة، فهي جامعة لبياض الفضّة وحسنها، وصفاء القوارير وشفيفها؛ حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قوارير كلّ أرض من تربتها. وأرض الجنّة فضّة. قرأ نافع، والكسائيُّ، وعاصم، وفي رواية أبي بكرٍ بالتنوين فيهما، وحمزة، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص بغير تنوين فيهما، وابن كثير بتنوين الأوّل. فالتنوين في الأوّل لتناسب الآي

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤/ ٦٧٠).

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَالِيَهُمْ﴾

المتقدّمة، والمتأخّرة، وفي الثاني لإتباعه الأوّل. والوقف على الأوّل قد قيل، ولا يوثق به؛ لأنّ الثاني بدل الأوّل ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ ﴿قوارير من فضّة﴾ أي: أهل الجنة قدّروها على أشكال مخصوصة، فجاءت كما قدّروها تكرمةً لهم، أو: السقاة جعلوها على قدر ريّ شاربها، فهي ألذّ لهم، وأخفّ عليهم. وعن مجاهد: لا يُفيض، ولا يَغيض.

١٧، ١٨ ـ ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا﴾ ـ بدل من ﴿زنجبيلاً﴾ ـ ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾. سمّيت العين ﴿زنجبيلاً﴾ لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذّه وتستطيبه؛ و﴿سلسبيلاً﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها. قال أبو عبيدة: ماء سلسبيل: أي: عذب طيّب.

١٩ ـ ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان ينشّئهم الله لخدمة المؤمنين. أو: ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنّة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسْنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾. وتخصيص المنثور لأنه أزين في النظر من المنظوم.

٢٠ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ﴿ثمّ﴾ ظرف. أي: في الجنّة. وليس لـ ﴿رأيت﴾ مفعول ظاهر، ولا مقدّر ليشيع في كلّ مرئيٍّ. تقديره: ﴿وإذا﴾ اكتسبت الرؤية في الجنّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً. يروى: «أنّ أدنى أهل الجنّة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»[(١)]. وقيل: ملك لا يعقبه هُلك. أو: لهم فيها ما يشاؤون، أو يسلّم عليهم الملائكة ويستأذنون في الدخول عليهم.

٢١ ـ ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بالنصب على أنّه حال من الضمير في ﴿يطوف عليهم﴾.

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤) والترمذي (٢٥٥٦).

﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾

أي: ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ عالياً للمطوف عليهم ﴿ثياب﴾. وبالسكون: مدنيّ، وحمزة، على أنّه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. أي: ما يعلوهم من ملابسهم ﴿ثياب سندس﴾ رقيق الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ جمع: أخضر ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ. برفعهما؛ حملاً على الثياب، نافع، وحفص. وبجرّهما؛ حمزة، وعليّ، حملاً على ﴿سندس﴾. ويرفع الأوّل، وجرّ الثاني، أو عكسه: غيرهم ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطف على ﴿ويطوف عليهم﴾ ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. وفي سورة الملائكة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣] قال ابن المسيّب: لا أحد من أهل الجنّة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضّة، وآخر من ذهب، وآخر من لؤلؤ. ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص. وقيل: إنّ الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من الوسائط، فإذا هم بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكفٍّ من غيب إلى عبد ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجْسٍ كخمر الدنيا؛ لأنّ كونها رجساً بالشرع، لا بالعقل، ولا تكليف ثمّ. أو: لأنّه لم يعصر فتمسّه الأيدي الوضرة[1]، وتدوسه الأقدام الدنسة.

٢٢ ـ يقال لأهل الجنّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً، مقبولاً، مرضيّاً عندنا؛ حيث قلتم للمسكين، واليتيم، والأسير: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لإنّ، تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس النبيّ ﷺ: أنه إذا كان هو المنزّل لم يكن تنزيله مفرّقاً إلاّ حكمةً وصواباً. ومن الحكمة: الأمر بالمصابرة ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالة، واحتمال الأذيّة، وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكّة ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ من الكفار للضجر من تأخر

(١) «الوضر»: الدرن والدسم.

ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

الظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ راكباً لما هو إثم، داعياً لك إليه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه؛ لأنهم إمّا أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم، أو كفر، أو غير إثم، ولا كفر. فنهى أن يساعدهم على الأوَّلَيْنِ دون الثالث. وقيل: الآثم: عتبة؛ لأنه كان ركّاباً للمآثم والفسوق. والكفور: الوليد، لأنه كان غالياً في الكفر والجحود. والظاهر: أنّ المراد كلُّ آثم وكافر. أي: لا تطع أحدهما. وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما، ومتفرّقاً. ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما؛ لأن الواو للجمع فيكون منهياً عن طاعتهما، لاعن طاعة أحدهما. وقيل: ﴿أو﴾ بمعنى ولا. أي: ولا تطع آثماً ولا كفوراً.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ صلّ له ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصلّ صلاة العشاءين ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تهجّد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه، أو نصفه، أو ثلثه.

٢٧ ـ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ قدّامهم، أو خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً لا يعبؤون به، وهو يوم القيامة؛ لأنّ شدائده تثقل على الكفّار.

٢٨ ـ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والفرّاء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: ﴿إذا شئنا﴾ إهلاكهم أهلكناهم و﴿بدّلنا أمثالهم﴾ في الخلقة ممن يطيع.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالتقرّب إليه بالطاعة له واتّباع رسوله.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

٣٠، ٣١ ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ اتّخاذ السبيل إلى الله ـ وبالياء، مكّيٌّ، وشاميٌّ، وأبو عمرو ـ ومحلُّ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ النصب على الظرف أي: إلاّ وقت مشيئة الله. وإنّما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك. وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة، والعصيان، والكفر، والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال، ﴿حَكِيمًا﴾ مصيباً في الأقوال والأفعال، ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ هم المؤمنون ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ جنّته؛ لأنّها برحمته تنال. وهو حجّة على المعتزلة؛ لأنّهم يقولون: قد شاء أن يدخل كلاًّ في رحمته؛ لأنّه شاء إيمان الكلّ. والله تعالى أخبر أنّه يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنّه يختار الهدى ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ـ لأنّهم وضعوا العبادة في غير موضعها ـ ونصب بفعل يفسّره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾، نحو: أوعد، وكافأ.

* * *

سُورَةُ المُرسَلاتِ
آياتها ٥٠ ترتيبها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾

---

١ ـ ٧ ـ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره، فعصفن في مُضِيهنّ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهنّ في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن نفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقَن بين الحقّ والباطل، فألقين ﴿ذكراً﴾ إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿عذراً﴾ للمحقّين ﴿أو نُذُراً﴾ للمبطلين. أو: أقسم برياح عَذَابٍ أرسلهنّ، فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجوّ، ففرقن بينه ـ كقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ [الروم:٤٨] ـ فألقين ﴿ذكراً﴾ إمّا ﴿عذراً﴾ للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم، واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإمّا إنذاراً للذين لا يشكرون، وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقياتٍ للذكر باعتبار السببية ﴿عرفاً﴾ حال. أي: متتابعة كعرف الفرس، يتلو بعضه بعضاً. أو مفعول له. أي: أرسلن للإحسان والمعروف. و﴿عصفاً﴾ و﴿نشراً﴾ مصدران ﴿أو نُذْراً﴾ أبو عمرو، وكوفيّ، غير أبي بكر، وحمّاد. والعذر والنذر مصدران من: عذر إذا محا الإساءة، ومن: أنذر إذا خوّف، على فُعْل؛ كالكفر والشكر.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧﴾

وانتصابهما على البدل من ﴿ذكراً﴾؛ أو على المفعول له ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إنّ الذي توعدنه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لكائن، نازل، لا ريب فيه. وهو جواب القسم. ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم.

٨ ـ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ محيت، أو ذهب بنورها. وجواب ﴿فإذا﴾ محذوف. والعامل فيها جوابها، وهو وقوع الفصل ونحوه. و﴿النجوم﴾ فاعل فعل يفسّره: ﴿طمست﴾.

٩ ـ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ فُتِحَتْ فكانت أبواباً.

١٠ ـ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ قلعت من أماكنها.

١١ ـ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي: (وقّتت) كقراءة أبي عمرو، أبدلت الهمزة من الواو. ومعنى توقيت الرسل: تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

١٢ ـ ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ أخرت وأمهلت. وفيه تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله. والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

١٣ ـ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بيانٌ ليوم التأجيل. وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق.

١٤ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره.

١٥ ـ ﴿وَيۡلٞ﴾ مبتدأ ـ وإن كان نكرة. لأنّه في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله ولكنّه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، ونحوه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [القصص: ٥٥] ـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرفه ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بذلك اليوم، خبره.

١٦ ـ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الأمم الخالية المكذّبة.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ مستأنف بعد وقف. وهو وعيد لأهل مكّة. أي:

كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ثمّ﴾ نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأوّلين؛ لأنّهم كذّبوا مثل تكذيبهم.

١٨ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكلّ من أجرم.

١٩ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أوعدنا.

٢٠، ٢٢ ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير، وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مقرّ يتمكّن فيه، وهو الرحم. ومحلّ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحال؛ أي: مؤخراً إلى مقدار من الوقت ﴿معلوم﴾ قد علمه الله وحكم به، وهو تسعة أشهر، أو ما فوقها، أو ما دونها.

٢٣ ـ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ فقدرناه ذلك تقديراً ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ فنعم المقدّرون له نحن. أو ﴿فقدرنا﴾ على ذلك ﴿فنعم القادرون﴾ عليه نحن. والأوّل أحقّ لقراءة نافع، وعليٍّ بالتشديد، ولقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩].

٢٤ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة الفطرة.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هو من: كفَت الشيءَ؛ إذا ضمّه وجمعه. وهو اسم ما يَكفت، كقولهم: الضمام لما يَضمّ. وبه انتصب ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ كأنّه قيل: كافتة ﴿أحياءً وأمواتاً﴾. أو: بفعل مضمر يدلّ عليه ﴿كفاتاً﴾ وهو تكفِت. أي: تكفت ﴿أحياء﴾ على ظهرها ﴿وأمواتاً﴾ في بطنها. والتنكير فيهما للتفخيم. أي: تكفت ﴿أحياءً﴾ لا يعدّون ﴿وأمواتاً﴾ لا يحصرون.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عالياتٍ ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذباً ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النّعم.

٢٩ ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال للكافرين يوم القيامة: سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذّبون.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾

٣٠ ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ دخان جهنّم ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يتشعّب لعظمه ثلاث شعب. وهكذا الدخان العظيم يتفرّق ثلاث فرق.

٣١ ـ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نعت ﴿ظلّ﴾. أي: لا مُظِلٌّ من حرّ ذلك اليوم وحرّ النار ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ في محلّ الجرّ. أي: وغير مغن عنهم ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ ﴿مِنَ﴾ حرّ ﴿اللهب﴾ شيئاً.

٣٢ ـ ٣٤ ـ ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ في العظم. وقيل: هو الغليظ من الشجر. الواحدة قَصْرةٌ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾[1] كوفيٌّ، غير أبي بكر. جمع جَمَلٍ. ﴿جِمالات﴾ غيرهم. جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر. أي: سود تضرب إلى الصفرة. شُبِّه الشرر بالقصور، لعظمه وارتفاعه، وبالجمال للعظم والطول واللون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأنّ هذه صفتها.

٣٥ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقرىء بنصب اليوم. أي: ﴿هذا﴾ الذي قصّ عليكم واقعٌ يومئذ. وسئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] فقال: في ذلك اليوم مواقف: في بعضها يختصمون، وفي بعضها لا ينطقون. أو: ﴿لا ينطقون﴾ بما ينفعهم. فجعل نطقهم كلا نطق.

٣٦، ٣٧ ـ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يؤذن﴾ منخرط في سلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

٣٨ ـ ٤٠ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، والمحسن والمسيء بالجزاء

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿جِمَالَةٌ﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا مكذّبي محمّد ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمكذّبين قبلكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة في دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ﴾ فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب. والكيد متعدّ، تقول: كدت فلاناً: إذا احتلت عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

٤١ ـ ٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن عذاب الله ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظلّ ﴿وَعُيُونٍ﴾ جاريةٍ في الجنّة ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لذيذة مشتهاة ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ـ في موضع الحال من ضمير ﴿المتّقين﴾ في الظرف الذي هو ﴿في ظلال﴾. أي: هم مستقرّون ﴿في ظلال﴾ مقولاً لهم ذلك ـ ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنّة.

٤٦، ٤٧ ـ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذّبين في الدنيا على وجه التهديد، كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قَلِيلًا﴾ لأنّ متاع الدنيا قليل ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ كافرون. أي: إنّ كلّ مجرم يأكل ويتمتّع أيّاماً قلائل، ثمّ يبقى في الهلاك الدائم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالمنعم.

٤٨، ٤٩ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ اخشعوا لله، وتواضعوا له بقبول وحيه واتّباع دينه، ودعوا هذا الاستكبار ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك، ويصرّون على استكبارهم. أو: ﴿إذا قيل لهم﴾ صلّوا لا يصلّون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأمر والنهي.

٥٠ ـ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنّه آية مبصرة، ومعجزة باهرة من بين الكتب السماويّة، فبأي كتاب بعده يؤمنون؟!.

* * *

سُورَةُ النَّبَاءِ

آياتها ٤٠ — ترتيبها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿عَمَّ﴾ أصله ﴿عن ما﴾. وقرىء بها. ثمّ أدغمت النون في الميم فصار ﴿عمّا﴾ وقرىء بها. ثمّ حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام. وعليه الاستعمال الكثير. وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنّه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً. أو: يسألون غيرهم من المؤمنين. والضمير لأهل مكة. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي: البعث. وهو بيان للشأن المفخّم. وتقديره: ﴿عمّ يتساءلون﴾؟ يتساءلون ﴿عن النبأ العظيم﴾ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشكّ. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين، وكانوا جميعاً يسألون عنه. فالمسلم يسأل ليزداد خشيةً، والكافر يسأل استهزاءً.

٤، ٥ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف، أو: التساؤل هزؤاً ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنّهم سوف يعلمون عياناً: أنّ ما يتساءلون عنه حقّ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرّر الردع للتشديد. و﴿ثمّ﴾ يشعر بأنّ الثاني أبلغُ من الأوّل، وأشدُّ.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾

٦ ـ ١٦ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ لمّا أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة؟ فلم تنكرون قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ أو قيل لهم: لم فعل هذه الأشياء؟ والحكيم لا يفعل عبثاً، وإنكار البعث يؤدّي إلى أنه عابث في كلّ ما فعل؟ ﴿مِهَٰدًا﴾ فراشاً فرشها لكم حتّى سَكنتموها، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ للأرض لئلا تميد بكم، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً لأعمالكم، وراحةً لأبدانكم. والسبت: القطع ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ستراً يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبّون الاطّلاع عليه، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلّبون في حوائجكم ومكاسبكم، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة. أي: محكمة، قويّة، لا يؤثّر فيها مرور الزمان، أو: غلاظاً غلظ كلّ واحدة مسيرة خمسمئة سنة ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مضيئاً وقّاداً، أي: جامعاً للنور والحرارة. والمراد: الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي: السحائب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. ومنه: أعصرت الجارية: إذا دنت أن تحيض. أو: الرياح؛ لأنها تنشىء السحاب وتدرّ أخلافه. فيصحّ أن تجعل مبدأً للإنزال. وقد جاء: أنّ الله تعالى يبعث الرياح، فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ منصبّاً بكثرة ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبرّ والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأً ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفّة الأشجار. واحدها: لِفّ، كجذع، وأجذاع، أو: لفيف، كشريف، وأشراف. أو: لا واحد له، كأوزاع. أو: هي جمع الجمع. فهي: جمع لُفّ. ولُفٌّ جمع لَفّاء، وهي: شجرة مجتمعة. ولا وقف من ﴿ألم نجعل﴾ إلى ﴿ألفافاً﴾. والوقف الضروريّ على ﴿أوتاداً﴾ و﴿معاشاً﴾.

١٧ ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحقّ والمبطل ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾

وقتاً محدوداً، ومُنْتهىً معلوماً لوقوع الجزاء، أو: ميعاداً للثواب والعقاب.

١٨ ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ أو: عطف بيان ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ في القرن ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حال. أي: جماعات مختلفة. أو: أمماً، كلّ أمّة مع رسولها.

١٩ ـ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ خفيف، كوفيّ. أي: شقّت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فصارت ذات أبواب، وطرق، وفروج، وما لها اليوم من فروج.

٢٠ ـ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

٢١، ٢٥ ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقاً عليه ممرّ الخلق، فالمؤمن يمرّ عليها والكافر يدخلها. وقيل: المرصاد: الحدّ الذي يكون فيه الرصد، أي: هي حدّ الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب، وهي مآبهم. أو: هي مرصاد لأهل الجنّة، ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ للكافرين مرجعاً ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ ماكثين ـ حال مقدّرة من الضمير في ﴿للطاغين﴾ حمزة: ﴿لَبِثين﴾. واللَّبِث أقوى؛ إذ اللابث من وجد منه اللُّبْث وإن قلّ، واللَّبِث من شأنه اللبث والمقام في المكان ﴿فِيهَآ﴾ في جهنّم ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف جمع: حِقُب. وهو الدهر. ولم يرد به عدد محصور بل الأبد، كلّما مضى حُقُب تبعه آخر إلى غير نهاية. ولا يستعمل الحقب والحُقْبَةُ إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها. وقيل: الحقب ثمانون سنة. وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: غير ذائقين. حال من ضمير ﴿لابثين﴾. فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عذّبوا فيها بمنع البرد والشراب بدّلوا بأحقاب أخر فيها عذاب آخر. وهي: أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها. وقيل: هو من: حقب عامنا إذا قلّ مطره وخيره، وحقِب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه:

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ﴾

أحقاب. فينتصب حالاً عنهم. أي: لابثين فيها حَقِبين و﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ تفسير له. وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1] استثناء منقطع أي: ﴿لا يذوقون﴾ في جهنّم أو: في الأحقاب ﴿برداً﴾ رَوْحاً ينفّس عنهم حرّ النار، أو نوماً. ومنه: منع البرد ﴿ولا شراباً﴾ يسكّن عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حميماً﴾ ماءً حارّاً يحرق ما يأتي عليه ﴿وغسّاقاً﴾ ماء يسيل من صديدهم. وبالتشديد كوفيّ غير أبي بكر.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿جَزَآءً﴾ جوزوا جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ موافقاً لأعمالهم. مصدر بمعنى الصفة، أو: ذا وفاق. ثمّ استأنف معلّلاً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يخافون محاسبة الله إيّاهم. أو: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً.

٢٨ ـ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ تكذيباً. وفعّال في باب فعّل كلّه فاش.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ نصب بمضمر يفسّره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ مكتوباً في اللوح. حال، أو: مصدر في موضع إحصاءً. أو: أحصينا في معنى: كتبنا. لأنّ الإحصاء يكون بالكتابة غالباً. وهذه الآية اعتراض؛ لأنّ قوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ مسبّب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات. أي: ﴿فذوقوا﴾ جزاءكم. والالتفات شاهد على شدّة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. في الحديث: «هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار»[2].

٣١ ـ ٣٥ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مَفْعَلٌ من: الفوز يصلح مصدراً، أي: نجاةً من كلّ مكروه، وظفراً بكلّ محبوب. ويصلح للمكان، وهو الجنّة. ثم أبدل منه بدل البعض من الكلّ فقال: ﴿حَدَآئِقَ﴾: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر. جمع:

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿وغَسَاقاً﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٤٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم والثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٦٩٠).

وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا

حديقة ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ كروماً ـ عطف على ﴿حدائق﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ لَدَاتٍ مستويات في السنّ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مملوءة ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنّة. حال من ضمير خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ الكسائيّ: خفيف بمعنى مكاذبة. أي: لا يكذب بعضهم بعضاً. أو: لا يكاذبه.

٣٦ ـ ﴿جَزَآءً﴾ مصدر. أي: جزاهم جزاء ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ مصدر، أو: بدل من ﴿جزاء﴾ ﴿حِسَابًا﴾ صفة. يعني: كافياً. أو على حسب أعمالهم.

٣٧ ـ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بجرّهما، ابن عامر، وعاصم، بدلاً من ﴿ربّك﴾. ومن رفعهما فـ﴿ربُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره ﴿الرحمنُ﴾. أو ﴿الرحمنُ﴾ صفته و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر. أو: هما خبران. والضمير في ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض، وفي ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ لله تعالى. أي: لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلاّ بإذنه. أو: لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى خوفاً.

٣٨ ـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلته ظرفاً لـ﴿لا يملكون﴾ لا تقف على ﴿خطاباً﴾ وإن جعلته ظرفاً لـ﴿لا يتكلّمون﴾ تقف ﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل، عند الجمهور. وقيل: هو ملك عظيم، ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ حال. أي: مصطفين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلائق ثَمَّ خوفاً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام، أو: الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ حقّاً. بأن قال المشفوع له: لا إله إلاّ الله في الدنيا. أو: لا يؤذن إلاّ لمن يتكلّم بالصواب في أمر الشفاعة.

٣٩ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ مرجعاً بالعمل الصالح.

٤٠ ـ ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في الآخرة؛ لأنّ ما هو آتٍ

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

قريبٌ ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: الكافر ـ لقوله: ﴿إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ ـ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشرّ ـ كقوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١ـ١٨٢] وتخصيص الأيدي، لأنّ أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل ألاّ يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الذمّ. أو: ﴿المرء﴾ عامّ. وخص منه الكافر. و﴿ما قدّمت يداه﴾ ما عمل من خير وشرّ. أو: هو المؤمن لذكر الكافر بعده، وما قدم من خير. و﴿ما﴾ استفهاميّة منصوبة بـ ﴿قدمت﴾ أي: ﴿ينظر﴾ أيَّ شيءٍ ﴿قدّمت يداه﴾؟ أو: موصولة منصوبة بـ﴿ينظر﴾ يقال: نظرته. يعني: نظرت إليه. والراجع من الصلة محذوف. أي: قدمته ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلّف. أو: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ في هذا اليوم، فلم أبعث. وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلّف حتّى يقتصّ للجمّاء من القرناء، ثمّ يردّه تراباً، فيودُّ الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يتمنّى أن يكون كآدم مخلوقاً من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين.

* * *

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ترتيبها ٧٩ — آياتها ٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

١ ـ ٥ ـ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ لا وقف إلى هنا، ولزم هنا؛ لأنه لو وصل لصار ﴿يوم﴾ ظرف ﴿المدبّرات﴾ وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم. أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ﴿غرقاً﴾ أي: إغراقاً في النزع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها، ومواضع أظفارها. وبالطوائف التي تنشطها، أي: تخرجها. من: نَشط الدلو من البئر: إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع، فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبّر ﴿أمراً﴾ من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم، أو دنياهم؛ كما رسم لهم. أو: بخيل الغزاة التي تنزع في أعنّتها نزعاً، تغرق فيه الأعنّة لطول أعناقها؛ لأنّها عراب، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط: إذا خرج من بلد إلى بلد. والتي تسبح في جريها، فتسبق إلى الغاية، فتدبّر أمر الغلبة والظفر. وإسناد التدبير إليها لأنّها من أسبابه. أو: بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب. وإغراقها في النزع: أن تقطع الفلك كلّه حتّى تنحطّ في أقصى الغرب. والتي تخرج من برج إلى برج، والتي تسبح في الفلك

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾

من السيّارة، فتسبق، فتدبّر أمراً من علم الحساب. وجواب القسم محذوف، وهو: لتبعثنّ، لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

٦ ـ ٩ ـ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرّك ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ حركةً شديدة ـ والرجف: شدّة الحركة ﴿الراجفة﴾ النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها؛ لأنّها تضطرب بها الأرض؛ حتّى يموت كلُّ من عليها ـ ﴿تَتْبَعُهَا﴾ حال عن ﴿الراجفة﴾ ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانية؛ لأنّها تردف الأولى، وبينهما أربعون سنة والأولى تميت الخلق، والثانية تحييهم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ قلوب منكري البعث ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة. من: الوجيف، وهو الوجيب. وانتصاب ﴿يوم ترجف﴾ بما دلّ عليه ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾ أي: ﴿يوم ترجف﴾ وجَفت القلوب. وارتفاع ﴿قلوب﴾ بالابتداء. و﴿واجفة﴾ صفتها ﴿أَبْصَـٰرُهَا﴾، أي: أبصار أصحابها ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة لهول ما ترى، خبرها.

١٠، ١١ ـ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: منكرو البعث في الدنيا، استهزاءً وإنكاراً للبعث: ـ ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: أنردّ بعد موتنا إلى أوّل الأمر، فنعود أحياءً كما كنّا؟ والحافرة: الحالة الأولى. يقال لمن كان في أمر، فخرج منه، ثمّ عاد إليه: رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى. ويقال: النقد عند الحافرة. أي: عند الحالة الأولى. وهي: الصفقة. أنكروا البعث، ثمّ زادوا استعباداً، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ بالية. ﴿ناخرة﴾ كوفيّ غير حفص و«فَعِلٌ» أبلغ من فاعل. يقال: نخر العظم، فهو نخر، وناخر. والمعنى: أنردّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية؟ و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف، وهو: نبعث.

١٢ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: منكرو البعث: ﴿تِلْكَ﴾ رجعتنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة ذات خسران، أو: خاسر أصحابها. والمعنى: أنّها إن صحّت وبعثنا فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها. وهذا استهزاءٌ منهم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

١٣ ـ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلّق بمحذوف. أي: لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله عزّ وجلّ؛ فإنها سهلة هيّنة في قدرته، فما هي إلا صيحة واحدة. يريد: النفخة الثانية. من: زجر البعير: إذا صاح عليه.

١٤ ـ ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها. وقيل: الساهرة: أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو: بيت المقدس، أو: أرض مكّة، أو: جهنّم.

١٥ ـ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ استفهام يتضمّن التنبيه على أنّ هذا ممّا يجب. والتشريف للمخاطب به.

١٦ ـ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ حين ناداه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهّر ﴿طُوًى﴾ اسمه.

١٧ ـ ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تجاوز الحدّ في الكفر والفساد.

١٨، ١٩ ـ ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهّر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان؟ وبتشديد الزاي حجازيّ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ لأنّ الخشية لا تكون إلاّ بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وعن بعض الحكماء: اعرفوا الله، فمن عرف الله، لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمر. من خشي الله أتى منه كلّ خير، ومن أَمِنَ اجترأ على كلّ شرّ. ومنه الحديث: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[1]. بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض؛ كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، ليستدعيه باللطف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوّه؛ كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧).

فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: فذهب فأرى موسى فرعون العصا. أو: العصا، واليد البيضاء؛ لأنّهما في حكم آية واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى، وسمّاهما ساحراً وسحراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولّى عن موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ يجتهد في مكايدته. أو: لمّا رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسرع في مشيته، وكان طيّاشاً خفيفاً.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا ربّ فوقي. وكانت لهم أصنام يعبدونها.

٢٥ ـ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ عاقبه الله عقوبة الآخرة. والنكال: بمعنى التنكيل، كالسلام: بمعنى التسليم. ونصبه على المصدر؛ لأنّ أخذ بمعنى: نكّل. كأنّه قيل: نكل الله به ﴿نكال الآخرة﴾ أي: الإحراق ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: الإغراق. أو: ﴿نكال﴾ كلمتيه ﴿الآخرة﴾ ـ وهي: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ـ ﴿والأولى﴾ وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وبينهما أربعون سنة، أو: ثلاثون، أو: عشرون.

٢٦ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ الله.

٢٧ ـ ٢٩ ـ ﴿ءَأَنتُمْ﴾ يا منكري البعث ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً، وإنشاء ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ مبتدأ محذوف الخبر. أي ﴿أم السماء﴾ أشدّ خلقاً. ثمّ بيّن كيف خلقها فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي الله. ثمّ بيّن البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أعلى سقفها. وقيل: جعل مقدار ذهابها في سمت العلوّ رفيعاً مسيرة خمسمئة عام ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدّلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أبرز ضوء شمسها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأنّ الليل ظلها، والشمس سراجها.

٣٠، ٣١ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بسطها، وكانت مخلوقةً غير مدحوّةٍ،

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَـٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَـٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن
طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى
ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾

فدحيت من مكّة بعد خلق السماء بألفي عام. ثم فسّر البسط فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَـٰهَا﴾ كلأها؛ ولذا لم يدخل العاطف على ﴿أخرج﴾. أو: ﴿أخرج﴾ حال بإضمار قد.

٣٢، ٣٣ ـ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَـٰهَا﴾ أثبتها. وانتصاب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ بإضمار: دحا، وأرسى على شريطة التفسير ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ فعل ذلك تمتيعاً ﴿لكم ولأنعامكم﴾.

٣٤ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الداهية العظمى؛ التي تطمّ على الدواهي، أي: تعلو، وتغلب. وهي: النفخة الثانية، أو: الساعة التي يساق فيها أهل الجنّة إلى الجنّة، وأهل النار إلى النار.

٣٥ ـ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بدل من ﴿إذا جاءت﴾. أي: إذا رأى أعماله مدوّنة في كتابه يتذكّرها، وكان قد نسيها ﴿مَا سَعَىٰ﴾ «ما»: مصدريّة. أي: سعيه. أو: موصولة.

٣٦ ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكلِّ راءٍ؛ لظهورها ظهوراً بيّناً.

٣٧ ـ ٣٩ ـ ﴿فَأَمَّا﴾ جواب ﴿فإذا﴾. أي: إذا ﴿جاءت الطامّة﴾، فإنّ الأمر كذلك ﴿مَن طَغَىٰ﴾ جاوز الحدّ فكفر ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة باتّباع الشهوات ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مأواه. والألف واللام بدل الإضافة. وهذا عند الكوفيين. وعند سيبويه والبصريين ﴿هي المأوى﴾ له.

٤٠، ٤١ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: علم أنّ له مقاماً يوم القيامة لحساب ربّه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ الأمّارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ المُرْدِيِّ. أي: زجرها عن اتّباع الشهوات. قيل: هو الرجل يهمّ بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾

والهوى: ميل النفس إلى شهواتها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي المرجع.

٤٢ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها. أي: إقامتها. يعني: متى يقيمها الله تعالى، ويثبتها؟

٤٣، ٤٤ ـ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ في أيّ شيءٍ أنت من أن تذكر وقتها لهم، وتعلّمهم به؟ أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيءٍ؛ كقولك: ليس فلان من العلم في شيءٍ. وكان رسول الله ﷺ لم يزل يذكرالساعة، ويسأل عنها حتّى نزلت، فهو على هذا تعجُّبٌ من كثرة ذكره لها. أي: أنّهم يسألونك عنها؛ فلحرصك على جوابهم؛ لا تزال تذكرها، وتسأل عنها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ منتهى علمها متى تكون، لا يعلمها غيره. أو: ﴿فيم﴾ إنكار لسؤالهم عنها. أي: ﴿فيم﴾ هذا السؤال؟ ثمّ قال: ﴿أنت من ذكراها﴾ أي إرسالك ـ وأنت آخر الأنبياء ـ علامة من علاماتها، فلا معنى لسؤالهم عنها. ولا يبعد أن يوقف على هذا على ﴿فيم﴾. وقيل: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ متّصل بالسؤال. أي: ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾ ويقولون: أين أنت من ذكراها؟ ثمّ استأنف، فقال: ﴿إلى ربّك منتهاها﴾.

٤٥ ـ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة، وإنّما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها ﴿منذرٌ﴾ منوّن، يزيد، وعيّاشٌ.

٤٦ ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: ضحى العشية. استقلّوا مدّة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول؛ كقوله: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وإنّما صحّت إضافة الضحى إلى العشية للملابسة بينهما؛ لاجتماعهما في نهارٍ واحد. والمراد: أنّ مدّة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن أحد طرفي النهار عشيته أو ضحاه.

* * *

سُورَةُ عَبَسَ

ترتيبها ٨٠ آياتها ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾

١، ٢ ـ ﴿عَبَسَ﴾ كلح. أي: النبيُّ ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض ﴿أَن جَآءَهُ﴾ لأن جاءه ـ ومحلُّه نصب لأنّه مفعول له. والعامل فيه ﴿عبس﴾ أو ﴿تولّى﴾ على اختلاف المذهبين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ عبد الله بن أمّ مكتوم. وأمُّ مكتوم أمُّ أبيه، وأبوه شريح بن مالك. أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام. فقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله! وكرّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه. فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعده، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي»[1] واستخلفه على المدينة مرّتين.

٣، ٤ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأيّ شيءٍ دارياً بحال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ لعلّ الأعمى يتطهّر بما يسمع منك من دنس الجهل. وأصله: يتزكّى، فأدغمت التاء في الزاي. وكذا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى، جواباً ل: «لعلَّ». وغيره رفعه عطفاً على ﴿يذّكّر﴾ ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ ذكراك. أي:

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٧).

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾

موعظتك. أي: إنّك لا تدري ما هو مترقّب منه؛ من تزكٍّ، أو تذكّر. ولو دريت لما فرط ذلك منك.

٥ ـ ٧ ـ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: من كان غنياً بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرّض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه. ﴿تصّدّى﴾ بإدغام التاء في الصاد، حجازيٌّ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في ألاّ يتزكّى بالإسلام. إن عليك إلاّ البلاغ.

٨ ـ ١٠ ـ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله، أو الكفّار، أو الكبوة؛ كعادة العميان ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. وأصله: تتلهّى. وروي: أنّه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قطّ، ولا تصدّى لغنيٍ. وروي: أنّ الفقراء في مجلس الثوريِّ كانوا أمراء.

١١ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع. أي: لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ السورة، أو: الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة يجب الاتّعاظ بها، والعمل بموجبها.

١٢ ـ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمن شاء الله أن يذكره. أو ذكّر الضمير؛ لأنّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ. والمعنى: فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى.

١٣ ـ ١٦ ـ ﴿فِى صُحُفٍ﴾ صفة لتذكره. أي: أنّها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هي في صحف ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السماء، أو: مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ عن مس غير الملائكة، أو عمّا ليس من كلام الله ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ كتبة ـ جمع: سافر. أي: الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ـ ﴿كِرَامٍ﴾ على الله، أو: عن المعاصي ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. جمع: بارّ.

١٧ ـ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لعن الكافر، أو: هو أميّة، أو: عتبة ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استفهام توبيخ، أي: أيّ شيءٍ حمله على الكفر؟ أو: هو تعجّب، أي: ما أشدّ كفره!

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾
وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾

١٨، ١٩ ـ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ من أي حقيرٍ حقيرٍ ﴿خلقه﴾؟ وهو استفهام، ومعناه: التقرير. ثمّ بيّن ذلك الشيء فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ على ما يشاء من خلقه.

٢٠ ـ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ نصب السبيل بإضمار يسّر. أي: ثمّ سهّل له سبيل الخروج من بطن أمّه. أو بيّن له سبيل الخير والشرّ.

٢١ ـ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ جعله ذا قبرٍ يوارى فيه، لا كالبهائم، كرامةً له. قبر الميّتَ: دفنه. وأقبره: أمره أن يقبره ومكّنه منه.

٢٢ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ﴾ أحياه بعد موته.

٢٣ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان.

٢٤ ـ ولمّا عدد النعم في نفسه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبّرنا أمره!

٢٥ ـ ﴿أَنَّا﴾ بالفتح، كوفيّ، على أنّه بدل اشتمال من الطعام. وبالكسر، على الاستئناف، غيرهم ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر من السحاب.

٢٦ - ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالبرّ والشعير وغيرهما ممّا يتغذّى به ﴿وَعِنَبًا﴾ ثمرة الكرم ـ أي: الطعام والفاكهة ـ ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبة ـ سُمّي بمصدر قضبه. أي: قطعه؛ لأنّه يقضب مرّةً بعد مرّةٍ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ﴾ بساتين ﴿غُلْبًا﴾ غلاظ الأشجار. جمع: غلباء ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ لكم ﴿وَأَبًّا﴾ مرعى لدوابّكم ﴿مَّتَٰعًا﴾ مصدر. أي: منفعة ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

٣٣، ٣٧ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ صيحة القيامة؛ لأنّها تَصُخ الآذان. أي:

يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تصِمها. وجوابه محذوفٌ لظهوره ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ لتبعات بينه وبينهم، أو: لاشتغاله بنفسه ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ بدأ بالأخ، ثمّ بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثمّ بالصاحبة، والبنين، لأنّهم أحبُّ. قيل: أوّل من يفرّ من أخيه: هابيل، ومن أبويه: إبراهيم، ومن صاحبته: نوحٌ، ولوطٌ، ومن ابنه: نوح ـ عليهم السلام ـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ في نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره.

٣٨، ٣٩ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئة، من قيام الليل، أو من آثار الوضوء ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: أصحاب هذه الوجوه ـ وهم المؤمنون ـ ضاحكون مسرورون.

٤٠، ٤١ ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه.

٤٢ ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الحال ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في حقوق الله ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في حقوق العباد. أو: لمّا جمعوا الفجور إلى الكفر، جمع إلى سواد وجوههم الغبرة.

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾

١ ـ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهب ضوؤها. من: كوّرت العمامة: إذا لفّفتها. أي: يلفّ ضوؤها لفّاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق. وارتفاع ﴿الشمس﴾ بالفاعليّة. ورافعها: فعل مضمر يفسّره: ﴿كوّرت﴾ لأنّ «إذا» يطلب الفعل؛ لما فيه من معنى الشرط.

٢ ـ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ تساقطت.

٣ ـ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت. أو: ﴿سيّرت﴾ في الجوّ تسيير السحاب.

٤ ـ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء. وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿عُطِّلَتْ﴾ أهملت، عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحال لعزّتها عندهم، ويعطّلون ما دونها. ﴿عطلت﴾ بالتخفيف، عن البزّيّ.

٥ ـ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كلّ ناحية. قال قتادة: يحشر كلُّ شيء حتّى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردّت تراباً، فلا يبقى منها إلاّ ما فيه

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾

سرور لبني آدم؛ كالطاووس ونحوه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حشرها: موتها. يقال: إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم: حشرتهم السنة.

٦ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿سُجِرَت﴾ مكّيٌّ وبصريٌّ. من سجر التنّور: إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتّى تعود بحراً واحداً. وقيل: ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار.

٧ ـ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت كلّ نفس بشكلها: الصالح مع الصالح في الجنّة، والطالح مع الطالح في النار. أو: قرنت الأرواح بالأجساد. أو: بكتبها وأعمالها. أو: نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين.

٨، ٩ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ المدفونة حية. وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق، وخوف الاسترقاق ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطّف، لتقول: بلا ذنب قُتِلْتُ. أو: لتدحل على قاتلها. أو: هو توبيخ لقاتلها بصرف الخطاب عنه، كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦] ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وبالتشديد يزيد. وفيه دليل: على أنّ أطفال المشركين لا يعذّبون، وعلى أنّ التعذيب لا يكون بلا ذنب.

١٠ ـ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[1] فتحت. وبالتخفيف مدنيّ، وشاميٌّ، وعاصم، وسهل، ويعقوب. والمراد صحف الأعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثمّ تنشر إذا حوسب. ويجوز أن يراد ﴿نشرت﴾ بين أصحابها، أي: فرّقت بينهم.

١١ ـ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قال الزجّاج: قلعت كما يقلع السقف.

١٢ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾[2] أوقدت إيقاداً شديداً، وبالتشديد، شاميٌّ،

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿نُشِّرت﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويحيى، والأعمش، وخلف، معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٣).

(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿سُعِرَت﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: ابن =

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾

ومدنيٌّ، وعاصم، غير حماد، ويحيى، للمبالغة.

١٣، ١٤ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أدنيت من المتقين كقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فهذه اثنتا عشرة خصلة: ستٌّ منها في الدنيا، والباقية في الآخرة، ولا وقف مطلقاً من أوّل السورة إلى ﴿ما أحضرت﴾ لأنّ عامل النصب في ﴿إذا الشمس﴾ وفيما عطف عليه، جوابها وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلّ نفس. ولضرورة انقطاع النفس على كلّ آية جوّز الوقف ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشرّ.

١٥ ـ ٢١ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لا زائدة ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ بالرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوّله ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السيّارة ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ الغيّب. من: كنس الوحش: إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراريّ الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتّى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها: رجوعها. وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أقبل بظلامه، أو: أدبر، فهو من الأضداد ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ امتدّ ضوءه. ولمّا كان إقبال الصبح يلازمه الرّوح والنسيم، جعل ذلك نفساً له مجازاً. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ـ أي: جبريل عليه السلام. وإنّما أضيف القرآن إليه؛ لأنّه هو الذي نزل به ـ ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربّه ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلّف، لا يعجز عنه، ولا يضعف ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ عند الله ﴿مَكِينٍ﴾ ذي جاه ومنزلة ـ ولمّا كانت حال المكانة على حسب حال الممكّن، قال: ﴿عند ذي العرش﴾ ليدلّ على عظم منزلته ومكانته ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات يطيعه من فيها. أو: ﴿عند ذي العرش﴾ أي: عند الله: يطيعه ملائكته المقرّبون يصدرون عن

= كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٤).

﴿أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾

أمره، ويرجعون إلى رأيه ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي.

٢٢ ـ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعم الكفرة. وهو عطف على جواب القسم.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

٢٤ ـ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ﴾ محمّد على الوحي ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل. من الضنِّ، وهو: البخل. أي: لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحُلْوان، بل يعلِّمه كما عُلِّم، ولا يكتم شيئاً ممّا عُلِّم. ﴿بظنين﴾ مكّيٌّ، وأبوٌ عمرو، وعليٌّ. أي: بمتّهم فينقص شيئاً ممّا أوحي إليه، أو يزيد فيه. من: الظنّة. وهي: التُّهْمَة.

٢٥ ـ ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ طريد. وهو كقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] أي: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

٢٦ ـ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً في بُنَيّات الطريق: أين تذهب؟ مثّلت حالهم بحاله في تركهم الحقّ، وعدولهم عنه إلى الباطل. وقال الزجاج: معناه: فأيُّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيِّنْتُ لكم؟ وقال الجنيد: ﴿فأين تذهبون﴾ عنّا، وإن من شيءٍ إلاّ عندنا؟

٢٧، ٢٨ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلاّ عظة للخلق ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: القرآن ذِكْرٌ لمن شاء الاستقامة. يعني: أنّ الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر. فكأنّه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً.

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٩ ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالك الخلق أجمعين.

* * *

سُورَةُ الانفِطَار

ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

١ ـ ٥ ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقّت ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض، وصارت البحار بحراً واحداً ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بحثت وأخرج موتاها. وجواب إذا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلّ نفس برّةٍ وفاجرةٍ ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عملت من طاعة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت فلم تعمل، أو: ﴿ما قدّمت﴾ من الصدقات ﴿و﴾ ما ﴿أخّرت﴾ من الميراث.

٦، ٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قيل: الخطاب لمنكري البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أيّ: شيءٍ خدعك حتّى ضيعت ما وجب عليك مع كرم ربّك؛ حيث أنعم عليك بالخلق، والتسوية، والتعديل؟ وعنه ﷺ حين تلاها: «غرّه جهله»[١]. وعن عمر رضي الله عنه: غرّه حمقه. وعن الحسن: غرّه شيطانه. وعن الفضيل: لو خوطبت؛ أقول: غرّتني ستورك المرخاة. وعن يحيى بن معاذ: أقول: غرّني برّك بي سالفاً وآنفاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ فجعلك مستوى

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (حاشية الكشاف ٤/ ٧١٥).

﴿فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾

الخلق سالم الأعضاء ﴿فَعَدَلَكَ﴾[1] فصيّرك معتدلاً متناسب الخلق، من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض، وبعضها أسود. أو: جعلك معتدل الخلق، تمشي قائماً، لا كالبهائم. وبالتخفيف كوفيٌّ. وهو بمعنى: المشدّد. أي: عدل بعض أعضائك ببعض؛ حتّى اعتدلت، فكنت معتدل الخلقة متناسباً.

٨ ـ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ «ما»: مزيد للتوكيد؛ أي: ﴿ركّبك﴾ في أيِّ صورةٍ اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن، والقبح، والطول، والقصر. ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها لأنّها بيان لـ ﴿عدلك﴾. والجارّ يتعلّق بـ ﴿ركّبك﴾ على معنى وضعك في بعض الصور ومكّنك فيها. أو بمحذوف. أي: ﴿ركّبك﴾ حاصلاً في بعض الصور.

٩ ـ ١٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أصلاً. وهو الجزاء، أو: دين الإسلام، فلا تصدّقون ثواباً، ولا عقاباً ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾. يعني: أنّكم تكذّبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يخفى عليهم شيءٌ من أعمالكم. وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه[2] عند الله من جلائل الأمور. وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين. وعن الفضيل: أنّه كان إذا قرأها قال: ما أشدّها من آية على الغافلين.

١٣ ـ ١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إن المؤمنين لفي نعيم الجنّة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وإن الكفّار لفي النار ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يدخلونها يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿فعدّلك﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وجعفر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٩).

(٢) في الأصل المخطوط زيادة لفظ «من» ولا معنى له.

بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ - ١٩ ـ ثمّ عظّم شأن يوم القيامة فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فكرّر للتأكيد والتهويل. وبيّنه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه. وإنّما تملك الشفاعة بالإذن. ﴿يَوْمُ﴾ بالرفع مكّيٌّ وبصريٌّ. أي: هو ﴿يوم﴾ أو: بدل من ﴿يوم الدين﴾. ومن نصب فبإضمار اذكر. أو: بإضمار يدانون؛ لأنّ الدين يدلّ عليه ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلاّ لله تعالى وحده، فهو القاضي فيه دون غيره.

* * *

سُورَةُ المُطَفِّفِين

ترتيبها ٨٣ — آياتها ٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للذين يبخسون حقوق الناس في الكيل، والوزن ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافيةً تامّة. ولمّا كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرّهم ويتحامل فيه عليهم أبدل ﴿على﴾ مكان مِنْ للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلّق ﴿على﴾ بـ ﴿يستوفون﴾ ويقدّم المفعول على الفعل؛ لإفادة الاختصاص. أي: يستوفون على الناس خاصّة. وقال الفرّاء: مِنْ وعلى يعتقبان في هذا الموضع؛ لأنّه حقّ عليه. فإذا قال: اكتلت عليك؛ فكأنّه قال: أخذت ما عليك. وإذا قال: اكتلت منك؛ فكأنّه قال: استوفيت منك. والضمير المنصوب في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ راجع إلى الناس، أي: كالوا لهم، أو: وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. وإنّما لم يقل: أو اتزنوا، كما قيل: ﴿أو وزنوهم﴾ اكتفاءً. ويحتمل: أنّ المطفّفين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلاّ بالمكاييل لتمكّنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنّهم يزعزعون، ويحتالون في الملء. وإذا أعطوا كالوا، أو وزنوا؛ لتمكّنهم من البخس في النوعين ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون. يقال: خَسر الميزان وأخسره.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾

٤ ـ ٦ ـ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يعني: يوم القيامة. أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخاً. وليست ﴿ألا﴾ هذه للتنبيه. وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف. كأنّهم لا يخطرون ببالهم، ولا يخمّنون تخميناً: أنّهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرّة. ولو ظنّوا أنهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن. وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابيّاً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطفّفين ـ أراد بذلك: أنّ المُتطفِّف قد توجّه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ـ فما ظنّك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟! ونصب ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ بـ: ﴿مبعوثون﴾ ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأمره وجزائه. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّه قرأ هذه السورة. فلمّا بلغ هنا بكى نحيباً، وامتنع من قراءة ما بعده.

٧ ـ ٩ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وتنبيه. أي: ردَعهم عمّا كانوا عليه من التطفيف، والغفلة عن البعث والحساب، ونبّههم على أنّه ممّا يجب أن يتاب عنه ويندم عليه. ثمّ أتبعه وعيد الفجّار على العموم، فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ صحائف أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾. فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجّار بأنّه في سجّين، وفسّر سجّيناً بكتاب مرقوم. فكأنّه قيل: إنّ كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟ قلت: سجّين: كتاب جامع هو ديوان الشرّ، دوّن الله فيه أعمالَ الشياطين، والكفرة من الجنّ والإنس. وهو كتاب مرقومٌ، مسطورٌ بيِّنُ الكتابة، أو: مُعْلَم، يعلم من رآه: أنّه لا خير فيه، من: رقْم الثياب: علامتها. والمعنى: أنّ ما كتب من أعمال الفجّار مثبت في ذلك الديوان. وسمّي: سجّيناً، فعّيلاً من: السجن، وهو: الحبس والتضييق، لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنّم، أو: لأنّه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان وحْشٍ مظلمٍ، وهو مسكن إبليس وذرّيّته. وهو: اسم علم منقول من وصف؛ كحاتم، منصرف لوجود سبب واحدٍ، وهو: العلميّة فحسب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

---

١٠ ـ ١٣ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يخرج المكتوب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ الجزاء والحساب ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ بذلك اليوم ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ مجاوز للحدّ، ﴿أَثِيمٍ﴾ مكتسب للإثم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديث المتقدّمين. وقال الزجّاج: ﴿أساطير﴾ أباطيل، واحدها: أسطورة، مثل: أحدوثة، وأحاديث.

١٤ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول. ﴿بَلْ﴾ نفى لما قالوا. ويقف حفص على ﴿بل﴾ وقيفة ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ غطّاها كسبهم أي: غلب على قلوبهم حتّى غمرها ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: الذنب بعد الذنب حتّى يسودّ القلب. وعن الضحّاك: الرين: موت القلب. وعن أبي سليمان ـ رحمه الله ـ: الرين والقسوة زماما الغفلة، ودواؤهما: إدمان الصوم. فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام.

١٥ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿إِنَّهُمْ عَن﴾ أي: رؤية ﴿رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لممنوعون. والحجب: المنع. قال الزجّاج: في الآية دليل على أنّ المؤمنين يرون ربّهم وإلّا لا يكون التخصيص مفيداً. وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العقبى عن رؤيته. قال مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: لمّا حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتّى رأوه. وقيل: ﴿عن﴾ كرامة ﴿ربهم﴾ لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة. والأوّل أصحّ؛ لأنّ الرؤية أقوى الكرامات، فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها.

١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ بعد كونهم محجوبين عن ربّهم لداخلو النار.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ﴿هذا﴾ العذاب هو ﴿الذي كنتم﴾ تكذّبون به في الدنيا وتنكرون وقوعه.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

١٨ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ما كتب من أعمالهم. والأبرار: المطيعون الذين لا يطفّفون، ويؤمنون بالبعث؛ لأنّه ذكر في مقابلة ﴿الفجّار﴾ وبيّن الفجّار بأنّهم المكذّبون بيوم الدين. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: البرّ: الذي لا يؤذي الذرّ ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير؛ الذي دوّن فيه كلّ ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين. منقول من جمع: عِلّيّ، فِعِّيلٌ، من العلوّ. سمّي به؛ لأنّه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنّة. أو: لأنّه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيُّون تكريماً له.

١٩ ـ ٢١ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ما الذي أعلمك يا محمّد ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [أيّ شيءٍ][1] هو؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ تحضره الملائكة. قيل: يشهد عمل الأبرار مقرّبو كلّ سماء إذا رفع.

٢٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ تنعّم في الجنان.

٢٣ ـ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الأسرّة في الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذّبون.

٢٤ ـ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجة التنعّم وطراوته.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ شراب خالص ﴿مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ تختم أوانيه بمسك بدل الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا. أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه. أو: ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك. أي: توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه. (خاتَمه) عليٌّ ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ الرحيق، أو النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليرغب الراغبون. وذا إنّما يكون بالمسارعة إلى الخيرات، والانتهاء عن السيّئات.

(١) في الأصل المخطوط: أيش.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

٢٧ ـ ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ ومزاج الرحيق ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ هو علم لعين بعينها سمّيت بالتسنيم؛ الذي هو مصدر: سنّمه: إذا رفعه، لأنّها أرفع شراب في الجنّة. أو: لأنّها تأتيهم من فوق، وتنصبُّ في أوانيهم.

٢٨ ـ ﴿عَيۡنٗا﴾ حال أو نصب على المدح ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. عن ابن مسعود رضي الله عنه: يشربها المقرّبون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ كفروا ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

٣٠ ـ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم، وعيباً لهم. قيل: جاء عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصل عليٌّ إلى رسول الله ﷺ.

٣١ ـ ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ أي: إذا رجع الكفّار إلى منازلهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ متلذّذين بذكرهم، والسخرية منهم. وقرأ غير حفص ﴿فاكهين﴾ أي: فرحين.

٣٢ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: خدع محمّد ﷺ هؤلاء، فضلّوا، وتركوا اللّذات، لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال.

٣٣ ـ ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ﴾ وما أرسل الكفّار ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبّع غيرهم وتسفيه أحلامهم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾

٣٤ ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ ثمَّ، كما ضحكوا منهم هنا مجازاةً.

٣٥ ـ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾. أي: ﴿يضحكون﴾ منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزّة والاستكبار، وهم ﴿على الأرائك﴾ آمنون. وقيل: يفتح للكفّار باب إلى الجنّة فيقال لهم: هلمّوا إلى الجنّة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم.

٣٦ ـ ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر؟!.

* * *

سُورَةُ الانْشِقَاق

ترتيبها ٨٤ — آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾

١ ـ ٥ ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ تصدّعت، وتشقّقت ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربّها إلى الانشقاق، ولم تأب، ولم تمتنع ﴿وَحُقَّتْ﴾ وحقّ لها أن تسمع وتطيع لأمر الله؛ إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت، وسوّيت باندكاك جبالها وكلِّ أمتٍ فيها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ رمت ما في جوفها من الكنوز والموتى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلت غاية الخلو، حتى لم يبق شيءٌ في باطنها؛ كأنّها تكلّفت أقصى جهدها في الخلو. يقال: تكرّم الكريم: إذا بلغ جهده في الكرم، وتكلّف فوق ما في طبعه ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخلّيها ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع. وحذف جواب ﴿إذا﴾ ليذهب المقدِّر كلَّ مذهب، أو: اكتفاءً بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، أو: جوابه: ما دلّ عليه ﴿فملاقيه﴾. أي: ﴿إذا السماء انشقّت﴾ لاقى الإنسان كدحه.

٦ ـ ٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جاهدٌ ﴿إلى﴾ لقاء ربك ﴿كدحاً﴾ وهو الموت، وما بعده من الحال الممثّلة باللقاء ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ الضمير للكدح، وهو: جهد النفس في العمل، والكدّ فيه؛ حتّى يؤثّر فيها.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾

والمراد: جزاء الكدح إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ. وقيل: لقاء الكدح: لقاء كتاب فيه ذلك الكدح. يدلّ عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: كتاب عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً هيّناً، وهو: أن يجازى على الحسنات، ويتجاوز عن السيّئات. وفي الحديث: «من يحاسب يعذّب» فقيل: فأين قوله: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذلكم العرض. من نوقش في الحساب عذّب»[1].

٩ ـ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين، أو: ﴿إلى أهله﴾ في الجنّة من الحور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحاً.

١٠ ـ ١٢ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ قيل: تغلّ يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ يقول: وا ثبوراه! والثبور: الهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ ـ عراقيٌّ غير عليٍّ ـ ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ويدخل جهنّم.

١٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا﴾ بالكفر، يضحك ممن آمن بالبعث. قيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتع هواه راتعاً.

١٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لن يرجع إلى ربّه تكذيباً بالبعث. قال ابن عباس ـ رضي الله عنها ـ: ما عرفت تفسيره حتّى سمعت أعرابيّة تقول لبنتها: حوري. أي: ارجعي.

١٥ ـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿لن يحور﴾. أي: ﴿بلى﴾ ليحورنّ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ﴾ وبأعماله ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه، فلا بدّ أن يرجعه فيجازيه عليها.

١٦ ـ ١٩ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة، أو الحمرة

(١) رواه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) (٨٠).

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع، وضمَّ. والمراد: ما جمعه من الظلمة والنجم. أو: ما عُمِلَ فيه من التهجّد وغيره ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتمَّ بدراً ـ افتعل من الوسق ـ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ حالاً بعد حال، كلّ واحدةٍ مطابقةٌ لأختها في الشدّة والهول. فالطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه. ومنه قيل للغطاء: الطبق. ويجوز أن يكون جمع: طبقة. وهي: المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. أي: ﴿لتركبنَّ﴾ أحوالاً بعد أحوال؛ هي: طبقات في الشدّة، بعضها أرفع من بعض، وهي: الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها. ومحلُّ ﴿عن طبق﴾ نصب على أنّه صفة لـ﴿طبقاً﴾ أي: ﴿طبقاً﴾ مجاوزاً لطبق. أو: حال من الضمير في ﴿لتركبنَّ﴾ أي: ﴿لتركبنّ طبقاً﴾ مجاوزين لطبق. وقال مكحول: في كلّ عشرين عاماً تُحْدِثون أمراً لم تكونوا عليه. وبفتح الباء: مكّيٌّ وعليٌّ، وحمزةُ. والخطاب له ﷺ: أي: ﴿طبقاً﴾ من أطباق السماء بعد ﴿طبق﴾ أي: في المعراج.

٢٠، ٢١ ـ ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فمالهم ألاّ يؤمنوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾ لا يخضعون.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث والقرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون من الكفر وتكذيب النبيّ ﷺ. أو: بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدّخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطع ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ غير مقطوع. أو: غير منقوص.

* * *

سُورَةُ البُرُوجِ

آياتها ٢٢ — ترتيبها ٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣

١ ـ ٤ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هي: البروج الاثنا عشر. وقيل: النجوم. أو: عظام الكواكب ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي ﴿وشاهد﴾ في ذلك اليوم ﴿ومشهود﴾ فيه. والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلِّهم، وبالمشهود فيه: ما في ذلك اليوم من عجائبه. وطريق تنكيرهما إمّا ما في قوله ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كأنّه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود. وإمّا للإبهام في الوصف، كأنّه قيل: ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتنه وصفهما. وقد كثرت أقاويل المفسّرين فيهما. فقيل: محمد ﷺ ويوم القيامة. أو: عيسى ـ عليه السلام ـ وأمّته؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أو: أمّة محمد، وسائر الأمم. أو: الحجر الأسود والحجيج. أو: الأيّام، والليالي، وبنو آدم، للحديث: «ما من يوم إلاّ وينادي: أنا يوم جديد، وعلى ما يفعل فيَّ شهيد. فاغتنمني»[١]. أو: الحفظة وبنو آدم. أو: الله تعالى والخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] أو: الأنبياء ومحمد

(١) رواه الديلمي (٦١٦٠) بنحوه.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ﴾

عليهم السلام. وجواب القسم محذوف يدلّ عليه ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ أي: لعن. كأنّه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنّهم ملعونون. يعني: كفّار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وهو: [جمع][1] خدٍّ أي: شقّ عظيم في الأرض. روي عن النبيّ ﷺ: «أنّه كان لبعض الملوك ساحر، فلمّا كبر ضمّ إليه غلاماً ليعلمه السحر. وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابّة قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللّهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها. فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص. وعمي جليس للملك فأبرأه. فأبصره الملك فسأله: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّي. فغضب، فعذّبه، فدلّ على الغلام، فعذّبه، فدلّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدّ بالمنشار. وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم، فطاحوا، ونجا. فذهب به إلى قرقور[2]، فلجَجوا به ليغرقوه، فدعا فانكأفت بهم السفينة، فغرقوا. فقال للملك: لست بقاتلي حتّى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه، فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام. فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فخدّ أخدوداً، وملأها ناراً، فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيٌّ، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبيُّ: يا أمّاه! اصبري، فإنّك على الحقّ. فألقي الصبيّ وأمّه فيها»[3].

٥ ـ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ اشتمال من ﴿الأخدود﴾ ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ وصفٌ لها بأنّها عظيمة، لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

٦ ـ ﴿إِذۡ﴾ ظرف لـ ﴿قتل﴾ أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصل المخطوط.
(٢) «القُرْقُور»: السفينة العظيمة.
(٣) رواه أحمد (١/٥، ١٣) ومسلم (٣٠٠٥).

﴿هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾

﴿هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: الكفّار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ جلوس على الكراسيّ.

٧ ـ ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفّار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك: أنّ أحداً منهم لم يفرّط فيما أمر به، وفوّض إليه من التعذيب.

وفيه: حثّ للمؤمنين على الصبر، وتحمّل أذى أهل مكّة.

٨، ٩ ـ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلاّ الإيمان كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم ... ...(١)

وقوله:

ما نقموا من بني أميّة إلاّ أنّهم يحلمون إن غضبوا

وقرىء ﴿نقِموا﴾ بالكسر. والفصيح هو الفتح.

﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ذكر الأوصاف التي تستحقّ بها أن تؤمن به، وهو كونه: عزيزاً، غالباً، قادراً، يخشى عقابه، حميداً، منعماً، يجب له الحمد على نعمته، ويرجى ثوابه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكلّ من فيهما يحقُّ عليه عبادته، والخشوع له تقريراً؛ لأنّ ما نقموا منهم هو الحقّ الذي لا ينقمه إلاّ مبطلٌ، وأنّ الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذابٍ عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيدٌ لهم. يعني: أنّه علم ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه.

١٠ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصّة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار، وأحرقوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا؛ لما روي: أنّ النار

(١) صدر بيت، وعجزه: بهن فلولٌ من قراع الكتائبِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين. أي: بلوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين: المفتونين، وأنّ للفاتنين عذابين في الآخرة؛ لكفرهم، ولفتنتهم.

١١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الذين صبروا على تعذيب الأخدود. أو هو عامٌ.

١٢ ـ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف. فإذا وصف بالشدّة؛ فقد تضاعف، وتفاقم. والمراد: أخذ الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام.

١٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً، ثمّ يعيدهم بعد أن صيّرهم تراباً. دلّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدّة بطشه. أو: أوعد الكفرة بأنّه يعيدهم؛ كما أبدأهم؛ ليبطش بهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء، وكذّبوا بالإعادة.

١٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبّ لأوليائه. وقيل: الفاعل بأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

١٥ ـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾[1] حمزةُ، وعليٌّ على أنّه صفة للعرش. ومجد الله: عظمته. ومجد العرش: علوّه وعظمه.

١٦ ـ ﴿فَعَّالٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ تكوينه، فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد.

١٧ ـ ٢٠ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود. وأراد بفرعون: إيّاه وآله. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل، وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿المجيدِ﴾ بالكسر، وهي قراءة من ذكرهم.

﴿فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ واستيجاب للعذاب، ولا يعتبرون بالجنود، لا لخفاء حال الجنود عليهم، لكن يكذّبونك عناداً ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه. والإحاطة بهم من ورائهم مَثَلٌ؛ لأنّهم لا يفوتونه؛ كمالا يفوت فائت الشيء المحيط به.

٢١، ٢٢ ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾ هذا الذي كذّبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ شريفٌ، عالي الطبقة في الكتب، وفي نظمه، وإعجازه، ليس كما يزعمون: أنّه مفترى، وأنّه أساطير الأوّلين ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ من وصول الشياطين ﴿محفوظٌ﴾ نافع صفة للقرآن. أي: من التغيير والتبديل. واللوح عند الحسن: شيءٌ يلوح للملائكة فيقرؤونه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو: من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، قلمه نور، وكلُّ شيءٍ فيه مسطور. مقاتل: هو: على يمين العرش. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حِجْرِ ملك كريم.

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

آياتها ١٧ — ترتيبها ٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

١ ـ ٤ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ عظّم قدر السّماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته، وفيها خلق الجنّة، فأقسم بها وبالطارق. والمراد: جنس النجوم، أو: جنس الشهب التي يرجم بها لعظم منفعتها. ثمّ فسرّه بالنجم الثاقب. أي: المضيء، كأنّه يثقب الظلام فينفذ فيه. ووصف بالطارق؛ لأنّه يبدو بالليل، ما يقال للآتي ليلاً: طارق. أو: لأنّه يطرق الجنّيَّ، أي: يصكّه. وجواب القسم ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لأنَّ ﴿لمّا﴾ إن كانت مشدّدة بمعنى إلاّ، كقراءة عاصم، وحمزة، وابن عامر، فتكون ﴿إن﴾ نافية أي: ما ﴿كلّ نفس﴾ إلاّ ﴿عليها حافظ﴾. وإن كانت مخفّفة كقراءة غيرهم، فتكون ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة. أي: ﴿إن كلّ نفس﴾ لعليها ﴿حافظ﴾ يحفظهامن الآفات أو يحفظ عملها ورزقها وأجلها فإذا استوفى ذلك مات. وقيل: هو كاتب الأعمال. فما زائدة. واللام فارقة بين النافية والخفيفة. و﴿حافظ﴾ مبتدأ و﴿عليها﴾ الخبر. والجملة خبر ﴿كلّ﴾ وأيّتهما كانت فهي ممّا يتلقّى به القسم.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾

٥ ـ ٧ ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لمّا ذكر أنّ على كلّ نفس حافظاً أمره بالنظر في أوّل أمره، ليعلم: أنَّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الجزاء، ولا يُملي على حافظه إلاّ ما يسرّه في عاقبته. و﴿مم خلق﴾ استفهام. أي: من أيّ شيءٍ خلق؟. جوابه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾. الدفق: صبٌّ في دفعٌ. والدفق في الحقيقة لصاحبه، والإسناد إلى الماء مجاز. وعن بعض أهل اللغة: دفقت الماء دفقاً: صببته. ودفق الماء بنفسه؛ أي: انصبَّ. ولم يقل: من ماءين لامتزاجهما في الرحم واتّحادهما حين ابتدىء في خلقه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وهي: عظام الصدر؛ حيث تكون القلادة. وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الخالق، لدلالة ﴿خلق﴾ عليه. ومعناه: إنّ الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفةٍ ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿لَقَادِرٌ﴾ لبيّن القدرة، لا يعجز عنه؛ كقوله: إنّني لفقير. ونصب ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ ـ أي: تكشف ـ بـ ﴿رجعه﴾، أو: بمضمر دلّ عليه قوله ﴿رجعه﴾. أي: مبعثه ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ما أسَرَّ في القلوب من العقائد، والنيّات، وما أخفى من الأعمال.

١٠ ـ ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه على دفع ما حلّ به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعينه ويدفع عنه.

١١ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: المطر. وسُمّي به لعوده كلّ حين.

١٢ ـ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدّع عنه الأرض من النبات.

١٣، ١٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصل بين الحقّ والباطل كما قيل له: فرقان ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ باللعب والباطل. يعني: أنّه جدّ كلّه، ومن حقّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور، معظّماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلمّ بهزلٍ، أو يتفكّه بمزاحٍ.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

١٥ ـ ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكّة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله، وإطفاء نور الحقّ.

١٦ ـ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، فسمّي جزاء الكيد: كيداً، كما سمّي جزاء الاعتداء والسيّئة: اعتداءً، وسيئة، وإن لم يكن اعتداءً وسيّئةً. ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلاّ على وجه الجزاء كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

١٧ ـ ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل به ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ أنظرهم. فكرّر، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿رُوَيْدًا﴾ إمهالاً يسيراً. ولا يتكلّم بها إلاّ مصغّرة. وهي من: رادت الريح، ترود، رَوْداً: تحرّكت حركةً ضعيفةً.

* * *

سُورَةُ الأَعْلى

آياتها ١٩ — ترتيبها ٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ نزّه ذاته عمّا لا يليق به. والاسم: صلة، وذلك بأن يفسّر ﴿الأعلى﴾ بمعنى العلوّ؛ الذي هو القهر، والاقتدار، لا بمعنى العلوّ في المكان. وقيل: قل: سبحان ربّي الأعلى. وفي الحديث: لمّا نزلت قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[1].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: ﴿خلق﴾ كلَّ شيءٍ ﴿فسوى﴾ خلقه تسويةً ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتّساق، ودلالةٍ على أنّه صادر عن عالمٍ حكيم. أو: سوّاه على ما فيه منفعته، ومصلحته.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: ﴿قدّر﴾ لكلّ حيوانٍ ما يصلحه، فهداه إليه، وعرّفه وجه الانتفاع به. أو: ﴿فهدى﴾ وأضلَّ. ولكن حذف «وأضلّ» اكتفاءً، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] ﴿قدر﴾ عليٌّ.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أنبت ما ترعاه الدوابُّ.

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩).

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾

٥ ـ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ يابساً هشيماً ﴿أَحۡوَىٰ﴾ أسود. فـ﴿أحوى﴾ صفة لـ﴿غثاءً﴾.

٦، ٧ ـ ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ سنعلمك القرآن حتّى لا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن ينسخه. وهذا بشارة من الله لنبيّه أن يحفظ عليه الوحي؛ حتّى لا ينفلت منه شيءٌ؛ إلاّ ما شاء الله أن ينسخه، فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته. وسأل ابن كيسان النحويّ جنيداً عنه فقال: ﴿فلا تنسى﴾ العمل به فقال: مثلك يصدّر. وقيل: قوله: ﴿فلا تنسى﴾ على النهي. والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. أي: فلا تُغْفِل قراءته، وتكريره، فتنساه ﴿إلاّ ما شاء الله﴾ أن ينسيكه برفع تلاوته ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ أي: إنّك تجهر بالقرآن مع قراءة جبريل ـ عليه السلام ـ مخافة التفلّت، والله يعلم جهرك معه، وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر. أو: ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان. أو: يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم.

٨ ـ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ معطوف على ﴿سنقرئك﴾ وقوله: ﴿إنّه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض. ومعناه: ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل. يعني حفظ الوحي. وقيل: للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع، أو: نوفّقك لعمل الجنّة.

٩ ـ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ عظ بالقرآن ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ جواب ﴿إن﴾ مدلول قوله: ﴿فذكّر﴾. قيل: ظاهره شرط، ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم. وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١] غير مشروط بالنفع.

١٠، ١١ ـ ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سيتّعظ ويقبل التذكرة ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ الله وسوء العاقبة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ الكافر، أو: الذي هو أشقى الكفرة؛ لتوغّله في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

١٢، ١٣ ـ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يدخل نار جهنّم. والصغرى: نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة يتلذّذ بحياته. وقيل بـ﴿ثمّ﴾: لأنّ الترجّح بين الحياة والموت أفظع من الصليّ، فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدّة.

١٤ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ نال الفوز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر من الشرك، أو: تطهّر للصلاة، أو: أدّى الزكاة. تفعّل من الزكاة، كتصدّق من الصدقة.

١٥ ـ ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ وكبّر للافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الخمس. وبه يحتجّ على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنّها ليست من الصلاة؛ لأنّ الصلاة عطفت عليها، وهو يقتضي المغايرة؛ وعلى أنّ الافتتاح جائز بكلّ اسم من أسمائه عزّ وجلّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذكر معاده ووقوفه بين يدي ربّه فصلّى له. وعن الضحاك: ﴿وذكر اسم ربّه﴾ في طريق المصلّى ﴿فصلّى﴾ صلاة العيد.

١٦ ـ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون. والمخاطب به الكافرون. دليله: قراءة أبي عمرو ﴿يؤثرون﴾ بالياء.

١٧ ـ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أفضل من نفسها وأدوم.

١٨ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ «هذا»: إشارة إلى قوله ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾. أي: إنّ معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. أو: إلى ما في السورة كلّها. وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسيّة في الصلاة؛ لأنّه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنّه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة.

١٩ ـ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدل من ﴿الصحف الأولى﴾. وفي الأثر: وفي صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

* * *

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

ترتيبها ٨٨ — آياتها ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

---

١ ـ ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. وقيل: النار. من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

٢ ـ ٦ ـ ﴿وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكفّار. وإنّما خصّ الوجه؛ لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثّرا في الوجه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرُّها السلاسل، والأغلال، وخوضها في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبةً في صعودٍ من نار، وهبوطها في حدور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء، والتذّت بها، وتنعّمت، فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنّها خشعت لله، وعملت، ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجّد الواصب ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ تدخل ناراً قد أحميت مدداً طويلة، فلا حرَّ يعدل حرَّها ﴿تُصلى﴾

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ﴾

أبو بكر وأبو عمرو ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ من عين ماء قد انتهى حرُّها. والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه. والمراد: أصحابها؛ بدليل قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو نبت يقال لِرَطْبِه: الشِّبرِق. فإذا يبس فهو ضريع. وهو سمٌّ قاتل. والعذاب ألوان، والمعذّبون طبقات. فمنهم أكلة الزقّوم. ومنهم أكلة الغسلين. ومنهم أكلة الضريع. ولا تناقض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

٧ ـ ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ مجرور المحل؛ لأنه وصف ﴿ضريع﴾ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾. أي: منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما: إماطة الجوع، وإفادة السِّمن في البدن.

٨ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين. ولم يقل: ووجوه؛ لأنّ الكلام الأوّل قد طال وانقطع ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعّمة في لين العيش.

٩ ـ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة والثواب.

١٠ ـ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ من علوّ المكان أو المقدار.

١١ ـ ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب، أو: الوجوه ﴿فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي: لغواً، أو: كلمة ذات لغو، أو: نفساً تلغو. لا يتكلّم أهل الجنّة إلّا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ﴿لا يُسمع فيها لاغيةٌ﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو. ﴿لا تُسمع فيها لاغيةٌ﴾ نافع.

١٢ ـ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة؛ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

١٣ ـ ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار، أو: السمك؛ ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربّه من الملك والنعيم.

١٤ ـ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب. وهو القدح. وقيل: آنية لا عروة لها

﴿مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾

﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم؛ ليتلذّذوا بها بالنظر إليها. أو: موضوعة على حافات العيون معدّة للشرب.

١٥ ـ ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مِسْوَرة واستند إلى الأخرى.

١٦ ـ ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ وبسط عراض فاخرة. جمع: زِرْبيّة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة، أو: مفرّقة في المجالس.

١٧ ـ ٢٠ ـ ولمّا أنزل الله تعالى هذه الآيات في صفة الجنّة، وفسّر النبيُّ ﷺ: بأنّ ارتفاع السرر يكون مئة فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها، وطول النمارق كذا، وعرض الزرابيِّ كذا؛ أنكر الكفّار وقالوا: كيف يصعد على هذا السرير، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول النمارق هذا الطول، وتنبسط الزرابيِّ هذا الانبساط، ولم نشاهد ذلك في الدنيا؟! فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة، ثمّ تبرك حتّى تركب، و يحمل عليها، ثمّ تقوم. فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء الإبل، ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعاً بعيد المدى بلا إمساك وعمد، ثمّ نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق، فكذلك الأكواب، ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً ثابتاً، فهي راسخة لا تميل مع طولها، فكذا النمارق، ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحها بتمهيد وتوطئة، فهي كلّها بساطٌ واحدٌ، ينبسط من الأفق إلى الأفق، فكذا الزرابيُّ. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أفلا ينظرون إلى﴾ هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق؛ حتّى لا ينكروا اقتداره على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول، ويؤمنوا به، ويستعدّوا للقائه. وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أنّ هذا خطاب للعرب وحثٌّ لهم على الاستدلال. والمرء إنّما يستدلّ بما تكثر مشاهدته له. والعرب تكون في البوادي، ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال، والإبل أعزّ أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

الحيوانات؛ لأنّها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهي: النسل، والدرّ، والحمل، والركوب، والأكل بخلاف غيرها، فإنّه سخرها منقادةً لكلّ من اقتادها بأزمّتها، لا تعازّ ضعيفاً، ولا تمانع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق؛ لتنوء بالأوقار، وجعلها بحيث تبرك حتّى تحمّل عن قرب ويسرٍ، ثمّ تنهض بما حملت، وتجرّها إلى البلاد الشاحطة[1]. وصبّرها على احتمال العطش؛ حتّى إنَّ ظِمْأها[2] ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كلّ نابت في البراري ممّا لا يرعاه سائر البهائم.

٢١ ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ هم بالأدلة ليتفكّروا فيها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلاّ التبليغ.

٢٢ ـ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلطٍ. كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿بمصيطر﴾ مدنيٌّ، وبصريٌّ، وعاصم، وعليٌّ.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الاستثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم. ولكن من تولّى منهم، وكفر بالله؛ فإن لله الولاية عليه والقهر، فهو يعذّبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنّم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فذكّر﴾. أي: ﴿فذكّر . . . إلاّ من﴾ انقطع طمعك من إيمانه و ﴿تولّى﴾ فاستحقّ ﴿العذاب الأكبر﴾. وما بينهما اعتراض.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم. وفائدة تقديم الظرف: التشديد في الوعيد، وأنَّ إيابهم ليس إلاّ إلى الجبّار المقتدر على الانتقام.

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم بها جزاء أمثالهم. و﴿على﴾ لتأكيد الوعيد لا للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيءٌ.

* * *

(١) «الشاحطة»: البعيدة.
(٢) «الظِّمء»: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد.

سُورَةُ الفَجْرِ

ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]. أو: بصلاة الفجر.

٢ ـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة. أو: العشر الأول من المحرّم. أو: من الأواخر من رمضان. وإنّما نكّرت لزيادة فضيلتها.

٣ ـ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كلّ الأشياء ووترها. أو: شفع هذه الليالي ووترها. أو: شفع الصلاة ووترها. أو: يوم النحر؛ لأنّه اليوم العاشر، ويوم عرفة؛ لأنّه اليوم التاسع. أو: الخلق والخالق ﴿والوِتر﴾ حمزة وعليٌّ. وبفتح الواو غيرهما، وهما لغتان. فالفتح حجازيٌّ. والكسر تميميٌّ.

٤ ـ بعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال: ﴿وَالَّيْلِ﴾. وقيل: أريد به ليلة القدر ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي. وياء ﴿يسر﴾ تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة. وسأل واحدٌ الأخفش عن سقوط الياء، فقال: لا، حتّى تخدمني سنة. فسأله بعد سنة فقال: الليل لا يسري، إنّما يُسرى فيه،

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾

فلمّا عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقةً. وقيل: معنى ﴿يسري﴾ يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أي: ينام فيه.

٥ ـ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مقسم به ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ عقل؟ سُمِّي به؛ لأنّه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنّه يعقل، وينهى. يريد: هل يحقُّ عنده أن يُعَظِّمَ بالإقسام بها؟ أو: ﴿هل في﴾ إقسامي بها إقسام ﴿لذي حجر﴾؟ أي: هل هو قسم عظيم يؤكّد بمثله المقسم عليه؟ أو: هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذي عقل ولبّ؟ والمقسم عليه محذوف. وهو قوله: ليعذبنّ. يدلّ عليه قوله: ﴿ألم تر﴾ إلى قوله: ﴿فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب﴾.

٦، ٧ ـ ثمّ ذكر تعذيب الأمم التي كذّبت الرسل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمّد علماً يوازي العِيانَ في الإيقان؟ وهو استفهام تقرير. قيل لعقب عاد بن عَوْصٍ بن إرم بن سام بن نوح: عاد. كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثمّ قيل للأوّلين منهم: عاد الأولى. و«إرم»: تسمية لهم باسم جدّهم. ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. فإرم عطف بيان لعاد، وإيذان: أنّهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها. ويدلّ عليه قراءة ابن الزبير ﴿بعادِ*إرَمَ﴾ على الإضافة. وتقديره: بعاد أهل إرم؛ كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف قبيلةً كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. و﴿ذات العماد﴾ إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى: أنّهم كانوا بدويّين أهل عمد. أو: طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة. وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنّها ذات أساطين.

وروي: أنّه كان لعاد ابنان شدّاد وشديد، فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنّة فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة. وكان عمره تسعمئة سنة. وهي: مدينةٌ عظيمةٌ، قصورها من الذهب والفضّة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار. ولمّا تمّ

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾

بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلةٍ بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابة: أنّه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه ممّا ثمّ. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصَّ عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد. وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر، أشقر، قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له. ثمّ التفت فأبصر ابن قلابة [فقال][(١)]: هذا والله ذلك الرجل[(٢)].

٨ ـ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: مثل عادٍ في قوّتهم، وطول قامتهم. كان طول الرجل منهم أربعمئة ذراع. أو: لم يخلق مثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا.

٩ ـ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ قطعوا صخر الجبال، واتّخذوا فيها بيوتاً. قيل: أوّل من نحت الجبال والصخور ثمود. وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينةٍ كلّها من الحجارة ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بوادي القرى.

١٠ ـ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي الجنود الكثيرة. وكانت لهم مضاربُ كثيرةٌ يضربونها إذا نزلوا. وقيل: كان له أوتاد يعذّب الناس بها؛ كما فعل بآسية.

١١، ١٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلّ النصب على الذمّ. أو: الرفع على: هم ﴿الذين﴾. أو: الجرّ على وصف المذكورين عاد، وثمود، وفرعون ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ تجاوزوا الحدّ ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

---

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صحَّ إلى ذلك الأعرابي (ابن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبل، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يُقطع بعدم صحّته. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٢).

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا

١٣ ـ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه؛ إذ الصبّ يشعر بالدوام، والسوط بزيادة الإيلام. أي: عذّبوا عذاباً مؤلماً دائماً.

١٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ هو المكان الذي يُرْصَد؛ أي يترقّب فيه الرَّصَد. مفعال، من: رصده. وهذا مثلٌ؛ لإرصاده العباد، وأنّهم لا يفوتونه، وأنّه عالم بما يصدر منهم، وحافظه، فيجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

١٥ ـ ٢٠ ـ ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيّق عليه وجعله بمقدار بلغته ﴿فقدّر﴾ شاميٌّ، ويزيد ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي: الواجب لمن ربّه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمّه العاجلة. وهو قد عكس. فإنّه إذا امتحنه ربّه بالنعمة والسعة ليشكر قال: ربّي أكرمني. أي: فضّلني بما أعطاني. فيرى الإكرام في كثرة الحظّ من الدنيا. وإذا امتحنه بالفقر فقدر عليه رزقه ليصبر قال: ربّي أهانني فيرى الهوان في قلّة الحظّ من الدنيا؛ لأنّه لا تهمّه إلاّ العاجلة وما تلذّه وتُنعِّمه فيها. فردّ عليه زعمه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلّته، بل الإكرام في توفيق الطاعة، والإهانة في الخذلان. وقوله تعالى: ﴿فيقول﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾ ودخول الفاء لما في ﴿أمّا﴾ من معنى الشرط. والظرف المتوسّط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير. كأنّه قيل ﴿فأمّا الإنسان﴾ فقائل ربّي أكرمني وقت الابتلاء. وكذا ﴿فيقول﴾ الثاني خبر المبتدأ وتقديره: ﴿وأمّا﴾ هو ﴿إذا ما ابتلاه﴾ ربّه. وسمّى كلا الأمرين ـ من بسط الرزق وتقديره ـ ابتلاءً؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر. وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وإنما أنكر قوله: ﴿ربّي أكرمن﴾. مع أنّه أثبته بقوله ﴿فأكرمه﴾ لأنّه قال على قصد خلاف

بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

ما صحّحه الله عليه وأثبته وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له لاستحقاقه كقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] وإنّما أعطاه الله تعالى ابتلاءً من غير استحقاق منه.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: بل هناك شرّ من هذا القول. وهو أنّ الله يكرمهم بالغنى فلا يؤدُّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرّة، وحضّ أهله على طعام المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لمّ. وهو الجمع بين الحلال والحرام. وكانوا لا يورّثون النساء والصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾. يقال: حبّه وأحبّه بمعنى ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق ﴿ربِّيَ﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو ﴿يكرمون﴾ ﴿ولا يحضّون﴾ ﴿ويأكلون﴾ ﴿ويحبّون﴾ بصريٌّ.

٢١ ـ ٢٤ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك، وإنكارٌ لفعلهم. ثمّ أتى بالوعيد، وذكر تحسّرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إذا زلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكّاً بعد دكّ. أي: كرّر عليها الدكّ حتّى عادت هباءً منبثّاً ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ـ تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه. فإنّ واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصّه. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أمره وقضاؤه ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: ينزل ملائكة كلّ سماء، فيصطفّون صفّاً بعد صفّ، محدقين بالجنّ والإنس ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ قيل: إنّها بُرّزت لأهلها كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقيل: هو مُجرى على حقيقته. ففي الحديث: «يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها»[١] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتّعظ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ومن

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢) والترمذي (٢٥٨٧).

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

أين له منفعة الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أي: يا ليتني قدّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يتولّى عذاب الله أحد لأنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. قال صاحب الكشّاف: لا يعذّب أحدٌ أحداً كعذاب الله، ولا يوثق أحدٌ أحداً كوثاق الله ﴿لا يعذَّب﴾ ﴿ولا يوثَق﴾ عليٌّ. وهي قراءة رسول الله ﷺ. ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره. والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف، وهو الكافر. وقيل: هو أبيّ بن خلف. أي: ﴿لا يعذَّب﴾ أحدٌ مثل عذابه ﴿ولا يوثَق﴾ بالسلاسل مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعناده.

ثمّ يقول الله تعالى للمؤمن: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ إكراماً له، كما كلّم موسى عليه السلام، أو يكون على لسان ملك ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة؛ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ. وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنّة إلى الحقّ؛ التي سكّنها ثلج اليقين، فلا يخالجها شكّ. ويشهد للتفسير الأوّل قراءة أبيّ: (يا أيتُها النفس الآمنة المطمئنّة) ـ وإنّما يقال لها عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنّة: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ﴾ موعد ﴿رَبِّكِ﴾ أو ثواب ربّك ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله بما أوتيت ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله بما عملت ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم. وقال أبو عبيدة: أي: مع عبادي، وبين عبادي. أي: خواصّي؛ كما قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقيل: النفس: الروح. ومعناه: ﴿فادخلي في﴾ أجساد ﴿عبادي﴾ لقراءة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (في جسد عبدي). ولمّا مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم يُرَ على خلقته، فدخل في نعشه، فلمّا دُفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يُدْرَ من تلاها. قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خُبَيْبٍ الذي صلبه أهل مكّة. وقيل: هي عامّة للمؤمنين؛ إذ العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

سُورَةُ البَلَدِ

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾

١، ٢ ـ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وبما بعده على أنّ الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاقّ والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي: ومن المكابدة: أنّ مثلك على عظم حرمتك يستحلّ بهذا البلد. يعني: مكّة كما يستحلّ الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً، ويستحلّون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت [لرسول][1] الله وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكّة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلّى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أنّ الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. واعترض بأنّ وعده فتح مكّة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال: ﴿وأنت حلّ بهذا البلد﴾ أي: ﴿وأنت حلّ﴾ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك: أنّ الله تعالى فتح عليه مكّة وأحلّها له، وما فتحت على أحدٍ قبله، ولا أحلّت له، فأحلَّ ما شاء وحرَّم ما شاء: قتل ابن خَطَل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومِقْيَس بن صُبَابة وغيرهما. وحرَّم دار

(١) في الأصل المخطوط: من رسول.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ

أبي سفيان ونظير قوله: ﴿وأنت حلٌّ﴾ في الاستقبال قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال: أنّ السورة مكيّة بالاتّفاق. وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟!

٣ ـ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما آدم ـ عليه السلام ـ وولده. أو كلّ والدٍ وولده. أو: إبراهيم ـ عليه السلام ـ وولده ﴿وما﴾ بمعنى مَنْ أو بمعنى الذي.

٤ ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ جواب القسم ﴿فِى كَبَدٍ﴾ مشقّة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعن ذي النون: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء، مدعواً إلى الائتمار والانتهاء.

٥، ٦ ـ والضمير في ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ لبعض صناديد قريش؛ الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد. ثمّ قيل: هو أبو الأشدّ. وقيل: الوليد بن المغيرة. والمعنى: أيظنّ هذا الصنديد القويُّ في قومه، المتضعّف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه. ثمّ ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، وإنّه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً. جمع: لُبْدَة. وهو ما تلبّد. أي: كثر واجتمع. يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهليّة يسمُّونها مكارم ومعالي.

٧ ـ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً. يعني: أنّ الله تعالى كان يراه، وكان عليه رقيباً.

٨ ـ ١٠ ـ ثمّ ذكر نعمه عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المرئيّات ﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر به عمّا في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشرّ، المفضيين إلى الجنّة والنار. وقيل: الثديين.

١١ ـ ١٧ ـ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ

ذِى مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾

ذِى مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فكّ الرقاب، أو إطعام اليتامى، والمساكين، ثمّ بالإيمان الذي هو أصل كلّ طاعة، وأساس كلّ خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أنّ الإنفاق على هذا الوجه مرضيٌّ نافع عند الله، لا أن يهلك ماله لبداً في الرياء والفخار. وقلّما تستعمل «لا» مع الماضي إلاّ مكرّرة. وإنّما لم تكرّر في الكلام الأفصح؛ لأنّه لمّا فسَّر اقتحام العقبة بثلاثة أشياء صار كأنّهُ أعاد «لا» ثلاث مرات. وتقديره: فلا فكّ رقبة، ولا أطعم مسكيناً، ولا آمن. والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدّة ومشقّة. والقُحْمة: الشدّة. فجعل الصالحة عقبةً، وعملها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقّة، ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبةٌ والله شديدةٌ، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، أوعدوَّه الشيطان. والمراد: بقوله: ﴿ما العقبة﴾: ما اقتحامها؟ ومعناه: أنّك لم تدر كنه صعوبتها على النفس، وكنه ثوابها عند الله. وفكّ الرقبة: تخليصها من الرقّ، أو الإعانة في مال الكتابة ﴿فكَّ رقبةً أو أطْعَمَ﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو، وعليٌّ، على الإبدال من ﴿اقتحم العقبة﴾. وقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض. غيرهم: ﴿فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ﴾ على: اقتحامها ﴿فكُّ رقبةٍ أو إطعام﴾. والمسغبة: المجاعة. والمقربة: القرابة. والمتربة: الفقر. مفعلات من سَغِب: إذا جاع. وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي. وترِب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب، فيكون مأواه المزابل. ووصف اليوم بذي مسغبةٍ؛ كقولهم: همٌّ ناصب. أي: ذو نصب ومعنى: ﴿ثمّ كان من الذين آمنوا﴾ أي: داوم على الإيمان. وقيل: ﴿ثمّ﴾ بمعنى الواو: وقيل: إنّما جاء بـ«ثمّ» لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ إذ الإيمان هو السابق على غيره، ولا يثبت عملٌ صالحٌ إلاّ به ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، والمحن التي يبتلى بها المؤمن ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ بالتراحم فيما بينهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾

١٨ ـ ٢٠ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالقرآن، أو بدلائلنا ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أصحاب الشمال. والميمنة والمشأمة: اليمين والشمال. أو اليمن، والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهنّ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾[1] وبالهمز: أبو عمرو، وحمزة، وحفص. أي: مطبقة. من: أوصدت الباب، وآصدته: إذا أطبقته، وأغلقته.

* * *

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مُوْصَدَة﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٨/ ١٥٣).

سُورَةُ الشَّمْسِ

ترتيبها ٩١　　آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾

١ ـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها.

٢ ـ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تبعها في الضياء والنور. وذلك في النصف الأوّل من الشهر يخلف القمر الشمس في النور.

٣ ـ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ جلّى الشمس، وأظهرها للرائين. وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأنّ الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

٤ ـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يستر الشمس، وتُظْلِمُ الآفاق.

والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتّفاق. وكذا الثانية عند البعض. وعند الخليل: الثانية للعطف؛ لأنّ إدخال القسم على القسم قبل تمام الأوّل لا يجوز. ألا ترى: أنّك لو جعلت موضعها كلمة الفاء، أو ثمّ لكان المعنى على حاله. وهما حرفا عطف. فكذا الواو. ومن قال: إنّها للقسم احتجّ بأنّها لو كانت

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾

للعطف لكان عطفاً على عاملين؛ لأنّ قوله ﴿والليل﴾ ـ مثلاً ـ مجرور بواو القسم. و﴿إذا يغشى﴾ منصوب بالفعل المقدّر الذي هو أقسم. فلو جعلت الواو في ﴿والنهار إذا تجلّى﴾ للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جرّاً، و﴿إذا تجلّى﴾ معطوفاً على ﴿إذا يغشى﴾ نصباً. فصار كقولك: إنّ في الدار زيداً والحجرة عَمْراً. وأجيب: بأنّ واو القسم تنزّلت منزلة الباء والفعل حتّى لم يجز إبراز الفعل معها. فصار كأنّها العاملة نصباً وجرّاً، وصارت كعاملٍ واحدٍ له عملان. وكلُّ عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحدٍ بالاتّفاق. نحو: ضرب زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها. فكذا هنا.

٥ ـ ٨ ـ و﴿ما﴾ مصدريـة في ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: وبنائها، وطَحْوها. أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة ـ عند البعض. وليس بالوجه لقوله: ﴿فألهمها﴾ لما فيه من فساد النظم. والوجه فيه: أن تكون موصولة، وإنّما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفيّة؛ كأنّه قيل: ﴿والسماء﴾ والقادر العظيم الذي بناها ﴿ونفس﴾ والحكيم الباهر الحكمة الذي سوّاها. وإنّما نكّرت النفس؛ لأنّه أراد نفساً خاصّة من بين النفوس وهي نفس آدم؛ كأنّه قيل: وواحدة من النفوس. أو: أراد كلَّ نفس، والتنكير للتكثير كما في: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ [التكوير: ١٤] ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها، أي: أفهمها: أنّ أحدهما حسنٌ والآخر قبيحٌ.

٩ ـ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾ ـ جواب القسم. والتقدير: لقد أفلح. قال الزجّاج: صار طول الكلام عوضاً عن اللام. وقيل: الجواب محذوف، وهو الأظهر. تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم. أي: على أهل مكّة، بتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنّهم كذّبوا صالحاً. وأمّا ﴿قد أفلح﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء ـ ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ طهّرها الله، وأصلحها، وجعلها زاكيةً.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

١٠ ـ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أغواها الله. قال عكرمة: أفلحت نفس زكّاها الله. وخابت نفس أغواها الله. ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النقص، والإخفاء بالفجور. وأصل دسّى: دسّس. والياء بدل من السين المكرّرة.

١١ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بطغيانها؛ إذا الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

١٢ ـ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ حين قام لعقر الناقة ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أشقى ثمود: قُدَار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً. و﴿إذ﴾ منصوب بـ ﴿كذّبت﴾ أو بالطغوى.

١٣ ـ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على التحذير. أي: احذروا عقرها ﴿وَسُقْيَىٰهَا﴾؛ كقوله: الأسد الأسد.

١٤ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذّرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الناقة. أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً؛ كقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم الرسول، وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فسوّى الدمدمة عليهم، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

١٥ ـ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة. أي: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعةٌ من أحد؛ كما يخاف من يعاقب من الملوك؛ لأنّه فعل في مِلكه، ومُلْكه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] (فلا يخاف) مدنيٌّ، وشاميٌّ.

* * *

سُورَةُ اللَّيْلِ

ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾

---

١ ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ المغشيُّ إمّا الشمس من قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو: النهار من قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو: كلّ شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

٢ ـ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل.

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والقادر العظيم القدرة؛ الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماءٍ واحد.

٤ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إنّ عملكم لمختلف. وبيان الاختلاف فيما فصّل على أثره.

٥ ـ ٧ ـ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ حقوق ماله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ربّه فاجتنب محارمه ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالملّة الحسنى، وهي: ملّة الإسلام، أو: بالمثوبة الحسنى، وهي: الجنّة. أو: بالكلمة الحسنى وهي: لا إله إلاّ الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ فسنهيئه للخلّة اليسرى، وهي: العمل بما يرضاه ربّه.

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

٨، ١٠ ـ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ عن ربّه فلم يتّقه، أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالإسلام، أو: الجنّة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ للخلّة المؤدّية إلى النار، فتكون الطاعة أعسر شيءٍ عليه وأشدّه. أو سمّى طريقة الخير باليسرى؛ لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشرّ بالعسرى؛ لأن عاقبتها العسر. أو: أراد بهما طريقي الجنّة والنار.

١١ ـ ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك. و﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ تفعّل، من الردى، وهو: الهلاك. أو: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ في القبر، أو: في قعر جهنّم. أي: سقط.

١٢، ١٣ ـ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ إنّ علينا الإرشاد إلى الحقّ بنصب الدلائل، وبيان الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فلا يضرّنا ضلال من ضلّ، ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى. أو: إنّهما لنا، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق.

١٤، ١٨ ـ ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴾ خوّفتكم ﴿نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ تتلهب، ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلا الكافر الذي كذب الرسول وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ وسيبعد منها ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ المؤمن ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من الزكاة. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياءً، ولا سمعةً. أو يتفعّل من الزكاة. و﴿يتزكّى﴾ إن جعلته بدلاً من ﴿يؤتي﴾ فلا محلّ له؛ لأنّه داخل في حكم الصلة. والصلات لا محلّ لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يؤتي﴾ فمحله النصب. قال أبو عبيدة: ﴿الأشقى﴾ بمعنى: الشقيّ وهو الكافر. و﴿الأتقى﴾ بمعنى: التقيّ. وهو المؤمن؛ لأنّه يختصّ بالصليِّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنّه نكّر النار فأراد ناراً مخصوصةً بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجنّبها الأتقى﴾ لأن المتقي يُجنَّبُ تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

خاصّة. وقيل: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما فقيل: الأشقى، وجعل مختصّاً بالصلي، كأنَّ النار لم تخلق إلاّ له، وقيل: الأتقى وجعل مختصّاً بالنجاة، كأنّ الجنّة لم تخلق إلاّ له. وقيل: هما أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأبو جهل. وفيه بطلان زعم المرجئة؛ لأنّهم يقولون: لا يدخل النار إلاّ كافر.

١٩، ٢٠ ـ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ أي: ﴿وما لأحدٍ﴾ عند الله نعمة يجازيه بها؛ إلاّ أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربّه، فيجازى عليه ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ هو الرفيع بسلطانه، المنيع في شأنه وبرهانه. ولم يرد به العلوّ من حيث المكان. فذا آية الحدثان.

٢١ ـ ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ مَوْعِدٌ بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه. وهو كقوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

* * *

سورة الضحى

ترتيبها ٩٣ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾

١ ـ ٣ ـ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ المراد به: وقت الضحى، وهو: صدر النهار حين ترتفع الشمس. وإنّما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلّم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي فيها السحرة سجّداً. أو: النهار كلّه لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن. والمراد سكون الناس والأصوات فيه. وجواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما تركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبّك. والتوديع مبالغةٌ في الودع؛ لأنّ من ودّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي: أنّ الوحي تأخّر عن رسول الله ﷺ أيّاماً، فقال المشركون: إنّ محمداً ﷺ ودّعه ربّه، وقلاه. فنزلت[1]. وحذف الضمير من ﴿قلى﴾ كحذفه من الذاكرات في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذاكراته. ونحوه ﴿فآوى﴾ ﴿فهدى﴾ ﴿فأغنى﴾. وهو اختصار لفظيّ لظهور المحذوف.

٤ ـ ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما أعدّ الله لك في الآخرة من المقام

(١) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشاف ٤/ ٧٦٦).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾

المحمود، والحوض المورود، والخير الموعود، خير ممّا أعجبك في الدنيا. وقيل: وجه اتّصاله بما قبله: أنّه لمّا كان في ضمن نفي التوديع والقلي أنَّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنّك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، أخبره: أنّ حاله في الآخرة أعظم من ذلك؛ لتقدّمه على الأنبياء، وشهادة أمّته على الأمم، وغير ذلك.

٥ ـ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، وغير ذلك ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾. ولمّا نزلت قال ﷺ: «إذاً لا أرضى قطّ وواحدٌ من أمّتي في النار»[1]. واللام الداخلة على ﴿سوف﴾ لام الابتداء المؤكّدة لمضمون الجملة. والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. ونحوه ﴿لأقسم﴾ فيمن قرأ كذلك؛ لأنّ المعنى: لأنا أقسم، وهذا لأنّها إذا كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلاّ مع نون التوكيد. فتعيَّن أن تكون لام الابتداء، ولامه لا تدخل إلاّ على المبتدأ والخبر. فلا بدّ من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا، كذا ذكره صاحب الكشّاف. وقال صاحب الكشف: هي لام القسم، واستغني عن نون التوكيد؛ لأنّ النون إنّما تدخل ليؤذن: أنّ اللام لام القسم لا لام الابتداء. وقد علم: أنّه ليس للابتداء؛ لدخولها على ﴿سوف﴾ لأنّ لام الابتداء لا تدخل على سوف. وذكر: أنّ الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخّر.

٦ ـ ثمَّ عدّد عليه نعمه من أوّل حاله، ليقيس المترقّب من فضل الله على ما سلف منه، لئلاّ يتوقّع إلاّ الحسنى وزيادة الخير، ولا يضيق صدره، ولا يقلَّ صبره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم. والمنصوبان مفعولاه. والمعنى: ألم تكن يتيماً حين مات أبواك ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: فآواك إلى عمّك أبي طالب، وضمّك إليه، حتّى كفلك، وربّاك.

٧ ـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: غير واقفٍ على معالم النبوّة، وأحكام الشريعة،

(١) رواه الخطيب في تلخيص المتشابه. (الدر المنثور ٨/ ٥٤٢).

فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وما طريقه السمع ﴿فَهَدَىٰ﴾ فعرّفك الشرائع والقرآن. وقيل: ضلَّ في طريق الشَّام حين خرج به أبو طالب فردّه إلى القافلة. ولا يجوز أن يفهم به عدولٌ عن حقٍّ، ووقوعٌ في غيٍّ. فقد كان ﷺ من أوّل حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

٨ ـ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجة ـ رضي الله عنها ـ أو: بما أفاء عليك من الغنائم.

٩ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقّه لضعفه.

١٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجر، فأبذل قليلاً، أو: ردَّ جميلاً. وعن السدِّيِّ: المراد: طالبُ العلم إذا جاءك فلا تنهره.

١١ ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: حدّث بالنبوّة التي آتاك الله. وهي أجلّ النعم. والصحيح أنها تعمّ جميع نعم الله عليه. ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع.

* * *

سُورَةُ الشَّرْح

ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

---

١ ـ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح، فكأنّه قيل: شرحنا لك صدرك. ولذا عطف عليه ﴿وضعنا﴾ اعتباراً للمعنى. أي: فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، حتّى وسع هموم النبوّة، ودعوة الثقلين. فأزلنا عنه الضيق، والحرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملىء حكمة وعلماً.

٢ ـ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخفّفنا عنك أعباء النبوّة والقيام بأمرها. وقيل: هو زلّة لا نعرفها بعينها. وهي: ترك الأفضل مع إتيان الفاضل. والأنبياء يعاتبون بمثلها. ووضعه عنه: أن غفر له. والوزر: الحمل الثقيل.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتّى سمع نقيضه، وهو صوت الانتقاض.

٤ ـ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطب، والتشهّد، وفي غير موضع من القرآن ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وفي تسميته: رسول الله، ونبيّ الله. ومنه: ذكره في كتب الأوّلين.

وفائدة ﴿لك﴾ ما عرف في طريقة الإبهام والإيضاح؛ لأنه يفهم بقوله: ﴿ألم نشرح لك﴾ أنّ ثمّ مشروحاً، ثمّ أوضح بقوله: ﴿صدرك﴾ ما علم مبهماً، وكذلك: ﴿لك ذكرك﴾ و﴿عنك وزرك﴾.

٥، ٦ ـ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: إنَّ مع الشدّة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين ﴿يسراً﴾ بإظهاري إيّاك عليهم حتّى تغلبهم. وقيل: كان المشركون يعيّرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتّى سبق إلى وهمه: أنّهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله. فذكّره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثمّ قال: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ كأنّه قال: خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله ﴿فإنّ مع العسر﴾ الذي أنتم فيه ﴿يسراً﴾. وجيء بلفظ ﴿مع﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر زيادةً في التسلية، وتقوية القلوب. وإنّما قال ﷺ عند نزولها: «لن يغلب عسر يسرين»(١) لأنّ العسر أعيد معرّفاً فكان واحداً؛ لأنّ المعرفة إذا أعيدت معرفةً كانت الثانية عين الأولى. واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرةً كانت الثانية غير الأولى. فصار المعنى: ﴿إنّ مع العسر﴾ يسرين. قال أبو معاذ: يقال: إنّ مع الأمير غلاماً، إن مع الأمير غلاماً. فالأمير واحد ومعه غلامان. وإذا قيل: إن مع الأمير الغلام، إن مع الأمير الغلام. فالأمير واحد والغلام واحد. وإذا قيل: إنّ مع أميرٍ غلاماً، إن مع أمير غلاماً، فهما أميران وغلامان. كذا في «شرح التأويلات».

٧ ـ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الربّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿فإذا فرغت﴾ من صلاتك فاجتهد في الدعاء. واختلف: أنّه قبل السلام أو بعده. ووجه الاتّصال بما قبله: أنّه لمّا عدّد عليه نعمه السالفة، ووعده الآنفة، بعثه على الشكر

(١) رواه الحاكم (٢/ ٥٢٨).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾

والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضهاوبعضٍ ولا يُخْلي وقتاً من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنَّبها بأخرى.

٨ - ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلاّ فضله، متوكّلاً عليه.

* * *

سُورَةُ التِّين

تربيتها ٩٥ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما لأنّهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة. روي: أنّه أهدي لرسول الله ﷺ طبق من تين، فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت: إنّ فاكهة نزلت من الجنّة لقلت هذه، لأنّ فاكهة الجنّة بلا عجم، فكلوها فإنّها تقطع البواسير، وتنفع من النِّقرِس»[١] وقال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيّب الفم، ويذهب بالحفرة»[٢]. وقال: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»[٣]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو تينكم هذا وزيتونكم. وقيل: هما جبلان، بالشام ينبتانهما.

٢ ـ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أضيف الطور وهو: الجبل إلى سينين، وهي: البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب.

(١) رواه أبو نعيم في الطب (ص٨٢).
(٢) رواه الطبراني في الأوسط. (مجمع الزوائد ٢ / ١٠٠).
(٣) هو جزء من الحديث السابق.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

٣ ـ ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني: مكّة ﴿ٱلْأَمِينِ﴾، من: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وأمانته: أنّه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم، ومولد عيسى ـ عليهما السلام ـ، ومنشؤه. والطور: المكان الذي نودي منه موسى ـ عليه السلام ـ ومكّة: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد نبيّنا، ومبعثه ﷺ. أو: الأوّلان قَسَمٌ بمهبط الوحي على عيسى ـ عليه السلام ـ والثالث على موسى ـ عليه السلام ـ والرابع على محمد ﷺ.

٤ ـ وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ـ وهو جنس ـ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في أحسن تعديلٍ لشكله وصورته، وتَسْوِيَةٍ لأعضائه.

٥ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: ثمّ كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السويّة أن رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً. يعني: أقبح مَنْ قَبُحَ صورةً، وهم أصحاب النار. أو: أسفل من سفل من أهل الدركات. أو: ﴿ثمّ رددناه﴾ بعد ذلك التقويم والتحسين ﴿أسفل﴾ من سفل في حسن الصورة والشكل، حيث نكّسناه في خلقه فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيضّ شعره بعد سواده، وتشنّن جلده[1]، وكلَّ سمعه وبصره، وتغيّر كلّ شيءٍ منه، فمشيه دليف[2]، وصوته خفات، وقوّته ضعف، وشهامته خَرْفٌ.

٦ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين. والاستثناء على الأوّل متّصل، وعلى الثاني منقطع. أي: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب غير منقطع على

(١) «تشنّن»: يبس.
(٢) «دليف»: أي: متقارب الخطو.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاقّ، والقيام بالعبادة.

٧ ـ والخطاب في: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع، والبرهان الساطع بالجزاء. والمعنى: إنّ خلق الإنسان من نطفةٍ، وتقويمه بشراً سويّاً، وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثمّ تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأنّ من قدر على خلق الإنسان على هذا كلّه لم يعجز عن إعادته. فما سبب تكذيبك بالجزاء؟ أو: لرسول الله ﷺ. أي: فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟ «فما» بمعنى: مَنْ.

٨ ـ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ وعيد للكفّار، وأنّه يحكم عليهم بما هم أهله. وهو من الحكم: القضاءُ.

* * *

سُورَةُ العَلَق

ترتيبها ٩٦ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد ـ رحمه الله ـ هي: أوّل سورة نزلت. والجمهور على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل، ثمّ سورة القلم.

١، ٢ ـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ محلّ ﴿باسم ربّك﴾ النصب على الحال. أي: ﴿اقرأ﴾ مفتتحاً ﴿باسم ربّك﴾ قل: باسم الله، ثمّ اقرأ. ﴿الذي خلق﴾ لم يذكر لخلق مفعولاً لأنّ المعنى: ﴿الذي﴾ حصل منه الخلق، واستأثر به، لا خالق سواه. أو: تقديره: خلق كلَّ شيءٍ فيتناول كلّ مخلوق، لأنّه مطلق. وليس بعض المخلوقات بتقديره أولى. وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه، ولأنّ التنزيل إليه. ويجوز أن يراد ﴿الذي خلق﴾ الإنسان، إلاّ أنّه ذكر مبهماً، ثمّ مفسّراً تفخيماً لخلقه، ودلالةً على عجيب فطرته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وإنّما جمع ولم يقل: من علقة؛ لأنّ الإنسان في معنى الجمع.

٣ ـ ٥ ـ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كلّ كريم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

ينعم على عباده النعم، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه. وكأنّه ليس وراء التكرّم بإفادة الفوائد العلميّة تكرّم حيث قال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الكتابة ﴿بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فدلّ على كمال كرمه بأنّه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة. وما دوّنت العلوم، ولا قيّدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلين، ولا كتب الله المنزلة، إلاّ بالكتابة. ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلاّ أمر القلم والخطّ لكفى به.

٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر، لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة.

٧ ـ ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني، وعلمتني. ومعنى الرؤية: العلم. ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ هو المفعول الثاني.

٨ ـ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ تهديه للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات. و﴿الرجعى﴾ مصدر بمعنى: الرجوع. أي: إنّ رجوعك إلى ربّك، فيجازيك على طغيانك.

٩ ـ ١٤ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أي ﴿أرأيت﴾ أبا جهل ينهى محمداً ﷺ عن الصلاة ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: ﴿إن كان﴾ ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أرأيت إن كان الناهي مكذّباً بالحقّ، متولّياً عنه، كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويطّلع على أحواله من هداه وضلاله، فيجازيه على حسب حاله. وهذا وعيد. وقوله: ﴿الذي ينهى﴾ مع الجملة الشرطيّة مفعولا ﴿أرأيت﴾، وجواب الشرط

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

محذوف، تقديره: ﴿إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾ ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ وإنّما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني. وهذا كقولك: إن أكرمتك أتكرمني؟ و﴿أرأيت﴾ الثانية مكرّرة زائدة للتوكيد.

١٥ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام. ثمَّ قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عمّا هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنّه بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدّة. وَكِتبَتُها في المصحف بالألف على حكم الوقف. واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنّها ناصية المذكور.

١٦ ـ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية. لأنّها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازيّ. فهما لصاحبها حقيقة. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطىء.

١٧، ١٨ ـ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم. والمراد: أهل النادي. روي: أنّ أبا جهل مرّ بالنبيّ ﷺ وهو يصلّي فقال: ألم أنهك؟! فأغلظ له رسول الله ﷺ. فقال: أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت[١]. والزبانية لغةً: الشُّرَط. الواحد: زِبِنيَة. من: الزبن. وهو: الدفع. والمراد: ملائكة العذاب. وعنه ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً»[٢].

١٩ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] ﴿وَاسْجُدْ﴾ ودم على سجودك. يريد: الصلاة ﴿وَاقْتَرِب ۩﴾ وتقرّب إلى ربّك بالسجود؛ فـ«إن أقرب ما يكون العبد إلى ربّه إذا سجد»[٣]. كذا الحديث.

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٤٩).
(٢) رواه أحمد (٢ / ٣٧٠) ومسلم (٢٧٩٧).
(٣) رواه مسلم (٤٨٢).

سُورَةُ القَدْرِ

ترتيبها ٩٧ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾

١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ عظّم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه. ورفع مقدار الوقت الذي أُنزِل فيه روي: أنّه أنزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ثمّ كان ينزله جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها. والقدر: بمعنى التقدير. أو سمّيت بذلك لشرفها على سائر الليالي. وهي ليلة السابع والعشرين [من رمضان][١]. كذا روى أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ عن عاصم، عن زرّ: أنّ أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ كان يحلف على ﴿لَيْلَةِ﴾: أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وعليه الجمهور. ولعلّ الداعي إلى إخفائها: أن يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها. وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمه الأعظم، وساعة الإجابة في الجمعة، ورضاه في الطاعات، وغضبه في المعاصي. وفي الحديث: «من أدركها يقول: اللهم إنّك عفوّ تحبُّ العفو فاعف عنّي»[٢].

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

٢، ٣ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها. ثمّ بيّن له ذلك بقوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر. وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزّل الملائكة والروح، وفصل كلِّ أمرٍ حكيمٍ. وذكر في تخصيص هذه المدّة: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر. فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلةً هي خيرٌ من مدّة ذلك الغازي.

٤ ـ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ ـ جبريل ـ عليه السلام ـ أو خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلاّ تلك الليلة. أو: الرحمة ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تتنزل ﴿من﴾ أجل ﴿كلّ أمر﴾ قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وعليه وقفٌ.

٥ ـ ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ ما هي إلاّ سلامة. خبر ومبتدأ. أي: لا يقدِّر الله فيها إلاّ السلامة والخير. ويقضي في غيرها بلاءً وسلامةً. أو: ما هي إلاّ سلام لكثرة ما يسلِّمون على المؤمنين. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنةً إلا سلّموا عليه في تلك الليلة ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر. وبكسر اللام عليٌّ، وخلف. وقد حُرِمَ من السلام الذين كفروا.

* * *

سُورَةُ البَيِّنَةِ

آياتها ٨ — ترتيبها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ
مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمّد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنصارى. فأهل الرجل: أخصّ الناس به، وأهل الإسلام: من يدين به ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر. وحذف؛ لأنّ صلة ﴿الذين﴾ تدلّ عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجّة الواضحة. والمراد: محمّد ﷺ. يقول: لم يتركوا كفرهم حتّى بُعث محمّد ﷺ. فلمّا بُعِثَ أسلم بعضٌ، وثبت على الكفر بعض.

٢ ـ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: محمّد ﷺ. وهو بدل من البيّنة ﴿يَتْلُوا۟﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل.

٣ ـ ﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوباتٌ ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحقّ والعدل.

٤ ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فمنهم من أنكر

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ
دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ
ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ
عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾

نبوّته بغياً وحسداً، ومنهم من آمن. وإنّما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أوّلاً بينهم وبين المشركين؛ لأنّهم كانوا على علم به؛ لوجوده في كتبهم . فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٥ ـ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق ﴿حُنَفَآءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الملّة القيّمة.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ ونافع يهمزهما. والقرّاء على التخفيف. والنبيّ والبريّة ممّا استمرّ الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.

٨ ـ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إقامة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بثوابها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضا ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

وقوله ﴿خير البريّة﴾ يدلّ على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة لأنّ البريّة: الخلق. واشتقاقها من برأ الله الخلق. وقيل: اشتقاقها من البرى، وهو التراب. ولو كان كذلك لما قرؤوا البريئة بالهمز. كذا قاله الزجّاج.

* * *

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

ترتيبها ٩٩ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣)
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)

١ ـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: حركت زلزالها الشديد الذي ليس بعده. وقرىء بفتح الزاي. فالمكسور: مصدر، والمفتوح: اسم.

٢ ـ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها وموتاها. جمع: ثِقْل، وهو: متاع البيت. جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

٣ ـ ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياءً، فيقولون ذلك، لما يظهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنّه كان لا يؤمن بالبعث. فأمّا المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]

٤ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إذا﴾. وناصبهما ﴿تُحَدِّثُ﴾. أي: ﴿تحدّث﴾ الخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فحذف أوّل المفعولين؛ لأنّ المقصود ذكر تحديثها الأخبار،

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

لا ذكر الخلق. قيل: ينطقها الله، وتخبر بما عمل عليها من خير وشرّ. وفي الحديث: «تشهد على كُلِّ واحدٍ بما عمل على ظهرها»[١].

٥ ـ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: ﴿تحدّث أخبارها﴾ بسبب إيحاء ربّك ﴿لها﴾ أي: إليها، وأمره إيّاها بالتحديث.

٦ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين. أو: يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرّق بهم طريقا الجنّة والنار ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم.

٧ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نملة صغيرة ﴿خَيْرًا﴾ تمييز ﴿يَرَهُۥ﴾ أي: ير جزاءه.

٨ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قيل: هذا في الكفّار، والأوّل في المؤمنين. ويحكىٰ: أنّ أعرابياً أخّر ﴿خيراً يره﴾. فقيل له: قدّمت وأخّرت فقال:

خُذا بَطْنَ هَرْشَى أو قَفَاها فإنّه ... كِلا جانبَيْ هَرْشَى لهنَّ طَرِيقُ

وروي: أنّ جدّ الفرزدق أتاه ﷺ ليستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال: «حسبي حسبي»[٢]. وهي أحكم آية، وسمّيت الجامعة.

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٤) والترمذي (٣٣٥٣) والحاكم (٢/ ٥٣٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٦٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٩٦).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

ترتيبها ١٠٠ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥

١ ـ ٨ ـ ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبَح. والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون. عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنّه حكاه فقال: أحْ، أحْ. وانتصاب ﴿ضبحاً﴾ على يضبَحن ضبحاً ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ﴾ توري نار الحباحب[1]. وهي: ما ينقدح من حوافرها ﴿قَدْحًا﴾ قادحات صاكّات بحوافرها الحجارة. والقدح: الصكّ. والإيراء: إخراج النار. تقول: قدح فأورى. وقدح فأصلد[2]. وانتصب ﴿قدحاً﴾ بما انتصب به ﴿ضبحاً﴾ ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ تغير على العدوّ ﴿صُبْحًا﴾ في وقت الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى: توسّطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، أو: للعدو الذي دل عليه: ﴿والعاديات﴾. وعطف ﴿فأثرن﴾ على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه؛

(١) «الحباحب»: اسم رجل بخيل، كان لايوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا به المثل حتى قالوا: نار الحباحب؛ لما تقدحه الخيل بحوافرها.

(٢) «أصلد»: صوّت ولم يخرج ناراً.

إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴿١١﴾

لأنّ المعنى: واللاتي عدون، فأورين، فأغرن، فأثرن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ لكفور. أي: أنّه لنعمة ربّه خصوصاً لشديد الكفران ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كنوده ﴿لَشَهِيدٞ﴾. يشهد على نفسه. أو: إنّ الله على كنوده لشاهد، على سبيل الوعيد ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإنه لأجل حبّ المال لبخيلٌ ممسك. أو: وإنّه لحبّ المال لقويٌّ، وهو لحبِّ عبادة الله ضعيف.

٩ ـ ١١ ـ ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾ الإنسان ﴿إِذَا بُعۡثِرَ﴾ بعث ﴿مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ من الموتى. و﴿ما﴾ بمعنى مَنْ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ميز ما فيها من الخير والشرّ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر؟ وخصّ ﴿يومئذٍ﴾ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنّ الجزاء يقع ﴿يومئذ﴾.

* * *

سُورَةُ القَارِعَةِ

ترتيبها ١٠١ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥

١، ٢ ـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبره. والجملة خبر المبتدأ الأوّل، وكان حقه: ما هي. وإنّما كرّر تفخيماً لشأنها.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما هي؟ ومن أين علمت ذلك؟

٤ ـ ﴿يَوْمَ﴾ نصب بمضمر دلّت عليه ﴿القارعة﴾ أي: تقرع ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾. شبّههم بالفراش في الكثرة، والانتشار، والضعف، والذلّة، والتطاير إلى الداعي من كلّ جانب؛ كما يتطاير الفراش إلى النار. وسمّي فراشاً لتفرّشه، وانتشاره.

٥ ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ وشبّه الجبال بالعهن ـ وهو الصوف المصبّغ ألواناً ـ لأنّها ألوان ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧] وبالمنفوش منه لتفرّق أجزائها.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

٦ ـ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ باتّباعهم الحقّ، وهي: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. أو: جمع ميزان. وثقلها: رجحانها.

٧ ـ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضاً، أو: مرضيّة.

٨، ٩ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ باتّباعهم الباطل ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فمسكنه ومأواه النار. وقيل للمأوى: أمّ على التشبيه؛ لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه.

١٠، ١١ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ الضمير يعود إلى هاوية. والهاء للسكت. ثمّ فسرّها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ بلغت النهاية في الحرارة.

* * *

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

آياتها ٨ — ترتيبها ١٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

١ ـ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ شغلكم التباري في الكَثْرِ، والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله.

٢ ـ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتّى أدرككم الموت على تلك الحال، أو: حتّى زرتم المقابر، وعدّدتم من في المقابر من موتاكم.

٣ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنّه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همّه ولا يهتمّ بدينه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر، أو عند النزع سوء عاقبة ما أنتم عليه.

٤، ٥ ـ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف. أي: ﴿لو تعلمون﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علم الأمر اليقين. أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف، ولكنّكم ضلّال جهلة.

.لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨

٦ ـ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هو جواب قسم محذوف. والقسم لتوكيد الوعيد ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء شاميٌّ، وعليٌّ.

٧ ـ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ كرّره معطوفاً بثمّ تغليظاً في التهديد، وزيادةً في التهويل. الأوّل بالقلب، والثاني بالعين ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته.

٨ ـ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عن الأمن والصحّة فيم أفنيتموهما، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وقيل: عن التنعّم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وعن الحسن: ما سوى كنٍّ يؤويه، وثوبٍ يواريه، وكسرةٍ تقوّيه. وقد روي مرفوعاً.

* * *

سُورَةُ العَصْرِ

ترتيبها ١٠٣ — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: (والصلاة الوسطى صلاة العصر) في مصحف حفصة ـ رضي الله عنها ـ ولأنّ التكليف في أدائها أشقّ؛ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. أو: أقسم بالعشيِّ كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة. أو: أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

٢ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان لفي خسران من تجارتهم.

٣ ـ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنّهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وسعدوا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كلّه من توحيد الله، وطاعته، واتّباع كتبه، ورسله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو به الله عباده ﴿وتواصوا﴾ في الموضعين فعل ماض معطوف على ماضٍ قبله.

* * *

سُورَةُ الهُمَزَة

ترتيبها ١٠٤ — آياتها ٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أي: الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: من يعيبهم مواجهة. وبناءُ فُعَلَة يدلّ على أنّ ذلك عادةً منه. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكانت عادته الغيبة. وقيل: في أميّة بن خلف. وقيل: في الوليد. ويجوز أن يكون السبب خاصّاً، والوعيد عامّاً، ليتناول كلّ من باشر ذلك القبيح.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كلّ. أو نصب على الذم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿جمّع﴾ شاميٌّ، وحمزة، وعليٌّ مبالغةً. وهو مطابق لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جعله عُدَّةً لحوادث الدهر.

٣ ـ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت. أو: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم. فأمّا المال فما أخلد أحداً فيه.

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

٤ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسبانه. ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطّم كلّ ما يلقى فيها.

٥ ـ ٧ ـ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعجيب وتعظيم[1] ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي نار الله ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ نعتها ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ يعني: أنّها تدخل في أجوافهم حتّى تصل إلى صدورهم، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشدّ ألماً منه بأدنى أذى يمسّه. فكيف إذا اطّلعت عليه نار جهنّم، واستولت عليه؟ وقيل: خصّ الأفئدة؛ لأنّها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة. ومعنى اطّلاع النار عليها: أنّها تشتمل عليها.

٨ ـ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ أي: النار، أو الحطمة ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة.

٩ ـ ﴿فِي عَمَدٍ﴾[2] بضمتين كوفيّ غير حفص. الباقون ﴿فِي عَمَدٍ﴾ وهما لغتان في جمع: عماد، كإهاب وأهب، وحمار وحمر ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: تؤصد عليهم الأبواب، وتمدّد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق. في الحديث: «المؤمن كيّس فطن، وقّاف متثبّت، لا يعجل، عالم، ورع. والمنافق همزة، لمزة، حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب، وفيم أنفق»[3].

* * *

(١) في الأصل المخطوط: تعذيب، والمثبت من المطبوع، وهو أنسب.

(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿عُمُدٍ﴾ وهي: حمزة، والكسائي، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٢٣٥).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٦٥٤٤) وانظره في فيض القدير (٩١٥٨).

سُورَةُ الفِيل

ترتيبها ١٠٥ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿كيف﴾ في موضع نصب بـ ﴿فعل﴾ لا بـ ﴿ألم تر﴾ لما في ﴿كيف﴾ من معنى الاستفهام. والجملة سدّت مسدّ مفعولي ﴿تر﴾. وفي ﴿ألم تر﴾ تعجيب. أي: عجّب الله نبيّه من كفر العرب، وقد شاهدت هذه العظيمة من آيات الله. والمعنى: إنّك رأيت آثار صنع الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

روي: أنّ أَبرهة بن الصَّبَّاح ملك اليمن من قبل أصحَمة النجاشيّ، بنى كنيسةً بصنعاء، وسمّاها: القُلَّيس، وأراد أن يصرف إليها الحاجّ. فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً، فأغضبه ذلك. وقيل: أجّجت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح، فأحرقتها، فحلف ليهدمنّ الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه: محمود ـ وكان قويّاً عظيماً ـ واثنا عشر فيلاً غيره. فلما جاء مُغَمِّسَ خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبّأ جيشه، وقدّم الفيل، فكانوا كلّما وجّهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجّهوه إلى اليمن هرول، فأرسل الله طيراً، مع كلّ طائر حجر في منقاره، وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحِمَّصَةِ. فكان الحجر يقع على رأس الرجل،

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

فيخرج من دبره، وعلى كلّ حجر اسم من يقع عليه، ففرّوا، وهلكوا. وما مات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه. وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتّى بلغ النجاشي، فقصّ عليه القصّة، فلمّا أتمّها وقع عليه الحجر، فخرّ ميّتاً بين يديه.

وروي: أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير، فخرج إليه فيها. فعظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيّد قريش، وصاحب عير مكّة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فلمّا ذكر حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين أبائك، وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود[١] أخذ لك! فقال: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ سيمنعه.

٢ ـ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلّل كيده: إذا جعله ضالاً ضائعاً. وقيل لامرىء القيس: الملك الضلّيل؛ لأنّه ضلّل ملك أبيه. أي: ضيّعه. يعني: أنّهم كادوا البيت أوّلاً ببناء القليس، ليصرفوا وجوه الحاجّ إليه فَضُلِّلَ كيدهم بإيقاع الحريق فيه. وكادوه ثانياً بإرادة هدمه، فضلّل [كيدهم][٢] بإرسال الطير عليهم.

٣ ـ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ حزائق[٣]، الواحدة: إبّالة. قال الزجّاج جماعات من ها هنا، وجماعات من ها هنا.

٤ ـ ﴿تَرْمِيهِم﴾ وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿يرميهم﴾ أي: الله، أو: الطير؛ لأنّه اسم جمع مذكّر. وإنّما يؤنّث على المعنى ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ هو معرّب من: «سَنْك كِلُ» وعليه الجمهور، أي: الآجر.

٥ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ زرع أكله الدود.

(١) «الذَّوْد»: جماعة الإبل بين الثلاث والعشر.
(٢) ليست في الأصل المخطوط.
(٣) أي: جماعات، وحزائق: جمع حَزِيقة.

سورة قريش

آياتها ٤ — ترتيبها ١٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾

١ - ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلّق بقوله ﴿فليعبدوا﴾. أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط. أي: إنّ نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. أو بما قبله أي: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ﴿لإيلاف قريش﴾ يعني: أنّ ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف. وهذا كالتضمين في الشعر، وهو: أن: يتعلّق معنى البيت بالذي قبله تعلّقا لا يصحّ إلاّ به. وهما في مصحف أبيٍّ سورةٌ واحدة بلا فصل. ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما. والمعنى: أنّه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فضل احترام؛ حتّى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، فلا يجترىء أحد عليهم. وقيل المعنى: اعجبوا ﴿لإيلاف قريش﴾. (لإلاف قريش) شاميٌّ، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال: ألفته، إلفا، وإلافا. وقريش: ولد النضر بن كنانة. سمّوه بتصغير القِرْش. وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فلا تطاق إلا بالنار. والتصغير للتعظيم. فسمّوا بذلك لشدّتهم، ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل:

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾

من القَرْش، وهو الكسب؛ لأنّهم كانوا كسّابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

٢ ـ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ أطلق الإيلاف، ثمّ أبدل عنه المقيّد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه. ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به. وأراد رحلتي الشتاء والصيف. فأفرد لأمن الإلباس.

وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون، ويتّجرون. وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنّهم أهل حرم الله، فلا يُتَعرّضُ لهم، وغيرهم يُغَارُ عليهم.

٣، ٤ ـ ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ والتنكير في ﴿جوع﴾ و﴿خوف﴾ لشدّتهما. يعني: ﴿أطعمهم﴾ بالرحلتين ﴿من جوع﴾ شديد كانوا فيه قبلهما ﴿وآمنهم من خوف﴾ عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو: حوف التخطّف من بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابتهم شدّة حتّى أكلوا الجيف، والعظام المُحْرَقَةَ ﴿وآمنهم من﴾ خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل: ذلك كلّه بدعاء إبراهيم عليه السلام.

* * *

سُورَةُ المَاعُون

آياتها ٧ — ترتيبها ١٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

١، ٧ - ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: هل ﴿رأيت الذي يكذّب﴾ بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي يكذّب بالجزاء هو ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى، ويردّه ردّاً قبيحاً بزجر وخشونة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يبعث أهله ﴿على﴾ بذل ﴿طعام المسكين﴾. جعل علم التكذيب بالجزاء، منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضعيف. أي: لو آمن بالجزاء، وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه، ولم يقدم على ذلك. فحين أقدم عليه دلّ أنّه مكذّب بالجزاء. ثمّ وصل به قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ يعني بهذا: المنافقين. أي: لا يصلّونها سرّاً؛ لأنّهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلّونها علانيةً رياءً. وقيل: ﴿فويل﴾ للمنافقين ﴿الذين﴾ يدخلون أنفسهم في جملة المصلّين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم، وأنّهم لا يريدون بها قربة إلى ربّهم، ولا تأدية لفرض. فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا

. . . .

يفعلون، ويظهرون للناس أنّهم يؤدّون الفرائض، ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة.

وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل: في صلاتهم؛ لأنّ معنى «عن»: أنّهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلّة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين. ومعنى «في»: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس. وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره.

والمراءاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله، وهم يُرونَه الثناء عليه والإعجاب به. ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض. فمن حقّها الإعلان بها، لقوله ﷺ: «ولا غُمَّةَ في فرائض الله»[1]. والإخفاء في التطوّع أولى. فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. والماعون: الزكاة. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما يَتَعاوَرُ في العادة بين الناس من القدر، والدلو، والمِقْدَحة، ونحوها. وعن عائشة رضي الله عنها: الماء، والنار، والملح.

* * *

(١) قال في: الكشاف (٤/٨٠٥): لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين.

سُورَةُ الكَوْثَر

ترتيبها ١٠٨ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو فوعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنّة أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزُّبْدِ. حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الخير الكثير. فقيل له: فإنّ ناساً يقولون: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير.

٢ ـ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فاعبد ربّك، الذي عزّك بإعطائه، وشرّفك، وصانك من منن الخلق، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿وَٱنْحَرْ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها.

٣ ـ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إنّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كلّ خير لا أنت؛ لأنّ كلّ من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك. وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كلّ عالم وذاكر إلى آخر الدهر. يبدأ بذكر الله، ويُثنّى بذكرك. ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، إنّما الأبتر هو شانئك المنسيّ في الدنيا والآخرة. قيل: نزلت في العاص بن وائل. سمّاه: الأبتر. والأبتر: الذي لا عقب له. وهو خبر إنّ. و﴿هو﴾ فصل.

* * *

سُورَةُ الكَافِرُون

آياتها ٦ — ترتيبها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾

١ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المخاطبون كفرة مخصوصون، علم الله أنهم لا يؤمنون.

روي: أنّ رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً، ونعبد إلهك سنة. فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك. فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم، فأيسوا[1].

٢، ٣ ـ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لست في حالي هذه عابداً ما تعبدون ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ الساعة ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ يعني: الله.

٤، ٥ ـ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ولا أعبد فيما أستقبل ما عبدتم ﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ فيما تستقبلون ﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾. وذكر بلفظ ﴿ما﴾ لأنّ المراد به: الصفة. أي: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحقّ. أو: ذكر بلفظ ﴿ما﴾ ليتقابل

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/٨٠٨).

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦

اللفظان. ولم يصحّ في الأوّل «مَنْ» وصحّ في الثاني ﴿ما﴾ بمعنى الذي.

٦ - ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] لكم شرككم ولي توحيدي. وبفتح الياء نافع وحفص.

روي: أنّ ابن مسعود - رضي الله عنه - دخل المسجد والنبي ﷺ جالس، فقال له: «نابذ يا بن مسعود» فقرأ: ﴿قل يا أيهاالكافرون﴾. ثمّ قال له في الركعة الثانية: «أخلص». فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾. فلمّا سلّم قال: «يا بن مسعود سل تجب».

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿ولِيْ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٢٥٧).

سُورَةُ النَّصرِ

آياتها ٣ — ترتيبها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١ ـ ﴿إِذَا﴾ منصوب بسبّح، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة وروي: أنها نزلت في أيّام التشريق بِمِنىً في حجّة الوداع ﴿جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ النصر: الإعانة والإظهار على العدوّ. والفتح: فتح البلاد. والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب، أو: على قريش وفتح مكّة، أو: جنس نصر الله للمؤمنين، وفتح بلاد الشرك عليهم.

٢ ـ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ هو حال من الناس على أنّ ﴿رأيت﴾ بمعنى: أبصرت، أو عرفت، أو مفعول ثانٍ على أنّه بمعنى علمت ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ هو حال من فاعل ﴿يدخلون﴾. وجواب إذا ﴿فسبح﴾. أي: ﴿إذا جاء نصر الله﴾ إيّاك على من ناوأك، وفتح البلاد، ورأيت أهل اليمن يدخلون في ملّة الإسلام جماعاتٍ كثيرة بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين.

٣ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله حامداً له، أو: فصلّ له

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دم على الاستغفار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ ولم يزل ﴿تَوَّابَۢا﴾.

ويروى: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا سمعها بكى، وقال: الكمال دليل الزوال، وعاش رسول الله ﷺ سنتين بعدها.

* * *

سُورَةُ المَسَد

ترتيبها ١١١ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

١ ـ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ التباب: الهلاك. ومنه قولهم: أشابّة أم تابّة؟ أي: هالكة من الهرم. والمعنى: هلكت يداه، لأنّه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ وهلك كلّه. أو جعلت يداه هالكتين، والمراد هلاك جملته كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ومعنى ﴿وتبّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقوله:

جَـزَانِي جَـزَاهُ اللهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ ... جَزَاءَ الكلابِ العاوياتِ، وَقَدْ فَعَلْ

وقد دلَّ عليه قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (وقد تبّ). روي: أنّه لمّا نزل ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ رقي الصفا، وقال: يا صباحاه، فاستجمع إليه الناس من كلّ أوب، فقال ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تبّاً لك. ألهذا دعوتنا؟ فنزلت[1]. وإنّما كناه

(١) رواه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

والتكنية تكرمة لاشتهاره بها دون الاسم، ولكراهة اسمه، فاسمه عبد العزى، ولأنّ مآله إلى نارٍ لهبٍ، فوافقت حاله كنيته. ﴿أبي لهب﴾ مكّيٌّ.

٢ ـ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ﴿ما﴾ للنفي ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوع. وما موصولة، أو مصدريّة. أي: ومكسوبه أو وكسبه. أي: لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه. أو: ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ما كسب﴾، ولده. وروي: أنّه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقّاً؛ فأنا أفتدي منه نفسي بمالي، وولدي.

٣ ـ ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ سيدخل ﴿سَيُصْلَى﴾ البرجميُّ عن أبي بكر. والسين للوعيد. أو: كائن لا محالة؛ وإن تراخى وقته ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ توقّد.

٤ ـ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ هي: أمّ جميل، بنت حرب، أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانت تحمل حزمةً من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس. ونصب عاصم ﴿حمّالة الحطب﴾ على الشتم. وأنا أحبُّ هذه القراءة. وقد توسّل إلى رسول الله ﷺ بجميلٍ من أحبّ شتم أمّ جميل. وعلى هذا يسوغ الوقف على ﴿امرأته﴾ لأنّها عطفت على الضمير في ﴿سيصلى﴾ أي: سيدخل هو وامرأته. والتقدير: أعنى ﴿حمّالةَ الحطب﴾. وغيره رفع ﴿حمالةُ الحطب﴾ على أنها خبر ﴿وامرأتُه﴾. أو: هي ﴿حمالةُ﴾.

٥ ـ ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ حال، أو خبر آخر. والمسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليفٍ كان، أو جلد، أو غيرهما. والمعنى: ﴿في جيدها حبل﴾ ممّا مسد من الحبال، وأنّها تحمل تلك الحزمة من الشوك، وتربطها في جيدها؛ كما يفعل الحطّابون، تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطّابات؛ لتجزعِ من ذلك، ويجزع بعلها، وهما في بيت العزّ والشرف، وفي منصب الثروة والجِدةِ.

* * *

سُورَةُ الإخلاص

آياتها ٤ — ترتيبها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

١ ـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿هو﴾ ضمير الشأن. و﴿الله أحد﴾ هو الشأن؛ كقولك: هو زيد منطلق. كأنّه قيل: الشأن هذا، وهو: أنّ الله واحدٌ لا ثاني له. ومحلُّ ﴿هو﴾: الرفع على الابتداء. والخبر هو الجملة، ولا يحتاج إلى الراجع؛ لأنه في حكم المفرد في قولك: زيد غلامك؛ في أنّه هو المبتدأ في المعنى. وذلك: أنّ قوله: ﴿الله أحد﴾ هو الشأن الذي ﴿هو﴾ عبارة عنه. وليس كذلك: زيد أبوه منطلقٌ، فإنّ زيد والجملة يدلاّن على معنيين مختلفين، فلا بدّ ممّا يصل بينهما.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربّك الذي تدعونا إليه. فنزلت. يعني: الذي سألتموني وصفه ﴿هو الله﴾. وعلى هذا ﴿أحد﴾: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو ﴿أحد﴾. وهو بمعنى: واحد، وأصله وَحَدٌ، فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً. والدليل على أنّه واحد من جهة العقل: أنّ الواحد إمّا أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون. فإن

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾

كان كافياً؛ كان الآخر ضائعاً، غير محتاج إليه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً. وإن لم يكن كافياً فهو ناقص، ولأنّ العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، والفاعل الواحد كافٍ، وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد، فيفضي ذلك إلى وجود أعدادٍ لا نهاية لها، وذا محال. فالقول بوجود إلهين محال، ولأنّ أحدهما إمّا أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر، أو لا يقدر. فإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً. ولأنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود، فإن لم يقدر واحدٌ منهما على إيجاده كان كلُّ واحدٍ منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً. وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً. وإن قدرا جميعاً فإمّا أن يوجدا بالتعاون، فيكون كلّ واحدٍ منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر، فيكون كلُّ واحدٍ منهما عاجزاً. وإن قدر كلُّ واحدٍ منهما على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإمّا أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال. وإن لم يبق فحينئذٍ يكون الأوّل مزيلاً قدرة الثاني، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرّفه، فلا يكون إلهاً. فإن قلت: الواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته، فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً. قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً. وأمّا الشريك فما نفذت قدرته، بل زالت قدرته بسبب قدرة الغير فكان ذلك تعجيزاً.

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ هو فَعَلٌ بمعنى مفعول من: صمد إليه: إذا قصده. وهو السيّد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: ﴿هو الله﴾ الذي تعرفونه، وتقرّون بأنّه خالق السموات والأرض، وخالقكم، وهو واحدٌ لا شريك له، وهو الذي يصمُد إليه كلّ مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو: الغنيُّ عنهم.

٣ ـ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنّه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كلّ مولود محدث وجسم. وهو قديم لا أوّل لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الواسطة بينهما. ولو

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

كان حادثاً لافتقر إلى محدث. وكذا الثاني، الثالث. فيؤدّي إلى التسلسل، وهو باطل. وليس بجسم لأنّه اسم للمتركّب. ولا يخلو حينئذٍ من أن يتّصف كلّ جزء منه بصفات الكمال فيكون كلُّ جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بإلهين. أو غير متّصف بها بل بأضدادها من سمات الحدَثِ، وهو محال.

٤ - ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولم يكافئه أحد. أي: لم يماثله.

سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى. فقوله: ﴿هو الله﴾ إشارة إلى أنّه خالِق الأشياء وفاطرها. وفي طيّ ذلك وصفه بأنّه قادر عالم؛ لأنّ الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتّساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنّه حيٌّ؛ لأنّ المتّصف بالقدرة والعلم لابدّ وأن يكون حيّاً. وفي ذلك وصفه بأنّه سميعٌ، بصيرٌ، مريدٌ، متكلّمٌ، إلى غير ذلك من صفات الكمال، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها، وهو نقائص، وذا من أمارات الحدث، فيستحيل اتّصاف القديم بها. وقوله: ﴿أحد﴾ وصفٌ بالوحدانيّة، ونفي الشريك، وبأنّه المتفرّد بإيجاد المعدومات، والمتوحّد بعلم الخفيّات. وقوله: ﴿الصمد﴾ وصف بأنّه ليس إلاّ محتاجاً إليه. وإذا لم يكن إلاّ محتاجاً إليه فهو غنيٌّ لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كلّ أحد. وقوله: ﴿لم يلد﴾ نفيٌ للشبه والمجانسة. وقوله: ﴿لم يولد﴾ نفيٌ للحدوث، ووصفٌ بالقدم، والأوّلية. وقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ نفيٌ أن يماثله شيءٌ. ومن زعم أنّ نفي الكفء - وهو المثل - في الماضي لا يدلّ على نفيه للحال، والكفّار يدّعونه في الحال؛ فقد تاه في غيّه؛ لأنّه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورةً؛ إذ الحادث لا يكون كفؤاً للقديم. وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك، والتشبيه، والتعطيل. والسورة تدفع الكلّ كما قرّرنا.

واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقرّاً؛ أي: خبراً؛ لأنّه لمّا كان محتاجاً إليه قُدِّم ليعلم من أوّل الأمر أنّه خبرٌ لا فضلةٌ؛ وتأخيره إذا كان لغواً؛ أي: فضلةً؛ لأنّ التأخير مستحقّ للفضلات. وإنّما قدّم في الكلام الأفصح؛

. . . .

لأنّ الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الباريء، وهذا المعنى مصبُّه ومركزه هذا الظرف، فكان الأهمّ تقديمه.

وكان أبو عمرو يستحبُّ الوقف على ﴿أحد﴾ ولا يستحبّ الوصل. قال عبد الوارث: على هذا أدركنا القرّاء. وإذا وصل نوّن، وكسر، أو حذف التنوين كقراءة ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿كفؤاً﴾ بسكون الفاء والهمزة: حمزة وخلف ﴿كُفُواً﴾ مثقّلة غير مهموزة، حفص. الباقون: مثقّلة مهموزة. وفي الحديث: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»(١) لأنّ القرآن يشتمل على توحيد الله، وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ. وهذه السورة تجرّدت للتوحيد والصفات، فقد تضمّنت ثلث القرآن. وفيه دليل شرف علم التوحيد. وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم، ويتضع بضعته؟! ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته. وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنّك بشرف منزلته وجلالة محلّه؟! اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك والعاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المُكَرَّمين بلقائك. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال: «قد وجبت» فقيل: يا رسول الله ما وجبت؟! قال: «وجبت له الجنّة»(٢).

* * *

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١١٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٧).

سورة الفلق

آياتها ٥ ترتيبها ١١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي: الصبح، أو الخلق، أو: هو وادٍ في جهنّم، أو: جبّ فيها.

٢ ـ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: النار، أو الشيطان. و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف. أو: مصدريّة، ويكون الخلق بمعنى المخلوق. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين. و﴿ما﴾ على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجرّ بدل من ﴿شرٍّ﴾ أي: من شرّ خلقه. أي: من خلق شرٍّ. أو: زائدة.

٣ ـ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق: الليل إذا كثف ظلامه. ووقوبه: دخول ظلامه في كلّ شيء. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوّذي بالله من شرّ هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»[1]. ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده.

(١) رواه الترمذي (٣٣٦٦).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

٤ ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ النفاثات: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، ويرقين. والنفث: النفخ مع ريق. وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقّق السحر، وظهور أثره.

٥ ـ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه؛ لأنّه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسف على الخير عند الغير.

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأنّ شرَّ هؤلاء أشدّ. وختم بالحسد ليعلم أنّه شرُّها. وهو أوّل ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل. وإنّما عرّف بعض المستعاذ منه ونكّر بعضه؛ لأنّ كلّ نفّاثة شريرة؛ فلذا عرفت النفاثات؛ ونكّر غاسق؛ لأنّ كلّ غاسق لا يكون فيه الشرّ. إنّما يكون في بعضٍ دون بعض. وكذلك كلّ حاسد لا يضر. وربّ حسدٍ يكون محموداً كالحسد في الخيرات.

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

ترتيبها ١١٤ — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: مربّيهم ومصلحهم.

٢ ـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم.

٣ ـ ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ معبودهم. ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرّة واحدة؛ لأنّ قوله: ﴿ملك الناس * إله الناس﴾ عطف بيان ﴿لربّ الناس﴾. لأنّه يقال لغيره: رب الناس، وملك الناس، وأما ﴿إله الناس﴾ فخاصٌّ لا شركة فيه. وعطف البيان للبيان، فكان مظنّة للإظهار دون الإضمار. وإنّما أضيف الربّ إلى الناس خاصة، وإن كان ربّ كلّ مخلوق، تشريفاً لهم، ولأنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس. فكأنّه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس بربّهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم. وقيل: المراد بالناس الأوّل: الأطفال، ومعنى الربوبيّة يدلّ عليه، وبالثاني: الشباب، ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدلّ عليه، وبالثالث: الشيوخ، ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه، وبالرابع: الصالحين، إذ الشيطان مولع بإغوائهم،

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

وبالخامس: المفسدين؛ لعطفه على المعوذ منه.

٤ ـ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى: الزلزلة. وأمّا المصدر: فوسواس ـ بالكسر ـ كالزلزال. والمراد به: الشيطان. سمّي بالمصدر: كأنّه وسوسة في نفسه لأنّها شغله الذي هو عاكف عليه. أو أريد ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفيُّ ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنِس. منسوب إلى الخنوس وهو: التأخّر، كالعوّاج، والبتات. لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربّه خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

٥ ـ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ في محلّ الجرّ على الصفة. أو: الرفع، أو: النصب على الشتم. وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على ﴿الخنّاس﴾.

٦ ـ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، على أنّ الشيطان ضربان: جنّيٌّ، وإنسيٌّ، كما قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شيطان الإنس؟

روي: أنّه ﷺ سحر فمرض. فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه: ما باله؟ فقال: طُبّ. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ. قال: وبم طبّه؟ قال: بمشطٍ ومشُاطةٍ في جُفِّ طلعةٍ، تحت راعوفة في بئر ذي أروان. فانتبه ﷺ، فبعث زبيراً، وعليّاً وعمّاراً ـ رضي الله عنهم ـ فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجفّ فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقّد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فنزلت هاتان السورتان، فكلّما قرأ جبريل آية انحلّت عقدة، حتّى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة، كأنّما نشط من عقال. وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كلّ داء

. . . .

يؤذيك[1] ولهذا جوّزوا الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ، لا بما كان بالسريانيّة، والعبرانية، والهنديّة، فإنّه لا يحلُّ اعتقاده والاعتماد عليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شرّ ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ونبيّه وصفيّه أرسله ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه الملجأ والمآب.

* * * *
* * *
* *
*

(١) رواه البخاري (٥٧٦٦) ومسلم (٢١٨٩).

الفهارس العلمية

بداية الحديث | الجزء والصفحة

حرف همزة الوصل

حرف همزة القطع

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف «لا»

حرف الياء

فهرس الآيات

(٣٤) سبأ

(٣٥) فاطر

(٤٤) الدخان

(٤٥) الجاثية

(٤٦) الأحقاف

(٥٨) المجادلة

(٥٩) الحشر

(٦٠) الممتحنة

(٦١) الصف

(٦٢) الجمعة

(٦٣) المنافقون

(٦٤) التغابن

(٦٨) القلم

(٦٩) القلم

(٧٠) المعارج

(٧١) نوح

(٧٢) الجن

(٧٣) المزمل

(٧٤) المدثر